

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

1938

Volume 1

PROVENANCE DE LA COLLECTION


الروايات



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٥ — ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — أول فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

رجل للبحر

للكاتب القصصي هـ. أ. مانهود
بقلم احمد حسن الزيات

عثرت فجأة على الجوسق (١) كما يعثر متصفح الكتاب على صورة ما كان يتوقعها. وكان هذا المنزل الصغير قائماً فى صدر الخليج كأنه جوهرة غليظة الصقل ركبت على هلال مشبك. فإذا أردت أن تصل إليه سرت على الرملة أو اتخذت طريقاً ضيقة تسلسل على حفافيها غلان من وحشى النبات، تنشعب قبل أن تبلغه إلى شعبتين تسيران مع الحوائط المتداعية للحديقة، ثم تجتمعان من وراء فتصيران مواطئ أقدام تتنقل حتى تدخل المنزل، فلا يسعك وأنت ترى هذا الطريق المطموس إلا أن تظن أن الذين مروا بهذا المنزل — على ندرتهم — لم يحسوا الرغبة أو لم يجدوا الجرأة ليقتحموا بابه

كان على سطحه ثلاث مداخن شواهق شقت السقف فبدا بها كأنه الكرسي المقلوب، انفتل على جنباتها خيوط دقيقة من الدخان، وعلق بهاماتها سيقان طويلة من القش، يحركها مر النسيم فترقص على إيقاع متخيل. وكان ذلك السطح المصفح بالأردواز قد اصطبغ بصبغة الذهب الكابى فشابه لونه لون التفاح على أشجاره العارشة فوق الحائط الخلق. وفى الحديقة اعتصم بالجدران الواطئة المنهارة أدغال شواجن من عنب الكشمش (١)؛ وعلى صدع من صدوعها قامت شجرة وحيدة من شقائق النعمان كانت تركع وتقوم فى صلاة متتابعة ضائعة تحت عصف الريح المحملة بذرات الرمل.

(١) الجوسق هو البيت الريفى المنفرد

(١) هو العنب البناتى

لا يستطيع واصف هـذا الجوسق أن يقول إنه ينظر إلى البحر ؛ إنما كان يلاحظه عن عُرض ملاحظة الحامي يعتقد أنه فى أمن من ارتفاع المد مهما طغى . وكان على العشب الذابل الحائل زورق أخرج من الماء فنسجت العناكب على جوانحه غزلها الواهن الهش ، وقد نُقش على جانبيه بحروف لا تكاد تُقرأ :

(ميكائيل سوان — بورت آن)

وعلى مقربة منه شِباك صيد قد نُشرت على أربعة أوتاد فى الرمل على شكل المدرج ، تدور بينها فَراشتان أمام الذباب الذاهل الناقى ، وألفافٌ من النبات تزدهر تحت النافذة وتنظر خُلسة إلى البحر ، وكومة من الأوراق الصفر قد ارتفعت إلى عماد الحائط ، ومجداف غاص منحرفا فى الرمل متجها إلى الجوسق ، وقد كُتب على صفحته بالحديد المحمى كلمة The كأنها الرمز المهدِّد

دفعت باب الحاجز فتنبه الحارس ، وهو قط أصحر اللون قد رقد مستديراً فى مَصْيدة عتيقة من مصايد السرطان البحري ، ثم نظر إلىّ لحظة وعاد إلى نومه من غير أن يتحرك . وكنت قد جاوزت الفناء المبلط بالحجر الغليظ ، ورأيت المطبخ تسطع منه روائح الوقود من اليوكالبتوس والصنوبر وقد دخله ضوء الشمس من بعض الفُرُجات فتدوّر فوق أرضه كالدنانير ، والموقدَ تندلع فى بهرته ألسنة اللهب الأزرق ، والمائدةَ ينبسط عليها خِوان ممزق ، وامرأةً دقيقة العظام صغيرة الجثة قد حسرت عن ذراعيها وأخذت تكوى بعض الثياب على هذه المائدة فى نشاط وهمة ؛ وكان شعرها القليل قد ردّته بعناية إلى قذالها فانعقص خفيفاً على قفاها ، ثم فرَقَه على الجبين خط كأنه الطريق فى أرض مغبرّة بور . وكانت شفتاها مضمومتين مزمومتين فتحسبها تجرعت دواء مراً بقى مذاقه فى فمها . فلما قرعت عليها الباب فزعت ، فشرحت لها سبب زيارتى إياها ، فقالت تعيد ما قلت فى سذاجة :

— تريد لبنا ؟ ثم وضعت مكواتها على وعاء وذهبت إلى خزانة الطعام فكشفت عن إحدى الجرار وقالت: نعم أستطيع أن أعطيك لبناً .. وبيضاً أيضاً. تفضل فادخل هنا واقعد قليلاً . ثم تقدمتنى إلى حجرة فتحت بابها وقالت : أعتـذر إليك من سوء النظام فإن المنزل صغير . وأسرعت إلى الثياب المطوية الموضوعة على الكرسى فرفعتها ، وإلى نسخة ضخمة من التوراة كانت تشغل مقعداً من الشَّعر فنقلتها ؛ ثم نفضت الغبار بذيل مِيدَعتها ، وأصلحت ما تهوش من الغطاء المطرز على مسند الكرسى ثم ولت وهى تقول : لن أغيب عنك طويلا . دقيقة واحدة

* * *

كان لابد أن تعرونى هزة من البرد فى هـذه الحجرة . كان أمامي صليب من البلور معلق على الحائط، ونوع من الأراغين جاثم فى الزاوية . فوقع فى نفسى أن أعزف على هذا الأرغن الصغير معتقداً أننى متى أمررت أناملى على مضربه غنى مِنى هذا الكاهن[1] المجهول الذى يحرس الباب، وذلك (اللورد نلسون)، وهذا (الطفل المبذر) ، وسائر هؤلاء الذين يحدقون النظر فىّ وهم محصورون فى أُطُرِهم الغُبْر فتملأ نظراتهم نفسى روعة ورهبة . لقد عددت — زيادة على عين نلسون الواحدة — ثلاثين زوجاً من العيون، فكنت على وشك أن أعلن لهذا القاضى أننى غير مذنب . وكان فى الحجرة غير ذلك تذكارات وكتب تكفى لإقامة سوق : أضغاث من السرخس الجاف ، وزجاجة من ماء الأردن ، وأهرام من فواكه الشمع قد غشّاها الغبار ، وأوانٍ وشماعدُ قد قامت على جدار

(١) كأنها صور معلقة على الحائط

الحجرة كما يقوم السائلون فى زوايا الطرق . وكان الورق الملون الذى يكسو الحوائط قد حال لونه فانكفأ ، وذهب لِصاقه فتهدل ، وموقد المدفأة يعطر من حين إلى حين رذاذاً من السناج على طاقة ضخمة من الزهر المصنوع من الورق الأبيض . وعلى مسند النافذة كان هناك شئ واحد يسترعى النظرَ جماله : نموذج مصغر لسفينة من سفائن القرن الخامس عشر صُنع من خشب الزان ، وصُبغ بلون الدخان ، ونصب عليه شراع مقبَّب كأنما ملأته الريح . وعلى جوانب السفينة أصص كبيرة فيها صبَّار تدلت أوراقه على شكل السكاكين ؛ ومن وراء السفينة تبصر من النافذة المفتوحة ثبج البحر الأدهم وقد انبسط وامتد حتى التقى بالأفق ؛ وعلى غواربه المواجة يجرى زورق صغير كأنه الورقة الذاوية

كان يصدر عن المطبخ أصوات مختلفة كرنين الأكواب واصطدام الصينية وسقوط الملعقة . ثم دخلت العجوز الصغيرة فجأة فنشرت خواناً أبيض غير مصقول ، ورفعت عن المائدة المزعزعة ما يغطيها من الأشياء ؛ ثم مدت الخوان فوقها بعناية الورِع الذى يزين بالوشى صدر الهيكل . ولما حدثتها عن الوضع الذى تسقط عليه أطراف الخوان حدقت ببصرها إلى فجأة وقالت مغمغمة وهى تفكر :

نعم ياسيدى : أجنحة من طير النوْرس كما قلت ؛ زوج فى كل زاوية

ثم صمتت لحظة ، وظهرت فى عينيها الوداعة والحنان كأنها كانت تجتلى رؤيا داخلية . ثم عادت تقول :

إن ولدى كان يقول مثل هذه الأشياء : كان يقول إن نسائج العنكبوت هى أشباح العجلات المحطمة والتروس المهشمة ...

ثم وضعت على الخوان كوباً وأناملها ترتجف .

فقلت لها : صورة جميلة ! لقد كنت أود لو عرفت ولدك ، فإن القليل من الناس هم الذين يسيرون فى الحياة وعيونهم مفتوحة . فاختلجت يداها وتقلصت أناملها فندمت على أن تكلمت . قالت : إن ولدى مدفون هناك على الرابية . وكأنها كانت لا تزال تسمع جَرْس الكلمات الذى خفَت فبدا عليها أثر الشك . وصوبت طرفها إلى ركن من أركان الحجرة وقالت : أنا وحدى التى أعرف أنه مدفون هناك .

ثم تألفت على الرغم منها الحروف ، ونطقت على غير إرادتها الكلمات ، فقالت :

«أنا أعلم أنك غريب، ولكن لا بأس. إن سرى يثقل أحياناً على صدرى ، فإلى من أستريح بمكنونه وأسترفه من عبئه ؟ ليس لي إلا ميكائيل زوجى ، وهو لا ينبغي أن يعرفه مطلقا . إن ذلك يقطع نياط قلبه البائس ! واستمرت شفتاها تنفرجان وتختلجان ولكننى لم أسمع شيئاً. ثم دلفت إلى النافذة وتناولت السفينة بيدها فى حيطة ورفق، وافتر ثغرها عن ابتسامة شاحبة أضاءت على شفتيها كما تضيء الشمعة الضئيلة في ركن الحجرة الواسعة المظلمة ، ووضعت أمامى نموذج السفينة ثم تطرحت متهالكة على مقعد كأنما أنصبت نفسها فى عمل لا تطيقه ، وقالت بصوت خافت متهافت : ذلك من صنع ولدى ! لقد كان ماهر اليد ثاقب الذهن خصب الخيال ، يتصور الأشياء العجيبة، ويروى الحوادث الغريبة ، وذلك مما وقع له فى السفر أو سمع به فى البلاد . لقد كان يخيل إلى أنى أقرأ التوراة وأنا أسمعه . لماذا أخذه الموت ؟ لقد كان الله حريا أن يعلم ... ! ولكن لا ينبغى أن أشكو هذه الشكوى ، ولا أن أجزع هذا الجزع . إن ولدى جون كان لا يبرح يقول :

إن الوفاة خير من الميلاد . لقد كان يعرف ...

وكانت تمسح بيدها على جدار السفينة فى حال من الذهول خدَّرت أعصابها ، وأنامت أوصابها ، فعاد صوتها خافتاً كحديث النفس ، وكلامها عذباً كرنين الموسيق ، فكانت كلماتها أشبه بالورود تنثر على قبر !

« لقد كان من الطبيعى أن يصير ولدى بحاراً ، فان ملح البحر كان يلهب دمه . كان وهو صغير يتحدث عن الأمواج كما يتحدث عن أخواته . وكان يسمى كل موجة اسماً : فهذه (الكرنبة الجعدة) وتلك (الكلابة) وهاتيك (الكسولة) . ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى كان يعرف كل بحار العالم . لقد كان مساعد الربان فى سفينته . وكان كلما عاد من سفرة لاحظت فرقاً واضحاً فى رجولته وكفايته واستعداده ، فأقول لنفسى وأنا أنظر إليه :

إن جون ولدى لا يرتاع لشىء ولا يتضعضع لحادث !

لقد صنع هذه السفينة الجميلة أثناء رحلته الأخيرة . وكأنى أسمعه الآن حين عاد وهو يثبِّت هذا النموذج على لوح من الخشب يقول :

« هاك يا أماه ! تلك سفينتك قد أرست على المرفأ »

وكان يضحك وهو يقول لنا : تحققوا من وسق المركب . ولما دخلنا الدار أنا وميكائيل وجدنا رزمة من الأوراق المالية تكفى أن نعيش عليها خمس سنين ، ثم قدْراً من الطباق لميكائيل ، ومشبكاً لى . ولا تسل عما ألم بنا فى تلك الليلة من الأطياف الرائعة والأحلام الجميلة !

لبث فينا ثلاثة أسابيع كانت كلها فرحاً ومرحاً وبهجة ؛ ثم حُمَّ الفراق وأزف الرحيل ، فصحبناه ذات صباح إلى (بورتسدون) . وطلب إلينا أن نرقب سفينته وهى تقلع فى بكرة الغد إلى عرض (المنش) ، ووصف لنا شكلها ولونها وسمتها حتى لا نضلها بين السفن ؛ وقال وهو يودعنا إنه سيعود عما قليل

وفى الحق لقد عاد بعد قليل ! فقد ثارت يوم رحيله عاصفة هوجاء زمجر فيها الرعد وهزمت الريح حتى شق على المرء أن يسمع نفسه . وكنت أنا وأبوه نرى مع ذلك أن الأمور تجرى لولدنا فى مجراها الحسن

رصدنا سفينة (جون) وهى (سبيننج كلود) ولكننا لم نر شيئاً . على أننا رجونا أن الأمور تجرى لجون فى مجراها الحسن

ولا يزال ميكائيل يرجو !

انقضت بضعة أيام . وفى يوم سبت رأيت طيور النورس تحوِّم هائجة على رأس (كنسى) . وقد ظلت ضحوة النهار تتشاجر وتتطاير كأنها قصاصات من الورق تناثرت فى الهواء

لم أدر ماذا كانت تعمل ، فقد كنت من عملى فى شغل شاغل

وبعد الظهر أقبل رجلان غريبان يطلبان إلىَّ لوحاً من الخشب وقطعة من قماش الشراع ، فأنهم وجدوا على الساحل تحت الرأس جثة بحار قذف بها البحر . فأعطيتهما ما سألا ، وذهبا ثم عادا بالجثة وهما يلهثان تعباً ، ويتصببان عرقاً ، فوضعاها فى مخزن الحب . وكانت تتدلى من تحت القماش الذى لفَّ به الجثة مِزْقة من قميص كأنها الجناح الكسير . فلما انصرف الرجلان نضوت القماش عن الجثمان وفحصت القميص فعرفته . عرفته لأنى طالما غسلته وكويته ! لقد عاد ولدنا جون !

كشطت الأصداف العالقة بحذاء جون ؛ ثم فكرت فى زوجى فسألت الله أن يعيننى على إخفاء السر عنه . فاستجاب الله لى ، إذ لم يدع فى جثمان جون ولا فى لباسه ما ينم على شخصيته إلا هذا القميص ؛ وميكائيل ضعيف الذاكرة فلا يستطيع أن يعرفه . ولما رجع فى المساء ذهبت

إلى لقائه ، وأخبرته أن الأمواج ألقت فى الساحل جثة بحار . فأقبل يراها . وما أنس لا أنس النظرة التى ألقاها على الغريق ! ولكنه لم يعرف ولدنا جون

ثم خشيت أن يأتى نبأ الغرق فيقوض كل ما بنيته ، فكتبت إلى النواخذة[1] أتحقق الخبر ، فأجابونى أن كل شىء كان على أحسنه ؛ وأرسلوا إلىَّ ثبت الموانئ مسجلاً فيه ما تلقيه السفينة من الوسوق، فاستنتجت أن ولدنا أُلْوَت به هبّة من الريح العاتية ، أو موجة من الأمواج الطاغية ، وهو يحاول على ما أظن أن يلقى نظرة الوداع على منزله . ولم يكن النواخذة على علم بمصرعه . ولن يعلموه هم وميكائيل إلا يوم تؤوب السفينة وعليها مساعد آخر . ولكن (اسبيننج كلود) لن تؤوب ! فقد ابتلعها البحر البعيد على الشاطئ الأقصى من العالم . ونجا البحارة وتفرقوا فى البلاد شذر مذر . ويعتقد ميكائيل أن جون استقرت به النوى فى مطرح من مطارح الغربة ، وأنه سيكتب إلينا متى جمع ثروة . وأسأل الله أن يثبته دائماً على هذا الاعتقاد وذلك الأمل !

تحركت أذنا القط الأبيض لحظة حين عبرت الفناء ، ولكنه لم يفتح عينيه تجاهلا لوجودى . وكان الخليج خالياً ، والزورق الذى رأيته منذ ساعة يجرى على الموج قد اضطجع على الرمل كأنه سمكة ضخمة ميتة . وكان (ميكائيل سوان) يخيط زنبيلاً مملوءاً سراطين بسلك من الحديد . فتقدمت إليه وسلمت عليه فهز رأسه فى ذهول وقال :

يوم سعيد ! نهار ضاح جميل !

وكان الرجل عملاقا أشيب الشعر معروق الأشاجع ، له عينان مظلمتان عميقتان تذكرانك بغرفتين مفروشتين بالقطيفة القاتمة . وكان فى جوف الزورق سمكة غريبة الشكل مهشمة الجسم ، فتناولها ميكائيل بيده وقال فى هدوء وبطء :

عجيبة من عجائب خلق الله ! قنصتها فى مصيدة من مصايد السراطين ثم قتلتها أسرع ما أستطيع

وكأنما كان الشيخ يستغفر لنفسه قوة خفية . فحدثته عن سمكة تشبه هذه السمكة يجدها المسافرون فى بحر الكرايب . فنظر الرجل إلى وهو يفكر ؛ وبدا عليه أنه كان ينضد الكلام الذى يلقيه ، كما ينضد البنّاء الآجرَّ الذى يبنيه . ثم قال وهو يومئ برأسه إلى الجوسق: لقد حدثتْك عن ولدها . أليس كذلك ؟ إننى أعلم كيف ترك المركب مرساه وهى معجبة بحاره . إنها تعتقد الآن ولا شك أنه فى جزيرة من الجزر النائية . ولا بد أن تكون قد سألتك : هل سمعت الناس يتحدثون عن جون سوان؟

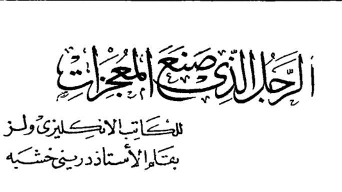
إن ولدنا عاد ! ولكن زوجتى لا تعلم . إنها ضعيفة البنية هشة العظام ، فلو علمت أنه دفن فى مقبرة المجهولين لغشيتها ولا ريب صرعة الموت

إن ولدى خطفته موجة من طواغى الموج ، ثم دفع به التيار إلى الشاطئ مشوَّه الوجه مستَسَرَّ المعالم . فعثرت عليه قريباً من الرأس حين تنفس الصبح ، فنزعت عنه ما ينم عليه من الأرواق والأزرار والملائم ، وذهبت قُدُماً إلى (بورتسدون) ألتمس من يحمله ، فلم أكد أترك المكان حتى مر بالجثة رجلان فنقلاها إلى المنزل

إنها لم تعلم حتى اليوم أن ذلك الجثمان الممزق الذى كان مسجًّى فى مخزن الحب كان من لحمها ودمها . لقد لقيتنى فى ذلك المساء فقالت لى فى لهجة تنم عن الأسى المكنون : شاب مسكين وجدوه على الساحل ! لا بد أن نبذل ما نستطيع لنعرف من هو . إن أمه تتحرق الآن شوقاً إلى لقائه ، وتسأل الرائح والغادى عن أنبائه ... !

الزيات

(١) النواخذة جمع ناخذاة وهم أصحاب السفن ووكلاؤهم



أكبر الظن أن هـذه الموهبة الخارقة لم تكن طبيعة فيه ، بل إنها قد جاءته عفواً ، ومن غير أن يدرى عنها شيئاً من قبل ؛ فلقـد بلغ الثلاثين وهو أشد ما يكون إلحاداً وكفراً ، وإنكاراً لهذه القوى الخرافية الخارقة التى تأتى المستحيلات... ولا يفوتنا هنا أن نذكر أنه كان شاباً قصير القامة داكن العينين ، له شارب لا يفتأ يفتل سباليه المرهفين ، ووجه صارم به كلف خفيف ... أما اسمه فجورج ماك رَيْتَر فَذَرِنجاى ... وهو اسم لا ينم بحال عن خافية صاحبه الكامنة التى تستطيع أن تأتى المعجزات . وكان كاتباً فى مشرب فى جُومْشْتْ يقال له مشرب التنين الطويل ، وكان لا ينى يجادل أقرانه فى استحالة المعجزات التى ينسبها الناس لبعض من سلف من الأنبياء ورجال الكهنوت .. ومن العجيب أن تصدر عنه أولى خوارقه أثناء إحدى المجادلات الحادة بينه وبين معارضه المؤمن العنيد : طودى بيمش صانع الدراجات الذى لم يكن يملك أن يرد براهين خصمه بأكثر من هذه العبارة القصيرة المقتضبة : « هكذا تقول أنت ... هكذا أنت تزعم !! » تلك العبارة المملولة التى أوشكت أن تخرج بصاحبنا عن طوره . وكان ممن شهد هـذا الجدل الأخير بينهما شخصان آخران يدعى أحدهما كوكس وتُدعى الثانيـة مس مايْبِردْج... وهى فتاةٌ وَقور محترمة كانت تعمل نادلة فى المشرب ، وكانت فى تلك اللحظة واقفة أمام الصنبور تغسل الأكواب والأشواب ، بينما كان ظهرها إلى المجادل الثائر الذى كان يبهر زميليه بنقاشه الرائع الطريف

وقد ضاق الأستاذ فذرنجاى بمجادله السيد بيمش ذرعاً ، وأحنقه منه عِيُّه وقلة فَهَمِه ، فراح يهتف به : « رويدك ياسيد بيمش ! هل تفهم ما هي المعجزة وماذا تكون ... إنهـا شئٌ لا يتفق وقانون الطبيعة ، لأنه ضـدٌ لها ، ومع ذلك فهم يقولون إنه يقع بقوة الإرادة ، وبشرط أن تنصب عليه إرادة خاصة جبارة... أليس كذلك ؟ » ويجيب صانع الدراجات حسب عادته : « هكذا أنت تزعم ! » فيعود فذرنجاى إلى حديثه وقد سره هدوء معارضه وحسن إصغائه الذى هو أول أمارات التسليم ، فيقول : « وإليك مثلاً يا صديقى بيمش هذا المصباح الذى يضىء لنا الآن وهو فى وضعه الطبيعى ؛ أإذا قلبناه رأساً على عقب ، فهل يمكن أن يضىء لنـا هكذا ؟ هل ذلك ممكن ؟ » ويرتبك بيمش قليلاً ثم يقول : « أنت تزعم أنه لا يمكن أن يضىء ! »

— ولكنك أنت !! أنت ! ماذا تقول ؟

— لا ... لا يمكن ... لا يمكن !

— حسن جداً !! ولكن ربما جاء الآن أحد الناس ، وليكن أنا ، فيقول للمصباح ، ولأقُلْ أنا له بعد أن أستجمع كل إرادتى : «أيها المصباح ! انقلب رأساً على عقب ، واحذر أن تنكسر ، ثم ظل مضيئاً فى هدوء ... هيا !!!» . وحدثت المعجزة الأولى التى لا يمكن تصديقها ... فقد انتفض المصباح من مكانه انتفاضة انقلب بها رأساً على عقب ، وظل مضيئاً فى هدوئه العادى ، مرسلاً شعلته إلى أسفل كما تعود أن يرسلها لتضىء مشرب التنين منذ زمان وزمان ... وقد بهت أستاذنا فذرنجاى ... وظل واقفاً مكانه كأنما سمر فيه ، مادًّا ذراعه ، مشيراً بسبابته إلى المصباح ، كأنما يتوقع أن يهوى فتحدث كارثة . وقد ذعر صانع الدراجات ففر هارباً ، وكذلك فر رُوَّاد المشرب هاربين ... أما الفتاة فقد طار لون الورد من خديها ، وولّت دُبُرَها صائحة صارخة مولولة ... وبقى المصباح معلقاً فى هواء المشرب قرابة ثوان ثلاث ، ثم صاح فذرنجاى صيحة اليائس المختنق : «أوه ! إنى لا أستطيع أن أهيمن على المصباح أكثر من هذا» ثم تراجع قليلا فتأجج المصباح ، وترنح هنا وهناك ، وسقط فى ركن المشرب فتحطمت زجاجته ، ولولا أن كان خزانه من المعدن الصلب لانبجس واشتعل زيته ، والتهم الماخور[1] بما فيه

وقد اتهم كوكس صاحبه بالغفلة والشعوذة ، واتهمه كل من كان ثمة بمثل ذلك ... أما هو ... أما فذرنجاى . . . فقد وقف مسبوهاً شارد اللب ، لا يدرى كيف يعلل ماحدث ، وكانت فى ذهنه عاصفة هدارة من الأفكار المضطربة ، بيد أنه اضطر أن يتهم نفسه بمثل ما اتهمه الناس مجاراة لهم . . . وأزعجه أن يقترح بعضهم طرده من المشرب حتى لا يعود إلى تعكير صفو المكان ، فراح يدفع عن نفسه حتى أبقى صاحب الحانة عليه

وعاد إلى منزله فى الليل ودمه يغلى فى عروقه ، وقد رفع بنيقة معطفه حول عنقه فشخصت أذناه من فوقها ، وراح يرمق مصابيح الشارع وهى تتوقد فى لجمة الظلام . . . حتى إذا خلا إلى نفسه فى غرفته الموحشة فى أحد منازل تشيرش رو انحط فى فراشه ، وطفق يفكر ويفكر ... ويسائل نفسه الذاهلة الحيرانة : ليت شعرى ماذا حدث . . . ؟ ! ثم نهض فخلع معطفه ، وألقى بقبعته ، وجلس وفى نفسه هاتف يتردد فى ثرثرة وعنف ، فيقول : «أبداً والله ماقصدت أن ينقلب المصباح اللعين أبداً !» ثم وقر فى ذهنه كيف لم يستطع أن يهيمن على المصباح المنقلب ولا كيف يرده إلى حالته الأولى . ولو قد عرف فيه هذا السر من قبل لهان الأمر ، فهو لم يَمْرن على تنظيم إرادته قبل هذا ، لأن المعجزة الأولى جاءت مصادفة وعَفْوَ لحظتها ... وعلى كل حال فقد بدا له أن يجرب مرة أخرى ، مادام المنطق لم يسعفه بدليل ما حدث

وكانت الشمعة التى أوقدها تضىء الغرفة فى هدوء ، فحدّق فيها ببصره ، واستجمع إرادته فسلطها عليها ثم هتف بها فقال : «إرتفعى !» ... وكان يحسب أنه إنما يُشَعْوذ حين يطلب إلى شمعة أن ترتفع من تلقائها . . . لكنه سرعان ما فاء إلى نفسه حين رأى الشمعة ترتفع فى الهواء فتظل

(١) ابن الأعرابى والثعالبى على أن الماخور مكان شرب الخمر أما صاحب القاموس فهو على أنه بيت الريبة

معلقة لحظة يسيرة ، ثم تسقط فوق مائدة دمامه[١] حين يغفل عنها لما حاول أن يتنفس صعداءه مما اعتراه من الدهش . . . وبقى يخبط فى ديجور لا يكشفه إلا الذبالة التى توشك أن تنطفئ .. وجلس فى ظلام الغرفة يكلم نفسه ويناجيها ، فيقول : « هاهو الشيء قد حدث مرة أخرى ! وكيف حدث ؟ لا أدرى ، ولكنه حدث على كل حال » . وبحث فى جيبه عن علبة الثقاب ليوقد الشمعة ، فلم يجدها ، فبدا له أن يجرب إرادته فى الحصول على ثقاب بطريق المعجزة فمد يده فى الظلام الحالك ثم تجهم وقال : « ليكن ثقاب فى يدى تلك ! » وما كان أعجب أن يحس جسما لطيفاً يقع فى راحته ، حتى إذا تحسسه وجده الثقاب الذى طلب ... وحاول أن يشعله فلم يفلح ، لأنه كان من الكبريت الأمين[٢] ، فألقى به . ثم بدا له أن يخضعه لسلطانه الإرادي ، فأمره أن يشتعل فاشتعل ، فتناوله من فوق المائدة ليوقد الشمعة ، لكنه انطفأ قبل أن يفعل . . . وهنا اتسع أفق إدراكاته عما يحتمل أن يتأدى له على هذا النحو ، فتحسس الشمعة فى الظلام وثبتها فوق (شمعدانها) ثم هتف فقال : « ها أنت هنا فأضيئى ! » وأضاءت الشمعة .. ونظر فذرنجاى فرأى ثقباً فى غطاء المائدة يتصاعد منه دخان خفيف ، فحدق فيه بصره ، ثم رفعه إلى المرآة المعلقة أمامه فإذا وجهه ، وإذا عيناه العميقتان توحيان إليه من عالم مجهول .. وللحال ... انطلق يخاطب نفسه : « وبعد ... فما أنا والمعجزات الآن ؟ ! » . . . وكانت تأملاته من نوع عميق وإن كانت مختلطة بعض الشىء . . .

وكان كلما مد بصره فى أغوار الوجود ازداد يقينه بما هو مضمر فيه من الإرادة الصافية النقية . والآن ، وقد شجعته تجاريبه البدائية فقد طمح إلى ما هو أكبر .. وأخطر .. فأمر ورقة فارتفعت فى الهواء ، وكوباً من الماء فتحول ماؤه إلى لون القرنفل ثم إلى اللون الأخضر ؛ ثم أمر أن يكون أمامه مسمار ، فكان ، ثم أمر أن يمّحى فامّحى ، وأمر أن يكون له (فرجون) أسنان ، فرآه على المائدة أحسن ما يكون (فرجون) ... وآمن بعد هذا بما استودع فيه من إرادة خالقة خارقة كانت تبدو له إرهاصاتها فيما مضى ، وإن لم يكن يؤمن بها ، وانقلب ذعره وتردده وشكه فصارت كلها زهواً بهذه الميزة وكبرياء ... وأيقظه ناقوس الكنيسة من تأملاته حين دق الواحدة فعاود خلع ملابسه لينام ، كي يستيقظ فى الميعاد الذى ينبغى أن يتسلم فيه عمله بالشرب ؛ ولم يدر فى خلده أنه بهذه الموهبة الكامنة فيه يستطيع أن يستغنى عن عمله ثمت . . . ودار فى ذهنه أن يأمر فيكون فى فراشه . . . وكان له ما أراد ! ! ثم أمر أن تنضى عنه ثيابه فانسل منها كأسرع من البرق ! ثم أمر أن يكون له قميص من صوف ناعم فأسلك فيه ! ثم أمر أن ينام نوماً عميقاً هادئاً فغط فيه لحظته ! ! !

واستيقظ فى ميعاده ، وجلس إلى مائدة فطوره وهو مشغول البال جياش الفكر ، يسأل نفسه إن كان ما حدث له أمس ضرباً من أحلام اليقظة ؟ ثم رأى أن يحاول تجاريب جديدة ، فأمر ، فأحضرت أمامه بيضتان من فوق الرف وضعتهما عليه صاحبة البيت ، ثم أمر ، فأحضرت بيضة أوزة كبيرة ، بيضت وسلقت ، ونزعت عنها قشرتها بحيث لم يحدث ذلك

(١) الدمام (التواليب)

(٢) تعريب استحسناه Safety Match

فيها إلا من خرم صغير ... وكانت ألذ من البيضتين الأخريين وأشهى ... وهرول إلى الشرب وهو ما ينفك يفكر فى الأعاجيب التى صنعها ؛ ولم يعمل شيئاً ما من أعمال الشرب كما كان يعملها قبل أن يكتشف فى نفسه هذه القوة الخارقة ، فقد انتظر حتى لم يبق عن موعد انصرافه غير عشر دقائق، ثم أمر أن تتأدى جميع أعمال اليوم ، فحصل له ما أراد ...! وحدث ما شئت عما شاع فى أعطافه من الزهو الذى طغى عليه حتى جعله لا يأبه بما تهكم عليه عرفاؤه به... بيد أنه كان زهواً مقروناً بتعجبه هو من نفسه ، إذ كيف أصبح يستطيع أن يرفع بنظرة ثاقبة مادة هشة — كتراب لفافة التبغ مثلا — إلى ما هو أكبر من ذلك وأخطر ... ؟ والشىء الوحيد الذى لم يفكر فيه هو الاستعفاء من عمله فى هذا الماخور القذر الذي أصبح لا يتفق وأعجب موهبة من نوعها فى العالم ! وقد رأى أن يصلح من شأنه بشىء من عزائمه ، فطلب أن يكون أمامه ماستان من أندر الماس الموجود فى الدنيا ، فكانتا أمامه فى أقل من غمضة عين ، لكنه أمر فامحتا عند ما شاهد جومشت الصغير مقبلا نحوه ، خشية أن يثير شكوك الفتى فى المصدر الذى وصلتا إليه منه ... وآثر أن ينطلق إلى الخلاء فيجرى هناك تجاريبه.. وكان هو فى نفسه مفتقراً إلى حسن الذوق وسلامة الابتداع ، ذلك أنه برغم موهبته المدهشة لم يكن شخصاً ممتازاً فيستطيع الابتكار والتجديد ، لذلك تبادرت إلى ذهنه معجزة موسى وعصاه السحرية .. لكن فكرة الثعابين الهائلة التى تحوى وتسعى فى ظلام هذا الليل البهيم أزعجته ، وأعرض عن تجربتها وآثر أن يجرب ما قرأه مرة فى أحد الاعلانات عن عصا (طنهوسر) لما راقه من جمال إعجازها ... فرشق عصاه فى طرف الطريق المعشوشب ، ثم حملق فيها قليلا ، وأمرها أن تزهر ! تعالى الله ! لقد عبق الهواء حول فذرنجاى بشذى عطرى حلو ملأ خياشيمه حتى كاد يسكره ... وطرب أيما طرب ، ثم أخرج علبة الثقاب فأشعل واحداً أبصر فى ضوئه هذه الباقة الناضرة من ورود الربيع نامية فى رأس عصاه كأجمل ماتنمو الورود في الجنة الفيحاء ؛ وخشى أن ينكشف سره قبل الأوان فهتف بالعصا فقال : « إرجعى ! » وكان يعنى أن تعود العصا لما كانت عليه من الانجراد قبل ، لكن ... واأسفاه ! لقد ارتدت العصا إلى وراء فى شدة وعنف ، فأصابت رئيس شرطة كان ماراً فى هذه الآونة ، فجعل يصخب ويقول : « من المجنون الذى يقذف المارة بالعوسج ويدميهم بالشوك ؟ » فقال فذرنجاى مرتبكا : « آسف جداً أيها الأخ » لكن رئيس الشرطة ، واسمه ونش ، تقدم نحو أستاذنا مرغياً مزبدا ، ثم أمسك بشاربه بقوة وقال : « ماذا تعنى بهذا ؟ هيا ! أوه ! أهو أنت يا أحيمق ؟ ألم يكفك تحطيم المصابيح فى المشارب ؟ » فقال فذرنجاى : « أنا لا أعنى شيئاً قط ... أبداً ، أبداً » فقال الشرطى « وفيم قذفتها إذن ؟ » قال هذا وشد شارب فذرنجاى ، ثم قال أيضاً : « لقد حطمت مصباح التنين ، ولم يبق إلا أن تشاكس رجال الشرطة بعصاك ! » فقال الفتى يجيبه : « أنظر هنا يا مستر ونش! الحقيقة ..أ..نى كنت أجرب معجزة!..» فقال الشرطي مستهزئاً : « تجرب م ... أنت ؟ بل كنت تشاكس الناس فحسب لأنك من دون العالم جميعاً لا تؤمن بالمعجزات ... وأنا من دون الناس

جيماً سأريك قيمة تعزيماتك ... » وثار ثائر فدرنجاي من غلظة الشرطى فصاح به : « أجل .. إن لدى هنا قدراً هائلا من التعزيمات المخيفة ، وسأريك واحدة منها ، فهلم ... إنطلق إلى هيدز.. هيا إلى الجحيم ! إذهب ! »

وفى لحة نظر الفتى حوله فلم يجد إلا نفسه !

ولم يحاول أن يعمل معجزة ما هذه الليلة بعد هذا ، بل انطلق إلى داره من غير أن يلتفت إلى عصاه المزدهرة ، ونضا ثيابه ، واستلق فى سريره فى كلال وفى ... هدوء ... وجعل يفكر فى هذه القوة الخارقة المستسرة فيه ، وفى رئيس الشرطة الغليظ المستر ونش ، وفى هيدز : « هيدز العجيبة التى لا أعرف عنها شيئاً ! » وخطرت له فكرة عجيبة حينما نهض من فراشه ليخلع حذاءه ، ذلك أنه شعر بألم وحسرة على ونش ، خشية أن تصيره نيران هيدز حطاماً ، فأمر به أن ينقل إلى مدينة سان فرنسسكو ! وتبسم ساخراً من نفسه ، ونام نوماً هادئاً ، وحلم أحلاماً لطيفة عن ونش !

وفى اليوم التالى ، سمع نبأين عجيبين جعلت ألسنة الناس تلهج بهما فى تندُّر ودهش ، ذلك أن بعض الآلهة قد أنبت شجرة غريبة من أزهى أنواع الورد المتسلق تلقاء منزل المستر جومشوت فى طريق (لوللابورو) ... وأن النهر قد غار فى الأرض على مدى (رولنجس مِلْ) من أجل رئيس الشرطة ونش ... وظل فَدَرِنجاى يصغى إلى كل ذلك ويستهول ما تصنع قواه الخارقة !

وظل يفكر فى حاله طوال يومه هذا ، ولم يأت من خوارقه شيئاً إلا أن أرسل إلى ونش بعض ما لايستغنى عنه فى سَنْ فرنسسكو من مال ولباس وغذاء ؛ وإلا إنجاز أعمال الشرب بالطريقة الارادية

وكان يتفق أن يذهب المستر فدرنجاى فى أمسيات أيام الآحاد إلى كنيسة قريبة ليستمع إلى نصائح القس المؤمن المتزمت المستر مايدج وعظاته المحشوة بالسمعيات العجيبة ، التى لم يكن يؤمن فدرنجاى بشىء منها لما كان يساوره بصددها من شكوك ورِيَب .. وكان القس يلقى عظة موضوعها (الأشياء التى ليست طبيعية) وقد أفاض فى ضرب الأمثال إفاضة ألقت بصيصاً من النور فى ذهن فدرنجاى ، فخطر له أن يستفتيه فى أمره بعد أن يفرغ من إلقاء موعظته ، وبعد أن ينتهى من قُدَّاسه[1] .. وقد عجب لِمَ لَمْ يفعل ذلك من قبل .

والقس مايدج رجل نحيف معروق تنظر إليه فتحسب أنه نضو ، ومع ذلك فله رقبة طويلة ونظرات متقدة مؤثرة ومعصمان مفتولان ... وقد عجب حين ذكر له رسوله أن شاباً معروفاً برقة تدينه واستهتاره فى المدينة يبغى لقاءه ليتحدث إليه حديثاً خاصاً وكأنما تعمد القس أن يهمل الفتى ويستأنى عليه ، ثم أرسل إليه رسوله فمضى به إلى منظرة مجاورة أفردها القس للقراءة والاستذكار ، فجلس الفتى على كرسى فخم مريح قريباً من نار المدفأ المتأجج ، ولف ساقاً بأخرى فأحدث ظِلاً على الحائط القريب يلفت النظر بانحناءته العجيبة ... ، ... وسأله القس عن حاجته ، فارتبك الشاب وتندّى جبينه بعرق الخجل ثم لم يجد بداً من الكلام فقال : « من الصعب عليك يا مستر مايدج أن تصدق ما سأرويه لك .. » ثم بلع ريقه مرة بعد أخرى ، وطفق يحوم حول موضوعه ولا يكاد يبين ، حتى إذا لاحظ ملال القس

(١) كلة نصرانية مولدة لم نعثر عليها فى المراجع العربية

سكن قليلا وسأله عن رأيه فى المعجزات ... وكان المستر مايدج لايني يقول : « حسن ... حسن جداً ! » كلما قال فذرنجاى شيئاً

— وأحسبك لا تصدق أن بعض الناس كشخصى الضعيف مثلا ، يستطيع وهو جالس هنا أن يصنع أشياء من قبيل المعجزات بقوة خارقة كامنة فيه »

— ولم لا ؟ إن هذا محتمل جداً

— وإذا كان لى حرية التصرف هنا فربما أريتك شيئاً من تجاربى ... فمثلا ... علبة طباقك هذه ... أإذا حولتها لك إلى شىء سترى أنه عجيب حقاً ، فهل يكون عملى معجزة أم لا يكون ؟ أنظر يا مستر مايدج ... أيتها العلبة ... كونى طاساً من أزهار البنفسج ! »

وما كاد يأمرها ويشير إليها بسبابته حتى كانت طاساً جميلاً منضوراً بأينع أزاهير البنفسج ... وقد قفز القس مذهولاً ، ووقف ينظر إلى الزهر ولا ينبس وإن جعل ينحنى فينة بعد أخرى يتشمم العبير المتأرج العبق ... ثم سأل الفتى كيف صنع ذلك ؟ فقال وهو يفتل شاربه : « ها قد شهدت بعينيك ، فماذا تسمى هذا ؟ أليست هذه معجزة ، أم هو ضرب من السحر ؟ ثم ماذا تظن فى هذه القوة الكامنة فىّ ؟ إنى من أجلها سعيت إليك لتجلوها لى ! » فقال القس : « حقا إنه لحدث فذ ليس مثله حدث ! » . فأجابه الشاب : « والعجيب أننى قبل أسبوع لم أكن أعلم أن لى هذه القوة الخارقة التى اكتشفتها عفواً ، وإنى أعزو أمرها إلى جانب شاذ فى إرادتى لا أكثر ولا أقل ! » وسأله القس : « وهل هذا الذى صنعت هو كل ما تستطيع أن تفعل ؟ أم أنك تقدر على أشياء أخرى ؟ » فقال الشاب : « أجل أيها السيد ! أنظر ... أيها الطاس تحول إلى وعاء من سمك ... أوه ! لا ... تحول إلى وعاء زجاجى ممتلىء بالماء ، وليسبح فيك سمك من ذهب ... فهذا أحسن ! أنظر يا مستر مايدج ! هل رأيت ؟ » فدهش القس وقال يخاطبه : « عجيب حقا ! هذا لا يمكن تصديقه ! إنى لأظنك ... ولكن ... لا ... ... » قال فذرنجاى : « إنى أستطيع أن أحوله إلى أى شىء ... أنظر ... أيها الوعاء ... كن حمامة ... هيا ! » وحار الوعاء فصار حمامة زرقاء جعلت ترف فى فضاء المنظرة ، فكان يرتجف القس كلما اقتربت منه ... « قفى مكانك! » ووقفت الحمامة مرنقة فى الهواء ، فأمسك بها فذرنجاى ووضعها على المنضدة ، ثم قال يخاطب مايدج : « والآن أحسبك لهفان على علبة طباقك أيها الأب ! هيا أيتها الحمامة... عودى كما كنت ... علبة طباق الأب ... ! » وانسحرت الحمامة فكانت كما أرادها الفتى أن تكون !

وكان القس ينظر مسحوراً ولا ينطق ... ثم تناول علبته فقلبها ، ووضعها حيث كانت ، ولم يزد على أن قال : « حسن ! » . وراح الفتى يذكر تجاربه السابقة ، مبتدئاً بحادث الصباح ... وأخذ القس يهدأ قليلاً مما استولى عليه من الدهش ، فانطلق يقول : « كل هذه غرائب مدهشة ... لا جدل فى ذلك ... مهما يكن فيها من الألغاز التى يصعب تعليلها ... إنها موهبة هذه القوة الكامنة التى تصنع المعجزات ... إنها قوة سادسة كالبصر أو السمع أو الشم ... ومن هنا شذوذها وندرتها ، وحدوثها صدفة ولأشخاص قليلين ، ولكم عجبت

لمعجزات محمد ويوجى ومدام بلافاتسكى ... ولا جرم أنها موهبة تفرد بها هؤلاء ... وقد كانت دليل المفكر الكبير دوق أرجيل ، وبرهانه الدامغ ، وحجته القاطعة ... وهنا ، يبد هنا القانون العميق الذى يتضاءل بجانبه قانون الطبيعة العادل ... أجل ، أجل ... قل ... قل ... » ... ثم وصل فذرنجاى حديثه ، وأبدى ألمه لما لحق برئيس الشرطة المستر ونس من (تمزيقه) فقال : « والذى أهمنى أكثر من أى شىء هو هذا المستر ونش ، الذى أرسلته إلى هيدز أولا ، حتى إذا خفت عليه من نيرانها بعثت به إلى سن فرنسسكو ، وهو من غير شك فيها الآن ، وقد خشيت أن تكون ثيابه قد (تشعوطت !) فى هيدز فأمرت أن ترسل إليه بذلة تستره وهى من غير ريب قد وصلت إليه ... ولا بد أنه الآن مغيظ محنق مما حدث له بسببى ، بل هو يحاول جهده أن يحصل على ثمن تذكرة ليحر من فوره إلى هنا ليلقانى ... مسكين ؟ ! إنه يضرب أخماساً لأسداس فى تعليل ما حصل له ... وأنا مثله فى حُجُب كثيفةٍ من عدم إدراكي لما يصدر عنى ! ! » ... وهنا قال القس : « وأنا أيضاً أرى أنك تضرب فى ظلمات لا أدرى كيف تخرج منها ... وعلى كل حال ، فلندع مسألة المستر ونش الآن ، ولنتحر المسألة الكبرى أولاً ... إنى لا أعتقد أن ما يصدر عنك هو ضرب من سحر أو نحوه ، وأعتقد أيضاً أنه لا أثر للجريمة فيما تفعل ... اللهم إلا إذا حاولت أن تحوز ما للغير بهذه الوسيلة ... لا ... إنها معجزات من غير شك ، ومعجزات من نوع راق رفيع ! » وانطلق المستر مايدج يطرى أخانا فذرنجاى ، وفذرنجاى محملق فيه ، مقبل عليه ... أو قل ... ساهٍ عنه ، بدليل مفاجأته للقس بقوله : « ومع هذا فلا أدرى ماذا أصنع لأنقذ المستر ونش ! ! » ، فدهش المستر مايدج وقال : « بما أن لك هذه القوة الخارقة التي تصنع المعجزات فليس أيسر عليك من عمل معجزة تعيد بها ونش ... فاطمئن وهدّىء روعك ... سيدى فذرنجاى ! إنك شخص هام جداً ، وضرورى لإصلاح هذا العالم الشائه ، فهل فكرت فى شىء تسديه إليه ؟ ! » وقال فذرنجاى يجيبه : « أجل ... فكرت فى شىء أو شيئين ... ولكنى كنت أشعر دائماً أنها أعمال مزورة ليس فيها من الحق شىء ... أرأيت الوعاء الزجاجى الذى سبحت فيه سمكات الذهب ؟ ! أمعقول هذا ؟ : أرأيت سمكاً من ذهب قط ؟! حبذا لو كان حيًّا حقيقة فكنت أنفع به الناس ! » . وصادفت هذه الأمنية هوى فى فؤاد القس فهش للفتى وبش ، وأثنى على نزعة الخير التى عبر عنها بلسانه ، ودعاها سبيل الرشاد ؛ ثم اقترح أن يأخذا فى تجربة قوة فذرنجاى فيما يعود على الناس بالخير ... ونؤثر أن نسجل تاريخ تلك الليلة الهائلة ... الليلة العاشرة من نوفبر سنة ١٨٩٦ لما تم فيها من الأمور الجسام التي لا يتصورها عقل ، ولا يمكن أن يصدقها أحد ، لأنها لو كانت حقاً — وهى حق لا ريب فيه — قد وقعت ، لجزم القارىء أو القارئة أن فى وقوعها خراب العالم أو موت من فيه من الخلائق على الأقل ... على كل حال ، ليس هنا نهاية القصة ... فليتصور القارىء ما يشاء ... ونقول نحن ، إن فذرنجاى أخذ فى صنع معجزاته بالعشرات حتى تشجع وقوى قلبه ، وذهب مايدج يحفزه ويحرضه، ويغريه بما هو أخطر . وكانت أولى المعجزات الكبار أن طلب المستر مايدج من صاحبه الشاب أن يحضر له عشاء يُنسيه رداءة

الأطعمة التى تعافها النفس والتى تطهيها السيدة مِنشن صاحبة بيته ... وهش فذرنجاى للفكرة ، وكان مولعاً بالأرانب الأرلندية فأمر أن يؤتى إليه بطبق حافل بها ، فما هو إلا أن دعا حتى كان أمامه الطبق ، وفيه شواء الأرانب المطلوب ! وقال لصاحبه وهما يلتهمان الطعام : « وبناء على ذلك فإنى أستطيع أن أساعدك فى كل ماله علاقة بمنزلك يا مستر مايدج ! » ... وطرب القس ، وملأ كأسه من نبيذ برغندى العتيق الذى أمر فذرنجاى بمجيء إليه به بطريق المعجزة أيضاً ، وبعد أن تجرعها ، وتجشأ مرتين أو ثلاثاً نظر إلى الفتى وقال : « فكرة والله ! لقد طالما تمنيت أن يصلح الله من خلق المسز منشن قليلاً ، فيذهب بما يشينها وببعض الذى يجعلها قبيحة فى أعين الناس ... ولست أدرى إن كنت تستطيع أن تحدث أنت ذلك ؟ إنها الآن نائمة فى فراشها ، وقد صارت الساعة الآن الحادية عشرة ... فهل يمكن ؟ هل يمكن يافذرنجاى ؟ » وقال الفتى : « لا أحسب أن هذا شىء غير جائز ، مهما تكن المسز نائمة ! » . وأصدر أوامره فى سكون ، ثم أخذا فى طعامهما وشرابهما كأن شيئاً لم يحدث برغم الثورة الهائلة التى كانت تجتاح نفس القس وتطغى على شعوره ، وتشوقه الشديد إلى معرفة ما إذا كانت المسز ستخلص من مقابحها بفضل فذرنجاى أم لا ... ؟ ... ولم يطق أن ينتظر حتى الصباح ليرى ماذا تم من ذلك ، بل قام بعد أن فرغ من عشائه السحري ، وانطلق إلى منزله فغاب فيه سُوَيْعة ، وظل فذرنجاى ينتظره ، ثم عاد متهلل الوجه بادى البشر ، مُفْتَرًّا عن ابتسامة مشرقة ، وأنشأ يقول : « مدهش ! مدهش جداً ، وعجيب حقاً ! بَعْثٌ جديد وحياة جديدة تنسرب إليها من ثقب ضئيل فى باب غرفتها ! تبدل شامل طرأ على السيدة يا فذرنجاى ! لقد هبت من غفوتها ريانة فينانة فأخرجت من صندوقها زجاجة بكراً من النبيذ لتشربها جرعة واحدة ! »

واقترح القس على صاحبه جملة مقترحات عجيبة كانت في سبيل الخير جميعاً ، فقد انطلقا فى البرد القارس ، وتحت القمراء الزاهية ، عبْر ميدان السوق الكبير ، حتى إذا انتهيا إلى القسم البرلمانى المعروف بكثرة فُسَّاقه وسكيريه ، شرعا فى عملهما الإصلاحى الجليل ، فانتزع فذرنجاى مافى نفوس أولئك المساكين من خبث ، وأمر فتحولت الخمور التى فى جميع الحانات إلى ماء عذب قراح . ثم انطلقا إلى الخلاء فأمر فذرنجاى برك فلندرز ومستنقعاتها فغاضت فى الأرض ، واهتزت وربت وأصبحت مزارع مبسوطة تزهى بنباتها وبساتينها بعد أن كانت مصدراً من أخطر مصادر الحميات والطواعين . وفى طريقهما إلى المدينة عرجا على محطة السكة الحديدية فأحدثا فيها إصلاحات شتى ، وأقام أبنية شاهقة مكان الأبنية العتيقة التى أصبحت لا تتفق وعظمة الحى التى تقع فيه ... وكان المستر مايدج ينظر إلى هذه الخوارق التى يأتيها فذرنجاى بمجرد الإشارة والإيماءة ويكاد يزيغ بصره ... « ليت شعرى ماذا يقول الناس غداً ؟ لاجرم أنهم سيدهشون وينسبون ماتم إلى شياطين سليمان! » والتفت إليه فذرنجاى فجأة وقال : « أيها الأب ... الساعة الآن الثالثة ، ولا بد لى من أن أذهب فأنام ، فإنى أتسلم عملى فى المشرب فى الساعة الثامنة ... » فنظر إليه القس مسبوهاً وقال : « وكيف ؟ إننا مانزال فى بدء مشروعاتنا يا فذرنجاى تذكر يا رجل أنك تسدى أحسن الأيادى للإنسانية ولصالح الناس ... بل ينبغى أن تستمر أيها الأخ ،

وأن تستكثر من هذا الخير ... أنظر ... ألا ما أجمل هذا البدر وما أروعه ! » . فقال فذرنجاى : « حقاً إنه جميل رائع ! » فوسوس له القس : « أليس من خير الإنسانية أن تقفه حيث هو يا فذرنجاى ؟ ! » فارتجف الشاب وتمتم يقول: « وَىْ ؟ ! أقف القمر عن دورانه ؟ ! هـذا كثير ! » . فقال الأب وقد سحرته الفكرة : « ولم لا أيها الصديق ؟ قِفْـه ! إفعل ! أى خير فى ظلام الليل وكله شرور وآثام ! مره يقف يا فذرنجاى بالله عليك ... إنك تستطيع ما هو أجل من وقف دوران القمر ... وما دمت قد خرقت قانون الطبيعة فلا بد أن تخرق قانونها فى القمر أيضاً ... إنك تقـدر أن تقف دوران الأرض التى هى أعظم منه أضعافاً مضاعفة ... ثم أنت لا تحدث شراً إذا وقفته ، ومادام كل ما تصنع من أجل الإنسانية فماذا يزعجك ... ؟ » ... ...

واستطاع الأب الشيطان أن يتلف كل شىء بما وسوس فى صدر الشاب ... ووقف فَذْرَنجاى وقفة رهيبة ولكنها مصممة وزرر سترته ، وسعل سعلة غريبة ، ثم استجمع روحه وإرادته جميعاً ، وحلق فى البدر الفضى حملقة شديدة ثم قال : « قف دورانك أيها القمر بإذنى ! قف ! »

يا للكارثة !

لقد انقذف الأستاذ فذرنجاى فى الهواء انقذافاً هائلاً وبسرعة عشرات الأميال فى الدقيقة ، وذهل عن نفسه لحظة ثم أفاق فرآه يرف فى الفضاء اللانهائى ويزف ويطوى عالم الأثير كما يطويه الشهاب الراصد. وللحال خطر له أن يأمر فيكون فوق سطح الأرض فقال : « لأهبطن إلى الأرض سالماً آمناً ! هيا ! » ولو قد تأخر قليلا فلم يخطر له أن يأمر هذا الأمر لشاطت ثيابه كلها ، ثم لاحترق جسمه ، وانتثرت رفاته جذاذا ... وهكذا كان حظه حسناً هذه المرة فلقد هبط إلى الأرض فى سرعة فائقة ، فاستوى قائماً فوق كثيب مهيل أعدته له المعجزة فى سرعة البرق لتقيه من الصدمة الهائلة ، ولتنقذه من الارتطام بالحجارة والمعادن الذائبـة التى تشقق عنها سطح الأرض فبرزت من جوفها كالحمم ، وتطايرت عن يمينه وشماله كالصواعق ، بل أشد وأنكى ... ورأى حوله أهوالا جمة ومصائب عاتيات تحدث بالقرب منه ولا يبدى حراكا ... فمن ذلك أن بقرة ذلولاً اصطدمت بإحدى هذه الصواعق فانفجرت وتناثرت أشلاؤها كأنما هى بيضة صغيرة وطئها فيل عظيم.. ثم عصفت حوله الرياح الهوج فبعثرت فى الأرض والسماء شواظاً من حديد ونحاس فوقف مبهوتاً لا يدري أين هو ولا أيان يذهب ... ثم ذكر الله فقال: «رباه ! غفرانك اللهم ! هل أسأت أم عصيت ! إن هذه صيحة كصيحة يوم النشور ! عواصف وبروق ورعود ! وقبل دقيقة واحدة كانت القمراء تغمر السهل والجبل والوادى في روعة وبهاء ! رباه ! ! اكشف هذه النقمة تباركت وتعاليت ! لست أنا الذى رسمت هذا ، بل إنه قَسك مايدج هو الذى وسوس إلى ! ولكن ... أين هو ؟ ! يا للورطة التى ألقى بى وبنفسه فيها ! إن السماء صافية ، والكواكب متألقة كما هى منذ الأزل ، والقمر جميل فى أوجه ، فما لهذه الأرض عابسة باسرة هكذا ، وما لهذه الزوابع ! إنى لم آمر أن يكون فيها شىء من ذلك فماذا جرى ؟ ... أوه ! ! أين المدينة يا ترى ... ؟ وأين الجسر ؟ وأين المصابيح التى كانت قبل دقيقتين تنعكس أضواؤها فى الماء ؟ ! » ... واشتدت العاصفة فسقط المسكين يتقلب فى الوحل ، وكلما حاول النهوض عاد فكبا ، وآثر أن يظل على أربع آخر

الأمر ... ثم جعل دبره للريح ، وغطى رأسه ووجهه بسترته ، وعاد يهمهم ويقول : « لا جرم أنه قد حصلت غلطة هائلة ، ولكني لا أعلم ما هي ... »

وأخذت العاصفة تزمجر حوله ، وتنثر الحجارة والأشجار والخرائب فتجعلها ركاما ... ولم يعد يرى المسكين شيئاً من العمار فى الرحب الموحش الذى وقف مختلطاً بين أنقاضه ، ثم ساد الظلام فجأة ، وغاب عنه ضوء القمر الذى كان يسطع منذ هنيهة ، فتضاعف ذعره ، وتمزقت أعصابه ، ولم يدر ماذا يصنع ...

لقد أمر فذرنجاي القمر أن يقف ففعل ؟ ففيم هذه الزوبعة وذلك التخريب ؟

أوْه ! لقد أصدر المسكين أمره الأرادي الجبار ، ولم يتخذ قبل ذلك حيطته ؛ فهو كان يحسب أن وقوف القمر عن دورانه شيء هين لا تكون له نتائجه على الأرض التى يقف هو من فوقها ... ولم يكن يعلم أن هذا الكوكب الذي يقطع فى الساعة الواحدة مئات الأميال إذا وقف فجأة ، صنع ما يصنع القطار بركابه إذا وقف بهم فى أقصى سرعته ... إنه يرضهم إن لم يسحقهم ... فما بال كوكب بأكمله ؟ ... ثم دوران الأرض نفسها ، وهي هذا الكوكب السيار المظلم الذى يقطع فى دورانه حول نفسه أكثر من ألف ميل في الساعة [1] ، فإذا تعرض القمر الذى وقف فجأة لجاذبية الأرض التى تدور أمامه بهذه السرعة الهائلة ، فماذا يكون غير هذه الزوبعة الهائلة العاتية التى مسحت وجه البسيطة مسحاً ؟ ولقد انقذف كل ما كان فوقها — بما فى ذلك القرية (المدينة) وفذرنجاى ومايدج ، وجميع الحيوانات والوحوش والشجر وأعمدة التليفونات وعرائش الفلاحين وكل ما نتأ على سطح الأرض بسرعة تسعة أميال فى الثانية (كذا) أى أسرع مما إذا قذفوا من فوهة مدفع ضخم

ولقد سـدرت نفس فذرنجاى ، وسخط على القوة الكامنة فيه والتي بها صنع كل هذه المعجزات ... ووقف فى هذه الدنيا المنهارة ، وتحت البرد الذى أخذ يرجم وجهه ويحصب رأسـه ، والطوفان الذى بدأ يعب عبابه وتزخر أمواجه ... ولم يدر ماذا يكون من أمره ... ثم برق البرق فلمح موجة عالية كالجبل مقبلة نحوه فى سرعة فائقة فتوشك أن تبتلعه ، فسمع نفسه يصرخ قائلاً : « إليّ يا مايدج ! إلى ! وأنت أيتها الموجة قفي مكانك : قفي بالله عليك ! وأنت أيتها البروق ويا أيتها الرعود اهدئى لحظه حتى يثوب إلى رشدى ... أوْه يا ربى ماذا أصنع ؟ لشد ما أرجو أن أرى مايدج ... ولشد ما أرجو أن أُصلح كل ما أفسدت ... »

وكان قد نسى أن يستطيع أن يقف كل شيء لو أراد ، إذا سلط عليه شعاع إرادته الصارم ، فلما ذكر ذلك صاح مبتهجاً وقال : « أوه ! ذكرت ذكرت ! »

ثم لوى رأسه نحو الزوبعة ، وبرّق فيها عينيه ، وهتف يقول : « والآن ، لينته كل شيء ... لتسكن الريح ... ليصمت الرعد ... ليذهب البرق ... ليدر القمر دورته ... وليعد كل شيء كما كان ... لتذهب تلك المعجزات عنى فإنى كرهتها ... ولتكن لي إرادة عادية كإرادة أى كائن من الكائنات ...

(١) محيط الأرض يقرب من ٢٥٫٠٠٠ ميل وهى تدور حول نفسها مرة فى كل ٢٤ ساعة ، فتقطع فى الساعة أكثر من ألف ميل كما هو فى سياق القصة أى عشره أضعاف سرعة قطارات (الاكسبرس)

لا أريد أن يطيعني شيء ما في هـذا الوجود ... ليت شيئاً مما حدث من معجزاتي لم يحصل ... هذا ، ولأعد أنا إلى مشرب التنين ، وليكن كل شيء فيه كما كان قبل أن ينقلب المصباح اللعين ... حقاً إن كل ذلك لو تم لكان خيراً ولكانت أخرى معجزاتي لكن كل ذلك حين أقول (هيا) ! ! »

ثم لصق بالأرض وأغمض عينيه وقال بكل ما بقي فيه من قوة :

« هَـيَّـــا »

وهدأت العاصفة ... وعاد كل شيء كما كان !!

وسمع صوتاً بالقرب منه يقول : « هكذا أنت تزعم ... هكذا أنت تقول ! ! » فلما فتح عينيه ، وجد نفسه في المشرب يجادل صاحبه طودي بيمش في حقيقة المعجزات ... وشعر كأن إحساساً حاداً كان يستولي عليه ، لكنه لا يدري ما ذا كان باعثه

وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه ... حتى ذاكرته وعقله ... وحتى عدم إيمانه بالمعجزات ... بل لقد فعل النسيان فيه أفاعيله ... فهو لا يذكر شيئاً مطلقاً مما ورد في هذه القصة مع أنه بطلها

— إني مازلت مستمسكا برأيي في هذا الموضوع فالمعجزات لا يمكن بحال أن تقع ، وأنا مستعد لإقناعك بذلك حتى تنكرها كما أنكرها أنا نفسي !

— هكذا تقول أنت ... هكذا أنت تزعم

— إصغ إليّ يامستر بيمش ... هلم نتعرف ماهي المعجزة ... إنهـا شيء يخرق قانون طبائع الأشياء ... إنها شيء عكسي لقانون الحدوث يزعمون أنه يحصل بقوة الإرادة

دريني خشبة

الثائر الساذج

للكاتب الروسي ليو تولستوي

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

من بين الناحيات الخطيرة التى تناولها تولستوى بقلمه ناحية المظالم الشاملة لأبناء أمته . التى تجسمت فى مخيلته الخصبة فأنتج آثاره الخالدة : « المشنوقون السبعة » و « لم أعد أطيق على السكوت صبراً » و « الثائر الساذج » التى تنقل إلى العربية المرة الأولى . وقد كان مخطوطها بين الأوراق التى حملها تولستوى فى فراره مع ابنته كاتريا وصديقه الدكتور جوليشوف . قبيل وفاته بأيام معدودة . وقد اعتبرها النقاد جزءاً من وصيته إلى شعبه ، وعنى بها وأحلها من الأدب الرفيع أعلى مكانة ، وكان الأقدار أبت إلا أن ترفع الحجاب عن بصيرته فتحققت نبوءته بزوال الحكم القيصرى بعد وفاته بسبع سنين ، ولا يزال جمال الخفاء الروحى المرفرف على صفحات هذه القصة الخالدة دليلا على قدرة الكاتب الناقد البصير على اختراق حجب الغيب فى أسلوب رائع جمع بين دقة التصوير وجلال الفن القصصي

كان ڤيكتورفيد روڤسكي ضحيـة الجواسيس ، يتبعونه إلى كل مكان ، ويتعقبون خطاه ، ويقتفون آثاره ، لأنه كان فيما مضى مشبوهاً [1] وكان اسمه فى رأس الأسماء التى تحملها القوائم السوداء، فى مكاتب «أوخرانا» [2] الخفية . وكانت الشرطة السياسية فى موسكو وبطرسبرج توقع العقوبات بالشبهـات ، فكل مشبوه لديها متهم ، وكل متهم فى نظرها مذنب . فلمـا هاجر فيـكتور إلى لوزان بسويسرا ليلتحق بجامعتها حتى يتم دراسة الرياضيات العليـا التى بدأها فى كلية الهندسة بمدينة أورالوف شعر بأن وراءه جاسوساً يتبعه ، وكأنه صحبه من حـدود روسيا إلى صميم سويسرا فقال محدثاً نفسه : لن أصبر على هذا الرجل ولن أدعه يقتفى أثرى فى بلاد الغربة، ولا بد من أن أرغمه على الاعتراف لى بعلة تتبعى ، وأذكره بأننا فى جمهورية حرة ، ولسنا فى شوارع موسكو أو بطرسبرج ، وأن أتهدده بكشف القناع عن حرفته أو أرفع شكواى إلى رياسة الشرطة ، محتجاً بتحريم التجسس على الأبرياء فى بلد أجنبى . فإذا ما خشى الفضيحـة وهرب من وجهى عـدت أدراجى إلى محطة السكة الحديدية حيث تركت فيهـا متاعى لأتسلق سلم المركبة الأولى التى تصادفنى فى أول قطار يحملنى إلى مقرى ومرتعى . . . إلى مدام جابونسكى ، إلى أحضان تلك المرأة الحنون، فإذا ماسألتنى عن عودتى غير المنتظرة ، بعـد القلق المقيم المقعد الذى ساورنى قبل عيد الفصح أجبتها فى إيجاز بأننى رضيت من الغنيمة بالإياب لأننى ما كنت أستطيع البعد عن بيتى . فقد اكتشفت فى هـذا السفر القصير أننى مصاب بداء الخوف كالسنور الذى يعلو ظهره وتنتفخ أوداجـه وتبعث أعصابه المهتـاجة بشعره الناعم ، فيصير كالشوك ، ويتحفز للهجوم على غريمه كائناً ما كان

(١) المشبوه فى الأدب الروسى هو المتهم بالثورة على حكم القيصر

(٢) إدارة البوليس السرى السياسى فى روسيا القيصرية

لينشب فيه أظفاره التي تخفيها كفه الملساء ، لقد حاولت أن أضلل الجاسوس ، ولكن ذهب تدبيري سدى .

وبعد فإنني أعود أدراجي لأن بالمكان الذي وصفوه لإقامتي سجناً كبيراً ومشرحة . أما السجن فلا عجب ، لأن بأطراف المدن وبضواحيها قد تبنى السجون ؛ أما المشرحة فما شأنها في جوار هذا المنزل ، وفي مثل هذا اليوم الشديد القيظ كأنه من أيام جهنم ؟ ياله من يوم له ما بعده !

كنت عدواً دائماً لمن يخضعون للأقدار ، وأسخر من الذين ينصحون بالاستسلام للقضاء المحتوم وأرميهم بالجبن والعجز والخور ؛ وهأنذا قد لعبت بي أيدي الأقضية والأقدار كما تلعب الأطفال بالكرة... فكيف الفر ، وإلى أين الهرب ؟ ليس لديّ من الوقت ما يكفي لتقليب الفكر وتدبير الأمور على على مهل ، ولم يَمْتد في صدري متسع للصبر والتأمل . فوطدت نفسي على الحرب التي لا هوادة فيها ولا رحمة ؛ وكان الجاسوس لا يزال قابعاً في مقعده بمركبة القطار ينتظر مغادرتي إياه ليتبعني متابعة الظل ، فلم أستطع أن أخيب أمله إلا بطريقة واحدة وهي أن أبقى في القطار لأعود به ، متظاهراً أنني ما قصدت من هذه السفرة المتعبة الطويلة إلا الارتياد والاستطلاع ... وهذا أمر جائز ومباح ، خصوصاً وأنا خالي الوفاض ، فلا متاع ولا أحمال توهم أنني كنت قادماً للإقامة ؛ وكانت السلامة مكفولة بهذا الحل السريع النفذ ، ولكن كرامتي أبت عليّ التسليم ، وكراهتي للرجل دفعت بي للنزال ، فجمعت نفسي ونهضت ونزلت ، فنزل الجاسوس ، ومشيت فسار ورائي يتعقبني ... وقبل أن أستدير لأشتبك

معه معاركاً وأنا لا أعلم مدى ما تؤدي إليه المعركة ، إذا بالرجل الذي ظننته جاسوساً محترفاً يقف فجأة ويقول لي : ڤيكتور ! ڤيشنكا ! ... داسكويا ... ! ڤيشا ... ألا تذكرني ؟ ألا تعرفني ؟ وكانت هذه كلها ألقاب تعزيز وتدليل يناديني بها رفاقي الصغار في المدرسة اقتداء بمربيتي وخادمي في تدليلي

وكان الرجل يخاطبني بالروسية الفصحى ، أيكون الكسندر براڤسكي ، أم خياله الحي ؟ فوقفت على سلم القطار وقلت له : من تكون أنت ؟ قال : أنا ... أنا ساشا براڤسكي ، براڤسكويا ... ألا تذكرني ؟ وارتمى المسكين في حضني وهو يبكي ، فلقد غادر البائس بيت الموتى ... سجن سيبيريا منذ حين هارباً من أيدي أعدائه وأعدائي . كان ساشا قرويا ابن فلاح ، دخل في خدمة مثّال اسمه بوريا كلامسكي ، لا يزيد أجره على روبلين يتقاضاهما في كل أسبوع ، وما لبث الصغير أن أظهر ميلاً تشد أزره موهبة فائقة مولودة معه ، فكان يحسن الحفر في الخشب وتأليف الألوان الزاهية والقاتمة لصبغ تماثيل العذراء ويسوع والقديسين ، وبرع في إظهار علائم الحزن وأمائر الانقباض أو الفرح التي تبدو على وجوه الشهداء كما كان يراهم في كنائس المدينة ، وكان المثال يبعث به إلى الأسواق والموالد ليبيع تهاويل الرسل والملائكة ، فيجلس ليبسطها بين يديه على قطعة من القطيفة الباهتة ، ثم يبقى في انتظار هواة الايمان ممن لا يضنون على أرواحهم بكوبك [1] أو اثنين ليشتروا بهما رمز معبود أو نصف معبود ! ليزينوا

(١) كوبك عملة روسية تعدل قرشين صاغاً

بها حجراتهم القروية ويشعلوا تحت أقدامها قناديل الزيت التقليدية ...

فكان الوجيك من أهل القرى يرد السوق فى حفل من أهله وجيرانه ، فإذا فرغ من البيع والشراء والأكل والشرب واللهو البرىء أو غيره ، طاف بأطراف السوق حتى إذا ما لمح « فرش » الأرباب والملائكة ، وقف على رأس الغلام ولمس المعبود بقدمه سائلاً عن ثمنه ، فاذا علمه ماكس ما شاءت المماكسة حتى يصل إلى الثمن الذى يرتضيه فيلتقط التمثال الذى وطأته قدمه ، فيقبله ويضعه فى جيبه بحرص وعناية ، ثم يخرج قطعة الفضة الصغيرة وينقد الصبى ثمنه وينقلب إلى أهله حاملاً تمثال ربه فى ثنايا « كازاكه »[1]

وكان ساشا الصغير يعجب لهذا المسلك ويضحك ثم يأسف على فنه الضائع بين هذه القطعان الشاحبة الكالحة التى تعد من بنى الانسان وليست منهم . ثم أخذ يثور على الديانة التى تحتسبهم من تابعيها وعلى الكهنوت الذى يصبر على عمايتهم ويستغل ما هم فيه من غفلة بالغة . وما انقضت عليه ثلاثة أعوام بين المصنع والأسواق حتى شكا إلى أمه ما يلاقيه من ألم النفس وتعب البدن ، طالباً إليها أن تحث أباه على إرساله إلى المدرسة

فصممت الأم على تنفيذ رغبته ، وقرعت الوالد على رضائه بأن ينشأ طفلهما على هذه المهانة وها هو ذا قد نما وترعرع ، ومارس الصناعة والتجارة ولم يفد منها مالاً يذكر ، لأن جهوده عائدة كلها على معلمه بوريا الذى لم يعلمه إلا ما رآه ملائماً لمصلحته الخاصة ، فلا بد من إرساله فى بعثة تعليمية إلى بطرسبرج ليتلقى الفنون الجميلة فى « مجمع المصورين القيصرى » ويتردد على متحف إرميتاج الشهير بآثاره الغالية . سافر الوالدان والولد إلى بطرسبرج فى قطار الليل بعد أن تزودوا للسياحة واستقروا فى فندق وضيع فى حى « إيليانا » وهو مخط الفلوكين ، ومرتع « البوهيمية » والنور ، لأن ما حملوه من المال المدخر لا يقوم بأودهم أياماً معدودة إذا هم اختاروا الاقامة فى أحد الأحياء الغنية . وبعد يوم من وصولهم ذهب الرجل وولده إلى دار الفنون الجميلة وعرضا طلبهما ، فقوبلا بالازدراء من الموظف المختص ، وقد دهش لجرأتهما على ترك الفلاحة فى الحقول لإلحاق الولد بمعاهد التصوير والحفر ! فحنق براڤلوف والد الكسندر (ساشا) برافسكى على « الموظف المسؤول »

وخرج يتحامل على نفسه ، وصفق الباب وراءه صفقة كانت أشد وقعاً من الصفقة على صدغ الموظف الكبير ، وقد عقد النية على أن يلحق الفتى بالأكاديمية ولو أدى الأمر به إلى بيع أرضه وإنفاق آخر كوبيك من ماله وعقاره فى هذا السبيل ، وعاد إلى الفندق حيث كانت الوالدة المسكينة فى انتظارهما ، فدفعه غضبه وكرامته المجروحة إلى أن يروى الحديث بحذافيره عليها ، وختمه باظهار رغبته التى تتردد فى صدره ، وكان صوته يتهدج ويداه ترتجفان حتى خشيت الأم (ناديا سيبيانا) عليه أن يصيبه سوء أو ينفجر شريان فى دماغه ، فيذهب ضحية الفالج نتيجة حبه الخير لولده ، فبكت وأجهشت وقبلت يد زوجها وطيبت خاطره ولكنها أبت أن يكون ولدها سبباً فى فقرها ، وهى التى تعلم أنه ليس من الغنى بحيث يحقق أمنيته وأمنيتها

(١) سترة طويلة لا تفتح من صدرها

بيد أن الفلاح العنيد سعى فى الأمر دون علمها ، وكاد السعى يكلل بالنجاح لولا أن علم به الموظف المسؤول بادارة الفنون ورفع إلى « المراجع العليا » مذكرة نفث فى دسمها سموم حقده ، وألقى ظلالاً من الشك على هذا الصنيع فأفشله ، فسافرت الأم مكسورة الخاطر ، موجعة القلب ، ناقمة على الدنيا ، واستمسك الشيخ بعزيمته لترقية ولده ، وسعى إلى توظيفه أولاً فى إدارة صغيرة كان رئيسها قريباً له ، بوظيفة لا يزيد مرتبها على عشرين روبلاً فى الشهر(١)

وقال له : « ساشا ! ولدى العزيز ! لاتمس هذا المرتب ، بل ادخره بأجمعه وإن شئت فابعث بقليل منه إلى والدتك ، لا على أنها محتاجة إليه ، ولكن لتشعر بأنها تشرب قدحاً من الشاى من عرق جبينك وكد يمينك ، فيكون له طعم ونكهة لا يعرف حلاوتهما إلا من كان فى براءتها ونقاوة قلبها ، أما البقية فأنفقها فى شراء الألوان والصور وأجور التعليم الليلى . أما مأكلك ومشربك ومسكنك وملبسك فأنا الكفيل بها . وتعلَّمْ ما استطعتَ ، وزاول من الفنون الجميلة ما شئت ، فإن لك يوماً ينتظرك فى الأكاديمية الإمبراطورية ؛ وإن جدران الارميتاج تنتظر لوحاتك بفارغ الصبر »

ولم يكن من ساشا إلا أن بكى وشكر أباه وقبل يده وهو يقول فى نفسه : يالها من حياة كالموت : وربح خير منه الخسارة : لقد ضاع حظى فى هذه الوظيفة ، ولكن من يدرى ؟

ولم يكن له أن يرضى من الغنيمة بالبقاء فى العاصمة ، يعيش حيناً فى كنف قريبه الموظف فى الحكومة وآناً يحفزه الشباب للوثب والمغامرة فيأوى إلى نُزل صغيرٍ فى حى نيكولسكوى لقربه من الدواوين وبُعده عن مركز الثراء والزهو فى العاصمة حيث مراتع الغزلان ، ومواطن الفتنة ، ومعارض الزينة الرائعة ، ومظاهر الغِنى والنشب ، وكان لأول عهده بيطرسبرج (وهى دنيا عريضة بالنسبة لأورالوف وعاصمة القاطعة الشاملة لقريته) يدهش لما اجتمع لأهل هذه الحاضرة من أسباب الترف ، ودواعى الاسراف والتبذير ، ومختلف المُتَع التى لا تنازعها إياها أية عاصمة أخرى

وكان إذا قادته قدماه إلى الأحياء الرائعة فى الثراء يتحرق على نعيم الدنيا الذى يرى آثارَه المغرية فى العجلات الجارية والسيارات المتسابقة ، والشوارع الرحبة ، والمخازن الحافلة بأنواع المتاجر ، والحوانيت الزاخرة بثمين الحلى والجواهر ، والعمائر العالية ذات الطبقات الممدودة ، والحدائق الغناء ، والظلال الوارفة للأشجار المنضدة ، والمغانى الآهلة بالغوانى ، والمراقص المرددة لرنات المثالث والمثانى ، ويرمق بعين الدهشة جماعة المياسير الذين اتخذوا من الحياة تلهية ، ومن أسباب المسرات وسيلة لمدافعة الملل وإيقاظ الشهوات التى رانت عليها التخمة والسآمة فزهدوا فيها وتعلقوا بها فى آن ، يأكلون من الأطعمة أشهاها وأحلاها ، ويعيشون أرغد الحياة وأترفها ، معافين فى أبدانهم ، لا يأخذهم حر ، ولا يزعجهم برد ، ولا يعوقهم عن السعى إلى ملذاتهم مطر ولا رعد ، إن أدركتهم علة فالأطباء والصيادلة لديهم يحضرون ، وإن طاف بهم طائف الضجر فألف وسيلة تطرده عنهم وهم لاهون ، يسيرون فى الأرض مختالين فخورين ، يكادون يهتفون بالناس

(١) الروبل عملة روسية قديمة قيمتها إثنا عشر قرشاً

« أن انظروا ! وسبحوا وإن شئتم فاحسدوا » متوهمين راحة الضمير وقرة العين بما قسمه الحظ لهم من صنوف المنح على رغم أنوف الحاقدين والمحرومين...

ولو أن ساشا برافسكي كان من معدن غير معدنه لسخط وحقد ، ولاتهم الزمان والمكان والناس بأنهم سبب ما يعانى من حرمان وفقر ؛ وساءه أن أمه المسكينة كانت ترجو أن تباهى به العاصمتين[1] وهى جائعة فى كسر بيتها القروى . ولو أنها رأته الآن لازوت خجلا من بساطة شأنه وهو يطوى شوارع المدينة الكبرى على قدميه صباح مساء ، وأعظم منه شأناً فى نظره تلك النحلة الواقفة على زهرة فى غابة لفاء تبحث فى حناياها عن رزقها المقسوم . وفى تلك اللحظات كان يتذكر ماضيه القريب وحياته فى حضن والديه وأحضان الطبيعة الساذجة ، والأحلام التى كانت تداعب مخيلته الفتية وترسم أمامه مستقبله فى معاهد الفنون كأحد طلابها النابغين ، وكان قليل الذهاب إلى الكنيسة ، ولم يجد فى العاصمة ما يغذى فى نفسه عاطفة الدين

وقد كان أصدقاؤه الأولون من طبقة الموجيك مؤمنين وفى قلوبهم ذرة من الجحود الذى سببه الفقر والجهل ، أما أصدقاؤه فى العاصمة فلحدون ، وليس فى قلوبهم شعاع من الإيمان : وكان فى وسعه أن يغشى دار قريبه ، حيث يلقى الترحيب والإكرام ولكنه كان من التعفف والإباء بحيث يعز عليه أن يفطن أحد من أقاربه إلى سوء حاله . ومن هنا تعرف الكسندر (ساشا) بطائفة من الشبان الذين ساعدهم الدهر بالانضمام إلى صفوف الأكاديمية ،

والفتيات اللواتى تحررن وغلبن آباءهن على أمرهم وأقنعنهم بمشاركة الشبان فى اجتناء ثمار العلوم العالية وتلقى العلم معهم على أستاذ واحد فى صفوف الجامعة

وفى اجتماع للطلاب والطالبات التقى بدليانا التى كانت تعاشر كهلا من كهول الثورة على مضض ، وكانت إذا التقت بساشا فى حضرة الكهل لا تميز حديث عشيرها سمّاً ولا وعياً ولا لفتة ، مندفعة فى الاستيلاء على لب الشاب الفنان بحديثها الجذاب الذى كان ينصت إليه فلا يفوته من تعاريجه والتوائه حرف واحد ، وفى تلك الفترة كان ساشا قد أخذ بأهداب الفن وعرف لدى أساتذته بحسن الذوق ، ودقة البصر ، والقدرة على تمييز الألوان ، وخلط الأصباغ ، ولكنه أبى أن يدخل الامتحان أو يعرض لوحاته . وكان يتقزز كلما تذكر الموظف الكهل ، ذلك السخيف الذى حرمه الالتحاق بالأكاديمية . وكان أبوه يبعث إليه بالرسائل ، ويأخذ عليه المواثيق أن يحتفظ فى قصره المأمول بمكان رحب ليصون فيه شيخوخة أمه من الفقر وذل المسغبة .

والأم تكتب إليه خفية أن يسرع فى إتمام عمله ليربح منه ما يكفى لإراحة والده المكدود من تعب السعى على الرزق والإكباب على الأرض التى تجودُ حيناً وتماطلُ أحياناً . فكان الولد يعد والديه وهو حانق ، لأنه ما زال فى رحاب الفن يؤمل أن يملك ناصيته ولو بعد حين . أما المرأة التى تعرفت إليه وأعجبت بفنه فقد استهوته وخدعته وحسنت له أن يوزع بين أقرانه رسالة أدبية ، وكان الكسندر سليم القلب حسن النية فلم يعلم ما تحويه الأوراق التى قبل تفريقها ، ولم تكن سوى المنشور الذى

(١) بطرسبرج وموسكو

أدى به إلى الخروج من العاصمة مكبلاً بالحديد إلى سجون سيبريا الموحشة وما زال ساشا يحفظه عن ظهر قلب كأنه إصحاح من العهد القديم ، يتلوه على مهل ، وأخذ يلقيه على مسامع صديقه فيكتور فيدورفسكي الذى أنصت إليه : « عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود سوف يتلو أبناء الأجيال المقبلة صفحات من تاريخها تقطر أسطرها دماً ، لأنها كُتبت بالخناجر فى لحوم الرجال ، ولا سيا العظماء منهم الذين دافعوا عن أوطانهم ضد المظالم الصارخة ، ووقفوا وجهاً لوجه حيال الدوقات (١) أهل الغدر والخنا

« عند ما تزول دولة القياصرة من الوجود ، ويَحْشُر الحقّ جل شأنه كل تلك الأمم فى يوم العرض العظيم ، ستبعث بعض النفوس سوداء كالفحم ، لأنها أبت أن تخرج من الدنيا إلا وقد أساءت إلى من أحسن إليها واستكبرت !

« عنـد ما تزول دولة القياصرة من الوجود سيُكشَفُ للذين سمعوا بمجدها ، وقرأوا بدهشة الاعجاب ، عن أخلاقها المزجاة ، وفضائلها المزيفة ، وعظمتها الكاذبة تلك العظمة القائمة على الباطل فانهم سيعلمون أنهم كانوا من المخدوعين ...

« عنـد ما تزول دولة القياصرة من الوجود سيعلم الذين شهدوا وأحفادهم مصرعها أن الله قد أهلك أكبر دولة بناها الشيطان واستعان فى بنائها بكل القوى الكامنة فى الظلام المرعب المخيف ، تلك القوى التى لبست وجوه الخفافيش لتخفى وراءها نجاسة الأجيال ، ورجس أعوانه ، وقسوة الضوارى الجائعة ، وإن الشيطان الأكبر بعد أن شاد هذا البنـاء الهول ودعمه وزينه وجَمَّله نصب أعواد ملاعبه لتابعيه ليلعبوا أدوارهم فلعبوها ، ولكن أنصاف البشر الذين شاركوهم تفوقوا عليهم وسبقوهم واختلقوا صنوفاً من الشر وألواناً من الأذى عجز عنها أعوان الشيطان فغضب إبليس وهدم البناء على رؤوس ساكنيه

« عنـد ما تزول دولة القياصرة من الوجود ستفضح قوة القوى المسيطرة على الكون أسرارهم وتنشر بين أيدى الملأ أخبارهم التى دونوها بأقلامهم ونطقت بها ألسنتهم ، وتأتى أيديهم وأعينهم وجوارحهم شاهدة عليهم

« عند ما تزول القيصرية من الوجود سيترحم الملائكة والناس على الذين نبـذوهم وأبغضوهم واحتقروهم واضطهدوهم وطاردوهم لأنهم ضحايا تلك الدولة وفرائسها البريئة ، فلا توجد حيلة ولا مكيدة ولا خبث ولا حبالة ولا فخ ولا نفاق ولا دسيسة إلا ووردت سجلات تاريخها المشؤوم

« لقد كان (المنبوذون) من أبناء الشعب عيالاً عليهم فى طمعهم وجشعهم ولؤمهم فتجسدت هذه الفظائع فى أرواح قادتهم وساستهم وزعمائهم ، فلم تعرف قلوبهم الرحمة ، ولم تذق نفوسهم الحنان ... يصفون العدل والحرية والمساواة كأنهم يشعرون بها ، ويتخذونها تُكأةً ومسنداً للموجيك البائسين فى عزلتهم

« عند ما تزول القيصرية الظالمة من الوجود سينادى منادٍ فى السماء وفى الأرض : « ألا إنَّ الأرض قد طُهِّرت من المظالم التى أهرقت الدماء

(١) سادة روسيا القيصرية دوقات وغراندوقات

البريئة . ألا إن الأرضَ قد طُهِّرَت من المظالم المفضوحة . ألا إن الأرض قد طهرت من النفاق والعدالة المزعومة . ألا إن الأرض قد طهرت من إجرام السياسة ورجس الحياة الملوثة ومنكرات المجتمع . ألا إن الأرض قد طهرت من النفاق الأسود والخبث الأصفر . ألا إن الأرض قد طهرت من اللصوصية المزوقة والخيانة المستخفية والغدر المندَسّ في زوايا الخديعة . ألا إن الأرض قد أنقِذَت من الكذب المتغلب الذي قتل الصدق وضربه على أم رأسه بهراوة الباطل فصرعه وولغ في دمه ...

« ألا إن الأرض قد خلت من مظاهر الدعوى بالفخار الكاذب والخداع الذى طال أمد حكمه وفشا ظلمه وتحكمت إرادته فى ضمائر الشعب المغلوب على أمره

« ألا إن الأرض قد نظفت من التزوير والحنث في الأيمان والوعود الكاذبة

«ألا إن الأرض قد نجت من الوعود الباطلة التى سموها « كلمة الشرف »

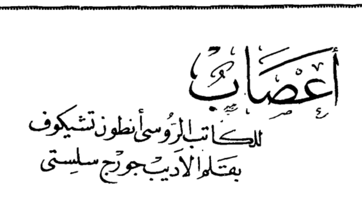
ألا إن الأرض قد طهرت من قطاع الطرق فى البر والبحر الذين لبسوا القبعات العالية وتقمشوا بالثياب الغالية ، وأخفوا أيديهم الملطخة بالدماء بقفازات من جلود ضحاياهم فى قلعة بطرس وبولص ، وفى سجون سيبريا التى يكتنفها الجليد من كل حدب وجانب »

كان ساشا يتلو من الغيب كأنه يقرأ فى صحيفة مفتوحة بين يديه ، لا يقف ولا يتلعثم ولا ينسى ولا يخطئ ؛ حتى لقد ذهل ڤيكتور فيدوفسكى مما تلاه صديقه القديم ، ولكنه لم يستطع أن يقف تيار حديثه الجارف فقال له :

« وكيف استظهرت هذا كله ؟ »

قال : عمراً طويلاً قضيته فى سجون سيبيريا ، كنت أتلوها صباح مساء ، حتى لقد جعلتها صلاتى لأنها سببت شقوتى وسجنى . أما المرأة دليانا فقد شنقوها ، نعم شنقوها فى بطرسبرج ، وأما والدتى التى كانت تنتظر البر والخير على يدى فقد ماتت ولم تذق منهما شيئاً . والآن ها قد عثرت بك لتحملنى إلى ... السجن أو إلى القبر الأبدى . واغبرّ وجهه ، وارتعدت فرائصه ، ووقع على الأرض ميتاً ، فلم يكن سلامه إلا وداعاً ، وحديثه إلا نذيراً بدنو أجله . وكان مصيره إلى ... إلى المشرحة ...

محمد لطفى جمعة



رَجَتْ « مدام فاكسين » قرينها المهندس أن يأذن لها بزيارة كنيسة « السيدة » في (ترويستا) ليلاً ، وفاء لنذر ، على أن تعود في الصباح الباكر فلم ير بداً لدى إلحاحها من أن يلبي طلبتها وينزل عند رغبتها ، ولم يجد هو بعد ذهابها مندوحة له من قضاء أمسيته عند أحد أصحابه فراراً من وحشة العزلة في منزله المنفرد ، وتزجيةً لوقت يلذ فيه السهر ويستطاب السمر

ولقد شاء طالعه المجدود أن يكون المنزل الذى أمّه غاصاً بالساهرات والساهرين من الأتراب والأحباب ، يتساجلون فى فتون من غير تيه ، ويتطارحون الحديث سمحاً لا تكلّف فيه ، وما عتم بعد أن اطمأن به مجلسه أن ساهم معهم فى فنون القول ، وخاض معهم فى كل بحث ؛ ولما أثارت إحدى الغانيات مسألة قراءة الأفكار ، وتحدثت عن استدعاء الأرواح ، راح هو يتدفق فى كلامه عن الأرواح ومناجاتها كالخطيب المصقع ، وروى لهم شتى الأحاديث عن اختبارات كبار العلماء فى هذا الفن وآرائهم فيه ، وعن تجاربه الشخصية التى قام بها بنفسه ، وأبى إلا أن يقرن القول بالعمل ، فطلب كأساً وخواناً ليجري عليهما تجربة أمامهم تأكيداً لما قال، وإثباتاً لما روى، وإن هى إلا لحظات حتى كان الأوانس قد تألبن حوله وساورنه وحتى كان الصحاب قدأندسوا بينهن حياله وكلهم يرنو إليه بطرف سادر لا يحير ، ويترقب حضور تلك الروح التي كان قد همّ باستدعائها من علياء سمائها بتمتمات إن أدركوا أقلها فاتهم إدراك جلها ، وغمغمات ماتبين أوائلها حتى تغمض أواخرها، ولما عيل صبرهم أو كاد لفظ اسم المرحوم عمه بصوت خافت ملؤه الضراعة والتوسل ، وطلب إلى روحه المرفرفة فى فضاء اللانهاية أن تنحدر من سمتها الرفيع إلى مجتمعهم الوضيع ، وأن تتنازل فتجيب إن كانت ترى مانعاً يحول دون تسجيل منزله باسم زوجته غداً قبل أن يدهمه الموت المفاجىء نظراً لعلة ضعف القلب التي ألمت به منذ أمد بعيد واستعصى على الأطباء علاجها

وساد الصمت الرهيب ارجاء الثوى فى فترة انتظار الجواب العتيد ، ولم يلبثوا أن سمعوا جميعاً صوتاً يكاد يكون همساً إلا أنه واضح النبرات يقول: « إن كل شيء حسن فى أوانه » فأدهشهم ماسمعوا وكان له فى نفوسهم أثر بليغ

وانتقل بعد ذلك الحديث من مناجاة الأرواح إلى شخوصها وبروزها ، فكان للأوانس فى هذا الباب القدح المعلى ، إذ طفقت هذه تذكر كيف

تراءت لها روح أبيها ماثلة على الحائط بشكل يهول الرائي ويرعبه فى ليلة من الليالى الماطرة القرة ، وقد نبا بها مضجعها ، وانتفى الكرى عن مقلتيها ، وكيف أن الروح اتخذت أوضاعاً مختلفة على ضوء السراج الخافت الموضوع أمام صورة العذراء حيال سريرها مما روّعها وأثار مخاوفها ؛ وراحت تلك تقص عليهم ما سمعته عن القصر القديم المهجور من روايات أقل ما يقال فيها إنها تشيب الوليد ، ويقف لها الشعر هولاً ورعباً ، وتساءلت عن مدى الحقيقة فى تلك الأقاصيص ؛ فانبرت لها عانس شوهاء انطلقت تثبت أن للجن وجوداً ، وأن الأرواح كثيراً ما تتراءى إما بهيئات وحوش ضارية أو أناسى لا تملك رؤيتها الشاعر فحسب ، بل كثيراً ما تعقل اللسان وتكمّ الفم وترمى المرء بعد ذلك بمرض عضال لا برء منه ولا شفاء ؛ وأن المقابر مراح الجن ومغداه ، والويل ثم الويل لمن تحدثه نفسه أن يجوس بين الأضرحة فى ليل حالك الاهاب فالطامة الكبرى من غير بدّ واقعة عليه

وهنا تطوع أحد الحاضرين للحديث ، لا ليزيد فى متعة الأحاديث بل فى رهبتها ؛ وكان إلى تلك الآونة منصتاً إلى ما يقال دون أن يتكلم ، فراح على ذكر الأضرحة والمقابر يروى قصة فتى غيسانى الشباب مات على ما تراءى لأهله وبناء على ما أثبت الطبيب ، فوورى الثرى بين الآهات والعبرات ؛ إلا أن عابرى السبيل حيال المقبرة سمعوا مساء اليوم الذى دفن فيه صوتاً خافتاً كخرير المياه فى جوف وادٍ سحيق بعيد النور ، فدفعهم حب الاستطلاع إلى تقصى الأمر واستجلاء كنهه ، فدخلوا المقبرة وطافوا بين الأجداث متتبعين مصدر الصوت المحتضر الرهيب ، فلما بلغوا ضريح ذلك الفتى المنكود أدركوا الحقيقة المرّة ، فهرع بعضهم ينبئ دائرة الشرطة وانكفأ البعض الآخر على القبر يحفره ويرفع ما هيل على التابوت من التراب

ولما أقبل رجال الشرطة كان هؤلاء يعالجون النعش لرفع غطائه ، فأمر القائد الشرطى أن ينسحبوا من الحفرة وأن يعالج النعش بالفتح اثنان من رجاله . فخضع هؤلاء للأمر وتقدم الشرطيان لفتح غطاء التابوت ، وما كادا يرفعانه معاً حتى رفع الدفين الحى رأسه وأرسل صيحة مدوية تركا الغطاء على أثرها يقع عليه ، وأغمى عليهما .

وأقبل الحاضرون لنجدتهما ، على حين تقدم الباقون لرفع غطاء النعش مرة أخرى ، بقلوب واجفة ووجوه مصفرة ذهب بلونها هول الموقف الرهيب !

ولشدّ ما آلمهم مرأى ذلك الفتى المسكين ، مجروح الرأس ، مخدّد الوجه من آثار أظافره التى أعملها فيه ، جاحظ العينين ، أزرق الأديم ممزق الكفن . وعبثاً حاولوا إيقاظه ، فإن البائس كان قد لفظ آخر أنفاسه ، وكانت صيحته الأخيرة أمامهم آخر اختلاجة فيه ، فيا للفتى الموءود !

وما بلغ الرجل من روايته هذا الحدّ حتى كان بعض الأوانس قد امتقعت منهنّ الألوان واكفهرّت الملامح ، ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فنهضوا جميعاً يودع بعضهم بعضاً ، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى انفرط عقدهم وارفضّ جمعهم ومشى كل إلى طيّته ونفسه تزخر بشتى الأحلام والرؤى ، إلا أن فاكسين كان أشغلهم بالاً بالجنّ والأرواح ، فعاد إلى منزله المنفرد

وصورة ذلك الفتى المنكود الذى دفن حياً ما تزايل مخيلته ، وأوى إلى فراشه وخيال الجثة لم يبرح ماثلاً أمام عينيه

قال فاكسين فى نفسه : « إن الحيـاة لتزخر بالغرائب ، وإن في الوجود من المخاوف والمروّعات ما لا يلمّ به عدّ ولا يدركه إحصاء ، ولـكن الرجل من كان حديد الإرادة ثابت الجنـان ، فليست الجثث هى التي تخيف وإنما هو المجهول الغامض ؛ وأنا ما كنت فى يوم من حياتى جباناً ولا رعديداً ، ولن يعرف الخوف إلى قلبي سبيله ، والآن .. فلأنم ؛ فقد آن لجسمى أن يستوفى قسطه من الراحة »

ووفقاً لقراره هـذا أغمض عينيه ، وحاول أن يغفو ، إلا أن النوم قد جفاه ، وسعى لينزع الأوهام من خاطره ، إلا أنها كانت تكتظ فيـه وتتراكم عليه قاتمة سودا

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ومازال الرجل يراوح بين جنبيه لعله يجد النوم فلا يسعده طالعه ولا ينال مأمله

وأطل برأسه من تحت دثاره فوقع نظره على رسم عمه الفقيد الذى ناجى روحه منذ ساعة ، لا يكاد يضيئه شعاع السراج الضئيل الموضوع أمام إيقونة العذراء فى أقصى الغرفة ، وما عسى أن يضىء هذا النور الشاحب المتراقص أبداً أمام حفيف النسيم الناعم ؟ !

وتساءل فاكسين عما ينتابه لو ظهر له خيال عمه حينذاك ؛ غير أنه لم يلبث أن طرد هذا الخاطر المزعج من رأسه لأنه على مارأى بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلاً ، لا سيما أن شخوص الأرواح لا وجود له إلا عند الواهمين ، وليست رؤى الجن إلا ثمرة العقل المخبول ولئن حق له أن يسخر من رفاقه إذ يوهمهم أنه ينـاجى الأرواح ويستدعيها فتهرع إليه ، إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يسخر هو من نفسه فيؤمن بما يثق كل الثقة من بطلانه ، أو يعتنق مبدأ يعده لغواً وهراء وشعوذة

تلك هى آراؤه التى كانت تجول فى فكره ، ولـكن ما قيمة هذه الآراء ما دام الواقع يدحضها عنده وينفيها ، وما يجدى المرء اعتقاده أن شخوص الأرواح وهمٌ على حين يكون هو نفسه فريسة هذا الوهم ، لا يقوى على الإفلات من عقاله أو الانطلاق من إساره ؟ !

وراح فاكسين يحاول أن ينجو من براثن الأشباح ، فكان يغطى رأسه كله بدثاره ويطبق عينيه بشدة ويرغم نفسه على النوم إرغاماً . غير أن الأشباح كانت ما تفتأ تتخطر أمامه ، والرؤى لا تنفك غادية رائحة أمام باصرتيه ، والنوم شريد أنأى ما يكون عن عينيه

ولقد مثل له خاطره المروع رسم الدفين الحي يتقلب فى نعشه ، وتراءى له ساعياً ينفض عنـه الأكفان فيرتطم رأسه بغطاء التابوت فيشج ، ويستغيث بملء فيه فلا تخرج الاستغاثة من حلقه إلا كنداء المبحوح لا يكاد يسمعه أدنى الناس إليه . وتمثلت له صـورة المرحومة زوجة عمـه ساعة احتضارها وصورة أخ له حميم علق على أعواد المشنقة وصورة فتاة كانت من أحب الفتيات إليه وآثرهن عنده ابتلعها التيار الجارف وطوتها الأوذاى الصاخبة في مهاويها البعيدة الأغوار !

وحاول المسكين أن يدفع عنه أفكاره مرة أخرى ولكنها ما كانت لتزداد إلا قرباً منه فيهلع فؤاده الخوار

ولقد عاوده وهو تحت غطائه شيء من الثقة بالنفس وقليل من الجرأة التي كان يتبجح بها ، وأقر في نفسه أن هذا الذي يبدو منه خور لا يليق بمثله ، وضعف من العار أن يثبت عليه ، وعزم عزماً صادقاً على أن ينهض من فراشه دون ما خوف ولا وجل ليظهر أمام نفسه بمظهر الجسور وليريها أن الشجاعة لديه ليست ادعاء كاذباً ولكنها حقيقة لا يعوزها دليل ولا إثبات ، ولكن يأبى سوء الطالع على ما يظهر إلا أن يلازمه ، فما كاد يرفع رأسه حتى لامس جبهته جدجد كان قد دخل من النافذة طائراً ولجناحيه حفيف كخشخشة الأوراق المتناثرة عند ما تذروها الريح . فارتاع أيما ارتياع ، وعاد فكمن تحت الدثار في مثل ومض البرق الخاطف ولفؤاده وجيب يتجاوب في أذنيه صداه

ورن جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة في ضاحية القرية ، رنات بطيئة محزنة تملك المشاعر ، وصر الجدجد فوق السرير صريراً يكمد النفس ويشجي الفؤاد على حين كانت الساعة وراء الحائط تنشد أغنيتها الموزونة من غير وني ولا إبطاء فتزيد المكان رهبة على رهبة

أحس فاكسين كأنما النمل يحبو على ظهره ، فعرت جسمه المجهود قشعريرة هزته هزاً ، وتراءت له صورة عمه كأنها قد تجسدت وتملصت من إطارها وأكبت عليه تنفح رقبته أنفاسها الباردة فاستولى عليه ضيق شديد خيل معه إليه أن يدي عمه الباردتين تضغطان على عنقه حتى اختنق أو كاد نخانته قواه ، ولم يبق في مقدوره أن يتجلد أكثر مما فعل ، فتعلقت أنامله المرتجفة بخيط الجرس تحت وسادته تعلق الغريق بآخر أمل له في الحياة ، وجذبه بعنف يستدعي خادمه ليستعين بمرآه على تنفيس كربه ، وما هي إلا دقيقة أو اثنتان حتى أقبلت قيمة الدار صائحة من وراء الباب :

— « لقد أذن سيدي (لكلافديه) بزيارة أهله في المدينة وليس في المنزل أحد سواي ، فهل يريد سيدي أن أقوم له بخدمة ؟ »

وهبط هذا الصوت الأنثوي عليه هبوط الفرج على البائس الحريب ، ووجد فيه أنساً يبدد مخاوفه بعد أن ناله منها ما ناله من عنت وضيق ، فأفرخ روعه واطمأن باله قليلاً ، وتجرأ فرفع رأسه من تحت الدثار ، وقال وقد ضرج الحياء خديه :

— آه ! أهذه أنت يا (روزاليا كارلوفنا) ؟ لقد جشمت نفسك مشقة المجيء إلي بعد أن كنت غافية ، تفضلي وادخلي

— ماذا يريد سيدي مني ؟

— إنك حقاً ذات قلب رقيق وخلق كريم ... كنت أود ... آه ... ولكن تفضلي ادخلي ياعزيزتي روزاليا ... ليس ثمة ماتخجلين منه ، فالقنديل مطفأ وأنا في السرير ، ادخلي

ودخلت قيمة الدار وهي ألمانية ذات جسم بدين وعليها مسحة من الجمال الأنثوي المغري ، وخطت خطوتين اثنتين ثم وقفت تنتظر أمر سيدها الذي سري عنه لدى دخولها ، وتنفس الصعداء

كمن يلقى عن كاهله عبئاً يبهظه ويفدح قواه ثم قال :

— أرجو أن تجلسي يا عزيزتي روزاليا ، أتعلمين ماذا أريد ؟ !

وتنحنح وهو ينظر بطرف عينه إلى صورة عمه ويفكر فيماذا عساه أن يطلب منها في مثل تلك الساعة المتأخرة في الهزيع الثالث من الليل ، ثم رفع رأسه إليها وقال :

— آه ... ! كنت أود أن أكلف الخادم بشراء غليون غداً ، ولقد عزب عن بالي أني أذنت له بزيارة أهله ... ولكن لا بأس : فهل لك أن تبلغيه رغبتي لدى عودته ... ؟ ! ولكن اجلسي بربك !

— غليون ؟ ! هيه ! أقول للخادم أن يبتاع لك غداً غليوناً ؟ ! جميل حقاً ما تطلب ياسيدي !

وهزت رأسها باستخفاف وهزء ثم استأنفت :

— وبعد فماذا تريد ؟

— أريد ... إيه يا روزاليا ... عليك بالله أن تستريحي على الأريكة ريثما أفكر في شيء آخر أكلفك بتبليغ (كلافديه) شرائه

— هيه ! أخطأت يا سيدي كل الخطأ فيما ذهبت إليه ... ! لا لن أجلس ! وليس من اللياقة ولا الأدب أن تجلس فتاة شريفة في غرفة رجل بعد منتصف الليل !

قالت ذلك بلهجة جمعت بين الغضب واللين ، وهمت بالانصراف ، فاستوقفها وطلب إليها مرة أخرى أن تنزل عند رغبته فتستريح على المتكأ ولو هنيهة واحدة ثم تذهب ، غير أنها أبت ، وفار دمها واحمرت وجنتاها وصاحت به :

أرى أنك رجل خليع متهتك ... أنا لم أسمع قبل الساعة أن خادماً يستدعيها سيدها من فراشها لأجل غليون ! أَوَ تحسبني جاهلة ؟ إني أعلم حق العلم ما تروم مني !

ودارت على عقبيها وعادت أدراجها إلى غرفتها بعد أن أغلقت وراءها باب سيدها حانقة غضبى . فلم يُبْدِ فاكسين ولم يُعِد . وحسبه أن حضورها إليه وحديثه معها قد أزالا عن صدره كابوساً من الهم كان يرهقه وإن يكن في قرارة نفسه قد خجل من ضعفه ، وجذب الغطاء عليه وراح يتلمس النوم بعد ذلك الهدوء النفساني ... ولكن دون جدوى فكأنما تعادى النوم وأجفانه فصد عنها وجفاها

ومضت عشر دقائق سرعان ما تصرمت ثوانيها ثم عاد الخوف إلى فؤاده ، فتمثل لاعناً تلك الساعة التي فاته فيها قدماه إلى منزل ذلك الصديق الذي حفلت الأمسية عنده بالأحاديث عن الأرواح والجن والموتى ، ومد يده إلى المنضدة قرب سريره ليتناول علبة الثقاب فلم تعثر أنامله المعيَّشة عليها

وتراءى له أن شيخاً عملاقاً جاثماً في زاوية الغرفة يرمقه بالنظر الشزر ويتهدده بقبضة يده القوية وأن عيني عمه تخزرانه (١) بنظراتهما ، فتضاءل واستخذى ، ثم استجمع إرادته الموزعة وعزم على أن يستدعى الفتاة الألمانية من جديد لتؤنسه ، وسينتحل لنفسه عذراً مقبولاً كالمرض مثلاً ، ويطلب منها أن تأتيه بالدواء

ودق الجرس ، ولكن دون جواب ، فروزاليا كانت قد غفت وراحت تسبح في نوم

(١) خزر فلاناً : نظره بلحظ عينه كبراً واستحقاقاً

عميق . وكرر الدقّ ، ولكن دون جدى ، ولم تطرق مسمعيه حركة ولا نأمة اللهمَّ إلاّ دقات جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة ، وكأنما تقرع رداً على قرع جرسه ؛ ثم ساد الصمت الرهيب ، وعراه ذعر شديد ، وأحس بأعضائه تتقرس ، فلم يجد وسيلة ينجو بها مما هو فيه إلاّ أن يقفز من سريره ويهرع إلى غرفة القيّمة يلوذ بحجرتها

ونهض من سريره فعلاً ويمم حجرتها حافى القدمين وليس عليه من الثياب إلاّ قميص نومه . وقرع بابها بيده فلم تجبه ، وناداها باسمها مراراً فما ردت عليه ، ولقد أدرك أن اللعينة تسمع نداءه وتتصامّ فقال لها بلهجة المتوسل الضارع :

— روزاليا ... أنا مريض ... أسعفيني بزجاجة الدواء ... أتفهمين ؟ ! أرجو منك أن تسعفيني حالاً فأنا العليل واقف ببابك ... إيه ... لا أفهم والله لهذا التعنت سبباً ... ولا أفقه معنى لهذه الحدة تبدر منك لى ... ولا سيما أنى محرور ، وبى صداع أليم لا طاقة لى على احتماله

— سأقص كل شىء على زوجتك يا سيدى ، وسأروى لها الخبر بحذافيره ؛ سأعلمها عن تصديعك خاطرى من أجل ... آه منك يا هذا ؛ سأنبئها عن هذا كله إن لم ترعو عن غيّك وتثوب إلى رشدك ؛ ألا تريد أن تدع فتاة شريفة مثلى ؟ ! عند ما كنت عند البارون « ازبج » أقبل إلىّ حضرته كما أقبلت إلىّ أنت الآن بحجة التفتيش عن علبة ثقاب ، ولكنى وأنا الذكية أدركت بداهة أية علبة ثقاب كان يبتغى فعنّفته وزجرته ، وهرعت إلى البارونة أطلعها على الأمر وقلت لها إنى شريفة طاهرة الذيل

— ليحمل الشيطان شرفك وطهرك ، فأية غُنْيَة لى فيهما أيتها المتوهة . إنى مدنف عليل يعوزه الدواء ... أتفهمين الآن ؟ !

— أنا أدرى منك بالدواء الذى تحتاجه ، إليك عن بابى يا سيدى ، فزوجتك شريفة وإن عليك أن تحبها هى وتخلص لها الحب ؛ إنها مثال الأمانة والوفاء والطهارة والورع وهى تستحق منك كل رعاية وتقدير وإنها بهما لجديرة . أنا لا أريد أن أكون عدوتها ، وليس لى أن أنافسها فى هواك

— إنك حمقاء ، أجل إنك حمقاء ؟ !

قال ذلك وهو ينزو غضباً ، ثم أسند ذراعه إلى الباب ، ورسم إشارة الصليب على صدره ليطرد بها الأشباح من مخيلته الواهمة المضطربة ، وطفق يحدق فى سكون ذلك الليل البهيم بنظر تائه وفكر شريد ؛ ويفكر بما تبقى له من عقل : أيعود إلى غرفته حيث تتراقص أضواء الشمعة الشاحبة ، وحيث يرى رسم عمه الذى يفزعه بنظراته الجامدة الحادة ، وتخيُّلُ الأشباح المروعة ... و ... ؟ لا ولكن أيبقى حتى الفجر حافى القدمين واقفاً على باب القيّمة بجلبابه الرقيق ؟ إن هذا لا يليق بمثله ؛ ما العمل إذن ؟ .. إنه لا يدرى

ودقت الساعة الثالثة وهو لا يزال على وقفته تلك يفكر تحت ستار الدجى الحالك ، تساوره المخاوف وتحف به الرؤى . ولقد غدا من شدة هلعه يحسب أن للأبيرعيوناً ترمقه ، وأن الأرض ملؤها الأشباح المنبثة فى كل مكان تسلب الناس راحتهم وتعكر على البشر صفوهم

وخيل إليه أن جنياً مارداً واقفاً وراءه يصغى

إلى همسات روحه ، ويحصى عليه أنفاسه الزواخر ، وأنه يمسك بذيل جلبابه يشده منه ، ثم أحس كأن يداً من جليد وضعت على كتفه ، فقفّ شعر رأسه من الرعب ودفع الباب بكلتا يديه وهو ينادى القيمة باسمها بصوت مأخوذ كصوت المبحوح ، مستطار اللب ، زائغ النظرات ؛ ودخل غرفتها وأغلق وراءه الباب

كانت الفتاة الشريفة قد استرسلت فى نومها الهادئ العميق على نور سراج يرسل أضواءه الصفراء على جسمها الهانئ المتنعم بلذة الرقاد

ووقف فاكسين برهة يستعيد فيها بعض قواه الخائرة ثم ارتمى على عيبة(١) قرب الباب تؤنسه أنفاس الفتاة النائمة ؛ وشعر بالطمأنينة تعود إليه رويداً رويداً

قال فاكسين فى سره : فلتنم هى ، وأما أنا فسأبقى حيالها حتى الصباح وأترك حجرتها قبل أن تستيقظ

واعتمد رأسه على راحته وطفق يفكر في هذا الذى انتابه ، وعجب كيف تستحوذ عليه الأوهام ، وهو المهندس الأريب إلى هذا الحد القصى . وعزا ذلك كله إلى وهن أعصابه الهائجة وخور نفسه ولم يلبث أن استولى عليه النعاس فأغفى

***

وعادت مدام فاكسين من (ترويستا) فى الصباح الباكر ولما لم تجد زوجها في غرفة نومه دخلت غرفة الألمانية لتطلب منها شيئاً من النقود كى تدفع الحوذى الذى أقلها أجرته ، فوقع نظرها على روزاليا متمددة فى سريرها وقد سقط عنها دثارها فظهر فخذاها العاريتان البضتان وبانت تكاوين جسدها العابل فاتنة مغرية ؛ ورأت على قيد ذراعين منها زوجها فاكسين مستلقياً من غير غطاء ولا دثار على العيبة الكبيرة بجلبابه الفضفاض يغط فى نومه غطيط البكر !

أما كيف أيقظته زوجته من رقاده وماذا حدث بينهما بعد أن شاهدته فى ذلك الوضع الزرى الشائن فما أدع وصفه لسواى يعبر عنه بالنطق الذى يروقه والبيان الذى يشوقه ، فأنا وقد كلّ ساعداى ووهنت قواى أرفع يدى مستسلماً وألقى سلاحى

جورج سلستى

(١) زنبيل من أدم تحفظ فيه الثياب

أول ابريل

للأديب نجيب محفوظ

في منتصف الساعة السابعة صباحاً وصل على أفندى خليفة إلى المدرسة التى هو سكرتيرها ، كعادته منذ خمسة عشر عاماً ، وباشر أعماله بالأسلوب الذى تعوده وألفه فصار قطعة من صميم حياته ، إذ أن كل ساعة من حياته الحكومية كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتبدل ولا تتغير : يدخل إلى « حجرة السكرتارية » فيحيى زملاءه ـ الكاتب والضابطين ـ تحية الصباح ، ويجلس إلى مكتبه ثم يحضر عم خليل بالقهوة والماء المثلج ، فيمضى فى احتسائها وهو يتحدث إلى القاعدين أو يستمع إليهم ، ثم يأخذ فى فتح الدفاتر ويراجع ويكتب . ثم تخلو الحجرة حين يذهب الآخرون إلى فناء المدرسة لمراقبة التلاميذ وتنظيم صفوفهم ؛ ثم يخف بعد ساعة من الزمن إلى لقاء الناظر لعرض الأوراق واستشارته فى بعض الأمور وتلقى الأوامر والارشادات . وإذا جاء اليوم الأول من الشهر ازدحمت حجرته بالمدرسين والموظفين وامتلأت يده بالأوراق المالية ، فلا يزال يوزعها حتى لا يبقى إلا وريقات معدودات يودعها جيبه ساعة ريثما يوزعها بدوره أشتاتا على صاحب البيت والقصاب والبدال

هكذا تدور عجلة حياته فتبدأ من نقطة وتعود إليها ، ثم تبدأ وتعود بحيث لو شذت عن الخط المرسوم مقدار ذرة — كأن يتأخر عم خليل بالقهوة دقيقة أو يدق الجرس فيبطىء الضابط لحظة فى مغادرة الحجرة — قلق واضطرب واهتز رأسه يمنة ويسرة مثله مثل النائم فى ظل ساقية دائرة إذا وقف الثور لعلة انتفض مستيقظاً منزعجاً ! إلا أن طارئاً من الحدثان نزل بساحته أخيراً فبدل طمأنينته رعباً وسكينته قلقاً وتفاؤله تشاؤما ، وكان الكاتب يعلم بخبيئته من دون الآخرين لأنه كان أحب الناس إليه وأقربهم مودة إلى قلبه ، فلما رآه فى هذا الصباح دنا منه وفنجان قهوته فى يده وسأله همسا :

— كيف حالك ... ؟ فأجابه بصوت ضعيف تمزقه نبرات اليأس :

— يسير من سيئ إلى أسوأ

— ألا يوجد بصيص أمل ... ؟

— أبداً ... أبداً ... لا بيع ولا شراء ... الحركة راكدة ... والديون متراكمة ... والتجار يطالبون ويلحون ولا يعذرون ، وبات شبح الافلاس منى قاب قوسين أو أدنى ... فإذا وقع ـ ولا مرد له ـ خربت خراباً تاماً ودمرت حياتى وحياة أولادى تدميراً وهويت إلى أعماق السجون

فتنهد على أفندى من قلب مكلوم وقال بصوت خافت :

— لا أمل فى النجاة

فسكت الرجل محزوناً ثم ذكر أمراً فسأله :

— وعمتك ... ؟

— أف ... أف ... لا رحمها الله فى دنيا ولا آخرة ... إنها تودلو تفقد ذاكرتها كيلا أخطر لها على بال ... ولقد انقطعت عن زيارتها مضطراً منذ حين لأنها لا ترانى حتى تصيح فى وجهى: «ماذا جئت تصنع ؟ ! أنا لم أمت بعد ! » والمرأة تتبرع كل يوم عشات الجنيهات للجمعيات الخيرية لا حباً فى الخير ولكن كيلا تخلف لى مالاً بعد موتها المتوقع يوما بعد يوم

فهز الرجل رأسه آسفاً وقال :

— ليتك يا على لم ترم بنفسك فى ميدان التجارة غير المأمون ...

— هذا هو الكلام الذى لا جدوى منه ... ومع هذا هل تنكر أن هذه التجارة هى التى يسرت على أمرى ، وجعلت عيشى رغداً ... وأعانتنى على تربية ستة من الأبناء ؟

***

قبل ثلاثين عاماً كان على افندى تلميذاً بالمدرسة الابتدائية يجتهد أن يفوز بشهادتها ، وقد جرّب حظه مرّات فى سنين متتابعة ، فخاب مسعاه فيها جميعاً ، حتى نفد صبره وذوى أمله . ورأى أبوه أن يفتح له حانوت عطارة فى النوربة ، لبث فيه عامين يناضل في معترك الحياة ، ولكن لم يكن حظه فى حانوته بأسعد منه فى مدرسته ، فاضطر إلى إغلاق الدكان ورجع خائباً إلى بيت أبيه . وهناك فكر فى أمر مستقبله طويلاً فوجد أن خير طريقة ، أو أن الطريقة الوحيدة الباقية لديه هى أن يعود إلى نبش كتبه التى نسج عليها العنكبوت ، وأن يجرب حظه مرة أخرى كتلميذ مجتهد وإن تقدّم به العمر ؛ وفعل ونجح ، ووظّف كاتباً فى وزارة المعارف . واطمأن إلى الحياة بعد أن أشرف على اليأس والقنوط ، وغبط نفسه على عمله المضمون الرزق ، وأحس فى أعماق نفسه بفخار الرجولة ونشوة الاستقلال. ولما كان عرضة للتنقل إلى أقاصى الوطن آثر — عن حكمة — أن يتزوج . وقد جاب مختلف البلدان فى مصر العليا والسفلى إلى أن انتهى به المطاف رجلاً فى ذروة الرجولة إلى مدرسته الحالية فتقلب فى وظائفها جميعاً حتى رقى إلى وظيفة السكرتير

وكان على خليفة مثالاً للرجل العادى الذى لا يخرج عن المألوف ، وأنموذجاً صادقاً للأخلاق المصطلح عليها والعادات والتقاليد التى يجري بها العرف ، لا يشذ إلى اليسار ولا يجنح إلى اليمين . وجد كل شىء جاهزاً فهش له وآمن به واتبعه ، معتقداً مع المعتقدين ، مستحسناً مع المستحسنين ، ساخطاً مع الساخطين ؛ فإن عرفت جيله فقد عرفته بغير مخالطة ، وإن خبرته فقد خبرت جيلاً أو — وهو الأقرب إلى الحقيقة — خبرت الشطر الجامد من الجيل الذى يفتحه التاريخ إلى ما وراءه من الأحداث التى تخلق التاريخ . ولما تزوج استولت عليه الحياة الجديدة ، واستبدت به ، وتكشفت له حقيقته ، فإذا به « رجل بيت » بكل معانى الكلمة ، فالبيت مأواه ولذته ، لا مقهى ولا ملهى ولا سينما ولا حانة ولا أصدقاء ولا هواية ولا أى شىء فى الوجود بقادر على أن ينتزعه من أحضان بيته . وحين كان يعيش منفرداً مع زوجه كانت حبيبه وأنيسه وجليسه ، فلما أن انبثت ذريته — بنين وبنات — حايسة ساعية لاعبة مشرقة

على أنحاء البيت ، كان له منها الحبيب والهوية والمأوى يسكن إليه

وكانت الحياة تسير فى بادئ الأمر هنيئة جميلة ممتعة ، لا يكدر صفوها مكدر ، ولا يظلل صفحتها البيضاء ظل من الحزن أو الفكر ، ولكنها لم تلبث أن فرضت عليه ضريبتها التى لا تعفى منها أحداً من بنى الإنسان ، حتى صارت عبواناً عليها ورمزاً لها ، وباتت الشكوى منها إنكاراً للحياة نفسها وجهلاً فاضحاً بأمرها ، فمات أبوه ونما أطفاله صبياناً وغلماناً وهجروا عشهم سعياً إلى المدارس الأولية فالابتدائية ثم الثانوية ، وتعددت حوائجهم ، وتشعبت مطالبهم وتضاعفت نفقاتهم يوماً بعد يوم ؛ فانقلب يسر الحياة عسراً ، وراحتها تعباً ، وابتسامتها تجهماً ؛ وانسابت الهموم إلى كل جانب من قلبه ، وطفق يردد لنفسه أن كل شىء يهون إلا أن يشقى أو يشكو هؤلاء الأبناء الأعزة

وتذكر أن له عمة أرملة غنية تعيش بمفردها فى بيت كبير تحت رعاية ممرضة ، وكان يتجافاها وينفر منها من طول ما بث أبوه فى نفسه ، ففكر فى أن يقصد إليها مضطراً

وكانت عمته امرأة فى السبعين ، مات عنها زوجها — قبل اربعين عاماً — وهما فى زهرة العمر وميعة الشباب ، وخلف لها ثروة طائلة وطفلاً وحيداً ، وقد ترك موت الزوج فى نفس المرأة آثاراً عميقة مروعة تغلغلت فى صميم حياتها ، ولم تعف مع كر الأعوام ودوران السنين . وأقبلت على العزاء الوحيد الذى بقى لها فى دنياها تمنحه كل ما فى قلبها الحنون من عطف وحدب وتفان وتضحية ، حتى شب طفلاً جميلاً ، ونما شاباً رقيقاً نحيلاً ؛ وبدأت تفكر فى أمر زواجه ، كى تراه رب أسرة وتسعد بمشاهدة ذريته ، إلا أن الأقدار فاجأتها بما لم يقع لها فى حسبان ، فتردى الابن كما تردى أبوه العزيز من قبل مصدوراً ميؤوساً منه ، وقضى بين السعال من جانبه والتنهد والبكاء من جانبها

انتهى كل شىء وأقفرت الدنيا من الأمل والعزاء ، وماتت حية ودفنت مع ولدها الحبيب كل ماميزها الله به عن الأحجار الجامدة ، وصدق عليها كل ما وصفها به أخوها من قبل وما يصفها به ابنه الآن ، فهى المرأة العجوز القاسية المجنونة التى تكره الخلق وعلى رأسهم أقاربها ، وتسيء الظن بكل من يتقرب إليها ، وتخال أى زائر طامعاً فى أموالها ، وتقضى حياة الكبر طريحة الفراش مريضة القلب تسهر عليها ممرضة فى بيتها المهجور كأنها مومياء فى أحد معابد الكرنك الحزينة

هذه هى عمته التى قصد إليها بعد أن اشتدت وطأة الحاجة عليه ، وقد استقبلته استقبالاً بارداً جافاً فلم يأنس فى نفسه الشجاعة أن يفاتحها فيما جاء من أجله ، وبرح بيتها أشد يأساً مما طرقه

وقلب مسألته على جميع الوجوه فلاح له أن يشتغل بالتجارة وهو حل لا بأس به ولكنه شديد الخطورة بالنسبة لموظف حكومى . ولكنه لم ييأس واستعان بالكتمان والخفاء وبخبرته التجارية التى اكتسبها فى أول عهده بالحياة العملية . فاتجر فى العطارة ونجحت تجارته ، وأقبلت عليه الحياة رغدة ، ولكن حال النجاح لم تدم ، فساءت الأمور ، وركدت السوق النافقة ، فجزع واشتد جزعه ، ولعبت يداه فى الدفاتر بغير الحق ، ولم ينفعه تلاعبه شيئاً ، وسارت الأمور من سىء إلى أسوأ ، واضطر

— تحت تأثير الخسران — إلى زيارة عمته مرّات وفاتحها — على رغم تردّده — فى طلب المعونة ولكنها كانت أشدّ عليه من حظه ومن الأقدار جميعاً، فرفضت أن تمد له يداً أو أن تعيره أذناً صاغية.

وفى ذلك الوقت بلغت الأمور شدة الفيضان الذى لا يكون وراءه إلا الانفجار والهلاك، فالعمة فى أشد حالات الشذوذ وسوء الطبع والمرض، وعلى أفندى على شفا جرف هار من الخراب والدمار، والتجار متذمرون جزعون، يطالبون ويلحفون ويطبعون على آذانهم فلا يسمعون، وقد عينوا له أول أبريل كآخر منزع فى قوس صبرهم، فان لم يسدّد دينه ويسو حالته أشهر إفلاسه، وليكن مايكون بعد ذلك من رفضه من وظيفته أو إيداعه السجن . . .

كل هذا ينتظره فى أول أبريل . . ! وما بينه وبين أول أبريل إلا أيام معدودات ! .. وقد نفدت حيلته وسدت فى وجهه المنافذ ! . . ثم ماذا يكون من أمر هذه الأسرة التى هي ثمرة حياته ومحيا آماله ؟ ! .

هذه الأسرة التى تعيش سعيدة مطمئنة غافلة عما يهددها من الشقاء والبأساء، اللهم إلا ربتها الصابرة القانتة التى تشارك الزوج أحزانه وتبادله همومه وتكتم فى قلبها الكبير ما لو أطلقته لأحرق الدنيا بأسرها من شدة ما به من هول، ولأحرق أول ما يحرق هؤلاء الأبناء السعداء الذين يمرحون سادرين كالأفراخ اللاعبة الغافلة عن القط الرابض لها من قريب . . . وذكر فى شدة حزنه أبناءه فهرعوا إلى مخليته فى صورة تفيض حياة وجمالا . وكان حسين ومحمد فى المدرسة الثانوية فتيين ناميين يحملان طلعة والدهما ورقة أمهما، وهمام وحافظ ويسن في فى المدرسة الابتدائية وهم حياة البيت يحيا ويعلى هرجاً ومرجاً ما داموا فيه، ويسكن سكون المقابر إذا غابوا عنه، وزينب أو زوزو فى المدرسة الأولية هوية الأسرة ولعبتها، صبوحة الوجه، سوداء العينين، مرسلة الشعر، كانت بنتاً بين ستة ذكور كالياسمينة وسط باقة من الورد الندىّ، حبيبة إلى كل قلب، عزيزة على كل نفس، حتى لكأن هذه الأسرة لم يتزاوج فيها الوالدان ويولد الأبناء إلا ليهيئوا المقام لزوزو حيث كانت حسن الختام ونقطة الانسجام

فماذا يكون من أمر هذه الأسرة من بعده ..؟ بعد أن يرفض من وظيفته ويزج به فى السجن ..؟ أواه ! دون ذلك ويمكن المستحيل وتقع المعجزات والخوارق . ! !

ولم يجد مناصاً من أن يذهب مرة أخرى إلى عمته علّها تلين بعد طول التصلب والصلف والقسوة، فسار فى طريقه إليها — وكانت تقيم على مدى منه قريب فى شارع محمد على — مهموماً متضايقاً يعمل ألف حساب لتلك الزيارة الاضطرارية الثقيلة . يا لله من هذه المرأة . . ! ما لها لا تموت . . ؟ إن حياتها فرض ثقيل عليها وعليه، وإنها كالبنيان المتهدم ينعق فيه ناعق الخراب والمرض . ورغم هذا فذبول الحياة ما تزال متشبثة بها . إن سعادة نفوس عزيزة رهن بموتها فلم يبقى الله عليها ؟ والمضحك المؤلم أنها قد تموت فجأة بداء قلبها بعد اليوم الأول من ابريل بساعات معدودات أو بعد القضاء عليه وعلى أسرته القضاء المبرم . وقد ينفذ هذا القضاء العجيب كما ينفذ أمثاله كل يوم وكل حين مما تحتار فى تعليله العقول، وقديماً وقف موسى الكليم حياله جزعاً لا يستطيع معه صبراً ! وطرق الباب ودخل حيث قابلته المرضة بابتسامة صفراء ذات معنى، فسألها :

— كيف حالها ؟

فأجابته بيرود : بخير

ووصل إلى مسمعه صوت رفيع مبحوح دلت بشاعته على أنه يخرج من فم خرب يسأل :

— من الذى تكلمين يا عائشة ؟

فارتجف جسمه وسرت فيه قشعريرة مثل مس الكهرباء، وتردد، وجمد، ثم كز على أسنانه ودخل إلى الحجرة وهو يقول :

— أنا على ... كيف حالك يا عمتى ؟

فدمدمت وقالت بتأفف وتبرم : على !

فأحنى رأسه ووقف صامتاً وعادت هى إلى سؤاله قائلة :

— هل جئت حقاً لتطمئن على صحتى ؟

— نعم

— وهل يهمك أمر صحتى ؟

— طبعاً

— إذا لم تخلط السؤال عنها بسؤال شىء آخر ؟

فضرب كفاً بكف وقال بصوت حزين :

— لا تظنى بى الظنون ... فقد عشت دهراً لا أسألك شيئاً ثم ...

— ولم تكن ترينى وجهك بتاتاً ... ولم تكن صحتى أمراً يهمك السؤال عنه ...

— بالله أعيرينى أذناً صاغية ... لقد شرحت لك أحوالى ... أنا مهدد بالخراب بين لحظة وأخرى. اصرفينى عن ذهنك واذكرى أبنائى البؤساء وما ينتظرهم من شقاء ...

— لم أر أبناءك طول حياتى ...

فآلمته لهجتها التهكمية وحمى رأسه بنار الغضب ولكنه لم يكن في حال يأذن له باعلان مايبطن، فنظر إليها نظرة النمر الواقع فى الشرك وقال وهو يجهد أن يجعل صوته هادئاً :

— إذا منعت عنى يدك دمرت لا محالة ...

وهنا هبّت قاعدة فى فراشها وصاحت فى وجهه

— فى داهية !

— عمتى ...

— لست عمة لأحد

— لا تكونى هكذا

— هكذا أنا ... أعزب عنى ولا ترنى وجهك مرة أخرى

وحاول أن يقول شيئاً ولكن لم يسعه الكلام، فجمد لحظة حيث هو ملتهب العينين ، محمى الرأس ، مرتعش الأطراف، ثم غاب عن ناظريها . ولقى فى الخارج المرضة واقفة تنصت ، فقابلته بنفس الابتسامة وقالت :

— ككل مرة !؟

فهز رأسه غاضباً وقال :

— إنها شر ما فى الوجود ... إننى أعجب كيف يؤاتيك الصبر على معاشرتها ؟

— إنى أقوم بواجبى ... وهى على كل حال لا تعاملنى نفس المعاملة ...

وتوقف لحظة لايدرى ماينبغى أن يفعل، فلاحت منه التفاتة إلى مائدة صغيرة رصّت عليها زجاجات الدواء فتنهد وقال بغير وعى :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة !

ولم تكن المرة الأولى التى تسمعه فيها المرضة يقول هذا القول فارتاعت لتكراره ورددت قوله مرتعبة :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة ! !

فنظر إليها بسرعة مرتجفاً والتقت عيناها لحظة فلمع بينهما ما يشبه البرق ، ثم خرج مهرولاً وهو ينتفض من هول ما خطر على باله ، وهبط السلم مسرعاً كأنما يفر فراراً ...

* * *

وجاء اليوم الأول من ابريل ، والأيام تسير فى دائرتها المفرغة غير عابئة بما تحمل للناس من مسرات وأهوال لا اختلاف فى هـذا بين يوم التطير أو يوم التفاؤل ، ولم يكن هـذا اليوم جديداً فى العام ولا جديداً فى حياة على افندى ، ولـكن خيّل إليه هذا الصباح أنه يستقبله لأول مرة فى حياته بل عجب كيف أمكن أن يوجد كبقية الأيام وكيف أمكن أن يأخذ مكانه الطبيعى بين أيام السنة وهو يحمل له نذير الخراب ولأسرته الشقاء والفناء ! ...

أواه ! إن موعده مع التجار أصيل هذا اليوم ، ولدى هذا الأصيل يتقرر مصيره . وانه ليعلم علم اليقين أى طريق هو موليها بعد حين قليل ... بعد ساعات سريعة الجريان ...

ومع هذا فها هو ذا يجلس إلى مكتبه يرتشف القهوة ويقلب الأوراق ويشترك فى الحديث مع هذا وذاك ، وكل من حوله منصرف إلى عمله ، والتلاميذ فى الفناء يضجون ويلعبون ، والحجرة هى هى ، والمدرسة هى هى ، والدنيا كلها هى هى ، كأن شيئاً لن يحدث ، وكأن دماراً مروعاً لايوشك أن ينزل بحياة أسرة كبيرة فيذروها ذر الرياح ! !

والمضحك بعد هـذا أن يقال إن الإنسان حيوان عاقل ، وهل يستطيع إنسان أن يرد بنور عقله قضاء يعجز الحيوان عن رده لانعدام عقله ؟ ها هو ذا لا يستطيع أن يصرف عن نفسه دماراً يعلم به قبل وقوعه ، وكم غير هذا الدمار -- مما يجهل — قريب لا يستطيع حياله تصريفاً . حقاً إن الحياة مأساة مؤلمة مضحكة ، ما الذى ينبغى أن يفعل ؟ ... إنه يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة المائة والألف ولا يملك إلا تكراره وترديده كالمخبول ... وقد سمع فجأة صوتاً يقول :

حان الميعاد ...

فارتجف جسمه وانخلع قلبـه فى صدره ... الميعاد ... إنه لا يفـكر إلا فى ميعاد واحد ولـكن الصوت استطرد مرة أخرى ضاحكا :

الساعة تدور فى الحادية عشرة فهيا إلى الوزارة لاحضار المرتبات ...

حقاً إن اليوم يوم المرتبات ، ينتظره آلاف غيره بفارغ الصبر فـكيف نسى هـذا ؟ وخرج متثاقلا مهموماً يولى وجهه شطر الوزارة ؛ وعلى حين فجأة وبغير تمهيد واع اصطدم فـكره الشارد المتوزع فى محيط الشقاء بفكرة وامضة ، فتنبهت حواسه ، وشع من عينيه بريق خاطف ، وأحاط به الرعب الذى مسه حين التقت عيناه بعينى المرضة فى بيت عمته بالأمس القريب . لاحت له هذه الفـكرة فى لحظة سريعة جنونية ، رآها كمن يفتح عينين ناعستين فى الظلام فتلمحان على غير توقع شبح شيطان نارى ، يهدد ثانية ثم يختفى تاركا خلفه الصرع والجنون . وقد جن بغير شك ، واستولت عليه الفكرة بقوة مارد مستبد . أى رعب ، أى شر ، أى مصيبة ، أى نجاة ، أى فـكرة نيرة ، أى خلاص ، أى دمار ، أى هول ، انهـا تحمل جميع هذه المتناقضات إلى نفسه المضطربة المريضة ، وإن من اليأس ما يعجز عن قلقلة ذرة من الرمال ومنه ما يزحزح الجبال ،

وقد جرى منطقه المحموم فى طريق ذى عوج : إذا سرق كان جزاؤه المحتوم الرفض والسجن ، ولكن إذا لم يسرق لم ينج لا من الرفض ولا من السجن ... إلا أن النتيجة مع السرقة تختلف ، فهو بها يستطيع أن يكسب التجار وينقذ تجارته فيضمن لأسرته — وأسرته هى قطب تفكيره — حياة رغدة سعيدة ، بل إنه ينوى ما هو شر من هذا وأعظم رعباً ، إنه ينوى أن يراود المرضة — بسلطان المال — على ... ! ! حقاً إن هذا فظيع مخيف ... ولكن تأخير الدواء لحظة كفيل بالقضاء على تلك المرأة الشريرة ، التى تقع من حياته موقع الزائدة الدودية الملتهبة ... حقاً إنها جريمة نكراء ولكنها مضمونة العاقبة وعادلة من الوجهة الانسانية ... ونفاذها يضمن لأسرته أرغد العيش وأطيبه . وهب أن المرضة أبت عليه تحقيق غرضه فلن يضيره إباؤها شيئاً ، وتبقى بعد هذا تجارته ، وهذا شىء مؤكد . نعم إن السجن لا مفر منه ولكنها سنوات قلائل يقضيها — مع الاطمئنان على أسرته — صابراً ويخرج بعدها كي يتمتع بعيشة هانئة ثرية فى مكان سحيق ... كل هذا واضح بيّن ولا بد من تنفيذه بدقائقه ، وليكن بعده ما يكون ...

واستلم المال واستقل « تاكسى » وقال للسائق بصوت حاول ما استطاع أن يجعله هادئاً : إلى شارع محمد على . نعم إلى البيت لا إلى المدرسة حيث يجد متسعاً للتفكير والتدبير ، كم هو مرتعب خائف ، إن أسنانه تصطك ، وأطرافه تنتفض ، وأجفان عينيه تتصلب ، وريقه يجف ، وأنفاسه تبطىء وتثقل كأن يداً جبارة تخنقه

ووصلت السيارة إلى شارع محمد على ، ودلو لم تصل إليه أبداً . وكان قد دبر الأمر كله فى عقله ولكنه شعر فى تلك اللحظة بأنه فى حاجة إلى معاودة التفكير مرة أخرى من مبدئه كأنه لم يطرقه بعد . وهنا اعترضت الطريق عربة كبيرة عرقلت حركة المرور فاضطر السائق إلى إيقاف السيارة ، فنظر إلى الأمام ليستطلع ما هنالك فرأى العربة وإلى جانبها شرطى يهدد سائقها ، ربّاه ! لقد أرعبه مشهد الشرطى وأثلج دمه فى عروقه ، وهم أن يأمر السائق بالرجوع ... وعلى حين فجأة سمع صوتاً يناديه قائلاً :

— بابا ...

فالتفت مذعوراً فرأى زوزو واقفة على سلم السيارة ، ووجهها الجميل قريب منه ، وكانت تمسك بحقيبتها فى يد وتعالج بالأخرى الباب لتدخل إلى أبيها . فلما كان لها ما أرادت جرت إليه فرحة مسرورة ، فمنعها بيده وسألها بسرعة ولهجة جافة :

— لم أنت هنا ؟

— أنا آتية من البيت حيث كنت أتناول غدائى وذاهبة إلى المدرسة

— حسن ... حسن ... هيا إلى المدرسة بسرعة لئلا تتأخرى

— انتظر ، عنـدي لك خبر سار ... هل تشتري لى شيكولاته نسله إذا قلته لك ؟

— ليس الآن ... هيا ... هيا ...

— عمتى ...

— فجمد لسانه فى فيه ونظر إليها نظرة غريبة ففرحت البنت لأنها لفتت انتباهه إليها وقالت :

— ماتت

— ماتت عمتك ! !

فرت هذه العبارة من فه فى صراخ مدوٍّ ... فازداد فرح الفتاة وقالت :

نعم ... هذا ماقالته لى حميدة « الخادمة » لما سألتها عن تغيب ماما على غير عادتها

وصرف زوزو بعد أن وعدها خيراً وأمر السائق وهو يلهث بالذهاب إلى المدرسة ، نعم إلى المدرسة ليسلم بدوره الأمانة إلى مستحقيها . لقد أتاه الفرج دفعة واحدة . لقد أنقذ بعد أن تدلى جسمه فى الهاوية ، أنقذ من الافلاس والخراب والسرقة والجريمة والسجن . رباه ! انه لم يقدر هذا ولم يحلم به أبداً وما كان فى مكنة مخلوق مهما رسخ إيمانه أن يقدّر هذه النهاية أو يحلم بها ... فالحمد لله ... الحمد لله ...

وانصرف من المدرسة سريعاً قاصداً بيت «المرحومة» ووجده كما تعود أن يراه هادئاً ساكناً لاصوت ولا مجيب . فطرق الباب ثم دخل ، وقابلته الممرضة وكانت محافظة — برغم كل شىء — على هدوئها ، وقد سألته منكرة :

— أجئت مرة أخرى ؟

فنظر إليها دهشاً وقال :

— ما أغرب سؤالك ... ألست على كل حال ابن أخيها !

واجتاز بها مسرعاً إلى حجرة المتوفاة ... فرآها مستلقية على ظهرها ورأسها مائل نحوه ، مفتحة العينين ، بل رآها — وهو الأدهى — تنتصب قاعدة وتشير إليه بيدها الضعيفة مهددة وتصيح فى وجهه :

— كيف تجرؤ ؟ كيف تتجاسر ؟ ألم أطردك طردا ؟ أخرج ... أعزب عن وجهى ...

والظاهر أن المرأة تأثرت من الغضب الذى تملكها فجأة فسقطت على المخدة من الإعياء والجهد وصدرها يرتفع وينخفض . ووقف أمامها مبهوتاً جامداً كالتمثال ، ذاهلاً لا يستطيع كلاماً ولا حركة كأنه ينظر إلى شبح مرعب لا إلى امرأة عجوز منهوكة القوى . وما أحس إلا يد الممرضة تسحبه إلى الخارج ، فاستسلم لها طائعاً وغادر البيت دون أن ينبس ببنت شفة

وقطع الطريق إلى بيته والذهول مسدول عليه ، وكان البيت يخيم عليه السكون ـ كعادته ـ إذ الأولاد فى المدرسة ، فظنت زوجه لأول وهلة أنه آيب من مكان عمله كعادته اليومية ، ولكنها مالبثت أن طالعت ما يكسو وجهه من آيات التجهم والذهول فتملكها الروع والذعر وظنت أن ما تشفق من حدوثه وترجو الله أناء الليل وأطراف النهار دفعه قد وقع ؛ وفزعت إلى سؤاله وهى أكره ما تكون للسؤال :

— ما بالك ؟

فسألها بدوره بامتعاض :

— أين زوزو ؟

— لعلها فى الطريق إلى البيت ...

فصاح بغضب :

— هذه الطفلة الشريرة !

— زوزو شريرة ؟

— قابلتنى فى الطريق منذ ساعتين وكذبت علىّ الشيطانة قائلة إن عمتى ماتت

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بدهشة :

— كيف تجرؤ ؟ من أين لها هذا الكذب ؟ هذا أمر عجيب .. بل إنه أعجب شىء أسمعه فى حياتى ..

لعل البنت وهي تسمعنا دائماً نتمنى على الله موت عمتك — أرادت ... »

ولم تتم حديثها إذ دق الباب ودخلت زوزو . وما إن رأت والدها حتى رمت حقيبتها وجرت نحوه ضاحكة وقفزت إلى حجره وأحاطت بيدها عنقه ثم قالت وهي لا تسكت عن الضحك :

— هل اشتريت لي الشيكولاته كما وعدت ؟

فنزع يدها الصغيرة عن رقبته بشيء من العنف ، وحدجها بنظرة قاسية ثم سألها بخشونة وهو يدفعها عن حجره :

— كيف تكذبين عليّ ؟

فقالت وهي لا تكف عن الضحك وإن بدأت تدرك صعوبة الاستيلاء على الشيكولاته :

— في أي يوم نحن ؟

— إني أسألك كيف تكذبين عليّ ؟

— اليوم أول أبريل . . . وقد علمت أنه يجب على الناس أن يكذبوا فيه .. وهكذا قالت لي بثينة ، وقد سألت (أبله) فأمنت على ماقالت بثينة ، ولكنها نبهت عليّ أن أختار كذبة سارة كي لا أوذي أحداً ... وقد اخترت لك أحسن كذبة ! »

فقطب وجهه وقال لها بشدة :

— لعنة الله عليك وعلى أول أبريل ... هل يصدق الناس طول العام كي يلهوا بالكذب في أول أبريل ! ... »

وهنا فقط أدركت زوزو أنها أخطأت وأن والدها غاضب عليها حقاً ، وأنها فقدت كل الأمل في الشيكولاته ، فكفت عن الضحك وعلا محياها الارتباك ، واحمرت وجنتاها من الخجل ، ونظرت إلى أمها تستغيث بها . أما أبوها فقد قام متثاقلاً ودلف إلى حجرته حزيناً كئيباً ينوء بالهم والفكر ، ولحقت به زوجه وانتبذت ركناً من الحجرة في صمت ووجوم ووقفت ترمقه بعينين كئيبتين وقلبها يحدثها بدنو شر مستطير ، ولكنها لم تجرؤ على تمزيق هذا الصمت الثليظ . انتهى الأمر وخابت المحاولة الأخيرة وآذن الخراب بالوقوع

هل ينتحر ويضع حداً لهذه الحياة القلقة المنغصة ؟ لقد اضطرب عقله بهذه الفكرة الهائلة لحظة ، ولكنه تغلب عليها وفندها قائلاً لنفسه : « إذا انتحرت فمن للأولاد ؟ ... » ولم يجد أمامه سوى الاستسلام والنزول عند حكم المقادير

وظل الصمت مخيماً يزهق النفوس ، والمرأة واقفة حيث هي ، وهو قاعد على الكنبة مسنداً رأسه إلى كفيه ، وقد ظهر رأس زوزو من الباب لحظة ولاحت عيناها تدوران بين والديها ، ثم ارتدت مسرعة ، فارة مضطربة

ولبثا على حالها لا يشعران بفوات الوقت حتى تيقظا فجأة على طرق الباب ووصلت إلى مسمعيهما أصوات الأولاد ، وهم يدخلون واحداً واحداً يتقدمهم ضجيجهم وجلبتهم ، وقد دبت الحياة في البيت وتحول في ثانية إلى سوق ، وعلا صياح من هنا وصراخ من هناك ، وسمعت أصوات تنادي ، وأخرى تسب وتلعن ، وثالثة تنشد بعض الأناشيد المدرسية ، ورابعة تسأل عن ماما وبابا . ثم طرق الباب مرة أخرى بعنف ، ودخل شخص ما ، وساد صمت عجيب . ترى من القادم ؟ لقد دق قلب الرجل بعنف واعتدل في جلسته ، وعيناه تتساءلان ، ونظر إلى الباب كأنه يتوقع سقوط صاعقة ... ورأى حسيناً يدخل مسرعاً وسمعه يقول باضطراب :

بابا ... يقولون إن عمتي توفيت ...

فقام الرجل كالمجنون وحدج ابنه بنظرة هائلة فقال الابن :

حضرت المرضة الآن حاملة هـذا الخبر ... وها هي ذي واقفة تسأل عنك ... تفضلي إلى هنا ياسيدتى ...

***

فى ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم — يوم أول أبريل — جلس على افندى إلى جانب زوجه وكانت ما تزال فى ثوب الحداد وقد أوى الأبناء إلى الفراش وخيم السكون على البيت . كانت المرأة صامتة ولـكن كان وجهها راضياً مطمئناً وبالها مستريحاً وقد ولي عنها الذعر الذى لازمها أياماً خالتها دهراً طويلا

وكان على افندى يشعر شعور إنسان خطا قدما بغير وعى ، وإذا به يرى صاعقة تنقض على المـكان الذي كان يشغل ... قد كان السجن والرفض والدمار منه قاب قوسين أو أدنى ؛ وهاهو ذا يطمئن إلى مجلسه بين أسرته آمناً بمنجاة من كل دمار ، يستقبل من الغد حياة رغدة مترفة ، فـكم بالحياة من معجزات!

وعلى رغم كل هذا لم يكن سعيداً تمام السعادة، ولم يصف ذهنه كل الصفاء واستمر فى تأملات عميقة . لقـد عاش طول عمره حياة راكده راتبة ؛ أما الساعات القلائل — القلائل !! — الأخيرة فقد ابتلى فيها بما لم يبتل به فى عمره الطويل المديد إذ أثارت نفسه عقله وجعلت من بحيرة نفسه الآسـنة محيطاً مضطرباً عاصفاً

لقد خلصه الله من العذاب ، ولـكن هل يستحق الخلاص وهو الآثم الشرير الذى هم أن يقارف السرقة والقتل ؟ ثم عمته المرحومة ؟ إنه يدرك حالتها الآن بغير العقل الذى كان يصورها له ويعطف عليها بعد أن أمسى عطفه وقسوته لديها سيين ، فقد عاشت بائسة حزينة تجتر الهموم والآلام ، وكانت حياتهـا فرضاً ثقيلاً عليها وعلى الآخرين . نعم كانت قاسية شديدة ، فوق كل احتمال ، ومع هـذا فـكيف كان يمكن أن تكون غير ما كانت ؟ ومن يخلو من جانب بل من جوانب كريهة ؟ أليس هو فى أعماقه قاتلا سارقاً مدلساً ؟ وما هو إلا صورة تتكاثر وتتعدد فتكون عالم الناس ... ومع هذا فلا يجوز أن ينسى أن هـذا الشر غالباً ما ينكشف عن ضعف وجهل وبؤس ، كما انكشف شذوذ عمته عن ترمل وثكل ، وكما ينكشف تخبطه وسوء نواياه عن محبة فائقة لأبنائه الأبرياء ، وقد أذن الله فعالج الشر والبؤس برحمته ، والرحمة أسمى حلم فى الوجود ، ولـكنه لا يستطيع أن ينسى أيضاً أنها سبقت هنا بكذبة ابنته وموت عمته ، فكيف يكون الموت والـكذب من ممهدات الرحمة ؟

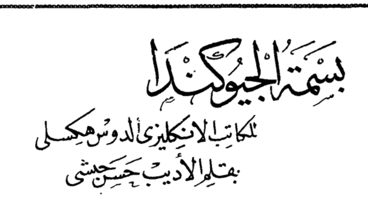
حقاً إنه مهما ادعى التأمل فسيبقى أمامه ما يعجز عقله ويربكه . وإذا كان أمر الدنيا على هذا النحو فلن يمنع الدمع الذى تبعثه مآسيها إلى العين الابتسام من اعتلاء الشفتين ، ولقد ضاق صدره وأرقه السهاد فهتف من أعماقه :

— من لى بزوزو الآن ؟.. فإن ابتسامتها العذبة ونظرتها الطاهرة ويدها الصغيرة لحقيقة بأن تصرف عنى أفكار هذا الليل وتسكب فى قلبى الطمأنينة والسلام ...

نجيب محفوظ



الدّنج
معناه
أوجاع الرأس
آلام فى الجسم
حمى
اسبرو
يمنع الدنج
هذا هو الدنج
لأنه يزيل أسبابها
اذا اردت ان تشفى الاعراض المتفرقة لمرض احتجت الى ادوية كثيرة ولكن «اسبرو» هو الدواء الوحيد الذى يحل محل اثنى عشر دواء لانه يصل الى اسباب المرض فيزيلها . ويعود السبب فى النجاح الخارق للعادة الذى ناله «اسبرو» فى مكافحة وباء الدنج الى انه يزيل الاعراض الظاهرة بمفعوله فى السبب الاصلى للمرض فيزيل آلام الجسم المريعة ويشفى اوجاع الرأس المؤلمة ويخفض الحمى فى ليلة واحدة . ومن الواضح اذن انه اذا كان «اسبرو» يستطيع ان يزيل كل هذه الحالات فمن المحقق انه يستطيع ازالتها واحدة فاخرى . فهو مثلاً يشفى وجع الرأس والضرس ويخفف كذلك آلام الروماتزم وعرق النساء والالم العصبى ووجع الظهر بقوة ملطفة وهو كذلك يشفى الارق ويخفف آلام الحيض عند النساء .
ومن المهم انه لا يضر القلب ولا المعدة ويقضى نهائياً على البرد والانفلونزا . فخذ قرصين منه مع شراب الليمون الساخن فى الليل فلا تجد اثراً للانفلونزا او الحمى فى الصباح
اسبرو
هو الدواء العالمى
ضد
الانفلونزا
البرد
الروماتزم
الارق
الصداع
التعب العصبى
الحمى
ولا يضر القلب
ولا المعدة
ASPRO
REG. TRADE MARK
يباع فى جميع الاجزاخانات ومخازن الادوية بالاسعار :
٢ قرصان ٥ مليمات ١٠ اقراص ٢½ قرشا ٢٧ قرصاً ٥ قروش
الوكلاء ج . پ . شريدان وشركاه



— ١ —

أقبلت خادمه الحسناء جانيت تعلن لمستر هتن قدوم سيدتها بقولها :

— ها هي ذي مس اسبنس قادمة على أثرى يا سيدي

— شكراً لك

بهذه الإجابة المختصرة أجاب مستر (هَتُن) دون أن يلتفت لخادمه جانيت اسبنس التي ارتسمت على وجهها أمارات القبح الدّال على خبث الطبع ولؤم السريرة ، فلا جرم أن كان مستر هتن شديد العزوف عن التطلع إلى وجهها إلا إذا أرغمته الظروف على ذلك . وأغلق الباب ، فظل هتن وحيداً ، فأخذ يذرع أرجاء الغرفة جيئةً وذهاباً ، متأملاً بعينين نفاذتين ما تحويه من فخم المتاع وفاخر الرياش

كانت هناك صور من زخارف اليونان وأخرى من معارض الرومان ، ورسوم ملونة من أروع ما خطته يد الطليان ؛ ينطق فنها بقيمتها وثمنها ؛ أما جانيت سبنس فقد كانت فتاة عاملة صريحة ، ذكية الفؤاد ، ذات ميل للفن وذوق رفيع ، وقد أكسبها ذلك معرفتها بفنان بارع ، ليس له من مأوى غير أفاريز الطرق ، رسم لها صورة رائعة ، ولم يتناول عليها أجراً سوى نصف جنيه ، على حين قد دفعت هي خمسة وثلاثين شلناً ثمناً للإطار وحده . لذلك طالما سمعها (هتن) تشيد بذكر هذه القصة . وكم كانت تغالى فى ذكر تقليده رسومها الزيتية قائلة بملء فيها : « فنان من الطراز الأول لا يأويه غير الشارع ! » وكان الحرف الأول من كلمة « فنان » يبدو واضحاً جلياً أثناء كلامها . وإنه ليخيل إليك وأنت تسمعها تتحدث عنه ، أنها قد نالت حظاً من عظمته بنصف جنيه قدمته أجراً له على محاكاته صورتها ؛ ولم تكن تنسى أن تثنى على حسن ذوقها وعمق بصيرتها ، فما أزهد الدهر فى مثل هذا الفنان ! وما أسعد جانيت العزيزة بما نالته من الأيام !

وقف هتن أمام مرآة مستطيلة مائلاً إليها بصدره قليلا ، ليملأ نظره من ملامح وجهه ، ثم أمرّ أصبعاً ليناً على شاربه الأصفر المجعد ، كأنما مرت عليه عشرون سنة ، بينما ظل شاربه حافظاً للونه ، لا يظهر فيه أثر للصلع إلا فى مقدمة رأسه كأنها رأس « شكسبير » كما قال حينما رأى صقالها واتساعها فوق جبهته . وكان يقول « إن كثيراً من الناس فى انتظار سؤالنا من غير سلطان عليهم ، وآخرون غيرهم على نحوهم فوق البحار ، فيالها من عظمة تزرى بعظمة شكسبير حتى ولو كان معاصرى اليوم ، بل

قلْ عظمة « مِلتن » أليس كذلك ؟ ملتن ؟ لا بل عظمة عذراء المسيح ! »

وكان النساء يسمينه « فتى الرجولة » فلا عجب أن أحببْنَـه ؛ وخاصة لأجل شاربه الأصفر وطباقه العطر

تبسم هتن ثانية ، وأخذ يتسلى بمداعبة نفسه قائلاً : « أترانى قد بلغتُ عظمة عذراء المسيح ؟ لا لا ! بل مسيح العذارى ! حسن جداً : مسيح العذارى » وودّ إذْ ذاك لو ألفى حوله من يستمع إليه ثم قال : « وا أسفاه ! إن لم تقدّر شأنى جانييت ! »

وانتصب بعد ذلك قائماً ، ومسح رأسه بيده ، ثم عاد إلى تطوافه فى الغرفة متأففاً من المناظر الرومانية لخلوها من مناظر البهجة والسرور ؛ وفجأة حاك الشك فى صدره مخافة أن تكون جانييت واقفة على باب الغرفة تسمع ما يقول ، فنهض ميمماً شطر الباب ، حتى ليخيَّل للرائى حين ذاك أن مستر هتن قادم على عمل إجرامى ، إذ أن صدور مثل هذه الحركات الصامتة كان يثير الريبة فى النفوس ؛ وتواردت الخواطر على ذهنه تباعاً مخافة أن تكون قد سمعت كل حديثه وشاهدت حركاته وما كان منه أمام المرآة ، ثم قال على حدة : « كلا إن هذا بعيد الوقوع » بيد أن هذا لم يذهب روعه

والتفت فرآها ، فذهب نحوها مبتسما ، ماداً يده لمصافحتها قائلاً :

— أى جانييت ! لقد ملأتنى عجباً ودهشة

فتبسمت هى الأخرى أيضاً ابتسامة الجيوكوندا

— وكان يدعوها بذلك فى لحظات الدعابة والمجون —

وإذ كانت جانييت قد اعتقدت فى نفسها تلك الصفة ، فقد حاولت أن تحيا وفق حياة « ليوناردوڤنشى » ،

وكانت إذا صافحت مستر هتن ، ابتسمت له فى سكون وهدوء كما هو شأن الجيوكوندا . . . ثم عاد هتن يقول :

— آمل أن تكونى بخير كما أتوسم

وإذ ذاك لاحت دلائل الدهشة واضحةً على جبينها ... كان لها فم صغير تضمه إلى الأمام فيشبه المنقار الدقيق وله فتحة صغيرة فى وسطه ، كأنما هيئت للصفير فكان أشبه شىء بشباة القلم تُرى من الأمام ، ويعلو الفم أنف جميل كأنه سطر بديع مستقيم ، ركّبتْ أعلاه عينان رجراجتان ، وكان يخيل لناظرها أن بهما انتفاخاً واحتقاناً ، ولكنهما جميلتان أخاذتان ، يظللهما حاجبان مقوّسان كأنهما خطان أسودان ، يزيدان جمالها هيبة وجلالاً ، ويكسو رأسها شعر فاحم رومانىّ أشبه بحاجبيها ، فكأنها غادة رومانية

أخذ هتن فى حديثه فقال :

— أحسبنى قد ظفرت بغنم فى طريقى إلى البيت ، وإنه ليحسن بى أن أعود إلى هنا ثانياً ، ثم أخذ يلوّح بيده مشيراً إلى أصص الزهر وأشعة الشمس وما تحت النوافذ من مروج سندسية ثم قال :

— أجل ! يحسن بى أن أعود إلى الريف بعد قضاء سحابة النهار فى المدينة

ثم أشارت إليـه جانييت ليجلس على كرسى بجوارها ، ولكنه أبى وامتنع قائلاً :

— حقًا إننى لا أستطيع الجلوس ، إذ أرانى مضطرًا للعودة لأرى ما آل إليـه حال « إميلى » لأنها كانت متوعكة المزاج بالأمس

لكنه جلس مواصلاً حديثه فقال :

— نعم إنها مصابة بيرد الكبد الذى كثيراً ما يعاودها ، ورأيي فى النساء ...

ثم سكت فجأة ، متصنعاً السعال رغبة منه فى إخفاء حقيقة سبقه لسانه بالتلميح إليها ، وكاد أن يزل فيذكرها ... كان يريد أن يقول : « إن النساء ضعيفات الجهاز الهضمى ، وأولى بهن ألا يتزوجن » بيد أن الإشارة كانت قاسية ، وما كان هذا الرأى صادراً منه عن عقيدة . ولكن جانيت كانت فتاة ذكية ، وتعرف ما بينه وبين إميلى زوجته ، ثم قال هتن :

— إن إميلى تود أن تعاقب لتراك على مائدة الإفطار غدا ، فهل لك أن تأتى ؟ ثم تبسم قائلاً :

— وإنى لأوجه إليك الدعوة ، فاعلمى هذا

طأطأت جانيت رأسها خجلاً ، فانتهز « هتن » رؤية احمرار خديها ، وعد ذلك غنماً جليلاً ، ثم مسح شاربه ، فقالت :

— فى نيتى الحضور لو كنت على ثقة بأن صحة « إميلى » ستمكنها من لقائنا

— أجل إن فى قدومك خيراً عليها بل علينا جميعاً ، ولثلاثة فى الحياة الزوجية أفضل عِشْرَةً من اثنين

— صه : ما أشبه قولك بعواء الكلاب !

حقـا ما كان أسرع هتن إلى العواء خصوصاً عند سماعه الكلمة الأخيرة ، فلشد ما كانت تثيره أكثر من أى كلمة أخرى . غير أنه خالف سنته هذه المرة ، فبدل أن يعوى أخذ يعارض قائلا :

لا : لا ! إنما أقول الصدق ولو كان مرّا ، وكما تعلمين لا تأتى الحقيقة مطابقة للخيال فى كل حين ، وإن كان ذلك لا يضعف من ثقتى فى الخيال الذى أومن به بقوة ؛ وخاصة الخيال المترتب على عقد زوجية يضم خلين متآلفين ، وأكبر ظنى إذ ذاك أنه أقرب إلى التحقيق ، بل أؤكد ذلك

وقف « هتن » متأملاً فيها ينظر إليها نظر المستريب قائلاً لنفسه :

— عذراء فى السادسة والثلاثين ولا تزال غضة حافظة لجمالها ! لا بد من شىء خفىّ يحوم حولها

غير أن جانيت لم تجب على ذلك بحرف واحد ، بل ظلّت مبتسمة ، وكثيراً ما كانت ابتسامتها الصامتة تملأ صدره غيظاً ، ثم نهض قائماً وقال :

— الآن حان وقت الذهاب ، فوداعاً أيتها الجيوكوندا الساحرة !

بيد أن الابتسامة استحالت دهشــة أطلت من فتحة ضيقة من بين شفتيها ، حينذاك انحنى هتن انحناءة فنية ثم قبّل أناملها المبسوطة ، وكانت هذه أول مرة نال فيهـا ذلك الغنم العظيم الذى لم يقابل من ناحيتها بامتعاض ، مما شجعه على أن يقول لها :

— إنى لأنظر إلى الغد بأمل فيك كبير

أحقاً ما تقول ؟

ولم يكن جوابه حينذاك إلا أن طبع على يدها قبلة أخرى ، ثم استدار ناحية الباب ، فرافقته إليه سائلة إياه : أين عربتك ؟

— تركتها عند مبدأ الطريق

— سأصحبك إليها

- لا لا ! ليس لك أن تأتى شيئاً من ذلك ، وأصارحك القول إنى أحتج على ذلك . لكنها فاجأته ببسمة الجيوكوندا ، ثم عارضته فى كلامه قائلة : « لقد عزمت على المجىء » فرفع هتن إذ ذاك

يده مظهراً عدم رضاه ، وبحركة غريبة قبّل يدها قبلة الوداع ثم شرع يجرى فى الطريق على أطراف أصابعه بخطوات واسعة أشبه بالصبيان ، وكم كان معجباً بهذه المشية الغريبة ، لكن سره أن المرحلة ليست طويلة ، وعند آخر خطوة ، وقبل أن يتوارى عند منعطف الطريق ، وقبل أن يتوارى البيت عن أنظاره التفت خلفه ، فأبصر جانييت لمّا تزل واقفة على الدّرج ، وابتسامتها لم تزايل شفتيها ، فأشار إليها إشارة الوداع ، وبعث إليها مع الريح قبلة رن صداها قوياً ، ثم عاد إلى وثبه العجيب . وما لبث أن دار حول آخر دوحة عالية ، وترك الوثب جانباً وعاد يمشى كعادته ، وتناول منديله ومسح به رقبته وياقته وهو يقول فى نفسه : « ما أعظم هذا الجهل ، وأشد شينه ! أما على الأرض شبيه لجانييت العزيزة ؟ أجل ليس عليها إلاّ هى

والحق أنه كان أعظم جهلاً ، حينما كان يحس بجهله ، ويأبى إلاّ أن يمعنَ فيه

وانتهى إلى حيث تقف عربته الفاخرة ، فقال للسائق وقد أخذ مكانه فى العربة « هيا إلى البيت رأساً يا مستر ناب ، وقف عند كل تقاطع كما هى العادة » ثم جذب باب العربة وأقبل على الوَحشة التى كانت تعمّ داخلها

ولكن ما لبث أن سمع من الداخل صوتاً رقيقاً واضحاً يقول له :

— ما ذا أيها الدب العظيم ؟ كم لبثت من عمرك؟

غير أن مخارج الحروف لم تكن تصل إلى سمعه جيداً ، فانحنى بجسمه الضخم ، واتخذ مكانه فى العربة كما يفعل الحيوان حين يباغت فيهرول إلى جحره ، وما إن أغلق الباب وأخذت العربة تشق طريقها حتى قال :

— تسألينني كم عمرى ؟ لعلك تنتفضين منه لو وجدته كثيراً !

ثم أسند ظهره إلى مقعد منخفض وقد احتوشه الدفء من كل جانب ، وأطل بجانبه رأس صغير ذو وجه باش يتنهّد تنهّد المسالم المطمئن ويقول : « ما أعظمك من دب ! » فالتفت هتن بنفس مُلؤُها الانفعال إلى ذلك الوجه الصغير الذى يجاوره ويحاوره ، ثم أمرّ أصابعه خلال خصلات من الشعر المعطر قائلا :

— أتعلمين يا دوريس أنك أشبه شىء بصورة لوز دى كروّاىْ ؟

— ومن هى لوز دى كرواى هذه ؟ وما شأنها ؟

وحينذاك غمر (هتن) وجه الفتاة دوريس بسيل من القبل ، والسيارة مجدة فى اختراق طريقها ولاح لهما ظهر السائق كسد حجرى أو ظهر تمثال وإذ ذاك قالت لهتن :

— أسألك ألاّ تمسنى بيديك فإنهما يحدثان فى نفسى تأثيرات كهربائية . فزاد ذلك من إحساسه وشعوره ، ثم قال وقد جذبه صوتها الحنون وجسدها الأملس :

— وهل حدث فى حياة امرئ أن اكتشف ما فى جسمه ؟ إن الكهربائية ليست فىّ بل فيك أنت ... آه ... دوريس ... دوريس ...

وكان يعطرها بقبلاته الحارّة ، وغمرت قبلاته عنقها الفضى الجميل الذى أسلمته إياه فى استسلام وسكون ، ثم تذكر حينذاك دودة البحر ذات الفراء الحريرى الخاص ؛ ثم أكد لنفسه أنه لابد ذاهب إلى نابلى ليرى الحيوانات ذات الأصداف العجيبة الخلقة ، فقالت له :

— أيها الدبّ العظيم المغرم بعلم الحيوان . إنها

حيوانات برية فما أعجب نكاتك ، لقد عظم سروري الآن

— وإني لجد مسرور مثلك . أليس كذلك ؟

— بودّي لو أعرف الحقيقة ، أخبرني أحقاً ترى ذلك أم باطلاً ؟

— واهاً لك ياعزيزتي ، إن طلبك هذا عسير . لقد قضيت ثلاثين عاماً في البحث عنه ولا أزال

— إنما أحب الجدّ والصراحة أيها الدب المظلم ، أود لو أعرف صحة هذا الأمر فإن يكن صواباً فسأبقى معك ينعم كلانا بحب الآخر ، ويكون في ذلك ما يبعث فيّ تأثيرك الكهربائي عند ما تمسني يداك

— تريدين الحق ؟ لك ما شئت ، وإنه لمن الخير أن توجد فيك تأثيرات كهربائية فوق ما عرفنا في الطبائع البشرية . إذن دونك كتابات « فرويد » إقرأيها وستجدين أن ذلك خزعبلات شيطانية .

— واهاً لك : لقد أحجمت عن مساعدتي ، فما يمنعك من سلوك سبيل الجدّ ؟ هل سبب ذلك أنك تعلم ما أكون فيه من الشقاء متى عرفت أن ذلك غير صحيح ؟ لعلك تعلم أن هناك جهنم وما شاكل ذلك من معتقدات ، أما أنا فقد حرت في أمري ، وأحياناً أرى أنه خليق بي أن أدع حبك جانبا

— وهل يسمك ذلك ؟

— لا ، لا أستطيع ذلك كما تعلم ، غير أنه في مكنتي أن أفرّ من أمامك وأخفي نفسي عنك ، وأغلق دونها الأبواب ، وأرغمها ألاّ تعود إليك

— فضمها إلى صدره وقال : ما أعجب شأنك أيها الصغيرة الغافلة !!

— آه ياعزيزي ، أود أن يكون ما أسألك عنه صحيحاً وألا يكون هناك ما يكدر خاطري وقتاً ما

وإذ ذاك أخذته الشفقة على هذه المخلوقة وتأثرت نفسه لهذه السكينة ، ووضع خدّه على شعرها . وهكذا التفّ بعضهما ببعض ، بينما العربة آخذة في قطع الطريق ، وشقّ غباره ثم وقفت بهما عند أحد الأعمدة وترجلت دوريس ، أما هو فقد بقي في مكانه وودّعها قائلاً :

— في رعاية الله أيتها العزيزة !!

ثم انطلقت العربة بكل قوتها ، حتى اختفت في منعطف الطريق تاركة وراءها دوريس الجميلة ، خائرة القوى مشتتة الفكر من أثر رقة تلك القبل ، والشعور الكهربائي الساري فيها من أثر مسّ يديه القويتين . ثم أخذت تتنفس الصعداء لتروّح عن نفسها عناء الفكر ، حتى إذا استجمت قواها أخذت طريقها إلى البيت وقد سارت نصف ميل وهي تفكر في حيلة كاذبة تنفعها وتدفع بها أسئلة أهل المنزل عن سرّ تأخرها حتى ذلك الوقت

أما هتن فقد ظل وحيداً في العربة

— ٢ —

كان مستر (هتن) جالساً على أريكة في صالون السيدات يلعب الورق . وبالرغم من أن حرارة الجو كانت شديدة في مساء ذلك اليوم من أيام يوليو فقد سجر التنور بنار متأججة وتمدّد أمام الموقد كلب « بوميراني » خدرته الحرارة وأخمله سوء الهضم والمعدة المكتظة ، فأغمض ... وشعر مستر هتن بارتفاع الحرارة فقال في تأفف وضجر

— أليس الحر شديداً هنا ؟

فأجابه صوت ضعيف النبرات لينها ، هو صوت زوجته « إميلي » تقول :

— لقد علمتَ أنه لا بد لى من مكان دافىء ، حتى تذهب الرعدة التى تسرى فى أوصال جسمى والرعشة التى يرتجف تحتها

— آمل أن تكونى أحسن صحة هذه الليلة !

— لقد أخذت العافية تدب قليلا فى جسدى ، بيْد أن الشك ما زال يقض مضجعى . وصمت كل منهما وانتصب (هتن) واقفاً على قدميه ، مسنداً ظهره إلى مظلة فوق الموقد ، ثم نظر إلى الكلب الجاثم عند قدميه ، وأخذ يقلّبه ويداعبه بقدم حذائه ، ويمسح صدره الأرقط وبطنه ، ثم عاد إلى اللعب . وإذ كاد ينتصر على إميلى أخذت هذه ورقةً فانحاز النصر إلى جانبها بعد أن كاد يولّى عنها ثم قالت :

— يظن الدكتور لبارد أنه من المحتم علىّ أن أذهب إلى (اللاَّندرود ويلز) هذ الصيف !

— حسن ! فلتذهبي يا عزيزتى كيفما شئتِ

ثم أخذ مستر هتن يفكـر فى حوادث المساء وكيف قطع الطريق هو ودوريس وقد تركا العربة فى انتظارهما عند الغابة ذات الأشجار الكثيفة ؛ ثم قالت إميلى :

— الآن سأشرب جرعة من الماء لأطفىء اللهب المتّقد فى كبدى وإن كان الطبيب يحتم علىّ فى تقريره أن أشرب الدواء ، وإجراء بعض العلاجات الكهربائية أيضاً . وكانت إميلى ممسكة بقبعتها ، ومن ثم أخذت تجري خلف أربع فراشات زرق ، كنّ يرفرفن فوق بعض الزهور بحالة تشبه اهتزاز اللهب الأزرق ، وإن كان اللهب يفنى ؛ حتى إذا أمسكتها ضحكت وصاحت كما يصيح الأطفال سروراً ، ثم قال هتن لأميلى :

— أؤكد لك أن صحتك تتحسن يا عزيزتى

— ولكنى فى شك من مجيئك معي يا صديقى

— إنك تعلمين أنى ذاهب إلى اسكتلندا فى أواخر هذا الشهر !

وأخذ هتن ينظر إليها نظرة المؤمل المستعطف ، ولكنها بدّدت هذا السكون بقولها :

— إن التفكير فى مثل هذه الرحلة أشبه بالحلم الرّفاف يهوّم بالأذهان وهى فى سكرة النعاس وذهوله . ولست على ثقة مما إذا كان فى وسعى أن أقوم بها ، ولا يخفى عليك أنى لا أستطيع النوم فى الفنادق فضلاً عما أحمل من متاع ، وما أتكبد من آلام ... الحق أنى لا أقوى على السفر وحدى

— لكنك لن تكونى بمفردك ، إذ سوف تصحبك وصيفتك !

ثم صمت وتذكر كيف أنه تزوجها صحيحة فأصبحت مريضة ، وهكذا أخذت النسوة المريضات يحْلُلنْ محل المتعافيات ، مما حدا به أن يتذكر أشعة الشمس الجميلة والفتاة اللعوب ، وماتبدلت إليه حالها حتى صارت محمومة قابعة فى غرفتها تئن وتتضجّر ثم قالت إميلي :

— أغلب ظنى أنى لا أستطيع الذهاب

— ولكن إطاعة الطبيب فرض واجب ، ولعلّ الانتقال يكسبك الصحة والنقاهة ؟

— ما أبعد ذلك عن ظنى ! !

— إنها كلمة الطبيب (لِباردْ) وهو عليم بما يقول !

— لا ! لا أقوى على تحمل ذلك فإنى ضعيفة

جداً ولست أحتمل الذهاب وحدى .

— إن كل ما تقولين لغو لا جدوى وراءه ، ولا بد من تحمل هذه المتاعب إن كان ثم متاعب

— خير لى أن أبقى هنا آمنة مطمئنة حتى أموت

حينئذ تأوّه هتن تأوّهاً مراً وتضرع قائلاً :

— أى ربّ رحماك رفقاً بنا وسمعاً لشكاتنا مَناً منك . ما حيلة المرء إزاء ما تأتى به الظروف ؟ ثم هزّ كتفيه وغادر الغرفة

ولكنه أخذ يحاسب نفسه مخافة أن يكون قد أساء التصرف ، أو ندّت منه كلمات جارحة لشعورها ؛ فقد كان فى إبان شبابه لا يشعر بعطف أو رحمة نحو الضعفاء والمرضى وذوى العاهات فحسب ، بل كان يكرههم ويعافهم ، وكان ذلك نتيجة ذهابه ذات مرة فى رحلة إلى الطرف الشرقى عاد بعدها مملوءاً بكراهية عميقة لا يمكن اقتلاعها . وبالرغم من أنه كان يعلم بادئ ذى بدء أن هـذا الأمر جدّ عسير ، إلا أنه أخذ بمضى الزمن يطمئن إليه ، وترتاح له نفسه ، فأصبح لا يشعر بوخز الضمير ، بل غدا ذلك سجيّةً فيه وطبعاً . . . لقد كانت (إميلى) صحيحة حسناء عند اقترانه بها ، وقد بادلها الحب إذ ذاك ، لكن ماباله الآن يعد نفسه غير مسؤول عما آل إليه أمرها ؟ . تناول هتن الغداء بمفرده فأثر الجوّ فى نفسه ، وإذا بثورته تنقلب هدوءاً أو ما هو أشبه بالهدوء ، ولكى يكفّر عن التهور الذى بدر منه دخل غرفة زوجته واستأذنها ، وكانت دلائل التوبة والندم واضحةً على محياه وتكاد تنطق بها عيناه ، وسألها أن يقرأ لها فأذنت شاكرة له طيب نفسه ، فاقترح أن يقرأ لها بالفرنسية فرضيت وقالت له : « تريد التحدث إلىّ بالفرنسية ؟ ما أحبها إلىّ ! » وكانت تفخر بأنها لغة « راسين » التى تحبها كما تحب طعام الفاصوليا

حينئذ أسرع (هتن) إلى المكتبة وعاد يحمل مجلداً أصفر وشرع يقرأ لها فيه . ولقد أولى النطق ومخارج الأصوات كل عنايته واهتمامه حتى كان موضع الاعجاب وحتى كان لحسن نطقه أثر بالغ فى إلباس القصة التى كان يقرؤها ثوباً رائعاً . وما أتم خمس عشرة صفحة حتى طن فى أذنه صوت كأنه حشرجة النفس ، فالتفت صوب زوجته فرآها قد أسلمت نفسها للسبات العميق ، فلبث برهة يرقب ذلك الوجه المسجّى وقد عرته دهشة خفيفة ... لقد كانت جميلة فى فجر حياتها ، فلم يكن ليتطلع إليها إلا وهو يشعر بهالة من الحسن الرفاف تحيط بهذا الجمال الفاتن ، أما الآن فقد تبدل كل شىء ، ودب المرض فى أوصالها حتى هزلت وصارت أشبه بالموتى ، وتجعد جلدها الأملس فوق عظام خدها البارزة وأرنبة أنفها المحدودب ، وغارت عيناها فى محاجرها العميقة ، وحينذاك ألقى الصباح ضوءه على جبينها الشاحب فتبين (هتن) ما فيه من تجاعيد وأخاديد ، حتى لا يشك من رآه فى أنه وجه ميت ، فأخذته حينذاك رعدة تمشت فى جسده ، وخطا على أطراف أصابعه وغادر الغرفة

وفى اليوم التالى نزل هتن إلى غرفة الطعام حيث كانت زوجته قد استردت بعض صحتها المنهوكة إثر نوبة أصابتها فى الليل ، اشتد فيها خفقان القلب . تحملت إميلى رغم قوتها ومضت لتشترك فى إكرام ضيفتها «جانييت اسبنس» ، وسمعت اهتمامها بأمر (اللاندورد ويلز) بنفس ملؤها الشفقة ، غير أن ماقالته قد سمع

مراراً حتى مجته الأسماع وتمودته ، ثم اتكأت بصدرها إلى الأمام ، واندفعت فى الكلام كأنما هى قذيفة انطلقت ، وكأنها استحالت إلى آلة أوتوماتيكية تمطر من أمامها وابلاً من الكلمات الدالة على الرأفة وجاراها هتن ، بيد أنه كان يستعمل عبارات أدبية أو فلسفية من مقولات مترلنك ومسز بزانت وبرجسن ، ووليام جيمس ، وكأن قذف الكلمات أصبح نوعاً من الدواء . وأخذت مسز (هتن) تتكلم عن الأرق وبالغت فى شأن العقاقير ومزاياها الطبية ، وكان حديثها أشبه بزهرة تستقبل الشمس

أخذ هتن ينظر فى سكون ودعة ، كأن منظر جانييت سبنس قد بعث فيه دهشة قوية ، ولم يكن الرجل ذا خيال خصب ليصور لنفسه أن كل وجه يخفي تحته فناً من النقد لقياس جمال الأشياء وغرابتها ، حتى إن حديث كل امرأة عنده وإن قل شبيه ببخار معقود فوق خليج مجهول ، فهذه زوجته ودوريس مثلا لا يزيد مظهرهما شيئاً على باطنهما ؛ أما جانييت اسبنس فقد كانت من نوع آخر ، فهنا يتأكد الناظر أن خلف تلك الحواجب الرومانية وبسمة الجيوكوندا هذه وجهاً غريباً . ولعل السؤال الوحيد هو ما ماهيــة ذلك السر الذى لم يستطع هتن كشف الستار عنه ؟

ثم دار الحديث بين مسز هتن وبين جانيت التي قالت لها :

— قد لا تذهبين إلى «اللاندرود» بعد ؛ ومتى تحسنت صحتك عاجلاً فإن الطبيب لبارد يرجع فى طلبه ؟

— هذا هو رجائى الوحيـد ، وإنى لأحس بالعافية اليوم تدب فى أوصالى المنهوكة

وهنا تأثر المستر « هتن » حيث كان في حاجة ملحة إلى مثل هذه الشفقة التى كان فقدها سبباً فى تضعضع صحتها يوماً بعد يوم ، إلا أنه أخذ يحدث نفسه بأن كل ما حدث إنما هو إحساس بالتقدم وليس تقدماً حقيقيًّا . إذ الشفقة لا تداوى الكبد المريضة ولا القلب الضعيف

عرف هتن أن زوجتـه خالفت أمر الطبيب ، فالتهمت بعضاً من الزبيب فقال لها :

— لو أنني كنتُ إياكِ ما تناولتُ الزبيب بعد أن حرم الطبيب كل ما له بشرة سميكة وبذور !!

— ولكنى أميل إليه وأشعر اليوم بتقدم فى صحتى

فقالت جانيت : لا تتعسّف في حكمك واتئد فى إسرافك !

ثم أجالت ناظريها فى هتن وزوجته وقالت :

— دعها تأكل ما تشاء وتشتهى ، فإن ذلك يزيدها قوة

فقالت إميلى : « شكراً لك ياعزيزتى » ، ثم نهضت لتتناول بعض الزبيب المغلى . فقال هتن :

— إذن لا تلومينى على شىء إن مسك ما لا أحب من جراء ذلك !

— وهل لُمتكَ على شىء من قبل ... ؟

— لأنك غير واجدة مغمزاً تلومينني عليه ، لأني زوج وفيّ

أخذ الجميع مجلسهم فى الحديقة بعد تناول الغداء ، وهم يصوّبون أنظارهم فى هـذه المروج الفسيحة المجلّلة بالزنبق والأزهار المتلألئة بنورها المعدنى ، وكان دفء الهواء المعطر قد أدخل شيئاً من السرور على قلب مستر هتن ، فتنفس فى قوة ثم قال :

— ما أبهج الحياة لو كنا خالدين !

فرفعت زوجته يدها إلى الشمس ثم قالت :

— سنخلد لو كان فيها ثم خلود !

وإذ ذاك أحضرت الخادم القهوة فى أباريق فضية ، وفناجين بنفسجية ، ورتبتها على المنضدة بالقرب منهم فنادتها مسز هتن قائلة :

— أين الدواء يا كلارا ؟ أسرعى إلىّ به فى زجاجته البيضاء

فقال هتن : وسأذهب لأحضر لفافة من التبغ

ثم أسرع إلى داخل النزل . وبينا هو يعبر الدهليز التفت فجأة إلى الخلف ، فأبصر الخادمة تمشى فى الحديقة ، وزوجتـه متكئة على مقعدها منهمكة فى فتح فدام قارورتها . أما جانيت اسبنس فقد كانت مستندة على المنضدة تصب القهوة فسألت مسز هتن :

— أتحبين السكر يا إميلى كثيراً ؟

— نعم ! شكراً لك يا عزيزتى . أكثرى منه لأنى سأشربها بعد الدواء ، كى تذهب بغضاضته

ثم أسندت رأسها إلى الوراء ، وأمالت قبعتها على وجهها لتخفى عن نظرها رؤية الشمس والسماء ووقفت خلفها جانيت ثم قالت لها :

— لقد وضعت لك ثلاث ملاعق ستذهب حتماً بمرارة الدواء . والآن ها هوذا هتن قد أحضره معه

أجل لقـد ظهر هتن يحمل زجاجة خمر ملأى بشراب قاتم ناوله لزوجته قائلاً :

— ما أطيب رائحتها !

— وذلك أحسن ما فيها

ثم جرعته مرّة واحدة اقشعرت بعـدها وقد ارتسمت أمارات العبوسة على وجهها وقالت :

أفٍّ له ما أبشعه من دواء ! إلىّ بالقهوة كى تذهب غضاضته

فأعطتها جانيت ما طلبت وأخذت ترشف منه نهلات كبيرة وهي تقول لجانيت

— لقـد صيّرته كالشراب ولـكن لا بأس فذلك خير ما يكون عقب مثل هذا الدواء الشديد

وفى منتصف الساعة الرابعة أحست المريضة بشىء من التعب يخدّر أعصابها ، ولم تكن تشعر بمثله مرن قبل ؛ ومن ثم يممت شطر حجرتها لتنام وتريح جسدها . وكاد هتن أن يقول شيئاً عن الزبيب ولـكنه تمالك نفسه وغـيّر موضوع حديثه بقوله لها :

— ما أسرع تأثيره ! ألم أخبرك بذلك من قبل؟

ثم أخذ بيدها ليساعدها على الدخول وحاول أن يطمئن خاطرها المضطرب ونفسها المكدودة بقوله:

— ستشعرين بالصحة متى استرحت ، ولعلى لا أعود إليك إلا بعد الظهر وقد عادت إليك صحتك وراحتك !

— وإلام تذهب ؟

— سأذهب إلى جونسن هذا المساء كما تعلمين لنتحدث فى ذكرى الحرب

— بودّي ألاّ تذهب !

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

— أما تستطيع البقاء بجانبي اليوم فإنى أستشعر الوحدة !

— وما الحيلة يا عزيزتى وقد واعدته منـذ أسابيع ، ولـكنى سأمضي الآن لأبحث عن جانيت

فقبلها بين عينيها ، وخرج إلى الحديقة حيث استقبلته جانيت بشوق ولهفة ثم قالت :

— إن زوجتك فى شدة المرض !

— ولكنها ستسر كثيراً بحضورك

— إن ذلك الدواء مزعج فقد جعلها فى مثل هذه الحال ، وقد ضعفت قوة هضمها . حقًّا إن معدتها قد اضطربت ، وأخشى أن يحدث شىء ما !

— من يدرى ؟ ربما لم يفحصها لبارد تماماً !

ثم فتح باب الحديقة الخارجى المطل على الطريق حيث كانت عربة جانيت فى انتظارها لتستقلها فى العودة إلى منزلها ثم قالت :

— إن لبارد طبيب قروى وخير لك أن تستشير طبيباً إخصائياً

— أراك تكبرين من شأن الاخصائيين

فرفعت جانيت يدها محتجة وقالت :

— إن حالة زوجتك قد بلغت حداً من الخطورة يستوجب الشفقة والرثاء ، وإنى لجادّة فيما أقول وأخشى أن يحدث ما ليس فى الحسبان ؟

فأمسك هتن بيدها وأدخلها العربة ، وأخذ السائق مكانه فيها ، وتأهبت للانطلاق . ولم يكن هتن يرغب فى أن يطيل الحديث معها فسألها فى رقة :

— هل تسمحين لى أن آمره بالسير ؟

قالت نحوه وابتسمت له بسمة الجيوكوندا فقال لها :

— تذكرى أنى فى انتظارك لتعودى إلى رؤيتى ثانية عن قريب

على أنه قد تضجر وإن يكن قد لزم حدود الأدب . وما إن تحركت العربة حتى ودعها بيده ، وسره أن يبقى وحيداً

***

مضت بضع دقائق انطلق بعدها « هتن » إلى حيث كانت تنتظره « دوريس » عند منعطف الطريق ، فتناولا الغداء معاً فى فندق يبعد عن البيت عشرين ميلا . ولقد جمع الغداء بين الرداءة والاسراف فقد طُهِىَ فى فندق قروى أعد لسائقى العربات . وإن يكن قد ساء هتن فقد سر « دوريس » التى لم يكن الكدر يعرف إليها سبيلا ، وطلب هتن زجاجة من الشمبانيا . ولما أخذا طريقهما إلى البيت كانت دوريس على حال عظيمة من النشوة ، وكان الجو أدكن ، ولكن الناظر إلى الأمام كان يرى شبح السائق الساكن ، وشريطاً من الأرض تنيره أضواء المصابيح الأمامية للسيارة

بلغ هتن منزله وقد قاربت الساعة أن تدق مؤذنة بانتصاف الليل ، فلقيه الطبيب لِبارْد فى بهو البيت وكان رجلا قصير القامة كريم الكفَّيْن ، حسن الصورة ، أشبه بالنساء ، واسع العينين أكحلهما . وكان يقضى وقتاً طويلاً بجانب مرضاه يخفف عنهم آلامهم بلطفه ورقته ، مما يبعث السرور إلى النفوس ، وإن كانت مسحة الاتزان لا تفارقه أبداً . سأل هتن الطبيب :

— أى دكتور لبارد ! أراك هنا ! أما زالت إميلى مريضة ؟

— لقد بحثنا عنك طويلا فى بيت جونس فلم يقف لك أحد على خبر هناك

— بلى ، لم أكن هناك إذ حال بينى وبين الذهاب إليه قاهر

ثم قال فى نفسه : « ليس هناك أشد من أن يختبىء الانسان خلف ستار من الكذب »

فقال الطبيب : لقد كانت زوجك عطشى متلهفة إلى رؤيتك

فقال هتن وقد اتجه ناحية السلم

— الآن لا مانع من الذهاب إليها

فوضع الطبيب يده على كتف هتن قائلا : يريبنى تأخرك !

فأراد هتن أن يتخذ المارضة سلاحاً يدحض به أقواله فقال : « وهل ترانى تأخرت » ثم مد يده إلى جيبه بحجة أنه يريد إخراج ساعة ولكنه أرجعها خالية

— لقد قضت مسز هتن نحبها قبل ذلك بنصف ساعة

بذلك نطق الطبيب الذى استمر صوته على لينه ولم يفارق الأسى عينيه ، ثم أخذ يقص خبر الموت وحالته كأنه يتكلم عن لعبة « الكريكت ماتش » وذكر أن شتى الحيل قد وقفت مكتوفة الذراعين لا تجدى أمام القدر المحتوم وقد انقطع كل أمل . كل ذلك وهتن لم ينقطع عن التفكير وتذكر كلمات جانيت اسبنس إذ قالت : « لابد من حصول شىء فى أى لحظة » ثم قال على حدة : « حقاً ، لقد كانت صادقة فى قولها ونبوءتها »

ثم سأل هتن الطبيب قائلاً : ما الذي حدث وماذا كان السبب ؟

فأخذ الطبيب يفصل الحادث قائلاً :

— انها سكتة قلبية نتجت عن نوبة شديدة عقب تناول بعض الأطعمة المحذورة

— كالزبيب مثلا ؟

— شىء أشبه بهذا أو هو نفسه ، وقد كانت وطأته على القلب قاسية ، وكان من جرائه تلك النوبة الخطيرة ؛ ولعل بعض الأجهزة قد تعطلت فى الداخل وعلى كل حال فقد انقضى الأمر واستراحت فلن تحس ألماً بعد

— ٣ —

« يا للحسرة ! وافق يوم تشييع الجنازة يوم مباراة إتن وهارو »

هكذا قال الجنرال « جريجو » وكان واقفاً تحت مظلة الكنيسة ممسكاً قبعته الطويلة بيمناه ، ومجففاً العرق من جبينه ومحياه

سمع هتن ذلك القول فتمالك شعوره على الرغم منه بعد أن كاد يمس الرجل بأذى فى بدنه ، وقد كان بوده أن يوجه إليه لكمة قوية فى وجهه الأحمر العريض ثم قال :

— أيها الحيوان الضخم المجعد الوجه ، أليس للميت عندك حرمة ؟ أما تستحى من أحد ؟

ولقد كان الحق فى جانب « هتن » فلم يجب الآخر بكلمة ما ؛ أما مستر هتن فقد ألقى بنفسه بجانب القبر يتأوه ويتنهد ويبكى زوجته قائلاً :

— إميلى ! أيتها المسكينة ، لقد آب الجميع يا إميلى إلى دورهم ونسوك ، وعادت إلى أوجههم بشاشتها وطلاقتها ، أما أنت فقد ثويت فى قاع حفرة على بعد سبعة أقدام بينما « جريجو » واقف يشكو سوء حظه لأنه لم يشهد المباراة ! !

أخذ هتن بعد أن هال التراب على قبرها وسواه يحدق فى الجموع السوداء التى حوله والتى أخذت تغادر ساحة الكنيسة ، إلى موقف العربات والسيارات ، وبالرغم مما كانت تتحلى به الأرض حينئذ من حشائش نضرة وأزهار متلألئة وأوراق لامعة ، فقد كانت دلائل الأسى مرتسمة على أوجه الجميع ، وشملهم الحزن . ولقد سرى عن

نفسه بعض الشجن أن الفناء حتم على الجميع

جلس (هتن) فى مكتبه ذلك المساء يطالع حياة « ملتن » ولم يكن هناك من داع يحمله على اختيار حياة ملتن لذاتها ، بل ان ذلك الكتاب كان أول كتاب تناولته يده . وما إن فرغ منها عند منتصف الليل ، حتى نهض من كرسيه وأغلق النوافذ وغادر المكتبة إلى الردهة حيث كان الليل صافياً ساكناً . فأخذ يصعد نظره فى النجوم يتأملها ويتأمل ما بينها من فضاء ، ثم يرد طرفه ناحية الأزهار الباهتة ، ويسرح عينيه فيماوراء ذلك من فضاء لايبدد وحشته غير القمر .

أخذ بعد ذلك يفكر فى قوة مضطربة فيقول :

« ها هى ذى النجوم ، وها هو ملتن ، بل ها هو الرجل الذى شابه الليل ونجومه فما أعظم نبله ! ولكن أحقاً أن هناك فرقاً بين النبيل وغير النبيل؟.. ملتن .. والنجوم .. والموت .. والروح والجسم .. والأرض والسماء ... لعل فى هذه بعض الشيء من النبل ... ما الذى ناله ملتن ؟ لا شىء . وأنا ... ؟ أنا ! ... أجل ! لا شىء غير صدر « دوريس » الصغير البض »

وتواردت الخواطر المبهمة على خياله سراعاً كأنما تستعرضها ذاكرته : ترى أيها أعظم شأناً : ملتن أم النجوم ؟ أم الموت ؟ أم إميلى فى قبرها ؟ أم دوريس؟ أم مستر هتن نفسه ؟ لا شك أنه أعظم الجميع !

أف له ! لقد صار أنانى الطبع ، لكل شىء — قل أو كثر — سلطان على نفسه . وفى لحظة سكون صاح قائلاً « لقد عزمت . لقد عزمت » غير أن صوته كان يذهب فى ظلام الليل البهيم كصرخة فى واد ، ولكن خيل إليه أنه أقسم يميناً عظيمة ، يحق للآلهة أن ترتبط بها ... « لقد عزمت ! ... لقد عزمت ... ! لقد مرت بنا أعياد رأس السنة والميلاد والأعياد المقدسة كما مرت بى تلك التوبة الكبرى عن الخلاعة والمجون، ومثل هاتيك الأقسام»

لقد ذهب كل ذلك بدداً ، حتى اليمين تلاشت كما يتلاشى الدخان فى آفاق الجو ، وصار كأن لم يكن . غير أن ما كان حوله إذ ذاك كان يوحى بالرهبة ، فآلى على نفسه أن يبدل منهاج سلوكه فى المستقبل ، فيحيا حياة الرجل العامل العاقل ، ويكبح جماح نفسه الثائرة ، ويوجهها إلى طرق الخير بعد أن ظل طويلا يضلل النسوة ويخدعهن بعبارات الحب الموهوم والأمل الكاذب ، ولكن هاهوذا قد عزم ولابد من العمل .

فكان يقضى الصباح فى تفقد أعماله الزراعية فيركب مع رئيس العمال ، ويدور حول الأرض ليرى سير العمل فيها وما اتبع من أحدث الطرق الزراعية وخاصة فى مخازن الحبوب والأسمدة الصناعية والحصاد ونحو ذلك ، وينفق باقى اليوم فى المطالعة الجدية ، إذ كان قد اعتزم منذ ردح طويل أن يؤلف كتاباً عن « تأثير الأمراض فى المدينة »

ذهب هتن بعد ذلك إلى فراشه خاشعاً تملأ التوبة نفسه ، وتهيمن على جوانحه ، وتسيطر على كل جارحة فيه ، وخيل إليه أن الفضيلة قد اتخذت سبيلها إلى نفسه فنام ثمانى ساعات ، ثم استيقظ فإذا الشمس قد شعشع نورها ، وكست الأفق ضياء صافياً ، بيد أنه لم يجد فى نفسه أثراً لتلك الدوافع التى أحس بها مساء بل عاد فى الصباح إلى حياته المرحة ... حياة الخديعة باسم الحب ...

وتلاشت العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه ، فكأن ملتن ، وكأن الموت قد تغيرا فى ضوء النهار عما كانا عليه فى ظلام الليل . أما النجوم فقد حجبتها الشمس ، وأما عزمه فقد كان يرى شبحه فى ضوء النهار كما يراه فى حجب الدجى ، لذلك امتطى صهوة حصانه بعد أن تناول طعام الإفطار وأخذ يطوف مع رئيس عماله . وعند الظهيرة تناول وجبة الغداء ثم جلس يقرأ كتاب « تكديدس » عن « الطاعون فى أثينا » وفى المساء وضع بعض مذكرات عن الملاريا فى جنوب إيطاليا . وعند ما شرع فى خلع ملابسه تذكر أن هناك قصة طريفة فى كتاب « إسكلتولد » عن الوباء الأسود ، فعزم على أن يكتب عنها فصلاً إن عثر على قلم رصاص

مرت خمسة أيام من حياته الجديدة ؛ وفى اليوم السادس عثر هتن بين خطاباته على رسالة قد كتب عنوانها بخط بين بين ، عرف منه أنه من لدن « دوريس » ففضه وشرع يتلوه ، فوجد كلمات لا ترمى إلى جمع واحد ، إلا أنه استشف من قولها وجود حالة تشبه الحال التى ماتت بها زوجته ، فكان فى ذلك ما أزعجه ، وحدا به إلى التنهد ؛ غير أنه تمالك شعوره ، واستعاد إحساسه ، وتابع قراءته ، وهذا نص رسالتها :

« أجل ! إن الموت شىء مرعب ، غير أنى لا أفكر فيه ما دمت منه بنجوة . أما إذا حل مثل ذلك الأمر ، أو ألم بي مرض ، أو أحاط بى كدر ، فتراني لا أتمالك نفسي من التفكير فيه كأنه قريب منى ، وأستعيد فى خيالى كل ما قدمت يداى من إثم كما أفكر فى نفسى ونفسك ، ويأخذنى القلق من جراء ما سيحدث فى المستقبل ، فيدركنى الخوف والاضطراب . لقد أزعجتنى الوحدة واستوحشت مني السعادة ، وحرمتُ فيما أعمل وجثم خيال الموت يهددنى فلا أستطيع منه خلاصاً ، وأرانى بغيرك تعيسة شقية . انظر كيف أعجز عن التعبير عما أريد اخبارك به . أريد أن أراك إثر تلاوتك هذه الرسالة وعقب فراغك من مراسيم الحزن . إن سعادتى فى قربك ؛ وليس لى فى الدنيا أنيس سواك يا كريم الطباع ، وأخا النجدة والغوث . ولست بناسية ما حييت عطفك وحدبك . إنى لتأخذنى الدهشة كيف تنزلت من عليائك لحبوتنى لطفك وأنسك مع ما أنا عليه من كآبة وغباء كانا سبباً فى ضعف حبك لى . أليس كذلك ؟ »

تأثر هتن من كتابها تأثيراً ألبسه ثوباً من الحياء والرحمة ، واستكثر من نفسه أن يمدحه أو يعبده كائن ما . يا لله .. ! لقد أغرى دوريس فوقعت فى حبائله ... إنها طرفة من طرف اللعب الجنونى ! ! بل طرفة من الجهل لا يستطاع وصفها !

فرغ « هتن » من قراءة كتاب دوريس ، فإذا الجزع أقوى فى نفسه من السرور . لقد خلا عمله من الحكمة وسداد الرأى

وكثيراً ما كانت تسيطر عليه رغبات وشهوات مبهمة يكاد يخضع لها ، وإذ ذاك يذكر نفسه فى تأنيب أنه على وشك العودة مرة أخرى إلى غباته القديم ، ويذكرها أيضاً بوجود كثيرات أمثال « ماجى » خادمة زوجته ، وأزيث ، ومسز رنجل ، وغيرهن من الوصيفات فى لندن وغيرها ؛ غير أنهن جميعاً — وا أسفاه — قد أدركهن الكبر ، ووسمهن الهزال بميسمه . ومن يدرى فلربما يأتى عليه وقت يدركه ما أدركهن ، بيد أن كل هذه التجارب لم تؤثر فيه شيئاً

عاد هتن فتذكر « دوريس » المسكينة ، وكأن نفسه ضجت من تلك الخدائع التي يموّه بها على النساء ، وعافت الخديعة باسم الحب والهوى ، فعزم على أن يكتب إليها كتابة ملؤها العطف والرحمة ، دون أن يعدها بالحضور ، ولكن الخادم قطع عليه سلسلة تفكيره ، إذ جاء يخبره بأنه قد أسرج الحصان ، فنهض وركب وذهب مع رئيس عماله الذى كانت أمارات الكآبة متجلية على محياه ذلك اليوم

مرت خمسة أيام شوهد إثرها « هتن » ودوريس جالسين على مقعد حجرى فى « سوث إند » وكانت دوريس ترتدى قميصاً حريرياً مطرّزاً بأشرطة حمراء يملو وجهها البشر والسرور ؛ وكانت رِجْلاَ هتن ممتدتين إلى الخارج ، معتمدتين على كرسى ، وقد أزاح القبعة إلى الخلف ... وفى تلك الليلة بينما كانت دوريس نائمة بجواره ناعمة بالدفء والراحة وقد سرت أنفاسهما هادئة تهوّم فوقهما كأنها تحرسهما ، إذ تملكه فى هذه الساعة — ساعة الظلمة والتعب — ذلك الوازع الذى تملكه من نصف شهر تقريباً ، حينما أخذ على نفسه ما لم ينفذه ، وما ذهب كما ذهب أخ له من قبل ، وهكذا تغلب الشر على الخير ، والجهل على العقل ، إذ خارت عزيمته عن تنفيذ أول خطوة من المبدأ الذى رسمه لنفسه

قضى هتن فترة طويلة من الوقت مغمضاً عينيه كالنائم يعالج خنوعه أمام داعى الخيبة حتى تحركت دوريس فى فراشها فالتفت إليها ، وقد تسرب من خلال الستارة الرقيقة الشفافة نور خفيف أظهر ذراعها العارية البضة وكتفها الجميل ، ورقبتها وجدائل شعرها الحالكة السواد ملقاة على الوسادة ، فتجلى فيها مثال من الجمال العبقرى خليق أن يشتهى ، وتراءى جمالها الساحر يغرى ظمأه ، فعلام يشكو هتن ، وقد رقدت بجانبه تلك الفتنة ؟ وما الذى تفيده وقد ضاع الأمل فى أن يكفكف من حدّة مجونه ، أليس الأوْلى أن يستفيد من ضياع ميثاقه وعهده ؟

وإذ ذاك تسربت إلى نفسه فكرة براقة يحدوها الشباب الجامح ، فكرة لا تأبه بالعواقب ، ملأت عليه جميع أرجاء نفسه ، وخيلت إليه أنه حرّ يفعل ما يشاء

وفى لحظة أسلم فيها قياده للشباب جذب الفتاة نحوه ليروى نفسه من نبع ذلك الجمال ، فانتبهت «دوريس» مذعورة ، وأفاقت على سيل قبلاته الحارّة التى أودع فيها روحه الفتية وعواطفه الملتهبة !!

تحولت عاصفة رغبته إلى نوع من المرح ، وكأن الجو والعالم وكل شىء كان يشاركه فى ضحكه الهادئ !

تلقت أذنا هتن سؤالاً عذْباً من دنيا الحب النائية يسأله :

— ترى هل أحبك شخص مثل حبى إياك ؟

— أظن أن هناك من سألنى هذا السؤال قبلك!

— ومن ذاك ؟ أخبرنى ! ومن تعنيه بقولك؟

وكان الصوت صوت (دوريس) وقد اختلجت نبراته بالغضب ، فقال هتن متنهداً :

— آه !

— من ذاك ؟ أخبرنى !

— لا تذهبي بعيداً مع الظنون ... هى جانيت اسبنس

— (فى دهشة) جانيت اسبنس ؟ تلك المرأة العجوز ؟ يا للعار !

فضحك منها هتن بملء فيه ثم قال :

— إن ما أقوله هو الحق ، وإنها لتحبنى حبًّا جمًّا

وأكد لدوريس أن لا بد له من أن يزورها وأضاف إلى ذلك قوله :

— وأعتقد أنها تبغى الاقتران بى !!

— لكنى لا أراك فاعلاً ولا عازماً !

فعاد هتن إلى الضحك وقال وقد خيل إليه أنه يقول أحسن نكتة قالها :

— أود أن تكونى زوجتى !

ولم يغادر « هتن » فندق « سوت إند » حتى كان قد تزوج مرة أخرى ، لكنهما اتفقا على أن يكون أمر هذا الزواج سرًّا حتى إذا حلّ الخريف وذهبا إلى الخارج ، شاع الأمر بين الناس ثم أردف ذلك بقوله :

— أما الآن فسأذهب إلى منزلى كما تمضين أنت إلى منزلك

***

وفى مساء اليوم التالى مضى هتن لزيارة جانيت اسبنس فاستقبلته بيسمتها القديمة بسمة الجيوكوندا ثم قالت :

— لقد كنت متعطشة إلى لقائك

وما كنت لأستطيع الصبر عن لقائك

ثم جلسا فى البيت الصيفى الجميل الذى كان فيما مضى معبداً قائماً وسط أحراج كثيفة خضراء فقال هتن يجاذبها أطراف الحديث :

— لقد عزمت أن أسافر إلى إيطاليا هذا الخريف

فقالت جانيت ، وقد أغمضت عينيها فى إغراء كأنها فى نشوة الخمر وقالت :

— إيطاليا ! إيطاليا ! لقد وافق عزمك ما جمعتُ عليه نيتى

— ولماذا تريدين الذهاب ؟

— مالى غرض خاص ، إنما قد يفقد المرء نشاطه أحياناً إذا أراد السفر إلى الخارج وحده لأول مرة

— أف للوحدة ! ليس فى سفر الانسان مفرداً أية لذة

واضطجعت جانيت فى مقعدها صامتة ، مسبلة الأجفان ، وأخذ (هتن) يمسح شاربه ، وطال الصمت بينهما ، وحان وقت الغداء ، ودُعِىَ هتن إلى تناوله فلبى على عجل ، وابتدأ حبل المزاح يزداد قوة بينهما ، ووضعت المائدة فى الشرفة ، وأخذا يطلان من خلال أقواسها على الحديقة الممتدة إلى الوادى المنخفض والتلال البعيدة ، ثم فاض النور ، وعمّ السكون ، واشتدّت الحرارة وحلّقت غمامة فى الأفق ، وهدرت أصوات الرعد من بُعد وهى آخذة فى الاقتراب ، وعب عباب الريح ، وتكاثف الرذاذ المتساقط منبئاً بالمطر وأخذت العتمة تغمر الكون ، وإذ ذاك صمت كل من جانيت وهتن ، ولكنها قطعت هذا الصمت بقولها :

— أظن أن لكل امرىء حقاً محدوداً من السعادة ؟ أليس كذلك ؟

— لا شك فى هذا ، لكن ما الغاية التى تقفو أثرها ؟ ليس فى استطاعة أحد أن يدلى بآراء قاطعة عن الحياة ، إلا إذا أراد أن يتكلم عن نفسه ، أما السعادة ...

ثم توقف عن الكلام فجأة ، إذ عاد بفكره إلى

سابق حياته يستعرضها ، ورأى تلك اللحظات التي كانت مفعمة بالسعادة والهدوء الذى لم يكن ينغصه عليه سوى سحاب جهام من الأحزان لا يلبث أن يتلاشى ... لقد كانت الأموال شيئاً عادياً . لقد كان أسعد حظاً من غيره من بنى جنسه . أما الآن فقدْ فقدَ السعادة فحسب ، وعرف أن عدم الاكتراث سر الابتهاج . وكان فى نيته أن يقول شيئاً عن سعادته لولا أن قاطعته جانييت بقولها :

— إن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما من حياتهما

— أمثلى أنا ؟

— آه يا هنرى المسكين ! إن القدر لم يعامل أحداً منا بما يرضيه

— ها أنت ذا مسرورة وذلك من شجاعتك ، لكن لا تظنى أنى لا أستشف ما وراء القناع

ثم تكلمت جانييت اسبنس بصوت أخذ يزداد ارتفاعاً كلما ازداد المطر انهماراً ، كما أخذ الرعد يتقطع فى فترات بين حديثها فقال لها هنى :

— لقد عرفتك جيداً منذ زمن طويل

إذ ذاك طافت بها بارقة من الأمل المسول ، فاذا بنفسها قد امتلأت بالأفكار وحفزها العزم على أن تقول شيئاً ، وقد اتكأت بصدرها عليه وحدقت عيناها ، كأنهما رصاصتان ثم طواها الظلام فى غمراته فقالت :

لقـد أصبحت وحيداً تفتش لك عن رفيق ، وإنى خليقة بالشفقة عليك فى وحدتك ، بل فى زواجك ...

ولـكن الرعد قطع عليها حديثها ، ثم عاد صوتها إلى الظهور مرة أخرى بهذه الـكلمات :

— إنك فى حاجة إلى رفيقة

فردد قائلاً : رفيقة لى ؟ ما أبعـد ذلك عن الدعابة ! جورجيت لبلان رفيقة «موريس ماترلنك» السابقة ...

على هذا النحو صورته جانييت اسبنس فى خيالها أى أنه رفيق الروح . أما دوريس فقد مثلته برمز الـكمال وأنه أكثر الناس مهارة ، ثم قالت جانييت وقد اعتمدت بيديها على ركبتيه :

— لقد طار إليك قلبى مرفرفاً وفى وسعي أن أعرف السبب ؛ لقد أصبحت وحيدة مثلك ، فما أصبرك ؟ !

ثم مرت عليها بارقة أخرى فإذا بها مضطربة النفس إلى درجة ألجأتها إلى أن تقول :

— ما أراك تشتكى وأغلب ظنى أنك تشكو !

— ما أعجب أمرك !

زمجر الرعد ثانية ، وانهمر المطر فى شدة كأنه قهقهة المجنون فقالت جانييت :

— أما تحس فى أعماق نفسك بشىء له صلة ما بتلك العاصفة ؟

ثم اتكأت على صدره بجسمها اللدن وتابعت حديثها قائلة :

— إن الهوى يصيّر الإنسان أشبه بالعناصر الفعالة ...

فلم يحر جواباً وظل كالمشدوه ثم قال : نعم ! ثم استولى عليه الخوف على غرة ، وتحول ما فيه من جرأة إلى سكون وذهول . لقد أرعبته جرأتها وصراحتها التناهية ، أما هو فقد قال :

— الميل والهوى ؟ إننى لا أخلو منهما

بيد أنها تصنعت عدم الإصغاء إلى حديثه ،

وأخذت تثرثر فى الحديث الذى لم يكن يسمعه أحد إلا وهو يعتقد أن الحب العنيف هو الذى ينطقها ثم همست قائلة :

— لعله لم يفهم مغزى ما أقول !

ومن ثم أخذت تسرد على مسامعه قصة حياتها فى هدوء حتى يستطيع أن يفهم ما تقول ، وفى هذه الحال أخذت فترات انقطاع البرق تطول ، وتزداد تبعاً لذلك مدة الظلام ، غير أنه كان يراها تحملق فيه بقوة متجهة بصدرها إليه مما يدعو إلى الريبة ويطل من عينيها بريق التمنى والإغراء ، وانهمر المطر أكثر من ذى قبل فالتصقت به . وأبرق البرق فرأى « هتى » وجهها يعلوه قناع جميل تترجرج من تحته عينان واسعتان ، وفم صغير جميل ، وحاجبان عريضان ، فكانت أشبه بالرومانيات ، ولكن ما أشبهها بجورج روبى !

عرف هنرى حينذاك ما ترمى إليه فأراد أن ينقذ نفسه منها ، وفكر فى مهرب يتخلص به من هذا المأزق الحرج . أيدعى أنه رأى لصاً ثم يناديه أن قف ويقفز ويعدو خلف شبحه الموهوم ؟ أم يدعى أنه أصيب بخفقان فى قلبه ؟ أم يدعى أنه لمح شبحاً وليكن شبح إميلى فى الحديقة يخطر فى حلوكة الليل ؟ وشغله التفكير فى هذه الأمور الصبيانية عن الالتفات إلى جانيت وحديثها ولم يرده إلى عالم الحقيقة إلا مسة رقيقة من يدها ، ثم قالت :

— إنى أُجلك من أجل ذلك يا هنرى

فقال فى سريرته : ومن أجل أى شىء تجلنى ؟

فقالت : إن الزواج رباط مقدس ، واحترامك إياه — برغم سوء حياتك الزوجية السابقة — يجعلنى أحترمك وأعجب بك . والآن أتسمح لى أن أقول كلمة ياهنرى ؟

وعاد هنرى يفكر فى مسألة اللص الموهوم والشبح ، ولكنه وجد أن ذلك قد تأخر وقته ، فعادت هى تتابع قولها :

— نعم ، كلمة واحدة ، تلك هى إننى «أحبك» وها نحن الآن فى أتم الحرية !

— وما شأن هذه الحرية ؟

وحدثت حركة فى الظلام ، فاذا بجانيت تخر راكعة بجانب كرسيه ثم تقول :

— لقد استوحشت منى السعادة أنا الأخرى يا هنرى !

وإذا بها تعانقه فى لهفة ، وإذا به يحس من حركاتها أنها تتنهد ، فأحس بالحرارة تسرى فى جسده ، وخيل إليه أنه لولا بقية من الخجل لصاح : « الرحمة » ، وتصنع الجد ، فقال :

— عليك أن تمتنعى عن هذا ياجانيت ، فليس هذا وقته . فلتهدأ عواطفك ، ولتمضى إلى فراشك

ثم أخذ يربت بيده على كتفها ، وتخلص من بين يديها ، وتركها جاثمة على الأرض تندب حظها بجانب الكرسى الذي كان جالساً عليه . فأخذ يتحسس طريقه وسط البهو ، غير متذكر قبعته التى خلفها ، ثم غادر المنزل معملا فكره فى أن يقفل الباب الخارجى دون حدوث أى صوت . كانت السماء إذ ذاك قد انجلى عنها الغمام ؛ غير أن الطريق كان مترعاً بالماء ؛ وكان يرن فى هذا السكون صوت المياه المتدفقة من الميازيب ، والمنحدرة إلى الحفر ، فأخذت قدما هنرى ترديان فى تلك البرك التى لم يأبه لها

أما جانيت فما كان أشد بلواها ! لقد كانت الحسرة تطل من عينيها ، ويجثم الأسى على أنفاسها . لقد فكرت فى أن تنتقم لنفسها ، وويل للرجل إذا فكرت المرأة فى الانتقام منه !

* * *

لنرجع إلى ما قالته جانيت بشأن الهوى والميل . لم يكن هذا سوى قصة قديمة منبوذة ، ولكنها كانت حقيقة ملموسة . لقد كانت أشبه بسحابة سوداء مشحونة برعود الكهرباء ، أما هو فكان أشبه ببنيامين فرانكلين إذ أرسل طيارته إلى صدر ذلك الوعيد ، ثم هاهو ذا الآن يشكو ، وقد نجحت ألعوبته

كل ذلك وما زالت المسكينة خاشعة قابعة بجانب المقعد . تُرى ما الذى أزعجه ؟ ولم لم يتابع مداعبته ؟ لماذا تخلى عنه « عدم الاكتراث » وما الذى رده عاقلا في طرفة عين ؟ يتحمل زمهرير الجو بلا ضجر ولا تأفف ؟ أما هو فلم يكن ليعرف لهذه الأسئلة من جواب ، ولم يعد يرى فى فكره سوى فكرة الفرار ، وكان تنفيذها شاغله الوحيد

— ٤ —

سألت دوريس هتن قائلة :

— ما الذي يشغلك ؟

— لا شيء !

ثم ساد سكون ظل خلاله هتن لا يتحرك ، متكئاً بمرفقة على سياج الردهة ومعتمداً بذقنه على يده ، ومطلا ببصره يشاهد فلورنسا التى اختار فيها سكنه على رابية فى جنوبها يستطيع المرء منها أن يسرح طرفه فى واد خصب يمتد في المدينة حتى يصل جبال « مورلو » الباردة ، ثم يمتد شرقيها إلى تلال « فيزول » الآهلة بالسكان ، ذات المنازل البيضاء ، حيث يبدو كل شيء واضحاً نيراً فى ضياء شمس سبتمبر

سألته دوريس قائلة : أثم ما يشغل بالك من أمر جدّى يا هتن ؟

— شكراً لكِ ، لا يهمنى شيء !

— أفصح وأخبرنى

— ليس عندى ما أخبرك به ياعزيزتى

ثم استدار ناحيتها مبتسماً وأخذ يربت على كتفها قائلا :

— أولى بك أن تأوى إلى فراشك فإنى أخاف عليك حرّ هذا المكان

— حسن ما تقول ، ولكن هلا تذهب أنت أيضاً إلى الفراش ؟

— حينما أفرغ من مضغ هذه اللفافة

— لك ما شئت ، ولكن أرجو أن تسرع

ثم أخذت تنحدر من على الدرج ببطء وتراخ واتجهت إلى الداخل . وهكذا ظل هتن وحده يتأمل جمال فلورنسا شاكراً للظروف تلك الوحدة التى كان يتمناها للخلاص من دوريس ورغبات هواها الجامح ، التى لا تعرف حداً ولا شبعاً . لم يذق « هتن » حتى هذه الساعة آلام الحبّ وطاغوته ، ولكنه يجرّب آلام المحبوب المطلوب ، وبذلك كانت هذه الأسابيع الأخيرة فترة التاعب ، حيث

ظلت «دوريس» ملازمة له كالرقيب ، لذلك ما كان أعظم فرحه بالوحدة الهادئة

انتزع هتن من جيبه رسالة وفضها على مضض ، فقد أصبح يمقت الخطابات لما تحويه دائماً من أخبار غير سارة ، خصوصاً عقب زواجه الثانى . كان هذا الخطاب من لدن أخته ، فأخذ يرغى ويزبد عند تلاوته وقراءة مثل هذه العبارات « بسرعة ، الطائلة الطائشة ، الانتحار الاجتماعى — شديدة البرد فى قبرها — شخص من الطبقة الدنيا » كل ذلك كان يأتيه تباعاً فى كل رسالة يرسلها إليه قريب صادق النصيحة والود ، صافى التفكير . أحرجت هذه الكلمات صدره حتى كاد يهم بتمزيق الرسالة لولا عبارة لمحها فى ذيل الصفحة الثالثة ، اضطرب قلبه عند قراءتها إذ كانت مزعجة مثيرة للنفس الهادئة وهى أن جانيت أخذت تطوف على كل إنسان تخبره أن هتن قد دس السم لزوجته إميلى حتى يخلو له الجو ، فيبنى بدوريس . فما أشنع هذا الحقد من رجل متواضع لطيف الأخلاق كما كان يدل عليه مظهره . ومن أجل ذلك غدت نفس هتن كالمرجل من الغيظ فشرع يتسلى بذكر الأسماء وسب تلك المرأة

وفجأة رأى سخرية موقفه فقال على حدة : « لو علم الناس مبلغ ما تحملت وما آل إليه أمرى من البؤس لما صدق أحد فكرة دس السم لزوجتى لأحظى بدوريس . ولكن ما الذى نالته من ذلك جانيت العزيزة المسكينة . لقد أرادت أن تلبس ثوب الحقد فلم تفز إلا بثوب الغباء ! »

أفاق هتن من أفكاره المتشعبة على وقع أقدام ، فالتفت حوله فإذا بالخادمة فى الحديقة تقطف بعض الفاكهة ، وكانت شابة من نابلى شرد عقلها فأخذت طريقها نحو الشمال حتى وصلت فلورنسا . ويلوح عليها أنها من الطبقة المتعلمة وإن فسدت أخلاقها كما تدل سحنتها على أنها من الطابع الصقلى ، وقد ارتسمت على وجهها دلائل الغباء ، وليس بها من أثر للجمال ، إلا دلائل الشراسة المرذولة ؛ وتحت ثيابها السوداء الكثيفة تكهن هتن بوجود جسم قوى ممتلئ ثابت ، فأخذ ينظر إليها فى دهشة وريبة ، ثم تحولت تلك الدهشة إلى رغبة ، ثم أصبح ذكرها لديه كشعر ثيوكريتوس القصصى حتى قال عنها : « هكذا تكون المرأة » غير أنه تأسف أن لم يكن من طبعه مناداتها ، وقد أصبح يعجب بها ، ولكنه صاح بها :

— أرميدا ! !

فأجابته ببسمة جذابة أكدت ما وراءها من معنى ، فأدرك هتن الخوف من الوقوع مرة أخرى فى الهاوية ، فرأى من الخير أن يتراجع بسرعة قبل أن يتردى فى الحفرة ، بيد أن الفتاة لم تزل تنظر إليه نظرات مبهمة ، ثم نادته قائلة :

— ها ! شياتو ! !

فتعجب هتن ثم قال على حدة : أعقل أم غباوة ؟ لا رجحان لواحد منهما الآن . على أن الغباء لم يزل واضحاً ملموساً ! » ثم أجابها فى صوت مرتفع قائلاً :

— اسكندو !

ثم أخذ يعد السلالم الموصلة من الربوة إلى الحديقة وهى نازلة بقوله : « إلى تحت .. إلى تحت .. إلى تحت ... » حتى أتى على الاثنتى عشرة درجة ،

وهكذا رأى هتن نفسه يخرج من غمّ إلى غم ومن ظلمة مملوءة بريح وبرد إلى هاوية مملوءة بوحل التفكير .

— ٥ —

شغلت قصة هتن الصفحة الأولى من الجرائد عدة أيام حتى بلغت من الشهرة مبلغاً لم تصل إليه قصة أخرى منذ أن غطى « جورج سمث » على حوادث الحرب الأوربية لإغراقه عروسه السابقة فى حمام ساخن . ولقد كان من جرّاء ذلك أن ثارت ضحكات الجمهور من أجل قصة قتل ظهرت فى الوجود بعدأشهرمن وقوع الجريمة . وهنايتجلى الشعور بأن هذه الحادثة جديرة بالاهتمام فى تاريخ الإنسانية لندرتهـا ، ولأنها تفصح عن تصاريف القدر فى تحريك أعنّة البشر . كان أسلوب القصة يقول إن رجلاً خبيثاً حركه هوى فاسـد ، فقتل زوجته وقد قضى شهراً ملوثا بالجريمة تحت ثياب البراءة المزعومة ، لالينجو ، بل ليقع أخيراً على أبشع صورة فى الحفرة التىأعدها لغيره . وهاهىذى الجريمة يتكشف عنها الستار ، ويماط عنها اللثام . وها هى ذى القضية تُعلن ، وهكذا أخـذ قراء الصحف يتتبعون بكل يقظة ما تجرى به يد القدرفى هذه الحادثة الغريبة

كانت هناك إشاعة مبهمة لـكنها جديرة بالعناية رددتها أفواه جيرانه وقام البوليس أخيراً بضبط الحادث وإجراء اللازم ، كما أخذت ظروف القضية ترتيبها فى التحقيق ، ثم التحرى ، ثم شهادة الخبراء فالمرافعة فالحكم ، كأنها قصة روائية ، وقد استغلت الجرائد هذه الفرصة واتخذتها مادة لغذاء تغذى به قراءها مدة طويلة

كانت حالة هتن حينما دعى من إيطاليا للاستجواب أمام هيئة التحقيق حالة غضب ، وما كان أعظم شأن تلك الفرية المزعجة التى أدت إلى القبض عليه كأنه مجرم عاطل ، واعتزم إذا ما انتهى التحقيق — وكان واثقاً من براءته — أن يقدم دعوى أمام النائب العام طالباً الحكم على جانييت بأشد العقوبة جزاء لها على تلك الحادثة الـكاذبة

بدئ التحقيق وأطلت الدلائل القوية ضده برأسها ، وبحث الخبراء الجثة فوجدوها مسممة بالزرنيخ ، وهكذا أخذ قراء الصحف يتتبعون كل لفظة مما تحويه الحادثة ، كما كان القرار الأخير للخبراء أنها ماتت بالسم

بهت هتن لسماع هـذا القرار وتعجب كيف ماتت زوجته على هذه الحال . بل ما كان أشد دهشته حينما علم أن هناك مستحضرات ممزوجة بهذا السم فى البيت تكفى لقتل جيش

علم هتن على أثر ذلك أن هناك مكيدة دبرت ضده ، وأنها آخذة فى التعاظم كنبات من نباتات المنطقة الحارة ، ثم أخذت تشتمل وتضيق عليه حتى خيل إليه أنه سيهلك فى غابة ملتفة . وبعـد فحص حالة التسمم قرر الخبراء أنهـا تناولته قبيل الموت بثمانى أو تسع ساعات (أى حالما مضى هتن ليحضر الدواء وحينما أفرغت جانييت القهوة) لذلك وجهت جانييت هذا السؤال إلى الخبراء :

— أتقصدون وقت الغداء ؟

— أجل !

فاستدعت كلادرا ثم قالت جانييت

— إن إميلي كما أذكر طلبت من (كلادرا) أن تحضر لها الدواء فتطوع هتن لاحضاره بدل الخادمة وأكدت الخادمة قول سيدتها فعادت مس اسبنس تقول :

— وفضلا عن ذلك لم يحضر الدواء فى زجاجته بل أحضره فى زجاجة خمر .

أثر ذلك القول فى نفس هتن فضاع غضبه وأنزله عن عرش كبريائه خوفاً وفزعاً ، وغلب على ظنه أن من السخرية أن يؤخذ هذا القول كله على سبيل الجد ، وأن يصبح حلم الليل حقيقة ، بل قد أصبح فى حكم الواقع ثبوته ، ولم لا يكون ذلك وقد رآهما السائق « ناب » غالباً معاً ، بل قد ساق العربة يوم ماتت إميلي ، بل قد رآهما يتبادلان العتاب

أجل التحقيق . وفى مساء ذلك اليوم ذهبت دوريس تشكو صداعاً ، ولما ذهب هتن إلى غرفتها بعد الغداء وجدها تصيح فجلس بجوارها على السرير ثم سألها قائلاً :

— ما الذي ألم بك يا عزيزتى ؟

ثم أخذ يداعب خصلات شعرها بيده ، غير أنها لبثت وقتاً طويلاً دون أن تجيبه ، فمال عليها وقبلها فى كتفها العارى ، بيد أنه كان مهموماً بما شغل باله فأخذ يقول على حدة : « ماذا تم ، وكيف انقلب الهذر والفضول إلى حقيقة . كيف ماتت إميلي مسممة بالزرنيخ ؟ ما أقبح ذلك وأبعده عن الامكان ؟ لقد انحرفت نظم الحياة ! » وطفق يستدر الرحمة من الطيش وعدم الاكتراث ثم يقول : « ما الذى حدث وماذا سيحدث ؟ » وسمع صوتاً قطع عليه سلسلة تفكيره وحديثه النفسانى . تأوهت دوريس فجأة وهى تقول :

— إنها خطيئتى ... إنها خطيئتى ... ليتنى لم أحبك ولم أسمح لك بحبي بل ليتنى لم أخلق

لم ينبس هتن ببنت شفة لكنه أخذ ينظر فى سكون إلى ذلك الجسد الرطب المتمدد على الفراش ، ثم قالت دوريس :

-- لأقتلن نفسى إن أصابك شيء ما !

ثم اعتدلت فى جلستها وأخذت يديه فى راحتيها ونظرت إليه نظرات شاردة كأنها نظرات الوداع ثم قالت :

— إنى أحبك ! إنى أحبك ! إنى أحبك !

وجذبته إليها وهو مستسلم لا يتحرك ، وعانقته ثم دفعت نفسها إليه فى قوة ، وقالت :

— آه يا هتن ! لا أظننى أحببتك مثلما أحبك الآن فما العلة ؟

تخلص هتن من عناقها ونهض قائماً محمر الوجه قائلاً :

— كأنك تصدقين أنى قتلت زوجتى ، إن ذلك لمضحك حقاً ، فأى صورة تتمثلها الأذهان جميعاً لشخصى ؟ أتظنوننى بطلا من أبطال السينما ؟

ومنذ ذلك الوقت بدأ هتن يشعر بفقد اعتداله الخلق وتحول حنقه وخوفه وارتباكه إلى غضب شديد عليها وقال :

— ما أقبح ما أنتن عليه من غباوة مرذولة ! أما عندكن إحساس بما يلائم عقلية الرجل المتمدن ؟ أما من سبيل إلى ذلك ؟ لعلك تظننين أنى قد جننت بحبك جنوناً يحملنى على ارتكاب أية

جريمة ؟ متى يجوز فى عقولكن أيتها النساء أن المرء لا يذهب فى حبكن مذهب الجنون ؟ كل ما يبحث عنه الإنسان هو الحياة الهادئة التى لا تسمح لأحد بلوغها . فمن لى بمعرفة ذلك الشيطان الذى قادنى إلى زواجك الذى لا أحسبه إلا ضرباً من الغباء . ثم أراك الآن تحومين حولى قائلة إننى القاتل . مالى على حمل ذلك صبر ولا جلد »

ثم انطلق نحو الباب مطلقاً لسانه بكلمات مزعجة ما كان له أن يتسرع بالتلفظ بها كما يعلم ، لكنه لم يتمالك نفسه ، ثم أغلق الباب بشدة خلفه

سمع هتن عند إغلاقه الباب صوتاً يناديه ، فعرف فى الصوت « دوريس » زوجته وسمع صوتها تتخلله نبرات الحزن والأسى ، فهل يا ترى يرجع إليها ؟ نعم حق عليه أن يرجع . وما إن مس مقبض الباب بيده حتى تغير رأيه ونزع يده بشدة وانصرف لسبيله ، ولما نزل إلى منتصف السلم توقف ودار بخاطره أن ربما أقدمت دوريس على مالا تحمد عقباه ، فتاتى بنفسها من النافذة ، أو شىء من هذا القبيل ، فأصغى باهتمام فلم يسمع صوتاً ، لكن كثر حدسه وتخمينه ، فتصورها وقد رفعت مصراع الشباك ، ثم إذا بها تطل فى هواء الليل البارد بينما يتساقط رذاذ قليل ... كانت الردهة المرصوفة تقع تحت هذه النافذة على بعد خمس وعشرين أو ثلاثين قدماً ، وفى أثناء سيره فى شارع « بيكادلى » قفز كلب فجأة من شباك فى الطابق الثالث من عمارة « رتز » رآه هتن وهو يقفز وسمعه وهو يرتطم بالأرض ، فتذكر دوريس وخشى أن يكون هذا نذيراً سيئاً ، أو أن تكون قد ألقت بنفسها ، فجمع العزم على أن يرجع إليها مهما كلفه ذلك من نزوله عن كبريائه . ولقد كان يستعجل الخطى ليراها ، فلما دخل البيت وقف متردداً يفكر فى ألفاظه التى فاه بها أمامها مخافة أن يكون قد جرح شعورها ، أو آلمها ؛ وشعر بالندم يحز فى نفسه ، ويهيمن على إحساسه

دفع الباب ودخل الحجرة فوجدها مستلقية على الفراش مهمومة ، فما رأته حتى تبسمت بسمة تمثلت فيها دلائل الإخلاص والحب الذى ينطوى عليه فؤادها له ، وما تشعر به نحوه من عطف ، فأقبل يداعبها ويستسمحها عما بدر منه

* * *

أخذت قضية مستر هتن دوراً خطيراً ، وأجمع الخبراء والأطباء رأيهم على أنها ماتت مسممة بالزرنيخ كما اجتمعت القرائن والدلائل على أن مستر هتن هو الذى دس لها السم ليتخلص منها ويتزوج دوريس . وكان العامل الأكبر فى إثبات التهمة عليه هو حبيبته السابقة جانييت اسبنس التى دبت الغيرة فى قلبها حينما تخلى عنها وتزوج دوريس ، فدبرت هذه المكيدة ، على حين كانت تريد هى أن تكون زوجته ، وكاد أملها أن يتجمع فى الاقتران به ، ولكنه تركها إلى دوريس ، فلا جرم أن أحست بالغيرة تقطع أوصالها فدبرت ما دبرت

وفى ليلة الحكم عادت جانييت اسبنس إلى منزلها وهي لا تدرى أيسرها هذا أم يسوؤها ، فنامت على أسوأ حال من سوء الهضم ، وأخذ الطبيب لبارد يتردد كل يوم لعيادتها ، أما هى فقد كانت تخوض معه فى الحديث حول قضية مستر « هتن » الذى

كان زواجه سبباً فى إغلاء مراجل حقدها ، حتى أنها كانت تقول للدكتور « لبارد » فى دهشة تتجلى فى عينيها :

أليس من العار أن تذكر أن شخصاً كان يُؤوى قاتلا فى بيته ؟ أليس فوق التصور أن يظل الانسان جاهلا حقيقة أخلاق إنسان آخر زمناً طويلا ؟

هكذا كانت تقول للدكتور لبارد بينما كانت هى التى دست السم لإميلى وقادتها الغيرة العمياء لأن تزج بهتن أمام ساحة القضاء لتلوث سمعته وشرفه ، ولكنها كانت تعشقه . وقالت :

— ها هى الفتاة التى فرّ بها من طبقة وضيعة لا تزيد على كونها أَمَةً مباعة . وها هى ذى الأخبار تَرِدُ بأن زوجته الثانية تستقبل طفلا جديداً سيكون يتيما ، إذ يولد بعد موت هذا الوالد الأثيم

وكان هذا الطفل يحرج صدرها ويؤذيها وكان الطبيب لبارد ينصت إلى كل ذلك صامتاً ، ولكنه في آخر مرة زارها وبعد أن سمع ما قالت ، أمسك بيده القلم ، وكتب لها اسم دواء

وفى ذلك الصباح قاطعها أثناء حديثها الذى تعود أن يسمعه من سباب ثم قال لها بلهجته الحزينة وصوته المنخفض

— على كل حال فإنى أفرض أنك التى دسست السم لزوجة هتن ؟

فحدجته جانييت برهة بعينين متقدتين ثم قالت بلطف :

— أجل فعلت ذلك !

— وربما كان ذلك فى القهوة ؟

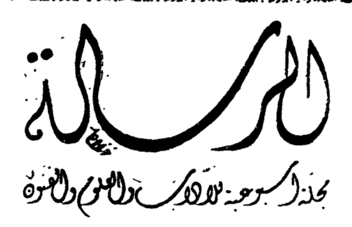
فأشارت إليه بالإيجاب

وحينذاك تناول الطبيب القلم ، وبمهارة وحذق ورزانة كتب لها تذكرة طبية باسم دواء منوم

حسن حبشى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرواية



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة . تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٦ — ١٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

قتل

للكاتب الانجليزى أرنولد بنت
بقلم احمد حسن الزيات

في عصر يوم من أيام الخريف كان رجلان أحدهما لوماكس هردر والآخر جون فرانتينج يمشيان جنباً إلى جنب في ساحة البحرية «بكنجات». وكنجات شاطئ جميل من شواطئ الاستحمام، وثغر صغير من ثغور المانش. وكان كلا الرجلين حسن البزة موفور الصحة يهدف للخامسة والثلاثين من عمره؛ وذلك كل ما بينهما من شبه. فأما لوماكس هردر فكان دقيق الملامح ضخم الجبهة أشقر الشعر وئيد المشية؛ وأما جون فرانتينج فكان أغم الجبين، بارز الذقن، تشمرك مخايل وجهه بالتحدى، ويدلك جفاء خلقه على العربدة

ترى على هردر شارة الشاعر إلا أنه حليق. وفي الواقع أن هردر شاعر رفيع الطبقة في بيئته التي تجعل للشعر المكانة الأولى وللشاعر الدور الأول. ولكنك ترى على فرانتينج سيما الأفاق المغامر الذي يجعل من جسمه بطلاً في الملاكمة، ومن قلبه دون جوان في الحب

قال لوماكس هردر وهو يزر معطفه يسأل صاحبه في لهجة تنم على الثبات والإصرار: أليس لديك ما تقوله؟ فوقف جون فرانتينج أمام حانوت كتب على واجهته: «جونتل — بائع أسلحة» ثم قال: إن ما لدي لا يعبر عنه الكلام، فأنا أدخل هنا. ثم اقتحم الحانوت، وتردد هردر قليلاً ثم دخل في أثره

كان بائع الأسلحة رجلاً بين العمرين عليه سترة من القطيفة السوداء، فلما رأى فرانتينج بادره بالتحية على طريقة الأخصائي الذي طارت شهرته إلى لندن. فرد عليه جون التحية بصوت غليظ أجش، ثم طلب منه مسدساً. فقال له البائع وهو

يعرض عليه بعض الأنواع : لعلك خبير بأصناف المسدسات ياسيدى ؛ فقال : إن معرفتى بها قليلة . فقال له هل سمعت بطراز وبلى — ٣ ؟ إنه خير طراز للاستعمال المبتذل

وكانت عين السيد جونتل تطلب إلى فرانتينج أن يكفيه رأيه ويقيه اعتراضه . فأخذ يفحص المسدس (وبلى — ٣) ويستمع إلى البائع وهو يقول: أنظر ! إن له خصيصة تميزه من غيره ، وهى أنك لا تستطيع استعماله وهو فارغ . لذلك تأمن أن ينطلق من ذات نفسه فيجرح أو يقتل مرشح الموت . ثم افتر جونتل عن ابتسامة رقيقة أتم بها هـذه النكتة وهى إحدى نكاته القديمة . فسأله فرانتينج فى غضب : وماذا للانتحار ؟

فقال جونتل: آه ! آه ! فطلب منه أن يريه كيف يحشى فأراه . ثم لاحظ الشارى خدشاً فى مؤخر المسدس ، فأخذ البائع يفحصه فى شئ من الألم ثم قال متأفقاً : سأعطيك غيره مادمت صعب المراس شديد المماحكة . فقال له احشه إذا شئت . فحشا جونتل المسدس الثانى وناوله إياه ؛ فطلب إليه أن يجربه ، فقاده إلى قبو وراء الحانوت أعد لهذا الغرض

وبقى هردر وحده فى الحانوت ، فتردد طويلاً ثم تناول المسدس الذى رفضه فرانتينج وأخذ يَزُوزه فى يده ، ثم وضعه ، ثم عاد فأخذه، وانفتح الباب الخلفى بغتة فذهل هردر لهذه المفاجأة ، فوضع المسدس فى جيب معطفه من غير قصد ولا وعى . وسأل جونتل فرانتينج أيريد رصاصاً . فقال إن لديه خمساً ، لأنه لم يطلق إلا واحدة . وفى هـذه الرصاصات الخمس كفاية الساعة. ثم دفع الثمن وخرج وفى يده المسدس فلم يدع لهردر وقتاً يقر فيه على قرار . وسأل جونتل الشاعر ماذا يريد . ففهم هردر من سؤاله أنه حسبه شارياً آخر اتفق دخوله الحانوت على أثر دخول فرانتينج . ورجّح هـذا الحسبان فى نفسه أنه هو وفرانتينج لم يتبادلا الخطاب منذ دخلا . فطلب إليه نوعاً من السيوف لا شفرة له ؛ وهو طلب ورد على خاطره فألقاه كما جاء . فغض ذلك من كرامة جونتل وقدح فى اختصاصه . ثم تجاذبا الحديث هنيهة واعتذر هردر اعتذار الخاطئ ، ثم انصرف انصراف اللص ، وهو يقول لنفسه إرضاء لضميره : سأعود إلى البائع فأنقده ثمن المسدس ، أو أرسل إليه حوالة بريدية غفلاً من الإمضـاء . ثم اجتاز الساحة فأبصر على بعـد شبح فرانتينج يتسحب وحده على الرمل ، فخيل إليه أنه رآه يهز المسدس ، وأنه سمعه يطلقه ؛ ولـكن المسافة كانت بينهما بعيدة فلم يستطع أن يجزم بالأمر . وقطع فرانتينج الساحل من زاوية إلى زاوية فغاب عن بصره . فظن هردر أن صاحبه انقلب إلى (المنظر الجميل) وهو الفنـدق الذى لقيه أمام بابه منذ ساعة . فأخذ سمته إلى هذا الفندق ؛ وكان فرانتينج قد أخذ المصعد الصغير ليرقى به الصخور العالية فكان يمشى أمامه . واطّلع هردر من إحدى النوافذ فرأى فرانتينج يدخـل بهو الفندق ويجلس فى أحـد المقاعد ؛ ثم بدا له فنهض وغاب فى الدهليز . فدخل هردر من الباب فى هيئـة المجرم فلم يصادفه بواب ولم يقابله ساكن . حتى إذا بلغ آخر الدهليز وجد نفسه فى حجرة البليارد ، وكان الليل قد أقبل ، وموقد المصطلى تشتعل فيه نار خفيفة ، فلم تستطع أن تكسر من برد الحجرة . ومع ذلك ظلت النافذة مفتوحة جرياً على هوى الإنجليز من حبهم الهواء البارد ، وتوخيهم جانب الخشونة من العيش . وكان فرانتينج قاعداً يتأمل وظهره إلى النار ، وبنيقة معطفه إلى فوق ، وسيكارة مطفأة فى زاوية فمه . فلما أبصر هردر رفع ذقنه إليه متحدياً وقال :

— أتتبعنى إلى كل مكان ؟

فأجابه هردر على الفور بلهجته الرقيقة الوديعة :

— نعم . ولقد جئت لأتحدث إليك ؛ ولولا أنك خرجت من الفندق ساعة دخلت لقلت لك مالدى ؛ ولم تكن فى طريقك على حال تسمح لى بواضعتك الرأى . ولا بد لنا من بعض الحديث ، فإن عندى شؤوناً شتى أريد أن تقف عليها

وكان هردر هادئ النفس والصوت كدأبه ، فتقدم نحو البليارد فصده فرانتينج باشارة من يده ، وقال له فى لهجة يظهر فيها الحنق والفتور والروية : إستمع إلى ! إنك لاتستطيع أن تقول لى مالا أعلمه . وإذا لم يكن من الكلام بد فأنا الذي أتكلم . فإذا فرغت من الكلام وجب عليك أن تخرج :

« إني أعلم أن زوجتى احتجزت محلها على الباخرة (هارويش) الذاهبة إلى كوبنهاجن ، وأنها مشغولة بجواز سفرها ومتاعها ؛ وأعلم كذلك أن لك منافع فى كوبنهاجن ، وأنك ستقضى بها نصف وقتك الثمين . وليس من همى أن أفكر فى الاقتراب منكما

« كل ذلك لا يعنينى ، فإن (إميلى) رأتك كثيراً ، وقد رأتك فى هذين الأسبوعين أكثر . لا تظن أنى أرى فى ذلك بأساً أو مضرة ، فإنى أعلم أن إميلى تشكو جفاء معاملتى وسوء سلوكى . ذلك صحيح ؛ ولكنها مسألة بينها وبينى ، لا تعنيك ولا تعنى أحداً من الناس . فإذا عجز عنها وسعها لجأت إلى الطلاق ؛ ونجاحها فى الطلاق أمر مشكوك فيه . ولكن المرء لا يدرى ماذا تسفر عنه هذه القوانين . وعلى أية حال ستظل إميلى زوجتى حتى يقع الطلاق . وستبقى لى عليها واجبات الزوجية ولو كنت شر الأزواج جميعاً

«ذلك رأيى أفصحت عنه . وتلك لعبة طال عليها القدم فأصبحت لا تجوز على أحد

«لقد جاءنى منها كتاب منذ قليل . فهى إذن تعرف أين أنا ؛ وذلك يفسر لى وجودك هنا . فقال له هردر فى لهجته الهادئة : ذلك صحيح

وأخرج فرانتينج من جيبه الداخلى كتاباً ثم نشره وأخذ يقرأ بعض فقراته :

« لقد قطعت العزم على أن أفارقك . وأنا أعلم أنك تعرف الرجل الذي يبذل مايبذل فى مساعدتى . لقد أصبح من المحال أن أعاشرك . إنك عبدتنى وبالغت فى عبادتى كما تزعم ؛ ولكننى ضقت ذرعاً بطريقتك التى تملن بها حبك إياى . إنها طريقة تذل النفس وترمض الفؤاد . لقد قلت لك ذلك مرارا وأنا أقوله لك الساعة لآخر مرة »

— وعلى هذا النحو من الثرثرة والهذر كل الرسالة. ثم مزقها قطعتين رمي إحداها ورم الأخرى، ثم التفت إلى النار فأشعلها وأشعل منها سيكارته وقال : هاك صنيعي بهذه الرسالة . إنك تساعدها . أليس كذلك؟ أنا لاأقول إنك تحبها أو إنها تحبك ، فليس من طبعي أن أجازف بالحكم القاسى ، وإنما أسألك إذا كنت لا تحبها فلماذا تجشم نفسك الأهوال فى سبيلها ؟ جب أقطار الأرض واحمل معك المواساة للنسوة اللاتى يزعمن أنهن بائسات ، فذلك لايشغل بالى . وكل ماأبغيه أن تستقر فى ذهنك أن إميلى لن تفارقنى ، فإن معها المال وليس معى شيء . فأنا أعيش عيشة على مالها كلاً عليها ، فإذا تركتنى نزلت بى النازلة التى يرفض لها صبر الصبور.

أليست هذه الحجة سديدة للاحتفاظ بها؟ ولكن صدقنى أو لا تصدقنى ليست هذه هى حجتى . إنها لم تعد الصواب حين قالت إنى أعبدها ؛ وتلك حجة أخرى للاحتفاظ بها ؛ ولكن ليست هذه الحجة ولا تلك ممايدخل فى منطق . إن الزوجة فى رأيى هى الزوجة . ولا تستطيع هى بهذا الاعتبار أن تخون عهدها بحجة أن طريقها ليست كلها وردا ، وأن حياتها ليست جميعها غبطة . لقد سمعتها تقول إنى فاحش الخلق دنس العرض ، ولكنى لست فى الغاية من الفحش والدنس، فلا أزال أحترم مايسمونه العلاقة الزوجية

ثم أخرج مسدسه من جيب معطفه وقال : إنك ترى هذا المسدس ، وقد رأيتني أشتريه ، فلا بأس عليك منه . ليس فى منهجى أن أقتلك . وأعمالك لا تلفت نظرى ولا تشغل بالى . إنما يعنينى ما تعمل زوجتى . فإذا تركتنى واتبعتك أو اتبعت سواك ذهبت وراءها إلى كوبنهاجن ، أو إلى بنجكوك ، أو إلى القطب ، ثم أقتلها بمسدسى هذا .

الآن تستطيع أن تنصرف .

قال ذلك وأعاد المسدس إلى جيبه ، ثم جذب نفساً قوياً من سيكارته وسكت

وتفرس هردر فى وجه صاحبه الكالح الشتيم المنذر ففهم أنه يفعل ما يقول . ومثل هذا الرجل الجرئ القلب لا ينكص عن غاية ولا ينكل عن جريمة . فاذا تركته إميلى فكأنها أمضت قرار موتها بيدها

ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إميلى قررت السفر ولا بد أن تسافر . ومن الشديد على نفس هردر أن يرى هذه المرأة التى وصل الحب بين قلبها وقلبه لا تبرح تعانى ما يسومها زوجها من العذاب والمهانة . تخطا بضع خطوات بجانب البليارد ، فنهض فرانتينج يلقاه ، فأخرج هردر المسدس الذى فى جيبه وسدده إليه ثم أطلقه . فترنح فرانتينج ثم خر صريعاً ليديه على مائدة البليارد . ورنت الطلقة فى أذن هردر رنين الوتر إذا انقطع فجأة ، ورأى ثقباً صغيراً أحمر فى صدغ فرانتينج البرنزى فقال لنفسه : كان لا بد من أن يموت أحدها ؛ والأولى أن يكون الميت فرانتينج لا إميلى . وشعر هردر أنه أتى أمراً مشروعاً ، ولكنه أحس مع ذلك بعض الأسف على الصريع . ثم ما لبث أن أدركه الخوف ... أدركه الخوف على نفسه ، لأنه لا يريد أن يموت ، ولا يحب أن يكون موته على المشنقة . وأدركه الخوف على إميلى ، لأنها ستصبح بعده من غير صديق ولا سند . وشق عليه أن يتصورها وحيدة فى هذا العالم عرضة

للتهم الجريئة ، وغرضاً للمطاعن البذيئة ، فرأى أن ينصرف من فوره على عجل . أيخرج من الدهليز المؤدى إلى البهو ؟ كلا . إن ذلك آخر ما يفكر فيه . إن أمامه النافذة ! فنظر هردر إلى الجثة نظرة ، ثم لمح فى الظلام الغاشى سيكارة القتيل تبص على البساط الأخضر فالتقطها وألقاها فى النار . ثم هتك طرفاً من الستار المضروب على النافذة واطّلع فرأى النور فى الفناء أضوأ منه فى الحجرة . ثم لبس قفازه وألقى على الجثة النظرة الأخيرة ، وقفز من النافذة فكان فى الفناء المبلط بالقرميد . والتفت فإذا الستار قد عاد إلى حاله ؛ ونظر حواليه فلم يجد إنساناً يدب ولا نافذة تضىء ، فاتجه نحو باب من الأبواب ودفعه فانفتح مصراعه عن طريق غير نافذ ، فارتد عنه وجال حتى اهتدى بعد لأى إلى ساحة البحرية .

ثم أوحت إليه بديهته عفو الساعة أن يضلل مقتفى أثره ، فقرر أن يعود إلى الفندق من بابه العام ، فدخل الردهة على مهل وجرأة ، فرأى بواباً تلفع بالظلام فحيَّاه وسأله عن غرفة خالية . فقال له : ياسيدى ، إن المدير قد سافر إلى لندن ، والوكيلة قد خرجت لبعض شأنها ولا تلبث أن تعود . فهل تتفضل بالجلوس ؟ ثم أنار البواب البهو فدخله هردر مخطوف البصر واستوى على أحد المقاعد ثم قال : هل أستطيع أن أشرب كأساً من الكوكتيل ريثما تجىء ؟ فأجابه البواب : تستطيع ياسيدى ولا شك . وسآتيك به أنا نفسى ، فإن الغلام المنوط بهذه الأمور لا يعمل اليوم . ثم ولى ، وخلا القاتل إلى نفسه فقال وهو يصوب نظره فى الدهليز الطويل : فندق عجيب ! أيستطيع هذا الخادم أن يديره وحده ؟ ولكن لا عجب فنحن فى فصل الكساد . ثم سأل نفسه : ليت شعرى ألم يسمع طلقة المسدس أحد ؟ ثم أخذته رغبة قوية فى الهرب ، ولكنه راجع حلمه واستعاد جأشه . ودخل البواب

بالكوكتيل فتجرعه هردر ثم نقده فيه ثمانية عشر بنساً وشكره عليه . ثم قال له : أنا ذاهب الآن في بعض أمري وسأعود عما قليل . ثم انصرف وئيد الخطو رابط الجأش حتى غاب في الظلام .

واتكأ لوماكس هردر على حاجز الرصيف وكل ماحوله جماد وصمت ، فلاعين تراه، ولاأذن تسمعه . ومع ذلك أجال بصره حواليه فلم يجد إلا نجوم الليل تلمع في الفضاء ، وأضواء السفن تسطع على وجه الماء . فأخرج المسدس من جيبه وألقاه في اليم . ثم التفت فرأى من وراء المرفأ الصغير ذلك المدرج العجيب الذي تتألف منه المدينة الزاهرة . وسمع دقات الساعات ترن في قباب المعابر والكنائس .

إنه قاتل ، فلماذا لاينجو بنفسه من المطاردة ؟ هل كان لقاتل آخر أن يظل على حاله الطبيعية من ثبات القلب وراحة الضمير ؟ لقد كان كل شيء على خير ما يريد أن يكون : لم يره البواب لدى دخوله الفندق أول مرة، ولم يره عند خروجه منه بعد الجريمة. كذلك لم يترك من ورائه أثراً يدل عليه ، لا في حجرة البليارد ، ولا على متكأ النافذة ، ولا فوق بلاط الفناء. ولكن هناك فرضاً واحداً ، هو أن يكون أحد الناس رآه وهو يتسلق النافذة . ذلك فرض بعيد ، ولكنه على أية حال ممكن . ولم لا يكون بعض من يعرفون فرانتينج قد رآه وهو يسير معه في الطريق فيخبر بذلك الشرطة ؟ كذلك هذا الفرض لا يؤدي إلى نتيجة ؛ فإن منظر هردر ليس فيه مايسترعى الملاحظة العرضية إلا جبهته الضخمة وهي مستورة بقبعته . إن القاتل يرتكب في العادة أمراً لايخلو من إنكار العقل، ولكن هردر لا يجد فيما ارتكب مخالفة لعقله ولا إساءة إلى ضميره. وكل ماشعر به بعد أن قتل فرانتينج أنه آسف على أن دفعته الظروف إلى هذه الغاية

كان من المقضي على أحدهما أن يموت . فهل يرفض العقل السليم أن يموت رجل غليظ القلب فظ الطباع ، وتحيا امرأة لطيفة الروح رقيقة الشمائل ؟ لقد شغف قلبه الحب الخالص لإميلي ، فهو لا ينكل عن قتل مائة رجل إذا كدروا عليها صفو الحياة . وهو جميل النية فلا يبغي على إخلاصه لها ودفاعه عنها جزاء ولاشكراً . ولما تذكر ماصنع فرانتينج بكتابها حين مزقه وأحرقه وأشعل من ناره سيكارته ، ثار الدم في وجهه من الغضب

ودقت إحدى الساعات دقة الربع فاتجه مسرعاً إلى الرصيف واستقل سيارة إلى المحطة . ووسوس إليه الخوف أن رجال الشرطة يراقبون المسافرين ، ولعلهم يكشفون الجريمة . وخيل إليه أن السائق ينظر إليه نظرات غريبة مريبة ، ولكنه صرف عن نفسه هذه الوساوس وتقدم إلى مراقب التذاكر فأراه تذكرة الاياب ؛ ثم صعد في عربة بولمان وتحرك القطار. فلما بلغ محطة فكتوريا ساوره شيء من الخوف والقلق ، فقد وقع في حسبانه أن البوليس السري ربما تلقى خبر الجريمة عن طريق البرق فهو يترقبه

كان القطار القائم من (فكتوريا ستريت) إلى (هرويش ماريتيم) غاصاً بالناس من كل طبقة ، فعلم هردر من سقاط الأحاديث أن مؤتمراً دولياً سيعقد في كوبنهاجن ، فمن العبث البحث عن إميلي في هرج القطار وفوضى الركب . وظل القاتل في أثناء الساعتين اللتين قضاهما في القطار مثاراً للخواطر السود والوساوس القاتلة . وقد ذكر أنه نسى قطعة من الرسالة على مائدة البليارد فعجب من غفلته

كان رصيف الباخرة في المرفأ يمور بالناس موران البحر في يوم عاصف . وكان هردر من شدة الزحام لا يمشي ، وإنما يسير محمولا مدفوعاً حتى بلغ الباخرة على شيء من هدوء النفس ، لأن زحمة المرفأ على هذا النحو تجعل رقابة البوليس السري مستحيلة

صفرت الباخرة ، وفصلت عن الرصيف، وخرت العباب في بحر الشمال ، وغدت انجلترا صفاً من النور

على طول الساحل ، فطفق هردر يبحث عن إميلي في المركب من المقدمة إلى المؤخرة فلم يجدها . فظل نهاره متلدداً يتحسر من الهم ويتضور من القلق . وأخيراً تلاقيا . فقد كانت هي أيضاً تبحث عنه . وكان هذا اللقاء المرجو برداً على فؤاده وسلاماً لنفسه . لقد كان لها كل شئ في الحياة . فأخذ يدها اليمنى وجعلها في يديه ، ثم جعل يتأملها في ضوء النجوم وفي نور القمر وفي لألاء المصابيح . وكانت إميلي واحدة النساء في السذاجة والرزانة والأمانة والعفة ؛ حسنها الرائع قيد النواظر ، ووجهها الحزين السعيد بهجة الخواطر ، وشبابها الغض متعة الأنفس . قصت على هردر ما فعلت ، وقص عليها هردر ما فعل ، ثم قالت : وبعد ؟ فقال لها : لم أستطع الذهاب إلى هناك ، فقد ظننت أن هذا أفضل . وأعتقد أن ذلك لم يكن فيه غناء ولا نفع

لم يكن في نية هردر أن يكذبها الخبر . ولكن ماذا عسى أن يقول غير ذلك في مثل هذا الموقف ؟ لقد كذب مرة لئلا يكذب عشرين ، وآثر أن يخدعها بالباطل على أن يفجعها بالحقيقة ؛ فوافقته على قوله ، وشايعته على رأيه ، وقالت وهي تفتر عن ابتسامة ملائكية : الحق معك ، ونعمَّا فعلت !

***

كان مدير الشرطة ورجل من رجال الخفية واقفين في حجرة البليارد في فندق (المنظر الجميل) ، وكانت أضواء المصابيح القوية تنير البساط الأخضر وتسطع على جثة فرانتينج الهامدة ؛ وكانت امرأة من خادمات البيت تنصرف بعد أن سألها رجلا الشرطة ؛ وكان يدخل الحجرة ساعة انصرافها رجل ضخم الجثة ، فحيا الشرطيين وأغلق الباب ثم قال :

أنا نازل على صديق الدكتور فورنيفال ، وقد طلبتموه بالتليفون وهو يعالج حالة من الحالات الدقيقة الخطرة ، فأردت أن أحل محله فيما تريدون . ولعلي رأيتك ياسيدي المأمور في (اسكتلنديارد) . فقال المأمور : الدكتور أوستن بوند ؟ أهلاً وسهلاً !

وتصافح المأمور والدكتور مصافحة الاحترام والود . وسمع رجل الخفية اسم رجل البوليس السري الماوى فارتعد إجلالاً ورهبة ، لأنه يعلم أن عبقريته نادرة في كشف الجرائم وتحقيق الحوادث ، وقد استفاضت شهرته بعد أن حل رموز « القبعة الصفراء » ، والملعقة الذهبية الخ

قال الدكتور أوستن بوند بعد فحص سريع : أجل . إن المسكين قتل منذ تسعين دقيقة ؛ فمن الذي اكتشفه ؟ — هذه المرأة التي خرجت منذهنيهة . — ومتى كان هذا ؟ — منذ ساعة — هل وجدتم الرصاصة ؟ — ها هي ذي ...

فأخذها الدكتور وفحصها ثم قال : آه ! آه ! إنها ناتئة ... مسطحة ... كالعادة

وقال المأمور للشرطي : ادع من ينقل الجثة فقد فرغ من فحصها الدكتور

وكان الدكتور حينئذ أمام المدفأة فقال : إن القتيل كان يدخن سيكارة . فقال له المأمور : هو أو القاتل ؟ فقال : هل اقتفيتم الأثر ؟ فقال المأمور في شيء من الزهو : نعم . وطلب من البوليس السري مصباح الجيب ، ثم دنا من النافذة وأرى الدكتور بصمات الأصابع على الزجاج ، وآثار الأقدام على الحافة ، ومزقاً صغيرة من نسيج غليظ أزرق . فأخرج الدكتور مجهراً جميلا وأخذ يفحص هذه المخلفات بعناية ودقة . وقال المأمور بلهجة التأكيد: إن القاتل لابد أن يكون طويل القامة : يظهر ذلك من زاوية الإطلاق ؛ وقد كان يرتدي حلةً كاملة فيها فتق صغير ؛ وكانت نعل حذائه الأيسر مثقوبة ، ويده اليسرى ذات ثلاث أصابع . ولا بد أن يكون قد دخل الغرفة من النافذة ثم خرج منها ما دام البواب يؤكد أن أحداً لم يدخل الفندق غير القتيل في الساعة التي حدث فيها القتل .

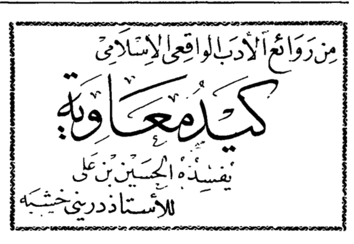
ومضى المأمور يثرثر بمثل هذه التفاصيل حتى قال إنه أعطى المختصين صورة القاتل كاملة . فعقب الدكتور على رأيه بقوله : إن من أغرب الأمور أن رجلاً كجون فرانتينج يترك رجلا يقتحم عليه الحجرة من النافذة ، وعلى الأخص إذا كان هذا الرجل رث الثياب . فقال له المأمور : إنك إذاً تعرف القتيل حق المعرفة . فقال الدكتور : كلا . وانما علمت أن اسمه جون فرانتينج...

أمر المأمور الجندى باستدعاء البواب ، وأخذ الدكتور يفحص الحجرة : يبحث فى كل زاوية ، ويتفرس فى كل شىء ، فوقع بصره على قصاصة ورق فى بعض الحنايا فالتقطها ونظر فيها بعين فارغة ثم ألقاها . وجىء بالبواب فسأله المأمور : كيف تؤكد أن إنساناً لم يدخل هذه الحجرة بعد الظهر ؟ فقال له البواب : لأننى لم أترك مكانى لحظة . وكان البواب كاذباً ، لأن الإدارة آخذته بغيابه البارحة من غير إذن ، فهو يدافع بالكذب عن نفسه

— وهل تستطيع وأنت فى مكانك أن ترى البهو كله ؟ فقال الدكتور بوند : كان يستطيع أن يكون هنا قبلا . فاعترض المأمور قائلا : إن الخادمة جاءت هنا مرتين إحداها قبل أن يجىء فرانتينج ، وكانت النار توشك أن تخبو ؛ فلما عادت بالوقود راعها منظر فرانتينج فانكفأت عنه مولية . فرغب الدكتور أن يكلم هذه المرأة كلمتين . فتردد المأمور ، وساءه أن يدخل بوليس هاو فيما لا يعنيه . ولكنه على الرغم من ذلك دعا المرأة . فسألها الدكتور : هل غسلت اليوم هذه النافذة ؟ فأجابته : نعم . فقال أريني يدك اليسرى . فأرته إياها . فسألها فى أى حادث فقدت هاتين الإصبعين ؟ فأجابته فى حادث اصطدام . فأمرها أن تدنو من النافذة وأن تضع كفها على الزجاج بعد أن تخلع حذاءها الأيسر . فشهقت المرأة بالبكاء . فطمأنها الدكتور وسألها هل فى بعض ثيابها فتوق ؟ فأجابت نعم . ثم انصرفت وفى يدها حذاؤها . وأقبل الدكتور على المأمور يقول له : لقد لاحظت وأنا داخل أن يدها مبتورة الإصبعين . ويحزننى أن يحبط عملك ، ولكنى علمت علم اليقين أن القاتل لم يدخل من النافذة ولم يخرج منها . فسأله المأمور وكيف كان ذلك ؟ فقال إن القاتل لم يغادر الحجرة . فدارت عيون الشرطيين فى الحجرة يبحثان عنه . ولكن الدكتور أشار بيده إلى الجثة وقال : إن القتيل هو القاتل . فقال المأمور وأين أخفى المسدس إذا كان انتحر ؟ فقال الدكتور ذلك ما أبحث عنه . ومن أخطر الأمور أن يلمس أحد جثة المقتول قبل أن يحضر رجال الفن . أنظر إلى جيب المعطف الأيسر ! ألا تراه منتفخاً كأن به شيئاً غير عادى ؟ ابحث فيه . فبحث المأمور فأخرج منه المسدس . فزُهي الدكتور وقال : هذا هو ! ثلاث رصاصات أطلقت . فليت شعرى أين أطلق الآخريين؟ أين الرصاصة التي وجدناها ؟ أنظر ! إنه أطلق النار فاسترخت ذراعاه فسقط المسدس فجأة فى جيبه

فقال المأمور متهكماً : وهل أطلق بيده اليسرى ؟ فقال له ولم لا ؟ لقد ظل فرانتينج اثنتى عشرة سنة وهو بطل انجلترا الهاوى فى الوزن الخفيف . ومرجع فوزه إلى أنه كان يضلل خصمه لأنه أعسر . وقد رأيته يعيني رأسى مراراً وهو يلاكم . قال الدكتور ذلك واتجه إلى المنصة فالتقط قصاصة الورق وقال : إنها كانت ولا بد عند المدفأة ، فلما فتح الباب أطارها الهواء إلى هذا الموضع . إنها شطر من رسالة ، ولا بد أن يكون الشطر الآخر محروقاً فى الوقد . لقد أشعل به سيكارته . أنظر ! إنها ثرثرة المحتضر ... هى هذيانه الأخير ! إقرأ : فقرأ المأمور « ... أكرر أنى على يقين من حبك إياى ، ولكنك قتلت فى قلبى محبتى إياك . وغداً سأترك المنزل ؛ وذلك فراق الأبد » (إ)

وبعد أن أثبت الدكتور أوستن بوند بطريقته



— ١ —

(في قصر يزيد بن معاوية ليلا)

يزيد — وبعدُ يا رقيق ؟

رقيق — وبعدُ ماذا يا مولاى ؟

يزيد — في أمر أبي معاوية أمير المؤمنين ؟ !

رقيق — أحسن أمر يا مولاى ! أبوك كاتب الرسول ، وأمير المؤمنين ، و ... و ... لا ...

يزيد — و ... لا ... ماذا يا رقيق ؟ أتخفي عليّ شيئاً وأنت وصيفي المخلص ... ؟

رقيق — وقد أخذ لك العهد من بعده ، والسيوف مسلولة على رأس الحسين بن علي وعلى من معه !

يزيد — ما هذا قصدت !

رقيق — فما قصدت ؟ !

يزيد — قد كنت أعرف من جميل رأيه وحسن نظره في جميع الأشياء ، ما الثقة في ذلك ، والتوكل عليه ، مَنَعني من البوح بما تَجمْجَمت في صدري له وطلابه إليه ، فأضاع وترك من النظر في شأني ... فالله يجزيه عني بإحسانه ، ويغفر له ما اجترح من عهده ونسيانه

رقيق — وما ذاك جُعلت فداك ؟ !

يزيد — ... ؟ ...

رقيق — ألاَ لا تَلم على تضييعه إياك فانك تعرف تفضيله لك ، وحرصه عليك ، وما يخامره من حبك ، وأن ليس شيء أحب إليه منك لديه ، فاذكر بلاءه واشكر حياءه ، فانك لا تبلغ من شكره إلا بعون من الله !

يزيد — ... هذا حق يا رقيق ... هذا حق ... وا أسفاه على ما فرط مني !

— ٢ —

(في قصر الخلافة)

حاجب — رقيق ، وصيف سيدي يزيد يا مولاى

رقيق — السلام على أمير المؤمنين

معاوية — وعليك السلام يا رقيق ، ماذا جاء بك ؟

رقيق — رسالة من سيدي يزيد !

معاوية — ماذا قال لك ؟

رقيق — إنه شكا إليّ فقال ، ولم أدر ما عني

الخاصة وأدلته القاطعة أن رجال البوليس السري لا يعلون في الذكاء على الحبر ، ألقى التحية على المأمور ، وأومأ برأسه إلى الشرطي ، وخرج منصوراً فخورا !

* * *

كانت إميلي جالسة صباح ذلك اليوم في ردهة (البلاس أوتيل) في كوبنهاجن حين أقبل عليها لوماكس هردر وفي يده صحيفة إنجليزية ، فقرأ عليها تفاصيل التحقيق وقرار المحكمين بأن فرانتينج قضى منتحراً . فنال من المرأة الشابة هـذا الخبر فبكت زوجها أحر بكاء . ونظر إليها هردر نظر الحنان والعطف وقال في نفسه : إن الزمن بلسم الفؤاد الجريح . أما أنا فقـد أُكرهت على ما فعلت . وسيكون هـذا السر بيني وبين نفسي حتى ألقى الله

« مجلة مربان ٢ فبراير » الزيات

معاوية — ويحك ! انطلق فادعه إلى ، والله ما أضعنا منه إلا رحمة له وكراهية لما شجاه وخالف هواه (يخرج وتدخل ميسون زوج معاوية)

ميسون — لأمر ما كان رقيق هنا الساعة ؟ أمن عند يزيد أقبل ؟

معاوية — من عنده أقبل ، ولست أدرى لماذا ؟

ميسون — أيكون به مرض ؟

معاوية — ما به هذا ، ولكنى أعرف ما به ، إنه داؤه القديم عاوده !

ميسون — داؤه القديم ؟ ! وما داؤه القديم يا معاوية ؟

معاوية — أرينب ابنة اسحاق !

ميسون — وما فى الدنيا من هى خير من أرينب فتشغله عنها ؟

معاوية — لكنه الحب يا ميسون ! أما والله ما رأيت فى بنات العرب من لها لفتتها وإشراقها وحسن مبسمها وهضيم كشحها وأريج رياها !

ميسون — لكنها تزوجت ، وعليها الآن عبد الله بن سلام [1] عاملك على العراق !

معاوية — يا لك ؟ ! أيضيق بهذا معاوية وما ضاق بابن أبى طالب من قبل ؟ !

ميسون — إذن ! ...

معاوية — إذن ... تسكتى !

— ٣ —

(تخرج ميسون ويدخل يزيد)

يزيد — السلام على أمير المؤمنين

معاوية — وعليك السلام يا يزيد من أب ساءه ما قلت ! ماذا أضعنا من أمرك وتركنا من الحيطة عليك وحسن النظر لك حيث قلت ما قلت لرقيق ؟ ! قد تعرف رحمتى بك ، ونظرى فى الأشياء التى تصلحك قبل أن تخطر على وهمك . وكنت أظنك

(١) ابن قتيبه ، ولم يذكره الطبرى

على تلك النعماء شاكراً ، فأصبحت بها كافراً ، إذ فرطت من قولك ما ألزمتنى فيه إضاعتى إياك ، وأوجبت على منه بالتقصير ؛ لم يزجرك عن ذلك تخوف سخطى ، ولم يحجزك دون ذكره سالف نعمتى ، ولم يردعك عنه حق أبوتى ! فأى ولد أعق منك وأنكد ، وقد علمت أنى تخطأت الناس كلهم فى تقديمك ، ونزلتهم لتوليتى إياك ، ونصبتك إماماً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم من عرفت وحاولت منهم ما علمت ! [1]

يزيد — (وقد أخذته الرجفة ، وأخذ يتفصد من العرق) أبى يا أمير المؤمنين ! لا تلزمني كفر نعمتك ولا تنزل بى عقابك ، وقد عرفت نعمة مواصلتك ببرك ، وخطوتى إلى كل مايسرك فى سرى وجهرى فليكن سخطك ، فإن الذي أرنى من أعباء حمله وثقله ، أكثر مما أرنى لنفسى من أليم مابها وشدته ؛ وسوف أعلمك أمرى ... كنت قد عرفت من أمير المؤمنين استكمل الله بقاءه ، نظراً فى خيار الأمور لى ، وحرصاً على سياقها إلىّ ... وأفضل ما عسيت أستعدُّه بعد إسلامي المرأة الصالحة ... وقد كان ما تحدث به من فضل جمال أرينب بنت إسحاق ، وكمال أدبها ما قد سطع وشاع فى الناس ، فوقع منى بموقع الهوى فيها ، والرغبة فى زواجها ، فرجوت ألا تدع حسن النظر لى فى أمرها فتركت ذلك حتى استنكحها زوجها ، فلم يزل ما وقع في خلدى ينمو ويعظم فى صدرى حتى عيل صبرى ، فبحتُ بسرى . فكان مما ذكرت تقصيرك فى أمرى ، فالله يجزيك أفضل من سؤالى وذكرى ! !

معاوية (وقد آلمه بكاء يزيد) — مهلاً مهلاً يا يزيد

(١) يشير معاوية إلى ما صنع مع الحسين فى أخذ العهد ليزيد فقد أوقف فوق رأسه وفوق كل من رؤوس أصحابه رجلين شاكي السلاح بحيث لو احتج أحدهم لقتلاه !

يزيد — علام تأمرنى بالمهل ، وقد انقطع منها الأمل ؟

معاوية — فأين حجاك ومروءتك وتقاك ؟!

يزيد — قد يغلب الهوى على الصبر والحجا ، ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتُقاه ، أو يدفع ما أقصده بحجاه ، لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام ، وقد خبرك القرآن بأمره

معاوية — فما منعك قبل الفوت من ذكر ما بثتك ؟

يزيد — ما منعنى ؟ منعنى ما كنت أعرفه وأثق به من جميل نظرك

معاوية — صدقت يازيد ! ولكن اكتم يابنى أمرك بحلمك ، واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن

— ٤ —

(معاوية وميسون)

معاوية — ألم أقل إنه الهوى وحُرَق الحب ؟

ميسون — أرجو ألا تكون قد لنت له ولا أن تكون قد قسوت عليه فيجن جنونه فى الحالين !

معاوية — بل أخذته بهما معاً ، وإنى مزوجه من أرينب حتى لا يعاوده هواه فيفسد عليه أمر الخلافة .

ميسون — تزوجه من أرينب وهى تحت رجل من عمالك يا معاوية ؟

معاوية — ولم لا ؟ أهي أعقد من نصر حصلنا عليه من هزيمة مؤكدة ؟

ميسون — وزوجها ؟ ! إنه يهواها ، ولا يرى الدنيا كلها بها ... ثم هى ... إنها تهواه وتخلص له الحب ...

معاوية — سترين يا ميسون كيف أملك من شيطان الهوى ما ملكت من شياطين العرب قبل

(وينادى) يا غلام ! (يدخل غلام حدث)

معاوية — قرطاساً ويراعةً يا غلام !

(يخرج الغلام فيغيب لحظة)

ميسون — هذا أمر له ما وراءه ، وإن ألسنة العرب ما تزال إلباً عليك ، والرأي أن نشغل ابننا برومية أو شآمية تخلبه ...

معاوية — أية رومية وأية شآمية ياميسون ؟ إنها أرينب ... وإنه الحب !

(يدخل الغلام بالقرطاس والقلم)

معاوية — (يكتب لحظة) أتقرأين يا ميسون ؟

ميسون — (تقرأ) ... وأى حظ لابن سلام يا ترى فى أن يقبل ؟

معاوية — ستعرفين فصبراً يا ميسون ؟

— ٥ —

(فى قصر ابن سلام بالعراق)

ابن سلام — يا لها من رؤيا يا أرينب !

أرينب — أية رؤيا يا عبد الله !

ابن سلام — ليل ينجاب ولكن لا يطلع صبحه!

أرينب — أ كان فيه قمر يا عبد الله ؟ !

ابن سلام — ولم يكن فيه إلا نجم واحد يلمع ، تقبل عليه أنجم ضئيلة تدخل وتطلع ...

أرينب — أجل هذه رؤيا ، وإنى صاحبتها ..

(يدخل رسول)

الرسول — السلام على عامل أمير المؤمنين

ابن سلام — وعلى رسول أمير المؤمنين السلام

(ويتسلم الرسالة) (يخرج الرسول)

ابن سلام — (بعد أن يقرأ الرسالة) أرينب ، جعل الله رؤياى حقاً ... خذى فاقرأى

أرينب — بل اقرأ أنت ، فقد أزعجتنى رؤياك

ابن سلام — (يقرأ) أقبلْ حين تنظر فى كتابى هـذا ، لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه ، فأغذّ السير والاقبال (ينظر إلى أرينب)

أرينب — إى والله ! إنى صاحبة رؤياك ، وإن

الله جاعلها حقاً …

ابن سلام — ماذا يا أرينب ؟ ! أمير المؤمنين يدعونى لأمرٍ حظى فيه كامل

أرينب — وحظى فيه عاثر يا عبد الله !

ابن سلام — وكيف ؟

أرينب — أما وكيف … ف … عساك لم تكن تعلم بما أبدى يزيد من الرغبة فى زواجى ، وما كان من تفضيلنا إياك ، لحب تبادلناه وجاهٍ رغبناعنه …

ابن سلام — أرينب ماهذه الوساوس ؛ اطمئنى يا منية القلب . إن أكبر ظنى أنها ولاية جديدة أعظم من العراق … لابد أن أسافروأن أغذّ السير كما أمر مولاى أمير المؤمنين … أرينب (وينهض إلى خزانة من حديد) إليك جل مالى ، وخيرة ما ادخرت للمستقبل (يقدم إليها بدرات)

أرينب — بل دعها حيث كانت يا عبد الله … واضرع إلى الله أن يرعاك وأن يجنبك كيد ابن أبى سفيان

— ٦ —

(فى قصر الخلافة بدمشق)

معاوية — مرحباً بكما ياحبيبىّ ، وصاحبىْ رسول الله …

أبو هريرة — مرحباً بك ياأمير المؤمنين

أبو الدرداء — مرحباً بك ياصفىّ رسول الله وكاتبه الأمين !

معاوية — أما والله لقد دعوتكما لتمحصانىَ النصيحة، وإنى لأعلم أنكما من أحب الناس إلى رسول الله

أبو هريرة — صلى الله عليه وسلم ياأمير المؤمنين

معاوية — إن الله قسم بين عباده قِسَماً ، ووهبهم نعما ، أوجب عليهم شكرها ، وحتم عليهم حفظها ، وأمرهم برعاية حقها … وقد حبانى عزّ وجل بأعز الشرف ، وسمو السلف ، وأفضل الذكر وأغدق اليسر ، وأوسع علىّ فى رزقه ، وجعلنى راعىَ خلقه ، وأمينه فى بلاده ، والحاكم فى أمر عباده ، ليبلونى أأشكر أم أكفر … وأول ماينبغى للمرء أن يتفقده ، وينظر فيه فيمن استرعاه الله أمره من أهله ، ومن لا غنى به عنه … وقد بلغت لى ابنة أردت إنكاحها ، والنظر فى تبعّل من يريد أن يباعلها … وقد رضيت لها عبد الله بن سلام ، لدينه وفضله ، ومروءته وأدبه … فماذا تقولان أثابكما الله ؟

أبو الدرداء — إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيها ، فيما خصه به منها ، أنت ياصاحب رسول الله وكاتبه

أبو هريرة — وإن عبد الله بن سلام خير من يصهر إلى أمير المؤمنين

معاوية — إذن ، فاذكرا له ذلك عنى … وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى غير أنى أرجو أنها لا تخرج عن رأيى إن شاء الله

— ٧ —

(معاوية فى مخدع ابنته)

معاوية — أىْ بُنيّة !

عاتكة — أبى أمير المؤمنين !

معاوية — جئتك فى تدبير فلا تفسديه ، وإنك لَأنتِ الأديبة الأريبة !

عاتكة — لك أن تأمر يا أبى

معاوية — سيطرق بابك صاحبا رسول الله أبو هريرة وأبو الدرداء ، فإذا عرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وإنكاحى إياك منه ، ودَعواكِ إلى مباعلته ، وحضاك على ملاءمة رأيى ، والمسارعة إلى هواى ، فقولى لهما : عبد الله كفء كريم وقريب حميم ، غير أن تحته أرينب ابنة إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبنى عليه ، فأفارق الرجاء وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلةٍ حتى يفارقها

(يطرق الباب رسول)

الرسول — مولاى أمير المؤمنين ، لقد وصل عبد الله بن سلام من العراق

معاوية — لينزل على الرحب والسعة فى أحد منازل الخلافة ، وليكرم الجميع عنى مثواه

— ٨ —

(فى منزل ضيافة عبد الله)

أبو الدرداء — أبشر ياعبد الله ! أمير المؤمنين يؤثرك على العالمين !

ابن سلام — وما ذاك جعلت فداك !

أبو هريرة — لقد تخير لعاتكة بعلاً فاختارك لها ، فيا للبشرى !

ابن سلام — أمير المؤمنين يختصنى هذا الشرف؟

أبو الدرداء — ولهذا أرسل إليك !

أبو هريرة — وهو يحبك حبه يزيد ... أو يزيد !

ابن سلام — أما والله لقد والى علىّ نعَمَه ، وأسدى ، وأسدى علىّ من مننه ... ثم هو يريد إخلاطى بنفسه ، وإلحاق بأهله ، إتماماً لنعمته ، وإكمالاً لإحسانه ، فالله أستعين على شكره ، وبه أعوذ من كيده ومكره ! اذهبا يا صاحبىْ رسول الله فاخطباها إليه علىّ ، وبالله توفيق

— ٩ —

(فى منزل الخلافة)

أبو الدرداء — السلام عليك يا أمير المؤمنين

معاوية — وعليكما السلام ياصاحبى رسول الله ما وراءكما من عند عبد الله ؟ !

أبو هريرة — لقد أبدى من الجذل ما ألهج لسانه بشكرك والثناء عليك ، وقد جئنا خاطبين عاتكة عليه !

معاوية — بالله ! لقد كنت أخبرتكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا إليها واعرضا عليها الذى رأيت لها ، تم الله لها بخير !

— ١٠ —

(فى منزل ضيافة عبد الله)

أبو الدرداء — ويحك ياعبد الله ! إن عاتكة تغار ممن تحتك !

ابن سلام — عاتكة بنت أمير المؤمنين تغار من أرينب ابنة إسحاق ؟ !

أبو هريرة — هو ذاك ... ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم !

ابن سلام — وماذا تشترط عاتكة ؟

أبو الدرداء — أن تطلق صاحبتك فيعوضك الله وأمير المؤمنين خيراً منها !

ابن سلام — إذن أشهدكما على طلاق أرينب ، فانطلقا إلى أمير المؤمنين فاخطبا إليه عاتكة !

— ١١ —

(فى منزل الخلافة)

معاوية — ما وراءكما يا صاحبَىْ رسول الله ؟

أبو الدرداء — طلّق عبد الله امرأته ونحن عليه شاهدان !

معاوية — ولِمَهْ ؟ !

أبو هريرة — أبت عاتكة إلا أن يفعل ذلك إذا أرادها زوجة له . وأرى أنها كانت تحسبه لا يطيق فراق أرينب فاشترطت ذلك للتخلص منه ، لكنه فعل ، ونحن خاطباها إليك عليه إن شاء الله !

معاوية — ولِمَ لم أعلم بهذه الخطوة قبل أن تذهبا إليه وقبل أن يقع ما وقع ؟

أبو الدرداء — تالله لقد حسبنا أن هذا يسرك ، فأما وأنت عن هذا غير راض فليت ما كان لم يكن

معاوية — تالله ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فان كون ما هو كائن لا بد منه ولا محيص عنه ، ولا خيرة للعباد فيه ، والأقدار غالبة ، وما سبق فى علم الله لابد جار ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا !

(يتلوه ويتبعه)

— ١٢ —

(فى مخدع عاتكة)

معاوية — الآن يا ابنتى أوشك أن ينتهى دورك، فإذا جاءك صاحب رسول الله يعرض ان خطبة عبد الله عليك، فلا تنسى أنه ليس لك بأهل ، فامدحيه لها ورُدِّيهما

عاتكة — رحم الله ابن الخطاب يا أبتاه !

معاوية — وما ذاك يا بُنيَّة ! ؟

عاتكة — إذ قال لقوم من المسلمين معجبين بدهاء كسرى وحسن سياسته : « لا تذكروا كسرى وفيكم معاوية (١) »

معاوية (متضاحكا) — والله يا عاتكة لقد أنسيته !!

— ١٣ —

(فى مخدع عاتكة)

أبو هريرة — لقد رضيك عبد الله يا بنت أمير المؤمنين وطلق ابنة إسحاق !

عاتكة — علمت من قبل ، وليته ما فعل !

أبو الدرداء — ولم يا عاتكة !

عاتكة — ذلك أنى كنت أرجو أن أكون له لما سمعت من حسن أحدوثة الناس عنه ، وعلو قدره فى قريش ، وجميل بلائه فى الاسلام ؛ بيد أنى حينما استبرأت أمره ، وسألت عنه ، وجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى ، مع اختلاف من استشرته فيه ... ألا وقد نزل الرجل من اعتبارى حين رأيته ينزل بهذه السهولة عن أرينب التى هى خير منى ، وأوفر جمالا ومحبة ، بعد طول العشرة ، وصفو المودة ... أما والله إنه ما يستأهل منها ظفراً ولا قلامته ! وتالله إنه ما تهالك علىّ إلا وله مآرب عند أبى ، وفى نفسه أطماع من زخارف الحياة . فاذهبا مأجورين أثابكما الله !

— ١٤ —

(عراقيون وشاميون يتسامرون)

عراقى — أرأيت يا أخا العرب كيف خدع صاحبكم عبد الله ؟

شآمى — ومنذ الذى نجا من كيد ابن أبى سفيان ؟ ألم يخدع ابن العاص وهو ثعلبة العرب !

عراقى آخر — وَىْ ! خدعه ابن أبى سفيان حتى طلق امرأته ، وإنما أرادها لابنه ، فبئس ما استرعاه الله أمر عباده ، ومكنه فى بلاده ، وأشركه فى سلطانه

شآمى ثان — المغفل عبد الله يا صاح ! كيف نزل عن صاحبته قبل أن يتمكن من عاتكة ؟

عراقى ثالث — لقد دعاه معاوية من العراق لهذا الأمر

عراقى رابع — فانظر كيف خدعه !

عراقى خامس — وما صنع عبد الله يا صاح ؟ !

شآمى ثالث — حبسه أمير المؤمنين فى جنة ما كان يحلم بها !

شآمى رابع — بل هو فى لوعة وشجن ! لقد والله رآه الحزن ، وأوهاه الكمد ، ولقد رأيته فما عرفته لولا أن دلنى عليه ماضيه الذى يترقرق دموعاً من عينيه ، ويصعّد آهاتٍ من صدره ! وبلغنى أنه أذهب ما كان معه من المال فى الهدايا والرشا ليخلص مما هو فيه ، ولينطلق إلى العراق ، وهو ما يستطيع !

— ١٥ —

(فى حضرة معاوية)

معاوية — ماذا يقول الناس يا أبا الدرداء ؟ أتشهد علىّ أننى خدعت ابن سلام ، وإنما والله أنا الذى لعاتكة خطبته ؟ !

أبو الدرداء — والله ما شهدت بهذا أبداً ... فأنا أعرف من هذا الأمر ما لم يعرفه غيرى وغير أبى هريرة !

معاوية — إذن ، فلم لا تتكلمان فى الناس بهذا ؟

أبو الدرداء — وما يهمك من الناس يا أمير المؤمنين ما دمت براء مما يهرفون ؟ !

(١) الطبرى ج ٦

معاوية — تالله إن فى نفسى لشيئاً يا صاحب رسول الله ! أو لم تَفْتَه أقراء[1] بنت اسحاق ، فتذهب أنت إلى العراق لتخطبها على ولدى يزيد ؟ !

أبو الدرداء — نِعِم ونِعما يا أمير المؤمنين ! والله إنه لرأى ! وإنك لتعوض أرينب كفءاً بكفء

معاوية — إذن فاذهب ، وافرش لها الطريق من العراق إلى الشام ذهباً !

— ١٦ —

« فى منزل الحسين بالعراق »

أبو الدرداء — السلام عليك يا ابن بنت رسول الله يا سيد شباب أهل الجنة !

الحسين — مرحباً مرحباً بك يا أبا الدرداء يا صاحب رسول الله وجليسه ! والله يا أبا الدرداء لقد أحدثت لى رؤيتك شوقاً إلى رسول الله ، وأوقدت مطلق أحزانى عليه ، فانى ما رأيت منذ فارقته أحداً كان له جليساً وإليه حبيباً إلا هملت عيناى وأحرقت كبدى أسى عليه وصبابة إليه ! (ويبكى أحر البكاء)

أبو الدرداء — (وهو يبكى مستحرطاً فى البكاء) جزى الله لُبانة أقْدَمَتْنا عليك وجَمَعَتنا بك خيراً يا ابن بنت رسول الله !

الحسين — والله إنى لذو حرص عليك ، ولقد كنت بالاشتياق إليك !

أبو الدرداء — أرسلنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب ابنة إسحاق ، فرأيت ألا أبدأ بشىء قبل إحداث العهد بك ، والتسليم عليك ، لأنك الآن سيد أهل العراق

الحسين — والله يا أبا الدرداء لقد هالنى ما نال ابنة إسحاق فَرَقٌ لها قلبى ، وأردت نكاحها لأخفف عنها ، لكنى قلت : أرسل لأبى الدرداء حبيب جدى رسول الله أستشيره . وها قد أتى الله بك ، وهى صدفة خير من ميعاد . فهلم رحمك الله فاخطب علىّ وعليه ، ولتختر هى من اختاره الله لها ، وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه

أبو الدرداء — أفعل إن شاء الله يا ابن بنت رسول الله !

— ١٧ —

(فى منزل عبد الله بن سلام)

أبو الدرداء — والله يا أرينب لقد جزعنا لك ، وأهمنا أمرك ، وها قد عوّضك الله خيراً من صاحبك . يزيد بن معاوية أمير المؤمنين وخليفته من بعده ... أو ... الحسين بن على ابن بنت رسول الله ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة .. وقد بلغك سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطباً عليهما ، فاختارى أيهما شئت ، وقد وكلانى !

أرينب — (بعد صمت طويل) : يا أبا الدرداء ! لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى ، لأشخصت فيه الرسل إليك ، واتبعت فيه رأيك ، ولم أقطعه دونك ، على بعد مكانك ، ونأى دارك ، فأما إذا كنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله إليك ، وجعلته فى يديك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، والله شهيد عليك ، واقض فيه قضاء ذى التحرى المتقى ، ولا يصدّنك عن ذلك اتباع هوى ، فليس أمرهما عليك خفيًّا ، وما أنت عما طوقتك عميًّا ... أما ابن سلام ! فوا أسفاه مع ما فرط منه عليه !!

أبو الدرداء — أيتها المرأة ! إنما علىّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك !

أرينب — عفا الله عنك يا أبا الدرداء ! إنما أنا بنت أخيك ، ومن لا غنى بها عنك ، ووالله لا أقطع

---

(١) الأقراء جمع قرء بفتح القاف عدة مرات الحيض ويقصد بها هنا عدة مرات الحيض المشروعة بعد الطلاق لتحل المرأة لغير مطلقها واختلفوا فى اللفظ ، وبعضهم يجمعه على قروء بالضم ، والعلماء على أن قروء جمع قرء للطهارة

فى هذا الأمر إلا بما تشير به علىّ ، ولا أصدر فيه إلا عن رأيك !

أبو الدرداء — أىْ بُنيّة ! ابن بنت رسول الله أحبهما إلىّ ، وأرضاها عندى ، والله أعلم بخيرها لك ! وقد كنت أرى رسول الله يضع شفتيه على شفتىْ الحسين يقبلهما ، فضعى شفتيك حيث وضع شفتيه رسول الله !

أرينب — قد اخترته إذن ورضيته ، وأنعم بابن بنت رسول الله وحبيب رسول الله !

— ١٨ —

(فى منزل الحسين بالعراق)

الحسين — انظر يا غلام من الطارق !

الغلام (بعد برهة) — رجل أغبر أشعث يا مولاى ، يبدو أنه يطلب سؤلا !

الحسين — ولم لا تعطيه يا غلام ؟

الغلام — خشيت يا مولاى ، لأنه يلح فى لقائك

الحسين — وماذا يحبسنا عن الناس؟ أدعه فليدخل

(يدخل الرجل) من ؟! مرحباً مرحباً يا أخى عبد الله !

عبد الله (والعبرات تترقرق فى عينيه) السلام عليك يا ابن بنت رسول الله !

الحسين — وعليك سلام الله يا ابن سلام ! أمحزون أنت ؟

ابن سلام — إى والله ! ولكنى جئتك فى مسألة حبذا لو قضيتها لى ... لقد أصفرت [1] بعد هذه النكبة التى اجتاحت يدى وقلبى معاً ، وقد كنت استودعت أرينب بدرات من الدر والجوهر هى جل مالى ، فلو كلمتها فيها لترد علىّ شيئاً منها أستعين به على حالى ...

الحسين — حباً وكرامة يا ابن سلام ، فانتظر

(يخرج الحسين فيغيب لحظة ثم يدخل) هل من حرج فى أن تقدمها إليك أرينب بيدها يا ابن سلام ؟

ابن سلام — هذا تفضل يا ابن بنت رسول الله !

الحسين (ينادى) — هلمى يا أرينب ·

(تدخل مسربلة فى سواد)

أرينب — السلام عليك يا عبد الله ! هاك بدراتك ، والله ما امتدت إليها يد ، وما عرفت ما بداخلها إلا منك !

ابن سلام — شكراً لك يا ابنة إسحاق (يحل رباط واحدة ويقدم لها ما فيها) لشد ما يسعدنى أن تقبلى هذه منى ! (ويبكى بكاء شديداً)

أرينب — لا والله ما أمد إليها يدى ، وإنى لفى سعة من فضل الحسين !

الحسين — يا ابن سلام ! أيسرك أن تكون أرينب لك ؟

ابن سلام — حسين ؟ ماذا تقول ؟ !

(تتحدر دموعه على خديه)

الحسين — وأنت يا أرينب ! والله ما صنعت الذى صنعت إلا لأحتفظ بك لرجلك ، لأنى عرفت أنها خدعة من معاوية ، فقلت أفسدها عليه !

ابن سلام — (يأخذ يد الحسين فيقبلها ، وكذلك تفعل أرينب)

الحسين — بارك الله لكما ... يا أرينب ! أنت طالق ... وأنا الذى سوف أعقد لكما ...

ابن سلام — إذن لِيُرَد إلى ابن بنت رسول ما دفعه من مهر أرينب

الحسين — ولا ذاك يا ابن سلام ، بل هو هدية خالصة منى لها ولك ...

— ١٩ —

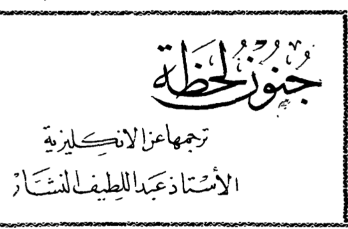
(فى منزل الخلافة بدمشق)

معاوية — والله يا ميسون لقد كنت أشد بَلَهاً من أبى الدرداء إذ أرسلته فى مثل هذا الأمر !

ميسون — الحمد لله الذى أفسد عليك ما حاولت ! قلت لك نشغله برومية أو شآمية فما رضيت !

دريني خشبة

(١) أصفر : افتقر



لم تعفُ « مابيل دروهام » فى لحظة من اللحظات عن « جيم بنيت » لأنه تركها وتزوج من « فيث »

وقد كانت « مابيل » تحب « جيم » فى عهدٍ ما وهو العهد الوحيد الذى عرفت فيه معنى الحب . وكان « جيم » قوى الجسم ذا بسطة فيه تتبين المرأة فى مخايله كل معانى الرجولة

وبعد فترة من تعارفهما تزوجت « مابيل » من تاجر اسمه « مارتين سميث » فى الستين من العمر ، وتزوج جيم من « فيث وستون »

وبعد عهد قصير مات المستر سميث وقررت مابيل أن تذهب إلى مدينة « بنتود » وتقيم مع أبويها ؛ ولم يكن يبدو على وجهها فى هذا الدور شىء من الحزن الذى يبدو عادة على وجوه الأرامل . واعتادت وهى فى بيت أبيها أن تجلس أمام النافذة وتطل منها

ورأت « جيم » قبل أن يراها . ولما رآها تردد لحظة ثم تعارفا فمد إليها يده مصافحاً ، وكان قد عفا عنها لأنه كان قد وجد عوضاً عنها فى زوجته . فردت تحيته بقولها : « لقد مضى وقت طويل على لقائنا للمرة الأخيرة ، فإنى لم أرك منذ تزوجت من فيث وستون » ثم ابتسمت وقالت : « هل تذكر تلك الأيام التى كنت أنتظر فيها عودتك بالقرب من باب المحطة ؟ »

وكان صوتها فى خطابه صوت الود ونظراتها إليه كأنها نوع من المداعبة . أما نظراته إليها فكانت لخلوها من المعنى كأنها نظرات الأطفال . وقد أدركت ذلك وأصرت على أن تعاقبه على هذه الجفوة فتريه أنها وقد مضى عهدها معه لا تزال تستطيع أن تؤثر فى قلبه أكثر من « فيث » على الرغم من رابطة الزوجية ومن علاقة الأبناء . ولذلك شفعت نظرتها الأولى بنظرة تستثير كامن الحب من كل القلوب ، وسايرته قليلاً ثم ودعته دون أن تأخذ موعداً منه

ولما ذهب « جيم » إلى منزله كانت « فيث » قد أنامت رضيعيها التوأمين بعد أن خرجت بهما من الحمام . ولم يكن فى نساء الحى سيدة أكثر عناية بمنزلها من « فيث » فكان الكل يدعون منزلها بالعش الأنيق . وكانت تنتهى من خدمة المنزل كل يوم قبل مجئ زوجها لتتفرغ إليه . وعندعودته فى هذا اليوم ، تلقته بما اعتادت أن تتلقاه به من البشاشة والود ، وجلسا إلى العشاء . وفى أثنائه قال جيم عرضاً إنه قابل اليوم « مابيل سميث » فانصرفت عينا « فيث » إلى المرآة وقالت ببطء : « إن ، مابيل جميلة ، يا جيم »

نظر جيم إلى زوجته وقال : أتظنين ذلك ؟ إننى لا أعجب بهذا الطراز »

قالت وقد أرادت مشاغبته : « أتقول ذلك الآن ؟ لقد كنت شديد التعلق بها يا جيم »

فكان جوابه أن وضع ذراعه حول عنقها وقال : « كان ذلك فى عهد الصغر والحماقة قبل أن أعرفك وأعرف بك كيف يكون الحب »

فالتفتت إليه فجأة وقبلت فمه

***

وبعد يوم أو يومين ذهبت مابيل لتزور « فيث » ورأت توأميها فقالت : « ما أبدع هذين التوأمين ! »

لكن لهجتها لم تكن دالة على الإخلاص . وجرى الحديث متنوع الضروب . وعند انصرافها قالت : « إننى لم آت إلا لأرى طفليك ، ولكنى تذكرت الآن أن فى فندق المدينة حفلة راقصة ، فهل تأتين مع « جيم » لنتعشى هناك ونحضر هذه الحفلة ؟ »

قالت فيث : « أشكر لك هذه الرقة ، ولكنى لا أستطيع أن أترك الطفلين خصوصاً وإن أمى متغيبة عن المدينة . ولكنى أثق بأن « جيم » يسر من حضور هذه الحفلة »

وعاد « جيم » فأخبرته زوجته بهذه الزيارة ولم تعترض على ذهابه وحده إلى الحفلة . فكانت نجوى « جيم » بينه وبين نفسه أن زوجته لا بد أن تكون بلهاء إذ سمحت له بالذهاب وحده مع جميلة مثل « مابيل » ، أم لعل حبها قليل عكس ما يبدو عليها من مظاهر الحب فهى لذلك قليلة الغيرة

وتشبث هذا الخاطر بذهنه ونما فعكر مزاجه . وكأن كل من ينتظر الحب لابد أن ينتظر معه الغيرة. فذهب «جيم» إلى الحفلة وهو مغتم ، ولأجل تفريج غمه أطال السهرة مع « مابيل » وأكثر من التودد إليها رغبة فى التسلية ...

وعاد إلى منزله فى ساعة متأخرة فلم تبد زوجته أقل اعتراض

وبعد ذلك مرض التوأمان فاشتدت عناية الأم بهما واشتغلت عن الالتفات إلى حضور زوجها وانصرافه . واستمر هو يقابل خليلته كل ليلة .

وكان فى كل يوم يزداد تأثراً من زوجته لانصرافها عنه ، ولعدم محاسبتها إياه على موعد حضوره .

وفى إحدى الليالى كان « جيم » جالساً بغرفة فى الفندق مع « مابيل » فسألته تلك : « أخبرنى هل زوجتك عمياء ؟ لماذا تتركك وحدك كل ليلة ؟ »

فقال وهو يظن زوجته تنظر إليه وتسمعه فى هذه اللحظات من وراء ستار : « الحق أننى أعجب من ذلك يا مابيل . وقد بدأت أشك فى حبها » فطوقت مابيل عنقه بذراعيها وهمت أن تقبله لولا أن دخلت « فيث » فى هذه اللحظة فنظرت نظرة حادة إلى وجه زوجها ثم إلى وجه مابيل

وخارت قوى الأخيرة فلم تملك غير أذراف الدموع وخرجت متسللة إلى الطريق ، وهى تقول

فى نفسها : « إن هذه اللحظة هى التى انتصرت فيها علىّ « فيث » ولكنها مع شعورها بالانتصار قد شعرت بالذل أيضاً

وجلس الزوج وجلست الزوجة وظل كلاهما صامتاً . وأخيراً تمالك « جيم » قواه وقال بلهجة البائس : « ما ذا تريديننى أن أقول يا فيث ؟ » فقالت: « وهل هناك شىء يقال ؟ »

قال : « نعم » ثم ارتمى عند قدميها وقال : « لماذا تتركيننى إلى مثل هذه المرأة دون أن تشعرى بشىء من الغيرة ؟ » فقالت : « وهل عدم التكلم يدل على عدم المبالاة ؟ لقد كادت الغيرة أن تمزقنى ، ولكن العزة كانت تمنعنى عن الكلام . ولقد كدت أجن كلما ذكرت أنك تنتظر غيرتى ، ولا يخطر ببالك أن تراعى عزتى

فنهض « جيم » لما سمع اعترافها بالغيرة وقبلها وقال : « اغفرى لى لحظة جنون . وثقى بأنى لم أنسك فى وقت من الأوقات . فقالت : « لقد غفرت لك هذه وطويت الماضى كله . وإذا كنا قبل الآن زوجين متحابين ، فسوف نكون بعد اليوم أكثر تبادلاً للحب . وثق أن الغيرة كامنة وراء الحب ولن تستطيع إظهارها من دون أن تجرح الكرامة »

عبد اللطيف النشار

الموعظة الأخيرة

لإدوارد كارتمير

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

في الأدب العالمي سوابق نادرة: « تاييس » لأناطول فرانس، و « الأب سرج » لتولستوى و « مطر » لسومرست موعام. وفى كل واحدة منها يحاول البطل اصلاح امرأة مذنبة فتسحبه إلى الهاوية وقد تنجو هى فتصير قديسة أو تفوز بعمرها. وفى هذه القصة الصغيرة يصف المؤلف بيئة معينة ويضرب على نغمة جديدة، وهى حيرة المصلح حيال فساد المجتمع. وتغلب الرذيلة أحياناً على الخير ولو فى ظاهر الأمور. وفى الأدب العربى الصوفى قصة ذى النون المصري ورابعة العدوية ولكنها مبهمة، ولم توحد حوادثها فى نسق واحد، وقد رووا أنه جذبها فى مصر والتقى بها فى مكة فلم يعرفها لشدة ما غمرها من حالة الرضى. ولا عجب إذا تشابه الموضوع من النفس الانسانية واحدة فى كل العصور والأمكنة، وكما قيل إن تاييس علم على خطية عاشت فعلا فى مصر، فان للسيدة العدوية أشعاراً كثيرة فى تمجيد الاله تجمع بينها وبين القديسة تيريزا فى التفانى والمحبة البالغة ...

من لم يعرف الأب أرمان جيميه، واعظ كنيسة شارلتيه بشارع بواساك، بحى بيراش، أغنى أحياء ليون وأجملها وأهدئها لم يعرف أعظم وعاظها وأبلغهم، وأنفذهم إلى أعماق النفوس ... كانت خطبه المنبرية تفوق العد والحصر، منوعة، لم يطرق أثناء حياته الدينية موضوعاً واحداً مرتين، لأن حياة الروح لديه أغنى من أية حياة سواها، فابتلعت عالم المادة وهضمته، واحتوت الكون وطوت الدنيا طى السجل للكتاب، ثم أخذت تجلو الحقائق بعقل جبار ومعان خلابة، وجمل محبوكة، وألفاظ براقة؛ فيسحر أنفس مستمعيه، ويستميل قلوبهم بعد أن يسكرهم برحيق وعظه، فيستل من حنايا ضلوعهم عوامل الشر الكامنة، كما تستل العجوز الخبيرة الشعرة السوداء من العجين الأبيض ...

كان خطيب الكنيسة، قصيراً لا هزيلاً ولا بديناً، أصفر اللون من طول ما احترق دمه بالتفكير والعبادة، دميم الوجه فى تقاطيعه، خفيف الظل فى مجموعه خفة ظاهرة الأثر فى طاعة أتباعه ومريديه من كل طبقة فى المجتمع. كان يشوى الأغنياء شيًّا على السفود ويفرى جلودهم ويؤنبهم لجشعهم وأثرتهم وطمعهم فيما ليس لهم على قلته، وعدم قناعتهم بما بين أيديهم على كثرته. ولكنهم كانوا يحبونه ويوقرونه لا خوفاً ولا رهبة، ولكن لخفة ظله وحسن تعبيره. ثم ينحى على العشاق باللائمة، فيرسم لهم عاطفة الغرام فى صورة الأفاعى اللاذعة، ويبغض إليهم الغزل والرقص والخلوة والمعاقرة، وينذرهم بعذاب النار الذي أصاب باولو وفرنشيسكا؛ ولكنهم كانوا يؤلهونه، ويهمسون فيما بينهم أن جهله بالغرام، وحرمانه ملذات العشق المحرم أو المحلل يوحيان إليه تلك الحملات المنكرة على رعايا الزهرة وأهداف كوبيد!! فياله من تعليل!!

وحتى الفقراء والأجراء والمعوزين من الطبقات النازلة ، لم ينجوا من سهامه الصائبة . فها هم فريق الناقمين الساخطين الصاخبين الذين يعترضون ويتمرضون ، ويغضبون كالأطفال على ما قسمته العناية لهم ، أتراهم يحاربون الأقدار ، أو يثورون على القوة الخالقة ؟ أواثقون أنتم بسعادة المحسودين حتى تنسوا عاطفة الرضى وفضيلة القناعة ؟ ليس فى الامكان أبدع مما كان ! أيها الثائرون النوكى ، ولو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع . إن الأغنياء يسرفون على أنفسهم فى شهواتهم ، ويبذرون أموالهم فى مغريات النفوس من طعام وشراب وقمار ، وإن « محدثى النعم »[1] (نوفوريش) ليشعرون بالأسف على أيام فقرهم ، فمتى تهيأ الفرصة لأنسال آدم أن يستلوا من نفوسهم الطمع وحب الذات ليعيشوا كما عاش أجدادهم فى عصر الذهب ، عصر الرخاء والقناعة والحب المطلق ؟ . وكانت جريدة « نوفيل دى رون » لسان حال الفاتيكان ، تنشر خطب الأب جيميه وتذيعها فى أنحاء الولاية الوسطى[2] فترد عليها « ليون ريبيلكان » صدى صوت الأحرار والمتطرفين والاشتراكيين والملاحدة ، ويشير رئيس تحريرها موسيو توزيه من طرف خفى إلى « نفاق الاكليروس » وتدخلهم فيما لا يعنيهم ، وسخطهم على سائر الطبقات والمعتقدات ، حتى لا يرضيهم إلا « الكثلكة المغمغمة » التى تريد أن تحكم العالم ومن ورائها « السلطة الرمادية » المبهمة ... ويقرأ الأب جيميه أقوال خصومه ، ويلقى عليها نظرة سخرية ويبتسم ...

وكانت مدينة ليون تزخر بمئات الألوف من الرجال والنساء ، فى مقتبل العمر ، وفى ريعان الجمال ، وتموج بألوان الهوى والفتون .. وقد اشتهرت فتياتها برشاقة القدود وجاذبية الروح ، ووحى العيون . وكانت كنيسة « لاشاريتيه » مفتوحة الأبواب ، مطروقة من كل قاصد وقاصدة ، مُعَدة الهيا كل والأعراف لكل عابد وعابدة ... وقد وقع اختيار الأسقف كايمير دى لوزانج (وهو أحد النبلاء الذين فضلوا مسوح الرهبان على معاطف الأغنياء من أجداده) على الأب جيميه ليتلقى اعتراف المذنبين والمذنبات ، ولاسيما العذارى اللواتى رزقن بثمرات العشق المحرم ، وألقت بهم أيدى الأقدار على سُرر مستشفى لاشاريتيه الملحق بالكنيسة ، وكبار الجناة من طبقة المتمولين الذين زوروا ودلسوا واحتالوا واختلسوا وسلبوا أموالاً لا طاقة لهم بادخارها ، أواعتدوا على أعراض لاذنب لذويها إلا ما حَبَتْهم به الطبيعة من جمال وفتنة ، وما سلبتهم إياه من قوة لدفع الأذى عن كنوز المحاسن وودائع الفضيلة ، فسلحتهم بالفاتن ونزعت منهم قدرة المقاومة

وكان الأب جيميه يعاني الأمرين من عيشة الجفاف فى صومعته ، ولكنه مدرع النفس بالجلال والكمال واحتقار الدنيا وشهواتها ، وقد أنضجت قلبه تجارب الحياة التى رأى أثرها فى آلام الآخرين وهمومهم . .

وأحرقت نزوات نفسه نار العبادة الدائمة ، فغدا يسير بين الخلوة والمعبد ، والملجأ والسجن والمستشفى ،

(١) هؤلاء النوفوريش نشأوا بعد الحرب وكونوا الثروات الطائلة وهم مضرب الأمثال فى اليسر وسوء الخلق واسمهم واحد فى كل اللغات

(٢) مقاطعة الرون عاصمتها ليون الشهيرة بغناها وجمالها وسلطة الكهنوت ومعامل الحرير

وله تنهدات تشق الصخر ، ولا يسمع لها صوت ، وبكاء بدموع حارة بغيرنشيج ، وقد آلى على نفسه ألا يفتح قلبه المفعم بالحسرات والفجائع والآلام ، إلا لمعبوده وربه ، فيشمر وهو يسمع الاعتراف تلوَ الاعتراف ، كأنه مسؤول بذاته عن ذنوب الناس جميعاً ، لأنه أمسى وسيلتهم الوحيدة للغفران ...

كان الأب جيميه فى نهاية العقد الرابع ، وما عرف النساء قط ، ولعله لا يذكر أمَّه التى ولدته ، فقد انتزع منها انتزاعاً ، ليتلقى دروس البلاغة واللاهوت ، قبل أن يحذق التاريخ والرياضيات ، لأن أباه وهبه للرب ، وسرعان ما وفّى بنذره ، وسلمه لعشيرة الرهبان ، فى تلك البعثة الأفريقية ، التى أطلق عليها اسم القارة السوداء لكثرة من هاجر من بنيها ورسلها في سبيل هدى الوثنيين إلى الطريق القويم

فكان الأب جيميه يعيش فى سجن صومعته ، وفى سجن أضيق من وصايا الدين والخلق ، ولكنه سجين يقظ للدهر ، يحصى كل لحظة ، ويحسب كل ثانية ، ويعد على نفسه الأنفاس . فعرف في يقظته المحتومة قيمة الخير والشر فى خلق الرجال ، وأن المنافقين يفوزون فى هذه الدنيا باسم الفضائل ، وأن معظم الجرائم تقترف وراء صور وتهاويل من الأخلاق . فكان يقول : « لا يدخل فى واجبى أن أصلح العالم ، وما علىّ إلا أن أخفف من ويلاته مااستطعت » ومذ حكمت عليه رسالته العليا أن يتصل بالنساء ، صمم على ألا يخوض فى حديث يتصل بالحب . ونفسه تحدثه بعد أن رأى من تعذيب الجسد أنه قد بغضت إليه ملذات الجسد بغضاً لا رجوع بعده ، وكفر بحب الجنس كفراً لا إيمان وراءه ، وهو الذى لم يتذوقه وإن تذوّق الآلام التى تتركها آثاره ، وكان بعد أن يختم مطافه على العذارى الوالدات ويتلقى من قلوبهن الجريحة وأفواههن المعذبة أحاديث الهوى والهجر والقطيعة ، بعد الغواية والوصل ، يخرج مُبلبل الفكر ، فريسة للهواجس يتلقفه سوء الظن ، وتعبث به السويداء ، ولكن أحداً لم يتخيل ولم يَهِمْ أن ثقة الواعظ المتين الخلق القوى الإرادة تزعزعت فى نفسه أو فى رسالته القدسية ، فقد عهدوه كالطود الراسخ

* * *

فى صبيحة ليلة مطيرة غاب فيها القمر وتوارت النجوم وراء السحب المتكاثفة ، عثر عمال النظافة بجثة عارية لرجل فى حدود الكهولة ، وكانت رائحة الخمر تفوح من شدقيه المفتوحين ولسانه البارز ، وكانت عيناه جاحظتين كأنه يرى ، فى البرهة القصيرة التى هى بين الحياة والموت ، منظراً بشعاً أو شبحاً مخيفاً ، وإحدى يديه قابضة على سُرّته ، وقد تقلصت عضلات اليد الأخرى والتوت أناملها ، فهل تشير إلى نصير يدنو من الفريسة فى اللحظة الأخيرة أو تهمُّ باشتباك الأصابع لتدفع الخطر الداهم ؟

بُهت عمال النظافة ، ووقفوا يتأملون ذلك الوضع الأليم لتلك الجثة المنطرحة على الرخام ، وكأن الروح غادرتها فى تردد وألم وخجل ... ولم يعلموا لمن كان هذا الوعاء الأرضى الذى أبى نازعوه أن يواروا سوأته ، وقبلوا أن يجعلوها عرضة للأنظار ! ليس فى العالم شىء أدعى للحسرة والروعة من جثة منطرحة على مقروعة الطريق فى وضع غريب . إنها لا تثير الضحك ولا البكاء ، ولا تبعث السلوى أو اللوعة ولا تؤدى الموعظة الأليمة ، حتى ولو كانت

جثة أبلغ الواعظين ! بل تثير الدهشة ثم الروعة فالاشمئزاز فالغيظ ، ليس أدعى إلى الحنق من صورة الإنسان الجسدية معروضة للإنظار فى حالة العجز المطلق عن النطق والحركة ، ولذا يسرع الأحياء إلى دفن الموتى لئلا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ، وتهبط حرارة شجاعتهم إلى درك الجليد الذى لاصعود بعده

جاء الشرط ، وستروا وجه الرجل الطريح ، ولكن بعد أن وقعت عليه الأبصار ووطأه النظارة بأعينهم وهى أقسى فى بعض الأحيان من وطء الأقدام والنعال ... الحى الذى فقد الحياء ولم يفقد الحياة ينظر إلى الميت نظرة وقحة فاجرة ، يعجز عن وصفها أفصح الألسنة ، كبرياء يمازجها شعور الفرح بالنجاة ! كان خيراً للرحمة والفضيلة والكرامة الانسانية أن تحمل الجثة بأقصى سرعة إلى أقصى مكان ، ولكن رأى المحققون والشرط والأطباء أنه خير للحقيقة والعدل أن تبقى أطول فترة مستطاعة بأدنى موضع من مرقدها فلعله مصرعها والمكان الذى لقى صاحبها فيه حتفه حقيقة أو حكما . فليس من المستحيل أن يكون روح القتيل قد فارق جسده فى أقصى المدينة شرقاً أو غرباً ، وإن القاتل الماكر اصطنع حيلة النقل تضليلاً للباحثين ؛ وأن شوارع ليون فى الليل لتنطوى على أسرار أغرب وخفايا أروع من أسرار باريس وخفاياها ، لأنها مدينة مقفلة الأبواب والنوافذ مكتمة القلوب والأفواه أيضاً ، مدينة مسكونة بالرهبان ، كما تسكن القصور العتيقة بالأرواح ، ومأهولة بالجناة وحملة الغموض والخفاء أكثر مما أهلت بالعمال فى كل صنعة وفن . نساؤها على أكبر جانب من الجمال ، والخلاعة والفتنة ، والدهاء والملاينة ، والسهولة التى تسبقها مداهنة ومخاتلة ، نفوسهن كالقدور التى تهدر بالغليان ، ووجوههن كالبساتين النضرة النامية على فوهة البركان ...

* * *

كانت الساعة التاسعة إلا بضع دقائق ، عند ما بلغ القاضى جيرار پوتليفان موضع الجثة وهو « مكان الواقعة » بتعبير المختصين ، يتبعه كاتب التحقيق لوسيان . وكان شاباً فى الثلاثين من عمره ، مجدوع الأنف من الولادة ، أحمر الوجه ، شديد الطاعة لرئيسه من طول ما تلقى أوامره ونواهيه ، حتى لقد أمسى كالمطية الذلول ، وكان هادىء الطبع موفور الكرامة فى ظاهره . أما القاضى پوتليفان فشديد الذكاء ، طويل التجربة ، عميق التفكير ، لا يترك شيئاً قل أو جل لحكم المصادفات ، ولا يعرض عن افتراض ، ولا يستهين ببارقة أمل وإن ضؤلت فى رفع القناع عن وجه الحقيقة ، التى قد تتبرقع أحياناً ، وتسفر حيناً !

عند ما رفع الشرطى (جروبونوم) رئيس الخدمة الليلية فى مقر بوليس ساحة بلكور ، ذيل الرداء الذى كان يستر وجه القتيل ، وأطل القاضى وكاتبه عليه وأطالا النظر ، رفع لوسيان بذراعيه إلى أذنيه ، ومال برأسه من اليمين إلى اليسار ، ثم صرخ من أعماق صدره « آ ..... غ ! » أما القاضى فقد صوب النظر ، ثم التفت إلى لوسيان وقال له :

— هل عرفته أنت ، كما لم أعرفه أنا ؟

فسكت لوسيان سكوتاً عميقاً ، فهز القاضى ذراعيه ، حتى أنزلهما جميعاً من وراء أذنيه ، وأعاد السؤال على كاتبه فأجاب :

— كلا ! كلا ! ياسيدى القاضى لم أعرفه ألبتة !

— ولِمَ صرخت إذن صرخة الرعب والفزع؟
— لأن الصورة مرعبة مفزعة ، ولم أرَ قط قتيلاً يخفي عورته بيده ويشير إشارة الخطيب باليد الأخرى ! فنظر القاضي إلى كاتبه نظرة شزرة ، ثم عاد إلى صمته ، ودعا الطبيب الشرعي روسينيول وكلفه أن يدون الوصف التشريحي حسب أصول الجراحة

***

في تلك اللحظة وصل مندوب الأسقف : الأب المحترم كليمان جوزيه الشهير بعلمه في التاريخ والحقوق واللاهوت والفلسفة وقال إنه باسم الكنيسة المقدسة وباسم البابا المثلث الرحمات يمانع في تشريح الجثة ، لأنه وصل إلى مسامع الأسقف أن الجثة قد تكون لرجل تناول أسرار الكهنوت ، ولا تبيح الكنيسة إهراق الدماء مرتين ، لأن في الإهراق الثاني إبطالاً لحرمة الموتى ! فدهش القاضي ولكن أدبه وكرامة محدثه ألزماه الصمت ، ولأنه لم يسبق في سجل التحقيق الجنائي أن أحوجه الأمر إلى تشريح جثة تلقن صاحبها « سر الكهنوت »

وبعد هنيهة أمر كاتبه لوسيان أن يفتح محضراً ليثبت أقوال الأب كليمان جوزيه ثم أملى عليه :

« نحن جيرار بوتليفان قاضي التحقيق لدى المحكمة العليا بمدينة ليون عاصمة مقاطعة نهر الرون نثبت ما يأتي :

حضر الأب كليمان جوزيه واحتج على تشريح جثة لرجل مجهول فسألناه :

س — (من القاضي) ألديكم في قانون الكنيسة نص صريح يحرم التشريح أو يجعله مكروهاً ؟

ج — (من مندوب الأسقف) إن للميت حرمة كرمة الحي بل أشد ؛ ولذا وجب الكف عن شق جثته

س — حتى في حالة الوفاة الجنائية كالقتل أو الانتحار أو التسميم ؟

ج — لا يوجد نص صريح ، ولكن أمر الكنيسة يعدل النص الصريح

س — (من قاضي التحقيق) في شروح سانتندريه التولوزي قاعدة ثابتة ، وهي أنه إذا ظهرت مصلحة راجحة في تشريح الجثة كإثبات حق القتيل قِبَل المتهم أو تبرئة متهم من تبعة الجريمة بالسم فيجوز التشريح ، وفي زمن سانتندريه التولوزي (وهو القرن الخامس عشر) لم تكن صناعة الجراحة تقدمت كزمننا هذا

ج — هناك حالة السم ، أو ابتلاع القتيل قبيل موته جوهرة ثمينة ، وهما حالتان نص عليهما سانتندريه المشار إليه في سؤالكم وليست هذه منهما

وهنا كتب لوسيان كلمات في بطاقة، وعرضها النظر القاضي ، فنظر إليه شزراً مرة أخرى ، ورفع بيده إلى جبينه وطوى الورقة ودسها في جيبه، ثم التفت إلى الأب كليمان جوزيه وقال له :

س — إن أمر الكنيسة محترم كالنص الصريح وإن كان قانون الفصل بينها وبين الدولة الصادر في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٣ قد حظر عليها التدخل في أعمال السلطات الثلاث ، وأنتم لم تثبتوا حتى الساعة أن القتيل كان تابعاً لكم من قريب أو بعيد وإلى أن تثبتوا تلك التبعية المدعاة ، فللسلطة القضائية أن تتناول التحقيق بحذافيره ومنها الأمر بتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة

ج — (مندوب الكنيسة) إنكم تحرجون

مندوب الأسقف ، ومن يحرجه فقد أحرج الكنيسة والبابوية معاً

قاضي التحقيق — ولذا أمرنا نحن قاضي التحقيق جيرار بوتليفان حضرة الطبيب روسنيول باجراء الصفة التشريحية بغير شرط ولا قيد ما عدا الأمر بنقلها إلى مكان آخر قبل أن يؤمن مع النقل إخفاء معالم الجريمة أو تغييرها أو محو الآثار التي يكون من شأنها الاهتداء إلى الحقيقة . فاعترض الطبيب قائلاً :

أظن في هذا الأمر مخالفة للنظم المتبعة ، لأن في محافظة البوليس مكاناً خاصاً بالتشريح وإن على مرمى المورج [1] متسعاً لجميع الجثث من قتلى ومنتحرين .

فقال القاضي : إلى أن يحضر الدكتور لوكار ، فهو وحده يسمح بنقل الجثة إلى حظيرة المورج ، بعد ضربها الضرب الكافي [2] ، فاقتنع الطبيب ورضي بالفحص الظاهر . حتى حضر الدكتور لوكار وأعوانه ، وكانوا مصورين ماهرين وكيائيين ومحللين وحملة حقائب عازلة ، وأحماضٍ وقناني ، وألواح معدنية وزجاجية وأكياس من المطاط ، وأخرى من جلود الثيران ، فأخذوا قلامة من أظافر الجثة وآثاراً من صماخ الأذنين ، وإفراز الأنف ، ولعاب الفم ، وشعر الرأس والصدر في أوعية خاصة ثم وضعوا الجثة في كيس كبير من الجلد السميك ، وتناول بعض الأعوان قضباناً من المطاط وأخذوا يجلدونها جلداً عنيفاً في حضرة مندوب الكنيسة الذي بلغ احتجاجه عنان السماء ، فتقدم إليه لوكار رئيس المحققين العلماء وقال له :

— سيدي الأب المحترم ، إنا لا نوقع على الجثة عقاباً ولا نحاول تعذيباً ولا انتقاما كما ظننت وظهر من غضبك ، ولكننا ننفض عن الجثة ما علق بها من ذرات الشوائب التي لا تدرك بالحس ، ولا تُرى بالعين المجردة . فسأل الأب جوزيه .

— وهذا الطبيب المشرح ما عمله ؟ لقد تكاثر الأطباء على جثة ولا ندري ما يُراد بميت ..

— إنه يبحث في أسباب القتل التي لها اتصال مباشر بالبدن ، ليحدد عِلة توقف الحياة ، وتعطيل أداتها ، أما نحن فنبحث أسباب القتل المستقلة عن الجسد ، أي ما صدر عن قوة خارجة مما لا بد يترك أثراً واضحاً لنا مهما خفي على سوانا

ووصف قاضي التحقيق في محضره المكان والزمان وأمر بالتصوير الضوئي من أعلى وأسفل ، ومن بعض الزوايا الحادة والمنفرجة وختم محضره ، ثم أجَّل التحقيق إلى الساعة الثالثة بعد الظهر حتى يُقدمَ إليه الخبراء تقاريرهم ، وحتى يتمكن رجال الخفية ، وأفراد الشرطة السرية ، « والمباحث » المتنقلة ، والحرس الجمهوري من جمع بعض الأدلة أو القرائن التي تساعد في كشف الغطاء عن الحقيقة . وعند ما غادر القاضي مكانه كان في رأسه فكرتان الأولى أن كاتبه لوسيان يعلم أكثر مما دَوَّن في محضره ، والثانية أن الكنيسة تدعي أمومة القتيل وهيهات أن تدعي باطلاً في هذا الحادث الرهيب

* * *

كان شارع جيراف الذي وجدت به الجثة في منعرج من شارع بوالو المؤدي إلى « بلاس دي تورو » من اليمين وإلى ميدان « جراند تياتر » من الشمال

(١) قاعة لعرض الجثث المجهولة

(٢) هذه الطريقة الحديثة لاستنفاض بعض آثار الجناة المادية متبعة في فرنسا

وقد سمى شارعاً مجازاً لاختناقه بين الشوارع الكبرى ، ولكنه فى الحقيقة زقاق ضيق منحدر أصله حلقة من سلسلة المصاعد الوعرة التى عيدت فى تلال عالية شيدت عليها مدينة ليون كما بنيت رومة على سبعة تلال ولا تزال آكامها ظاهرة فى « فورفير » و« كرواروس » و« رامياردينيه » .

وكان زقاق « جيراف » يشبه عنق الزرافة ولذا أطلق عليه اسمها ، فهو كالسطر المطموس فى صفحة مكتظة بالأحرف والكلمات ، ولكن على الرغم من ضيقه وانحداره اجتمعت لديه عشرات من النظارة الذين تهيج استطلاعهم أنباء الجرائم ، وكانت على جانبيه بيوت مغلقة[1] يطرقها رواد الملاهى فى مختلف الأوقات من الليل والنهار تعرفها الشرطة وتسجلها دفاتر « بوليس الأخلاق » ؛ ولكنها أغمضت أعينها وصمت آذانها عنها ، إذ كانت كل واردة من بنات الهوى سجل العناء والرجس وراء نوافذها المغلقة ، قد تسلمت من إدارة الأمن العام ، تذكرة صفراء تبيح لها مخالطة « الحرفاء » ، وتحتم عليها فحص الطبيب ، وتحذرها من الاحتماء برجل يعيش من جهودها المخزية الأثيمة ، ومن الاشتراك فى جريمة سرقة المشراء (بالانتولاچ)[2] وأن تبلغ بما تعلمه عنها فكان أول ما بدر إلى ذهن رئيس « البحوث الجنائية » وأعوانه أن يهاجموا تلك البيوت وأن يفتشوها ، لعلهم يعثرون بدليل فى إحدى الغرف السوداء التي تخفى وراء جدرانها البؤس والشقاء وبعض معالم الجنايات الخفية

وأبى قاضى التحقيق فى فترة التأجيل أن يتغدى فى داره أو فى مطعم ، وبقى بمكتبه فى « باليه دى جوستيس[1] » ينتظر الحوادث ويرقب المفاجآت .

فأول ما صنع كان أن أوعز إلى « جرينشار » أمهر البصاصين أن يقتفى أثر كاتبه لوسيان ، بعيد خروجه فى تمام ساعة الظهيرة ليتغدى ، فبهت الجاسوس القضائى وحدق بالقاضى قائلاً :

— أمتحقق يا سيدى القاضى من ضرورة هذا الاقتفاء ؟ إن لوسيان يعرفنى ، وقد تثير شكوكه بغير داع ، ولذا يقتضى الأمر أن أمعن فى التنكر

فلم يكن من القاضى إلا أن قال له : أسرع ! أيها المغفل قبل أن تفوت الفرصة !

فلم ينتظر جرينشار مسبة أخرى ، وكان رجلاً حقوداً بالفطرة ، ولا سيا أن ساعة الظهر تزحم الشوارع بالمنصرفين من أعمالهم فيختلط الحابل بالنابل ، وقد تفوته الفرصة حقاً فينطبق عليه الوصف الذى خلعه عليه موسيو جيرار بوتليڤان قاضى التحقيق

واتصل القاضى بالأسقفية ، عن طريق التليفون ، وطلب أن يخاطب الأسقف مخاطبة شخصية ، ودهن ألفاظه بألوان التبجيل والاحترام ، وأبدى معاذيره عن مسلكه الذى لم يكن منه بد ، عند ما جبه المندوب في الصباح ، فقال له الأسقف :

— ان الأسقفية تدرك جيداً وجوب قيامك بعملك الذى وراءه سلامة المجتمع ، ولكنها لا تقبل أن تتصدى ارادة الكنيسة ، وتعمل على نشر فضيحة لا تشفى غليل أحد ، وتسىء الى ذكرى القتيل الذى كان لا ريب فريسة لغواية الشيطان ، أو ضحية لمؤامرة أعداء الفضيلة .

(١) Maisons closes إسم له فى فرنسا معناه الرهيب

(٢) نوع خبيث من اختلاس المال من الرجال أثناء سكرهم

(١) قصر العدل ويقولون فى مصر سراى المحكمة ولا سيا المختلطة

فقال القاضي متلطفاً :

— ولكن يا سيدى الأسقف هل يمكن التنازل بأخبارنا عن هويته ، لنحصر جهودنا فى البحث عن الجناة ، فإننا قبل أن نبذل جهدنا فى هذه السبيل، لا بد لنا أن نقف على شخصية القتيل .

ألو ! ألو ! ألو !

— سنترال !

— هنا مكتب قاضي التحقيق . كنا على اتصال بالأسقفة رقم ١٣٠٣٣ ك . مدنية

— الرقم لا يجيب ... انتظر ! لقد علقوا السماعة بعد المحادثة

فابتسم قاضي التحقيق وقال :

— سكوت هو الاعتراف بنفسه !

***

فى تلك اللحظة دخل صبى صغير من أتباع جرينشار بحرز مختوم فتسلمه القاضي يداً بيد ، وحيا الصبي وانصرف ، وأسرع القاضي إلى فض غلاف الحرز فإذا به كناشة صغيرة فى حجم الكف تحمل تاريخ سنة ١٩٠٨ ، ولكن الكتابة المدونة فيها لا تتبع التواريخ ، خط دقيق وصفحات ملأى، ألوان شتى من المداد ... الأسود والأحمر والأزرق أحياناً... نبذ لاتينية . وأشعار يونانية ، وآيات من العهدين القديم والجديد، أسماء حديثة وأخرى بائدة

— ١ —

ياويلتا من بني آدم وبنات حواء ! إنهم يشغلون ذهني دائماً بصورهم التى لا عداد لها . إن أخلاقي هى الحجاب الحاجز الذى يحول بيني وبينهم ، حتى عيت وأعيا العقل مجهودى ... بسكال . النبي دانيال ٣ : ١٤ : ٣٤ « ويل لك يا ابن آدم من نفسك ، واحتكاكها بما وراء الوجود الظاهر والقوالب والأشخاص » بسكال : العدل ...

— ٢ —

يطيب لى أن أراقب المرضى والمجانين والمساجين وأشبع عيني ونفسى من ألوانهم وأنواعهم . إن أحاديثهم ألذ وأنفع من حديث الأصحاء والعقلاء ، والأحرار ... الأحرار ... هذا الأبله ڤوجيرار صاحب معامل الحديد فى حى بوتيو . بسكال : العدل موجود لأن العناية قررته (أفكار ١٣٤) ولكن هل هو موجود فى الحقيقة ؟ ...

— ٣ —

دعاني ڤوجيرار لزيارته . وقدم إليّ زوجته وبناته . وطلب إليّ أن أبارکهن !! وسألنى رأيى فى راسبوتين وعلاقته بالقيصرة ! ياله من وقح جسور ! إنه أعمى يظن نفسه بصيراً ! ومقهور يحسبه قاهراً ، ومستعبد يعتقد أنه طليق ! مستعبد لماله وأهله وشهواته !! أنا وحدى الطليق ، لأننى تحررت من قيود المال والشهوات ! ولكن من يدرى ؟؟

— ٤ —

مدام لابات . شارع جارنت نمرة ٢٩ . جميلة فصيحة متدينة . تناديني « يا أبتاه أنقذنى من مخالب الذنوب التى تكتنفنى ، منذ فقدت زوجى ، إن حياتى محفوفة بالمكاره ... وأقاربي من الرجال ، حتى المحارم ، يغازلوننى وينصبون لى الشباك ... أتظن أن ... متعلق بى حتى أغرى خادمتى العجوز مدام « بوليبه » بالمال فأدخلته إلى مضجعى خفية ... ليفاجئنى نائمة عارية . وكيف أستغيث ؟ لا وسيلة إلا التسليم ! الطعام والغرام مشكلة الحياة وشغل الناس الشاغل » وأنا وحدي قنوع فى الأول ،

عزوف عن الثانى ، ولذا ترانى حراً كالطير ، أغرد على المنابر أيام الأحد والأعياد ، وأتنقل بين مواطن الآلام وهى أغصانى وأفنانى ثم آوى إلى عشى وهو صومعتى . وإن لم يكن فيها أنثى ولا صغار الطير فهى تحمينى من عبث الحياة ...

— ٥ —

الأسقف ... ذلك البهيم المبهم ! إنه لا يعلم شيئاً ، لقد ضحى بي على مذبح مطامعه . هل أصلح لمعاشرة المجرمين والمذنبين والمجانين والمرضى ؟ رجل مثلى طيب القلب عذب اللسان قوى الحجة لا يصلح إلا للوعظ .. ولكنه يريد أن يسحب منى وظيفتى بلباقة كهنوتية . لقد أشار فيحديثه مني إلى طغيان سافونارولا[1] فقد همسوا فى أذنه أن تقريراً وصل إلى مونسنيور « ميرى ديلفال » نفسه جاء فيه (راقب جيميه عن كثب) كلام ملتو غامض . لأننى أثرت الجدل حول مسألة الخلق القويم . إنها مسألة شائكة ، استجرت فيها رؤوس الأقلام من قديم وتبلبلت بسببها الألسنة ، من عهد رينان . آه رينان ! من لى بثقافته واعتداله ! هل كان مؤمناً ؟ هل كان ملحداً ؟ أم إنه ودع العالم وقد ازداد جهلاً ؟

ألم يصل لمنيرفا فى الاكروبول ؟ بهتان وضلال !

ألم يزر موضع الميلاد والصلب والقبر المقدس ؟

عماذا عاد إلينا ؟ إنه عاد بالشكوك القاتلة التى صحبته إلى آخر حياته ! وخسر أخته هنريت فى الصفقة !

أما أنا فلا أخت لى أفقدها ، حتى ولا امرأة بعيدة أحبتنى يوماً . كلهن يظهرن لى الاحترام الذى يقتلنى فى الصميم ! إن من الإعجاب اكراماً ، وقناطير مقنطرة ! أما الحب فلا دانق ولا ذرة

— ٦ —

الآن عرفت سبب الاضطهاد فقد قلت فى موعظتى التى تلاها تقرير « المراقبة عن كثب » : إن المنافقين ينجحون باسم الفضيلة ؛ وباسم الفضيلة تقترف الآثام . مدام رولان : آه أيتها الحرية ! كم جريمة تقترف باسمك ؟ آه أيها العدل كم بريء يظلم باسمك ! ان الثائرين على الأخلاق كالساخطين على المعتقدات . أحب أن أحارب الشياطين المستترة وراء النفاق ... بل شيطاناً واحداً كامناً فى نفسى لم تخرجه الصلاة ولا المواعظ إلى ...

* * *

كان قاضى التحقيق يقرأ مذهلاً ، لقد أمسى من الحقيقة قاب قوسين أو أدنى . . بل هــذه هى الحقيقة نفسها بين يديه . ولكن لوسيان كاتبه ماشأنه فىهذه المعمعة ؟ فىهذه اللحظة دق التليفون :

— ألو ! ألو ! سيدى القاضى بوتليڤان .. أنا جرينشار اتكلم ! الفكرة التى وصلت إليك كانت فى حوزة لوسيان . نعم لوسيان كاتب التحقيق كان يحاول إلقاءها فى نهر السين ، فألقى بأشياء أخرى ، وسقطت الفكرة على الأرض لفرط ارتباكه ثم سار فى طريقه كالمجنون ، فالتقطت الفكرة . أنا الآن فى شارع لاجيوتبير ، لوسيان فى حانة يحادث إمرأة جميلة ، وفتية ، هل أقبض عليها ؟

— إننا نعرف مسكنه ولا نعرف مسكنها . من الحكمة أن تقبض عليها فى بيتها ، إنهما لا يلبثان أن يفترقا ، فاتركه واتبعها ..

---

(١) كاهن دومنيكى عاش فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر وثار على فساد المجتمع فأمرت الكنيسة باعدامه وحرقه وتذرية رماده في نهر ارنو

ألقى القاضى بسماعة التليفون باهتاً .. ومنتصراً فقد تحققت ظنونه

ودخل دكتور لوكار يحمل تقريره وهو ثمرة التحقيق الدقيق

كان صاحب الجثة فى أحضان امرأة قبيل وفاته ، وفى إحدى قلامات أظافره ذرات من مساحيق بيضاء وحمراء معطرة ، آثار زينة المرأة ، ويدل تقلص أنامل اليد اليسرى على أنه شرع فى خنقها ، واستمساك اليد اليمنى بأسفل البطن قرينة ما أصابه بين الحصر عند ما أخفق فى حبه

النتيجة : حالة عجز مصحوبة بجنون الشيخوخة المبكرة . أما سبب الوفاة فيكشف عنه تشريح الجثة الذى يقوم زميلى الدكتور روسنيول

الطبيب — إمضاء

***

عاد القاضى إلى الفكرة :

— ٧ —

كانت فتاة ريانة ، يجرى فى عروقها دم حار غزير . لقيتنى باكية بعد خطبة الأحد ، وطلبت إليها أن تدلنى على بيتها لتبوح لى بحقيقة حالها قبل أن أبدى لها النصيحة . بيتها . يا أسفاه ! إنه « طقيسى »[1] . خن للحمام ضيق . مظلم فى أعلى منزل بشارع جيراف اسمها جانيت ديلاييه جرانسير (من ورثة ألقاب النبلاء !) الكنيسة وذرية الأشراف تلتقيان فى علية بظاهر السطوح ! دخلت على جانيت فى الليلة الأولى ، وكان المطر ينهمر ، بعد أن صعدت سبع طبقات ؛ فدت يديها الرخصتين لتأخذ بيدى على درج السلم ، فارتجفت وكدت أقع لأننى شعرت كأن أسلاكا ذهبية من نور الحب تجذبنى إلى الطقيسى »

وكان الظلام حالكاً . فأشعلت الفتاة عقب شمعة وأجلستنى على السرير ، فما لديها سواه يصلح مجلساً . وكانت باهتة ، فسألتنى : هل معك يا أبتاه نقود ، فيضاً من فضل الصدقات ؟ فإننى كما ترى أحق الناس بها . فتصنعت الصمم والتعب لأرى كيف تفعل تلك الأنامل الرقاق بعد أن جذبتنى إلى سريرها ؟! فكانت برهة سحرية لم أعرف لذتها من قبل ، فأخرجت كيس النقود — جذع اليتامى والأرامل — وحللت خيوطه وأفرغته فى حجرها فقبلت يدى ، وانهمرت دموعها . معصية . معصية . الفرار ! الفرار ... ! وقد نجوت فعلاً من حبالة الشيطان ...

***

أنا دنيس بتى جان روسنيول جراح وطبيب بقسم الطب الشرعى التابع للنائب العام بمحكمة استئناف ليون العليا أثبت الآتى :

بفحص الجثة ، وجدت الكهل فى العقد الخامس صحيح الأبصار ، سليم الأحشاء ما عدا القلب فقد وجد متضخماً . وسبب الوفاة سكتة قلبية أثناء مجهود لم يتعوده المتوفى وهو فى حالة عجز جنسي تام لم تسبقه ممارسة

***

« نحن قاضى التحقيق أمرنا بحفظ القضية لعدم الجريمة »

وهكذا عاش ومات الأب أرمان چيميه واعظ كنيسة شارتييه .

محمد لطفى جمعة

---

(١) بالفرنسية mansarde علية فى قمة البيوت تؤجر للفقراء


البرد والانفلونزا والروماتزم تشفى سريعاً بـ'اسبرو'
انباء تسرك
52.
حل فصل الاصابات بالبرد والانفلونزا والروماتزم فالحاجة ماسة الى عمل
وان قرصاً او قرصين من «اسبرو» اذا اخذا في الوقت المناسب انقذاك من
ملازمة الفراش اسابيع طويلة ومنعا عنك مضاعفات المرض. وقد اثبتت مئات
الالوف من الناس فائدة «اسبرو» التامة فلماذا لا تجربه ؟ انك ستجد اسبرو
صديقاً عند الحاجة وحامياً لك، قادراً على ازالة الالم في دقائق قليلة.
والاسبرو مفعول مهدئ لا خطر فيه وهو لا يضر المعدة ولا القلب
وهو من اعظم المستحضرات الطبية التي اخرجت للنوع الانساني ..
'اسبرو' يستعمل كغرغرة
قرصان اسبرو في ايعد ملء كوب ماء تكون غرغرة مفيدة في
التهاب الزور والحلق والتهاب اللوزتين
٢ قرصان ٥ مليمات
١٠ اقراص ٢½ قرشاً
٢٧ قرصاً ٥ قروش
الوكلاء ج. ب. شريدان وشركاه
القاهرة شارع الكنيسة الجديدة تليفون ٥٤٢٢٣
الاسكندرية ٩ شارع طوسون تليفون ٢٦٣٤٠
اياك ان تنخدع بالتقليد
اطلب 'اسبرو'
'ASPRO'
REG. TRADE MARK

آلات الموت الثلاث

للكاتب الانجليزي تشيسترن

« تشسترتن شاعر وقصصي وروائي ممتاز بدعابته المرحة ونكتته اللاذعة كما تمتاز قصصه البوليسية عن قصص سير ارثر كونان دويل بروحها الأدبي وأسلوبها الأخاذ ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن برنارد شو وهو كتاب ينتزع من الانسان نفسه ويأخذ على القارىء كل تفكيره ، وسيلمس القارىء جانباً من مهارة هذا الكاتب في فن القصة وتهيئة الجو لها وخلق المشاكل الكثيرة حول أبطالها في هذه القصة التي أنقلها اليوم والتي تعتبر بحق من أروع القصص البوليسية دقة وتركيباً »

عرف الأب « براون » عن طريق الوعظ والايمان أن الانسان يطهر بالموت وأن روحه تسمو بانفصالها عن الجسد ، ولكنه لم يكد يعلم بقتل سير « أرون امسترونج » حتى أحس بالألم يحز في قلبه والحزن يعمل في فؤاده . واستولى على الناس كثير من الحيرة والدهشة لاعتقادهم أن سير أرمسترونج شخصية مرحة لا يتطرق إليها اليأس ولا تبتئس لدواهم الخطوب ، فقد كان سليم الجسم صحيح العقل منبسط المزاج ، تأخذ أحاديثه السياسية والاجتماعية بعقول الناس بأسلوبه الفكه ونكتته البارعة . ولا غرابة في هذا فقد انصرف عن تعاليم الكنيسة الاسكتلندية إلى خمور أدنبره وقضى فيها زهرة شبابه . ثم ودع الحياتين « حياة الدين وحياة الشراب » وسلك في الحياة طريقاً خاصاً لا يدرى الانسان إن كان فيه من اتباع كلفن أو من رواد الحانات ، وإن كان وجهه المستدير ولحيته البيضاء وعويناته اللامعة تبعث في نفوس الناس شعوراً مزيجاً من الرزانة والمرح

عاش في بيت ريفي جميل قد شاده على نمط القلاع القديمة قريباً من طريق السكة الحديدية ، إلا أن أعصاب هذا السيد لم تكن لتتأذى من دوي القطر أو جلجلة العربات لم يكد القطار يدنو من المنزل حتى اندفع إليه رجل لا يكاد المرء يفرق بين سواد وجهه وسواد ثوبه ؛ وأخذ يلوح بقفازه الأسود ويصيح في صوت حادٍ مدو : قتيل ! قتيل ! لم يكن هذا الرجل الأسود إلا خادم السيد أرمسترونج ، فوقف القطار وأسرع الناس إلى المنزل فرأوا شيخاً ملقى على الأرض في ثوب أصفر قد لُف حول ساقه حبل طويل . وأغلب الظن أن الشخص الذى لف هذا الحبل قد لقي كثيراً من المقاومة والصراع من القتيل . كان ذلك الشيخ الملقى على الأرض هو السيد أرمسترونج

وفي تلك الساعة الرهيبة برز سكرتير القتيل « باتريك رويس » وهو رجل معروف من رجال الفن وأصحاب الحانات ؛ ثم جاءت في أثره ابنة الشيخ المتوفى «أليس» ترتجف وتلهث . ثم أرسل في طلب الأب براون فلبي على عجل . فلما جاء إلى المنزل رأى رجلاً من البوليس السرى يدعى « مرتون » فانتحى به جانباً من الحقل المجاور للمنزل وأخذا يتحادثان في أمر هذا القتيل !

فقال مرتون : الواقع أني لا أرى شخصاً تحوم

عليه الشبهة ، فجنوس رجل غبي أبعد الناس عن أن يكون سفاكاً للدماء ؛ ورووليس صديق حميم للقتيل منذ عهد بعيد ، ثم إنه معبود ابنته (أليس) فلا يمكن أن يرتكب مثل هذا الجرم ويهدم سعادة هذا البيت المرح

— فأجابه براون : أجل ! لقد كان بيتاً مرحاً قبل أن يموت صاحبه . أفتظن أنه سيبقى كذلك بعد غياب سيده ؟

— أجل . لقد مات ! !

فمضى الأب براون يقول : لقد كان مرحاً حقاً ، ولكن هل كان هذا المرح شائعاً فى نفوس الآخرين الذين كانوا يقاسمونه العيش ؟ !

فأثار هذا الكلام شكوك مرتون وأخذ يفكر فى حياة ذلك الشيخ

لقد كان المنزل قابضاً للنفس ، وكانت غرفه عالية ضيقة باردة يسري فيها بصيص من الضوء الباهت كضوء القمر بل أشد شحوباً ! وكان كل شيء فى المنزل يبعث فى النفس الكآبة والضيق والنفور . كذلك كان الأشخاص الذين يقيمون فيه : فالخادم مجنوس كان يلوح في قفازه الأسود الكبير كأنه طاغوت ثقيل ؛ والسكرتير رويس كان يُرَى فى لحيته المستديرة الكثة ، وجبهته التى ارتسمت عليها التجاعيد قبل الأوان ، مثقل القلب محطوم الفؤاد مصدوم الأماني . أما أليس فلم يكن فيها من صفات والدها شيء ، فقد كانت شديدة الحساسية مرهفة الأعصاب حتى أن مرتون طالما أشفق عليها وعجب كيف تنام تلك المخلوقة الحساسة على صفير القطر وجلجلة العربات ؟ !

ثم استطرد الأب براون قائلاً : إني واثق من أن المرح الذى كان فيه سير ارمسترونج لم يغمر المنزل كله . قد تقول إنه ليس هناك من يفكر فى قتل هذا الشيخ ، ولكنني لست متأكداً من هذا

فصاح مرتون قائلاً : « وهل تظن أن الناس لا يحبون المرح ؟ »

فأجابه براون : إن الناس يحبون الضحك المتواصل ، ولكني لا أظنهم يحبون الابتسام الدائم . فالمرح الخالى من الدعابة هو من أثقل الأشياء على نفوسهم

ثم مضيا صامتين فى ذلك الطريق المخضر لا يسمعان إلا صفير الرياح وهسيس النبات حتى أتيا رابية صغيرة تشرف على المنزل فوقفا هناك ، وأخذ الأب براون يتحدث كمن يريد أن يزيح شيئاً ثقيلاً عن نفسه فقال :

« إن الشراب ليس خيراً ولا شراً فى ذاته ، ولكني أشعر أحياناً أن كثيرين من الناس يطلبون الكأس من وقت إلى آخر لتسكن ثائرتهم وتهدأ أعصابهم . ثم التفت حوله فرأى رئيس البوليس السرى قادماً إليه ، فبادره مرتون بالسؤال :

— هل كشفت سر الجريمة ؟

— فأجابه « جليدر » وقد أخذ النوم بأهداب عينيه : « ما من سر هناك » فابتسم مرتون وقال « حسن ، ولكني أراه سراً »

فرد عليه الرئيس وهو يمشط لحيته بأصابعه : لم يمض على ذهابك إلى الأب براون دقائق حتى وقفت على الحقيقة كلها . أنك تعرف ذلك الخادم ذا القفاز الأسود الذى أوقف القطار

— أوه . يجب أن أعرفه . فقد أفزعني

— ثم استطرد جليدر قائلاً : حسن . فلما مضى القطار مضى معه ذلك الأسود

ياله من مجرم ثابت ! يريد أن يهرب بنفس القطار

الذى ذهب لاحضار البوليس

— وهل أنت واثق تماماً من أنه هو القاتل ؟

— نعم يابني إني متأكد من هذا ؛ فقد هرب حاملاً معه العشرين ألف جنيه من الورق ؛ ولكن المهم الآن هو أن نعرف كيف قتله . فقد وجدنا الجمجمة مكسورة كما لو كانت مشجوجة بآلة ضخمة ، ولكننا لم نجد شيئاً حوله ألبتة . وليس من المعقول أن يحمل القاتل تلك الآلة ما لم تكن صغيرة جداً بدرجة لا تلحظ

فقال القس : ولكن ربما كان الموت بآلة أكبر من أن تلحظ .

فعجب جليدر لتلك الملاحظة الغريبة ونظر إليه يستوضح قصده

فأجابه الأب براون . إن سير أرمسترونج السكين قد قتل بآلة مارد جبار

آلة أكبر من أن ترى هي التي نسميها الأرض . لقد ألقى به فى هذه البقعة الخضراء التى نقف عليها الآن .

— ماذا تعنى ؟

فصوب الأب براون بصره إلى المنزل فرأى نافذة مفتوحة قرب قمته فقال وهو يشير إلى تلك الفتحة الصغيرة : « ألا ترى ! لقد ألقى به من هناك ! »

فنظر جليدر إلى النافذة وقال : من المحتمل جداً أن يكون هذا ، ولكني لا أدرى علة ترجيحك هذا !

فحملق الأب براون بعينيه الواسعتين وقال : لماذا ؟ ألم تر الحبل حول ساق الرجل ؟ ألم تر قطعة أخرى من الحبل مثبتة في النافذة ؟

— إنك مصيب فى هذا يا سيدى . إنى أسجل لك هذا .

وفى هذه الأثناء كان القطار قد وصل حاملا نفراً من الجند ومعهم مجنوس فصاح جليدر ، وهو يقفز إليهم فى خفة وسرعة : لقد أتوا به !

فدنا منه مجنوس وقال : أين المفتش ؟ فلما سمع الناس صوته عرفوا كيف استطاع أن يقف القطار . لقد كان زرى الهيئة دميم الصورة لم ينق دمه بعد من لوثته القديمة ، ولكن صوته كان نافذاً قوياً قدر ما كان وجهه شاحباً ميتاً . ثم صاح بصوت مدو رنان : كنت أتوقع هذا ! ثم لوح بقفازه فى الهواء فنظر إليه جليدر بعين غاضبة ونادى الجاويش وقال : ألا تنوى أن تغل يدى ذلك المخلوق ؟ يبدو لى أنه خطر

— حسن ياسيدي . ولكنى لا أظن أننا سننفذ هذا

— ماذا تعنى بهذا ؟ ألم تقبضوا عليه ؟

— أجل لقد قبضنا عليه وهو خارج من نقطة البوليس حيث أودع أموال سيده لدى المفتش « روبنسون »

فنظر جليدر إلى الرجل دهشاً وقال : لماذا فعلت هذا ؟

— لآمن بها يد المجرم

— إن أموال السيد ارمسترونج يجب أن تترك سليمة لأسرته

وفى هذه اللحظة علا صفير القطار واشتد قرع الأجراس فغاب فيه صوت الرجل الأسود ولم يسمع منه المفتش إلا هذه الجملة :

« ليس لدىّ ما يجعلنى أثق فى أسرة ارمسترونج »

— فأجابه رويس في صوت خافت : عليك أن

تفكر فيما تقول ، فإنك تزعج مس ارمسترونج بهذا الكلام !

— إنى أود هذا . فقد طالما رأيتها ترتجف ، تارة من البرد ، وتارة من الخوف . ولكنى واثق من أنها كانت ترتجف من الغيظ والحنق . لقد كانت تود أن تفر اليوم مع حبيبها حاملة معها كل المال ، لأن سيدى المسكين قد رفض أن يزوجها من ذلك الحارس

فقاطعه جليدر قائلاً : صه ! فلا يعنينا اليوم شكوكك عن أسرتك مالم تدعم هذه الشكوك بالشواهد العملية

— سأقدم لك أدلة قاطعة على صحة ما أقول « فقد أسرعت إلى الرجل وهو مربوط فى النافذة فرأيت ابنته تترنح فى مشيتها ممسكة خنجراً فى يدها . أرجوأن تسمح لى أن أقدم هذا إلى الجهات المختصة ؛ ثم أخرج من جيبه سكيناً طويلاً وقدمها إلى الجاويش . فازداد حنق مرتون عليه وطلب من جليدر أن يسمع أقوال مس ارمسترونج ، فصرخت الفتاة وهي واقفة كأنما أصابها شلل ، ولم يبق فيها من علائم الحياة إلا عيناها اللتان تلمعان تحت جبين شاحب مغضن قد تهدل عليه شعر أسود قاتم . فالتفت إليها جليدر وقال :

— إن هذا الرجل يقول إنه رآك ممسكة سكيناً وأنت لا تكادين تشعرين بنفسك بعد القتل

فأجابته (أليس) قائلة : إنه صادق

وعندئذ اندفع باتريك رويس بين الجند وهوى على مجنوس بقضيب كبير من الحديد ؛ فأسرع الجند إليه وألقوا القبض عليه وصاح فيه جليدر قائلاً :

— سأقبض عليك من أجل هذا العمل

— لا بل اقبض على بتهمة القتل

— ماذا تعنى ؟

— إن ما يقول هذا الرجل صحيح ، فإن مس ارمسترونج كانت ترتجف وهى ممسكة السكينة فى يدها ، ولكنها لم تختطف السكينة لتقتل أباها بل لتدافع عنه

— تدافع عنه ! ! ضد من ؟

فأجابه السكرتير : ضدى

فنظرت إليه أليس بوجه ممتقع غامض ثم قالت فى صوت خافت :

— إنى أشعر بالرغم من هذا بالفرح لشجاعتك

فقال رويس : هيا اصعدوا معى فسأريكم كيف حدثت تلك المأساة . ففى تلك الغرفة العالية حيث كان ينام السكرتير كان موطن السر لتلك الجريمة المروعة ؛ فعلى الأرض ألقى مسدس حديث الطلق ، وبالقرب منه زجاجة من الخمر مفتوحة غير أنها لم تكن فارغة تماماً . ثم إن غطاء المائدة كان مطوياً وقد وجد عليها حبل طويل شبيه بذلك الذى كان حول ساق القتيل

ثم قال رويس في سذاجة الطفل : كنت أشرب عندئذ . إنكم تعرفون كيف بدأت قصتى وقد تنتهى إلى مثل هذه النهاية . لقد سمعت الناس يصفوننى بالذكاء أحياناً ، وكان فى استطاعتى أن أعيش سعيداً ، فقد أنقذ ارمسترونج البقية الباقية من عقلى وجسمى بعد أن أتت عليها الحانات والمقاهى ؛ وكان دائماً يحبونى بعطفه وحبه إلا أنه

لم يسمح لى أن أتزوج أليس . ربما كان محقًا فى هذا . أظن أنكم لستم فى حاجة إلى مزيد ... فها كم زجاجة الويسكى لا يزال فيها بقيـة ملقاة على الأرض وها كم المسدس الذى أفرغته حديثاً ، وبقية الحبل الذى أوثقت به الرجل وألقيت به من النافذة . إنكم لستم فى حاجة إلى بوليس سرى يكشف عن مأساتى فهى ظاهرة للعيان ، وهأنذا أقدم نفسى لأستوفى جزائى ! !

فهم الجند بالقبض عليه لولا أن صوت الأب براون دوّى عالياً وهو يقول :

— قفوا . إن هذا مستحيل . لقـد كنتم تقولون أولاً إنكم لم تجدوا آلات ، ولكنا قد وجدنا الآن كثيراً . فهاهى السكينة للطعن، والحبل للخنق ، والمسدس للطلق . ثم إن القاتل قد كسر رقبة ضحيته بأن ألقى به من النافذة . لا يمكن أن يحدث هذا كله ، فإن هذا القتل يتنافى مع مبادئ الاقتصاد . ثم إننا نجد أشياء لا يمكن أن تحدث . فهذه الثقوب التى نراها فى البساط حيث نفذت فيها الرصاصات الست . فهل يطلق الإنسان النار على البساط ؟ إن المخمور يصوب المسدس إلى رأس عدوه ، فهو لا يهجم على قدميه أو يرسم العلامات لقفزاته . ثم الحبل ، فكيف يصدق العقل أن إنساناً يضع الحبل فى عنق إنسان ثم يعود فيربط به ساقه ؟ إن رويس لم يكن على أية حال غائباً عن عقله حتى يفعل هذا ... ثم دنا من رويس وقال : إنى آسف يا عزيزى أن أقول لك إن قصتك تافهة بعيدة عن الحقيقة ...

ثم انتحت أليس بالقس بعيداً وأخذت تقول له : إنك رجل ذكى وإنى أعرف أنك تحاول إنقاذ رويس ، ولكن عبثاً تحاول . إن كل شىء يقف ضد ذلك الرجل الذى أحب ...

فنظر إليها براون وقال لماذا ؟

— لأنى وجدته بنفسى يرتكب جريمته

— وماذا عمل ؟

— لقد كنت فى الغرفة المجاورة لها ؛ وكان البابان مغلقين ، وفجأة سمعت صوتاً لم أسمع مثله من قبل يدوي كأنه الرعد: « الجحيم! الجحيم! الجحيم! » ثم سمعت البابين يهتزان من أثر الطلقة الأولى . سمعت هذا ثلاث مرات قبل أن أفتح البابين وأرى الدخان يملأ الغرفة . لقد كان ينبعث من المسدس الذى كان فى يد باتريك المسكين وهو يطلق الطلق الأخير ... ثم رأيته يقفز إلى أبى الذى كان ممسكاً بالنافذة . ياله من منظر مروع فظيع وهو يزمجر ويصيح محاولاً أن يحبس أنفاسه بالحبل الذى ألقاه على رأسه ، ولكن الحبل انزلق عن كتفه إلى ساقه من أثر المقاومة المنيفة ثم أخذ يجره كالمجنون . فاختطفت سكينه واندفعت بينهما لأقطع الحبل قبل أن يستولى علىّ الضعف والإغماء

فأجابها الأب براون : إنى فاهم . أشكرك !

ثم تركها غائبة فى ذكرياتها المؤلمة الثقيلة ومضى إلى جليدر ومرتون ومعهما رويس ، فقـال لهم : لقد أخبرتكم أن هناك آلات كثيرة لم تستعمل للقتل، فالسكينة الملطخة بالدم والمسدس والحبل كانت أدوات رحمة وإنقاذ لم تستعمل فى قتل سير ايرون بل لإنقاذه

فأجابه جليدر — لإنقاذه ؟ وممَ

فقال الأب براون : من نفسه ، فقد كان مجنوناً يهم بقتل نفسه

فصاح مرتون فى نغمة المبتهج المتشكك : ماذا ؟

— انها نوبة دينية تستولى عليه من وقت إلى آخر . فلماذا لم تتركوه ينفّس عن نفسه بالبكاء كما كان يفعل آباؤه . لقد ضاقت به الحيل ، وسدت أمامه السبل . إذ كان وراء ذلك النقاب المرح الطروب عقل شاك وقلب خال من الايمان . فكان إذا ماجاءته تلك النوبة انكفأ إلى الشراب يعب منه ما ينسيه نفسه . وكان يعتقد أحياناً أنه فى الجحيم التى طالما أنذر الناس من شر عذابها . وهذا هو ما كان عليه اليوم فقد أخذ يهذى كالمحموم ، واندفع إلى الموت كالمجنون ، وأخذ يحتال عليه بشتى الطرق : بالحبال والسكينة والمسدس . فاتفق عندئذ دخول رويس فألقى السكينة خلفه على البساط واختطف المسدس . ولما لم يجد لديه وقتاً ينتزع منه الرصاصات أخذ يطلقها فى الأرض الواحدة بعد الأخرى . ولكن المنتحر رأى أمامه طريقة أخرى للموت فاندفع إلى النافذة . فلم يسع النقذ إلا أن جرى خلفه بالحبل محاولاً أن يربطه من ذراعه وقدمه ؛ وعندئذ دخلت الفتاة فأساءت فهم ذلك الصراع العنيف الذى كان بين الاثنين فأسرعت إلى والدها لتنقذه ، وعملت على هـذا حتى تقاطر منها الدم ، ولكنها استطاعت قبل أن تخور قواها أن تخلص والدها فهوى من النافذة إلى الأبدية !

فالتفت جليدر إلى رويس وقال : أظن أني لم أخطئ عندما قلت لك وللفتاة أنكما بعيدان عن القتل !

— فأجابه رويس : ولكن ألا ترى أنى قلت هذا لكى لا تعرف خطأها !

— فقال مرتون : لا تعرف ماذا ؟

— انها قتلت أباها أيها المغفل !

— انها ستجن لو أنها عرفت هذا

— فقال الأب براون وهو يتناول قبعته : لا أظن هذا . إني أفضل أن أخبرها بالأمر . فان أشنع جرائم القتل لا تسم الأفكار كالخطايا . ثم انصرف

وبينما هو فى طريقه إلى منزله قابله أحد أصدقائه فقال له :

— لقد وصلت النيابة الآن وستباشر التحقيق !

فأجابه الأب براون : يؤسفنى ألا أحضره ! !

(م . ع)

الفستان الأبيض

للقصصي الإنجليزي ستاكي أومونيير

بقلم الأديب نظمي خليل

عند ما يبلغ كل إنسان نهاية الطريق يقف المصور والمؤلف والمهندس والمثال ، كل يشير إلى عمله ويقول : « هذه هي آثاري ، سوف أنال بها تقدير الأجيال المقبلة » ولكن لا يبقى للممثل أو الموسيقى شيء إلا الذكريات التي تعلق بأذهان من يحبونها ؛ فقد تسمع إنساناً يقول لك « إيه بني كان ينبغي لك أن تسمع فلاناً أو تشاهد فلاناً » ولكن لو لم تكن قد سمعت الموسيقى أو شاهدت ذلك الممثل فإن هذا الكلام لا يترك فيك أثراً ..

ولكن الممثل أسوأ حظاً من الموسيقى لأن الناس يحاولون الآن بمختلف الطرق أن يحتفظوا بآثار الموسيقى ، ولكن ليس ثمة وسيلة للاحتفاظ بتلك الحالات النفسية المنيفة التي يكون عليها الممثل في ليالي مجده . فقد مضت هذه في طيات الزمن وغابت في زوايا الأساطير

خطرت لي هذه الأفكار الحزينة لأول مرة عند زيارتي « لجيلين برامكر » . فقد قابلت هذا الشيخ المسن في إحدى دور الكتب برأسه الجميل الممتاز ، وشعره الأبيض المتموج ، قد حمل نفسه في خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره

كنت كثير التردد على تلك الدار فألقاه دائماً مكباً على الجرائد والمجلات التي كنت أرغب في قراءتها . ثم جرنا خطأ يسير وقع في أحد أعداد « مجلة السبت » إلى الخوض في حديث عادي أعقبه لفتة منه ، ثم حديث عن الجو ، ثم انحناءة من جانبه وسؤال عن صحته من جانبي إلى أن اتفق أن خرجنا من الدار يوماً وسرنا معاً حتى نهاية الطريق

لقد شعرت بالميل إليه منذ أول مرة ، فقد ملك علي شعوري تعبيره الدقيق الواضح وما يحمله من عاطفة قوية مكبوتة ، حتى أن ميله لأتفه الأشياء كان يثير في نفسي أعمق الذكريات . فإن قال « ما أبهج هذا اليوم ! لم يكن هذا القول اصطلاحاً مألوفاً أو قولاً معتاداً ، بل كان إفصاحاً عن الفرح والغبطة لحياة الربيع ، والشمس المشرقة ، والخراف الصغيرة وهي تثب وتقفز على حافة المراعي الخضراء ! ولو قال : إني جد آسف ! جواباً لقولك : أني نسيت تذكرة السيارة فاضطررت لدفع الأجر مضاعفاً ، خيل إليك أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت في تلك السحابة من الدموع التي تطفر من عينيه !

دعاني يوماً لزيارته ، وكان يقيم في الدور الأول من منزل صغير وحيداً ليس معه إلا امرأة نصف قد انسلت إلينا في خطى خفيفة سريعة . لقد كانت الغرف كما وصفها فقيرة ، ولكنها لم تكن بالغة حد الفقر . قد تناثرت فيها قطع الأثاث والصور التي تحمل أعمق الذكريات ، فأدركت حينئذ مكانة الممثل . فلو أنه كان مصوراً لاستطعت أن أنظر إلى بعض آثاره فأعرف قدره ، ولكن ماذا نعمل حيال

ممثل قديم قضى أكثر عمره فى الماضى ! إن الموقف كان يثير الإشفاق والحزن

لا ريب أنه كان ممثلاً قديراً فى زمنه ؛ هذا ما شعرت به وإن كنت لم أدر شيئاً عن حياته الأولى . ولم أرد أن أعرف أى الأدوار التى قام بها ، لأنى شعرت أنه ينبغى لى أن أعرف هذا من نفسى . ولم يكن هذا الشخص بالفخور الذى يتحدث عن أعماله ، ولكنى استطعت أن أعرف عنه بعض الشىء من الآثار المتناثرة التى كانت فى غرفته . فقد رأيت صورة له فى دور « ملفوليو » وغيره من أبطال شكسبير ؛ ثم رأيت صوراً عديدة مهداة إليه من كبار الممثلين ، وبذلك أخذت أمسك بخيوط حياته شيئاً فشيئاً . ومهما يكن ذلك المركز الذى وصل إليه فى عالم التمثيل فيما مضى فأنه كان لا يزال محتفظاً بتلك القوة التى تهز شخصاً وتستبد به من أعماق روحه . فقد شعرت أن كل شىء فى تلك الغرفة يسمو كالخيال

وعند ما أخذ يتحدث عن أمه شعرت أن صوته قد خفت كأنه منبعث من أعماق بعيدة ، واستطعت أن أعرف من كلامه أن أمه كانت ممثلة فرنسية عظيمة ، فقد رأيت على البيان مروحة ثمينة مهداة إليها من الأمبراطورة أوجينى ؛ ولكنه لم يذكر أباه طوال ذلك الحديث

لقد اعتدت الذهاب إليه كل يوم خميس منتهزاً فرصة خروج زوجى لزيارة عمتها العجوز فكانت كل زيارة تحمل إلى قلبى اللذة والسرور . لم يعرف شيئاً عن عالمى كما أنى لم أعرف شيئاً عن عالمه . وأخيراً وقعت تحت سلطان رقيته ، وسرعان ما أدركنى الاشفاق على وحدته ، فأرسلت إليه أنا وزوجى بعض الهدايا وبعض النبيذ ، وكانت زوجى تصغرنى فى السن وهى كلفة بالرقص والمسرح ومجالس الطرب . ولا غرابة فى هذا فهى لم تزل فى شبابها النضر وجمالها المتفتح وعمرها النض . إن شعرها .. لا ، إنى أستطرد فى هذا ... اتفق يوماً أن تقابلنا مع الممثل فى أحد الأزقة فرأيت تغييراً كبيراً فى البطل الذى أعبده ، فقد كان رائعاً فى ذلك اليوم يزرى بأشد الناس أناقة وجمالا . فلما قدمت إليه زوجى أمسك بيدها ثم قال :

حقاً إنها لفرصة سعيدة !

إن هذه الكلمات لا تحمل سحراً ما دامت مرسومة فى حروف ، ولكنها سحرت « أليس » فاحمر وجهها وفاض قلبها وشعرت أنه إنسان عزيز عليها

ثم مضت الأيام وأنا دائب على زيارته كلف بالوقوف على آثاره ومخاطراته الأولى ، حتى توثقت بيننا المودة ، وقويت الألفة ، وأصبحت أجد من نفسى الجرأة على فتح أدراج مكتبه والتطلع إلى كل ما بالغرفة من صور وآثار . حتى رأيت فى إحدى الليالى وقد تأخر بنا الوقت واستهوانا الحديث ذلك الفستان الأبيض الصغير . لقد كان فستان فتاة صغيرة قد وضع كما طواه صانعه فى أعلى الصندوق . فأخذته فى يدى ودنوت منه وهو يرتشف شرابه وقلت له : « ما هذا يا مستر رانكيز ؟ فحدق النظر فى الفستان وسرعان ما أدركت عليه الارتباك والدهشة وأحسست بشىء من الألم والندم يشيع فى نفسه وهو صامت ذاهل فاقتربت منه وربت على كتفه وقلت : « إنى آسف ! لا شك أن هناك قصة ينبغى ألا ... »

فأمسك بذراعى وتمتم قائلا : « لا ، لا ، حسن

يا بني . سأخبرك بهذا فيما بعد . ثم هب واقفاً وأخذ يخطو فى الغرفة جيئة وذهوباً دون أن ينطق بكلمة . ثم التفت إلىّ فجأة ووضع يده على كتفى وقال : « فلتأت إلىّ غداً ، ولتحضر زوجك معك . سأنتظركما على العشاء فسوف أحدثكما عن ذلك الفستان الأبيض الصغير »

لقد كانت زوجى ذاهبة إلى الرقص فى ذلك اليوم . ولشد ما أدهشنى أن رأيتها ترحب بزيارة مستر برانكير حتى أننى شعرت بشىء من الضيق لمصاحبتها إياى . لقد كانت معتادة تناول العشاء فى أحد الفنادق الكبرى ، فكيف ترضى بتناول الطعام فى بيت ذلك المثل الفقير ؟ فنصحت إليها أن تلبس أقدم ما عندها من الملابس وأن تتناول بعض الشطائر قبل ذهابها ، ولكنها لم تقبل نصحى وارتدت أفخر ثيابها . فاستسلمت للأمر إذ لم يكن الاحتجاج ليجدي نفعاً . ومن هنا كانت دهشتى الثانية :

كان برانكير فى لباس السهرة فأثار فى هذا اللباس شعوراً خاصاً لم يتركنى طول الليلة ، فقد لاح لى أن زوجى وبرانكير من عالم غير عالى . فأخذا يتجاذبان الحديث فى ألفة ووداد ، فيحدثها الشيخ فى وداعة ولطف ، ثم تجيب عليه بنظرات مشتاقة أخاذة حتى شعرت أني أكبرها بأجيال وإن كان برانكير يكبرنى بأعوام

وفى العشاء كانت الدهشة الثالثة ، فقد كانت المائدة تفيض بأنواع من الأطباق التى تنم على سلامة الذوق ، وكانت الأنوار الكهربائية تسطع على أكواب الخمر وفناجيل القهوة . وبعد أن فرغنا من الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول المدفأة ثم قدم إلينا شراباً وأخذ يقول : « لقد بعث به إلىّ أحد الأصدقاء الأعزاء ، ولكنه وا أسفاه قد مات ميتة شنيعة » ثم أمرّ يده على جبينه كأنه يحاول أن يدفن تلك الذكرى المؤلمة . وأخيراً التفتت إليه زوجى وقالت مازحة :

— ألست تنوى أن تحدثنا عن ذلك الفستان الأبيض ؟

فرفع رأسه الجميل المكلل بالشيب ثم مدّ ذراعه الطويل فأمسك بيد زوجى وضغط عليها وقال : « أرجوك أيتها السيدة العزيزة أن ترتشفى هذا الكأس لذكرى صديقى القديم » ثم أخذ يرتجف وهو يدنى كأسه من شفتيه ولكنه كان لا يزال ثائر العاطفة فأعقب الأولى بأخرى

لقد كنت فخوراً بصداقة ذلك المثل وما لديه من ذكريات وآثار فأشرت إلى الصورة التى كانت مهداة إليه من « هنرى ارفنج » بتوقيعه « إلى صديقى العزيز ... » ولكن برانكير هزّ كتفيه وأخذ يتنهد تنهدات عالية . ربما لم يكن يجد فى هذه الآثار ما يدعو إلى الفخر ، وربما كانت هذه في نظره شيئاً تافهاً

ثم أعادت عليه زوجى سؤالها عن الفستان . فانحنى أمامها ومضى فى صمت إلى الصندوق ثم عاد به ونشره فى خشوع وتقديس على ظهر المقعد ، فعجبت أليس لمرآه ، أما هو فقد أخفى رأسه بين يديه وغاب فى صمت عميق ، فبقيت أنا لا أفكر إلا فى ذلك الموقف الرهيب الذى وجدت فيه نفسي ، فقد كانت الغرفة كلها مثقلة بالذكريات ، وكانت زوجى قابعة فى مقعدها تسطع على وجهها الجميل الشبيه بوجوه الأطفال الأنوار فتزيدها فتنة وجمالاً . وفى الجانب الآخر من المدفأة جلس الشيخ فى شعره

الأبيض المتموج كأنه ماثل يتحدث عن ماضٍ حافل بالمآسي والآلام . ثم الفستان الأبيض الصغير ! !

وفجأة اندفع الشيخ يقول : « كان هذا قبل أن تأتيا إلى هذا العالم ، فأنكما لاتذكران فرقة تشارلس كارسيد الشهيرة التى كانت تعمل تحت اسمينا . لقد كنا نمثل فى مسارح حاشدة وكنا فى تلك الأيام ...

ثم التفت إلى واستأنف حديثه قائلاً : « كان هناك ممثلون ! فالملهاة والمأساة والقصة التاريخية ، كل هذه كان لها نصيب كبير من عنايتنا ، حتى لقد كنا نغير أسمارنا كل ليلة بل مرتين فى الليلة الواحدة . كذلك كنا نغير أدوارنا ، فقد كنت أقوم بدور «عطيل» مرة ثم «ياجو» فى ليلتين متعاقبتين . كذلك كان صديقى أوبان ، فقد كان يترك لى دور « شيلوك » ويأخذ منى دور « بسانيو » ... أوه . لن أثقل عليكما بهذه التفاصيل . آه . أوبان تيرى المسكين ! صديقى العزيز تيرى !!

ثم وقف عن الكلام وأطرق إلى الأرض وشملنا صمت رهيب !

ثم استأنف حديثه قائلا : « إذا ما قلت لكما إننا كنا أصدقاء فإنى أعنى بهذا أننا كنا أصدقاء كما يمكن أن يكون الفنانون حباً وإخلاصاً وتفانياً . لقد عملنا معاً ثلاث سنوات لم تعرف الغيرة طريقها إلى نفوسنا ، ولم يدب الحقد يوماً إلى قلوبنا

آه على تلك الأيام !!

ثم مد أصابعه البيضاء وتفرس فيها ثم التفت إلى زوجى وقال :

« أرجوك أيتها الفتاة (وقد أصر على أن يدعوها هكذا طول الوقت) أن تعذرينى لما سأقصه عليك الآن . فقد كان الحب فى أيام شبابى غيره الآن . لم يعد الحب اليوم إلا اغتنام فرص . ما من أحد لديه الاستعداد للتضحية . أما الحب بينى وبين أوبان فقد كان قصة التضحية والفداء . وكان المحك لهذا انضمام « صوفى » إلى فرقتنا

ثم هب واقفاً وأخذ صوته يرتجف ويخفت حتى أصبح همساً !

ثم التفت إلى اليس وقال : لقد كانت جميلة فاتنة مثلك أيتها الفتاة ! كيف أبوح بهذا السر الهائل الآن من غير وعى !!

نظر كل منا إلى صاحبه ولكننا لم نقل شيئا . لم نشر إليها فى حديثنا فقد كان كل منا حريصاً على شعور صديقه . غير أنى لو لم أكن أعرف حب أوبان لها لذهبت إليها وقلت « صوفى ! معبودتي ! ملاكى ! إني أحبك . إنى أعبدك ! ألا تتزوجين منى ؟ ولكن هل كان من البطولة أن أفعل هذا ؟ وأنا أعرف عواطف أوبان نحوها ! إلى أن أحسست يوماً أني لا أستطيع حبس عواطفى فنظرت إلى صديقى فرأيت في عينيه ماشعرت به فى قلبي فدنوت منه وهمست فى أذنه : « أيها الزميل فلتتقدم أنت ولتكسب ذلك القلب ، إنها جديرة بك ! » فأدرك ما أبغى ثم ضغط على يدي وقال : إنك محق يا صاح . إن هذا لا يمكن أن يبقى طويلا . فلتقابلنى بعد الحفلة فى غرفتي

ثم دنا الممثل من زوجى وقال: «إنى لا أستطيع أن أحدثكما عن ذلك الغرام الذى حفل به لقاؤنا فى تلك الليلة . فقد أراد كل واحد أن يفسح الطريق لصديقه. حقاً إنها كانت ساعة رهيبة مثيرة ! وأخيراً قرَّ عزمنا على ترك المسألة للظروف . ثم انصرفنا إلى لعبة الشطرنج ، فصففنا القطع وبدأنا نلعب ولكننا

لم نلبث أن وجدنا أن كل واحد منا يحاول أن يترك الفوز لصديقه فنهضت وقلت له : « يجب أن نترك الأمر إلى القدر الذى لا يعرف التحيز ! »

ثم تناولت أكبر وردة كانت أمامى وقلت سأعد أوراق هذه الوردة فإن كان العدد كبيراً فسأتركها لك . ثم أخذت أعبث بالوردة حتى وصلت إلى الثامنة والخمسين امتقع وجهه وارتجفت مفاصله فأوصلته إلى مقعد مريح وأعطيته منبهاً . ثم التفت إلى النافذة فرأيت الطيور ترفرف حولها وأشعة الفجر قد أخذت تلوح من وراء الزجاج

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى كنت جالساً إلى صوفى أبثها غرامى . ولكن هناك أشياء لها من القداسة ما يجعلنى أتردد فى ذكرها

لقد رفضت ، ولكنها كانت رقيقة عذبة حتى فى رفضها ، ومع ذلك فلم تكن قد وصلت إلى رأى حاسم فى الأمر . فاستولى على نوع من اليأس القاتل . وليس هذا غريباً عنى فإن الإنسان في تلك السن يطلب كل شئ فى وقت واحد . فبقيت أداعبها أسبوعاً صباح مساء ولكنها بقيت مترددة !

لقد كانت تميل إلىّ ولكنها لم تكن تحبنى . وفى نهاية الأسبوع ذهبت إلى أوبان وقلت له : « أيها الصديق لقد جاء دورك فقد تمت بدورى »

ثم خرجت من الميدان . ولا أزال حتى الآن أذكر ذلك الأسبوع الذى رأيت فيه أعز أصدقائى يحب الفتاة التى أعبدها !

وفى نهاية الأسبوع جاءنى صديقي يقول : « إنى لا ادري مكانى الآن . فهى تميل إلىّ ولكنى لا أكاد أعتقد أنها تحبنى »

لن أسرد عليكما تفاصيل مغامراتنا التى حدثت بعد ذلك . ولكننا عندما رأينا الموقف متماثلاً عزمنا على أن ننزل ميدان الكفاح فى معركة مكشوفة وإلا فقدناها نحن الاثنان . فقر رأينا على منازلتها فى أى وقت وفى أى مكان . ومضينا فى هذا الشوط ثلاثة أشهر . وفى النهاية كان أوبان الفائز . فبقيت أترقب فى كل لحظة تلك الأخبار المزعجة السارة إلى أن حدث أمر كان مستوراً

ثم غاص فى كرسيه وأخذ يمر أصابعه فى شعر رأسه فى خفة وسرعة . ثم استأنف حديثه فقال : « فقد توفى عمّ أوبان وترك لابن أخيه ثروة هائلة ، ثروة لا يحلم بها البخيل ، ففرح بهذا جميع أصدقائه إلا شخصاً واحداً » . ثم نظر إلى زوجى وتنهد قائلا : « لقد عشت أعواماً طويلة ولكنى وجدت أن قلب المرأة عميق لا يمكن ارتياده وسيظل هكذا إلى الأبد ... فقد رفضت صوفى أن تتزوج من أوبان مخافة أن تتهم بأنها رضيت به زوجاً من أجل ثروته . إنى لن أنسى ألم تلك الأيام وهولها . لقد أعلنت رفضها فى صراحة وقوة ، وبقيت أنا موزعاً بين حبى لأوبان وحبى لصوفى ... إنى أستطيع أن أقول بكل صدق : إن المال قتل أوبان . فقد أخذ يبعثره فى الشراب واللعب وعاش عيشة التبذل والسرف لا لشيء إلا لأن المرأة التى أحبها رفضت أن تتزوج منه ... ثم ما لبث أن أغرم بمخلوقة جميلة تسمى أنابيل فتزوجا وأعقبا طفلة

كانت ألسنة النيران تندلع وزوجى محدقة النظر فى عينى الممثل وهو ماض يقول : « وهنا بدأت أنظر إلى المرأة من جديد ! فان صوفي التى رفضت أن تتزوج من أوبان لأنه غنى ، والتى كانت

تضطرم غيظاً إذا مارأت أنابيل قد أغرمت بطفلتها الصغيرة . لقد صبرت عليها كثيراً أملاً فى إرضائها وكسب قلبها ... ولكنى لم أفلح ... أتصدقان أنى أعيش عشر سنوات عبداً لها وهى تقضى هذه المدة عبدة لتلك البنت الصغيرة ؟ !

لقد ضحيت كل شىء من أجل أن أصحبها فى جولة أو أتحدث إليها فى زيارة ، ولكن المرأة التى كانت تعبث بى كدمية صغيرة كانت تكرس وقتها ومالها لشراء اللعب والفساتين لابنة أوبان ، أتتصوران هذا ... ؟ ! »

فأجابته زوجى للمرة الأولى : نعم . فأشار إليها الرجل برأسه وقال : ما من عمل يكون بين الرجل والمرأة إلا وتكون نتيجته ضرراً للرجل

فى النساء إلهامات وأحاسيس خفية نتفقدها فى نفوسنا فلا نجدها ، فالمرأة مسلحة من كل جانب وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً

ولكن لم يمض عامان على زواج أوبان حتى استيقظ ذات ليلة وقد شعر بألم شديد فأسرع إلى دواء كان يتعاطاه دائماً ولكنه طاش هذه المرة فتجرع حامضاً كانت صوفى قد أحضرته لتحميض الصور . فاندفع إلى الشارع وهو بملابس نومه وأسلم روحه بين أذرع الشرط

لقد كان هول ذلك الحادث مطبوعاً على جبينه فتألمنا لسماعه حتى كادت الدموع تنبجس من أعيننا

ثم تقدمت بنا السنون وحب صوفى لابنة أوبان يزداد واهتمامها بها يشتد ، إذ كانت أمها برغم الثروة التى تركها زوجها لاتزال تحن إلى ماضيها الملوث المستهجن حتى خشينا على اخلاق الابنة منها ولا سيما أنها لم تكن دائمة السهر عليها إذ كانت تزورها من وقت إلى آخر ، فتحضر لها أثمن الملابس وأفخر اللعب ثم لا تلبث أن تنقطع عنها وتنساها . فنشأت الفتاة على طباع أمها فخورة مسرفة مستهترة ! فلم يكن يهمها فى الحياة وهى الفتاة التى لم تتجاوز العاشرة إلا الزينة والتبرج . غير أنها طفلة جميلة فاتنة ! فقد كان فيها كل جمال أمها مع بعض رشاقة والدها وخفته . فتركت الفتاة وشأنها تجالس الفتيات الساقطات وتستمع إلى الكلام السوقى والنكات النابية .

لقد أحبت لوسى عمتها صوفى (كما كانت تدعوها) لا لشىء إلا لأنها كانت تغدق عليها اللعب وتغمرها بحبها القوى العنيف إذ كانت تكتب إليها كل يوم وترسل إليها الهدايا من وقت إلى آخر .

ثم جفف الشيخ جبينه كأنه كان يرزح تحت أعباء ذكريات ثقيلة مجهدة ، ثم نهض إلى إحدى زجاجات النبيذ وملأ كأساً وأفرغها فى فيه ، ثم أعقبها بأخرى ، ثم عاد إلى مكانه وهو ذاهل عنا كأنه يعيش فى ماضيه البعيد ، ثم التفت إلى زوجتى وقال :

— لدى كثير من الفساتين الجميلة التى كانت صوفى تصنعها للوسى يمكنكما أن ترياها إذا سمحتما بزيارة أخرى

قال هذا فى توسل ورجاء حتى أننى أحسست أن قلبى يكاد يقطر دما ! !

أما زوجى فقد كنت أعتقد أنها ستقوم فى تلك اللحظة وتجول في الغرفة باحثة عن باقى الفساتين ، ولكن ما أشد دهشتى إذ رأيتها صامتة فى مكانها تنظر بعين حائرة لايعرف معناها إلا بنات جنسها !

ثم مضى الشيخ فى كلامه كأنه يتحدث إلى نفسه :

والفساتين ! أى دور تلعبه الفساتين فى حياتنا ! لقد كان كارليل صادقاً فى قوله هذا . لقد كانت صوفى ماهرة فى أشغال الإبرة وقد ساعدتها تجاربها فى المسرح على هذا فكانت تصنع أروع أنواع الفساتين . إن أزمة حياتى التى سأحدثكما عنها كان بسببها أحد تلك الفساتين التى صنعتها للوسى . ثم صمت قليلا وأخذ يدق على المائدة بيديه الجميلتين ثم قال :

« كان هذا العام الفائت فى العيد العاشر لميلاد لوسى ، وكانت أنابيل قد تردت فى الهاوية حتى لم يعد هناك أمل فى إنقاذ الفتاة ، حتى أحسست بهذا ، أنا الذى تحطمت حياته على حب صوفى لتلك الفتاة . لقد كان قلبى يتمزق من أجل ابنة صديقى ! فقمت مع صوفى برحلة طويلة فى الخريف ، وقد كنت معها التابع المطيع . ولكن الجو كان رديئاً والمرض متفشياً . فأصابها برد ما لبث أن انقلب نزلة صدرية ، وفى أثناء مرضها جاءها خطاب من لوسى تطلب منها فستاناً جميلا يزرى بفساتين زميلاتها يوم عيد الميلاد . فتهلل جبين صوفى وشاع الفرح فى كل قلبها . إيه ربى ! لقد كانت تحلم فى أشد حالات المرض بالهدية التى ترسلها إليها . وأخيراً قالت لى : « سأصنع لها فستاناً خالياً من أى زركشة ، وإنى واثقة من أنه سيزرى بباقى الفساتين بفضل جمال لوسى . فأعجبت برأيها ومضيت معها نشترى الفستان

ثم اشتد عليها المرض فى الأيام الأخيرة حتى أنها لم تعد تتحرك إلا بفضل تلك الطاقة العصبية التى بقيت حية فيها حتى تتم الرحلة وتنجز فستان لوسى قبل مجىء العيد .

وأخيراً عدنا إلى لندن وقد اشتد بها المرض ولم نكن قد أعددنا المنزل فتركتها فى صحبة صديق لى ومضيت كالمجنون إلى حيث تقيم لوسى . فألقيت بنفسى فى إحدى العربات وألقيت بالعنوان إلى الحوذى وأمرته أن يطير بى إليه . ثم وضعت الفستان على ركبتى وانحنيت عليه فى رقة وحنان كما لو كان طفلاً يحتضر

لا أدرى كيف وصلت إلى هناك فقد خيل إلىّ أنى سائح فى الأبدية

لم تكد ترانى لوسى حتى صاحت قائلة : مرحباً لقد ظننت أن عمتى صوفى قد نسيتنى فاستأجرت هذا الفستان !

فأجبتها : بنيتى إن عمتك لم تنسك بل كانت تجود لك بآخر قطرات قلبها . هاك الفستان . فأخذته فى يديها وألقت عليه نظرة فاحصة وقالت : أفستان هذا أم جلباب نوم ؟ لست فى حاجة إليه ، ثم انسلت إلى غرفتها

فلم أتمالك نفسى من الغيظ وهممت أن أفتك بها لولا أنى تذكرت أنها ابنة صديقى القديم

كيف أعود إلى صوفى بالفستان ثانية وهى تجود بآخر أنفاسها ؟ فأردت أن أحتفظ به كأعز شىء لدى الحياة !

* * *

فلما خلوت إلى زوجى فى منزلى سألتها : ما الفارق بين الواقع والخيال ؟ فأجابتنى وهى تطفئ نور الغرفة : إنى لا أعرف ما يتفلسف به الناس ولا أعرف من الحياة إلا أنك زوجى العزيز الساذج

فقلت لها : ماذا تعنين يا أليس ؟

أجابت : أنى لك أن تدرك طبائع المرأة !

ثم أصرت على النوم ! !

نظمى خليل

أسطورة هندية

الفلاح والتاجر

للبانديت تاراشند روى

نقلها عن الألمانية

الأديب ابراهيم ابراهيم يوسف

يحكى أن تاجراً كان يسكن قرية من قرى الهند؛ وفيما هو سائر ذات يوم فى طريقه إلى المدينة المجاورة ليستجلب بضائع جديدة لقيه فلاح يبغى هو الآخر الوصول إلى المدينة ليدفع إلى أحد أصحاب البنوك قسطاً من المال استحق عليه من دين كان قد اقترضه الجد الثانى له ، وأصبح القرض الذى كان مئة روبية عشرة أمثال ذلك بعد خمسين سنة

وكان الفلاح المسكين يسير فى طريقه مفكراً فيما عساه أن يفعل لحماية أرضه كيلا تقع فى يد ذلك المرابى

وسأله التاجر : إلى أين أنت ذاهب يا شاود هرجى؟ أللمرابى لتدفع إليه قسطاً من المال؟ وهلا فكرت فى طريقة تحفظ لك أرضك؟

فأجاب الفلاح وكان مستغرقاً فى تفكيره المضنى : ياشاه جى، ما ذا عساى أن أفعل؟ لقد اقترض جدى الثانى مئة روبية فأصبحت الآن عشرة أمثالها — ألف روبية كاملاً ... أنعم النظر فى ذلك واعلم أنه ليس فى الوسع إبقاء هذا الدين العظيم حتى لو قدمت للمرابى الأرض التى أمتلكها

فأجاب التاجر : ياشاود هرجى . لم هذا التفكير السقيم وليس من طائل تحته؟ إن الأمور تسير كما كتبت من قبل فى لوح القدر، وإذا ماشغلنا أنفسنا بأمور مضنية كهذه فقد يمتد الطريق ويطول إلى ما لا نهاية . والأولى أن نتحدث فيما نتسلى به

—أنت على حق ياشاه جى، فالقضاء لامفر منه وأروح للنفس أن نقص شيئاً من الطرائف والنوادر، ولكن مالنا لا نضع شروطاً للحديث قبل البدء به

إذاً لا ينبغى ألا يشك أحدنا فى صحة قول الآخر ، وألا يعترض قوله ألبتة ، حتى حين يتراءى له أن كلامه غير محتمل الوقوع ، أو أنه مبالغ فيه كل المبالغة ؛ وعلى الذى يخالف هذه الشروط أن يدفع للآخر ألف روبية

فقال التاجر : أوافقك على هذا كله على أن يكون بدء الحديث لى :

وبدأ التاجر فقال : أنت أدرى بأن الجد الثانى لى كان محترماً موفور الرزق

الفلاح — هذا صحيح ياشاه جى

التاجر — ولما أن بدأ بالمتاجرة رحل إلى الصين فى مئة سفينة ، فأصاب فيها مالا كثيراً ورجع إلى وطنه يرفل فى نعمة اليسر ويسبح فى محيط من الترف والنعيم

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وأحضر من تلك البلاد النائية ما عز

وندر . وكان من بين هذه الأشياء صنم صغير من الذهب أمره عجيب ، فقد كان يكشف هذا الصنم عن مستقبل كل من يستكشفه مستقبله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وكثر أصدقاء جدى الثانى الذين حضروا وتمكنوا بواسطة ذلك الصنم من أن يطلعوا على مستقبلهم . وفى ذات يوم حضر جدك الثانى لدى جدى الثانى ، وما لبث أن حادث الصنم فسأله:

من هم أذكى الناس فى العالم ؟

فأجاب الصنم : التجار

ثم سأله ثانية : ومن هم أغنى الناس فى العالم ؟

فكان الجواب : الفلاحون

ثم أعقب بسؤال آخر إذ قال : ومن سيكون أغنى شخص فى ذريتى ؟

فأجاب الصنم : شاود هرجى هو شيار سنج

وكان هذا اسم صاحبنا الفلاح الذى قال : لقد قلت صدقاً يا شاه جى

وكانت كلمات التاجر هذه تحز صدر الفلاح ، إلا أنه كظم غيظه وأسر فى نفسه معتزماً إذا ما جاء دوره ليقص حكايته أن يضطره إلى دفع الثمن غالياً

التاجر — وكثر الراغبون فى شراء الصنم ، ولكن أمره كان قد بلغ الملك ، فاستدعى جدى الثانى وطلب منه الصنم وكافأه على ذلك بأن جعله رئيس وزارته

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وبقى جدى الثانى فى منصبه هذا عهداً طويلاً وبلغت شهرته العالمين . ولما أن توفى ، خلفه جدى الأول ؛ ولكن الملك لم يكن ليرتاح إليه لشدة تعصبه لآرائه . وفى ذات مرة بلغ النقاش فى مسائل الدولة حداً قصياً . وغضب الملك غضباً مستطيراً ، وما ذلك إلا لرزانة جدى الذى كان يدافع عن آرائه السياسية ويدعم صحتها بالإثبات فى هدوء وتؤدة . فمنعه الملك من أن يتابع قوله ، ولكن جدى صرخ فى وجه الملك بصوت كالرعد أفهمه به أنه لا يفقه فى سياسة الدولة مقدار ذرة . وشعر الملك إذ ذاك بأنه أهين فى الصميم وأمر بأن يرى جدى إلى فيل مفترس ليغتاله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولكن ما إن رأى الفيل جدى حتى ذهبت عنه وحشيته ، وتقدم إلى جدى فى رهبة وخشوع ، ثم أحاطه بخرطومه ورفعه إلى ظهره

الفلاح — حسن جداً يا شاه جى ! حسن جداً

التاجر — ودهش الملك كثيراً لما وقع أمام بصره ، فانحنى قدام جدى وسأله المغفرة ورفعه إلى منصبه ومنحه لقب « من لا يجارى »

الفلاح — هذا بديع يا شاه جى ، بديع جداً

التاجر — ولما أن توفى جدى هذا عين أبى وزيراً خلفاً له ، إلا أنه فضل مهنة التجارة على منصب الوزارة ، ومكنته فطنته ومقدرته التجارية من اكتساب مال وفير استعان به على أن يجتاب العالم من مشرقه إلى مغربه . ورأى فى تطوافه هذا أشياء عجيبة ، منها أنه لاحظ ذات يوم بعوضة تتردد على أذنه وتطن ؛ ولكى يبعد أبى عنه هذه الوافدة سأل البعوضة فى كثير من التأدب ألا تضايقه ؛ فقالت له البعوضة :

— يا أكمل وأشرف من رأيت من التجار ، لقد سررت بطبيعتك السمحة ، ولذا أود أن أسدى إليك جميلاً

وفتحت البعوضة فاها فإذا أبى يرى بين أحشائها قصراً جميلاً كل شيء فيه من الذهب الإبريز ، وقد جلست إلى إحدى نوافذه فتاة آية فى الحسن والجمال ، ووقف أمام مدخل القصر فلاح يريد أن يختطف تلك الفتاة قوة واقتداراً ، فلم يطق أبى صبراً على تلك الحال ، وكان معروفاً بأنه أشجع من دب على الأرض ، فقفز فوراً إلى فم البعوضة ليحمى الفتاة من اغتصاب الفلاح

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ومرت به لحظة اشتملهفيها الظلام ، ولكن ما لبث أن رأى مرة أخرى القصر والفتاة والفلاح ، فانهال على الفلاح حتى صرعه ، ولاشك أن كل عضو من أعضاء الفلاح كان يتهشم لولا أنه أخذ يستحلف أبى أن يعفو عنه وهو ينتفض من كل جسمه . والآن أتعرف من كان ذلك الفلاح؟ إنه كان أباك بالذات . وما إن تم لأبى هذا الانتصار حتى تزوّج من تلك الفتاة الحسناء التى اتضح أنها أميرة . وهكذا آل إليه ذلك القصر الذهبى . ثم التحق أبوك بخدمة أبى وصار حارس الباب ، وكان عليه أن يقف لدى الباب ليل نهار ؛ وولدت أنا فى ذلك القصر ، وكنت فى سن الخامسة عشرة حينما أمطرت السماء ذات يوم ماء فى درجة الغليان ، فذاب القصر بفعل المطر ونشأ فى موضعه إقيانوس من الماء الأجاج ، وما لبث أن اجترفنا التيار ، غير أنا بذلنا جهوداً لا يمكن وصفها وتمكنا نحن الأربعة من الوصول إلى الشاطىء

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولما أجلنا الطرف فيما حولنا رأينا وبالدهشة ما رأينا أننا فى مطبخ . ونظرت إلينا الطاهية نظرة فزع كما لو مسها الخبل . وحاولنا المستحيل لنقنعها بأننا بشر مثلها ولسنا من الجان . فقالت أخيراً :

ما أبدع هؤلاء البشر الذين يخرجون من ماعون يغلى فيفزعوننى . وسألناها الصفح وقلنا لها : ما كنا نبغى أن يصبح مصيرنا إلى الماعون ، فمذ خمسة عشر عاماً كنا نسكن فى قصر فخم مشيد بين أحشاء بعوضة

وما إن أدركت الطاهية ذلك حتى صاحت :

وى ! الآن أذكر أن بعوضة عضتنى منذ خمس عشرة دقيقة ، وهاهو أثرها . ولما آلمتنى عضتها أرقت دمها وسقطت نقطة منه فى الماعون ، ولم أكن لأعرف أنكم بقصركم ضمن هذه النقطة

وقال أبى : أيتها المرأة الطيبة القلب ، الآن يمكننا أن نفقه سر وجودنا فى الماعون دون قصد ، وذلك بعد أن ذكرت ماذكرت ، لم تكن سنواتنا الخمس عشرة إلا دقائقك الخمس عشرة . وهكذا تحققت لى هذه القوة والعظمة فى خمس عشرة دقيقة ، وإن كان لى من العمر خمس وعشرون سنة فانى فى الحقيقة لا زلت فى سن العاشرة

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولما أن خرجنا من جوف البعوضة علمنا أننا كنا نسكن ناحية أخرى غير التى نسكنها الآن . وافتتح أبى هنا ، وكان من قبل وزيراً ، متجرا وكنت أساعده فى عمله ، إلا أن جو المكان لم يوافق صحة أمى بحال . فلما قضت نحبها حزن عليها أبى حزناً مبرحاً ولم يستطع . وقد فقد كثيراً من قوته أن يجابه الحياة عقب ذلك المصاب الجلل . فلما مات توليت بنفسى شئون المتجر . ولقد تعلم ياشاودهرجى

علم اليقين قدر انتعاش التجارة على يدى . هذه قصتى ...

والآن اقصص على يا شاودهرجى ما شئت

الفلاح — يا شاه جى إنك لصادق فى قصتك كل الصدق . والآن استمع إلى قصتى التى لا تقل عن قصتك صدقاً

كان جدى الثانى أغنى فلاح فى القرية وكان جيل الطلعة معتدل القامة واسع العلم ذكى الفؤاد ، محبوباً أينما حل، يتسارع إليه كل ذى غرض ، وكان يسدى المعونة إلى فلاحى القرية عند الحاجة فيقدم إليهم مواشيه ورجاله ، وكان يحكم بينهم بالقسط إذا ماجاءوا إليه متخاصمين . ولم يكن ليأخذ أجراً مادياً على ما يؤديه لهم من خدمات . فقدره الملك حق قدره وأفاض عليه من الأوسمة أعزها ، وكان إلى ذلك كله أعظم من بيهم ورستم [1] ولهذا لم يجرؤ مخلوق أن يعترضه فى شىء

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وحدث مرة أن أصيبت قريتنا بالمجاعة بعد أن حبس عنها المطر وجفت البرك والآبار والأنهر ، وقل علف البهائم فماتت زرافات ووحدانا . ولما رأى جدى الثانى ذلك أعمل الفكر ودعا الفلاحين جميعاً إلى حفل ثم قام فيهم خطيباً وقال :

إخوانى الأعزاء

أردت أن أعرض عليكم اقتراحاً لا ريب أن فيه نجاة لكم . وهأنذا أطلب إليكم أن تتركوا لي أرضكم كافة قدر نصف سنة وأنا كفيل بفلاحتها

وسوف ترون رأي العين أن نتاجها سيصير وفيراً ومن ثم لن تبق لنا بعد اليوم شكوى

فوافقه الفلاحون على رأيه ، وشكر لهم جدى الثانى قبولهم اقتراحه شكراً جزيلاً ؛ وبدأ يستعد للعمل، ودفعة واحدة حمل القرية بأكملها فوق رأسه

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وانتقل والقرية بأكملها على رأسه من موضع لآخر باحثاً عن الماء فاجتاز العالم بأجمعه وكان كلما وجد مطراً استسقى الأرض . وبقى على هذه الحال ستة شهور حرث خلالها الأرض وفلحها وزرعها وجاء المحصول عظيما لا مثيل له ، فقد بلغت عيدان القمح والأذرة من العلو درجة لامست فيها عنان السماء .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكانت كل حبة من حبات القمح والأذرة فى حجم رأسك .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وهرع الناس من كل فج عميق تسأل جدى الثانى أن يبيعهم غلالا .

وكان الفلاح والتاجر قد وصلا فى هذه اللحظة إلى المدينة ، وتابع الفلاح قص حكايته فقال :

وكان الجد الثانى لك فى حالة من الفقر يرثى لها فعطف عليه جدي الثانى ووكل إليه بيع الغلال

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكان لا عمل لجدك الثانى إلا أن يزن الغلال طيلة يومه . ولكنه لم يكن موفقاً فى عمله فكان مرة يطفف الكيل ومرة يبخسه . ولزاما لذلك كثيراً ما كان يُشعر جدى الثانى جدك الثانى بيده القاسية تهوي على مواضع من جسمه

(١) هما شخصيتان خرافيتان فى الأقاصيص الهندية لا مثيل لهما فى القوة والجبروت

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

وكانا قد وصلا فى هذه الساعة إلى مكتب المرابى فحيياه وجلسا . ثم استأذن الفلاح المرابى فى لحظة . ثم تابع حديثه مع التاجر

الفلاح — ولما بيعت كل الغلال لم يبق لجدى الثانى حاجة إلى جدك الثانى فصرفه . ولسوء حظ جدك الثانى وقع مرة أخرى فى ضنك أتعس من الحالة الأولى ، فجاء إلى جدى الثانى وطلب إليه أن يقرضه مئة روبية فأعطاه جدى الثانى المبلغ المطلوب لساعته لما عرف عنه من طيبة القلب

التاجر — هذا عين الصدق يا شاودهرجى

وعندئذ قال الفلاح بصوت يسمعه المرابى :

إن جدك الثانى لم يف هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجي

الفلاح — ولم يحاول جدك الأول ولا أبوك إيفاء هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

ثم إنك أنت حتى الآن لم تف دينك هذا

التاجر — هذا صحيح

الفلاح — وأصبحت المئة الروبية بعد انقضاء خمسين عاماً وبعد ضم الفوائد إليها ألف روبية . ولهذا فأنت مدين لى بمبلغ ألف روبية

التاجر — هذا ... ... هذا صحيح

الفلاح — والآن وقد اعترفت أمام المرابى بالدين الذى عليك أرجو أن تتفضل بدفع هذا المبلغ توآ حتى أستبقى لى أرضى

وذهل التاجر كمن انقضت عليه صاعقة . وما كان فى وسعه أن يتنصل من كل ما ذكر ، فقد اعترف صراحة بالدين أمام شخص ثالث ، وإذا ما عارض الفلاح فى كلامه فقد يتحتم عليه أن يدفع الجزاء المقرر وهو ألف روبية كما اشترطا بادىء ذى بدء ، ثم عليه وقد اعترف بالدين أن يدفع إلى المرابى ألف روبية أخرى

ومهما قلبت المسألة على مختلف وجوهها فقد كسب الفلاح الماكر المعركة ، ولم تعد للتاجر حيلة ، فأخرج كيس نقوده وهو يتميز من الغيظ وقلبه مفعم بالأسى ودفع إلى الممول الألف الروبية .

وعند ما افترقا قال الفلاح لصاحبه :

يا شاه جي ، يضحك كثيراً من يضحك أخيراً .

فقال التاجر — هذا صحيح

واندفع فى طريقه وحيداً لا يلوى على شيء

ابراهيم ابراهيم يوسف

أقصوصة عراقية

ثورة الجهل

بقلم يعقوب بلبول

شعور مخيف مضطرب مغر بحب الاستطلاع كان يعرو وائلاً البدوى حينما كان يستمع إلى المذياع فى مقهى قرية المحمودية ؛ فلقد كان من قبل يعجب للحاكى كيف يعيد الكلام فما بالك بهذا الصندوق الصغير ، يتلو القرآن وينشد الأغانى ، ثم يتكلم وكأنه رجل بأحاديث إرشادية أو صحية ؛ بل ربما صغى إلى نظم الأشعار صادرة عنه ؛ وهو حين يذكر « عنه » لا يدرى بالضبط ما تعنيه هذه الكلمة فى قوله ؛ فلم يكن فى هذا الصندوق أنبوب يبعث الأصوات كما فى الحاكى ؛ وكان فى بعض الأحايين يسمعه ناشزاً بموسيقى تارة ضخمة عريضة الصوت وأخرى دقيقة رقيقة . غير أنه لم يكن ليجد بين أصواتها تآلفاً ولا نظاماً ؛ فما كان يفهم لها معنى ، أو يعتبرها موسيقى ؛ فقد كانت تنفر منها أذنه وينبذها حسه ؛ إذ أن الموسيقى التى اعتاد الاصغاء إليها والتلذذ بها ، كانت تلمس أوتار قلبه وحواسه ، فيطرب لوقعها ، وينصت إليها بشوق وتلهف .

ولقد كان يحار أشد الحيرة فى تعريف هذا الصندوق وتعليل منشأ أصواته وأغانيه وأحاديثه ؛ حتى أن الحاكى كان أقرب حقيقة من عقله الساذج المحدود ، فهو يعلم أنه يسير بمقدرة خادم المقهى الذى يدير ساعدته ، وبالاسطوانة التى يضعها فوق سطحه المستدير ، ثم بالإبرة المجددة فى كل حين . وهو يعلم بأن الحاكى يمكنه أن يعيد ما فى الاسطوانة من أغان دون القدرة على الابتكار والتجديد ؛ أما أن تعبث أصابع أبى عبطان —وهو صاحب المقهى— بلولب خشبى صغير ، فيسمع من ذلك فى كل يوم سوراً جديدة من القرآن ، ومبتكرات حديثة من الأغانى والأناشيد ، وأحاديث أخرى متباينة عما سبقها ، وقصائد منظومة ، وأخباراً متجددة عما يحدث فى البصرة وفى بغداد وفى مكة ، فذلك ما كان يعجز عن تصديقه ، فيربك خواطره ويشغل باله !

ولقد حسب أول الأمر أن فى داخله جنا ؛ غير أنه ما لبث أن نفى هذا الحسبان لوثوقه الأكيد من أن الجن لا يعرفون تلاوة القرآن ، وإن كان باستطاعتهم إنشاد الأغانى والتهويش فأنى لهم برواية الأخبار والوقائع ؟ حتى لقد سمع يوماً هذا الصندوق يقول إن الحكومة قد شرعت فى تعبيد طريق (المحمودية — بغداد) فكان ما قاله الصندوق صحيحاً ليس فيه أدنى اختلاق ... وأنى لهم بالخطب الارشادية والصحية ومقطوعات الأشعار والقصائد يلقونها على مسامعه ...؟

وكان عقله الصغير يأبى أن يعقل أن فى جوف هذا الصندوق إنساناً هو الذى يتلو القرآن ، وينشد الأغاني ، وينظم الأشعار ؛ فقد كان يراه على صغره لا يستوعب جسم طير متوسط الحجم ؛ فأنى له أن تكون فى جوفه هذه الشخصية المحيرة ؟

وتقرب منه ذات مرة يستطلع منشأه ، فما رأى سوى صندوق مستقل موضوع فوق منضدة خشبية بسيطة ، غير أن الذى لفت انتباهه وجود سلك أسود متصل بناحية الصندوق الخلفية ، يؤدى إلى الخارج حيث يتصل عند سطح المقهى بسلك آخر مد على عامودين متفارقين . فما هـذا الخيط المعرض تحت السماء ؟ أيمكن أن الأصوات تأتى إليه منها ؟ أم هل يمكن أن يكون هو الأصل لمصدر هذه الأحاديث ؟

وعنّ له ذات يوم ، وقد أغراه حب الاستطلاع وثار به الجهل إلى استشفاف المجهول ، أن يبتر السلك الممدود خلسة ؛ فتم له ذلك فى ظهيرة خلا فيها المقهى من الجالسين ؛ وعاد دون أن يشعر به أحد إلى مأواه . ولما كان المساء ، وذهب وائل إلى المقهى كعادته ، راعه من أبى عبطان غضبه ووعيده ، وهو يحاول عبثاً دفع الصندوق إلى الترتيل والإنشاد ؛ وقد تحقق لديه بعـد ذلك انبتار السلك الأعلى ، حينما وقعت عليه عين أحد زبائنه مصادفة ، فنبهه إليه . ولقد ثارت ثائرة أبى عبطان ، فاتهم خادمه مجدولا . غير أن الملتفين حوله من زبائنه أفلحوا فى إقناعه بأن انبتار السلك قد حصل من جراء توتره وهبوب الرياح العاصفة عليه

وأصلح السلك فى اليوم الثانى وأعيد ربطه ؛ فـما أدهش وائلا إلا أن يعود الصندوق إلى شأنه الأول ، إذن فالسلك الأعلى هو أساس كل شىء ! أى سحر هذا الذى به ؟ ! وأية قوة خارقة هذه التى تجعله يتكلم الأغانى والأحاديث ويتلو القرآن ! ؟

ومما يعجب له وائل أشـد العجب سماع أصحابه فى المقهى يتحدثون بأن هـذه التلاوة والأناشيد والأحاديث إنما تذاع من بغداد أو من مصر (وقد علم بعد السؤال بأنها أبعد من مكة) فتصل إليهم فى هذه القرية النائية بلا أنبوب أو سلك !

وغدا وائل وجل همه أن يتعرف كيفية حصول هذه الظاهرة المعجزة وسببها ؛ وأصبح يجنح للوحدة ويطيل من التحديق فى اللاشىء ، مسترسلا فى تفكيره الذى كان ينتهى به إلى الثورة والتذمر ممزوجين بألم مطبق شديد ، دون أن يهدىء من حدته ، أو يبعث إلى فؤاده المضطرب شيئاً من الراحة والاستقرار ...

ووائل هذا يا صديقى فلاح من قبيلة آل فتلة ، استوطن قرية المحمودية يعمل فى الزراعة والحرث . وهو شاب فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، جميل الطلعة ، مهيب الصورة ؛ له فى القامة طول وفى المنكبين عرض ؛ وهو أسمر اللون جثل الشعر فاحمه ؛ يزين وجنته السمراء الكالحة ذقن صغير ؛ وله فى كل من أذنيه ثقب نفذت فيه حلقة هى بمثابة القرط عند البدوى ؛ أما جلبابه وهو لا يرتديه إلا بعد انتهائه من العمل ، فهو من القماش البسيط المخطط يتوسطه حزام قـد تدلى فى مقدمه خنجر فى غمد من الجلد

ولوائل زوجتان وثمانيـة أطفال أكبرهم في السادسة من عمره

***

جلس وائل ذات يوم على حجر كبير خارج كوخه ، يحدق فى الفضاء كاسفاً مبلبل الخاطر ، وفى رأسه شىء مرتبك غامض ؛ فهو يرجح رأيه بين هذا وذاك ، حائراً تبدو عليه الحيرة بأجلى ظواهرها ؛ وهو فى ذلك حزين ساهم النظرات ، مضطرب لا يستقر ؛ ولم يكن ليشعر بالاضطراب محصوراً فى رأسه فقط ، بل إنه ليتعداه إلى صدره فيلج فؤاده ويعمل عمله فى قلبه ؛ ولعل هذا هو مصدر الحزن

الذى شاع فى نفس وائل، ولعله أصل السهوم الذى ران عليه وسيطر على روحيته

لقد كان يفكر فى أمر الصندوق الصغير ... إنه ليسائل نفسه عن سر هذه الظاهرة، أهى سحر؟

قد تكون سحراً وقد لا يكون فيها للسحر من أثر؛ وهل يقوى السحر على نظم الأشعار، ورواية الأخبار، وتلاوة القرآن؟ ثم هل يخطب السحر فى الناس خطباً دينية وأخلاقية وصحية؟ وهل بلغ بجميع أصحابه من المستمعين الحمق والجهل هذا المبلغ، حتى لينصتوا إلى السحر دون أن يفهموا أنه سحر؟

وكيف يكون ذلك سحراً والجميع يجزمون بأن القرآن الذى يسمعه إنما يتلى فى بغداد أو فى مصر؟ إن أمر ذلك لعجيب والحق!

هل هى معجزة إلهية؟

قد تكون معجزة لأنها تخرج القرآن من الخشب الأخرس فتدفعه ليتكلم ويغنى، وقد لا تكون معجزة ما دام ذلك يتكرر فى كل يوم، وما دام ذلك يتبع قوانين أساسية إن أهمل واحد منها فليس هناك قرآن ولا أحاديث. أو لم يجرب ذلك بنفسه فبتر السلك، وإذا بالصندوق الناطق عيي؟!

فاذا لم تكن هذه الظاهرة معجزة فكيف إذن يبث الصوت في بغداد فيصل سمعه بنفس اللحظة؟

إنه لن يصدق ولن يعقل أبداً أن مصدر القرآن والأخبار والقصائد إنما هو بغداد أو مصر؛ فذلك سخافة وقول هراء!

فلا بد إذن من أن يكون فى جوف هذا الصندوق شىء لا يراه ولا يشف عنه هذا الحجاب الخشبي الصفيق! ولا بد من أن يكون فى جوفه حاك أو ما يشبه الحاكى؛ بل لا بد من أن يكون فيه حى يتبدل بتوالى الساعات، ويجدد الأغانى والسور فى كل يوم!

فمن هذا الذى هو فى نفس الوقت المغنى والشاعر والمخبر والموقع على الرباب؟ وإنه لينصت إلى صوت نسائى يغنى فى بعض الأحيان، أفتكون امرأة هى التى فيه؟ كلا! إنه ليسمع القرآن بصوت لا يشك فى أن صاحبه رجل؛ أفيكون من فيه رجل وامرأة أم هو شخص يتقلب بين الرجل والمرأة؟

ربما كانت له القدرة على تغيير لهجته ونبرته ولكن ... ولكن يسع هذا الرجل صندوق صغير الحجم إلى هذا الحد ...؟!

ثم خطر له خاطر قلب أسس أفكاره جميعها رأساً على عقب؛ فاذا كان فى جوفه رجل كما يزعم فما معنى وجود هذا الخيط المعرض للسماء، والذى لولاه لما كان فى الصندوق تلاوة من قرآن ولا إنشاد من أغان؟!

إذن فالخيط هو الأصل! وما يكون هذا الخيط حتى يغدو الأصل فى كل ما يسمعه من غناء وأحاديث

كلا.. كلا.. لن يكون هذا الخيط إلا واسطة يحار عقله فى ادراكها؛ ولأى شىء يمكنه أن يتوسط؟ أيمكنه أن يتوسط للشخص الذى بداخل الصندوق؟ وما يمكن للسلك أن يفعل مع شخص يتلو القرآن وينشد الأغانى!؟

وهكذا مضت على وائل ساعة وساعات، وهو حائر مشوش الفكر مسلوب الراحة ...

وأتته إحدى زوجيه تضاحكه وتحاول أن تطرد عنه سهومه وأساه وقد حارت فى تعليل أسبابهما؛ فعافها وائل واجتواها، ونحاها عنه بعيداً فارتابت فى أمره؛ ثم عادت تسأله عن سبب سهومه وحيرته فما ظفرت منه بجواب غير صرخة صعقتها تأمرها بالابتعاد ...!

ومنذ ذلك الحين ووائل يتخذ مقعده فى المقهى

قرب هذا الصندوق العجيب ، فيرى بعين الانتباه واليقظة أبا عبطان يدير اللولب ، ويهيئه للتلاوة والإنشاد ، فتعلم ذلك وأتقنه ، حتى لو طلب منه إدارته لما توانى ولما أخطأ

***

وانتبه وائل ذات ليلة عند الفجر ، فاستعصى عليه بعد ذاك الكرى ، وراح يفكر فى سر هذا الصندوق الذى كاد أن يذهب بعقله ، ولقد اعتراه الاضطراب ساعتئذ بشدة ، ودفعه حب الاستطلاع وثورة الجهل التمرد فى رأسه لأن يغادر فراشه خلسة ويتفقد خنجره فيطمئن عليه ، ثم لأن يتابع سيره ميماً شطر المقهى ...

ودنا منه فألفى السكون شاملاً له ، فدخله من بابه المفتوح ، ورأى مجدولاً الخادم يغط فى نومه حتى لقد كان يسمع غطيطه عالياً

وما كان وائل ليجهل موضع الصندوق ، فقد طالما رأى أبا عبطان يضعه فى دولاب صغير مثبت بالجدار ، ثم يقفله بمفتاح يضعه فى جيب صدرته ، فاستل وائل خنجره من غمده وجعل يغرزه بحيطة وتيقظ فى خشب الدولاب ، فما هى إلا لحظة حتى تكسر لما كان عليه من القدم والبلى ؛ فانتزع بيده الصندوق ، ومن ثم طفق يعمل فى إدارته ، مقلداً بذلك أبا عبطان كما كان يراه يفعل ، وقد غاب عن باله الخادم الراقد على مقربة منه يغط ...

وأدار اللولب الصغير فانبعثت من الصندوق موسيقى رقيقة ، أخذ وائل يبتسم لها ويطرب ؛ استطرد فى إدارة اللولب فما راعه إلا أن يسمع قرعاً مزعجاً أخافه وأرعده ، فكان يشد على اللولب ويحركه ، فما كان من هذه الأصوات المزعجة إلا أن تعلو وتشتد فتزداد خشونة وروعة

وتعالى القرع والطن إلى حد مخيف ، فغدا جسم وائل يرتعد وكأنه الريشة فى مهب الريح ... وكان وائل لا ينفك يدير اللولب فهمدت الأصوات ، إلا أن تلك أعقبتها أحاديث غريبة عجيبة فى لفظها ، فارتاع وخيل إليه أنه فى مملكة الجن وأن الشياطين قد برزوا جميعاً من مكامنهم ... ولم يكن ليتبين صوتاً لشخص ، بل لقد كان يسمع لغطاً لأشخاص عدة ، تارة يصرخون ، وأخرى يقهقهون بضحكات مزعجة مخيفة ... فما ارتاب وائل فى أن الجن قد تجمعوا واستقروا داخل هذا الصندوق العجيب... فصمم ليحطمنه فيحطمن من به من الجن ... !

وانتزع الصندوق بكلتا يديه ، وهو فى ثورته وهلعه ، وألقاه على الأرض بكل قواه ... فتطايرت شظاياه فى أنحاء المقهى وفجأة خمدت أصواته ...

وانتبه الخادم الراقد على أثر ألم فى رأسه أصابه من جراء اصطدام قطعة حديدية ، فهب مذعوراً ليس يدرى أفي الحلم هو أم فى اليقظة ؛ ولم يكن منه حين ألفى وائلاً أمامه ، إلا أن أطلق ساقيه للريح صارخاً بأعلى صوته ، مستشهداً ومستنجداً أهل الذمة ... فهب بعض أصحاب الأكواخ والدور الراقدين على أثر هذا الصراخ وتسارعوا إلى الطريق بينما كان وائل يحاول التملص والاختباء ، غير أن القوم أدركوه وقبضوا عليه دون مقاومة يبديها ، فأسلموه إلى الشرطة

ولم تمض خمسة أيام على هذه الحادثة حتى كان وائل يسير مخفوراً بنفر من الشرطة شاكى السلاح متوجهاً به نحو السجن المركزى ...

(بغداد) يعقوب بلبول

المحتضر

للكاتب الفرنسي موباسان
ترجمة السيد كامل الحريري

كانت أشعة شمس الخريف اللذيذة الفاترة ، ونسمات « ديسمبر » الرخية العاطرة ، تتسرب إلى ساحة الدار من المزرعة وتداعب فى هينة ورفق رؤوس الأعشاب النامية بأطراف الحفر وحفاف الترع ، وكانت التربة خضلة ندية خلال الأعشاب القصيرة القضيمة التى رعتها سوائم البقر وقطائع الماشية ، لا تكاد القدم تستقر عليها حتى تغوص فى برك صغيرة من الماء الذى خلفته الغوادى والسوارى

وكانت خمائل التفاح وأدواح الدراق موقرة الفروع بالثمر الشهى ، متئادة الغصون بالتفاح الأحمر الطلى ، يساقطها سارى الطل ، وينثرها نسيم الصبح على العشب الأخضر فتموج سطحه بلونها الأحمر والأصفر كطرائق من الدرر واللآلىء على القطيفة الخضراء

وفى ركن المزرعة أربع بقرات ترعى العشب الندي وتقضم النبت الطرى ، فى مرح ورضى ولذة ثم تتلفت صوب المنزل مرسلة خوارها المدوي ، بينما دجاجات حول دمنة المزرعة خرجت تستنكش الحب ، وتستنبش الديدان وتستدعى أفراخها ، وديكتها تجرى وراءها مزهوة فخورة ، تغنى دون انقطاع أنشودة الزوج الغيور على إناثه الحسان . وينفتح سياج البستان ، فيبرز منه رجل قروى فى الرابعة والأربعين من سنيه ، ولو أن وجهه المجعد وقامته المحنية كانا يدنيانه إلى حدود الستين كان واسع الخطو وئيدها ، طويل الأذرع مديدها ، ثقيل الحركة بطيء اللفتة ، يثقل قدميه خفان غليظان امتلآ تبناً وهشيما. اقترب الرجل من المزرعة فإذا كلب أصفر صغير يحرك ذنبه فرحاً ، ثم يأخذ فى نباح قصير كأنه موسيقى استقبال ويحف بسيده المقبل ، وما هى إلا أن زجره الرجل حتى يقعى على ذيله ويلتزم الصمت

وخرجت في هذه اللحظة من المنزل قروية زرية الهيئة قبيحة المنظر مفرطة الطول عريضة ما بين المنكبين ، تجلببت بثوب صوفى ضيق قصير ، التصق بجسمها وتهدل حتى ركبتيها ، فبان تحته جوربان خشنان أزرقان ، انتعلا حذاءين غليظين حُشيا كزوجها هشيماً وتبناً . وكان يستر شعورها الشعث اللبدة ، ونواصيها الغُبْر المفتلة، قبعة صفراء قذرة ، برز تحتها وجه هزيل أسمر ليس بالجميل ولا الوسيم ، وإنما عليه طابع القرية وسيما الريف . قال الرجل سائلاً :

— وكيف حال أبيك ؟ فأجابت الزوجة :

— يقول سيدى القسيس إنه الموت ، وإن ليلة الغد لن تطلع عليه أبداً . ثم ولجا المنزل وبعد اجتياز المطبخ صارا إلى غرفة واطئة السقف مظلمة الجو ،

لا يكاد ينيرها إلا لوح زجاج من نافذة ضيقة . وكانت أرضها المحدبة الملتوية ، وقد غمرتها الرطوبة وسالت بها القذارة ، تظهر وكأنها استحمّت في وشل من دهن . وفى ركن قصى من هذه الغرفة كانت العين تقع على سرير منتبذ تنبعث منه أنـة غريبة الجرس فيها الغصة الأليمة ، والزفرة الحرىّ والحشرجة التى تشبه انفجار قنبلة فى ميـدان ، أو ارتطام لجة على صخر ، وكان يفترش هذا السرير محتضر هو حمو الزوج

ويقترب الرجل وامرأته من المشرف المدنف ، ويجيلان فيه بصراً هادئاً راضياً ثم يقول الزوج :

— ليس من موته بدٌّ هذه الليلة. فتستطرد المرأة:

— منذ الظهر وحاله على ماترى . وكان المحتضر مغمض الجفن أربد الوجه ، اصطبغت بشرته بلون التراب ، وأشبهت سحنته غابة مقشمرة الأديم ، متيبسة الشجر ، أما فمه نصف المفتوح فكان يرسل الأنـّة الحبيسة والحشرجة المخنوقة يتداعى لها صدره الضعيف وتتصدع لها جنباته الواهية . وتكلم الزوج بعد صمت طويل :

— أرى أن ندعه يستوفى أنفاسـه منفرداً ، فلن نستطيع له نفعا . وخير لنا أن نتهيأ للمأتم المقبل والجناز المنتظر . فبدت على وجه المرأة أمارات القلق والاضطراب ، ثم فكرت لحظة وقالت :

— وما دام دفنه سيجرى هـذا السبت فإن لدينا متسعاً من الوقت نتهيأ فيـه لحفلة المأتم . قال الرجل بعد أن تدبر قولها

— إنك على حق ، ولـكن أربع ساعات لا تكفى لنعيه إلى الجيرة ، ولا تتسع لدعوة الأصحاب والأقرباء إلى حضور المأتم من «تروفيل» إلى مانتو

فتبصرت المرأة كلام زوجها لحظة ثم قالت :

— لن يحوجنا أبي فيما أظن إلى أكثر من ثلاث ساعات ثم ينتهى كل شىء ، فتطوف أنت على منازل الحى ، وبيوت القرية قائلاً : لقد مات .

فظل القروى حائراً ، يقدر النتائج ، متردداً يزن المسألة ، ثم عالن امرأته

— مهما يكن من الأمر فليس بدّ من ذهابى .

وخرج من الغرفة ثم عاد يقول فى تردد :

— ولأنك فارغة الشأن عاطلة من العمل ، فستقشرين البطاطس للطبخ ، وتعدين طبق التفاح لحفل المأتم ، وتضرمين النار فى الفرن بأعواد الذرة اليابسة . ثم خرج من الدار فداعب كلبه الأصفر المدلل ، وتوجه إلى الطريق البعيد الذى يؤدى إلى تورفيل . ولبثت المرأة وحدها ، فانصرفت إلى ترتيب المنزل وتهيئة الطعام لحفلة المأتم : أفرغت الدقيق فى المعجنة وأخذت تعجن الطحين وتفركه ، وتسحقه ثم تعركه . حتى تم لها منه كرة بيضاء شهية تركتها بجانب المنضدة . وانطلقت تقطف التفاح من البستان ، وكيلا تؤذى الشجر وتكسر الأغصـان تسلقت إلى جوف الشجرة بمرقاة معـدة لذلك ، وأنشأت تقطف وتكدس فى حجرها كل تفاحة حلوة الجنى مكتملة النضج ، وفرغت المرأة من عملها ، فانصرفت إلى غرفة أبيهـا المحتضر وفى نفسها أنه قضى نحبه واستوفى أنفاسه ، على أنها ما كادت تتخطى عتبة الغرفة حتى تأدى إلى سمعها شخيره الصـاخب وحشرجته الرتيبة ، فمضت إلى المطبخ تهيء طعام المأتم وتعد وليمة الجناز دون أن تضيع وقتها سدى بجانب محتضر تعتقد أنه إن لم يمت الساعة فكأن قد ... أحاطت كل تفاحة بصفيحة من عجين « كما

هى العادة عنـد أهل الريف يوم حفلة المأتم » ثم صفت التفاح الواحدة بجانب أختها ، حتى انتظم لديها عقد من ثمان وأربعين تفاحة . وبعد ذلك توجهت إلى طبخ الحساء ، فأضرمت ناراً عظيمة وعلقت عليها قدراً كبيرة أعدتها لإغلاء الماء وإنضاج البطاطس

وآب زوجها من مهمته الساعة الخامسة وما إن وضع قدمه على عتبة الدار حتى فاجأها :

— هل انتهى كل شىء ؟ !

— كلا ويا للأسف ! فما زالت حشرجته عالية الضجيج وقرقرته صاخبة الرنين . ثم راحا يستطلعان الخبر ، فإذا الدنف على الحال التى تركوه فيها منذ ساعات : نفس مضغوط مخنوق لا يتراخى ، وقرقرة متواصـلة رتيبة لا تزيد ولا تنقص ، وحشرجة مبحوحة يتلو بعضها بعضاً كتَـكْتكة الساعة المنتظمة ، فقال الصهر وهو ينظر إلى حميه بإشفاق :

إنه كشمعة الكنيسة سينطفئ دون أن يشعر أحد أو يحس موته إنسان ؛ ويدخلان إلى المطبخ فيتناولان الحساء ، ويأكلان قطعة من الخبز المغموس بالزبدة ، حتى إذا فرغت الصحون وامتلأت البطون ، عادا أدراجهما إلى غرفة المحتضر المشرف وقد أمسكت المرأة قنديلاً أخذت تمره على وجهه وفمه وعينيه كي يثبت لديها ، إذا لم يضطرب لسان السراج ، أن النفس مقطوع ، ولكن لسان السراج اضطرب واهتز ، وراح يتراقص ويرجحن كأنه فى حفلة راقصة . هنالك غادر الزوجان المحتضر حانقين مغيظين ، وأسلما نفسيهما إلى النوم فى سريرين فى ناحية من الغرفة ، تحتوشهما الظلمـة ، وتساورهما العتمة ، وما هي إلا أن ران الكرى على أجفانهما ، حتى دوى فى جو الغرفة الموحشة غطيطهما المختلف الناشز ، أما غطيط الزوج فقوى عميق خشن ، وأما المرأة فرقيق حاد لطيف ، فتألف منهما ومن حشرجة العليل « أركسترا » مزعجة مقلقة ليست بالشجية ولا المطربة . ويستفيق الزوج والفجر وليد ، ونور الشمس لم يسطع على الآفاق ، فإذا الشرف فى قيد الأحياء ، فيوقظ القروى امرأته قلقاً ساخطاً ، وتعتذر المرأة لحياة أبيها فتقول :

— إنه لن يمضى سحابة النهار فى أكبر الظن ، فلتهدأ نفسك وليفرخ روعك . وعندى أن من الخير أن نشيع نبأ موته بين الجيرة وأهل الحى ، كى لا يتعنت علينا العمدة فى دفنه ، فى الغد ، وكى يتسع لدينا الوقت وتطول المدة . ويقتنع الزوج بهذه الحجة فيمضى إلى حقله ، يشيع النبأ وينعى الميت ، ومضى نصف النهار وأقبل الظهر وصاحبنا لم يمت . فبدأ المدعوون إلى المأتم يتوافدون زرافات ، ويدخلون أفواجاً ، كى يقوموا بواجب التعزية عن الراحل الهرم ، الذى أبطأت به قدمه إلى دار الآخرة

وفى الساعة السابعة حين دخل الزوجان غرفة العليل وفى نفسهما أنهما سيغمضان عينيه لآخر مرة ، شاهداه ويا للأسف يتنفس نفسـه المعتاد ويحشرج حشرجته الرتيبة المزعجة ، فقال الرجل وقد تلهب غيظاً وارتجف فرقاً :

— وماذا تصنعين هذه الساعة يا « فينى » بعد أن أجبرتنى على إذاعة نبأ موته بين الناس ؟

وسُمِّرت المرأة لا تنطق ولا تجيب . ثم انطلقا إلى العمدة فوعدها أنه سيغمض عينى المحتضر ، ويأذن بدفنه منذ الغد . أما طبيب الصحة فقد أخذ على

عاتقه ، لدى توسل الزوج ، توقيع شهادة الوفاة الشرعية ، فسرِّى عن الزوجين وانصرفا راضيين إلى فراشهما

وتيقظ القرويان مع الصبح ، فإذا الدنف حىٌّ يرزق ، فظلا ساهمين رازمين ، ينظران بقلق ورعب وحذر إلى وجه العليل وقد قرَّ فى نفسهما أنه لا بد متعمد هذا الدور الخادع ، مصطنع هذه الحشرجة الماكرة ، وأنه يكيد لهما كيداً ، اشتفاء لنفسه وانتقاماً لكبريائه ، وقال الزوج :

— إن هذا مقلق مزعج ، ويزيده قلقاً أننا لا نستطيع بلاغ خبر حياته إلى الناس ، بعد الذى كان منَّا من إخبارهم بموته . وفى الساعة السابعة إلا عشراً أخذت وفود المدعوين إلى حفلة المأتم تقبل أفواجاً ، مرتدية السواد ، فذعر الزوجان لهذا الموج البشرى المتراكب ، ثم راحا يستقبلانهم فى حزن وابتئاس ، وعلى حين غرة وبينما كان الفوج الأول يقترب منهما أخذا فى بكاء حار عميق ونشيج مؤلم طويل ، وكانا خلال العبرة والزفرة يشرحان للناس الموقف المتحرج ، وبين الآهة والأنة يقصّان الفاجعة الأليمة والحال المتأزمة ثم يقدمان مع هذا كله الكراسى للجالسين ، والسجائر للمدخنين ، معتذرين لهذا طالبين المغفومن ذاك ، صاخبين ضاجين منهرين من الكلام لاهثين من الحديث مغرقين الزوَّار بسيل من الكلام لم يجدوا لأنفسهم وقتاً لإجابته والرد عليه ، حتى إذا هدأت عاصفة ثرثرتهما شيئاً ، وركدت ريح هذرها قليلاً ، أخذا ينتقلان من مدعو لآخر ويقولان :

— ما كنا نحتسب ذلك والله ولا نتوقعه ، إنه لشىء عجاب أن يصرع هذا الهرم الفانى ملك الموت القوى الجبار

وأدركت المدعوين خيبة وحسرة ، حين أخطروا أذهانهم حلوى المأتم اللذيذة ، وأطباق اللحم الحنيذة التى سيحرمونها ، ويا للحسرة بعد هذه الخطب البليغة من الزوجين . فظل فريق منتصباً ساهماً لا يريم ، ولبث ثان صمعقاً نادماً لا يتحرك ، ثم هم فريق ثالث بمغادرة النزل بصفقة المغبون ، لولا أن صاح بهم الزوج :

— وأين إذاً تتركون الحلوى المصفوفة واللحوم المرصوفة والخمور المعتقة ؟ ! فتهللت الوجوه الباسرة ، وأضاءت الأسارير المظلمة وأخذ بعض يهمس فى أذن بعض

— أظن أن لا فائدة من الذهاب مادامت السماء مغطاة بالغيم منذرة بالمطر ، وامتلأت ساحة الدار بأمواج الزائرين ، وأفواج المعزين من كل حدب ، حين سرى الخبر سريان البرق ، إن الوليمة جاهزة فاخرة ، والعشاء لذيذ حنيئذ

ويدخل النساء غرفة المحتضر راسمات على صدورهن إشارة الصليب ، ثم يأخذن فى صلاة عميقة طويلة على روح « الميت الحى » ثم يخرجن من الغرفة ، فيُطلّ الرجال ذوو الشجاعة والبأس من نافذة الغرفة ، على الشيخ المحتضر . أما خلوعو القلوب وذوو الأمزجة العصبية ، فيلبثون مكانهم خوفاً من هذا الهرم الذى لا يريد أن يموت ، وحين شاهد جمع الناس هيئة المحتضر وفراشه توجهت الأنظار إلى الوليمة المنتظرة ، ولكنهم كانوا من الكثرة بحيث لا يتسع صحن المطبخ لمديدهم ، فاقترح إخراج المائدة إلى ساحة الدار ، وحين طالعت عيون الجالسين

حولها كان أول ما جذب إليها الأنظار الثمانى والأربعون تفاحة الذهبية المسوَّرة بأطُر العجين ، التى جهدت الزوجة فى تصفيفها وتظمها حتى عادت كالقلادة اليتيمة حول جيد الحسناء

وأهوت إليها الأكف كل يأخذ تفاحته فى عجل كيلا تفوته حصته ولكن رغم ذلك بقى فيها أربع

قال الزوج وفى فمه لقمة ما تجد طريقهـا إلى حلقه :

— آه لو أبصركم عمى المرحوم أو المحتضر على هـذه الحال ، تأكلون خيره وتريقون ثمره الحلو إذاً لـ ... فقاطعه قروى جلف :

— لكل دوره فى هذه الحياة ، وعمك الساعة لا يسيغ تفاحا ولا يشتهى ثمراً ؛ وبدلاً من أن يستاء المدعوون لهذه الكلمة الجافية الجافة ، انفجروا عن ضحكة عريضة وقهقهة عالية ؛ ولم لا ؟ وقد سنحت لهم الفرصة وأباحهم الرجل طعامه وشرابه ، وإنها لنُهْزة ما تأتيهم كل يوم

وينقلب الزوج بعد فرح القلب وانشراح الصدر ساخطاً ضيق الذرع بالمدعوين ، لأن النفقة كانت جسيمة لا تقدر ، والمصاريف باهظة لا تحتمل ، ورغم هذا كنت تراه إما رائحاً بالأطباق مليئـة وزجاجات « الويسكي » مترعة أو غادياً بهـا فارغة لا طعام ولا شراب ، ويفرغ الآكلون من الوليمة فإذا هم صاخبون بالكلام ومالئون الدنيا ضجيجاً وجلبة

وعلى حين غرة فجأ القوم فلاح هرم بهـذه الكلمات :

— لقد مات . لقد مات . وران على الجمع صمت مهيب وسكوت موحش ، وتلاحظ القومُ فى حيرة وذهول . ثم تناهض النساء ينظرن « الميت الحى » ويتأكدن من انطفاء سراج حياته ، وحقاً كان المدنف قد لفظ أنفاسه الحبيسة فما عدت تسمع من صدره وفمه قرقرة أو حشرجة

فى هذه اللحظة التى تستنزف الدمع البرود ، وتستدر العين الجمود ، ولم يبك الزوج ولا المرأة وإنما ظلا هادئين رصينين ، وكان الرجل يقول للجمع من حين لآخر :

— لقـد كنت واثقاً بأن ذلك لن يطول وأحسب أن عمى لو تنازل فسلم روحه لبارئها منذ ليلتين لـما أزعجنا هذا الازعاج وعكر علينا صفو المأتم هذا التعكير . ومهما يكن من شىء فقد مضى الرجـل لطيته وما أظن فى عزمه العودة آخر الأبد

نعم ظعن الرجل إلى دار الآخرة ، ولـكن أكلافه الثقيلة لم تظعن معه . فالقروى المسكين مضطر إلى إقامة وليمة جديدة على نخب موت عمه الثانى ، وبالرزء الجسيم والكلفة الباهظة

وينفض السامر من السمار وتخلو بأهلها الدار ، فإذا الزوجان يقفان وجهاً لوجه ، وإذا المرأة تقول فى حنق وغيظ :

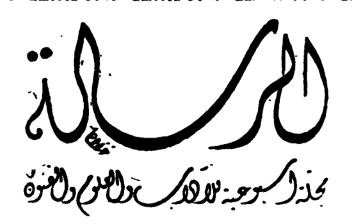
— أمن اللازم الحتم أن أكد نفسى بإعداد وليمة ثانية ؟ ! آه لو طاب أبى نفساً بروحه منذ ليلتين فقط إذاً لكنا ... ويقاطعها الزوج فى خضوع واستسلام .

— أفى كل يوم نحتفل نحن بمأتم أو جناز ؟!

(حلب) كمال الحريرى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾




الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٧ — ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — أول مارس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

صديق الكلاب

أقصوصة عراقية

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد [1] وسقانا ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ النار بأنامله وشيع ضرمها فى بقية الفحم ؛ ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبي الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبماً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر إليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهى فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال : الحمد لله ما ذكرت على فقرى حياة البر [2] مذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلاً كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لأن سروره كان فى أن يتحدث وتسمع . وذهب به شيء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ؛ لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر تقرير العالم

قص علىّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم . وما كان أسرنى وأسرك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما أمكنتنى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى

* * *

كان فى بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تمتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن دار السلام وفروق إلا أنهما بلدان فى وطن واحد . والولدان جيلان باران يكبر الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلاً مجملاً لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث !

فهو يحذف ما يزعمه فضولا ويسير قدماً إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول إن الغلام

---

[1] عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وأنا ببغداد [2] يريد الصحراء

كان عمره اثني عشر ربيعاً حينما صحب خاله إلى الأستانة . والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه، أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك يجهله راوي الحديث ، فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم في إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع في غمار المدينة الصاخبة يداور الأمور ويتلمس المكاسب ؛ ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب الأناضول ، حيناً في خدمة الجيش ، وحيناً في طلب العيش ، حتى انقطع عِلمُ ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الأخطار في كل فج ، ويصارع الأقدار في كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولأسرته خفض العيش في ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وا أسفاه ربيعه قد أدبر وربعه قد أقفر وحلمه قد تبدد ! فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى أُطفأ سراجهما في حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين ، وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الأمل ، فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ؛ ولكن شعوره بلذة العودة إلى الأرض التي أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبّل منها الروح ، والهواء الذي رف عليه بالصبا ، والماء الذي نضج قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التي براه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد ، قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به

عرف المحلة والدار بعد لأيٍ لطموس المعالم القديمة ؛ ثم قرع الباب بيد مرتجفة ، فإذا المالك الجديد يخرج إليه ! فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله : هنا كان مهبط نفسي فأين أبي ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي ؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة ؛ فقل لي بربك يا سيدي أين تحمّل بكل هؤلاء القدر ؟ . وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله . فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه . ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويعالج مضض الهموم ، حتى رأم الزمان والإيمان جروح صدره

***

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته ، فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم ؛ ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم . فاطمأن قلب الخطيب إلى رأي الخاطبة ؛ واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسُمي الصداق وعينت ليلة الزفاف

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال ، وأحس من ظرف ، وسمع من أدب ؛ فافتر في وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب العروسان أطراف السمر وشققا بينهما الحديث ، حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك) ، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة

بينهما ، فغضت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل فى وجهها ، وقالت فى صوت خافت متهافت من الخزى والخوف : « الحقيقة أن ليس بينى وبين هذا الرجل قرابة ! وإنما هو نبيل محسن آوانى وربانى بعدما فجعنى البين فى أخى ، والموت فى أبى ، وأنا يومئذ فى حدود الثانية عشرة . ثم تتابعت الأسئلة من الزوج ، وتسارعت الأجوبة من الزوجة ؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه ، واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ؛ وكانت هى كلما رأت منه ذلك نسبته إلى انخداعه فى أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر فى طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد قفّ شعره وانتفخ سَحره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاه ! وامصيبتاه ! لقد تزوجت أختى ! ... ثم خر مغشيا عليه . فلما ثاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعى ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لايلوى على شىء ولا يلتفت إلى أحد !

***

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك [1]) من قصره ، ثم هام فى الطرق الضيقة المتشابكة يسأل الرائح والغادى عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه التركى بعقابها ، وبالغ فى جرائرها وأعقابها . ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره فى جمع الخبز للكلاب الشوارد !

أذعن الخاطىء البرىء لحكم الفقيه الأحمق ونزل للزوجة الأخت عما يملك ، وارتدى طمراً من غليظ الكرباس ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفتات والخبز ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي فى الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام فى العراء وحوله من رِشدَادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً فى بغداد إلا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحمومتين غداءه .

ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب على رعيته عافية وربيع . فسمن هزيلها ، وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصُم بنباحها الليل ، وأصاب الناسَ من عضاضها وأمراضها شر كبير . فأقام فى ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الصوارى وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح

وفى ضحوة يوم من الأيام أولم الوالى لأسراه ولمية السفاح فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح . وجاء أبو الكلاب فرأى ألافه الخلصاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتملقن بعين ، ولا يبصبصن بذنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى ، صريع اليأس ، ولبث مكانه لايأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

الزيات

(١) فى الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه ، فلما نفذ القضاء على غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائماً تقوده ابنته انتيغون

صمت المهراجا أو ضيعة الهنود

للكاتبة ماري كوريلي
للأستاذ دريني خشبة

ماري كوريللي هي مؤلفة قصة أحزان الشيطان وغيرها من القصص الجميلة الرائعة التي تلتقي فيها ثلاث ثقافات عظيمة ، الانجليزية والفرنسية والايطالية ... فماري اسكتلندية بأمها، إيطالية بأبيها، فرنسية بتعليمها، إنجليزية بحياتها ... وكانت ترجو لو تكون موسيقية لو لم يغلب عليها الأدب ، ولو لم ينتزعها كيوبيد من ذراعي أبوللو ... وأقصوصة صمت المهراجا هذه من أروع الأقاصيص القصيرة التي تصور هول الاستعمار في الهند البريطانية

كانوا يدعونها « لوللي » قبل أن تصبح حرم الكولونل كلود أنسلي ، واسمها الحقيقي هو لورا إيجرتون .. وهي غنية واسعة الثراء ، تملك ضياعاً شاسعة في انجلترا ، وقصراً منيفاً في الهند . ولقد تركت شمس الهند سفعاً عجيباً على جبينها وفوق خديها كانت تستعين عليه بالدمام والمساحيق لتجمع فيه حمرة انجلترا وسمرة الهند ، فتكتسب به سحراً وفتنة ، ما دام الجمال قد بخل عليها بطابعه غير المجلوب ...

وكانت روحها وثابة خلابة مرحة ، وكانت هي طويلة ممشوقة ، ذات عينين عميقتين ، تختبىء في أغوارهما أبالسة وشياطين ... وكانت تبسم ، فتفتر عن ثناياها البيض اللامعة ، فلا يصعب على محدثها أن يستشف في القسمات المكوّرة حول فمها أفانين الخبث والدهاء ...

وكان زوجها الكولونل أصغر منها سناً ، ولكن كانت تبدو عليه بداوات تجعله يكبرها بسنوات وسنوات . وكان ذا جسم عظيم هرقلي ، وكان له وجه صارم الملامح ، إلا أنه كان أشبه بوجوه الفلاسفة منه بوجوه الجنود ، ولاسيما إذا جلس وحده في غرفته المنعزلة ينفث دخان لفافاته التي لا تنتهي ، فيحجب عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، ويوسع دائرة تأملاته ، ويجعلها تشمل الدنيا بأسرها .. فإذا قطعها عليه قادم وثب وثبة الهر في خفة ونشاط ، وبرقت من عينيه بوارق الجذل والسرور . وكان الناس يعجبون كيف رضيت لوللي أن تتزوج هذا الكولونل ، ولم يكونوا يعلمون أنها انتظرت الكفء الذي يتقدم إليها فينقذها من هذا المنوس الذي طال حتى أفزعها وأوهى جلدها . فلما تقدم إليها كلود رقص قلبها ، ورضيته على كره أو غير كره ، ورافقته إلى الهند

وقيدته بقيد ثقيل من الذهب ، فاشترت هذا القصر المشيد الذي يهزأ بقصور الأفيال ويسخر بما بني الراجوات ، ثم حشدت فيه الخدم والحشم بعد إذ أثثته بما تؤثث به بيوت الملوك ... وكان الكولونل يلمس الفارق الكبير بينه وبين زوجته الغنية فلا يجسر أن يؤاخذها فيما يؤاخذ فيه الرجال أزواجهم ، فهي تصادق من تشاء ، وتدعو إلى دارها من تشاء ، وتجلس إلى من تشاء ، وتشركه في الحفاوة بمن تدعو إذا شاءت ، وتهمله إن لم تشأ ... ولم لا تصنع

كل هذا وهي لا تكلفه قليلاً أو كثيراً مما يكلف الأزواج أزواجهم ، بل تترك له راتبه كله يتصرف فيه تصرف الراشد العاقل، فيشتري سجائره وينفق عن سعة بلا رقيب ، وله فوق هذا أن يملأ معدته بما تمتلىء به معدات الملوك ، وأن ينحط في مثل سررهم الناعمة الموضونة ، وأن يخدمه ولدان مخلدون كأمثال اللؤلؤ المكنون ... ! ليس له أن يعترض أساوب حياتها ، فهو رجل صناعته خارج المنزل ضابط في جيش الهند ، وفي داخله زوج ليس من مقاليد المنزل في يده كثير ولا قليل ، اللهم إلا هذه العلاقة الشرعية التي تفرضها السماء ، وبجيء وراء الأشياء كلها فيما بين كلود ولولي ، وفي حين تأتي أمام الأشياء كلها بين جميع الأزواج ... فهو إذن زوج دُمْية ! وهو كهذه الدُمى التي تتخذ في المعارض التجارية لعرض الملابس وأحدث الأزياء ، ولا يهم بعد هذا أنه دمية تتكلم وتأكل وتشرب وتنفث دخان اللفائف

وعرفت لولي مهراجا الإقليم المجاور في إحدى سهراتها ، فراعها منه حسن احتفاء الناس به ، ومنافسة بعضهم بعضاً في التقرب إليه ... وحسبت أول الأمر أنه ملق الجماهير يدفعها كالذباب نحو المهراجا ، ولكنه لم يلبث أن عظم في عينها حين سمعت إليه يتحدث بلسان انجليزي مبين ، وحين عرفت أنه تخرج في إحدى الجامعات الانجليزية بلندن ، وأنه فلكي عظيم من أكبر علماء الفلك ، وأن له في هذا العلم رسالة قيمة يعرفها علماء بني جنسها

وكانت تدعو إلى دارها أهل الجاه وذوي المكانة واليسار ممن تجمعهم وإياها الأندية والمراتع ، فدار في خلدها أن تدعو المهراجا الوجيه اللبق لا ليتناول الشاي في دارها فحسب ، بل ليقضي أياماً في قصرها الشاهق ضيفاً كريماً ... ولم ير المهراجا بأساً في أن يلبي دعوة لولي ، وأن يضرب لذلك ميعاداً موقوتاً ، وقد أثارت تلبيته الخيلاء في نفسها ... ولما كان أهل الخيلاء لا يكتفون بأن يحسوا الكبرياء في أعماقهم ، بل يحاولون بكل وسيلة أن يشعروا الناس بما يعزق أوداجهم من عُجْب وما يسكرهم من تيه ، فقد فكرت لولي في أن تدعو رفيقة صباها ادريانا زوجة الكابتن لومارشان ، من رجال جيش الهند أيضاً ، والذي يعسكر بفرقته في إحدى المدن القريبة.

ولم يكن لواحدة من صويحبات لولي هذا الأثر العميق في نفسها الذي أحدثته فيها الفتاة العجيبة ادريانا ، ذات العينين السحريتين ، والوجه الصغير الصارم ، والجسم الضامر الناحل ، والشعر الذهبي الجميل ... لقد كانوا يطلقون عليها اسم قصيدة كيتس الرائعة : « الحسناء التي لا تعرف الحنان ! » ، ولله ما كان أصدقهم في هذا ! فلقد كانت إدريانا صارمة في علاقاتها بكل من تعرف ، فلا تكاد تعرف أحداً حتى ترغمه على أن يحس أنها قائده الأعلى ، وأنه ينبغي أن يتخذها مَثَله ... وكان صويحباتها يدركن هذا ويشهدن لها به عن يد وهن صاغرات . فاذا تكلمت أصغين ، وإن اقترحت شيئاً لم يعارضن ، وإن تحدثن في مسألة وأبدت رأيها فهو رأي الجميع .

وكان ما يزال يتردد في سمع لولي وفي قلبها قول ادريانا في الرجل الذي تؤثر أن يكون زوجها : « إنه هو الرجل الذي يستحق حبها وإجلالها وطاعتها ... فهو بذلك ينبغي أن يكون فذاً في أخلاقه وفي جثمانه ، حتى ليكفي أن تنظر إليه النظرة فتمنحه

قلبها وعقلها وعبادتها ... » وكانت لولى لهذا السبب تصبو إلى أن تشهد بعينيها إلى أى حد حققت الأيام أحلام صديقتها .. فاعتزمت لذلك أن تدعوها لتقضى أياماً فى قصرها فى نفس الوقت الذى يحل فيه المهراجا ضيفاً عليها ، فهى بذلك تشهدها كيف ينزل فى دارها الملوك والأقيال إخواناً وأخداناً ، ثم ترى ماذا كان من هذه الشخصية الساحرة التى كانت فى صباها تجذب جميع الرفاق وتهيمن عليهم وتخضعهم لآرائها . وكان أكثر ما تصبو إليه لولى هو أن تشهد هذا الزوج العسكرى ، لترى إن كان هو الرجل الذى يستحق أن تمنحه المرأة قلبها وعقلها وعبادتها !

* * *

وبينما كانت لولى تنمق الأزهار فى الغرف ، وتأمر الخدم بتغيير بعض ما نظموا ؛ وبينما كانت تمنى كل العناية بجناح المهراجا الذى حرصت أن يكون بعيداً عن الجناح الذى هيأته لصيفيها الآخرين ، إذا بأدريانا وزوجها يدقان الباب ويقتحمان البهو ، ويتسلمان حقائبهما من الحمالين ...

— مرحباً مرحباً إدريانا ...

— مرحباً لولى العزيزة ، كيف أنت يالورا .. ؟

— أوه ! لورا ... إن أحداً لم يعد ينادينى بهذا الاسم الحبيب !

— زوجى ... لومارشان ...

— مرحباً كابتن ...

— مرحباً بك ياصديقة زوجتى ... كم كنت أتوق أنا وإدريانا للقياك !

— أنا سعيدة بكما ... سعيدة ... سعيدة جداً ... أوه إدريانا ... عمر بأكمله منذ افترقنا... ها أنت ذى ما تزالين جميلة ... عيناك ! أوه ! عيناك يا إدريانا ما تزالان سحريتين ! وشعرك ما يزال يلق أضواء الذهب كما كان فى الصبا ... إنك ما تزالين طفلة كما كنت ... ولكنك أيضاً طفلة هائلة ... سأدعو لكما كلود ... كلود ! كلود !

وأقبل كلود ليؤدى وظيفة الزوج ، فقالت لولى : « زوجى الكولونل كلود ... هلم يا كلود... ها هو أخوك لومارشان ... وها هى صديقتى إدريانا التى طالما حدثتك عنها » ... وهش كلود على غير عادته وبش ، وجلس يحدث الضيفين عن سفرتهما الطويلة ، ويحدث نفسه عن الغادة الصغيرة الفاتنة ذات العينين السحريتين ، الجالسة أمامه ... ثم عن هذا الحيوان زوجها ، ذى الشاربين الغليظين المتصبين كشاربى القط ، وذى الرقبة المنتفخة كأنها رقبة العجل ... !

وجلسوا هنيهة يتحدثون ... وبدأت لولى تقرأ سطور مأساة مكتمة فى عينى صديقتها إدريانا تلوح مناظر منها فوق المسرح الشاحب الحزين الذى تموج ستوره فوق جبينها الشاكى ، وفى ثنايا شعرها السبطر الجميل... وجاء الشاى فتشقق الحديث حول أكوابه ، وكانت نبرات الأسى ترن فى فم إدريانا ، فما كادوا يفرغون من شايهم حتى نهضت لولى ، ونهضت فى إثرها صديقتها ، وانطلقتا إلى غرفة بعيدة فى الجناح الآخر من القصر ليتحدثا وحدهما وليتحدث زوجاهما فيما يليق بهما ...

— إدريانا ... ألست سعيدة ؟ أعذرينى فى أن أسألك عن وجوم كانت تتعثر فى أذياله كلماتك ...

— والله يا أختاه ... لا ... ولكن ... هذا لا يهم ...

— لا يهم ؟ وكيف ؟

— إى والله ... وله ؟ هل وجد الناس فى هذه الدنيا ليسعدوا ؟ أبداً ! لقد كانت أحلاماً وسرعان ما ذوت ؛ وكانت مُنًى وسرعان ماسقطت كأوراق الخريف ! هذه هى الحياة دائماً إذا ابتسمت وتبرجت فى الربيع ، فلا بد أن تتجرد من غرورها فى الشتاء ... وتلك هى مأساة الكل ياأختاه ... ومع هذا فأنا لا أشكو من أوضارها شيئاً ...

— ولكن زواجك كان ثمرة شهية من ثمار الحب يا إدريانا !

— حقاً ... لقد كان ... ولكنى كنت أرجو أن يكون حباً طويلاً سرمدياً كحب القديسين لله ! وا أسفاه على الأحلام اللذيذة التى كانت ثمرة خيال الشباب العريض ، وقصص الحب الواسع ... وأنت يا لوللى ما خطبك ؟ ألم يكن زواجك ثمرة من ثماره المرة ؟

— أنا ؟ كلا أيتها الحبيبة : لقد تزوجت لأنه كان يجب أن أتزوج . لقد طال عنوسى ، وكنت أتمنى زوجاً رزيناً محترماً ، فلما وجدته وضعت مخالبى فى عنقه ! »

— آه أيتها العزيزة ... أنتِ سعيدة إذن ! أما أنا ... فلم أسعد بمثل هذا الرجل !

— آسفة كثيراً يا أختاه !

— لا عليك ... لا يهم ... لا تأسفى ! أنت تعلمين يا لوللى كم كانت أحلامى خُلبًا كواذب ... لا ضير ، لقد دفنتها جميعاً ، وإنى لأقف بقبرها أحياناً أندبها وأبكيها . ولقد عرفت الحياة الآن . ولقد عولت على أن أحياها كما عرفتها مجردة عن بهارجها بعيدة من سرابها الذى يخفى حقيقتها عن العالمين ! وكانت تتكلم وقد جلست أمام المرآة الكبيرة تصف شعرها وتكوّمه ، وكان السحر كله ينشر ألغازه من فمها ، فقالت لوللى :

— لله كم أنت جميلة يا إدريانا ! مهما قاسيت فلك دائماً سحرك وروعة لفتاتك !

— حسبى هذا من دنياى الخبيثة يا لوللى ! حسبى ألا أصبح قبيحة شائهة فأفقد مع شبابى شعورى بكرامتى ... ولكنك يا أختاه تذكرين جمالى دائماً ، ولا تذكرين أنك كنت زهرتنا جميعاً فى صباك ! أنا ؟ أنا جميلة ؟ !

— لا ... لم أرد أن أقول هذا ، ولكنك كما كنت دائماً ... أنت المخلوق الفاتن الذى لا يمكن وصفه ، ولا تزالين إلى اليوم هذا المخلوق نفسه ! لقد افتتن أنطونيو بكليوباترة ، وكليوباترة هى مخلوق فاتن مثلك ، وفى الدنيا اليوم حسان فواتن مثلها ، بيد أنى لا أحسب أن فيها من هو مثل أنطونيو .. إنك لغز يا إدريانا ... وليس أحمق من الرجال فى استكناه ألغاز الجمال ! »

فتبسمت إدريانا ابتسامة موجعة وقالت : « أنا ؟ أنا لغز يا لورا ؟ أبداً ... بل أنا امرأة كسيرة القلب مهيضة الجناح ، فقدت أحسن أمانيها وأعز مُثلها ، وتحاول ما وسعها أن تكتم فى أعماقها خيبتها وأحزانها وسر بلواها ... فإذا باحت به لك ، فهى واثقة أنها تنقل سرها من قلبها ... إلى ... قلبها ... أى قلبك . ولقد شكوت إليك بثى ، وما زال لى رجاء إليك ... فلقد ذكرت لك أن زوجى ليس له ما لزوجك من وقار واحترام ... إنه ... رجل ... لا يملك حلمه إذا شرب ، بل إنه ليفقد توازنه ، فيبدو حيواناً خبيثاً ، فهل تعديننى ألا تشجعيه على كؤوسه يا لوللى ! إننى يؤلمنى أن أفضح فى آلامى

فتكون ملهاة لنيرى ... فهل أنت فاعلة ؟ ...

— أوه إدريانا ! سأكلم كلود فى هذا ، إن لم يحزنك أن أفعل ... ولكنك تتركين نفسك فريسة للهموم مع ما فى ذلك من الخوف عليك يا أختاه . فهل تعدينني أن تنسىْ أشجانك الآن ...

— أجل ... أعدك ... وسأكتم السر الهائل الذى يعزق قلبى ... سأكتمه ...

— وأى سر هائل يا إدريانا ...

— أجل .. لقد رزقت غلاماً منذ عامين

— بالله ! وهل فى ذاك ما يحزن يا أختاه ؟

— وكيف ، لقد مات منذ ثلاثة أشهر !

— مسكينة ! هذا محزن حقاً ...

— لا ... إنه لم يحزنى أن مات طفلى ، برغم عينيه اللتين ماتفتآن تشعان الحب فى قلبى من أغوار ظلمات القبر ... لقد فرحت لموته ، لأنى خفت أن ينشأ نشأة أبيه ! ...

— إدريانا ... حسبك إذن ... إنك تحرقين بقية نفسك يا حبيبتى ... لقد قدمت إلىّ لترفهى عنك بعض هذه الأحزان ، فابتسمى للحياة وانسىْ بلواك ... أشرقى أيتها العزيزة وسلّى فيما مضى لمن هو أرحم بى وبك وبالناس ... ويسرنى أن أذكر لك أن ضيفاً عزيزاً سيغشى منزلنا الليلة وسيتناول العشاء معك ، فهل تأذنين لى فى أن أذهب فأصاح من شأنى يا إدريانا ؟

— تفضلى ... تفضلى يا لورا ... وأرجو ألا تستأنى علىّ

وانطلقت لولى ... لكنها عادت فى مثل اللمح لتقول : « أوهِ ! لقد نسيت أن أذكر لك أن ضيفنا العزيز هو أحد أصحاب السمو ... هو مهراجا الإقليم المجاور ، وهو رجل مثقف يجيد الانجليزية ، ويلبس ... آه يا إدريانا ... يلبس كنزاً من الجواهر واللآلىء ... أرجو أن تسعدى بلقائه كثيراً ، وأرجو أن يسرك لقاء حاشيته العظيمة ..

انطلقت ثانية ، فلقيت لومارشان يسير بين يدى زوجها إلى غرفته ليبدل ملابسه ، فهتفت بكلود تقول : « كلود ... أرجو أن تأتى إلى غرفتى بعد أن ترى الكابتن غرفته ، فإن لى حديثاً معك »

وعاد كلود ليلاقى زوجته ، فوجدها تنتظره ثمة لتقول له : « كلود ! لشد ما يحزننى أن أخبرك أن ضيفنا لومارشان رجل عربيد ! إنه يشرب حتى يضيع صوابه ! » فيقول كلود فى ربكة وخجل : « لقد بدا لى أنه سكير كبير! » ثم ينظر فى الأرض ، فتقول له لولى : « كم أنا فخورة بك يا كلود ! كم أنا فخورة بك ! أبداً لم أرك تضع كأساً فى فمك » فتصطبغ وجنات كلود بحمرة الخجل الساذج ، فتقول له لولى : « إذن عليك ألا تمكنه من كأسٍ يحتسيها ! وإلا ... » وذعر كلود ، وخاف أن يكون ثمة نذير بعد (إلا) هذه ، ووصلت لولى حديثها ، فقالت ... « وإلا فانظر ماذا يكون من شأنه إذا غاب عن صوابه وأحدث شحناء بينه وبين إدريانا فى حضرة المهراجا ؟ ! » ... واطمأن الكولونل ، ووعدها ألا تصل يداه إلى قطرة واحدة من الخمر . وكافأته بأن وضعت له زهرة جميلة فى عروته ، فشكرها مستحيياً

***

وعجب الولدان المخلدون وهم يهيئون الخوان لم أمرت سيدتهن بألا يضعوا قوارير الخمر أكوابها ، وكانوا يضعون منها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ...

ولكنهم كانوا يحيون فى مدينة فاضلة من هـذا القصر المنيف ، فلم يبد العجب فى وجوههم وهم يجيئون ويروحون حاملين صنوف الآكال وأكواب الماء الزلال ... ! ولم يكونوا ينظرون إلى المهراجا العظيم بقدر مايدمنون النظر فى هذه الملكة الإغريقية الساحرة : إدريانا ، وهى جالسة وسط الجماعة ماتنبس إلا قليلاً ، وقد عقصت شعرها الجميل فوق رأسها كأنها أفروديت !! وفى الحق ... لقد كانت إدريانا فتنة المجلس ... ولم تشبع عيون المهراجا والحاشية من النظر إليها بقدر ما شبعت بطونهم من الآكال الفاخرة العجيبة ... وكانت عيناها الواسعتان السحريتان موضع فتنة القوم ولا سيما الشباب ذوى الأمانى والأطماع ...

ومضت أيام ، ولومارشان محافظ على وقاره الذى دُبر له أحسن تدبير وأبدعه ، حتى أحست إدريانا أن جانباً من مأساتها ينجاب عن قلبها ، وبدأت تشعر بطرف من السعادة التى افتقدتها طويلاً فلم تظفر بها ... وسرها أن زوجها استعاض عن نشوة الكأس بحميا الرياضة ، وكان رياضيًّا بارعاً ، فكان يستيقظ فى البكور فيركب جواده ، ثم يمضى إلى اللعب فيبارى المهراجا فى لعبة الأكر ...

ولم يكن يعلم أحد بالنار التى تأججت فى قلب المهراجا ، والتى أورت لهيبها عينا إدريانا ... لقد ظلت هذه النار المقدسة سرًّا هائلاً يؤرق المهراجا العاشق ، ولا يستطيع أن يبوح به لأحد إلا للعينين الحبيبتين اللتين كانتا تنظران إليه فى تيه وعجب ، وهو يقص غرائب أخباره عن أساطير الهند ، ومشاهداته العجيبة خلال تلسكوبه فى أديم السماء وما وقع له فى الأدغال من ملاحم بينه وبين الفهود والنمور والفيلة ... لقد كان يكتم حبه ويقاسى منه ما لا قدرة لجبل على حمله ، وكان يعلم أن النجوم التى لا يراها بالعين المجردة هى أقرب من إدريانا المتزوجة على قربها الشديد منه ... ولكن حبه كان يغلى فى قلبه ، فيفور دمه الشرقى ، ولا يجد محيصاً من أن يبرد تحت ثلوج القنوط التى كانت تصدمه ... لأنه محال أن يجزى عن حبه بشىء مهما كان حبه عظيماً طاهراً ...

لقد سقطت أزاهير كانت تحملها إدريانا مرة ، فأسرع المهراجا العظيم بكل ما عليه من لآلئ وحلى فانحنى عليها ، وحملها للملكة ... ملكة قلبه ... مع ما فى هـذا من وشك افتضاحه ... بيد أنه لم يبال ، بل تمنى لو استطاع فغمر الأزاهير بالقبل وهو يقدمها لسالبة لبه ...

وحان موعد الأوبة ... وانقضت الفترة السعيدة ... وتصرمت ليالى الأحلام ... وكان غداء فاخراً غداء الوداع المؤلم الذى أعدته لوللى لأضيافها ... ولم يكن المهراجا قد برح غرفته بعد ، وكان بابها مفتوحاً قليلاً ، فشهدها تنزل على الدرج وحدها ، فخفق قلبه فى شدة وعنف ، وجعل يحلم — وهو واقف يترنح وينتفض — بهذا الملاك الفاتن والجمال العجيب ، وهذا الشعر الذهبى الذى أرسلته إدريانا يتغدودن فوق كتفيها ، وهذا الفم الساحر القرمزى الذى خلق للقبل والحب ، وهذا الجسم الفينان الذى خلق لجنة كاملة من الهوى ، وهذا الصدر العاجى الذى خلق للضم والعناق ... ... ثم أوشك المهراجا المسكين أن يهبط وراء معبودته ، لولا أن اغرورقت عيناه فجأة ... فارتد صعقاً ليكفكف عبراته ، وانحط على أريكة قريبة وجعل

يتمتم ويقول : « وا أسفاه ! الجنس ! الدين ! القانون ! كل أولئك فواصل تحول بين الرجل والمرأة أشد مما يحول بينهما الله ... وأمنا الطبيعة ... ! »
وطفق يبكى كالطفل ... ولا يد له فى شىء ...

* * *

وآب المهراجا إلى ملكه ... وجلس القوم إلى غدائهم مرة ، وبرزت بنت الشيطان على الخوان من جديد إذ لم يعد داع إلى تحريمها بعد إذ ذهب المهراجا. وجلس كلود بجانب لومارشان يردعه ويكبحه ، ولا يسمح له أن يضيع حلمه ويذهب وقاره بين الكأس والطاس ... ثم نهض النسوة ، وذهبن إلى الصالة الكبرى ، ليأخذن فى رقصة جميلة اقترحتها إحداهن ... ولم يمض وقت طويل حتى سمعن ضجة دخل على أثرها المهراجا المتبول بكل جواهره ولآلئه تحف به حاشيته العظيمة العجيبة ... وكان بعض خدمه يحمل عرشه المصنوع من الذهب الخالص ، فوضعوه لسموه فى ركن من أركان البهو ، حيث استوى عليه ، وراح يتفرس فى الراقصات ، حتى إذا رأى إدريانا سمرت عيناه فى طيفها الأثيرى ، ولم تريما عنها ... ثم أقبل الرجال فحيوا المهراجا وحياهم ولم يكن غريباً أن يرتبك كلود ... ويسقط فى يديه
ونهض المهراجا من عرشه ، ولم يبال أن يقترب من الراقصات ليملأ قلبه وعينيه من ملاكه الحبيب ، وطمع أن تمسه مصادفة بطرف ثوبها ، أو بالوردة الكبيرة الحمراء التى تزين صدرها ... أو أن تلقى عليه ظلال شعرها الذهبى ، أو أن ترمقه بنظرة من عينيها السحريتين ... وما كاد يفعل حتى رأى ضابطاً صغيراً يدنو من أدريانا ، ويسر إليها بكلمات فيمتقع لهن وجهها ، وتغادر المرقص من فورها مع الضابط ... ولا يبالى المهراجا أن ينطلق وراءهما ليكتشف السر ، ولا يبالى أيضاً أن تمتد إليه الأبصار من كل صوب لترى ما ذا يريد ... وتدخل إدريانا غرفة الطعام مع الضابط الصغير فترى زوجها ثملاً نشوان ... وقد شرب قارورة بأكملها من الخمر التى تسكر كأس منها أضخم فيل من فيلة الهند ، وأوشك أن يأتى على زجاجة أخرى ... وتجد زوجها المسكين قد ألقى ذراعيه ورأسه على الخوان ، وأخذ فى شخير منكر ...
وتذهل إدريانا ... وتشير إلى الضابط فيتقدم إلى زوجها فيحتمله ، بينا زوجته تقول :
— رتشارد ! أتنام هنا ؟ هذا لا يليق ! ما ذا تقول لولى وماذا يقول زوجها وماذا يقول الضيوف؟ قم ! استيقظ ... إصعد فنم فى غرفتك لتستريح ...
ويقول الضابط الصغير : « هلم يا كابتن ... إصح ... هذا لا ينبغى ! ... »
ويصحو الكابتن الثمل ... ولكنه بدلا من أن يصعد لينام ... يقف كالشيطان ويلكم زوجته التاعسة بقبضته القوية الجبارة لكمة ... تلقيها على الأرض ... مغشياً عليها ...
وهنا يغلى الدم فى رأس المهراجا ، وينقض كالصاعقة على الزوج البهيم ، فيقذف به على الأرض وينشب فى عنقه أظفاره ، ويوشك أن يزهق روحه ويخمد أنفاسه ... ويجرى الضابط ، ويقبل مع كلود ، كلود الدمية ... الذى ينقض بدوره على المهراجا فيحتمله بين ذراعيه ، وينقذ الرجل منه ، ويقول : « ما ذا ؟ ألا ترى إليه ثملا يا صاحب السمو ؟ كيف تقاتل رجلا لا يملك أن يدافع عن نفسه ؟ إنك لست جباناً ولا سفاحاً ! ... » ثم أمر الضابط أن

يستدعى زوجته لولى ... ونظر بعد ذلك إلى المهراجا بكل ما فى عينيه من نبل عسكرى ، وأنشأ يقول : « إنك ضيفى يا صاحب السمو ، فاغفر لى ما صنعت يداى معك ... بيد أننى عجبت كيف تعارك ثملاً ! » فقال المهراجا وعيناه تتقدان غضباً : « لقد قتل الحيوان زوجته ! » فقال كلود : « عفواً ياصاحب السمو ! إنك أحد رعايا الإمبراطورية ، وليس هذا من شأنك ! وليس لك أن تحمى إنجليزية ولا سيما من يد زوجها ... معذرة ... إنك لا شك تعرف كل ذلك تمام المعرفة ... ووجم المهراجا قليلا ، لكنه انحنى انحناءة خفيفة ، ثم غادر البهو وعاصفة من الألم تزعزع قلبه وتشتعل في عينيه ... ثم أقبلت لولى فانحنت على صديقتها ورفعتها من فوق الأرض ولم يملك المهراجا أن ينظر خلال الباب ليرى إلى وجه معبودته الأصفر المتقع ، ووردتها الذابلة المنتثرة

وحملت إدريانا إلى غرفتها وهى لا تكاد تعى ، فباتت ليلة ليلاء طويلة الآلام موصولة الأحزان ، ثم أصبحت وبها من العلة ما يوشك أن يقضى عليها

وانطلق كلود إلى حجرة لومارشان فأيقظه ، وقال له وهو عابس ثائر :

— كابتن لومارشان ! زوجتك تشكو من علة شديدة ! ... لقد سلكت أمس سلوكا شائناً لا يليق بجندى بريطانى ... إحمد الله أنك لست فى فرقتى ! يا للعار ! إنجليزى يضرب زوجته ! وأمام مهراجا ؟ فماذا يظن الرجل بمدنيتنا ؟ لقد كاد يقتلك لولا أن أنقذتك من قبضتيه ! على أنك تعلم أنه ضيفنا وهو ذاهب اليوم ، وقد كلنى فى أمرك ، وهو يريد أن يراك قبل أن يرحل ! »

— لا ... لا شأن لى به ... ولن ألقاه حتى ينزل به القضاء ما يستأهله ... الوغد !

— بل أنت الذى يُنزل بك القضاء ما تستأهله إن أبيت ! على أنه يبدو لى أنك تخشى أن تلقاه ... وإنى أقسم لك بربى أننى لن أسمح لبريطانى أن يبدو أمام الهنود جباناً كما تريد أن تفعل

وبرّق الكولونل عينيه ، وراح يفتل سُبالَىْ شاربه ، وفى صدره ثورة من الغيظ جامحة ... فقال الكابتن :

— حسن ... أين هو هذا المهراجا ؟

— هو فى الجناح الخاص به ... وحده ... ولا بأس إذن من أن أخبرك أنه يريد أن يعتذر لك

فما سمعها الكابتن حتى ضحك وبدت نواجذه ، ونهض من فوره للقاء المهراجا ... ونظر إليه الكولونل نظر المغيظ المستهزئ ، وجمجم فى سره يقول : « يا وقح ! مسكينة تلك الطفلة البائسة إدريانا ! مسكينة فى مُثلها العليا التى تمخضت عن هذا الفسل ! ... تعالى يا لورا فاشهدى النموذج العجيب الذى كنت تشرئبين إليه ، وتتخذينه صنما لأحلامك ! هلمى لتحمدى الله على ما وهبك ! » .

وفى الحق لقد كانت فرصة عظيمة للكولونل الذى كان يستكين لزوجه ، برغم ما كان يشعر به من الاستخذاء فى صميمه بسبب ذلك ، أن يفكر فى عجب لولى وكبريائها ... وها هو ذا قد جلس يبتسم لهذه الفكرة ، وينظر إليها تتأرجح خلل الدخان الذى يصّاعد من لفافته ، وينقذف من أنفه وشفتيه كما ينقذف البخار من محبس القطار !

واستأذن الخادم سيده المهراجا للكابتن فأذن له ، وكان هذا يجلس على كرسي كبير ، ويطل من نافذة مكشوفة على الحديقة اليانعة . فلما أحس

بالانجليزى خلفه أومأ برأسه إيماءة هينة ، ولم يقف ليحييه ... فارتبك لومارشان ولم يدر ماذا يفعل ، ثم بحث عن كرسى ليجلس عليه فلم يجد ، فزاد ارتباكه وتضاعفت حيرته ... وكان فوق منضدة الوسط طاس به أزهار ناضرة تملأ هواء الغرفة بعبقها العطرى ، فانحنى الجندى فوقها يتشممها ، ويدفن فيها حياءه . وفى كل خطفة عين يتجه ببصره نحو المهراجا ... الذي تركه هكذا دقيقتين أو نحوها، ثم التفت إليه فجأة مستديراً فوق كرسيه وقال :

أيها الكابتن لومارشان ! أقدم إليك اعتذارى عما فرط منى من مهاجمتك أمس إذ أنت فى غير وعيك ... وذلك لأننا نحن الهنود ، لا سيما من هم فى طبقتى لم نعتد شرب الخمر ، لذلك لا نعلم من عقابيلها فى ألبابكم شيئاً ... وقد فطنت إلى غلطتى بعد أن عرفت ذلك ، ولهذا فقط أعتذر »

وهنا ، بلع الكابتن ريقه ، ورُد إليه قليل من ذهنه المُشَرّد ؛ ثم وصل المهراجا كلامه فى نفس اللهجة التي ابتدأ ، وبنفس الأسلوب : « إيه يا كابتن؟ هل تطلب ترضيةً أخرى ؟ وهل بحسبك ما اعتذرت به لك ؟ » وكأنما فاء الانجليزى إلى خُيَلائه فتذكر أن محدثه الهندى ، وإن يكن راجا عظيماً ، إن هو إلا أحد العبيد الذين لا يصح أن يُساموا الشرف الانجليزى ممثلاً فى أحقر جنودهم ؛ فأخذ يفتل سُبَالَىْ شاربه ، ثم قال بأنف شامخ ، وخدّ مُصَعَّر : « أجل ، قبلت اعتذارك ! » وطارت العبوسة الهائلة التى كانت تُرنّق فوق جبين الراجا القطب ، ولمع فى عينيه برق خاطف ، وهتف بالانجليزى المتعجرف يقول : « والآن يا كابتن لومارشان ! ها نحن هنا ندّان فريدان ، فهل لديك الشجاعة الكافية التى تلقانى بها كخصم شريف بوده لو حطم رأسك ، وزلزل كيانك ، لينتقم لهذه المخلوقة الضعيفة الحسناء ، التى لطمتها فى موضع العزة ، ومكان الكرامة الإنسانية ، فانطرحت فوق الأرض تتلوّى وتئن وتتوجع ، ليلة أمس ؟... ما لك تنتفض هكذا ؟ ... آه ... إنها زوجتك ! وأنت إنجليزى ، وهى إنجليزية ، ولا حق لهندى مثلى فى التدخل بينكما ، بَلْهَ حماية زوجتك منك ؛ وهذا هو قانونكم ! » ثم أرسل الراجا آهة عميقة هائلة ، مازالت تعصف بالكابتن الواجم حتى عرف أنها انطلاقة الحب ... ولكن الكابتن لم يُحر جواباً مع ذاك ، بل ظل بارداً كالثلج ، جامداً كالحديد ؛ وانطلقت ألف فكرة تهجس فى قلب المهراجا ، فهب من كرسيه العاجى ، وطفق ينتفض ويقول : « أواه ! أواه ! أيها الانجليزى المتعجرف الصّلف لو استطعت أن اشترى منك زوجتك الجميلة الرائعة لأصونها عن البهيمية المتأصلة فيك ! إذن لنزلت لك عن نصف أملاكى وجواهرى !... إننى لو استطعت أن أضمها إلىّ ، وأخبئها فى قصورى ، بدافع الرحمة والإنسانية ، لملأتم الدنيا صراخاً وعويلا ، وجعلتم تذموننا وتشتموننا ، وتقولون كدأبكم ... الهنود وحوش ... الهنود غير قابلين للتمدين ، يجب أن يظل الانجليز إلى الأبد سادة الهند ... ! وا أسفاه ! إننا شعب مغلوب على أمره ، وأنتم أيها الانجليز تحتقروننا ... ولكننا نستحق ، فقد ألهتنا صغائرنا عنكم ، ورسفنا فى قيود الذلة التى وضعتموها فى أرجلنا خلاخيل من ذهب أجيالاً بعد أجيال ، ودفنّا حكمتنا بأيدينا فألهيتمونا ببعث البدع والضلالات ،

وتفشية الشعوذات والخرافات ، وقلتم إنهـا دين الشعب ، ومذهب الغالبية ، فأنتم لها حماةٌ وعنها ذادة ، وبذا ضعفت الهنـد ، فأنتم تحكمونهـا بضعفها ... ومن يدرى ؟ فقد تستيقظ الهند يوماً فتَسْحتَكم[1] وتقطع دابر الذين ظلموها منكم... ولست مع ذلك أنتقص من دولتكم ، فأمتكم أعظم الأمم ، وانجلترا سيدة العالم .. ولـكن مثلك هو من غير شك عار عليهـا ، ولطخة دنس فى مجدها ... ولم ذاك ؟ إنك وأمثالك تشترون البغايا الهنديات لتقضوا منهن أوطاراً لئيمة ، وتنسون نساءكم ، وتطّرحون زوجاتكم ... وليس بحسبكم هذا ، بل تفضحونهن بين الناس ، وبين الهنود ، كما فعلت بامرأتك أمس ! ... ولـكن مالى ولهذا كله ؟ وفيم بعثرة الـكلمات مع دنس مثلك ؟ لقد اعتذرت لك يا لومارشان ، وانتهى ما بيننا ، فهل تعدنى قبل أن نفترق إلى الأبد ألا تهين زوجك على الصورة التى رأيت منك أمس ! إنها جميلة أيها الرجل ، وهي بتدليلك لها أولى ، وبمحبتك واحترامك أجدر ، فلم تعاملها تلك المعاملة التى تجعلها تأسف أشد الأسف على أن تزوّجتك ؟ الحق أنه لا شأن لى فى كل ذلك ... ولـكن ... إنس ما بيننا الآن من فروق ··· إنس أننى هنـدى لا شأن لى ، وأنك إنجليزى لك شأن أى شأن ... إنس الجنس ، إنس الديانة ، إنس النّعرة والعصبية ··· إنس كل أولئك يا لومارشان ··· واذكر أننا من صنع إلـه واحد سرمدى أحسن كل شيء خلقه ··· إذكر هذا فقط حين أطلب منك أن تعدنى وعد حر جدير بشرف الجنود ، أنك لن تعود إلى مثلها ! ! »

[1] تستأصلكم

وكان المهراجا يتكلم فى طلاقة ويتدفق فى بيان ساحر ممتلىءٍ بحرارة الإنسانية والمحبة . ولما انتهى من حديثه بسط يده إلى الـكابتن ليقاسمه ، ولـكن الـكابتن صعر خده ، وشمخ بأنفه ، وضم ذراعيه إلى صدره فى أنفة وكبرياء وقال :

— « ألا ما أجل ما تطلب أيها الهندى ! من أنت حتى تطلب ذلك إلىّ ؟ »

فصرخ المهراجا صرخة مدوية ثم قال : « إنك مسيحى ! وطالمـا ذكروا لى أن المسيحية هى دين الإخلاص الصحيح وملة المحبة والسلام والنقاء··· على أن لنا نحن الهنود ملة أخرى غير المسيحية ، وفى ملتنا أن من عاهد على شيء وحلف عليه ، فليس إلا أن تبر يمينه ، فلا يتحلل منها ، أو يرد موارد الهلاك ! أفليس فى ملتكم شيء من هذا ؟ »

وتبسم الـكابتن ابتسامة حمقاء جاهـلة ، ثم نفض تراباً من كتفيه ، وقال : « لا ··· » وما كاد يقولها حتى امتشق المهراجا خنجراً هائلاً من حزامه وشهره بشدة وحنق ، ورفع يده ليغمده فى صدر الـكافر الذى أراد أن ينكر فضيلة المسيحية غطرسة وعناداً ··· ولـكن ··· لقد فر الجبان أرشق ما تفر النعامة من مطارديها فى الصحراء ··· وأغلق الباب دونه ··· فابتسم المهراجا وأغمد الخنجر ، وقال وهو يجلس على كرسيه فى صوت متهدج : « إذهب أيها اللعين ! »

وبعد ساعتين كان المهراجا يسـتأذن مضيفيه الـكريمين لوللى وزوجهـا فى الانصراف ، وقد ودع بما يليق به من حفاوة وتبجيل ، وازدحم الجميع حوله يُحيون ويُبَـيّون ··· إلا ··· إدريانا ··· التى بلغها أن المهراجا يوشك أن يرحل ، فنهضت من

سريرها ضعيفة مزهوتة ، وأغلقت باب غرفتها ، ثم قصـدت إلى نافذة تطل على الخارج من القصر وحديقته الفيحاء ، ففتحت أحد مصاريعها ، ثم وقفت تتنظر ، حتى إذا مر المهراجا ، اغرورقت عيناها فجأة ... وخفق قلبها بشدة ، حينما اتجه بكل وجهه وعينيه وروحه ناحية نافذتها . فلما رآها ، ولمح الدمع ينهمر على خديها الشاحبين ، زلزل قلبه وارتجفت أعصابه ، وعرف السر الرائع اللذيذ ... وانتقلت من عينيها إلى فؤاده أولى رسائل حبها ... أو ... شكرها ... أو إعجابها !

* * *

ولكن ماذا يجدى المهراجا أنها أعجبت به ... أو أنها أحبته ؟ ! لقد فسر هو القضية ، وساق كل كل براهينها ! فهو هندى ، وهى إنجليزية ... وهو برهمى ، وهى مسـيحية ... وهو عزب ، وهى متزوجة ... وهو عبـد برغم اللآلئ الثمينة التى تزين صدره ، وتثقل كاهله ... وهى حرة لأنها من نساء الإمبراطورية ... فأى مطمع له فيها ..؟ لا شيء !!

ما كان أبدع البدر الهندي فى هـذه الليلة ! وما كان أعبق الهواء البرهمى بشذى النوار الجميل المتد فوق سطح قصر المهراجا ! وما كان أشبه هذا السطح الجميل بحدائق بابل المعلقة : وما كان أشبه القمر السافر الساحر بقنديل الزيت معلقا فى العلو وسط قبـة السماء ، وهو يترنح فى الأثير كالسائح الكسول الذى أعياه المسير عبر الصحراء ! لقد كان يغمض أحياناً ، ثم يصحو ، ثم يغمض كأنه الحبيب الذى يفتّر عينيه وما فيهما من نعاس ! لقد كان المهراجا العاشق يجلس وحـده تحت هذا الكون المادىُّ ، وإلى جانبه تلسكوبه الكبير الضخم ، وقد انبطح تحته يقلب عينيـه فى العوالم والدنى المتنائيـة التى لا تتناهى ... ولا يزعجه أى شىءٌ حوله ... فقد سكن كل شىءٌ ، واطمأن كل شيء ! وليس شىءٌ يلفت النظر إلا هـذه العمامة الكبيرة التى جعلت ماستها الثمينة تعكس أضواء القمر والنجوم ، وإلا هذه العقيقة الحمراء كالدم تتألق فى خاتمه ... وهكذا جلس المهراجا يفكر فى أسمى ما يفكر فيه البشر ... فى الحب ... ولكن فى أسلوب ليس كهذا الأسلوب الذى يفكر به الناس ... ثم جعل يتمتم فجأة ويقول :

— ينبغى ألا أخفى هذا الشىءُ العظيم عن نفسى ! حقاً إنه ذنب كبير ، ونقيصة أى نقيصة ، ولكنه مع ذلك شرف وجلال ومجد ! إنه ذنب ووزر أن أحب حسناء كان لا ينبغى أن يعلق بها قلبي هكذا وعلى هذه الصورة . لقد مزجتها بدمي وروحى ، وجعلتها القديس الذى يخفق بالحياة بين جنبي ؛ بيد أنه شرف ومجد وجلال أن أموت بهذا الحب ، فأحبها إلى الأبد ، وسيقتل الموت كل ما فى ولعى بها من دنس ... لقد فطن زوجها إلى ما بيننا وربما أخذها به . ولقد لمحت هذا فى جبينه القطب واستوضحته فى عينيه المغيظتين . فإذا فعل فستحزن إدريانا ، وسأكون أنا الذى تسببت لها فى هذا الغم الذى يشبه الفضيحة ! فكيف أحتمل الحياة مع هذا ؟ وأنا إذا عشت فسيظل غرامي بها مختلطاً بدمى ، ورغبتى فيها ناشبة أظفارها في قلبي ، وهواها سارياً فى أنفاسى . وسيكون فى ذلك كله إيلامها ، وتوجعها ؛ أما إذا مت فلسوف تستعظم حبي ؛ وقد تبكي مرة من أجلى ، فتكون دموعها ملائكة رحمة لى ، تقف

في الهواء لترفرف حول رمادى ! وفضلاً عن ذاك فالحياة الحب ، وهى بدونه موت بغيض ، وإذا حييت فلا بد أن أذكرها دائماً ··· أذكر ماستى الكبرى.. زنبقتى العزيزة البيضاء ! وسأذكرها دائماً فى ملكية زوجها الظالم الذى لا يستحقها ··· وسيكون فى كل ذلك آثام وأوزار لى ··· فلم لا أتخلص من هذا ، وأفكر فيها فى مكان آخر أكثر طهارة وأشف نقاء ... ؟ إن الحب لغز عميق مضل لا يستطيع تفسيره إلا الله ! ولكنى أفسره أنا الآخر على قدر استطاعتى ... على أنه إذا أحب أحد من الناس وأخلص فى الحب فسيحب مخلصاً إلى الأبد ... حتى بعد الموت : وليس يخضع الحب لقانون أو عرف أو دين ! بل ليس يغيره شيء من هذا ؛ ولا يخفف سورته شيء من هذا .. بل..ولن يطفئ ناره المتأججة هنا.. إلا الحبيب ، أو..الموت! وبعد الموت ماذا عساى أجد ؟ ! أجدنى إما مع أشجاني وآلامي أو ··· مع الله ! » قال هـذا ، وكان يمسح بيده المرتجفة على موضع القلب من صدره ! ورفع وجهه وراح يقلب عينيه فى القمر الساحر والنجوم المتألقة ثم قال : « أوه ! أيتها الدُّني التى لم تُكتشف ، ويأيتها العوالم التى يُرَجِّم الناس بشأنها ! ما أملأك بالحياة ! وما أكثر ما وراء الستار الكثيف الذي يحجب أسرارك عنا ! إنه لا يعرفك إلا الأرواح الهائمة الطليقة التى تسبح فيك بعد الموت ، والتى تجد فيك الحب الصحيح والسلام الدائم !

يا ربى ! يا إله الجميع ! أستودع الحياة بين يديك وفى أعماق الوجود ، لأصعد إليك ··· ولألقاك ! »

* * *

لم تكن إدريانا تحسب أن الهراجا سيشرب السم من الخاتم العقيق الكبير ، بل كانت تحسبه يصلى صلاة هندية ، فلم تجرؤ أن تقترب منه ···

وكانت قد انسرقت فى ظلام الليل بعـد أن عرفت ما به ، وعلمت طريق قصره وسط الريف الهندى من صديقتها لوللى ··· فلم تبال بشيء ، ولم تأبه لشيء ··· بل رحلت إليه ··· ربما على فيل كبير أبيض ··· لتشكر له ··· ولتثنى عليه ... ومن يدرى ؟ ! فربما كان فى تصميمها أن تمنحه قبلة ...

وشرب الراجا السم ··· وصمت إلى الأبد !

وتقدمت إدريانا لتشكر له ... فوجدته قد أسلم الروح ...

وكانت قد سمعت كل ما قاله عن الحب ، وعن الموت ، وعن السماء ، فجلست بجانبه تبكى... وتذرف فيه دموعها ... لأنها وا أسفاه ! ! وجدت فيه مثلها القديم الأعلى

* * *

— لا تذهبى يا سيدتى ... الوصية ... لقد أشهدنى على الوصية !

— أية وصية يا هذا ؟

— لقد أوصى لك بهـذا القصر إذا فكر زوجك فى أن يهجرك . وأوصى لك بضياع ولآلئ ...

* * *

وهجرها لومارشان ... وعاشت فى قصر المهراجا ... ولكن ... كالراهبة ... وكانت لوللى تختلف إليها ، ومعها زوجها (الدمية) كلود أنسللى

دريني خشبة

الشال الهندي

أقصوصة بوليسية

بقلم م. ل. هوبكنس

للأستاذ محمد لطفي جمعة

حدث پرماشور لال عن نفسه قال :

عند ما بعث بي والدى جاپوتانا لال إلى القارة الأوربية لأتلقى علوم الطب والجراحة ، قال لي وهو يودعني : « كن خيّراً ، فإن لم تستطع فكن حذراً ! »

وقالت لى أمى : « خذ هذا الشال تتلفع به ليقيك برد تلك البلاد القاسى » وكان من صنع كشمير ، رقيق النسج ، بهيج الألوان « وإذا فقدت شيئاً فاقرأ تعويذة كالى ، ولقنتنى تلك التميمة بالسنسكريتية ، لأن أمى المحبوبة لم تكن تعرف الكتابة

تعريف بالقصة

مارتين لويس هويكنس أو هويكنز مؤلف شاب ، ولد فى الهند وعاش فيها قسما كبيراً من حياته ، وأتقن وضع القصة القصيرة وكان أبوه طبيباً فى مقاطعة لاهور ولكنه تخرج فى الآداب والفنون — ولد سنة ١٨٨٦ ونشر أدبه فى مجلة ستورى محارن ووايد ورلد مجازين وكتب القصة الافتتاحية فى مجلة ستراند لأحد أعداد عيد الميلاد الشهيرة فحازت إعجاب النقاد والقراء لما حوته من صدق الوصف ودقة التحليل وهى التى نقلها إلى قراء العربية بعد اعجابنا بها واعتقادنا أنها من روائع الأدب الواقعى . فان وصف الشخصيات الهندية والانجليزية وعقدة الشال والتعويذتين من أغرب ما اهتدى إليه مؤلف ، وقد جمعت من عجائب الرواية وسلاسة الاتصال بين الحوادث ما يدل على علو كعبه . وقد عز على بعض النقاد من الانجليز (فى مجلة بلاكوود مجازين) أنه لم يوفق إلى زوج البطل پرماشور لال من جريس راوتش ، بعد أن كان سياق الحوادث يقتضيه ولكن خلق لال نفسه يفسر الأسباب الخفية التى نهته عن ذلك بعد أن رأي ما حل بالكولونيل وينكل وزوجته ومعشوقها الهندي ولعل القارىء المصرى يروقه الحل الذي قدمه المؤلف ، دون الحل الذى اقترحه الناقد

وركبت البحر من بمباى فى باخرة عتيقة ، فلما بلغت مدينة لندن ، وجست خلال طرقها ، واحتوانى جوها القاتم وأظلتنى سماؤها المظلمة ، أحسست بالوحشة ، ودب فى نفسي الحنين إلى الوطن ، فرأيت نفسي أدفع وأدفع وأزاحم وأصادم ، بين وجوه غريبة وأرواح ظمأى للمادة دائبة الحركة ، لا تقف ولا تنى ولا تتأمل ؛ ونظرت في الشوارع السوداء ودخان المصانع يغشى أوجه المبانى ، فذكرت ما كنت أنعم به فى وطنى ، ولا سيما فى قرية شنجرى من بساط الثرى الأخضر ، وسرادق السماء الأزرق ، يتلألأ فى قبته سراجه الوهاج ويتألق ، وعجبت لقوم يعيشون بدون الشمس فى ظلام حالك ! لك الله يا أرض الوطن باندى ما ترام [1] أيتها الأم الرؤوم المطوف الودود الألوف المتحدبة على كل بنيك وأولادك ، يامن تشملين الغريب وابن السبيل والبار والفاجر بأنوارك الزهراء وألوانك ذات البهاء والبهجة . طوبى لمن يحلو له المقام ، ويصفو له قضاء الأيام ، فى سهولك ووديانك ، وعلى ضفاف أنهارك أو فى سفوح جبالك . لقد

(١) تحية الهنود لوطنهم وتعريبها عمى صباحاً أيتها الأم الرءوم !

كنت وحق كالى [1] وكريشنا [2] وفيشنو [3] أنظر ماء الازهار فى عروقها تجرى ، وأسمع العشب وهو ينمو ، وأطرب لتغريد الطير ، وألمح الأفاعى تنساب بين الحشائش الخضراء فأطمئن لها !

حقًّا لقد كانت تمرونى لذكرى وطنى هزة أى هزة ! وكنت أحياناً ألتمس الألفة والهناء فى صحبة أبناء وطنى الذين يطلبون العلم مثلى ، فكان هارديال وشاتويادايا وسادومال من أعز أصدقائى لأنهم نزحوا من قرية قريبة إلى قريتى ، وجمعتنى ببعضهم مدارس لاهور ، عاصمة مقاطعتنا . ولكن هارديال كان درويشاً ، يحب فتاة هندية رشيقة القد ، فاتنة النظرات ، ويخفى حبها عن صحبه ما عداى ، فإنه باح لي به ليلة فى شارع الصقر الأزرق بهمرسميت على طريقة غريبة

كنا فى حفلة ليلية أحيتها مدام راما ودعت إليها بنات الهند اللواتى يتلقين العلم بكليات البنات العليا وبينهن تلك الفاتنة جوخالى ، فغنت أغنية « أيها الحبيب النائى ، هل نسيت ودادى ؟ » بصوت يشبه صوت الملائكة ؛ وأنا أقول لك ذلك ولم أسمع صوت الملائكة ، ولكنه فى ظنى لا يزيد على صوت تلك الفتاة حلاوة وطرباً ؛ وقد تخير هارديال مكاناً قريباً من قدمى جوخالى وجثم فيه على صورة تشبه الركوع وتشعر بالعبادة . ولكنى لم أدرك سره فى أول الأمر ، فلما انفض الحفل ، وخرجنا إلى الطريق يلتمس كل منا مسكنه ، انحنى هارديال على كتفى وأخذ يمشى كمن يزحف ، وهو يبكى حتى بلل ثيابى ، يبكى بكاء الطفل الذى لا يعرف له أباً ولا أمًّا ولا مأوى ، فسألته فى رفق عن سبب عويله الذى آلمنى ،

فقال إنه حب جوخالى الذى ملك لبه وهو لا يستطيع أن يفاتحها به لأنه فقير من طبقة أقل من طبقتها ، وأنا أعلم حق العلم أن نفسه لا تحدثه بالزواج منها . ومما زاد نار صاحبى المضنى اشتعالاً أنه خلف وراءه فى الهند عروساً صغيرة فى السن لم تشب عن الطوق ، فقد زوجه منها أبوه وهما فى العقد الأول دون أن يحسب للمستقبل حساباً . إنها حقًّا لكارثة ، وشكراً لك يا أبى على أنك لم تهف مثل تلك الهفوة فتجعلنى نهباً بين عشيرة شرعية ومعشوقة مثالية ، لا أحب الأولى ولا أنال من الثانية منالاً . فطيبت خاطر هارديال وجففت دموعه ، ولو استطعت لحملته كما تحمل الأم ولدها

صاحب ذلك العقل الجبار فى الفلسفة ، لقد نال أعظم الشهادات وقرأ أضخم الكتب وانطوت نفسه العطشى للحكمة على أعظم المذاهب وأعمق المسائل . وهاهوذا بجانبى ينوح ويعول كاليتيم الضال؛ فلما وصف لى شعوره وهو جاثم تحت قدميها كانت هذه الفكرة الأولى عن الحب التى دخلت قلبى . نعم رأيت أزواج الانجليز فى حديقة هايد پارك يتعانقون ويتبادلون القبل ، ويتضاجعون على الحشيش الأخضر فى ضوء القمر ، وقد التفت الساق بالساق على مرأى ومسمع بعضهم من بعض . ولكننى لم أفهم أن هذا هو الحب ، لأنه كان مبتذلاً معروضاً كما ترى الحيوان والطير فى فصل الربيع وموسم النتاج . أما البكاء والعبادة والأمل المنشود وهو ضائع ، والحسرة على المشوق والتحرق وهو أمامك ، هذا هو الحب بعينه الذى قرأت عنه فى كتب الهند وورثته عن أهلى وقومى ، حب قوى كالشلال ، طاهر كقلب العذراء ، نقى كالفضة . أما شاتويادايا

(١)و(٢)و(٣) آلهة من آلهة الهند ولها هياكل مشهورة

فكان من قرية سودي في مقاطعة باهويال وهو هندوكي مثلنا ، وكان يحب فتاة انجليزية تنظم الشعر لأنه شاعر ، وكان أسود اللون والحدقتين والشعر ، وله شارب كشارب الصقر ، وصوت ممتلىء غليظ وقامة مديدة فرعاء وكل عضو ظاهر في بدنه ينطق بالرجولة الناضجة . وفي ظني أن الانجليزية وكان اسمها كيتي أحبته وفضلته على بني جلدتها البيض الشعر الماسخين الباردين . وكانت كيتي غنية ذات جاه ومال ، ولها قصر في جروفنور سكوير حيث كان يوافيها تحت سمع والديها وبصرهم ويجالسها في قاعة الاستقبال يشربان الشاي ويأكلان الفطائر الدسمة ، ويتطارحان الشعر ، ويتبادلان الغرام في غير تستر ولا حياء على الطريقة الانجليزية . فقد أذاعا خطبتهما ، وأخذت كيتي تغدق على شاتو يادايا من نعم والديها ، فألبسوه أحسن الثياب ، وعرفوه بأرق الطبقات ودعوه إلى أفخم الحفلات ، وصار ابن الصياد (وكانت هذه حرفة أبيه) في مصاف العشائر العليا . وكان هذا الشيطان ينشد شعره في محافلهم وفيه الطعن المرير في بلادهم وهم لا يفهمون منه حرفاً . كما كان يحفظ قصائد وملاحم من شعرنا القديم يرويها فتنحدر من حنجرته كالسيل المنهمر ، فتكاد كيتي يغشى عليها من افتتانها بذكورته الصارخة ، وهدير ألحانه

أما سادومال فكان ولداً قصير القامة ، خفيف الظل ، جاهلاً بالعلوم والآداب لم يثمر فيه تعليم ولا تهذيب . لا يقرأ من كتب الدنيا شيئاً سوى الأدب الروسي (ويسميه سكاموش ، أدب موسكوفي) ويمعن في دراسة قصص الجرائم والبيوت المسكونة بالجن وخزعبلات إدجار آلان بو وإدجار والاس ، ولكنه كان متصوفاً على طريقة راجا يوجي ، تمرن عليها في الجبال المحيطة بقريته (دبرسال) وهي محط رحال دراويش الهند ، حيث يتعودون الصمت وكتم النفس وتركيز الإرادة ، والتحكم في شهواتهم فلا يأكلون ولا يشربون إلا في الندرى ، ولا يقربون النساء حياتهم . وكان سادومال في أول أمره يطمع في أن يصل إلى الإيمان الذي ينقل الجبال ويجفف الأنهار ويقتلع الأشجار في الحراج ، ويدعو الوحوش والطير فتلبي نداءه كما فعل بوذا أثناء خلوته تحت شجرة التين الخالدة . فسلك مسلك « الفقراء » وعاش عيشة الزهد والعفة وحصر نفسه في أضيق نطاق

وكان من حسن حظه أو سوء بخته ، أن ضجر من طول المراقبة المحتومة على كل يوجي في درجته البدائية فانحدر من الجبل وفك قيود اعتقاله باختياره ، واهماً أنه وصل ، فأدخله أبوه في مدرسة القرية فتفوق في الرياضيات ، وعلا نجمه بين أقرانه وبهر أساتذته في حل أعوص مسائل الجبر والحساب والهندسة ، وكاد يعرف بعض تلك العلوم بالغيب المطلق ، فلما ورد المدرسة مفتش المعارف الانجليزي ، أفحمه الهندي الصغير بعلمه السابق في حساب المثلثات واللوغاريتمات العليا ، والهندسة الفراغية ، فأوصى به ليوفد فوراً إلى كنجز كولدج بلندن لتفيد الحضارة من مواهبه النادرة . فتكفلت الحكومة بنفقاته ، وتجلت عبقريته الهندسية في سماء الكلية ، وصار في مدى عام أعجوبة « كريستال پالاس » وهو الحي الذي فيه بناية المدرسة . إلى أن كان يوم ضاح من أيام الصيف ، فالتقى الفتى النابغ بامرأة إنجليزية

فتحدثت إليه ودعته إلى منزلها وسقته الخمر وأطعمته لحم الخنزير، وعلمته أول درس من مبادئ الغرام، وكانت امرأة ضابط اسمه ريب وينكل برتبة كولونيل، وقد زعمت أنه قضى نحبه في « ثورة لكنو » وورثت عنه مالاً ونشباً وبعض الجواهر والتحف المجلوبة من ضفاف نهر براهما پوترا . لقد استدرجته الخبيثة، حتى فرط في عرضه ، وأضاع بكارته . وكانت تقول له : « لا يطفئ ظمأ الغرام في قلب فتى في ربيعه إلا امرأة في خريفها » فوقع في الحفرة التي أحكمت مسز وينكل حفرها ، وسلّم نفسه إليها وأخذ يتردد عليها ويغشى مضجعها ، طوال مدة العطلة المدرسية . وكانت المرأة تملك « عوّامة » في نهر تيمس يسمونها « بيتاً نهرياً » جُهزت بوسائل الخلوة الصحيحة ومطالب الغرام ، فمن حانة صغيرة لا تصلح إلا لاثنين ، إلى فراش مكنون ، وحمام جميل مزين بالقيشاني والمعدن الأبيض اللامع ، وهنا استولت المرأة على الشاب الهندي ، أمل قريته ومقاطعته ورجاء الحضارة في العلوم الرياضية ، حتى امتصت ماء الحياة من عوده ، فقال لها يوماً ، ولعلها النكتة الوحيدة التي نطق بها لسانه قبل مرضه: « لا يطفئ نار الغرام في قلب امرأة في خريفها ، إلا فتى في ربيع حياته » فوضعت يدها على فمه واحتضنته وأخفت وجهه الأصفر الناحل في حجرها وقالت وهي تعبث بشعره الأسود المجعد : « أوه دارلنج »[1] وقضى إجازة صيفية ، ما كان أحلاها في نظره ، وأجداها على المرأة الهرمة ، فقد سمنت ، واستدارت أعطافها واحمرت وجنتاها وأبرقت عيناها وكانت من قبل كالشجرة الجرداء في الأرض القحلة ، إلى أن أتاها الغيث من أعلاها والرى من تحتها فأينعت وازدهرت ، ولكن على حساب ذلك البستاني المسكين وهو لا يدرى أية جريمة وقعت عليه وأى ذنب جسيم سقط على رأسه . وكانت كلما تعاقبت الأيام ازدادت المرأة شبقاً ، وتفننت في « دروسها » المشبعة لرغبتها . وكلما بدا الهزال على صاحبها ، « علفته » بالنقانق الدسمة وأفخاذ الخنانيص المدهنة ، وسقته الخمور الملهبة ، ليسترد عافيته ونضارة وجهه ويقوى على جهوده ، ولكن ما كانت تكيله له على مائدة العشاء ، تسترده بأرباح باهظة في خلوة الغرام ، الهادمة للقوى

وعند ما فتحت الكلية أبوابها في بداية العام الدراسي ، وعاد سادومال إلى صفوف الطلاب هنأه أساتذته وبشروه بانتصار جديد في عالم الرياضيات البحت ، ولكن المسكين كان قد جهل كل شئ وعاد لا يعلم من بعد علم شيئاً ، فقد جف عوده ، وطمست معالم النبوغ من عقله ، وأمسى كالطفل لا يدري مما وعيه فتيلا . وانطفأ سراج المعرفة من صدره . وصار يجهل الجمع والطرح ، حتى جدول الضرب راحت من ذاكرته قواعده الأولية . فكانت جهالته أعجب من نبوغه . وأحسن أساتذته الظن به وعزوا ما جرى له إلى الافراط في الاستذكار وحل المعضلات ، ولم يخطر ببال أحدهم أنه نتيجة تفريطه في عفته وصومه وصيانته وطهره . فنصحوا له بالراحة المطلقة حتى يستعيد صحة بدنه وسلامة عقله

وأمر الأطباء بتسفيره إلى ضواحى اشرنس ، في شمال سكوتلاندا ، يستجم في إحدى مصحاتها .

(١) أيها المعزز

ولم تلحق به «الطلبة» ، لا رحمة به ، ولكن خوفاً من بعد الشقة واتقاء للفضيحة . وعاد سادومال بعد ستة أشهر صحيحاً معافى ، ظاهر النضارة بادى القوة كأنه وعل خارج من غابة لقاء . فلما فحصه الأطباء والأساتذة قالوا : لقد نجا بدنه ومات عقله ، ولم يعد يصلح للعلم . فقد محيت موهبة الرياضة من صفحات ذهنه . وخير له أن يعود إلى بلاده لیزاول مهنة آبائه وأجداده وهى «بيع العطارة» .. ولكن سادومان كان قد استطاب الحياة فى لندن ، ودرج على أكل اللحوم وشرب الخمر ، فعاد إلى «طلبته» وراعى الاعتدال فى إطفاء نيرانها المشتعلة ، وهو الآن يعيش عالة عليها ، بعد أن قطعت حكومة الهند معونته ، فهو طالب فى الاستيداع ، يتنقل بين العوامة والفيلا ، ويقضي شبابه فى قراءة وصف الجرائم ويتقلب بين أحضان تلك الأخطبوطة النهمة التى لفت خراطيمها حول عنقه وصدره وبطنه فلا يستطيع فكاكا

هؤلاء كانوا أصحابى الذين وقعت عليهم فى لندن وقد اتخذت لى مسكناً فى دار مسز راوتش فى شارع شبردذبوش ، وكانت امرأة صالحة وجدت فى بيتها دعة وراحة ، ووجدت منها ظئراً رؤوماً وعصمة وموئلاً من آفات لندن وشرورها . والبيت إذا أضاف حاجيات العيش ، والساذج الرخيص من كمالياته كحسن الغناء وشجى الموسيقى والطيب الحلال من آلات اللهو واللعب والمتع اللذيذ من الكتب والأسفار — إلى سكينة الجو وكرم الجوار ورقة آداب أصحابه وحسن مواساتهم وبشاشة قناعتهم وضحكة النزاهة ودمعة الرحمة والعطف والحنان كان جبة المسرات وحقيبة اللذات . وهذا ما وجدته فى الدار التى كانت تسهر عليها مسز راوتش الفاضلة ولم تكن الدار مخنوقة بين المساكن كتلك التى لا تكاد تبصر السماء فى قلب لندن ، ولما علمت مسز راوتش أننى ابن تلك البلاد ذات الشمس المشرقة والطبيعة الضاحكة والأنهار الجارية والأطيار المغردة أحب بفطرتى رطوبة الثرى وطراوة الروض — اختارت لى غرفة مطلة على بستان الدار وإن كانت قليلة الزينة ، وحسبى بالطبيعة مزخرفاً ومنمقاً ، فأجمل الغرف فى نظرى ما فرشها الزهر وعرشها الكرم وأضاءها القمر ليلا وشعاع من الشمس نهاراً (عند ما تجود بالاشراق فى تلك البلاد المظلمة !) وعطرها النسيم الساحب على الروض مطارفه ، الغامس فى كؤوس الطل وأكواب الندى معاطفه ، ولولا اختيارى المثوى فى تلك الضاحية الضاحكة النائية عن جلبة لندن وضجتها ولجب مصانعها وصخب طرقها ما توافرت لدىّ تلك النعم

ودأبت على الدرس فى ظلال تلك الحياة الهادئة وقد اخترت الطب وجعلت هدفى أن أتخرج فى الجراحة الحديثة فهى مجهولة فى بلادنا

وكانت لربة الدار بنت وحيدة اسمها جريس ومعناها فى لغة القوم النعمة والفضل والمِنّة والحسن والرشاقة ، وكانت صبية كاسمها رشيقة القد ، لطيفة الشمائل مهفهفة ممشوقة القوام ، غراء بلجاء مشرقة الطلعة وضاحة الجبين عندمية الوجنتين فى الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت هي الأخرى تدرس الطب فى « جاز هوسبيتال » على مسيرة ألف خطوة من وستمنستر ، تغدو إلى الدرس مبكرة ، وتعود قبيل الغروب لتدرك مائدة الشاى الأنيقة التى تحسن أمها إعدادها ، وكانت تخدمنا فتاة بلهاء ورجل ألمانى

اسمه فرتيز . وكنت ألحظ الانجليز يفرحون باستخدام الألمان ، لما فى ذلك من الشماتة فى أبناء الأجناس الأخرى ، ورخص أجورهم ، وقناعتهم فى الطعام ، وشدة طاعتهم ، كأنهم آلات صماء ، تلبى النداء ، وتدرك مطالب السادة بالاشارة والهمس دون الصياح والثرثرة. فكانت إدارة الدار فى نظرى كحركة الساعات الدقيقة التى تصنع فى جرنيوتش فلا تقدم ثانية ولا تؤخر ... فما أعظم الفرق بين الحياة هنا والحياة فى أوطاننا التى تشبه آلة بخارية فقدت عقلها !

أما جريس أو نعمة التى كانت تؤاكلنى وتجالسنى وتسامرنى ولا تفارقنى إلا عند ما يأوى كل منا إلى مضجعه فما رأيت إنساناً أخف منها إلى المزاح المباح والدعابة البريئة ، ولا أروح إلى المفاكهة والمعابثة التى تنم عن طهر الشباب وطموحه دون التعدى إلى الاستهتار والمغازلة ، وماأظنها استباحت ملاطفتى إلا رحمة بى وعطفاً علىّ ، فقد قالت لى يوماً : لماذا أرى بك سيما الحزن والاطراق والكآبة ، فقلت لها : إنك يا نعمة لتقولين هذياناً وسخفاً ، فأطرقت ثم قالت :

لعلك عاشق مشغول بمن تهوى فى الهند عن الناس كافة ! أهى جميلة تلك التى خلفتها فى وطنك عاكفة على عبادة أوثانها ، وعلى انتظار أوبتك ؟

فقلت لها : إنك والله لترجمين بالغيب يا آنسة . فرنت إلى طويلاً وأدامت نحوى كرة الطرف مبدئة ومعيدة ، ثم قالت :

— أرى غيرك من أبناء وطنك مفتونين بالغانيات شديدى الطلاب لهن والهيام فى أثرهن

قلت : أيروق لديك أن يفتن الطالب الغريب بالغانيات وأن يهيم فى أثرهن ؟

فقالت : لا نرى نحن الانجليزيات فى هذا كبير عيب ؛ ونعلم أن السن ستكسب الشاب رزانة ووقاراً فلا ضير عليهم إذا استمتعوا فى نضارة شبابهم باللهو المباح

فقلت لها : إننى أخشى عاقبة الحب لما رأيت من أثره فى صحبى وبنى وطنى ممن طوحت بهم الأقدار إلى شواطئكم ، فقد ودعوا الثبات والحكمة والخير ، عند ما ودعوا ظهر الباخرة فى تيلبرى [1] وخلعوا عن أكتافهم ثياب الطهر والعفة

فقالت : أهذا كل ما يخيفك يا لال العزيز ؟ ألا ترى أن ما يصحب جماحنا الشبابية ونزواتنا الصبيانية من الخوف والروع هو أمتع ما فيها بل هو لذتها وفتنتها

فقلت لها : لقد أوصانى أبى أن أكون خيّراً حازماً فإن لم أستطع فلأكن حذراً

فضحكت وقالت : إذن كن خيّراً وحذراً ما شئت . ثم ما لبثت أن سكنت ثائرة سرورها ، وفترت حميا فرحها ومرحها ، ونهضت إلى البيانو فأطلقت ألسنة العاج بضغط بنانها ، أنغاماً حلوة هادئة ، ثم استدارت على مقعدها اللولبى وسألتنى رأيى فى موسيقاها فأطريتها لأنني طربت حقاً من توقيعها ، فقالت لى وقد تظاهرت بشىء من الخوف يخالجه شىء من الحياء والخفر : ألا تصحبنى مرة يا مستر لال إلى ملعب التمثيل ؟ فإنهم يمثلون على مسرح جاريك [2] رواية « تمسكنت فتمكنت [3] » من وضع جولد سميث

(١) اسم ميناء لندن
(٢) مسرح شهير باسم دافيد جاريك من أشهر الممثلين
(٣) She stoops to conpuer

فقلت لها : لا بأس ، فإنني أدعوك إليها غداً إن شئت

وكان في هذا الوعد البريء ما أفاض السرور بين جوانح الفتاة وأشاع الطرب في فؤادها

وأقبلت على أمها تستأذنها فأذنت لها ، وفي عشية اليوم الموعود أخذت تعد ثوبها الجديد الزاهي وتجربه فألفته محكماً ، واستعرضت خيالها في المرآة فأعجبها وراقها ، وأقرت أمها وخادمتها البلهاء أنها لم تك قط في أفخر حللها أحلى وأحسن منها في ثوب السهرة . ولما حانت الساعة السابعة تأهبنا للخروج ووضعت حول عنقي وصدري ذلك الشال العزيز الذي أهدتنيه أمي ليقيني شر البرد في تلك البلاد القارسة ؛ ولا أدري لماذا قلت لها ونحن نخطو عتبة الملهى : « إذا أحببت أن نبقى على تمام وئام ووفاق فتكرمي على بأن لا تذهلي عن فروض الآداب بيني وبينك » فصمتت ولم تنظر إلي ؛ ولما جلسنا في القاعة المضاءة الهادئة لصقت بي وأشعرتني حرارة بدنها الغض الدافئ ، وأخذت تشرح لي مناظر المهزلة موقفاً إثر موقف ، فأطربني صوتها في همسها ورخامة نغمته ولذته فوق ما أطربتني حلاوة شمائلها وخفة روحها وذكاؤها الممزوج بالسذاجة والبساطة ، فازددت إليها ميلاً وبها سروراً ، وراحت نفسي لسماع كلامها العذب ، وهفت جوانحي ؛ ورأيت في ظلام الملهى عند ما أطفئت الأنوار كهلاً يقبل فتاة بجواره فأردت تقليده ... أنا الذي ألزمت « نعمة » فروض الأدب ، قد حاولت إسقاط الكلفة ورفع الحجاب بيني وبينها في خلسة من جماعة النظارة ، ولكن « نعمة » نفرت وتراجعت ثم استشعرت من سيماء الوقار والجد والرزانة ما أشعرني نوعاً من المهابة لم يخل من الطرب واللذة وقالت :

« ألست أنت يا مستر لال القائل لي على عتبة الملعب : إذا أحببت أن نبقى على تمام وئام ووفاق ، فتكرمي علي بأن لا تذهلي عن فروض الآداب بيني وبينك ؟ فما لي أراك أول من ذهل عن شرطه »

فسكت ولم أحاول بعد ذلك إعادة الكرة ، وقد أحسست أنني تعديت حد منطقي ومنطقتي وبرزت من ثوب الخير والحذر الذي أسبغته علي وصية أبي فتواريت فوراً في حجابي وتداركت أمري . ولما أسدلت الستار على آخر المناظر نهضنا وكان ذلك قبل نصف الليل بساعة . فدعوتها إلى « وجبة العتمة [1] » كما هي العادة بعد الخروج من الملاهي في تلك الديار التي لا يقنع بنوها بأقل من خمس أكلات بين شروق الشمس ونصف الليل ، بعضها غزير دسم وبعضها لا يصلح إلا للزهاد فاعتذرت وقالت : إن أمي أعدت لنا كل شيء . فلما بلغنا الدار عاودها سرورها وبشاشتها وثرثرتها وأمسكت بأطراف أناملي على طريقة الأطفال المرحين . فلما أبنا إلى غرفة الخوان ونحن لا نزال في ثياب السهرة استقبلتنا الوالدة باسمة هاشة ، وكانت المائدة منصوبة والألوان مصفوفة ومسز راوتش جالسة ، وقد تعطرت وتدهنت وتجملت وتزينت فكأنها إبريق الرحيق ، وقد شغلت نفسها بتقطيع رغفان الخبز قطعاً رقاقاً وتجزئة قطع اللحم من كتف العجل الحنيذ أجزاء دقاقاً ، وأقبلت على فتاتها وعلي تحبذ

(١) يأكل الانجليز خمس مرات في اليوم الافطار والغداء والشاى والعشاء ووجبة العتمة واسمها Suhher وهي أشبه بالسحور عندنا

منا تبكيرنا إلى المثوى وجمال ثيابنا ولا سيما « سترة سموكنج » التى كنت أختال فيهـا اختيال أمير ساحر خارج من صفحات ألف ليلة وليلة . وفى تلك اللحظة الباهرة تذكرت شال كشمير ، فقد نسيته وأيقنت أنه ضاع إلى الأبد ، ولـكننى لم أنطق بكلمة ولم أنصت إلى أدنى كلمات الوالدة وابنتها ولم أع مما قالت كثيراً ولا قليلاً . فقد كان ذهنى مشغولاً بذكرى المساء وما كان من حوادثه ، وكان فقد الشال فى المكان الأول . فأنحيت على نفسى باللوم والتبكير ووخزات الضمير . ثم انتقل ذهنى إلى حادث القبلة التى لم أظفر بها ، وعبثاً حاولت إقناع نفسى بأن مسلكي مع الفتاة نعمة لم يتجاوز حد اللياقة ، وأن هذه الرغبة التى أعقبها الرفض والجفوة لن تكون لها نتائج خطيرة . لقد كان ضميرى فى هـذه المجادلة السرية أعلى صوتاً وأقوى برهاناً من عقلى ، وجعلت كلما تذكرت نصيحة والدى وهدية أمي نالنى كرب وضيق . أما نعمة أورمنيّة فكانت فى أشد حالات السرور والجذل تلتهم اللحم والزبدة والفطائر ، وتكوم أضعافها فى صحنى ملحة علىّ أن أطعمها لأسترد ما فقدته من قوة بالسهر والتعب خارج الدار . وأخذت الأم تسرد أسماء من عمروا فى الحياة الدنيا حتى تجاوزوا المائة ، وأن العلة فى طول أعمارهم لم تكن إلا كثرة القضم والقطم ، وحشو بطونهم بالشحم واللحم ، وخصوصاً « وجبة العتمة » التي تكون أسهل الوجبات هضما إذا تلاها النوم مباشرة . وانتهت المأدبة على خير وصعدت إلى غرفتى . ومن فرط انشغالى بنعمة تراءت لى في أحلام الكرى تسبينى بسحر ألحاظها ، وتصبينى بحلاوة ألفاظها كما رأيت أبى وأمى : أحدهما يذكرنى بالوصية ، والأخرى تسألنى عن شال كشمير ، والتميمة التى وعيتها . وأعادت تلقننى إياها فى المنام « يا راما كريشنا وكالى وفشنو أيتها الآلهة المحجبة ، بحق أسرار أسمائك ، وأنغام ألحان ترتيل الكهنة فى أفنية هياكلك ، رُدِّى علىّ مافقدت ، بالو ! بالو ! هالو ! هالو ! هالو ! مسّي ! مسّى ! مسّي ! »

وما كاد الصباح يحدر لثامه حتى كنت قد هببت من نومى ولبست ثيابى وأسرعت إلى كليـة الطب التى أتلقن علومي بين جدرانها ، وأثناء ركوبى فى الحافلة [1] ، وهي من طبقتين لمحت عينى طرف رداء نعمة الأزرق فأهويت سريعاً إلى لقائها فابتسمت وقالت إنها سبقتنى فى البكور فأقبلت أثنى على جمالها وحسن هندامها . وسرها ذلك الثناء فضحكت ولكنها ما لبثت أن أبصرت على وجهى شيئاً من دلائل الهم والقلق ، فسألتنى ، فاعترفت لها أن حادثتى معها بالأمس كانت زلة وخطيئة ونزوة من نزوات الطيش والنزق وأننى على مافرط منى نادم ولما بدر من غـيّى واجم ، وأننى قد عوقبت على ذلك بضياع شال كشمير وفقده

فقالت إنه لا يروح أبداً عليك فان أهل بلادنا ذوو أمانة ، وسأتولى البحث عنـه بنفسى فى الملعب وأغدو إلى مستودع الأمانات المفقودة حيث يعرض كل ما نسيه ذووه وذهل عنه أصحابه سواء أكان إبرة خياط أم فيلا أبيض ! فودعتها وانصرف كل منا إلى معهده . وما كدت أطوى بضع خطوات حتى تذكرت التميمة فصرت أتلوها لعل آلهة الهنـد تجود علىّ برد أمانتى ، ولما آن وقت عودتى من

(١) سيارة عامة

الكلية أخذت أتلو « عزيمتى » ولم أكد أفرغ منها حتى لمحت شالى على ظهر امرأة تسير مرتكنة إلى ذراع رجل طويل، يلبس قبعة اسطوانية الشكل سوداء فاحمة ، فجثثت الخطى حتى كدت أدركهما . وصرت منها قيد أقدام معدودة وإذا بهما يستوقفان سيارة ، ثم أخذا ينهبان الأرض بها فرجعت أدراجى كاسف البال آسفاً ، ولكننى شديد الفرح بنفوذ السحر الهندي فى قلب لندرة .

ولما عدت إلى الدار لقيت نعمة فأخبرتنى أنها أوعزت إلى بعض الصحف بنشر إعلان صغير فى عمود الأشياء المفقودة نصه هكذا « طالب طب هندي يرجو من عثر بشال كشمير صغير فى ملهى جاريك أو فى سيارة حافلة أن يرده إليه بدار مسز رواتش نمرة ١٧ شارع شبردزبوس همرسميث وله الأجر والشكر » وكانت الصحيفة قد نشرت الإعلان فى مطبوعة المصر بعد أن تقاضت أجره نقداً قيمته شلنان واسمه هاف كراون ، فضحكت كثيراً من سرعة خاطرها ولباقتها وصحبتها إلى حديقة الدار وجرت بيننا جداول الحديث سحراً ، ورضابا سلسالا ، نأخذ فى شتى فنون من الهزل والفكاهة وضروب من المطايبة والمداعبة ، وما إلى ذلك مما يكون بين صديقين مؤتلفين على عفة إزار ونقاوة جيب وطهارة نطاق ونحن فيما دون ذلك على تمام حرية وطلاقة ، مباح لنا أكل ما يطيب ويصفو ويعذب ويحلو تمتع الجليس بالجليس ، وتلذذ الأنيس بالأنيس ، وأخذنا نرقب عودة شال كشمير وتتفكه بالتكهن بحال حامله إلينا . أيكون تلك السيدة وبعلها ، أم صانع متواضع ، أم لص فضل الجزاء الموعود على خيانة الأمانة ، ولكن انتظارنا ذهب أدراج الرياح

وفى يوم الأحد التالى وكان صباح يوم قار قارس صافى الأديم ، لا يكون إلا فى بلاد الإنجليز فى فصل الخريف خرجت للتنزه مع صديقتى فى هايدبارك ، ولما دنونا من مسارح الخيالة ، وهى طرق أعدت للفرسان دون الراجلين بصرنا بفارس ممتط صهوة جواده قد شمخ بأنفه صلفا وصعر خده كبرياء عليه قباء مسدل الهداب ، بفاقم وسنجاب ، وقد لف حول عنقه شال كشمير الضائع ، وكانت نعمة هى التى رأته وعرفته . فقالت لى هيا نستوقفه ونطلب إليه شالك فقلت لها : ولو قال لنا إنه حفيد لورد عتيق حكم إحدى مدن الهند وساسها ، فورث عنه ذلك الشال ، أو أنه شراه من سوق المزاد فى معرض كرايستى فماذا يكون الجواب ؟ فقالت نعلم على الأقل أن لشالك مثيلاً فى بلادنا . وإذا كنا نتناصح ونتشاور ونتقاول ونتداول ونحن نرقبه عن كثب كان فارسنا الملفع بشالنا أو بشال يشبهه ، قد اختفى عن نظرنا فى حجب العروق والأغصان وسجوف الورق والقضبان . فقالت لى نعمة ها قد أضعت الفرصة السانحة ومكنت ذلك الراكب على سرجه من الفرار . فضحكت وقلت لها :

— حقاً يا نعمة أننا لا نستطيع حل هذا اللغز وتفسير هذه الأحجية

وفى اليوم الرابع فرأت التميمة فرأيت الشال حول عنق كهل سمج كان يخطو باتزان فى شارع أكسفورد ويتنقل بين معارض المخازن والمتاجر يقلب أجفانه الثقيلة فى صنوف البضائع فقلت هذه المرة لن يفلت منى ولو لقيت فى سبيل استرداده وبالاً

فدنوت منه إلى أن أدركته فرفعت قبعتي أمامه وانحنيت مفرطاً فى الأدب فبدرنى بقوله : لست فى حاجة إلى ترجمان فهذا وطنى ومسقط رأسى وكفانى ما عانيته فى بلادكم أثناء الخدمة المدنية والحربية . فقلت سيدى لست ترجمانا ، ولكن ...

قال: إذا أردت الاستعلام عن شىء فهاك رجل الشرطة يجيبك عن كل سؤال

قلت : ولست غريباً عن لندن ومسالكها فأنا طا ...

قال : إليك عنى واقصد دار سير كيرزون فهو رئيس بعثات الهنود التعليمية ويعطف على ذوى الألوان السوداء والسمراء والصفراء

فقلت : ولست تابعاً لاحدى البعثات ، ولكن اعتماداً على مكارم أخلاقك وسعة صدرك وارتكانا على ما لبنى جنسك فى قلبى من لطف المكانة وثقتى بجميل صفحك ومغفرتك أريد هذا الشال

قال : الشال ؟ أتطمع في أن تنزع ملكيتى نهاراً جهاراً فى أكسفورد ستريت ، إنك لشيوعى جرئ وبلشفي موسكوفى خطر

قلت : لا يا سيدى إنه شالى الذى فقدته من بضعة أيام ، وأعلنت عنه في الصحف

فقال الرجل : وقد بدا بهيئة الدب المسلسل الذى يهدر فى ساحة النظارة فى حديقة الحيوان « هل غاب عنك رشدك وغرب عقلك ؟ متى كان دأبنا وشيمتنا ونحن مهذبو العالم ومؤدبو الأمم أن نختلس ثياب رعايانا ؟ »

وكان جمع صغير من المارة قد تكأكأ علينا ، فبادر رجل الشرطة إلينا ليفرق التجمهر على عادته ؛ فلما سمع روايتى قال لمواطنه المتغطرس : عليك أن لا تبدى أدنى تسخط أو غضب أو تظهر أقل تعجب أو اندهاش أو تبرم من مسلك هذا الشاب ...

فقال الإنجليزى : أظنها ألعوبة جديدة من ألاعيب الهنود الجمة ، وقد رأيت فى الهند مئات من أمثالها

فقال الشرطى : دعه يتأمل الشال عن كثب ، فلن يخطفه حتى ولو كان ملك يمينه إلا إذا أقر واعترف ، وإلا فهو يرده إليك بمسمع منا ومرأى

فحنق الكهل الكريه وقال : هذا كذب وبهتان . فض الله أفواهكم إن كان هذا ماتزعمون ؛ أما والله إنهم لفى غاية من القبح والسماجة . إننى لا أفرط فى شالى ولا أسمح له البتة بلمسه ، ولاوجه للمقارنة بين شالى الثمين وشاله المدّعى ، كما أنه لاوجه للمقارنة بيننا ، فلسنا من جوهر واحد أو طينة واحدة ! لقد كنت فى الهند من كبار الدولة وذوى النفوذ والسلطة والمكانة واسمى كولونيل ريب وينكل ، حائز لنيشان شمس الهند ووسام كعب الغزال وربطة العنق من طبقة جوّال ... فتأخر الشرطى خطوات وضم ساقيه وقدميه ورفع يديه بالتحية العسكرية ، ونظر إلىَّ برزانة وكبرياء وقلة احتفاء جديرة أن تصدع قلب أشجع الرجال وأشدهم بطشاً ...

فقلت للهكل : عفواً يا سيدى ! هبنى من السماجة والغرور والغلواء كما وصفت ، فأين من علمك جهلى ، وأين من أدبك سذاجتى ، وأين من رقتك وظرفك جفائى وغلظتى ، وأين من ذكائك وفطنتك غبائى وغفلتى

فأثنى الشرطى على أدبي ورمقنى الجمهور بنظرات عطف مصطنع وأخذ كل ينصرف إلى شأنه

وفى أقل من لمح البرق تذكرت اسم ريب وينكل . أليس هو نفس الاسم الذى تحمله تلك المرأة عشيقة سادومال طالب الرياضة الذى أفلس عقله وتدهورت مواهبه . ولم أشأ أن أفر من الميدان مهزوماً قبل أن أرى بآخر سهم فى كنانتى فقلت للكهل :

— إن كنت حقاً كولونيل ريب وينكل ، فقد نلت منك شالى بغير تعب ولا نصب ، وما علىّ إلا أن أوسط لديك زوجتك مسز وينكل التى تزعم أنك قضيت نحبك فى ثورة لكنو عم مساء ياسيدى

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات القليلة ، حتى رأيت شهامة الحاكم القديم تنهار وتتهدم فدلف إلى ماداً يده للمصافحة وتحى الناس جانباً وسايرنى وقال : هل لك أن تشرب معى قدحاً من الشاى فى هذا المقهى وأشار إلى أحد مغانى الشراب على مقربة من موقفنا . فاعتذرت إليه محتجاً بأن الرعية لا تجالس الملوك والعبيد لا تشارب السادة على سماط واحد ، وأن طينته الناصعة تأبى أن تخالط طينتى القاتمة السوداء .

فقال : أستغفر الله يا ولدى ، وأخذ يطرنى بسيل من المعاذير بالهندوستانى وهو لغة بلادي ، وكان العفريت الأشيب يتكلمها كأفصح علمائها الذين ملكوا ناحيتها فنال إعجابى بقدر ما حاز من عطفى . أيكون هذا الرجل المتعجرف المتكبر الملئ بالمنجهية من رأسه إلى قدمه ، السباق فى حمل السيف والرمح والواقف على أسرار اللغات ، زوجاً لتلك المستهترة الخليعة التى تصيدت أحد الهنود النجباء وأطفأت سراج عقله الوهاج ؟ وأخيراً قبلت دعوته ودخلنا إلى أحد مشارب الشاى . وكان الرجل يسألنى عن زوجته ومقرها وملجأها وهو تارة يتصنع الوقار والرزانة ويتكلف التؤدة والرصانة شأن من لا اكتراث عنده للمرأة ، ولا اهتمام ولا مبالاة ، وطوراً ينظر فى الفضاء نظرات الحنق تتطاير من عينيه الغضبى تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أقواسه وأوتاره . وأنا ألعب دورى من التشاغل وقلة الاكتراث وعزوب الذهن وأتمادى فى أساليب التصنع والتكلف أتكلم من خلال أسنانى بالانجليزية فقط ، والرجل يرسل زفرات الغيظ ولا ينبس

وأخيراً قال لى : كيف عرفت امرأتى الآبقة الناشز ؟ قلت : هات الشال أولاً وقل لى كيف وصل إليك نخلعه عن طوقه وقال : وجدته على أحد مقاعد ملعب جاريك . وكان الشال مبخراً معطراً ، ولم يمس شيئاً من بدنه سوى غلالته الناصعة اللامعة فأخذته وقلبته بين يدى وتعرفت فيه كل خيط وفتلة وغرزة وزهرة منمقة

وقلت له : أتريد أن ترى امرأتك ؟

قال : نعم واهبك تعويذة هندية شريتها من فقير يوجى من قرأها على امرأة خائنة فإنها تفقد كل من يرضى بعشرتها عقله ولبه ، فإذا تلاها الرجل المسحور عادت إليه قوة تفكيره شريطة أن يهجرها فى المضاجع

فقلت : هات تعويذتك

فأخرج من جيبه حجاباً مثلث الشكل وفض غلافه ، وأبرز وريقة مكتوبة بالسنسكريتى وهو لغتنا المقدسة

فقلت له : تعويذة بتعويذة ، وأخذت أتلو تعويذتى . ولم نكد نفرغ من شرب الشاى حتى

دخلت علينا مسز ريب وينكل مستندة إلى ذراع مواطني المنكود سادومال الذي فقد ذاكرته وسمن حتى صار كالخنوص الخصي . وكانت المرأة مطلوة محلاة وقد أقبلت « أرملة الحي » الطروب تسعى مطرقة منكسة لاتبصر شيئاً . وكان رفيقها الهندي قد فقد ذاكرته أتم فقد وأكمله فرآني ولم يتعرف علي ، والمرأة تقوده كما يقاد الدب الأعمى ، وقد أمسى أداة لهوها وماء نارها التي لا تخمد

أما هي فعند ما فتحت عينيها ورفعت رأسها لترى المكان فما لبثت أن عضت على شفتيها كمن بوغت بكارثة أو فاجعة ، لقد راعها وهالها أن تبصر زوجها في صحبة شاب هندي ، ولم تقدر أن تتغلب على ما اعتراها من الارتباك والحيرة ، وكانت قد أكمت على بشرة وجهها وجلدة بدنها طبقات متراكمة بعضها فوق بعض من الدهان الأبيض والأحمر وحملت نفسها من الزخارف والحلي ما يرزح تحته البازل فنهض الكهل الحربي إليها وقال لها والهندي المجذوب يسمع ولا يعي لفرط ما عراه من الخبال :

« لقد كان من المستحيل على غيري أن يعرف شخصك في هيأة تلك السيدة المتنكرة في أكتف طلاء من الأصباغ والأدهان، وقد ازدحمت عليك الحلي والزخارف ازدحام النجوم الشوابك في أديم السماء ؛ والحبب المتكاثر على بساط الماء . وانحنى على يدها ليقبلها غير أنه عند ما لمس أناملها خيل إليه أنها كانت ترتجف . ثم دعاني إلى مجلسهم ودعا بفطائر وقطائف ونواعم وأقداح وأكواب ليوم الخادم وهي فتاة رائقة الحسن مرهفة الحس إنه ظفر بصديقة قديمة فرق الدهر بينهما ولكننا كنا في شغل عن لذة الطعام والشراب إلا المسكين الذاهل سادومال فانه أكب على ألوان الحلوى والكعك والبودينة والشطائر التهاماً واقتفافاً وعلى أقداح الشاي ارتشافاً واشتفافاً . وجعل يمزح ويضحك من أمازيحه ويزداد هذراً وهراء من آن إلى آخر فلم يبق له من الكلام غير هذا وكان الكولونيل ريب وينكل يتحرق على محادثتي فسألني بالهندوستاني أن ألقنه التعويذة فقلت : مالك بها وقد تسلمت أمانتك وردت إليك بضاعتك ، ولم تقل لي كيف كان شالي على أقفية غير قفاك الناعم المهذب

فقال : أقرضته شقيقتي ذات صباح وخرجت به إلى حديقة هايد بارك فقلت : هل كانت على رأسك قبعة عالية في الأولى ؛ وكنت ممتطياً صهوة جوادك في الثانية !

فقال : نعم ثم امتقع لونه وقال : لم أكن أعهد سحركم نافذاً بهذه السطوة . قلت : تراه أشد نفوذاً في صاحبي الذي يليك ولا يعي ما تقول بعد أن أفقدته تعويذتك صوابه ، وكانت المرأة تحرق الأرم ولا تدري من أين سقطت عليها هذه الكارثة وكان غيظها على أشده ، عند ما نهضت وصافحت زوجها الذي أمسغمت رأسه بما كان ينقص صحتها عند ما عاد من سكوتلاندا كالوغل الغير متبوج ... وسحبت الشاب الذاهل من كتفه وخرجت به وتركت الزوجين ينضجان في صلصتهما !

وكان أول ما فعلته أن تلوت عليه التعويذة السنسكريتية التي تشفي من جنون الشهوة وما كان أعظم دهشتي عند ما رأيت سادومال يرتجف ويقطر جبينه عرقاً ثم يفتح عينيه على النور وقد وعى .

فنطق بالهندوستانى الذى كان نسيه ، وأخذ يذكر أرقاماً ولوغارتمات عالية . فقد عاودته مواهبه وعادت إليه علومه كاملة ، وعند ما رجع إلى حظيرة الكلية بعد أيام ، أقبل عليه الأساتذة يفحصونه فاذا به كما كان فى بداية شأنه عقل فياض ، وفكر نافذ وإدراك لمعميات المعادلات الجبرية وحل لأعوص المسائل الغامضة فقال له بروفسور كنجزلى : الآن تستطيع الحضارة أن تستفيد بعلمك وكتبوا إلى حكومة الهند يستردون نفقاته ومخصصاته . أما أنا فقد عدت فى تلك الليلة إلى بيتى فى شبردزبوش فائزاً بشال كشمير الذى ضاع وبمواطنى المسكين الذى رددت إليه عقله بالتعويذة التى اقتنصتها من زوج عشيقته وقد تعلمت أن كبرى النتائج قد تبنى على أهون الأسباب ، وبقى على أن أدخل البهجة على قلب نعمة بالعثور بالشال دون أن أطلعها على التفصيلات الأليمة التى صحبته فما لها ولغطرسة الضابط المنكوب والزوجة الخائنة والهندى المذهول وسحر هاروت وماروت ! فهداني تفكيرى إلى هذه الطريقة ، وهى أن أزعم أنى التقيت أمام البيت برجل يحمل الشال تلبية للنداء الذى أذاعته فى الصحيفة السيارة وإن أثنى على بديهتها وأمانة شمها وأحمل إليها هدية صغيرة جزاء وفاقاً على ما قدمت يداها من خير فلت إلى دكان جوهرى ، واشتريت خاتماً ذهبياً بفص من الياقوت الأزرق ، ولما نهضنا عن المائدة مددت يدى بالهدية وقصصت على نعمة وأمها القصة الملفقة المنمقة التى نجوت بها من مأزق التفسير والشرح الطويل وذكر مساوئ الناس للناس فى وطنهم فما هكذا يكون عرفان الجميل . ففرحتا وزادنى التوفيق كرامة وعزة فى نفسيهما

وواصلت الدرس حتى جزت عقبة الامتحان الشديد فى جايزهوسبيتال ونلت أجازة الطب المحفوفة بالمصاعب والمكاره واعتزمت العودة إلى وطني ؛ فلما استشمرت الأم وفتاتها ، (وكانت هى الأخرى تخرجت وحازت لقب مولدة من الدرجة الأولى) اعتزامى على الرحيل ، أعدت مسز راوتش حفلة جميلة دعت إليها فضليات نساء الحى وبناتهن ولفيفاً من أجمل الشبان وأنضرهم فأقاموا مرقصاًومقصفاً ، وبعد نصف الليل انتحت بى الأم ناحية وقالت لى : « خبرنى الآن يا دكتور لال ماذا ترى فى اتخاذ زوجة تحبك وتطيعك وتمنيك في عملك وتلد لك أولاداً لطفاء يجمعون بين جمال البيض وفطنة الهنود ويبنون دعائم الجيل الجديد فى وطنك الأول ، بعد أن صارت هذه الجزيرة وطنك الثانى . ولعلك تخطب فتاة لها قرابة ملاصقة ورحم ماسة برجل من كبار الدولة وذوى النفوذ والمكانة ، يدعى سير راوتش ، وأن الاتصال بهذا الكوكب اللامع فى سماء السياسة عن طريق المصاهرة قد يجر لك خيراً كثيراً وعماً كبيرا » ، فقلت لها : « ومن تلك الفتاة ياسيدتى ؟ » قالت : « ابنتى جريس رواتش التى خالها ذلك الرجل العظيم . إنها نعم العروس يا بنى وإن لم تكن تعلقت بها فإن الحب نتيجة الزمن والمعاشرة . إننا فى بلادنا نخطب لبناتنا كما تخطبون أنتم لأولادكم

فقلت لها امهليني يوماً ، حتى تستدير الفكرة فى رأسى ، فإني لا أرغب أن أقطف زهرة الزواج على غرة ، ولا أريد أن أعكر صفاء الليلة ، ولا أعلم فى الحق بمَ تأتى بها مشورة الرقاد ، فالليل يحمل النصيحة الحسنة والرأى الصائب على أجنحة الأحلام الذهبية . فلا تأخذى قولى هذا على أنه قبول أوعدول

فالى الغد . وكان نظام الحفلة يقضى أن يختار كل فتى فتاة يخاصرها فى الرقصة الأخيرة ، فيفهم الحاضرون أنها « قلبه العذب »[1] وقسيمة حياته فى المستقبل القريب أو البعيد ، وسرعان ما تناول كل شاب يد واحدة من هؤلاء الشقراوات ذوات الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء و « الضب » البارز والأذقان المستطيلة ، وبقيت فى نهاية الأمر نعمة ولم يتقدم إليها أحد ، كأنها مؤامرة محكمة التدبير ، محبوكة الأطراف ... لله ما أقدر هؤلاء الانجليز على توريط الخلق وتسخيرهم لأغراضهم ! فتقدمت إليها على كره وفعلت ما فعل شباب الحى من عناق وتقبيل ، ثم دعوتها للرقص

وفى الصباح قلت للأم : « إن الزواج لم يخطر لى على بالى الآن ، لا لعيب فى بنتك المحبوبة ولا لعجز فىّ من تأسيس بيت تكون زينته ، ولكن لأنى لا آنس فى نفسى القدرة على مسرتها وإسعادها »

فقالت : « عجباً لك يا لال ! أمثل هذا الرفض تقابل رغبتنا . ما هكذا يكون البر والوفاء ولكننا لا نرغمك » ، وترقرقت فى عينيها دمعتان أبى كبرها أن تنحدرا إلى وجنتيها

وتسألنى عن هارديال وشاتو يادايا وما جرى لهما . أما الأول فقد سافر إلى أمريكا واشتغل بالشعوذة والدجل فجمع مالاً طائلاً بعد أن طلق الفلسفة التى لم تغنه فتيلا ، وذلك باستغلال غفلة خواجى الجمهورية النائية ، وعاد بالمال طليقاً حليقاً أنيقاً ، وأرغم جوخالى على الزواج منه ، ثم حملها إلى شيكاجو ليواصل عمله فى « كشف القناع عن علاقة الروح بعلم الغيب واكتشاف مناجم الذهب ورفع النقاب عن أسرار الكون وعلاقتها بالحب والغنى وكسب سباق الخيل قبل دخول المراهنة وعلاقة النجوم بحظوظ الأحياء وتحدث أشباح الموتى لذوى قرباهم عن حوادث المستقبل وفوز الحزب الديموقراطى وانتخاب بريان » ، واندمج شاتو يادايا فى المجتمع ، ورشحه حموه للانتخاب عن حى أبوستون باسم الاشتراكية الحمراء ومقاومة الاستعمار والحكم الذاتى لايرلاندا وسكوتلاندا وبلاد الغال ، وأعانته زوجته الشاعرة بقصائدها الرنانة ومدح مناقبه لدى نساء العمال ، ومن قولها : « إن الرجل الأسود يخدم الجنس الأبيض فى المستعمرات منذ مئتى سنة ، وقد آن الأوان ليخدمه فى برلمان الوطن فهل ترفضون؟ فأجابها الناخبون : أوه ! نفير ! نيفر ! ![1] وفاز شاتو يادايا بمقعد دافىء فى وستمنستر وقد صار حلية المجلس وزينته وتفسيرته ، كالخال فى خد الحسناء

أما أنا فعدت إلى وطنى حتى بلغت أهلى وبيتى بعد أن نفضت فى الباخرة الانجليزية التى حملتنى من لندن إلى بومباى غبار حذائى ، وخلعت ثياب اللؤم والخداع ولبست ثوباً من « صنع بلادى » وتلفعت بشال كشمير الغالى وسألتنى أمى وهى تضع فى فمى بيدها الكريمة اللينة طعام وطنى اللذيذ ، بماذا عدت إلينا يا لال ؟

قلت : بعلم الطب يا أماه ، على أحسن ما أتقنه أعداؤنا وراء البحار ، وبحاجة أخرى هى أعز من العلم وأغلى وأشرف ألف مرة

قالت : ما هى ؟

قلت : عفتى وبكارتى وعقيدتى ، فيمكننى أن أقول لك : إننى لم أعشق امرأة غير أمى ، ولم أعبد إلها غير ربى !

محمد لطفى جمعه

---

(١) القلب العذب : المعشوقة Sweet hert

(١) أى كلا وحاشا

يحكى أن ملكا

للشاعر الهندى الفيلسوف طاغور

بقلم السيد فخرى شهاب السعيدى

« يحكى أن ملكا كان فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ... »

... لم نكن فى حاجة إلى أن نعرف أى ملك هذا — ونحن صبية صغار ... ولم يكن يضيرنا أن يدعى : « شيلادتيا » أو أن يسمى « شاليان ».. أن يعيش فى « كاستى » أو « كانوج » ؛ فإن ما يحقق له قلب ابن سبع سنين سروراً وابتهاجاً هو : هذه الحقيقة الرائعة الجليلة « يحكى أن ملكاً ... »

ولكن قراء هذا الجيل الجديد لا يرضون بهذا وإنما يمضون فى التحقيق والتساؤل ؛ إذ ينبعث فضولهم ثائراً حين تطرق أسماعهم « فاتحة » كهذه ، ويسلطون « أشعة كشافة » من النقد على ذلك الضباب الخرافى القاتم ، فيسألون قائلين :

« أى ملك هذا ؟ ! »

والقصاصون — بدورهم — أضحوا من المغالين المتأنقين ، لا يستسيغون ذلك الابهام ؛ وإنما أخذوا أنفسهم بالتعمق فيما يقصون ، فابتدأوا يقولون :

« يحكى أن ملكا يدعى أجاتسترا ... »

على أن فضول القارىء العصرى لا يكاد يدركه إقناع ... إذ يحدج المؤلف بنظرة فاحصة مستريبة ويسأله تارة أخرى عن هذا الملك الجديد ، فيجيب المؤلف قائلاً :

« ... وأجاتسترا هذا هو أحد ثلاثة يشتركون فى هذا الاسم فى التاريخ ، كما يعلم الطلاب ؛ فأما الاول فقد ولد فى القرن العشرين قبل الميلاد ، وتوفى وهو فى غضارة الطفولة حين كان يحطم الشهر الثامن من سنى عمره الثلاث ...

« ولشد ما يؤسفنى أن يستحيل العثور على بيانات ضافية مسهبة من مصدر وثيق عن مدى حكمه[1] ! وأما أجاتسترا الثانى فمعروف لدى أكثر المؤرخين ، وفى الموسوعات التاريخية عنه الشىء الكثير ! »

... وبهذا يتلاشى فضول القارىء من العصريين إذ يستشعر الاطمئنان إلى هذا النحو من أحاديث المؤلف القاص ... إنه ليحدث نفسه ـ حينئذاك ـ بقصة ممتعة طلية ليس إلى الشك فى صحتها من سبيل !

* * *

آه : كم نستحب خداع أنفسنا أجمعين ؟ !

فى حين أنا نخاف الجهل ونخشاه على أنفسنا ثم لا نزيد على أن نسلك إليه سبيلا ملتوية تطول !

هناك حكمة انكليزية تقول :

« لا تسلنى عن شىء ، وأنا زعيم بألا أكذب عليك ! »

(١) لعل الفيلسوف هنا يريد أن يلفت نظر القارىء ويسترعى انتباهه إلى هذا النوع من تلفيق المؤلفين ومحاولتهم جعل هذا التلفيق البين الصريح حقائق تاريخية ثابتة لتصادف أهواء القراء — على ما يظهر فى هذه السطور !

والصبي فى السابعة من عمره حين يستمع إلى قصة من قصص « الجن » يدرك تلك الحكمة أحسن الإدراك ؛ إذ تراه ممسكا عن كلّ سؤال ، مصيخاً بسمعه إلى من يقصّ عليه ... لذلك فإن خيال القصة الخلاب ، وما فيها من رونق أو جمال يبق سالماً من كل ما يشوب ، يُشبه فى سلامته الطفل البرئ ، مجرداً عن كل ما يضير كالحقيقة فى التوهج والصفاء ، رائقاً سنياً كأنه الينبوع المتدفق العذب !

ولكن كذب المجددين الغثّ المصطنع سيلقى على كل ذلك غشاوة من التضليل ! وحين ينكشف للقارئ الفاضل هذا الزيف ، وتبين له هذه المخاتلات والأضاليل تشمئزّ نفسه ، وينقلب المؤلف بأسوأ ضروب الخزى والعار عند ذاك !

لقد كنا — ونحن صغار — نستجلى الجمال بما كان لنا من إحساس ساذج بسيط ؛ ولم يك من همنا أن نحيط علماً بغير تلك الحقائق الممتعة ، أو أن نعرف شيئاً عما يتحدث به القصاصون المحدثون من سفساف الأمور ...

كانت قلوبنا الصغيرة البريئة قد عرفت ـ جيداً ! ـ « قصرَ البلور الحقيقى » وكيف يكون الوصول إليه

ولكننا اليوم ... مُرتجَوْن فى تسطير بضع صحائف من الحقائق ... بينما الحقيقة البسيطة الجليلة هى هذه :

« يحكى أن ملكاً ! »

* * *

مازلت أذكر تلك الأمسية واضحة فى « كلكتا » حينما بدأت « قصة الجن » ...

كان المطر يتحدر هتوناً غزيراً ؛ والريح تعصف مستمرة ، والمدينة كلها قد غمرتها المياه مقدار ارتفاع ركبة عن وجه الأرض ...

وكنت ضيقاً بما فى نفسى من أمل طالما تحقق ، ذلك هو مقدم « المعلم » الذى يجب أن يتوقف على الأقل فى هذا المساء ! ...

جلست على كرسىّ صغير فى زاوية قصية من زوايا الشرفة أطلّ منها على الشارع ، وقلبى خافق وعينى مثبتة فى المطر الهاطل لا تتحول عنه ؛ فلما بدأ يقل انهماره ابتهلت إلى الله أن يديمه إلى منتصف الثامنة من هذا المساء !

ذلك بأنى كنت موقناً مطمئناً إلى هذا اليقين القوىّ الذى لا يزعزعه شىء : أن ليس للمطر من فائدة غير حماية طفل بائس مسكين قابع فى ركن من أركان « كلكتا » من مخالب « معلمه » المهلكة

وإذا لم يكن انقطاع المطر السريع جواب ابتهالى فلا بد أن يكون مرجع ذلك إلى بعض قوانين الطبيعة ...

ولكن... واأسفاه ... هأنذا أبصر « مظلته » فى منعطف الشارع تقترب فى الوقت المعين المحدد . إنى أحس أن وجيب قلبى قد ازداد ، وأن ما كان فى نفسى من الآمال قد خاب ... ! لوأن عقاباً أليماً يُجْزى به المجرمون — بما قدمت أيديهم — بعد الموت ، لما كان دون خَنْقِى « أستاذاً » وخلق « أستاذى » ممن عندى من التلاميذ !

واتجهْتُ مسرعاً — حين ظهرت مظلة الأستاذ — إلى أمى فى غرفتها ... لقد كانت جدتى جالسة قبالتها تلعب وإياها « الورق » تحت ضوء المصباح ... ودخلت فزعاً مضطرباً ، فألقيت بنفسى على السرير ... قريباً منها وقلت :

« يا أمي العزيزة ... هذا المعلم قد حضر ... وإني — لما ألم بي من صداع — لا أكاد أعي اليوم الدروس ! »

* * *

لا أظن أن طفلاً في غضارة العمر ، لم يستكمل بعد قوته ونموه ، مسموح له بمطالعة هذه القصة ... وعلى أني أومن أشد الإيمان بصلاحها لمدارس المبتدئين الصغار ! لأن ما كنت أقدمت عليه كان غاية في السوء ... ولكني لم ألق جزاء سيئاً على كل حال ... بل كان الأمر على النقيض ، وتكللت مساعيّ بالفوز ، إذ قالت أمي تجيبني :

— حسن يا بني ! ثم التفتت إلى الخادم تشير عليه بوجوب انصراف « الأستاذ » اليوم ...

لقد كنت راضياً مرتاحاً ، فإن أمي استمرت لاعبة — كما كانت مع أمها من قبل — ولم تأبه لهذا العارض الذي ألم بي من الصداع « البسيط » وأبقيت رأسي بين وسائد السرير وظللت أضحك مما حدث ... لقد كنت أنا وأمي يفهم بعضنا بعضاً أدق الفهم ...

وللقارئ أن يتصور ما يلقاه ابن سبع من الصعوبة في البقاء ساكناً هادئاً يزعم لأهله أنه مريض ... ولكني ما لبثت أن نهضت بعد برهة والتفت إلى جدتي أريد منها أن تقص على بعض ما لديها من أقاصيص ! وكان عليّ أن ألحف في التسآل لأن أمي وجدتي كانتا مستغرقتين في اللعب غير آبهتين لما أقول ... ولكن أمي التفتت إلى — أخيراً — وانتهرتني قائلة :

أيها الصبي ! لا تضايقنا ... انتظر حتى ننتهي مما نحن فيه ...

ولكني تماديت وألححت ، وقلت لأمي : إن باستطاعتها أن تؤجل اللعب إلى الغد ... وأما القصة ... فهذا مما ليس منه بد ...

وضجرت أمي من هذا الإلحاح الشديد ، فرمت أوراق اللعب وقالت تكلم أمها :

— من الخير أن تقصي عليه ما يريد

وقد يكون — في جملة ما فكرت به — أنّ عليّ ألا أزعجها بالانقطاع عن دروس الأستاذ (المقيمة السخيفة !) غداً ... من يدري ؟

وانتهزتُ هذا المجال الذي أخلته لنا أمي فأمسكتُ جدتي من يدها وأدخلتها في « كِلّتي » وأنا من فرحي أكاد أطير

فلما عاودني شيء من السكون قلت لها :

— والآن يا جدتي فلتبدأ القصة ...

* * *

... قالت جدتي مسترسلة في حديثها :

« ... وكانت للمليك زوج ... »

— وكانت هذه بداءة طيبة للحديث ... فان العادة جرت أن يكون ملوك « الجن » مسرفين في الزوجات ... ونحن حين نسمع أن للملك الواحد اثنتين تهلع قلوبنا وتهبط ! فان إحداهما — لا شك في أنها من التعسات !

ولكن قصة جدتي لم يكن فيها من هذا شيء إن هذا الملك له زوجة « ليس غير »

* * *

ثم إنا اعتدنا أن نسمع — بعد هذا التقديم — أن المليك لم يكن له أولاد ... وما كنت — وأنا ابن سبع — أقدّر شقاء من ليس له ولد ... أو حاجته إلى الشقاء — بتعبير أدق — إذ ربما كان

أولاده في طريقهم إلى الحياة ...

ولم يك يعترينا اضطراب حين نسمع أن الملك قد ذهب إلى الغابة ... يَخْـبُر فيها الصعاب ، ليكون له ولد ! إنما يحسن الاختفاء فى الغابة حين نفر من وجه « الأستاذ » هاربين ...

... ولـكن الملك — هنا — ترك لزوجه حينما ارتحل طفلة معها تترعرع ... فاذا هى اليوم فى شكل أميرة جميلة

ومضى على ذلك أحد عشر عاماً طوالاً ، والملك فى تجاريبه وأموره ومهامه ، لا يفكر — طوال هذه الفترة — فى ابنته الحسناء ...

... لقدا كتملت الأميرة فتوة وشباباً .. حتى لـكأنها فى حسنها البدر المنير ! وعمر الزواج ... لقـد تمضى ... ولـكن الملك لم يعد من رحلته حتى الآن ...

... وهال الملـكة ما ترى من تأخر زواج ابنتها الأميرة فأرسلت إلى الملك تدعوه إلى وليمة يحضرها فى القصر . فَلَبَّى الملك دعوتها وجاء

* * *

كانت عناية الملـكة شديدة بمـا هيأت لزوجها من صنوف الطعام وأنواع الشراب ... وبما حلّت به من ضروب الآنية الذهبية الجميلة ...

وكان مقعد الملك مُعداً له من خشب « الصندل » المطرى الجميل ..

.. وقدم الملك القصر بعد غياب استغرق أحد عشر عاماً طوالاً .. وتبوأ مقعده ومن حوله الأميرة والجواري يحرّكن مراوحهن ، وينرن الغرفة بأشمة من جمالهن الفتان ...

وكان الملك يبصر الأميرة فيعجب بما يرى حتى لشغله ما هو فيه عما أُعِدَّ له من صنوف الطعام !

وسأل الملك زوجته عن هذه الجميلة الفاتنة :

مَنْ عساها تكون ؟

وأجابت زوجه — وقد آلمها سؤاله ذاك —

— أحقاً .. لم تعرف ابنتك حتى الآن ؟

— أأصـدق ؟ ابنتى الصغيرة قد ترعرعتْ ونمت فإذا هى اليوم فى شكل الحسناء ؟

— لعلك نسيت الأعوام التى هجرتنا فيهـا أيها الملك العظيم !

— ولـكن ما أخَّرَ الفتاة عن الزواج ؟

— أفأُزَوِّجها وأنت لا علم لك بذلك ؟ إن هذا لا يليق ! ..

.. وغضب الملك من هـذا الذى سمع وأقسم ليزوّجن ابنته أول من يصادف فى الطريق — عند خروجه غداً — من الفتيان ...

.. وكانت الأميرة خلال ذلك تحرّك مروحتها الجميلة على رأس أبيهـا الملك فى صمت وهدوء حتى انتهى من الطعام ..

* * *

وإن الملك لخارج من قصر زوجته فى الصباح إذ بَـصُر بفتى من البراهمة يناهز السابعة من عمره ، يحتطب فى الغابة بعيداً عن القصر .. وكان هـذا الفتى أول من رأى الملك عند خروجه فى النهار .. وصمم الملك أن يزوج ابنته من هذا الصبي الصغير .. ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يمتنع على الملك فلا يأتمر بأمره ولا يطيع إشارته إن أشار ؟

.. وجيء بالصبي وعُقدَ القرانُ وتم الزواج ..

* * *

التصقت بجدتى وسألتها فى لهفة عما تم فى أمر

هذين العروسين المجدودين فقلت :

— ثم كان ماذا ؟

ولقد تمنيت أن أكون ذلك الفتى الخاطب الفقير ... أو أن أستبدل به ··· ولكن هيهات .. لن تجدى ابتهالاتى ... إن ذلك لبعيد ...

كان صوت جدتى قد انخفض قليلا علامة ما أصابها من كسل أو فتور ؛ وكان المصباح ينير ماحولى فيطغى على ظلام الليل ويبدد جيوشه أشتاتاً

وكان هذا الصوت الخافت الضئيل ، وذلك المصباح المتقد المنير ، يجعلان فى نفسى أنى ذلك الفتى الخاطب السعيد ··· الذى لقيه الملك المجهول هذا فزوجه ابنته الحسناء الفتاة ···

··· إن جدتى لو كانت مؤلفة لوجهـت إليها قراؤها أسئلة كثيرة يستوضحونها ، تقتضيها كثيراً من الشروح والتعاليق ···

فهذا يسأل عما أبقى الملك فى الغابة هذا المدى الطويل لغير ما سبب معلوم

وذاك يسأل عما أخر الأميرة عن الزواج ···

وثالث له سؤال غير هذين ···

وإذاً فالقصة — هذه — سخيفة لا خير فيها ولا غناء !

··· ونحن إذا فرضنا أنها سلمت من كل هذا فمن الزعيم بأنها ستسلم مما سيوجه إليها من أسئلة أخرى ؟ بل وما يدريك ، فربما انتهت — ظنون القراء بهـا — إلى اتهامها بتهمة التبشير بمبادئ هدامة جديدة لتقويض الاجتماع البشرى ··· وإلا فكيف يمكن تزويج فتاة نبيلة من فتى من أبناء البرهميين الصعاليك ؟!

وإذاً ··· فليكتب القراء إلى الصحف يكشفون عما وراء أقوال هـذا القاص الجديد من مبادئ الهدم وعقائد الكفر والضلال !!

ولقد رجوت أن تبعث جدتى فى هذا العصر لترى ما نحن فيه من شقاء !

* * *

وسألت جدتى — وأنا مأخوذ بسحر حديثها — عما آل إليه أمر الفتى والفتاة ؟!

قالت جدتى : وأخذت الأمـيرة الصغيرة زوجها الفتى إلى قصر باذخ منيف ، وظلت تتعهده بعنايتها وترعاه !

... ودخل الفتى البرهمى الصغير مـدرسة ، وتلقى شيئاً من الدروس فيها على أساتذته هناك ... واختلط بأقرانه من طلاب الصف ، فسألوه عن أمره مع تلك الحسناء التى تساكنه فى القصر ؟ فحار فيما يرد عليهم إذ لم يكن هو يعرف من أمرها أكثر مما كان رفاقه يعرفون ...

... إنه لا يذكر إلا أنه جئ به إلى هذا القصر — ذى الأجنحة السبعة ! — يوم كان فى الغابة يحتطب ! ولكن تقادم العهد على هذا الحادث الفذ الغريب أبقى عنه فى ذهنه صورة مطموسة المعالم ، غير واضحة الأثر ...

ومضت على هـذا أربع سنوات أو خمس ... وأسئلة أقرانه الطلاب تترى عليه ، ولكنه ضاق ذرعاً بهذه الأسئلة وعزم على أن يعرف جوابها من هذه الحسناء التى معه ...

وعاد من مدرسته إلى القصر ، وفى نفسه أن يسأل الأميرة عما يضايقه به إخوانه الطلاب ... وسأل الأميرة عما أراد ... ولكن الأميرة استمهلته وضربت له أجلاً فى غير هذه الأيام ...

ولم يزل هذا دأبه معها : يسألها عن أمرها معه ، فتستريثه إلى أمد غير محدود ! وكان الفتى يلحف فى السؤال فلا تزداد هى إلا امتناعاً عليه !

... واعتزم أن يترك القصر الغامض العجيب إن أصرت الأميرة على عنادها هذا ، وأخبرها بما اعتزم إن لم تحدثه بما يريد ...

***

ضاق الفتى بالوقت الطويل ... أنه لا يكاد ينصرم إلا فى بطء شديد ؛ وكلما استعجل الأميرة ذكرته بالموعد المضروب ، فيصبر مضطراً إلى حين وفى نفسه لواعج تضطرب وهموم ...

لقد كان موعد الجواب بعد طعام العشاء ... حيث يأوى إلى فراشه لينام ... ها قد أزفت الساعة إذ تناول عشاءه وانصرف إلى مخدعه ليسمع لا لينام . قالت جدتى : ودخلت الأميرة مخدع الفتى وهى تستحضر له فى نفسها الجواب ... ولكنها ... .

قلت لجدتى والخوف قد أخذ مني مأخذاً كبيراً حتى كاد قلبي يقف عن وجيبه الشديد الذى كان قد استولى عليه :

— ثم ماذا ؟ !

قالت :

— لقد كان الفتى نائماً فى مخدعه ... إنه لم ينتظر حضور الفتاة ... أو قل إن الأقدار لم تمهله ليسمع الجواب الذى تلهف لسماعه هذا الأمد الطويل إذ تسللت إليه أفعى بين الزهور المنثورة على مرقده ولدغته ، فنام نومته الأبدية .. لقد مات المسكين ..

— ثم ماذا ؟ ! لا شىء ... وما الفائدة من الاسترسال فى الحديث ؟ إن الأمر سيسترسل فى الصعوبة والاستغلاق ... إن المرء لن يصل إلى نتيجة مجدية يرتاح إليها أو يطمئن ...

ولكن عقيدة الطفل لا يزعزعها الموت ! ! إنه لن يستطيع أن يدحر إيمانه القوى الشديد ... إنه يريد أن يغالب الموت فيختطف منه فريسته هذه التي أرداها ليمضى فى خياله مسترسلا ...

***

ثم يسمع الطفل الصغير — من جدته — ما صار إليه جسم الفتى المسكين ، — وهو بين النوم واليقظة — ... لعل الجسم دفن على شاطىء من شواطىء الأنهار تظله شجرة وارفة الظل من أشجار « الموز »

ثم يغلب النعاس أجفان الطفل الصغير فيسترسل فى أحلام النوم بعد أن استرسل فى أحلام القصص الخيالى الجميل ...

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

قصة صيف

للكاتب القصصي استيفان زوايج
بقلم الأديب أحمد فتحي عبد التواب

أمضيت أغسطس من العام الماضي بكارينبيا ، إحدى تلك الأماكن المجاورة لبحيرة كومو التي تختفي بهيجة على حافة الغابات في هدوء وسلام حتى في أحب أيام الربيع

وفي تلك الأسابيع القائظة كانت هذه المدينة الصغيرة المنعزلة عطرة ، وكان فندقها الوحيد خالياً من النزلاء دائماً ، وكان كل من النزلاء القليلين يعجب في نفسه سراً : لِمَ اختار الباقون هـذا المكان المنعزل لقضاء عطلتهم الصيفية ، ويتساءل صباح كل يوم : لِمَ لَمْ يبرحوه بعد ؟ وكنت أعجب أنا أيضاً من سيد تقدمت به السنون ، يميزه عن الباقين حسن بزته ، ويظهر من سيمائه أنه إما سياسي انجليزي صميم ، أو فرنسي جوال . مضت أيام إقامته بيننا دون أن يسمح بالاشتراك في أية تسلية محلية ، ولا يُرَى إلا متأملا دخان سيجارته يتصاعد في الجو عالياً ، وفي بعض الأحايين يقلب صفحات كتاب !

وفي أحد الأيام القائظة التي لا تحتمل جمعت بيننا الصراحة وشرف القصد والحرية القلبية المتبادلة فلم يكن للفرق بين عمرينا من حساب . فهو ليفوني المولد ، بدأ تعليمه في فرنسا وأتمه بانجلترا ؛ جواب بلدان لم يستقر في مسكن دائم عدة أعوام ، وتدرك بسهولة أن لا مكان له بين قراصنة الجمال الذين يتزينون بجوهرات المدن بأكملها أثناء رحلة واحدة من رحلاتهم . يتذوق الفنون جميعاً يجذبه نحوها هوى عميق ، ويصده عنها ازدراء واضح أقوى من حبه لها . قضى آلاف الساعات الفريدة متجولا في رياضها دون أن يهتم بأن ينفق لحظة واحدة يخلق فيها عملاً يذكره به . يحيا على هامش الحياة نافراً من الانتماء إلى أي الجماعات ، لأنه — كما يعتقد — كنتيجة لآلاف التجارب المختلفة ، تتبدد الثروات المخزونة بها دون خليفة يمتلكها بمجرد أن تخمد أنفاس أعضائها

حدثته في هذا الأمر إحدي الأمسيات وكنا جالسين في شرفة النزل بعد الغداء نراقب كيف يتلاشى أمام أعيننا بريق البحيرة رويداً رويداً

ابتسم وقال :

« قد تكون على حق . وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أعتقد في الذكريات . في اللحظة التي تفارقنا التجربة فيها ، تنتهي وتتلاشى . ألا يتبدد الشعر ويفنى أيضاً بعد عشرات ومئات السنين ؟ ولـكنني سأقص عليك اليوم أمراً تافهاً يخيل إلى أنه يصلح لأن يؤلف قصة سارة . تعال ، فالمرء يفضل أن يتحادث في هذه الأمور أثناء رياضة على الأقدام »

سرنا والطريق المحبوب المجاور للشاطئ تغمره ظلال الصنوبر والبندق السرمدية ، وتتلألأ من بين أغصانها البحيرة اللامعة ، ويقبع كالسحاب من

ورائها بيللاجيو منعكسة عليه الأشعة الهادئة من الشمس وقد قاربت المغيب ؛ وهناك بعيداً فى أعلى ذرى التل القائم يلمع جدار فيللا سربيللونا وكانت الحرارة محتملة ، تحمينا الظلال منها مثل ذراع حسناء ، وقد عبق الهواء بعطر ورود غير منظورة وابتدأ قائلاً :

« سأعترف لك قبل كل شىء ، فحتى الآن لم أبح لك بسرى . فمن عدة سنين خلت كنت هنا ، هنا فى كادينبيا ، فى مثل هذا الفصل ، ومقيم فى النزل عينه . وستدهش ولا شك فقد أخبرتك أننى أتجنب استعادة ذكريات تجاربى فى الحياة

« وبالطبع كانت كادينبيا إذ ذاك منعزلة كما هى الآن . وكان يقيم هنا أيضاً ذلك السيد الذى من ميلان ، والذى يظل طول اليوم يصيد السمك ليطلق سراحه فى المساء ، وهكذا كل يوم . وكان من بين المقيمين هنا سيدتان انجليزيتان عجوزان كان وجودهما صعب الاحتمال ، وشاب ظريف وفتاة شاحبة تسحر اللب ، لا أعتقد اليوم أنها زوجته من فرط ما كان يظهر للعيان أن كلا منهما يبادل الآخر حباً مبرحاً . وكانت تقيم فى النزل عائلة من شمال ألمانيا يميزها الجد العابس ، مكونة من سيدة مسنة ، كتانية الشعر هزيلة ، قبيحة الحركات متنافرتها ، تصوب من عينيها نظرة حادة كالفولاذ ، ولها فم مستقيم قبيح كأنما شرط بمبراة ، ترافقها سيدة أخرى أسن منها ، ولا إخالنى مخطئاً إذا قلت إنهما أختان ، فالسحنة واحدة إلا أن الثانية أهزل ووجهها أكثر تجعداً . وكانتا تجلسان معاً ، ساكنتين لا تفوهان بكلمة ، عاكفتين على التطريز كأنما تنسجان السآمة والملل . وكانت تجلس بينهما فتاة تبلغ السادسة عشرة من عمرها تقريباً هى ابنة إحداها ، وإن كان يعسر معرفة ابنة أيتهما ، لأنها كانت غير مهندمة وقد بدت سحنتها النسوية شاحبة باهتة ؛ غير أنها كانت فى الحقيقة ممشوقة القد ، نحيفة لم تنضج بعد ، لا تعنى بارتداء ثيابها فى ذوق ، إلا أن حنيناً بائساً يروعك انبعاثه من عينيها البراقتين اللتين تغضهما مضطربة إذا حدق فيهما محدق ، ويخفق ضياؤهما فى بلادة وفتور . وكانت دائمة التطريز ، ولكن فى بطء ، كأنما النعاس يدب فى أناملها التى سرعان ما تسكن ، وتسترسل فى أحلامها محلقة فى صفحة البحيرة البراقة

« ولست أدرى ما الذى أثر فى نفسى وحرك عواطفى نحوها . أكانت تلك الفكرة المألوفة المحتمة التى سرعان ما تخطر ببال من يرى الأم الذابلة الذاوية بجوار الابنة ، وقد بدأت تتفتح زهرتها وتينع ؟ أم كانت فكرة أن كل خد تنتظره التجاعيد ، وكل بسمة تنتهى إلى السآمة ، وكل حلم آخرته الخيبة ؟ أكانت تلك الرغبة الجامحة الواضحة التى تحتال الفتاة جاهدة لإخفائها ولكنها تغدر بها ويفشى سرها ما تنم عليه ملامحها ؟ أم أن التى أدهشتنى هى إحدى تلك اللحظات الفريدة العجيبة الخالدة فى حياة فتاة يافعة ، حينما تحملق فى الكون يدفعها الشوق والحنين ، باحثة عن المجهول الذى تشعر أنه ينقصها ، عن الشىء الوحيد الذى تتمنى لو تعلقت به كقشة يحملها التيار ، وبعد ذلك ، تذبل وتذوى وتتبدد ؟

« وجدت نفسى مسوقاً إلى مراقبتها لأكشف

عن سر تلك النظرة الحالمة المبللة بالدموع ، لألاحظ تلك الحالة التى تعتريها فتدفع بها لمعانقة كل قطة ، وتدليل كل كلب في إسراف ؛ لأميط اللثام عن هذا القلق الذى يحرك لهفتها على عمل كل شيء ولكنها لا تتم شيئاً ، عن هذا الحماس الشديد حينما تريد أن تلتهم المجلدات القليلة الموجودة بمكتبة النزل ، أو عند ما تتفرس حالمة فى ديوانَيْ جيته وبومباش وهما الشاعران المرهفا الحس الدقيقا الملاحظة ...

— ولكن لماذا أراك تبتسم ؟

— وكان علىّ أن أبرئ نفسى فقلت :

ليست إلا المقارنة بين جيته وبومباش

« فقلت: آه ، نعم ! مضحك ولا شك ، ولكنه على نقيض ذلك . صدقنى أن فتاة صغيرة فى مثل سنها لا يهمها أن تقرأ شعراً ، رفيعاً كان أو حقيراً ، واقعياً كان أو خيالياً ؛ فالشعر للمتعمقين ليس غير كؤوس يطفئون بها ظمأهم ، فإنهم لا يعبأون بكرمة النبيذ ما داموا قد سكروا قبل أن يشربوا . وهذه الفتاة كان يعذبها الشوق الدفين ، ينم عنه وميض عينيها ، وارتعاش أناملها ، وعدم استقرارها وترددها كما لو كانت تود لو تطير ، ولكن يقعد بها الخوف . فكنت تراها تحن لمن تبادله الحديث ، عساها تنفس عن بعض عواطفها المكبوتة ، ولكن لم يكن هناك غير وسوسة الإبر تذهب لليمين ثم للشمال ، وسكوت السيدتين البارد المقصود

« هزنى الحنان نحوها ، ولكن كيف يمكننى الدنو منها ؟ وماذا يصنع رجل فى خريف حياته لفتاة فى ربيع حياتها ؟ وقد محا كل إمكان فى تقديم نفسى كراهتى للعائلة ، وبخاصة بغضى التقرب من السيدات المتقدمات فى السن من الطبقة المتوسطة

« طرأت علىّ فكرة غريبة ، فكرت أنها فتاة صغيرة طاهرة ، عديمة التجارب ، وبالتأكيد تزور إيطاليا لأول مرة التى هى بالنسبة للألمانيين (وشكراً لشكسبير لأنه لم يذهب إليها بتاتاً) أرض الحب الخيالى والمحبين ، والمغامرات السرية ، والخناجر اللامعة ، والساحر والدونات ، والخطابات الرقيقة ... وبكل تأكيد إنها تحلم بكل هاته الغراميات . ومن ذا الذى يفهم أحلام فتاة شابة ، تلك الخيالات السابحة في عقلها على غير هدى وبصيرة كالضباب ، أو كالسحب وقت الغروب عند ما يلتهب لونها مبتدئاً بالوردى مُنتهياً بالأحمر القانى ؟ ولا شك أن اعتقادها — كما هدانى تأملى — أن لا شىء فى الوجود محال تحقيقه . وعلى ذلك عزمت على أن أخترع لها محباً مجهولاً

« ففى ذلك المساء حررت لها خطاباً رقيقاً ملأته بالدلة المحببة فى غير إسراف ، لا أطلب فيه شيئاً ولا أعد بشىء ، خطاباً مبهماً فى إسهاب ولكن بتحفظ ، وبالاختصار كان خطاب حب خيالى كقصيدة من الغزل ... ولما كنت أعلم أنها أول من تبادر إلى منضدة الافطار كل صباح ، فقد أخفيت الخطاب بين طيات منشفتها

« وفى صباح اليوم التالى راقبتها وأنا واقف بالحديقة ، فرأيتها وقد بغتت من المفاجأة وظهر عليها الخوف حينما قرأت الخطاب ، والتهبت وجنتاها الشاحبتان احمراراً ، وتدرج الاحمرار فصبغ جيدها ونحرها ، وأخذت تتلفت حولها حائرة وقد اضطربت حركة يديها ، عند ما أخفت الخطاب وهى تختلس النظرات ، وجلست فى مكانها هائجة مضطربة ،

وحاولت أن تتذوق إفطارها ولكن هيهات ، فقد أسرعت فى الاختفاء ، ولا شك أنها خرجت باحثة عن أى مكان منفرد تخفيه الظلال كى تتمكن من قراءة الخطاب الخفى الغامض مثنى وثلاث ... كما تريد أن تقول على ما أرى ... ؟ ؟ »

فقد بدرت منى حركة علىّ أن أوضحها :

« يلوح لى أن ذلك منتهى عدم التبصر . ألم تفكر فى أنها قد تستعلم من الخادم كيف وضع الخطاب فى منشفتها ، أو على الأقل تظهر والدتها عليه ؟ ؟ »

« من الطبيعي أنني فكرت في ذلك ، ولكنك حينما ترى تلك الفتاة العزيزة ، الهيابة ، الخائفة ، التى تتلفت حولها قلقة إذا ارتفع صوتها أكثر من المعتاد عند ما تتكلم ، يذهب عنك كل شك ، وإنه يوجد فتيات نقيات السريرة ، يمكنك أن تذهب معهن إلى أقصى غاياتك ، لضعفهن ، فيفضلن أن يتحملن قسوة التجربة المعلومة لديهن على المجازفة فى أخرى مجهولة

« وقد ارتحت عند ما رأيتها تخرج ، وطربت لنجاح تجربتى

« وأخيراً عادت ، وبغتة شعرتُ بالدم الحار يتدفق فى كياني . الآن تغيرت المشية ، بل تغيرت الفتاة بأجمعها ! ! فقد دنت فى حيرة وخزى واضحين ، ينم عنها موجة متأججة خضبت وجهها ، بينما حيرة حلوة مستحبة ربكت كل حركة منها . بَقِيَتْ طول اليوم على هذه الحالة ، تتفرس فى كل شباك ، كما لو كانت ستعثر فيه على السر الغامض ، وتتطلع إلى كل مار بجوارها . ومرة نظرت إلىّ ، وبكل حكمة تجنبت نظرتها حتى لا أفضح سرى . وفى لحظة أحسست لهيب تساؤلها فارتبكت .. وللمرة الثانية — بعد سنين من تجاريب الحياة — أشعر بأنه لا يوجد سرور أخطر بل أفتن من وميض أول أشعة الحب فى عينى فتاة

« رأيتها مرة أخرى جالسة بين العجوزين ، تطرز بأصابع مرتخية ، ولاحظت كيف أنها كانت تتحسس صدرها من وقت لآخر ، حيث تخفى الخطاب ولا شك

« وفى هذا المساء كتبت إليها خطاباً آخر ، وصرت أكتب إليها كل يوم ، حتى فتننى وخلب لبي التعبير عن شعور شاب فى خطاباتى ، لأخترع جوهر عاطفة نقية خيالية . وأصبحت رياضة تهزنى ، كالصيادين يسرون حينما ينصبون شباكهم لفريستهم فى الخلاء ؛ ولا يمكنني أن أصف لك جزءى من أن التجربة التى بدأتها بتحرير تلك الخطابات لا تتم

« تبدلت مشيتها فأصبحت تخطر فى خفة وسرور مطلقين ، وغطت ملامح وجهها مسحة من الجمال الشاذ المضطرب . ولا شك أنها تقضى ليلها متلهفة مترقبة خطاب الصباح ، لأنه فى وقت الافطار كانت عيناها تبدوان ذابلتين غير مستقرتين يخفق وميضهما . وقد ابتدأت تعنى بنفسها ، تزين شعرها بالورود وتتحسس كل شىء فى رفق وحنان عجيبين ، وتنم نظراتها عن تساؤل دائم ، لأنها شعرت ولا شك — من العبث الذى كنت أسطره فى خطاباتى — أن الكاتب بل الملاك الذي يُحَمِّلُ النسيم ألحاناً تُشجيها قريب منها ، ولكنه غير منظور . ونمتْ سعادتها وترعرعت حتى أن السيدتين الخاملتين لاحظتا التغير الذى بدا عليها ، وكثيراً ما غضتا النظر عن تورد خديها وحركة أصابعها العضبية السريعة .. وأخيراً تختلس التنهد كل منها . وقد عمق صوتها وبدا أوضح وأقوى وأجسر ، وفى حلقها نبضة

ترتجف دائماً ، كما لو أن أغنية تود لو تنفجر وتسيل منتصرة مثل ... ولكنك تبتسم مرة أخرى ؟ ؟ »

« لا لا أبداً !! تفضل بالاستمرار ، كنت أفكر فقط كيف إنك تجيد قص كل هـذا . واسمح لى أن أقول لك أنك ذكى ، ويمكنك بكل تأكيد أن تكتب القصة كأشهر روائيينا »

« تريد أن تقول لى بكل أدب وحذر إننى أقص القصة — مثل كتابكم الألمان الأعزاء — بأسلوب مشرق ، ثرثار ، خيالى ، مطول . نعم وقد أكون أسرع !!

« وأخذت أبعـد الشبهة عنى بمنتهى الحذر والفطنة . وقد أبنت لها فى خطاباتى أن المرسـل لا يقيم فى كارينبيا ، بل فى إحـدى المصحات المجاورة ، وأنه يأتى كل يوم إلى كارينبيا إما بالقارب أو بالباخرة . فكانت كلما سمعت رنين جرس الباخرة المقتربة ، تنتحل الأعذار وتفلت من رقابة العجوزين وتندفع نحو البحيرة ، وفى ركن الرصيف تقف — وهى ممسكة أنفاسها — ترقب النازلين

« ومرة بعد ظهر أحد الأيام الراكدة — ولم يكن لي ما أفعله أفضـل من مراقبتها — حدث حادث هام : ذلك أنه كان بين القادمين شاب مهندم يرتدى زى شبان الايطاليين فى غاية الانسجام والأناقة ؛ وعند ما أدار طرفه بين المستقبلين ، التقت نظرته بتلك النظرة العميقة الباحثة فى يأس وقنوط ، المتسائلة ، نظرة فتاتنا الصغيرة ، وسرعان ما احمر وجهها المصفر من فرط الخجل

« تريث الشاب وانتبه — كما يحصل دائماً لكل من تصادفه مثل تلك النظرة النافذة — وتنهد ثم أخذ يقترب منها ... أما هى فانسابت بين الأشجار ثم وقفت قليلا لتتحقق إذا كان هو العزيز المنتظر . ثم أسرعت فى الابتعاد متلفتة حولها ثانية ..

إنه الكفاح الأزلى بين الارادة والخوف ، بين الرغبة والعار ، والأقوى فيه دائماً هو ذلك الضعف الحلو اللذيذ

« ومن الواضح أن الشاب قد تشجع ، وبالرغم من العجب الذى أصابه ، أسرع فى أثرها . فتولانى خوف من أن كل شىء قد ارتبك واختلط . وفى هذه اللحظة ظهرت السيدتان الألمانيتان على رأس الطريق ، فأسرعت الفتاة نحوهما كالطير المذعور . فتقهقر الشاب بحـذر ولكنه التفت مرة ثانية والتقت نظراتهما الملتهبة التى أصابت كلا منهما فى الصميم

« وفى أول الأمر نبهتنى هذه الحادثة إلى أن أنهى هذا الدور الذى كنت ألعبه ، ولكن التجربة كانت لم تزل على أشـدها ، وعزمت على أن أغتنم هذه الحادثة . ففى المساء حررت لها خطاباً مطولاً أكدت فيه حدسها ، وكنت سعيداً جداً بأننى سأضرب عصفورين بحجر

« وفى صباح اليوم التالى ، راعتنى منها تلك النظرات الحائرة فى عينيها ، فقد خضعت تلك الجميلة الضجور لسكون عصبى غامض ، واحمرت عيناها وتندت من كثرة الدموع التى انسكبت ، وكأنما سكن فى أعمق أعماقها ألم قاتل . وخيل إلىّ أن سكونها هذا كالهدوء الذى يسبق الزوبعة العاتية ؛ وبدأت أشعر بالخيبة بعـد أن كنت أبغى السرور الخالص ، فلم تطع الراقصة ولم ترقص كما كنت أود

« أنعمت النظر فى كل احتمال ، ولكننى لم أهتد إلى حل موفق . وبدأ يروعنى نصيبى فى هذه المسئلة ، ولكنى أتجنب نظراتها الشاكية الباكية . لم أعد إلى النزل حتى المساء . فلما أبت تذكرت كل

شيء . فالمائدة لم تشغل ، والعائلة قد رحلت ، وهي قد أرغمت على الرحيل دون أن تتمكن من التمتع بكلمة واحدة يسرُّها لها الحبيب ، ودون أن تعلن لذويها كيف أن قلبها سكن يوماً واحداً بل لحظة واحدة إلى حبيبها المعبود . استيقظت من حلم حلو لذيذ لترحل إلى إحدى القرى القاتمة تجتر أحلامها الخائبة .

« فاتنى كل ذلك ، والآن يهمني ويشعرني العار تلك النظرة الأخيرة الباكية ، وهذا المزيج المخيف من الغضب والعذاب واليأس القاتل والأسف الحاد الذى سببته لها بسوء تصرفى »

***

أحاطنا الليل بظلمته ، وتسرب ضوء القمر — الذى يطل بنصف وجهه من بين السحب — من بين الأشجار كالحيات تسعى ؛ وزاد المكان روعة شحوب النجوم وسكون البحيرة الميتة . مشينا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، وقد غرق رفيقى فى تخيل عميق . وأخيراً قال :

« تلك هى القصة ! ألا تصلح لأن تكون قصة جيدة ؟ »

« لا أدرى ، إنها قصة سأحتفظ بها بين قصص الحياة العديدة . وعلى الرغم من قصرها ربما يسترعى الانتباه فقرة جيدة تلمح من بين سطورها القليلة . إنها بداية ولا بد من خاتمة لها »

« آه ! فهمت ما ترى إليه حياة الفتاة وعودتها إلى القرية ، والمأساة المرعبة فى المكان المعلوم ... ؟ »

« لا ... ليس هذا بالذات ، فالفتاة لم تذهب بعيداً في مسرتى . فالفتيات الصغيرات عادة لا يسببن سروراً إذ يعتبرن أنفسهن كاملات التجارب ، ولا سيا وأن موقفهن سلبي . وعلى ذلك فكلهن متشابهات . وإليك مثلاً : فالفتاة فى هذه الحالة ، عند ما يحين الوقت الذى فيه تتزوج من شاب متمدن متوسط الطبقة فاضل ، لا يتألق فى مخيلتها إلا الورود الملتهبة اليانعة والأحلام المحلقة الحائمة حول الزوج العزيز ؛ أما حقيقة الحياة ومرارتها فلن تمر لها بخاطر ... لا ... لا ... أنا لا أسر بالفتاة الصغيرة »

« هذا غريب ! ولا أدرى أى سرور تجده فى الشاب ، فإن مثل تلك النظرات الملتهبة تصادف كل إنسان فى شبابه ، إلا أن معظمهم لا ينتبهون لها مطلقاً وبعضهم ينسونها سريعاً . ويجب أن تتقدم بالمرء السن حتى يعلم أنها ربما كانت أشرف وأعمق تجارب الوجود وأعظم امتياز مقدس لمهد الشباب ... »

« إنه لا يرضيني الشاب الصغير أيضاً ... »

« إذن ؟ »

« سأحدد موقف الرجل العجوز ، كاتب الخطابات ، وأصور مقاوماته ... لا أظن أنه يوجد مخلوق مهما بلغت به السن ، في قدرته أن يحرر الخطابات الغرامية الملتهبة ويحلم بالحب ثم يخشى اللوم والتقريع ... سأحاول أن أصف — مستنبطاً من مجرد الحقيقة — كيف تنمو العاطفة وتترعرع فتستبد به وتتسلط على تفكيره وتصرفاته فى الوقت الذى يخيل إليه فيه أنه المسيطر على عواطفه الضابط لها ... فجمال الفتاة المشرق — فى الوقت الذى يعتبر نفسه كالمتفرج اللاهى به — يجذبه ويسبيه ، ثم يؤثر فيه ويسكن فى أعماقه البعيدة ، وعند ما يفقد كل مقاومة ، تتنبه فيه رغبة جامحة للنزال والهروب ولكن هيهات ... وتلك هي الملهاة ؛ وهذا الرد فعل (الانعكاس) للحب — الذي يجعل العاطفة فى العجوز والشاب متشابهة تماماً — هو الذى يسرنى

« سأصور شعوره بالخوف ، وسأظهره غير مستقر ، يضرب فى الأرض باحثاً عنها عسى أن

يراها ، ولكنه لا يجرؤ على الوصول إليها . سأجعله يكر راجعاً لنفس المكان الرهيب آملا أن يجدها مرة ثانية ، يستجدى القادر أن ترحمه ولكنها لم تزل ثابتة على قسوتها حتى اللحظة الأخيرة .. بهذه النتيجة وبتلك الصور سيتم بناء القصة الصغيرة .. »

« كذب ، خداع ، غير ممكن ...! »

فزعت وجفلت من صوت رفيقى الذى قطع علىّ قولى بقسوة وتهديد ، ولأننى لم ألاحظ عليه من قبل مثل تلك الثورة العاطفية . وفى لمح البصر أخذت أستعيد فى مخيلتى ما عساى أكون قد جرحت إحساسه به فى غير وعى منى ، فإذا به يقف فجأة وقد بدت على تقاسيم وجهه آثار الألم الذى يحسه . ورغبت فى أن انسحب سريعاً ، وأغير موضوع الحديث ، ولكنه تنبه ثانية وعاد يتم حديثه بصوت هادئ عميق ممزوج بعصبية محببة :

« قد تكون على حق ، وهذا فى الواقع سار جداً ، فالحب يكلف العجائز غالياً . وأتذكر أن بلزاك قد جعله عنواناً لإحدى قصصه الشجية المثيرة للعواطف . ولا شك أن كثيرين غيره سيكتبون تحت العنوان نفسه ، ولكن كبار السن منهم — الذين يعلمون أسرار ذلك — سيقتصرون على ذكر وقائع النجاح والفوز دون الاخفاق والهزيمة مطلقاً . إنهم يخشون أن يكونوا سخرية فى مواقف لا تنتهى حتى يسكن رقاص الزمن الأزلى. وهل تعتقد حقيقة أن تلك الفصول من مذكرات كازانوفا ، التى تصف المفاجآت التى تفجأنا فى سن متقدمة قد فقدت ؟؟ كلا ... إننى أعتقد أن قلبه ويده قد هرما قبل أن يتمها ... »

بسط إلىّ رفيقى العجوز يده وقد أتم قوله بصوت ينم عن البرود والتحجر :

« ليلة سعيدة أتمناها لك ، ولو أنى أرى ، أنه من الخطر أن تحكى للشباب قصص ليالى الصيف المثيرة . إنها سرعان ما تلهب فيهم العاطفة الملتهبة ، وتتركهم نهباً للأحلام السخيفة والأمانى الباطلة ... مساء الخير !! »

***

وغاب فى ظلام الليل بخطواته التى لم تخفف من وقعها السنون إلا قليلا . وكان الوقت متأخراً ، ولكننى أحسست بضيق طالما يصيبنى لسبب حرارة الليل وفورة الدم فى عروقى عند المعركة أو حينما يكون المرء صريع تجربة مجهولة — فى لحظة محزنة —

فانسبت فى الطريق المظلم الموصل إلى ڤيلا كارلوتا ، التى تنحدر درجاتها المرمرية حتى تغمرها مياه البحيرة ، فجلست على حجر أحسست برودته ، وكان الليل عجيباً وأنوار بللاجيو التى كانت تنساب من بين الأشجار كالدود الملتهب المتوهج تبدو الآن بعيدة بعداً شاسعاً تلمح فوق سطح البحيرة ، وأخذت تختفى تدريجياً واحدة إثر واحدة حتى لف المكان ظلام شامل مخيف . ولم يؤنسنى فى وحشتى إلا خفقان الأمواج وهى تصطفق على درجات السلم ، وإلا خفقات النجوم اللامعة فى السماء الشاحبة اللانهائية . وبين لحظة وأخرى تنفجر إحدى النجوم وتغوص فى ظلام الليل المرعب كالسهام الطائشة . ترى إلى أين تسقط وتستقر ؟؟؟ ... فى الوديان والجبال وفى أعماق البحار البعيدة . ولا شك أنها تنقذف بقوة طائشة مثل حياة ألقيت من عل فى أعمق أعماق أقدار مجهولة

أحمد فتحى عبد التواب

شمعدانات الأسقف

مسرحية فى فصل واحد

لنورمان ماكنيل

ترجمة "الناقص"

للمستر نورمان ماكينل كاتب هذه الرواية مركز عظيم فى المسرح الانجليزى الحديث ، لا كمؤلف فانه لم يؤلف غير روايتين غير هذه الرواية ، وإنما كممثل يتزعم مدرسة التمثيل الطبيعي غير المتكلف

وقد اقتبس هذه الرواية ذات الفصل الواحد من قصة فيكتور هوجو العظيمة (البؤساء) . وقد أبدى براعة فائقة حتى ضمن هـذا الفصل الواحد حادثة جان فالجان (المجرم) مع نيافة الأسقف ولكوم Welcome التى تستغرق الفصول الثانى حتى الثانى عشر من كتاب فاتين مع المحافظة على روح القصة الأصلية

زمن القصة

أوائل القرن التاسع عشر

مكان القصة

فرنسا على بعد ثلاثين ميلا من باريس

الاشخاص

الأسقف

المجرم

برسوميه (أخت الأسقف ، أرملة)

ماري

ضابط

جنـد

المنظر

المطبخ فى كوخ الأسقف ، وهو نظيف ومؤثث باللازم من الأدوات .

يوجد به ثلاثة أبواب : باب إلى اليمين ، وباب إلى اليسار ، وباب فى الركن الأيسر . وتوجد نافذة فى الركن الأيمن . وفى أدنى اليمين موقد ثقيل ، وأمام باب الركن الأيسر مقعد من خشب البلوط عليه مخدات ، وتحت النافذة مائدة عليها أدوات الكتابة وصليب من الخشب ، وإلى يمين النافذة ساعة تملأ كل ثمانية أيام ، وفى أقصى اليسار دولاب للمطبخ ، وفى الركن الأيمن مائدة للأكل من خشب البلوط ، ويوجد غير ذلك كراسى وكتب وأشياء أخرى... ويظهر فى خارج المطبخ منظر غابة شتوية . على رف الموقد شمعدانان غاية فى الجمال يظهران كأنهما غريبان وسط هذه الأشياء

(عند رفع الستار ترى مارى وهي تلاحظ الحساء الذى على النار وبرسوميه وهى تطوى بعض الملابس)

برسوميه — ماري ألم يغل الحساء بعد ؟

ماري — لم يغل تماماً يا سيدتى

برسوميه — كان من الواجب أن يغلى الآن . إنك لم تلاحظى النار جيداً أيتها الطفلة

مارى — ولكن الذى أشعل النار هو أنت يا سيدتى

برسوميه — لا تجيبينى بمثل هذه اللهجة الجافة

مارى — نعم يا سيدتى !

برسوميه — إذن لا تدعينى أعود إلى تأنيبك

مارى — نعم يا سيدتى !

برسوميه — إنى لأعجب أين يكون أخى الآن (تنظر إلى الساعة) لقد جاوزت الحادية عشرة ولم يعد بعد ... مارى !

مارى — نعم يا سيدتى

برسوميه — ألم يترك لى نيافـة الأسقف رسالة ما ؟

مارى — كلا يا سيدتى

برسوميه — ألم يخبرك عن وجهته ؟

مارى — بلى يا سيدتى

برسوميه — (مقلدة إياها) بلى يا سيدتى ...

إذن لِمَ لَمْ تخبرينى بذلك أيتها الحمقاء ؟

ماری — إنك لم تطلبي منى ذلك يا سيدتى

برسوميه — ولكن ليس هذا بالسبب الذى يدعوك إلى عدم إخبارى

ماری — لقد طلبت منى سيدتى هذا الصباح عدم الثرثرة ، ولذا ظننت ...

برسوميه — لقد ظننت ! آه ... يا إلهى ... لا فائدة منها مطلقاً

ماری — نعم يا سيدتى

برسوميه — ألا تكفي عن « نعم يا سيدتي » هذه أيتها البيغاء الغبية ؟

ماری — بلى يا سيدتى

برسوميه — ألم يخبرك الأسقف عن وجهته ؟

ماری — لقد ذهب إلى والدتى يا سيدتى

برسوميه — أحقاً ذهب إلى والدتك ؟ ! ... لماذا ؟ ... أرجوك

ماری — لقد سألنى نيافته عن صحتها فأخبرته أنها ليست على ما يرام

برسوميه — لقد أخبرته أنها ليست على ما يرام أليس كذلك ؟ ولذا غادر أخى البيت دون عشاء لأنك أخبرته ذلك . إنك تستحقين الشكر !

ماري — إن الحساء يغلى يا سيدتى

برسوميه — إذن أعديه فى الأطباق ولا تكثرى من الكلام أيتها الغبية (تكاد ماري أن تفعل ذلك) لا ... لا ... ليس كذلك ... دعى ذلك لى وضعى أنت المالح على المائدة ... المالح الفضية

ماری — المالح الفضية ياسيدتى ؟

برسوميه — نعم الفضية ... أأنت صماء إلى جانب غبائك ؟ !

ماری — لقد بيعت يا سيدتى

برسوميه — بيعت ! (بفزع) بيعت ! ... أجننت ؟ ... ومن ذا الذى باعها وله ؟

ماری — لقد طلب منى نيافة الأسقف بعد ظهر اليوم وأنت فى الخارج أن أذهب بها إلى السيد چرفيه وأبيعها منه بأكبر ثمن ممكن

برسوميه — ولكن ليس لك أن تفعلى ذلك دون استشارتى

ماری — (بحزن) ولكن ، ياسيدتى ، لقد طلب منى نيافته ذلك

برسوميه — إن نيافة الأسقف ليس إلا ... إ ... إ ... ولكن ما سبب حاجته إلى المال ؟

ماری — عفواً يا سيدتى ولكنى أعتقد أنه ما فعل ذلك إلا من أجل الأم جرنجوار

برسوميه — أحقاً الأم جرنجوار ؟ ... الأم جرنجوار ! ... تلك الساحرة التى تسكن فى أعلى الربوة والتى تكسل عن ترك فراشها للبحث عن القوت ، وما حاجة الأم جرنجوار إلى المال ؟

ماری — لقد مرّ عليها المحصل وأخبرها أنه لا يمكنه الانتظار أكثر من ذلك وهددها بالطرد إن لم تدفع إيجار مسكنها ، ولذا أرسلت جان الصغير ليطلب معونة القس و ...

برسوميه — يا إلهى .. لا فائدة .. لا فائدة .. سيضيع منا كل شيء .. فقد بيعت ممتلكاته وذهبت مدخراته وضاع أثاثه؛ ولولا مهري الصغير لتناجوعاً ... والآن جاء دور مماحي (بتنهد) ملاحاتى الجميلة ... إن هذا لكثير ... كثير ... (تنفجر باكية)

ماری — إنى لآسفة يا سيدتى ... لو كنت أعلم ...

برسوميه — آسفة ؟ ولِمَهْ ؟ ... أرجوك ... إن نيافة الأسقف لو أراد أن يبيع مماحله لما عارضه إنسان ... هيا اغسلى يديك فإنهما قذرتان

ماري — نعم ياسيدتي ...

(تذهب جهة الباب ... يدخل الأسقف من باب الركن)

الأسقف — آه ... ما ألذّ هـذا الدفء — إنه ليستحق أن يذهب الإنسان خارجاً فى البرد القارس حتى يستمتع بالدفء عند رجوعه ثانية !

(تسرع برسوميه وتساعده فى خلع معطفه فى حين تنحى ماري لتحيته)

شكراً يا عزيزتى (ينظر إليها) ماذا حدث ... ؟ إنك تبكين ... هل ضايقتك مارى (يهز أصبعه فى وجه مارى كأنه يهددها) آه !

برسوميه — لم تفعل مارى شيئاً ... ولكن ... ولكن ...

الأسقف — حسن ... ستخبريننى عاجلاً . والآن هيا إلى المنزل يا ماري ... إن والدتك أحسن من ذى قبل . لقد صليت معها وقد عادها الطبيب .. هيا أسرعى (يضع مارى جاكيت على كتفها وتهم بالخروج) وإذا كانت والدتك مستغرقة فى النوم فالزمى السكون

مارى — أوه ، شكراً ، شكراً لنيافتك

(تذهب إلى باب الركن وعند ما تفتحه يندفع الثلج داخلا)

الأسقف — مارى ... خذى كوفيتى هذه لعلها تقيك برد هذه الليلة القارس

مارى — (بخجل) أوه .. كلا ياصاحب النيافة

برسوميه — ما هذا الهراء يا أخى ؟ ... إنها صغيرة ولن يؤثر فيها البرد

الأسقف — برسوميه ! . . . إنك لا تعلمين مقدار البرد فى الخارج لأنك لم تتركى المنزل .. مارى ! دعينى أدثرك بها (يفعل ذلك) والآن أيتها الطفلة هيا أسرعى إلى المنزل

(تخرج مارى من باب الركن)

برسوميه — لقد عيل صبرى عليك يا أخى ... هيا اجلس واشرب حساءك فقد برد من طول الانتظار

الأسقف — ما أبدع رائحتها !

برسوميه — إنى لأعتقد أن والدة مارى ليست مريضة إلى الحد الذى يدعوك إلى زيارتها فى مثل هذه الليلة . و إنى لعلى ثقة من أن هؤلاء الناس إنما يدعون المرض حين تزورهم دون أن يفكروا فى تعبك

الأسقف — إنها لمكرمة منهم أن يحاولوا رؤيتى !

برسوميه — هذا حسن ، ولكننى أعتقد أن الحسنة تبدأ فى منزل المحسن أولا

الأسقف — ولذا أعددت لى هـذا الحساء اللذيذ ؛ ما أطيب قلبك نحوى يا أختى

برسوميه — إننى أيضاً أرى أننى طيبة القلب نحوك ، ولعلنى إذا تخليت عنك لكنت ضحية كذب الماطلين والكسالى

الأسقف — إذا كذبنى الناس فهذا دليل على أنهم أفقر منى ولست أنا الفقير

برسوميه — ولكن هذا تهور ؛ وسيأتى اليوم الذى تصبح فيه معدماً فقد بعت كل شىء ... كل شىء ! !

الأسقف — ما أكثر آلام الحياة يا أختى العزيزة ؛ وإننى لن أستطيع أن أخفف من هـذه الآلام إلا القليل (يتنهد) القليل جداً

برسوميه — حقاً إن الآلام كثيرة ولكنك

لا تفكر فى الآلام التى تسببها لمن يحبونك ... الآلام التى تسببها لى أنا

الأسقف — لك أنت يا أختى العزيزة ؟ هل آذيتك ؟ ... آه ... لقد تذكرت أنك كنت تبكين ؛ أكان ذلك لخطأ ارتكبته نحوك ... لم أكن أقصد إلى إيذائك ... إنى آسف

برسوميه — آسف ... وهل يستطيع الأسف أن يصلح ما حدث ... ؟ هيه ... ! هيا اشرب حساءك قبل أن يبرد

الأسقف — حسن ياعزيزتى (يجلس) ولكن خبرينى ...

برسوميه — إننى لا آمن عليك وأنت بعيد عن نظرى كالطفل سواء بسواء ، فقد انتهزت فرصة غيابى وأرسلت هذه الغبية مارى لتبيع المالح الفضية

الأسقف — آه ... المالح الفضية ... إنى لأذوب شفقة عليك فقد كنت ... كنت فخورة بها

برسوميه — إنها تراث عائلى قديم ، ولذا كان من الطبيعى أن أفخر بها

الأسقف — إنى لأشفق عليك فقد كانت مملحات قديمة ، ولكننا نستطيع أن نستعمل مملحتان صينية بدلاً منها

برسومبه — نعم نستطيع ذلك بل ونستطيع ألا نجد ما نأكله ، وستكون هذه خاتمتنا ... إنى لأعجب من جرأة تلك العجوز الأم جرنجوار فقد وجهت إليها بضع كلمات قاسيات كنت أحسبها ستبعدها عنا نهائيًا

الأسقف — نعم رفضت طلبى حينما أردت أن تبقى بيننا بضعة أيام وقالت إن هذا ربما يسوءك

برسوميه — يسوءنى !

الأسقف — وقد رفض المحصل — وهو كما تعلمين رجل عمل لا تلين عاطفته — رفض أن تبقى ولو ليوم واحد دون أن تدفع ما عليها ، ولذا فأنت ترين أنى كنت مضطرًا إلى دفع الإيجار

برسوميه — كنت مضطرًا إلى دفع الإيجار؟!
(علامة يأس مضحكة)

الأسقف — نعم كنت مضطرًا ، ولما لم يكن معى من المال ما يكفى فقد ضحيت بالمالح ... إنه لمن حسن الحظ أن كانت عندى ... أليس كذلك ؟ (يبتسم) ولكننى آسف إذ أحزنتك

برسوميه — إنك لو استمررت على هذه الحالة الخاطئة فسيأتى اليوم الذى تبيع فيه شمعداناتك

الأسقف (بعزم) — لا لا يا أختى ... ليست شمعداناتى

برسوميه — ولِمَ لا ؟ أظن أنها تكفى لدفع إيجار بعض الناس

الأسقف — إنها لحسنة منك يا أختى أن تفكرى فى ذلك ولكن ... ولكنى لن أبيعها ... لعلك تعلمين أن والدتى قد أعطتنيها وهى على سرير الموت بعد ولادتك مباشرة ، وقد طلبت منى أن أحتفظ بها لأذكرها دائمًا ، ولذا فلن أبيعها ... ولكن لعلنى مخطئ فى الإبقاء على مثل هذه الثروة

برسوميه — أخى ... أخى ... إنك تملأ قلبى حزنًا (بصوت باك) كفى يا أخى ولا تقل شيئًا ... هيا قبلنى وأعطنى بركتك فسأذهب إلى الفراش (يقبلها ثم يرسم علامة الصليب ويتمتم ببعض الأدعية بينما تغلق برسوميه الدولاب بالمفتاح ثم تذهب إلى الباب الأيمن)
لا تقرأ كثيرًا فتتعب عينيك

الأسقف — كلا يا عزيزتى ... مساء الخير
(تذهب برسوميه من الباب الأيمن ويذهب الأسقف إلى

المائدة حيث يفتح كتاباً ثم ينظر إلى الشمعدانات) إنها تكفى لدفع إيجار بعض الناس ... إنها لحسنة منها أن تفكر فى ذلك (يقلب النار ويصلح المصباح ويرتب بعض الكتب والأوراق ثم يجلس ولكن تظهر عليه عدم الراحة وتعروه رعدة خفيفة . تدق الساعة فى الخارج الثانية عشرة فيجلس ليقرأ . تسمع أثناء ذلك موسيقى)

المجرم — (يدخل متلصصاً وفى يده خنجر كبير ويقف خلف الأسقف) ستصبح جثة هامدة إن حاولت الصياح

الأسقف — ولكن لِمَ أصيح أيها الصديق وأنا — كما ترى — ماض فى قراءتى ... هل من خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟

المجرم — (بخشونة) أريد طعاماً فانى أموت جوعاً ... لم يدخل جوفى شىء منذ ثلاثة أيام ... قدم إلىّ الطعام سريعاً ... سريعاً عليك اللعنة !

الأسقف — (متلهفاً) نعم ياولدى سآتيك بالطعام حالاً ... انتظر قليلا حتى أطلب من أختى مفتاح الدولاب (يقف)

المجرم — إجلس مكانك ! (يجلس القس مبتسما) لا شىء من هذا أيها الصديق ! لست بالطائر الصغير حتى تقتنصنى بيمض الحب . ستطلب من أختك المفاتيح أليس كذلك ؟ خدعة مسبوكة حتى تستطيع إيقاظ كل من فى البيت . ها ها ! ما أحسنها هذه المزحة ! أرنى أين الطعام فانى لا أحتاج إلى مفاتيح . إن فى بطنى ذئباً يقطع أحشائى . أسرع وأخبرنى أين الطعام

الأسقف — (مخاطباً نفسه) كم أود ألا تغلق برسوميه هذا الدولاب ! (مخاطباً المجرم) لِمَ الخوف يا صديقى ولا يوجد فى المنزل إلا أنا وأختى ؟

المجرم — وأنى لى أن أعرف صدق هذا القول ؟

الأسقف — لقد أخبرتك أنا به

المجرم — (ينظر إلى الأسقف طويلا) هيه ... سأخاطر بحريتى

الأسقف — (يذهب إلى الباب الأيمن)

المجرم — ولكن لا تحاول أن تخدعنى فانك إن خدعتنى فسرعان ما أغرس خنجرى هذا فى قلبك . ولتكن متيقناً من قولى هذا يقينك أن جهنم مليئة بالشياطين . ولتعلم أنى لن أخسر شيئاً إذا ما قتلتك

الأسقف — إنك ستفقد روحك يا بنى وهى أغلى من قلبى (ينادى عند الباب الأيمن) : برسوميه ... برسوميه

المجرم — (يقف خلف الأسقف على استعداد لقتله)

برسوميه — (من الداخل) نعم يا أخى

الأسقف — أرجو إن لم تكونى قد خلعت ملابسك أن تحضرى لفتح الدولاب حتى أقدم عشاء لجوال فقير قد عضه الجوع بنابه

برسوميه — (من الداخل) فى مثل هذا الوقت المتأخر ؟ ما أجل هذا العمل ! ألا نستطيع النوم قليلا دون أن يزعجنا أحد هؤلاء الرحل الذين لا يجدون عملا ؟

الأسقف — ولكن الجوال جوعان يا برسوميه

برسوميه — (من الداخل) حسن ! سأحضر (عند ما تدخل برسوميه من الباب الأيمن ترى الخنجر فى يد المجرم فتقول بفزع) أخى ما الذى سيفعله بهذه السكين ؟

الأسقف — السكين ... آه ... لعله حسبنى قد ... قد بعت سكاكيننا (يضحك بهدوء)

برسوميه — (مسرة إلى الأسقف) أخي ، إني فزعة ، ألا ترى نظراته إلينا يتطاير منها الشرر ؟

المجرم — ألا تسرعان ... هيا أحضرا الطعام وإلا أغمدت سكيني في جسميكما كليهما وفررت

الأسقف — أعطني المفاتيح يا برسوميه (تعطيه إياها) . والآن ، يا عزيزتي ، في وسعك أن تذهبي إلى فراشك (تهم برسوميه بالذهاب إلا أن المجرم يقفز حتى يقف في طريقها)

المجرم — قفي ! فلن يغادر أحدكما هذه الغرفة قبل أن أفعل أنا ذلك (تنظر إلى الأسقف)

الأسقف — أظن أن هذا الصديق المهذب (Jentleman) يريد أن تتعطفي وتجالسيه أثناء الطعام فهل أنت فاعلة ؟

برسوميه — حسن يا أخي (تجلس إلى المائدة وهي تلاحظهما)

الأسقف — هاك طبقاً من اللحم وزجاجة من الخمر وقليلا من الخبز

المجرم — ضعها على المائدة وقف أمامي حتى لا تغيب عن ناظري

الأسقف — (يفعل ذلك ثم يفتح درج الدولاب ويخرج منه سكينة وشوكة ثم ينظر إلى الخنجر في يد المجرم

المجرم — إن سكينتي لحادة (يمرر يده على حد الخنجر وينظر إليهما نظرة ذات معنى) أما عن الشوكة (يمسكها بيده) باه ! حديد (يرميها بعيداً) لم نكن لنستعمل الشوك في السجن

برسوميه — السجن ؟

المجرم — (يقطع من اللحم قطعة كبيرة مستعملا في ذلك أصابعه وكأنه حيوان جائع) ما هذا (ينظر إلى الباب) لم بحق الشيطان تترك النوافذ والأبواب دون إغلاق ؟ إن ذلك يجعل دخول أي شخص هنا من السهولة بمكان .

الأسقف — وهذا هو سبب تركها دون إغلاق

المجرم — حسن ، لقد أغلقت الآن

الأسقف — (يتنهد) للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً

المجرم — (يأكل بشره ثم يرمي إحدى العظام على الأرض)

برسوميه — أوه ! البلاط الجميل النظيف !

الأسقف — (يلتقط العظمة ثم يضعها في أحد الأطباق)

المجرم — ألا تخشى اللصوص ؟

الأسقف — إني أشفق عليهم

المجرم — تشفق عليهم ؟ ها ها ها ! (يجرع بعض الخمر من الزجاجة) هذا جميل ، تشفق عليهم ، ها ها ها ! (يجرع بعض الخمر) (فجأة) ماذا تكون بحق الشيطان ؟

الأسقف — إني قس

المجرم — ها ها ها ! قس ، يا للعذراء المقدسة ، قس ، حسن ، لقد أصبحتُ ملعوناً .

الأسقف — تستطيع أن تكون مباركاً .

برسوميه تستطيعين أن تتركينا وحدنا وأظن أن صديقي هذا لن يمانع في ذلك

برسوميه — أأتركك مع ...

الأسقف — أرجوك ... إننا نستطيع إذ ذاك — صديقي وأنا — أن نتكلم بحرية أكثر من الآن

المجرم — (بسبب الجوع يكون في هذه الأثناء قد تأثر بفعل الخمر) ما هذا ؟ أتترككنا ؟ نعم ، نعم ، فلتتركينا ، مساء الخير فإني أود أن أحادث القس ، القس ، ها ها (يضحك في أثناء شربه ويكح)

الأسقف — مساء الخير يابرسوميه (يفتح الباب الأيسر لبرسوميه فتخرج منه ولكنها عند ما تمر بالمجرم تضم ثوبها إليها)

المجرم — (يخاطب نفسه مسروراً) قس، هاها! حسناً، إني ... (يرفع صوته فجأة) ألاتعرف من أنا؟

الأسقف — أظنك أحد أولئك الذين قاسوا كثيراً من المتاعب

المجرم — قاسيت (مرتبكا) قاسيت؟ يا إلهي هذا حق (يشرب) ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد، ها ها كان هذا أيام أن كنت رجلاً أما الآن فلست رجلاً، لست إلا رقماً، رقم ١٥٧٢٩، وقد عشت في الجحيم عشر سنوات

الأسقف — أخبرني عنها ... عن الجحيم

المجرم — لماذا؟ (متشككا) ألأنك تريد أن تخبر رجال الشرطة عني فيقتفوا أثرى؟

الأسقف — كلا، لن أخبر رجال الشرطة

المجرم — (ينظر إليه متمعناً) إني أصدقك (يهز رأسه) ولتحل اللعنة عليّ إن علمت لماذا أصدقك

الأسقف (يضع يده على ذراع المجرم) — أخبرني عن الوقت ... الوقت الذى سبق ذهابك إلى ... إلى الجحيم

المجرم — كان ذلك منذ زمان بعيد وقد نسيته؛ إلا أنني أذكر أنني كنت أسكن كوخاً مغطى بكرمة متسلقة (وكأنه يحلم). لشد ما كان منظر الكوخ والكرمة رائعاً في غروب الشمس و... وكانت هناك امرأة... وقد كانت (يفكر) أظنها كانت زوجتي. نعم (فجأة وبسرعة) نعم، لقد تذكرت! لقد كانت مريضة ولم يكن عندنا طعام فقد كنت عاطلاً، وكانت سنة ما أشدها، وكانت زوجتي، حبيبتي جانييت، كانت مريضة تموت (فترة صمت) ولذا سرقت لأشترى لها طعاماً (فترة صمت طويلة يربت الأسقف على يده بلطف) قبضوا عليّ وكان جوابهم عن دفاعي وعن ذكر سبب السرقة الحكم عليّ بالسجن عشر سنوات في سفن السجن (فترة سكون) عشر سنوات في الجحيم. وفي نفس الليلة التي قبض عليّ فيها أخبرني السجان أن زوجتي حبيبتي جانييت ... ماتت (تضطرب كلماته من الغضب) آه ... عليهم اللعنة ... عليهم اللعنة ... فليلعنهم الله جميعاً (ينحنى على المائدة وهو يبكى)

الأسقف — أخبرني الآن عن سفينة السجن. عن الجحيم

المجرم — أأخبرك عنها؟ إسمع ... لقد كنت رجلاً يوماً ما ... أما الآن فلست إلا حيواناً ضارياً وهم أنفسهم الذين جعلوا مني ذلك الحيوان ... كانوا يقيدونني بالسلاسل كالحيوانات المفترسة ويجلدونني كالكلاب سواء بسواء. كنت أعيش على الأقذار، وكان جسمي مغطى بالحشرات الطفيلية ... كنت أنام على ظهر السفينة وكنت أتألم. ثم أخذوا يجلدونني ثانية. عشر سنوات ... عشر سنوات. آه يا إلهي! لقد انتزعوا مني اسمي وروحي وأعطوني بدلاً منها شيطاناً يكمن في أعماق نفسي. وفي أحد الأيام أهملوا فلم يقيدوا حيوانهم المفترس بسلاسلهم فـ... هرب وأصبح حرًّا، وكان ذلك منذ ستة أسابيع ... لقد أصبحت حرًّا ... أصبحت حرًّا لأجوع

الأسقف — لتجوع؟!

المجرم — نعم لأجوع. إنهم يطعمونك في

الجحيم ، فإذا ما هربت فلن تجد ما تتبلغ به . كانوا يتعقبوننى فى كل مكان ولم يكن مى أوراق لتحقيق الشخصية وكنت جائعاً ... فسرقت ثانياً . سرقت هذه الخرق التى تغطى جسدى ... سرقت طعامى يوماً بيوم . كنت أنام فى النابات والأحراج وفى كل مكان . لم أكن أستطيع العمل ، ولم أجسر على الذهاب إلى المدن الكبرى لأتسول ، ولذا سرقت ... أصبحت لصًّا ... ولكنهم هم الذين صيرونى هذا اللص ... فليلعنهم الله جميعاً . (يفرغ بقية زجاجة الخمر فى جوفه ثم يرميها فى المدفأة حيث تتهشم)

الأسقف — لقد قاسيت كثيراً يا بنى ولكن لا تيأس من الأمل

المجرم — الأمل ! الأمل ! ها ها ها ! (يضحك بقسوة)

الأسقف — لقد مشيت كثيراً وأظنك تعباً فلتسترح قليلا على هذه الأريكة . اضطجع عليها وسآتيك ببعض الأغطية

المجرم — وإذا ما حضر إلى هنا أى فرد

الأسقف — لن يحضر أحد .. وحتى لو حضر أى شخص كان ، أفلست صديق ؟

المجرم — (مرتبكا) صديقك ؟

الأسقف — لايمكن لأى أحد أن يزعج صديق الأسقف .

المجرم — صديق الأسقف ! (يهز رأسه بارتباك)

الأسقف — سأحضر الأغطية (يخرج من باب اليسار)

المجرم — (ينظر حواليه ثم يهز رأسه بارتباك) صديق الأسقف ! (يذهب إلى المدفأة ليتدفأ ويلقى نظرة على الشمعدانات. ينظر فى كل مكان ليتأكد من انفراده فى الحجرة ثم يزن الشمعدانات بيديه) فضة يا إلهى ، وثقيلة . ما أحسنها جائزة ! (وعند ما يسمع صوت قدمى الأسقف قادما يسرع بوضع الشمعدانات فى مكانها إلا أنه لسرعته يسقط أحدها على المائدة)

الأسقف — (يدخل فيرى ماحدث ولكنه يذهب إلى المقعد مباشرة ومعه الأغطية) آه ! لقد أعجبتك شمعداناتى . إنى نخور بها فإنها هدية من أمى . لعلها أجمل من أن توضع فى كوخ حقير ككوخى هذا ، ولكنها الشىء الوحيد الذى يذكرنى بأمى . لقد أعددت لك الفراش . ألا تنام الآن ؟

المجرم — نعم ، نعم ، سأنام (مرتبكا) ، والآن بحق الشيطان لم أنت شد ... شفوق علىّ ؟

الأسقف — إنى لأود لك نوماً هنيئاً يا صديقى

المجرم — إنى أعلم أنك تود أن تبشرنى ، أن تنقذ روحى كما تقولون ، حسن ... إني لاأريد ذلك أترى ، إني لاأريد أية ديانة ملعونة ، أما عن الكنيسة ، باه ! إنى أمقت الكنيسة

الأسقف — إنى لأشفق عليك يا بنى ، فإن الكنيسة لا تكرهك

المجرم — إنك تحاول تبشيري . أوه ! هاهاها ! يا لها من فكرة حسنة ، ها ها ها ! لا ! لا يا نيافة الأسقف إننى لا أريد أى عهد أو أمل أو إحسان أرأيت ؟ إن أى شىء تفعله لأجلى كأنك تفعله لأجل الشيطان، أفهمت ؟ (بعناد)

الأسقف — إن الانسان ليعمل الكثير فى سبيل الشيطان ليعمل القليل فى سبيل الله

المجرم — (بغضب) لقد أخبرتك أننى لا أريد أية ديانة ملعونة

الأسقف — ألا تنام الآن ··· إن الوقت متأخر

المجرم — حسن ... ولكننى لا أريد تلك النصائح الدينية ... أنا ... أنا ... (ممدداً على الاريكة) أواثق أنت من أن لا أحد يستطيع الدخول ؟

الأسقف — لا أظن أن أحداً يفعل ذلك، ولو فعلوا ... ألست أنت الذى أغلق الباب ؟

المجرم — هيه ! إنى لأعجب إن كنت فى مأمن (يذهب إلى الباب ويفحصه ثم يرجع فيرى الأسقف واقفاً إلى جانب الاريكة ممسكا بيده الأغطية فيخاطبه بغضب) ألا تذهب إلى فراشك ... سأغطى نفسي (الأسقف يتردد) لقد قلت لك أن تذهب إلى فراشك

الأسقف — مساء الخير يا ولدى (يخرج من باب اليسار)

المجرم — (حالما يرى نفسه وحيداً يذهب إلى الباب فيفحصه جيداً) ليس بالباب قفل عليه اللعنة (ينظر حواليه فيرى الشمعدانات) هيه ! سألقى عليها نظرة أخرى (يمسك الشمعدانات ويزنها بيديه) إذا صدق حدسى فإنها تساوى مئات . لو كان معى قيمتها ذهباً، إذن لاستطعت أن أبدأ حياتى من جديد . هيه ! ذلك العجوز معجب وفخور بها لأن أمه أعطته إياها . نعم أمه ، ولكنهم لم يفكروا فى أمى أنا عند ما أرسلونى إلى الجحيم . لقد كان طيباً نحوى ولكن تلك هى صناعة القسس ... الطيبة ... هيه ... أيها القلب ... لقد أصبحت ليناً ... يا إلهى ... ألا يضحك ترددى هذا إخوانى فى السجن ؟ ألا يضحكهم أن يروا رقم ١٥٧٢٩ يتردد فى سرقة شئ بمجرد أنه أصبح يشعر بالطيبة ؟ الطيبة ! ها ها ! أوه يا إلهى ! الطيبة ! ها ها ! رقم ١٥٧٢٩ أصبح ليناً ... هذه مزحة حسنة . ها ها ! كلا سآخذ هذه الشمعدانات وأذهب بها فإنى لو بقيت حتى الصباح سيعظنى ويزيدنى ليناً ... عليه اللعنة هو وعظاته ... والآن فلأذهب ! (يأخذ الشمعدانات ويضعها داخل ثوبه ثم يخرج باحتراس من باب الركن الأيسر وبينما هو يخرج يقفل الباب بشدة)

برسوميه — (من الخارج) من هناك ؟ قلت من هناك ؟ ألا أستطيع النوم مطلقاً ؟ قلت من هناك ؟ (تدخل برسوميه من باب اليسار) إنى لواثقة من أن الباب أغلق (تنظر حواليها) لا أحد هنا (تطرق باب الأسقف حينما لا ترى الشمعدانات) الشمعدانات ... الشمعدانات ... لقد ضاعت ... أخى ... أخى ... تعال ... النار ... القتلة ... اللصوص ...

الأسقف — (يدخل من باب اليسار) ما هذا يا عزيزتى ، ما هذا ... ما ذا حدث ؟

برسوميه — لقد ذهب ... ذهب الرجل ذو الأعين الشرهة وأخذ معه الشمعدانات

الأسقف — ليست شمعداناتى يا أختى .. ليست هى (ينظر إلى مكانها وينهد) آه ... هذا لا يطاق ... لا يطاق ... إنى ... إنى ... كان من الواجب أن يتركها لى ... لقد كانت كل ما أملك (يكاد يبكى)

برسوميه — هذا حسن ، ولكن من الواجب أن تخطر البوليس فانه لم يتمكن بعد من الذهاب بعيداً وسرعان ما يقبضون عليه ويردون لك شمعداناتك إنك لا تستحق هذه الشمعدانات لأنك تركتها أمام عينى مثل هذا الرجل

الأسقف — إنك على حق يا برسوميه ... إنها غلطتى أن أترك الرجل تحت تأثير الرغبة فيها

برسوميه — خزعبلات ... إنك لم تترك الرجل تحت تأثير الرغبة وإنما هى اللصوصية المتأصلة فيه هى التى دفعته إلى ذلك فان الرجل لص وقد لحظت ذلك فى اللحظة الأولى التى رأيته فيها ...

إذهب وأخطر الشرطة بالأمر وإلا فسأفعل أنا

(تهم بالذهاب ولكنه يوقفها)

الأسقف — وبذلك نرسله ثانياً إلى السجن (بصوت حنون) نعيده إلى الجحيم... كلا يابرسوميه! إنه عقاب عادل لى فقد كان من الخطأ أن أبقى مثل هذه الثروة فى حيازتى ... إنها خطيئة ... وكان عقابى عادلا ... ولكن ... آه يا إلهى ... إن هذا لا يحتمل ... إنه فوق طاقتى (يدفن رأسه بين يديه)

برسوميه — كلا يا أخى إنك مخطىء . إن لم تخطر الشرطة فسأخبرهم أنا . فلا أستطيع أن أقف مكتوفة اليدين بينما أراك تسرق . إني أعلم أنك أخى وأسقفى وأحسن رجل في فرنسا ولكنك رغم ذلك مغفل ... طفل ... ولن أستطيع رؤية طيبتك تستعمل لسرقتك ... سأذهب وأخطر الشرطة

(تتجه صوب الباب)

الأسقف — قفى يابرسوميه .. إن الشمعدانات كانت تخصنى أنا وهى تخصه هو الآن . وهذا حسن لأنه فى حاجة إليها أكثر من حاجتى إليها ولو كانت أمى بيننا الآن لفضلت إعطاءها له

برسوميه — لكن ... (طرق عال على الباب)

ضابط — (من الخارج) يا صاحب النيافة ... يا صاحب النيافة ... عندنا أمر هام بك فهل ندخل ؟

الأسقف — أدخل يا بنى (يدخل الضابط وثلاثة رجال من رجال الشرطة والمجرم وهو مقيد ، الضابط يحمل الشمعدانات)

برسوميه — آه ... لقد قبضوا عليك أيها الشرير !

الضابط — نعم يا سيدتى ... لقد وجدنا هذا المجرم يسترق الخطى فى الطريق ولما لم يستطع إثبات شخصيته فقد قبضنا عليه لتشككنا فيه ... يا للعذراء المقدسة ... ورغم أنه قوى فإنه لم يقاومنا مطلقاً ، وبينما نحن نقوده سقطت هذه الشمعدانات من جيبه

برسوميه — (تأخذها بقوة وتذهب بها إلى المائدة حيث تمسحها بفوطتها بحب وإعجاب)

الضابط — لقد تذكرت أن هذه الشمعدانات تخص نيافة الأسقف ولذا فقد حضرنا إلى هنا لتتعرفوا عليها وبعد ذلك نذهب به إلى حيث يسجن (كل من القس والمجرم كان فى هذه الأثناء ينظر إلى الآخر)

الأسقف — ولكنى ... ولكنى لا أفهم شيئاً ... هذا الشخص هو صديقى الصدوق

الضابط — صديقك يا صاحب النيافة ... يا للعذراء المقدسة ! حسن

الأسقف — نعم ياصديقى ... لقد أولانى عطفاً كبيراً حين قبل أن يتناول العشاء معى الليلة ثم أ ... أعطيته هذه الشمعدانات

الضابط — (غير مصدق) أنت أعطيته ... أعطيته هو هذه الشمعدانات ... يا للعذراء المقدسة

الأسقف — (بشدة) تذكر يابنى أنها مقدسة

الضابط — (محيياً بيده) عفواً ياصاحب النيافة

الأسقف — والآن ... أظن أنك ستترك سجينك وشأنه

الضابط — ولكنه لم يرنى أوراق تحقيق الشخصية الخاصة به ولم أعرف بعد من هو

الأسقف — قلت لك إنه صديقى

الضابط — هذا حسن ... ولكن ...

الأسقف — إنه صديق أسقفك وأظن أن فى هذا الكفاية

الضابط — حسن ... ولكن ...

الأسقف — بالتأكيد (فترة صمت) (كل من الأسقف والضابط ينظر إلى الآخر)

الضابط — أنا ... أنا ... هيه ! (لرجاله) أطلقوا سراح السجين (يتركونه) إلى الخلف دُر .. إلى الأمام ... بسرعة سر ! (يخرج الضابط ورجاله) (فترة صمت طويلة)

المجرم — (يبطء وكأنه فى حلم) لقد أخبرتهم أنك أعطيتنى هذه الشمعدانات ... أنت أعطيتنى إياها ... يا إلهى

برسوميه — (تهز يدها فى وجهه ، ثم تجذب الشمعدانات إلى صدرها وتمسكها بقوة) أوه ... أيها المجرم ... لقد حضرت هنا حيث وجدت المأكل والطعام ثم بعد ذلك تسرق ... تسرق الذين أحسنوا إليك ... أوه أيها الشرير

الأسقف — برسوميه ... إنك عصبية قليلا فاذهبى إلى حجرتك

برسوميه — ماذا . . . وأتركك معه وحدك لكن يغشك مرة ثانية وربما يقتلك ... لا ... لن أذهب

الأسقف — (بشدة خفيفة) برسوميه . . . اتركينا ... إنى أرغب فى ذلك

برسوميه — (نظر إليه بشدة ثم تتجه إلى حجرتها) حسن ... إذا كان من الضرورى أن أخرج فلا أقل من أن آخذ الشمعدانات معى

الأسقف — (بحدة أكثر) برسوميه ! ضعى الشمعدانات على هذه المائدة واتركينا وحدنا

برسوميه — (باصرار) لن أتركها

الأسقف — (بصوت مرتفع شديد جداً) إنى أسقفك آمرك بذلك

برسوميه — (تفعل ذلك بالرغم منها ثم تخرج من الباب الأيمن)

المجرم — (بخجل) يا صاحب النيافة ... إننى لمسرور لأنى لم أذهب بها ... علىّ اللعنة ... إنى ... إنى مسرور

الأسقف — والآن ألا تنام هنا ؟ .. أنظر .. إن الفراش معد لك

المجرم — كلا (ينظر إلى الشمعدانات) كلا ... كلا ... إنى لا أجسر ... لا أجسر ... يجب أن أذهب الآن كى أصل إلى باريس سريعاً ... إنها كبيرة حيث ... حيث لا يستطيع أن يعرفنى أحد ... لن يجدنى أحد هناك ... ويجب أن أسافر ليلاً ... ألا تفهم ؟

الأسقف — نعم ... لقد علمت لِمَ يجب أن تسافر ليلا ؟

المجرم — لم ... لم أكن أظن أنه توجد طيبة على سطح الأرض ... والإنسان لا يمكن أن يظن ذلك إذا ما عاش فى الجحيم ... وعلى كل حال فقد... قد عرفت طيبتك ... و... ولعله يكون شيئاً عجيباً إذا ما طلبت ... ولكن ... ولكن ألا يمكنك أن تعفو عنى قبل أن أرحل ؟ إنى أعتقد أن ذلك سيساعدنى ... أنا ... (يترك رأسه يسقط من الخجل)

الأسقف — (يرسم علامة الصليب ويتمم بعض الأدعية)

المجرم — (يحاول الكلام ، ولكنه يغص دائماً بالبكاء) مساء الخير (يسرع جهة الباب)

الأسقف — انتظر يا ولدى ... لقد نسيت بعض ممتلكاتك (يعطيه الشمعدانات)

المجرم — أتقصد أنى ... أتريد إعطائى الشمعدانات ؟

الأسقف — أرجوك ... إنها ستساعدك

المجرم — (يأخذ الشمعدانات وهو لا يصدق من التعجب)

الأسقف — وهناك ياولدى طريق يمر من الغابة تجده خلف كوخى هذا وهو يصل إلى باريس.. إنه طريق موحش لا يمر به إنسان . ولقد لاحظت أن أصدقائى الجند لا يحبون الطرق المقفرة خصوصاً فى الليل ... إن هذا عجيب

المجرم — آه شكراً ... شكراً لك يا صاحب النيافة ... إنى ... إنى ... (تضطرب الكلمات فى حلقه) أوه ... إنى مغفل ... طفل يبكى ، ولكن على كل حال لقد جعلتنى أشعر وكأن ... وكأن شيئاً حل بى ... وكأننى أصبحت رجلاً مرة أخرى ولست حيواناً ضارياً (يفتح الباب الخانى ويقف عند مدخله)

الأسقف — (يضع يده على كتفه) تذكر دائماً يا بنى أن هذا الجسد الضعيف هو معبد الله الحى

المجرم — (بحزن عظيم) معبد الله الحي ... سأتذكر ذلك (يخرج من باب الركن الأيسر)

الأسقف — (يغلق الباب ثم يذهب بهدوء إلى المذبح الموضوع عند النافذة اليمنى حيث يجلس على ركبتيه ويخفض رأسه ويبدأ فى الصلاة)

(ستار بطىء)

« انتهت » الناقص

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ }


الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص	
٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٨ — ١٣ محرم سنة ١٣٥٧ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد

صفحة

الدواء الذى يخلق العبقرية

للسير ماكس بمبرتون

بقلم الأستاذ درينى خشبه

... وقال الأمير وهو يضع الشمعة وراء القارورة التى بين إصبعيه فيضىء السائل الذى فيها : « على أننى لا أدرى ما ذا يمنع أن يوجد عقار يجلب الذكاء ويخلق العبقرية كهذه العقاقير التى تشفي الأجسام وتطبها ، وتجعلها قوية البناء مفتولة العضل !! »

واستولى العجب على جون ماكلسفيلد أوف برادفورد ... الرجل الساذج ... الذى كان البله يترجرج داعماً فى حدقتيه ، فاعتدل وقال : « أتعنى أنه فى وسعك أن تخلق عقولاً لمن ليس لهم عقول ؟ »

وكان الأمير أوتو ينتظر أن يلقى عليه هذا السؤال ، فتبسم ثم قال : « حقاً ياجون... ولم لا ؟! أبداً لم يخامرنى الشك فى هذا أبداً ... وإنى لمقتنع جداً أننا نستطيع أن نبنى الأذهان فنجعلها ذكية عبقرية كما استطعنا أن نبنى الأجسام فجعلناها هرقلية حديدية ... والأمر سهل ياجون ... فكما استطاع الطب أن يعالج لين العظام فى الأطفال ، فكذلك نستطيع نحن أن نزيد المادة السنجابية التى تكسو تلافيف المخ فى رأس الشخص الأبله فيصبح ذكياً متوقد الذهن ... وإليك مثلاً ياجون ، ابنتى حنة هذه الجالسة أمامك ، فلقد مرضت منذ اثنتى عشرة سنة مرضاً خطيراً ، أشفت منه على الهلاك ، حتى لقد قرر أطباؤها فى رومة والبندقية أنها لن تعيش أكثر من ستة أشهر ... وقد جزعت لذلك جزعاً شديداً ... بيد أننى ضربت برأيهم عرض الأفق ، ثم فرغت لتطبيبها بنفسى ، معتمداً على تجاربي... فانظر إليها الآن ، وقل لي ما رأيك فى هذا الشباب الريان ، وذاك الإهاب الفينان ... أليست هذه معجزة ياجون ؟ »

ولم تكن فى رأس الرجل أثارة من الوعى يدرك بها الجمال المجسد فى الفتاة الجالسة أمامه ... ولم يثر خاطره مرأى هذا الأمير أوتو ... الرجل العجيب ... الذى اشتعل الشيب فى رأسه ، والذى أصبح اكتشافه العلمى الخطير حديث الأهالى فى لندن المتيدة ، والذى فر من العالم الواسع الصاخب لينزوى فى هذا المنزل السحيق فى بركلى سكوير ، ليعيش فيه كما يعيش سحرة الشرق ومشعوذوه

وهكذا جلس الرجل الساذج جلسة بلهاء لا يعنيها شىء من هذا الجو الهادىء الذى انعقدت فيه سحائب البخور ، وتهدهدت إليه نغمات الأرغون التي أنشأت ترن فى بطن الوادى القريب ، فتردد أصداءها أكواب البلور وأطباق المرمر البندقى المرصوصة على المائدة الفخمة وسط الغرفة الرائعة ... لا ... لم يعن جون ، تاجر الأصواف الانجليزي الذي نزح من لندن إلى دلماشيا ليعقد فيها بعض صفقاته التجارية ، بشىء مما حوله فى غرفة هذا الأمير أوتو ... ولم يشغله شىء من جمال هذه الحسناء الايطالية الفتان التى تأسر

بجمالها الأبالسة ... ولم يشغله أوتو نفسه بهذا البريق الخاطف المنبعث من عينيه اللؤلؤيتين ، بل ، لقد نظر حوله فى غرارة وغفل ، ثم قال : « شىء مدهش حقاً أيها الأمير ... لطالما فكرت قبل اليوم فى أن يكون لي عقل عبقري راجح ليكون لي به مركز ممتاز فى الحياة العامة ... وطالما كنت أنظر إلى رئيس وزارة بلادى ، وتأخذنى الغيرة من إعجاب الناس به ، واستعظامهم له . مع أنه رجل عادي لاميزة له على الجماهير إلا هذا اللسان الذرب الفصيح يخلب ألبابهم به ، وإلا عقله الراجح الذى يروّى به فى الأمور ويسيّر به دفة الدولة ويصرف شئونها ... لقد كنت أنظر إليه وقد التفت حوله الآلاف المؤلفة من الناس يصغون له ويستمعون إليه ، فتأخذنى الغيرة وتنشب أظفارها فىصدرى ... وكنتأقول : « جماهير من الدهماء يسحرها رجل بهرج القول » ولكنى كنت أرى مئات العقلاء بعد ذلك يحدقون به ليأخذوا عنه الحكمة وحسن البصر بأمور الحياة فأرجع إلى نفسي ، وألبث أتمنى لو أوتيت من الذكاء بعض ما أوتى هذا الرجل الثرثار اللبق ... فإذا كنت تضمن لى ذلك بهذا السائل الذى فى قارورتك فإنك تكون رجل العجائب حقاً ... ! »

وتناول الأمير لفافةً فأشعلها فى هدوء ثم أخذ يدخن ، وينفث الدخان فى صمت ... وقال بعد لحظات « عزيزى جون ما كاسفيلد ... إذا وكات إلىّ نفسك لمدة ستة أشهر ، فليس أيسر على من أجعلك خطيباً من أبلغ خطباء العالم ، ومفكراً عبقرياً من أعظم مفكريه بحيث تسمو على حكماء مملكتك بشرط ... أن تثق بى ثقة عمياء غير محدودة وأن تخضع إرادتك لى إخضاعاً مطلقاً ، وأن تصنع ما آمرك به من غير مناقشة ولا استقصاء ! »

ولوى جون عنقه ، فتأرجح رأسه من فوقه كالذى يوافق وإن لم يقتنع ، ثم قال :

— وعملى ؟ !

فهز الأمير كتفيه وأجابه : ألست رجلاً غنياً واسع الثراء ؟

فارتبك جون وقال : أوه ... من هذه الوجهة فأنا غنى

فقال أوتو : وقد حلمت أحلاماً طائلة بالشهرة والمجد ؟

فقال جون : حقاً لقد فعلت ، ولقد فكرت ألف مرة أن فى الدنيا أشياء عظيمة ، ومطامح واسعة غير تجارة الصوف ! »

فأجابه أوتو : إذن ليس عليك إلا أن تكل نفسك إلىّ ، وأنا كفيل بمنحك الذكاء الذى تريد ، والعبقرية الواسعة التى تشتهى !

فنظر جون إلى القارورة الصغيرة فى بله وغرارة وقال : « من هذه القارورة ؟ ! » وهنا تبسم أوتو وتناول القارورة ، ثم جعل الشمعة من ورائها فاختلطت أضواؤها بالسائل العجيب مرة أخرى ، ونظر جون إلى القارورة فشعر كأن سحرها ينتقل إليه ، وكأن أضواءها تختلط بروحه ، ونظر حوله فوقعت عيناه على طاس الأزهار على المائدة ، فرآها أجمل مما عهدها وأنضر ... وخاف الرجل الساذج مما أحس ورأى ، فانتصب واقفاً ثم قال : « إنك تمزح أيها الأمير أوتو .. إنك تهزل »

ومن غير أن يستأذن انفتل من الغرفة ، ثم من المنزل جميعاً ...

ولاحظ الأمير أن ابنته تتبع الرجل بنظرات حادة ، فاستطاع أن ينفذ منها إلى سرائر نفسها ، وراح يتحدث إلى نفسه هكذا : « أوه يا حنّة ! لقد فتنك الانجليزى من غير ريب ! لقد رأيت الفارق العظيم بينه وبين الأجلاف الذين شهدتهم فى إيطاليا ... الرجل جميل يا حنة ... وأمين ... وبناء جسمه يجذب داعى النساء ، وهذه ملاحظة لا يدركها إلا علماء وظائف الأعضاء ... أوه ! إن هذا الرجل ، إن جون ما كلسفيلد ليس فى رأسه ذرة من الذكاء لكن له كاهلاً عريضاً ، وكتفين عظيمين ! ثم شعره ... شعره السكسوني ! مسكينة يا ابنتى ! إنها لا شك تعبده ، وتتمنى لو تتزوجه ، إذا رزقه الله قليلا من الذكاء !

والتفت إلى حنة فجأة ثم قال : « حنة ! ما ذا ترين فى هذا المستر ما كلسفيلد ؟ »

وكانت حنة قد انصرفت إلى الأرغون ، بعد إذ انصرف الانجليزي تاجر الأصواف ، تلعب عليه بعض قطعها وكانت نار الموقد تتوقد وتلتهب قريباً منها ، فلما التفتت إلى أبيها تجيبه انعكس ضوء اللهب على شعرها الذهبي الأحمر ، فبدا وجهها الجميل الناصع كأنه وجه صورة فتانة أمام مصباح خافت ذى ذبالة ترقص وتنتفض

وقد يحسب الانسان أنه من الشذوذ ، أو أنها مبالغة شاذة ، أن هذا الجمال الرائع لم يجذب إليه عينى جون ما كلسفيلد .. ولكن هذا هو الذى استنتجه الأمير أوتو ، وهو أيضاً الذى كان موضع دهشه وطول تعجبه ... وعلى كل ، فقد انتظر الوالد فى تلهف شديد جواب ابنته ، التى انفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة خبيثة وهى تجيبه فتقول : « والله يا أبى إنى لا أدرى ما ذا أقول ! من يستطيع أن يفهم هؤلاء الانجليز ؟ إن براعتهم المدهشة هي فى هذا الصمت العجيب ! » ، وكأنما سلم أبوها بهذا الرأى ، فقال : « إن للانجليز عقولاً . ولكنها ليست كعقولنا يا ابنتى . على أنها عقول تنتسب إلى بيئتها ومناخها الذى نشأت فيه ... وهذا هو السر فى قصور عقلية ذلك المستر جون ما كلسفيلد ... فهو يعيش فى دنيا كلها صوف ، وهي لذلك كلها أغنام ومروج ، وليست شيئاً غير الأغنام والمروج يا حنة .. إنه لا شك يفكر كثيراً فى مزاجنا الخفيف الشعرى المرح ... مزاج شعوب هذا البحر الأبيض المتوسط ... هذا المزاج الذى ترعرع فى آلاف من سنين الشمس والموسيقى ... وهل المخ إلا هذا الغشاء الرقيق الذي يستطيع الصوت والضوء أن يلعبا فوقه ... وليس الصوت والضوء فقط ، بل إرادة الناس الآخرين ... وذاك هو ما نسميه التعليم أو التهذيب ، الكتابة فوق غشاء المخ بيد مهذبة صناع ! فاذا أردت ، جعلت هذا المستر جون يرى ألف رؤيا عجيبة فى هذه اللحظة ... الآن ... بحيث ينهض فيفتح بيديه أبواب عالم واسع شاسع لم يكن له به عهد من قبل ، فيسمع كلمات لم تتردد أبداً فى أذنيه وسرعان ما يرددها هو ؟ وينطلق بها لسانه ، وقد يجتمع الناس حوله فيشهدون أنهم لم يكونوا يعرفون هذا المستر جون من قبل ... وهكذا يذيع اسمه فى الآفاق ، وقد ينسى عالم

الصوف الذى يشل تفكيره ، ويغطى ذهنه بطبقة كثيفة من الغباء ... وأنا لا أشك فى أنه لا بد مصغ لما أشرت به عليه ، فاذا فعل فسترين كيف أبذر بذورى فى هذه الأرض البكر الخصبة فهل يسرك هذا إذا فعلته يا حنة ؟ ! »

وشاع البشر فى وجه الفتاة ، وأقبلت على والدها بكل ذاتها فقالت له : « أبى ! لقد طالما حدثتنى أنك تستطيع أن تجعل أغبى الناس أذكى الناس ، فهل هذا حق يا أبى ؟ وهل أنت تؤمن بنظريتك التى استحدثتها ، أم أنك تحلم بها وحسب ؟ أصحيح يا أبى أنك تستطيع أن تمنح الأغبياء لباقةً وحسن فهم ؟ أم ... »

ولم يشأ الأمير أن يجيب على ما سألت ابنته إجابة صريحة جازمة ... إذ الحقيقة أنه لم يَعْدُ طور التجارب والأبحاث فيما انتهى إليه — وإن لم يكن قد انتهى بعد

— إن من العقاقير يا ابنتى ما يتناوله بعض الناس فيكونون سحراء ، ونحن نستخدم هؤلاء السحراء وننتفع بهم ... والذى يأكل الأفيون يحلم وهو يقظان أنه ملك ، ولا شك أن مملكته شىء حقيقى بالنسبة له ، وإن تكن خيالاً بالنسبة لنا ... ولا شك أيضاً أن ذهنه ، خلال ذلك ، يكون قوياً جباراً ، بصرف النظر عما يؤول إليه حاله بعد أن يفيق ... ولذا فهو يعرف من أسرار الحياة فى غيبوبته ، ويدرك من كنه هذه الأسرار، ما لا يفهم منه فى يقظته قليلاً ولا كثيراً ، ولا يستطيع أن يدرك تأويله

فلم لا نجعل هذا الوهم حقيقة ، وهذا الخيال الطارئ واقعاً مستديماً ؟ إن مشروعى ليس مستحيلاً كما يتصور بعض الناس ، وهو بالضبط كالمشروع الذى أدى إلى اختراع التصوير الشمسى ... فقد كان الناس يرون صورهم واضحة جلية على الزجاج والمرايا ، لكنهم يعجزون دائماً عن تثبيت هذه الصور على الزجاج وتلك المرايا ... ثم أفلحوا ... فتحقق الحلم ، وأصبح التصوير الفوتوغرافى حقيقة واقعة ملموسة ، بعد أن كانت وسواساً كهذا الوسواس الذى يجول فى ذهن آكل الأفيون

وعلى هذا النحو كان اختراعى لهذا العقار الذى أستطيع أن أثبت به الصور والأخيلة فى ذهن الغبى من الأغبياء ، فيكون من أذكى الأذكياء ... وسيرى الناس كيف أقلب لهم العالم باختراعى رأساً على عقب ... آه يا حنة ! لقد طالما فكرت فى هذا كله يا ابنتى ، منذ أن طردتنا الحرب الكبرى من أوطاننا ، وأخذت الحياة تسومنا الخسف فى هذا المنفى السحيق ... لقد قاست الدنيا رزايا لا حصر لها منذ جهل الناس أحلامهم اللذيذة التى كانت تخلق لهم مُثُل الفضيلة العليا ... تلك الأحلام التى كانت تشحذ الذكاء الذى لو توفر لحال دون وقوع الحرب الكبرى... إنه لا هم للناس إلا بناء الأجسام، وليس فيهم من حاول أن يبنى الأذهان ... وقد وقفوا جهودهم كلها على معالجة أمراض البدن ، فهم دائماً يجهدون فى منحنا لحماً وعظاماً ودماً ... وليس منهم أحد فكر فى منحنا أذهاناً ! ! وهذا لأنهم لا يحلمون ... مع أن الأحلام وحدها هى التى أدت إلى كل ما فى العالم من اختراعات كان مجرد التفكير فيها قبل أن تحقق ضرباً من الجنون

والهذيان ... لهذا يا حنة ... يا ابنتى ، لم أنِ أحلم وأتسامى ...

— وهل تحققت أحلامك يا أبي ؟ هل وفقت إلى ضالتك المنشودة ؟

— إنى موقن أنها قد تحققت ... وأثق أننى أصلح رؤوس الأغبياء ، بل أمنحهم ذكاء ولباقة ... فصاحبنا چون ما كلسفيلد مثلاً ، قد نسى فى هذه اللحظة طواحين مدينته العظيمة برادفورد ، وهو قد اكتشف فجأة ما فى هذا الليل من آيات وعجائب.. إنه لابد يرنو بعينيه إلى نجوم السماء التى تتألق فى جونا الصحو ، ثم هو يسائل نفسه عما يخامرها من الأحلام التى تولدها فيها هذه النجوم ... وهذا كله بفضل كلماتى التى أثارت فيه تلك الأحلام ... وهو لا شك منتقل من أحلامه الساذجة إلى ضرب من التسامى الرفيع الذى سوف يشجعه ويحمله إلى تفكير أرقى ... وسيسأل نفسه لماذا هو تاجر بسيط ؟ وسيتنبه إلى النفر القليل من بنى وطنه الذين برزوا من المدن والقرى الوضيعة فأصبحوا زعماء البلاد وذوى الصدارة فى المملكة ، وهو لابد محدث نفسه لماذا لا يقتفي آثارهم ليكون مثلهم ... وبهذا يتنبه شعور القوة الكامنة فيه ، فيعمل من فوره على توجيهها لخيره ... ومن يدرى إلى أين ينتهى به التطواف ؟!

وهنا ... تنهدت حنة من أعماقها كأنها لم تؤمن بعد بما آمن به أبوها ، ثم قالت : « لقد وجدت من المحال أن أتحدث إليه ... إنه كان يبدو كأنه لا يشعر بوجودى !! »

وتبسم الأمير ابتسامة حنان وعطف

ولقد كان أوتو صادقاً فيما حدس به من أن چون ما كلسفيلد سيصبح فريسة لأحلام حلوة ... تثيرها فى رأسه الفارغ تلك الصنوف الفاخرة من الأشربات والآكال التى ذهب ليلتهمها فى غدائه ... فإنه ما كاد يخلو إلى نفسه فى غرفته الفخمة فى أعظم فنادق الهايد بارك ، حتى توجه إلى النافذة ففرَّج بين ستائرها ، ووقف يملأ ناظريه من جمال الجنة الفيحاء التى تتأرج وتتبرج أمامه ... تحت قبة السماء الصافية التى أخذ الهلال يسبح فى أعماقها ، كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من نجوم الربيع فى إقباله ... يا للمنظر المعجب الذى لم يكن لجون عهد به من قبل ! هلم نصغ إليه إذ هو يتناجى ويحلم مسحوراً بمفاتن الطبيعة

« ... يا للفكرة !! إن هذا الرجل العجيب يزعم أنه يخلق الأذهان كما يخلق الأطباء الأجسام ! حسن... ولم لا ؟! فكرة غريبة وشاذة... وأكثر منها شذوذاً أن أحداً من الناس قبل هذا الرجل لم يفكر فيها ، ولم تخطر له على بال !! وفى الحق ، أنا لا أصدق مطلقاً أن فى وسعه أن يطب أحد المغفلين البلهاء فيجعله إسحق نيوتن مثلا ، أو أنه سيزود العالم بألف أديسون جديد[1] بحيث يجعلهم (تحت الطلب !) ... ولكن هذا السائل ؟! إنه شئ خلاب من غير ريب ... والأطباء ... لم لم يفكروا فى مثل ذلك من قبل ؟! إنه سائل لا يضر ، فلماذا لا آخذه معى !! إن الرجل العجوز يؤكد أنه يضمن لشاربه الذكاء والفطانة ، فلم

(١) لم نشأ أن نحور هذا التعبير لطرافته

لا أجمله دائماً في جيبي ليحقق ما أصبو إليـه من من شهرة ومجد

إن هـذا الأمير أوتو رجل حاذق صناع ... ولقد عرفت ذلك لأول وهلة .. إن له لعينين ينفذان في فؤاد الناظر إليه ، ويشملان النار في رأسه ... إنه يسكن في ذلك البيت العتيق ويحلم ... ويرسم الخطة للرجوع إلى وطنه .. الشرق ! الشرق العظيم الساحر ... الشرق الذي يلهم الغرب دائماً ... ولـكن ... لله هذا العفريت الذي سجنه أوتو في سائل القارورة ... تلك القمقم ! »

ثم ضرب يده في جيبه فأخرج الزجاجة وراح يرنو إلى سائلها العجيب الجميل المتلألئ ... حتى إذا فتحها ، وعبقت رائحتها في خياشيمه ، تبسم ضاحكاً وتحدث إلى نفسه فزعم أنها ستكون أعجوبة الأعاجيب في برادفورد ... ثم وضع منها في كوب خمسة عشر نقطة ، وجعل على النقط ماء واحتسى المزيج السحري ، الذي لم يكن له في حلقومه طعم لو لا الرائحة التي انبعث شذاها في أنفه ، فعرف أن الماء غير الدواء ...

وكان يضحك أثناء ذاك ... ويحمد الله أنه لا يوجد أحد من برادفورد ليستهزئ به ويتهكم عليه ، إذ يغفل نفسه بتصديق هذه الخزعبلة !

ومضت خمس دقائق نسي بعدهن العقار الذي انصب في جوفه ، وعاد إلى النافذة يستملي جمال الهايدبارك ... ثم شعر فجأة بقوة تتدفق في أعصابه وخيل إليه أن الهايدبارك مزدحم بجماهير حاشدة تصغي إليه وهو يخطب فيها ... ثم إذا هذه الجماهير تتدافع وراءه ، وهو على رأسها إلى دار البرلمان في وستمنستر ... ويقف في القاعة فيلقي خطاباً سياسيًّا يقرر به مصائر أوربا ... ويسمع بأذنيه ثناء الأعضاء عليه ، وإعجاب الناس في الشرفات به ، وافتتان الجميع ببلاغتـه وقوة عارضته ... ويسمع بعض الحضور من بني دائرته يتهامسون : « لله أنت من خطيب مصقع يا أخانا جون ! »

وكانت الساعة الثانية صباحا ... فانكفأ إلى فراشه وهو يحلم بالمجد وذيوع الصيت ... ثم تذكر الغادة ... الفتـاة الفينانة ... ابنة أوتو أوف متكوفتش ... وعجب كيف لم تتراء له في أحلامه !

« حنة ! أين أنت يا حنة ؟ ! »

* * *

وعاد تاجر الأصواف إلى برادفورد ، وكلما مضت الأيام اشتد اختلاف الناس في أمره ، وحاروا في هذه المتناقضات التي كانت تبدر منه فينسبها بعضهم إلى الجنون . ويردها بعضهم إلى ذكاء خارق ظهر فجأة في جون

واشترى قصراً منيفاً في لندن ... وأخذ يدعو إليه كبار الموسيقيين

جون ماكليسفيلد ... هذا التاجر الغبي الذي لم يكن يفقه من الدنيا غير الشاء والثغاء[1] يصبح أذناً للموسيقى فلا يسمعها إلا من زعمائها الفنانين العباقرة !

ولم يقنع بتزيين جدران قصره بصور الفنانين الإنجليز ، بل كان يرسل رجاله ليدخلوا منافسين في أسواق الصور الإيطالية ، فيشتروا له القطع الفنية التي يعجز أغنى الأغنياء عن دفع ثمنها

(١) الثغاء صوت الغنم

جون ماكلسفيلد! هذا الكبش العظيم!! لا يوجد في معارض الفن من يقدر آياتها كما يقدرها هو!

وانتهى أكثر الناس إلى أنها إمارات جنون من غير شك، ستفتح لتاجر الأصواف مستشفى المجاذيب على مصراعيه

إسمع إلى هذا العين من أعيان الشمال يقول فيه: «ينصب من نفسه خطيباً في السنترال هول بوستمنستر فيخلب ألباب الناس ببلاغة لا عهد لهم بها، وبيان مشرق لم يسمعوه من أنبغ زعمائهم، وفكر عميق مرتب لا يقدر عليه إلا الأقلون ..؟.. أفذاك هو هذا الكلب القذر... كبش برادفورد... الذي لم يكن لأيام قلائل يفقه من أمور الدنيا إلا النعاج والذهب الوهاج؟! جون ماكلسفيلد!! ما شاء الله»

فهذا الذي يقوله هذا العين، ناحية مما صار إليه جون ... فهو إلى فصاحته وسمو تفكيره، قد أصبح رجلاً ممتازاً حاضر البديهة متوقد الذهن، لا يكاد يوجه إليه سؤال حتى يعطى جوابه الناضج المبين فى أسرع من البرق، ثم هو يستعمل فى أحاديثه طرائق الأدباء المبرزين، ولا يفتأ يضمنها فِقراً طليانية من بترارك وبوكاشيو وأضرابهما ...

وقد حار الناس فى رفيقيه اللذين يلزمانه كظله أينما سار وحيثما توجه ... هذا الرجل السمهرى

الأشيب ، الذى يدعوه الأمير ... وتلك الفتاة الحسناء الهيفاء القسيمة الوسيمة ، التي تشيع السحر فى جو المكان الذي تكون فيه

والمدهش من أمر جون أنه لم يكن أعرف من أهل برادفورد بسر نبوغه وتفوقه ، إلا أنه كان يؤمن بأنه أصبح ظلاً لهذا الأمير أوتو ، وأنه لا ينطق ولا يفكر ولا يتدفق فى خطاباته إلا بوحى منه أو إيحاء ، فإذا سأله سائل عن مسئلة اتجه بعينيه الضعيفتين إلى عيني أوتو القويتين ، حتى إذا تم بينهما الانصال الروحى الذى لابد منه ، ولا محيص عنه ، إنطلق يجيب فى فصاحة بالغة ، وبيان عذب قوى ، بحيث يتغلغل إلى سويداوات سامعيه ، ويسحرهم عن أنفسهم ... فإذا فرغ وفاء إلى نفســه ، عرف أنه كان يتكلم بلسان جون ، ويفكر برأسه ... وأن القطرات التى شربها قبل أن يتكلم ليست هى التى واتته بهذا الذكاء وذاك البيان ، وإن تكن حقاً قد مهدت لهما

***

ولقيه أحد أصدقائه الكهول يوماً فى شارع أكسفورد فافتر باسماً وقال له : « أوه جون ! لشد ما تغيرت فى هذه الحقبة الأخيرة من حياتك ... ولشد ما نحن معجبون بك ... أجل يا ... فتى ! ... ومع ذاك ، فإنك لم تدخل الوزارة بعد ، وليس فى أعضائها من هو أكيس منـك ولا أحذق ولا أصدق بياناً ... فلم لا تفعل ؟ »

وراغ جون بجواب مقتضب مؤدب ، ثم انفتل فى معرض فرنسى للصور حيث وقف مسبوهاً أمام صورة رائعة للمسيو كلنسو ... نمر باريس !

ولما لم يكن له أى إلمام بالسياسة الفرنسية ، فقد وقف حائراً أمام صورة السياسى الداهية الذى درأ عن فرنسا أيما خطر خلال الحرب الكبرى ... وهنـا خطر له فجأة أن يعود أدراجه إلى مسكنه ليكتب نداء يناشد فيه الفرنسيين والأمريكيين أن يعملوا متعاونين لـما فيه سلام العالم العام وأمنه وطمأنينته ، وأن يطرحوا سخائم الماضى التى ينفخ فى نارها الساسة للبانآتهم الشخصية .. ولم يدر جون ماذا أثار فى خاطره هذه الفكرة ... لكنه التفت فوجد صاحبه الأمير أوتو قريباً منه ، ورأى ابنته حنة واقفة عند صورة تدقق فيها نظرها

— لقـد كنت ترمق صورة المسيو كلنسو بعينين مشوقتين !

— أوه .. هذا صحيح .. لقد أغرانى الاعلان الضخم ، فدخلت أتفرج بهذه التحف .. وأحسبك تذكر يا أوتو أننا كنا نتكلم عن هذا المسيو كلنسو على مائدتك أمس !

— أجل . أذكر هذا

ثم لف ذراعه حول ذراع ماكلسفيلد ، وراحا يذرعان المعرض جيئة وذهاباً ، والأمير أوتو يشقق الأحاديث عن الفرنسيين والأمريكيين ، فيشرح لصاحبه تاريخهم وأحوالهم وسيكلوجيتهم

— .. ومن فى الانجليز يستطيع أن يهـذب معلوماتهم عن الأمم الأخرى مثلك يا مستر جون .. على أنه قد يأتى اليوم الذى تبث الدعاوة بينهم عن وطنى المنكوب ، ومبلغ ما لقى من التعاسة بسببهم فيصلحون بعضاً من أخطاء الماضى !

— أنا ؟ .. أنا لا أعرف من ذلك كثيراً ولا قليلاً أيها الأمير !

— إن كنت لا تعرف منه قليلاً ولا كثيراً ، فبقليل من الذاكرة تستطيع أن تعرف كثيراً جداً والآن ... يجب أن نذهب مع حنة إلى مطعم سيرو فقد وعدتها بذلك ... أين هى ... ؟

— أوه ! إنهـا هناك ... ها هى ... مالها لا تريم عن هذا النقش السخيف ... أية صورة هذه التى تقف أمامها مأخوذة مسحورة... ؟ سبعة آلاف جنيه ؟ ! ثمن باهظ ... إنى لا أشتريهـا بخمسة جنيهات إذا عرضت علىّ !

* * *

وذاع صيت جون ماكسفيلد فى جميع أرجاء لندن .. ودهش الناس لم لا يكون عضواً فى الوزارة إن لم يكن رئيساً لها ، وهو هذا المفكر العميق ، والخطيب المصقع ، والكاتب الذى لا يشق له غبار

وتكلم الناس فى هذا الصدد ، وأكثروا فيه الحوار ولا سيما حينما أذيع اعتزام الحكومة عقـد مؤتمر عام فى قاعة ألبرت هول لبحث موضوع « تخليهـا عن الصناعة للأهالى » وما ذاع من أن رئيس الوزارة والمستر جون ماكسفيلد هما وحدهما خطيبا هذا المؤتمر

وحدث تغير فجائى فى نفس المستر جون ! فقد ثارت فيه كبرياؤه وعز عليه ألا يكون شيئاً إلا بهذا الأمير الأشيب أوتو متكوفتش ... وصمم أن يعد خطبته فى (تشعيب الصناعة[1]) بنفسه وأن يذهب إلى قاعة ألبرت هول دون أن يصحب الأمير أو ابنته معه ... « ولماذا ؟ أمن أجل هذا الوهم الذى تسلط على فأحسب أنني لا أستطيع التفكير بدونه ولا الخطابة إلا بإيحاء منه ؟ ! لا ... لن يكون هذا بعد اليوم ... لا بد أن أستقل عن هذا الرجل الذى استلب إرادتى ، وقبض على آلة تفكيرى ، فلا تدور إلا بإذنه ... إن هذه فرصتى إلى الوزارة ، ولن أرق إليها على أكتاف الغير ... إن الناس فى برادفورد مفتتنون بعظمتى ، والانجليز كلهم مسحورون بشخصى ، فما خوفى أنا ألا أكون شيئاً إلا بالعجوز أوتو ؟ أكل هذا خداع فى خداع ؟ ثم تذكر السائل فصمت قليلا ، وحدث نفسه فقال: « لا بأس سأتناول الجرعة قبل أن أذهب ... إنه شراب مقو يبعث فى النفس شجاعة وانشراحاً ، وفى اللسان براعة وانطلاقاً ، لكنه لا يخلق البيان ولا يوجد الفصاحة من العدم فى اللسان ... إن بلاغتى هى طبع فىّ كان مستوراً ، وإن هذا السائل العجيب الذى أتجرعه من الزجاجة الخضراء هو الذى ساعد على اكتشافها ... إنه لم يصنع شيئاً غير هذا ... فلأشرب الجرعة إذن ، ولأذهب بمفردى ... »

ثم شعر فجأة بالاحساس السحرى يتلبسه ... وبالقوة الخفية الهائلة تشيع فى أعصابه ... وهنا يتغير تفكيره ، ويحس بحاجته الشديدة إلى أوتو متكوفتش ... وتذوب حماسته السابقة ، وتتبخر ، ويؤمن من جديد أنه ليس شيئاً مذكوراً بغير هذا الرجل الأشيب الهائل ، ويحس كما تعود أن يحس من قبل أنه لا يستطيع أن يتفوه بكلمة إلا إذا أوحاها إليه أوتو ... ويذكر حاله قبل أن يلقاه فى

(١) أي أن تنزل الحكومة عن الصناعة للشعب

دلماشيا فيبتسم ضاحكا مما كان فيه من غباء وغرارة وجهل ، ثم يرى إلى نفسه الآن رجلا يشار إليه بالبنان ، ويجرى ذكره على كل لسان ... وهـذا بفضل الأمير أوتو !

« لا ... أنا هازل ... لا بد لى فى ذلك اليوم الموعود من أوتو متكوفتش ... إنه رجل عبقرى.. وأنا لا أكون شيئاً إن لم يصحبنى إلى هناك ... هو ... أو ... حنة ... لا بد لى من أحدها ... ولا بد أن يجلس فى الصف الأمامى ليكون أثره بالغاً حده الأقصى فى وجداني ... »

ثم سمع هاتفاً يردد فى روعه هذا النداء : « أجل . أجل يا جون ماكلسفيلد ... إياك أن تذهب إلى المؤتمر بدونى ... إنى أرغب أشد الرغبة أن أكون معك اليوم كما كنت معك بالأمس وقبل الأمس وفى كل مرة ... إن لدي أفكاراً وإن لدى خططاً سترفعك إلى الذروة...أسمعت ؟ إياك أن تنسانى... إحذر أن تتحرك إلى قاعة ألبرت دون أن تصحبنى ... »

ولم يكن هذا الهتاف وهماً ... لقد كان يتردد فى أذنيه كأن أوتو واقف أمامه ... حتى أنه وقف وشكره ، وأكد له أنه لن يذهب وحده ... ثم مد إليه يده فصافحه ... وحينما فتح عينيه ... لم يجد أحداً فى الغرفة معه !

وعرف أنه الوهم مرة أخرى ...

وعاد يفكر من جديد فى وجوب التخلص من هذا الخداع .. فصمم على أن يذهب إلى المؤتمر وحده وأن يبنى مجده بيديه...وأن يرفع اللبنات التى تشيد هرم مطامحه فوق كتفيه هو لا فوق كتفى شخص آخر ... وكان هذه المرة جاداً فى تصميمه ، معتزماً ألا يعتمد على أحد فيما يصبو إليه من رفعةٍ ووزارة ومجد ...

ولم يبق على المؤتمر إلا أيام ، وكان يذكر صاحبه أوتو فتشرق أساريره مرة ، وتظلم وتحتلك مرات ... ثم سمع من أحد معارفه أن الأمير مريض ، فكان أول ما خطر له أن ينطلق من فوره فيزوره ... فلما كان فى طريقه إلى شارع شارل ، حيث منزل أوتو متكوفتش ، جعلت الذكريات تتردد فى خاطره وتلح فى ترددها ، ولم يستطع جون أن ينكر أيادي الأمير عليه .. والشهادة له بأنه صانعه.. وإن كانت كل تلك الهواجس تجعله في حيرة من أمره ...

— أبى مريض يا مستر جون ... إنه مريض جداً .. وهو مايفتأ يشكو بذات الرئة .. والأطباء يؤكدون أنها حادة ... لقـد ضعف وهُزل حتى قد لا تستطيع أن تعرفه إذا رأيته

وبدا الغم فى وجه الرجل ، وشاع فيه الحزن العميق ... ثم نظر إلى حنة فى غير عمـد ، فبهره منها هـذا الشعر الأحمر الذهبي ... وإن لم يثر فيه إلا الاشفاق عليها ، والرثاء من أجلها ، والتفكير فيما يؤول إليه أمرها إذا مات أبوها

— حنـة ! لابد من استدعاء إخصائى فى الأمراض الصدرية ... وأظن أن السير سبيريان هو عمـدة الأطباء فى ذات الرئة ... أليس لكم ممرضة يا حنة ؟!

— أنا هنا الممرضة والابنة يامستر جون ... إن أبى يأبى أن يمرضه أحد غيرى

وناقشها المستر جون فى قيامها بتمريض أبيها ، ومع أنه أقنعها بأن السهر على صحة المريض مرهق لشبابها وأنه لابد من ممرضة أخرى خبيرة بفنون التمريض إلا أنها لم تشأ التخلى عن هـذا الواجب المقدس ولم تقبل أن تنزل عنه لأحد

***

وعاد المستر جون ماكلسفيلد إلى فنـدق (رتز هوتل) ... وعاد أيضاً يفكر فى خطبتـه المزمعة فى قاعة (ألبرت هول) ، وهى تلك الخطبة التى ترتـكز عليها كل آماله فى دخوله عضواً فى الوزارة ... ثم بدأ شيء من الأسف يخامره لمرض الأمير أوتومتكوفتش ... وتمنى لو عوفى قبل الموعد المضروب لإلقاء الخطبة ... ثم تخيَّله جالساً فى جميع الأندية والمسارح والمجتمعات التى كان يلقى فيها خطبه فى الصف الأول من المستمعين ، وتخيل عينيه العميقتين تشعان السحر والكهرباء فى نفسه فيتدفق بياناً كما يتدفق صيِّبٌ من السماء فيحيى الأرض بعد موتها ... ثم تخيل ضرورة حضوره هذا المؤتمر ليتم له النجاح المنشود وليفوز بعضوية الوزارة ... وأخذ يشك فى النجاح إن لم يحضر أوتو ... وأخذ الشك يكبر ويتعاظم حتى طغى على نفسه ، وعلى أفكار الزهو والكبرياء التى ثارت فى رأسه وصدره قبل ساعات ، ثم وقعت الواقعة ... ! فقد توفى أوتومتكوفتش ، الأمير الشرقى الساحر قبل موعد انعقاد المؤتمر بليلة واحدة ... فلما سمع المستر جون خبر وفاته فزع أيما فزع ، وأصيب فى تفكيره بطائف من الشلل قضى على كل ملكاته وكفاياته ، وتناول الخطبة المكتوبة فلم يستطع أن يقرأ منها حرفاً ، ثم حاول أن يذكر الغرض الذى من أجله ينعقد المؤتمر غداة غد فلم يستبن من ذاك شيئاً ... ووقف ليرتجل الخطبة فلم يقـدر على صوغ عبارة واحدة .

وتذكر السائل السحرى فجأة فبادر إلى أخذ الجرعة التى حـــددها له المغفور له الأمير أوتو متكوفتش ...

ماذا أصاب السـائل أيضاً ؟ ! أين الشـذى الجميل الذى كان يفعم الخياشيم ويجرى حديداً فى الأعصاب ؟ مالهذا السائل ينحط فى المعدة كما ينحط الدواء الخبيث ، تعافه النفس ويتقزز منه الفم ؟ آه ! لقد ذهب السر الهائل بذهاب الأمير أوتو ؟! يالله ! لقد كانت نهاية المستر جون ماكلسفيلد الخطيب والمفكر السياسى الداهية أغرب من بدايته ! وعند ما اقتربت اللحظة الرهيبـة المهمة فى حياته ... ابتعدت عنه كالبرق عوامل النجاح ... يا للموت !

***

ووقف المستر جون يلقى خطبتـه ... فماذا حدث ... ؟

« ماهذه الفهاهة ؟ ماذاك العى ؟ ماهذا التفكير السقيم ؟ من الذى دعا ذلك البهيم لينهق فى ذاك المؤتمر ؟ ما لنظراته تترجرج كالزئبق هكذا ؟ » ... وبمثل هـذه العبارات القاسية أنشأ المستمعون يسلقون جون بألسنتهم الحداد . وفى الحق ... لقد

ظل الناس حيارى فى أمر هذا الرجل ... يعلو ويعلو ويعلو حتى لا يكون علو... ثم يهوي ويهوى ويهوى حتى لايكون سُفل ... لقد ارتفع بالأمس القريب حتّى لم يعد فى انجلترا كلها من يدانيه بلاغة وفصاحة وإشراق بيان وسمو تفكير ، فما باله الليلة قد هوى من حالق ؟ ! ليس أحد يدرى ! حتى ولا جون نفسه ... فلقد وقف فوق المنبر يبرق ويحملق ... ويبحث عن كلمة أو كلمتين يقولهما ، ولكن الكلام كله التاث عليه ... حتى ريقه جف فلم يستطع أن يبلعه ، وكان رطباً أبداً ! وأخذت العيون ترمقه ، والألسن تسلقه ، ووقف مسكيناً حائراً كالطفل الضال في المدينة الصاخبة ... وذكر أوتو فتمتم بصلاة خافتة ، ودعاء حار أن يدركه الأمير الشرق من عالم الأرواح ببعض سحره ... ولكن ... هيهات! فلقد ساد قاعة المؤتمر صمت يشبه الموت... وتبددت نفس المسكين لهفات وحسرات !

— « إنطق ياصاح ... تكلم ... إن برادفورد بريئة إذا طال هذا الحصَر[1] ... تكلم ... إنك موشك أن تقضى على شرفنا ! »

من كان يرسل هذا السخط فى جو المجلس ؟ آه ! إنه رجل من برادفورد ! وهكذا سقط الستر جون ماكاسفيلد من عالم السياسة والمجد البراق سقطة لاقيامة له من بعدها ... ودخل إلى هذه الدنيا الهادئة المتواضعة ... دنيا المراعى والأغنام والأصواف ... ولم يعد يدور فى خَلَدِه قط أن يضع إحدى قدميه فى دار البرلمان المتيدة ، ذات البريق وذات السنا...

بل آثر برادفورد الساكنة ، ولم يعد يقبل إلى لندن إلا مرة فى رأس كل شهر ، حيث يقيم ليلة أو ليلتين فى فندق ألرتز هول ، ليشرف من النافذة الحبيبة على الهايد بارك ... ويجتر هناك أحلامه

وتذكر السائل العجيب السحرى مرة بعد وفاة الأمير أوتو بستة أشهر ... فراح يجمجم فى نفسه بعض العبارات : « يا له من سائل ! لقد كان خداعاً عظيما ... ومع ذلك فما أظنه كان خداعاً صرفاً ، ولا وهماً محضاً » — وكان يجلس عند النافذة المطلة على الهايد بارك ، وهو يرسل هذه الكلمات ، وفى يده الزجاجة الخضراء التى كانت ما تزال تحوي قطرات من السائل السحرى ، كانت تشع سناءً حلواً مشبماً بالذكريات ، رغم الأشهر الستة الطويلة

ولما نام أخذت الأحلام تسبح فى رأسه المضطرب ، وسمع هاتفاً عجيباً يأمره أن ينهض من فوره ، فينطلق فى شوارع لندن لأن حظاً جديداً ينتظره ... وقد يكون فيه إسعاده ...

وهب من نومه ليضحك ملء شدقيه لهذه الرؤيا الشاردة

وكان الليل جميلاً مقمراً ، وكانت ليلة من أخريات الصيف اللندني العجيب ، نخطر له أن يحقق مدى ما فى هذه الرؤيا من صدق ... من أجل ذلك لبس ثيابه ووضع فوق رأسه القبعة ، وهرول على الدرج وانطلق يذرع حدائق الهايد بارك إلى محطة فكتوريا ، وهو لا يدرى ما الذى يدفعه ليسير فى هذا الطريق بالذات . . . ولما بلغ كتدرائية وستمنستر ... وقف وجهاً لوجه ، حائراً مرتبكاً

(١) الحصر العى وعدم استطاعة الكلام

أمام فتاة نحيلة ، منهوكة الجسم ، متشحة بملابس سوداء ... ما كاد ينظر إليها حتى عرفها !

ولكن الفتاة انفتلت فى شارع ضيق ، ثم دخلت منزلا حقيراً ، فقال جون :

« يا لله ! إنه لا يمكن أن يكون هنا مسكنها »

ولم يدر ماذا يصنع ...

ثم رأى كأنه يحلم ... وها هو شبح الأمير أوتو يدفعه نحو باب المسكن الذى انفتلت فيه الفتاة .. وها هى يد الشبح تمتد إلى الباب فتفتحه ... حيث رأى جون ماكلسفيلد حنة ، ذات الشعر الأحمر الذهبى ، واقفة خلفه !!

وصاحت حنة مذعورة : «مستر ماكلسفيلد!!»

ويتم المستر جون قصته فيقول :

— « حقاً لقد كنت غراً أبله لا أعرف ما الدنيا قبل أن أعرف حنة .. إنها خير من السائل المجيب السحرى الذى اخترعه أبوها ألف مرة !! هأنذا أخطب خطباء أهل الأرض وأعمق مفكريهم بعد إذ تزوجتها »

دريني خشبة

إن عادت الحية ...

للكاتب الفرنسي هنري بارناباس
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

هنري مارناباس ، كاتب قصاص على نسق جي دي موباسان قليله يغنى عن الكثير ، وكثيره رائع . جعل قصته (إن عادت الحية ...) على لسان موظف سياسي ، يحمل حقيبة دبلوماسية بين باريس ومرسيليا . وفجأة التقى فى القطار بصديق قديم هو القصاص الشاعر كاميان ديربال الذى كان شبه مجنون بحالة رثة . وإنه على غناه وتلؤلؤ مواهبه يعيش عيشة الفلاكة ، فاستدرجه حتى قص عليه سبب قنوطه من الدنيا وزهده فى الحب وسعادته الموهومة . وكانت القصة تنفصل وتتصل تبعاً لحركة القطار وبلوغه محطات الطريق وهو ابتكار فى فن الرواية . فان القصة ليست سوى قطعة من حياتنا تلازمنا ونعيشها وتأخذ منا وتعطينا كالسفر نفسه الذى ينقلنا ويطوي المكان والزمان والأعمار معاً . أما اسم المرأة فهو لور ، ويكتب أحياناً لورا وهكذا كتبناه على الصورتين .

إياك واحذر من الاعتزاز بمواهبك كما كنت أفعل . فقد كنت أفاخر بما يسمونه قوة الذاكرة . ! وأزعم أنها صديقة وفية لا تخونني أبداً . وما زلت كذلك أغبط حيناً وأحسد أحياناً على تلك النعمة المؤاتية سواء أكان ذلك ذكاء أو فطنة . تقول عقلاً واعياً أو عقلاً باطناً . . قل ماشئت ، ولكن ثق ياصاحبي أنني أعتقد أن فى الكائن الانسانى سراً كامناً ، بل قوة خفية ... سمها شيطانة أو ملكة ... كما شئت ... فهنا السر (وأشار الأستاذ بيرون إلى رأسه) الذى يعجز العلماء عن تعليله ومعرفة كنهه .

كنت مسافراً من مرسيليا إلى باريس فى قطار الليل السريع فى عمل هام ينتظرني ذووه على أحر من الجمر . . . نعم عمل سياسي سيأتي خبره فى سياق حديثنا . وكان فى صحبتي موسيو ديربال الكاتب الشهير الذى قضى نحبه بفاجعة أليمة ... كان قصاصاً وشاعراً ولكنه من ذلك النوع المتبرم بالحياة .

كنت قرأت كتابه « من الأعماق » وهو حافل بأنفس الخواطر والأفكار عن خفايا الضمير وخبايا النفس من الشهوات والوجدانات والعواطف . وكان ديربال يأكل ويشرب وينام ويصحو بثيابه كاملة ، ويأبى أن يغتسل أو يحلق ، ويقول إن الأسد والفيل والنمر لا تفعل شيئاً من ذلك فلا حاجة به إلى الزينة . فتصور هيئة ذلك الإنسان المتوحش الذى وهبته الطبيعة تلك العبقرية النادرة وهو ينشدك شعره فى فلسفة الحب وهو حافل بالبديع الرائع من شذرات الغزل الرقيق والنسيب العذب ، ولو رأته فتاة أو كاعب لفرت من وجهه فزعاً

فسألت رفيق السفر : كيف صار إلى تلك الثورة وذلك القلق حتى أمسى متوقداً معذباً وهو الذى أفاض نفثات السحر على آفة الحب فكساها أجمل صبغة وأحسن رواء ، واجتنى من شجرة الأحزان والأشجان ثمار الفصاحة غضة يانعة .

فقال لى : خيانة المرأة . خيانة المرأة هى التى ساقت إلى قلبي الحزن الدائم والشقاء المقيم ، فأصبح قلبي مجال الشك والريبة وموطن التهمة وسوء الظن

فسألته : أَلِأن امرأة واحدة خانتك ، جعلت الجنس الأنثوى كله فريستك وضحيتك فثرت على نشاء العالم ثورة حنق وحقد عنيفة هوجاء وشننت على النوع الإنسانى غارة شعواء ؟

فتنهد ديربال من أعماق قلبه وحدجنى بعينين قويتين ثم قال : لقد ثبت عندى أنك لم تعرف خيانة النساء ولم تذق مرارتها ولم تكتو بنارها . إنك يا سيدى لا تعرف حقيقة قلب المرأة ... ولعلك لا تزال تظنها بهجة الدنيا وزينة الحياة وقسيمة الرجل وأداة سعادته ووسيلة هنائه . ومن العجب أن معظم الرجال يرون رأيك ، فليتهم يعرفون بعض ماعرفت ، إذن لتمنوا انقراض جنس المرأة انقراضاً لا رجوع بعده ، وإذن لساد الأمن والسلام فى الدنيا وانفسحت ظلال النعيم فى العالم ، وكف الناس عن التدافع والتنازع والتحاسد والتحاقد ، ولم تلق على ظهرها وغداً ولا شريراً ولا لئيما ولا خبيثاً ؛ إذ يصبح الرجل لا يرى لنفسه أدنى ثمرة فى التزام الرذائل والخبائث وارتكاب الإثم والجرم واقتراف الشر والنكر . هذا لا شك ما يحصل لو أن الطبيعة فى ساعة من ساعات تعقلها قضت بطمنة واحدة على بنات حواء كافة وأراحت الرجال من الجنس « اللطيف » . فابتسمت ثم ضحكت ثم ساورتنى المخاوف فقد دخل فى روعى أن بالمؤلف العظيم لا شك جنة لا تعرف علتها ولا يفهم سرها . ولعله كان أصيب إثر داء أو لوعة بأشنع أنواع الجنون ، أعنى ذلك الذى يكتسى ثوب العقل ويلبس زى الحجة والبرهان ! ! وقد تمكن بعقله الجبار أن يجعل من الجنون جمالاً ، وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كلألاء الشعاع ، يبهر عيوننا ؛ تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان . عند تمام الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وقف القطار فى محطة ديجون فدعوت الشاعر إلى شرب قدح من نبيذها المتق ، فأبى إلا أن يشرب أقداحاً من الأبسنت وهو ما يسميه « بالشيطان الأخضر » ويتغزل فى لونه قبل أن يتجرعه . وفى الحق أن تلك الخمرة الخبيثة التى طالما ضللت العقول ، وحرقت الأكباد ، وأذابت المواهب النادرة ، كانت فى الأقداح كالزمرد الذائب تجذب النظر وتغرى النفس بارتشافها . وقد لمح ديربال إعجابى وترددى ودهش من اكتفائى بالنبيذ ، وهو شراب برىء إذا قارنته بشيطانه الأخضر الآثم فقال لى :

— إذا أرقتنى الأوجاع وسهدتنى الأوصاب ، خففت عني وطأة الداء بهذه الكؤوس المترعة ، فتحول ذهنى عما أعانيه من الألم بذكرى أيامى الخالية وحوادثى الماضية ، وما انطوت عليه من العواطف والحسرات والتلهفات ، وخواطر التوبة والندم

فقلت له وأنا أنادمه : ترى يا صاحبى ديربال أى أدوار حياتك هي الآن أكثر تردداً على خاطرك فى ساعة الذكرى ؟

فقال : لم يكن دور الشبيبة وعصر الصبا ... كلا ! فلقد كانت ملذاته قليلة نادرة ، مشوبة في معظم الأحيان بمرارة الألم ، إنما خيانة المرأة هى التى تتردد على خاطرى ، وفى أمثال هذه الساعة إذا خطرت ببالى الخواطر عن باريس وأحوالها وحوادث المصر ، وعن شهرتى وسمعتى ، أسرعت إلى طردها من رحى خاطرى لتوفير نفسى على ما تألم له من الوجدانات والأشجان ، التى تحركها ذكرى خيانة المرأة

كان الشاعر دربال يتكلم ، وأنا أتحرق على قصته ، ولكننى لم أحاول قط أن أشعره بتلهفى ، فقد عهدت هذا النوع من الرجال يروغ منك ويعرض عنك ، إذا أحسّ برغبتك فى استطلاع دخيلة نفسه ، بل إنه ليفقد وحيه ، ويطفئ مُصباحَ إلهامه عامداً ، إذا ألزمته أن يروى عليك حديثه . يجب أن تتركه يفيض من تلقاء نفسه ، وإن عواطفه الجيّاشة لتطغى على هدوئه وتلجئه إلى الكلام ، ليخفف عن قلبه وطأة الألم ، فخير سبيل لك أن تتركه ، وإن أردت الإمعان فى إهاجة شعوره ، فلتعرضن عنه ، ولتظهرن عدم اكتراثك بالوقوف على سره ، وإلا فإن كل إشارة أو عبارة تنم عن اشتياق لحديثه تسد فى نفسه مسالك القول ، ولذا فقد تصنعت الإغضاء وتعمدت التجنى ، وما زلت سالكاً معه سبيل الدلال حتى عدنا إلى مركبة القطار ، وقد بعثت فينا أقداح الخمر دفئاً وأحلاماً عذبة ، فاضطجع دربال على المقعد الطويل ، واتخذ منه فراشاً وثيراً ، وأخرج من أعماق جيوبه المختفية وراء أردية لا عداد لها ، علبة مستديرة من الذهب ذات غطاء لازوردى مزدان بصورة لم أتبينها فى بادئ الأمر ، ثم نقر على غطائها ورفعه ، وتناول على مهل بين أطراف بنانه مسحوقاً معطراً مما تحتويه العلبة وقال : هذه علبة زينتها وقد نقشت عليها صورتها ، صنعها لى كاود باسيه ، ووراء الصورة مرآة صغيرة طالما نظرت إليها وهى تتزين بما فيها فانطبعت على صفحتها محاسنها ... أتصدق ذلك ؟ إننى عند ما أشتاق لرؤيتها ، أنظر إلى خيالها فى المرآة ... لأنه لا يزال باقياً ، فأراها !! ثم أنشق عطرها ... أتصدق ذلك ؟ إنى قادر على استحضار مباهجها وعبقها ، بعد أن ماتت واستقرت فى جوف الأرض الندية فى غابة قريبة من شاربونيير ، تلك القرية الجميلة التى قضيت فيها أسعد أيام حياتى فى صحبتها قبل أن أكتشف خيانتها التى استحقت عليها الموت . نعم الموت

— إذن ماتت تلك التى حملتك أعباء الحزن والغيرة ، وأسخطتك على الدنيا ومن فيها ؟

— نعم . ماتت

— وإذن كنت سعيداً حقاً بحبها فى حياتها ؟

— كنت سعيداً ... وأعترف أنى كنت أشعر أحياناً وسط هذه اللذائذ الرائعة بضئولة أحلامى وأوهامى وأحس أن أخيلتى كانت تافهة حقيرة ، لأننى كنت أرى فى عينيها بريقاً يوشك أن يكون لهباً . فأسألها فلا تحير جواباً . كانت اللعينة سكوتاً آيتها الصمت الطويل والتفكير العميق ، فأسكرتها ذات ليلة سكراً شديداً وكانت تلك الشيطانة الانسية تزداد صحواً وتنبهاً ، وكلما أمعنت فى إغراق حرصها فى كؤوس الخمر لأحل عقدة من لسانها أمعنت هى فى اليقظة ، كأن خمرة بورجونيا وشمانيا وكونياك[1] عصرت خصيصاً لتزيدها حذراً وتكتما ، ولكنها فى آخر تلك الليلة بعد أن لا ينتها وداعبتها وعبثت بشعرها ومناعم صدرها وهصرت عودها وعصرت قلبها بما يقبل عليه كل عاشق مجنون فى خلوة يحسبها لفرط عطشه وداع الحب ونهاية الغرام ، وقد جلست فى الفراش عارية ، وكانت أشبه الأشياء بتمثال من

(١) أسماء مقاطعات فرنسية اشتهرت بعصر الخمور المعروفة بأسمائها

المرمر المشرب بلون العاج ، وقالت لى بعد برهة من وصالنا :

أى كليان . كليان ديربال... ماذا تطلب منى ؟ أراك لا يهدأ روعك منذ عرفتنى ، ولا تستقر على حال . تدأب تسألنى عن الماضى ، كأنك لا تقنع بحاضرى الذى بين يديك . ما ذا عليك من الماضى وما جرى فيه . أتظن أشد النساء بلاهة ونزقاً تفضى إلى حبيبها بحقيقة حالها مهما برح بها هواه وسلمت له قيادها فقلت : هل بعد الذى نحن فيه سر يصان ، وهل وراء ما نرى ونتذوق خفاء ؟

— وهل يحب الرجال أبداً هتك الأستار ؟ هب معشوقة مفرطة فى السذاجة والصدق أفضت إلى عاشقها بكل ما رأت وعاينت وتألمت أو فرحت وسعدت . أتراه يتقبل اعترافها بالتصديق والتسامح؟ أم تراه يصاب بداء الغيرة التى تقتل الحب فى مهده يافعاً وفتياً . وإن هى صدقته وكان هو أول من أحبت ، فليس لها منه سوى الشك الباعث على اتهامها بما هو أشد من التصنع والكذب

فقلت لها : تضربين يا لور المحببة الأمثال بغيرك وتحومين حول لباب الحديث وخلاصته ويأبى حذرك أن تتكلمى عن نفسك ؟

فقالت : لو أن وراء الكلام الذى تقصد إليه خيراً لك ولى ، وحقك ما ترددت لحظة فى تسليمك مفاتيح قلبى ، وجعلتك فى حل من مغاليقه . ولكن وا أسفاه ! ليس لدى ما أبوح به غير أنى امرأة شقية بائسة ، لقيتك فى وقت كنت فيه أحوج ما أكون للعناية والرحمة والمواساة والحب ، فأحببتنى وعنيت بى ورحمتنى وواسيتنى ، وفرجت أزمة نفسى التى كادت تسحقنى وتمحقنى ، حتى لقد اعتقدت أنك مرسل إلى من السماء ، فإننى على الرغم مما وقع بي من كوارث الحياة ونكباتها ، لا تزال بى بقية من الإيمان الذى نشأت عليه وأظلتنى شجرته

فقلت لها : عجباً يا لور . لم أسمع منك قبل هذه اللحظة أنك كنت فى ضيق وألم وأننى خففتها

فقالت : أ كنت تريد أن تمتن علىّ وتتطاول وتحاول إذلالى

قلت : من أين لك هذا الظن السيء ، ولِمَ لم تحسى أننى أشاركك الأسى وأترفق بك ، وأتلطف فتخف لوعتنا معاً ، فإننى أنا الآخر وليد شقوة وحليف آلام وأليف أحزان

فاطمأنت المرأة قليلاً ووهمت أنها همّت بالكلام الصريح ثم عادت فأطرقت ونظرت إلى الفراش بعينين واسعتين ثم صوبت نظرها فىّ وصمدت . وأنا أتحرق من الغيظ والصبر الطويل وأعجب لهذا السر الذى انطوت عليه أضلاعها وأنظر إلى فمها المغلق بأقفال الصمت القاتل ، ثم قالت : إسمع الآن يا كليان ... لقد عرفت قبلك رجالاً ، صغاراً وكباراً ، فلم يسدوا حاجتى ولم ينقعوا غلتى ولم يمنعنى حبهم المشتعل من الاسترسال فى التمنى والتطلع والتخيل ؛ وكنت أحس فى نفسى فراغاً مجهول العلة ، لا يملأه شيء ألبتة ، وأجد فى مهجتى تلهفاً على نوع آخر من السعادة لا أفهم كنهه ولا أعرف ما هو ، ولكنى أشعر بشدة الحاجة إليه ... إلى أن التقيت بك فأحببتك وأخلصت لك وها أنا ذى أقسم لك...

فقلت لها : لورا ! لورا العزيزة المحببة ! بالله عليك لاتقسمى ، ليس من وراء القسم إلاالقطيعة ، فإن المرأة المحبوبة لا تقدم على الإيمـان إلا إذا أحست بدبيب السأم فى قلبها فتريد أن تستوثق من دوام حبها ، وتمحو فـكرة الشك من نفس عاشقها . وبدأت الخبيثة تبكي وتنتحب وتمرغ خديهـا على صـدرى ووجهى وتغرس أظفارها في لحى حتى كادت تدمى بدنى فقلت لها :

لورا ! لورا ! لا تؤذى عينيك الجميلتين بالبكاء ناشدتك الله ! غيِّضى مدامعك وكفكفى عبراتك فوالله ما قصدت إلى إيلامك أو إيذاء عواطفك ، ولا الفضول والتطفل على خصوصياتك وأسرارك ودخائلك وإن كنت أجدنى مدفوعاً بأقوى عوامل الرغبة إلى الاهتمام بنفسك والسعى وراء مصلحتك

عندئذ نصبت المرأة قامتهـا وقذفتنى بنظرة حشـــدت فيها كل ما تستطيعه من البغضاء والـكراهية وقالت لى : أتحسبنى من النساء اللواتى تستدرجهن المنفعة ، إن قلبى أيها الرجل لايباع ولا يشـترى ، إننى أعز وأغلى من أن أكون سلعة ، إن الرجل الذى يستطيع أن يدفع ثمنى لم يخلقه الله بعد . إنك تسخر منى وتهزأ بى ، ولـكن اعلم يا كليمان أن قلبي إن نازعنى فى هواك لأخلعنه من صدرى لأسحقه تحت قدمى . ولم تكد تتم قولها حتى راعنى وآلمنى ما أبصرت من شدة اصفرارها وامتقاع لونها ، فأيقنت صدقها ولم يبق فى ضميرى أثر من شك فى إخلاصها وصدق مقالها

فقلت لدربال الذى كان يروى حديثه :

— ألم تكن صادقة بعدالذى وصفتَ ؟ فنهض دربال ووقف بقامته المديدة وسط مقصورة القطار حتى كاد يصدم برأسه مصباح السقف الذى كان يشبه بطيخة من الزجاج الأزرق ، وصرخ :

« صادقة ! مخلصة ! ما ذا تقول يا هذا ؟ إعلم هديت الرشد — أنه ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء اثمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتها ومسؤوليتها . فقلت له: موسيو دربال هدئ روعك ! فقال : تكاد نفسى تطير شعاعاً كلما التقيت بساذج مثلك ، لا يزال يحسن الظن بالجنس اللطيف . إن النساء أغلظ أكباداً من أن يتألمن شديد الألم أو يكترثن عظيم الاكتراث عند رؤية مناظر الشقاء ومشاهد البلاء والمحنة — فهن ينظرن إلى مأساة الحياة تمثل على مسارح الدنيا ولا يكاد يخفق لهن بالأسف جنان ، أو تسيل لهن من الرحمة والرثاء أجفان . ولـكن دموعهن تنهمر من أعينهن كالمطر إذا أردن أن يمثلن دوراً باهراً . على أننى لا أحب أن أفسد سياق القصة بهذا الاستطراد ..

عند ما رأيت بكاءها وغضبها ، آمنت بصدقها ولـكن هاتفاً كان يهتف بى من أعماق نفسى أنها كاذبة . كذلك كان شعورى ، وإنه لشعور صادق وهو مزية لم تزل تميز أسرة دربال منـذ أقدم الأزمان ، وقد ورثتها عن أبى الذى ورثها عن أبيه ، وما زلت فى كل مسائلى وشؤونى آتمر بأوامر هـذا الهاتف فأهتدى إلى الصواب وأوفق إلى أحسن العواقب . فقلبي حدثنى بأن لورا خادعة خائنة ، ولـكننى كنت جد حريص على إتمام سعادتى فى تلك الليلة وأخشى أن تكدر صفوها بالعويل والنواح ، فدنوت منها وأخـذت يدها بين راحتى وضممتها إلى صدرى وقلت لها :

أنظرى إلىّ واصغي لقولى ! سيأتى يوم تعلمين فيه أن سلوكي معك الآن لم يصدر عن رغبة فى إسخاطك أو إساءتك ، وغايتى أن أبذل كل ما فى طاقتى لإسعادك ورد الأذى عن شخصك المحبوب ، أتوخى بذلك أن أكون أصدق صديق لك وأنصر نصير فى حياتك . وكنت أحسب هذا القول اللين الذى صدر عن إخلاص وشفقة يصل إلى أعماق نفس تلك المرأة التى ألقت شبا كها على قلبي ، ولكن لشد ما كانت دهشتى عند ما قالت : كلكم سواء . لا فرق بين الواحد والآخر ؛ كلام عذب ووعود معسولة ، وقلوب سوداء . فقلت لها : كلكم ؟ كلنا ؟ إلى من تقصدين يا لور ؟

فقالت : أقصد إلى جنسكم جنس الرجال الخائنين ، فانكم تبذلون قصارى الجهد حتى تنالوا مآربكم من المرأة التى تخدعونها بحبكم ثم تعرضون عنها . فذعرت من قولها لأن الدهشة كانت أقل من أن تكفى فى مثل هذا الموقف وقلت لها : هل أستحق منك هذا التأنيب وأنت التى قلت إننى ملأت فراغ قلبك ، وفرجت أزمة نفسك وبكيت منذ هنيهة حتى عميت وبللت صدرى بدموعك ؟

فقلت لكليمان دربال الشاعر : كان عليك أن تكتفى بهذا القول منها ثم تقطعها إلى الأبد فماذا ينقصك بعد هذا البرهان على اعوجاجها وتقلبها ، أنت يا من تقول إن سريرتك تهديك ، وهاتفك يدلك . فلم يتحرك دربال في مضجعه وقال :

— أنت رجل سياسى ناضج . ولكنك طفل فى حياة الحب . لو أن الإنسان كان خالياً من العواطف لأبصر الأشياء كما هى وعلى حقائقها البحتة المجردة ، ولكن الإنسان لا يتأمل الدنيا وأشياءها وشؤونها بقلب فارغ وفؤاد خال وشعور بارد جامد مثلكم أيها الساسة . ولكنه فى معظم حالاته إن لم يكن فى كلها ينظر إلى الدنيا وأشيائها بنفس مشغولة بعاطفة واحدة أو أكثر ، فإذا نظر رجل مثلى إلى إنسان أو شيء من وراء عاطفة الحب متخذاً من هذه العاطفة منظاراً ومجهراً يتأمل به ذلك الشيء كان خليقاً ألا يبصره على حقيقته وكنهه ، بل يراه مزخرفاً مزيناً بشتى صفات الوهم والخيال ، ولكنها أحق فى نظره من الحقيقة ، فهى وإن كانت في نظر غيره وهمية لكنها فى نظره كائنة موجودة بل مرئية ملموسة

— إذن كنت يا موسيو دربال تحبها إلى الحد الذى يحجب عنك الحقيقة وراء ستار من الأخيلة والأوهام

— أحبها ؟ لم أكن أحبها بذاتها ، ولكن كنت أحب الحب فيها . وإنها لعاطفة أقوى من حب المرأة لأنها أحدثت فى نفسى شعوراً غاية فى الحدة والشدة ، كان يلتهب فى قلبي ويتأجج فى سويدائى فأضيق به ذرعاً ، وكنت أبرز ذلك الشعور فى شعرى وقصصى التى فرّجت عن نفسى وكشفت غمى وسرّت همى . فكنت أشعر كمن أخرج جمرة من بين أحشائه ، أفاهم أيها السياسى ؟ جمرة من بين أحشائى

وفى تلك الليلة التى بدأت كأسعد ما تبدأ ليالى الغرام ، وأوشكت أن تنتهى كأسوأ ما تنتهي مآسى القطيعة صحت عزيمتي على مفارقة تلك المرأة فراقاً لا لقاء بعده ، فنهضت مترفقاً وارتديت ثيابى فى هدوء

قلت لك إننا كنا نعيش فى قرية شاربونيير ، إحدى ضواحى جرينوبل فى منزل صغير جميل أعدته لنا مدام بوديه ، وهي امرأة من أهل البيوتات الكريمة قعد بها الدهر ، فانقطعت للرزق من سبيل إيجار المساكن المؤثثة على أجمل طراز وأرشقه . وكنت أحب أن أطلعها على حقيقة أمرنا لعلى أفوز منها بمشورة ناضجة لأنى لمحت فى عينيها وميضاً يوشك أن يكون إفصاحاً بشفقتها على من تلك المرأة المتقلبة المتحكمة ، ولكن سكون الليل الذى كنا فى آخره وحرمة الهدوء السائد على الكون وذكرى الساعات القليلة التى قضيتها في جنب لورا ، وقد تكون من ألذ وأمتع ساعات العمر ، دعتنى إلى التريث والصبر حتى يتنفس الصبح

فلما رأتني لورا ألبس ثيابي قالت : أتتركني هكذا آخر الليل ؟ أو يطاوعك قلبك لأنى أفضيت إليك بعصارة قلبي وأطلعتك على ما لم أطلع عليه أحداً قبلك من خلق الله ؟

فنظرت إليها فإذا بى أراها وقد تغيرت معالمها — وجه حسن اللامح حقاً ولكنه جامد التقاسيم ، كأنه قد صب فى قالب من حديد ! فلست ترى به أدنى دليل على رقة العواطف أو أقل شاهد على ذكاء القريحة ، فكان هذا الجمود فى عينى أسوأ أثراً وآلم موقعاً من مقابح الخلقة ومساوئ التقاطيع

فقلت لها : أجادة فيما تقولين يالور ؟ أم هازلة عابثة ، تبذلين القول الجميل لتستبقينى بجانبك حتى الصباح ، فإنى أعلم أنه ليس شئ أشق على نفس المرأة من أن يهجرها عاشقها فى مضجعها ... ولعلك تخشين أن يتجدد حبك — إن كان فى قلبك حب فى تلك الفترة القصيرة التى سوف تشعرين فيها بالوحدة بعد انصرافى من هذا البيت ، وسوف تساورك الشكوك وتستأذن الغيرة على قلبك ، حاسبة أننى ما غادرت فراشك إلا لأندس فى أحضان غانية أهواها ، أو أتصيدها نكاية بك وانتقاماً منك . ولعل الذهن المريض أو الخيال السقيم يصور لك أننى ارتجلت تلك الشادة ، وابتكرتها وارتجلت الشقاق وفتحت باب الشجار على مصراعيه لألتمس لغضبتى عذراً ، ولأبرر موقفي منك إذا عاتبتني أو حاولت إرضائى . فأنت يالور كظلى إن تركتك تبعتنى ، وإن تبعتك تركتنى ، تعملين خلاف ما أريد ، حباً في مماكستى

وكانت المرأة صامتة . وجعلت نظرات الحنق تتطاير من عينيها الغاضبتين تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أوتاره ، وقد حاولت أن تتظاهر بعدم الفطنة إلى إشارتى وعدم الشعور بها ، فقلت لها : من ذا الذى أغراك ياصديقتى الخبيثة بأن تمثلى هذا الدور المنكر أمامي ؟

ودنوت منها وهى لا تزال رابضة فى فراشها وجلست على حافة السرير متلطفاً وقلت لها :

— إن شئت بقيت ، وإن شئت ذهبت ، وأنا على الحالين راض عنك ما دمت لا تحملين لى بين جنبيك الناعمين حقداً ، فقالت :

— أحمل لك حقداً ؟ وعلام ؟ ألأنك تغادر بيتى وبيتك كما يغادر العشراء مضاجع المحظيات قبيل الفجر ليعودوا إلى بيوتهم قبل أن يفضحهم نور النهار ؟

ابق إن شئت ، ولكن على ألا تمسنى بخير

بشر ، ولا تفاتحني في أمر من الأمور التي أسقطناها من حسابنا . ثم بدا بوجهها من آيات السخط والضجر والتبرم ما لم أر مثله قط فجعلت لا أدرى أى مقدار من هـذا السخط والاكتئاب كان فطرياً غريزياً في خلقتها وأى مقـدار كان طارئاً لعلة من العلل حتى أزالت هذا الشك ، بأن تناولت من جانبها طرحة من حرير ليون الفاخر ، كنت أهديتها إليها فظننت أنها تريد أن تتلفع بهـا ، ولـكن الفتونة تناولتها بيد عنيفة خرقاء ، ومزقت حواشيها كل ممزق — فنهضت من جانبها وقد علمت أن ما كان يلوح على وجهها من دلائل السخط والاشمئزاز إنما كان عن غريزة شر وشراسة ، ونحيزة غلظة وجفاء ، وليس لسبب حادث أو علة طارئة

وقصـدت إلى الباب أعالج رتاجه لأغادرها خشية أن يزداد شرها فيحدث بيني وبينها مالا تحمد مغبته ويورث الندامة ، فانتفضت من الفراش وطارت إلىَّ ، وقبل أن أدرك ما تريد طوقت عنقي بذراعيها وهى تجهش بالبكاء وقالت :

— كليمان ! كليمان ! بربك لا تتركني وحيدة . عد إلىَّ وأنا أعاهدك على أن أجعلك أسعد العشاق ! ألم تفهم يا غادر ؟ إنني أحبك من أعماق قلبي المحطم ، ولـكن كبريائي أقوى من حبي ، فلا أستطيع أن أبوح لك أو أسترحمك . هل أنت أعمى فلا ترى شـدة وجدى ولوعتي عليك ؟ ثم لم تلبث أن ركعت وتشبثت بساقي كما يتشبث الطفل الخائف بركبتي أمه ودفنت وجهها الندى في ثنايا معطفي وقالت :

«ها أنا ذى أمرغ خدى في تراب رجليك ، وأنا التي لا أستحق أن أربط شراك نعليك ، فاعف عني واغفر لي واصفح وراجعني تجدني أطوع من بنانك لا أطيق هجرك ولا أستطيع الحياة بدونك ...

فوحقك يا صاحبي بكيت ، وانفجرت في قلبي ينابيع الرحمة وأهويت عليها تقبيلاً وضماً وحملتها بين يدى كالحمامة الوادعة إلى الفراش الذى كان لا يزال دافئاً من أثر رقادنا ، وما زالت ترتعش بين ذراعي وتبكي وتتأوه ، وتئن وتحن وتشهق حتى صالحتها وضممتها إلى صدرى وجففت دموعها براحتي

وقلت لها : عديني وعاهديني !

قالت : أعدك وأعاهـدك على ما ترغب ! أنا جاريتك وأسيرتك وملك يمينك فاصنع بي ما شئت وكن قاسياً فلا أستحق رحمتك

قلت : لا أطلب شيئاً من هذا ، بل عاهديني على ألا تعبسى ولا تقطبي جبينك ، ولا تكرهي محاسن وجهك ، ولا تستشيطي غضباً ، ولا يجن جنونك بعد الليلة ...

فقالت : أعدك وأعاهدك ، ثم نهضت وخلعت عني ثيابي في عطف وحنان . وكانت لها طريقتها في تناول أرديتي حين ألبسها وحين أخلعها حتى لتشعر أنها تهبها شيئاً من حبها لصاحبها . وتقدمت نحوى وعلى وجهها نور البشر والطلاقة ، وفى شمائلها معنى الصراحة والحفاوة والفرح بالصلح الذى تم فلمَّ شملنا بعد شـتاته ، ثم أخرجت من قمطرها قدحاً فضيًّا كبيراً إغريقي الصنعة وملأته بما احتوته القناني من النبيذ الأحمر وقبضت عليه بكلتا يديها وسقتني ثم شربت وجلست أمامي وأخذنا بأطراف الحديث فما لبثت أن وجدت في سهولة حديثها وعذوبته

ما أزال سؤر ريبتي ونفي حثالة شكوكي ، وبعد هنيهة أخذت تتبسط وتتطلق وتتحلل من قيود الكلفة السابقة إلى أن بلغت حدود الثرثرة والهذر والاسترسال في سخافات القول وتفاهاته ، والمرء منا نحن الشعراء يستملح هذه المفاتن من الأنثى الجميلة إذا كان في حلاوة الفم الناطق بها ووميض ثغره ورخامة صوته عوض عن تفاهته وقلة قيمته . فأفرغنا أقداح الشراب مثنى وثلاث وما زلنا نشرب حتى روينا . ثم رشفنا ما شاء الهوى من أقداح الغرام ...

* * *

وقف القطار في محطة ليون ونادى المنادى بأن مهلة الانتظار أربعون دقيقة كاملة وأن بالمحطة مقصفاً للطاعمين والشاربين . فنهضت ودعوت دربال إلى النزول فتململ في فراشه ثم تمحل الأعذار ، زاعماً أنه يحب تلك المدينة ذات الدوى والطنين تحت أروقة الظلام وسرادق الظلماء ، فقلت له : إنك تصف ليون منذ عشرين عاماً ، أما الآن فهي عروس المدائن وبهجة العواصم ، ومسرح الغوانى ، وقطب دائرة المغانى ، وما زلت به أغريه حتى نهض إلى خوان المقصف وعاد إلى معاقرة شيطانه الأخضر ثم عدنا إلى مقصورتنا في القطار قبل أن يدق ناقوس الرحيل بفترة وجيزة . وعاد دربال إلى حديثه بلسان دافق وقلب خافق ، وما زالت عجلات القطار يسمع صريرها وهي تقطع بنا مئات الأميال في عالم الليل القديم ، فقال :

— لعلك لو زرت شاربونيير تعرف جمال ما يحيط بها من الحراج والغاب . وكانت لور عقيب مصالحتنا تحثني على الخروج بقية اليوم ، فنراخي السير ، ونسعى رويداً نلتمس في أعماق الغاب مكاناً قفراً وبقعة خالية ، لا يبصر بها عاذل ، ولا يغشاها رقيب ؛ ثم نبتني بين الأشجار اللفاء مجهلاً غامضاً خفياً ، نكون أول من أفضى إليه من بني الإنسان ، فنأوى إليه ، ونطمئن فيه ، آمنين ألا نصاب بثالث يضايقنا بدخوله بيننا وبين الطبيعة . وفي تلك البقعة كانت عروس الطبيعة تتجلى في أجل منظر وأحسن زينة ، ويخيل إلينا ، أنها تجدد صورها وتبدل أشكالها وألوانها ، في كل آن ولحظة . وإني لا أكتمك أنني في أوقات تلك الخلوة كنت أتصور وجه معشوقتي كاحدى بدائع الطبيعة ، يزيدك حسناً كلما زدته نظراً ، وكأن جمالها من تجدده متنقل للعين في صورشتى متعاقبة ، فلا تسأمه العين ولا يمله المتأمل مهما طال النظر إليه . وكان في جلال الأشجار وفي أنواع الريحان والأزهار ما يملأ أعيننا جمالاً ، ولشدة ما ارتبطت روحانا كنا ننطق بعبارات متحدة في اللفظ والمعنى . وهذا توارد الخواطر الذي يبعثه امتزاج الروحين واندماج الذهنين كقولي لها : إذا ضرب الدهر يا لور بيني وبينك ، وكان الفراق على الرغم مني منك ثم افتقدتني ، فالتمسيني يا نور عيني في هـذا المكان الذي نما فيه حبنا وترعرع ، وازدهى زهر غرامنا وأينع فصاحت في نشوة الفرح وقالت :

— صدقني يا كليمان ، إنني صغت هذه الجملة بألفاظها ومعانيها وهممت أن أقولها لك « فالتمسني يا نور عيني ... » فسبقتني إليها ...

* * *

مر الربيع وتلاه الصيف وأقبل الخريف وولى

وجاء بعده الشتاء ، وكنا قد هجرنا الغابة وموطننا الخفيّ ، وانقطعنا عن الذهاب إليه بضعة أسابيع . وعدت يوماً من جرينوبل إلى شابونيير قبيل الظهر وقصدت إلى عش غرامنا فى المثوى الذي نقطنه ، وكنت أحمل بين يدى هدايا وتحفاً وأزهاراً للورا كعادتي كلما وجدت رزقاً فى خزائن باعة الكتب اللاعبن ، أو وصل إلى يدى نقود من دخل أبي التي تجد وتكد فى حرث مزرعتنا فى الموت مارن ، أو فاضت بعض حقوق التأليف المسرحى من بين أنامل هرتز ذلك اليهودى الشحيح الذى كان يدير ملعب سلستان ، ويمثل بعض قطعى على خشبة مسرحه . وفى ذلك اليوم الذى لا أنساه تجمعت لدىّ أرزاق من مصادر ثلاثة ، ففرحت بها وحملت الهدايا إلى لور التى تخيلتها تنتظرنى كعادتها متكئة على إطار النافذة لتحيينى عن كثب ، إذا ما دنوت من سور الدار ، وكنت أشعر بالشباب والعافية ، وأحس دفء الحياة التى ينفخ الحب فى نارها . وأعتقد أننى لست وحيداً فى هذه الدنيا ولا شقياً ، وما أنا بحاجة إلى إيناس الأصدقاء والخلان ، ما دامت هذه المرأة تحبني . فلما دنوت من الباب رأيت مدام بوديه وزوجها يتهامسان على صورة لم أعهدها وكان الإشفاق والحنان باديين على وجه المرأة ، والسخف والخبث مرسومين على سحنة زوجها . كان ذا وجه مُدَّكر قبيح ، ملتف اللحية ، كث العارضين ، ذا صوت غليظ أجش . وكان أهل الضاحية يسمونه الصنم ، والقطب المتجمد الشمالى ، وبرذون عازار [1] . فكان أول ما قاله لى على غير عادة سابقة : كم الساعة وهل تمطر السماء اليوم ؟ وهل تناولت غداءك ، وماذا أعددت للمفاجآت ؟ فابتسمت لزوجته التى كانت مثال الوقار والحسن الذابل ، فلم ترد على ابتسامي بمثله ، بل ألقت على زوجها نظرة كطعنة الخنجر بل أحد ، ثم قالت : ضع حملك الجميل ها هنا أيها الشاعر الظريف ، ولا تكبد نفسك مشقة الصمود به ، فهذه وظيفة تؤديها الوصيفة

فأطعتها وقلت وأنا على أحر من الجمر للقاء لور: حتى أجيب على أسئلة بعلك المحترم !

فقالت : لا عليك يا سيدى ! فإن للقردة والسنانير لغات كما لشعوب البشر ، وإن لضفادع هولاندا نقيقاً أشبه بأصوات بعض الرجال ، ولعلك لا تعلم أن الاسم الذى يحمله يدل على... [1]

(١) كلمة Baudet وهى اسم الرجل معناها جحش وهو الحمار الصغير

(١) إشارة إلى اسم الجحش وفى أسماء الفرنجة كثير من هذه الغرائب

فضحكتُ . ولكنها لم تضحك واستمرت فى تأنيب زوجها بالمجاز والتورية والكناية وأسلوب الحكيم « وعندى أن كل إنسان لا يضبط منطقه وليس له على لسانه سلطان يصرفه فى وجوه الصواب من القول ، ويجريه على أصول الحديث المشروعة وقواعده المألوفة فإنما هو مقلد لأحد أصناف تلك الأنعام ، يحكى عجمتها ، وعلى هذا القياس يكون الثرثار المهذار كالقرد والببغاء ... »

وقد شرب زوجها (بوديه) هذه الكأس حتى الثمالة ، ولم ينبس ببنت شفة !

فلم أفهم طبعاً سبب هذه الحملة من المرأة المؤدبة على زوجها الزنيم ، وإن كنت عهدتها لاتقيم له وزناً ، وتعاشره على حساب الماضى ، وقد ولى الشباب وذوى الجمال وهدأت ثائرة الهوى فى نفسها واقتنعت أنها لن تكون فتنة للعالمين ، فأخلق بها أن تخلد إلى الراحة بجوار مذود هذا الذى اسمه وصوته من أنكر الأسماء والأصوات

ثم دعتنى السيدة للجلوس وأمرت الخادم أن تخفف عنى عبء الهدايا التى أحملها . وكان المطر بدأ يهطل ثقيلاً ثم انهال البرد بسرعة فائقة ، فعجبت من تكهن « الجحش » بالمطر وهنأت نفسى ببلوغ الدار قبل تساقطه ، ومنيتها بالدفء فى الركن الركين حيث تنتظرنى لور بالطبقة العليا من الدار

ولكن مدام بوديه اكفهر وجهها وتجهم، وكلما زاد انهمار البرد زاد وجهها تقطباً وعبوساً . أما زوجها فكان قد ولى الأدبار بعد أن عبث بلحيته الدكنة الكثة بأنامله الطويلة القذرة ، فدنت مدام بوديه فى رفق ونظرت إلىّ ، فقلت لها : لِمَ أراك مقطبة الجبين على غير عادتك وقد عهدتك أبداً هاشة باشة ؟ أيقبض نزول البرد نفسك حتى هذا الوجوم ؟

فقالت : إن الآنسة خرجت منذ الضحى ولم تعد ، فأخشى أن عنتاً يصيبها لدى عودتها ، لأنها لم تتخذ لهذا الهبوب الفاجئ عدته

فقلت : الآنسة ؟ ابنتك ؟

قالت : كلا : الآنسة لور صديقتك

فكدت أصعق ، لا من وقع الخبر ، ولكن من شماتة بهيمة الأنعام السيور[1] بوديه ، فقد أدركت الآن سر تهكمه وسؤاله عن الساعة والمطر والغداء

فقلت لمدام بوديه وقد لمحت في عينيها دليل الشفقة علىّ : وبم تشيرين علىّ في هذا الموقف الحرج ؟

فقالت : إما أن تنتظرها وإما أن تبحث عنها ، فقد رأيتها جانيت تسلك السبيل المؤدى إلى خان « الجواد الأبيض »

فقلت : الجواد الأبيض ... آه ! إنها ذهبت إلى الغابة التى تخلو بها أحياناً ، ونهضت أقصد إلى الباب فاستمهلتنى مدام بوديه حتى أحضرت مظلة بالية أتقى بها البرد الذى ما زال مستمراً على شدته

ولما بلغت خان الجواد الأبيض واستدرت فى الطريق الواصلة إلى الغابة كان الثلج إذ ذاك يتساقط في فضاء الجو ، والريح تصرخ وتعول ، ومصاريع النوافذ يشتد اهتزازها ويرتفع صريرها ، وكل شىء صادف عينى وصافح أذنى يسنح بالشؤم طائره ، ويجرى بالنحس فأله . وكنا نقطع الطريق فى أيام الصحو فى ساعة ، فما بالى اليوم والريح تضرب

(١) يقال سيور للرجل الذى لا يسوده المتكلم بلفظ موسيو

وجهي كأنما تريد صدى وردى ، وتملأ فراغ المظلة فتحطم أسلا كها الدقيقة وتمزق قماشها البالية ، وتجذب بأطراف ردائي كأن لها عندى ثأراً ، فرأيت عجلة لبان يقصد إلى المزارع النائية ، وهو بلا ريب يمر بالغابة فاقترحت عليه أن يسمح لى بمصاحبته لقاء الأجر الذى يطلبه ، فتلطف وقبل ؛ وظننت أننا نبلغ الغابة في نصف الوقت الذى يقتضيه الراجل ، ولم يكن فى طاقتى أن أحادثه أو أسأله وا كتفيت بأن تسلقت المركبة وتخلصت من المظلة مستهدفاً لأخطار الطريق ، فإنها لم تكن تغنى حيال هذه العاصفة الهوجاء . ولم نكد نخرج إلى العراء حتى ارتفعت الريح وهبت علينا زوبعة ثلجية أعشت أعين الجواد وقائده فلم يبصرا شيئاً ألبتة ، واختفى عليهما الطريق وسدت فى وجهيهما المذاهب ، وغابت الكائنات أجمع ، وكل شيء فى ضبابة كثيفة صفراء جعلت شظايا الثلج خلالها تتساقط وتتهاوى ، واختلطت الأرض بالسماء ، وسار الجواد بالعربة على رِسله وكما شاء ، لا وجهة ولا قصد ، وفى كل لحظة يعثر فى كثيب من الجليد ، أو تنغرز حوافره فى جحر ، فكانت العربة لا تزال تقلب وتكب ، ووجدت أننى بالرغم من انقضاء نصف ساعة أوأ كثر لم نصل إلى الغابة ؛ ومضى نصف آخر وما لاح لنا شبح الغابة فصممت على الانطلاق على أقدامى مستهدياً بالإلهام الربانى ، فإن الله أ كرم من أن يتخلى عنى فى هذا الموقف الحرج . ونفحت اللبان بما أطلق لسانه بالشكر فنهاني عن مطاوعة الوهم وأنذرنى بالموت المؤكد . فلم أعبأ بإنذاره وترجلت أخوض غمار الثلج بإرادة قوية وعزيمة مدهشة . كل هذا والعاصفة في أشدها لم تفتر ولم تسترح والجو مربد الجوانب مكفهر النواحى لم يستمد أدنى شيء من صفائه ، وكان الكلال قد دبّ فىّ وسرى إلىّ الأين والإعياء وأقبل العرق ، نعم العرق يتحدر من جبينى قطرات كباراً بالرغم من أننى كنت لا أبرح مدفوناً إلى ساق فى الجليد المتراكم . وأخيراً لاح على بعد شبح أسود ، فتوجهت نحوه حتى إذا دنوت منه ألفيته الغاية المنشودة والغابة المقصودة فتنفست وحمدت الله الذى قرب البعيد وهوّن العسير ، ثم سرت بمحاذاة صف من أشجار السرو راجياً أن أعثر بالمسلك المؤدى إلى المستقر الذى كنا نلجأ إليه . وما لبثت أن أصبته فأخذت فيه وأممنت فى ظلمات الغابة ، وكان الشتاء قد جرد الشجر من ملاحفه ، ولكن جوف الغابة بقى من عبث الرياح مصوناً

فاستردت طرفاً من نشاطى وميعتى واستجم لى بعض جأشى وطمأنينتى

فقد كان أخوف ما أخافه أن تفاجئ العاصفة تلك الفتاة المسكينة فترعبها وترهقها ، حتى إذا أيأسها الرعب سقطت مغشياً عليها ولا تزال كذلك حتى تدفن بالحياة تحت ركام الجليد . ولم يخطر ببالى أن طائفاً من الشرداء ، أو وحشاً فى صورة إنسان من المجانين أو طرداء الشرطة يفجأها فيفترسها

وما إن بلغت المكان المعهود حتى رأيت منظراً انخلع له قلبى ! فقد رأيت لور ... فى أحضان رجل بمأمن من الثلج والجليد ، لأن جوف الغابة كان مصوناً من عبث الرياح وحصيناً من عبث العاصفة . كانت التاعسة مجتمعة بين ذراعى الرجل وصدره كما كانت تطمئن إلى ذراعى وصدرى

وعند ما دنوت من مرقدهما نهض الرجل وقال بأعلى صوته : من أنت وماذا تريد ؟ فتنبهت المرأة ورأتنى فجزعت وارتاعت وزايلها الرجاء وامتلكها اليأس ، ثم استردت شجاعتها وعادت إليها حقها

وفجورها ووقفت كاللبوءة التي تدفع الأذى عن أشبالها . وقالت للرجل :

اسكت أنت ولا تتكلم فهذا زوجي

فرفع الرجل قبعته ، فقلت له :

استبق غطاء رأسك يا سيدى فليس المقام مقام اختزام .

فقالت : قبل كل شيء لا يحملك الغيظ على الشر قبل أن أشرح لك حقيقة الحال . ثم شرقت بدموعها وسالت عبراتها على خديها وأقبلت تسير نحوى وهى تقول : إنه رفيق صباى وأليف وحدتي قبل أن تمنحنى السماء نعمة التعرف إليك

وفى تلك اللحظة انقلبت الدنيا فى عيني بلون الدماء ، وهممت أن أتناول عنقها بيدي فأقضى على حياتها فى طرفة عين ثم أحطم رأسها بحجر . ولم أكن أبالى بالرجل الواقف أمامي ، ولكن الله أنزل السكينة على قلبي وقلت : إنك لست زوجتى كما زعمت لهذا الأحمق لتزيدينى حقارة فى نظره وتشهديه العبث بشرف القران فى سبيل حبه . لقد التقطتك من الطريق ، وقد انتهى ما كان بيننا . وإنى لا آبى أن أقتلك إلا لأنك أحط وأدنأ وأرخص من أن أدفع ثمن دمك بساعة في السجن أو بخبر فى جريدة ، فأسجل الغفلة على نفسى وأهبك منحة الاستشهاد والتضحية . لن أعود إلى البيت الذى عاشرتك فيه ولملك تخلصين إلى هذا القديم بأكثر مما أخلصت لى . وعدت أدراجى لا ألوى على شيء

وفى هذه الأثناء كانت العاصفة قد سكنت والغيوم تقشعت ، وامتد أمامى على مدى البصر سهل مغشى بالجليد ، وقد صفا أديم السماء ولاحت الجوزاء لناظرى ، فأبصرت على كثب منى قرية صغيرة فيها أربعة منازل أو خمسة فأخذت سمتى إليها حتى إذا بلغت أول كوخ جريت إلى النافذة وطفقت أدق على بابها بيدى . فلم تكن إلا هنيهة حتى فتح مصراعها الخشبي وأخرج شيخ مسن لحيته البيضاء فسألته المأوى حتى أستريح من وعثاء التعب وشقة الخوض فى الجليد . فدعانى إلى كوخه وأكرم مثواى ، وكنت فى شغل شاغل فلا أشعر بالبرد ولا بالقرى ، ولكننى كنت متعباً فأعدت لى ربة الدار فراشاً فى إحدى الغرف فقضيت ليلة أرق وقلق . وفى الصباح سمعنا أجراس كنيسة القرية تدق دقات الفزع ، فلم تكن وفاة عادية ولا صلاة ولا زواجاً . فخرج الشيخ فيمن هلموا فهرعوا ليقعوا على الخبر ، ثم عاد يخبرنى بأن حرس الغابات عثر بقتيلين فى الغابة امرأة ورجل ، وأن أحدهما قتل صاحبه ثم انتحر ، والبحث جار عمن يرفع القناع عن سر هذه المأساة

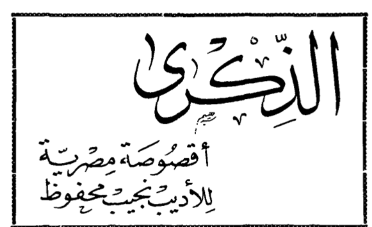
* * *

وعند ما نطق ديربال بهذه الكلمة تذكرت الحقيبة الدبلوماسية ، تلك التى أنقلها مى فقد نسيتها فى مقصف ديجون عند ما كان الشاعر المغرم يتجرع عفريته الأخضر . إن أوامر كي دورسى [1] تحتم إن كنا على سفر ألا تفارق حقيبتنا التى تحتوى رسائلنا يدنا وعيننا لحظة واحدة ، فأنسانيها شيطان المرأة الخؤون . وقد كنت أفاخر بقوة ذاكرتى وقد صدق ديربال فى قالته « ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء أثمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتها ومسؤوليتها » ففارقته وعدت إلى ديجون أبحث عن حقيبتى وقطعت حديثه ولم أعد أراه . ولكننى فطنت إلى أن المرأة التى أحبها وجن بها كانت أحد القتيلين اللذين دقت عليهما نواقيس القرية

محمد لطفى جمعه

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس


لماذا تنتظر لترى؟
وقت الآن الوقت لإيقاف نتائج البرد
بأسبرو
لم يستطع شخص ما أن يوقف حالة البرد باتباع سياسة: انتظر لترى ماذا يحدث، فالبرد والانفلونزا والدنج وغيرها لا تنتظر الى ان يقرر الناس أمرهم. فالعمل السريع «بأسبرو» يعد أسرع وسائل العلاج وأشدها تأثيراً في محو الآلام. وبقرصين من أقراص «أسبرو» يؤخذان عندما يبدأ شعور المريض بالبرد أو الحمى يأتيان بأحسن تأثير وأسرعه. فتجد آلام الرأس قد زالت كما تزول حالة القلق وآلام الركبتين وضعفهما. واذا اخذت قرصين آخرين عندما تدخل فراشك مع ليموناده ساخنة أو ويسكي تكمل الشفاء عند الصباح فتقضي على البرد بأحسن الوسائل التي يعرفها العلم. وهذا هو السبب العلمي اذ بعد أن يمتصه الجسم يصبح مطهراً وقاتلاً للجراثيم ومخففاً للحمى ومحللاً للاملاح البولية. ان آلام الزور والسعال والصداع قد ازدادت هذه الأيام فاوقف هذه الآلام «بأسبرو» فليس هناك طريقة أسرع أو آمن من «أسبرو».
ASPRO
REG. TRADE MARK
ليس هناك طريقة أسرع وأضمن
'أسبرو' يستعمل كغرغرة
قرصان أسبرو في ربع كوب ماء تكون غرغرة مفيدة في التهاب الزور والحلق والتهاب اللوزتين
يباع 'أسبرو' في جميع مخازن الأدوية والأجزاخانات
٢ قرصان ٥ مليمات
١٠ أقراص ٢½ قرشا
٢٧ قرصا ٥ قروش
جرب 'أسبرو' في الحالات الآتية
الانفلونزا
أوجاع الرأس
الأرق
التهاب الزور
النيورالجيا
عرق النسا
البرد
وجع الظهر
الحالة العصبية
الدنج
التعب العصبي
وجع الأسنان
الروماتزم
تأثير الخمر
آلام الحيض
الملاريا
الربو
الوكلاء ج. ج. بيا. شريدان وشركاه
'أسبرو'
أكثر الأدوية من نوعه رواجاً في العالم أجمع وقد اقرته البرلمانات ورؤساء الوزارات واثبت ملايين ممن جربوه فائدته العظيمة
47



إذا لاحت فى الأفق القريب بشائر عيد الفطر خفت وطأة رمضان على النفوس ، وهوّن الفرح الموعود من جفاف شهر الصوم ، واهتزت صرامة التقشف فى الصدور تحت موجة طرب آن انطلاقها . هنالك تجد ربات البيوت أنفسهن فى مكانة الساحر يتطلع إليهن الصغار بأعينها الحالمة هاتفة بهن أن يبدعن آيات الكعك اللذيذ وأن يخلقن من العجين كهيئة العرائس والحيوان والطير

أما جماعة الموظفين الذين تقضى عليهم أشغالهم بالتغرب فى أقاصى القطر فلا يشغلهم فى تلك الأيام مثل إعداد الحقائب والتأهب للسفر إلى بلدانهم حيث يسعدون بالعيد بين أهليهم وحيث تتحقق للأطفال ولهم أحلامهم

وكان من هؤلاء الأستاذ يوسف زينهم المدرس بمدرسة أسيوط الثانوية وأسرته المكونة من زوجه وابنتيه الصغيرتين ؛ فما أتى يوم الوقفة حتى كان الأستاذ وأسرته فى القاهرة بل فى القاهرة المعزية حيث يقع بيت المرحوم والده في (الدراسة) قريباً من مسجد الحسين . وكان البيت من البيوت القديمة باهت الجدران رث الهيئة ، يصعد إليه الصاعد على سلم ضيق متهدم الدرجات بغير درابزين ، حلزونى الشكل كسلم المآذن . ويتكون البيت من طابق واحد ذي ثلاث حجرات صغيرة الحجم . ولكنها كانت سفرة سعيدة ، ودواعى لذتها متوفرة من التنقل واستقبال العيد ورؤية الأهل والأحباب

ومهما يكن من أمر البيت من التفاهة والضعة فقد كان يوسف لايطأ بقدمه أول درجة من سلمه حتى يرفرف قلبه فى صدره وتمتلئ عيناه بالأحلام وقلبه بالحنين ، ويذكر لفوره ذلك الطفل الصغير ذا الجلباب والطاقية الذى كان يقفز على هذا السلم صاعداً هابطاً كل يوم حافى القدمين ...

أي ذكرى وأى أيام ... !

وكان كل مكان فيه يحفظ لقلبه ذكرى تنعش النفس وتشرح الصدر سواء أكان ما تحمل نوعاً من مسرات الصبا أو لوناً من متاعبه وهمومه . وكثير من آلام الصغر التى يضيق بها الأطفال يجدونها إذا كروا إليها فى الكبر متعة ولذة وتفكهة فكان لهذا يطوف بحجرات البيت حالماً متذكراً كأنما يطوف بضريح ولى من أولياء الله ثم يستقر مدة إقامته فى أعزها عليه وأحبها إلى قلبه : فى الحجرة التى عاش فيها من عمره اثنين وعشرين عاماً بين عبث الطفولة وأحلام الصبا وآمال الشباب

والذى يقيم فيها الآن أخوه سامى وهو ابن عشر ويختم فى هذا العام دراسته الابتدائية . ويخيل إليه — أى إلى يوسف — كلما شاهده أنه يعيد تمثيل الحياة التى حييها مرة أخرى ، وأن الحجرة تشهد للمرة الثانية نفس فصول الرواية ولعلها بدأت تبسم وتسخر وتسأم ... وكان سامى يتخلى عن حجرته سعيداً مغتبطاً لأخيه الأكبر الذى ينزل من نفسه

منزلة الأب ويتولى من بعده جميع أموره ويتعهده بالتربية والمحبة

وقد لاحظ يوسف أن أخاه غيّر من نظام الحجرة ، وأنه نقل المكتب القديم إلى غير موضعه الأصلي وكان يحب أن تبقى الحجرة محتفظة بصورتها القديمة ، فسأله عن هذا ، وأجابه الغلام :

— إني جعلت المكتب بحيث إذا جلست للمذاكرة جاء نور النافذة من الجهة اليسرى كما أوصانا مدرس علم الصحة

فابتسم يوسف وقال :

« ما أسعد حظكم يا تلاميذ اليوم فإن لكم من مدرسيكم آباء رحماء يودون لكم الصحة والعافية ويشفقون عليكم من الأذى ؛ أما على أيامنا فكان الحال غير الحال والمدرسون غير المدرسين . وإني لأذكر العنت الذي كان يصيبنا — في نفس مدرستك خليل أغا — وما كانوا يلزموننا من حفظ البلدان والثغور والجزر والحاصلات . وكم من مرة مددنا على الأرض وألهبت العصى القاسية ظهورنا وبطون أقدامنا ... تلك أيام خلت ... أما أيامكم ...! »

ثم استلقى الأستاذ على كنبة واستسلم لتيار التذكر العذب التسلسل تاركا زوجه وأمه تتحادثان ما شاء لهما الحديث ، وساميا يجالس ميمي وفيفي الصغيرتين ويلاعبهما

ولم تنس أمه أن تأتي بمدفأة وتضعها في ركن من الحجرة لأن الشهر كان ديسمبر والجو شديد البرودة يزيد من شدة قساوته الصيام ؛ وكأن السماء أشفقت من البرد فتلفعت بأردية من السحب — أضاء بعضها عن لون أبيض ناصع بهيج وأظلم البعض عن كتل دكناء كالجبال عند الغروب ، فانكمش جسده ، وتحفزت روحه للوثوب وحلقت على رأسه الأحلام . وسرعان ما كرت نفسه راجعة عشرين عاماً في خط الزمن غير المتناهي ، وذكر عهد هذه الحجرة أيام كانت رفيقة صباه وشبابه وشريكة أحلامه وأهوائه وشاهدة أفراحه وأحزانه ومستسرة خباياه ومرجع نجواه . رباه ... إنه ليدير عينيه في أنحائها طمعاً أن ينفذ إلى تضاعيف جوها الخفي ويقرأ ما خط من حياته وما سجل من نوازع قلبه وعقله ووجدانه ... ولقد تأتي عليه أوقات يغمره تيار الحياة وتكتنفه متاعبها فينسى ذكريات الماضي في هموم الحاضر ويخيل إليه أن ذاك الصبي الذي عاش وفرح وتألم وأمل ويئس شخص غريب عنه لا تربطه به رابطة ألم أو أمل . وقد تأتي عليه ساعات أخر يثوب فيها إلى نفسه فينسى حاضره هارعاً إلى الماضي البعيد ؛ وتتقدم إليه حافظته الثائرة أزاهر الذكريات واحدة فواحدة حتى يخال أنه لم يعبر الماضي إلا منذ ساعات قلائل وأنه لم يحيَ إلا به وله

وها هو ذا الآن تغشاه ساعة من تلك الساعات الحالمة فتحلق روحه في آفاق بعيدة كالذاهل في غيبوبة مغناطيسية ، وتتدفق عليه الصور الحالمة في غير ترتيب زماني ، فيذكر كيف كان يستيقظ — في نفس الحجرة — عند الفجر ، ويدلف إلى النافذة يشاهد بهاء الفجر المشتمل الكون بثوبه الأزرق والنجوم من فيض الحياة بها تكاد أن تتكلم بأحاديث الأزل ، ويرى البيوت كالأشباح النائمة ، ومئذنة سيدنا الحسين في المكان الأوسط منها كالحارس الحفيظ ؛ ويستمع إلى صياح الديكة المنتشية ببشائر النور وقطر الندى حتى يشق الفضاء صوت المؤذن داعياً «الله أكبر» فيهبط على القلوب هبوط الصحة والطمأنينة فيملأها نشوة وبهجة وحنيناً ، ثم يصلى الفجر فاذا انتهى

أشعل المصباح وقعد يذاكر ويحل تمرينات الحساب ومسائل الهندسة

وإنه ليذكر لهذه المناسبة عهد التلمذة الغريب، الذى كان يرسف فى أغلاله كالسجين أو الأسير المعذب، يجهد عبثاً أن يقوم بما يفرضه عليه البرنامج الثقيل المرهق، وتضطرب أعصابه خوفاً ورعباً من المدرسين وعصيهم الذين كان يكفى تذكرهم لتجميد الدم فى العروق أو قطع الأنفاس فى الصدور. ولا عجب فقد كانت القسوة هي السياسة المرسومة لتربية التلاميذ، وكان يظن أنها الطريقة المثلى لخلق الرجال الفضلاء، فكان عهد التلمذة عهد رعب وإرهاب وعنت. وإنه إذا جاز له الآن أن يشبه المعلم بالفنان يحاول أن يبدع من مادته أجمل الآيات وأمتعها فلا يستطيع أن يشبّه مدرسيه القدماء إلا بمحصلى الضرائب الأتراك ... ولكنه بالرغم من هذا لا يذكر ذاك العهد حتى يعلوه الابتسام ويغمره الفرح كأن مافيه من مسرة فهو له وما فيه من ألم فهو لغيره؛ يراه كما يرى الشاهد الرواية التمثيلية الحزينة فيتمتع بأثرها الجميل

وفيما هو سابح فى بحر أحلامه انتبه فجأة على يد ابنته الصغرى ميمى وهى تهزه، فالتفت إليها متبرماً وصاح بها منتهراً:

« إيه يا بنت ؟ ... »

فسألته بصوتها الرفيع المتقطع وهى تشير إلى حائط الحجرة :

«هل حقاً أنت الذى رسمت هذه الصورة يا بابا؟»

وتتبع ناظره إصبعها إلى هدفها من الحائط فى المكان الذى كان يشغله المكتب قبل أن ينقله سامى فرأى صورة طفلة صغيرة فى نصف الحجم الطبيعي سرعان ماتذكرها عقله وقلبه، وذكر بعض الظروف التى دفعته إلى رسمها منذ عشرات السنين ... وعجب كيف شاءت المصادفة أن تنبه ابنته إليها ساعة تهيم روحه فى سماوات عهدها الحلو المنطوى فكأنما سخرت الصورة الطفلة الصغيرة لتذكير أبيها الغافل

قال سامى :

— لاشك أنك أنت يا أخى الذى رسمتها فأنت صاحب الحجرة القديم ، وأنت الذى تستطيع أن تجيد الرسم ...

وقالت ميمى مرة أخرى :

— بابا ... اشترِ لى عروسة مثلها

ودلف يوسف إلى قريب من الصورة وتأملها بعين لو رأت زوجه نظرتها المشوقة لسألت باهتمام عن الصورة وتاريخ رسمها وأجرت فى ذاك تحقيقاً عسيراً ، وكان ما بقى منها ظلا خفيفاً طمست منه بعض معالم الوجه ، ولكن بقى منها محافظاً على وضوحه مفرق الشعر الغزير المرسل فى عبث فتان ، وما يبين عن جمال الأنف الصغير الدقيق . فالشكر لله إنه كان يجيد الرسم منذ الصغر ، وإلى جانب الصورة كانت مكتوبة هذه الأبيات :

أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ
ـهوى واستمرت بالرجال المرائر
زع النفس واستبق الحياء فإنما
تباعـــد أو تدنى الرباب المقادر
أمت حبها واجعل قديم وصالهـا
وعشرتهـا مثل التى لا تعاشر
وهبهـا كشىء لم يكن أو كنازح
به الدار أو من غيبته المقابر

إن للصورة والشعر قصة قديمة كانت حياة قلب ناشىء اصطرع من جرائها فيه الأمل والألم ، وتيقظت بسببها عواطف شتى وغرائز نائمة ، وإن عفت آثار تلك الحياة من قلبه الآن كأنما فاضت من

غير منبعه واصطخبت فى غير ميدانه . وإنه لمن المؤلم المضحك أن يكون الحائط الحجرى أحفظ للود وأرعى للذكريات الجميلة من قلب الانسان العاقل .. وإن تلك الصورة وهذه الأبيات الشعرية لتذكره بأجمل ما وهبت حياته المتطوية بل أجمل ما تهب الحياة لبنيها ؛ تذكره بوهم الحب الطاهر ، الحب الذى يفيض من قلب طاهر لم تعركه التجارب ، ويحيُ أغراضه المرسومة منذ الأزل خلف وجه ملاك سام ، ويخفى أنات الأرض وراء لحن سماوى ساحر ، ويغشى على الطين ستاراً كثيفاً من السحاب الأبيض الجميل

نعم لا يكاد يذكر التفاصيل ولا يحضره الترتيب الزمانى ، ولكن تندلع فى قلبه ألسنة من اللهب بين الحين والحين فيكشف نورها المتقطع عن صور عزيزة فاتنة من الماضى

***

كان المرحوم والده طاهى الوجيه سليم بك عامر — من سراة القاهرة وأعيانها البرزين — وكان يوسف يتردد عليه أحياناً كثيرة ، وما يزال يذكر القصر العامر بحديقته الغنـاء وجدرانه الشاهقة وأبوابه العالية ونوافذه ذات الستائر المختلفة الألوان ، كما يذكر البناء الصغير المنعزل فى ركن من الحديقة ذا المدخنة الطويلة حيث كان يباشر أبوه عمله . وكان إذا زار أباه يجلس في ركن من المطبخ يشاهد عملية الطهى الغريبة ، وفن تحويل الخضروات والطماطم والطيور إلى أصناف شهية بهيجة اللون لذيذة الطعم ويلتهم ما يعطيه من اللحم والحلوى ويسمع فى دهشة الخدم وهم ينادون أباه بقولهم « ياعم زينهم » وما كان يظن أن شخصاً كوالده العظيم الذى يمتلئُ قلبـه رهبة منه والذى تقف له أمه وإخوته كلما جاء أو ذهب يمكن أن ينادى بمثل هذا النداء الذى يخاطب به باعة الفول السودانى « وغزل البنات » ... ولكنه ما لبث أن اعتادته مسامعه وألفته نفسه ، وطفق يدرك شيئاً فشيئاً مكانة والده من القصر العظيم وتبين البون الشاسع الذى يفصل بين واحد مثله وبين أهل ذاك القصر الذين لايدرى على أى وجه من الحياة يعيشون خلف تلك الجدران الهائلة

وهو لا يكاد يذكر تاريخ أول لقاء على وجه التحديد ، ولكنه يرجح أنه وقع لأول عهده بزيارة قصر سليم بك وهو في الثانية عشرة من عمره . وكان مطمئناً إلى مكانه المختار من المطبخ وفى يده قطعة (البقلاوة) ، وعلى حين فجأة دخلت إلى المكان طفلة فى مثل عمره لم ير مثلها من قبل ، كانت مستديرة الوجه ، مليحة القسمات ، خمرية اللون ، رشيقة القامة ، ينتثر شعرها الأسود الحالك خصلات على كتفيها ويلتقى وسط الرأس فى (فيونكه) حمراء ، ثم تنزل منه شعرات رفيعة مستقيمة على الجبين كرذاذ النافورة ، وترتدى فستاناً أبيض شفافاً ذا منطقة حمراء يكشف عن ركبتيهـا الصغيرتين ، فأثاره منظرها ، وجمدت عيناه عليها فى إعجاب ورهبة بعد أن أخفت يده بحركة غريزية قطعة (البقلاوة) وانتبه أبوه إليها فانحنى باحترام وهو يقول مبتسما .

— أهلاً وسهلاً بسوسن هانم

ولاحظ الرجل أنها تنظر إلى ابنه نظرة غريبة فقال يقدّمه إليها :

— هذا خادمك يوسف ... إبنى

فدارت عيناها الجميلتان بينه وبين أبيه فى صمت وسكون ثم ولت مسرعة فى خفة أخاذة ، وأسرع يوسف وراءها زحفاً على يديه وقدميه كالضفدع ،

فلما بلغ باب المطبخ أرسل بناظريه خلفها يشاهدها وهى تجرى فى الحديقة حتى أخفتها عن عينيه طرقاتها الملتوية . إنه يذكر هذا المنظر على توغله فى الماضى كأنما لمس حواسه بالأمس القريب ؛ ولا ينسى كيف أنه أيقظ نفسه وقلبه وخياله وبدل موتها حياة حارة وركودها ثورة هائجة . فلما أن رجع إلى البيت ورقد — ربما حيث يرقد الآن — استحضر صورتها وخلا إليها واستغرق فى حسنها وبهائها ... أى حسن وأى بهاء ... رباه ... هل تحوى الدنيا مثل هذه الفتنة وهذه النظافة ... لقد عاشر من جنسها كثيرات ، منهن أمه وأربع أخوات — تفرقن الآن فى بيوت أزواجهن — شتان ما بينها وبينهن ، إنهن من طين وهى نور ، وما كان يظن أن لها لحماً ودماً كلحمهن ودمهن ، أو أن يكون بداخلها معدة وأمعاء كبقية الإنس ، فنزهها عن هذا وعن غيره ، ونزلت من نفسه منزلة الملائكة فى نفوس العابدين ...

وكان يوسف رقيق العواطف متوثب الخيال دقيق الحس كجميع هواة الرسم والفنون ، وكانت غريزته ما تزال راقدة فى سباتها الذى فطرها الله عليها فدبت فيها الحياة بعد أن نفخت فيها صورة سوسن من روحها العذب ، وغاب عنه حينذاك أنه يمثل فصلاً من رواية تكررت مشاهدها آلاف السنين ، وأنه يقع فى الأحبولة المنصوبة منذ الأزل لبنى الإنسان ، فظن أنه يكشف عالماً روحياً جديداً يطير إليه على جناحى الحب . إنه ليذكر هذا الآن فيتعجب لهذا الحب الغريب ، الحب الذى هو فلسفة الشباب الشاملة ، والذى يتسامى إلى معارج التصوف والتجلى وينحط إلى مهاوى القسوة والأنانية والقذارة وتكمن خلف جميع أوجهه تلك الغريزة التى هى أمضى سلاح فى يد الحياة ... واقتطفت ذاكرته صورة أخرى من الماضى الجميل لا يحسن معرفة موقعها من حوادث تلك الأيام ، ولكنه يذكر جيداً أنه بعد اللقاء الأول غير مجلسه من المطبخ إلى مكان قريب من الباب ، بحيث يستطيع أن يشاهد منه الحديقة طمعاً أن يرى العروسة الصغيرة التى استبدت بأحلامه وأمانيه ، وإنه كان يراها فى صحبة أخوين لها فى مثل عمرها يركبون الدراجة أو يلعبون « بالبلى » أو يستبقون فى ممرات الحديقة الرملية !

ففى جولة من جولاتهم عثروا به ، فلفت منظره الغريب أنظارهم وتساءل عنه الصغيران فأجابتهما سوسن بأنه « ابن عم زينهم » فدنوا منه وأنعموا فيه النظر : فى جلبابه الباهت ، وطاقيته السوداء ، وقبقابه الصغير ، فجفل قلبه وهم أن يولى فراراً لولا أن صاحت به سوسن بصوتها العذب :

— لا تخف ... ولتبق حيث أنت فلن يؤذيك أحد

وسأله أحد الصبيين : وقد نسى اسميهما :

— هل أنت ابن عم زينهم ؟ ...

فأحنى يوسف رأسه أن نعم . فسأله الثانى وعلى فمه ابتسامة :

— هل أنت تلميذ ؟ ...

فأحنى رأسه مرة أخرى أن نعم ، مما أثار دهشة بين الثلاثة ، فسأله الأول :

— وما مدرستك ؟ ...

— خليل أغا

— فى سنه إيه ؟ ...

— فى السنة الرابعة

ثم سكت يوسف لحظة يغالب رغبة فى الحديث

حتى غلبته ، فسأل الأخوين قائلا :

— وما مدرستكما ؟ ...

— الناصرية

— ولم لم تدخلا خليل أغا وهى قريبة من البيت ؟ ...

فبدت فى عينى الشقيقين نظرة إنكار وقال أكبرهما :

— الناصرية هى مدرسة الأغنياء ؟ وقال الآخر وكان أشد صلفا :

— أما خليل أغا فهى مدرسة الفقراء

وقالت سوسن :

— ماذا يهم بعد المدرسة إذا كانا يذهبان إليها فى السيارة ! ...

فردد يوسف عينيه بينهما وقد غلب على أمره واستخذى خجلاً ومهانة ، وكرهت نفسه الهزيمة فقال بدون داع ولا مناسبة وبصوت يدل على التحدى :

— أنا أول فرقتى ... وأجيد الرسم إجادة فائقة ... إلى بورقة وقلم ! ...

فنظر إليه الأخ الأكبر بعين الهزء وأخرج من جيب بنطلونه ورقة وقلماً وقال له :

— إليك ما تريد ...

وزاد اهتمام سوسن فاقتربت خطوة منه وقالت :

— إن كنت شاطراً حقاً فارسم كلباً

فبسط الصبى الورقة أمامه بثقة واطمئنان وجرت يده بالقلم فى ثبات وخفة ومهارة فصوّرت كلباً لا بأس به . ولما انتهى منه نظر إليهم نظرة فوز وظفر ، ونظر إليه الأخوان باحتقار وغيظ ، أما سوسن فقالت وعلى فمها ابتسامة رقيقة :

— الكلب موضوع سهل ... إن كنت شاطراً حقاً فارسم أوزّة ...

ولكنه لم يقهر أيضاً وذاق لذّة الفوز مرة أخرى ، فقال الأخ الأصغر :

— الرسم مادة تافهة

— ولكنى الأول فى جميع العلوم ...

— وهذا أمر تافه ...

فقال يوسف بحدة :

— إذا فما المهم ؟

فوضع الصبى الآخر يديه فى جيبى البنطلون وقال وهو ينظر إليه من عل :

— المهم أن تكون ابن بك ... وأن يكون لك مثل هذا القصر ...

وولّوه ظهورهم وذهبوا

هذا ما يذكره من تلك المنافرة الصبيانية ، ويذكر فوق هذا أنه عاد إلى بيته ذاك اليوم ينتفض من الغضب والحقد ويمتلئ كراهية للصبيين . أما سوسن فلم يكره منها قولا أو فعلا إذ كانت حبيبة عزيزة جميلة وكان حبيباً عزيزاً جميلا كل ما تقول أو تفعل . وكان مستعداً فى أعماقه أن يكره الخير ويحتقره إن وجد منها كرهاً له أو احتقاراً ، وأن يحب الشر ويعظمه إن آنس منها له حباً أو تعظيما ، إذ كانت تتبوأ من نفسه مكانة المثل الأعلى فى كل شىء ، فالخير خير بالإضافة لأفعالها ، والجميل جميل على قدر مشابهته لصورتها

إنه يذكر تلك اللوثة الهيامية كالمستفيق الذى يتذكر فعاله حين السكر الشديد ولم يتصل الحديث بينه وبين الأخوين بعد تلك المعركة الكلامية ، ولم يرها إلا قليلا ، وكانا إذا مرا به مرا مقتحمين كأنهما لا يريانه ، أما سوسن فكان يراها كثيراً ، ولم تكن متكبرة قاسية كأخويها فكانت إذا التقت عيناها

بعينيه ابتسمت إليه أو بادلته كلمة تافهة كانت لديه ألذ من الصحة والعافية

وكان مرة جالساً القرفصاء وكانت تلعب في الحديقة على بعد قريب منه ، قافزة على حبل تديره خادمتان من طرفيه ، فلبث يراقبها بعينين مشتاقتين ويعد قفزاتها على دقات قلبه الولهان . وحدث أن ذهبت إحدى الخادمتين لبعض الشئون ، فنادته أن يحل محل الخادمة ، ولبي مسرعاً سعيداً مغتبطاً ظافراً وود من قلبه لو لم تنته تلك الساعة السعيدة أبداً ، ولكن الصغيرة تعبت فتوقفت تستريح ، وخشى يوسف أن تنتهى سعادته ويعود إلى مكانه وكان شديد الرغبة فى أن يحادثها وأن يستمع إلى صوتها العذب الذى يفعل به فعل التعويذة بالمسحور فسألها :

— هل تذهبين إلى المدرسة ؟

وكان يخشى ألا تتنازل وترد عليه ولكنه سمعها تقول :

— نعم ...

— أى مدرسة ؟

— لا ميرديديه

— إنه اسم غريب

فافتر ثغرها عن ابتسامة ظريفة يرى وميضها الآن منيراً فى ظلام السنين المنطوية وقالت :

— إنها مدرسة فرنسية

— ألا تتعلمين اللغة العربية ؟

فضربت بقدميها الأرض وقالت :

— بلى ... يدرسها لنا شيخ ... هى ثقيلة كريهة ... هل تحبها أنت ؟

— إنى أذاكرها برغم صعوبتها وأحفظ النحو حفظاً جيداً ... وأحب الشعر ... لماذا تكرهينها ؟

— هى ثقيلة جداً ، وقلما تستطيع ذاكرتى أن تحفظ شيئاً من قواعدها ، ومدرسها رجل ثقيل الدم يضع على رأسه عمامة مضحكة ...

فاضطرب وصعد الدم إلى وجهه وذكر طاقيته السوداء وما عسى أن تقول عنها ، ثم قال :

— كثيرون يؤثرون العمامة على غيرها

— هى فى نظرى على كل حال مضحكة ... ثم إن هذا الشيخ قذر ... لمحت مرة يده فرأيت أظافره سوداء كالطين

وهنا قبض يديه وود لو يخفيهما

ومن ذاك اليوم كان إذا نوى الذهاب إلى القصر قص أظافره وخلع طاقيته ولبس الحذاء بدلاً من القبقاب . ومضت الأيام وهو على تلك الحال ، يرنو بالنظر ، ويسعد بالحديث الذى لا يمس الهوى ، ويعانى حباً مكتوماً ينمو يوماً بعد يوم .

وكانت سوسن تستأثر بحياته جميعها ، الظاهرة والباطنة ، اليقظة والغافلة ، فكانت مثار أحلامه حين العمل وحين اللعب ، ولدى اللقاء ولدى الغياب وأوقات الفرح وأوقات الحزن وعند الصحة وعند المرض ، وكانت آخر فكر مودع عند النوم ، وأول خاطر مرحب عند الاستيقاظ . وكان حبه طاهراً سامياً ارتفع به من العالم الصاخب إلى حيث يطلع على العالمين كما تطلع الآلهة على المخلوقات ، إلا أنه لم يخل من الألم واليأس ، بل الحقيقة أن الألم واليأس كانا من مقوماته الأولية لأنه لم يغفل لحظة عما يفرق بين طبقتيهما ، ولم ينس الحقيقة المرة التى جعلت أباه يقدمه لسوسن فيقول : « هذا خادمك يوسف » فهو خادمها ما فى ذلك من شك ، وهو وأهله من المحسوبين عليها والعائشين على فتات مائدتها .

حقاً إن الحب من دوافع النشاط والاجتهاد والتطلع إلى المجد ولكنه شك فى قدرة الحب على

خلق معجزة عظيمة مثل ربط آنسة جميلة كسوسن بابن خادمها البائس يوسف بن زينهم ...

كانت تلك الأفكار السوداء تعصر قلبه عصراً وتسكب السم فى دمه والمرارة فى ريقه ، وبلغ به الحزن أنه كان يرمق أباه أحياناً بنظرات الغضب والسخط لأنه كان القضاء الذى حكم عليه بالضعة وأنزله حيث هو من الذل والهوان ...

ولكن كانت تمسه السعادة في لحظات أخرى فيسأل نفسه : لم ترضى بالحديث معى ؟ لم تداعبنى وتسألنى ؟ لماذا لا تتعالى عن مصاحبتى ؟ لماذا تبسم فى وجهى تلك الابتسامة المشرقة التى تقتل اليأس وتهلك الأحزان ؟ أليست هي على كل حال إنسانة قبل أن تكون سوسن ربيبة المجد والشرف ؟ أليست تخضع لسنن الحياة المستبدة الغامضة التى لا تميز بين كبير وصغير ؟

ويغريه بالأمل أنه الصبى الوحيد الغريب الذى تراه مرات فى الأسبوع وأنه وسيم الطلعة جميل القسمات على رغم فقره وضعته ...

ولكن هذه اللحظات السريعة كانت تمر به مرور النشوة بالسكران وتتركه سريعاً إلى الحقائق المحزنة . وهكذا فأغلب ما يذكر عن تلك الفترة كان خليطاً من الهيام والتسامى والألم واليأس ولحظات قصيرة من السعادة والطمأنينة ، وإلى جانب هذه تبرز له من غياهب الماضى واقعة مسلية يذكرها بتفاصيلها جميعاً ، وكان فى السنة الأولى أو الثانية من المدارس الثانوية ويبلغ الخامسة عشرة من عمره على وجه التقريب ، وكان ينتظر مقدمها فى مكانه المعهود إذ جاءته وعلى فمها الابتسامة الملائكية وفى يدها كراسة تقبضها وتبسطها فى ارتباك ظاهر فأقبل نحوها منتشياً بالفرح والبهجة وكأنه أراد أن يخلق أسباباً للحديث فسألها :

— ما هذه الكراسة ؟

— كراسة العربى ...

— دائماً العربى ... العربى ...

فتنهدت وقالت :

— أعوذ بالله من هذه اللغة ... أتعلم أنه لا يكدرنى فى الدنيا شىء إلا همّ حفظها ... فلا الفرنسى ولا الحساب ولا التاريخ بالعلوم التى تعجزنى ، فجميعها كوم والعربى كوم ...

ثم فتحت الكراسة وأنشأت تقلب فى صفحاتها وهى تقول :

— أملى علينا الشيخ سؤالاً صعباً ...

— ما هو ؟ ...

فكان جوابها أن طلبت إليه أن يتبعها إلى أريكة فى بعض منحنيات الحديقة ثم جلسا جنباً إلى جنب لأول مرة وقرأت السؤال قائلة :

— اشرح ما يأتى وأعرب ما تحته خط :

أشوقا ولما يمض لى غير ليلة
فكيف إذا خب المطى بنا عشرا

وظن يوسف أن السؤال غاية فى السهولة وأن فى استطاعته أن يجيب عليه فى غمضة عين فقال :

— إنه سؤال بسيط وهذا البيت موجود بنصه في كتاب قواعد اللغة ...

فهزت كتفيها استهانة وقالت :

— لا علم لى بكتاب قواعد لغتك هذا ... أما ما يهمنى فهو أن تملى علىّ على مهل الاعراب والشرح ...

ثم استعدت للكتابة ... فاعتدل فى جلسته وقطب جبينه استحضاراً لفكره الشارد ثم أنشأ يقول :

لما حرف جزم ... ويمض فعل مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف آخره ...

ثم سكت لحظة يختار ديباجة الشرح، ثم استطرد:

أشوقاً ولما يمض لى غير ليلة ... يقول الشاعر: أأشتاق ولم يمض لى غير ليلة على الفراق ...

واضطر إلى قطع الشرح لأنه اكتشف فجأة أنه يجهل معنى خبّ والمطىّ: فنادى ذاكرته ولكنها لم تسعفه، فاضطرب وارتبك واشتد به الخجل وكاد الدم يتفجر من خديه. ولحظت سوسن صمته واضطرابه فسألته وقد قل صبرها:

— والشطر الثانى ؟ ...

فاشتد به الاضطراب والارتباك والخجل، وأشفق من أن يفقد مفخرته الوحيدة فى الدنيا وهى ما يزعم من التفوق على الأقران، فآثر الكذب والتحايل على التسليم بالجهل فقال:

— خبّ بمعنى طال ... والمطىّ هو الفراق.. فمعنى الشطر كله فكيف إذا طال الفراق عشر ليال لا ليلة واحدة ؟

وأغلقت سوسن الكراسة فى ارتياح وطمأنينة ونظرت إليه ممتنّة شاكرة، فأغضى أمام نظراتها الساحرة خجلاً وخزياً، متألم الضمير من تضليله لها وعبثه بثقتها فيه، وذكر فى رعب مفاجأتها المتوقعة أمام الشيخ حين يشطب بقلمه الأحمر على شرح الشطر الثانى... فما عسى أن يكون رأيها فيه أو شعورها نحوه ؟ ...

وكاد يغرق فى أفكاره لولا أن سمعها تقول بصوت هادئ عذب:

أأشتاق ولم يمض لى غير ليلة
فكيف إذا طال الفراق عشرا

ثم ضحكت وسألته:

— لمن قيل هذا البيت .؟.

وكان قد سرى عنه الهم سماع صوتها وضحكتها وقال:

الذى يفهم أن الشاعر يخاطب حبيبته

وكانت هذه أول مرة يجرى بينهما فيها ذكر لإحدى اشتقاقات الحب، فنظر إليها مرتبكا وهاله أن يرى حمرة فى خدّيها وارتباكا فى عينيها ... لم ؟ ... لم ؟ ...

وكانت الابتسامة ماتزال متعلقة بشفتيها الجميلتين المفترتين عن در نضيد، وخصلات شعرها مبعثرة على الجبين والخدين كلما هب النسيم حملها من حسن إلى حسن، فنسى الوجود، وما عاد يرى الأشجار والأزهار ولا يحس بهبات النسيم ولا يشعر بهمومه وتأنيب ضميره، وما عاد يذكر من هو ولا من هى، واستقر وجدانه فى هالة من النور تشع من وجهها الجميل، فأنعم فيها نظراً وهياما

ولم تقو على نظراته فأسبلت جفونها وتدفق الدم إلى خديها كأن تلك الكلمة الساحرة التى أفلتت من لسانه عن غير قصد أروتها فأنبتت هاتين الوردتين، فلجّ بها الهيام. واستثاره ما تدل عليه هيئتها من الاستسلام فمال بهامته حتى مس جبينه خصلة من شعرها وأسكره أريج أنفاسها ... وتردد لحظة ... ثم لثم فاها ... وعلى حين فجأة انتفضت الصبية فى جلستها كمن يستيقظ على ضربة فى أم رأسه، وقد اتسعت عيناها، وصرخت فيهما الدهشة والذعر، ثم انتصبت واقفة وفرت هاربة ...

رباه ... ما الذى أفزعها ... ولماذا فرت على تلك الحال ؟ وما عسى أن تفعل بعد ذلك ؟

وامتلأ قلبه رعباً فقام من فوره واندفع جارياً فى اضطراب شديد إلى باب القصر ثم ترك قدميه للريح، لا يلوى على شىء، حتى انتهى إلى حجرته

هل يمكن أن تشكوه سوسن إلى أبيها ؟ كم كان أعمى مجنوناً ! كيف آتته الجرأة ! يا ويحه فقد خدع فظن عطفها محبة وعبثها وداً ، وإذا فضحته عند أبيها فماذا يكون مصيره بل ماذا يكون مصير والده نفسه ؟ ولكن رجع أبوه إلى البيت كعادته ومرت أيام دون أن يوجه إليه أي تهمة أو يتعرض للفصل من عمله ، فهدأت نفس يوسف وعاودته العواطف التي غاصت في قلبه لحظات خوفاً وذعراً ، ونازعه الشوق إلى الوجه الجميل وصاحبته ، ورأى أن ما يمكن أن يصيبه من ذهابه لن يعدل ما هو فيه من ألم الشوق مهما ساء وغلا . فحمل نفسه إلى القصر بعد احتجابه تلك الأيام وانتظر ونفسه حيرى ، وجاءته الصبية تسعى ، ولما وقع نظرها عليه بدا على مخايلها الغضب فتقدمت منه خطوات ووقفت متحدية ، فأغضى أمام نظراتها خجلاً وألماً ، وانتظر في يأس الكلمة القاضية ، واشتد عليه الحال فقال بصوت تمزقه نبرات الألم :

كانت غلطة شنيعة ... هل أنت غاضبة ؟ فأجابته بلهجة حادة : « طبعاً ... ماذا كنت تنتظر ؟ »

— اعفي عني ...

— لن أعفو ...

وهنا رفع رأسه بحركة سريعة وقد تبدل وجهه من حال إلى حال ، لأنه خيل إليه أنها فاهت بالعبارة الأخيرة بلهجة رقيقة وهي تغالب ضحكة ، فلما وقع نظره عليها وجدها تبسم إليه بثغر فتان غفور رحيم ...

وهمّ أن يتقدم منها خطوة ففرّت منه هاربة !

كانت تلك الأيام أسعد أيام حياته على الاطلاق ، لا يذكر أنه سعد سعادتها من قبل ولا من بعد رغم تنوّع الظروف واطراد التجارب . وبعد تلك القبلة وذاك الرضا لم تعد تقابله في علانية وسذاجة ، بل اقتصر التبادل الروحي بينهما على النظرات والهمسات أو اللقاء المختلس تحت الخمائل أو خلف جماعات الشجر ، وسترعليهما تعارفهما تراي أطراف الحديقة وعدم إمكان تسرب الشك إلى قلب من رآهما معاً ، فعاشا زمناً سعيداً في غفلة من الناس والدهر حتى وقع ما قضى عليه بالخروج من جنته مقهوراً مغلوباً على أمره : كانا جالسين على الأريكة التي قبّلها عليها لأول مرة وقد انساق الحديث إلى المستقبل ، قال يوسف :

— هل يمكن أن تنسيني فيما يقبل من الأيام ؟

فنظرت إليه نظرة إنكار وقالت :

— أنا ... مستحيل ...

— ولكني أخشى أن يبدّد أهلك أحلامنا ... فتنهار آمالي وأفقد سعادتي

فردت عليه وقد كشّرت عن أنفة وكبرياء :

— أبداً ... لن أسمح بهذا ما حييت ... فصمت يوسف لحظة يمتع نفسه بحماسها الفاتن ولكن لم يطل به الصمت السعيد لأنه تذكر العقبات الأوابد التي تسد عليه الطريق ، فتنهد وقال وكأنما يحدّث نفسه :

— ترى هل أبلغ أمنيتي يوماً فأتزوج منك ؟

وكانت تلك المرة الأولى التي ينطق فيها بتلك الكلمة الخطيرة ، ولذا أنكرتها أذنه وخيل إليه أن قائلها غريب عنه ؛ أما سوسن فقد ارتجفت شفتاها عن اضطراب وتدفق الدم إلى وجهها فصار كالجمان ... ولم يكن يطمع أن تجيبه بأكثر من هذا ... وبعد هنيهة ذهبت في التفكير والأحلام فسألته :

« أي مستقبل تبتني ... ! » . فأجاب : « أنا ما زلت في مستهل الطريق ومبتدأ العمر ... وكل

صعب يسير مع الجهد والعزيمة الصادقة ، فعليك الاختيار وعلى الاجتهاد ... » ففكرت لحظة تختار لزوج المستقبل ما تحب من المهن والأعمال ثم قالت : « ألا تستطيع أن تكون من الأعيان ؟ إننى أسمعهم دائماً يقولون عن بابا إنه من الأعيان فلم لا تكون مثله ... ؟

— من الأعيان ... ولكنها ليست وظيفة ولا مهنة ... الوظائف التى أعنى مثل المهندس والمدرس والضابط والطبيب ...

وعادت مرة أخرى إلى التفكير والمفاضلة ، وكانت عيناه لا تفارقان وجهها ، فرآه تضيق عيناه وتنفرج شفتاه من الذهاب مع التفكير ، ففتنه منظره وأنساه نفسه كما فعل به فى المرآة الأولى ، فاقترب منها وهوى برأسه يريد أن ينال منها قبلة... ولكنه أحس بغتة ... نعم بغتة بشىء يصيب رأسه وسمع صوتاً يصرخ به :

— أتجرؤ يا كلب .. والتفت مذعوراً فرأى أخا الآنسة الأصغر ينهال عليه لكما وضرباً . وأراد دفع السوء عن نفسه فأمسك بتلابيبه ، فتضاعف غضب الأخ وضاعف له الضرب ... ووقفت على بعد قريب سوسن تشاهد ما يقع أمامها بعينين محملقتين ووجه شاحب كوجوه المرضى . ولا يدرى كيف نمى الخبر إلى أبيه فجاء يجرى مضطرباً وأمسك بيوسف بعيداً عن الصبى الآخر وسأله بصوت ملؤه الاحترام « لماذا تجدُ عليه يا سيدى ؟ ماذا فعل ..؟ » فأجابه بصوت عال مغيظ : « رأيته يحاول أن يغتصب ... قبلة من سوسن بالقوة ! ! .. » فصرخ الرجل : « يا للفظاعة ... هل حقاً هذا يا سيدتى ؟ » وكانت سوسن ما تزال ملازمة لحالة المباغتة التى استولت عليها ... فلما سمعت سؤال الرجل اضطربت ثانية ... ثم بلعت ريقها وقالت بصوت خافت : « نعم ... » وفرت هاربة من الواقفين ومن عينى يوسف خاصة

بعد هذا شد الرجل على يد ابنه وساقه أمامه..

وقد هم يوسف أن يتكلم فما أحس إلا بيد أبيه تصيب مؤخر رأسه فيقع على وجهه بين الإعياء الشديد والاغماء .. وهكذا كان ختام حديث الحب والمستقبل ... وهكذا كانت نهاية مغامرته فى قصر سليم بك عامر

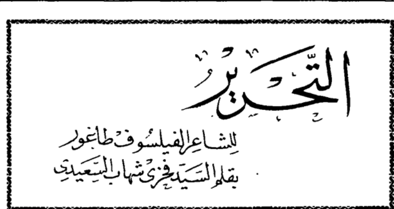
لقد بدا له تصرفها أول الأمر غدراً وخيانة . ولكنه لم يلبث أن انتحل لها الأعذار ... وما كان الغضب ولا الموجدة ولا الاعتقاد في غدرها بمستطيعة أن تزحزح الحب عن قلبه قيد أنملة ، فانزوى فى حجرته يعانى الحرمان والألم واليأس المميت شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، حقاً لقد كان حباً عجيباً رهيباً ... وإنه لن ينسى ما عاش تلك الأعوام التى شهدت أيامها وساعاتها ودقائقها معاناته الألم الشديد واليأس والحب الخائب ، وفى بعض ساعات اليأس والشوق رسم صورتها على حائط حجرته التى شهدت آلامه جميعها وكتب إلى جانبها تلك الأبيات الشعرية وجعل يرددها كل حين علّه ينسى ويتعزى

وما كان يستطيع أن يتصور أنه ينسى ...

ولكن للأيام أحكامها وقد تسرب النسيان إلى طيات قلبه نقطة نقطة حتى برئ وشفى وعفا من قلبه الهوى . ثم تقدم به العمر ووظف ثم تزوج وخلف وضاق بالحب ...

وكم سخر من حياته ومن دنياه ... إلا ذكرى واحدة إذا زارته انبسطت أسارير وجهه ولاحت فى عينيه الأحلام ... وبعد فحسبه أن تذكر ... لأن التذكر للقلب كالحفر فى باطن الأرض يفجر الماء فياضاً غزيراً ...

نجيب محفوظ



أفاض سكان المدينـة فى الحديث عن هـذا الاختلاس فى خزينة الملك ، وتهامسوا بما سيلقاه « رئيس الحرس » من عقاب صارم إن لم يهتد إلى ذلك السارق الجرىء !

... وكان بالمدينة رجل غريب يدعى « فجرازن » جاءها متجراً بمـا معه من الحيل ، فاتهم بهذه السرقة ... واقتيد مصفداً بالأغلال إلى السجن !! وإن المسكين لسائر — فى أغلاله — وسط زحمة من المتفرجين إذ بصرت به « شياما الفاتنـة » حين جلست تطل من شرفتها على الطريق ... فاضطربت لما رأت واستدعت إليها الوصيف تسأله عن هذا الشاب الماجد النبيل ، الذى يقتاده الشرط اقتياد اللصوص المجرمين ، من عساه يكون ؟ ! ثم أمرته أن يستدعى « الضابط » — باسمها — ليحضر إليها السجين

***

قال الضابط :

— جاءت متأخرة مساعدتك — ياسيدتى ! — وعلىّ أن أسارع بتنفيذ ما أمر الملك به ؛ ليس إلى غير ما ترين من سبيل

ولـكنها ظلت صامتة ما تغمغم بلفظة ولا تجيب وأجاب السجين يخاطب هذه التى حسبها تتـنـدّر بالحديث عن أمر إفراجه ، قال : أى فضول هذا الذى بلغ بك أن تحضرينى أمامك لتـتفكـّهى بالحديث عنى والعبث بى ؟

قالت ، وقد آلمها خطأه الذى وقع فيه :

أحقاً ما تقول ؟ إنى لو استطعت أن أستبدل بأغلالك حلِىّ لفعلت !

والتفتت إلى الضابط تترضاه بالمـال عساه أن يفرج عن هذا البائس المسكين ... ولـكن الضابط انحنى لها وقال :

— ليس فى الامكان هذا ... إنه ضحية لهذه التهمة التى أُلصقت به ... غير أن أمر الملك واجب التنفيذ !

قالت : فأنا أسألك أن تؤجل ذلك إلى يومين آخرين ...

فرضي الضابط بهـذا ... واستدار خارجاً والسجين معه !

***

انتهى « فجرازن » من صلواته وأدعيته وجلس ينتظر الصباح لينفذ أمر الملك فيه ... وإذا باب السجن يفتح بغتة فتظهر « المرأة » تحمل مصباحاً ينير أمامها الطريق ؛ وإذا « الحارس » يتقدم باشارة منها فيكسر الأغلال عنه

قال « فجرازن » :

— لقد أشبهت ـ أيتها الرحيمة بمجيئك هذا ـ نجمة الصبح تبشر المريض ، وقد أغـبطت عليه الحمى ، بمطلع الشمس وانجلاء ظلام الليل البهيم ، فشكراً .

قالت : أأنا حقيقة «رحيمة» ؟ وقهقهت ضاحكة حتى اغرورقت عيناها بالدموع من شدة الضحك ثم تنهدت وقالت :

— بل ليست فى هذا السجن صخرة أقسى من هذا القلب !

ثم أمسكت بيده مبتعدة به عن السجن ...

* * *

أشرقت الشمس على شاطئ « ڤارونا » ولم يك بالمرفأ غير قارب صغير كأنه كان بانتظارهما

قالت « شياما » تخاطب صاحبها :

— تعال .. تعال أيها الشاب الغريب واركب.. لا عليك أن تعرف شيئاً ! ويكفيك — الآن — أن تعلم أنى «حررتك» من أغلالك ؛ ثم ها أنا ذى أقذف بنفسى فى القارب معك ...

وانطلق الزورق يجرى سريعاً فى التيار الزاخر

قال « ڤجرازن » :

— حدثينى أيتها الحبيبة ... عن المال الذى بذلته فأنقذت به حريتى ، وافتديت حياتى ؟ !

قالت : صه ! « ليس حديث هذا الآن ... »

وارتفعت الشمس فى السماء وجاء الظهر ... فرجع النساء القرويات وقد ملأن الجرار وأكملن استحمامهن ، فبقى شاطىء المسبح قفراً تغمره أشعة متوهجة كالنار ...

قال « ڤجرازن » يهمس فى أذن « شياما »

— وقد كشفت الريح الهابة الشديدة قناعها فجلت محاسن وجهها :

— لقد « حررتنى » من أغلال لتوقعينى فى أغلال أشد منها وأحكم ؟ إنى لشديد الحيرة مما أنا فيه !

فأعادت المرأة نقابها على وجهها وقالت :

« وليس حديث هذا الآن » ... أيها الحبيب !

ثم يرخى الليل سدوله ويشمل بظلامه هذا العالم فتهدأ فيه الحركة وتضمحل الأصوات ، ولا يبقى فيه من آثار النور غير هذا الهلال النحيل ...

جلست « شياما » وقد أسندت رأسها إلى كتف صاحبها الشاب ، وأرخت ذوائب شعرها الفاحم الطوال ، فجللت جسدها ... وبدت كأنها منه فى ليل حالك داج ... قالت تحدث فتاها عن « تحريره » من السجن :

— إن ما فعلته من أجلك كان شيئاً مروعاً... وأروع منه التصريح به إليك أيها الفتى المحبوب... وكانت « شياما » وهى تحدث الفتى ممتقعة اللون واطئة الصوت من فرط ما استولى عليها من الاضطراب والهلع الشديد ؛ قالت : ولكني سأجمله لك فى بضع كلمات ...

— لقد أنقذك فتى آخر لا تعرفه ... اتهم نفسه لينجيك ، وتقدم بحياته هدية لى فافتداك ... إن خطيئتى التى اقترفت كان حبك داعياً لها ... أيها الفتى العزيز !

وكان الهلال قد غاب وساد المكان ظلام حالك رهيب ، وغمرته لجة عميقة من السكون ...

وسحب الشاب يده من خصر الفتاة ، وقد استولى عليه وجوم وحيرة أذهلاه عن الكلام ، وعما هو فيه...

وعلى غرة منه ... أهوت المرأة على قدميه تستغفره قائلة :

— إغتفر لى خطيئتى هذه ... ودع العقاب لله فسيجزينى بما قدمت يداى من إثم أيها العزيز ...

قال — وقد سحب رجله من بين يديها فى عنف وثورة جامحة وغضب ، ظهرت آثاره فى صوته المبحوح :

... وتكون حياتي الشريفة هذه قيمة لخطيئة اقترفتها ؟ وإذن فالنفس الواحد على منها محرّم لا تجوّز فيه ؟!

... وطفر الشاب من القارب وأوغل في الغابة يبتعد ... حتى تأدى به السير إلى مكان فيها كثيف الأشجار ملتف الغصون ، استوقفه قليلاً ، فجلس على الأرض تعباً قد أعياه الطواف الشاق الطويل..

ولكن من ذا الذى كان يقتفى أثره جاداً في السير فى هذا الظلام لا تثنيه شدة التعب ، ولا طول الطريق ؟ كأنه فى اتباعه إياه ظله الذى لا يغيب ؟؟

* * *

صرخ « فجرازن » هائجاً متذمراً :

— ألست بتاركتي أنفرد وحيداً ؟

وفى لحظة خاطفة سريعة انثنت عليه فغمرته بوابل من قبلاتها وأحاطت جسمه بأنفاسها الحرار وقالت تجيبه :

— كلا ... لن أتركك أيها الحبيب ... لقد أتعبتُ وكان هذا فى سبيلك أنت .. فاصنع ماتراه .. اضربنى إن بدا لك .. أقتلنى إن أردت ! :

... واعترت ظلام الغاب « رعشة » سرت فى جوانبه . . حتى وصلت إلى ما تحت الأرض من جذور .. وارتفعت فى الفضاء شهقة .. وسقط على الأرض جسمه .. ثم عاود الغابة وجومها العميق ..

وبرزت الشمس من خدرها ، وأرسلت شعاعها ينير أمام « فجرازن » الطريق ، فخرج من الغابة — على غير هدى — يسير على الشاطىء الرملى مسرعاً لا ينى ، ولا يرتاث فى السير ... حتى بلغ القارب الصغير . وقد مضى النهار وظهرت كتائب الظلام فى الفضـاء . . . وينظر فى القارب فإذا حجل [1] موضوع على الفراش هناك ... وإذا هو يجذب « الحجل » إلى صدره فى عنف شديد يخدش من شدته صدره ... ثم يدفن وجهه فى طيات ملاءة من الحرير كانت فى زاوية من زوايا القارب الصغير ... ليستروح عبير جسم عزيز عليه حيّ ... واحتجب القمر وراء الأشجار فعمّ الظلام الفضاء وساد الهدوء ...

ووقف «فجرازن» وأدار وجهه نحو الغابة وصرخ:

— تعالي أيتها الحبيبة ... تعالي إليّ

وعاد السكون كما كان عميقاً يسود الفضاء فإذا شبح مقبل يسعى من الغابة حتى انتهى إلى شاطىء النهر .

— تعالى أيتها الحبيبة !

— ها أناذي جئت أيها العزيز ... إن يديك العزيزتين قد حاولتا أن تقتلاني ، ولكن عمرى فى الحياة قد امتد

ووقفت « شـياما » قبالة الشاب فألقى إليها بنظرة ، وتقدم خطوة إلى الأمام ليأخذها بين يديه ... وهم أن يفعل ذلك ... و ... ولكنه دفعها عنه صارخاً وارتد :

— كيف ؟ كيف جئت إليّ ؟

وأدار وجهه ... وقال :

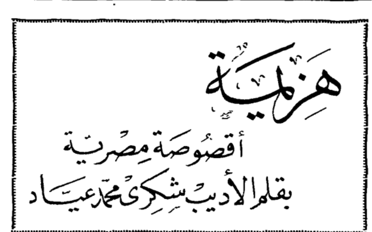
— ابتعدى ... اذهبى عني .

وبقيت الفتاة جامدة مكانها برهة ثم انحنت أمامه ... ورجعت سائرة تختفى فى الغاب اختفاء الأحلام ...

و «فجرازن» فى القارب يبصرها مكلوم القلب محزون النفس مما يجد من ألم والتياع !

فخرى شهاب السعيدى

(١) حلية من ذهب أو نحوه تزين بها النساء أرجلهن



— عبد الكريم !

فأجاب الرجل مضطرباً :

— نعم ياسيدى

— ماذا جاء بك ؟

فلمس الرجل لبدته السوداء الطويلة مرتبكاً ، وقال متلعثماً :

— لا شيء ياسيدي ... إنما أتنزه قليلاً

— أنت كاذب ! لقد أرسلوك هذه المرة أيضاً . اذهب فقل لهم إني لست بمجنون ! وإذا رأيتك بعد اليوم فسوف أقتلك قتلا

— سيدي ... سيدي ... سيدي حضرة العمدة أمرني

— قلت لك اذهب . إنهم يفرضون عليّ الرقابة كأني حقاً مجنون ! لم يبق إلا أن يسير ورائي كلما خرجت من باب البيت خفير !

فابتعد الرجل وجلاً وعلامته الصفراء تلمع فى ظلام الليل المغطش . وتابع صبرى السير وشفتاه مازالتا ترتعدان من الغضب . لقد أصبح البقاء هنا لا يحتمل . فهم جميعاً يعاملونه كأنما هو مجنون . أبوه ، أمه ، إخوته ، كلهم ينظرون إليه مشفقين ، متحسرين ، خائفين أحياناً ! لا يكاد يغضب أو يثور حتى تبكي أمه ، ويضرع أبوه إلى الله أن يلطف به ، ويهرب منه إخوته ؛ ويظل البيت باكياً ضارعاً وجلاً حتى يهدأ . والرجال جميعاً غدوا لا يعاملونه إلا بحذر ؛ حتى نساء البلدة يكاد يسمعهن يقلن : « سى صبرى ابن العمدة حصل له لطف ! » كلا . إن هذا أكثر مما يطيق . إن هذا وحده كافٍ لأن يذهب بأرسخ العقول . وإنه ليسائل نفسه أحياناً : « أصحيح مايرى ويسمع ؟! هل هو حقاً مجنون ؟! » كلا . إنه أدرى بنفسه من كل هؤلاء . لاشك أنه ضعيف الأعصاب ، ولكن ليس معنى هذا أنه مجنون : حسبه أن يقوم بالليل فيغني أو يصلي ، وأن يبكي ويتشنج لأقل سبب ، لسماع غناء أو لزيارة غير منتظرة . وهو أحياناً يكون غريب الأحوال وحشيّ الضحكات ، كئيباً لغير داع ، أو مسروراً بغير علة . ولكن ذلك لم يبلغ بعد حد الجنون ! إنما هو ضعف فى الأعصاب لا يحسن الذين هنا أن يعالجوه . لقد كان في القاهرة وهو غريب أحسن حالاً مما هو الآن بين أهله . كان هناك على الأقل صديقه « ابراهيم » ، وأعظم نِعم الله على المكروب صديق يفهمه . وكان لا يحس فى الجو المحيط به هذه الكآبة وهذا التعبيس . وكان يذهب ويجيء حراً طليقاً ، لايحاسبه أحد على مايقول أو يفعل . أما هنا فهم لا يكادون يتركونه لحظة يخلو فيها إلى نفسه ، ويذكر ما أصابه تلك السنين الطويلة من يأس وخذلان . لقد كانت له آمال وأماني كبار . كان يرجو الحياة السعيدة بالحب والمجد والمال ،

وذلك الشيء الذى طالما بحث عنه ، ذلك الشيء الذى لا يستطيع أن يسميه ، لأنه لا يستطيع أن يحده ، لأنه لا يستطيع أن يفهمه . ولكنه يحس برغم ذلك أنه خلق من أجله ، خلق ليبحث عنه ، خلق ليفنى فيه . وهو اليوم يقف فى ربيعه الخامس والعشرين على أطلال حياة محطمة بائسة . سنون كان ملؤها الكفاح والقوة والأمل ، فما عاد منها بغير اليأس والضعف والخذلان . أىُّ حلم صدق ؟ أىّ غرض تَحقَّق ؟ أىّ أمل حقَّق ؟ لا شيء ! لا شيء غير الخيبة فى كل ما أمله ورجاه . خاب فى الحب حين أحب ، وخاب فى المجد حين طمح ، وخاب فى الحياة كلها حين اضطرب فى الحياة كلها . ولم يفد من كل ما كافح وناضل وأمل غير نفس مظلمة وأعصاب واهية وقلب مرير . ليته ما كافح ولا ناضل ولا أمل ! إذاً لما عرف الضيق ولا اليأس ولا الخيبة ! إذن لعاش كما يعيش كل الناس ، ولسعد كما يسعد كل الناس ، ولضحك وعبث كما يضحك ويعبث كل الناس . لقد أسرف فى الأمل ، فأسرف عليه اليأس . وارتد قلبه جاحداً بعد شكران كافراً بعد إيمان

وأحس كأنما ضايقت الأفكار السود أنفاسه ، فهز رأسه فى عنف وضيق كأنه يطرد عنه أشباح فكره ؛ وأرسل عينيه فى المروج المخضرة حوله ، كأنه يستهويها ويلهيها . كان الليل قد بسط على الكون جناحيه ، وكانت النجوم تلمع فى سماء الصيف الرائعة ، والنسيم يهب رخياً ندياً ، نسيم أمسية من أماسىّ الصيف . وكانت العصافير تسقسق على الأشجار المنتثرة حواليه ، سقسقتها الواحدة التى لا تنتهى . هذه الطبيعة قد تبدو جميلة أحياناً ، ولكنها لا تستطيع أن تهبه بعض ما ينزع إليه فؤاده . هى لا تكاد تغير نغمتها الواحدة أو تعزف على غير وترها الفريد . هى الأخرى لا تستطيع أن تملأ قلبه ، أو تشعره بمعنى الحياة . لا شىء فى الدنيا يستطيع أن يشعره بمعنى الحياة . وأراد ثانية أن يذود الأفكار عن رأسه . ولكنه كان يحس كأنما هو مدفوع إليها دفعاً ؛ وكان النسيم الرخى يثير فى ذهنه ذكريات بعيدة . ورأى الجميزة التى شهدت غرامه الأول منذ تسع سنين . لقد كان إذ ذاك على بدء الطريق ، ورأى « منى » وهى يومئذ بارعة الحسن ساحرة الطرف رائعة الملامح ، وما كانت إلا قروية تملأ الجرة وتحمل الغداء إلى الحقل . ولكن عينيها الصافيتين الصادقتين كانتا تحملان معنى عميقاً بليغاً بعيداً . وكان وجهها الطلق السمح الصغير يبعث فى القلب لذة روحية لا تقوّم ، وينفى عن النفس الرجس والإثم والشك . فكانا يتقابلان عند هذه الجميزة كل يوم فيتحدثان فى أى شيء إلا الحب . ثم تركها خشية أن يتسامع بهما الناس ، ولكن قلبه ظل ممتلئاً بها ، آسياً عليها ، حافلاً بذكراها . وإنه ليذكر آخر لقاء لهما . لقد بكت يومها حتى بل الدمع ثيابها ، وبكى هو أيضاً ، بكى كثيراً . فقد مزق الفراق قلبيهما الصغيرين . ويومها فقط جرؤ على أن يقبلها ... فى وله ويأس وفى سيل من الدموع ...

وتزوجت « منى » بعد ذلك وأنجبت ولم يعد يراها إلا قليلاً . ولكن ذكرى غرامه الأول بقيت محفورة فى قلبه طوال تلك السنين : ساذجة صادقة خالصة صافية كقلب مُنى . ولقد أحب بعد منى وتفلسف فى حبه ، ولكنه سوف يذكر أبداً

تلك القبلات الوالهة الخجلى ، وذلك الوجه اللألاءُ الجميل ، كمصباح في ضباب كثيف لا يستطيع أن يبدد من ظلمته شيئاً . وساءل نفسه هل عرف الحب حقاً بعد مُني ؟ إنه يذكر الكثيرات اللائى أحب وأزجى إليهن قلبه الحائر الشاعر المتلمس . كلهن عبثن به حيناً وتركنه ، ولم يعرف قلباً أصدق حباً ولا أخلص وداً من قلب مناه الصغيرة ... حتى عائدة التي كان يخيل إليه أنها غير من رأى وعرف ، أنها النور الذى أضاء لقلبه السادر ، أنها الملاك المبعوث رحمة للبشر ؛ كان يخيل إليه أنها تستطيع أن تبعثه مرة أخرى ، أن تنفخ فى روحه الأمل ، أن تملأ قلبه بالحياة وبالحب ، فطاولها وطاولته ، حتى ملها ويئس منها ، وملته ويئست منه ، وانصرفت عنه إلى فتى أملس الجلد مذهب الحاشية مخنث الشمائل . ولم يجرب بعدها أن يحب ، ولم يعل به قلبه إلى حب ، فقد يئس من كل شيء وتبدلت نظرته إلى الحياة ، ولم يفد من حبه غير الضيق والتشاؤم واضطراب الأعصاب . وقيل له إن فى العمل سلوة الهموم والمحزون والشاكى ، فانصرف إليه بكل ما فى قلبه اليائس من قوة حتى نال متفوقاً إجازة الآداب ووقف حائراً يفكر ماذا يفعل . أبوه يريد له شرف الوظيفة والعمل الحكومى ، وهو لا يجد من نفسه القدرة على احتمال ما تمليه الوظيفة من مهانة وضعة . وكاد الأمر يؤدى إلى نزاع بينه وبين أبيه ، لولا أن خضع صبرى ، وترك أباه يدأب ويسعى ، يطرق باب كل مظنة للجاه أو للنفوذ أو للمنصب ، حتى استطاع أن يكسب له وظيفة بثمانية جنيهات ونصف ، وعاد يحسب نفسه فائزاً مجدوداً . وتسلم صبرى مهام وظيفته غير متوقع نجاحاً أو بقاء فيها ، فقد قال له رئيسه وهو يشرح له سير العمل : « إن شبان هذه الأيام لا تعجبهم أساليبنا فى العمل ، وكأنهم يظنون أنهم ما داموا قد تعلموا فى المدارس العالية ، فمن حقهم أن ينتقدوا رؤساءهم الذين عرفوا سير الدولاب الحكومى قبل أن يعرفوا هم نور الحياة » . وكان ورود صبرى إلى الديوان محل همس ولغط بين الزملاء فكانوا ينظرون فيما يكتب باهتمام ويبتسمون حين يرون تخبط هذا الشاب المثقف خريج الجامعة ! وأراد رئيسه أن يملى عليه إرادته فصادف منه عوداً لا يلين ؛ واتصل النزاع بينهما ، فراح زملاؤه يبدون أمامه إعجابهم بشجاعته ، ويتعجبون أمام الرئيس من جرأته ووقاحته . ولم يكن من دأب صبرى أن ينافق أو يكذب ، ولا كان فى مقدوره احتمال ذلك ، فحنق على كل شيء حتى على أبيه الذى ألقى به فى ذلك المحيط القذر . ولج به الضيق حتى هان عليه تقديم استقالته وإن أغضب بذلك أهله وأباه

وعاد إلى القرية فرأى وجوهاً ملتوية وأنوفاً زافرة وألسنة لا تكف عن ذكر خيبته وضيعته . فلم يطل به المقام وارتد إلى القاهرة يبتغي الرزق من طريق الصحافة . وكان رأيه أن الصحافة مرشدة الجمهور ومثقفته بالصدق والاستقلال والاخلاص ، فرآها إما لسان حزب أو أداة حكومة أو بوق مهرج . ورأى وسيلة النجاح فيها كوسيلة النجاح فى الحياة بأسرها : خداع ونفاق وكذب . وإنه ليذكر كلمة قالها له زميل من كبار محررى الصحف : « ليس من الضرورى مطلقاً أن أثق بصحة الشيء لأحبذه ، ولا أن أومن بقدرة هذا الرجل أو ذاك لأمدحه وأشيد بصفاته ؛ إنما العبرة بما أفيده أنا

وتفيده الجريدة من ذلك كله . ولقد أكون اليوم من أنصار هذا الحزب ، إذا أنا من أنصار ذلك الحزب الآخر . وليس فى هذا من بأس إذا أنا ربحت وإذا أنا استطعت — من أى طريق — أن أصحح موقفى فى عيون الناس .. » ولم يستطع صبري أن يروض نفسه على هذا الاعتقاد الجديد ففكر فى الاشتغال بالأدب . وكان له غرام به واطلاع فيه ، فألف مجموعة أقاصيص أعلن عنها فى الصحف قليلاً ، وتحدث عنها النقاد قليلاً ، ثم مضت لم يعجب بها أحد ، ولم يسخط عليها أحد ، ولم تثر ذماً ولا استحساناً ولا مدحاً ولا قدحاً . وثوت فى رفوف المكاتب حتى نسج عليها العنكبوت من خيوطه أكفاناً

وألقى السلاح قانطاً ، وعاد يفتش عن الوظيفة مرة أخرى

وظل منذ ذلك الحين يتردد بين القرية والقاهرة يطلب العمل هنا ويطلب الراحة هناك ، فلا يوفق إلى أيهما . واكتأب وامتلأ قلبه أسى وحزناً أن أن رأى الحياة خيبت كل ما أمله فيها ، ووهت أعصابه فنصح له أصدقاؤه أن يتسلى . وسألهم ما معنى السلوان ، فابتسموا وأرشدوه إلى دار امرأة من أولئك اللائى يتحملن خطايا البشر . وانزعج صبرى فما كان قد طرق هذا السبيل من قبل . اللهم إلا فى ظروف كآبة كانت تسلبه إرادته ثم تعقبه ندماً ؛ ولكن الصدمات المتوالية كانت قد ذللت قياده ، فبات من اليأس مستسلماً لكل علاج . وأقبل على هذه الحياة الجديدة يريد أن ينسى نفسه فى لذائذها ، فكان يظل كالمخمور حيناً ثم يفيق فكأنما قذف به من حالق ، ويحاول محاولة المستميت أن يطفو إلى السطح فتهى قواه ويغوص إلى الأعماق . وكان أشد ما يشقيه سرور مختلق وسعادة كاذبة وهوى رخيص

وتواردت على خاطره صور النساء اللائى عرف ، بوجوههن الشاحبة وعيونهن المتعبة ودلالهن المقيت . ولقد كانت تجمح به نفسه فيثور على كل شىء ثم لا يلبث أن يعود إليهن يحاول أن ينسى ، حتى مل هذه الحياة المضطربة فعاد إلى القرية منذ أسابيع ، يتلمس فيها ذكريات الصبا ، ويشتم منها روائح الطفولة ، ويلتمس فيها أثراً من « منى » . وبالأمس رآها سائرة تحمل الغداء لزوجها ، وما استطاع أن يتعرفها إلا بصعوبة ، فقد ترهلت واصفر لونها وغاض البشر من محياها ، وذوت فيها تلك النرجسة التى عرفها منذ سنين ، فعادت امرأة ككل نساء الريف . وكان يجرى فى أعقابها صبى قذر اللابس زرىّ الهيئة لا شك أنه ابنها . وحين رأته ظل وجهها جامداً كأنها لاتذكر من قديم أمرهما شيئاً ، نخيل إليه أن ليس لها بعناه رابطة ولا صلة . وأين هذه من تلك ؟ إنه لو سمعها نوديت بهذا الاسم لأنكرها ، فليست « منى » لديه إلا ذلك الكائن السماوى البعيد ، بقى ساكناً هذا الجسد حيناً ثم مله واجتواه ، ولم يبق له منه غير ذكرى تعاوده الحين بعد الحين ...

وفيم بقاؤه هنا بعد ؟ أفليس من الخير له أن يذهب إلى صديقه إبراهيم يطلب الراحة فى البوح إليه بكل مايضنيه ويشقيه ؟ سيسافر فى الغد ، فهذا خير له ؛ وسيقابله صديقه بالبشر والترحاب كما ألف منه دائماً ، بوجهه الطلق السمح وقلبه الصادق الخالص ، ونفسه الراضية المطمئنة . وسوف يلقى إليه بكل أحزانه فيشاطره حملها بغير ضجر ولا ضيق ؛ ثم لعله يوفق بعد ذلك إلى عمل . أما البقاء هنا فليس يجديه شيئاً

وبدأت سحب اليأس تنجاب عن نفسه .

وعاوده الأمل وإحساس الراحة وهو آيب إلى المنزل .
وكان البدر قد طلع وكلل بنوره هام الأشجار ، وانتظمت أشعة الشمس الأرض كلها ، فكست بالجمال كل ما عليها . حتى الأكواخ الصغيرة إلى جانبها حقول الذرة كانت تبدو « كوامات » من فضة . وأحس صبرى كأن كل شيء حوله يرقص ويغنى . وامتلأ قلبه بالأمل على حين غرة كما امتلأ قبل باليأس . وبات تلك الليلة هادىء الأعصاب مطمئن النفس فصفا البيت معه واطمأن . وفى الصباح استأذن أباه فى السفر فأعطاه جنيهين ، وقال له : « ليس معي الآن غير هذين . فإذا احتجت إلى شيء بعدها فارسل إلى . وفقك الله يابنى وسدد خطاك ! »

وهبط صبرى إلى محطة القاهرة فى نحو الساعة العاشرة وقد بدأ يحس قلقاً مبهماً وتردداً ، أين يذهب ؟ أإلى شبرا حيث صديقه إبراهيم ، وحيث الأستاذ حسين حلمى الذى يعتمد عليه فى الحصول على وظيفة ؟ أم ..... ؟ وظل برهة حائراً . ثم نكس رأسه فى حزن ويأس ، واتجه صوب محطة (الأتوبيس) رقم ١٤ فركب إلى ميدان الاسماعيلية ، ومنه ركب (الأتوبيس) رقم ٦ إلى الجيزة . وسار قليلاً فى شارع سعد زغلول ، ثم عاج فى عدة أزقة ملتوية ، ووقف أمام بيت صغير لا يدل ظاهره على نعمة . وتردد قليلا ، ثم أقبل على الباب يطرقه . لن يذهب إلى شبرا بل سوف يبقى هنا ما واتاه الوقت والمال .
وارتفع من الداخل صوت مألوف يسأله :
— « مين » ...
— إفتحى يا عزيزة ... أنا صبرى ...

شكرى محمد عياد

الجوسق الجبلي

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم السيد كمال الحريري

لم يكن جوسق چاورانباش ليمتاز من بقية الجواسق «الألبية» فى نسق أو طراز، فمثله كثير على أقدام الجليد وفى حدود الجبل الصخرية، التى تؤدى إلى ذرى الألب الثلجية، إنما كان يفرده عن أنداده أنه فى الطريق المنتهية إلى «جه مى»، وأنه اللاذ الذى يفىء إليه السائحون فى غدوهم ورواحهم

كان يظل نصف السنة مأهول الربع بسكانه، مأنوس الساحة بأهله، حتى إذا ابتنى الثلج قبابه فى الوادى، وأقام الجليد سدوده على مسالك «لوه شى» ظعن عنه «الأب هوسار» مع امرأته وأولاده، تاركاً على حراسته دليلين أمينين: هما «كاسبارهارى» الكهل، و «أورليك» الشاب، ثم «سام» كلب ضخم من كلاب الجبل. فى هذا السجن الثلجى الموحش كان يقيم الرجلان حتى إقبال الربيع، وليس لديهم من متع الحواس ومرائى النظر غيرُ هُضب من الثلج لا تحدّ، وكُثب من الجليد لا تنتهى، وغير القمم الشمّ اللامعة، والذرى البيض الساطعة، تمنطق هضبة «بالمورن» بسور من زمهرير وصقيع. لقد كانوا طيلة شهور الشتاء فى حصار هائل من جيوش الثلج اللجبة: تحدق بهم من كل مكان، وتأخذ عليهم كل قطر، ثم لا تكتفى حتى تزحف على الجوسق بقضّها وقضيضها، فتغمر الباب والنوافذ، وتُجلب السطح والجدُر، وتترك الرجليْن فى قبر بارد موحش، كفَنَه هذه الثلوج الرحبة الآفاق.

ففى هذه السنة، وقد أقبلت طلائع الشتاء، وخلت الطرق من العابرين والسائحين، تحتم على أسرة «هوسار» مبارحة الجوسق كعادتهم كل شتاء، فكنت ترى ثلاثة بغال تترك الفندق الجبلى، مُوقرة الظهر بالملابس والأمتعة، مُحملة بالثياب والأحزمة، يستاقها أبناء الموسيو هوسار وتتبعهم الأم چان هوسار وابنتها لويز، وقد امطتا بغلاً رابعاً، على حين سار الأب «هوسار» على أثرهم مصحوباً بدليليه الأمينين، وقد كان عليهما حراسة هذه القافلة ورعايتها حتى حدود القمة التى تبتدىء منها طريق «لوه شى»

أحدقوا أولاً بالبحيرة الصغيرة المتجمدة، فطالعت أبصارهم أمواهها البراقة وجليدها المتألق، وهو يلتمع فى أعماق سهل ضيق يمتد وسيعاً أمام الجوسق. ثم سايروا الوادى المتلألىء وقد التمع فى جنباته سناء الثلج، وشع فى حواشيه بريق الجليد، وتحلقت حوله قمم بواذخ وذرى شوامخ غرقت كلها فى بحر لجى أبيض من جليد وصقيع

وكانت أشعة الشمس وهى تسترسل على بسط الثلج الوسيعة، وحزم النور وهى تنسكب على صحراء الجليد البديعة، تتماكس وتتراقص ويموج بعضها فى بعض، حتى لتكاد تخطف البصر وتعشى النظر

لم تكن نأمة تتحرك وسط محيط القمم الثلجية ، ولا ركز يحس خلال هذه الصحراء الجليدية ، إنما هو السكون العميق والعزلة الساكنة تضربان بجرانهما على كل شئ

وتستمر القافلة في تسيارها ، فإذا «هورليك» الدليل السويسرى ذو السيقان الطويلة المنتصبة يخلف وراءه زميله الكهل «كاسبار» والأب هوسار ليلحق بالبغال الأمامية التى كانت تقل الأم جان وبنتها لويز

وتنظر الفتاة إليه يدلف نحوها ، فتكاد تهم باستدعائه بعين فيها التوسل والحزن . كانت كاعباً قروية شقراء . فى خدودها النضر لون الحليب ، وفى غدائرها الصفر تموجات باهتة لا لون لها ، صبغتها بها إقامتها الطويلة وسط الجلامد والثلوج ، ووصل الفتى إليها ، فوضع يده على كفل دابتها وراح يطابق خطاه الشديدة على خطاها الوئيدة . وتأخذ الأم جان فى الحديث إليه عن شئون الجوسق وتدبير الفندق الجبلى الذى وكل إليه ورفيقه أمر حراسته ورعايته . كانت هذه هى المرة الأولى التى يعتزل بها العالم فى أعالى هذا الجبل الثلجي ، على حين أن زميله الكهل كان قد استتم فى هذه السنة خمسة عشر شتاء قضاها سمير الثلوج أليف الجليد فى هذا الجوسق القصى النائى الذى يدعونه چاورانباش . لذلك كان الفتى السويسرى أورليك يصغى لتعاليم الأم وأوامرها دون أن يفقه لها معنى . وبينما كان يجيب الأم من حين لآخر قائلاً :

— أجل أيتها السيدة ، كما تشائين أيتها الأم «هوسار» ، كانت نظراته عالقة بوجه الفتاة لاتريم

وبلغوا بحيرة دوب فبدت لهم فى غور الوادى السحيق الضيق بحيرة مستطيلة الصفحة متجمدة السطح مشعشعة الضوء

وبينما كانوا يقتربون من حنية «جه مى» حيث ينحدر الطريق إلى لوه شى ، انكشف لهم الأفق الرحب عن واد سحرى رائع ، لا يتمثل لخيال ولا يتراءى فى حلم : هو وادى الرون ، توشى جنباته أطرزة الشفق ، وتموّه حواشيه ألوان قوس قزح .

وعلى البعد من هذا الوادى الحبيب ، حيث يسافر النظر فى مسافة لا تنتهى ، كانت تقوم طائفة من قنن جبال ثلجية ، مختلفة التكوين متباينة الشكل : فهذه قمة ميشابل قد طعن قرناها فى أديم السماء ، وتلك كتل ويسهوارن الهائلة تملأ الرحب ، وهاتيك أهرام «سيرفين» تسد الفضاء ؛ وهناك تحت هذه المشارف العالية والقلاع المرتفعة ، تراءت لهم قرية لوه شى ، وهى تقبع فى هاوية هائلة بعيدة كانت تظهر فيها أبنيتها ومساكنها كأنها حبات من الرمل الأبيض نثرت فى مغارة واسعة سوداء

وهنا تقف البغال على جانب الطريق المتعرجة المتموجة التى تتقاطع وتتحوى ، وتتمعج وتتلوى ، حتى ينتهى بها المطاف إلى هذه القرية المخبوءة المستترة ؛ وتقفز المرأتان فى خفة قرويات الجبل على بساط الثلج ثم يتبعهما الزوج «هوسار» وهو يقول للدليلين :

— إلى اللقاء أيها الصاحبان فى السنة المقبلة ، إنى لأتمنى لكما إقامة هنيئة هذا العام ، ويتعانق الشيعون والظاعنون كل بدوره ، حتى إذا جاءت نوبة أورليك الدليل الشاب غمغم فى أذن الآنسة لويز وهو يعانقها :

— لا تنسى أن هناك فى الأعلى رجلين وحيدين .

فتجيب الآنسة فى همس : كلا ، كلا . وحين أزف الترحل أشار الأب بيديه تسليمة الوداع ، ثم هبط

وأسرته المنحدر ، وما هى إلا دقائق حتى ابتلعهم الطريق بين طواياه

ويمشى الدليلان إلى الجوسق الموحش جنباً إلى جنب ، بخطوات ثقيلة وصمت طويل . لقد انتهى كل شىء ، وسيظلان خمسة أشهر منعزلين فى هذه الجبال الثلجية المتنائية الأرجاء ، وراح الكهل يقص حكاية حياته الجبلية على زميله الشاب . لقد كان قاطناً هذا الجوسق بصحبة رفيق قديم قعدت به الشيخوخة عن معاودة هذه الحياة ، لأن حادثاً من حوادث القدر قد ينكبه فى جسمه الموهون بين هذه الجبال الثلجية . لم يتطرق السأم إلى نفسيهما ولا أفسد النزاع ما بينهما من الود فى ذلك العام . وفيم النزاع والشجار ، وكل يضطلع بأكلافه ويقوم بواجبه ؟! على أنه بالرغم مما كان يحدق بهما من نُطُق السآمة والوحشة ، فقد خلقا لنفسيهما ملاهى للفراغ ومسليات للحواس . كان أورليك يصغى لقول زميله والطرف خفيض والنفس والهمة والفكر شارد ، يفكر فى أولئك الراحلين الذين تحملوا منذ قليل

ويقترب الرجلان من الجوسق ، فاذا نكتة سوداء لاتكاد تبصر ، تسجد فى خشوع تحت أقدام الثلج الجبارة ، وتتمرغ فى ضراعة على ساحل محيط الجليد الثلج الوسيع

ويلجان باب الجوسق فيتلقاهما «سام» وهو كلب ضخم جبلى ، ثم يتمسح بهما ويقرع الجو بنباح صاخب ، ثم يتواثب عليهما فى نشاط ومرح ، ويقول الكهل كاسبار وقد استقر به المكان :

— وطن نفسك يا صديقى على أعمال المنزل ، فليس لدينا نساء لادارته . نحن الآن فى حاجة إلى الغداء ، فهيا قشر البطاطس . ثم جلس الاثنان على مقعد خشبى وأنشآ يطبخان الحساء

وفى صبيحة اليوم التالى كانت الساعات تمر ثقيلة مسئمة أمام أورليك ، وبينا الكهل كاسبار يدخن فى سرور أمام الموقد ، كان الشاب أورليك يطل من خلال النافذة على جبال الثلج وهى تلتمع وتتوهج ، وكثبان الجليد وهى تضىء وتتموج

ثم خرج أورليك من الجوسق ، فأعاد رحلة البارحة ، وجعل يتعرف على الأرض آثار حوافر البغال التى راحت بلويز الشقراء . حتى إذا بلغ منشعب الجبل ، وشارف الطنف الذى يطل على قرية لوه شى انطرح على شفير الهاوية وراح يرقب فى نشوة ولذة بيوتها المبعثرة . لم تكن جيوش الثلج قد دهمت تلك البئر العميقة بعد لأن غابات الصنوبر الشجراء ، وأدواح السرو الخضراء ، كانت تقوم كالجند المدافع عن هذا المضيق الذى لاذت به القرية ؛ وكان الثلج لا يسعه إزاء هذا السور من الشجر إلا أن يتساقط صاغراً على أقدام الأدواح ، دون أن يجد ثلمة ينحدر منها لغزو القرية . وإذن فان لويز الجميلة هناك الآن فى إحدى هذه الأمكنة الدكناء . كم يقوم بنفس الفتى أن يهبط إليها ما دام ذلك بمكنته هذه اللحظة ! ولكن وا أسفاه لقد احتجبت الشمس وراء قمة ويلستروبيل الهائلة

وآب الفتى إلى الجوسق فألفى الأب كاسبار ينفث دخان سيجاره ، وحين شاهد الكهل رفيقه عائداً قدم إليه ورقاً للعب ، ثم جلسا إلى طاولة وجهاً لوجه وطفقا يلعبان « البرسيك » حتى إذا سئما اللعب انكفآ إلى المطبخ فطعما ثم رقدا

وتوالت الأيام على هذا الغرار : مضيئة باردة من غير ثلج جديد ، وعقيب كل ظهر كان الأب كاسبار يروح عن نفسه بصيد النسور الجبلية ، أو قنص نوع من العصافير يقحمها طيشها هذه الجبال ، على

حين كان أورليك يعيد بدأه على عوده أو عوده على بدئه فيقصد إلى ذلك الطنف الذى يشرف على القرية ليحلم هناك ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى الجوسق فيلعب الورق أو « الدمينو » مع زميله كاسبار ، ويكسب أو يخسر هنات قليلة كأنا يجعلان عليها مدار اللعب لبعث نشاطه وإذكاء حدته

ففى ذات صباح وقد استيقظ الكهل قبل زميله الشاب ، دعاه إلى النافذة ثم أشار إلى غمامة شهباء تزحف إليهما فى سرعة وهول ، وتأخذ على الجو منافذ الأقطار ، وما هى إلا أن أقبلت خرساء عمياء حتى انحطت بكلكلها على الجوسق المسكين ، وإذا فرش الثلج الوثيرة الثقيلة تغطى الباب ثم تزحف على النوافذ ثم تصعد إلى السطح فيغرق الجوسق كله فى موج من الثلج والصقيع

استمرت هذه العاصفة الثلجية أربعة أيام بلياليها ، حتى إذا انفثأت حدتها وهدأ غضبها تحتم على الدليلين — كى يريا نور الحرية — أن يزحزحا عن الباب والنوافذ الثلج المركوم ويحتفرا فى صخور الجليد مسالك للمرور ، ويتم لهما ذلك فى بضعة أيام فيلزمان الجوسق ، ويقبعان أمام المدفأة إلى أن يأذن الله بفرج من عنده

لم يكن أحد منهما ليفتات على زميله فى مزاولة أعمال المنزل أو ممارسة شؤون البيت ، فقد أخذ أورليك الشاب على عاتقه غسل الملابس وتنظيف الأواني وتكسير الحطب ، واستقل الكهل بشؤون الطبخ والطهى ؛ على أن هذه الأعمال المنزلية الهينة كان يتخللها أويقات طويلة للعب الورق ورصف « الدومينو »

أبداً لم ينشب بينهما خصام ، أو يحتدم جدل ، أو تسوء كلمة ؛ وكيف يختصمان وكلاهما هادئ الطبع ساكن القصد حلو الشمائل ؛ ثم هما فوق ذلك راضيا نفسيهما على مكروه هذه الحال ، وأخذاها باحتمال حياة الجبال

وفى بعض الأحايين كان الأب « كاسبار » يتنكب بندقيته وينطلق بها إلى صيد الوعول فيعود منها من حين لآخر بطائفة صريعة . ولا تسل حين ذاك عن الوليمة الفاخرة التى ينعم بها الرجلان فى جوسق چاورانباش على شرف هذا الصيد

فى أحد الأيام انطلق كاسبار إلى الخلاء لهذا الصيد ، وكانت درجة الحرارة ترقم الثانية عشرة تحت الصفر ، والشمس لم تبرح خدرها بعد . وظل أورليك الشاب راقداً حتى الساعة العاشرة ، فلقد كان نؤوماً لا يمنعه من متابعة النوم إلا خجله من رفيقه الذى اعتاد أن يفيق باكراً . وتبلغ الساعة العاشرة فيستيقظ صاحبنا ويتناول إفطاره مع كلبه سام الذى ألف الرقود بجانب الوقد سحابة النهار وسواد الليل ؛ ويفرغ أورليك من الطعام ، فإذا الوحشة ترين على قلبه والوحدة تسود نفسه ، وإذا هو يحس فراغ زميله ويأسى لفراقه هذه الساعات القصار ، ثم ... ثم يمد يده إلى ورق اللعب فلا يجد من يشاركه فيه . وعلى هذا فقد خرج من الجوسق ليروح عن نفسه ولينجو من وحدته بضع ساعات قبل أن يعود زميله من صيده

كان الثلج قد ملأ جميع الأودية والأهضبة ، وساوى بالبقاع التلاع وبالنجاد الوهاد ، فلم يعد يطالع العين منظر البحيرتين الرجراجتين ، ولا يلفت النظر بروز الصخور السوداء ؛ فالقمم الشم خائضة لجج الثلج ، والقلل الهائلة متكفنة الجسم بكفن الجليد لا يفصل قمة من قمة إلا أقبية هائلة منتظمة من ثلج ، أو حفر واسعة ممردة من جليد

ويتوجه أورليك صوب اليمين ، ويسرع خطاه إلى لوورن ضارباً جلامد الصخر بعصاه الحديدية

الصلبة ملتمساً يبصره تلك النكتة السوداء المتحركة التي كانت تلوح على البعد بين تلك البسط الثلجية الواسعة . وإنه لكذلك وإذا الشمس تتضيف للمغيب فتنضر خدود الثلوج البيض بلون الورد ، ثم تدع للرياح اليابسة السافية سبيلاً إلى أحضان الثلج تنشر رغاءه وتبعثر نشاره وتطوح بندوفه أباديد ، ويطلق « أورليك » نداء حاداً طويلاً مهتزاً فإذا رجع الصوت يدوى ويتراجف خلال سكون مهيب هائل ، وإذا رنينه يسافر إلى تلك الأمواج الساكنة الساكتة من الثلج ، واللجج العميقة السحيقة من الجليد ، ثم يضل ويفنى فى يهماء رحيبة متناهية من الصقيع . وأرعدت فرائص أورليك لهذا السكون المروع فخيل إليه أن ذلك الصمت الموحش ، وتلك الرياح المتجالدة ، وهاتيك الوحشة الرائعة ، تنفذ إلى كيانه وتزلزل جسمانه ، ثم تجمد الدم فى عروقه وتجعل منه كائناً ساكناً لا يتحرك ولا يريم . فلم يجد وسيلة للنجاة من وحشته وخوفه إلا أن يبتدر الجوسق ، فمضى إليه وهو يردد فى نفسه : إن « كاسبار » قد عاد من صيده ولاشك ، وكأنى به قد جلس إلى مقعده أمام الموقد المضرم وتحت قدميه ما اصطاده من وعول . وبلغ الجوسق فلفت نظره أن خيطاً من الدخان ولو دقيقاً لا يتصاعد من المدخنة ، ففتح الباب فى سرعة وقلق ، وإذا الكلب « سام » يدلف إليه ويحييه ولكن أين هنرى كاسبار ؟ ويضرم الشاب النار وينضج الحساء آملاً أن يعود رفيقه كاسبار فيجد الطعام مريئاً والجو دافئاً ، لكنه لم يعد . فكان « أورليك » يخرج من آونة لأخرى كي يتبصر شبحه يدلف أو يسمع صوته يدوى . ولكن الليل أقبل بظلمته المشوبة بلألاء الثلج ولم يعد « كاسبار »

وانقلب المسكين إلى الجوسق يائساً فجلس إلى الموقد يصطلى وقد ذهبت به الأظانين والشكوك كل مذهب

أيمكن أن يكون كاسبار ضل طريقه وتشابهت عليه مسالكه ؟ أيحتمل أنه قابع الآن فى أخدود عميق من الجليد كسير الرجل أو مهشم الذراع ؟ يرجفه القر وتولول فوق رأسه ثوا كل الريح الصاردة ؟ أيجوز أنه يوالى الصرخات ويتابع الاستغاثات فلا يجد صريخاً ولا منقذاً ؟ وكيف ينقذه إنسان أو يمد له بشر يداً والجبال موحشة عالية ، والوديان رحيبة خالية لا تتحرك فيها نأمة ولا يتنفس ذو رئة

ومع هذا فقد أجمع « أورليك » أمره على البحث عن صاحبه إن أقبل نصف الليل ولم يؤب من صيده . ويأخذ في تهيئة نفسه وتحضير زاده وعتاده فيتناول كلاّبه الفولاذى ويتمنطق بحبل متين دقيق ويمتحن صلابة قضيبه الحديدى ومقاومة فأسه المعد لحفر جلامد الجليد . ثم ينتظر إلى نصف الليل بينما الحطب يتأرث فى الموقد والكلب يغط على ضوء النار ، والساعة ترسل في الجو خفقات « بندولها » الراعب الراعش . كان الفتى يرهف السمع إلى عويل العواصف وهى تلطم وجوه القمم البعيدة ، ودمدمة الريح الغاضبة وهى تصفع جدران الجوسق ونوافذه ؛ حتى إذا دقت الساعة الثانية عشرة استوى على قدميه وأيقظ كلبه « سام » ثم فتح الباب وانطلق فى الظلمة لجهة ويسا ترويبل . وفى خلال خمس ساعات كان يصعد كثيباً ثم يهبط إلى هوة ثم يعود ويتسلق تلعة أو جبل من ثلج أو جليد . وفي كل ذلك لا يغفل عن تعليق كلابه فى صخور الجليد أو احتفار طريقه بين جنادل الثلج ، أو تعليق حبله بكلابه

الفولاذى إما لإصعاده بنفسه أو نزوله ، أو لجرّ أو إنزال كلبه المسكين . وأخيراً وفى الساعة الخامسة بلغ القمة التى اعتاد زميله « كاسبار » أن يختلف إليها لصيد الوعول . فجلس هناك ينتظر تبلج النور

كانت السماء حين ذاك مشعشعة الأديم مستضاءة الصفحة قليلا ، ولكن على حين غرة أضاء الآفاق نور وهاج لم يعرف مصدره فغمرت الجبال بسناه اللألاء ، وغرقت الكثبان بنوره الوضاء ، ثم أخذ هذا الضوء يمتد ويفترش حتى تلألأت جبال الثلج وتلاع الجليد بسناه الوهاج الرجاف ، إلى مسافة مائة ميل ، وكان يخيل للعين المنبهرة ، أن ليس شمساً واحدة تلك التى تُطلع كل هذه الأضواء ، وإنما بلورات الثلج ، ومرايا الجليد تبثق كل واحدة منها شموساً لا تعد وأنواراً لا تحد . ثم أخذت قمم الثلج العالية البعيدة تتراءى للنظر واحدة بعد أخرى بحللها الحمر الوردية التى نسجتها عليها خيوط الشمس ، فاستحال الكون كله إلى سنى وسناء وجمال وسحر ، وينسرح أورليك بعد إذ أخذ حظه من الراحة ، فى الأودية والهضاب ، والأخاديد والشعاب ، محنى الظهر يتعيَّف الآثار ويتلمس مواقع الأقدام ، وهو يقول لكلبه :

— ألا فتش أيها الكلب الضخم عن آثار « كاسبار » سيدك . فيرود الكلب ويجوس ، ويتخلل الحفائر والمضائق والمغائر والأخاويد ثم ... ثم لا يجد لا هو ولا صاحبه شيئاً

ويقبل المساء ، فإذا صاحبنا هو وكلبه قطعا فى يومهم مسافة خمسين ميلاً ، وإذا هما من الإجهاد والتعب بحيث لا يقويان على مواصلة السير إلى الجوسق البعيد ، فيلجآن إلى حفرة منعزلة فى قاصية الوادى ، ويبيتان فيها ليلتهما وقد أضفى « أورليك » عليه وعلى كلبه لحافاً صغيراً ، ثم التصق بكلبه التعب كى يدرأ عن جسمه زمهرير البرد الذى بات ينفذ إلى عروقه طيلة الليل . لم يتمض له جفن فى تلك الحفرة الصاردة المظلمة ، لأن الأشباح المخيفة كانت تراود عينه وخياله ، والريح اللاذعة ترعد أطرافه وأوصاله .

وينهض صاحبنا مع الفجر مُصلَّب الأطراف من القر ، مجمد العروق من البرد ، خافق القلب مرعد الفرائص ، يظن كل همسة أو رعشة أو هزة نذير موته فى هذه الأصقاع الثلجية التى لا يعيش فيها إنسان

ويبلغ « أورليك » منزله هو وكلبه الأعرج ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، فإذا المكان خال موحش ، فيأكل الشاب طعامه ثم ينام تعباً منهوكاً لا يفكر فى شىء . استغرق فى نوم طويل عميق غلاّب مما قضاه البارحة من عناء ووعثاء ومشقة ، ولكن أتراه يحلم ؟ ! أتراه يسمع هتفة طائف النوم الذى يهتف فى أذن النائم المجهود والحالم المكدود ؟ إنه ليسمع هذا النداء الضاج الصارخ بجميع حواسه ومشاعره : نداء هائل مزعج ما إن ينزلق من أذنيه حتى ينفذ إلى أعماق أعصابه المرتجفة الثائرة ، وإذاً فإن صوتاً يناديه ويدعوه إليه ، ويهيب به من النوم ؟ ذلك حق لا ريب فيه ، وهنا يذعر الشاب ، فينتفض من سريره إلى الباب ويروح يصرخ عالياً :

— أهو أنت يا كاسبار ؟ ولكن أحداً لم يجبه ، وصوتاً أو ركزاً لم يتأدّ إلى سمعه ، إنما هو الليل الطويل المعتكر وشعشعة الثلوج المتعاكسة ، وأنين الرياح النادبة ، ثم صفير العواصف الغاضبة على الجبال والوهاد والحفر ، ثم سكون الموت ووحشة الفناء ، ولا شىء بعد ذلك . ويصرخ « أورليك » : كاسبار ، كاسبار ! ثم يصغى ويصيح ، ولكن كل شىء يظل أخرس لا يجيب

وصامتاً صمت الموت ، فتستقل رواعد الذعر عظام الشاب وينكفىء إلى مُنعزله الموحش ، فيسقط المزاليج ويحكم قفل الباب ، ثم يتهاوى واجفاً راجفاً على كرسى أمام الموقد ، ثم يأخذ فى التفكير : إن « كاسبار » الآن رهين حفرة عميقة من الجليد منذ ليلتين ؛ إنه فى أخدود سحيق ، هو فى نصاعة بياضه أهول منظراً من قطع الليل الفاحمة ، أوعتمة المغائر الموحشة ؛ إنه ليحتضر فى هذه الحفرة منذ يومين ، وسيموت البائس وحيداً جامد الدم . سيموت وهو يفكر فى صاحبه الشاب ، ثم لا تكاد روحه تخرج إلى فاطرها ، حتى تحلق فوق الجوسق وتدعوه إليها بدعاء رهيب غامض لا تعرف سره إلا أرواح الموتى حين تتصل بأرواح الأحياء . إن روحه الآن لتهتف بروحه النائمة ولكن فى غير ضجة ولا صوت؛ إنها لتود وداعه وداعاً أخيراً ، أو قل إنها تبغى تعنيفه تعنيفاً مؤلماً ، أو لا هذا ولا ذاك ، إنها لتصب على رأسه لعناتها صباً ، لأنه لم ينقذ صاحبها من حفرته السحيقة . كان « أورليك » يحس هذه الروح الهائمة الناضبة فى كل ما يحيط به من مكان : وراء الجدار ، وخلف الباب ، وفى صحن المطبخ ؛ وقد كبر فى وهمه أنها تحلق وتطير فى جو الجوسق كطائر مذعور ليلى يتهافت على نافذة مضيئة ليلجها . ولقد بلغ الذعر بالفتى لهذه الخاطرة أن كان متهيئاً للعواء من خوفه ورعبه ، يريد الهرب والنجاة بنفسه ، ولكن أنى له الجرأة على ذلك ؟ ! لن يجسر على الهرب من الجوسق ، لأنه سيلقى الشبح المهيب خارجه يتربص به الغوائل حتى يكتشف جسد زميله فيواريه حفرة تدفأ فيها عظامه ويستريح رفاته . وطلع النهار فهدأ روع المسكين قليلاً ، واطمأنت نفسه الراعشة إلى شعاع الشمس ، يؤنسه من وحشة ويؤمنه من خوف . فطعم وأطعم كلبه ، ثم جلس أمام الموقد جلسة البارحة يفكر فى زميله المنطوى فى غيابة الثلج . ويدهمه الليل فيعتاده الذعر ويلم به طيف الأمس ، وإذا هو واجف راجف ، وحيد فريد كأوحش ما تكون الوحدة ، وأهول ما يكون الانفراد . هو وحده فى هذه الصحراء الثلجية الرحبة على بعد ألفى متر فقط من العمران ، والسكان ، والحياة والحركة والضجيج ؛ وهنا يخطر له أن ينجو بنفسه من هذا القبر الثلجى الوسيع ولْتَجرَّه قدماه إلى حيث ألقت ... ولكن أنى له هذا وهو لا يجرؤ حتى على فتح الباب ؟ . وعند منتصف الليل ، وحين أعياه ذرع الغرفة ، وأنهكت أعصابه خطرات الطيف ، نام المسكين على مسند المقعد ، لأنه كان يخاف سريره كما يخاف مغارة مسكونة بالأرواح . ولكن يا لهول هذا الصوت ! إنه ليقرع أذنيه مدوياً مجلجلاً صاخباً غاضباً حتى ليلقى المسكين أرضاً هو ومقعده ، ويفيق الكلب فزعاً لهذه الضجة فيأخذ فى نباح مدوٍّ ثم يدور بأركان المنزل ، ويجوس نواحى الجوسق كى يعرف مأتى هذه الضجة ومرجع هذا الصوت ، ولكنه حين لم يجد أحداً أقعى بجانب الموقد حذراً قلقاً منتصب الرأس ملتمع العين يزجر ويدمدم . وثاب إلى أورليك هدوؤه قليلاً فراح يلتمس من « البوفيه [1] » زجاجة من العرق طفق يجترعها كأساً كأساً حتى إذا أتى عليها عاودته شجاعته العازبة ، وراجعه حلمه الذاهب ، ثم تلاشت مخاوفه فى جو من الإبهام والغموض

وأقبل الغد فلم يذق أورليك طعاماً وإنما اكتفى بجرعات « الكحول » تلهب عروقه الجامدة بحميا

(١) استعملنا هذه اللفظة لأننا لم نجد مقابلها فى العربية

النشاط ، وتقيم حول دماغه وحواسه سوراً من نسيان ...

وتوالت الأيام على هذا الحال لا يطرق مسمعه هاتف رفيقه الموءود حتى يأخذ فى الاجتراع والعب والعل والنهل ، ثم ... ثم يسقط على الأرض سكران لا يعى ولا يحس ، ولكن ما يكاد يستفيق إلى نفسه حتى يدوى فى أذنيه النداء الهائل المرعب : « أورليك ، أورليك » فينتصب المسكين على قدميه الراجفتين كأن هذا النداء رصاصة تنفذ فى دماغه ، ثم يترنح سكراً ويميد فزعاً فيستدعى كلبه « سام » إلى نجدته ، ويترا كض الحيوان وقد أصبح مجنوناً مسعوراً كسيده ، إلى الباب يخدشه بأظفاره المرهفة ويقرضه بأنيابه الحادة اللامعة ، على حين ينتصب سيده أمام « البوفيه » مهطع العنق متزلزل الرأس مرنح العطف سكراً يعب جرعات العرق الحارة كما يعب مسابق مجهود كؤوس المرطبات الباردة، ثم هذيان ونسيان وغيبوبة ليس معها فزعه الهموم وطائفه الندوم

ومضت أسابيع ثلاثة ، فنفد ما عنده من خمر ، وما فى « البوفيه » من « كحول » ، وأصبح المسكين وقد اجترع آخر نقطة من العرق أشد تهيباً للنداء المدوى وأرهف شعوراً بالطيف الهاتف : فإن إدمان شهر على الخمرة ما زاد مخاوف المسكين إلا تيقظاً وتركزاً فى عقله الباطن . فهو يغدو الآن ويروح مفزعاً مروعاً لا يفتأ يلصق أذنيه على جدار الجوسق ، أو يرهف سمعه على باب المنزل، والصوت مع ذلك لا ينقطع دويه ولا يفتر هتافه : « أورليك » « أورليك »

ففى ذات ليلة قد أخرجه هذا النداء الملح عن طورجينه ، ابتدر الباب كي يتعرف ذلك الشخص الذى يناديه ، وكي يرغم ذلك الصوت الثرثار على الصمت والخرس . ولكن ريحاً مثلجة ترجف العظم وترعد الفرائص ، أرغمته على إغلاق الباب وإسقاط المزاليج . فأغلقه دون أن ينتبه إلى أن كلبه « سام » ألقى بنفسه خارج الباب . وترجف أورليك رواعد البرد وهزاهز الفزع فيسرع إلى المدفأة يؤرث نارها ويذكي ضرامها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يقف شعر جسده هولاً وذعراً ، لأن يداً خفية كانت تخدش الباب وأنيناً مروعاً كان يعقب هذا الخدش . ويصعق الخوف « أورليك » فيصرخ : أخرج من هنا ، إليك عنى . فلا يجيبه إلا أنين ضارع وعواء باك

وهنا . هنا فقط يغادر رأسه كل ما بقى فيه من رشد وصواب فيدور كالمجنون على نفسه ويقول:

— إليك عنى ! أخرج من هنا ! ولكن العواء الباكى ، أو البكاء العاوى لا يلتفت لأوامره بل يدور حول الجدران ، ويحدق بأركان الجوسق وينفذ من تحت الباب . وامتلأ قلب الشاب فرقاً ورهقاً فأسرع إلى منضدة « البوفيه » المليوءة صحوناً وكؤوساً ، ثم رفعها بين يديه بقوة الجبابرة المجانين ثم وضعها أمام الباب ، فتم له بذلك متراس هائل حصين أخذ يكدس فوقه أدوات المنزل ، وأشياء المطبخ ، ثم فراشه وسريره ووسائده ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من آنية أو آلة أو كرسى حتى لقد تعرم أمام الباب تل ينطح السقف ويسد منافذ الهواء

ولكن نداء الكلب الصارخ أصبح الآن خارج المنزل عويلا مبكياً وأنيناً مشجياً لم يلبث « أورليك » نفسه أن أخذ يجيبه بمثله

وانقضت أيام وليال وهذان العواءان لا ينقطعان عن الترداد والدوى : عواء منتقل سيار من الخارج يخدش الباب ويلطم النوافذ ويهم بتقويض

الجدران ، يقابله عواء من الداخل ، لا يفتأ صاحبه وهو يتبع حركات الأول ينشر أذنيه على الحائط أو يكدس الأشياء على التراس ، أو يبادل العواء الخارجي : نباحاً بنباح وأنيناً بأنين

وعسى المساء ، وإذا صاحبنا « أورليك » لا يسمع البكاء المدوي ولا الأنين العاوي ، وإذا سكون طويل عميق طويل يرن على جو الجوسق . هنالك يتهافت المسكين على مقعد خائر العزم موهون القوى مصعوق الرأس ، ثم يسلم نفسه إلى نوم عميق غلاب ... ويستفيق «أورليك» بعد ساعات ، وقد تكون أياماً ، فارغ الرأس من الرشد ، خالي الذهن من الذكرى ، كأنما أفرغ كل ما في دماغه في هذه النومة التي غرق فيها ، ويحس بالجوع ينهش معدته فيقبل على الطعام إقبال الهيم

***

وأقلع الشتاء بقضه وقضيضه وثلجه وبرده ، فعادت المسالك ممهدة والمصاعد معبدة ، وأصبح معبر « جه مي » سالك الطريق ذخار الحركة فتتخذ أسرة «هوسار» سبيلها إلى جوسقها الجبلي . وكانت طيلة الطريق في حديث الدليلين اللذين تأخرا هذه السنة عن النزول لاستقبالها مع أن ذلك دأبهما كل عام . وأخيراً لاح لأسرة « هوسار » شبح الجوسق مغموراً بالثلج محاط الجهات بالجليد ، ولكن بابه كان مغلقاً ، وخيوط دقيقة من الدخان كانت ترتفع من مدخنته . ويقترب الأب هوسار من عتبة الجوسق فإذا هيكل عظمي لحيوان نافق يطالع بصره . وتحدق العائلة في هذا الهيكل العظمي الذي تناوشته قشاعم الجبال ثم تقول الأم « هوسار »

— لكأني به هيكل كلبنا «سام» ! قالت هذا وراحت تردد :

— أيها الأب كاسبار ، أين أنت يا كاسبار ؟ وهنا أجابتها من داخل المنزل صرخة مدوية لا تخرج إلا من فم ثور هائج . وأعاد الأب هوسار النداء فارتدت الصرخة المرعبة تجلجل في آذان الأسرة . ويعتزم الأب وأبناؤه اقتحام الباب المسدود ؛ غير أن الباب صمد لهم أولاً ثم خضع وانكسر حين دفعوه بقائمة خشبية ، ولكن ما كاد ينفتح حتى ارتفعت في الجو صرخة مدوية ، ثم أبصروا ويا هول وأغرب ما أبصروا : أبصروا وسط الغرفة رجلاً مسترسل الشعر حتى الكتفين ، طويل اللحية حتى الصدر ، أغبر أشعث ممزق الثياب زائغ البصر هائل المرأى .

لم تعرف الأسرة أولا هذا الغول البشري ، ولكن الابن لويس قال :

— إنه أورليك يا أماه . ثم أمنت الأم على قوله :

— نعم يا بني إنه بعينه رغم شعوره البيضاء . وسمح أورليك لأسياده بالاقتراب منه ، وأذن لهم بلمس جسده ولكنه لم يجب بكلمة على الأسئلة الملقاة عليه . على أن الطبيب وضع حداً لكل هذه الشكوك حين أعلن للأسرة في الغد أن «أورليك» مجنون .

ولكن أين رفيقه الكهل كاسبار ؟ أي حادث عصف بعقل المسكين ؟ ثم من قتل الكلب الأمين ؟ ؟

تلك أسئلة لم تجد لها الأسرة أجوبة وا أسفاه !

« حلب » كمال الحريري

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ }



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

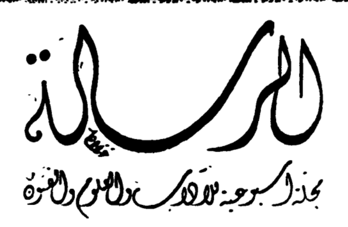
بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٩ — ٣٠ محرم سنة ١٣٥٧ — أول إبريل سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد


الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

فيفي

قصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

تلقت « فيفي » نبأ — بالتليفون — بأن في وسعها الآن — إذا كانت لاتزال راغبة في ذلك — أن تزور « الضحية » وتراه وتجالسه وتحادثه . وكانت تتوقع هذه الدعوة التي ألحت في طلبها ، ولكن سرورها بها كان مع ذلك عظيماً . وكانت تغالط نفسها وتزعم أن فرحها إنما هو بشفائه وزوال الخطر عنه . ولم تكن تعرف أن هذه مغالطة ، فما رأت ضحيتها إلا هنيهة قصيرة على ضوء مصباح السيارة وهو ملقى على الأرض أمامها وقد فقد وعيه من الصدمة . وكان معها أخوها — وهو ضابط في الجيش — فأسرع إلى المصاب ليرى مبلغ ما حل به ، وانحنى عليه يجسه وإذا بصوت يقول : « الذنب ذنبه . لقد قطع الشارع من غير أن يعنى بالتلفت والنظر ، ورأيت أنا السيارة مقبلة بسرعة فخفت عليه ودفعت يدى لأرده ولكنه كان قد مضى ... هو هكذا أبداً ... » ومال على صاحبه ثم رفع رأسه وقال : « لا أظنه أصابه شيء خطير ... لعل الصدمة التي أصابته من وقوعه على الأرض أقوى من صدمة السيارة ... على كل حال تعال نحمله إلى البيت ومن هناك ندعو الطبيب »

وجاء الشرطي وهما يحملانه إلى السيارة ورأى بزة الضابط فجنح إلى التساهل ، وساعده على ذلك أن صديق المصاب كان يهون الأمر ويؤكد أن لاشيء هناك يستحق وجع الرأس . وكانت فيفي هي التي تقود السيارة فمضت بها إلى حيث أشار الصديق . وكان المصاب لا يزال مغشياً عليه ، فدعى الطبيب وخلا به وشرع يفحصه والصديق معه وفيفي وأخوها في غرفة أخرى يتمشيان ولا يطيقان الجلوس أو الكلام من فرط قلقهما على الشاب المسكين ، وقد كبر في وهمهما من طول الغيبوبة أنه لا محالة ميت . وخرج عليهما الطبيب بعد دهر طويل فابتسم لهما وقال : إن الذى أصاب الرأس طفيف لاقيمة له ، وإن الخدوش الأخرى لا خوف منها ، ولكن الذراع مكسورة ؛ وإنه سيبعث إليه في الصباح بطبيب يجبر الكسر إلا إذا آثروا المستشفى ، ولكنه هو لا يرى حاجة إلى ذلك

وانصرف الطبيب بعد أن اتخذ من تدابير الوقاية والعلاج ما رأى أنه لازم ؛ وبقيت فيفي وأخوها زكريا مع طاهر نحو نصف ساعة ، فعلما منه أن اسم المصاب « حمادة » وأنه طالب في السنة الأخيرة من كلية الطب ، وأنه ابن عمه وهو يقضي أجازته الصيفية ضيفاً عليه — أي على طاهر — في الاسكندرية ، حيث يعمل في بنك مصر . وقد سر الأخوين أن طاهراً أبى أن يعد أحداً غير حمادة نفسه مسئولاً عما وقع . وكانت فيفي تحدث نفسها بأن تعرض على طاهر أن تقوم هي وأخوها

بنفقات العلاج ، ولكنها خجلت أن تخاطبه فى ذلك بعد الذى رأته من مروءة نفسه وحلاوة طباعه ، وآثرت أن تشاور أخاها أولاً عسى أن يستطيع أن يحتال للأمر من غير جرح إحساس هذا الرجل الكريم

وكانت فيفى وزكريا أشبه بالصديقين الحميمين منهما بالأخوين ، فقال لها وهما عائدان : « غريب... لقد استلطفت حمادة ... بمجرد وقوع عينى عليه وهو ملقى فى الطريق »

فلم تقل فيفى شيئاً فقد كانت تحس أنها مشفية على البكاء

وعاد زكريا يقول — أو يصيح على الأصح — بعد قليل : « لماذا لم تدوسى واحداً ممن لا خير فيهم ..؟ لماذا حطمت هذا المسكين ..؟ »

فقالت : « لو لم أمر بك لأخذك ... لو كنت مضيت إلى البيت مباشرة ... لما حدث هذا ... فظاعة ... أواثق أنت أنه سيفيق من هذه الغيبوبة ؟ »

فقال زكريا : « الطبيب يؤكد .. فلنصدقه .. وسنرى غداً .. اسمعى .. إنى أريد أن نقوم بنفقات العلاج .. إنه طالب وابن عمه موظف متوسط الحال .. وقد دسناه على كل حال وكسرنا له ذراعاً فما قولك ؟ »

قالت : « لقد فكرت فى هذا ولكنى خجلت أن أعرضه على طاهر ... اسمع ... تعال نقتسم النفقات ... واسمع... لا داعى لإخبار ماما ... ألا توافق ؟ »

قال : « بالإجماع .. »

وهكذا كتما الأمر عن أمهما اتقاء لازعاجها من ناحية وخوفاً من أن تنغص على فيفى حياتها اذا عرفت ما وقع

***

وقالت فيفى لطاهر وهى تدخل ووراءها زكريا : « ألم تقل له إننا آسفون جداً جداً لما حصل ؟ »

فقال طاهر بابتسام : « لقد تركت لك هذا ... كان على واجب آخر لهذا المهمل الذى لا يعرف حتى كيف يقطع الطريق »

وتقدمهما إلى الغرفة وصاح وهو يتنحى عن الباب لتدخل فيفى وأخوها : « ضيوف يا حمادة ... افتح عينيك »

وألفت فيفى نفسها جالسة على حرف السرير تبتسم لحمادة فى عينيه ، وقد سرها أن أخاها استأثر بطاهر فقالت : « لا أحتاج أن أقول إنى آسفة ، فان هذا لا يكفى ... فقد جنينا عليك ولا أدرى فى الحقيقة كيف تطيق النظر إلينا وقد كسرنا لك ذراعك »

فنظر حمادة إلى ذراعه وقال : « أوه هذا ... إنى أكاد أعد طبيباً فصدقينى حين أقول لك إنه لا شىء ... ثم إن هذه فرصة لى سأغتنمها »

فلم تفهم فيفى مراده وزوت ما بين عينيها فقال : « صحيح ... بعد أن أعود إلى الكلية سأستبدل بها ذراعاً صناعية خيراً من الطبيعية »

فقالت فيفى : « إيه ... هل ... هل ... »

فأسرع حمادة يقول : « لا لأن يدى هذه أصبحت لا خير فيها ... كلا ... بل لأن الأعضاء الصناعية أصبحت من الدقة والإتقان بحيث تفوق

الطبيعية ... مثلا إذا كنت أريد أن أشتغل بتفريخ الدجاج فما علىّ إلا أن أتخـذ ذراعاً خاصة أتبعها وأطيع وحيها »

فحدقت فيـه وفمها مفتوح ... أتراه يتكلم جاداً ... هل بلغ تقدم العلم هذا المبلغ المدهش ... أم هو يمزح ليؤنسها ويصرف ذهنها عما أصابه منها ؟

وسمعت حمادة يقول : « أعرف رجلاً بترت له ساقاه على أثر حادثة ترام ... وكان يحب الألعاب الرياضية فركبوا له ساقين مدربتين على هـذه الألعاب ... ويمكنك أن تتصورى بسهولة أنه أصبح الآن وليس أبغض إليه من هذه الألعاب ، لأن ساقيه لا تتركان له يوماً يرتاح فيه من الوثب والجرى وما إلى ذلك

فلم يبق شك فى أنه يمزح ، ولم يسعها إلا أن تضحك وإلا أن تعجب بروحه الواسعة الكريمة

وقالت ، والتفتت إلى أخيها وطاهر: « زكريا ! يجب أن نحتفل بحمادة أفنـدى فى أول يوم يخرج فيه ... يتغدى عندنا هو وطاهر أفندى ... أليس كذلك ؟ »

فنهض زكريا ودنا من السرير وقال يخاطب حمادة : « اسمع يا سيدي .. هـذه الفتاة سريعة النسيان .. لقد اتفقنا أن نكتم الأمر كله عن الأم لئلا تسود لفيفى عيشها .. فليس من المناسب أن ندعوك إلى البيت على الرغم من رغبتنا فى ذلك ، ولكنى أقترح أن نتغدى يوم تخرج فى سيدى بشر .. إلى أن نمهـد لاطلاع الوالدة المحترمة على الحقيقة تمهيداً تأمن به الشر الذى نخشاه وإن كنا نستحق أضعاف أضعافه »

ولم تـوْ حمادة وطاهراً هذه الصراحة . وراقهما ما بين الأخوين من الحب وما يتبادلان من الرعاية ، وخطر لطاهر وهو ينظر إليهما أن فيفى كانت خليقة أن تعشق زكريا عشق المرأة للرجل لو لم يكن أخاها

وحرصا على التخفيف فانصرفا بعد قليل ، فقال زكريا لأخته فى الطريق : « هيه »

قالت : « هيه »

قال : « لقد قلتها أولاً »

قالت : « أحسب أن معنى ذلك بعـد الترجمة هو ما رأيى فى حمادة ... الجواب مدهش »

قال : « هاتيه »

قالت : « قلت لك مدهش ... : ألا يكفيك هذا ؟ »

قال : « طيب آمنا ياستى ... وأنا مستعد فادهشينى ... تفضلى ... »

قالت : « ماهذه البلادة ؟. قلت لك إنه مدهش.. ميم ... دال ... »

فقاطعها : « أيوه ... أيوه ... فاهم ... بس أريد أن أسمع هذا الجواب المدهش »

فلما كفت عن الضحك قالت : « يا أبله ... إنما أعنى أن حمادة هو المدهش »

فهز رأسه موافقاً وقال : « وأنا من رأيك .. وأحب أن أقول لك أيضاً إنى أتمنى أن أراه لك زوجا »

فقالت : « على مهلك ... على مهلك ... طول

بالك ... ولا تنس الوالدة المحترمة »

فقال : « أوه ... إذا كان هذا هو كل ما فى الأمر فدعيه لى ... أنا أدبر المسألة »

***

وتوثقت العلاقة بين الفريقين وارتقت من الصداقة إلى الحب — نعنى بين فيفى وحمادة — ولكن الأم ظلت لا تعرف من الأمر شيئا ، فقد كان الأخوان يعلمان أن أمهما تأبى أن تزوج بنتها لواحد من غير أهل اليسار والغنى مثلها . وكانا قد عرفا أن حمادة رقيق الحال وإن كان المرجو — بل المحقق — أن يكون مستقبله خيراً من حاضره . ولكن الأم لا تقبل كلاماً كهذا . وكانا يحبانها ويعز عليهما أن يصدماها أو يخيبا لها أملاً فيهما ، فرأيا أن يستعينا بالصبر عسى أن يتيح الله لهما فرجا

ولاحظت الأم أن الأخوين أصبحا لا يفترقان —ولم يكن هذا حالهما من قبل — نعم كانا كاللصين لا يعرف ما بينهما إلا الله ، ولكنه قلما يمضى الآن يوم لا تخرج فيه فيفى مع أخيها . فهل ترك زكريا إخوانه جميعاً ... ثم إلى أين يذهبان ..؟ كلما سألت تلقت جواباً من زكريا فيه من الغموض والإجمال أكثر مما فيه من الوضوح والبيان . ويندر أن تزيد فيفى على الابتسام ، وما أكثر ما تلجأ إلى تقبيل أمها واحتضانها كأنما تريد أن تصرفها عن السؤال . وإذا قالت شيئاً كان قولها : « ألا يكفيك للاطمئنان أن أخى معى لا يفارقنى ؟ » ولم يكن هذا هو الذى يقلق الأم وإنما كان يثقل عليها أنهما لا يريدان أن يقولا لها شيئاً ، وكان هذا يثير رغبتها فى المعرفة ؛ ولم تستبعد أن يكون زكريا قد ذهب يساعد فيفى على غرام لها فإنها تعرف عظم ما بين هذين الأخوين من الحب ؛ ولكن إخفاء الأمر عنها معناه أنهما يدركان أنه لا يبعث على رضاها ؛ ومن هنا كان قلقها

وكأنما أرادت أن تقطع العقدة بالسيف . أعلنت يوماً أنها قررت العودة إلى القاهرة غداً ؛ ولم يكن زكريا فى البيت فتعبت فيفى فى محاولة إقناعها بالعدول عن هذا القرار ، ولم يجدها أن تبين لها أن الصيف ما زال باقياً منه أكثر من شهر ، فتظاهرت بقلة الاكتراث وهزت كتفها وقالت : « على كيفك .. إذا كنت قد اشتقت لمصر فلنذهب إلى مصر .. وما الفرق؟ سيان عندى فى الحقيقة .. وأقول لك الحق إنى لم أضجر من الأسكندرية كضجرى فى هذا العام .. »

ومضت إلى غرفتها وقد شق عليها أن تترك الأسكندرية وتترك فيها حمادة . ولم يعزها أن حمادة سيرجع إلى مصر لا محالة وأن فى وسعه أن يرجع الآن أيضاً .. كلا لم يعزها هذا الخاطر فاستلقت على السرير وهى تجيل هذا وما إليه فى نفسها . ودخلت عليها أمها فرأتها ساهمة فسألتها مالها فقالت : « لا شىء .. تعب بسيط .. »

وكانت الأم رقيقة القلب جداً وقد مات لها ثلاثة قبل أن ترزق هذين ، فهى ضنينة بهما جداً لا تطيق أن ترى أحدهما مزكوماً أو مصدعاً أو به فتور ؛ وكان يقلقها ويزعجها أن ترى زكريا يؤثر أن يبقى فى البيت لأنها تتوهم أنه مريض فتروح تلح

عليه أن يخرج ويتنزه ويشم الهواء ويضحك مع الإخوان وينعش نفسه

وقالت لفيفى : « مالك .. لقد كنت قبل ساعة كالوردة النضيرة فماذا جرى ؟ »

قالت فيفى : « لا شىء يا ماما .. تعب قليل .. يزول بالراحة .. اطمئنى »

فقالت الأم : « سأدعو الطبيب .. حالاً »

فلم ترتح فيفى إلى هـذا وألحت على أمها ألا تفعل ، ولـكن الأم أبى لها قلبها الرقيق الضعيف إلا الإصرار ، فخرجت إلى التليفون والتقت فى طريقها إليه بزكريا فسألها وقد رأى وجهها المتقع : « ماذا جرى ؟ »

قالت : « فيفى .. مريضة .. سأدعو الطبيب »

فاستغرب زكريا ، فقد ترك أخته على أحسن حال وقال لأمه وقد ساورته الشكوك : « انتظرى حتى أراها »

وأسرع إلى فيفى فقصت عليه ماحدث ، ففرك كفيه وعيناه تلمعان وقال وهو ينهض : « هذا خير ساقه الله ويجب انتهاز الفرصة التى أتاحتها لنا الأم المحترمة .. لقد كنت حائراً جداً وأتعبنى التفكير فى التماس الحيلة حتى يئست ، فالآن فتحت لنا الأم الباب بورك لنا فيهـا .. عليك الآن أن تلزمى السرير .. المرض يثقل عليك شيئاً فشيئاً .. وعلىّ أنا الباقى »

فرمت فيفى إليه قبلة وعاد إلى وجهها الاشراق والوضاءة

وقال زكريا لأمه : « نعم يجب أن ندعو الطبيب .. كليه وسأذهب أنا إليه بالسيارة .. هذا أسرع »

فـكادت المسكينة تقع على الأرض لأنها أيقنت من لهجة زكريا وهيئته أن الأمر جد وأن بنتهـا مريضة حقاً وإذا كان زكريا قد قلق إلى هذا الحد فياويلها هى ...

وجاء الطبيب — وكان هو طبيب الأسرة فى الاسكندرية — وكان رومياً هرماً ذا لحية كثة بيضاء ، ولـكنه دائم البشر والبشاشة ، حاضر النكتة وإن كانت نكتته كثيراً ما يفسـدها أو يحجبها عجزه عن التعبير باللغة العربية . ودخل على فيفى ورد الباب وراءه ، فارتدت الأم راجعة وكانت تشتهى أن تكون حاضرة وهو يفحص ابنتها وقرة عينها وحبة قلبها

واستمر الفحص نحو نصف ساعة فكادت الأم تجن وأيقنت أن الأمر أخطر مما كبر في وهمها إلى الآن . فلمـا خرج الطبيب خفت ناهضة اليه وقد ارتسم القلق والفزع على وجهها وفى عينيها

وقالت له وهى تتناول طيتى سترته بكفيها وتشده منهما : « طمئنى يا دكتور »

فقال بلهجة الجد ما معناه : « اطمئنى على كل حال ولـكن هذا المرض جديد علىّ . لم أتول علاج مثله من قبل . ولست أعرف إخصائياً لهذه الحالة المعينة سوى رجـل واحد يجب أن تبعثوا إليـه وتستقدموه »

فدهشت الأم وقالت : « مرض لا تعرفه أنت ! »

قال مبتسما : « أعرفه ولـكنى لا أعالجـه ... علاجه عند غيرى »

فسألته : « ما هذا المرض ؟ ما اسمه ؟ »

قال : « أما المرض فأعراضه كثيرة : اضطراب، خفقان ، حالات متناقضة من النشوة والكآبة ، والسرور والحزن ، تارة يكون المريض أصح من مصارع ، وطوراً يكون كالذي أجريت له عملية جراحية تركته أصفر باهتاً وضعيفاً متهافتاً كالورقة المبلولة ، حالاته وأطواره غريبة وشرحها يطول . وأما اسمه فلا أعرفه بالعربيــة ولـكنه بالفرنسية « مال دامور » ، عجّل باستشارة هذا الرجل وثق به واطمئني إلى النتيجة »

وخرج ومعــه زكريا وقال له فى السيارة : « يا صاحبي هذه أول مرة أرتكب فيها هذه الخديعة ولا أدرى كيف أطعتك . ولولا أنى أعرفكم من زمان طويل وأعدكم كأبنائى لما كان ممكناً أن أجاريك فى هذا العبث ... والآن أرجو أن يكون هذا آخر عهدى بهذا الموضوع وإن كنت أحب أن أطمئن على النتيجة »

وبينما كان زكريا فى طريقه إلى حمادة ليجيء بهذا الاخصائى فى مرض (المال دامور) كانت الأم تحاول أن تتذكر هذا الاسم الغريب الذى لم تسمع به قبل اليوم . ولما كانت لا تعرف لغة أجنبية فان لها العــذر إذا كان الاسم قد طار وأعياها أن تقتنصه .

وجاء الطبيب الاخصــائى مع زكريا ودخلا على الأخت التى كانت تنتفض من الاضطراب والفرح والخوف ، وبعد قليل تركهما زكريا ورجع الى أمه

وما لبث الاخصائى أن خرج فتقدم الى الأم وأنبأها أن الحالة ميسورة العلاج جداً ولكنها تحتاج الى وقت وراحة تامة ...

فسألته : « لقد كان فى نيتنا السفر غداً »

قال : « هذا مستحيل الآن ... ربما أمكن بعد أسبوع أو اثنين ... تبعاً للحالة ... سأعود مرة أخري فى المساء »

وجعل يعودها مرتين فى اليوم — مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ، ولا يمكث فى كل مرة أكثر من دقائق . وظل الحال على هذا المنوال نحو أسبوع فقلقت الأم وتعبت فيفى — أتعبها الانتقال المفاجئ من الضحك حين يكون معها أخوها أو طبيبها إلى الجهامة والفتور المتكلفين حين تدخل عليها أمها ، إذ كلفها هــذا التمثيل جهداً شاقاً جداً وهذا فضلاً عن الاضطرار الى ملازمة الفراش

وأحس زكريا أن الأمر زاد تعقيداً لا سهولة ، وأن المخرج أصبح عسيراً . فليس كل المراد أن تبقى الأسرة فى الاسكندرية وأن يتيسر بذلك لقاء الحبيبين بل أن ترضى الأم بزواجهما

وقالت فيفى لأخيها يوماً : « وآخرتها ؟ »

قال : « الحق أقول إنى لا أدري »

قالت وهى تتجلد : « ألم يبق لهذا الرأس قدرة على التفكير ؟ »

قال : « اسكتى يا فيفى ... لا تزيدينى ألماً ... ما أردت إلا الخير وقد كانت النتيجة ماذا ... هذا الموقف الذى لا نعرف وجه الخلاص منه ... أقول لك أركي الأمر للمقادير ... عسى أن تفتح الباب الذى لا نراه الآن »

قالت : « إنى مستعدة أن أترك الأمر للمقادير

ولكن هذه الرقدة تطير عقلى ... أنقذنى منها على الأقل »

قال : « مسكينة ... »

وخرج يمشى مطرقاً ، ورأته أمه فأقبلت عليه وجرته إلى مقعد وقالت : « اسمع يا ابنى . هذا حال لم يبق لى صبر عليه ولا بد من استشارة أطباء آخرين ويحسن أن يجتمعوا هنا »

فريع زكريا وأيقن أن كل شىء قد فسد ولكن الخوف استحث خاطره فقال :

« لا تتعجلى ... إنك لا تعرفين الأطباء ... ليس كل طبيب صالحاً ... والأولى أن تسألى طبيبنا رأيه فيمن يحسن أن يستشار »

فقالت : « هذا ما كنت أنوى أن أصنع ... إذهب إليه وكلمه »

فذهب إلى الطبيب الروسى فتململ هذا وقال له :

« ألم أقل لك إنى لا أحب أن أحشر فى هذه الحكاية ؟ لقد اضطررتنى إلى الكذب وتضليل هذه السيدة الساذجة الطيبة القلب . ثم اضطررتنى أن أشير عليها بالاستعانة برجل ليس بطبيب وهذه جريمة أخرى ، واضطررت هذا المسكين أن يدعى أنه طبيب وهو ليس إلا طالب طب ... والآن تريد أن أدلك على على رجل آخر — طبيب فى هذه المرة — ليساعدنا على الكذب البغيض »

فقال زكريا : « ولكن المسألة ليست مسألة مرض ... إنها كلها فكاهة .. وأنت تعرف ضيق عقل السيدات مثل أمى ... تريد رجلا لبنتها يملك ضياعاً وعقاراً ... وهذا شاب فقير ولكنه صالح جداً ... يحب أختى وهى تحبه ... أما أخوها ... أكبر منها ... أقرر أن هذا الزواج يجب أن يتم لمصلحة الاثنين ... على الأقل يجب أن يتم الاتفاق عليه حتى يفرغ من الامتحان ... وأنا أطلب معاونتك على خير »

فقال الطبيب : « من رأيى أن أذهب إلى والدتك وأطلعها على الحقيقة كلها بصراحة »

قال : « إنك تنسى أن أمى من الجيل الماضى »

قال الطبيب : « قد تصغى إلىّ إذا كانت لا تصغى لابنها »

قال : « إنى أخشى غضبها وعنادها ولا أطيق أن أرى فيفى تتعذب »

قال الطبيب : « إن الفشل من هذا الطريق خير من النجاح من طريق الخداع ... ثم إنى لا أطيق أن أظل أخادع هذه السيدة الساذجة »

قال زكريا : « وما العمل الآن ؟ »

قال : « سأذهب إليها وأكلمها ... إنكم أيها الشبان لا تأتون البيوت من أبوابها أبداً ... تعقدون البسيط ثم تروحون تبحثون عن حلول مستحيلة ... لماذا تفرض أن أمك ستعارض حتماً فى زواج فيفى من هذا الشاب ... لماذا لم تقدمه إليها وتتركها تفطن إلى مزاياه على الأيام ... ؟ »

قال زكريا : « لأنى أعرف أمى »

قال : « بل لأنك لا تعرفها ... تتوهم أنك تعرفها وتبنى سلوكك على أوهامك ... تعال »

* * *

بعد أن قص الطبيب الحكاية كلها على الأم وهى واجمة من فرط الدهشة قال :

« لقد أدركت أن ابنك لا يعرفك ... هو يظن أنه يعرفك ولكنه مخطئ ... توهم أمك عنيدة

وأنك تجرين وراء المال ... وغاب عنه أنك لاتطلبين لابنتك مالاً بل رجلاً صالحاً ... لأنك تدركين أن الرجل الصالح لايقوّم بمال ، وقد أقنعته بخطئه ... غريب أن أعرفك أنا الغريب خيراً مما يعرفك ابنك ، ولكنه شاب وأنا رجل مجرب ... وأظنك توافقين على أن لى فراسة فى الناس ... والآن صار عندنا الرجل الصالح ... ولكنى أنصح لك بالتمهل حتى تختبرى هذا الشاب بنفسك وتعرفى أهله وتطلعى على سيرته ... على أنى كصديق قديم لكم أنصح أيضاً بوجوب الحرص على كتمان هذه الحكاية ... حكاية المرض والطبيب إلى آخر ذلك لئلا تدور على ألسنة الناس وتصبح مادة للسخرية منكم ... ولا أدري كيف أعتذر لك عما كان منى ولكن حبى لكم هو الذى أفقدنى الرشد لحظة ندمت بعدها أشد الندم ... على كل حال أرانى تداركت الأمر وأصلحت ما اشتركت فيه من الغلط ... سامحينى ... وإلى الملتقى »

ولما أقبل ابناها يعتذران إليها بعد أن انصرف الطبيب ويطلبان الصفح لم ترد على أن قالت :

« خوف الفضيحة فقط هو الذى يجعلنى أبلع هذا العبث منكما ... لقد كنت دائماً أقول إن الأخوين لا يكونان هكذا ... وكنت أخشى عاقبة ذلك ... لابأس ... الأمر لله »

ولكنها ما لبثت أن أحبت حمادة بعد أن عرفته ، فلما أنست فيفى منها الميل إليه سألتها عن رأيها فيه فقالت الأم وهى تقبل بنتها : « الحق أنك معذورة ... إنه آية ... فلتة ... الله يوفق »

ابراهيم عبد القادر المازنى

حذار! إنك مراقب

لجوزيف بلاكيرد
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

كان موعد العشاء فى مطعم كلاردج قد حان ، وهو ذلك المطعم الفخم فى غرب لنــدن ، فى حى وستمنستر الشهير ، يطل على نهر التيمس وميدان الطرف الأغر ، ويسمع رُوّاده دقات (بيج بن) وهو ناقوس كبرى ساعات العالم . وفى أحد أركان قاعة الطعام وراء أحد الأعمدة البيضاء المموهة بلون الذهب ، جلس رجل من الطاعمين يرقب الموائد الأخرى ويسترق النظرات إلى الجالسين ، ويأخذهم ببصره وهم لا يرونه ؛ ينظر إليهم ويدرس حركاتهم وسكناتهم وهو فى نجوة من أنظارهم . وكان الرجل ضخماً ، ذا عينين خبيثتين قد أخفاهما وراء عوينات من الزجاج الأصفر القاتم ، وله من ورائهما نظرة ماكرة . وقد جلس أشبه شىء بالسنور الوحشى ، يفتل شاربيه تارة ، وطوراً يمشط

تعريف بالقصة

جوزيف بلاكيرد من كتاب القصة القصيرة المروعة ، وهو نوع من الرواية الحديثة ، اكتسب حق الاقامة فى مدينة الأدب . وليس كله وهما ولا خيالا ولا تسلية ، فكثير منه مؤسس على فكرة ورأى ومعرفة عميقة بأطوار النفس البشرية . وكان ستيفان زفايج ، أحد أدباء الألمان العلماء المنتمين إلى أحد الأجناس السامية ، قد وضع قصصاً فى وصف الخوف والغيرة والهوى ، تطبيقاً على مبادئ أستاذه سيجموند فرويد ، فلقيت نجاحاً لاستوائها على أسس من الحقيقة الثابتة والأمور المشاهدة . وقد تناول جوزيف بلاكيرد فى قصته « حذار إنك مراقب » التى نشرت فى سنة ١٩٣٦ موضوعاً مما له علاقة بعلم النفس المرضى وعالجه بمهارة فائقة ولم يغفل جانب العواطف والاجتماع فجاءت القصة حائزة لشروط التوفيق الفنى من حيث العقدة والحبكة وتناسب الأجزاء وتحليل النفسيات الغامضة

بأنامله المرتجفة لحيته الكثة السوداء ، التى كانت لا شك مستعارة

فلما تقدم إليه الخادم بصحن اللحم الغليظ وقنينة الجعة ، ووضعهما أمامه ، وهم بالانصراف ليباشر خدمة غيره من الآكلين استمهله الرجل بإشارة من يده ، ثم أخرج من جيبه ورقة مالية وست رقاع ، وراح يقول للخادم فى صوت خافت :

— أترى هذه الورقة المالية؟

فأطرق النادل بإيماءة الايجاب : أى نعم أراها ياسيدى

فأشار الرجل الغامض إلى ناحيات المطعم فيما وراء العمود الذى اختفت فى ظله مائدته وقال للخادم :

— أترى هذه الموائد الست المرصوصة بجانب الحائط ؟

فالتفت الخادم إليها ، فرأى إلى مائدة منها يجلس رجل منفرداً ، وعلى المائدة الثانية رجلان ، وإلى كل من الموائد الأربع الباقية قد جلس رجل وامرأة

فقال الخادم : وماذا تريد ياسيدى من هؤلاء الأضياف ؟

قال الرجل : أريد أن تذهب إلى كل مائدة

منها فتضع رقعة من هـذه الرقاع أمام الجالسين وتقول : « من صديق ! » ثم تعود إلىّ وإليك هذه الورقة المالية تنعم بها ، أفهمت ؟

فنظر الخادم حوله وهو خائف من عين صاحب المطعم تبصره ، وهو من نظرات الرجل الغامض أخوف ... فلما اطمأن تناول الورقة المالية والرقاع وتولى مسرعاً ليربح المال الذى فى يده ، وراح يوزع الرقاع ، وجعل الرجل يراعيه ويرقبه وهو يمشى من مائدة إلى مائدة

* * *

كان جورج أديكت دراج انجليزياً عائداً من المستعمرات ، وقد أدمن التخدير بالأفيون ، ذلك النبات الرهيب ، باعث الألم واللذة . ولم يكن يفقه معناه حين سمع اسمه ، إلا كن يفقه معنى المن والسلوى . وكيف له بفهم ما لم يحط به علماً ؟ أما الآن ، بعد أن مضى عليه عشرون عاماً فى نعيمه وجحيمه فما أعجب معنى هذا الاسم وأغربه ! وما أقرعه فى فؤاده لأوتار الحزن تارة ، ولأوتار السرور طوراً ! وما أبعثه لأليم الذكرى مرة ، ولذيذها أخرى !

وكان جورج أديكت دراج لا يزال يذكر ذلك اليوم الذى فتحت له الأقدار فى آخره باب الفردوس والجحيم

كان العصر قد دنا فى مدينة كلكتا فى موسم « المونسون » والجو ممطر مكفهر ، وليس فى طاقة الأرض أن تعرض منظراً أبعث للانقباض والكآبة لعينى أعزب مهذب من ذلك اليوم الهندى العبوس القمطرير ، فصادف فى سبيله ، وهو فى أشد حالات الأسى والسويداء ، دكان عقاقير ، وكأنما استحسن صاحب الدكان أن يقاسم الجو فى عبوسه وكآبته ، فتراءى لجورج أديكت دراج أبلدَ ما يكون ، وأثقل ما يُنتظر ؛ فلما أن طلب منه الأفيون أعطاه إياه ، ومن الروبية التى دفعها إليه رد دراهم مضروبة من النحاس قد أخذها المقارى بيده من صندوقه الخشبي . فتحول جورج عن بائع المخدر ولم يصبر عن ازدراده حتى يصل إلى ناديه أو مسكنه ؛ وشعر بعد برهة بتلك اللذة الثابتة المقيمة التى توهم أنها أدخلت على ملكات ذهنه الأسير أتم النظام والترتيب والائتلاف ؛ وأحسّ فى ظلمات نفسه الحزينة الولهى بشىء يشبه الضياء الساكن السوىّ . وعادت إليه تلك الحالة التى يسترجعها الذهن عقب خلاصه من برحاء آلام طالما حاربت نزعات نفسه ، وأخلَّت بميزانها . وهكذا قيَّد جورج أديكت دراج اسمه فى سجل المدمنين . فلما عاد من الهند إلى لندن ، وهى مسقط رأسه ، لم يستطع الفكاك من أغلال تلك العادة . وقد ألف أن يتناول العشاء فى مطعم كلارديج بعد أن يكون أدخل السكينة والطمأنينة والاعتدال على ملكات نفسه بجرعته المخدرة ؛ وكان فى تلك الليلة يشعر كأنه نشط من عقال ، وقد عهد الأفيون مورثاً للخفة والنشاط ، ولطالما حداه إلى الملاعب والأسواق فاغتبط بجولاته ثَمّتَ ، وكان اغتباطه فى تلك الليلة مضاعفاً بفضل ذلك السم الذى ابتلعه ، فجلس يأكل وحيداً ، لا صديقة تؤانسه ولا رفيق يؤاكله ، وكان فى بزة نظيفة على طراز هواة الأفيون يلوح عليه أنه من الخاصة ، ويأنف أن يمس النسيم شعرة من رأسه . فلما التقط الرقعة من فوق المائدة تصفحها فى لهفة ،

فبدا عليه الخوف، وظهرت فى وجهه دلائل الجزع، وجعل يشد على شفته العليا بأسنانه يريد أن يمنعها من الارتجاف

* * *

وعلى المائدة الثانية يجلس رجل وامرأة، فلما وضع الخادم بين أيديهما الرقعة، كانا فى شغل شاغل بحديثهما عما حولهما، فلم ينتبها للخادم وهو يضعها. وكان الفتى اسمه ڤيكو واسم الفتاة يبليس [1] وهما فى مقتبل الشباب، وكانا حديثي العهد بالحب. ومن سُنَّة الطبيعة أنها منحت الشباب للبشرية ليكون باعثاً لها على الولوع بمحاسن الجنس، حتى تصبح هذه المحاسن فى عينها أجلى مظهر لروح الجمال، حتى إذا انقدحت بين الفتى والفتاة شرارة الحب الصحيح لم تزل تعظم حتى تشمل أشعتها جميع الخلق وتضىء الكون أجمع بسناها الباهر. كان يبدو على الشاب أنه طالب علم فى إحدى كليات جامعة لندن، أما الفتاة فلم تزد على أن تكون ريفية من يوركشير لم ينقض على ورودها شاطىء الحياة أكثر من شهر، فلا تزال نضارة الخضرة وطراوة الماء وجمال المروج الزمردية، وصورة السعادة البيتية ماثلة لذهنها. ولكنها كانت ثرثارة ونهمة فى الحب نهمها فى الطعام والشراب، كما كان فتاها جائعاً محروماً من الاثنين معاً، ولذا بدا أصفر الوجه بلون العاج هزيلاً ضاوياً، وتجلت هى غضة بضة هانئة هادئة، لولا حركة لسانها الذى كان كبندول الساعة لا يفتأ ذاهباً جائياً، رائحاً غادياً، بين شدقيها الرقيقين المطاطين

* * *

وكان الرجل الجالس إلى المرأة فى المائدة الثالثة ممسكا بيدها يلاعبها ويشدها خفية تحت غطاء المائدة وقد اشتبكت أقدامهما والتفت ساقاها كأنهما لا يصبران على الاتصال فترة العشاء الوجيزة. فلما قرأ الرقعة الموضوعة أمام عينيه ويده لا تزال فى مكانها، أفلت يد صاحبته من يده بسرعة كأنما يفلت من يده قطعة من الحديد محماة على نار مشعلة لذاعة. وكانت الكلمات التى احتوتها الرقعة هى: «حذارِ إنك مراقب!» فسحب الرجل ساقه وقدمه من مكانهما الدافئ، ودفع إلى جليسته بالرقعة وهو يرسل ضحكة عصبية مضطربة ... فتأملتها قليلاً ثم قالت فى هدوء تام: ألهذا أفلتّ يدى وسحبت رجلك أيها الغلام الجبان؟ والله إنك أبله! وماذا علينا لو كنا مراقبين؟ فضحك الرجل ضحكة أخرى أشد عصبية واضطراباً من الأولى وأجاب متشجعاً: لاشىء حقاً! فى صحة الحب نشرب، ورفع الكأس فاشتفها؛ وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها وعادا إلى اشتباكهما السفلى

* * *

على المائدة الرابعة جلس رجل وسيدة من أهل الشمال، وكان الرجل عابساً مقطباً كأن به مللاً أو سآمة. فلما قرأ الرقعة استضحك وقال لصاحبته التى تؤاكله: ليت شعرى من منا المقصود بالذات بهذا التحذير يا ماتيلدا العزيزة؟ يلوح لى أن شرلوك هولمز فعل ذلك لكى يفهمنا أن لندن فى عاداتها وآدابها غير منشستر نقيضاً نقيضاً!

فأجابت المرأة: إنها لفكرة جميلة من مستر هولمز ليخيل إلينا أننا فى فصل من رواية شرطية!

(١) يبليس اسم يونانى الأصل معناه غصن

فضحك الرجل وقال لها : وإننا كما تقولين ، فان ذلك الوغد برلسكو لقادر أن يبيعنا الأسلحة ، ثم يغرى بنا سكوتلانديارد [١] ، ليصادرها فنعاود الشراء منه ، ونحن لا نعلم أنه المصدر المجهول المتصل برجال الخفية اتصالا وثيقاً

فقالت ماتيلدا : ومتى كان شراء الأسلحة بالجملة محظوراً فى هذه البلاد ؟ أهى نقود مزيفة أم بضائع مهربة ؟ فقال : التجارة حرة فى بلادنا ، ما فى ذلك شك ، ولكن أسلحتنا لا تحمل علامة المصنع الذى يخرجها وقد عثر المحققون عليها فى كل حادثة من حوادث القتل التى وقعت فى برمنجهام وليفربول ومنشستر لثلاثة أعوام منصرمة . فما قولك فى هذا الدليل علينا بأننا نشارك الجناة بالمساعدة والاتفاق ؟

أجابت : إنه ليس دليلاً ، ولكن قرينة حال ، حتى ولا قرينة ، بل شبهة ، والشبهة قد تعلل بالمصادفة أحياناً . لسنا مسئولين عن كل سلاح نارى لا يحمل علامة المصنع . لو أن كل قتيل ممن ذكرت كان يحمل على جبينه أو معصمه علامة المثلث المزدوج وضبطت أداة الدمنة فى حيازتك أو حيازتى ، إذن لحق القول علينا ، ولكن السلاح وحده لا يكفى ، ولا يثبت المشاركة

— قد تكونين على حق ، ولكنك بلا ريب جريئة ، أنصبر على أنفسنا حتى تضبط لدينا الدمغة والأسلحة ، ولا نتعظ بهذا التحذير الذى صادف وقته ...

(١) إدارة الأمن العام والبحوث الجنائية ووكر التجسس الانجليزى

— ومن يدرينا أنه ليس استدراجاً واستطلاعاً من أحد خصومنا يريد أن يتثبت من شىء وينظر أن يبدو علينا ما يؤيد ظنونه ليبطش بنا ، فما علينا إلا أن نظهر الثبات والتؤدة وعدم الاكتراث بتلك الرقعة الفاترة

— كيف يكون الثبات فى لندن ، وفى مطعم كلاريدج ؟

— كالثبات والبرود فى منشستر وفى مطعم ليونز حذوك النعل بالنعل . إبدأ بتمزيق الورقة شذر مذر أو أشعل بها غليونك ثم اشرب كأسك واضحك بقهقهة عالية

فتشجع الرجل وأجاب : الحق بيدك دائماً ، فنى صحة المثلث المزدوج والسلاح الغُفل من ماركة المصنع نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها

* * *

وعلى المائدة الخامسة جلس رجل وامرأة . فلما قرأ الرقعة راح يقول لها وهى إزاءه :

— أدب رائع من هذا الرقيب المجهول ، ولكنك تعلمين أنه كلما بادر زوجك إلى إدراك سرنا استطعت أن تتخلصى منه وتروحى طليقة

فقالت : وما بالك لا تخشى فضيحة المحكمة وشهود الاثبات ؟ ألأنك رجل تضمن إعجاب الرجال بك وتنسى ما ينتابنى من التشنيع وهتك أستار حياتى الخاصة

أجاب : حياتك الخاصة ؟ بل حياتنا . أقرأت فى صحيفة قضايا الطلاق اسم امرأة غير مقترن الى اسم شريكها . وماذا علينا إذا لم يتمكن زوجك من

مفاجأتنا متلبسين فى بيت الزوجية المحترم ، وهذا ما لن نقع فيه أبداً ، فالخير كل الخير فى الفنادق والسيارات !

— وأهلى وعشيرتى وأصدقاء أسرتى ؟

— أهلك وعشيرتك وأهلى وعشيرتى ؟ كلهم يفعلون ما نفعل ويستترون ! قد يكون فى مسلكنا بعض الاستهتار ، ولكن الناس لا يحقدون على العشاق لأنهم يستوون فى الهوى ، ولأن الدنيا تكره الوقار

— الحق بيدك . فهذه مسز تريفلان على جلالة قدرها وضخامة اسم زوجها وشهرة أبيها ، لم تخف غرامها بسائس خيلها بعد المصارع جيمى واللاكم دوجار . ولادى كويفر التى كانت معروفة بالتقوى وغشيان الكنيسة فى كل أحد من آحاد السنة ، فرطت فى عرضها لذلك الشاعر المفلوك كويكر ، وعرضت شرف أجدادها وأسلاف زوجها لسخرية الشهود والمحامين والقضاة والجمهور الهازئ ، وهى لا تؤمل أن تتزوج منه ، ولا تطمع فى حمل اسمه الحقير ، بعد أن حملت اسم زوجها النبيل عشرين سنة كاملة

أجاب : الآن تتكلمين عن عقل وتصدرين عن منطق . ألم تقولى فى أول حبنا : من راقب الناس مات غمًّا ، ونصحت إلى أن نفوز باللذات . أنصبر حتى نكتهل خشية العار المزعوم ، وما رأينا أحداً يخشاه سوانا ؟ العالم كما كان ... اقتناص المال واللذة

فقالت : ولكن بربك قل لى : من يكون ذلك الحذر اللبق ؟

أجاب : لعله البصاص الذى دفعه زوجك ، ودفع له — ليراقبنا — أجره الرفيع ، وقد خانه !

فقالت : ولم يخونه وهو مأجور منه ومدسوس علينا ؟

أجاب : لعله أشفق علينا أو استثقل ظل زوجك . إن مجرد عاطفة حنان نحونا ، أو اكتشاف حقيقة زوجك ، وأنه أكبر نطع فى الإمبراطورية ، كاف لتحويل دفة الجاسوس من العداء الخفى إلى المحبة الظاهرة . من يدرى ؟ لعل الجاسوس هو نفسه عاشق امرأة متزوجة وهو يؤاكلها الآن ويشرب معها كما نشرب

— وهل تراه ينفق مال زوجى فى خديعته فيحظى بحب امرأة ويحذرنا فى وقت واحد ؟

— نعم ... نعم يا عزيزتى ، فيضرب طيرين بل ثلاثة أطيار بحجر ، فماذا علينا لو كنا مراقبين ؟

فتشجعت صاحبته وقالت : لا شىء حقًّا ، فى صحة الجاسوس الرحيم نشرب . ورفعت الكأس فاشتفتها ، وفعل الرجل مثلها فاجترع كأسه

***

ولما قرأ الرجل الجالس إلى المائدة السادسة قال لصاحبته مغضباً :

— أرأيت ما كان أغنانا عن الدخول فى مطاعم الطبقة العالية ؟ وما لنا والجلوس فى هذه المطاعم الفخمة ؟ لقد رآك وحق السماء صاحب المطعم وأنت تلتهمين الفاصولية بالسكين ، وتلتقطين الحب المنتثر فوق غطاء المائدة فترمينه فى فمك كالطير ، ثم تلعقين أصابعك وتكادين تلعقين الوعاء كأنك موكولة بتنظيفه وتنقيته من بقايا الإدام ... ! وتشربين الأقداح حتى الثمالة ، فتمود الأطباق والكؤوس

فارغة ، فأرسل إلينا بهذا التحذير الغريب . ألا ترمين بالسكين جانباً ، وتأخذين الفاصولية بالشوكة وتغنينا عن هذه الفضيحة الصارخة ؟

فقالت : كأنك أنت وحدك الحديث النعمة ، لم تصبك الثروة إلا من أرباح الحرب ، فتخشى انتقاد أصحاب المطاعم وهم لا يبلغون شأو الخدم في قصرنا . ومَن من طبقتنا أتقن الأكل بالشوكة والسكين كما أتقناه ؟ ألم نأخذ دروساً خصوصية على يد بريدج ذلك الجرسون الماهر في مطعم والدورف ؟ لقد تكسرت أناملي حتى تمكنت من تلك الطريقة المؤلمة التي تحتم الضغط بالسبابة ورفع البنصر والتواء الخنصر وتصويب أسنان الشوكة إلى الشواء وحزه بالسكين بمنتهى الأناقة ، ولكن لماذا يذهب ذهنك إلى نقص في أدب المائدة ، ولا يذهب ذهنك إلى تزوير دفاترك ، لتجعل الدخل أقل مما هو ، حتى توفر مبلغاً ضخماً من ضرائب الايراد ، فتبعث إدارة المكوس وراءك من يقبض عليك بتهمة خيانة الخزانة العامة ؟ ليس أكل الفاصولية بالسكين جريمة ، ولكن سرقة مال الدولة بعد استلاب مال التموين هو الجريمة الكبرى والطامة العظمى .

فامتقع لون الرجل ووقعت الشوكة من يده .

وقال : يالك من منذرة بالسوء ! ألا تخشين أن يكون الرقيب متسمعاً ؟ إن دفاتري دقيقة ، وقرينة الصدق والحقيقة . ومن لم يقل لك ذلك فقد خدعك ، حتى ولو كان أخاك ذلك الحوذي اللئيم الذي رفعته إلى رياسة المحاسبة في متاجري .

— قد يكون أخي حوذياً كما تقول ، ولكنه لا يشي بك ؛ وإن وشى بك فلأنك بلا شك تستغل مواهبه وتظلمه ولا تقدره قدره

— أنا ؟ أستغل مواهب ذلك القدم الذي لا يعرف الفرق بين الصفر وشراع السفينة ! سأطرده غداً في أولى ساعات العمل . سأرسل به إلى حيث ينتفع بمواهبه ، إلى اصطبلات هوايت شابل ، أو مرابط الخيل في دربي شاير . سيجني أخوك يا حلوة الشمائل ثمار أعماله وأقوالك ... بئس الصهر هو ، وتعساً للنسب الذي يجر وراءه الفضيحة والبلاء والنميمة والوشاية يتلوها الوعيد والغدر !

— كل هذا يا جاك لأنني أكلت الفاصولية بالسكين ؟ أم لأنك تحمل هم الحساب العسير بعد العشاء . والله ، لقد كرهتني في الغنى المفاجىء ! أنسيتَ إذ كنت عاملاً ، وأنا موظفة صغيرة ، نُنقد أجرة الأسبوع مساء السبت لنستريح يوم الأحد ونشارك أبناء طائفتنا الضراء والسراء ونوامي أهلنا ؟

— لا جرم أننا لقينا آنفاً من آلام الفقر أكثر مما أود أن تذكريني به . وأما مسرات الفقراء وآمالهم ودواعي عزائمهم وسلوتهم واستراحتهم من الجهد والنصب ، فانها ما لا يمكن أن يقاس بما نحن فيه من النعمة .

— إذن وجب عليك ألا تتخذ من سعادتك الحاضرة وسيلة لإلحاق الأذى بأقرب الناس إليّ . وإلا ...

— وإلا .. ماذا ؟ أتمي كلامك . فاني لا أتحمل تهديدك .

— وإلا فإنني أكون المبلغة عن دفاترك وغيرها .

— أنتِ ياصلماء ؟ أتحسبين جاك مكدوجال يبيت فى أحضان حية مثلك وهو أعزل ؟ لقد أعددت لك أدلة مادية تزج بك فى أعماق السجون . فأتتدى بك قبل أن تتعشى بى . فذعرت المرأة ولكنها لجأت إلى الحيلة . فضحكت ضحكا عالياً . وقالت : لعلنا نندم على مادار بيننا ؛ وقد نكون واهمين فى مخاوفنا مبالغين فى تقديرها ولم يصبنا سوى مرارة الأنفس من رفع القناع عن عواطفنا التى كانت مبرقعة وقابعة في حنايا أضلاعنا . . وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فتشجع صاحبها وأجاب : لا شيء حقاً ، فنى صحة الفقر القديم والغنى الطارىء ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها .

* * *

هذا ، وكان الرجل الغامض صاحب هذا التدبير ، القابع وراء العمود الأبيض يرقب رقاعه وقارئيها فى لهفة ودقة بصر ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما دار على الموائد ، لأن الذين قرأوها لم يلبثوا أن وضعوها جانباً فوق الموائد ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من الأكل والسمر ، إلا جورج أديكت دراج الجالس إلى المائدة الأولى وهو مدمن الأفيون فقد بدا عليه من دلائل الاضطراب والجزع ما بدا . ثم راح يلتفت يمنة ويسرة وهو فى أشد حالات الخوف وشفتاه ترتجفان ؛ والتقط الرقعة مرة أخرى فقرأها ثم وضعها فى خوف ووجل ، ورفع يده إلى جبينه ونظر إلى الجلوس ثم لم يلبث بغتة أن استوى واقفاً كأنما طعن فى صدره ، فجاءه خادم المطعم مسرعاً فقال له : علىّ بقائمة الحساب ! أسرع ! وقدحاً من الكونياك . ولم يتم كلامه حتى نهض من مجلسه ثانية . وإذ ذاك التقت نظراته بنظرات الرجل الغامض صاحب الرقاع ، فعاد إلى الجلوس كأنما قد خانته قدماه وخذلته قواه ومضى يصرخ على الخادم : أسرع ! الحساب وكأساً من الكونياك .. كأساً كبيرة من الكونياك ، ثم الحساب ! هلم ! أسرع . فلما جاء الخادم إليه بالحساب والشراب أطلع من جيبه رزمة كثيفة من الأوراق المالية التى جلبها من الهند ، ورمى للرجل بالحساب والبقشيش متعجلاً ، ودفع ببقية أوراقه المالية إلى جيبه مسرعاً وهو يطبقها تطبيقاً ويلويها ليا عنيفاً ؛ واشتف الكأس دفعة واحدة وخرج من المطعم متعثراً يحمل رجليه حملاً . وكان جورج أديكت دراج قد هجر الخمرة من زمن طويل ، منذ تعود الأفيون ، لأنه أنف اللذة المتولدة من الخمر التى عهدها نشوة تدريجية لا تزال فى سرعة حتى تبلغ القمة ، ثم تأخذ تنحدر وتهبط فكأنما هى لهيب مضطرب يشوش الذهن ويشل الإرادة ويسلب ضابطة النفس ، ويحدث اختلالاً فى ملكة التمييز والحكم . ولكنه شرب الكونياك مرغماً مضطراً ليعينه على مقاومة الخوف والاضطراب

ورآه الرجل الغامض فدفع حسابه للخادم ، وتناول قبعته ومضى من المطعم وأدرك جورج أديكت دراج وهو فى أشد اضطرابه أن الرجل الغامض يطارده فعدا وهو متخاذل القوى إلى سيارة مأجورة ، ولكنه ما كاد يستوى فى مجلسه منها حتى أبصر من خلال زجاجها وجه الرجل الآخر ينظر إليه ، فصرخ صرخة رعب شديدة وقفز إلى إفريز الطريق وانطلق يعدو صوب إحدى حدائق النزهة ، ومشى الآخر فى أثره يتبعه فعدا يريد محطة الترام ، ولكنه ما كاد يعطف في الشارع حتى

رأى ذلك الرجل واقفاً أمام حانوت بدال ، فانسل مسرعاً حتى بلغ المحطة ، وابتاع تذكرة ووقف ينتظر القطار ، وقد ظن أنه أفلت من ذلك الرجل الذى كان يتبعه ، ولكنه لم يكد يلتفت وراءه حتى أبصر به واقفاً فوق إفريز الشارع يبتسم ابتسامة شنيعة وهو يفتل شاربيه المشوشين ، فخالس الرجل حتى إذا ظن أنه لا يراه انفلت من فتحة هناك فى جانب الطريق إلى المحطة ، وكان القطار متدانياً ، فكبر أمله وتشجع قلبه ، ولكنه ما كاد ينظر إلى اللوحة المعلقة فوق الجدار وهى: — القطار الأول لا يقف بهذه المحطة — حتى تولاه اليأس مرة أخرى ومات الرجاء ، والتفت فأبصر الرجل المخيف وراءه يبتسم ابتسامته المرعبة ، فاشتد قنوطه ، وحاول أن يندفع صوبه ويصيح به : « أسألك بأى حق تطاردنى ؟ » ولكنه عاد نخشى أن يتعجل الحوادث وصبر على جمر حتى أقبل القطار التالى الذى يقف بالمحطة فوثب إليه وهو يكاد يسقط . فلما استقر به مكانه فى المركبة ظن أن الرجل قد ابتعد عنه وأنه قد أصبح فى نجوة من تعقبه . ولكنه إذ وقف القطار ونزل منه لمح الرجل ينزل من المركبة الأخرى فعاد فوثب إلى القطار مرة أخرى وهو فى أشد حالات الرعب ، وجعل فى كل محطة يحاول النزول ، ولكن خوفه من أن يكون الرجل الذى يطارده فى القطار جعل يمسكه عن النزول ، ولكنه إذ بلغ محطة بعيدة عن المحطة التى كان ينبغى أن ينزل عندها بحكم التذكرة التى ابتاعها ، لم يجد مطارده فى غمار الركب والجمهور المزدحم عند الأفريز ، فمشى إلى باب المحطة مسرعاً حتى وصله قبل المسافرين ، فاطمأن قليلاً واعتزم أن يتخذ القطار للمكان الذى يقصد إليه فى ريتشموند ، فابتاع تذكرة من الشباك وانطلق مسرعاً يريد الركوب ، ولكنه ما كاد يخطو خطوات قلائل حتى أبصر الرجل الغامض قد ابتاع تذكرتين إلى ريتشموند ، فاشتد به الجزع ، واستولى عليه القنوط ، فدلف نحو الرجل وقال بصوت مرتجف ووجه مرتمد : « بحق السماء تنبئنى ياسيدى ماذا تريد منى ؟ أتريد مالاً ؟ » فنظر إليه الرجل الغامض بعين ماكرة ونظرة خبيثة وقال : « لم يضرب إلى الآن المال الذي يستطيع أن يُغرى مثلى بترك واجبه »

فاه بهذه الكلمات بكبر وخيلاء ونظر إلى الرجل نظرة سطوة وعزة ، وكأنما أراد أن يسمع الجمهور الذي حوله تصفيقاً له على ما قال ، وإذ ذاك عاد المسكين يسأله : « إذن فما الذى تريد منى ؟ ومهما يكن فافعل ما تريد منى فوراً ، بلا تردد ! » وإذ ذاك رفع يده تضرعاً وعاد يقول : « افعل بى ما شئت ياسيدي حالاً ولا تتمهل ! انقذنى من ألمى ومخاوفى »

فابتسم الرجل الغامض وأجاب : لم يحن الوقت بعد ! الناس حولنا كثيرون ، والطريق غاصة بالسابلة . إنك تستطيع أن تقاوم بضع ساعات

وهنا كان قد وصل القطار ، واندفع الناس صوب الإفريز يطلبون ركوبا ، فالتفت چورج أديكت دراج وراءه فرأى شرطياً يمشى ثمَّت ، فهرع إليه وهو يصرخ : أنقذنى أيها الشرطى ، إن إنساناً يطاردنى . فنظر إليه الشرطى ملياً ببرود نادر المثال

ثم قال : خلِّ عنك أيها الرجل وسر هادئاً إلى بيتك وخذ فنجاناً من الشاى ثم ادخل سريرك ، فإن الشاى والنوم كفيلان بأن يذهبا عنك سكرتك

فصاح جورج باكياً : كلا ! لست فى صرعة شراب ، إنني مطارد ! إن رجلاً يطاردنى . قال الشرطى : هل تريدنى أن أقبض على أحد ؟ قال جورج مرتمشاً : نعم أريد أن أسلمه إليك . فأجاب الشرطى : إذن فأشر إليه ودلنى على مكانه من غمار هذه الجماهير ، فنظر جورج أديكت دراج حوله نظرة ذهول ورعب لا يُقدران ، والناس متدفعون من المحطة ولم يكن الرجل اللعين فى غمارهم . فقال الشرطى ضاحكا : ألم أقل لك إن الشراب لا يزال آخذاً بلبك ، خير لك أن تستشير طبيباً يداويك من علة الأعصاب : وما كاد الشرطى ينتهى من كلامه حتى أشاح بوجهه وولى المسكين ظهره وانطلق فى الشارع معرضاً

والتفت الهارب حوله فأبصر عدة زوارق عند ضفة النهر واقفة وأربابها يرتقبون عملاً فجرى جورج إلى أقرب رجل منه ، وألقى فى يده عشرة شلنات وصاح به : أسرع بى إلى أى مكان ، وسأخبرك بالجهة التى أقصد إليها بعد أن تتوسط بنا الماء ... هلم ... ادفع الزورق ...

ولم يكن هناك أثر للرجل المخيف ولكن ما كاد يجلس المسكين فى القارب وقد تملكه التعب فاستلقى على ظهره ، حتى أبصر عدوه الذى يطارده قد انحدر يطلب الركوب فى نفس القارب وقد وقف يكلم صاحب الزورق وسمع هذا يقول للرجل المخيف :

— معذرة أيها السيد فقد تعهدت لهذا السيد أن أروح عنه بنزهة صغيرة فى النهر مابه من تعب ولهذا لا أستطيع أن أسير بك ... فألقى الرجل الغامض فى يد رب السفينة ورقة مالية وقال : « لاضير ولا سوء من ركوبى ، فلن يحرم السيد نعمة النزهة ، ولعلك مستطيع أن تضاعف السرعة بنا فأجاب صاحب الزورق : إذا كان ذلك ، فهلم اركب ياسيدى . وانطلق الزورق بالرجلين ، فذعر جورج وحاول الكلام فلم يستطع ، ولكنه إذ استطاع أن يملك صوته جعل يقول : كيف اجترأت أن تركب معي فى زورقى الذى استأجرته ؟ وإذ ذاك جمدت الكلمات على شفتيه فلم يتم ، وكان الرجل جالساً بجانبه لا ينظر إليه كأنه غير شاعر بوجوده . فلما تكلم التفت إليه مبتسماً وقال : « لم يحن الوقت بعد للكلام » ووصل الزورق إذ ذاك إلى الضفة الأخرى فعدا جورج يطلب النجاة . هناك لاح بيت صغير فوق رابية ذات شجر ، وكان هذا هو المكان الذى يطلبه والدار الآمنة التى يعتصم بها لو أنه استطاع وصولا وهو يجرى ويلهث ويشهق ويزأر ويبكي ، لأن بينه وبين تلك الدار ثلاثة أميال . وهنا التفت وراءه فألقى الرجل قد حسر عن رأسه ووضع قبعته تحت إبطه ، وكان شعره يتطاير مع الهواء وشارباه مرتفعين فى الريح وقد اتسعت المسافة الآن بينهما ، والرجل الغامض الضخم قد تصبب عرقاً وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وأخذ جورج يسائل نفسه : أى أمر وأى جرم يخشاه ؟ وأية جناية ارتكبها ويشفق من الاعتقال من أجلها ؟

وكان الرجل الضخم على مسافة خمسين ياردة من فريسته ، ولكنه لم يستطع أن يقرب شيئاً من هذه المسافة ، وكأنما كانت الهمهمة المخيفة التى كانت تصدر منه وهو فى جهاده العنيف يطارد الهارب تدفع هذا المسكين إلى الأمام ؛ وأخيراً وصل جورج اديكت دراج إلى الدار وكان بابها مفتوحا فقفز إليه وعدا يصرخ طالباً الغياث ، ووصل الرجل الغامض بعده بفترة ، وأبصر من خلال باب الحديقة داراً مضيئة فصرخ صرخة ألمية ، وأدار وجهه وقد علته سحابة من الحزن ، ثم انطلق على آخر سرعة كأنما قد شطحت وراءه الشياطين تتبع أثره

قال جورج اديكت دراج للطبيب سكوايز فارمر فى حجرة الاستقبال فى تلك الدار وقد هدأت ثائرته قليلا : هأنذا قد عدت إليك ، فدعنى فى كنفك بحق السموات . دعنى فى حراستك ، لقد عادت إلىّ النوبة ، إن رجلاً يطاردنى . إن قوة مخيفة تجري فى أثرى ...

فجعل الطبيب يتفحصه ثم أنشأ يقول ملاطفاً : أؤكد لك أنك قد شفيت الآن من أوهامك وأخيلتك وتأثير العقاقير التى كنت ملحاً على تعاطيها لقد كان رعبك غريباً ، رعب المجهول والخوف من الغامض والبهم ، رعب الوهم والرعدة التى تسرى فى البدن من الخيال الذى تخلقه الأعصاب الضعيفة

فتشبث جورج بالطبيب خائفاً يرتعد وهو يقول: بالله عليك لا تطردني من مستشفاك ، دعنى أظل فى حراستك . فقال الطبيب مخففاً من آلامه : هوّن عليك ! سأذهب معك فإن هذا الحادث غريب طلى وسنعود غداً إلى مطعم كلاريدج ، ولعلى مستطيع أن أثبت لك أن ما رأيت اليوم كان حقيقة لا وهماً وواقعاً لا خيالاً

***

فى جلسة العشاء بذلك المطعم مساء اليوم التالى كان الرجل الضخم الغامض جالساً فى مكانه الذى كان يشغله ليلة الأمس ، وكان يرقب الموائد التى أمامه ، والرقاع نفسها ، رقاع المشية الماضية أمام مائدته ، وكان يلوح عليه الغضب ، وكان محنقاً لأن الرجل الجالس على المائدة السادسة كان موليه ظهره ، وكان الرجل جالساً وحده ، وفى المائدة القريبة منه جلس رجلان قويان شديدا الأسر ، وقد كان العاشقان اللذان كانا بالأمس فى شغل شاغل بالتغزل والنجوى والسمر عن كل شىء حولهما ، فى مكانهما الذى كانا يجلسان فيه بالأمس فلم يحفلا بالحادثة ، والخادم يضع أمامهما الرقعة . ولكن بدا على الرجل الجالس إلى المائدة السادسة أمارات الاضطراب ، فتحفز الرجل الضخم الغامض صاحب الرقاع فى مجلسه ، وتطاول ومد عنقه ليدري أثر رقعته فى معارف وجه الرجل ، فرأى الرقعة تسقط من يده وإذ ذاك نهض الرجلان الجالسان إلى المائدة القريبة ومشيا يريدان الخروج ، ونهض الرجل الجالس إلى المائدة السادسة وهو يتعثر فى أذياله مضطرباً راجفاً ، وهنا بدت على الرجل الغامض آثار السرور وابتسم ابتسامة خبيثة وأصدر صوتاً مخيفاً لعينا أشبه بهرير الكلاب ومشى فى إثر الطريدة . وإذ ذاك انقض عليه الرجلان القويان المفتولا السواعد وحملاه إلى

سيارة واقفة بباب المطعم وهو يصرخ ويرغى ويزبد وألقيا به مكتوفاً وانطلقت به السيارة عادية ؛ وعندئذ عاد الرجل الذى كان يتصنع الاضطراب والخوف إلى مائدته فاسترسل فى عشائه ، وإذ ذاك انضم إليه جورج إديكت ورفيق له

قال الرجل وكان هو سكوابر فارس طبيب الأمس لجورج اديكت : أرأيت يا صاحبى أن الرجل الذى يطاردك حقيقة لا شبحاً ولا خيالا ولا وهماً .. هذه رقعته التى تعود أن يكتبها : حذار ! إنك مراقب ! هذه هى الحيلة التى جعل بها يخرج الفيران من جحورها ، فعل الهرة بالفأرة . ذلك الرجل كان مريضاً وكنت أعالجه وقد مكث أشهراً لدىّ فى المستشفى . وتفصيل قصته أنه وضع قصة تمثيلية عن التجسس فى روسيا القيصرية ، فنجحت وربح من ورائها مالاً طائلا . وقد قام بتمثيل الدور الأول فيها وهو دور الجاسوس لجنى عليه النجاح والكسب ، لأنه لم يستطع منذ ذلك العهد أن يكف عن تمثيل دور الجاسوس فى الحياة ، وذلك بتأثير أخيلته وأعصابه . وهكذا مضى يخيل إليه أنه لا يزال جاسوساً ، وأنه لا يزال موكلا باخراج الفيران من مكامنها . فلما عالجته استأصلت العلة من أعصابه ، ولكن العلة مالبثت أن انتكست عليه فعاوده المرض ، ألا فاحمد الله أن هيأ لك عشية أمس أن تسبقه بيضع باردات فقد شفيت من مرضك الذى دهاك من إدمان المخدرات والعقاقير السامة .

يا غلام ! علينا بقائمة الحساب :

محمد لطفى جمعه

من لويس جولدنج

إيولاندا وفرنشسكا

أو الحسناء والخيال

بقلم الأستاذ دريني خشبه

كانتا توأمتين ، وكانت إحداهما تشبه الأخرى فى الخلق والخلق ، ويكاد يكون لهما قلب واحد ، ولب واحد ، وأسلوب فى فهم الحياة يجرى على نمط أهل الجنوب من هذه المملكة الجميلة ... إيطاليا

أما أبوهما ، الكونت دى سانت أجاتا ، فرجل محافظ نشأ فى أسرة من أعرق الأسر التى تترعرع منذ أجيال مع ورود الاپنين ، والتى يعطر تاريخها مشارف الجبال الضاربة حول نابلى

وماتت أمهما وهما ما تزالان فى المهد ، قبل أن يتما شهرهما السادس ، فعنى بهما أبوهما عناية كان يوزعها دائماً بينهما وبين كرومه التى ورثها عن أسلافه ، والتى كان يتمنى لو تصبح جنة من جنات بوردو[1] تجرى من تحتها أنهار من نبيذها المصفى

وانصرف الكونت إلى عمله ، وغره ما لقى من نجاح ، فاعتزل الدنيا العريضة الواسعة ، واتخذ من كرومه منفى اختياريًّا كان يشركه فيه ابنتاه الجميلتان . وهو لهذا كان ينقبض عن الناس ويعزف عن مجتمعاتهم ، ولا يبالى أن يكون شذوذاً فى جبلة البحر الأبيض المتوسط ومزاجه الذى من خواصه المرح والانطلاق

ولم يكن دى سانت أجاتا يقارف من الخمر ما يخرجه عن وقاره أو ينسيه حلمه واحتشامه بل كان معتدلاً حتى فى مآكله ... وكان وجدانه مشبوباً دائماً ، وكان لذلك يعيش فى عالم فسيح من أحلامه الشاسعة ، تزيد فى تهاويله ابنتاه الحبيبتان — إيولاندا ، وفرنشسكا — اللتان كانتا تخشيانه أكثر مما كانتا تحبانه

ولم تكن إحدى الفتاتين تعرف أنها شىء ، وأن أختها شىء آخر ، بل كانتا تحسان إحساساً عميقاً أنهما شىء واحد غير منفصل . فهما تأكلان طعاماً واحداً وتشربان شراباً واحداً ، وتتغنيان أغانى واحدة ... ولا يكاد يصيب إحداهما صداع أو نحوه إلا يصيب الأخرى مثله ، بل يبالغ العارفون فيذكرون أن الشوكة لا تكاد تصيب يد إحداهما ، وهى فى أول المزرعة حتى تتأوه الأخرى من ألم فى يدها وهى فى آخر المزرعة

ومضت عشرون سنة فلم يحدث أن افترق الأختان مرة واحدة ، بل كانت الشمس تشرق عليهما معاً ، ثم تغرب عنهما كما أشرقت ، وكأنهما نغمة خالدة متزنة فى سلم الوجود الموسيقى

ثم أصيبت فرنشسكا بمرض فى زورها أورثها آلاماً مبرحة ، فرأى أبوها أن يرسلها إلى نابلى ، عند واحد من أطبائها الجراحين ليجرى لها العملية اللازمة ، وكان طبيعياً أن تصحبها إيولاندا لتسهر

(١) مدينة فرنسية تشهر بأجود أنواع العنب وأفخر الأنبذة

عليها ، وتُمنى بها ... فما كان أعجب أن تصرخ من ألم شديد فى زورها هى الأخرى حينما كان الطبيب يُعمل مبضعه فى زور أختها ... بل كان أعجب من ذلك أن يسيل الدم من نفس المكان الذى كان ينبجس منه فى جرح فرنشسكا

تشابه فى الخلق يوشك أن يكون أسطورة ! !

بل هو أسطورة بالفعل ، أسطورة غريبة حقيقية !! وموضع الخرافة فى ذلك أنهما هما أيضاً كانتا لا تصدقان أنهما شخصان لكل منهما وحدته واستقلاله ، بل كان شىء من هذا لا يدور فى خلدهما مطلقاً . فليست مبالغة إذن ما رواه العارفون من أنهما حينما كانتا تتناديان لم تكونا تعرفان من منهما فرنشسكا ، ومن عسى أن تكون إيولاندا ؟ ! وفى معظم الأحيان كانتا تتبادلان الاسمين بسبب ذلك !!

وحُمّ الفراق بين الأختين فجأة ... وذلك أن نبأ محزناً ورد من سورّنتو يقول : « إن أباهما سقط من عريش عال بينما كان يعالج واحداً من كرومه ، فكسرت ساقه ، وأنه لا بد من وجود إيولاندا بجانبه ... » ولم ير الجراح مانعاً من الاذن لها بالسفر بعد أن طمأنها على صحة أختها ...

وكانت ليلة الوداع ليلة من ليالى الجحيم تأججت نيرانها وسط الجنة !! وكان عذابها مزيجاً عجيباً من اللذة المشوبة بالألم . المنضوحة بالدمع ، النْضَجَةُ فى جمرات القلبين اليافعين المعذبين

وكانت الأشهر الأولى غراماً[1] على نفس إيولاندا ، فقد شفى أبوها ، ولكنه كان شفاء أشبه بالنزع ... ثم تأخرت عودة فرنشسكا عن أجلها المضروب أسابيع عدة حتى ثارت الشكوك فى

نفس أختها عما كان يلفق لها من الأنباء عن نقهها المكذوب

ثم حدث الانقلاب الكلى فى حياة إيولاندا فقد لقيت فتى عريض الشباب ريان الإهاب فوق رُبى (أجيرولا) ، فدخلت من عينيه القويتين الساحرتين إلى دنيا باهرة زاهرة غير هـذه الدنيا التى يعيش فيها الناس

لقد رنا إليها الشاب ورنت هى إليه ، فأحست فى رأسها وفى قلبهـا بدوار شديد كالذى يحس به راكب البحر ... ووقع كل منهما فى فؤاد صاحبه ، كأنه دنياه ، وكأنه جنة أحلامه التى ليس له سعادة فى غيرها

وكانت إيولاندا ثمرة ناضجة قد حان قطافها ، إذ سلخت من الحياة عشرين عاماً بتمامها ؛ وكانت ربيعاً كاملاً فى إبانه ، يتبرج بورده ورياحينه ، ويعبق بشذاه فيملأ الدنيا الباسمة عطراً ، ويوقع فى آفاقها المشرقة ألحانه

وكان الشاب فى ميعة صباه وعنفوان أيامه ... قد قارب الثلاثين ... وتسلح لمغامرات الحب بالقلب الفارغ والعضل المفتول والشعور المرهف ، والنفس التى برزت من الظلمات كالفراشـة ، لترف على هالات النّوار

وشعرت إيولاندا بشىء ينفذ فى صدرها كالمسمار المحمى ، وذكرت فى هذه الغمرة المفاجئة أختها ، وشهدتها فى حلم من أحلام اليقظة مسجاة فى سريرها بالمستشفى وانية شاحبة ، فخجلت من هذا الطائف الغرامي الذى غزا قلبها ، فأشاحت بوجهها عن الشاب ، وقد اشتملت حمرة الحب فى خديها ، فتفتحا عن وردتين ناضرتين ... ثم ولت مدبرة من

(١) الغرام العذاب الشديد والشر الدائم

طريقه ، وحثت الخطا ، حتى إذا غابت عن ناظريه انطرحت فى غيضة من آس ... وأنشأت تبكى !

ولقيته بعد هذا مرة أو مرتين ، وعلقها الشاب بل جن بها ، وجعل يذرع الطريق الذى لقيها فيه لقاءه الأول عسى أن يسعده الحظ بلقياها ، وكان يترنح في ظلال الشاهبلوط ، ويستنشى الشقائق اليانعة التى تزخرف بها الطبيعة حاشية الطريق كأن قصة حبه قد سجلت فى أوراقها !

وعرف من أهل سانت أجاتا من هى حبيبته وأين يقع بيتها من كروم الكونت الواسعة ... وحثه الحب ، فلم يتورع عن أن يزور الكونت من غير ما معرفة ... ويبدو أنه كان من أهل كابرى فقد كان يحضر كل مساء إلى سورنتو على زورق من زوارق نابلى ، لينشق عبير الحب فى وادى أحلامه

***

لقد كان إنريكو دى سارولا يعيش وحده فى فيللا أبرونال ، هذه الفيللا المنيفة الشاهقة ، الناعمة فى حَيْد من أحياد أناكابرى ، مشرفة على خضرتين مائجتين من بحار الطبيعة ، هما خضرة البحر المموهة بالفضة ، وخضرة أشجار الزيتون الموشاة بأذناب الطواويس ... وكان يحيا هناك حياة الناسك المتعبد الذى اعتزل العالم لسر غامض دفين ، لم يعرف الناس منه إلا أن الشاب قد نزغ الشيطان بينه وبين أمه العجوز الحيزبون فترك لها الدنيا تتجرع ثمالتها الشقية وحدها في قصر أجداده فى سالرنو ، ثم سافر إلى باريس يطلب الحكمة فى معاهدها فلبث هناك ستة أعوام عاد بعدها ليقيم فى فيللا أبرونال ... ولم يغادر الفيللا طوال هذه السنين إلا مرة واحدة منذ أسبوعين ، حين سافر إلى سالرنو ليدفن أمه ، وليخلص بدفنها من شجو طويل هو السر الذى لم يقف عليه أحد ؛ وليعود بعد أن حثا عليها التراب حراً لا يرى بأساً فى أن ينشق عبير الحرية من جديد.

فبينا كان سائراً فى هذا الطريق المنضور بين سالرنو وسورنتو ، لقى فتاته الفينانة إيولاندا ، فجن بها ، وذهب إلى أبيها المحطم فعرفه عن نفسه ، وكأنما وافق شَنٌّ طَبَقة ، كما يقولون ، فقد وجد فيه الكونت رجلاً تتفق طبائعه معه ، وتنسجم سجاياه وإياه . فلما خطب إليه إيولاندا على نفسه لم يرفض طلبه ، بل هش له وبش ، وإن يكن قد أسقط فى يده لما يعلمه من تعلق الأختين كل منهما بالأخرى ولما يدركه من استحالة فراقهما بهذا الزواج الوشيك

— إنى أبارك هذا الزواج يا بنى ، ولكن فرنشسكا ! فرنشسكا يا عزيزى إنريكو ما ذا يكون خطبها ؟ ! إنها لا تسمح لأحد أن يفصلها من إيولاندا إلا بحرب !

— أنا لا أظن أن فرنشسكا تقف فى سبيل سعادة إيولاندا ، إذا كانت تحبها حقيقة ... إن هذا لا يجمل بها أيها السيد ... إنه لا يجمل بها بحال !

— أنا معك يا إنريكو ، لكنى أعرف من أمرهما مالا تعرف ، وأحسب أن أحسن ما يجملهما تتفقان هو أن تتزوجا كلتاهما من رجل واحد

وتضاحك الكونت حتى بدت نواجذه ، ظناً منه أنه أرسل نكتة نابغة ! وتضاحك إنريكو ، أو قل ، إنه قد تصنع الضحك ثم قال :

— بل قل إن العلة هى إيولاندا نفسها ، ولكن ، كيف ؟ إنها تحبنى كما أحبها ، وقد صرحت لى بذلك !

ولم يكذب الفتى فى الذي باح به ، فقد كانت إيولاندا تحبه حقاً ، وكان حبها له هو العاطفة الوحيدة التى دخلت بينها وبين أختها فلم تشركها فيها ، وأحست هى أنها لا تود أن تشركها فرنشسكا فيها ، وكان حبها حباً صارخاً مضطرماً يتأجج فى قلبها ، وتبدو لهبه فى عينيها ... بيد أنه كان حباً لا يعدل حبها لأختها بعد، لأن حبها لأختها كان يتدفق مع الدم فى جميع كيانها طوال هذه السنين ومن قبل أن تريا الدنيا ... وقد ساءها أن يصرح إنريكو بما بينهما لأبيها ، فتجهمت فجأة ، ثم انتهرته بقولها : « أبداً ، أبداً ، إنى لا أقبل أن أتزوجك ! كيف تريدنى أن أنفصل من فرنشسكا ؟ إذهب ؟ إذهب من هنا ! لماذا أتيت إلينا ؟ »

وقد بهت إنريكو ؛ لكنه تناول يد الفتاة مع ذلك ، ثم راح يقبل العبرات الحرار التى انتثرت فوقها من العينين الحبيبتين ، وقال : « رويدك يا حبيبتى ! لا ضير إذن ! سننتظر حتى تعود فرنشسكا فهى وحدها التى ستضع كل شىء موضعه ... إنها ستعود بعد أسبوع أو أسبوعين ، وإن شئت فلا بأس من أن نذهب الآن فنزورها »

فقالت إيولاندا : « كلا ، كلا ! بل أذهب أنا وتبقى أنت مع أبى ، وسأظل هناك حتى يأذن الأطباء لفرنشسكا بالعودة ، فإذا عدنا ، فلا يجب أن تبقى هنا لحظة ... »

فقال إنريكو وهو يبتسم : « فإذا قالت فرنشسكا إن أسعد أيامها هو ذلك اليوم الذى ترانا فيه زوجين سعيدين ، فهل تخضعين لحكمها ؟ أما أنا فخاضع لهذا الحكم من الآن ، وأنا متأكد أيضاً أنها ستقضى بهذا ! »

وقالت إيولاندا إنها ستصدع بما تقضى فرنشسكا ثم قالت إنها ستذهب إلى نابلى بعد يومين ؛ لكنها لم تفعل ؛ فقد خرجت فرنشسكا من المستشفى ، وعادت أدراجها إلى سورنتو بعد يوم واحد من ذلك الحديث ...

— إيولاندا ، إيولاندا ، لقد عدت أدراجى من أجلك ! من أجلك أنت ! إنى لم أطق أن أحس بك ، على هذا البعد الشاسع ، غير سعيدة يا أختاه !

— أوَقدْ عرفت يا فرنشسكا ؟ أوقد عرفت ؟

— إيولاندا ؟ ! كيف تسألين إن كنت قد عرفت ؟

— أيتها الشقية ؟ ! إنك ما أقبلت إلا لتراحمينى !

— إيولاندا ؟ ! غفر الله لك ! وأقسم لك يا أختاه أننى ما قدمت إلا من أجلك ، وإنه لا مطمع لى فى شىء ... إننى أعرف أكثر مما يعرف الأطباء يا عزيزتى ... إننى أموت يا إيولاندا ... إننى أموت !

— أوه ! فرنشسكا ! فرنشسكا ! لا تقولى مثل هذا مرة أخرى ! إنك تزعجيننى ! إنك تقولين ما تقولين لأننى سمحت لنفسى بالسماح إلى هذا السارى ! لن أصغى إليه بعد اليوم يا أختاه ... سأطرده غداً ، بل الليلة ... !

— لا . لا يا أختى العزيزة ، إياك أن تفعلى ! إنكما يجب أن تتزوجا ، ولكن بعد أن أموت أنا . قولى له ليغب عن هذا المنزل يوماً أو يومين ، أو أسبوعاً أو أسبوعين ... أو ... شهراً أو شهرين ، فلن أعيش أكثر من ذلك ... ثم ليحضر بعد هذا ولتتزوجا !

— إن كنت حقاً ستموتين فإنى ميتة لا محالة !

— إذن فلن أموت ما دمت حية يا إيولاندا !

وإذا تزوّجته ، فإنى سأتزوجه كذلك ! أفهمت ؟

— فرنشسكا ! إنك تحطمين فؤادى !

— ياحبيبتى ! إننى لست فرنشسكا فحسب ، بل أنا إبولاندا كذلك ؛ وإنك لست إبولاندا فقط ، بل أنت فرنشسكا أيضاً !

— أجل ، أجل يا حبيبتى ! إن كلاً منا فرنشسكا وإبولاندا ، ولذا فإنك ستغفرين لى إذا أنا تزوجت من إنريكو !

— وإذا تزوجت منه ، فإنى لن أموت !

وماتت فرنشسكا بعد سبعة أسابيع ، وبعد سبعة أشهر زفت إبولاندا إلى إنريكو دى سارولا

ومىء الكونت دى سانت أجاتا بموت الأولى وزواج الأخرى لأن كلا الحادثين كان شراً عليه...

— ٢ —

ولم يكد يتغير الحال فى ڤيللا أبونال ... فقد بقيت سجناً لا باب له كما كانت ، وكأنما فتح إنريكو فى أحد جدرانها ثغرة لتدخل منها إبولاند حتى إذا دخلت سدّ الثغرة بحجارة مسومة فماد الجدار أقوى مما كان

ولم تشعر إبولاندا بالوحشة فى هذا القصر الرهيب فهى لم تعتد الحياة الجماعية من قبل ، وقد قضت حياتها كلها في رفقة شريك واحد أو شريكين إن يكن رجل مثل أبيها شريكاً

وكانت سلواها تلك الشعاف الشاهقة تتسلقها وتهبط فى مخارمها ، وهذا البحر المصطخب تملأ عينيها وأذنيها من أثباجه وجرْجرَاته ، فالمنظر واحد هنا وفى سورّنتو...ثم هي قد أحبت زوجها ومالت إلى ما كان يأخذ به نفسه من عمل ... وقصارى القول لقد سمدت إبولاندا سعادة لم تسعدها من قبل ... سعادة استمرت عامين كاملين كانا كحلم نائم فى الفردوس ، إن كان أحد فى الفردوس ينام ، أو يغمض عينيه !

وفى خلال هذين العامين ، لم تزر إبولاندا أباها إلا مرة واحدة ، بعد أشهر من زفافها ... وكان أبوها قد عوفى مما حاق بساقه ، وفرغ لكرومه التى كان يود لو تصير جنة من جنات بوردو

ثم تغير الحال فجأة ... فقد لاحظ إنريكو أن زوجته تلحف فى زيارة أبيها حتى لا يكون بين الزيارة والأخرى غير أسبوعين ؛ ومع بعد الطريق الذى يقطعه الزورق فى ساعات ذهاباً وجيئة فإنها كانت تعود في نفس اليوم الذى كانت تمضى فيه ، أى أنها لم تكن تمكث عند أبيها إلا ساعة أو ساعتين

وقد ُيظن في سبب ذلك ظنون شتى ، إلا أن الوالد الذى تقدمت به السن كان يستأهل من وحيدته كل تلك الزيارات

ولم يكن إنريكو ُيعنى بأن يصحب زوجته إلى سيف البحر ، أو أن يذهب إليه للقائها حين عودتها ، لأنه كان يمقت هذه القرية أنا كابرى ، بقدر ما كان يمقت القرية المقابلة كابرى ، ولم يكن يود أن يرى أحد من أهلهما . ثم هو كان إلى ذلك محباً للڤيللا أبونال ، فكان لا يبرحها أبداً ، وكان يعدها الدنيا التى لا يمكن الخروج منها ، لأن كل ما عداها كان فى رأيه يباباً لا خير فيه

ومضت سنة ثالثة على هذا الحال لم تكن أقل سعادة من السنتين الأوليين ولا أقل بهجة ... بل كانت السنوات الثلاث تمدل بمباهجها إيناس مائة سنة ، وإن لم تمدل بطولها يوماً واحداً وليلة

وبينا كان إريكو مكباً على كتبه فى مكتبه إذا صداع شديد يضطرم فى رأسه فيصرفه عن القراءة ويحسب أن هواء الحديقة ينفعه فيمضى إليها ، ويضطرب فيها ··· لكنه يزداد ألماً ، ثم يحس فى صميمه بضيق شديد ، ويشعر بكمد يجثم على روحه لا يعرف مصدره فيفتح باب الحديقة ، وينطلق فى الطريق الموحش الشاحب المؤدي إلى كابرى

ويذكر إيولاندا ، فيؤلمه ألا تكون بجانبه تواسيه وتسليه ، وتمسح الضيق عن فؤاده

وكانت إيولاندا إذ ذاك تزور أباها ، فتجتاح نفس إريكو بأفكار سوداء قاتمة ، وينتبه إلى تمدد هذه الزيارات وكثرتها فيؤولها

ثم يمضى فى طريقه حتى يكون عند حدود يشرف منه على المرفأ فيقف ، ويكون الزورق الكبير القادم من سورنتو قد ألقى مراسيه ، وقد أخذ القادمون وأكثرهم من النساء ، ينزلون فى زوارق صغيرة توصلهم إلى البر ··· وأرسى الزورق الأول ، ولكن إيولاندا لم تكن من راكبيه ·· ثم أرسى الثانى ··· ولكنها لم تنزل كذلك ··· ثم أرسى الثالث فالرابع ··· حتى لم يبق فى الزورق الكبير أحد ··· يا عجبا ! لم لم تعد إيولاندا يا ترى ؟ !

وانتصب إريكو فوق نؤى الشاطىء ، وراح يحملق هنا ويحملق هناك ··· وقد أخذت مطارق الصداع تدوّى فى رأسه بشدة وعنف ··· ثم خطا خطوات فكان فى المرفأ ، وبدا له أن يسائل الناس لم لم تعد زوجه فيمن عاد إلى كابرى من سورنتو !

ثم ثارت في خاطره فكرة منعكسة ! ذلك أنه ظن أنها ربما تكون قد نزلت من أحد الزوارق الصغيرة إلى البر لكنه لم يرها ، فصعّد لجأة فوق الحدور إلى الصخرة المشرفة على المرفأ ، وراح يبحث بناظريه المتعبين فى الطريق ··· فلم ير شيئاً ···

والحق ، لقد كانت الظلمات تتدجى فى عينى إريكو لما استولى عليه من الدهش ، ولما كان يقاسيه من التعب ... فقد صعدت إيولاندا من الزورق ، وهى الآن فى طريقها إلى الفيللا ، بل هي قد وصلت إليها ، وهى الآن تنتظره قلقة ساهمة ... أما هو ، فها هو ذا فوق الصخرة يضرب أخماساً لأسداس ، لا يدرى لم لم تعد إيولاندا « ... أين هى إذن ؟ ومن يدرى ، فقد تكون لم تذهب إلى سورّنتو أبداً ، وإذا لم تكن قد ذهبت فأين تكون ياترى ؟ ومع من تجلس الآن ؟ أوه ! أتكون الآن فى حضن جسد المسيح ؟ ! »

وهتف السيرن (منادى السفينة) : « ألا من هو ذاهب إلى سورّنتو فليتفضل ... ألا من يريد الأوبة إلى سورّنتو فليتفضل ! »

وكان الظلام قد أوشك يرخى سدوله على البر والبحر ، وأخذت القوارب تنقل المسافرين إلى الزورق الكبير ، ووقف إريكو يحدق ويحملق فى كل الراحلين ... حتى إذا لم يبق إلا القارب الأخير شعر كأن سكيناً تشق حشاشته وتستقر فى قلبه .. ذلك أنه رأى إيولاندا تتهادى فى رشاقة وظرف متجهة نحو القارب وها هى ذي تثبت فتكون فيه

« إنها هى ... هى إيولاندا من غير ما شك زوجتى ··· حبيبتى إيولاندا ··· أين هى ذاهبة يارب ؟ ··· إنها لم تذهب قبل اليوم إلى سورّنتو ليلا ، وإذا كانت هى ، فأين كانت طوال هذا النهار ياترى لقد خرجت صباح هذا اليوم لتذهب إلى سورنتو ، فأين قضت نهارها كله إذن ؟ أوه ! إن فى الأمر

سراً رهيباً … إبولاندا ! إبولاندا ! تعالى ! هأنذا إنريكو ! إرجعى ! … »

لكنها لم تلتفت إليه ؛

بل نظرت إلى السماء نظرات كنظرات الملائكة ثم رف النسيم فداعب عقارب صدغيها … وجلست هادئة ساكنة … ولم تتكلم

وهرول إنريكو نحو المرفأ ، وجعل يهتف ويهتف … لكنها لم تنبس ، ولم تلتفت إليه … وأخذ القارب يبتعد ويبتعد ، حتى كان عند الزورق الكبير ، فوثبت إبولاندا فيه وأخذت مكانها ، صامتة كالطيف … ساكنة كالليل … غامضة كالروح …

وقبل أن يتحرك الزورق هبت إبولاندا واقفة ، وولت وجهها شطر الشاطىء حيث وقف إنريكو ، وجعلت ترنو إليه !

« إبولاندا … إبولاندا ! »

وابتعد الزورق … ولم ترد إبولاندا … فانهمرت الدموع من عينى إنريكو

— ٣ —

ثم ثاب إلى رشده ، وصحا مما كان فيه ، وودع البحر بنظرة حزينة ، وضرب فى الطريق إلى أنا كابرى ، فبلغ الفيلا بعد مسرى طويل خيل إليه أنه بلغ به أميالا وأميالا … ولحقته الكلاب فلم تتحرك ولم تبصبص كدأبها حينما كانت تراه ، بل ظلت ساكنة هادئة كأنما تنظر إلى شبح يتدهدى فى الظلام

وكان البيت من وراء يضرب فى ديجور دامس ، يزيد البحر فى روعته ، وكان كل شىء هادئاً ، والريح توسوس فى سكون فى أغصان الدوح وأفنان الشجر ، فلما عرج إنريكو ليلج فى القصر ، لمح ضوءاً خافتاً ينبعث من غرفة الجلوس … فدهش أول الأمر ، ثم زال دهشه حينما علل وجود الضوء هناك باجتماع الخدم ليعبثوا ساعة فى غيبة السادة أصحاب الفيلا

وفتح باب الغرفة فى سكون ودخل …

يا لله ! ! من هذه السيدة النائمة فى الكرسى الفاخر قريباً من المصباح ، يكاد يقر رأسها فى حضنها ؟ !

أوه ! ! إنها إبولاندا ! !

— إبولاندا ، إبولاندا ! !

ولكن إبولاندا لم تتحرك ، بل ظلت غارقة فى سباتها تتنفس فى بطء

وأحس إنريكو بنصف جسمه الأعلى يلف ويصيبه الدوار ، وبالنصف الأسفل يبرد ، ويقف دمه ، ويتحول إلى ساقين من ثلج

— إبولاندا … أبداً ، أبداً ، لا يمكن أن تكونى هنا …

لكنها لم تتحرك ، بل ظلت نائمة حالمة ، وضوء المصباح ينعكس على جبينها الجميل الباهت ، وأهدابها الطويلة الساحرة منتشرة ظلالها فوق خديها !

— إبولاندا ! ! أبداً … لست إبولاندا ! لقد رأيتك تركبين فى القارب وتنزلين منه فى الزورق … أنت … لا أحد غيرك … أنت لست إبولاندا أبداً …

ولم تسمعه إبولاندا ، ووقف تلقاءها ساهماً واجماً ، وقد انتشرت ضبابة كثيفة من اللاوعى أمام عينيه ، وبدأت غيبوبة عجيبة تستولى على

مشاعره ، وأخذ رأسه يتفصّد عن عرق بارد كأنه ينبع من مستنقع ، وكلما نزت منه قطرة جمدت واستحالت إلى حبّةٍ من بَرَد ! !

ثم رفعت رأسها ببطء آخر الأمر ؛ وفتحت عينيها الواهيتين ، وجعلت تنظر فى غير جهة معينة وبغير وعى ولا شعور

ومرت لحظة بعد أخرى، وظلت نظراتها غامضة زائغة ، كأنها لا تقع على نفس الأشياء التى تقع عليها نظرات إزيكو ... محفظة الكتب المسندة على الحائط ، والمنضدة ، والطاس البرونزى العامر بالأزهار

ثم نظرت إليه واستطاعت أن تتبينه

وكانت نظراتها هذه المرة نظرات العارف الواثق ، الذى يرنو إلى شىء حبيب يود أن يملأ به قلبه

ووثبت من كرسيها فجأة وأخذت تصيح : « إزيكو ! إزيكو ! أين كنت طوال اليوم يا حبيبى ! ؟ أين كنت لقد تنظرتك طويلاً ، فهل حدث شىء ؟ لِمَ لم تخبر الخدم أنك ذاهب خارج المنزل ؟ »

ووقف إزيكو جامداً كالتمثال ، وقد طاف سرب من الهواجس فى قلبه ، وأخذ يفكر فى المتناقضات التى حاول القدر الساخر أن يتفغله بها... فلقد وثق وثوقاً تاماً أنها لم تذهب إلى سورنتو فى زورق الصباح ، لأنها لم تعد فى زورق المساء ... بل حصل العكس ، إذ شهدها بكلتا عينيه تسافر إلى سورنتو فى زورق المساء ! وليس محتملاً أن يتسرب الشك إلى ما حدث وتحققه هو بنفسه ... لقد رأى إبولاندا تركب القارب ، وتنتقل من القارب إلى الزورق ، ويهم الزورق ويحتويه الماء إلى سورنتو ... فكيف عادت إذن إلى هذه الغرفة قبل أن يعود هو ؟ وما هذا الذى يسمع ؟ : « أين كنت ، ولم خرجت دون أن تخبر الخدم ؟ » وما هاتان العينان النجلاوان الجميلتان البريئتان اللتان تنفذان فيه فى طهر وسذاجة؟ هل هذه إبولاندا حقاً ؟ وإن لم تكن هيَ ، فمن تكون يا ترى ؟ ... ولكن ما هذا السؤال وها هى ذي إبولاندا الجميلة المشوقة الهيفاء ، وها هو ذا فمها الدقيق ، وها هو ذا صوتها الموسيقى الساحر ، وها هى ذى نظراتها النافذة .. وها هو ذا كل شىء يضحك ويقول أنا إبولاندا ؟ !

لقد أوشك المسكين أن يجن ... وعاد الصداع إلى رأسه المختلط كما يعود الوحش الهائل زائراً منحجراً إلى كهفه السحيق ... وانعقد لسانه فلم ينبس بكلمة ... وأشاح بوجهه عنها فقالت له : « إزيكو ما ذا بك ؟ هل تشكو من شىء يا حبيبى ؟ إنك غير عابس ، أليس كذلك ؟ أأنت مريض ؟ »

فقال لها وهو منتفض من الحمى : « لا ، لا إنه صداع بسيط ، لا تكلمينى أرجوك . هلمى بنا إلى الفراش »

وأحست بما يأكل قلبه من ضغن لم تعرفه فيه من قبل إلا مرة أو مرتين لم يبلغا شيئاً من أمره الآن ، فقالت فى صوت حزين :

— « إى يا حبيبى ... هلم بنا ... إنى آتية ! »

***

ولم يفه بكلمة وهو ينضو ثيابه ، وكانت أصابعه ترتجف فوق أزراره ضعيفة موهونة وانية ، وسبقته إلى الفراش فتطرحت على ظهرها وأسندت رأسها على الحشية ، وراحت تبحث بعينيها فى سقف الغرفة وقد هرب الدم من وجهها الرائع الشاحب

لم تتحرك إبولاندا ... لم توله ظهرها حتى لا تثير

غضبه ، ولم توله وجهها حتى لا يظن أنها تحاول إغراءه عما فى نفسه ... وكان مرآها هكذا يثير الحنان ويثير الشجون ويثير كل العواطف العلوية فى أقسى القلوب وأشدها شماسا

ثم شعر فجأة بضميره يخزه ويؤنبه ، فقال لها : « أحسب أنها غلطة يا إيولاندا ... غلطة مجردة ... فأنا آسف جداً ! »

فأجابته ، وفي نفسها لهفة شديدة : « أجل . أجل يا إنريكو ... إنها غلطة »

فتراجع إنريكو مشدوهاً وقال : « أى غلطة ؟ كيف عرفت أن هناك غلطة ؟ ! تكلمى ! خبريني إني أعتبر ذلك اعترافاً بكل ما حدث اليوم »

فقالت له : ولكن يا حبيبى ... لقد قلت هذا فقلته معك ...

فقال : هل حقيقة قلت ذلك ؟ ربما ! لأسلّم أنني مغفل ! بل إنى أومن أنني مغفل ... تنحى ... إفسحى لى مكاناً ! أنا آسف يا إيولاندا

وتنحت قليلاً فانطرح جانبها وقال : قبليني يا إيولاندا ! لماذا لا تقبليننى ؟

فقالت : لأنك ... لأنك ...

فقال لها بلهجة الآمر : لا . لا . قبلينى !

وانحنت تقبل شفتيه المرتعشتين ، فما كادت تمسهما بشفتيها الذابلتين حتى شم فيهما رائحة غريبة لم يكن له بها عهد من قبل ... رائحة رطبة كرائحة أزهار النيلوفر[1] التى تنمو عادة في المياه الآسنة ... وكانت شفتاها باردتين مُثلجتين ، فسرَت منهما رجفة فى جسمه ، وقشعريرة زلزلته زلزالاً

— ماذا بك يا حبيبي ... ماذا بك ؟

— لا شيء ... صداع خفيف

— هل ... ؟ ...

— لا ... ليس الليلة ... هلمى نم يا إيولاندا ... عمى مساء !

— عم مساء يا حبيبى ...

وانطبقت أهدابها كما تغمض الزهرة الذابلة الوسنانة ، وبدت لأنريكو فتنة فى فتنة ، وجمالاً نائماً معه فى سرير واحد ، لا يمكن أن يكون من هذا الجمال الفانى الذى تمتلىء به دار الغرور

إنه جمال سرمدى كجمال الملائكة ... نور على نور أبداً لم تكن إيولاندا هكذا أبداً ...

***

وهكذا لم يغمض له طرف ، وكيف ينام من هو فى مثل حيرته ، ومن يضطرب خاطره بمثل وسواسه ؟ ! كيف تكون هذه النائمة بجانبه إيولاندا ، وقد رأى إيولاندا تركب القارب إلى الزورق ، ثم تركب الزورق فيهم بها ، ويبتعد في جوف البحر والليل أميالا ، وهو واقف يشهد ، وقد وقفت إيولاندا كالطيف ترنو إليه ولا تتكلم !

المعقول ألا تكون هذه إيولاندا ... والمعقول أن تكون إيولاندا الآن فى سورنتو ... أو فى نابلى ... فإذا لم تكن هذه إيولاندا ، فماذا إذن ؟ لم ذهبت إيولاندا إلى نابلى إن لم تكن قد ذهبت إلى سورنتو ؟

ولكن هذه النائمة هنا من تكون إن لم تكن إيولاندا ؟

ألا يعرف الإنسان زوجته التى عاشرها ثلاث سنين ؟ هل معقول ألا تكون هذه إيولاندا ؟ حقاً إنها جميلة جداً هذه الليلة ، وإن لها لجمالاً ليس يمكن

(١) البشنين (اللوتس)

أن يكون من جمال هـذا العالم الفاني ... لـكنها كانت جميلة هكذا فى جميع الأحيان .. ولا تناقض فى أن يكون جمالها الليلة أكثر نورانية !

اشتدت الآلام فى شق إنريكو الأيسر ، وأخذ التبريح ينبض مع القلب فى كيانه ... ولم يفتأ يسأل نفسه أيهما إيولاندا زوجته التى ركبت البحر إلى سورنتو ... أم هذه النائمة معه فى سرير واحد ، ذات الأنامل الغضة اللينة التى تكاد تنعقد ؟ !

وتحركت إيولاندا حركة فتعرت كتفها العاجية الجميلة المفتان ...

وكأنما أثار مرأى الكتف الشيطان الساكن بين جنبى إنريكو ، فمد يده القوية الجبارة وأمسك اللحم الأبيض الخصيب فى عنف شديد وصاح قائلا :

« ألا من أنت ... ؟ قولى ! تكلمى : من أنت؟ من أنت ؟ ! »

ففزعت من نومها وأخذت تصيح :

— إنريكو ! إنريكو ! دع كتفى ! إن يدك القاسية تؤلمنى

فقال لها : بل قولى مَن أنتِ ... من أنت تكلمى : من أنت ؟

فقالت له : إنريكو! ماذا أصابك ؟ أمجنون أنت؟ دع كتفى واتركنى أنام !

فقال لها وهو ثائر كالمحموم : كيف أتيت إلى هنا وقد رأيتك تركبين الزورق ؟

فقالت له : لم أكن أنا التى رأيتها ! إنها واحدة سواى !

فقال : واحدة سواك ! عجيب جداً ماذا تعنين ؟

فقالت : أعنى أنك أخطأت ... لقد غمَّ عليك يا إنريكو !

فقال : وما هذا التعبير الغريب الذى عبرت به « إنها واحدة سواى ! » فمن هى ؟

فقالت : لا أعلم !

فقال لها : « كيف لا تعلمين ؟ إذن فمن أنت ؟ أريد أن أعرف من أنت ؟ ثم تناول المصباح القريب وأدناه من وجهها ، وراح يحدق ببصره فيه ثم قال : ولـكنك إيولاندا ؟ ! كيف أتيت إلى هنا ؟ حقاً إنك إيولاندا !

فقالت له : حقاً أنا إيولاندا ... وها أنت ذا ترى !

فقال لها : لـكنى رأيتك تركبين الزورق إلى سورنتو هذا المساء ، فكيف عدت ؟

فقالت له : إنريكو ! ما هـذا الذي أصابك ؟ دعنى أنام ياحبيبى ! إنه صداعك الذى يقلب رأسك نم نم ! ستماثل فى الصباح !

ثم مدت ذراعيها وتثاءبت ، وأنشأت تقول : إنى متعبة يا إنريكو فدعنى أنم ... لقـد تنظرتك طويلا قبل أن تعود !

وكأنما لمح شيئاً غريباً في فمها لم يعرفه من قبل فصاح بها : « إفتحى فمك ودعينى أنظر إليه ! » فتبسمت وقالت : « ولِمَهْ ؟ ! » ثم فتحت فمها الجميل فبدت ثناياها المؤشرة العذاب ، وراح إنريكو يحملق فيهن ويحدق ، كما يحدق العالم فى أنبوبة اختبار تحوى كشفاً من كشوف العلم

آه ! يا للاكتشاف العجيب ! لقد لمح إنريكو فَلَجاً بين الثَّـنِيَّـتين[1] العلويتين لم يكن بين ثنيتى إيولاندا مثله ...

لـكنه يذكر أنه رأى مرة فتاة جميلة تشبه إيولاندا ، كان لها هذا الفلج الرائع بين ثناياها العليا

(١) الفلج تباعد بين الأسنان والثنايا هى الأسنان

ترى من تكون هذه الفتاة ... ؟

أوه ! لقد تذكر إنريكو ! إنها فرنشسكا من غير ما شك !

إن ثنايا هذه المرأة النائمة معه فى السرير هى ثنايا فرنشسكا .. ذلك حق لا ريب فيه .. فرنشسكا الميتة ... التى دفنوها فى سورنتو منذ ثلاث سنوات وليست ثنايا إيولاندا ... إيولاندا الحية ... ولا بد أن تكون هذه هى فرنشسكا أيضاً ... هذه المرأة الجميلة النائمة فى سريره ... لأن إيولاندا قد ركبت الزورق إلى سورنتو ، وهو لا يستطيع أن يكذب عينيه ...

إذن ؛ لقد اجتمعت لأنريكو آيتان فى هـذه المرأة النائمة فى سريره ! كما اجتمعت له آية ثالثة ، تلك التى رآها عند المرفأ ، وإيولاندا تركب البحر !

أما الآية الأولى فهذه الرائحة العجيبة الآسنة التى عبقت بها شفتاها وهى تقبله ، ثم هذه القشعريرة التى انتشرت منهما فى جسمه فزلزلته ... لقد كانت رائحة كرائحة المقابر لا تكون إلا للنيلوفر الذى ينمو فى الماء الراكد ...

وأما الآية الثانية فهذا الفلج فى ثناياها .. الذى لم يكن فى ثنايا إيولاندا شىء منه ، والذى كان الفارق الوحيد بين إيولاندا وفرنشسكا ، حتى كان أبوهما لا يميزهما إلا به !

وانزعج إنريكو ... وامتلأت خياشيمه بسهك[1] كريه لا يكون إلا فى ريح المقابر ... ثم انتفضت جلدة رأسه وانتصب شعر فَرْوتها فصار كالإبر وصاح كالمجنون الذى التاث عقله وضاع صوابه :

« أخرجى ! أخرجى من هنا ! أخرجى ... أخرجى ... أخرجى ! »

ولم يستطع أن يقول غير هـذا ... أخرجى ، أخرجى ، أخرجى !

فانتفضت إيولاندا مذعورة تقول : « إنريكو ... إنريكو ... ماذا أصابك ؟ ! لماذا تصيح فىّ هكذا ؟ ! إهدأ يا حبيبى ! »

فقال لها : « أهدأ ؟ وكيف ؟ خبرينى من أنت أولا ! »

فقالت : « من أنا ؟ أنا إيولاندا !

فقال : كلا ! لست إيولاندا ، لقد رأيت إيولاندا يذهب بها الزورق إلى سورنتو ... لست إيولاندا أبداً

وتنفست تنفسة عميقة ، ثم أرسلت زفرة حارة ظُن أنها تسكت نأمتها من بعدها ... ثم انتثرت أناملها فوق الملاءة البيضاء الحريرية كأوراق الورد الذاوية ... وقالت : « بل أنا إيولاندا ! »

وكانت تقولها ، وكأن الصوت يتردد فى أذنىْ إنريكو من عالم بعيد قصى ... من عالم غير هـذا العالم ... من الآخرة ... ثم قالت :

— « أجل ... أنا إيولاندا ! والفتاة الأخرى التى شهدتها هى إيولاندا أيضاً ... وكلمنا إيولاندا . هى إيولاندا ، وأنا أيضاً إيولاندا ، هى مثلى وأنا ... مثلها تماماً ... »

فقال مذعوراً : « إذن أنت فرنشسكا ! ... لا ، لا ... ليس هذا حقاً ... أرجوك ... قولى إنك لست فرنشسكا ! قولى إنك لست فرنشسكا !

وهنا ... حملقت فيه بعينيها البريئتين الجميلتين وقالت له :

— بل أنا فرنشسكا .. وهى أيضاً فرنشسكا ..

(١) السهك محركة ريح اللحم المنتن

الفتاة التي رأيتها تركب في الزورق إلى سورنتو ! »

فاشتد ذعره وقال :

— إنك ميتة ! أنت شبح ! أنت روح شريرة !

فتبسمت محزونة وسكبت دموعها وهي تقول :

— « إنها لا تستطيع الحيـاة بدوني ... وأنا لا أستطيع الحياة هناك .. هناك ! هل تعرف ..؟.. في الدار الآخرة ... إلا إذا كانت إيولاندا معي ! ولهذا فهي تزورني هناك في الفينة بعد الفينة ، وأنا أيضاً ... أزورها هنا ! »

فقال إنريكو : إذن فما شأني أنا ؟ ! ثم هي ؟ ألم يكن أحجى بك أن تتركها وشأنها ... إيولاندا التي أحبتك أكثر من كل شيء ؟ !

فقالت : لقـد حاولنا ذلك فلم نستطع إليه من سبيل ... لقد تحققنا أننا لا نحيا إلا معاً ولا نموت إلا معاً ! وأننا لا يمكن أن نحيـا أو أن نموت مفترقتين ! وأنه لمعالجة ذلك وجب أن نقتسم الموت والحياة على السواء !

وعند ذلك أنَّ إنريكو وبكى ، وخبأ عينيه بيديه وراح يسكب دموعه ويقول : « آه ياحبيبتي إيولاندا ! آه يا عزيزتي ... تعالي يا إيولاندا ! » وكأنه ينشج نشيجاً مؤلماً ، ويدوّي بصوته المبلل بالعبرات في سكون الليل ...

ثم سكت فجأة ، والتفت إلى الفتاة النائمة في سريره طيفاً روحانياً بلا مادة وأنشأ يقول :

— ولكن لا ... إنها كريهة ممقوتة مثلك ... لقد خدعتني طوال هذه السنوات الثلاث كما أنك خدعتني ... لقد تسببت لي في الكارثة العظمى التي حاقت بقلبي ورانت على نفسي وثلمت شرفي !

إنكم شياطين يا آل دي سانت أجاتا ! إنكم شياطين ! هيا ... هيا ... إلى الجحيم التي أقبلتما منها ! »

ثم مد ذراعيه الجبارتين وقلص أصابعه ، وأخذ يقترب من عنقها ويقترب ... لكنها تبسمت في غير ذعر ولا خوف ، وقالت له :

— أوه أيها المسكين! مكانك! إنك لا تستطيع أن تلحق بي أذى ! إنما النائمة في سريرك هذا طيف . طيف ! أسمعت ؟ ! خيـال ! أتستطيع أن تخنق الطيف ؟

وفتت كلماتها في عضده فتهاوت ذراعاه، وتهافت هو فوق الكرسي الذي كانت نائمة فوقه من قبل هذا .. ثم دفن وجهه في راحتيه ، وجعل يتأرجح من ناحية إلى ناحية ذات اليمين وذات الشمال لحظة تلو أخرى ... ثم راح يكلم نفسه :

— « ماذا أصنع يا ربي ؟ ! ماذا عساي أصنع ؟ من يدريني؟ من يهديني؟ من يعينني في هذه الوحدة القاسية ! من نصيري يارب ! ... »

ثم وقفت الكلمات فوق شفتيه كالأشباح ... ونهض إلى مشجبه ، وأخذ يرتدي ملابسه كما يرتدي ملابسه رجل ذاهب إلى المشنقة لينفذ فيـه حكم بالإعدام !

— إنريكو : ماذا أنت صانع ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ !

— إني ذاهب إلى سورنتو ! ينبغي أن أعرض الأمر على الكونت دي سانت آجاتا !

— إنريكو ! أرجوك ! أتوسّل إليك ! من أجل إيولاندا الحبيبة لا من أجلي ! من أجلي أبي الضعيف ! لا تذهب !

— بل ليس بد من الذهاب ! كيف يحتمل واحد من بنى الموتى كل هذا ؟ !

— أرجوك ألا تذهب ! إنه لا جدوى من ذهابك ! بل بالعكس ، فذهابك يقتل أبى المريض الذى يخشى دراكا إلى القبر ، ويطرق بابه بكلتا يديه !

— إن شئت فتعالى معى !

— هذا لا يمكن ··· إن هذا يكسر قلبه ويحطم روحه !

— كان الأول أن تفكرى فى ذلك من قبل !

— أرجوك ألا تذهب ··· أرجوك

— صه ! أيتها الهولة ! [1] ياسعلاة جهنم ! [2] أسكتى ! من دعاك إلى هنا ؟ !

— إذن أنت مصمم على الذهاب إلى سورنتو !

— طبعاً ، فى زورق الصباح !

— إذن ستلتقى إيولاندا حين تنزل إلى البر !

— لا إيولاندا بعد اليوم !

وصمتت فرنشسكا ... فلما فرغ إزيكو من لبس ثيابه قالت له :

— هل تعنى ما تقول يا إزيكو ؟ !

— أجل ... لا إيولاندا بعد اليوم ... إنها ميتة مثلك

ثم أردف وهو ينفتل من الباب : « إذهبى إلى العالم الجديد بك ! »

— ٤ —

ورأى إيولاندا وهى تنزل من الزورق إلى البر لكنها لم تره ! واختبأ حتى تمر .. وغابت عن الأنظار

ثم تركت الطريق المؤدى إلى أنا كاپرى ، وسلكت السبيل الآخر المحفوف على جانبيه بشقائق النعمان ··· المؤدى إلى الفيللا من جهة البحر ··· والتى كانت تلتقى فيه بطيف أختها ليتم اتحادهما قبل أن تذهبا إما إلى إزيكو ، وإما إلى سورنتو !

وهناك ··· كانت تنتظرها فرنشسكا !

وبعد أن أخذت يديها الدافئتين فى يديها الثلجتين ، قالت لها :

— هذه آخر مرة نلتقى فيها ههنا يا إيولاندا ؟

— أختاه ! لا تقولى هذا يا فرنشسكا ! مالك شاحبة هكذا ؟ إن فى نظراتك شيئاً غريباً لا أفهمه

— لقد عرف يا إيولاندا ؟ !

— عرف ··· ؟ ··· أبداً ··· هذا لا يمكن ··· هذا غير صحيح يا أختى !

— بل ··· صحيح يا عزيزتى !

— أرجوك يا فرنشسكا ! قولى إنه غير صحيح ! أتوسل إليك !

— بل هو صحيح ··· إنه الحق لا ريب فيه !

وصمتت إيولاندا ··· وراحت تبحث بعينيها فى السماء ··· وفى البحر ··· وفى شقائق النعمان ··· وفى الدوح ؛ ثم قالت فى صوت ضعيف وان :

— وماذا نصنع إذن ؟ !

— لا شىء ··· إلا أن نذهب معاً الآن ياإيولاندا

— أنا وأنت يا فرنشسكا ؟ !

— وهل تؤثرين البقاء وحدك فى هذا العالم يا إيولاندا ؟ !

— وهل أترك إزيكو وحده يا أختاه !

— إنه لا إزيكو بعد اليوم !

— إذن ··· نذهب معاً ··· لن أتركك يافرنشسكا

(١) الهولة HarPy من مخلوقات الأساطير نصفها حيوان ونصفها إنسان (امرأة)

(٢) Hell - hag

— لنذهب الآن !

— ولكن ··· ألا نبقى قليلاً ؟ لحظات ··

— نبقى لماذا ؟ ! إننا لم تعد لنا فى هذه الدنيا لُبانة !

— وهل نمضى بالطريق الوعر من تحت الصخرة ؟

— أجل ··· إن زورق النور ينتظرنا ···

— حيث سعدنا معاً أياماً طويلة وأعواماً !

— أجل يا أختاه !

— هلمى ··· لنذهب الآن !

— هذا خير ··· يجب ألا نبقى فى هذه الدنيا الكريهة المظلمة أكثر من ذلك !

***

ثم هبطتا إلى الشاطئ ، ونزلتا فى الزورق ، ورفعتا مراسيه

— كونى أنت عند السكان[1] يا إيولاندا ، فانه يبدو عليك أنك متعبة ··· وسأعمل أنا فى المجاديف

— حسناً يا أختاه ! عليك أنت بالمجاديف ···

واتجه الزورق نحو المغرب ··· متوائباً فوق الثبج ··· متأرجحاً فوق الموج

وذبلت أفنان الدوح فوق الشاطئ الباكى

وذوت شقائق النعمان فوق الصخور الحزينة

وليس فى الوجود إلا ماء وسماء ···

وكل هذا من أجل الأختين الحبيبتين

اللتين لم تعودا قط من رحلتهما إلى المغرب !

دريني خشبة

(١) الدفة


وردت انباء عن
الانفلونزا
اسبرو
يفعل فعله
وباء الانفلوانزا
فى القاهرة
تبين لنا أن وباء الانفلوانزا يجتاح القاهرة فى هذه الايام فى حالات كثيرة يزداد باستمرار فتثبت وجوده . ولكن يرجو من الجمهور أن يكون متنبها فى وقت ظهوره فيمكنه أن يتخذ الاحتياطات الواقية التى تلزم فى مثل هذه الحالات ، وبذلك يحمى الوباء
61
'ASPRO'
REG. TRADE MARK
وصلت انباء تفشى الانفلونزا فى مناطق مختلفة . ويهاجم الانفلونزا الاشخاص الذين لم يقوا انفسهم منها. فهل حصنت نفسك ضدها؟ فى امكانك ان تتوقى الاصابة بأن تجعل فى متناول يدك "اسبرو" لاستعماله عند ظهور أول علامة للاصابة بذلك تنقذ نفسك من التعب اسابيع طويلة. وقد اثبت الذين استعملوا "اسبرو" انهم حصنوا انفسهم بأبسط واسلم واسرع دواء ضد الانفلونزا احرج العالم. فاذا عرف ان هذا الدواء لا يحدث ضررا فقد زال نصف التعب، لأن الخوف هو اكبر حليف للانفلونزا. "فاسبرو" يزيل الخوف لأنه يسلحك بسلاح هو معرفتك بانك تستطيع التخلص من الانفلونزا ... فلا حاجة الى الخوف منها. قرصان "اسبرو" مع شراب الليمون الساخن يقضيان عليها فى ليلة واحدة
٢ قرصان 'اسبرو' مع
شراب الليمون الساخن لازالة البرد
والرطوبة المصحوبة بحمى أو
بالانفلونزا فى ليلة واحدة
فى اقصر
وقت
واسلم
الطرق
قرصان اسبرو مع شراب الليمون الساخن
يقضيان على الانفلونزا
فى ليلة واحدة
ج. پ. شريدان وشركاه
القاهرة : ٣ شارع الكنيسة الجديدة
٢ قرصان ٥ مليمات
١٠ اقراص ٢ ١/٢ قرشا
٢٧ قرصا ٥ قروش
'اسبرو'
يستعمل كغرغرة
اسبرو لا يضر القلب ولا يحدث اضطرابات للجهاز الهضمى

الصورة المقنعة

للكاتب الانجليزي جيمس ماجوفن
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

لشد ما كان يسيطر على العجب وأنا أشهد عراكا عنيفاً ما تنطوى دواعيه ، بين ميندو رئيس الشرطة وبين عصابة اللصوص ، فهو ما يهدأ إلاّ أن يكشف مايحيكون فى الخفاء ، ثم هم لايستطيعون أن يظهروا عليه ، وهو عدوهم الذى يلقى الرعب فى قلوبهم ، ويزلزلهم زلزالاً شديداً بما فيه من خفة ومهارة تفوقان ما كان بيديه زعيمهم رافيان . وفى الحق لقد كان ميندو مبعث الخوف والفزع فى قلوب اللصوص جميعاً لأنه كان يحمل لهم بين حنايا ضلوعه ضغينة ثائرة لا تستقر إلا أن يدفع بهم إلى غيابة السجن

وتراءى لى أن ميندو — وهذا شأنه — رجل قد نزعت من قلبه الرحمة والشفقة ، حين رأيته — مرات ومرات — يؤدى واجبه فى صرامة وشدة ؛ غير أن القصة التى أقص الآن تبرهن على خطأ ما زعمت ...

***

فى حجرة ضيقة مضيئة فى الطبق الأعلى من منزل فى ميدان (ميلين) جلسا يتسامران فى رقة كأنهما صديقان حميمان برغم تفاوت ما بينهما فى السن والطبقة : أما الأولى فهى مسز ليون التى تسكن هذه الغرفة ، استقرت هنا بعد أن تناوحتها أعاصير الحياة ثم قذفت بها إلى هذا المأوى الحقير تُسقى بكأس مريرة من الفاقة والعوز والوحدة ، بعد أن كانت ترشف من رحيق الحياة رضاباً سائغاً ؛ وأما الثانى فهو والتر هُوتُن طالب طب أولع بفن التصوير والرسم ، أرسلته جمعية المواساة إلى هذه العجوز المريضة ليرعاها ، وهو نبيل المنشأ والمربى فيه الرجولة والكرم والشرف والغنى جميعاً ، وأحس فى المرأة التى إلى جانبه عاطفة شريفة فياضة تتأجج تحاول جهدها أن تكتمها عن الناس ، غير أن الشاب لمس بعضها فى رنات صوتها وعذب حديثها وعطفها وحنانها ، فاطمأن إليها واطمأنت اليه

وجلس الطالب الشاب — ذات مرة — إلى صديقته العجوز يحدثها يقول وعلى فمه ابتسامة : « إننى أعتذر إليك — يا سيدتى — فلقد كان يتراءى لى أنك غير من عرفت ، فما كان لى أن أقحم نفسى فى حديث هو بعض قلبك ، غير أن ما أحسست به من حنانك وعطفك بعث فى نفسى أنه كان لك ابن شغلت به زماناً عن كل شىء » وتدفقت الكلمات من بين شفتى الشاب فى غير روية ولا أناة ، غير أنها تساقطت على قلب المرأة كأنها شواظ من نار ، فراحت تحدّق فى الفتى علها تستشف ماوراء ، ثم وضعت يدها على مكان القلب من صدرها كأنها تمسك به أن يفر وهو ينتفض انتفاضاً سريعاً ، وأرسلت زفرة حرّى تتلهب أذهلت الفتى ... ثم ساد السكون ... لقد أثارت كلمات الفتى أحزان قلبها وآلام ماضيها فبدت على وجهها غضوناً غضوناً ، وفى محجريها عبرات تترقرق ؛ ثم انطوت على نفسها كأنما تنشر

أمام عينيها صفحات من تاريخها فيها الألم والسرور فى وقت معاً ... واستطاعت — بعد لأى — أن ترتد إلى الفتى تحدثه وفى صوتها الأسى واللوعة : « آه ، يا بنى ، اطو هذا الحديث ، حقاً لقد كان لى ابن ... ابن جميل طاهر كأنه بعض ملائكة السماء ثم ... ثم فجعت فيــه » ثم غلبتها العبرة ... فقال الفتى فى رقة : « لعله قد مات ! » قالت : « نعم ، ودفنته فى قلبى .. لقد فقدته منذ زمان .. لقد خبرونى أنه أصبح لصاً فيه الضراوة والشراهة فاصدقتهم .. أصبح لصاً يستلبنى ويستلب غيرى من متاعه ومن ماله ثم هو يهبط إلى السجن بين الحين والحين ... تلك خواطر تضطرب فى خيالى فتذهب بصوابى وخير لى أن أعتقد أنه مات ... مات فى طهره وجماله كما يبدو فى هــذه الصورة » ثم مدت يدها المضطربة إلى ستر تزيحه فبدت من ورائه صورة هى بعض آيات الفن الجميل ، فقال الطالب : « يا عجباً ! إن هذه الصورة تبعث فى النفس السلوة ! أفتأذنين فأنظر إليها حيناً ، فأنت تعلمين أننى أغرمت بهذا الفن منــذ زمان ؟ » فقالت فى هدوء : « نعم ، فأنا لا أستطيع أن أرد طلبتك جزاء ما حبوتنى من عطف »

وكشف والترهوتن النقاب عن الصورة ثم ارتد إلى وراء وقد تعلق بصره بها يردده هنا وهناك فى جوانب الصورة ... إنها صورة صبى يتألق حياة وجمالاً وتشع سمات السعادة والرضا من وجنتيه وقد انسدل شعره السبط الذهبى على كتفيه وهو فى مرح الطفولة ونشاطها يتوارى خلف شجرة من أشجار الكرز وفى يمناه غصن أثقلته ثمارها الحمراء وفى أسفل الصورة سطر :

« فى نضوج الكرز ! جيمس ليون فى السابعة من عمره »

وسيطر على الحجرة صمت عجيب ، وقد راع الشاب ما رأى من جمال الصورة وفتنتها ، والمرأة تضطرب فى ماضيها ... ثم بدد الطالب هذا الصمت بقوله : « ما أجمل ! إنها فوق الوصف ! أفتعلمين ، ياسيدتى ، أن ثمن هذه الصورة قد يبلغ مائة جنيه أو مائتين أو أكثر ؟ » وابتسمت العجوز لما سمعت ثم قالت : « هذا حديث سمعته مراراً حين كنت أعيش فى الغبطة والسعادة ، إلى جانبى وحيــدى جيمس ، أما الآن فلا سبيل إلى ذلك لأننى لا أستطيع عنها صبراً ؛ فهى رفيقتى بعد ولدى ، وهى وحى الهوى والحب لأنهــا آخر ما رسم زوجى الفنان ، فهى عندى ترجح مال الدنيا » وتهدم أمل الطالب حجراً حجراً ثم ارتد يحدق فى الصورة ويقول : « ما أريد أن أشتريها إلا أن تأذنى ، ولكننى أريد أن أرسم أخرى مثلها » قالت « وهذا أيضاً لا أرضاه فما أطيق أن تتناهبهــا الأبصار » قال الشاب : « إن عيناً لن تراها ، وسأحرسها بعناية هى فوق عنايتك . ولا ضير ، فأنا أدفع ثمن إذنك غالياً » وكانت الكلمات تضطرب على شفتى الشاب لأنه كان يستشف الرفض من نظرات العجوز . قالت : « أنا لا أستطيع النأى عن هذه الصورة لحظة من عمرى » قال : « ولكن المال ... ! » قالت : « إنك تحاول عبثاً » وانطوى الفتى على نفسه فى صمت يعض الأنامل من الغيظ وقد شاعت حمرة الخجل فى وجهه من أثر الخيبة ، ثم قال : « لا بأس ، فأنا أنقل عنها هنا ! » قالت : « ولا هذا أيضاً ، وإنه ليحزننى أن أحول بينك وبينها أبد الدهر » ثم

أسدلت على الصورة ستارها وهي تقول : « والآن أطلب إليك أن تمحو ذكرى هذه الصورة من خيالك ، وأن أرى فى صمتك عنها البرهان على أنك رجل ... »

ووجد والتر هوتن فى المرأة إصراراً وعناداً فانطلق من لدنها وهو يحدث نفسه قائلاً : « لا ضير فسأنال بغيتى .. سأنال بغيتى .. وإن أعجزتنى الأيام فسأجد من يسرقها ! »

وابتدأ هو — فى اليوم التالى — يتحدث حديث الصورة فراعه أن يجد فى مسز ليون الفتور والجفاف والصمت ، فهى لا ترد جواباً بسوى ابتسامة فيها السخرية ، أو نظرة فيها الازدراء ، أو كلمة فيها الاستهزاء ، وحز فى نفسه أن يرى فى صريضته ما رأى ، فراح يقلب الأمر بين يدي عقله فبدا له أن يكف عن زيارتها . وفى اليوم الثالث حدثها حديثه فى رقة وظرف، فقبلت وهى تقول : إنها شفيت وأصبحت فى غنى عن الطبيب . وفى الحق لقد وجدت هى الفرصة لتكبح فيه رغبة تأججت حيناً ، وبدا هو نبيلاً كريماً فأطاع ، فما تلاقيا ...

***

وتصرمت أيام ... وإذا والتر هوتن فى ندىٍّ يلعب (البلياردو) مع صديق له ، وعلى حين فجأة راح صديقه يحدثه : « أفتراك تعرف أن هذا المسجل (بوب) هو من شياطين اللصوص نزع عن السرقة واطمأن إلى الأمانة ، غير أنه يستطيع أن يستلب مال أى رجل هنا فى سبيل دريهمات معدودات أو زجاجة من الجعة ليريك بعض مهارته ودقته، ثم هو لا يهدأ إلا أن يرد المال إلى صاحبه ؟ » فابتسم هوتن للفكرة التى اضطربت فى خياله ، ثم تشعب الحديث فنوناً ... وقبل أن يبرح الطالب المكان انطلق إلى (بوب) يسر إليه بعض أمله فى خشية وحذر ، ثم قال: « و .. وإنه ليتراءى لى أن بينك وبين رجال ممن كانوا رفاقك صلات متينة فتستطيع أن ترشدنى إلى واحد منهم فيه الكفاية والدقة » ودهش المسجل لحديث الشاب وهو يبدو غنياً شريفاً أميناً : « ماذا ؟ أفتريد ..؟ » قال الشاب فى تؤدة : « لا ، ما أريد ذلك إننى أنشد شيئاً ليس هو بالسرقة وإن بدا كذلك .. إنها صديقتى ، وهى تملك صورة فيها الروعة والجمال ، ولقد ضنت بها علىّ على حين لا أريد منها إلا أن تعيرنى إياها فأرسم أخرى مثلها ، وأنا رجل فنان ، والصورة قد بلغت فى الإتقان والدقة ذروة الفن ؛ فإن أنا استعنت بك فما أطلب إليك سوى أن أستعيرها بالقوة أياماً ثم أردها... » قال بوب: « نعم ، الآن استطعت أن أفهم ما تريد ؛ وإن أنت تقضت وعدك فستقامى وبال أمرك » قال الشاب: « لا تخف فما كان لى أن أغتصب شيئاً هو لغيري يحله من قلبه فى المحل الأول » قال الرجل : « إذن أستطيع ... إن كورنج جيم هو الرجل » قال الشاب : « ومن عسى أن يكون ؟ » قال بوب : « هو أحد أعضاء عصابة رافيان ... وهو شاب فيه الذكاء والنشاط ، وفيه الجرأة والفتوة ، وإنه لقدير » واندفع الشاب ينشر الأمر كله على عينى الرجل فقال : « لا ضير ، فسأصل بينك وبين جيم ، ولكن حذار أن يكون في الأمر ما يزعج العجوز أو يودى بحياتها ! » قال الشاب : « لا ، لا ؛ إن شيئاً من ذلك لن يكون ؛ غير أن الصورة هى التي جذبتنى إليها فهى قد سمت فوق كل فن هنا ... هنا فى اسكتلنده »

وكان الحديث بين الرجلين همساً فى مكان خلا من الناس سوى رجل زرى الهيئة ، رث الثياب أشعث أغبر ، وقد استلق على نضد بإزاء المدفأة يغط غطيطاً ويتوسد حزمة من الصحف اليومية . وحين انطلق الطالب وصديقه إلى الخارج ، رفع الرجل النائم رأسه فى حذر ورقبة وقد شاع فى وجهه السرور ، وفى جسمه النشاط ، وفى عينيه سمات المكر ؛ ووجد سيمن بنبارك نفسه وحيداً فقفز من على النضد فى خفة ورشاقة يقول فى نفسه : « ها هى ذى مؤامرة أخرى تفيـد ميندو ! إن كورنج جيم رجل ظريف إلا أنه قد هوى . يا أسفا ! أهكذا تكون النهاية ؟ إن غاية كل من يسلك سبيله أن يتردى ... » ثم انطلق يشتد إلى دار ميندو

وبلغ الطالب وصديقه دار كورنج جيم ...

أفيكون هـذا الشاب لصاً وهو يتزى أدباً ولطفاً ورقة وطلاقة ؟ لشد ما أذهل هوتن أن يرى فى الفتى الظرف ودماثة الخلق وذلاقة اللسان فهو لا يغلظ فى حديثه ولا ينحط بكلماته إلى العامية المقوتة وهى لغة أمثـاله ! إن على وجهه سمات الإجرام ، ولكنها لم تسترع نظر الطالب فهو قد رأى رجلاً مهذباً مصقولاً دونه بعض ذوى المناصب الراقية ... وخيّل إلى الطالب أنه رأى الرجل من قبل ، ولكن أين ... ؟ متى ... ؟ إنه لا يستطيع أن يجزم

وألقى اللص السمع إلى الطالب وهو يحدثه حديث الصورة ، ويطلب إليه أن يستعيرها له بالقوة ويخلف فى مكانها قصاصة من ورق تنبئ عن الخبر كله ... ثم قال : « ولن تضل الطريق فأنا أهديك إلى هناك ، وهى فى الطبق العلوى ... » قال جيم :

« لقد قلت إنها عجوز شمطاء ، فماذا عساى أن أصنع إن هى حاولت أن تدفع عن ذخيرتها ؟ » قال الطالب : « إذن فلا تمسها بسوء ولا تبعث فى قلبها الرعب فخير لى ألا أنال صورة من أن يصيبها أذى ... » قال اللص : « لا ضير ، فما أجرى إذن ؟ » قال : « خمسة جنيهات ، أفيكفيك هذا المبلغ ؟ » قال : « نعم ، وستنال بغيتك بعد ثلاث ساعات »

وتصدّع الجمع ، فانطلق الطـالب إلى داره ، وبوب إلى عمـله . أما اللص فطار يهيء أدواته ومصباحه ثم اندفع صوب دار العجوز فى ميـدان ميلين وقد انتصف الليل . وفى هذه الآونة كان ميندو وبنبارك يفتشان عنى ... ثم انطلقنا جميعـاً نشتد علّنا نستطيع أن نقبض على واحد من عصابة رافيان

بلغ جيم الدار وقد ماتت الحياة فى كل حى ، فخلع نعليه ثم أخذ يرتقى الدرج فى صمت حتى وقف بإزاء الباب ، ثم دفعه دفعة فإذا هو على مصراعيه فى غير عناء ولا جهد ، فوقف عند عتبته يتسمع فما سمع سوى صوت غطيط العجوز ، ولمع الأمل فى ناظريه حين ردد بصره الحديد فى أرجاء الحجرة فرأى على ضوء نار المدفأة الصورة المقنعة معلقة فراح يحدث نفسه : « لا بأس ، سأختطفها ثم أرتد إلى الخلاء ، وستعلم هى كل شىء عند إنبلاج الصبح ! » ثم سار الهوينى فى حذر وخفة كأنه شبح

لشدّ ما أفزعه أن يسمع غطيط العجوز ينقلب فجأة إلى أنات اليقظى وهو على قيد شبر من الصورة ! لقد اضطرب قلبه وانتفض جسمه ووقف فى مكانه لا يستطيع حراكا ؛ غير أنها ما لبثت أن اندفعت فى غطيطها ، فأمسك هو بالصورة ينزعها عن مكانها

ووقعت الواقعة ... لقد أبصرت بالشبح من خلال الضوء الضئيل المنبعث من نار المدفأة، أبصرت به وهو يريد أن يستلب الصورة ... وفى غمضة عين أرسلت صيحة دوّت فى أرجاء الحجرة ثم ألقت بنفسها على الضيف الثقيل تتشبث به ، فهمس هو فى أذنها : « دعينى أيتها اللعينة ... دعينى وإلا صببت عليك صوت عذابي ! » قالت : « لا ، لا أستطيع » ثم صاحت : « العون ! هيا ! اللص ! القاتل ! آه ! » ثم ماتت الصيحة فى أضعاف أنة ضعيفة واهية حين دفعتها يد اللص القاسية فانحطت على أرض الحجرة كأنها قطعة من حجر . وانفلتت الصورة من يده فأضاء مصباحه وهو يقول لنفسه وقد آلمه ما كان : « لاضير ، فهى ستنال الصورة بعد أيام . ولكن ... ولكن لماذا قسوت عليها ؟ الآن أستطيع أن أنطلق ... » وساد السكون مرة أخرى فراح يبحث عن الصورة ... ووقع بصره عليها ...

وانتفض اللص انتفاضة المحموم تعركه الحمى عركا شديداً ... انتفض حين رأى فى الصورة طفلا فيه الجمال والطهر والمرح فى وقت معاً . لشد ما آلمته الصدمة فأذهلته عن نفسه فانطلق إلى العجوز الملقاة على الأرض لا تعى ولا تحس وهو يتحدث وفى رنات صوته معنى الأسى والحزن « أماه ؛ آه ، يا أماه ! ياويح نفسى ! لقد قتلتها ! قتلت أمى ، يارباه ! » ثم أمسك بيدها الباردة وراح يحاول عبثاً أن يردها إلى رشدها ... واستطاعت العجوز — بعد لأى — أن تحدّق فى الرجل الذى إلى جانبها ، فانبسطت أسارير اللص فصاح : « أماه ! أماه ! إنه أنا جيم ابنك ! » وانفرجت شفتا المرأة فى عناء عن مثل الهمس : « لا ، لست أنت ، لقد مات ! » ثم انتثرت فى ذهول شديد ...

وعلى حين فجأة اندفع الباب بشدة وصوبت أنا المصباح نحو اللص وارتمى عليه ميندو وبنبارك فى وقت معاً ليحولا بينه وبين أن يفر . غير أن الرجل لم يرتد إلى ورائه ، ثم ينقض علينا كأنه النسر الكاسر يدافع عن نفسه شأنه فى كل مرة ؛ بل ظل فى مكانه هامداً لا يتحرك وهو يقول فى حزن وانكسار : « لقد قتلتها ! قتلت أمى ! خذونى إلى المشنقة واشنقونى تحت سمع العالم وبصره » وصاح بنبارك فى طرب : « آه ها ! » ثم أخذ يتهادى فى بهجة وسرور وهو يعبث بقطعتين من النقود ذهبيتين فى يده ويقول : « لقد هددتني يا مستر جيم بالقتل ولكنه يخيل إلىّ أن السكين قد قطعت فى الناحية الأخرى . والآن وقد ضيقت عليك الخناق فلا تجد مهرباً خذ هاتين القطعتين مكافأة ذهبية لك » ولكن اللص فى ذهوله لم يع من شماتة خصمه حرفاً ، فهو يردد كلماته ما يمسك عنها

وأمرنى ميندو فوضعت فى يدى اللص غُلاً ثم سقناه إلى دار الشرطة على حين استدعينا طبيباً يعالج العجوز

* * *

وفى صباح اليوم التالى بدت مسز ليون معصوبة الرأس من أثر جرح فى جبهتها أصابها حين انطرحت على الأرض وهى تحاول أن تنقذ الصورة من بين يدى اللص ، وهى تتوكأ على امرأتين . وحين استقر بها المقام طلبت إلينا أن ترى السجين وهى تقول : إن خطأ قد وقع بالأمس تريد هى أن تكشف عنه ...

وتصرمت ساعة من زمان وهى فى حجرة اللص فماذا كان ؟ إن واحداً لا يستطيع أن يعلم ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ وخرجت من لدن اللص لتجلس على كرسى بإزاء المدفأة وعلى وجهها سمات الهدوء والطمأنينة وفى عينيها آثار عبرات مهراقة... وأقبل ميندو عند الظهر فنادته تسر إليـه بحديث طويل ويده بين يديها ودموعها تتدفق فى غير هوادة ولا رفق ، وهو يسألها حيناً ويسمع حديثها حيناً آخر وفى النهاية قال له : « لا تنس أننى أمه وهو وحيدى ، فاعف عنه واصفح كما تنتظر أنت الغفران من الله » فتطلق وجه الرجل من عبوس وحيّاها فى احترام ، ثم انطلق ...

ثم ... ثم نودى جيم للمحاكمة وأقبلت مسز ليون لحلفت اليمين وسئلت أول من سئل

قال النائب : « أفتعرفين هذا الجانى ؟ »

قالت : « نعم ، وهو ابنى » فأرسلت هـذه الـكلمات دوياً من الهياج والهمس فى أرجاء المحكمة

ثم سألها النائب : « أفتتهمينه بالتسلل إلى دارك والتعدى عليك ؟ »

قالت : « لا ، إن جيم لا يستطيع أن يجد فى قلبه القسوة فيرفع يده ليضربنى وأنا أمه »

قال : « كأنك تريدين أن تقولى إنه ليس هو الذى اعتدى عليك ، فكيف إذن أصيبت جبهتك؟ »

قالت : « لست أدرى ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننا لم نتلاق منذ سنوات وسنوات فلما رأيته إلى جانبى ألقيت بنفسى بين ذراعيه وذهلت فما أفقت إلا والطبيب يضمد جرحى »

وسمع السجين كلمات أمه فما استطاع أن يكتم فى نفسه أنه محزون يندم على ما فرط منه وفى وجهه أثر الخزي والعار

قال النائب : « أليس حقاً أنك كنت فى وقت ذات مال فرقه هـذا السجين بدداً وخلفك بين براثن الوحدة والفقر ؟ »

قالت : « إن مالى هو ماله ، غير أن رفاق السوء دفعوا به إلى الهـاوية فتردى . وإنى أطلب إليك — وقـد علمت كل أمره — ألا تسـألنى عن شىء ... » ثم أجهشت بالبكاء

قال النائب محوى وهو يقول : « إن العجوز تصر على ما تقول فادع ميندو »

وجاء ميندو فسأله النائب : « أتعرف هذا الرجل ؟ »

قال : « نعم ، إنه كورنج جيم »

قال : « أفتعتقد أنه اقتحم باب مسز ليون بالأمس ليسطو عليها ؟ »

قال ميندو : « لقد خيل إلىّ ذلك غير أننى لست خطيئتى حين علمت أنه كان يزورها »

وألح النائب على ميندو يريد منه اعترافاً ولـكن من ذا يستطيع أن يرغم هذا الرجل الصعب — وهو صائد اللصوص — أن ينزل عن رأيه ؟ لقد كان عبثاً كل ما بذل النائب من جهد ، فألغيت التهمة وانطلق كورنج جيم ليسدل على نفسه الشريرة ستاراً كثيفاً من النسيان . ثم ليكون ... ليكون هو جيمس ليون ، وليستقر فى قرية على مسافة نائية منا رئيساً لعمال مصنع النسيج هناك ، يعيش إلى جانب أمه الحنون فى هدوء وطمأنينة وقد سكن إلى الجد والنشاط والأمانة والشرف . لا يحيد عن الطريق المستقيم

كامل محمود حبيب

الجنية العاشقة

للكاتب الفرنسي أميل زولا
بقلم السيد صلاح الدين المنجد

في سنة ١٨٦٤ كتب أميل زولا أقاصيص رائعة صدرت تحت عنوان « أقاصيص إلى نينون Contes à Ninon » صور الكاتب فيها صفحة من صحائف صباه ، إذ كان في البروفانس إلى جانب فتاته نينون ينشد السعادة ويتذوق اللذة ، وذكر كيف كان يقص عليها ، كل يوم ، فوق الهضاب ، وبالقرب من الينبوع وبجانب الموقد ، أقاصيص طريفة : هي ذكرى لشباب ذابل وحب خالد

وزولا من أكبر الكتاب الذين عرفتهم فرنسا في القرن الماضي ، كان مفناً ، إذا قرأت كتاباته وجدتها تفيض بالحياة وتتدفق بالشعر ؛ وقد كان يميل إلى الابداعيين ، ويحذو حذوهم ؛ وألف قصصاً كثيرة ، يظهر لك من خلالها أسلوبه المشرق ، الذي جمع بين سحر الفن وجمال التصوير

أرهفي أذنك يانينون ! إن مطر ديسمبر يلطم الزجاج ، والهواء يرسل أنينه ، ويردّد شكواه .. إنها أمسية من الأماسي الباردة ، التي يقضقض البائس فيها من القر ، أمام قصر الغني الغارق في اللذائذ تحت توهج الذهب ! ... إخلعي حذاءك هناك ... وضعي حليتك الثمينة هنا .. وتعالي إلى أحضاني ، فسأروي لك قصة من أروع قصص الجان

نينون ! هناك في ذروة الجبل قصر عتيق ساد الظلام فيه وجثم الحزن فوقه .. ما ترين إلا أبراجاً صاعدة نحو السماء ، وأسواراً منيعة شماء ، وجسوراً متحركة جهزت بالسلاسل ، ومُلئت برجال أولي بأس شديد ، لبوسهم الحديد ، يسهرون الليل والنهار على الشرفات ، ولا يجدون راحة أو سلوة إلا بجانب سيد الحصن الجبار ، الكونت أنكيران

لو كنت رأيت ذلك الكونت يانينون ، وهو يتنزه في مماشي القصر الضيقة ، وسمعت قرقعة صوته ينذر بالوعيد ، إذن لأصابك الجزع ، واضطربت كما تضطرب أوديت ابنة أخيه ؛ تلك الحسناء الرعيب التي تفتحت أنوثتها بين فرسان قساة ، كما تتفتح زهرة الأقاح ، إذا تنفس الصبح ، تحت قبلات الشمس الضحوك بين أشواك الجبال

كانت وهي طفلة ، إذا أبصرت عمها الشيخ ، وقد ضمت إلى سحرها الذي زرّت[1] عيناها وهبت مذعورة تذرف الدمع . أما الآن فهي في ربيع الحياة . إن تدبها يا فتاتي يبثان الشكوى ويرسلان الآهات . ومازال الفرق يستولي على نفسها كلما طلع أمامها هذا المحارب القديم ...

وكانت تأتي إلى برج بعيد ، تتلهى فيه بوشي أعلام ورايات . فإذا أعياها هذا العمل الموئس لجأت إلى الله تبثه حزنها وتدعوه ، أوقلبت طرفها في السماء الضاحكة وسرحت بصرها في المروج الحادرة ... وكم من المرات ، يانينون ، كانت تقوم من مهجعها وقد سجا الليل وهف النسيم لتنظر إلى النجوم ... وكم من المرات كان قلبها يخفق لهذا المشهد الساحر ،

(١) يقال زرت عينه إذا توقدت من خوف أو غيره

ويحن إلى تلك المروج المتواثبة نحو الأفق البعيد ، ثم تسائل الكواكب عن ذاك الشيء الذي يتلاعب بروحها ويثير شجونها …

ودت بعد تلك الليالي التي ساهرت فيها النجم وبعد ذلك الحنين اللاهف للحب لو أنها ضربت يوماً عنق هذا الفارس الهرم فوقصته[1] ولكن ، وا أسفاه ! ما كان لها حول ولا قوة … إن كلامه جاف يرعب ، وإن نظراته جامدة تفزع … فكانت تأخذ الإبرة مضطربة الحواس واجفة القلب وتعود إلى وشيها الشاق !

إنك تأسفين ، نينون ، لتلك الحسناء ! إنها كالزهرة الريانة ذات العبير الطيب والأريج الشذي التي يصدف الناس عن رائحتها ويلهون عن جمالها … !

كانت ترنو يوما بعينين حالمتين إلى قمريتين تريدان الهرب من الحصن ، فسمعت صوتاً عذباً يتعالى عند باب القصر الكبير ، فانحنت من الكوة ، وإذا شاب حلو القسمات وسيم المنظر ، تأنس العين لمرآه ، يطلب المبيت ، مرسلا أنشودة بصوت رخيم ، ما فهمت لها معنى ولكن خفق لها قلبها . ورأرأ الدمع في عينيها ، ثم فاض … فساقطت درّاً من نرجس ، وبللت غصناً من المارجولين[2] كان بين يديها ..

وساد سكون عميق ، وبقيت الأبواب مغلقة . ونادى فارس من أعلى الأبراج قائلا :

إذهب وشأنك أيها الغريب ، فليس هنا سوى فرسان محاربين ..

وهمّ الطارق أن يذهب . ولكن أوديت ، التي علق بصرها به ، فما يطرف أو يتحول ، تركتْ الغصن رطباً بالدمع ، يفلت منها ، ليقع تحت أقدامه ورفع الشاب رأسه ، فاذا وجه صبوح يطل عليه … والتقط الغصن ليشبعه لثماً وتقبيلا . ثم ابتعد عن القصر ، وهو ينظر كل لحظة إلى الفتاة .

فلما غيبه الطريق المنحدر قامت أوديت تدعو الله وتصلي له ، ثم شكرت للسماء وأحست السعادة فرقصت فرحا ، وهي لا تدري لكل ذلك سبباً ..!

وإذ كان الغسق جلست إلى راية تصلحها ، وهي تفكر في ذاك الفتى ، ثم داعب النعاس أجفانها فأذبلها وارتمت على فراشها … واستسلمت لنوم غرق مضطرب ، ورأت حلماً … إنه حلم ساحر يانينون ! خيل إليها أنها ترى غصن المارجولين الذي أفلت من يديها ، وإذا بجنيّة ، ما رأت العين أجمل منها تخرج من زهرة تتفتح بين أوراق الغصن المرتعشة . ولها أجنحة من الهب ، وتاج من الأزهار ، تتدثر برداء أزرق ، لونه رمز الأمل ، وتناديها بصوت حلو النبرات :

أوديت ! أنا الجنية العاشقة ! أنا التي أرسلت إليك لوئيس هذا الصباح ذاك الفتى ذا الصوت الحنون … أنا التي ، وقد رأيتك تذرفين الدمع ، جئت لأجففه .. أضرب في الأرض ، وأؤلف بين قلوب العاشقين . ! … أزور الكوخ ، كما أزور القصر ، وأجمع عصا الراعي إلى صولجان الملك . أنا التي أزرع الورد تحت أقدام المحبين .. ! ثم أربط بينهم بينين تختلج القلوب لهم فرحاً . أعيش بين الأعشاب ، وفي جذى الموقد المتآكلة ، وتحت رفارف أسرة الأزواج … ! وحيث أضع قدمي فهناك يقوم حديث الغزل ، ويكون همس القبل ! لا تبكي أوديت ، فقد أتيت لأجفف دموعك …

وعادت الجنيّة إلى الزهرة التي خرجت منها ، واختفت هناك …

(١) وقصتها أي كسرتها يقال وقص الرجل إذا دقت عنقه

(٢) Margolaine : السمسق ، وهو نبات طيب الرائحة له أزهار كأزهار الياسمين ..

أنت تعرفين يا نينون أن جنيتنا في الوجود ..
انظري إليها ترقص في الوقد، وتألمي لمن لا يفكر بها
واستيقظت أوديت وأشعة الشمس تنير غرفتها
والعصافير تصدح بالأغاني والنسيم الصافي يداعب
شعرها المغدودن الأشقر ، وقد حمل عبير القبلة
الأولى التي سرقها من الأزهار على عجل .. فنهضت
والنفس مفعمة بالفرح ، وقضت يومها تغني تارة
وتنفض[1] الحقول أخرى ، وترسل ابتسامة رقيقة
لكل عصفور يحلق ، والأماني تغريها فتقفز هنا
وترقص هناك ، ثم تضرب كفيها الصغيرتين
بعضهما إلى بعض بقوة وسرور ...

فلما كان الطفل تركت مخدعها ، وهبطت إلى
ردهة القصر الكبرى فوجدت فارساً يصغي إلى
حديث عمها الكونت ، فعمدت إلى مغزلها
وانتبذت مكاناً إلى جانب الموقد تسمع إلى صرصر
يغني .

ونظرت إلى الشاب ، فإذا غصن المارجولين
بين يديه ، يا لله ! إنه لوئيس ... وعلت وجنتيها حمرة
ونضرة ، وكادت ترسل صرخة تدوي في فضاء
الردهة ، ولكنها انحنت على الموقد تؤرث النار
فيسمع لها حسيس كأنه بث الأحزان ، ويتمايل
اللهب ، ويفور الموقد ، وتهيج النار . وفجاءة ينبجس
من الموقد نور شديد وتظهر الجنية العاشقة ، وقد
افتر منها الثغر ، ومال منها الجيد ... فتجمع ثوبها
الأزرق بين يديها ، وتنطلق في الغرفة دون أن
يراها أحد إلا أوديت ...

أما الكونت فكان مسترسلا في حديثه يقص
نبأ معركة هائلة وقعت مع الكفار ، ويقول :

— ... فتحابوا يا أولادي ... ودعوا أشباح
الشيخوخة الزاهدة . أبقوا لها الأقاصيص بجانب
النار المشتعلة ، ولا تجمعوا الآن إلى زفير النار سوى
وسوسة القبل ... ! سيكون لكم يا أولادي من
ذكرى هذه الساعات التي ذقتم بها اللذة ما يخفف
أحزانكم وهمومكم فيما بعد ... والمرء عندما يحب
وهو في السادسة عشرة من عمره ، فالكلام لا يجديه
آنئذ نفعاً . إن نظرة واحدة خير من خطاب طويل .
تحابوا يا أولادي واتركوا الشيخوخة تتكلم .. !

وأظلت الجنية العاشقين بأجنحتها ، فغدا
الكونت لا يرى لوئيس الحبيب ، وهو يطبع قبلته
الأولى على جبين أوديت الحبيبة المرتعشة !

نينون ! يجب أن أتكلم لك عن أجنحة جنيتي ..
لقد كانت شفافة كالبلور ، دقيقة كأجنحة الذباب ،
ولكنها أيضاً كانت تنقلب إلى ظلام دامس كثيف
فلا يتجاوزها عندئذ رنين القبلات ووجيب
الأفئدة ... ليكون العاشقان بنجوة من العيون !
وهكذا ... وبينما الشيخ غارق في حديثه عن معركة
المؤمنين والكفار ، كانت معركة القبل قائمة بين
لوئيس وأوديت ... !

لقد حضن الجسم الريان ، وقبل الخد الأسيل
ودغدغ النهد الناعم ، وتمتع بالطرف الوسنان ...
والشيخ في حديثه غارق مسترسل ... !

ليت شعري ما تلك الأجنحة ... ؟ إن الفتيات
ليجدنهن أحياناً — كما قيل — فيأمن شر الأبوين
ويتمتعن بالحبيب ، أحقاً ما يقال يا نينون ... !

واختفت الجنية العاشقة ، وقد أنهى الكونت
قصته ، وذهب لوئيس شاكراً لمضيفه الكونت...
ونامت الفتاة تحفها السعادة ، والأماني حولها حوم
ترفرف ، والعين قريرة والبال هادئ

(١) نفض الرجل المكان : إذا نظر إليه ليرى كل ما فيه

أما هذه الليلة ، فقد رأت جبالاً كلها أزاهير ، زينت بألوف من الكواكب المصابيح نور كل منها أشد وضاءة من نور الشمس ....

وأصبح الغد ، فلما متع النهار نزلت إلى حديقة القصر والتقت ثمّ بفارس حياها فردت له التحية ، ولما ابتعد عنها نظرت إليه ، فإذا غصن المارجولين معه رطب بالدمع . وها هي ذي أوديت تلتقي بالحبيب مرة أخرى ... لقد عاد إلى القصر بعد أن تنكر بزي فارس . أواه يا نينون ! لشد ما يكون السرور عظيماً عند ما تلقى الحبيبة فتاها في وضح النهار ...!

وأجلسها على مقعد مخضوضر من العشب تحت ظلال السنديان ، واللسان صامت والعقل شارد ، وراحت العيون تتناجى ... والأفئدة تصغى ...

لن أقول لك يا فتاتى ما تحدثت به شجرات السنديان عند ما رأت الحبيبين . إن فى سماع الحبيبة وهي بين يدى الحبيب لذة ما فوقها لذة ، لقد جاءت الطير كلها تستمع إلى لحن الحب ، وتبنى أعشاشها فوق تلك الشجرات ...

وسمعت الفتاة ، على حين بغتـة ، وقع أقدام الـكونت ، وهو يمشى فى الممر الطويل ... فأصابتها الرجفة وانتظرت شراً مستطيراً ... ولـكن... إن الينبوع لايزال يرسل خريره الحلو الشجي ، وها هى ذى جنيتنا الحسناء تأتى فتظلل العاشقين بأجنحتها والهواء رخيّ ، ويختفيان عن الأبصار ، ويعاودان حديث القبلات ... ويقترب الـكونت ، فيأخذه العجب ! إنه ليسمع أصواتاً ولا يرى أناساً !

وانبرت الجنية الحسناء تقول :

— أنا حامية الحب ، أضرب على بصر من لا يحب غشاوة فـما يسمع أو يرى ! لا تخافا بعد اليوم أمراً ، أيها العاشقان الجيلان ... بل أجيبا داعى الحب فى وضح النهار ، والجو صاف ، وفى الليـل والنسيم يرف ، وبجانب الينابيع والأوراق تحفّ . أرسلنى الرب لأصرف عنكم أذى الرجال ، هؤلاء الساخرين من كل فضيلة ، وحبانى بأجنحة من لهب وقال : « اذهبي ... ولتتحاب القلوب ! » فيا بشركم ... إنى هنا ، أحرس الحب وأرعاه ...

ثم ذهبت تلتقط الندى غذاءها الوحيد تاركة وراءها الحبيبين ، وقد عاق فم بفم واشتبكت كف بكف ... !

وبقيا حتى الليل ، فلما دنت ساعة الفراق ظهر الأسى فى نظراتهما فأسرت الجنية إليهما بقول يخيل أنه راقهما ، فانبسطت أسارير وجهيهما إذ سمعاه . ثم رجواها شيئاً . فأخرجت قضيباً معها ، ولمست به جبيني العاشقين

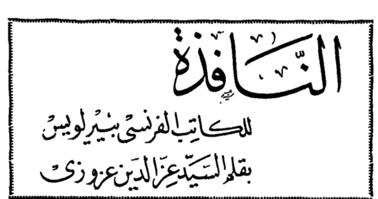
وفجأة ... أوه ! يا نينون . مالك دهشت هكذا انتظرى سأتم قصتى ...

وفجأة انقلب لوئيس مع أوديت إلى غصنين من أغصان المارجولين ! نعم من المارجولين الغض الزاهى. نبتا جنباً إلى جنب ، ولامست أوراق الأول أوراق الثانى ، واشتبكا . هنا يا فتاتى ... تتفتح أزهار لن يمد الذبول إليها يده ، بل تبقى ... ويبقى أريجها متضوعاً إلى الأبد !

***

والآن يا نينون ، عند ما نعود عند المروج الخضراء . سنبحث عن أغصان المارجولين وسنسألها فى أية من الزهرات تختبئ الجنية الحسناء . إن لقصتى يا صديقتى مغزى ، وما كنت لأقصها عليك إلا لأنسيك مطر ديسمبر الذى يلطم الزجاج وأبعث فيك هذا المساء شيئاً من الحب ... يحوى ... أنا !

صلاح الدين المنجد



سأحدثك فى هذا المساء ياصديقى العزيز عن سبب امتناعى عن الزواج ، لأننى طالما رأيتك مهتماً لمعرفة ذلك ؛ وإن سؤالك هذا لأحب إلىّ من صمت الآخرين الذى أجد فيه من الخفايا مايجرح كبريائى

ليس أحد فى الواقع يجهل ما عليه أسرتى من الغنى وما خلفه والدى من الأموال الكثيرة ؛ وإذا لم تتزوج فتاة غنية مثلى فإن سبب ذلك يكون في الغالب : إما طمعها ، وإما قبحها ، وإما عاداتها وأخلاقها . وأنا أترك للناس محض الاختيار فى أن يحكموا علىّ بجميع تلك الفروض ، أو أن يختاروا واحداً من بينها

ثق بأننى ما رفضت يد الراغبين في الاقتران بي لشىء فى أنفسهم ؛ لا ، لا ... إننى ابتعدت عن الزوج الشرعى وعن الخليل ؛ وكان ابتعادى عنهما ممزوجاً بخوف لا أدرى له تعليلاً ، ولكن هـذا الخوف أخذ يقل فى هـذه الأيام ؛ ذلك من فعل الأربعين ، وطمأنينة الكبر ، وشعورى بأن الناس قد انصرفوا عنى انصرافاً كلياً ، ولم يعد يعنيهم من أمرى شىء

إن قصتى ليست قصة حب بائس . لا ... أنا لم أحب فى حياتى أحداً قط

لقد أصبحت ، ياعزيزى ، عجوزاً فى مساء يوم كان عمرى فيه سبع عشرة سنة ! أصغ إلى ما سأقوله لك فإن قصتى سوف لا تكون طويلة فتمل استماعها !

قد تستغرب وتتساءل لماذا سلبنى هذا الحادث البسيط كل أفراح المستقبل ، وإنك لتقرأ كثيراً من أمثاله فى الصفحة الثالثة من كل جريدة !

لقد كنت متأثرة به فى كل حياتى ، لأننى شهدته أمام عينىّ وعلى بعد خطوة منى ؛ وأنا متأكدة من أنك سوف لاتشعر بشىء مما شعرت به لأنك ستسمعه كما تسمع حكاية من الحكايات أو قصة من القصص !

***

وضعت الآنسة «ن» جبهتها على يدها وابتدأت تقص علىّ الحادث ونظرها مثبت فى الأرض لاترفعه إلى وجهي لحظة قالت :

« منذ خمس وعشرين سنة كنت أقيم مع والدتى فى نزل قديم مقابل كنيسة « سانت سُلپيس » فى ضواحى باريس ؛ وكان هـذا النزل خاصاً بالطبقة الراقية ، على بساطة فى مظهره وتواضع ، وكانت جميع نوافذه تطل على شارع ساكن كسكون ممر فى غابة من الغابات .

كان الفصل فصل صيف ، وكانت غرفتى التى أنام فيها مع والدتى شـديدة الحرارة ذات مساء ، حتى أننى لم أستطع أن أنام ، فخطر لى أن أفتح النافذة ، ولكننى خشيت أن أوقظ أمى . وبعد أن

أرقت ساعة بكاملهـا نهضت من سريرى ولبست جوربى ، ونزلت السلم العريض مرتدية قميص النوم حتى وصلت إلى ردهة الطابق السفلى . ولا بد من أن تعرف جيداً موقع الردهة كي تتبين الحادث كما وقع بحذافيره .

كان للنزل سابقاً حديقـة تمتـد على موازاة الشارع ، ثم بيعت هذه الحديقة لبعض البنائين ، وأخذت البلدية منها قسما جعلت به الشارع فسيحاً أكثر من ذى قبل .

كانت نافذة من نوافذ الردهة تنفتح عن زاوية مظلمة خفية لا تصل أشعة (الناز) إليها ، ولا يستطيع المرء أن يتبين ما فيها ، ولو خرجت عينه من محجرها لشدة التحديق !

لما وصلت إلى الردهة التفت فرأيت أنهم لم يغلقوا هـذه النافذة الرهيبة ، وإنمـا أغلقوا مصراعيها الخارجين ، فصعدت إليها ، وجلست فوق عارضتها إذ كانت قواى قد وهنت من شدة الحرارة ، وأخذت أستنشق برودة الليل بنهم ، فأحسست أنها سرت فى جميع جسدى ، من أم رأسى إلى إخمص قدمى !

لقد كانت هذه اللحظة هى الأخيرة من لحظات حياتي التى شعرت فيها بسرور صاف لا يكدره أسى ولا تشوبه شائبة ذعر أو قلق !

لم أكد أترك مكانى حتى رأيت فى الجهة المقابلة للمكان الذى أنا فيه شخصين : رأيت رجلاً يقود فتاة إلى هذه الزاوية المظلمة الخفية !

كان الرجل من أولئك الذين يعملون ثلاثة أسابيع ويتعطلون بعدها ستة أشهر ، لأن جمالهم يخولهم احتقار العمل الشريف ، وكانت الفتاة جميلة ريانة فاتنة فى الخامسة عشرة من عمرها ؛ تحبها أمى وتعطف عليها وتغمرها باحسانها ، لكثرة ما تشترك معى فى أعمالى

كانت لابسة ثوباً أسود قصيراً جداً ، وقميصاً رمادياً ، ورافعـة ضفيرتها الصغيرة فوق رأسها الأشقر ، وكان الرجل ممسكا بكتفيها يقول لها فى لهجة المستعجل :

— وهنا هل تريدين ؟

فتجيب جواباً مذعوراً :

— دعنى ... دعنى

يا عزيزى ، لو قدر لك أن تسمع جوابها له لقلت إنها تعيده للمرة المائتين

قال لها الرجل : ألم تقولى نعم ؟ لمـاذا تنقضين قولك ؟ إننا هنا فى مكان مناسب ، لماذا لا تودين ؟

— لا ... ليس هنا ... ليس هنا

— إذن أين تريدين ؟ أنت لا تحبينني ، كما أننى أصبحت الآن لا أحبك !

أشارت الفتاة إليه إشارة السلب ؛ فاشتد غضبه وصاح بها : « تى تين ، انظرى إلىّ . تكلمى فى وجهى . هل تصدقيننى فى حبك ؟ نعم أو لا ؟ إذا كان لا ، فأنت تعلمين أن لدىّ كثيراً غيرك من الفتيات الجميلات

لم ينتـه الرجل من كلامه حتى انفجرت المسكينة تبكى بكاء مراً طويلا ، وهى متـكئة على عارضة الشباك حيث كنت مستندة بكتفى ثم قالت له :

— نعم ، إنى أحبك حباً جماً ، ولـكن ليس لهذا الأمر ، ليس لهذا الأمر ... آه لا أدرى كيف أكلك ، ولـكن ليس هـذا هو الحب . أحبك لأنك لطيف ... لأنك تكلمنى على غير ما يكلمنى الآخرون ؛ لأننى أشعر بسرور وفرح عميق ساعة أراك عائداً إلى النزل فى المسـاء . إننى أحب أن أعانقك . أعانقك قدر ما تريد فى كل مساء ، فى أى وقت تحب . ولـكن منذ أخذت تكلمنى فى هذه الأمور ... لا ... لا أريد . على الأخص مع رجل مثلك يخيّل إلىّ أن العاقبة تحمل فى طياتها شراً مروعاً ! !

رفع الرجل أكتافه ولفت رأسه لفتة استخفاف ورحمة وقال : لك الله من ساذجة مقدسة !

وحدثها بكثير من الأقوال التى أخجل أن أذكرها لك ؛ ثم سحب من وسطه سكين جزار تشبه سيفاً وغرزها فى النافذة فى محاذاة صدرى وقال لها بصوت يخنقه الاضطراب :

— والآن ... إذا وثبت من هذه النافذة فإننى أخزك !

كان مشهد الفتاة وقد توترت أعصابها وتقلصت أطرافها قاسياً ، وكان الشارع خالياً من كل إنسان والحقل ساكناً سكوناً عميقاً ، والساعة تدق الثانية بعد نصف الليل !

كل شيء نائم في هذا الحي إلا هذين الشخصين، وإلا أنا المتفرجة الفزعة ؛ كانت الفتاة أمامى حتى لو أننى مددت إليها بعض أصابعى لاستطعت أن أمسها وهى تقاوم الرجل بشدة وعنف

ثم انطوت على نفسها وحنت رأسها الصغير الأشقر ، واصطكت ركبتاها ، وأخذت تلهث كالحيوان التعب ؛ وكانت كلما أمسك الرجل بذراعيها ضمت فخذيها ، وكلما مس ثوبها نازعته بيديها . ولقد ظلت على حالها هذه زمناً طويلاً أكثر مما تتصور ، ولكنها غلبت أخيراً على أمرها كما غلب (كارون) الراعى وأرداه صريعاً

عند ذلك أخذت السكينة تضرب الفضاء بيدها وتتعلق ببعض النبات المزروع فوق النافذة

* * *

لم تكن الفتاة لتعلم أنها تمسك بيدها سكيناً وأنها تدفع بها للمرة الأخيرة ذلك الرجل الذى جرحها فى جسدها وفى روحها جرحاً لا يلتئم . إنها فعلت ذلك دون قصد منها ولا وعى

يا أسفا ! أى شيء هو جسد الانسان ! إنه طين رقيق مائع يسيل من ضربة واحدة !! لقد دخلت السكينة فى عنقه وخرجت تلمع من طرفه الآخر !

ثم انبثقت نافورة دم وخرجت من شقوق النافذة وانصبت على مئزرى لترويه

غص الرجل بالسكين فجحظت عيناه وفتح فماً مخيفاً ، ولم يتنفس الصعداء ، ولكنه لما وقع على وجهه ، أرسلت — هى القاتلة — فى سكون الشارع ثلاث صرخات كلها ذعر وهول . ثم تراجعت إلى الخلف وأخذت تثب فى مكانها كما يثب عصفور أسود

وأيم الله لم أسمع فى حياتى كلها صرخات تفعل بالنفس مثل صرخات الموت هذه !

* * *

أما الذى حدث بعد ذلك فإنه لايهمك كثيراً أليس كذلك ؟

إن أمي استيقظت وهي مذعورة ، وانطلقت تبحث عنى خائفة وجلة ؛ ولما التفتت إلى سريرى ووجدته خالياً نادتنى باسمى فى جميع نواحى النزل فوجدتنى واقفة فوق ذلك الشباك ، وثوبى ملوث بدم القتيل الأحمر فخالته دمى للوهلة الأولى ... ولكننى لم أقص عليك هذا الحادث لأبين لك هول موقفى من أمي

إن بقية الحادث وتفاصيله الدقيقة لاتزال تروى أعماق ذكراى ...

كانت سنى سبع عشرة سنة ، وفى نصف ساعة تعلمت فيها من هذه الفتاة كل شيء . أنا الطفلة التى كنت أجهل كثيراً من أمثال هذه الحقائق

تعلمت فيها كل أسرار الحياة والحب والموت وكل ما تسميه القصص بـ « الأمنية » . تعلمت منها من هو الرجل العاشق ، وأخيراً من هو الرجل الذى يموت !

يا عزيزى إذا كان كثير من الناس يجهلون لماذا فضلت أن أعيش دون شريك ، فلتكن أنت وحدك الذى يعرف سبب ذلك !!

عز الدين عزوز

الأعمى الذى ارتد بصيرا

للقصصى الانجليزى أدون بو
بقلم نظمى خليل

قيل إنه ولد أعمى فانفرد فى عالم من الظلمة الطاخية منذ اللحظة التى حاول أن يرى فيها وجه أمه بعينيه المظلمتين وقلبه العامر بأشواق الطفولة الجامحة وأسرارها الخفية الغامضة ، ولكن هذه اللعنة التى قضت عليه أن يطوى حياته كلها من المهد إلى اللحد فى ظلام دامس لم يكن قد ورثها عن والديه ؛ فقد كانت أمه ابنة أحد سراة المزارعين على جانب كبير من الجمال ، زرقاء العينين ، دقيقة القسمات ، قوية التركيب ؛ وكان أبوه شريف الأصل كريم الأرومة لم يعرف فى حياته مثل هذه اللعنة التى حار الناس فى تعليلها والكشف عن حقيقة أمرها

ولكن الحقيقة المؤلمة هى أن صاحبنا كان إحدى هذه الضحايا فلم يشعر يوماً بأشعة الشمس اللينة إلا أنها نوع من أنواع الدفء الطبيعية ، ولم يفهم من الأزهار المتفتحة إلا أنها روائح وعطور!

أما أحبابه فقد طالما استمتع بأصواتهم الرقيقة وجلساتهم المؤنسة وحنانهم الغامر وهم يبللون خده الناعم بدموعهم السخينة الدافقة

لقد كان عالمه الخفى مليئاً بالصعاب التى طالما آذت جسمه وأدمت أطرافه . يزجر بالأصوات المرعبة والصيحات المدوية حتى أن أسنانه كانت تصطك وتتلاصق كلما لمست أطراف أصابعه الحساسة إحدى تلك النتوءات البارزة ، فالنور والظلام ، والليل والنهار ، واللون والشكل ، والأبعاد والنسب ، والجمال والقبح ، كل هذه لم تكن فى نظره إلا كلمات لا يدرك معناها

إذا كان المال عنوان الثروة ، أمكننا أن نعتبر صاحبنا من الأغنياء ؛ إلا أن العطف الذى كان يلقاه من أمه وأخته اللتين عاش معهما كان يفوق كل غنى وثروة ، فقد مات أبوه محطوم القلب ، مكلوم الفؤاد ، لأن آماله قد خابت فى ابنه الوحيد ؛ فنشأ الابن فى أحضان أمه حتى أصبح شاباً منضور الشباب ورجلاً مكتمل الرجولة مع رقة فى الروح وليونة فى الطبع ودماثة فى الخلق

لقد كانت الموسيقى بهجته فى الحياة وسلوته فى المحنة ، تضىء له جوانب نفسه المظلمة وتحمل البلسم إلى روحه الحزينة فى أشد حالات اليأس والألم ، فيغنى على أنغام البيان والقيثار فى صوت شجى مايبدد وحشته ويخفف كربه ؛ وكان صاحبنا ميالاً إلى الأدب كلفاً بالخيال منذ طفولته ، راغباً فى صحبة الإخوان ومجالسة الندمان ، يأخذ بنصيبه فى الشراب والنكتة اللاذعة والضحك الصاخب فى غير تمنع منه أو دفع من غيره

فكانت حياته مزيجاً من المأساة الدامية والملهاة المازحة ، إذ كان سعيداً راضياً ، اللهم إلا عندما كانت تعاوده تلك الأفكار القديمة فتذكره بمصابه الأليم فينكفىء إلى بيته مهدوم الأركان متداعى البناء .

قضى الشطر الأكبر من حياته فى بيت قديم على الشاطىء يمتع نفسه بموسيقى البحر المتجددة

ونسيمه العليل ؛ يفزع من المدن ويخشى ضجيجها ، فلم يكن لينقاد إلى كل هذه المخاوف والمثيرات . وكان كلما مضى إلى منزل أحس بشعور غريب إذ يشعر أن قدمه ستزل به وأنه سيهوى على وجهه ، أما الشوارع الصاخبة ذات الرائحة الكريهة النفنة ، فقد كانت تؤلمه وتؤذيه وتحمل إلى أذنيه الخائفتين المرتجفتين أشد أنواع العذاب

وكثيراً ما كان يضيق بحياته الراتبة فينفر إلى الجبال الشم الرواسى ، فيجد فى صمتها الرهيب الدائم تسكيناً لأحاسيسه الثائرة المهتاجة ، ولكن هذا الصمت الدائم لا يلبث أن يثقل عليه فيفزع من تلك الوحدة الموحشة ويفر من تلك العزلة القفرة إذ يشعر أن الأفكار التى تدور فى خلده إن هى إلا أجراس تقرع فى رأسه !! فيأمر خادمته أن تعود به إلى البيت القديم حيث يجد فى زئير البحر ورشاش الماء الذى يصافح وجهه ويلامس يديه الهدوء والاطمئنان

هكذا قضى صاحبنا أربعة وعشرين عاماً بعد أن فقد كل أمل له فى رؤية عجائب الأرض والبحر والسماء

لقد جاءوا إليه بأساطين الطب ولكنهم جميعاً وقفوا حائرين أمام هذا المرض العجيب ، وبالرغم من ذلك فقد كان صاحبنا يحتمل كل أنواع العنت والاجهاد التى كان يعانيها فى الفحص والعلاج من أجل أمه وأخته ، وكان يشعر فى قرارة نفسه — وهو الرجل القوى دائماً — أن التشبث بالآمال الكاذبة هو اليأس بعينه ، وأن الاعتراف بالحقيقة والتسليم للواقع راحة للضمير وسلوة

وفى سن الخامسة والعشرين جاءه نبأ ذلك الطبيب الايطالى العظيم الذى شفى كثيرين ممن ولدوا عمياً ، فأرسل فرديناند صديقه ويمان ، وهو طبيب للعيون أيضاً ، ليتحقق مدى صدق هذه الاشاعة . فلما عاد ذلك الصديق تحدث إلى فرديناند عن ذلك الطبيب الشهير « بيرارا » قائلاً : « إن بيرارا ليس رجلاً ظريفاً ، إلا أنه ليس دجالاً كما يشيع عنه خصومه وحساده . لقد شاهدت بنفسي ... » ثم مضى يصف تلك المعجزات التى رآها بعينيه ، وهو يرغب فى معالجة فرديناند إلا أنه يشترط لهذا شرطاً واحداً

فتنهدت الأم وقالت : وهو ...

— إنه لا يضمن شفاء فرديناند شفاء تاما إن كان قد ولد هكذا . فامتقع وجه الأم ثم قالت فى صوت متهدج مضطرب : « لقد ولد أعمى »

فقال الرجل : ومع أن « بيرارا » لم يرَ فرديناند إلا أنه لا يجزم بشفائه . لقد أخبرنى بما أعتقد أنه صواب ، وهو أن شفاء الانسان الذى يولد أعمى أندر ما فى الوجود حتى ليعد من المسير . إن فرديناند يستطيع أن يبصر إن كان قد وقع فى تلك المحنة بعد ولادته ببضع ساعات

— إنا لا نعرف بطبيعة الحال ، فأنا نفسى لم أرتب فى تلك الحقيقة المحزنة إلا بعد يومين كاملين من ولادته ، وكنت أتطلع إليه طيلة تلك المدة

— إن بيرارا يضع نفسه تحت تصرفك ، ومع أنه رجل عظيم إلا أنى أخشى أن يكون نفعياً بعض الشيء . لقد قاسى كثيراً من البؤس والفاقة فيما مضى ، ويخيل إلى الآن أنه يحمل فى جعبته نصف الفكاهة التى تدور على ألسنة المجانين فى هذا العالم ، إلا أن هذه الفكاهة لم تزده إلا مرارة وألماً

— إنى أرحب به على أى حال إذا استطاع أن يشفى فرديناند . عليك الآن أن تسرع فى طلبه ، فهما يكن من أمر فإن النتيجة لن تكون أسوأ مما هى عليه الآن

ثم أرسل فى طلب الطبيب ، وأسرعت الأم والأخت إلى تهيئة الشاب لهذا اللقاء المنتظر . فلما دنت الأم من الابن صاح فى صوت حزين مؤثر : « ماذا ؟ أطبيب آخر ؟ كنت أعتقد أنه لم يبق هناك أحد . ولكنه لم يأت الطبيب حتى أسلم إليه نفسه أسبوعين كاملين فى عزم قوى وصبر عجيب

وفى نهاية الأسبوعين خرج الطبيب قائلاً : هناك أمل قوى فى الشفاء . ثم اندفع فى تفاصيل علمية صحيحة لم أع منها إلا ألفاظاً قليلة تنم عن ثقته بنفسه ورسوخه فى ذلك العلم ، إلا أنه لم يكن فى كل ذلك بالمتفاخر أو الواثق من النجاح إذ ختم كلامه بقوله : « وأظنك تعذرنى فى هـذا . ولكنى أعتقـد أنك رجل تستطيع أن تحتمل حقيقة أمرك

— أجل

— تستطيع أن تحتمل شر الصدمات

— أجل ، لقد تغلبت على كثير منها

— إذن أرى لزاماً على أن أفضى إليك بما أعتقد وهو أنى أستطيع أن أعيد إليك بصرك إلا أن هـذا قد لا يكون دائماً ، ثم تردد ... فقاطعه فرديناند : نعم ؟

فاستأنف الطبيب كلامه قائلاً : « إنى لا أخفى عنك الحقيقة ، وهى أن هذا الشفاء ربما يكون إلى أجل معين . فهل تستطيع أن تحتمل هذا ؟

— إن هـذا ثقيل لاشك ، ولكن يمكننى احتماله

— أتدرى أثر إعادة بصرك لمـدة معينة فى نفسك ؟ إنك الآن لا تفهم أثر فقدك لبصرك تماماً ، فانك لا تفكر قط فى فائدة عينيك لك ، ولكنك لو أبصرت فجأة مدة ساعات ، بل قد تكون دقائق معدودات ، ثم عـدت إلى حالتك الأولى حيث لا يكون لك أمل فى الشفاء ثانية ... ثم توقف فجأة عن الكلام :

فأجابه فرديناند : إنى مستعد لأية تجربة تجريها علىّ ما دام هناك أمل فى النجاح

— إنه أمل قوى إذا قمت بما أفرضه عليك

— لك علىّ هذا

لقد كان العلاج كثير الألم بطىء السير ، فقد قضى فرديناند ستة أسابيع مستلقياً على ظهره فى غرفة مظلمة داجية ، معصوب العينين وعلى جبينه بعض الأربطة المبللة المشدودة ، وقد حيل بينه وبين الرياضة ، يتبع نظاماً خاصاً من الأكل . ولكنه احتمل هذا الوضع الشاذ المؤلم لا يتحرك ولا يذوق النوم إلا لماما ، فى شجاعة نادرة وصبر عجيب . فلم يشكُ ولم يحاول أن يفلت من العلاج يوماً ، بل لم يتجلَّ نبله ومتانة خلقه إلا فى تلك الأيام العصيبة القاسية

وفى نهاية الأسبوع السادس من العلاج لم ينزل الطبيب كعادته إلى مائدة الإفطار فذهبت الخادم تبحث منه ولكنها ما لبثت أن عادت حاملة أسوأ الأنباء ، فقد سافر الطبيب على غرة بعد أن حزم أمتعته بيديه وحملها بنفسه إلى المحطة

فاندفع الدم إلى وجهى الأم والأخت وأخذت

كل واحدة تنظر إلى الأخرى نظرة الدهشة والحيرة والذهول ، فقد نال منهما هذا الحادث حتى كاد أن يحطم قلبيهما ، فهل كانت هذه هى نهاية أحلامهما المرجوة ؟

وأخيراً قالت الخادم : « لقد وجدت هـذا الخطاب ، ثم ألقته بجانب طبق الأم »

ولـكن الدنيا كلها كانت تضطرب وتهتز أمام عيني المسكينة الناشيتين ، إلا أنها استجمعت قواها وتناولت الخطاب وفضته فانبجس الدمع من عينيها وجرى على خديها فلم تستطع أن تفسر تلك السطور التي جرى بها القلم فى عجلة واضطراب ، فناولته ابنتها فى صمت ، ولـكن الفتاة لم تكن أقل من أمها ألماً وحسرة إلا أنها تظاهرت بالجلد وأخذت تقرأ :

« الدكتور بيرايرا له أن يخجل من نفسه . فان مغادرته كانت لضرورة ملحة ، وإن واجبه نحو نفسه فى تلك الفرصة النادرة التى واتته كان يحتم عليه هذا السفر الفجائى . فقد عرض عليـه أحد أصحاب الملايين من الأمريكيين مائتين وخمسين ألف ريال إذا ذهب إليـه لمعالجة ابنه الذى فقد بصره » ثم مضى يشرح نوع ذلك المرض الذي أودى ببصر ذلك الابن فعزاه إلى مرض بسيط يصيب العصب البصرى من السهل علاجه كما يتضح هذا من قول طبيب آخر في البرازيل . وعلى ذلك وجد نفسه ملوماً إذا هو ترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده .

وفضلا عن هـذا فانه لم يبق له عمل مهم مع فرديناند ، فبمجرد أن تزول « اللزقة » المشدودة على الجبين يمكن فك بقيـة الأربطة التى على العينين ، وعندئذ يستطيع فرديناند أن يبصر إذا كان مقدراً له ذلك . ثم ختم خطابه باعادة تصريحه الأول وهو أن الشفاء قد يكون إلا إلى مدة معينة .!

فتنفست الأم والأخت الصعداء إذ لم ينعـدم الأمل بعد فى شفاء فرديناند . ثم ذهبتا إلى حجرة الشاب ليفضيا اليه بجملة الأمر ، فاستمع اليهما فى هدوء وثبات ، وأخيراً قال : « لم يعد هناك شك فى أن الرجل دجال . ولـكنى لن أحكم عليه بهذا حتى أعرف النتيجة ولم يبق بينى وبينها إلا بضعة أيام .

يا لها من أيام ثقيلة جافة أيام المحنة !

وأخيراً أخذت « اللزقة » تجف وتتساقط شيئاً فشيئاً ، ولـكن « بيرايرا » كان قد حذرهم من فك الأربطة قبل أن تجف اللزقة كلها وتسقط عن الجبين .

وهكذا قضت تلك القلوب الثلاثة الحائرة الأيام الخمسة تعدها بالساعات والـكل ينتظر ختـام تلك القصة الدامية التى تعيد للمريض بصره وتدنيه من أعز ميراث للانسانية ، أو تطيح به بعيداً عن عالم النور والجمال للأبد .

فلما جاءت تلك الساعة ألفته حائراً متردداً ، فقد استولى عليه نوع من الذعر من ذلك المستقبل المجهول الذى يواجهه ، جعله يبعد يده عن الأربطة فـكيف يستطيع أن يتحمل صدمة الإبصار لأول مرة فيرى عالم الناس العجيب ، أو كيف يقابل أسوأ الصدمات فيقف على تلك الحقيقة القاتلة : فقده بصره للأبد !

أما الأم والأخت فقد وقفتا بجانبه تشاهدان هذا التردد بقلوب واجفة وصبر مسلوب .

ثم ابتعد الابن بيده وقال : « لا ، إنى لا أجرؤ على هذا . إنى خائف ياأمى . آه ! ربما كان الأفضل لى ألا أنوء تحت هذه التجربة الخاطرة فقد كنت سعيداً

من قبل ، سعيداً على أى حال ، ولكن لو قدر لى ألا أبصر بعد هذا فلن أعرف السعادة إلى الأبد

فمدت الأم يدها ووضعتها على رأسه فى خفة وحنان فأخذها الابن بين يديه وقبلها ، ثم صاح وهو ممسك بها : إنك أنت يا أمى وكذلك أنت يا أختى اللتان قوضتا حياتى . كيف أستطيع أن أحدثكما عما فى نفسى الآن . ثم أخذ يتمتم فى صوت خافض كأنه يتحدث إلى نفسه : « هل تدركان بعض ما أنا فيه الآن ؟ إنكما لا تقدران ، وأنى لكما بهذا ؟ لقد سمعتكما تتحدثان عن الطيور والأزهار ، عن الألوان والصور ، عن الأطفال الصغار والشمس والقمر والسماء والبحر . آه ! ولكنى أستطيع أن أشم رائحة البحر وأسمع هدير أمواجه . إنى لا أخاف البحر قط ، ولكن فكري أيتها الأم ... » ثم عرته قشعريرة راجفة وهو جالس فى مقعده ، ثم عاد يقول فى نغمته السابقة : « ولكن إن كان لا بد من احتمال هذه التجربة كما يجب على الرجل فانى أفضل أن أكون وحدى »

فصاحت الأم والأخت فى نفس واحد :

« وحدك ! »

— ولم لا ؟ إن أفضل صلاة للإنسان هى عند ما يخلو إلى نفسه إذ يكون أقرب إلى ربه . لذلك أرى أن أكون وحيداً . لقد صليت منذ لحظة وهذا الإلهام هو الجواب . لقد قضى علىَّ أن أكون وحيداً عند إجراء هذه التجربة ... أجل . أجل . الأفضل أن أفعل هذا لمواجهة تلك التجربة التى تمتحن عزمى وصبرى

وعبثاً حاولتا أن تثنياه عن عزمه فلم تجد دموعهما ولا توسلاتهما لديه شيئاً ، إذ أجابهما فى صوت المصر العنيد : « سأبقى وحيداً حتى أهيئ نفسى لمواجهة وجهيكما الحبيبين لأول مرة . يجب ألا تدخلا على حتى أبلغكما ذلك ، بل لا تحاولا أن تفتحا الباب . سأغلقه دونكما وعليكما أن تنتظرا إلى أن أدعوكما

فحاولت أمه أن تستعطفه ، ولكنه قاطعها قائلاً : « أتحبين أن أصغر فى عينى أمامك ؟ قد أصرخ أو أتوجع . لا أريد أن يطلع أحد حتى أحب الناس إلىّ على ضعفى . لا . سأكون وحيداً . إن ساعة اللقاء هذه لهى امتحان قاس لنا كلنا فلنثبت فيها على أى وجه ، فقد نحتاج إلى كل قوانا حالا ... »

ولما كان من عادتهما الخضوع لإرادته فقد تركاه كما أمرهما ثم تبعاه إلى الباب ، وأوصده دونهما ؛ ثم قال لهما وهو يدير المفتاح : « تذكرا ألا تدخلا على حتى أدعوكما »

ولما شعر بوحدته أخذ يفك الأربطة ولكن أصابعه كانت تضطرب ويداه تهتزان حتى أنه لم يستطع أن يحل اللفائف الأولى إلا بعد لأى

ولكن هذا الرجل الذى بقى صابراً على بلواه ربع قرن قد نفد صبره فى تلك اللحظة ، فأخذ يضرب رأسه فى أثاث الغرفة فى كفاح عنيف ، ويصرخ من شدة الألم كأنه طفل رضيع مع أنه احتمل مثل هذه التجارب من قبل في غير تشك ولا ألم . وأخيراً تمكن من انتزاع جميع الأربطة فصاح صيحة محتبسة مكبوتة !

إنه يبصر ! !

لقد شعر بأهداب عينيه الجامدة المخيفة تتحرك

إلى أعلى وإلى أسفل ؛ ولم يبق فى تلك الحقيقة الرائعة أدنى شك . لقد أبصر !

لم ير أول وهلة إلا سحابة شاحبة تتحرك فيها الأشباح الغامضة الداكنة ، ولكنه ما لبث أن وضح بصره فرأى الأشياء على حقيقتها فى صورها وأحجامها ، ثم أخذ يجول فى الغرفة يهوم بيديه فى الفضاء ويحاول أن يبطش بكل العقبات التى كان يظنها تهدده أينما سار ثم ارتمى فى أحد المقاعد بجانب النافذة مرتجف النفس متزايل الأركان

لقد حدث ما كان يخشاه ، فقد استولى عليه نوع من الذعر شديد ، فأحس أن هناك دافعاً يدفع به إلى الباب ولكن ما الباب من بين تلك الأعاجيب والألغاز التى كانت تحوطه وتغمره ؟ ثم انقض عليه بيديه وأخذ يصيح منادياً أمه وأخته ، وربما كان مستعدا لأن ينقاد إلى ذلك الدافع وينسى إلى كرامته وكبريائه لولا أنه شعر أن كل أعضائه قد التصقت بذلك المقعد الذى كان جالساً فيه ؛ وعلى ذلك لم يكن ليستطيع أن يأتى شيئاً إلا أن يجلس ويحملق وينصت إلى تدفق الدم فى عروقه وخفقات قلبه العالية المضطربة

كان اليوم لا يزال داكناً فالبحر والسماء لا يزالان غارقين فى هذا اللون الداكن الكئيب ، فلم يستطع أن يرى من تلك النافذة إلا ذلك الجزء من الشاطئ المثلث الشكل الذى تغطيه الرمال الرمادية الداكنة ، ثم رأى سفينة تمخر البحر وتمر أمام ناظره فعجب لمرآها وحار فى فهمها، أهى عصفور يرفرف فوق الماء ؟ ثم رأى أسراباً من الطيور تحلق فى السماء الغاشية فعرفها ولكنه لم يعرف ذلك الشىء الأبيض الطافى . لقد كانت لديه معرفة نظرية عن السفن ، ولكن تلك المعرفة لم تساعده على تمييزها فى عالم الحس . لقد كانت هذه الساعة الرهيبة تحمل فى ثناياها قصة عالم غريب لرجل حديث العهد به . ثم أخذت مخاوفه تتركه ، وأخذ هدوؤه يعاوده، ولكنه لم يشعر بالرغبة فى استدعاء أمه أو أخته . لقد كان مغموراً بجو من السعادة الحسية الدافئة ففتر عقله ولم يعد قادراً على التفكير حتى أنه لم يستطع أن يربط هذه الأحاسيس بأحاسيسه السابقة ، بل لم يستطع أن يصفها فيما بعد

ثم لاحت أمامه صحيفة عصفت بها إحدى الرياح الهوج فعجب لأمرها وظنها شبحاً لرجل قادم . ثم أخذ هدير الموج يدوى ثم يختفى فى رمال الشاطئ الرابضة فيصل إلى أذنيه قوياً واضحاً . ثم رأى زبد البحر تتقاذفه المياه وتلقى به إلى الشاطئ فعرف بذلك البحر . ولكن هل البحر هو سر ذلك الصوت المدوى والزبد الطافى أو هو يشتمل على تلك البقاع الفسيحة التى تقع على أبعاد عظيمة من البصر ثم تصطبغ بتلك الألوان الأرجوانية الزاهية حتى تغيب فى ذلك الأفق الغارق فى الضباب القاتم الحزين ؟

ثم رأى أمامه شبح غلام يمرق فى تلك الرمال ويختفى ، فارتاب فى فهمه . ثم عاوده خوفه واضطرابه

لم يكن يدرى شيئاً عن المرآة . ولم يرغب فى استشارة غيره ليعرف منه ذلك لأن بيرابرا قد أوصى أمه ألا تدعه ينظر إلى مرآة حتى يقف على أسرار عالم الحس الجديد ويتعلم تقدير المسافات وانكسار الضوء لأن بيرابرا كان يعرف كثيرين ممن فقدوا عقولهم عند أول عهدهم بالإبصار

ثم مضت ساعة . فاشتد القلق على الأم حتى دفع بها إلى الباب وأخذت تدق فى خفة فسمع

دقاتها وعرف معناها وأدرك أن هـذا هو الباب . فحدجه بنظره إذ كان هذا أول عهده به . ثم أعادت القرع فأجابها من الداخل « لم أنته بعـد . إنى بخير وأستطيع الابصار . ولـكنه سمع أمه تصيح غاضبة « ولـكنك لم تنته بعد ... » فلما أحس أنها بعدت عن الباب هب واقفاً فى حذر ، ولـكنه لم يستطع أن يحتفظ بكيانه ، فهوى على يديه وركبتيه وأخذ يحبو على البساط واستولى عليـه نوع من الخوف جديد

ولـكن الخوف لم يلبث أن تركه ، وسرعان ما عاد إليه رشـده وهدوءه فهاله أمره وخشى على نفسه مغبـة ذلك التخاذل والاضطراب حتى خاف أن يؤدي به إلى فقد عقله بعد أن استعاد بصره . فنزل الهدوء على قلبـه كما تنزل قطرات الندى على الأزهار المتفتحة ، فارتجف عند شعوره التام بعظمة تلك المعجزة التي حدثت له ، فخفق قلبه ، وجف حلقه ، وأخذت أنفاسه تخرج من بين أسنانه كأنها صفير عال ، ورئتاه تتحشرجان فى صدره كأنه طائر مذبوح

ثم عادت أمه إلى القرع ، وعاد هو إلى جوابه الأول «لم أنته بعد» لقد سمعها تناديه باسمه فى شوق وحنان ، ولـكنه كان يعرف أن الوقت لم يحن بعد لمشاهدتها ، فلم يتجاسر أن يهدئ من هزة الفرح التى تثيرها فيه أمه المحبوبة لأول مرة . فعاد إلى التحديق فى البحر والسماء

قضى فى صحبة نفسه ساعتين حتى خف انفعال الخوف الذى شعر به عند ما أبصر لأول مرة ثم استلقى على الفراش بين الوسائد فى حالة من الهمود الذى يشل الارادة ثم عادت إليه أمه تناديه من جديد ولـكنه كان فى كل مرة يردها عنه فتنصاع لإرادته مرغمة حانقة . ثم اطمأن إلى نفسه وابتسم ابتسامة مشرقة عريضة ولـكن هذه الابتسامة لم تلبث أن انتزعت من وجهه انتزاعاً

ما سبب هذا ؟

لقد رفع يديه إلى عينيه ومسحهما فى خفة ورقة لأنهما كانتا لا تزالان تؤلمانه ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يحدق النظر فى تلك الأشياء التى أمامه ، ثم أقفل عينيه وفتحهما فلاح له أن البحر والسماء أقل زرقة ووضوحاً . ولم يعد يتبين حدود الأشـياء تماماً . هل يساوره عماه من جديد ، ؟ إنه لم يعد يشك فى هذا فقد كان منذ برهة قادراً على تمييز أشكال الأشياء وأحجامها ، أما الآن فقد فقدت لونها وشكلها ولم تعد تبدو فى نظره إلا بقعاً غامضة على منبطح من الرمال ؛ ثم إنه كان يرى الأمواج الصاخبة ترتفع وتنخفض ثم يراها تثور وتزبد وتفور على الشاطئ ثم ترتد عنه إلى مكانها الأول — كان يرى كل هذا . أما الآن ...

ثم قبع فى مكانه فى هدوء وصمت يدير عينيه فى حيرة وقلق فى الغرفة . فأصبح يرى ورق الحائط والأبسطة وكذا الصور التى على الحائط والسقف وجميع أثاث الغرفة تختفى من عينيه ويلفها الظلام الداجى !

عندئذ تذكر ما كان الطبيب الايطالى قد أخبره به وهو أن عودة بصره قد تكون إلى مدة قصيرة ربما تكون بضع ساعات أو بضع دقائق . لقد نسى هذا فى غمرة الفرح التى غمرته أولاً ، أما الآن فان الحقيقة المرعبة المميتة تظلله كسحابة كثيفة قاتمة . فلم يعد يؤمل إلا فى الموت بعد أن شالت عنه أحلام المستقبل البهيج !

يجب أن يعود ثانية إلى حياة الظلام ! يجب أن يرجع إلى وادى الظلال العميق ! لم يعد له بعد هذا القبس الضئيل إلا الظلام السرمدى !

ولم يبق له بعد الكشف عن عجائب هذا العالم إلا ليل أشد قتاماً يغمره حتى الموت ! إذ كان يشعر وهو جالس يتلوى ويتألم أن نور عينيه يخبو وشيكا وشيكا !

ثم تفجرت أعماق ذلك القلب الكبير حتى تحطمت فأخذ يصب اللعنات على ذلك القدر الملون الذى يسخر منه إذ لم يكد يذيقه طعم الحياة الهانئة حتى حرمه منها وقد نضجت وطاب أ كلها !

فصاح وهو يتحسس طريقه إلى الباب فى ذلك الظلام الذى ألفه

ثم أدار المفتاح وفتح الباب على مصراعيه ومزّق بصوته المتألم المفجوع ذلك السكون الذى كان يخيم على المنزل ثم سقط على الأرض مغشياً عليه ...

فلما عاد إليه رشده ظن أنه قد انتقل من هذا العالم إلى عالم القبر ، لأنه لاح له أنه يستطيع أن يبصر مرة ثانية ، ولكن ليس كالمرة الأولى ؛ وأحس أن نوعاً من الضوء اللامع الناعم يملأ الجو ، ورأى وجه أمه التى كانت حانية عليه كأنه شبح مخيف !

أتستطيع أن ترانى يا عزيزى ؟

— نعم . فأنا ميت الآن . أستطيع أن أبصر من جديد . فدنت منه وقبلته ثم تمتمت قائلة : « عزيزى فرديناند ، إنك حى ، إنك لا تزال فى عالمنا العزيز . إنك..لا. لا. يجب ألا تناقشنا بل عليك أن تصدق ما نقوله لك . كان ينبغى لنا أن نمدك لهذا ولكن كيف نتنبأ به ؟ !

— لقد ظننت أنى أبصر . لقد كان هذا حلماً ثم عاودنى العمى ثانية ! فصاحت أمه : لا . لا . إنك لا تزال حافظاً لبصرك

ثم أردفت أخته قائلة : وسيبقى لك مادمت حياً !

ثم استطردت الأم : نعم . ستكون قادراً على الإبصار بعد الآن . إن ما عاودك ليس العمى ! إلهى كيف أقنعك ! إن الشمس كانت على وشك المغيب والضوء يخبو دائماً عند كل غروب . إنه لم يكن إلا ما نسميه نحن الغروب أو الليل ! ولكن كان لابد من مضى بضع ساعات قبل أن يتحقق الشاب من هذا بنفسه .

نظمى خليل

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

من أقاصيص الحب في عصر الرشيد

بهيرة

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يا مولاى

— إن حلاوته وإيقاعه لينبئان عن ظرف بارع وصِباً نضر

— لعلها قينةٌ في زورق من زوارق المخنثين (١) ترفُّ على لهوهم الماجن بالغناء والحسن كالعادة

— مل بنا إلى الشاطئ فلعلنا نرى مصداق ما نسمع

وكان الرجل الذي سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان وعزة الملك ؛ أما رفيقه الذي أجاب وأطاع فكان مساوياً له في العمر ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء من وراء لفظه . وكانا يلبسان ملابس التجار ويمشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد في أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويرعاها بعين النمر . وكانت دار السلام يومئذ في أيام العروس (٢) من عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا بهجتها وزينتها وفتنتها وثروتها ، فهي أشمة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء والبشر ، ونسمات من الروح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومُتَع من نعيم التمدن الإسلامي القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيا ، وراحة النفس والناس

* * *

اتجه الرجلان وتابعهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الكاسية بأشتات الرياحين والزهر جارية في وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن الغزلي الشجي الضارع كأنما تهدهد به حباً لا يهجع ، وتناجي به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق :

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر سامع !

— لو كنت أوده لما عز عليَّ أن أجده

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد في الهواء ويضيع في هذه الخلوة ؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه إلى أذنك . وسل الشمس حين ترسل الضوء هل ترسله إلى عينك . وسل الزهرة حين تبث العطر هل تبثه لأنفك ؟

— تبارك الله ! براعة في الغناء وبراعة في

(١) كان يطلق هذا الاسم في بغداد على أهل الترف واللهو والفتوة

(٢) كان الناس يسمون عهد الرشيد لرخائه وجماله أيام العروس

الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة

— ولمن تكونين ؟

— لسيدي على بن وهب

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان كأنها عروس من عرائس المروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية يا جعفر

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الغد

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجان الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السرارى والقيان زهاء ألفى جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات ، يرفلن فى الأفواف الموشاة بالذهب ، والعصائب المرصعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من المسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم متوائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميعة الربيع ...

أحلها مسرور الخصى مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث[1] وأفاض عليها من الوشى والزينة والحلى ما جعلها قطعة من الفن الجمالى الخيالى لا تبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانغمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ؛ ولكن هذا القصر الذي لا ثانى له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل واللهو المختلف والأشجار المحمولة من كل أرض ، والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبريسم ، والبرك المزدانة بالتماثيل والدُّمَى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتز به الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الناشية ولا هذا السهوم الملح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة النارقة فى السرور الطافحة باللذة : تذوى وتموت وكل ما حوالبها يزدهى وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب ، وقد تذرع هذا بالطب والحيلة واللهو إلى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا همًّا على هم ، حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع . فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آسٍ ولا آسف

كانت بهيرة قبل عامين قد وهبت قلبها الخالى المنتظر لفتى من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله . تغلغل فيه تغلغل السر ، وشاع به شيوع السرور . ثم تقلبت عليهما الأيام والاحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ما ينزل بالمترفين المتبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقة . فباع كل ما يملك . ثم عاش على الأمانى فترة

(١) هن الحظايا الثلاث اللاتى استأثرن بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثى قلبي وتربها الثلث

من الدهر ؛ ورأى آخر الأمر أن من الاخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه على ابن وهب

ودأب يزورها يوماً بعد يوم وهي في قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السورومى تنتظره فى العريش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكُّره ، فيتساقيان كؤوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشا كيان حرقة الوجد ، وينظران نظرات الأسى الربر إلى دجلة والشباب الأحباب يشرقون على وجهه إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباها اللاهى ، وشاهداً على حبهما الخالص ؛ وكيف نظر إليها الدهر الخؤون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُتغفل ، وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم

كانت بهيرة وهى فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك الأقدار الرحيمة إسعاف حبيها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حبيبها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هى تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر فى الأول وقبر فى الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة . فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحيى . فكان يدخل قصر الرشيد فى هذا الزى فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها فى الظلام أو فى الغفلة ، فيقضى معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل ينضحان فيه غرامهما المسعور بالحديث المعسول والقبَل الندية

وفى ذات ليلة طنى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد فى نظر بهيرة الساجى :

— لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب

— وماذا أعددت يا سليمان ؟

— أعددت لك هذا الثوب الغلامى فالبسيه واخرجى تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج إلا رسل الأسرار بين قصور السادة والقادة . وسأكون فى انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أنسيت يا سليمان أنى ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق !

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— بربك يا بهيرة أخفتى هذا الصوت فى نفسك ، وفكرى قليلاً فى بؤسى وبؤسك . ليس لى غيرك وليس لك غيرى ؛ أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب فى الحب عذب ، والموت فى سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة

التى نلتقى فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

— أطيعى الهوى يا بهيرة واعصى العقل . فان العشاق لا يعيشون بعقول الخليين ولا يخضعون لقوانين المجتمع

وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه لولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب ، وأيقنا بالهلاك المحتم

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالى وحاجب الرشيد ، ومعه نفر من الحراس ، فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه وبين بهيرة

— ٤ —

سيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الأثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجاباه بصحته ، واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً ببهيرة لما جرّب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها ، ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالى إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة فى حضرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفصلها الذهول عن الوعى . ثم رأرأت بعينيها فى سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمى الخليفة وهى تقول : مولاى : إنى أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف ضاق بها العفو وقصُرت عنها الشفاعة ؛ ولكنى أعلم كذلك أن حلمك لا يستخفه غضب وعفوك لا يتعاظمه ذنب . فهب لى دم سليمان فقد جنى عليه حبى ، وسعى إلى عدمه وجودى . وهو يا مولاى برئ الساحة صادق النية سرى الخلق

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسى بوجهها الوقاح صورة الرحمة . فاسأليني ما شئت إلا العفو ، فانى لا أمنح إلا ما أملك .

فقالت بهيرة : إذن تعدنى يا مولاى ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

وأرسل وراء الجلاد يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضى قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها فى السماء والفضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته فى نواحى البستان ، وفى جوانب المكان ، وفى مرايا الجدران ، وفى حللها الذهبية ، وفى حليها اللؤلؤية ، وفى وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها فى محجريها فاقتلعت بهما عينيها

فصاح بها الخليفة وقد أفزعه ما رأى :

— ويحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعينىَّ حبيبى يا مولاى

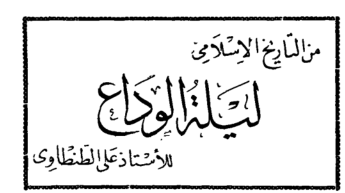
— وكيف ذلك يا حمقاء ؟

— ألست وعدتنى يا مولاى ألا يُقتل حتى أراه ؟ فالآن لا أراه ولا يُقتل !

***

كان أثر هذا الحادث بالغاً فى نفس الخليفة ، فبسط على العاشقين جناح رحمته ، ومهد لهما الحياة السعيدة فى ظلال نعمته . وقنعت الغادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفى كنف الحبيب !

الزيات



وفي نهار الاثنين ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة ...

وخلف مكة وهي ثكلى ملتاعه ، محطمة القلب ، مخلمة الأضلاع ، قد غرقت في دماء أبنائها الذين ضربتهم يد الدهر ففرقت جمعهم ، وشتت شملهم ، فراحوا فريق مصرّعون على أرض الحرم . . . وفريق تحت رايات أميّة قد أرمضتهم هذه الحرب الطويلة التي حملوا عناءها ، وقاسوا لأواءها سبعة أشهر لم تدع لهم أخضر ولا يابساً ، فتسللوا من مكة لِواذاً ، ثم تسلقوا هذه الجلاميد التي انتشرت عليها جيوش أمية الغازية ، فاستسلموا إليها وأخذوا لأنفسهم أماناً ثم كانوا عوناً لها وجنداً فيها ؛ وفريق أقاموا على الولاء لابن الزبير ، يذكرون من مات من أهليهم فيغصّون بالماء حزناً وألماً . ويذكرون من فرّ من إخوانهم فيوارون وجوههم حياءً وخجلاً ، ثم إنهم ينتظرون الموت بين كل لحظة وأختها ، ويعيشون خائفين في مقام ابراهيم (ومن دَخَلَهُ كان آمناً !)

وألقى الليل غلائله السود على هذه المدينة التي عضتها الحرب بنابها وأصابتها بأوصابها ، فباتت تتنفس الصعداء من شدّة يوم قاس عبوس تحالفت فيه الطبيعة العاتية والبشرية الطاغية ، على حرب هذا البلد الحرام ، فلم يكن ينجو من حجارة المنجنيق إلا إلى شر الصواعق ، فكأن الطبيعة قد شمرت عن ساقها للقتال ، فهي ترى المهاجمين والمدافعين والآمنين من صواعقها ورجومها بشواظ من نار تصيب به الدور والمنازل فتدعها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس .

والحجاج ما ينفك مجالداً مقارعاً يقذف بأحجار منجنيقه وجنادله بيت الله فيهدم جدران بيت الله ، ويرى بيوت الناس فيهلك من بقي فيها من أشياخ عجّز لا قبل لهم بالحرب وأهوالها ، وأطفال برءاء لا يد لهم في جرائرها وأوزارها ، فيختلط عويلهم وصراخهم بهزيم الرعود وزئير الطبيعة ، ثم تضيع هذه الموسيقى المروّعة في جلبة الانهدام ، ويخفى الغبار الثائر حول المنازل المهدودة هذا المشهد المرعب لحظة من زمان ، ثم ينجلي فإذا التراب قد حوى كل شيء ، وإذا المدينة العامرة المقدسة مقبرة من المقابر !

وامتد رواق الليل فنامت الطبيعة وكفت عن هياجها وجنونها ، وصفت السماء وأطلّ البدر من عليائها ونامت الحرب . وكانت يومئذ طفلة لم تستكمل ما تراه من شراستها ، ولم تتم أنيابها ولم يستطر شرّها كما استطار اليوم فغدت لا تنام ولا تنيم ، وكان في نفوس المتحاربين شرف ووفاء فاستراحوا وأراحوا ، ونام هؤلاء الأبطال المدافعون نوم الأسد في آجامها كما نام هذا الجيش الجرّار الذي امتد زحفه حتى صاقب أبواب الحرم .. سكن الليل وعم شوارع مكة المقفرة الخالية حيث كان جيش ابن الزبير يروح ويغدو بطبوله وراياته ، فطوت كف الردى

راياته وطبوله . وهذه الأوعار الصم التى انتشر عليها جيش الحجاج بكبريائه وعنفوانه ... عمها كلها صمت عميق وهدوء شامل ، فلا تسمع فى ثناياه إلا صيحة حارس يتنقل شبحه خلال السواد ، أو صرخة جريح معذب ، ثم يعود السكون

* * *

نامت العيون ، واستسلم المتحاربون إلى سبات أعمى لا تبصر فيه مقلة حلم ، وأراق القمر عذوبته وهدوءه على هذه الجبال فبدت جيلة فتانة ، لجفا فراشه سيدُ الموقف ، وبطل الجيوش الظفرة وقائدها ، وانسلّ في خفية كيلا يشعر حرسه وأعوانه ، فجلس على باب الفسطاط يتأمل هذه السماء الصافية ، ويحدّق فى النجوم المتوقدة المتلألئة ، فتفتح عليه باب الذكرى ، فيلج منه سالفات أيامه فيعيش فيها وينسم أريجها ... وحملته هذه النجوم إلى ذكرى بعيدة ، فأحس بأنها عزيزة عليه حبيبة إليه ، فطفق يتأمل صورة تلك الليلة [١] التى قضاها فى الصحراء وحيداً فريداً قد هجر بلده وحياته ، ليقدم على بلد لا يعرفه وحياة لاعهد له بها ، ويستعيد خواطره التى كانت تمتلج في نفسه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أيامه فى تلك الأعالى الباذخة ، حين كان معلماً لصبيان الطائف ، وأمانيه التى لم يكن يأنس إلا إليها والتى يحاول أبداً أن يستشف خيالها من وراء حجاب الغيب ... واستمرأ بقايا تلك اللذة التى أحس بها وهو خارج من دار (مستشار الدولة) روح بن زنباع وقد قلده شارة الشرطة ، فكانت عنده أكبر من شارة الخلافة ... أين ذلك الشرطى من قائد الجيش العرمرم الذى ترك جنات الشام الألفاف وسهوله الفيح ، وأبى أن يقطف ثمرة النصر وأزاهر المجد إلا من جلاميد مكة وصخورها ، فأمّ بزحفه رءوس الجبال ، ثم هبط نحو مكة ، يستذرى براية الظفر ، حتى امتد بزحفه هذا الذى كان يحسبه مجيداً إلى أبواب الحرم ...

وألقى نظرة القائد الشاب (ابن السبع والعشرين) على الحرم فرأى الكعبة ، وقد أضاءها القمر بشعاعه الكابى ، فبدت مهدّمة مصدّعة الجدران رهيبة ، فراعه ذلك وأخافه ، وعراه ارتجاف شديد هزّ كيانه كله ، فعاف ذكرياته وأعرض عن المجد والأمانى ، ولم يبق فى فكره إلا صورة بيت الله المهدّم تظل ماثلة له بعد أن أغمض عينيه عنها ، فيحس بأنها تثقل على قلبه حتى لتكاد تسحقه سحقاً ؛ ويكبر هذا الذى أقدم عليه وتملأ نفسه خشية الله ، فيندم ويشتد به الندم ... ثم يذكر وعده الذى وعده للخليفة ، أن يقضى على ابن الزبير . ويعيد إلى الدولة سلامتها ووحدتها ، ويشعره جلال هذه الغاية وسموّها استصغار ما أتى ، ويذهب يلتمس لنفسه المعاذير

أليست وحدة المسلمين وسلامة دولتهم دعامة حياتهم ورأس دينهم الذي قام على توحيد الخالق ، ووحدة المؤمنين ؟ أليس ضمان هذه الوحدة من واجبات الخليفة ؟ وما ذنبه هو إذا أمره عبد الملك بضرب الكعبة لتحقيق الوحدة ، وما هو إلاّ جندي فى طاعة عبد الملك ؟ بل ما ذنب عبد الملك وهو أمير المؤمنين المسئول عن مصالح المسلمين وسلامة دولتهم ؟ أيدع المملكة شطرين يعبث فيها المفسدون ويهلكها الخلف ؟ وأى جسم يعيش إذا انقسم جسمين ، وغدا قطعتين ؟ أوليس على عبدالملك أن ينقذ المسلمين من هذا الخلاف ولو دفع ثمنه حياة ابن الزبير وسلامة حصونه وقلاعه ؟ فما ذنب عبدالملك

(١) راجع قصة (هجرة معلم) فى العدد الممتاز من الرسالة

إذا اتخذ ابن الزبير بيت الله حصناً له واحتمى به ، واستغل حرمته ؟ ... أمن حق البيت الحرام على عبد الملك أن يدعه آمناً فى ظله ، يدّعى مُلكا وينشر راية ويتخذ جيشاً ، فيلتقى فى مشعر الحج ملكان مسلمان ، ورايتان وجيشان ، ويأبى الله والاسلام إلا راية واحدة لجيش واحد يسيره خليفة واحد ؟ أولم يكن أخلق بابن الزبير لو جنب بيت الله أوحال الدنيا وأوضار المطامع وخرج بجيشه إلى الحلّ ؟

وانطلق القائد الشاب يفكر فى ابن الزبير وعبد الملك ، ويعود به الفكر إلى رحلته الأولى يوم صافح سمعه للمرة الأولى اسم ابن الزبير ، فإذا هو اسم ضخم مجلجل وإذا هو ينطوى على السيادة والظفر، والملك الواسع الذى يظل ثلاثة أرباع البلاد الاسلامية ، وإذا اسم عبدالملك ضاو هزيل ، فمازال هذا يضخم ويعظم ، وما فتئ ذاك يهزل ويضؤل ، حتى انتزع عبد الملك الذى كان قابعاً فى زاوية قصره فى الشام ينتظر أن يغلبه عليه ابن الزبير — انتزع العراقين والحجاز ، ونازل عبد الله فى قرارة داره ودارة ملكه . أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن ابن مروان أحق بالخلافة من ابن الزبير ، وأقدر عليها وأولى بها ؟

وأفلتت منه نظرة فوقعت على الكعبة ، فأعادت صورتها الرهيبة إلى صدره ، وأحس بوجل شديد ؛ فذكر تهيّبه الإقبال عليها ، إذ كانت مثابة الأمن ودار السلام ، منذ الزمان الذى يضيع أوله فى طفولة البشرية ؛ وذكر كيف فزع جنده وأحجموا ، فشد من عزائمهم ، وهوّن الأمر عليهم ؛ وكيف عبست السماء وبسرت حين شرعوا بتسديد الرماية إلى صدر الكعبة ، وألقت برجومها وصواعقها ، فقتلت منهم مقتلة ، فارتدوا وامتنعوا ، وظنوا أن الله مهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم ، فانصدعت قلوبهم وطارت نفوسهم شعاعاً ، فقام فيهم يطمئنهم ويهديهم :

— (أنا ابن تهامة ، وهذه صواعقها[1]) فلا تخافوا ولا تراعوا

سنة الله التى لا تبديل لها ، وقوانينه فى كونه لا تعنيها أمور البشر ولا تبدلها حوادث الأرض ، وما قيمة جند الشام حتى يدع الفلك من أجلهم سيره ، وتخرج الطبيعة عن سننها وتخالف طريقها ؟ وانطلق يحدثهم حديث رسول الله ومعلم العالم حين استأثر الله بابنه إبراهيم فكسفت الشمس فظنوا أنها كسفت لموته ، فنبأهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يعنيهما موت أحد ولا حياته ...

فاطمأن الجند وعادوا إلى تسديد الرماية وضرب الكعبة ، فمادت السماء إلى زجرتها وزئيرها ، وانقضت صواعقها ، ولكنها أصابت من جند ابن الزبير مثل الذى أصابت من عسكر الشام ؛ فأمن الجند وأقبلوا يوالون قذف الحجارة ...

إنه لم يضرب الكعبة على أنها بيت الله ، ولكن ضربها على أنها قلعة من قلاع ابن الزبير ؛ ولم يقدم مكة فاتحاً ، ولكن قدمها حاجًّا محرماً ؛ وحج بالناس ولكنه لم يطف . . . ولم يكن له إلا الوحدة الإسلامية غاية ، فهو يعلم أن المسلمين كرجل واحد ، فأي رجل هذا الذى له رأسان .. ؟ ولقد نهاه فقيه العصر وإمامه (عبد الله بن عمر) أن يضرب الكعبة فيؤذى الطائفين بها ويعطل مناسك الحج ، وشدد عليه فى النهى ، فأطاع وامتنع وترك الناس وحجهم ، حتى إذا استكملوا مناسكه وفرغوا من عبادتهم ، نادى فيهم بالرحيل إلى بلدانهم وعاد يحارب ابن الزبير ...

---

(١) هذه الجملة من التاريخ

وسكن الحجّاج إلى هذه النتيجة التى انتهى إليها ، واقتنع بأنه لم يأت منكراً ... فعاد يتأمل هذه النجوم الصافية ، وهو عازم على بناء الكعبة ، وسد هذا الخرق الذى خرقه ، وإصلاح ما أفسدته الحرب ؛ وراح يحدق فى القمم الشاهقة التى تلوح له عن بعد ذائبة أعاليها فى الشعاع الفاتن الذى يسيل من صفحة القمر ... فذكرته كرة أخرى بيته ومدرسته وقريته الصغيرة فأحس كأن قلبه ينازعه إلى أيامه التى سلخهن فيها ...

— سلاماً أيتها الأرض الضائمة فى طريق السماء ... لقد وفيت لك بنذرى ، فقدت إليك المجد ووهبت لاسمك الظفر . وخرجت منك معلم صبيان ولكنى عدت إليك قائد الجيش العرمرم ، فثبّتُّ اسمك على صفحات البطولة ، فلا يذكر التاريخ عودة الوحدة الإسلامية إلا ذكر معها (الطائف) !

ثم استغرق فى تأمل عميق ...

***

فى تلك الساعة كانت تهدف فى طرقات مكة الخالية ، عجوز طويلة ، لا تبالى هذا الظلام الثقيل الذي يحف بها ، لأن عينيها المنطفئتين قد ألفتا هذا الظلام منذ أمد طويل ... وكانت تؤم منزلاً من هذه المنازل القفرة ، فتمضى إليه قُدُماً كأنما هى قد ألفت طريقه ، وحفظته بذاكرة قدميها لكثرة ما تتردد عليه فى الصباح والمساء ، فهى تتخطى هذه الأنقاض ، وتدور حول الجدر ، لم تقف حتى غيبتها مداخل المنزل المهجور ، فقبعت فى زاوية من زواياه جامدة لا تتحرك ولا تهمس ، كأنما هى بعض أثاثه القديم الهرم الذى تركه أصحابه زهداً فيه ... وجعلت تجيل عينيها الهامدتين فى أرجاء عالم مجهول ، فيبدو لها مترعاً بالألوان الفتانة ، زاخراً بالصور البارعة ، فلا تمل التحديق فيه والتجوال فى أرجائه ، تفتش عن هذه الفتاة التى عرفتها فى سالفات أيامها ، فلا تلبث أن تجتلى خيالها فتطمئن إليه وتجد فيه صبابة نفسها وبلغة أمانيها ... وترى هذه الفتاة وقد أهديت إلى بعلها الذي خلا كيسه من المال ولكن نفسه فاضت بالحب ، فشاركته حبه وفقره ، وأقامت من نفسها أنيساً لنفسه وخادماً لبيته ، وسائساً لفرسه ، تلتقط لها النوى ثم تدقه ، وهى سعيدة هانئة تعيش لبيتها وزوجها الذى تنهل السعادة من نظراته وكلماته وتقبس الهناءة من حبه وإخلاصه . فاستراح قلبها إلى هذا الخيال الذى ترى ، وشعرت كأن دم الشباب قد عاد يجري فى عروقها بحرارته وتوثبه وفورانه ، وأحست بالنور قد عاد يضىء فى عينيها ؛ فاستقرت على شفتيها بسمة عريضة ، طفت صورتها على جبينها المجعد فأومض فيه بريق من السعادة خاطف ورجع إلى وجنتيها ظل من حمرة الشباب الآفل ، حتى لو أن إنساناً رآها فى تلك الساعة لما رأى عجوزاً شمطاء عمياء ، ولكن فتاة فى السابعة عشرة ...

ونفضت عنها العجوز غبار السنين المائة ، وانطلقت تعيش فى بقايا ليلة من ليالى زواجها الحافلة بالغرام والنبل والسعادة ، فتصغى إلى أغانى الحب تبعث همساً من فم ذلك الزوج المعمود ، وتذوق بين ثناياها حلاوة قبلاته المعسولة وتسمع بأذنيها وسوستها الناعمة . وتبالغ فى التخيل ، فتمد يديها تعانقه وتخفى وجهها فى صدره العريض وتلقى برأسها على قلبه الكبير الخافق الذى يخفق أبداً للحب والمجد والايمان ... ولكن برودة الحجر الذى ألقت عليه رأسها أطفأت جذوة أحلامها ، وردتها إلى حاضرها ، فاذا هو ينشر أكفان الموت على مسراتها ومباهج حياتها الماضية فتنسى كيف استقادت إليها

السعادة كاملة على يد هذا الزوج الذى تبعثه الدنيا
حين تبع دين محمد فغدا يحمل على ألف فرس فى
سبيل الله بعد أن كان ماله كله فرساً تعلفها زوجه
النوى . وتغيب صور هذا الماضى فى الليل السرمدى
الذى غمر حياتها وأترعها بالآلام والأوجاع فتمنت
لو أنها ماتت وهى بنت الخليفة العبقرى ، الذى
صحب رسول الله وخلفه فى أمته . ووقف وحده
حين كانت الردة فى وجه الناس كلهم . ثم ظفر
بهم وساق المرتدين عن دين محمد ليقاتلوا في الشام
والعراق تحت راية محمد . . . أو لو ماتت وهي
زوج البطل الذى ملأ حياته بطولة وشرفاً ومجداً
ثم ذهب فمات فى ساحة الشرف والبطولة والمجد ،
أو لو ماتت وهى أم الخليفة الذى عنت له الحجاز
والجزيرة والعراق وخراسان . . . وكاد يدخل
دمشق مظفراً منصوراً ··· فضاع منه كل شىء ،
حتى كادت أمية تدخل عليه مكة مظفرة منصورة
واستيأست من طلوع الفجر الذى يزيح ظلمة
هذا الليل فانطلقت تناجى الموت وتدعوه بأحب
الأسماء وأجلها ، وأذكرها الموت أحبتها الذين
طواهم فى أحشائه ، فاشتهت قرب الأحبة — وكان
من أقوى رغباتها فى هذه الليلة أن تقف على قبر
أبيها الذى يجاور أشرف بقعة فى ملكوت الله
الواسع فى الغرفة الصغيرة التى بنيت من الحجر
والطين وسعف النخل فى العشايا الأولى لاستقرار
الاسلام فى يثرب ، فكانت مقر أختها الصغيرة ،
أحب زوجات الرسول إليه وأفضل أمهات المؤمنين
وعالمة النساء ومعلمة الرجال . ثم كانت مهبط الوحى
وصلة الأرض بالسماء ، ثم كانت دار الحكومة ، فيها
نظمت خطط الحروب ، وأعدت قوانين المجتمع ،
وعقدت مجالس الشورى ، ومنها خرجت الكتب إلى
شيرويه ملك الفرس كسرى شاهنشاه .. وهراقليوس
قاهر كسرى وسيد الدنيا في عصره ، ثم خرجت
الجيوش لتمحو ملك شاهنشاه ، وتخلف سيد الدنيا فى
أرضه وتعود بأسلابه ، وفيها عاش النبي صلى الله عليه
وسلم حياته حتى إذا مات دفن فيها . ثم أغلق بابها
لا إلى سنة ولا إلى عشر ولكن إلى ··· يوم القيامة .
وكان من أمتع أمانيها هذه الليلة أن تقف على قبر
زوجها الماثل فى آخر البادية . في الزاوية التى تلتقى
فيها بادية العرب بسواد العراق ، ببساتين العجم ···
بالبحر ! فتجدد بزيارته عهد الماضى ···

* * *

وكانت تتناهى إليها بين كل آونة وأخرى
صرخة من صرخات الحراس ، أو أنة من أنات
الجرحى . فتردها إلى وعيها فتتأمل هذه الشماعة
الواحدة التى بقيت لها من شمس حياتها الآفلة ابنها
عبد الله الذى تجد فيه عبق غرامها بزوجها ، وعطر
الامجاد التى عاشت فيها والمعارك النبيلة التى شهدتها ،
وتذكر فيه تاريخاً طويلا تلتقى حوادثه الكبيرة
بهذا التاريخ الصغير الذى تحفظه لابنها ؛ وتنقلها
الذكرى إلى هذا التاريخ ··· فاذا هى فى دنيا قريش ،
وبدا قريش فى حيرة وقلق . قد خابت وفشلت فى
رد هذا السيل الأتىّ بأكفها الضعيفة . ورأت
الاسلام ينتشر ويمتد ولا يثبت شىء أمامه فائتمرت
بالنبى تقتله ··· ولكنها لم تجده في بيته ، ولا علم
أين هو ··· لا يعلم أين هو إلا رجل فى مكة وامرأة .
أما الرجل فعلىّ ، وأما المرأة فأسماء ··· يا لروعة
هذه الذكريات !

لقد كانت فى بيتها تعد اللحم لتحمله إلى رسول الله
(فان رسول الله يعجبه اللحم [١]) وإذا بالملأ من
قريش يدخلون عليها ، وهم يرعدون ويبرقون ، يزهون
بكبريائهم الفارغة ، وعنفوانهم المزيف وثيابهم الزاهية

(١) جلة من التاريخ

فقال لهـا أبو جهل بلهجة حاول أن يجعلها فخمة عالية ، ولكنها جاءت أقرب إلى التصنع والاضحاك :

— أين أبوك ؟

— وما يدريني أين أبي ؟ لا أعلم ؟

فلم يترفع هذا السيد الذي عجز عن ردّ محمد ، عن أن يرفع يده على امرأة ... لقد لطمها لطمة أطارت قرطها ... ومدت العجوز يدها تتلمس أذنها على غير شعور منها ، ومسّت بيدها بطنها ، فقد كانت يومئذ حاملاً ... يالبطولة هذا السيد القرشي الذي يضرب امرأة حاملاً !

ثم استدار المشهد فإذا هي قد انطلقت من دنيا قريش الضيقة المحصورة ، إلى دنيا محمد الواسعة الفسيحة . لقد هاجرت تقطع الصحارى والقفار ، حتى أشرفت على نخيل المدينة ، فوقفت على هذه الجنان الطاهرة ، الذي أسس فيها أول مسجد بني على تقوى ، فسمعت وحدها هذا النشيد العلوى ، الذي أصغت إليه الدنيا كلها من بعد ، والذي يتردد اليوم خمس مرات في كل نهار ، تتجاوب به المآذن في كافة أرجاء الأرض ...

وهنالك وسط هذا النشيد الذي يتألف من كلمتين اثنتين لم تعرف ألسنة البشر أقوى منهما هديراً ، وأشد في النفس تأثيراً ، هما : « الله أكبر » ! صاح البشير أن (أول مولود في الإسلام) قد استهل ، فانشرحت به صدور المسلمين حتى كأن كلّ واحد منهم كان أباه ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وبارك عليه ، ودعا له ...

وتمثلت عبد الله وهو صبي يبايع رسول الله . ورسول الله يبتسم له ابتسامة تفيض بالحب والرضا..

ورأته وقد شبّ حتى صار يلعب مع الصبيان في الطرقات . وإنه لفي لعبه وإذا بعمر القويّ المهيب يمرّ فيفرّ الصبية ويتوارون ، ويبقى عبد الله واقفاً..

— لِمَ لم تفرّ كما فروا ؟

— ولِمَ أفرّ وما أنت ظالم فأخشى ظلمك ، ولا أنا مذنب فأرهب عدلك ؟

فيعجب به عمر ، ويكبر جرأته وبلاغته ...

ثم تبصره وقد علا ، واستعلن أمره ، وضخم سلطانه ، فانقادت إليه الأمانيّ طيعة ، وتبعته الدنيا خاضعة ... ثم انهار هذا كله ... ثم انهار هذا كله ...

وراحت العجوز تحدّق بعينيها اللتين حرمتا النور في أفق مجهول ، وتفكر في غير وعى ، فقادها الفكر إلى دنيا تحبها وتألفها ، فإذا هي ترى كرة ثانية بداية هـذا الصباح الذي غمر الكون ضوؤه ، وغسلت أنواره الأرض من أرجاس ليل طويل ماتت في ظلامه الفضـائل والمُثُل . . . وتفكر في قوة هذه الرسالة التي انتصرت على العالم كله ... وترى حاضرها الممض فتشجى وتتألم . ما أسرع ما نسي الناس هـذه المبادئ وأجدبت نفوسهم منها ، وهذه أصلاد حراء ، وهذه جلاميد ثور ، لا تزال مخصبة مخضرة ... أفتكون هـذه الحجارة وهذه الجلامد أوفى وأحفظ من قلوب البشر ؟ وإذا نسى الناس أفلا تذكرهم هذه الجبال الشاهقة التي شهدت عزلة محمد وإيواءه إليها ليالي بطولها يفكر في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ويفتش وراء مظاهر المادة عن مبدع المـادة ... ثم شهدت منبثق الوحى ، وأشرف عليها هذا الفجر فأضاء جنادلها وصخورها ، قبل أن تسطع أنواره في السهول والقري . وسمعته وآمنت به قبل أن تسمعه ، هـذه المدائن العظيمة المنثورة في الأرض ، أو لا تذكرهم ساحة الحرم ... ومثلت لها (حين ذكرت ساحة الحرم) الكعبة

الهدمة ، فهالها أن يعبث المسلمون بحرمة الكعبة وهي التي كان المشركون على جهالتهم وكفرهم ، أكثر لها إجلالاً ، وأشد احتراماً ، وصبّت سخطها على ابنها وعلى الأمويين جميعاً

أيستحلون البلد الحرام ، في الشهر الحرام ، وينسون مبادئ الرسول ولما يمض على وفاته إلا ثلاث وستون سنة وينقضون عرى الأخوّة بينهم ، ويقاتل بعضهم بعضاً في بطن مكة ؟ ولمه ؟ أو لم يبق في الأرض ظالمون ولا طغاة يقاتلونهم ؟ أينفض المسلمون أيديهم من هـذا الإرث العظيم ، ويهملونه حتى يبدو في عيونهم مجدباً ، وهو الذي بلغ من خصبه أن أترع أيام البشرية الماضية بالحياة ، وهو كفيل بأن يغمر أيامها الباقيات حياة ومجداً وفضيلة ؟

وآلمها من ضياع هذه المبادئ أكثر مما آلمها من خذلان ابنها وضياع عرشه ، بل هي قد نسيت ابنها ، ونسيت هـذا الملك الذي رتع في بحبوحته تسعة أعوام جاء يتجرع الآن مرارتها ، ونسيت ماضيها الآفل ، بل لقد نسيت نفسها وذهبت تفكر فيما هو أعز عليها من حاضرها وماضيها ، وابنها ونفسها ، في هذا المبدأ الذي أخلصت له ، إنه لا ينتصر هذا المبدأ وعلى الأمة واليان يصطرعان ويقتتلان ، فلا بدّ من ذهاب أحدهما ، فاذا لم يذهب عبد الملك فليكن ابنها هو الذي يذهب ولتشتر حياة الأمة بحياة ابنها ...

وكان عزماً خطيراً ، وكانت فكرة هائلة يرتجف لها أقوى القلوب ، ولكن قلب أسماء الذي يحمل قسطه من الإرث الأخلاقي الذي صهرته شمس هذه البلاد في الألوف المؤلفة من السنين وأنضجه الاسلام وهذبه لم يرتجف ولم يخف ... كان همها أن تستريح هذه البلاد المقدسة ليلة آمنة — إثر نهار ملئ بالخطوب لتستيقظ مع الفجر قوية نشيطة . فتئ إلى ظلال وحدة هائلة تستجم فيها ، وتفرغ لنفسها لتفرغ من بعد لأعدائها ... ولكن العجوز عقلت لحظة عن عواطفها التي خنقتها في صدرها ، فانطلقت صارخة صاخبة ، فتصورت العجوز نفسها بعد عبد الله فلم تطق أن تتصور ... وعادت إليها أنوثتها فعظم عليها أن تفرط بولدها الحبيب وهي على عتبة الموت وهو عمادها وعونها ، وحاضرها ومستقبلها وهو كل شيء لها ، وعادت تعرض ذكرياته مذ كان طفلاً إلى أن غدا شيخاً ، فتحس أن أمانيها كلها تختصر هاساعة تضم فيها ابنها إلى صدرها ، ثم تنسى نفسها وهي بين ذراعيه ، حتى تسلم الروح ، إنه حياتها وهو كل شيء لها ... وراحت تبكي بعينيها المنطفئتين بكاء موجعاً

***

وفي تلك الساعة كان في الحرم طائفة من الناس تحت علم منصوب في ظل الكعبة ، أولئك هم بقية هذا الجيش اللجب الذي كان منتشراً بين أقصى خراسان والبحر الأحمر ، وهذا هو العلم الذي خفق على هذه البلدان تسعة أعوام كاملات ... وليس أروع من الجيش القوى الظافر الذي يسدّ منافذ الفضاء ، ويحجب الشمس ، وتعنو له الشوامخ الراسيات ، وتميد بثقله الأرض ، إلا هذه الحفنة من الرجال الأشداء الصابرين ، الذين تخيرتهم شجاعتهم وعبقريتهم ، فكانوا بغية السيف ، وطرائد الموت ، ثم آثروا الموت أجساداً على الاستسلام والهوان ، وتلك هي حال هـذه الطائفة من الناس

وكان في الجمع شيخ مستند إلى جدار الكعبة ، تومض شعوره البيض في شعاع القمر ، يفكر ، أو هو يبدو كالمفكر على حين يتجرع مرارة خيبة

قاتلة ، ويحس من حوله زمهريراً بارداً ، فكان بحاجة إلى صدر دافئ ، يقبس من حرارته الحياة والأمل ، ولقد كان شيخاً فى الثمانين ، ولكنه لا يزال حيال أمه ذلك الطفل الذى يتمرغ فى أحضانها ثم يضطجع فيها ويرفع وجهه الصغير إلى وجهها ويقطف بعينيه ثمرات الحب الحلوة من عينيها الوادعتين ، ويمد أصابعه تعبث بوجهها وشعرها ...

وملأت نفس هذا الشيخ صورة أمه ، فنسى اليوم العصيب ، وغفل عن تصور النصر الذى أفلت منه كما يفلت الطائر الجميل من قفصه ، ثم يوغل فى مسارب السماء ، وخيبته التى جعلت حياته سوداء فارغة كظلام الليل ، ولم يعد يفكر إلا فى هذه الصورة التى أعارته من بهائها وسموها جناحين طار بهما إلى أيامه الخوالى فتغلغل فى رحابها الواسعة ...

... لم يبق له من صورة هذا الماضى العظيم — من عالم أبى بكر والزبير — إلا خط واحد ضعيف كاب ، يوشك أن تعدو عليه الأيام فتمحوه اليوم أو غداً ، لم يبق إلا ذات النطاقين أمه ، أسماء العظيمة التى كانت تاريخاً حيًّا ، وكانت الفضيلة المجسّدة ، فانطلق إليها يودعها قبل أن يموت ، وكان الموت الشريف أجمل أمنية لهذا الشيخ البطل الذى خسر الملك والجيش ولكنه لم يخسر الشرف ولا العبقرية ؛ بيد أن هذا الشيخ يخشى أن يدع هذه العجوز تحمل معها آلام الثكل والوحدة ، حتى تبلغ بها قبرها القريب ... فكيف السبيل إلى إكراهها على التسليم به ، والرضا بموته ؟

* * *

وقام الشيخ من مجلسه يسلك هذه الطرق الموحشة التى سلكتها أمه فى الهزيع الأول من هذا الليل ، فلم يقف فى طريقه على الأطلال ، ولم يثره مشهد الملك الضائع ، لأن أفكاره كلها قد تعلقت بأمه ، فهو يحب أن يصل إليها ، فيمضى مسرعاً ، حتى إذا دنا من هذا المنزل المظلم الموحش تباطأ فى سيره ، حتى إذا بلغ بابه تهيب الدخول عليها وأحس بالعجز عن مواجهتها بعزمه ، وهو الذى لم يحس العجز عن مقابلة الخميس العرمرم ، ولم يشعر بالضعف عند مجابهة الشدائد والخطوب ، فوقف وأطال الوقوف ، وتقاذفته الأفكار حتى أحس كأن رأسه خلية نحل ... كيف يقول لها : دعينى أذهب إلى الموت ؟ وكيف يمسك قلبه أن يتخاذل ويضعف أمام بكائها وتوسلها إليه أن يبقى ، أن يبقى إلى جانبها فى أيامها الأخيرة ... ؟

كانت الأفكار تصطرع فى رأسه ، وهو هادئ ساكن لا يبدى حراكا ، قد تعلق بصره بهذه العجوز القابعة فى الزاوية ينيرها شعاع ضئيل من أشعة القمر يسقط عليها من خروق السقف المتهدم ، وكانت أذنه مرهفة مائلة إليها فسمعها تردد اسمه فى خفوت ، بلهجة يقطر منها الحب والشوق واليأس والحزن ، فلم يتمالك نفسه هذا الشيخ أن صاح : أمى ! وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فمرغ لحيته بوجهها ، وخلط أنفاسه بأنفاسها ونفسه بنفسها ، وغابا معاً فى حلم ممتع نشوان ...

ثم تنبهت العجوز ، وذكرت نذرها الذى نذرته للوحدة الإسلامية وعزمها الذى اعتزمته ، فخلصت من عناقه برفق وقالت له :

— ما جاء بك ؟

فحار فى جوابها ولم يدر كيف يعلن عزمه على الموت ، ثم آثر أن يرى ما عندها وقال لها :

— (يا أماه ، قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير من أصحابى ومن

ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يمطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ [١])

— أهذا ما جئت لأجله ؟ .. أجشمت نفسك عناء المسير فوق أنقاض المدينة المقدسة التى هدمتها وتركتها أطلالاً لتقول لى إنك جبنت وفقدت حميتك وشجاعتك ؟ أجئت تحتمى بصدرى من الموت الذى سقت إليه هذه الألوف المؤلفة من المسلمين ؟ أهذه هى خاتمتك يا ابن الزبير ويا من جده أبو بكر ، ويا من جده عبد المطلب ؟

ولم يكن عبد الله يتوقع أن يسمع منها ما سمع فطفق ينظر مشدوهاً يودّ أن يصيح من الفرح لأنها رضيت له بالموت فى معمعان المعركة ، وذلك أقصى ما يريد ، ولكنه لا يدرى إلى أىّ غاية ترمى فيكتم صيحته ويصمت ...

— مالك يا عبد الله ، أنسيت أمجاد أبيك الذى يجرى دمه فى عروقك . . . فتعال قرب أحدثك بأمجاد أبيك :

فى عشية من عشايا الاسلام الأول خرج أبوك من بيته هذا ، فتنكب طريق الحرم حيث تمثل قريش بجبروتها وشركها ، وأمّ هذه الجبال القريبة يحمل فى نفسه بهاء هذا الدين الجديد فهو يحب أن يفىء إليه وأن يستمتع بعزلة هادئة ، فلم تكد تحتويه أعالى مكة حتى طرق أذنيه همس مرعب ارتجفت له أضلاعه ، واضطرب قلبه ، وأنساه غايته التى خرج من أجلها . لقد سمع أن محمداً قتل ، وانطفأت هذه الشعلة التى أضاءها الله ليقبس منها العالم ضياء نهار دائم ، وجفّ هذا الينبوع ووقف الاسلام الذى جاء للدنيا كلها من عند هؤلاء النفر القلائل الذين أسلموا ، وكان أبوك يعلم أن قريشاً التى قتلت محمداً ستمحو هؤلاء النفر وتبيدهم ، ولكن أباك لم يخف ولم يفرّ بل ثارت فى نفسه حماسته ؛ وصرخ فى عروقه دمه الذى يحمله ميراث عصور طويلة من النبل والشرف ، وتوثب إيمانه في صدره وأشعره أنه يقدر بهذا الإيمان على العالم كله ، فسلّ أبوك سيفه ورجع يريد أن يثأر لمحمد فإذا محمد صلى الله عليه وسلم حىّ يبلغ دعوة ربه

فكان أبوك أول من سل سيفه فى سبيل الله ، فسطع من سيفه الوميض الأول لهذا الصباح الذى غمر الكون بالضياء الذى أشرق من سيوف المسلمين فى بدر وهوازن والقادسية واليرموك ونهاوند ...

أفلا يهز حماستك حديث أبيك ؟

فلم يجب عبد الله ، وآثر أن يظل ساكتاً

فرجعت تقول :

— يا أسفى ، لم يعد يثيرك حديث أبيك ، فلن أحدثك عن أمجاده ... فهل تثير حماستك شجاعة جدتك صفية بنت عبد المطلب ؟ إنك تعرف حديثها ، وتروى خبرها مع حسان بن ثابت فى الحصن ... فهل أطفأت لذائذ الحياة لهيب الحماسة فى صدرك ، فأنت في حاجة إلى قبس تقتبسه من امرأة ؟

فبرقت عينا الشيخ واشتملت النار فى عروقه ، ولكنه أزمع السكوت لتمضى العجوز فى حديثها ، فآلمها أنه ساكت لا يجيب ، وحسبت سكوته جبناً وهلعاً ، فراحت تبالغ فى تحميسه ... قالت :

— أخبرنى ... أنسيت ذلك الدم الزكي الذى أهريق على عتبات المجد ؟ سرعان ما نسيت صورة مصعب ابن أبيك ، ذلك الذى عاف الشباب والمال والرفاهية ، وجفا عقيلتى قريش ، عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . وذهب ليموت شريفاً مجيداً تحت راية الخليفة عبد الله بن الزبير

إذا كنت تعلم أنك تدعو إلى باطل ، فلم فرطت

(١) هذه الجملة من التاريخ

بهذه الأرواح ... هذه الألوف من الأرواح التي زهقت في سبيلك ؟ أكان جنى هذه المعارك النبيلة أن يحمل الخليفة الذين ماتوا تحت رايته ، ليزدان به موكب الحجاج ؟

ما كان جدك أبو بكر ولا كان أبوك الزبير جباناً ولا رعديداً ، أفتنتمي إلى هؤلاء الذين أترعوا التاريخ بأحاديث المكارم ثم ترضى أن تساق وأنت شيخ أبيض اللحية إلى دمشق ، ليلعب بك جبانها وليشيروا إليك بأصابعهم ، يقولون : هذا الذي كان

ولم يعد عبد الله يملك صبره ، فصرخ :

أماه ! كفى ... إنني جئت أودعك ...

وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فتحسسته فاذا هي بالدرع . قالت :

أتخدعني يا عبد الله ؟ (ما هذا صنيع من يريد الموت[1])

قال : ما لبسته إلا لأجلك ، وما لي به من حاجة ...

ونزعه فألقاه ... ثم تملص من ذراعيها برفق :

— أماه ... وداعاً (ولا تدعي الدعاء لي ، فوالله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل محارمه ، وإني مقتول في يومي ، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر إلى الله ، فإن ابنك لم يتعمد إيثار منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ... اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي)[1]

وأسرع فخرج وأمه تدعو الله :

(اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ في هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وبي ، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت فأثبني ثواب الصابرين الشاكرين)

وسكتت العجوز ، ومدت يديها تتلمس عبدالله لتودعه الوداع الأخير ، فلما أحست أنه قد ذهب ، ثارت أحزانها دفعة واحدة ، وهوت على الأرض

* * *

وأسدل الستار يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة على هذا الشاب الذي هجر مدرسته وصبيانه ، ونزل من الطائف وحيداً شريداً فمهدت له عبقريته سبيل المجد ، ووطأت له أكناف العظمة ، فأعاد إلى الأمة الاسلامية وحدتها وسلامتها وبنى في صرح أمجادها ركناً ضخماً ، ما كان أعظمه وأزهاه لو لم يلطخ بدماء الأبرياء ... وهذا الشيخ البطل الذي سمت به نفسه حتى صارع الخليفة في الشام ثم صارعه حتى سلبه ملكه وسلطانه . ثم خسر كل ماربح ، ولكنه مات أشرف ميتة وأمجدها فكان موته مغلوباً ظفراً بارعاً ونصراً مؤزراً ... وهذه العجوز التي لم يعرف تاريخ بنات حواء من وقفت مثل موقفها أو ضحت مثل تضحيتها أو دانتها في نبلها وشرف نفسها ، وإخلاصها لوطنها ودينها رحمة الله على الجميع !

علي الطنطاوي

(١) هذا هو النص التاريخي

فاسينوكين

للقصصي الفرنسي أونوريه دي بلزاك
بقلم الأستاذ ذريني خشبة

حدث أنني كنت أسكن مرة فى شارع صغير يسمى شارع لديجيير ، متفرع من شارع سانت أنطوان من ناحية النبع القريب من ميدان الباستيل ، وينتهى عند شارع السيرزاى . وكنت أقضى ليالىّ فى غرفتى الموحشة فوق السطح مكباً على كتبى مستغرقاً فى مذاكراتى ؛ كما كنت أقضى سحابة النهار فى مكتبة أورليان القريبة من مسكنى

وكنت آخذ نفسى بحياة التقشف والزهد ، وهى حياة لا محيص منها لكل عامل مجد ، فكنت أستكثر أن أخرج للنزهة المجردة فى البوليفار بوردون إذا ما صفا الجو واعتدل

ولم تكن قوة فى العالم تغرينى بالانصراف عما أخذت به نفسى من المطالعة والدرس ، إلا هذه القوة العجيبة التى كانت تبتعث فىّ ميلاً غريباً إلى لون آخر من ألوان الدراسة تختلف أشد الاختلاف عن دراساتى . . . أما ما هو هذا فهو شغفى العميق بملاحظة أهل هذا الحى — فوبورج — ودرس أخلاقهم وطبائعهم . ولم أكن أتأنق فى ملبسى بل كنت أبدو بينهم فى زى أهل الأعمال وسمتهم ؛ فكان ذلك يعيننى على الامتزاج بهم ؛ والانسجام كلما عادوا أدراجهم بعد الفراغ من العمل ، أو اجتمعوا لبعض شئونهم .

ومن هنا أصبحت قوة ملاحظتى لهم غريزة فى نفسى ، وملكة أنفذ بها إلى صميم أرواحهم ، وأتغلغل بواسطتها فى أدق شئونهم ، كما كان يتغلغل دراويش ألف ليلة وليلة بكلمات سحرية وتعاويذ يرددونها فى جوانح فرائسهم ودمائهم

وكنت كثيراً ما أقتفى أثر عامل عائد مع زوجته إلى بيته بعد الحادية عشرة مساء أو قبيل منتصف الليل ، بعد خروجهما من الأمبيجو كوميك لأسلى نفسى بالضرب وراءهما من البوليفاردي بونت أوشو إلى بوليفار بومارشيه

وكانوا يبدأون أحاديثهم عادة عما شاهدوا فى الملهى من التمثيل ، ثم يتدرجون من ذلك إلى أمورهم الخاصة . ولم يكن الأمهات يبالين أن يجذبن صغارهن ليُلاحقوهن ، وهن يكلمن أزواجهن ، ويحسبن مصروفات اليوم التالى ... وهنا ترتفع شكواهن من غلاء أثمان البطاطس ، ومن طول الشتاء وارتفاع أسعار الوقود ، والطلوب للخباز ومن إليه ... يتعاطون ذلك فى حوار بورجوازى ملىء بالصياح ، يشف عن طبائعهم وطبائعهن ، وغرائزهم المكبوتة وغرائزهن

وكنت أصغى إليهم فأحس كأنى أحدهم ... بل كنت أشعر كأنما أسمالهم على ظهرى ، ونعالهم المخصوفة تطقطق فى قدمى ، وبهم يجلجل فى صدري

---

* منزلة بلزاك فى الأدب الفرنسى كمنزلة دكنز فى الأدب الانكليزى . وهو من أقدر الكتاب على التصوير وتحليل المجرمين وخلجاتهم ، وهو يغلو فى ذلك حتى يحسبه القارئ من المنحطين ولاسيما حين يتناول الأدب المكشوف . وقد يشعر القارئ بملال من طول مقدماته لكنه حين يخلص إلى القصة يتنفس الصعداء . وأقصوصة فاسينوكين أحسن ما تمثل به أدب بلزاك ، ولهذا السبب اخترناها برغم مافى مقدمتها من ألغاز . ولد بلزاك سنة ١٧٩٩ ومات سنة ١٨٥٠

وشكاواهم تتردد فى قلبى ، وأرواحهم تسرى فىّ كما تنساب فيهم روحى

وعلى هذا النمط كانت أحاسيسنا كأحلام اليقظة ، نذوب معاً كما تذوب الشمعة تحت اللهب ، أسفاً على ما يصيب الانسان من ظلم أخيه الانسان ... وهكذا كنت أفرج عن نفسى بالانطلاق من دراساتى الخاصة إلى هذه الرياضة الذهنية التى كانت موهبة عظيمة منت بها السماء على ، فأصبحت لى بمثابة حاسة من البصر الروحانى ، كهذه الحاسة التى أرى بها الملموسات عن طريق عينىّ

على أننى حِرْت فى تعليل هذه النعمة الجديدة فلم أدر ما باعثها ، ولا القوة الغامضة التى تصدر عنها ؛ وكان أكبر ما يخيفنى منها أن تكون إحدى هذه القوى الكامنة التى تنتهى إلى الجنون حين يُساء تصريفها . ولم أحاول استكناه هذه القوة ، وكان بحسبي أننى أمتلكها ، وأننى أذللها لمآربى ... وكفى ؟

ومما يجدر بى أن أشير إليه هو أننى كنت قد بدأت فى تلك الأيام تحليل الكتلة البشرية الهائلة إلى عناصرها الأساسية ، وتقدير مافى هذه العناصر من خير ومن شر . وكانت هذه الضاحية التى اخترت مسكنى فيها أحسن حقل لاستنبات تجاربى واستنباط قوانينى ، فقد كان يعيش فيها الأبطال والمخترعون والعلماء الأعلام ، جنباً إلى جنب مع الأوشاب والرعاع والهمج ؛ وكانت الفضيلة فى أسمى مدارجها ، تختلط بالرذيلة فى أحط دركاتها ؛ وكان الفقر يكتم أنفاس الجميع ، والحاجة تهيمن على الأقدار والكرامات ، والخمر هى طبيب الكل ، والنفوس الثائرة المشبوبة تتبدد فى جحيم من الألم والعوز

لله كم ألف مأساةٍ وألف فجيعة كانت تمثل صامتةً فى ظلمات هذا البلد البائس المكتئب ! ولله كم ألف حسناء وألف قلب مضطرب لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى أغواره ليطلع على العجب العاجب من مضاحكه ومآسيه ثمة ! !

ما أشـد جهلنا بقصص الحياة فى هذا الحى ، تلك القصص التى لا تصلنا روائعها إلا بطريق الصدفة ، وبلا اتفاق !

على أننى لست أدرى كيف احتفظت بقصتى التالية كل هذا الزمان الطويل دون أن أنشرها على الناس ! ربما كان هذا لكونها من الصفحات العجيبة التى تظل مطوية فى ذاكرة المرء حتى تخرج منها بطريق الصدفة ، كما تخرج (النمرة) الرابحة من صندوق النصيب ... وكم فى الذاكرة من أمثال تلك القصة ، وستظل مختبئة تحت مثلها ، حتى يأتى دورها فلا يكون بد من خروجها منها كما خرجت

* * *

كنت أستأجر امرأة مسكينة كانت تحضر إلىّ صبيحة كل يوم لتنهض بشئون غرفتى ، فتصلح سريرى وتمسح حذائى ، وتنفض ملابسى ، ثم تعد فطورى ؛ وتذهب بعد ذلك إلى مصنع قريب كانت تعمل به فى إدارة آلة لقاء عشرة صلديات فى اليوم فى حين كنت أدفع أنا لها أربعة فرنكات شهرياً . وكان لها زوج فقير يصنع صناديق الدمام فيحصل منها على أربعة فرنكات يومياً ، وذلك هو الذى اضطر زوجته إلى العمل ليعولا نفسيهما وأبناءهما الثلاثة ويعيشا عيشة بين الرخاء وبين الكفاف

ومع ما كانا فيه من ذلك الضيق فانى لم أر مثلهما أمانة وعفاف يد . ومما أذكره لهما بخير هو وفاؤهما وحبهما لى . ففى الخمس السنوات التى تركت فيهن مسكنى ، كانت الأم ڤيلان تحضر إلىّ كل عام فى يوم ميلادى حاملة باقة من الورد ، وبضع برتقالات ، تحية لى فى هذا العيد ... وكنت أعلم أنها لم تكن تدخر فَلْساً لهذا الغرض ، ولذا كنت

أضطر — حين تأتى بالورد وبالبرتقال — أن أقترض ورقة مالية بعشرة فرنكات لأدسها في يدها مساعدة لها ، مدفوعاً بعامل الحاجة الذى شربنا معاً بكأسه

إذا عرفت ذلك من أمر هذه المرأة البائسة ، فاعلم أنابك الله أنها جاءت إليّ ذات يوم لترجوني فى أن أشرفها بالذهاب إلي بيتها للمشاركة فى عرس أختها ، وهو عرس تعرف أنت مما قدمت لك مقداره من الرونق وضيق الاستمداد

وقد وعدتها أن أذهب ، وكان أول ما فكرت فيه هو المبلغ الذى أستطيع أن أعينها به بعد أن أندمج فى العرس المتواضع كواحد من أهله

وأقيم العرس فى الطابق الأول من بيت قديم فوق مخزن للخمور بشارع شارنتون ، فى غرفة كبيرة أضيئت ببضعة مصابيح زيتية ذات مرايا من الصفيح ؛ وصفت فيها مقاعد من الخشب مجللة بسواد كئيب هو سواد القذر من غير شك ، وقد اشترك فى العرس ثمانون مدعوًّا لبسوا أحسن ما يُلبس فى يوم الأحد ، وحملوا أغصاناً من الزهر اليانع ، ثم أخذوا من الرقص بنصيب مبالغ فيه ، ومن المرح بكأس دهاق ، حتى لكأنما كانت الدنيا موشكة أن تنتهى لميعاد

هذا ، وقد جمل الرجال وأزواجهن يتبادلون تحيات خبيثات ، ويتراشقون بآهات فاضحات ... وكذلك كان يفعل الغلمان والشباب والكواعب الأتراب ... وكان يبدو على وجوه الجميع أمارات عجيبة من نشوة الفرح لا يسمو إليها الوصف ، ولا يستطيع تصويرها القلم

أفرأيت إذن إلى هذه المقدمة الطويلة المملة ؟ ! إنها لا تمت إلي قصتى بسبب ، فدعها جانباً ، ولا تذكر منها إلا أثراً طفيفاً يكون كالهواء الذى تتنفس فيه القصه ... فقط ... يجمل أن تذكر المنظر ... ومخزن الخمر الشاحب الأرجوانى ... ورائحة الخمر التى تفوح منه ... وصرخات الفرح والمرح ... وأن تتخيل أنك في هذه القاعة وسط القوم ، بين العمال المساكين والفقيرات البائسات ، تشركهم فى عرسهم المتواضع

أما فرقة الموسيقى فكانت تتكون من لاعب على كمان ، وعازف فى ناى ، ونافخ فى مزمار ، وكانوا جميعاً من أعضاء ملجأ العميان القريب . وقد دفعوا لهم سبعة فرنكات أجراً كاملا عن هذه الليلة اليتيمة ؛ وبالطبع لم يكن أحد ينتظر أن يسمع بهذا الأجر الطفيف إلى بيتهوفن أو روسينى ... ولذلك كان عزفهم (حيثما اتفق !) لأن أحداً من الموجودين بالغرفة لم يكن يعنى باحصاء الفلتات الموسيقية ، وأخطاء النوتة ، وسائر ألوان النشاز التى كان يقع فيها عميانا المحترمون ... أما أنا ... فلى الله ! لقد كانت موسيقاهم وقراً فى أذنى ، وكابوساً على قلبى ، وقد تلفت من الضيق فوقع نظرى على الثالوث الأعمى وقد رثيت لحالهم فغضضت الطرف عن ملابسهم المرقعة ، وثيابهم المرفوة ، وقد كان من العسير علينا أن نتبين سحنهم لأنهم وقفوا يعزفون فى نافذة عالية ، فكان الضوء يسقط على أقفيتهم تبعاً لذلك وكانت أوجههم فى الظلام ، ولم أدر ما ذا دفعنى نحوهم ، إلا أن تكون القوة الكامنة التى حدثتك عنها فى المقدمة الطويلة الماضية . لأننى وجدتنى أتغلغل بروحى فى كيان الأعمى العجوز الذى كان يعزف على الناي . وكان الموسيقيان الآخران فى مرح دائم وسرور مستمر . بعكس صاحب الناى الذى ما أحسب مخيلة فنان أو عقل فيلسوف قد اتفق لها مثل خلقه أو محياه ... وتستطيع أنت أن تتخيله إذا رسمت فى ذاكرتك طيفاً لداتى ، ودلّيت على على وجنتيه غابة كثيفة كثة من الشعر الأشيب

البراق ، ثم موّهت وجهه العبوس الصارم بما يتبع العمى من مرارة وحزن ولأواء ... لقد كانت عيناه البيضاوان تتأججان بلهيب خفى ، تشعله رغبة ثائرة فائرة ، فيتغضن جبينـه ذو الخطوط والشقوق والأسارير ويبدو كأنه حائط أثرى لعبت فوق ملاطه تصاريف الزمان

وكان الرجل ينفخ فى نايه فى غير مبالاة وبدون اكتراث ، غير معنى بأحد ممن سعى إلى العرس ؛ وقد كانت أصابعه تتبعثر فوق مفاتح الناى فى ارتخاء وحيثما اتفق ... ولم يكن يأبه بألوان النشاز التى يحدثها بعدم مبالاته ... وكأنه كان فى واد والراقصون والراقصات فى واد ... فلم يكن عزفه يؤثر فى حركاتهم أو حركاتهن ... وقد استنبطت أنه إيطالى الأرومة ، وكانت المرارة التى يكتمها فى أعماقه تجعل منه هوميروساً عجوزاً ، يكبت فى صميمه أوديسة قد مسحتها يد العفاء وهالت فوقها تراب النسيان ... ومع شقائه الذى ليس كمثله شقاء فقد كان عظيما فى مظهره ، وكان جور الزمان يزيد فى منظره روعة أى روعة !

إن من العواطف القوية ما يدفع الإنسان نحو الخير أو نحو الشر ، فإذا كانت الأولى خلقت منه بطلاً مغواراً ، وإذا كانت الثانية جعلت منه مجرماً أثيما ... وقد تضافرت عواطف الشر كلها فنحتت وجه هذا الأعمى الايطالى الصارم الجبار !

إنك لو رأيته لهالك أن ترى بداوات النقمة تنبعث كالشهب المحترقة من نجوتى عينيه ، أروع مما ترى إلى عصبة من قطاع الطرق شاهرة خناجرها فى فتحة كهف سحيق ، أو كما تنظر إلى سبع جائع يقضم قضبان قفصه

لقد خبتْ نيران اليأس فى صدره ، وبردت الحمم المتقذفة على جبينه ، ولكن أثراً من دخان ذلك الماضى المؤلم كان ما يزال مكوّماً تحت آية على الشقاء القديم ... فمن هذه الجذوات الخامدة هذا القبس الذى بدأ يتضرم به قلبى ، وينساب بالحميم والمُهْل فى عروقى !

أما العازفان الآخران فقد كانا يهشان للخمر ، وكانا كلما انتهت وصلة أفرغا من الزجاج فى كأسيهما فإذا شربا ما هو حسبهما ، ملآ لصاحبهما كأساً فاحتساه فى تأدب وشكر لهما بإيماءة من رأسه ... وكانت حركاتهم فى كل ذلك محكمة مضبوطة حتى لتحسب أنهم غير عميان ... والعجيب من أمرهم أننى حينما دنوت منهم أحسوا بى ، بل وثقوا أن بالقرب منهم رجلا ليس من العمال الذين تكتظ بهم الغرفة الفسيحة ، ولذا فقد فاءوا إلى وقار مصطنع ، وتمملوا الهدوء ونبل السمت

وقلت أخاطب صاحب الناى :

— من أى أطراف الأرض سمت بك قدماك يا صديقى يا صاحب الناى ؟

فقال فى لهجة إيطالية : « من البندقية ! »

فقلت : « وهل ولدت هكذا أعمى ، أم ابتليت بهذا عن عَرَض ؟

فقال : بل ابتليت به قريباً ... نقطة لعينـة ذهبت بنورها !

فقلت : إن البندقية مدينة جميلة ، ويا طالما حلمت بالسفر إليها !

وقد هاج ذكر البندقية شجون الرجل ، فقد رقصت أساريره وبدا عليه التأثر ، وقال :

لو أنني ذهبت إليها معك لوفرت عليك كثيراً من وقتك !

وهنا تدخل صاحب السكان فقال : « لا تكلم الدوج عن البندقية ، وإلا فانك تخرجه عن طوره فيلتهم كل هذه القنانى ... » وقال صاحب المزمار :

« هلم فلنعزف الآن يا دادى كنارد ! » وانطلق الثلاثة يعزفون للرقصة الرباعية ، لكن أخى صاحب الناي لم ين يفكر فى البندقية بدليل ما بدا على جبينه المجعّد من الأشراق وما شاع فى وجهه الهائل من الجذل

وقلت له : « وما عمرك يا صاحبي ؟ »

فقال : « ثنتان وثمانون ! »

فقلت : ومنذ كم سنة عميت ؟

فأجاب : ها ... منذ خمسين ! تقريباً !

وكان يرسل جوابه فى حسرة وتلدد عرفت منهما أنه كان يأسف لشىء ثمين أعز عليه من عينيه ضاع من يديه

وقلت له : إذن فلم يدعونك دوجاً !

فافتر باسماً وقال : « أوه ! إنها مزحة ! ومع ذلك فأنا نبيل بندقى ، ولو أردت لكنت دوجاً أعظم من أى دوج آخر »

وقلت له : وما اسمك أيها الأخ ؟

فقال : هنا — فى باريس — أعرف باسم پير كانيه وهو اسم أردت به تعمية المسجل . أما فى إيطاليا فاسمى ماركو فاسينو كين أمير ڤارسيه

فقلت متعجباً : ماذا ؟ أنت حفيد الزعيم العظيم فاسينو كين الذى انتزع أراضيه دوقات ميلان ، بعد إذ استولى عليها بحد السيوف ؟!

فصاح متأثراً : «مرحى! لقد تعرضت حياة والده للخطر فى ظل الڤيسكونتى ففر إلى البندقيه وسجل اسمه فى الكتاب الذهبي . والآن لا كين ولا الكتاب الذهبي فى هذا الوجود ! » قال ذلك وبدت عليه علائم الانفعال والتأثر ، وكانت حماسة الوطنية تهيج فى أنفاسه ، ثم يذهب بها الضيق من الحياة

وقلت أسائله : ولكنك إذا كنت فى المبدأ نبيلاً بندقيًا فلا بد أنك كنت مثرياً واسع الثراء ، ففيم إذن بددت ثروتك ؟

فقال : فى أيام الشدة !

وكان زميله صاحب الكمان يعرض عليه كوباً من الخمر فنحاه عنه ... لأن الحديث المؤلم عن ذاك الماضى الملىء أفقده شهيته إلى الشراب

مسكين هذا النبيل البندقى الذى ابتلاه الله بى ليرده فجأة إلى ذكريات ماضيه البعيد ، حين الشباب غض والصبا فى إبانه ...

ڤينيس ! هذه البندقية ! عروس الأدرياتيك ! لقد شهدت خرائب وآثاراً فى وجه هذا البندقى الذى كان كله خرائب وآثاراً ، ولقد رأيتنى أرتد إلى ما قبل نصف قرن فأمشى جيئة وذهاباً فى المدينة الجميلة التى يعشقها ساكنوها ... وهأنذا أنطلق من الريالتو إلى الجراند كنال ، ومن الريڤا دجلى شياڤونى إلى الليدو ، ثم أرتد إلى السانت ماركس... تلك الكثدرائية التى لا تطاولها كثدرائية فى حسن البناء وروعة التركيب ... وهأنذا أردد الطرف فى نوافذ الكاسا دورو ذات النقوش والتصاوير ... وها هى ذى القصور الباذخات وعجائب النباتات التى تنطبع فى الذاكرة فتظل ألوانها إلى الأبد فى صفحتها كالأحلام العظيمة التى لا تقوى الحقائق المجردة على محوها

ثم هأنذا أرى تيار الحياة الجارف يرتد فيكتسح بمآسيه وأحزانه هذا النبل الذى يتطاير كالشرر فى تضاعيف الزمن !

لا جرم أن أفكارى هذه كانت تضطرب فى نفس صاحبى البندقى الأعمى ... بل هى كانت تخطر فيه أسرع ما كانت تخطر فى بالى ، لأن فقد حاسة البصر يساعد العميان على حضور البديهة وسرعة التفكير ، وتركيزه تركيزاً عجيباً

ثم ترك فاسينو آلته وموسيقاه ، ونزل عن مجلسه فى النافذة ، وقال : « هلم نخرج من هنا ! » وقد سرت كلماته فى أذنى سريان الكهرباء ، فأعطيته

ذراعى وانطلقنا من غرفة العرس ، حتى إذا كنا فى الشارع التفت نحوى فى انكسار وقال لى : « ألا تعيدنى إلى البندقية ؟ ألا تأخذنى معك إليها ؟ ألا تتنازل فتكون قائدى ؟ ألا ترد إلى ثقتى وإيمانى ؟ إنك إن فعلت فإنك تصبح أغنى من عشرة بيوتات مالية من بيوتات أمستردام أو بيوتات لندن . إنك تصبح أغنى من روتشيلد ! وقصاراى أنك تحصل على أضعاف هذه الثروات الخرافية التى ربما تكون قد قرأت عنها فى ألف ليلة ! »

لقد كانت بداوات الجنون تلوح فى مخايل الرجل ، ولكن حرارة الإيمان التى كانت تفيض من منطقه جعلتنى أطيعه ، بل جعلتنى ألقى إليه زمامى — أنا البصير ! — فذهب يدلف بى نحو ميدان الباستيل فى وعى عجيب ، حتى إذا كان عند بقعة موحشة دانية من النهر ، عند ملتقى ترعة سانت مارتن بالسين ... وقف قليلاً ، ثم جلس فوق صخرة ثمة ، وجلست أنا تلقاءه ... وهنا ... كان منظره رائعاً وقوراً ، وكان شعره الأشيب يتلألأ فى ضوء القمر كسلوك من فضة ! وكان كل شىء ساكناً ، ولم نكد نسمع إلا ضجيج الحركة الدائبة فى ظلام البعد ... وكان النسيم البليل الليلى يزيد فى سحر المكان ، ويضفى إليه أستار الخيال

وبدأت الحديث فقلت له : « إنك تتحدث عن الملايين إلى فتى يافع ابن عشرين ؛ أفحسبت أنه يهاب الردى فلا يقتحمه للحصول عليها ؟ ولكن ... ليت شعرى ، ألم تكن تهزأ بى ؟ »

فأجابنى فى اهتمام : « ألا لاطلعت على شمس غد إذا كان حرف واحد مما سأقوله لك غير صحيح ... حينما كنت فى سن العشرين كما أنت الآن غض الأهاب فينان الشباب ، كنت نبيلاً بمولدي ، غنياً ضخم الثراء ... ثم ... نبض قلبى بالحب ، وجرفنى تيار الغرام ، وكان ذلك سنة ١٧٦٠ ، حين ملكت لى خريدة من صبايا أسرة فندرام ، جميلة الخلق ، فتانة الجسم ، ساحرة اللفتات ، متزوجة من أحد رجال مجلس الشيوخ الذى كان هو الآخر يعبدها عبادة ... وكم كنت ألقى فى سبيل غرامي هـذا من أهوال لاتصبر على بعضها الجبال ... وكم عرضت نفسى للقتل المحقق من أجل قبلة سحرية أطبعها على شفتيها الرقيقتين ... فبينا كنا نتساق كؤوس الحب الصافى كملكين طاهرين إذا زوجها يفجأنا ، وإذا به ينقض علىّ بسلاحه يود لو أغمده فى صدرى فيسكت به أنفاسى ؛ وأتيت بحركة سريعة جعلته يخطىء الأصابة ، ولم يكن معى سلاح مثله ، فتمكنت لحسن الحظ من عنقه ، وقبضت عليه بكلتا يدى ثم ضغطت ضغطة هائلة ، فسقط البائس ميتاً ، فى سبيل الدفاع عن عرضه ... وشرفه ... ثم أغريت بيانكا — وهذا هو اسمى حبيبتى — على الهرب معى ، لكنها رفضت — ولم يكن هـذا جديداً من حال النساء ... فذهبت على وجهي فى الأرض وحدى ... وصدر الحكم علىّ غيابياً بالشنق واستصفاء أملاكى ، بيد أننى كنت أعرف هذا المآل من قبل ، فحملت معى جواهرى وأموالى ، وخمس صور تيتيانيات — بندقيات — انتزعتها من إطاراتها ثم لذت بالفرار إلى ميلان ، ولا أنيس لى ، ولا من حبيب يواسينى إلا ... ذهبى ... ذهبى الكثير الذى أحببته قبل أن أحب أحداً آخر ... وللذهب معى قصة تبدأ من قبل أن أنشق نفساً واحداً من هواء هذه الدنيا ، فقد قيل إن والدتى وحمت عليه وهى حامل بى ، وقد أثر ذلك فى جنينها ، فلما نزل إلى الدنيا لم يكن يعشق شيئاً عشقه للذهب ... فلما شبيت كنت أتزين بالجواهر واللآلىء الغالية ، وأحمل معى كيساً يحوى مائتين أو ثلثمائة من الدوقيات أبددها بغير حساب »

وحينما قال ذلك ضرب يده فى جيبه ثم أخرجها

مملوءةً بحفنة من الذهب ووصـل حديثه فقال :
« الذهب ! آه من هذا الذهب الذى أصبح دعامة الحياة فى هذا العصر كما كان فى كل عصر ... إنى أستطيع أن أحسه على بعد وإن كنت أعمى ياصاح ! ومن غريب ما يحدث لى أننى أقف بالبديهة أمام دكان الجواهرى أشبع شيطانى الـكامن بمواجهة اللآلئ وإن كنت لا أرى منهن شيئاً ... وهكذا كان هذا الشيطان رائدى إلى الخراب ، لأنه قادنى إلى القمار لألعب بالذهب ، فما زال يخدعنى حتى حطمنى ، وفقدت جميع ثروتى ... ثم عاودنى الشوق الملح للقاء بيانكا ... فاسترقت الخطى إلى البندقية ، ومازلت أطوى إليها السبيل مستخفياً حتى لقيتها ... وخبأتنى الحبيبة عندها ستة أشهر مرت كالحلم فى أحسن ما يكون بين العشاق ... ووقر فى روعى أن أنهى الحياة على هذا النسق السهل الجميل المواتى ، لولا أن شعر بحالهـا البروفيدوتور ، فبث عيونه وأرصاده ، حتى فاجأنا يوماً فى فراشه الدافئ ، وهى غارة فى حضنى السعيد ، فـكانت بيننا معركة هائلة ، لأنها من أجل الحياة ! ! على أننى لم أقتل الرجل ، بل جرحته جرحا بالغاً ... فلما صاح بالخدم أقبلوا مسرعين ، وهنا اشتدت المعركة ، وساعدتنى بيانكا فى الاجهاز على الرجل ... بيانكا التى رفضت من قبل أن تهرب معى ... ها هى ذى تقف إلى جانبى لتناضل عنى ، ولتتلقى عدة طعنات من أجلى ، وتتمنى أن تموت معى فى تلك المعركة الحامية ... ولما ضاق الخدم بى ، ألقوا على عباءة كبيرة ولفونى بالقوة ثم حملونى إلى قارب — جوندولا — وأسرعوا بى إلى سجون البوزّى ، حيث قذفوا بى فى إحدى (زنازينه) بعد أن احتفظت بقبضة سيفى المكسور وقطعة من صفحته ، احتفظت بهما ، وصممت على حمايتهما ولو بروحى ، لعلمى أنهما أنفع لى يوماً من الأيام — ولم تكن جروحى بذات خطر ، والناس يقولون إن الجروح تندمل فى الشباب أسرع مما تندمل فى غير هذه السن

« وعرفت أننى لا بد مشنوق بعـد حين ، أو فاقد رأسى . وكان القبو الذى حُبست فيه قريباً من البحر كما وهمت ، فعولت على الهرب بنقب الحائط والفرار برقبتى وروحى جميعاً .

« وكان الحارس كلما فتح باب القبو دخل بصيص من النور كان يكشف على ضآلته جدران سجنى ، فرأيت مكتوباً على كل منها : (ناحية القصر) و (ناحية الترعة) و (ناحيـة الأقبية) . ثم لمحت رسماً على هذا الجدار الأخـير لم أهتم كثيراً به ، وعرفت بعد أنه صورة للقصر الدوقى . وقد أثار فى تلهفى إلى النجاة ذكاء حاداً لم أعهده فىّ من قبل . ولذا جعلت أتلمس الحائط بأصابعى وأتحسس ما عليه من النقوش ، وكان الظلام دامساً شديد الحلك . واستطعت آخر الأمر أن أتهجى كلمات عربيـة عرفت منها أن حافرها يخبر من يجيء بعده أنه قد قلقل حجرين كبيرين فى أسفل أساس البناء ، ثم أفرغ أحد عشر قدماً فى الأرض مما يلى الحجرين . وأنه كان يستعين على إخفاء آثار الحفر بنثر التراب المتخلف فوق أرض القبو حتى لا يكشفه الحارس . وكان هذا احتياطاً لا داعى له من السجين البائس ، فقد كانت أرض القبو عميقة بعدة درجات من بابه بحيث لم يكن يُعنى السجانون بتفتيشها ، ولا بإلقاء نظرة مجردة عليها ، ولم يكن منظرها فى هذا الظلام الدامس يثير شكوك من ينظر إليها

وا أسفاه ! ! لقد جهد السجين كل هذا الجهد لينجو ، لـكن جهده لم ينفعه لأنه قتل ! ومما نقش فى حائط القبو عرفت أنه كان عربياً أو من أصل عربى ، فلولا إلمـامى ببضعة لغات شرقية لما استطعت أن أصل ما انقطع من عمله الشاق ، لأنجو أنا بنفسى ... فشكراً لهذا الدير الشرقى فى أزمير . حيث تعلمت

هذه اللغة الكريمة التي بها أفلت من سجني ! لقد ذكر المسكين في نقشه أن الحكومة البندقية قد قبضت عليه واستصفت أمواله ثم حكمت عليه بالإعدام ... فيالله ما أشبه الجدود العواثر !

«ووصلت ما انقطع من عمل الرجل، ولبثت شهراً كاملا أحفر بقبضة سيفي العزيز والقطعة التي بقيت من صفحته ، وكنت أنسرق في السرداب فوق بطني وصدري ، وأعمل أظافري في التراب .. وكلما ذكرت دنو الموعد الذي تبقى لي لأمثل أمام قضاتي ، وأن ذلك سيكون بعد يومين اثنين ضاعفت مجهودي لدرجة الاستماتة حتى أسعفني الحظ ، وأدركتني رحمة السماء ، فرأيتني أصل إلى غاية لم أكن أحلم بها ..!

« وهنا .. يلعب الذهب دوره من جديد ياصاحبي العزيز ! الذهب واللآلئ ... ثروة البندقية كلها .. ذهب ... لآلئ ... ماس ... كل هـذا يا صديقي خطف بصري وأذهل شيطاني

ولم يكن يحجزني عن هذا الكنز إلا عارض من الخشب كان لابد أن أزيله لأصل إلى هذه الثروة الطائلة ... تخلعت ملابسي وعملت عارياً بكل قواي حتى أزحته قليلاً ... ثم تعبت فجلست أستجم ، وسمعت باب الكنز ينفتح فجأة ، فنظرت فإذا دوج البندقية نفسه يدخل ويدخل وراءه عشرة من رجاله الأقوياء ، فينظرون إلى أكوام الذهب وزنابيل اللآلئ ، ففهمت من حديثهم أن ههنا تخبئ الجمهورية ثروتها العامة وغنائمها من الغزو والحروب

وفكرت وفكرت ... فهداني التفكير إلى ضرورة إشراك السجان معي في حمل ما نستطيع حمله من هـذا الكنز ، والهرب إلى أقصى آفاق الأرض ... ولم يتردد المسكين في قبول اقتراحي ، بل أقدم عليه بقلب أشجع ألف مرة من قلبي ... واتصلنا بحبيبتي بيانكا فقامت من جانبها بمساعدة هائلة ، وأعدت هي والسجان قوارب النجاة ، وبعد أن اتخذنا كل الاحتياطات الواجبة في مثل هذا التدبير دعوت صاحبي فهبطنا إلى كنز الجمهورية الثمين !

« يا لها من ليلة ! لقد وقف السجان مسبوهاً أمام زنابيل اللآلئ وصناديق الذهب ، ثم انطلق فجأة يرقص ويغني ، وينتقل كالفراشة من غرفة التحف الفضية إلى قبو الذهب ، فما شككت أن المسكين قد أوشك أن يجن ... وقد خفت أن تفلت الفرصة من أيدينا بهذا النزق وذاك الطيش ، فلم أتركه يستمر في ضحكه ورقصه وجنونه إلا ريثما أملأ جيوبي وكل فجوات ملابسي بخير ما رأيت ثمة من لآلئ وجواهر وماسات ، ثم صحت به أن يتزود ، فانكفأ يقذف في جيوبه هو الآخر ما اشتهت له نفسه ثم أمرته أن يملأ أكياساً كانت ملقاة في زاوية فأفعمها ذهباً ... وحذرته أن يمس اللآلئ لأنها تنم عن حاملها فيضبط وينال جزاءه ، فعزف عنها ، في حين كنت أنا أغافله وأنتقي منها لنفسي ما أشاء فأدسه في ثيابي بين البطانة والظهارة ، ورغم ما كان يستولي علينا من جشع فإنا لم نحمل من الذهب إلا ماقيمته ألفا جنيه إذا ما وزن ، وقد رشونا الحارس الواقف كالعفريت عند البوابة بكيس فيه وزنة بعشرة جنيهات ، أما الملاحون فقد أوهمناهم أنهم إنما يخدمون الجمهورية بمساعدتنا ، على ذلك أبحرنا حينما تنفس الصبح أو كاد

وحينما كنا بمأمن في عرض البحر ، عاودتني أشباح الذهب واللآلئ . واضطربت في ذهني صور الكنز العظيم الذي خلفناه وراءنا ، وبدأت أذكر ذكريات الملايين التي كانت منذ ساعة في قبضتنا ، فقدرت قيمة الفضة بثلاثين مليوناً ، والذهب بعشرين مليوناً ، واللآلئ والماسات بأضعاف ذلك ... وهنا ... شعرت بحمى الذهب تسيطر على مشاعري وتتسلط على وجداني ، وتسري في نخاعي !

ثم رسونا إلى أزمير ، وركبنا البحر ثانية إلى فرنسا ، وكم شكرت لله وصليت حينما ركبت في

السفينة الفرنسوية لأنى أصبحت بمأمن من كل عين ولأنى تخلصت من شريكى المجرم فى الجريمة ... ولم أعد أفكر فى العواقب المحتملة لهذه الفعلة الشنعاء ، بل لم أ كلف نفسى قبل أن نفترق بكفالة شريكى عن هذا الجرم ، لأنى كنت ألحظ أنه يكاد يجن من الفرح بما أفاءت السرقة عليه ... فانظر كيف اقتصت المقادير منى

وقد يشدهك أن أذكر لك أننى ما عرفت شيئاً من هدوء البال حتى بعت ثلثى ما حملت من اللآلئ والماس فى لندن وفى أمستردام ، وإلا حينما تخلصت من التبر الذى معى بأن استبدلته بكل أحمر رنان وقد لبثت مستخفياً فى مدريد ما يقرب من خمس سنوات ثم رحلت إلى باريس بعد ذلك تحت اسم اسبانى مستعار ، حيث عشت عيشة كلها سعة وبلهنية

وفى هذا الجو الفردوسى من السعادة ، وفى ذلك العباب الزاخر من اللذة التى تجلبها ثروة ستة ملايين من الجنيهات ، قضت المقادير أن تبلونى بالعمى ! وقد عللوا العاهة التى نزلت بعينىّ من إقامتى فى مكان موحش — الزنزانة ! — بيد أننى عللته بما هو أدنى من ذلك إلى الحق ... ويلاه ! لقد فقدت بصرى من طول ما بكيت على بيانكا ... فقد ماتت !

ولكن لا ! ... ليس ذلك أيضاً ! فاسمع إلى تلك القصة : « لقد وقعت فى شراك حب جديد ! سيدة من غانيات باريس بحت لها فى نوبة جنون غرامى باسمى وسرى . ولقد كانت هى صديقة من صديقات مدام دى بارى ... وقد كانت هذه العلاقة سبباً فى ربط أسبابى بأسباب لويس الخامس عشر ...

وقصارى القول ... لقد ألقيت بالى كله إلى حبيبتى الجديدة التى أشارت علىّ بشد الرحل إلى لندن لاستشارة طبيب من أطباء العيون المشهورين فيها ، فسافرنا من فورنا . وبعد عيشة راضية منمقة بالقبل ، مغسولة بدموع الحب ، هجرتنى حبيبتى فجأة فى الهايدبارك ... أواه ياصديقى ! لقد هجرتنى اللعينة بعد أن ابتزت آخر دانق معى ! ومع ذلك فلم أجسر أن أحتج بكلمة ، لأنها وقفت على سرى ، ولأنها إذا باحت به ، فقد عدت إلى عدالة مملكتى لتقتص منى قصاصاً مضاعفاً ... وذلك الذي أخافنى فلم أقصد إلى أحد من معارفى لأستمده يد المساعدة

ولم تتركنى الشيطانة لشأنى بل بثت على العيون والأرصاد الذين ضقت بهم ذرعاً ، فأخذت فى مقاومتهم ، لكنهم اتخذوا تلك المقاومة حجة على اختلال قواى العقلية ، فتقدمت المرأة الخاطرة إلى مستشفى المجاذيب (جيل بلاس) تطلب زجى فيه ، فنجح مسعاها ، وحللت عليه ضيفاً غير كريم حيث أقمت بين مجانينه عامين كاملين ...

— وكأنما ثارت فى قلبها الشفقة من أجلى فأخرجتنى من هذا البيمارستان وزجت بى فى ملجأ للعميان ... أواه ! لقد عجزت أشنع العجز عن قتلها ! بل عجزت إطلاقاً عن رؤيتها ، وكنت على شراء سلاح ينفعنى أعجز منى فى الحالين !

« ولو قد كلت سجاني بنـدِتّـو كاربى قبل أن أتركه فى أزمير ، لعرفت منه موضع القبو الذى كنت مسجوناً فيه ... إذن لعدت مرة ثانية إلى الكنز ، ولانتهزت الحقبة التى غزا فيها نابليون البندقية ومحاها من الوجود .. وإذن .. لعدت غنياً من جديد ! !

« هل سمعت ياصاح ! إنني برغم هذا العمى الذى طمس عينى مستعد للذهاب معك إلى البندقية . . . وكلى ثقة أننا إذا ذهبنا ، فلا بد أن أعرف مكان الكنز ... إنى ما زلت أرى الذهب برغم عماى ؛ إننى لم أفقد حاسة النظر إلى الذهب .. إنها حاسة سادسة فى طبيعتى ؛ إننى أستطيع أن أرى ذهب البندقية ولو كان مطموراً تحت الماء ... لقد دفن خبر الكنز الثمين مع جثمان ڤندرامين ، أخى بيانكا . . . هذا النبيل الذى أنبأته به ليجنبنى خصومات العشرة[1]

« اسمع ياصاح ! لقد كتبت بخصوص هذا

(١) مجلس جمهورية البندقية

الكنز إلى القنصل الأول[1]، ثم إلى امبراطور النمسا فسخر مني، وكتبا إلى السلطات بضرورة مراقبتي أو زجي في بيمارستان ... فهلم أنت ... هلم بنا إلى البندقية ... لنذهب إليها في زي شحاذين، لنعود منها من أصحاب الملايين ... إنني أستطيع بذلك أن ارد أملاكي، وستصبح أنت وارثي ... إنك ستكون أمير فارنزي !! »

***

وسكت الرجل، ودارت بي الدنيا ...

ونظرت إليه، ثم إلى السين، ثم إلى الترعة، تخيل لي أنني أنظر إلى قنوات البندقية؛ ثم رددت في وجهه الغضن عيني، تخيل لي أنني أنظر إلى جدران الباستيل، غائصة في مياه البندقية كذلك

وتلبثت برهة لا أنبس، ودار بخلدي أن الرجل قد أخذ يستريب بي، ويظن أنني أرثي له كمجنون كما رثى له الآخرون، فبدأ وجهه يتقلص، ويمتلئ بالأسارير، ويعبر عما يشيع فيه من فلسفات اليأس، وخلجات القنوط

ومن يدري؟ لعلها هاجت هذه القصة ذكريات البندقية في قلب الرجل، فطفق يبكي شبابه وينعى حبه ... آية ذلك أنه أدنى نايه من شفتيه، وأخذ يلعب لحناً مؤلماً، حنوناً، لم تقع فيه لحنة أونشوز ... ولاغرو ... فقد كان لحن حبه الصائع، وشبابه المولي

ثم امتلأت عيناه العمياوان بالدموع .. وسرت الموسيقى في هواء السين تجلجل وتتكسر مع أمواج النهر .. ولو أن عابراً سهماً تحجر قلبه .. لوقف ينصت إلى موسيقى الذكريات .. موسيقى لحب المنني .. الذي يرسل من مزماره آخر صرخة من صرخات الألم وراء اسمه المنسي الممتزج بذكريات بيكانكا! ولكن سرعان ما علا ميزان الذهب، وشال ميزان الحب ... ونكس ميزان الشباب!!

وقال في صوت متهدج: « إني أرى الذهب دائماً، في منامي وفي يقظتي ... وإن روحي لا تني تسبح في عالم متلألئ بأضواء النضار والجواهر والماس الثمين ... إني لست أعمى كما عساك تظن، فالذهب واللؤلؤ يضيء لي خلك ليلي الدائم ... ليل فاسينو كين القديم الشاب، لا أنا ... فقد تقلص عني لقبي إلى مسمى!! آه يا ربي!! لقد حل عقابك بالقاتل فلم تفلته ... بوركت يا قدوس! ...

ثم ذهب يردد صلوات كثيرة لم أعن بالتثبت منها ... فلما هب واقفاً قلت له: « هل سنذهب إلى البندقية؟ إني مستعد! » فتهلل وجه الرجل وصاح: « إذن لقد لقيت رجلاً بعد طول اليأس! ».

ومددت له ذراعي فلف ذراعه عليه، وذهبت معه ملجأ العميان. وقد لقينا في الشارع جماعات المدعوين يصيحون ويصخبون في طريقهم إلى منازلهم

وقال لي وهو يضغط على يدي: « هل نبدأ رحلتنا من غد؟ » فقلت له: « بمجرد أن يتيسر لنا مبلغ من النقود! » فقال: « بل ننطلق على أقدامنا! إني سأشحذ! إنني ما زلت قوياً. وأنت، إنك ما تزال شاباً موفور الشباب، وستتدفق القوة في كيانك حينما تنظر إلى قناطير الذهب تخطف عينيك

***

وتوفي فاسينو كين قبل أن ينتهي الشتاء بعد شهرين طويلين قضاهما في مرض عضال ..

لقد أصابه برد شديد لم يمهله ... مسكين!

دريني خشبة

(١) نابليون قبل أن يكون إمبراطوراً



الانفلونزا تنهزم
في كل مكان
'اسبرو'
يحمل الهزيمة اللازم
٢٧ قرصا اسبرو (ماركة مسجلة) ٢٧ قرصا
اسبرو
كيفية الاستعمال
ASPRO LIMITED
SLOUGH, BUCKS
Rheumatism Take 2 to 6 Tablets
'aspro'
Headache & Neuralgia Take 2 to 3 Tablets
'aspro'
'ASPRO' REG. TRADE MARK
تدل الاخبار الواردة من جميع انحاء البلاد على ان "اسبرو" قد هزم الانفلونزا وقد ظهرت الانفلونزا لهذا العام في شكلين (١) احتقان الحلق (٢) أوجاع الرأس . السعال . العطاس . الحمى . الضعف . فاستعمل قرصين من "اسبرو" غرغرة حسب التعليمات فتخف احتقان الزور سريعاً وتمنع العدوى وما يترتب عليها من مضاعفات وخذ قرصين من "اسبرو" وشراباً ساخناً كشراب الليمون أو قليلاً من الويسكي كما يروق لك . بهذه الطريقة تزيل الاصابة بالانفلونزا في ليلة واحدة متى اسرعت دون ابطاء الى هذه المعالجة في الادوار الاولى من الاصابة وانك لتبتهج وتدهش للسرعة التي يزيل بها "اسبرو" آلام الركب الناتجة من ارتفاع درجة حرارة الجسم . كذلك يزيل "اسبرو" الألم الذي يصحب الاصابة ويعود الصفاء الى الذهن . ويحل النوم اللذيذ محل الارق والقلق . فمن الواضح ان من مصلحتك
المبادرة بطرد الانفلونزا
جرب 'اسبرو'
في الحالات الآتية
الانفلونزا
أوجاع الرأس
الأرق
التهاب الزور
النيورالجيا
عرق النسا
البرد
وجع الظهر
الحالة العصبية
الوكلاء ج . پ . شريدان وشركاه
الأسعار ٢ قرصان ٥ مليمات
١٠ اقراص ٢½ قرشا ٢٧ قرصا ٥ قروش
'اسبرو'
يستعمل كغرغرة
قرصان اسبرو في ايه ملء كوب ماء تكون غرغرة مفيدة في التهاب الزور والحلق والتهاب اللوزتين
جرب اسبرو
اليوم
قرصان بخمسة مليمات

الحب والقتل

للكاتب الفرنسي أرمان بكير
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

تعريف بالقصة

« ارمان بيكير Armand Bickert كاتب فرنسي ليونى (نسبة إلى ليون) المولد والنشأة . درس القانون ودخل الجندية ، وخاض غمار الحرب العظمى وتخصص فى كتابة القصص التى تكشف عن نفسية بعض رجال الجيش وقد أكسبته دراسته رقة فى الأسلوب ودقة فى الوصف . وقد ترسم خطى بعض كتاب الروس ، لأنه عكف على تمحيص ما طالعه من مؤلفات تورجنيف وتشيكوف وتولستوى ودوستويفسكى وأندريف . لذا نرى أدبه متأثراً لأبعد مدى بالغموض والخفاء والحزن والطيرة . وقد نال جائزة فيمينا Femina بعد أن نشر تلك القصة التى دلت على علو كعبه ، وهو يرى فى المرأة من التقلب وعدم الوفاء ما يجعلها أداة القدر فى السخرية من الرجال وعدم البقاء على الحب ولو كان للحبيب الأول »

قال إدوار دبيون ، وكان رفيق فى المدرسة الثانوية ، وقد ضرب الدهر بيننا أكثر من ثلاثين عاماً :

من شأن الحزن أن يرجع بصاحبه إلى العصر الماضى ، فيُشهده في عالم الخيال كل نعمة كان فى سالف الأيام باشرها ، وكل مسرة لابسها ، وكل لذة خالسها ، وكل غبطة عاقرها ، وكل متعة لامسها . ويطيل به الوقوف على أخيلة تلك اللذات والمطايب ، ويكثر به التلوم على أشباح هاتيك المباهج والمطارب ، مبدياً ما بها من طريف المحاسن ، مما كان قد خفى على المرء منها أيام يباشر حقيقة هذه النعم واللذائذ ...

وكذلك الذكريات تذيع بعد افتقاد الأشياء للوهم ، غوامض أسرار كانت أيام وجدانه تغيب عن الفهم ، فلا يدركها الفهم ولا يحيط بها العلم . فمن ذلك ترى يا صاحبي أن الحزن تخيم من فوقه اللذة ، وأن البلاء الذى نحتمله إذ ذاك لا شبه له بالألم المطلق الذى لا يكون قط إلاّ بغيضاً منكراً ، والذى ما نزال نبتغى الخلاص من ربقته

فقلت له : لم يكن هذا عهدى بك يا ادوار ، فقد كنت باقمة المرح ، ومقدمنا فى الأفراح ، وقائدنا إلى كل لهو برىء . فما الذى طرأ عليك حتى غيَّر طبعك وبدَّل خصالك وأصبحت تنعت الماضى نعت الصاحب ، وتندب بلواك وتبكى شجوك وأشجانك ... ؟ أما أنا فلا أحب إدامة الإطراق والتفكير والهم ، ولا الاسترسال مع الخواطر الحزنة والاندفاع فى تيار الهواجس الترحة ، وشأني أن أُفرق بين الخاطر الحزن وأخيه بالفكرة السارة ، والذكري المفرحة .

فقال إدوار :

— إن هذه الخواطر الحزينة التى تمهل فطرتك الطروب على مطاردتها ، مع ما طويت عليه من حزن ، واحتوته من شجن ؛ لتكسبنى لذة وتورثنى متاعاً . ومنذ لعبت يد الحوادث بمقدراتي ، وأوردنى حسن الظن بالدنيا وناسها ، ووفرة الثقة بصدقهم وإخلاصها ، والانخداع بظواهر الأمور ، سجلّ العناء والألم ، صبوت للحزن ، وتاقت نفسى إلى الأسى ؛ فسرَّحت خاطرى فى أودية الذكرى ، وإن من الحنين ما يستحب ، ومن الدموع ما يستعذب

فقلت له : لقد تركتك وقد أحرزت إجازة التعليم الثانوى من «لسيّه لوى ترز» وكنت تنوى أن تتم دراستك فى إيكول سنترال ، فقد كانت مواهبك الرياضية جد متألقة

أجاب : نعم ... ولكن والدى ألحقنى بكلية سان سير الحربية ، لأن لأسرتنا تقاليد من عهد بونابرت ، وكان لى جد وعم وخال حملوا السيوف وعرضوا الرماح ، وخاضوا غمار الحرب تحت لواء الأمبراطور نفسه ، فلم أعص له أمراً . وبعد أن تخرجت برتبة الملازم فى سلاح المدفعية ، تمهيداً لترقيتى إلى صفوف أركان الحرب ، عينوا إقامتى فى بلدة « آنسى » ولعلك يا أخى لا تعلم كيف تكون عيشة الضباط فى الجيش ، ففى الغداة التدريب العسكرى وامتطاء صهوة الجياد ، ثم الغداء مع القائمقام فى مطعم يهودي ، وفى المشى الراح والسمر والميسر فى الأيام الأولى من الشهر ، عند ما تكون أكياسنا عامرة بالمرتب . ولم يكن فى بلدة آنسى فى ذلك العهد بيت واحد مفتوح ؛ ولا فتاة واحدة صالحة للزواج ؛ فكان دأبنا التزاور ، وأن نتلاقى فى مثوى أحدنا ، حيث لانبصر إلا وجوه الرفاق ! ولم يكن يخالطنا إلارجل واحد من الملكيين (هكذا كنا نسمى كل شخص خارج الجيش اعتزازاً بأنفسنا وازدراء بالآخرين !) وكان هذا الرجل الملكى يناهز الثلاثين ، فعددناه — لحداثة أعمارنا — شيخاً كبيراً . يا للغرور ! وكان يمتاز علينا بفضل حنكة وتجربة ، وكان لنا انفرد به من طول الصمت وعمق السكوت وعبوس الوجه ، وذرابة اللسان (حين يسمح لنفسه أن يتكلم) ومرارة التهكم ، وقع فى نفوسنا وأثر بليغ . وكان يخيل إلى أدمغتنا الفتية الطائشة أن لهذا الرجل ، لاريب ، نبأ خفيًّا وشأناً غامضاً ؛ وأن سرًّا مجهولاً يحيط بحياته . وأظلك يا أخى لا تزال تذكر دروسنا فى علم النفس ، فأول وأقرب مايبدو لنا من خصائصها هو الوجدان المسمى بالتطلع ، والميل إلى استكشاف الجديد والتلذذ به ؛ وقد علمنا أن كان له سابق خدمة عسكرية فى الهوسار ، حيث أبلى بلاء حسناً . ولم يعرف أحدنا العلة التى من أجلها ترك الجيش وهو فى مقتبل العمر ، وطاب نفساً بالاستتار فى آنسى ، حيث عاش عيشة جمعت بين الفقر من ناحية ، وبين التبذير والإسراف المهلك من ناحية أخرى ، فكان لا يزال يسير على قدميه ، لا يركب قط مطية ولا ينفك فى كساء رث قديم ؛ ولكن طعامه كان بين أصحابه مشاعاً مشتركاً ، وكان خوانه لإخوانه مستباحاً ، وسماطه للداته منتهكا ... لا أقول إن مائدته كانت رداحاً ، ولكن الخمرة كانت تفيض من دنانه فيضاً وتهطل من أقداحه هطلاً . وكان أشد وله وشغفه بالرماية ، ينضب الأهداف ولا يزال يرميها بطلقات بندقيته ... وقد بلغ فى الرماية مبلغاً لم يُسمع به ، ولا يكاد يصدقه إنسان ! وكان حديثنا كثيراً ما يدور على النساء والقمار والمبارزة ؛ ولكن سيلفان (وهذا اسمه) لم يكن يشاركنا فى هذا الحديث قط ! وكنا إذا سألناه : « هل بارز قط إنساناً ؟ » . أجابنا بإيجاز وجفاء : أى نعم قد فعل ذلك ! . ثم يأبى ذكر التفاصيل فاستنتجنا أنه لابد أن يكون قد قتل رجلاً فى مبارزة ، وأنه يحمل دمه المسفوك فى عنقه ، ويشد وزره وإثمه إلى نياط ضميره .. وسهرنا ليلة للمقامرة وجلس ليوزع الورق بعد أن وضع على المائدة الخضراء ألف فرنك ذهباً . وكان من عادة سيلفان

إذا تصدر مجلس الميسر أن يلزم تمام الصمت ، فلا يجادل ولا يخاصم ، ولا يلج باب حوار أو مناقشة . وكان بيننا فى تلك الليلة ضابط جديد ، ورد حديثاً فرقتنا فأتى في خلال اللعب بهفوة غير مقصودة بأن زاد رقماً واحداً فى حسابه . فتناول سيلفان الطباشير فى سكوت سكسونى وقيّد العدد على صحته كعادته ، وحسب الضابط الجديد المخطىء أن سيلفان أخطأ فشرع يناقشه الحساب ، فلم يحفل به صاحبنا واستمر يوزع الورق دون أن يعيره التفاته ، فنفد صبر الضابط . وتناول الأسفنجة ومحا بها ما ظنه خطأ . فتناول سيلفان الطباشير وصحح الحساب ثانية ، وكان الضابط قد لعبت الخمرة برأسه وأحمت الدم فى عروقه ، وهاج الغيظُ عواطفَه ، وأثار خاطره ضحكُ القوم ، فطار الغضب فى دماغه وعدها على رب الدار إهانة ، وأمسك بشمعدان نحاسي كان على المائدة وقذف به رأس مضيفنا ورئيس منضدة اللعب فراغ الرجل وأفلت ، وقد كاد الراجم يفلق جبهته كفلق النوى .. عند ذلك تولانا الذعر والروع والدهش ، ونهض سيلفان فى سكينته وهو يحرق أنيابه حنقاً وعيناه تتأججان غضباً ، ولكنه ملك زمام نفسه وأحسن القبض على لجام أعصابه المهتاجة فى وقت لا يملك فيه أقوي الرجال مشاعره وقال للمعتدى : سيدى العزيز ! تكرم عليّ وتفضل بالانسحاب من اللعب ، واحمد الله أن هذا الحادث قد وقع فى دارى ! فانسحب الضابط وهو يقول إنه مستعد أن يبارز خصمه بأى سلاح يختاره . ولم يشكّ أحدنا فى عاقبة هذا الأمر ، وحسبنا صاحبنا الجديد المتهور فى عداد الموتى . واستمر اللعب دقائق معدودة ، وشهدنا انقباض صاحب الدار وضجره ، فانسحبنا واحداً إثر واحد . ومضت ثلاثة أيام ولم تقع المبارزة والضابط المعتدى لا يزال على قيد الحياة فقلنا : أمن الجائز أن سيلفان لن يبارز خصمه ؟ إنه إذن لمولود من جديد ، وكأنه ورد سجل الأحياء ليومه . واقتنع سيلفان من الضابط بمعذرة واهية ، ثم صالحه وصافاه ، فسقط سيلفان فى أعيننا معشرَ الضباط الشبان ؛ لأننا رأينا الجبن رأس المساوىْ .

ولكن هنالك رجالاً يكفى مجرد النظر فى وجوههم لأن تعتقد فيهم الشجاعة ، وكان من بينهم ذلك الرجل الغامض . وما برحت الأيام أن تمحت منَ صفحات أذهان رفاق ذكرى الحادث . واستعاد سيلفان نفوذه بيننا وسابق هيبته ، ما عدايَ أنا وحدى ! فقد زالت كرامته من نفسى ، وأصغرته وأنزلته حتى تنكرت له وجعلت أخجل من النظر فى وجهه ؛ وآنست منه المرة بعد المرة أنه يهم بمفاتحتى ليشرح لي حقيقة حاله ، فجعلت أروغ منه إلى أن ملّ وانصرف . وما لي برجل أغضى على القذى ، واحتمل الإهانة ، وترك صحيفته ملطخة بالعار دون أن يحرك ساكناً لتنقيتها من تلك الوصمة ؟ وكنا معشر الضباط الفتيان نرى الشجاعة كبرى المحامد وعُليا المناقب وفُضلى الخصال ، وقد يجعلها بعضنا ذريعة إلى كل منكر ، وشفيعاً فى كل وزر ومأثم ؟ !

وفى يوم من الأيام زارنا فى ديوان الشكنات وقال : « أيها الأخدان إنه قد طرأ عليّ ما يوجب رحلتى من التو واللحظة . وإنى لمسافر الليلة وأرجو ألا تضنوا عليّ بجؤا كلتى على مائدة الوداع في بيتى فإنها المأدبة الأخيرة التى أحظى فيها بشرف الاجتماع بكم كسابق عهدنا » فقبلنا دعوته ، وفى الموعد

المضروب لبيت دعوته فألفيت ثمَّت كل إخوانى ، وكان سيلفان فى أحسن حال من الانشراح فسرى إلينا جانب من سروره وطربه ، وجعلت أباريق الرحيق تفض أختامها ، والدنان يتدفق مدامها . ولما همّ القوم بالانصراف أذن لهم جميعاً وقبض على يدى واحتجزنى ، فلما خلا المكان من الجمع أجلسنى إزاءه وقال لى : لعلنا لا نلتقى بعد اليوم ، فأرى قبل الفراق أن نتفاهم فى أمر بيننا قد غشيه الشك واعتوره الغموض . لعلك عجبت من إمساكي عن مبارزة السكير الأحمق رودولف . على أن حياته كانت فى قبضة يدى ، مذ جعل لى حق اختيار السلاح ، ولكن لو كنت أضمن حياتى كل الضمان لما أعفيته قط من المبارزة ، ولما ترددت لحظة فى استلال روحه من بين جنبيه ، ولكن ليس من حقى أن أعرض حياتى للهلاك قبل الأخذ بثأر قديم وسبب ذلك أنى قد لطمت على وجهى منذ ستة أعوام ، ولم أشف نفسى بعد من اللاطم الذي ما زال حياً يرزق

وما كنت ممن ينام عن الثأر حتى الموت . ثم جعل سيلفان يتحرك فى مجلسه كالحائر القلق ، كمن به هم باطن وألم عميق ، ولم يبق فى وجهه أقل أثر مما كان فيه آنفاً من الجذل والحبور ، وكانت صفرة لونه وبريق عينيه وكثافة الطباق المنبعث من غليونه وفمه قد أعارت شخصه هيأة الشيطان ، وصورة من مردة الجحيم ! وأخيراً تكلم فقال :

قد علمت أني كنت ضابطاً فى فرقة الهوسار ، وكان الفسق والفجور والدعارة هى المذهب والعرف المألوف فى أيامنا ، فكنت شيخ الفاجرين وإمام الفاسقين وزعيم أهل الفراغ والخلاعة ، فاتفق فى بعض مجالسنا على الشراب أنى ضربت برتو الشهير الذي قد تغني بذكره الشاعر الفريد ديفينى فصرت موضع الاعجاب ومحط التكريم ووصفني المشير ديزيريه فى أحد تقاريره الرسمية بأنى « أذى ضرورى للجيش وبلاء لا بد منه » ، وانضم إلى فرقتنا فتى حديث من أسرة نبيلة ، ذو جمال وذكاء وفتنة ، فزعزح من مكانتى ، وتهدد سلطتى ، ولكنه شرع يخطب ودى فتلقيتــه بانقباض وجفوة ، فأحجم عنى واستشعرت له نوعاً من البغض الكامن ، ولما رأيت حظوته لدى النساء ألحّ على الكرب وأكل الغيظ شغاف قلبي ، ثم التقينا فى مرقص بدار سرى من أعيان أورانج ، وقد خصته ربة الدار — وكانت صديقة لى — بالحفاوة والعناية والملاطفة ، فدنوت منه وهمست فى أذنه بلفظ جارح ، فثار علىّ ثورة الأسد ، ولطمنى على وجهى ، فقبضت على قائم سيفى ، وأغمى على النسوة ، فافترقنا لنلتقى فى الليلة نفسها بميدان المبارزة وكان الوغد إذ ذاك قليل الاكتراث بالموت ، فحدثت نفسي : « أية فائدة هنالك فى انتزاع الروح من شخص لا يجعل للحياة شأناً ولا يقيم لطول العمر وزناً ؟ »

فقلت له : الظاهر أنك غير متأهب للموت الساعة وأراك تستعد للقاء صديقتك وما كنت عن ذلك بنائمك

فأجابني : إنك لا تمنعنى من ذلك . وعلى كل حال فستبقى لك علىّ طلقة تطلقها متى شئت وسأبقى أبداً مستعداً للاستهداف لها تحت مشيئتك

فأخبرت الشهود أني لا أريد الاطلاق اليوم . وبذا انقضت المبارزة وفقاً لقانونها [1] ثم اعتزلت

(١) وفقاً لقانون المبارزة لا بد أن يكون اللاطم أطلق وأخطأ

الجنـدية وتسترت فى آنسى ، ولم يمر بى يوم إلا فـكرت فى الانتقام ، والأخذ بالثأر . والآن قد آن الأوان ، فقد وردت إلىَّ رسالة من أحد أصدقائى بباريس يخبرني أن خصمى الجميل الفاتن قد اقترن من فتاة حسـناء . فهأنذا متوجه إلى باريس . وسوف نرى هل يستقبل الموت غداً وهو مستمتع بالزواج بمثل تلك الشجاعة التى استقبله بها يوم أسلفني الطلقة الباقية وتعهد باستعداده لتلقيها من غدارتى فى أى يوم أشاء

فقلت له : إنه انتقام متأخر يا صديق سيلفان ! فضحك ضحكة جهنمية شيطانية ، وبدت نواجذه حتى لـكأنه مفستو[1] يسخر من الدنيا وما فيها وقال : كلما تأخر الثأر كان أشهى وأعذب وأوقع ، وما قيمة حياته أستلها من جنبيه وهو لا يعبأ بها ، مذ كان فى ميعة الشباب وعدم اكتراث الفتوة ؟ الآن ، والآن فقط ، قد عرف قدر الحياة وذاق طعم لذتها ! فلشد ما يكون الموت أليماً فى حسبانه ، عند ما يرى أنه يغادر هذه الدنيا تاركا وراءه المال والجمال وفسحة الآمال ، والشهرة والاقبال ، وعمراً طويلاً يرجو أن يقضيه فى أحضـان قرينته الفاتنة ! فى قصرها الفخم . ثم نهض سيلفان ورمى بقبعته على الأرض وأخذ يقبل فى الحجرة ويدبر ، كأنه النمر الضارى فى قفصه الضيق

ثم قال : لقد عشت ما مضى من عمرى بعد الصفعة التى تلقيتها على خدى كظيما ، على أمل تلك الطلقة المنقذة لشرفى ؛ وأراك تهونها وأنت الذى ازدريتنى إذ رأيتنى أعفو عن صاحبنا الأخرق ...

قلت : أواثق أنت من إصابته ؟ فضحك ثانية وقال : إن حياته فى قبضة يدى ؛ ولو أنت اقترحت أن تجعل على قلنسوتك تفاحة ثم رشقتها لما امتنعت ثقة بتسديد رمايتى ، وإنى لن أصيب إلا الهدف ، ومن المحال أن أخطئه أو أتعداه ، إلى ما دونه من أجزاء بدنك وأوصالك

قلت : إن هذه لتجربة لم يفلح فيها غير غليوم تيل فيما أعلم

قال : غليوم تيل ؟ إنها لأسطورة ابتدعها أهل سويسرا تمجيداً لبطلهم الوطنى . أما رمايتى فحقيقة لا ريب فيها . ثم قال : « انظر ! » ، وكان قد حزم كل أمتعته وحاجه ، وربطها استعداداً للشحن ، فلم يبق بالدار إلا جدرانها العارية المثقبة من آثار مراميه ومراجه . وقد نقشت فيها الخروق طولاً وعرضاً ، فكأنها الأسفنجة أو قرص من شمع العسل

وكنت أصغى إلى حديثـه فى سكوت وقلبى موزع بين عواطف متضاربة ومشاعر متكافحة

ولـكنه أيقظنى من ذهولى بقوله : ما تقول فى مصاحبتك إياى ، لتكون شاهدى ؟ وفجأة خطر ببالى خاطر عجيب ! لماذا لا أصحب هذا الشيطان الذى يمثل الموت فى شخصه ، لعلى أمنع الخطر الداهم عن الشاب المسكين وزوجته الجميلة اللذين ما عرفتهما إلا من وصفه لعلى أمحو آيه الموت التى أثبتهـا ذلك المتمرد على الحياة والسعادة باسم الانتقام عن تلك الأسرة الناعمة بأشهى أيام الزواج فى مقتبل العمر . ولمحت فى وجه سيلفان أنه كان يدرك خفايا نيتى فأسرعت بقبول دعوته قبـل أن يفكر فى العدول عنها ؛ وأخذت إجازة شهر من الـكولونيل ديبوا الذى ظن بى الظنون ، وغمز بعينه وهو يمهر إذن التسريح المؤقت ، حاسباً أننى سأقضى الأسابيع

(١) اسم إبليس فى قصة فاوست الشهيرة

الأربعة فى مغانى باريس ومباهجها أمتع الروح والجسد بين غوانيهـا ، ولشد ما ندمت على أننى لم أستشره وأشركه فى أمرى ! فلعله كان ينهانى عن طيشى واندفاعى وقد جلبا سعادتى وشقائى ؛ فلما بلغنا ضاحية ڤوكويسون على مقربة من باريس استأذنت سيلفان أن أسبقه إلى العاصمة حيث كان يقطن خصمه فى بولفار دى نوايلس ، لأتعرف إلى الزوجين قبيل وصوله ، وأمهد السبيل لبلوغ أمنيته ، فقبل وقال :

— حسن ! سأتخلف كما أشرت ، فأنت كشافى وطليعتى ونذير الهلاك إليهما ، ولـكن احذر أن تقع فى شباك جمال تلك الأنثى فتفسد علىّ السعادة التى تغذينى وهى اختطاف روح زوجها من بين جنبيه . فلم أعقب على فكرته بجواب واكتفيت بابتسامة حائرة رسمتها على شفتى يد الاشفاق والخوف معاً ، وإن كنت أتلهب تلهفاً وأتحرق تشوقاً لرؤية الزوجة التى ظننت أننى أسعى لإنقاذ بعلها من الموت المحقق . وكان سيلفان قد دلنى على معالم القصر ولم يبح لى باسم صاحبه

ولـما بلغت القصر قادنى أحد الخدم إلى حجرة المكتبة ، ليعلن مقدمى ، وكانت الحجرة مزدانة بكل آلات الترف ، فالجدران مبطنة بقماطر الأسفار ، محلاة بالتماثيل والدمى ، وعلى صُفـَّة الموقد المنحوتة من المرمر المسنون ، مرآة عظيمة ، والأرض مفروشة بالدرابى والطنافس . وأخيراً فتح الباب ودخل رجل بهى الطلعة جميل الصورة يناهز الثانية والثلاثين من العمر فتأكدت أنه خصم سيلفان ورب الدار . فما كان أعظم حيرتى عندما تقدم إلىّ محتضناً يقبلنى ! ! لقد كان هنرى بوردينوا كونت دى لاڤيسيل لاڤيه ، وصديقنا ورفيقنا فى المدرسة بنفسه ! فحاولت تسكين جأشى ، وزعمت لتبرير قدومى أننى عرفت مقره مصادفة ، فقدمت لزيارته . وجلسنا وأخذنا بأطراف الحديث ، فما لبثت أن وجدته كما عهدناه سهل الحديث ، عذب الكلام ، مرح الطبع ، خالياً من التكلف والتعمل ، فزادنى وحشة وهيبة وارتباكا . وكنت كلما هممت بمصارحته بسر زيارتى أرتج علىّ واعترانى خبال لا عهد لى به ، فلم تكن الخيانة من طبعى ، وإن كانت فى سبيل إنقاذ حياته ، وتخييب آمال ذلك الوحش الرابض المتربص فى ڤوكريسون ولا يلبث أن يظهر على مسرح تلك الحياة الهادئة ليورد ذلك الصـديق الفريد والزوج السـعيد موارد التلف ، من أجل صفعة ساخرة سقطت جريمتها بالتقادم . وتأكدت فى تلك اللحظة أن الحياة مأساة معقدة بعيدة الغور وإننا لا نعدو أن نكون ممثلين مسخرين لأدوارنا التى نتقن لعبها على الرغم منا .

وإذا بالـكونتيس قد دخلت بغتة فأسرع إلى احتشامى وخجلى فقد كانت مفرطة الجمال ، ناعسة الطرف ، فارعة القد ، فقدمنى إليها الـكونت بأحلى عبارات الاعزاز والترحيب وهما لا يعلمان أننى نذير الموت . فقد كنت كلما أمعنت فى الحديث تضاءل أملى فى إنقاذ الرجل لما أعلمه من غليان الغضب فى قلب ذلك الجبار المنتقم المتبرم بالحياة ، المحروم من الحب . وأخذت أنظر إلى الجدران فاستوقفتنى صورة تمثـل مشهداً طبيعياً ولـكن الذى أدهشنى من هذه الصورة لم يكن جمالها وبديع صنعها وإنما وجود ثقوب متجاورة فى أديمها على أثر طلقات نارية ، فقلت للـكونت : تالله إنها لرميات مسددة !

فقال : أجل ، إنها رميات صائبة ! إنك لا شك تحسن الرماية مثلي

فسرني انتقال الحديث إلى لباب الموضوع ، وتمنيت أن أجد منه مدخلاً لقصدي وقلت :

— أحسنها بعض الشيء . إني أستطيع أن أقرطس بطاقة من بطاقات الزيارة من مسافة عشرين خطوة ، بشرط أن تكون الندارة مما قد تعودت الرمي به

فقالت الكونتيس بلهجة المكترث بالموضوع : « حقاً ؟ » ثم التفتت إلى زوجها وقالت :

— وأنت يا عزيزي أتستطيع أن تفعل ذلك ؟

فأجاب : لعلي فاعل ذلك يوماً ما ! وعلى كل حال سأحاول هذا . على أني لم أكن في أيامي السالفة بالرامي الأخرق ولا الطائش السهم ، ولكنه قد مضى الآن أربعة أعوام على آخر عهدي بالرماية .

فأُسقط في يدي ، لأنني افترضت أنني قد أصل في مفاوضتي مع الوحش المتربص في آكام فوكويسون إلى تبادل طلقتين بدلاً من أن يدفع الكونت حياته ثمناً للطلقة المعهودة الباقية ديناً في عنقه ، وأن يكون هو البادئ بالطلقة فيصرع سيلفان قبل أن يتمكن من إزهاق روحه . ولكنني تجلدت وقلت :

— حقاً ؟ إذا كان الأمر كما قلت فما إخالك قادراً على أن تصيب بطاقة على مسافة عشرين خطوة فإن الرماية — كما لا يخفى — تحتاج إلى التدريب اليومي ؛ وهذا ما نعلمه بالخبرة ، فإن أهملنا التمرين فقدت يدنا الحذق والتسديد . وقد أذكر أن أمهر من رأيت من الرماة كان لا يزال يتمرن كل يوم ثلاث مرات قبل تناول غدائه وكان قد تعود ذلك تعوده الأكل والشراب

فقال الكونت : وماذا كان من مهارة ذلك الرامي وحذقه ؟

قلت : لقد كان وحقك ، ربما أبصر بالذبابة على الجدار — إنك تبتسمين يا كونتيس كالمرتابة في صحة قولي — أقول : لقد كان ربما أبصر بالذبابة على الجدار فيصيح بخادمه قائلاً : « جوزيف هات لي المسدس » فيأتيه جوزيف بالمسدس فيطلقه فإذا الذبابة قد انسحقت على مكانها ؟

قال الكونت : هذا مدهش ! وماذا كان اسم هذا الرجل ؟ . قلت : سيلفان

فصاح صديقي منتفضاً في مجلسه : سيلفان ؟ أتعرف سيلفان ؟

قلت : كيف لا أعرفه يا صاحبي وقد كان صديقي الحميم ولا يزال ؟ لقد عاشرنا عشرة الأخ إخوته ، على أنه قد مضى الآن أسبوع على آخر عهدي به أوَ تعرفه أيضاً ؟

قال : إذن لا يزال على قيد الحياة !

قلت : وعلى قيد عشرين ميلاً من باريس وأظنه يقيم في ضاحية فوكويسون

فامتقع وجه الرجل وجمد في مكانه كأنه أصيب بطعنة نجلاء في ظهره . فأدركت الكونتيس ماطرأ على زوجها من التغير وقالت : أتعرفه أنت أيضاً يا عزيزي ؟ فقال : أجل أعرفه حق المعرفة ! ألم ينبئك قط بنبأ عجيب وقع له في حياته ؟

قلت : أتشير يا هنري إلى حادثة اللطمة التي أصابه بها رجل نذل خسيس في بعض المراقص ؟ (قلتها لأبعد عن ذهنهما دنوهما من الخطر وأثبت لهما جهلي المطلق بما ينتظر الزوج)

فقال : ألم يصرح لك باسم هذا النذل الخسيس؟

قلت : كلا إنه ما ذكر لى اسمه قط !

فابتسم الكونت ابتسامة ساهمة حزينة وقد غادره بشره ، وحدثته نفسه بيمض ما وراء الأكمة وقال وقد عراه أشد الاضطراب والانفعال : أنا هو ذلك النذل

فقلت متصنعاً الأسف : معذرة ياعزيزى وعفواً فقد أخفى عنى الأمر

وكانت المائدة قد أعدت وقال الخادم فى أدب : «إن الطعام ينتظر آكليه ياسيدتى الكونتيس[1]» فنهضنا واكتفيت فى هذه الليلة بهذا القدر من الكلام الذى هيأته لى المقادير ، وقلت فى نفسى وأنا أقوم متلكئاً لأجلس على خوان هذين الزوجين : إلى هنا ينتهى مشهد من مشاهد تلك الرواية ، وإن الرواية لم تتم فصولا . وقضيت فى ضيافتهما أسبوعاً وأنا لا أملك أن أفاتحهما فى نبأ الكارثة التى ستر ميهما بها فوكريسون

وفى ذات مساء خرجنا على خيل لهما نتنزه فى غابة بولونيا وشرع جواد الكونتيس يمرح ويتموج فى عطفيه وينزى ، ولعله لمح فرساً راقه منظرها ، وكنا فى موسم الربيع عند ما يحلو للذكران من سائر المخلوقات أن تعشق لتنتج فتضاعف عدد الضحايا من الطير والحيوان والإنسان . فذعرت الكونتيس وترجلت وأسلمتنى زمام جوادها وعدنا إلى القصر فى مركبة ، غير أنا سبقناها إليه إذ كانت فضلت السير على الأقدام لقرب المسافة بين الغاب والمثوى ، ولتذهب الروع الذى أصابها من «حنجلة[1]» الحصان . فلما بلغنا ساحة الدار بصرنا بمركبة وخبّرنا أن رجلا فى انتظارنا بغرفة المطالعة ، فسألت قبل صاحب القصر من هو وما اسمه فقيل لى : إنه أبى أن يتسمى واكتفى بقوله إن له مع الكونت حديثاً فى مسألة خطيرة ، فلم أرتب طرفة عين فى أنه عدونا استبطأنى فجاء يتقاضى روح صاحبى من زوجته ومنى . فأسرعت إلى الغرفة فألفيت فى الظلام رجلا أشعث أغبر لا عهد له بحلق ذقنه منذ أسبوع ، وكان واقفاً قرب صُفةِ الموقد فدنوت منه وتفرست فى وجهه وإذا ظنى لم يخطئ قيد شعرة : سيلفان نفسه ! !

فصحت قائلاً : سيلفان ! ولا أنكر أنى أحسست إذ ذاك أن شعر رأسى يقف وينتصب ، فما أدراك بحال الكونت ! ولكن سيلفان كان لبقاً وخبيثاً ، فلم يبد حقده علىّ بعد أن تركته يتقلى ، وقنع بأن حدجنى بنظرة أبلغ من العتاب وأشأم ، تفسيرها : لقد طاب لك المقام يا غادر ؟ وليتك على الأقل لم تُفضِ بسرى . وبادره الكونت بالتحية ودعاه إلى الراحة والاستحمام والعشاء . فأجابه :

— ما لهذا جئت أيها السيد النبيل ، فإن مأموريتى لا تمكننى من قبول ضيافتك . والرجل لا يؤا كل من يعزم مصمماً على قتله

فقال الكونت متجاهلا : على رسلك ! استرح أولا ثم افعل ما شئت فإن فى الوقت سعة

فقال سيلفان وهو يحرق الأرّم : إن لى عليك طلقة ، وقد أتيت أطلقها فهل أنت مستعد ؟ وكنت من فرط هلعى وروعتى لا أفكر إلا فى مقدم الكونتيس أرجوه وأخشاه

(١) يقول خادم السفرة Madame la Comtesse est servie أى تمت لها الخدمة باعداد المائدة

(١) الحنجلة كالزعزعة والخلخلة والضمضة

وكان مسدس سيلفان بارزاً من جيبه . وكأنني قد صعقت واستحلت صخراً لا أملك أن أفوه بكلمة وودت لو أنقض على هذا الشيطان المتجسد رجلا لأعدمه الحياة بحجة الدفاع عن النفس أمام الخطر المؤكد . ولكن الغدر لم يكن من طبعي . وكان الكونت أسرع من البرق قد قاس اثنتي عشرة خطوة وأخذ موقفه في أحد الأركان ورجا خصمه أن يسرع باطلاق مسدسه عليه قبل قدوم زوجته. فتردد سيلفان لحظة عاد إليّ فيها بعض الرجاء ، ولكنه طلب نوراً فأحضرت الشموع وأغلقت الأبواب ، وأمر الكونت ألا يدخل علينا أحد ثم رجاه أن يطلق مسدسه . فاستخرج سيلفان المسدس من جيبه ثم صوبه نحو صدر صديقي وسدده وكنت أعد الثواني . وتذكرت الكونتيس ونحن في تلك الحجرة التي كانت روضة من النعيم فانقلبت في لحظة قاعة للاعدام . ومرت بي دقيقة أهول من يوم القيامة وعند ذلك فتح الله عليّ وحلت عقدة من لساني ونطقت متلطفاً :

يخيل إليّ أن هذه ليست بمبارزة ، ولكنها جريمة قتل مصحوبة بسبق الإصرار والترصد . وأنت يا صاحبي سيلفان لم تتعود والله أن تفاجيء بتسديد سهامك إلى صدر رجل أعزل أو رأسه . فخفض الشيطان يده وقال :

— بماذا تفتى إذن وأنت صديق الطرفين ، كما أرى ؟ ولا أخفى عنك أن الكونت رماني وأخطأ فالدور عليّ . قلت : أولى لكما أن تبدآ الأمر من أوله مرة أخرى وإن كان مديناً لك بطلقة :

فقال : نزلت على إرادتك ، فهيا بنا نعيد القرعة لنعين البادئ ، فأحسست كأن الأرض تميد بي وتتأرجح . ثم إنهما حشوا مسدسيهما ، وعملنا القرعة ثم اقترعا فوقعت للكونت النوبة الأولى كما حدث في القرعة السالفة[1] ففرحت بغتة ، ثم عدت فذكرت الفرق بينهما في الرماية فان صاحبي مضى عليه أربع سنين لم يتمرن خلالها مرة ، أما خصمه فكانت الرماية غذاءه اليومي

وقال سيلفان عند ظهور القرعة : ما أسعد حظك يا كونت ! وتناول هنرى مسدسه وأطلق فأخطأه وقال : الحمد لله إنها لم تصب ضيفي ؛ فانني أفضل الموت لنفسي على أن أمس شعرة من رأس من أقبل عليّ زائراً ولو كان مصمماً على قتلي . وكنت أعتقد صاحبي مخلصاً في قوله . وتمنيت لو تصل تلك المكرمة إلى أعماق قلب سيلفان فيخجل ويعدل ، ولكن أنى لأنسال ابليس أن تصفح أو تنسى ؟ فقد رأيت سيلفان كأنه الشيطان فرفع يده بالمسدس يسدده ... وفي تلك اللحظة فتح الباب بغتة ودخلت الكونتيس ، فأبصرت وجهها يتوهج من الوجد توهج القبس المشتعل . أما الكونت فقد عاد وجهه من تأثره أبيض من منديله . وصاحت الزوجة الشابة صيحة منكرة وألقت بنفسها على عنق زوجها ، فأعاد حضورها إلى زوجها كل قوته وجلده وقال لها : مابالك ياحبيبتي ! ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد فزعك ورعبك ! إذهبي فاشربي كوبة ماء ، وعودي إلينا فسأقدمك إلى صاحبي القديم وزميلي . فلم تفلح كلماته هذه في إزالة الشك منها وبقيت مرتابة حيرى فالتفتت إلى سيلفان الرهيب وقالت له :

— خبرني بالله أحقاً ما يقول زوجي ؟ أحقاً أنكما تمزحان ؟ إن غريزتي لا تخطىء في رعبي

---

(١) هذا يؤيد رأينا في قانون المبارزة الذي يقتضيه السياق

وكانت كلمات لو قيلت لصخر لذاب وتفتت ،
ولو قرئت على حديد للان وسال

ولكن سيلفان الذي لم يعرف قلبه الشفقة قال :

— إن زوجك يا سيدتي لا يزال يمزح ، فلقد لطمني مرة على حر وجهي وهو يمزح ، وأطلق عليّ رصاصة أنفذها في قبعتي وهو يمزح . والآن إذا رماني فأخطأني إنما كان يمزح ، فلا حرج عليّ الآن إذا رأيتني أيضاً أريد أن أمزح .

وعلى أثر هذه الكلمات رفع مسدسه ليسدده إلى صدر صاحبي فألقت الكونتيس بنفسها على قدميه فغلى الدم في عروقي وهممت أن أنشب أظفاري في عنقه حتى تزهق روحه قبل أن يشهد زوجها مصرع كرامتها ولكن الكونت تعجلني بنظرة غاضبة وصاح بها :

— انهضي ياماتيلده أما تستحين ! أما تخجلين ؟ وأنت يا سيدي هلا كففت عن السخر والاستهزاء بامرأة ضعيفة مسكينة ؟ مسكينة ! خبرني أأنت مطلق أم ممسك ؟ فقال سيلفان : بل مطلق

وفي تلك اللحظة أطلق ، وأصاب الكونت في رأسه ، فخر صريعاً وكانت الزوجة قد أغمي عليها من الذعر وهمّ سيلفان بالخروج بعد أن انحنى يحييني فقلت له : مكانك واقترع . وخرجت القرعة لي : فتناولت مسدس الكونت وصوبته وأطلقت طلقة نجلاء سبقتني إلى تسديدها يد العناية واخترمت صدره . وتكوّم كالأفعى وخلصت إلى ساحة القصر وناديت الخدم والحوذي الذي جلبه ونقلنا الكونتيس إلى فراشها وعهدت إلى وصيفتها أمر العناية بها حتى يدركها الله بلطفه والطبيب بعلاجه . وركبت المركبة فانطلقت بي قبل أن أستفيق من تلك الغمرة ، إلى دار المحافظة فحييت الضابط المنوب وأفضيت إليه بكل ما جرى . فدوّن أقوالي وانتقل إلى مكان الحادثة وطلب من قاضي التحقيق أن يفحص الاتهام ويمحص الأدلة . وشهد خادمان بما جرى كما رويته ، فأطلق سراحي وقرر بأن لا وجه لاقامة الدعوى فقد كانت المبارزة مباحة في الفرق بين رجال الجيش . وقال قاضي التحقيق وهو يهنئني بالنجاة من غدارة ذلك الوحش القاسي : دقة بدقة . إن القانون فوق العرف ، والعدل فوق القانون . وبعد شهر علاج وعناية فائقة ، استعادت الكونتيس وعيها وقوتها . وكانت إجازتي قد انتهت فاستأذنتها في الانصراف ، وأنا أحسب أنها تقرن مقدمي عليها بشر ما أصابها في أعز إنسان لديها . ولكنها استمهلتني واستبقتني قائلة : لقد فقدت بعلي وحبيبي ، ولم يكن لك في مصابه يد ، بل لقد تأثرت له في التو والساعة ؛ ويا ليتك سبقت القدر بمسدسك إلى خصمه وخصمك

ولكنني علمت أنها تكون جناية قتل لا مبرر لها ، وأن المرحوم لم يكن ليغفرها لك لما أعلمه من إبائه الغدر بطبعه ، فان شئت جددت إجازتك ولو أياماً معدودة .

قلت لها : بأي عذر ؟ وإن إجازة الضابط لا تمتد إلى أكثر من ثلاثين يوماً ، إلا لعلة واحدة . قالت : وما هي ؟ قلت : الزواج . قالت : فليكن هذا عذرك على بركة الله . قلت : إنها لأكذوبة غليظة فلا أنتوي أن أعقد على عروس لم أخترها وما زال قلبي خالياً . قالت : من يدري ؟

فاكتفيت بهذا التلميح وطفر قلبي فرحاً . وتناولت قرطاساً وقلماً وكتبت طلبي ، فقالت وهي تداعبني مداعبة حزينة

— وإن سألوك عن اسم تلك التي ستسعد بعاشرتك ، أولا يسألونك ليشاركوك أفراح زفافك ؟

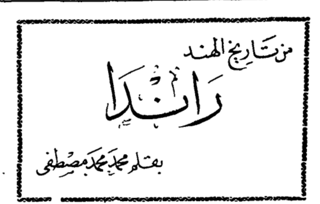
— قلت : هذا الذي لا أعلمه وكاد القلم يقع من يدي . قالت : أكتب : الكونتيس بورنيواه دي لاڤيسيل لافيه ! فأهويت على وجهها ويدها وعنقها أقبلها وأشم رائحتها العطرة ، وأذرف الدمع السخين من فرط سعادتي وحزناً على سالف . وهنا سكت ادوارد يون ، فظننت أنه وصل إلى آخر القصة ولكنه عاد فقال : « وقد قضينا ثلاث سنين أسعد ما يكون زوجان وأدهشتني سرعة النسيان الذي جر ذيوله على ذاكرة الزوجة . وكنت أغالب نفسي كلما شعرت باللوم يتعثر في خيالي ، فإنها لم تنس قرينها ، إلا بسببي . والمرأة إن فقدت الأمل في أحب رجل إليها ، فإنها بحكم الطبع والطبيعة ، تبادر إلى التنقيب عن غيره لتتعلق به ، وقد عشنا في جو من الصفاء والحب لم تشبه شائبة ، غير أنها كانت أحياناً ترى مي فيما يرى النائم أشباحاً ترعبها فتنهض مذعورة تبكي . فاذا ما فتحت عينيها ورأتني بجانبها عاودها اطمئنانها والتصقت بي ، كما يلصق الطفل الخائف بصدر أمه . وقد أدهشني أنها كانت تحتفظ بكل ما في القصر من ذكريات المأسوف عليه زوجها الراحل ، فقيدي وفقيدها ، فهذه صوره الفخمة في البهو وغرفة الطعام ، وتلك ثيابه الغالية وبزته العسكرية على المشجب ، وكتبه وأوراقه لا تزال حيث تركها ليلة مصرعه ، وخيله المطهمة ماتزال في اصطبلها العامر بأمهر السائسين وأجود العلف

وفي يوم من الأيام نهضت زوجتي وجمعت الخدم في قاعة الاستقبال وأمرتهم أن يقلبوا القصر رأساً على عقب ، فنقلوا تصاوير المرحوم وثيابه وأسلحته وكتبه وأخفوا كل ما كان يذكرها بشخصه ؛ وقالت لي وهي ترتجف : قد آن لرب الدار أن يحل منها محله ، كما حل من قلب زوجته ؛ فامتعضت في قرارة نفسي ولكنني وافقتها في تنفيذ مشيئتها وقديماً قالوا : « إرادة المرأة من إرادة الرب[1] » والقول قولك وأنت الآمرة الناهية في قصرك

وبعد هذا الانقلاب بشهر واحد ، صحوت من نومي وكنت أعتزم أن أصحبها في نزهة خلوية فقبلتها قبلة الصباح ، ولكن شفتيّ ارتدتا جامدتين فقد كانت جثة هامدة وقد أسلمت الروح ، على ما زعم الطبيب أثناء النوم ، بعد رؤيا فاجعة سببت بغتة وقف دقات القلب . ومضت على هذه الحوادث أعوام كانت أمرّ وأدهى ما حييت من العمر ، فاشتغلت بالزراعة وجعلت أثناء ذلك آسف على ما فات من لذة العيش في الجندية ، وآسى على ما سلف من حياة الزواج والحب . أما زوجها الأول وخصمه الذي قتله ، فقد دفنا متجاورين

محمد لطفي جمعة

(١) مثل فرنسي سائر Ce que femme veut, Dieu le veut



.. وانقلب رسول أمير « جوپال » إليه يحمل نبأ رفض « راند » ملكة البنغال الزواج به

واستطار الأمير إذ تهدم آماله ، وأقسم ليدخلن بلادها فاتحاً غازياً

ونفخ فى صور الحرب ..

وانقضت جحافل الأمير على جيوش الملكة والتحم الفريقان عند حصن « ثانيا » وانتشر جند العدو فى الوادى يعمل يد النهب حتى ترك المنطقة التى احتلها خراباً ..

وانكفأ شيجارا قائد الملكة إليها راجياً منها أن تفتدي بنفسها بؤس الشعب وويلات الحرب قائلاً لها بصوت يستدر روافد الدموع :

— لو رأيت إلى الدماء تسيل فى ميدان الحرب ، ولو سمعت إلى أنين الجرحى وبكاء الأم ونواح الزوجة وصياح الولد ، لأخذك الجزع على مصير شعبك

— إنى لا أكره أن أكون زوجة الأمير ، ولكنى لا أريد خداعه . ولكم أود لو أنفض قلبى من حب حارسى أبد الدهر ، ولكن الأمر خرج من عقلى إلى قلبى

— تستطيع مولاتى أن تستخلص عقلها من بين يدى هواها ولا تدع للحب سلطاناً على نفسها

— أبلغك أيها القائد نبأ من أحب فدفع عن قلبه هواه ؟

قال : لا

قالت : فوالله لو ملكت أن أنزع طيفه من قلبى لفعلت

***

وسكن كل شىء فى القصر الملكى لا يسمع إلا وقع خطوات حراسه ، ونام كل من فيه إلا الملكة فقد ظلت ساهدة الجفن تتقلب فى فراشها كالمحموم ، وكان الحب المكتوم الذى تحمله لحارسها قد أعياها وودت لو أفضت به إليه

ماذا يعنيها وقد علم الناس أنها مستهامة به ولم يبق من يجهل هذه النار التى تستعر فى صدرها سواه

وقامت إليه متنكرة فى بردة الليل ترتدى ثوب وصيفة ، ورمت بطرفها فرأته يمشى إلى شاطىء غدير القصر فدلفت إليه ، وما وافت مكانه حتى ترنحت كأنما تمشى على الصراط ، وكلمته فى رقة اهتزت لها أشجار الحديقة طرباً وقالت إنها وصيفة الملكة أصابها الأرق فجاءت إلى الحديقة لتقتل بين أشجارها ما بقى من الليل

ومضت تحدثه عن الجو والحرب ، وقالت فجأة :

— مرت بك الملكة ذات يوم فعجبت لهدوئك ولعينيك اللتين تغمران من ينظر إليهما بسحر هائل ، وحدثتك فلم تضطرب ، وحاولت إغراءك على النظر إليهما فيئست وهى التى تنهبها نظرات الجنود إذا مرت بهم ، فكيف كان ذلك ؟

— تلك طبيعتى لا أحفل بشىء سوى واجب حراستها كما ترين

— أتحب الملكة ؟

— إنى أجلها لعدلها ولأنى جندى فى حرسها

— فإذا ما أمرتك أن تفتح لها جوانب نفسك وتجلسها فى سويداء قلبك ؟

— .. مالى إلى ذلك سبيل ؛ ولو دخلت الملكة إلى قلب حارسها البسيط لضاق بجمالها وملكها وقلوب الملوك والأمراء المتهالكين على أقدامها ، وإنى لأقنع بكوخ يحوينى وزوجة أنظر فأجد رأسى يعلو رأسها — ما أظنها تريدنى إلا زينة فى مجلسها ودمية لقصرها ، لا أملك لنفسى حقاً وهى تملك كل حق ، فإذا خاست أو غدرت فذلك من أحكام نفسها

— أترفض يداً تمتد لرفعك إلى عظماء رجال البلاط فى القصر ؟

— ما على وجه الأرض شىء أبغض إلىّ من مجد ينشأ على كتف امرأة

قالت : من أى صخرة من الصخور أو هضبة من الهضاب نحت هذا القلب الذى ينطوى عليه صدرك ؟

وزفرت زفرة كادت تتساقط لها أضلاعها ، وعادت من لدنه كما يعود القائد المهزوم من ساحة الوغى لا تملك حتى دمعة تفرج بها عن نفسها

* * *

وتلقتها وصيفتها بقلب هالع وقالت تخفف عنها ما بها :

— ماذا يعنيك يا مولاتى من أمر جندى فى حرس رياضك ؟

قالت : « ذهبت بى إليه نفسى اللعينة فردها إلى صدرى حزينة باكية » وتهافتت على مخدعها ومضى الليل لم تطعم خلاله الغمض . وفى الصباح رحلت إلى قصرها فى جنوب البنغال علّ قلبها يتبدل إذا ما أبدلت سكناها . وقضت ثلاثة شهور كانت تقاوم خلالها ناراً تستعر فى صدرها وشوقاً كالجنون إليه ، وكانت كلما هاجها الوجد جلست إلى نفسها تسكب من عينيها الجميلتين قطرات لتطفئ هذا اللهيب الذى يتوهج من قلبها ؛ وسقطت مريضة وعلمت أنها مشرفة على الخطر ولا سبيل لها إلا جواره ، فرحلت إليه

* * *

وشعرت الملكة أن قلبها قد انخلع لما قيل لها إن القائد قد قذف بحرس القصر إلى ساحة الحرب ونظرت إلى القصر خلواً منه نظر الغريب الحائر إلى بلد حل به ، وتخاذلت أعضاؤها واستندت إلى متكأ وتمتمت بصوت خافت :

— أيخوض « نوجا » تلك المعارك التى يظللها الموت ؟

فاصفر وجه الوصيفة وتمتمت : نعم

قالت : إنى ليحزننى أن يموت

وقامت إلى الميدان تنهب الأرض وتنتقل من نجد إلى وهد حتى وصلت إلى جبهة القتال ، وعلمت بقربه من الخنادق الأمامية فاندفعت إليها كالظبية الطريدة تتخطى الأشلاء والدماء

وإذ رأته على جواده الأشهب ينثر الهلاك على جمع الأعداء نسيت ما لقيته فى سبيله من أحزان وآلام ، وجرت تستقبله بين ذراعيها لكنه أبعدها فى رفق زاده فتنة وزادها جنوناً

قالت بصوت يفيض أسى :

— ألا زلت يا نوجا على ضلالك القديم ؟

— نحن فى ميدان حرب لا ميدان حب . ولا يليق بملكة ...

— .. أيكون ملكى عقبة بينى وبين آمالى ؟

إننى فتاة يا نوجا وفى صدرى قلب هام بك ودفعنى اليوم إليك لأقول لك إنى أحبك وإننى لاقيت فى كتمانه عنك أوصاباً وأسقاما

ترى هل تضمر لى يا نوجا من الوجد مثلما أضمر لك ؟

— فإذا ما أقسمت غير حانث أنى لا أحمل بين جنبى سوى الإخلاص لذاتك

واستيقظت فيها كبرياء الملك وكبرياء الجمال فرأته أهون على نفسها من أن تذوق لأجله ألوان الشقاء ، وابتعدت بنفسها عن طريق الحب ونسيت أنها كانت مستهامة به فأمرت به أن يشرد فى آفاق البلاد

ومضت كليلة الذهن تقطع الطريق إلى قصرها وفى صدرها نار تحس أثرها اللاذع فى السويداء من قلبها

وقطع عليها العدو سبيل العودة فكمنوا لها وفروا بها لاتذين بالتلال والآكام ، وهنالك على حدود البنغال أودعت حصناً تحوط ناحيتين منه بحيرة « الراجاديت » حتى تهيأ لها سفرة أمينة إلى قصر أمير جوبال

***

الشمس فى وقت الظهيرة بركان تنفجر من فوهته النيران ، وأخذ نوجا تحت خيوطها النارية يضرب فى بطون الوديان وقمم الجبال . وقلب طرفه يبحث عن ظل يتفيأه فعثر به على مرمى البصر تحت دوح يدور حول بناء شامخ كأنه درع مسرود

وما اقترب منه حتى سمع أنين فتاة متوجعة فدنا منه مترفقاً فى مشيته وقلب طرفه فلم يجد رائحاً ولا غادياً فاعتلى دوحة فرعاء وتدلى من غصن فيها إلى سقف البناء

***

تولى النهار وراندا فى معتقلها تتقلب على نار مما يساورها من آلام ، وتمخضت ثورة قلبها عن حب رابض يهز كيانها لحارمها الشريد وعظم يأسها وفنت حيلتها وباتت لا تقترح على دهرها شيئاً إلا رحمة لنفسها برحمة حبيبها ، وأخذت تنظر إلى ماء البحيرة بنظر ساهم وقد قام فى نفسها نزاع رهيب بين الإقدام على إلقاء نفسها فيه أو الابقاء على حياتها

وطرق أذنها صوت أقدام تقترب منها فأدركت أن جنود الأعداء قد أتوا لأخذها

وخفق قلبها خفقة الرعب ... والفرح لما رأت نوجا ... نعم نوجا بلحمه ودمه بين يديها يسألها ما شأنها وما مقامها فى هذا الحصن الغريب

ونفضت إليه جملة حالها

ورأى نوجا أن الشجاعة فى غير موضعها جنون ؛ فهناك حارسان مسلحان بالباب وليس ثمة طريق للنجاة سوى البحيرة

وحملها وألقى بنفسه فى الماء

وأخذت راندا ترقب الجهاد الهائل الذى يبذله ليصل بها سابحاً إلى الشاطئ الآخر وكانت تنظر إليه كما ينظر الأطفال إلى آبائهم وهم يضرعون

***

دب الشفق فى حاشية الأفق لا تسمع إلا دمدمة الرياح تطاحن رؤوس جبال الهند . ومشيا طويلا لا ينبس أحدهما كأنما قد انتقل سكون الليل إلى فؤاديهما ، وأضناها السير فحملها نوجا فودت لو ضل الفجر سبيله ليظل حاملها ما ظل الظلام

وبلغ قصرها وتسلل عائداً إلى ميدان القتال

***

سقط حصن ڤانيا وما حوله من القرى تباعاً

واستولى جنود العدو على جميع الخنادق المحيطة به

وشعر نوجا أنه قد بدل من نفسه نفساً غيرها فرأى الملكة بعين غير عينيه ، ورأى فيها التضحية له فازدادت فى نظره حسناً وملأته فخراً ، وهب يصول فى الميدان كالليث أوشك الصيادون على اقتناصه وانتشر من روحه إلى أرواح زملائه الجنود حمية هائلة فكروا على الأعداء بخيلهم ورجلهم

وانتهز نوجا ذعر العدو المفاجئ فضربهم الضربة القاضية واندفع وراء فلول الأعداء وهو واثق أن النصر لن يخطئه حتى انجلى آخر جندى عن أرض الوطن العزيز

* * *

وحفلت حياة نوجا الجديدة بما تحفل به حياة رجل عظيم

ألم يهزأ بالخطوب ويتخطى الأهوال . . ؟

لقد أبقى على الملكة وعلى تاجها . .

إذن « فليحى نوجا منقذ الوطن »

هكذا هتف الجنود

* * *

الشوارع يومئذ تزخر بجموع الشعب على جانبى الطريق والمدينة فى حلة زاهية من الأعلام وأخذ كل يرقب فى لهفة قدوم نوجا على رأس جيشه الظافر

وأكلت الغيرة قلب « شيجارا » قائد الملكة فأضمر له بين جنبيه شراً مستطيراً

ها هى ذى الملكة قد استوت على عرشها ترقب فى شوق قدوم رجلها — ها قد ابتسم لها ثغر الحياة ومالأها القدر . . وترجل نوجا عن جواده واقترب منها متهلل الوجه . وهمس « شيجارا » فى أذن صنيعة له أن الساعة قد دنت . وسجلت « راندا » أن الدهر قد بدأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته ، وصافحها نوجا فأحست بحرارة يده تلهب كل جارحة فيها ، وشعرت لذلك بلذة صغرت إلى جانبها عزة الملك ، وودت لو عاشت فى ظله تنعم برجولته الفذة وجماله . . .

وانشقت حناجر الشعب تهتف بحياة « نوجا » واهتز كيانها جذلا له وهمست فى أذنه بصوت حالم

— هلم إلى التاج يا نوجا أخلعه عليك لأعيش فى ظلك فتاة تهواك من أعماقها

وفزع نوجا لهذه المفاجأة وقال :

— جميل أن تهزأ بي الأقدار فتهيئ لى عرشاً أتبوأه وقصراً أسكنه . ويفتح الدهر عينيه فيسلبنيهما أشد ما أكون بهما سعادة ، وأعود من هذا القصر الكبير إلى كوخى الحقير . فاذا ما أخذت على الأقدار عهداً ألا تسترد ما وهبته فإنى فاعل ما تأمرين ...

لقد أديت ما علىّ لك وللوطن لم يدفعنى لذلك التاج الذى تظنين أنى أصبو إليه . وهنالك على شاطئ غدير القصر سأواصل حراستى لك كما كنت من قبل

ورأت فيه الملكة من معانى الرجولة ما زادها به كلفاً ، فأخذت تحادثه وتدور حول قلبه علها تجد منفذاً لوصوله ، لكنها أخفقت

وبغتة أرسل الرجل الجامد أنة خافتة خالتها راندا زفرة حب

وعقد الهلع لسانها لما رأته يسقط بين يديها صريعاً فى دمه ، وتعالت الأصوات : القاتل .. القاتل

لقد كذبت راندا عينها وإلا فكيف يموت حبيبها فى لحظة

***

ونظر إليها نوجا والدم يتدفق من ثقب سهم رائش نفذ من ظهره إلى قلبه وفى عينيه بسمة الرضا فجثت راندا إلى جانبه جثو العابد فى صلاته ، وسرى من روحها الحزين تيار قوي انتقل إلى شعور الجميع فجمدوا كأنهم نصب

وأشفق أحد الجنود أن تخرج نفسها فقال لها : رحمة بنفسك يا مولاتى . فأجابت شاردة :

— ماذا لقيت من الدنيا لأحرص على البقاء فيها ؟

واعتمدت ذراعه حتى بلغت غرفتها وتهالكت على مقعد ، وقد شعرت أن نفسها تتسرب من بين جنبيها ، وظلت بين دموعها وأحزانها حتى انبلج الصباح وسقط خيط من شعاعه إلى جبهتها الساهمة فإذا بها بيضاء العارضين متجعدة الوجه كأنما مرت على جلستها سبعون عاماً أو تزيد

واستبدت بها الذكرى وذهب بلبها الحزن ، فأخذت تهيم على وجهها فى المدينة وما جاورها تسأل الغداة والروح : مافعل الله بحبيبها . والناس بين مشفق راث لا يعرفون كيف الجواب عما يسألون

***

ومر أحد الرعاة يوماً بمقبرة المدينة فرأى بينها امرأة قد احتضنت قبراً جديداً فارتاع لمرآها وسألها عن شأنها فلم تجبه ، فدنا منها وقلبها فإذا بها جثة باردة ... يا لقسوة القدر !!

إنها الملكة !

محمد محمد مصطفى
بادارة مدرسة البوليس

النافذة

للأستاذ محمود خيرت بك

... نعم ياصديقي كانت تلك النافذة موضع الداء والدواء . وكنت وأنا متجه في الصباح إلى عملي أجدها مقفلة فأسير قدماً لا تتحرك لها نفسي ولا تأخذ كثيراً أو قليلاً من التفاتي . وكان يستوى عندى أن أجتاز الزقاق المطلة عليه أو أن أسلك طريقاً آخر

وكثيراً ما كنت أسمع من إخواني أن في الحياة قوة خفية تسوق الانسان أحياناً إلى حيث لا يريد أو تدفعه إلى عمل هو بعيد عن التفكير فيه ، فكنت أثور عليهم وأحتد متعصباً لرأيي في أن الإنسان بحواسه وعقله مسيطر على أعمال نفسه حر في حركاته ؛ حتى إذا كان يوم تهيأت عنده للذهاب إلى الديوان أخذت طريقي إليه دون أن أجتاز ذلك الزقاق . ولكنى بعد إذ تركته خلفي بنحو أربعين متراً انكفأت راجعاً وأنا أحس في أعماق نفسي حافزاً إلى العودة بغير أن أقوى على دفعه . وما كدت أسلك الزقاق بعد ذلك حتى وجدت النافذة مفتوحة وسمعت كأن بالغرفة حركة فوقفت أمامها لحظة ثم استأنفت سيرى

وإذا كانت ساعات العمل بالديوان قد أنستني تلك النافذة وما كان من أمر عودتي إليها رغماً مني ، فإنني لما حان موعد الانصراف وجدت قدميّ تسبقانني إليها كأن بها قوة مغناطيسية تجذبني نحوها . وكانت على ما عهدتها في الصباح فتركتها إلى منزلي وأنا أفكر فيها

وقد بلغ من أمرى أنني كنت أتمنى كل يوم لو أن ليلتي لا تطول فأسارع إلى الوقوف تحت تلك النافذة وأنا ذاهل مشرد أشعر في ضباب خواطرى بشيء مشوش لا أتبين حدوده ولا أصل إلى فهم معناه

ما كانت تلك النافذة إلا إطاراً خلا من صورته ، أو عيناً مفتوحة من عيون تلك الغرفة ، ولكنى لا أستطيع أن أنفذ منها إلى قرارها

وكنت على عادتي أمرّ من أمامها فلا أسمع ولا أحس شيئاً ، حتى طرق أذني ذات يوم صوت من داخلها ناعم أغن فقلت لا ريب في أنه صوت ربة الدار وقد امتلأ منه مسمعي وأخذ يلعب بي كما تلعب الراح بالشارب

وكثيراً ما كان وهمي يحاول أن يصورها لي ، فأضحك على غفلتي إذ قد تكون صورة ناطقة بالدمامة وإن خدع صوتها السامع كما يخدعه صوت الكروان . ولكنى أعود فأكذب خيالي لأن القبح لا يتلازم معه جمال الصوت ، ولأن الأقدار التي تخلق الجميلة قل أن تبخل عليها بمثل هذا الصوت العذب الرخيم

وعند ذلك ينفسح لعينيّ أفق الخيال من جديد فأراها معجزة من معجزات الحسن وآية من آيات الفتنة ، وكأنني أنظر إلي عينيها وخديها وقدها فلا يصادفني إلا لحظ ساحر وورد ناضر وغصن متأود مياد ، حتى كنت إذا مررت أمام دارها أكاد أهم باقتحام بابها لأملأ عيني منها وأضع حداً لهواجسي التي كانت تزيد في عذابي

وبينما أنا ذات يوم أجتاز ذلك الزقاق سمعت حركة عند النافذة ، فما أن رفعت بصرى إليها حتى خفق قلبي وساحت روحى لأنها كانت فوق ما تخيلت ؛ وكانت تسقى أصيصاً به غصن يحمل قرنفلا ، فلما أبصرتني غلب عليها الحياء وحاولت أن تتراجع فاندفع الأصيص يهوى من فوق ولكنى تلقفته قبل أن يصل إلى الأرض . ويظهر أنها ارتاعت خشية أن يصيبني ، فلما رأتنى أحمله أسرعت إلى الباب ومدت من فجوته ساعداً بضاً كالعاج تتناوله وهى تقول : « كتر خيرك » . قلت لها : « بس كده ؟ » وعند ذلك برزت لى برأسها الجميل وناولتنى قرنفلة قبلتها وشممتها ، فأخذت تركز فيّ نظرات طويلة كلها فتنة وسحر ، وجسمها يرتجف وأنفاسها تتلاحق . ثم أسرعت ترد الباب رويداً رويداً ولكنها عادت ففتحته وكنت لا أزال فى مكانى حائراً ذليلا فقالت لى : « كفاية كده » ، وهى تبتسم ثم ... اختفت

ولقد أخذت مجلسى أمام مكتبى وأنا لا أشعر إلا بأننى فى الزقاق أحدّق فى النافذة وأتلقف الأصيص ... ثم تلك القرنفلة وتلك الابتسامة العذبة وفيها كل أسباب الغبطة ومعانى الرضى . على أننى انتبهت من حلمى والقرنفلة لا تزال بين أناملي فقربتها من عينى وفمى أرويها بدمعي وأمطرها قبلى ، ثم أخذت أتأملها وقد خيّل إلىّ أنها فرع من ذلك الغصن اللدن الناعم يحمل إلى أرج أنفاسها . وبعد ذلك ينتقل بى تأملي إلى أنها زهرة لا تعمر أكثر من يوم . فهل ما بدأت أشعر به من إقبال الحظ لن يتجاوز هذا المدى ؟ أم أنها ستمنحنى زهرة أخرى أشهى منها هى زهرة الحب ؟

أصبحت هذه الفتاة غرامى وشغلى ، وأنا كلما مررت تحت نافذتها شملتنى بابتسامة أو ألقت إلىّ زهرة ، أو أرسلت لى فى الهواء قبلة فأذهب إلى عملى نشوان سعيداً

وكثيراً ما كنت أراها فى الصباح بعد حلم نعمت بطيفها فيه حتى كأننى لم أستيقظ منه . وقد مضى على ذلك شهر وأنا أستقبل عند مطلع كل شروق شمس وجهها الصبوح تبعث فى نفسى نشوة جديدة تزيد فى نارى وتضاعف حرقتى فأتمنى لو أننى أصل معها إلى آخر كتاب الهوى الذى نتبادل مطالعته كل صباح ، حتى إذا غلبنى الوجد وخاننى الجلد عولت على أن أضع بينها وبينى حداً بالزواج

وكانت سنها لا تتجاوز سبعة عشر ربيعاً ، فهى إذن لا تزال عذراء ، كما أنها لم تفتح قلبها لغيرى وإلا كانت أهملتنى وصدفت عنى . فاستقر هذا الرأى فى نفسى وأرجأت تنفيذه إلى الغد

وقطعت تلك الليلة مضطرباً أتقلب فى فراشى وأقلب ما فكرت فيه على كل وجوهه إلا وجهاً واحداً هو : من عساها أن تكون ؟ ومن هم أهلها وعشيرتها ؟ نافراً من محاولة البحث فى ذلك . إذ ماذا يهمنى من نسبها مهما اتضع أو مالها مهما ارتفع وما أردتها إلا لذاتها : لجمالها وسحرها وفتنتها

وقد عولت عند الصباح على ألا أسلك ذلك الزقاق لأتفرغ إلى إعداد نفسى لتحقيق تلك الغاية ، وكذلك عند عودتى لدارى . وبعد أن ارتحت فى مضجعى قليلا قمت فقصدت منزلها ، وأنا أهتز من الفرح بلقياها

ولكننى ما كدت أدنو منه حتى ألفيت نافذتها مغلقة وعلى الأرض من تحتها ذلك الأصيص مطروحا مهشماً ، فانقبض صدرى وأظلمت الدنيا فى عينى . على

أنى أخذت أطرق الباب طرقاً متوالياً فلم أظفر بمجيب ، وعند ذلك أقف مبهوتاً حائراً أسائل نفسي لم ألفت هكذا بهذا الأصيص ؟ وإذا كانت قد عزمت على الرحيل فلم لم تكاشفني به وأنا أمر أمام نافذتها كل صباح ؟ ثم أقول لابد أنها فوجئت بهذا السفر وأنها انتظرتني ، فلما لم ترني كمادتها لم تر إلا أن تلق بوعاء زهرها ليكون شاهداً على انتظارها ويأسها

وبينما أنا أطرق البـاب أطلت عجوز من منزل قريب وقالت : إن أهل هذا البيت انتقلوا منه . وعند ذلك دار رأسي وتصبّب عرقي ولا سيما عنـد ما قالت لى إنها لاتعلم عنهم شيئاً لأنهم كانوا لا يختلطون بأحد من جيرتهم . وهكذا تحطم قلبي كما تحطم هذا الأصيص . وأخذت أرجع إلى تلك القوة الخفية فأراها هي التي جعلتني أنكص على عقبي يوم صادفت النافذة مفتوحة ، وهي التي جعلتني لا أمرّ من تحتها فى صباح هذا اليوم فترحل بغير أن أودعها ، فهي إذن التي أرادت بكل ذلك أن تسخر مني وتتسلّى على حساب ألمي !

وأخيراً جمعت حطام تلك الآنية وحملته معى إلى دارى

كنت أذهب بعد ذلك إلى عملى وأنا أسلك هذا الزقاق لعل تلك النافذة تفتح يوما ما مصراعيها لتضم بينها نظراتى . وكنت أتمنى لو أن عينيّ تثبان من حفرتيهما إلى مصراعيها لتنظرا من خلال أخشابها أرض تلك الحجرة التى طالما نعمت بخطواتها

أما ذلك الأصيص المحطم فقد عنيت بصيانته فى قمطر كتبي . وكنت دائماً أملأ منه عينيّ كأنني أمام متحف يضم بقايا آنية قديمة ثمينة . على أنني استبدلت به سواه وأخذت أتعهد تلك الزهرة التى سقتها يداها . وكنت كلما انبثقت منها قرنفلة تمرونى هزة لا تلبث أن تتلاشى ، وقد حرمت تلك الأنامل الرخصة التى كانت تقطفها وتقذف إليّ بها ومن خواطر الحب التى كانت تختلج فى صـدرها بسببي عند كل حركة من تلك الحركات

أما عملي بالديوان فقد أهملتـه إهمالاً ولذلك اعتزلته ، ولى من يسارى ما يكفيني . وقد ورثت عن أبويّ نحو مائتى فدان من أجود الأرض بعزبة النخل ، غير بستان واسع مكتظ بمختلف الأشجار المثمرة

ولعلك تذكر يا صـديقى أنك يومئذ نصحتني بذلك لأتولى شؤونها بنفسي ، ولأسترجع بالهواء الطلق ومناظر الريف ما ولّى من عافيتى على أثر تلك الصدمة التى كتمت عنك سببها

ولكم حاولت بالعمل أن أنسى فأخفقت محاولتى . ثم أنّى لمثلى النسيان والجرح الذى أصابنى فادح لا يندمل ، فأخذت قواى تنحلّ يوماً بعد يوم حتى اصفر لونى وشـحب وجهى وغارت عيناي وكاد جلدى يلصق بعظمي

وعند ذلك فكرت عمتى فى الـكتابة إليـك لتسارع إلى الاتفاق مع طبيب قدير ينتقل إليّ . فلما فحصنى صرّح بأنه لا يجد علة ما لضيق . وساد بعد ذلك صمت قطعته بقولى : إنى أعلم أن علتى لا يرجى لها برء . فقال : أنت إذن تعرف علتك فلمَ لا تذكرها فلعلى أوفق إلى شفائك أو على الأقل إلى درء خطر هذا الضعف عنك . وعند ذلك عدت إلى صمتى ، فاقترب منى وأخذ كفى بين يديه وهو يقول : لمَ تكتمها عنى . إن المحامين والأطباء قلّ أن ينجحوا فى عملهم مستقلين عما يعلمه أصحاب الحقوق والمرضى من قصادهم . على أن أسرارهم دائماً فى حرز مكين من صدورهم وقد أقسموا على ذلك قبل مباشرة مهنتهم

وعند ذلك ظللت صامتاً وقد تضعضعت نفسي وأنا لا أرتضي أن أتخذ من هذا السر الدفين مجازاً إلى إجابته . ولكنه استمر في عتبه قائلا : كيف تصرّ على كتمان أمرك عني ؟ إنني الآن لم أعد طبيبك ، فقد انتهت مهمتي معك فلعلك تكرمني باعتباري أخاً لك أو صديقاً . ثم اعلم أنني لن أقوى على العودة دون أن أقف على ما يعذبك لأن ما أصبحت فيه من سوء الحال مما يحزنني ويحزّ في قلبي . تكلم يا عزيزي ، تكلم بحق هذه العمة الطيبة الرحيمة .

وعند ذلك فاضت نفسي بالشجون ، وانهمر من عيني الدمع ، وأخذت أقص عليه ما رويته لك في هذه السطور وأنا أجيبه بأني لا أعلم من أمرها شيئاً لا اسمها ولا أسرتها ولا مكانها

ومن الغريب أنه بعد أن سمع عنها هذا البيان المبهم انبسطت أساريره وارتاحت نفسه . بل لقد كان يخيّل إليّ أنه يبتسم وهو يحاول ألا ألحظ ذلك . ولما انتهيت من حديثي قال : إن حادثتك هذه عجيبة ، ومع ذلك فقد وقع ما يشبهها لكثيرين أعرف منهم شابة جميلة كاد يعصف بحياتها الحزن . ولكنني أقنعتها بالكف عن الجري وراء أمل لا فائدة منه ، وقد سمت لأرشادي فلم لا تضع نفسك في موضعها يا سيدي وهي فتاة ضعيفة وأنت شاب قوي ؟ ثم إن مثل هذا المرض النفساني وخيم العاقبة على من لا يكون قوي الإرادة ماضي العزم . وإني لأعرف أن لك مذهباً طالما كنت تعتز به وتنتصر له ، وهو أن لكل إنسان لو شاء سلطاناً من نفسه على تصرفاته . وكثيراً ما كنت تحتج بهذا المذهب على إخوان لك ولي وإن كان الزمن واليأس الذي أنت فيه جعلاك تنساني وقاما سداً بين ذاكرتك وبيني

على أنني مع هذا سأضع لك نظاماً دقيقاً تتبعه في طعامك وشرابك ورياضتك وأرجو أن تكون عند حسن ظني من قيامك عليه واتباعه . ومع ذلك فسأرسل إليك من الغد ممرضة في مستوصفي بل إنها رئيسة ممرضاته ، وليست إلا أختي وستحمل إليك تفصيل هذا النظام ، فأكرر رجائي ألا تعارضني فيه . وعما قريب تعلم كيف أنني بفضل مساعدتها سأردّ بإذن الله حياتك إليك من جديد . وعند ذلك انصرف فأرسل إلي في صباح اليوم التالي برقية حدد فيها موعد قيامها وساعة وصولها ، فأرسلت بعض أتباعي لانتظارها

وبعد ثلثي ساعة طرق أذني صوت جلبة في عرصة الدار فأدركت أنها أقبلت ، ولكن عمتي أسرعت إليّ وأخذت تضرب كفاً على كف وتقول : كيف يا ولدي يرسل طبيبك بمثل هذه المرضة ، وهي أولى بالتمريض منك لأنها لا تكاد تخطو من شدة ما هي فيه من الضعف والهزال ؟ وعند ذلك دخلت وهي تتحامل على نفسها مستندة إلى أحد الخدم حتى إذا وقفت على مقربة مني وحدقت في سقطت مغشياً عليها فأسرعت نحوها ورفعت رأسها بيدي فإذا بها ... تلك الصورة التي كانت تزين ذلك الإطار القديم ...

أما الآن فالحمد لله على ما استرجعنا من العافية وعلى ما كتب لنا من السعادة . وهاهي ذي وأنا أخط لك هذا إلى جانبي تنفذ نظراتي من عينيها إلى قلبها الذي أصبح محراب حبي ، وما كانت من قبل لتنفذ إلى حجرتها من تلك النافذة .

محمود خيرت

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مقدمة المؤلف

يا قارئى العزيز :

لو أنك قرأت روايتى «حاجى بابا فى اصفهان» لوجدتنى فيها قد عاهدت القراء على ألاّ أعود إلى الكتابة مالم أجد تشجيعاً . فإن وجدتُ هذا التشجيع وصفت له حياة « حاجى بابا » بعد سفره إلى انكلترا سكرتيراً للسفارة الفارسية

هذا ما عاهدت عليه . ولكننى بهذا العهد وضعت نفسى أمام مشكلة لا أعرف كيف يكون حلها لأنى والحق أقول لا أعرف ما هو التشجيع ، وإنما هى كلمة تورطت فيها . فإذا كان التشجيع هو ثناء الصحف فإن الأكاذيب لا تشجع ؛ وإن كانت إشارة المجلات فهى لا تتناول الكتب وإنما تتلمس من عنواناتها موضوعات تكتب عنها وليس لها بالكتب علاقة ؛ وإن كان التشجيع من القراء فإنى أعترف لك أن معظم القراء فى انكلترا يشترون الكتب ولا يقرأونها ، والطبعة الأولى من كل كتاب ستباع ، صالحاً كان أو غير صالح . ولا يستطيع المؤلف أن يعرف أهل نجح كتابه أم لم ينجح ، ولو أن آلافاً من النسخ قد بيعت منه

ولما كانت هذه هى الحالة فانى كما يقول «حاجى بابا » وضعت ذراعى البلادة على صدر الاهمال ولم أتم القصة . بل عنيت أن أقول إنى لم أترجمها إلى الانكليزية . لأن أصلها الفارسى كما تعلم موضوع بقلم حاجى بابا . وإن لم توجد منه نسخة غير التى عندى ... ثم طرأت علىّ أعذار خاصة اضطررت معها إلى عبور المحيط إلى أمريكا . وهناك كدت أنسى كل شىء فى العالم القديم

ولما عدت إلى انكلترا وجدت خطاباً ورد علىّ من فارس من موظف كبير فيها ، فعادت إلى ذهنى الذكريات الآسيوية . ولما فضضت الكتاب وقرأته لم أتمالك نفسى من الصياح : « هذا هو التشجيع ؛ إن هذا الخطاب القصير أكثر تشجيعاً لى على الاستمرار فى كتاب « حاجى بابا » من أى مشجع آخر . وسأتلو عليك هذا الكتاب ثم أخبرك لماذا رأيته مشجعاً . وقد كان الكتاب باللغة الانكليزية وبهذا الأسلوب الغريب :

صديقى العزيز :

أنا غضبان عليك ، وليس غضبى بغير سبب . لماذا وضعت كتاب حاجى بابا يا سيدى ؟

الشاه غضبان عليك ، وقد حلفت له أنك لم تكتب هذه الأكاذيب ولكنه قال : بل كتب

كل الناس غضاب عليك . إن الكتاب كله أكاذيب فمن أخبرك بها يا سيدى ؟ لماذا لم تسألنى ؟ هذا سيء جداً منك

تقول إن الشعب الفارسى قد يكون كذلك ولكن الشعب الفارسى لم يسىء إليك ، فلماذا تنمته

بتلك الصفات سواء أكانت فيه أم لم تكن فيه ؟ ولقد أرسل الشيخ عبد الرسول خطاباً طويلا إلى الشاه يذكر له فيه أنك تحدثت فى الكتاب عن مقتل زوجة الشاه ، فلما سألنى جلالته عن ذلك حلفت له أن الشيخ عبد الرسول رجل كذاب . ولقد علمت أنك أسميتنى فى كتابك باسم « ميرزا فيروز » وأنك طعنت فىّ . علمت ذلك وأنك وصفت كلامى بالسخف ، فمتى كان كلامى سخيفاً يا سيدي ؟ أنت تظن أن كتابك يدل على حذق ، ولكن الواقع أن كتاب حاجى بابا عمل فى نهاية الحماقة . وأعتقد أنك أسفت على تأليفه

الانكليز يقولون إنه كتاب عظيم ، ولكننى أرى أنه ليس عظيماً . وأنا صديقك القديم فلا بد أن تكون حانقاً على جدًّا لمصارحتى إياك برأيى ، ولكنى مخلص فى صداقتى . وأرجوك أن تضع رواية أخرى تمدح فيها الفارسيين ؛ وسيبرر كتابك هذا أعمانى المكررة أمام الشاة بأنك لم تضع كتاب حاجى بابا

أرجو عدم المؤاخذة . فأنا لا أعرف كيف أنافق ، ولغتى دائماً هى اللغة البسيطة وأنا صديقك المخلص ... ولكن لماذا كتبت عنى ؟ الله أعلم !

حاشية :

« اشتريت منزلاً جديداً يا سيدى وأنا الآن أحسن كثيراً مما كنت تعرفني . ويقول الإنكليز إن أمريكا مملوءة بالفضة والذهب وإنك غنى جدًّا . وأنا أحب الزهور الانكليزية لأغرسها فى حديقة منزلى الجديد ، وقد أخذ الشاه كل أوانى الخزف التى كانت عندي ؛ وبما أنك كتبت سخافات كثيرة عن « ميرزا فيروز » فابعث إلى ببذور بعض الزهور لأنى دافعت عنك أمام الشاه وحلفت باطلاً ، وإذا أرسلت لى بعض الأصص الغالية كان ذلك جميلاً منك »

التوقيع

ولقد تسألنى أيها القارئ لماذا أجد التشجيع فى خطاب مثل هذا . ولقد تظن أنى كالرجل الذى أراد أن يعرض جواده للبيع فأخذ يصفه بأحسن صفات الخيل ، ولكن الجواد رمحه أمام المشترين فلم يخجل من ذلك بل قال إن جوادى يحب الداعبة

لكننى أؤكد أننى لست مثل هذا الرجل ، وأؤكد أن فى الخطاب تشجيعاً كثيراً . ذلك لأنه يدل على أن كتابى أثر تأثيراً كبيراً فى شعب حى كالشعب الفارسى . وقد يكون هذا التأثير حافزاً له على التفكير . وأنت إذا أصبت الفارسى فى كبريائه فإنك تصيبه فى أقدس شىء لديه . حاول أن تسخر من فارسى ثم انظر إلى حد يصل به الغضب إليه ، لكن التفكير يحيل تلك الخلة إلى دأب على محاولة الاصلاح . فإذاما استطعت أن تبين للشعب الفارسي عيوبه فإنه لا يلبث أن يصلحها ويحيلها إلى محاسن ، بعكس الشعوب الخانعة التى تعرف أن بعض صفاتها معيب ولكنها ترضى بها على أنها كذلك ... ولقد حاولت فى الصحائف التالية أن أبين أوجه التناقض بين الفارسيين اليوم وبين الشعوب المتحضرة . وفى رأيى أن المواهب الطبيعية فى الفارسيين لا تنقص شيئاً عن مواهب أرقى الأمم ؛ فإحساسهم حى ، وذكاؤهم متوقد ، وأنفسهم عالية ، وهم أهل شجاعة ونخوة ، ولكنهم — على الرغم من كل هذه المحاسن — فى نهاية الجهل . فإذا وجدت فيهم حكومة صالحة تعنى بالتعليم صاروا كما كانوا فى وقت من الأوقات من أكبر الأمم . ولقد حرصت على محاكاة لغة صديقى فكتبت إليه الرد الآتى :

لندن فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٢٦

صديقى العزيز :

تسلمت خطابك وأرجو ألا يقصر الله ظلك . أما عن كتابى « حاجى بابا » فلماذا لم تقرأه يا سيدى قبل أن ترسل إلى خطابك ؟

إن الشيخ عبد الرسول كذاب كبير وغنى جداً ، ولكنك « ما شاء الله ! » ... ولكنك رجل ماهر ياسيدي . فأنت وزير وأنت تعرف القراءة والكتابة ياسيدى ، وأنت تقول إن كتاب «حاجى بابا » كله كذب . نعم كذب ، وكذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » وجميع الكتب الروائية فى فارس وفى غيرها . لماذا تغضب على إذن يا سيدى ؟ تقول إن الشعب الفارسى لم يسىء إلىَّ ... نعم فانهم لم يقتلونى ولم يعتدوا على دينى وهذا حسن ، ولكن هل هذا هو كل شىء بينى وبينهم ؟

وتقول : إنك صديقى وإنك كذبت على الشاه وحلفت على الكذب ، وهذا حسن جداً ياسيدى ؛ ولكنك قلت شيئاً غير لطيف : قلت : إن أمريكا مملوءة بالذهب والفضة وإنى من أجل ذلك يجب أن أكون غنياً . لماذا يا سيدى ؟ أيلزم بالضرورة أن تكون أنت غنياً لأن الشاه غنى ؟ هذا غير لطيف يا سيدى وأنت وزير كبير وعندك قصر جديد ، ولكنك مع كل حال فى حاجة إلى بذور للزهر لنزرعها فى حديقتك فسأبعث إليك بها وبالأصص إذا ما حلفت مرة أخرى أمام الشاه من أجلى

أرجو الصفح فانى لا أعرف كيف أنافق ولكنى أتكلم فى صراحة . لماذا كتبت إلىَّ هذا الخطاب وأنا صديقك القديم ؟ الله أعلم !

حاشية :

عندى الآن زوجة ياسيدى وعندى أولاد وأنت وزير كبير وعندك ذهب وفضة ، وبما أنك كتبت لى خطاباً سخيفاً وقلت : إنى أكذب فابعث إلىَّ بذهب وفضة ؛ وإذا أرسلت لزوجتى وأولادى بعض شيلان كشمير كان ذلك جميلا

جيمز موريه

عزمت بعد ذلك على إتمام القصة على لسان « حاجى بابا » أو بالحرى عزمت على ترجمة ما كتبه « حاجى بابا » باللغة الفارسية فى وصف إقامته فى انكلترا وحرصت على روحه وأسلوبه . ولدى القارىء صورة واضحة فى خطاب ميرزا فيروز تبين شخصيته ولكن هذه الصورة ستزيد وضوحاً بما سيعلم عنه فى أثناء القصة ، ولست متحيزاً للانكليز ولا مضطغناً على الفارسيين ؛ وسأكتفى ببيان أوجه التناقض على حقيقتها وللقارىء حكمه ، ولن أطيل إلا حيث تدعو الحاجة إلى ذلك لأن شر ما أخشاه ويخشاه الكاتب أن يراه القارىء مطيلاً مملاً ، وكل رجائى إليكم أيها القراء الأعزاء إن رأيتم أنى أطلت فى بعض المواقف أن تذكروا أنى مضطر إلى الاطالة

الفصل الأول

حاجى بابا يجمع الهدايا من اصفهان

أرسلنى الشاه إلى أصفهان مبعوثاً من قبله لأجمع من أهالى المدينة الهدايا التى سيبعث بها جلالته معى إلى إنكلترا بعد أن صدرت إرادته بتعيينى سكرتيراً فى لندن للسفارة التى تعين فيها فيروز خان سفيراً ووزيراً مفوضاً ومندوباً سامياً لجلالته

وأصفهان هذه هى مدينتى التى نشأت فيها ابن

حلاق وفارقتهـا فقيراً معدماً ولـكنني أعود إليها الآن رجلاً عظيم الأهمية

دخلت شامخ الأنف أنظر في كبرياء وعظمة إلى أهلها كأنهم تماثيل من الأحجار . ومن حسن حظي أن أبي وزوجها فقيه المكتب كانا قد بارحا المدينة ، وأقاما في قرية بعيدة عند سفح الجبل . أما صديق القديم «على محمد» بواب الخان الذي لو كان حياً لصحبني في كل مكان ولمنعني بمرافقته إيّاي من إظهار الـكبرياء ، فانه قد مات عليه رحمة الله

وكنت أتجنب السير في الطريق الذي كان فيه حانوت أبي الحـلاق في أيام طفولتي حتى لا يراني أحد جيرانه القدماء . ولم أمر كذلك في الطريق الذي كان فيه منزلنا القديم

وكان حاكم المدينة يجهل أصلي فاحترمني من أجل المهمة التي بعثت بها ولم ينقص من احترامه شيئاً . وكانت المهمة سامية جداً لأني أمثل الشاه ولأنه خول لي أن آخذ ما أشاء من أي إنسان وأدرجه في قائمة الهدايا . وكنت أقول في نفسي : « أنت سعيد يا درحاجي بابا » ولا بد أن يكون الـكوكب الذي ولدت ساعة بلوغه الأوج هو أسعد كوكب في السماء ، فان ذقون أهل أصفهان وأهل شيراز أصبحت كلها في يدي ، ولي أن أختار أية لحية فأنتف من شعراتها ما أشاء . ولـكن تجاربي الماضية جعلتني أضع بدالحـكمة على ظهر الاعتدال . ولا يفوتني أن أذكر أن لقبي الرسمي أصبح « عالي الجاه » أي صاحب الجاه العالي . وهذا اللقب مطمح أنظار الفارسيين فلا يوجد فارسي لا يتمنى أن يناله ، ولـكنني مع ذلك فضلت أن يلقبني الناس باللقب السابق وهو « عالي الشأن » وهو لقبي قبل الحصول على رتبة « بك » وتعييني سكرتيراً في السفارة

وما زلت حريصاً على التأدب في مخاطبة الناس فلا أقول لإنسان «أنت» بل «أقول أنتم» ولا أقول لزائري « اجلس » بل أقول « أرجو أن تشرفني بمجالستك » ومع أني كنت راغباً في ألا أغير هذه اللغة فإني ما كنت أستطيع تغييرها لو أردت لأني اعتدتها . ولأن الكلمات اللطيفة كانت أحلى في أذني من الأنغام

وكان معي أمر من الشاه يبين حدود مهمتي . وفيه أن حاجي بابا لـمـا هو معهود فيه من الحـكمة وسداد الرأي قد كلف من قبلنا بجمع رؤوس من العبيد والإماء لإرسالهـا هدية منا إلى شاه بلاد الفرنجستان . وليكن هؤلاء العبيد والإماء ممتازين بصفات خاصة حاذقين في مختلف الفنون أقوياء ليرى فيهم هذا الملك الـكافر مثالاً حسناً من عبيدنا

وعهدنا إلى « حاجي بابا » بأن يجمع رؤوساً من الخيول العربيـة والتركمانية لإرسالهـا إلى شاه الفرنجستان أيضاً ليعجب رعاياه الـكفار بما في بلادنا مما لا نظير له عندهم ، وليكن في جملة ذلك مهرة أصيلة لتلد في بلاده سلالة من الخيول الشرقية ، ويكون ذلك برهاناً على حسن صداقتنا

وعلى « حاجي بابا » أن يجمع ما يليق بجاهنا الشاهاني ، ونحن ملك الملوك ، ما يستطيع جمعه من المنسوجات الحريرية ومن القطيفة ومن مصنوعات يزد وقاشان ما يدل على أنه لا يوجد في العالم ذوق سليم مثل ذوق رعيتي ، ولـكي ينسج عباد عيسى على منوال ما ننسجه نحن فيحفظوا لنا جميل تعليمهم . وليـكن بعض تلك المنسوجات للرجال والبعض نسائياً ليكسو ملك الفرنجستان زوجاته ومحاظيه بما

لم يحلم بشله . وليكن مع هـذه الأقمشة بعض الأحجار الكريمة ومقدار وافر من الحناء والكحل والأقراط والأساور والدبابيس والمناطق والخواتم واللآلىء اللائقة بأن تهدى إلى ملك أجنبى من الملوك ؛ فلا تستعلوا شيئاً من هذه اللآلىء ولو أرسلتم كل ما فى البحرين

وعليه أن يجمع الزمرد والعقيق والزبرجد ليتعوذ ملك الفرنسجتان بالتحلى بذلك من كل عين شريرة ، وليجمع فوق ذلك كل ما اشتهرت به فارس من الدروع والسيوف ونماذج الخطوط الجميلة والصور والتماثيل ، والطلاسم التى تطرد الشياطين . وبالجملة كل ما يفرح به المهدى إليه ويليق بمكانة المهدى

الفصـــل الثانى

« حاجى بابا » يصف جمع الهدايا

عرضت هذا التفويض على حاكم المدينة فوجم ولكنه لم يستطع أن ينطق بحرف . وحاكم المدينة هذا هو ابن وزير المالية ، وقد أدهشه أن يكلف بهذه المهمة أحد غيره وأن يكون التكليف من غير أبيه

ولما كان رئيس الوزارة عدواً لأبيه وله فقد ظن الحاكم أن هذه إهانة متعمدة . ولما قلت له إننا نريد البدء بالعمل قال : « كيف نتمكن من جمع كل هذا ؟ إن أهل المدينة فقراء ، والذى تطلبه لا يوجد فى مدينة واحدة من مدن العالم »

فقلت : « لو كان الرأى لى وحدى فإنى أقل من التراب . ولكن معى أمر الشاه وأمره يجب أن ينفذ بغير مناقشة »

قال الحاكم : « هـــذا ما لست أشك فيه يا « حاجى بابا » ولكن اصفهان ليست بلاد النوبة فكيف نأتى بالرقيق ؟ وليست مثل نجد فمن أين لنا بالجياد ؟ وكذلك لسنا فى بلاد البحرين فأين هى الجواهر ؟ ولسنا فى خراسان فكيف نحصل على الحرير ؟ »

لما سمعت هذا القول من الحاكم عرفت ما الذى يريده لأنى أعرف الفارسيين وأعرف كيف تنشأ المصاعب وما وسائل تذليلها بينهم . فهمست فى أذنه بأنى لست بالرجل الذى يريد الاستئثار بالنفع وأنى سأقاسمه ما يزيد على الحاجة . فما كدت أنطق بذلك حتى ابتسم وتلاشت المصاعب .

وفى ساعات قلائل كان القصر مملوءاً بالعبيد والإماء والحرير والشيلان والسجاجيد ؛ وجاء التجار من كل مكان يقدمون لنا خاضعين أحسن ما عندهم

ولكثرة المعروض من الرقيق ، ولأنى عضو فى السفارة رأيت أن أختار ما ليس له شبيه فى مزاياه لأنى مسؤول عن روعة الهدية . فاخترت الجوارى من الشركسيات الموجودات فى أرق بيوت اصفهان لتكون لهن قيمة فى حريم شاه الانكليز . وكان بينهن حبشية واحدة امتازت بخفة نومها ؛ وإذا نامت فإنها تبقى مفتوحة العينين ؛ وقلت إن الشاه الانكليزى سيسر بها سروراً كبيراً لأنها تنام عند بابه فتحميه من دسائس الحريم . وكان من مزاياها أيضاً أنها ليس لها غطيط فهى لا تزعجه فى نومه

وكان من بين الجوارى أيضاً واحدة تحسن الطهى حتى لقد سمعت أن الذى يتعود الأكل مما تطبخه يعيش ضعف العمر المعتاد . وهل يريد الملوك أكثر من التمتع بطول العمر مع جودة الأكل

أما العبيد فكان بينهم زنجى قوى جداً لا يغلبه أى إنسان فى المصارعة فهو يستطيع أن يحمل رجلاً

ويلقى به على مسافة طويلة كما يفعل غيره بسلمة خفيفة ، فهو يأكل كبشاً كاملاً فى الوجبة الواحدة

وأما إماء الحرم فقد اخترت منهن اللآلئ الساحرات العيون الوافيات الأجسام . ولما لم يكف من تتوافر فيهن شرائط الجمال فى أصفهان فقد جئت بأجمل الجميلات فى شيراز ، وجمعت بعد ذلك من الجواهر والثياب ومختلف الأصناف أحسن ما هو موجود فيها وعنيت عناية خاصة بالثياب والمجوهرات التى ستهدى للملكة الفرنجستان ؛ ومنها البراقع المحلاة بالذهب والحبرات وأقراط الأنف والكحل والأصباغ للشفتين والخدين والعنبر ليوضع منه على الخد شكل الخال

واخترت فتى جميلاً من الخصيان الشركسيين لتكون الملكة فى حراسته « أغا » وهو قوى ماكر لاتستطيع الملكة أن تفلت من رقابته سواء أكانت من الشياطين أم من الملائكة

وقبل عودتى إلى طهران اقتسمت مع الحاكم ما زاد على الحاجة ؛ وخصصت جانباً لأهديه إلى رئيس الوزارة وخبأت ما جعلته من نصيبي بين أمتعتى وآليت ألا أطلع أحداً على هذا السر

الفصل الثالث

سفير انكلترا يعترض على الهدايا

وصلت سالماً إلى العاصمة والهدايا محملة على البغال والجوارى على الهوادج فوق ظهور الخيل والعبيد يمشون حول موكبى ، فقصدت تواً إلى منزل رئيس الوزارة ، وفى أقل من لحظة صدر لى الإذن بمقابلته فقدمت له النصيب الذى استخلصته من الهدايا ، وأقسمت أنى لم أحتفظ لنفسى بشىء . ويعلم الله أنى كنت أضحك بهذا القول على لحيته . ثم عرضت عليه الهدايا التى جمعت لإرسالها لشاه الفرنجستان

فسُرَّ رئيس الوزارة وقال لى : أنت ياحاجى بابا جدير بالثقة ، ولكن ليس معنا الآن أحد فى هذا المكان وأريد أن أنبهك إلى أن « فيروز خان » الذى سيكون سفيراً ورئيساً لك يحسدك على قيامك بهذه المهمة التى كان يريد أن يكلفه الشاه بها لينفذها بنفسه أو ليرسل أحد أتباعه ، فاحذر من عداوته لك وأخبرنى بأعماله عند ما تصلون إلى الفرنجستان

وأخبرنى رئيس الوزارة أنه تحادث مع سفير انكلترا عن الغرض الذى أرسلت من أجله ، وأن هذا السفير المعين حديثاً أبدى رغبته فى رؤية الهدايا قبل إرسالها ، وقبل أن يكتب الخطابات التى سترسل على لسان الشاه ووزرائه إلى انكلتر ، لأنه ليس فى الحكومة الفارسية من يعرف اللغة الانكليزية ، كما قبل أن يأتى لنا بمترجم انكليزى يعرف اللغة الفارسية لكى يكون مترجماً للسفارة الفارسية فى لندن

دُعِىَ السفير بعد عودتى إلى زيارة الشاه ليرى الهدايا ، وحضر هذه الحفلة « ميرزا فيروز » الذى تعين سفيراً ، وقد كان كلا السفيرين لايعرف ما هى هذه الهدايا قبل أن تعرض عليهما

اجتمع الوزراء والسفيران فى « الديوان خانه » وهى قاعة الاستقبال فى قصر الشاه ، وقد زينت القاعة فى هذا اليوم كأحسن ما تكون الزينة وحليت النافورة بالأزهار وأديرت فكانت مياهها تتناثر على الزهر كالدموع على خدود الحسان . ثم أديرت الفواكه والمثلجات وأمرنى رئيس الوزارة بعرض الهدايا فجئت بالجوارى والعبيد وبالخصيان وعرضتهم

فوقف السفير الانكليزى مندهشاً وقال: «ماهؤلاء؟ إن الانجليز لا يقبلون الرقيق في بلادهم »

قال رئيس الوزارة فى هدوء : « ما هذا القول يا فخامة السفير ؟ أليس عندكم عبيد ؟ كيف إذن تقومون بالأعمال ؟ »

قال السفير : « إن كل من فى بلادنا أحرار وكل من يدخلها يصير حراً »

فقال رئيس الوزارة : « ولكن هذه الهدايا للشاه الانكليزى نفسه ؛ وإذا لم يكن مسموحاً فى بلادكم لأى فرد بامتلاك العبيد فلا يمكن أن يكون شاهكم كسائر الأفراد . من الذى يطبخ له ؟ ومن الذى يدخل معه الحمام ؟ ومن الذى يحرسه حين ينام ؟ أليس هذا من عمل الرقيق ؟ »

قال السفير : « ليس لملكنا الحق فى امتلاك الرقيق ، فهو فى ذلك كأى فرد من رعاياه ، وهو يستأجر من يخدمونه والملك نفسه من أشد الناس عداوة للرقيق فهو لا يكتفى بمنعه فى بلاده ولكنه يستعمل نفوذه وقوة دولته فى منعه من البلاد الأخرى »

فتح الوزير عينيه وفمه وقال وهو شديد الدهشة : « أظن النشوة لا تصل بكم إلى هذا الحد . كيف تمنعون الرقيق ، وكيف يعيش هؤلاء المساكين إذا حررناهم ؟ إنهم لا يستحسنون سعادة أكبر من بقائهم معنا . فاذا تركناهم فانهم يموتون جوعاً ، وهم أبناؤنا وأجزاء من عائلاتنا »

قال السفير الانكليزى: « ولكنكم تستطيعون قتلهم » فقال رئيس الوزارة : « أين هو الأحمق الذى يحرق منزله بيده ؟ كيف نقتلهم ونخسر ثمنهم ؟ »

قال السفير : « مهما تكن الحال فإنكم تستطيعون ضربهم ولا مسئولية على أحدكم فى ذلك »

فقال رئيس الوزارة : « ومن الذي يمنعنا عن ضرب الخادم ولو لم يكن رقيقاً ؟ إن كل إنسان معرض للضرب ممن هو أكبر منه إلا جلالة الشاه حماه الله . فالشاه يضرب الوزير ، والوزير يضرب الموظف ، والموظف يضرب الناس »

ولما رأيت أن مجادلة السفير على هذه الطريقة لا تؤدى إلى إقناعه تلطفت وقلت له متواضعاً : « ولكنك يا فخامة السفير لم تعرف بعد مزايا هؤلاء الأرقاء ؛ فإحدى الجوارى تحرس باب الملك عند نومه حتى لا تخونه نساؤه الأخريات ، والأخرى تطيل عمره بجودة ما تطبخه »

فقال السفير : « إن الأحوال فى بلادنا تختلف عن الأحوال فى بلادكم ، فإن الشاه الانكليزى ينام هادئ البال كأي فرد من رعاياه ، ولا يخاف من الاعتداء عليه وهو نائم ، وهو يأكل من أى طعام ، ولا يخاف من أن يدس له السم فيه ، وهو يثق بطباخه كما يثق برئيس وزرائه »

قلت : « وهــذا الزنجي يا فخامة الوزير مثل « اسفنديار » فجسمه من النحاس وذراعاه من الحديد ، ولا شك أنكم لا ترفضونه فهو ضرورى جداً فى حاشية شاهكم »

فقال السفير : « إن عندنا مصارعين من جنسنا ، ولكنهم إذا سلبوا حريتهم فقدوا قوتهم . إننا لا نقبل الرقيق بحال من الأحوال »

عند ذلك هتفنا جميعاً : « هذا عجيب جداً ! »

وانزعج ميرزا فيروز من احتمال سفره بلا هدايا . وقد كنا نعتقد أن نجاحنا فى لندن يتوقف على قيمة الهدية التي نهديها كما هي الحال عندنا

وقال الوزير : « وعلى كل حال فأظنكم لا

ترفضون هذا الخصي الشركسي فهو لايقدر بثمن»
فقال السفير : « إنني لا أعرف مهمته فما هي ؟ »
قال الوزير : « إن للملك زوجات وجواريَ كثيرات وهن بالطبع في حاجة إلى مراقب أمين ، لأن المرأة لا تستطيع الخروج من المنزل إلا تحت مراقبة أحد من أتباع زوجها فالنساء غير مأمونات ولا محل للثقة بهن »
فأدهشنا السفير عند ما أجاب بقوله : « ليس للملك عندنا إلا زوجة واحدة وجميع الرعايا يراقبون حسن سلوكها لأنها ملكة وليست في حاجة إلى خصي »
صحنا جميعاً : « لا إله إلا الله ! هذا غريب جداً ! » وقال رئيس الوزارة : « وكيف يكون ملكا وله زوجة واحدة ؟ وما هي الفائدة إذن من كونه ملكا ؟ ما الذي يفعله شاهكم إذا ملَّ من زوجته ؟ »
فقال السفير : « إن الجواب على هذه النقطة بعيد عن فهمكم لاختلاف عاداتنا وعاداتكم . إن المرأة عندنا مثل الرجل في حقوقها وفي احترامها وقد تولي الملك عندنا كثير من النساء »
فكر رئيس الوزارة ثم قال : « هذا غريب جداً ! إن عاداتنا تخالف عاداتكم مخالفة كبيرة فالنساء عندنا في حكم العدم ، ونحن لا نثق بهن ونعتقد أن المرأة لم تخلق إلا لقضاء حاجة الرجل ونحن لا نفهم خضوع الرجال لحكم المرأة إلا كما تفهمون خضوع النمور للنعاج »
وقال فيروز خان : « إذا لم يكن للشاه الانكليزي غير زوجة واحدة ، فلديه بلا شك نساء كثيرات لحفظ ثيابه وللرقص والغناء ولقص النوادر ولمراقبته عند نومه ولخدمة زوجته وتربية أولاده ، وكل هذا العدد من النساء في حاجة إلى خصي لأننا لا نفهم أن جميع النساء في بلادكم يختلفن عن نساء بلادنا فلا تكون لكم حاجة بمن يتجسس عليهن ... فقال السفير : « مهما بدا لكم غريباً فان هذا هو الواقع . وليس على نسائنا رقابة ، ومع كل ما للملك من السطوة فانه لا يستطيع إخضاع امرأة لرقابته أو منعها من الخروج من المنزل أو مقابلة الناس . ولو فعل ذلك لكان حكمه حكم من يعاقب الغير بغير محاكمة ، وقوانيننا تمنع ذلك . ومن المستحيل أن يكون في بلادنا من يتجسس على المرأة لزوجها . ثم أريد أن أعرف من أين تأتون بهؤلاء الخصيان ؟ »
فقال رئيس الوزارة : هل تظن أننا نأتي بأناس يخلقون كذلك ؟ كلا فان كل موظف مغضوب عليه أو كل أسير حرب نفعل به كذلك »
انزعج السفير الانكليزي من هذا القول أيما إنزعاج وأصر على ألاّ يقبل الخصيان في بلاده
وكان الشاه يسمع ذلك ولا يتكلم ، وقد بدا على وجهه الغضب لرفض جانب من الهدايا . وفي ذلك مالا يدل على حسن النية ، لأننا نحن الفرس نرى رفض الهدية من أكبر علامات الاحتقار ، وهو بين الملوك من بوادر الحرب . لكن لما عرضنا على السفير الانكليزي قبول الجياد وافق وأبدى علائم الشكر والسرور . وكذلك قبل السيوف والدروع ومنها سيف « تيمورلنك » وآخر لنادرشاه وهو الذي كان معه لما فتح مدينة « دلهي » وخوذة جميلة للشاه اسماعيل ، وقميص طرز بآية من القرآن كان لمحمد شاه

قال الشاه للسفير الانكليزى : « اكتب لأخى ملك الانكليز بأن يضع القميص تحت ثيابه كلما خرج إلى الحرب فإنه يضمن له النصر فى كل موقعة »

وقبل السفير كذلك مع الشكر أن نبعث إلى ملكه بالمنسوجات الحريرية والشيلان والسجاجيد والجواهر والمصوغات والهدايا المرسلة باسم الملكة ؛ وقد ابتسم عند رؤيتها وقال إن جلالتها ستسر بما أهدى إليها وإن كان من المستحيل أن تلبس شيئاً من ذلك »

ولما تم الاتفاق على ما يرسل وما لا يرسل عاد السفير بعد شكره للشاه وتركنا نعرب عن دهشتنا لغرابة أهل البلاد التى يسكنها هؤلاء الفرنجة

الفصل الرابع

خطاب من كبيرة زوجات الشاه الى ملكة انكلترا

كان من أهم الأمور التى يجب قضاؤها قبل سفرنا أن نكتب خطابات إلى شاه الفرنجستان ووزرائه كالتي وصلت إلينا عندما جاء سفير انكلترا إلى طهران — الخطابات التى ترجمها لنا السفير ولكننا لم نعجب بانشائها ولا بخطها ، ويظهر أن الانكليز ليس عندهم ذوق فى الانشاء . ولقد أدهشنا وحيرنا شكل ختم به على غلاف الخطاب الانكليزى للشاه ، لأن عليه رسم رجل على ظهر جواد يقتل حيواناً مفترساً . ولقد جمعنا العلماء ليفسروا لنا هذا اللغز فكان جوابهم بالظن أن هذا الرسم يمثل بطل التاريخ الفارسى « رستم » يقتل الشيطان الأبيض ؛ ولكننا لما سألنا فيما بعد من أحد الفرنجة قال : إن هذا الرجل عظيم من كبار الدراويش الانكليز اسمه « القديس جورجيو » وأنه يقتل وحشاً يهاجم شاه الفرنجستان . وهذا الرسم معناه أن بلادهم آمنة . وقد كان مثل هذا الرسم على شريط من الحرير فى أسفل الخطاب الذي بداخل الغلاف ؛ وكان وضع هذا الخاتم فى أسفل الخطاب سبباً فى مناقشة حادة بين السفير الإنكليزى وبين رئيس الوزارة لأن الأخير رأي أن وضعه كذلك يعد اعترافاً من ملك الانكليز بأنه أصغر من شاهنا ملك الملوك . وقد ظهر لنا من هذه المناقشة أن هذا الملك يعتبر نفسه أكبر من كافة الملوك حتى الشاه الفارسي نفسه

ولما جاء دور الكلام على الخطاب الذى سنرسله إلى ملك الانكليز قال رئيس الوزارة : إننا سنضع خاتم الشاه فوق العنوان فرفض السفير ذلك ونحن رفضنا أن نضع الخاتم فى ذيل الخطاب ، ثم تم الاتفاق على أن يكون العنوان وخاتم الشاه فى سطر واحد

وأمر الشاه باحضار أكبر المنشئين وأكبر الكتاب لإنشاء الخطاب وتسطيره بخط جميل ، ثم يترجم السفير الانكليزى الخطاب ، وترسل الترجمة مع الأصل لجمال خطه . وقد اختار المنشئون لهذا الخطاب زهرات اللغة التى تروق ويصعب فهمها على الرجل العادى ، ولكن تتناقلها الأفواه لجمالها . ولست أذكر من كل هذا الخطاب إلا الجملة الآتية

« عند ما تتعرض حديقة الأزهار التى أعوادها كلمات هذا الخطاب والتى روائحها معانيه ، ونسيمها الاخلاص المتجلى فيه — عندما تتعرض هذه الحديقة لنجمى عينيك المتألقين فى سماء وجهك ، وعندما يسطع عليها ضوء نفسك من هذين النجمين ، وعند ما تستنشق عبير هذا الاخلاص ، عند ذلك أعنى أن

تكون على عرش الصحة متوجاً بالسعادة والرفاء »

هذه جمل من الخطاب البليغ . فكيف يفهم عقل الرجل العادى أن معنى هذه الكلمات هو : « عند ما يصل إليك خطابي أرجو أن تكون فى صحة جيدة »

بقى خطاب كبيرة زوجات الشاه إلى ملكة انكلترا رداً على خطابها . ولقد كانت هذه الملكة تجهل عوائدنا فلقبت زوجة الشاه بلقب ملكة إيران وأهدتها صورتها فى إطار محلى بالجواهر

وبالرغم من أن زوجة الشاه ذات نفوذ فى القصر فإنه ليس لها أقل نفوذ فى الدولة . وللشاه أن يقتلها ويأتى بغيرها دون أن يشعر بذلك أي إنسان . ولكنه كان من الضرورى على كل حال أن يصل إلى ملكة الفرنجستان رد على خطابها

وبعد أن حاول كتبة القصر أن يضعوا نص هذا الخطاب جيء بمنشىء الدولة لوضع الصيغة النهائية ، وهذا هو نص الخطاب :

« أدعو لجلالتك دعاء طاهراً كعرض مريم العذراء البرىء من كل تهمة . وسلامى إليك كشهادة عيسى لأمه . وبعد فيا لؤلؤة الجمال المكنونة فى أصداف العظمة ، ويا كوكب العقل المتجلى فى سماء الحكمة ، أطال الله ظلك ، وأكد روابط المودة بين بلادنا وبلادك بحق جبريل عليه السلام ، وعطر علاقتنا بروائح الاخلاص

وقد كان تبادل السفراء سبباً فى فتح باب الصداقة على مصراعيه فلتغنِّ بلابل الأقلام ، على أعواد الحب والوئام ، ولتنبت زهرات العطف على أغصان الصداقة والسلام » .

« البقية فى العدد الآتى »

عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣١ — أول ربيع سنة ١٣٥٧ — أول مايو سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد



« خبئي خاتمي ... بسرعة ! »

« ماذا ؟ »

« خذي ... أخفيه ... ألا ترين هؤلاء الثلاثة المقبلين في مثل ثياب الأوشاب ؟ أسرعي ... يا لك من بلهاء ... لا بأس ، سأتركه هنا ؟ فما أظن أحداً يلمس هذين أو يدس يده بينهما »

ودست الخاتم بين ثديي أختها الناهدين الراسخين وتركتها ومضت

وكان الثلاثة الأوشاب ، أو الذين آثروا أن يتنكروا في هذا الزي يتنقلون بين السيدات على عجل ، وينزعون عنهن ما يسهل نزعه من الحلي ، ويتركونهن ما بين ذاهلة مفتوحة الفم جاحظة العين ، ومغشي عليها من الخوف ، وصارخة تستغيث وتصيح : « أدركوني ... يا بوليس ! » وكان بعض الرجال قد حاولوا أن يصدوا هؤلاء الأوباش ولكن فوهات المسدسات ردتهم وأرخت أيديهم إلى جنوبهم وألصقت ظهورهم بالجدران

وتقدم أول الثلاثة من جليلة ، وهي واقفة تنتفض ولا تكاد تقوى ساقاها على حملها ، وترى الكرسي إلى جانبها ولا يخطر لها أن تقعد لفرط ما انتابها من الاضطراب والجزع ، وتناول كفيها ورفعهما وهو يتأملهما ثم صمد عينه إلى وجهها وقال : « غريب ! فتاة جميلة مثلك لا تلبس حلياً ؟ وهؤلاء جميعاً محشودون هنا احتفالا بك ؟ غريب ! »

وهوى بكفيه إلى فخذيها يتحسس ثنية الجوربين عليهما عسى أن تكون قد خبأت هناك شيئاً ، ولما لم يجد شيئاً انصرف عنها وهو يهز رأسه مستغرباً

وغادر الثلاثة البيت ، كما دخلوا ، من الباب ، صفاً واحداً لا متريثين ، ولا عجلين ، ولا متلفتين ، كأنما كان دخولهم وتفتيش السيدات أمراً عادياً مما يحدث كل يوم ! فملت الأصوات وانطلقت ، بعد طول الاحتباس ، وتصادمت الأجسام بعد أن استردت قدرتها على الحركة

ودخل صاحب البيت وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب وانحط على كرسي خف به الموجودون وألحوا عليه بالأسئلة ، وهو لا يجيب . ثم انتظمت أنفاسه فقال :

« اطمئنوا ... لم يضع شيء ... كل ما أخذوه ألقوه في الدهليز ... يظهر أنها مزحة . ألا قبح الله هذه المساكن الخلوية ... لو لم يكن بيتنا بعيداً عن المساكن لما اجترأ هؤلاء الأشرار أن يركبونا بهذا المزاح البارد المزعج ... ولكن لا بأس ... والآن سيداتي وسادتي ، تستطيعون أن تعودوا إلى الرقص والمرح »

وتفرق المدعوون يستعيدون ما فقدوا ، وأقبلت « إحسان » على أختها تقول لها :

« هاتي الخاتم يا جليلة ... »

ولم تتم كلامها ، إذا صح أنها كانت تريد أن تقول غير ذلك ، فقد دخل بينهما في هذه اللحظة

شاب فى زى شيطان ، وأحاط خصر جليلة بذراعه وهو يقول :

« هذه رقصتى »

فهزت إحسان رأسها وقالت لنفسها : « لا بأس ولا داعى للعجلة ، فان الخاتم فى أمان ولن يخطفه مراقصها وإن كان عفريتاً »

وقال العفريت لجليلة وهو يطوف بها : « ما أحلى أن ترقص الشياطين والملائكة معاً ! » وصوب عينه وهو يهمس بذلك إلى صدرها ، وكان يدنيها منه ويشد عليها ، وكانت هى تحاول عبثاً أن تتخلص من هذا الذى يشبه العناق ، فيخيل إليها أن حدقتيه البادیتین من ثقبى القناع تومضان ساخرتين ، فتقول له بصوت كأنما براه الضعف والتفتر والخوف والرغبة وهذا الخدر الذى صارت تحسه يدب فى جسمها : « أرجو ... إسمح لى » ثم تجيل عينيها فيما حولها وهى تحدث نفسها أن عليها أن تتفلت من أسر يديه فلا يزيدها ذلك إلا اضطراباً

وأسر إليها : « آسف ... هل نخرج إلى الشرفة ؟ »

فقالت : « نعم ... من فضلك لا أريد أن أبقى هنا ... سأذهب إلى غرفتى »

فقال : « سيكون ماتريدين ياعصفورتى الجميلة »

وظل يراقصها وهو يتخلل بها المدعوين حتى خرجا الى الشرفة ، ثم مال بها يسرة حتى وقفا عند باب ، وهناك انحنى عليها ، وحناها على ذراعه ، فانقطع رباط ثدييها ، وسمع هو الصوت فابتسم واعتدل ، ودفع أصابعه بسرعة وخفة والتقط الخاتم ، وقال وهو يلثمها : « والآن أستودعك الله ... سأذهب أنا أيضاً ، فما أريد أن أراقص أحداً غيرك ... ولكنى أرجو أن تقولى لإحسان حين ترينها فى الصباح إن الشيطان لا ييأس ... وإلى الملتقى يا فتاتى الحسناء »

* * *

واستيقظت جليلة عند الضحى ، فكان أول ما تذكرته هذا الشيطان الذى لم تر وجهه ، ولكنها لا تزال تشعر كأن ذراعه على خصرها ، ودخلت عليها إحسان وهى تحلم بهذا وعيناها مفتوحتان ، فاحتاجت أن تهزها — وإن لم تكن نائمة — لتردها إلى هذا العالم ، وقالت لها : « الخاتم ... هاتيه »

فأفاقت جليلة جداً لما دست أصابعها بين ثدييها فلم تجده ، وقالت وهى تنهض وتهز قميصها وتنفضه : « لقد كان هنا ... لا أذكر أنى أخرجته ... لقد كنت أرقص مع أحد ضيوفك (واضطرم وجهها لهذه الذكرى) ثم عدت إلى غرفتى ونمت ... »

فصاحت بها إحسان : « من كان هذا ؟ إن المدعوين ليسوا لصوصاً ... تذكرى أين وضعته »

قالت جليلة : « لا أعرفه ، لقد كان فى زى شيطان ... ورجانى وهو يودعنى أن أقول لك إن الشيطان لا ييأس »

فقالت إحسان : « لعنة الله عليه ... لن أرى الخاتم بعد ذلك أبداً . لقد نجح حيث فشل لصوصه الذين جاء بهم »

فقالت جليلة : « لست فاهمة ... إنه أحد الضيوف ... وإذا كنت تعرفينه فلا شك أنه سيعيد إليك الخاتم »

فصاحت إحسان : « يا بلهاء ... إنه ليس

ضيفاً ... هو ابن زوجي ... أسعد ... وهذا خاتم أمه ، وكان يريد أن يحتفظ به ، ولكني أغريت أباه بأن يعطينيه ؛ فهو يكرهني ويحقد على ، وقد فسد ما بيننا بعد ذلك فآثر أن يعيش وحده ، فإن به غنى عن أبيه ، ولا يزورنا قط ... والآن قد استرده ... »

* * *

ولم تر جليلة أن تنهض عن سريرها فبقيت مستلقية عليه تفكر ... إذن لم يكن أسعد يراها جميلة ، ولم يكن يدعوها عصفورته ، ويهمس في أذنها بألفاظه المعسولة إلا ليخدعها ، وكان الخاتم همه الوحيد ... وكل ما يبغيه هو أن يسترده ، على حين كانت هي لبلاهتها تتوهم أنه مفتون بها !

ودار في نفسها خاطر آخر أوجع وآلم ، ذلك أنها عاشت إلى الآن بعيدة عن أختها أكثر الوقت لأنها كانت في المدرسة ، فهل كل ما دفع أسعد إلى مغادرة بيت أبيه هو انتزاع الخاتم منه ، وإيثار امرأة أبيه به عليه ؟ ! ألا يمكن أن يكون قد رأى من إحسان ما جعله يفر منها حرصاً على كرامة أبيه ؟ ولكن جليلة نفت هذا الخاطر المنكر الذي أدارته الغيرة في نفسها

ولكنها لم تكن مخطئة ، فما فرّ أسعد من بيت أبيه إلا لأن إحسان تطارده فيه ، وإن كانت لم تزد على التودد

وهكذا اتفق في ذلك اليوم أن كانت اثنتان تفكران في أسعد — جليلة وهي راقدة على سريرها تتمنى أن يعود لتراه كما هو لا في زيّ شيطان ، وإحسان وهي تروح وتجيء في البيت ، تدعو الله أن يظل أسعد بعيداً مخافة أن يفتتن بأختها الحسناء الصابحة الوجه ...

ومضت الأيام ، وفي نفس كل منهما أمنيتها ، وكانت جليلة تجد نفسها على الأيام عاجزة عن إحسان الظن بأختها إحسان ، وكان استبداد هذا الخاطر بنفسها وإلحاحه عليها على الرغم من مجاهدتها له وثورتها عليه ، يثيران غيرتها ويدفعانها إلى العناد ، فتأبى أن تقبل من أختها وزوجها شيئاً ، وترفض أن ترافق أختها إلى حيث تذهب ، وتصر على البقاء ، وتطيل خلوتها بنفسها

وفي مساء يوم ، دخلت غرفة المكتب لتعيد كتاباً وتستعير غيره ، فاتفق أن لست أصابعها أوراقاً على المكتب فأطارتها ، فانحنت لتعيدها إليه ، فإذا بها تقرأ في واحدة هذه الرسالة الوجيزة إلى زوج أختها :

« آسفة جداً ، وقد تركت لك رسالة وردتني من أسعد وهي تقص عليك القصة كلها ، فلا حاجة بك إلى شرح مني ، فأستودعك الله

إحسان »

فقرضت جليلة أسنانها ، ومزقت الرسالة على غير عمد منها ، ثم نظرت في الورقة الأخرى التي ذكرتها إحسان في كتابها فقرأت فيها :

« عزيزتي الجامدة المتعبة

لقد يئست ، وإنك لتعلمين أني لا أستطيع أن

أزورك فى هذا البيت ، ولـكن فى وسعك أنت أن تزوربنى ، ويجب أن تزوريني ، فان هناك أمراً أريد أن نتفق عليه . واعلمى أنى لم أذق طعم الراحة مذ استعدت الخاتم »

ففهمت كل شيء ، ولم يخف عليهـا أن هذه الرسالة لها ، لا لأختها ، ولـكن الذى لم تستطع أن تفهمه هو أن تخاطر أختها على هذا النحو ، وتهجر بيتهـا وزوجها وتذهب إلى من لا يريدها ... إذن يجب أن تذهب هى إلى بيت أسعد لتتدارك الأمر ، وتصلح الخطأ وتمنع الفضيحة

ولم تجد عناء فى دخول البيت بلا استئذان ، فقد كان بيتاً صغيراً ، تحيط به حديقة ، ومن السهل التسلل إلى أية غرفة ، إذا كان هناك شباك أو باب مفتوح

ودخلت حتى صارت فى غرفة تتصل بأخرى بباب موارب ، فوقفت وراءه ساكنة فقد سمعت أصواتاً ، وإذا بأسعد يقول :

« إنى لم أكتب إليك هـذه الرسالة ، وأنت تعلمين ذلك »

وقالت الأخت المغامرة : « بالطبع أعرف هذا . إن هذه الفتاة التى تفتنك وتسبيك وتسلبك لبك ، لم تزد على أن تضحك مقهقهة لمـا قرأت رسالتك إليها ... إن قلبها من حجر ... أو هو لوح من الثلج ... »

فسألها : « هل تعنين أنها لا تبادلنى حبـًا بحب وأنها لن توافق على الزواج ؟ »

فضحكت وقالت : « إنها لا تشعر أنك موجود فلا تخدع نفسك ، وخير لك أن تقصر ... »

ونهض أسعد — فقد سمعت جليلة حركة تدل على ذلك — وقال وهو يتمشى فى الغرفة :

« إنك لست أختاً لها ... لا يمكن أن تكونى أختها ... أنت ... أنت ... لا أعرف ماذا أنت ، ولـكنى أعرف أنك ماكرة خبيثة ، وكل عجبى أن تكون هذه الفتـاة الطيبة الساذجة أختك ... مستحيل »

وفى هذه اللحظة دق الجرس ففتح الخادم الباب؛ ودخل الزوج — زوج إحسان — يمشى بخطى سريعة ، ومن حسن الحظ أنه دخل من ناحية أخري فلم ير جليلة ، وأبصر زوجته على أريكة ، والسيجارة بين أصابعها ، وابنه يتمشى مطرقاً ، فوقف ونظر منها إليه ثم قال :

« هل هذه الرسالة منك يا أسعد ؟ »

فنظر إليها أسعد ثم قال : « نعم يا أبى »

وفى هذه اللحظة خطر لجليلة خاطر بمثل سرعة البرق ، ففتحت البـاب وهي تقول : « هذا أنت يا عمى ! ! أوه ما هذا الذى بيدك ... رسالة أسعد إلىّ ؟ أشكرك ... لقد خفت أن تكون قد وقعت في يد أختى ، فتتبعنى إلى هنا »

فنظر الرجل إلى الرسالة التى فى يده ، ثم رفع عينيه إلى ابنه ، وتنفس الصعداء ، ثم التفت إلى جليلة وسألها :

« أهى رسالة منه إليك ؟ »

فقالت : « بالطبع ! ولمن تكون غيرى ؟ إن أختى لا تحبه ، فهو لا يجيء إلى بيتك ، ولهذا طلب منى أن أجيء أنا إليه ، ولما رأيت أن أختى جاءت اختبأت ، لأن أسعد أشار علىّ بذلك ووعد أن يتخلص منها بسرعة فانها تعترض جداً على أن أتصل بأسعد »

وهنا تناول أسعد يد جليلة وقال : « إذا كان لا مانع عندك يا أبى من زواجنا ، فأرجو أن تقنع زوجتك بالموافقة »

فقال الرجل : « إن اعتراضها لا يمكن أن يكون إلا سخيفاً . تعالى يا إحسان . لماذا لم تحدثيني بكل ذلك من قبل ؟ كان يجب أن تشاوريني فان جليلة كبنتى ولها علىّ حقوق ... على كل حال حصل خير ... تعالى نخرج ... ولندعهما ... »

***

وسأل أسعد :

« أظنك لم ترى رسالتى إلا بعد أن خرجت أختك »

فقالت جليلة : « صحيح ، وقد مزقت كتابها إلى أبيك ، ولكنها لا تعرف ذلك ، فستظل قلقة لا تدرى هل عرف زوجها أنها همت بهجره أو لم يعرف »

فقال أسعد : «إن هذا القلق أقل ما تستحق. هاتي قبلة ، ولنخرج إلى السينما ... »

ونزع الخاتم من إصبعه ووضعه لها فى أصبعها

ابراهيم عبد القادر المازنى

الصقر

للقصصي الإيطالي بوكاتشو
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

كان بفلورنسا شاب من النبلاء الأغنياء يدعى فريدريك ألبيريني من أسرة عريقة فى المجد ، وقد هذبه الفن والطبيعة وجعلا منه فتى كاملا كيساً لا نظير له بين أبناء النبلاء التوسكانيين ، وقد وقع فى حبائل الحب كما جرت العادة بين أترابه ممن هم فى صفه من السراة ، فهام بسيدة من الأعيان تدعى جان كانت تعتبر من أجمل وأحب نساء فلورنسا ، ولم يدع وسيلة لاستمالتها إلا نفذها ، من ولائم فاخرة وألعاب فروسية باهرة ، وهدايا عظيمة . كانت هذه السيدة متمسكة بالتقوى والفضيلة ولم تحفل كثيراً بهذه النفقات الجنونية ، ولكنها لم تحتقر قط هذا الشاب الظريف . لم يتطرق اليأس ولا الملل إلى فريدريك واستمر فى طريقه وإسرافه حتى أضاع ثروته ولم يبق لديه إلا شيء قليل يعيش به فى حالة بؤس لم يدخر من ماضيه الفخم غير بازى مدرب على الصيد ، ولقد أصبح أشد تعلقاً بحبيبته رغم فقره المدقع الذى أوقعته فيه ، ورأى أنه لا يستطيع أن يعيش عيشة تليق به فى المدينة ، فصمم على الاعتكاف فى البقية الصغيرة الباقية من أملاكه فى الريف ، فكان يصطاد فى أغلب الأحيان بصقره ليسرى عن همومه وليكفيه مؤونة السؤال . استمر على تلك الحال ردحاً من الزمن مرض فى أثنائه زوج حبيبته ثم مات ، وقد أوصى بثروته العظيمة إلى ابنه الصغير ، وبموته دون أن يعقب ينتقل الميراث إلى أمه التى كان يحبها زوجها حباً يقرب من العبادة

أقبل الصيف فذهبت الأرملة كعادتها لتصطاف فى أملاكها فى الريف وكان بيتها قريباً من بيت فريدريك . وبمناسبة هذا الجوار تعرف ابنها بفريدريك وكان يتردد عليه ويلهو بكلاب صيده وطيوره ، وقد شاهد البازى الذى تحدث الناس عن مهارته ففتن به ، ولم يستطع أن يطلبه منه لأنه كان يعرف شدة تعلق فريدريك به ، ولما علم أنه يستحيل عليه أن يحوزه ساوره الهم والقلق حتى مرض ، ثم عرف والدته بسبب مصابه قائلا : «أماه ، لو كنت تتمكنين من الحصول على بازى فريدريك لعاجلنى الشفاء وعاودتنى الصحة» صمتت الأم هنيهة وسبحت فى أحلامها وتأملاتها فماذا تعمل مع من أحبها طويلا وبدد ثروته لاسعادها وهنائها فكانت تقابل منه هذا العطف بالفتور ، وكيف تستطيع أن يطلب منه أعز شيء لديه وما به يعيش ويحصل على قوته من الصيد به ، وهل يحسن أن تحرم نبيلا من أنفس شيء لديه ؟ احتارت فى أمرها ولم تدر ما ذا تجيب ابنها والتزمت الصمت ، ولكن الطفل ما فتىء مهموماً ملحاً فى طلبه ، وفى نهاية الأمر تغلب الحب البنوى على كل اعتبار وعزمت على إرضاء ولدها بأى ثمن كان وصممت أن تعرفه بأنه سينال البازى وستذهب فى طلبه وقالت له : «لا تحزن يا بنى وفكر فى شفائك وصحتك ، وأول شيء سأعمله فى الصباح هو

الذهاب لإحضار الصقر فسر الولد لهذا الوعد وتحسنت صحته فى المساء

وفى الصباح ذهبت أمه وإحدى السيدات إلى بيت فريدريك ، ولما دخلت وجدته فى الحديقة ينظمها لأن هذا اليوم لم يكن مناسباً للصيد بالبازى، وقالت للخادم أن يعلن مجيئها لتحدثه فى شأن من الشئون . تصور أيها القارىء دهش فريدرك ومفاجأته بهذا الخبر السار ، فطار من الفرح عدواً لاستقبالها، وسلم عليها بكل احترام من بعيد، فتقدمت إليه مدام جان وحيته بكل لطف وأدب ، وبعد تبادل التحية قالت له : «لقد أقبلت ياسيد فريدريك لأ كافئك على العناية التى بذلتها حينما أحببتنى حباً يزيد على المعقول، والمكافأة هى حضوري أنا والسيدة لنتناول الغداء معك » فأجابها بكل لطف وتواضع « إنني لم أخسر شيئاً قط لأجلك، بل بالعكس فانك أعددتنى لكثير من المزايا ، ولئن عرفت بشىء منها فالفضل راجع إلى العواطف التى نفحتنى بها ؛ وهذه المكرمة التى منحتنيها اليوم لجليلة جداً وقد أثلجت صدرى وشرحت فؤادي ؛ ومع أنني فقير فإنني لا أريد أن أبيع هذه المنة بثروتى التى فقدتها» وبعد هذه المجاملة اللطيفة صحبها إلى الحديقة وترك بصحبتها البستانية وصاحبتها التى أقبلت معها ، وذهب ليهيىء الطعام . وهذا النبيل الشريف لم يشعر فى حياته بقسوة وطأة الفقر مثل ما شعر بها في هذا اليوم الذى أقبلت فيه أعز الناس لديه ، وكان بوده أن يهيىء لها وليمة فاخرة ، فما باله إذا لم يجد شيئاً لديه فى هذه اللحظة الحرجة ؟ فاستشاط غضباً ولعن ثروته الضائعة وأخذ يهرول فى أنحاء البيت، والأدهى أنه لم يكن عنده درهم ولا شىء يقوّم بقيمة حتى يرهنه . ولما اقتربت ساعة الغداء حار فى أمره فوقع نظره بغتة على البازى الذى كان مطمئناً فى قفصه فصمم على تضحيته ليقدم شيئاً مناسباً للأيم التى شرفته بزيارتها ، ثم لوى عنقه ونتف ريشه ثم وضعه في النار . ولما نضج الطعام ذهب إلى الحديقة ليدعو السيدة وصاحبتها للطعام ؛ وبعد انتهاء الغداء دار حديث لطيف، ثم رأت مدام جان أن تطلع فريدريك على سر زيارتها قائلة : « أتذكر أيها السيد كل ما صنعته من صنوف العناية وحيائى الشديد الذى جعلك تظن بأننى قاسية متوحشة ، ولا أشك فى أنك تدهش حينما تعلم السبب الحقيقى الذى قادنى إليك ، ولو كان لك أولاد لكنت تعرف قوة الحنو الأمى ، وإنى واثقة أنك ستعذرنى ، ولكنك لا أولاد لك، ولى ولد واحد ولا أستطيع أن أهرب من القوانين العامة للأمهات . وهذا الذى يضطرني أن أتعدى المعقول وأخالف إرادتى وأطلب منك شيئاً أعلم أنك تعزه كثيراً لأنه أصبح لك العزاء الوحيد لضياع ثروتك وماهو إلا بازيك الذي أطلبه. إن ابنى مريض وهو تواق للحصول على الصقر وأخشى إن لم أحضره له أن يقتله الحزن ، ولذلك أتوسل إليك لا بحق الصداقة فلست مديناً لى فيها بشىء بل أتوسل إليك بطيبة قلبك وحبك للخير العام الذى لم يكذب فيه الظن قط والذى يميزك عن جميع الناس ، وسيكون

لك ابني مديناً بصحته وربما بحياته ، وستملك بهذا الصنيع قلبه وقلبي مدى الحياة »

ولما رأى فريدريك أنه لا يستطيع إرضاء هذه السيدة لأنه أطعمها ما تطلبه خنقته العبرات قبل أن يفوه برد ، فظنت السيدة أنه يبكي حزناً على فقد بازيه وكادت تغير رأيها فيه وفضلت أن تتريث إلى أن يجيب فقال لها : « إنني منذ فتنت للمرة الأولى بمحاسنك تيقنت أن الثروة كانت تناوئني في كثير من الأمور وكنت أشكو من شدة ما تفرضه على ولكن كل ما مر علىّ من بؤس وآلام لم يك شيئاً بجانب بلية اليوم ، وستترك في قرارة نفسي مرارة لا تفارقني . هل تستطيع المصائب أن تسدد إلى طعنة أفظع وأقسى من صدمة اليوم حينما أرى أنك تفضلت بزيارتي في هذا البيت الحقير مع أنك لم تتنازلي بزيارتي حينما كنت غنياً ثم تطلبين مني شيئاً لا أستطيع أن أحضره لك . ما أقساك أيها الحظ العاثر الذي ما فتىء يضطهدني . لقد تحملت بصبر جميل أصناف الرزايا والمحن ولكنني رزحت تحت هذه الصدمة إذ ليس عندي الآن بازي ، وبمجرد ما شرفتني وأظهرت رغبتك في تشريفي بالغداء معي فكرت أن أحضر غداء أرقى مما اعتاده الناس فذبحت الصقر دون تردد لمهارته العظيمة في الصيد ؛ ومن سوء حظي لم أوفق لأن أقدمه لك حياً . وبعد هذا الحديث رأى أن يقنعها بأن أحضر الرأس والريش والمخلبين

دهشت مدام جان ولامته لوماً شديداً لذبحه صقراً ثميناً ولكنها ارتاحت لهذا المثال العظيم في الكرم الحاتمي الذي لم يؤثر فيه الفقر والبؤس وقالت له : « إنني لا أنسى مدى حياتي هذه التضحية مهما كان تصرف العناية الآلهية في ولدي » . ثم استأذنت من فريدريك وانصرفت شاكرة له شرفه وحسن نواياه ، وذهبت إلى ابنها حيرى حزينة لاتدري بماذا تجيبه ، وقد اشتدت وطأة المرض عليه ومات بعد بضعة أيام وهي لا تدري إن كان الموت نشأ من شدة حزنه على البازي أو كان المرض بطبيعته قاتلاً

وقد آلمها مرض ابنها ووفاته وطفقت تبكيه عدة أيام . ثم توسل إليها إخوتها أن تتزوج لانها فتية وغنية جداً . لم تجد عندها رغبة في الزواج ، ولكن أقاربها وأصدقاءها طفقوا يلحون عليها ويحثونها ، فعاودتها الذكرى وفكرت في مكارم أخلاق فريدريك من شرف وثبات وكرم وكيف قدم لها صقراً ثميناً للغداء . ثم قالت لأقاربها : إني أستطيع أن أبقى أيما سيدة إن كان هذا يرضيكم ، ولكن احتراماً لرغبتكم لا أقبل زوجاً غير فريدريك البيريني . فصاح إخوتها بلهجة التهكم . « هل أنت جادة في قولك ؟ إننا لا نستطيع أن نتصور ذلك . هل تجهلين أن هذا النبيل أصبح في فقر مدقع ؟ »

— إنني أعلم ذلك ولكني أفضل رجلا محتاجاً إلى المال على ثروة محتاجة إلى رجل . ولما رأى إخوتها أنها مصممة ألا تتزوج غير فريدريك وأنهم لا يستطيعون أن يغالطوا أنفسهم أنه شريف

كيس صادقوا على زواجهما ، ولقد أقاموا عرساً في منتهى الفخامة

لقد صير البؤس الزوج الجديد حكيما بصيراً بعواقب الأمور فأصبح مقتصداً يدير شؤون الثروة الحديثة بحكمة وفطنة وعاش مع زوجته التي أحبها عيشة سعيدة هنيئة متمتعاً بعطفها وحنانها

محمد كامل حجاج

أمنيـــة

أقصوصة مصرية

للأديب عبد الحميد جودة السحار

تناول نجيب صحيفة الصباح وأخذ يتصفحها ، وكلما قابل مقالة قرأ عنوانها وتفرس فى اسم مؤلفها حتى انتهى من تقليب جميع صفحاتها ، ثم أخذ يستعرض الصور التى تزين الصفحتين الأولى والأخيرة ، وطوى الصحيفة ووضعها على ركبتيه وراح يفكر فى أصحاب تلك المقالات والصور ... « أليسوا بشراً مثله ؟ ولكن لم يتمتعون بتلك الشهرة العريضة على حين لا يسمع به أحد ؟ ولم لا يعمل على نشر صورته ، أو على كتابة اسمه بحروف الطباعة على الأقل؟» ثم أغمض جفنيه وراح يحلم ؛ فرأى صورته تحتل الصفحة الأولى من إحدى الصحف فشعر بنشوة وهزة ... واستغرق فى أحلامه فرأى الأعمدة الطوال تكتب من أجله ... نعم من أجله هو ... ولكن فى أى موضوع يا ترى؟ إنه لا يدرى ... ولماذا يتعب نفسه فى ذلك؟ ها هى ذى صورته ، وهذه أعمدة الصحف تفيض بذكره وكفى ...

نادى نجيب بائع الصحف واشترى منه مجلة أسبوعية وقع فيها بصره على صور بعض الفائزين فى إحدى المسابقات فراح يتأملها فى حسرة وهو يردد : « يا لحسن حظهم ! يا لحسن حظهم ! » ثم تابع القراءة ، فعثر على مسابقة جديدة وعد فيها المحرر بنشر صور الفائزين ، فأسرع نجيب لحل المسابقة واستخرج من جيبه صورة حديثة له فوضعها مع الحل فى غلاف ، بعد أن استوعب شروط المسابقة عشرات المرات ، لئلا ينسى شرطاً قد يفسد عليه الفرصة المواتية .. ثم أخذ يحصى الأيام ، ويترقب صدور المجلة على أحر من الجمر ... وقبل اليوم المشهود بأيام أوصى بائع الصحف باحضار نسخة له

نادى بائع الصحف نجيباً ، فنزل مسرعاً بقلب يخفق ، وتسلم المجلة وراح يقلب صفحاتها بلهفة ظاهرة ، حتى وقعت عينه على صور أشخاص ، ولكنه شعر بضيق شديد وألقى بالمجلة حانقاً وهو يقول :

« إذا كان نشر صورتى صعباً فلا أظن كتابة اسمى تحت مقال بهذه الصعوبة » ثم تناول قلماً وورقاً وراح يقدح زناد فكره ، فلم يسعفه فكره ، فتناول صحيفة يستمد منها العون ، فوقع بصره على عنوان « حكم وأمثال » فقال فى نفسه : « لم لا أجمع حكما وأمثالا أضع تحتها اسمى كما فعل صاحبنا ؟ » وبعد لأى وفق إلى جمع مثلين اثنين وحكمة واحدة ، أضاف إليهما من عنده : « الصبر مفتاح الفرج » وأرسل كل ذلك إلى إدارة تلك الصحيفة

وشاء ربك أن تظهر الحكم والأمثال مذيلة بامضاء « نجيب » فطار فرحاً وابتاع عدة نسخ صار يوزعها على الأقارب والأصدقاء ، وأسرع إلى مكتب البريد وأرسل إلى أخيه الموظف بواد مدنى نسخة ، بعد أن وضع حول حكمه إطاراً وسوّد كل ما عداها ... لو كان محرر تلك الصحيفة يعلم

هوى صاحبنا لنشر له كل يوم حكمة ، فيضمن رواج صحيفته بفضل ما يقوم به نجيب أفندى من الدعاية والتوزيع

ومن ثم استمر نجيب يرسل المقالات إلى جميع الصحف والمجلات ، ولكن بدون جدوى ؛ فيئس من هذه الطريق وراح يفكر فى طرق أخرى ، كأن يترقب وفاة أحد أقربائه فيظهر اسمه فى إعلان الوفاة بين أسرة الفقيد العزيز ... ولكن الموت بَعُد عن الأقارب ومد الله فى أعمارهم نكاية به ! فكر نجيب طويلا ، فهداه تفكيره إلى تناول مادة سامة ، وبذلك يضمن ذكر اسمه فى حوادث اليوم ، فاشترى (حامض الفنيك) وخففه بالماء ، وتناول جزءاً يسيراً منه فسقط يتلوى ويصرخ . وأسرع الحلاق الجارور لمنزله فيمن أسرع وتمكن من إسعافه دون إخبار رجال الإسعاف ، زعماً منه أنه بذلك يؤدى خدمة إلى نجيب افندى . فلما أفاق نجيب أوسع الحلاق سباً وشتما وقال له : « أنت مزين حقاً ، تتدخل فيما لا يعنيك ! » . ومنذ يومئذ يكره هذا الحلاق الثقيل الذى فوت عليه فرصة ذهبية !

وحدث أن سافر إلى الاسكندرية ، وجلس على الشاطئ فى يوم هاج فيه البحر ورفعت الراية السوداء ، وأخذ يتأمل الأمواج المتلاطمة وهى تتكسر على الشاطئ ، ثم رفع رأسه فرأى فتاة طائشة استخفت بالموت ونزلت إلى البحر وراحت تسبح بغرور إلى بعيد ، وفجأة علا صراخها تطلب الغوث ... ها هى الفرصة تسنح ... هيا أيها البطل واغتنمها ... ولكنه وا أسفا لا يعرف السباحة . وقف على الشاطئ والأسى يهصر قلبه ... لا على الفتاة المسكينة ، بل على الفرصة السانحة التى لم يهيئ نفسه لاستغلالها . أسرع عامل الإنقاذ وعاد بها إلى الشاطئ ؛ وكان أحد مصورى المجلات يتجول هناك فأراد أن يلتقط صورة العامل فجاء نجيب يتمسح حتى وقف إلى جواره وهو يردد فى نفسه : « شىء خير من لا شىء » ؛ وواظب نجيب على شراء كل المجلات ولكن الصورة لم تظهر

وبينما هو يتصفح إحدى المجلات قرأ : «أهدى الوجيه إبراهيم ... إلى الراقصة جميلة ... قرطاً من الماس ... » فتعجب فى نفسه : كيف لم يهتد إلى ذلك قبل الآن ؟ إن التعرف إلى راقصة وإغراقها بالهدايا يجعل المجلات تردد اسمه . ألم تذكر المجلات اسم إبراهيم ... لأنه أهدى إلى راقصة قرطاً من الماس ؟ فما بالك لو أهدى إليها أقراطاً وأساور وغيرها ... ؟ نعم سيهدى إلى جميلة الهدايا التى ستذكرها المجلات كما ستذكر اسم الوجيه نجيب ومنافسته لإبراهيم

تودّد نجيب إلى الراقصة ، فتوطدت العلائق بينهما ، وصارا يظهران فى شارع عماد الدين معاً ، ويقضيان الليالى فى الحانات ودور اللهو . وتطورت العلاقة على الأيام وأحب نجيب جميلة حباً جارفاً ، وراح ينفق عليها ببذخ ، فتدهورت حاله ولم يعد يستطيع مواصلة الانفاق ، فأصبح كلما ذهب لزيارتها أعلمت خادمها بغيابها ، وكلما لقيها ازورت عنه . إلى أن لقيها ذات ليلة بعد انتهاء الرقص فأخذ يبثها غرامه ، فسخرت منه ، فثار وهدد ، لكنها لم تأبه له وابتعدت ساخرة

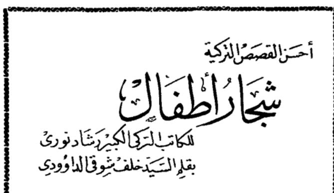
أظلمت الدنيا فى عينيه ، وشعر بالدم يفور فى عروقه ، فاستل مدية وجرى خلفها وطعنها طعنة أعقبتها صرخة شقت الفضاء وسقطت مضرجة بدمائها

وأقفل وراءه باب السجن ، ورأى نفسه وحيداً فى الظلام ، فأخفى وجهه بين راحتيه ، وأخذت

الصور تتتابع فى مخيلته مراعاً ، فكان يرى أطوار حياته يتلو بعضها بعضاً إلى أن رأى جنايته وكيف أقدم على ارتكابها ، فتقلصت عضلات وجهه ، ثم فكر فى الغد المظلم ، وما يخبئه له من عذاب ، فتململ ، وفجأة تذكر الصحف ... نعم ، ستكتب الصحف عنه ... !

والتمعت فى عينيه ابتسامة ... وا أسفا ! لقد دفع الثمن غالياً ، ولكنه ظفر فى النهاية . ستنشر الصحف صورته بلا ريب ، وستتحدث عنه كثيراً وتنشر المقالات الضافية ، ولكنه دفع الثمن حريته وحياته ... !

عبد الحميد جودة السحار



— إذن ستعودين في قطار المساء ! مع أني كنت أتوقع أن تبقى عندنا يومين أو ثلاثة . وكم كنت مسرورة لذلك ! فاذا بك مسافرة هكذا على عجل

— معاذ الله ! أنا أبقى هنا ؟ ولو بقيت لا سمح الله فلا بد لي من أحد أمرين إما الموت وإما الجنون

— وما ذا أقول أنا ؟ ألست ذات روح ؟

— لا ، ولكنك لا تملكين عقلاً تدركين به ! وإلا فكيف تستطيع الواحدة صبراً على هذه الحياة الموحشة واستانبول على مقربة منها ؟ وأين تلك الملاهي والمراقص ودور السينما والحدائق الغناء من هـذه الحياة القفرة في ذرى الجبال وبين أكوام الثلوج وبطون الوديان ؟

— لا تقولي هذا يا عزيزتي (فرخندة) ! ولا تكثري اللوم ! فأنا لست قانعة بهذه الحياة المملة ولا راضية عنها ، ولكن ما العمل و « الحاجة » هي التي تحملني على ذلك ؟

— كلام فارغ ... متى ضاقت مدينة « فروق » الكبيرة بك وبزوجك حتى تضطرا إلى السكنى في هذه البقاع البعيدة والصقع الموحش !

— دعك من هذا المزاح يافرخندة إنك تتجاهلين حالنا ! وإلا فانك تهرفين بما لا تعرفين ! إنك لا تعرفين الحاجة بل الفقر المدقع ، وإذا كنت تجهلين حالنا فاعلمي أنه على أثر خروج زوجي من وظيفته جعل الدائنون يطالبون بمالهم علينا يريدونه دفعة واحدة ... فأصبحنا بين عشية وضحاها عاجزين عن دفع كراء الدار التي نسكنها

— أنا لا أجهل ذلك . لقد أخطأت في زواجك من هذا الكهل المتقاعد . لا أدري أية ميزة له أطمعتك فيه ؟ أجماله أم ماله ؟ أحسبه أم نسبه ! أمركزه أم وظيفته ؟ إنه ليس سوى كهل متقاعد قارب العقد الخامس من العمر . فلا مال ولا جمال ! وعدا هذا لديه ابنة من زوجه الأولى المتوفاة .

— أسكتي بالله عليك . . فأنا أيضاً لست صغيرة ! ولدي من زوجي الأول بنتان لا واحدة

— أنت لم تبلغي خمسة وعشرين عاماً بعدوأنت جميلة كالوردة ! ولو لم يتزوجك هذا الرجل لكان هنالك العشرات ممن هم خير منه يتقدمون إليك لترضى بأحدهم بعلا ويكرمون ابنتيك من أجلك ! وهذا السأم الذي تشعرين به بل هذه الحسرة التي استولت على حواسك إنما هي من نتائج رعونتك ! وعند ما ننصت نحن إلى نغمات الموسيقى وأنغام الجازبند في ملاهي استانبول تنصتين أنت إلى طنين الذباب في النهار وعواء الكلاب في الليل

***

(١) نقلا من مجموعة (أحسن القصص التركية) لعام ٩٢٧ نشرت لأول مرة في مجلة «الهلال المصور الرسمي آي» التركية التي تصدر في الآستانة

كانت هذه المحاورة تدور بين أختين فى الرضاعة وقريبتين من بعيد ، قضتا أعوام طفولتهما باللعب معاً، وبعدها دخلتا مدرسة واحدة . ولما أصبحتا على أبواب الزواج تقدم « معلم عود » إلى فرخندة فتزوجها بحب ، وها هى ذى سعيدة بزواجها تقضى أوقات فارغها فى مشاهدة الروايات السينمائيـة والمراقص وتحيا حياة عصرية

أما ناجية هانم فلم تكن ذات حظ سعيد كأختها إذ أنها تزوجت من ميكانيكى ظهر أنه غير كفؤ لها، وأنه مقامر سكير ، وبعد أن قضت معه ثلاثة أعوام بالشجار والجدال طلقهـا وفر هارباً مع احدى الراقصات إلى سورية ! ولقد أثرت هذه المصيبة تأثيراً سيئاً وكبيراً فى ناجية هانم ولقنتها دروساً فى الحياة كان من أثرها أنها لم تبال بما كان يتظاهر لها به أحد شباب الجيران من حب، وبما كان يحاول به لفت نظرها من غناء وضرب على العود ! وفضلت الزواج من كهل يدعى على رضا عضو محكمة على الشاب المدله بحبها ...

أما هـذا البيت « المقفر » « الموحش » كما وصفته السيدة فرخنده فلم يكن سوى بيت ريفى واقع فى حديقة كبيرة وفى معزل عن البلدة اضطر على رضا إلى سكناه على أثر إحالته إلى التقاعد لأسباب اقتصـادية وجعل يقضى أوقاته فى حرث الأرض وزرعها .

وبينما كانت الأختان تتجاذبان أطراف الحديث كان الأطفال يلهون ويلعبون فى أقصى الحديقـة وصراخهم يكاد يصم الآذان ، وهم فرحون جذلون على ما يظهر من أصواتهم وألفاظهم . ولـكن سرعان ما تبدلت أفراحهم أتراحاً وانقلب سرورهم إلى شجار ... ولو استرق السمع أحد لسمع صوتاً رقيقاً يدل على أن صاحبه يجهش بالبكاء .. ولقد أثار هذا الصوت غضب السيدة ناجية وأثار أعصابها ، وكانت قد حركتها ذكرى السينما والملاهى والمسارح والمراقص فى الآستانة ، فقامت من مكانها مقطبة الجبين والحاجبين وهي تقول :

« الحق أننى أهضم كل شيء هنا ، وليس لدى ما أشكو منه ، ولا يضيرنى الفقر كما أنى لا أشكو من كبر سن زوجى ، ولـكن الذى لا أستطيع الصبر عليه هو هـذه الفتاة « باكيزة » ابنة زوجى .. إنها سترى بأولادى السل بما تسببه لهم من هم وغم .. من يدرى ماذا صنعت بهم حتى حملتهم على الصراخ »

لم تكن باكيزة غير طفلة فى العام الثامن من أعوام حياتها .. لقد كانت جدتها تكفلها إلى ماقبل ستة أشهر، لـكن العجوز المسكينة توفيت بذات الرئة فاضطر أبوها إلى أخذها عنده ..

لم ينقطع صوت بكاء الطفـلة فلم تستطـع ناجية هانم الصبر فقامت غاضبة إلى شجرة جوز كبير حيث اتخذ الأطفال من ساقيها أرجوحة يلعبون بها ويقضون فيها أوقاتهم . وكانوا مجتمعين تحت ظل الشجرة الوارف .. لقـد كانوا أربعة أو خمسة أطفال بينهم فتاة فى السادسة من عمرها تبكى من دونهم ، وكان التراب الذى يعلو وجهها يختلط بدموعها وينحدر على خديها تاركاً آثاراً تشبه السواقى الصغيرة .

ما الذى صنعته بالأولاد أيتها الحية الرقطاء ؟!

هكذا قالت السيدة ناجية هانم تخاطب ابنة زوجها قبل أن تتحقق من منهم المتدى ؛ مما يدل على رسوخ الاعتقاد فى مخيلتها بذنب الفتاة إن صدقاً وإن كذباً .. قالت لها ذلك وهى واقفة أمامها ويداها فى خاصرتها محدقة فيها النظر تريد منها جواباً ! أما با كيزة فلم تجب بغير رفع حاجبيها بامتعاض نافية صدور ذنب منها ! ولقد حمل هذا الطفلة (آفسر) على التعلق بأذيال أمها والتشكى لها من با كيزة واتهامها بعدم هزها فى الأرجوحة :

« أماه احملى هذه الصبية المنحوسة على أن تهزنى فى الأرجوحة » قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المصطنع ..

— هزى أختك قليلا ياهذه ! . ما الذى يضرك ؟ .

— ... ...

— الظاهر أن ذلك يمس كبرياء الهانم ! ؟

— ... ...

— ولكنك تعرفين ارتداء الملابس التى أصنعها لك بإذابة نور عينى وتعرفين أكل الأطعمة التى أقضى الساعات الطوال فى إعدادها لك ؟ !

— ... ...

لم تكن السيدة ناجية هانم تقول ذلك بلهجة أم تؤنب ابنتها ، بل بلهجة عدو منتقم يصدر أوامره الى عدو من أعدائه الألداء أوقعه سوء طالعه تحت أمره .

كان وجه السيدة ناجية يحاكى وجوه الأموات باصفراره عند مامدت يدها الى طفلتها وحملتها لتجلسها على الأرجوحة .. ولما أتمت ذلك أمسكت بطرف الحبل وأدنته من ابنة زوجها اليتيمة وصاحت بهـا تأمرها أن تهز الطفلة أختها . .

أدركت با كيزة أنها ستنال ضرباً مبرحاً من زوجة أبيها إن لم تهز أختها ، فأطاعت مكرهة ومدت يدها بحركة آلية الى الحبل فأخذته من يدها وشرعت تجره وتهز الأرجوحة والدموع تترقرق فى مآقيها . وكاد الأمر يقف عند هـذا الحد لولا حادث بسيط . فقد وقعت الطفلة « أفسر » من على الأرجوحة وبان على شفتيها أثر دم ! . ومع أن الوقعة كانت قضاء وقدراً الا أن ناجية هانم إعتقدت كل الاعتقاد أن ذلك لم يكن إلا إنتقاماً وتشفياً من با كيزة .. فقامت القيامة وفار التنور ... وأخذت تولول وتثور وتهددها بعظائم الأمور .

***

عاد على رضا بك بعد الحادث بقليل إلى داره وكان أول ما بادرته به زوجه الشكوى من ابنته . فقال لهـا :

« رويدك ! لا تهتمى كثيراً فانا أعرف أن جدتها ربتها تربية سيئة وأنها الآن بحاجة الى من يربيها تربية صحيحة » قال ذلك وصاح بابنته بصوت أجش .. فجاءته خائفة وجلست وهى تعلم مايضمره لهـا أبوها . فأمسكها من يدها كما يمسك الشرطى بيد المجرم وذهب بها الى شجرة الجوز الكبيرة وأوقفها أمامه يحاكمها كما يحاكم المجرمون . . . جلس على رضا قبالة ابنته با كيزة .. وجعل يمثل الدور الذى كان يقوم به لما كان عضواً فى المحكمة وشرع يحقق مع باكيزة بتلك الروح : روح « المستنطق » القديم . أجل إنه كان كحاكم حقيقى فى هذه الساعة .. أمامه « متهمة » وهنالك مدع . أما « التهمة » الموجهة اليها فتنحصر فى :

« تمددها إسقاط أختها الصغيرة من الأرجوحة وتسببها فى جرح شفتيها » وأخيراً صاح بالمتهمة الصغيرة بصوت خشن يقول :

— أتعجبك هذه الأعمال ؟

— ... ...

— لقد أصبحت فتاة مراهقة وفى الثامنة من عمرك فهلا استحيت قليلاً ؟ وهل تعامل الأخت أختها هذه المعاملة ؟

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان ، ولكن لم يمر أسبوع من الأشهر الستة التى حلت فيها عندنا دون شكوى أمك منك ... رحم الله جدتك ... يظهر أنها كانت تاركة لك الحبل على الغارب ولم تردعك عن هذه الوقاحات وأمثالها ... والآن لنترك ما مضى إلى ما مضى ... وهيا عدينى بأنك سوف لا تعيدين سيرتك الأولى وستكونين ساكنة هادئة راضية مرضية مطيعة أوامر أمك تفعلين ما تؤمرين

لم تجب باكيزة أباها . وكل ما فعلته أنها رفعت حاجبيها الكثيفين ونكست رأسها إلى الأرض بذل وانكسار شأن اليتامى . أما وجهها فقد كان يصعب تبين اللون الذى كساه لظلمة المساء التى سادت

لقد فسر على رضا بك الوالد هـذا السكوت بالعصيان ... فزاد ذلك فى حنق الحاكم القديم وحدته فما كان منه إلا أن مد يده إلى الفتاة وأمسكها من كتفها الأيسر وهزها هزاً عنيفاً وصاح بها والغيظ آخذ منه مأخذه :

— إنى أكلمك يا شريرة ، فلم لا تجيبيننى ؟ وهل أصبحت صماء بكماء !

عند ذلك رفعت باكيزة رأسها وعيناها ممتلئتان بالدموع وقالت :

« إنى لم أعص أمى أبداً فلقد كنت أعمل كل ما تأمرنى به ، وفوق هذا ألاحظ إخوتى وأخواتى كأحد الخدم ... وإننى لم أقم بأية حركة تدعو إلى الشكوى ؛ ولكن مع هذا كله لا ترضى عنى ولا أدرى ما الذى أعمله حتى أجلب رضاها ... ؟ »

قالت باكيزة ذلك وهى ترفع يديها نحو أبيهـا مسترحمة سائلة أن يدلها على طريقة لإرضاء زوجه والدموع تسيل على خديها ... « إنهم يعتدون على ويضربوننى أشد الضرب ... ولكنى لم أشتكهم إليك ، وسوف لا أشتكى لأنى أعلم أنك لن تصغى إلى شكواى ! » وأردفت قولها هذا بالكشف عن ذراعيها وصدرها ورقبتها وطلبت من أبيها أن ينظر إلى آثار العصى والضرب المبرح الذى كانت تتلقاه من أخواتها وأمهن . وشكت إلى أبيها ما تقاسيه من ظلم أخواتها اللواتى أصبحن ألد أعدائها مقلدات أمهن ! وكيف أنهن يعاملنها معاملة ظالمة : « إنهن منعننى من الجلوس فى الأرجوحة ... لا لسبب سوى أننى أهز نفسى فى الهواء عالياً أكثر منهن ! لقد أبحن الجلوس فى الأرجوحة لجميع بنات المحلة إلا إياى ... زيادة فى النكاية بي ! . وكلما حاولت التقرب من الأرجوحة يهاجمننى بالعصى والحجارة والسب والشتم ... وفوق كل هـذا يأمرننى بهز البنات الغريبات ، والويل لى إن رفضت لهن أمراً ! هذا قليل مما أقاسيه من الأطفال وأمهن كل يوم ... لقد كنت أتلقى كل هذه المعاملات وأنا

صابرة ولم أنبس ببنت شفة لئلا أسبب لك آلاماً بل كنت أكتمها عنك ... ولكن يظهر أن كل هذا لم يبرد لهم غليلاً فأرادوا أن يزيدوا فى الإيقاع والتنكيل بى فوشوا بى إليك ... »

كان على رضا بك ينصت إلى ابنته باكيزة وهو يكاد يتميز من الغيظ من هول ما يسمع ... ولقد لام نفسه لوماً شديداً لعدم اتصاله بفتاته باكيزة كل هذه المدة ... رفع بصره إليها فخيل إليه أنه لا يرى طفلة فى الثامنة من عمرها ، وإنما يرى سيدة رزينة عاقلة ، ورأى عينيها السوداوين تفيضان بالدموع كما يفيض الينبوع بالماء . لقد رأى من بين أهدابها الطويلة المبللة بالدموع صورة أمها المرحومة تبتسم وهى ترنو إليه بعينيها الجميلتين

كيف ذهبت عن باله باكيزة ؟ ... كيف قصر فى السؤال عنها والدفاع عن حقوقها وهو الذى سلخ ثلاثين عاماً من حياته فى الدفاع عن المظلوم وإحقاق الحق وردع المتدين ؟ وكيف يجوز لرجل كعلى رضا بك أن يغض الطرف عن هذه الاعتداءات التى وقعت على ابنته ؟ !

لقد انتبه ضمير الحاكم السابق ، وامتزج بالحنان الأبوى الذى لا يصبر على حيف يلحق بثمرة فؤاده . فنظر إلى ابنته وهو يحاول أن يخفف من التأثير الكبير الذى استولى عليه وراح يدمدم ويكرر ما قالته له قبل لحظة :

« وسوف لا أشتكى لك لأني أعلم أنك لن تصغي إلى شكواى ! »

إن هذا ليس بصحيح يا بنيتى . من قال إن الآباء لا يستمعون إلى شكوى أبنائهم ؟ إن هذا هراء ! !

ضحكت الطفلة عندما رأت أباها يتأثر لمصابها .

وقالت : كانت جدتى المرحومة تقول لى دائماً :

« تعتبر إحدى عينى الأب عمياء فى حياة الأم ، أما بعد وفاتها فيصبح أعمى ولو كان بصيراً .. »

وأما سبب عدم بث شكواى إليك يا أبت فهو أننى لم أشأ أن أسبب لك آلاماً . وهب أنى فاتحتك بكل هذه الاعتداءات فماذا تستطيع أن تصنع ؟ ..

كان على رضا محنياً رأسه إلى الأمام ينظر إلى الأرض غارقاً فى بحر عميق من التفكر ... لقد تصور حياته التى يحياها مع زوجه الثانية ، وكيف كان ضعيفاً أمامها ضعفاً لا يكون إلا من الذين قد تجاوزوا سن الكهولة ، ضعفاً هو أقرب إلى الذل منه إلى الضعف ، وكأن باكيزة الطفلة قد أدركت هذا الضعف فى أبيها عندما قالت :

«وأنت ماذا تستطيع أن تصنع ؟» ولكن لا ، إن هذا الموظف المدنى القديم لا يشبه غيره من الرجال ... وليس من الذين يقبلون أن يحيوا فى ذل وخنوع واستكانة وعبودية، فقرر لساعته أن ينفض عنه غبار الذل . والتفت إلى ابنته وقال لها وفى نبرات صوته حزم ظاهر :

— اسمعى يا بنيتى ! إننى أنا أبوك ، فلا تيأسى ولا تخافى ولا تحزنى ! لن يعتدى عليك أحد بعد اليوم . قال ذلك ومد يده إلى الطفلة ورفعها فى الهواء يلاطفها ، ومن ثم أدناها من فمه يقبلها وهو يتفرس فى عينيها يتخيل فيهما صورة زوجه ويطلب منها العفو على ما فرط منه فى جنب ابنتها باكيزة .

***

لقد انقلب على رضا بك فى ثوان معدودات إلى

شخص آخر فلقد تبدلت معاملته لزوجته وتغير حاله مع ابنته باكيزه . طلب من جميع من في البيت أن تعامل باكيزه معاملة ممتازة كما لو كانت أميرة صغيرة . لقد جعل يسأل ابنته مساء كل يوم عند عودته إلى البيت عما إذا كان قد اعتدى عليها أحد فى غيابه . لقد كان يريد أن يقف منها على كل صغيرة وكبيرة تخصها ... وعندما يبلغ مسامعه وقوع اعتداء عليها أو أن أحداً تطاول عليها باللسان تقوم قيامته وينهال على زوجه وبناتها لوماً وتأنيباً وضرباً إذا اقتضى الأمر

لكن هذا الحال لم يدم طويلا فلقد ضاقت ناجية هانم بهذه الحياة ذرعاً ولم يبق فى قوس صبرها منزع فتصادمت مع زوجها وتشاجرا وتقاذفا بأنواع السب والشتم ! ومرة بلغ الجدال بينهما حداً لم تطق معه صبراً فأغمى عليها من شدة التأثر وأخيراً قرّرا الفراق بالطلاق

***

كانت آخر ليلة من ليالى ناجية هانم فى البيت ، فهذا الأثاث مرفوع وهذه الملابس قد حفظت فى الصناديق ، ويسود البيت سكون يشبه سكون المقابر

كلاهما مصران على الفراق .. فالسيدة ناجية قد قررت مغادرة البيت مع طفلها إلى « استامبول » وكانت ملامحها لا تدل على رغبتها فى هذا الفراق ، أما على رضا بك فكان وجهه أشد اصفراراً من وجوه الموتى .. وعيناه غائرتين فى المحاجر .. ها هو ذا يقطع الحديقة ذهاباً وإياباً لا يستقر على حال من القلق .. فهو لم يدخل غرفة نومه إلى قبيل الفجر . ولقد حمله فرط يأسه على الاضطجاع على الأريكة وقضاء ليله عليها بدلا من السرير

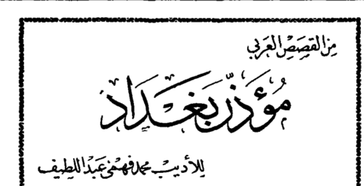
وهذه باكيزة قد انكمشت فى جلدها — كمن ارتكب ذنباً يخاف العقاب عليه — وقبعت فى مكانها خائفة وجلة غير جاهلة بأنها سبب كل هذه «الزوبعة» التى ثارت فى البيت فهدمت أركانه ...

لم يغمض لها جفن طول الليل . ولما انبلج الفجر بنوره ولاح ، نزلت إلى الطابق الأول ومرّت فى طريقها بغرفة أبيها وكان لا يزال مضطجعاً على الأريكة غارقاً فى منامه . فنظرت إليه نظرة كلها حبٌّ وامتنان وتذكرت أنه قد قام بحقها وضحى براحته فى سبيلها ، وتذكرت أنها وإن كانت ابنته وأنه يحبها حباً جماً إلا أنه سوف يتأثر جداً لفراق امرأته . . وربما لا يتحمل آلام الفراق ...

لقد أراح النوم على رضا بك فذهب عنه الغضب فانبسط وجهه وكان المتأمل يرى فيه الاضطراب والألم الممض ...

وقفت باكيزة تفكر ... وبعد التفكير العميق قرّرت فى نفسها أن تعمل من أجل راحة أبيها فتختفى عن الأنظار حفظاً لأركان هذا البيت من الانهيار وإكراماً لأبيها ... فدخلت إلى الغرفة تمشى على أصابع رجليها حذراً من أن توقظ أباها ، فقبلت جبينه وغابت عن الأبصار ... ولم يقفوا لها على أثر حتى كان اليوم الثالث من اختفائها ... ففى ذلك اليوم ، وجدوا جثتها فى بئر مهجورة قرب قصر قديم ... لقد شاهدوا صخرة كبيرة مربوطة فى عنقها بثوبها ، واتضح لهم أنها تعمدت ربط هذه الصخرة بيدها خوفاً من أن يكون الماء ضحضاحاً فلا يكفى لقتلها ...

المسيب — «العراق» ع . شوقى الداوودى



حدّث عنه أحد الذين انتهى إليهم خبره قال:

لقد كان حميد السيرة، واضح السريرة، اسمه «صالح» وهو اسم وقع على معناه، واتصل بمسماه، فما عهد الناس عليه إلا التقى والصلاح، ولا عرفوا عنه إلا الورع والاخلاص، وما رأوه إلا قائماً فى المحراب يدعو الله، أو على سطح المسجد ينادى لله

كان يؤدى واجب الآذان فى مسجد بغداد العظيمة، وكان ندى الصوت عذب النبرات، حلو المقاطع قويها، يخرج نَفَسه من نَفْسه، وينبعث صوته من قلبه، فكان طمأنينة للعابد، ورهبة للجاحد، وزجراً للمفرط. وأكثر ما كان يتضح فيه ذلك ويظهر إذا ما هب مع نسيم الفجر البليل والكون خاشع منصت، حتى لقد كان يخشاه أولئك الساهرون فى بغداد على الكأس والساهرون بانتهاب اللذات، فاذا ما الليل ضربه ذنب السرحان نهضوا عن مجالسهم قبل أن يدركهم «صالح المؤذن» فيفزعهم «بندائه» لله، على ما فرطوا فى جنب الله!

ولقد سلخ فى أداء مهمته أربعين عاماً كاملة، فظل هو هو على ما عرفته مهمته من أول يوم وفاء وإخلاصاً، ما ونى ولا أهمل، ولا أخل بواجب المهنة وما يليق لها من مظاهر الجلال والورع، وكأنى به ما كان يستطيع أن يحيد عن ذلك، فقد استغرقت المهنة شعوره، واستبدت بعواطفه، وطبعته على غرارها فى ميوله ورغباته، وصقلته على هواها فى سماته وتقاسيمه، فكنت إذا ما اشتملته بنظرة، ثبت فى قرارة نفسك أن هذا الرجل إنما يعيش عيش الصالحين، وينهج نهج الزاهدين، فكنت تقدر له نهاية شريفة، وخاتمة حميدة، وآخرة حافلة بالأجر والثواب

ولقد كان أهل بغداد يقدرون له هذه النهاية، ولكن للقدر تقديراً هو النافذ، وقد شاء الله أن تكون نهاية هذا الرجل الصالح نهاية الآثم الفاجر، وخاتمته خاتمة المرتد الكافر، فانه لفى يوم وقد ارتقى سطح المسجد ينادى على الصلاة الوسطى كعادته، وكان قد سكن بجوار المسجد نصرانى هبط المدينة منذ أيام، فلمح ابنة ذلك النصرانى على سطح المنزل وكأنها طلعة الصبح، أو فلقة القمر، فأخذته رقتها وفتنته خفتها، فانتهى من أذانه وهو يتحدث بصنع الله الجميل، ويلهج بذكر الحور العين. فلما صعد للأذان فى اليوم الثانى كان من حظه أن رآها كما رآها فى اليوم الأول، وقد عمل فى قلبه أن رآها تهش لرؤيته، وتبتسم لنظرته. ومضت أيام تكلمت فيها العيون وخفقت القلوب، وتيقظت العواطف، وأحس الرجل باحساس غريب يدخل على قلبه، وشعر بطائف يجول بين جوانحه، واعتراه مثل الذهول فكنت تراه حالم النظر، سادر الفكر، شارد اللب. حتى لقد انصرف باله عن المحراب وقل جهده فى الطاعة وصار كل وقته يقضيه على سطح

(١) هذه القصة حقيقة فى كتب الأدب وقد توسعنا فى وضع حوارها على ما تخيلناه

المسجد يرقب طلعة صاحبته ، ولقد كان يؤدي واجب الأذان فما يدري أأداه على التمام أم قصر ، وهل تحرى فيه الوقت أم تأخر ، فكان كما يقول القائل :

وأصلي فأغلط الدهر فيما بين سبع وأربع وثمان
ومواقيت جئتها لست أدري ما أذان موقت من أذان

وفي ليلة من الليالي ، انطلق الرجل على سجيته وانفلت مع طبعه ، واستكان لغريزته ، فتربص حتى سكنت نأمة الناس ، وأيقن بخلو المنزل إلا من فتاته فدلف إليها في وناء واحتراس ، حتى وافاها موافاة المهجور للواحة الظليلة .. وقال الرجل فيما قال لفتاته : ها هو ذا جسمي قد انتقل إليك بعد أن عصفت بقلبي ، وسلبت روحي ، وسلبتني اللب والرشاد ، وما أحسبني منتفعاً بنفسي إذا ما تحطم أملي عندك وخاب رجائي فيك . فيا مُنى النفس ، ويا ربيع القلب ، ويا مجال الهوى ، ويا مسلاة الكئيب ، ارحمي صباً قد نمذب في هواك

واستيقني أن قد كلفت بكم ثم افعلي ما شئت عن علم

قالت الفتاة : أهكذا أنتم يا أهل الأمانات ! ! تخدعون الناس بظواهركم ومظاهركم ، وما أنتم من وراء هذه الظواهر والمظاهر إلا نفوساً مرتطمة بأوحال الرذيلة ، وأقذار الشر . لقد غششت الناس في حقيقتك يادعي الصلاح ! فحسبوك في كثير من صفاء الروح ، وطهارة النفس ، ولو تكشف لهم باطنك لرأوا فيك أخا الشيطان ، ولعلموا أن ذلك الصوت الذي ينطلق باسم الله فيحضهم على البر ، ويهيب بهم إلى الطاعة ، ليس إلا صوت منافق ، أولى به أن يكون واعظ نفسه ، وزاجر قلبه ، فلا يخف إلى مضجع الفتاة الشريفة في غير مبالاة ولا حرج ، كأنه قد أمن الرقيب ، واستخف بالحامي ، ونسي الله ...

قال الرجل: مهلاً يا فتاتي ، فما جئت إلا على وعدٍ من ناظريك ، وما أحسبني أذنبت إذا كان قلبي قد سمع النداء فلبى ، وإني لأحس أنك تبادلينني عاطفة بعاطفة ، وشعوراً بشعور . ولقد انطلق لسانك بنقيصتي وهي نقيصة لا أقبلها منك إقراراً للحق ، وإن كنت أرضاها إشباعاً لرغبة الدلال فيك ، فالدلال من شيم الحسان ، والدلال كما يقولون هو روح الحب به يحيا وبه يدوم ، وكل ما أرجو ألا يكون كلامك عن عقيدة ، فمعاذ الله أن أطلب في حبك شهوة البدن ، أو رغبة الجسد ، ولكني أطمع أن تصلي بين قلبي وقلبك ، وأن تمتى روحي بروحك ، وأن تغمريني بفيض رضاك وعطفك

نصيبك من قلبي كما قد عهدته وما لي بحمد الله منك نصيب
وما أدعي إلا اكتفاء بنظرة إليك ودعوى العاشقين ضروب

قالت الفتاة : كأنك قد فهمت خاطر نفسي ، فأنا ما أردت إلا اختبار هواك ، ولن يريبني منك أكنت تكتفي بالنظرة ، أم كنت على مذهب « فتى قريش[1] » في العبث والفتك ، فقديماً قال صاحبكم :

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

ولكن قل لي بربك : كيف أستطيع أن أقرب بين قلبين باعدت بينهما العقيدة ، وأن أمزج روحين فرق بينهما الدين ، وكيف يمكن أن أبادلك ما تريد

(١) هو عمر بن أبي ربيعة

من عواطف الغرام ، وأنت تعلم أن الحب والعقيدة صنوان ينبتان فى جذر القلب ، ويستويان على الصدق والإخلاص ، فمن الواجب أن يكونا على غرار واحد من التوافق ، وفى لون واحد من الصفاء . وها أنا ذي بين يديك لك قلبي ، ولك روحى ، ولك جسمى ، ولك منى كل ما تريد فى الحب على شرط أن تكون لى على ما أرغب من العقيدة والإيمان !!

قال : وما رغبتك فى عقيدتى وإيمانى

قالت : رغبتى أن يتحد قلبانا فى الحب والإيمان ، وأن يكون اتجاهنا نحو السماء اتجاهاً متفقاً فى الشكل والصورة ، حتى إذا ما دعونا الله ، دعوناه بصوت واحد ، وبلفظ واحد ، فهات يدك لنكون على هدى المسيح حبًّا وإيماناً ، وليبارك لنا حبنا وإيماننا ، وليشملنا برعايته وحياطته ! !

قال الرجل : عفا الله عنك أيتها الفاتنة ، ولا كان علىّ من إثم قولتك ، وأرجو ألا تكونى مصرة على رغبتك ، فأنها رغبة نابية ، وأنا ما أردت أن أعرف قلبي فى الحب لأنكره فى الدين ، ولا رغبت فى قربك لأبتعد عن الله إلى هذا الحد ، ولكنى هويتك على أن الدين لله ، والحب للقلوب . فحرام عليك أن تطمسى علىّ أربعين عاماً قضيتها قائماً فى نواشىء الأسحار أدعو الله ولله ، فإذا ما نظرت إليها فى أطواء الماضى تراءت لى كأربعين خريفاً من نور تمتد إلى مثلها فى ثنايا المستقبل ؛ وإن روحى لترف فى وسط هذا النور كالفراشة صاعدة هابطة ، فرحة جذلة ، وناهيك به من نور ربّانى يغمر الجوارح ، وينفذ إلى الجوانح ، ويخف بالإنسان إلى عالم كله الطمأنينة والراحة والخلود ، فلأكن أنا أنافى عقيدتى ، وكونى أنت فى إيمانك ، ولكن سويًّا فى الحب ، قلبي وقلبك يخفقان بالشعور المتوافق ، والإحساس المتبادل ، إحساس الحب النبيل ! !

قالت الفتاة : ما كنت أعلم يا صاحبى أنك من الإصرار على عقيدتك إلى هذا الحد ، فليتك فى مثل ذلك من الإخلاص للحب الذى تزعمه ، ولكن يخيل إلى أن لسانك يقول شيئاً وقلبك يطوى شيئاً . ولو كنت كما تزعم من الغرام بى لما أبيت رغبتى . وما دمت تزعم أن الدين لله ، والحب للقلوب ، فلا يسعنى إلا أن أكون كما تحب ، على أن تعرف لقلبك حقه من المتاع واللذة ، فهيا اتبعنى إلى النافذة التى تطل على دنيا الحب وعالم الغرام ، وليست هذه النافذة إلا كأساً من بنت الكرم ، أو إن شئت فقل من رحيق الحب ، تقبلها بشفتيك ، فإذا أنت فى دنيا من النشوة والأنس والسرور ، وإذا أنا لك بروحى وقلبي وجسمي ، فما الحب إلا الروح والقلب والجسم ... وما أداة ذلك إلا الصبوة تذكيها الكأس:

ما بيننا رحم إلا إدارتهـــا
والراح حرمتها أولى من الرحم

قال : ويحك يا ماكرة ! لقد أردت لى ما هو أشنع وأفظع ، وجردت علىّ سيفاً هو أمضى وأقطع، كأنك تريدين أن يكون مثلى فى الناس كمثل ذلك الناسك الذى تحداه الشيطان بدخول صومعته ، فراهنه الناسك على أن يكون له منه ما يريد إذا استطاع ذلك . فلما كان بعد ذلك بأيام ظهر الشيطان قريباً من الصومعة فى صورة طائر مهيض الجناح ، يحاول أن يطلع فلا يقدر ، ويتحامل للنهوض فلا يستطيع ، فلما رآه الناسك انخلع قلبه شفقة عليه ،

فهم فاحتمله حتى إذا صار به إلى جوف الصومعة ، ظهر الشيطان فى صورته ، فعلم الناسك أنه غلب على أمره ولم يسعه إلا أن يجيب الشيطان إلى رهانه نخيره الشيطان بين الزنا أو القتل أو الخمر ، فقدر الناسك فى نفسه أن الخمر أخفها احتمالاً ، ورأى أنه إذا شربها فلا يضر إلا نفسه ، ولكنه لما شرب سكر ، ولما سكر عربد ، ولما عربد انطلق إلى قرية قريبة فأغوته امرأة بالزنا ففعل ، فصادفه زوجها فوكزه الناسك فقضى عليه ، ثم عاد وهو ينوء بأوزار الموبقات الثلاث : الخمر والزنا والقتل ، وكانت الخمر هى التى دفعت به إلى كل هذا ، وألقت على ظهره هذا الوزر الثقيل !

قالت الفتاة : كأنك تريد أن تدخل دنيا الحب وأنت بروح الناسك وقلب المتحنث وتزمت العابد ، نخير لك أن تعود إلى المأذنة والمحراب لا تريمهما إلى نور الدنيا ... ويعلم الله أنى ما مكرت بك ياصاح ولكنى طلبت لك أمنية المتمنى ورغبة الراغب :

وكم قالوا : تمن ! فقلت : كأس
يطوف بها قضيب من كثيب
وندمان تساقطنى حديثاً
كلحظ الحب أو غض الرقيب

قال الرجل : ماذا ؟ كلحظ الحب أو غض الرقيب ! لا ! والله إنك لأغض فى القلب والناظر ... وأمتع للنفس والخاطر ...

... وسمع صوت والدها يطرق الباب ، فنهضت الفتاة فزعة ، ونهض صاحبها مروعاً تقول: لقد ذاع السر ، ويقول : لقد انكشف الستر. وسرعان به ما دفعت إلى السطح ليختبئ ، وفتحت الباب لوالدها ليدخل ، وحسب المؤذن أنه لا بد مدرك من والد الفتاة ، فألقى بنفسه من سطح الدار يريد النجاة ، ولكنه صك الأرض صكة قوية كانت القاضية ...

وأصبح الناس من الغد وفيهم حديث المؤذن ذائع شائع ، على أنه قصد إلى ابنة النصرانى بالفاحشة فأبت عليه حتى يقول كلمة الكفر ويأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ، فكفر وأكل وشرب ، فلما دب فيه الشراب احتجزته فوق السطح حتى يحضر والدها فسقط فمات ! واحتشد الناس حول جثة الرجل فسحبوه على وجهه حتى انتهوا به إلى مزبلة كما يقول الرواة

محمد فهمى عبد اللطيف

تصويب

أخطاء مطبعية فى قصة (ليلة الوداع) فى الرواية عدد ٣٠

الصفحة	العمود	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩٤	٢	٢	شر الصواعق	شرىُ الصواعق
٢٩٥	٢	١٥	للخليفة	الخليفة
٢٩٦	١	٢٣	الرهيبة	الرهبة
٢٩٧	١	٩	التى	اللائى
٢٩٧	٢	٢٢	تبعث	تنبعث
٢٩٧	٢	٢٦	يخفق أبداً	يصفق أبداً
٢٩٩	٢	٢٦	أشرف	أشرق
٣٠٠	٢	٣	عقلت	غفلت
٣٠٠	٢	٢٤	بغية السيف	بقية السيف
٣٠١	١	٥	يضطجع فيها	يضجع فيه
٣٠٢	١	١٦	قرب	اقترب
٣٠٢	١	٢٨	من عند	عند
٣٠٣	١	٨	جبانها	صبيانها
٣٠٣	٢	١٤	صارع	ضارع

ماريوتو

للكاتب الإيطالي ماسوشيو سالرنيتانو

للأستاذ دريني خشبه

وكانت الفتاة من أسرة ساراسيني التي هي في الذؤابة من أهل المدينة فكان هذا التفاوت بين الأسرتين سبب عذابهما ونبع مأساتهما ، والهوة السحيقة التي تحول بين أطماعهما في الصلة المقدسة التي تقرب ما بين الجسمين كما قرب الحب بين الروحين

أحبها ماريوتو ماجنانللي من أعماق قلبه ، وجعلها أغنية روحه ، ومزج غرامها بدمه ، وجعل اسمها الحبيب إنجيله المقدس الذي يردده ويهتف به في يقظته وفي منامه ... ثم راح ينشدها في أنفاس الصباح ونسمات الأصيل ، ويتخيلها في لألاء النجوم وصفحة البدر ... وكلما لقيها فوق سيف البحر أرسل عليها حبه وآلامه تتوسل له تحت قدميها الجميلتين وتطلب له الشفاعة .. حتى عرفت أنه يحبها

وآنست فيه الفتاة طهارة ونقاء وصدقاً فرقت له ومالت إليه ، وجزته على دموعه وحُرَقه بابتسامة بريئة ماد لها قلبه ، وازلزل من شدة أسرها كيانه ، وفتحت له أبواب السماء يطلع منها على عالم من الحب سرمدي ، لأنه من صنع اللطيف البارئ ... سبحانه !

وباركت قلبيهما يد الله ، وأخذا يلتقيان خفية ليتعاهدا على الحب وليروياه بدموعهما ، وليقطفا من ثمره إذا أينع ... قبلة أو قبلتين ... ثم ليأخذا في حديث ألذ من قطع الروض ، وأبهى من وشيه يرف على شفاههما رفيف النسيم ، ويتدهدى من أعينهما الظامئة كأنه رُقى السحر

وكان ماريوتو من أسرة متوسطة من أهل سينا

ولا ريب أن القبلة هي أشهى ثمار الحب وأطيب جناه ، لكنها كما يقول الشعراء تلهبه ولا تطفئه .. ومن الشعراء من يدعوها رسول الأبالسة ، لأنها أول النيث ...

من أجل ذلك لم يستطع الحبيبان على هذا الهوى العذري اصطباراً ، ومن أجل ذلك صمما أن يكونا زوجين برغم ما بين الأسرتين

وكان لهما صديق راهب أو غسطي ، ما كادا يشكوان له حالهما حتى انبجست الرحمة في قلبه ، والدموع في عينيه ، وانطلق بهما من فوره إلى الكنيسة فعقد لهما واستمان على إنجاز ذلك بالكتمان. وهكذا ظل ما بينهما سرهما وسر الراهب . وهكذا تم لهما ما أبته التقاليد والطبقات . فقطفا من ثمار الجنة على غفلة من الأفعى حتى استيقظت ، فذهبت تسعى بينهما وبين الناس لتخرجهما من فردوسها الجميل .

ذلك أنه كان بين ماريوتو وبين أحد النبلاء من سادة سينا عداوة ، فاستطاع الشيطان المغيظ أن يؤجج جذوتها بالوقيعة بين الخصمين ... ولم يلبث الجدال أن صار نضالاً ... ثم تماسكا ... ثم وكزه ماريوتو فقضى عليه ...

وكان عليه بعد هذا أن يفر من الدولة أو يدفع رأسه ثمناً لجريمته ، فلبث حيناً مستخفياً عن أعين الناس ، فلما ضاعت جهود رجال الشرطة سدى فى البحث عنه صدر الحكم عليه بالنفى المؤبد ...

وقد تكلمت الدموع ساعة الوداع ، وضم الحبيب حبيبه يتنفس في صدره ، ويتزود لفراق طويل لا تنتهى مرارته ، وليس معروفاً مداه !

يا لقسوة المقادير توقظ المحبين من سبات عميق كله أحلام !

لقد راح كل منهما يرنو في عينى صاحبه المغرورقتين بالدموع ، وكلا هما بالفراق انجذب بعضهما إلى بعض فى لوعة وفى شجن ، فترف الشفاه المعذبة على الخدود المحترقة ، هائمة حائرة تلتمس العزاء ولا عزاء ، وتنشد السلوان ولا سلوان !

ولقد كان صدر أحدهما يكلم صدر صاحبه بدقات القلب وخطرات النفس ووجيب الروح ... حتى سكتت القبل ... لأنها لا تغنى فى ذلك الحال شيئاً ، وصمتت الأعين ... لأن الفراق الذى لم يكن منه بد قد حم ...

وطمأنها ماريوتو ، فذكر لها أنه نازح إلى الاسكندرية ليقيم عند عمه الثرى الغنى ، وأنه سيكتب إليها من هناك ليتصل القلبان على ذلك البعد ، ثم أكد لها أنه لا بد عائد إلى إيطاليا الجميلة وواصل وإياها حبه ، ولو كلفه ذلك حياته

وفى غمرة من الحزن ، وثورة من الأسى والفجيعة ، افترق الحبيبان ، وفي نفسيهما مرارة ، وفي حشاهما هم ووجد وألم .

* * *

وانطلق ماريوتو إلى شقيق له فكشف له عن سره ، وبثه شكواه ، وتوسل إليه أن ينشر ظل حمايته على زوجته ، وأن يكتب له عن أحوالها ، وأن يكون حارسها بالنيابة عنه ... حتى يعود .

وركب البحر إلى الاسكندرية ، فتلقاه عمه بالبشر والبشاشة ، ووجد فيه مؤنساً له فى دار الغربة ... ولما باح له ماريوتو بسره ، لم يشأ الرجل النبيل أن يثرّب عليه أو أن يعزله ، بل أذهب عنه الحزن بكلمات طيبات ، وغلا فمناه بصلاح الحال وتلافي ما وقع بينه وبين أسرة القتيل من خصومة وعداء ... ولم يكن ذلك من الجد فى شىء ، لكنه كان مبالغة فى إكرام مثوى الفتى ، الذى استطاع أن يخلب لب عمه بأسلوبه الغرامي الحزين الحنون ...

وعهد إليه عمه ببعض مهامه التجارية لتشغله قليلاً عن أحزانه ، ثم أشركه معه فى منزله الجميل على شاطىء البحر الأبيض ، فكان ماريوتو كلما فرغ من عمل النهار ، خلا إلى نفسه فى الليل ، ففتح النافذة المطلة على البحر المتيد ، وراح يتنسم أنفاسه ، ويستروح صباه ، ويقرأ من حبيبته أو يكتب إليها ، ويغسل ذلك كله بدموعه الحرار الطاهرات ، فكانت هذه اللحظات على ما فيها من ألم وما بطنت به من عذاب وهم ، أسعد لحظات حياته ، لأنها شعر الماضى وأحلامه ، تطفو على سطح الحاضر ، وتعلل بالآمال ظلام المستقبل

* * *

وتحالفت الهموم على جيانوزا فزادتها جمالاً ، وهام بها شباب المدينة هياماً جعلهم يترامون على قدميها فى كل طريق ، كما يترامى الفراش فى اللهب . وذهب كثير منهم إلى أبيها يخطبونها على أنفسهم ، ويمهرونها بكل ما يملكون ، وكان الوالد كلما كلمها فى أحدهم تعللت وانتحلت المعاذير ؛ فكان الأب الحائر يترفق بها ويتلطف ، ثم ينزل عند مشيئتها بغير ما حجة ولا برهان مبين ، ثم يصرف شباب المدينة فى حدب وفي استحياء

وهكذا ظل السر الرهيب دفيناً فى صدر الفتاة يعذبها ، ولكنه مع ذلك كان مصدر سعادتها

الباكية ، ولفتها الحزينة ، والنبع ذا الخرير الذي تختلط فيه آلام الماضي وآلام الحاضر لتثمر مخاوف المستقبل

وضاقت بها أفانين المعاذير فلم تعد تدرى ماذا تلفق منها وماذا تدع ، فلما أحست أن الشكوك أخذت تساور أباها من جراء هذا التمنع ، وأنه يلح في معرفة سرها ، قلق قلبها الخفاق ، وسدرت نفسها المستهامة ... ثم ذكرت الراهب الصغير الذى في وسعه أن يصنع كل شيء ... فانسرقت إليه ، وذكرت له ما كان من فرار ماريوتو إلى الإسكندرية وما كان من إلحاح أبيها عليها بالزواج ، وما حرصت عليه من كتمان زواجها على أبويها ، وكرهها أن تبوح به خشية ما يجر إليه من عواقب ... ثم سكبت عبراتها بين يدى القس ونثرتها على قدميه ، وتوسلت إليه أن يخلصها مما هى فيه بجرعة من السم المقدس تريحها من هموم الحياة ، وتحول بين الفضيحة وبين سرها وحبها [1]

وقد تردد الراهب أول الأمر ، لكنه سرعان أن رق للفتاة ، ولان قلبه للحبيب النازح ، فتناول كأساً روية من الخمر وجرع ما فيها ... وكأنما شرب منها شجاعة ، وعب حماسة وإقداماً ... فتهلل وجهه ، وربت على كتفى چيانوزا ، ثم وعدها عدة جميلة ، وأمرها أن تنطلق إلى ذويها فتسلس لهم فتلقاها القياد وترضى عن يختاره أبوها بعلاً لها ...

وسجدت الفتاة وشكرت له ، وانطلقت إلى دارها فتلقاها أبوها بمثل ما كان يتلقاها به كل يوم وكل ساعة ، وما كاد يكرر عرضه عليها حتى قبلته ، فطفر قلبه من الفرح ، وطبع على رأسها قبلة العطف والحنان

وذهبت فى الموعد الذى حدده لها القس ، فأعطاها زجاجة صغيرة تحوى الجرعة السحرية الهائلة ... ثم ذكر لها أنه لم يصنع لها السم الذى رغبت فيه ، بل صنع منوماً يدع شاربه فى حالة تشبه الموت لمدة ثلاثة أيام ... « فإذا حسوت هذه الجرعة وتغشاك النعاس ، وظن أهلوك أنك ميتة ، حملوك إلى قبونا لتدفنى فيه ، وسأزورك فى اليوم الثالث وأتولى إيقاظك بنفسى ، وبهذا يكون ما بينك وبينهم قد انقطع ، فتستطيعين السفر إلى الاسكندرية حيث تلقين زوجك ، وحيث تكلأ كما عين السعادة ... »

واغرورقت عينا چيانوزا بدموع علوية ، ثم قبلت يد القس ، وانطلقت إلى بيتها تحلم أحلاماً رائعة جميلة

وجلست تكتب كل ذلك لحبيبها ماريوتو ، فلما فرغت أهوت على الخطاب تلثم اسمه الحبيب في كل سطر ، وخرجت لتدفع بالخطاب إلى من يوصله إلى السفينة الشرقية ، فلما عادت ، فتحت النافذة ، وصلت صلاة قصيرة ، وتمتمت باسم ماريوتو ، ثم شربت الجرعة الثمينة ، وانطرحت فى سريرها .. وأغمضت عينيها

ودخل الخدم فى الصباح بالورد والبنفسج ورياحين الربيع لمولاتهن ، فلشد ما ذعرت قلوبهن وجفلت نفوسهن لأن سيدتهن لا تستيقظ

وأهرع أبوها وبعض ضيفه فوقفوا فوقها مسبوهين مأخوذين ، ثم استدعوا أطباء سينا فما نفع طبهم ولا أفلحت حيلهم ، بل ذهبت جميعاً أدراج الرياح

(١) يلاحظ القارئ حينما يبلغ هذا الحد من القصة ذلك الشبه الكبير بينها وبين روميو وجوليت لشاكسبير ، وقد ولد الكاتب سنة ١٤٢٠ ومات سنة ١٥٠٠ وهو بذلك قد سبق شاكسبير بحقبة كبيرة ، ثم هو أيضاً منشئ هذا الضرب من الأدب الذى استقى منه كاتب قصة جوليت لويجى داپورتو (١٤٨٦ — ١٥٢٩) التى أخذ منها شاكسبير موضوع مأساته الخالدة . وسننقل قصة لويجى لقراء الرواية بعد هذه القصة إن شاء الله . أما شاكسبير فقد كتب دراماته بين سنتى (١٥٩١ — ١٦١١)

وقرّ رأيهم على أن يتركوها حتى اليوم التالى ،
« فقد تكون نائمة بتأثير شلل فى المدة لا يزول إلا فى هذا الميعاد ! » لكن الميعاد فات ولم تستيقظ جيانوزا ، فلم يعد بد من دفنها ، لأنها ميتة ما فى ذلك شك

وخرجت جميع عذارى سينا يتهادين وراء الأران ، ويحملن أفنان الزهر إلى مقابر سانت أوجستين ... ثم عاد الجميع وكل قلوبهم حُرَق ، وملء نفوسهم أشجان وأحزان ...

وخشى الراهب أن تستيقظ جيانوزا فى ظلام الليل البهيم فتذعر ، ولا يكون من موتها لهذا السبب من بد ، فمضى إلى القبو هو ورفيق له ، ونقلا التابوت الحىّ إلى غرفته الخاصة

وحانت الساعة الموعودة ... واستيقظت جيانوزا من سباتها العميق بين يدى الراهب المفزوع ، وأخذت فى الاستعداد للرحلة ... الرحلة المنشودة إلى فردوسها المفقود ... إلى ماريوتو ... إلى الزوج العزيز الذى اقتحمت فى سبيله أصرم العقبات !

وقد دبّر لها القس ثياب راهبة . وبعد أن دعا لها بخير ، انطلقت إلى ميناء بيزا ، حيث ركبت فى سفينة متجهة إلى الاسكندرية مع كثير غيرها

وقد لعب البحر بهذه الحفنة من السفن شهوراً طويلة ، وكأنما كان ذلك لتمام المأساة . وذلك أنه لما علم جارجانو — شقيق ماريوتو — بما كان من وفاة الفتاة ، فانه أرسل إلى أخيه كتاباً طويلاً ينعيها إليه ، ويطلب له الصبر والسلوان . وقد وصل الخطاب قبل أن تصل جيانوزا ، وقبل أن يصل خطابها الذى سطرته إليه قبيل تحسيها الجرعة ... فواهاً للمحبين إذا عثر بهم الحظ ... وإذا لج بهم العثار ! !

مسكين ماريوتو ! ! لقد فض خطاب أخيه بيدين مرتجفتين ، ومتمناه أن يتلو فيه خبراً يسره ... فماذا قرأ ؟ ...

« جيانوزا ... لقد ماتت جيانوزا يا أخى ... فتجلد ... وهذه غاية كل حى ! ...

« لقد كنت أوثر ألا أبعث إليك بهذا النبأ .. لكننى اضطررت أن أفجأك بالحق ليهدأ قلبك ، وتستريح نفسك ، وليعمرهما الله بالايمان ! ... »

ولم تنحدر عبرة واحدة من عينى ماريوتو ... وأنى له أن يبكى ، وليس أعصى من الدمع فى هذه المآسى التى تزلزل النفس ، ولا تنبجس لها العين ...

وشاع فى نفسه الحزن الصامت الذى ليس أنكى منه مرارة ولا أحر وَجْداً ...

وعبثاً حاول عمه أن يواسيه ... وصمم الزوج الحزين أن يبحر من فوره إلى إيطاليا ، ليقف على ثرى حبيبته ، وليسقيه بدموعه ، وليتنشق هذا الهواء المريض الذى نشقته قبيل موتها من أجله ، وفنائها بسبيله ... ولأنه لا يليق به أن يخشى شيئاً فى سينا بعد أن قضت حبيبته ، وتحملت الأذى والهوان من أجله

وأرست السفينة فى نابلى ، وانطلق ماريوتو فى ثياب حاج إلى سينا ، واشتري آلات رأى أنها لا بد منها لينقب بها حائط القبو ، حتى يتيسر له الدخول إلى حيث تقر رفات معبودته ، فيجزيها حزناً بحزن ووفاء بوفاء ، ثم لينام جنبها إلى الأبد ، لأنه لا يطيق البقاء بعدها

واختبأ فى الكنيسة إلى أن جنه الليل ، حتى إذا نام الجميع ، وأمن أن يمتر به أحد ، أخذ فى نقب جدار القبو ، وأعمل فيه آلاته ... وقبل أن يفرغ من هذا شعر به حارس المقابر ، فنفخ فى صوره ... وظل ينفخ فيه حتى استيقظ الرهبان ، واجتمعوا عليه ... لكنه كان قد فرغ من عمله ، وانفتل داخل القبو ... وفى ظل شمعتين صفراوين

شاحبتين ، وقف على رمس ظنه رمس حبيبته
وكانت التقارير السرية قد انتشرت فى أيدى الجواسيس تعلن وصوله ... فلما قبض عليه ... وسيق إلى قضاته ... باح لهم باعتراف جامع ناجع ، وساعدته دموعه التى كان ينضح بها كلامه، فهاج شجون النظارة وفجر فى قلوبهم شآبيب الحنان ، حتى إن كثيراً من النساء وبعض أصدقائه ، عرضوا على المحكمة أن تسمح لهم بمشاركته فى جريرته ، أو إلقائها كلها على كواهلهم ، إذا كان ذلك شافعاً لإطلاق سراحه ... ولكن ... هيهات ! ... لقد زجر كبير القضاة ، وتهدد الحضور إن تدخلوا فى إجراءات العدالة ، أو اعترضوا سبيلها ... فصمتوا ... وانتهت المحاكمة ... وصدر حكم الظالمين القساة بالاعدام ! !

***

ووصلت جيانوزا بعد لأى وبعد عناء شديد إلى الاسكندرية ، وانطلقت من فورها إلى بيت العم العزيز الذى تلقاها كابنته ، وأعز الناس عليه
ولم يشأ أول الأمر أن يفجأها بسفر ماريوتو ، بل تركها تسرد عليه قصة موتها المدَّعى ، حتى إذا فرغت منها تبسم الرجل الخيِّر ، وترفق ثم ترفق ، ثم ضحك ضحكة عالية مبالغة فى ترفقه ، ثم ذكر لها أن ماريوتو قد تسلم رسالة من شقيقه ينعيها له فيها وأنه منذ ذلك اليوم لم يعد إلى البيت ، وأن أكبر ظنه أنه رحل إلى الوطن ...
يا آخر الأنباء السود ما أشأمك !
مسكينة جيانوزا ! أبعد طول النضال فى البر والبحر ، وبدلاً من أن تضم إلى صدرها المعذب حبيبها المشوق تحضر إلى الاسكندرية فيدهمها هذا النبأ ...
يا عين ! اسفحى شئونك ! ويا قلب ! لا يقف خفقانك ! ويا نفس ! تساقطى فى محيط الأحزان أنفساً !
وأخذ الشيخ يواسى جيانوزا ... ثم عرض عليها أن يرحل معها إلى نابلى ثم إلى سينا ، ليلقيا ماريوتو حياً أو ميتاً .. فاستخرطت الفتاة فى البكاء وشكرت للعم العزيز ما غمرها به من عطف ولطف
وتنكرت جيانوزا من جديد فى مسوح الرهبان ويممت شطر الشاطئ لتركب البحر فى كنف الرجل الطيب ... وهمت بهما الفلك إلى الشاطئ التوسكانى حيث أرست عند بيومبينو ... وحلت الفتاة ضيفة عزيزة على السر نيقولا ... نيقولا الغنى صاحب ڤيللا نيقولا ... عم ماريوتو ... التاجر الأسكندري ... وهى ڤيللا جميلة قريبة من سينا
وكانت نهاية الفجيعة أن ماريوتو المسكين قد نفذ فيه حكم الإعدام قبل وصول زوجته وعمه بثلاثة أيام ! !
وما ذا يكتب القلم فى هذه النهاية المشئومة ؟ !
أوه ! لقد سكب العم الطيب مواساته فى دموعه بين يدى جيانوزا ... فماذا صنعت هِيَه ؟ !
وقبلت أن تقضى البقية الباقية من حياتها المنكودة فى كسر دير !
ولم تستطع أخواتها الراهبات أن يواسينها بشىء
فذبلت جيانوزا
ولم تزل تذبل وتذوى كل يوم
ولم تفتأ تصهر قلبها ودموعها بالبكاء على ماريوتو
حتى لفظت نفسها الأخير ! دريني خشبة



لما خرج (عبد الله) من المنزل المهجور، كان الليل قد عسعس فانجابت ظلمته عن سنا السحر، والصبح قد تنفس فتضوّعت أنفاسه الناعشة في أرجاء هذا الوادي المقدّس، وكان الكون لابساً ثوب شاعر مُدَلَّه، أو عابد متبتل يغمر النفس بحسّ سماويّ لا تصل إلى الإحاطة بوصفه لغات البشر ... ولكنّ عبد الله لم يلتفت إلى شيء من ذلك، ولم يلق إليه وعيه، لأن الدنيا قد ماتت في عينيه منذ عزم على الموت وسلك سبيله ... وماذا ينفع السحر وجماله رجلاً فرغ من ذلك كله وخلفه وراءه ليستقبل حفرة الموت التي لا تضيئها أشعة الشمس، ولا يصل إليها رواء السحر؟ وماذا يرى المساول اليائس في صفاء العيون، وضحك الورد، وغناء العصافير، وهو يعلم أنه سيموت ويحتويه هذا القبر الموحش ... فلا تدري به الينابيع ولا تكفّ عن وسوستها وتغريدها، ولا يحفله الورد ولا يمسك ضحكه حزناً عليه، ولا تأبه له الطيور ولا تقطع من أجله غناءها ... والشمس لا تفتأ تطلع من بعده تغمر الكون بلألائها، والقمر لا يزال يريق على الدنيا وابلا من نوره الفضيّ .. وكل شيء يبقى على حاله بينا يكون هو قد ذهب وامّحى؟ وماذا يرى المحكوم عليه وهو يساق إلى حبل المشنقة في بهاء الشمس، وابتسام الربيع، وضحك الروض؟ إن المرء لا يجد في الكون إلا صورة نفسه، وخيالة عواطفه، فأي شيء يجده (عبد الله) وليس في نفسه إلا ذكرى ماضٍ بارع قطف ثماره أمداً طويلاً، ثم عصفت به رياح الفناء فصوّح نبته، وذوت غصونه، وصورة مستقبل غامض يسلم إليه أمه السكينة، لا يدرى من أمره شيئاً ولكنه لا يثق به ولا يطمئن إليه، وهو بينهما يمشي طائعاً مختاراً إلى ... الموت!

***

وبلغ (عبد الله) أبواب الحرم، وهو في ذهلة عميقة فإذا هو بأبي صفوان عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف، فألقى عليه نظرة فارغة كأنه ينظر إلى رجل من العالم الآخر لا يبصره ...

— سيدي! أمير المؤمنين!

— ...

— لقد استطاع رجالي أن يفتحوا لك طريقاً إلى العراق وهذه هي ركائبك، وهؤلاء هم حرسك. فتلفع يا سيدي بهذا الثوب وسرْ في أمان الله!

فلبث (عبد الله) صامتاً، شاخصاً إليه بعينيه، يردد هذه الكلمات التي سمعها ترديد من لا يفقه لها معنى، كأنما هو قد أضل فكره وفقد ذكاءه، أو كأن هذه الكلمات قد خلصت إلى نفسه بعد أن اطرحت معانيها فجاءت خالية لا تدل على شيء ... فريع ابن صفوان وأشفق أن يكون قد أصابه سوء، وجعل ينظر إليه بعينين تجلّى فيهما الإخلاص

(*) انظر (ليلة الوداع) في العدد (٣٠) من الرواية

للأمير ، والحب للوالد ، والوفاء للصديق . ولا عجب فى ذلك فلقد كان يرى فى (عبد الله) أميره ووالده وصديقه ، ويولّيه من نفسه الحبّ والإكبار .

وجعل ابن صفوان يحدّق فيه فيراه دائباً على ترديد هذه الكلمات ، ولكنه يرى وجهه تنبسط أساريره ويخطف على جبينه نور الذكاء ، وتبرق عيناه ببريق العبقرية ، فيطمئن ابن صفوان ويعلم أنه قد عاد إلى نفسه ...

نشط (عبد الله) واستبشر استبشار غريق رأى خشبة النجاة ، وعاشت فى نفسه آماله ، وأورق غصن ماضيه الذاوى فبسط ظلاله الندية على حاضره القاحل المقفر . فأحس كأنه يسمع أبواق النصر التى كان يسمعها فى سالفات أيامه ، وانتهى إلى أذنيه صدى أناشيد الظفر التى كان يهتف بها جنده تحت راياته المنصورة ، وشعر كأن قد عاد إلى إسمه عطره وجلاله ، فرجع ينبثق من أفواه الكماة المساعير الذين ذهبوا ينشرون عبقه فى بلاد العرب والعجم ... وكرّت الأيام راجعة فإذا هو يرى عبد الملك وقد روّعه اسمه وأرّقه ، ويبصر رأى المختار الذى ظفر بعامل الأمويين يسقط على قدمى عامله وأخيه مصعب ، ثم تقوى هذه الصور فى نفسه وتجيش وتموج حتى تبلغ هذا الحاضر الذى يعيش فيه ، ثم تمتد إلى آفاق المستقبل ، هذا المستقبل الذى ولد ونما واستكمل نموّه فى لحظه ...

وطغت موجة الفرح على نفسه فأحس كأنه فى حلم ، واختلطت عليه الحقيقة بالوهم ، فأخذ بيد ابن صفوان ، وسأله نشوان فرحاً :

— هل قلت إن الطريق مفتوح ؟ أأستطيع أن أخرج من مكة ؟

ولم يكن ابن صفوان ينتظر منه الرضا ، فاستخفه الطرب لرضاه ؛ ونسى أنه يكلم خليفته وآمره . فجعل يهزّ يديه بشدّة :

— نعم ، نعم يا سيدى ، أسرع ، أسرع بالله ، أخشى أن يفوت الأوان . إن الفجر سينبلج !

فينساق (عبد الله) فى الطريق الذى أراده له ابن صفوان ، ويكاد يمضى فيه ؛ ثم يذكر أمه ويعود إلى نفسه مشهدها وهى قابعة فى زاوية البيت ، حزينة ملتاعة ... هل يدع أمّه وحيدة بين براثن هؤلاء الذين يراهم وحوشاً ؟ لا . وتوقف ، وبدا عليه التردد

— سيدى ! إن الوقت قصير

— لن أدع أمى !

— وكيف تدعها يا سيدي ؟ إن الجند سيحملونها معك إلى حيث تمضى ، أو يضعونها حيث لا تنالها أيدى الحجاج

فعاودت عبد الله حماسته ، ولكنه وقف مرة أخرى يفكر ... هبْهُ وصل إلى العراق فماذا ؟ هل تكون العراق خيراً له من الحجاز ؟ لقد ضاعت العراق يوم ضاع مصعب . فهل يذهب إلى خراسان ؟ لقد مد الأمن رواقه على هذه المدن ، أفيقلبها ساحة حرب ؟ لا ، لن يقتل الآلاف من المسلمين ليعيش هو !

وراح يعرض البلاد كلها فى لحظة ، فلا يجد بقعة لم يبلغها ملك أمية ، أفيمضى إلى بلاد الكفر ؟ وضاقت عليه الأرض بما رحبت فاستصغرها وزهد

فيها وفترت همته . وانطفأ هـذا الليب الذي وقد في نفسه وخطف نوره على جبينه ، فاستل يده من يدى أبي صفوان ، وقال له بصوت رهيب :

— اسمع يا أبا صفوان !

فأدرك ابن صفوان أنه سيسمع نبأ لا يسره — فقد نطق وجه (عبد الله) بأنه عازم على الموت قبل أن ينطق به لسـانه ، ولـكنه أرهف أذنيه وذهب يستمع ، فقال له (عبد الله) :

يا ابن صفوان... أخبرني . أفي طوقك أن تردّ على العالم بهاء الشمس ونورها إذا غمره الليل بسواده القاتم ؟ إن لـكل نهار ليلاً ...

فقاطعه ابن صفوان وقد رأى بارقة سنحت من أمل لحاول أن يتمسك بها

— ... ولـكل ليل فجر يا أمير المؤمنين

ولـكن هذا الفجر لن يسطع على من بين رايات الأمويين استظل بهـا . ولا تتسرب خيوطه من خلال هذا الثوب الذى رضيت لى الفرار فيه ... بل إنه سيسطع . إني لأري تباشيره تلوح بيضـاء زاهرة من وراء باب الموت . ولا بدّ لى من ولوج هذا الباب يا ابن صفوان ، فلماذا تأبى علىّ أن ألجه حراً مجيداً ، وترضى لى أن أطبع على لحيتى البيضاء وصمة العار الحمراء ، وأن أختم سفر حياتى الماجدة الحافلة بالبطولة بأبشع خاتمة وأبعدها عن البطولة والمجد ؟ أتأبى علىّ أن أموت ميتة أبى ؟

فى تلك الرملة التى تتكسر على جوانبها أمواج البحر كل مساء ، ويحمل الرافدان دجلة والفرات العذب النمير من أعالى بلاد الروم ليغسلا به حواشيها الأخرى ، وحيث تلتطم رياح الجزيرة ، وتتراقص نسائمها اللينة ... هنالك يا ابن صـفوان يثوى قبر منفرد منعزل : هو قبر أبى !

لقد مات أبى شهيداً . ولـكنه لم يمت فى المعركة الحمراء ، وإنما مات على يد وغد دنىء ، فضاع قـبره فى تلك الفـلاة ... أفيسوؤك أن يموت ابنه وسط المعمعة ، فيقوم قبره فى بطن مكة ، فيشير إليه الناس قائلين : هذا قبر الشيخ الذى مات شهـيد المعركة الملتهبة ، وتمتـد أيديهم إلى السماء يسألون لى الرحمة والغيث ، ثم يمسكون بقلوبهم مخافة أن يهزّها هذا الدرس الصامت ، فتنفجر من الحماسة !

لماذا تأبى علىّ أن أموت ميتة أخى البطل مصعب ، وأنت الذى مجـد مصرعه ، واتخذه مثـلاً للبطولة والتضحية والشرف ؟ ألا يسرّك أن أشترى بدمى حيـاة هذه الأمة ، فتعود السعادة إلى هذه البقعة الطاهرة ، ويخيم عليها الأمن ، وتستمد لتحمل رسالة الله إلى الدنيا ... مرة ثانية

إنك لن تستطيع أن تردّ ما فات . أرجع إلى الزهرة الجافـة رواءها وعطرهـا . ردّ على الشيخ الهرم شبابه وقوته . أعد للنهار الآفل ضحاه !

لقد انتهى كل شيء !

فلن تـكون خاتمة حياتى أن أفرّ تحت ثوب امرأة ...

وأخذ الثوب يقلبه بيده ، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة ، فيها آيات القنوط الرعب ، والاستماتة الهائلة ، والاقدام المخيف

— لا . لا يا ابن صفوان ، إن عبدالله بن الزبير

أكرم من أن يتشح بثوب امرأة. لا لن أفرّ (بئس الشيخ أنا إذن فى الإسلام إن أوقعت قوماً ثم فررت عن مثل مصارعهم[1])

— سيدى!

— ابن صفوان!

ثم التفّت الأذرع فى عناق جمعت فيه الصداقة والمحبة والتضحية أروع قطوفها، ثم تملص الشيخ من ذراعى ابن صفوان وأمسك برأسه فقبّله بين عينيه

— جزاك الله خيراً يا ابن صفوان، فلقد والله وفيت لى حين غدر الناس بى، ولزمتنى حين تركنى ابنّاى، فكانت صداقتك أوثق من الولادة، وأمتن من البنوة، ولقد كنت رفيقى فى اليوم الأسود كما كنت رفيقى فى الليالى البيض، ومننت وأجزلت ولم تدع لى إلا حاجة واحدة، فاخبرنى هل تقضيها لى؟

فترق نفس ابن صفوان ويطفر الدمع من عينيه

— ولو كان فى قضائها موتى!

— بل فيها حياتك إن شاء الله، فأنا أعزم عليك إلا ما نجوت بنفسك

— معاذ الله يا سيدى!

— أنى لتفرعينى فى حياتى، وتسكن عظامى بعد موتى، إذا أنت نجوت بنفسك. قل إنك فاعل!

— معاذ الله يا سيدى، أموت معك كما حييت معك!

***

وكان الفجر قد انبلج وأرعدت هذه الأوعار والصخور وأبرقت، فضاع هذا الحديث الخافت فى جلبة الجيش المنتصر وإرعاده. فقطع (عبد الله) الحديث وانثنى نحو الكعبة يأمر مؤذنه باعلانه الفجر، وكان محتفظاً بعظمته وجلاله، فكأن هذا الفشل المتتابع وهذه الخيبة الشاملة، لم تنل منه قليلاً ولا كثيراً. وكان جنده الأوفياء ينظرون إليه فيمدهم بجلده واحتماله، وتسرى فيهم هذه العزّة، فيطوون جوانحهم على قلوب ملؤها القوة والأمل. وهل فى الدنيا أقوى من عصبة تريد أن تموت؟ إن العدوّ يفزعها بالموت، والموت أكبر أمانيها، فكأن عدوّها خادم لها، مسخر لرغباتها!

ودوّي صوت المؤذن قوياً واضحاً، فجاوبه من تلك الأوعار صوت آخر واضح قوىّ: الله أكبر! الله أكبر!

— الله أكبر من هذا الجيش وهذه الدنيا، ولكن هؤلاء قد نسوا معانى (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها

ذلك ما كانت تناجى به نفسها هذه العجوز وراء سور الحرم

وكانت قد أوت إلى هذه الزاوية لتودع ابنها، وتحتفظ بذكرياته الأخيرة، وتسمع جرسه، تختزن فى نفسها هذه الصور التى ستكون من بعد ينبوع حياتها، وستعيش بقية أيامها بذكراها. وقد لبثت هذه العجوز فى مكانها من المنزل المهجور، بعد أن ودّعها ابنها، تبكى وتتقاذفها شتى الأفكار، حتى نالت منها متاعب اليوم، وأوقار الشيخوخة، فاستسلمت إلى نوم مزعج متقطع تضطرب فيه الأحلام الرعبة ... فرأت ابنها بأيدى الجنود الشامين تنوشه رماحهم وسيوفهم، فوثب قلبها من صدرها وجعلت تصيح وهى نائمة: دعوه.

(١) هذه الجملة فقط من التاريخ

دعوه لى ، لا تقتلوه ، قد تركت لكم الخلافة فاتركوه لى ...

وأفاقت مذعورة وقد طار النوم من آماقها ، فلم تطق البقاء وابنها على عتبة الموت ، فقامت تحمل آلامها وأوجاعها ، وأثقال هذا القرن الكامل الذى يجثم على عاتقها ... هذه السنين المائة ... وتوجهت تلقاء الحرم ، وكانت تفكر فى ابنها ، ماذا عليها لو أنها أخذته من بين مخالب الموت ثم عاشت معه فى ركن منعزل من أركان هذا الكون الواسع ؟ أيؤذى عبد الملك وقد تم له الأمر وأطاعه الناس كلهم أن تعيش عجوز بجانب ابنها ؟ ألا يجد لذته إلا فى ألمي ... وهمت العجوز باستنزال اللعنات على عبد الملك ، ثم رجعت إلى نفسها تفكر فى عبد الله فاذا هو لا يقر ولا يهدأ ، وإذا هو صاعقة حيثما نزلت خرّبت ، وقلبت الأرض عاليها سافلها ، فلا يقرّ لهذه الأمة قرار ...

وكانت قد بلغت الحرم فسمت صوت المؤذن يردد التكبير ، فيعود الصدى من هذه الأوعار بمثل تكبيره ، فأصغت فإذا ماحسبته صدى أذانُ أهل الشام ، فآلمها هذا الانقسام وجعلت تتكلم همساً كأنما تخاطب نفسها :

— يا لهؤلاء الذين نسوا معانى (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها ...

وفى تلك اللحظة تقدم هذا الشيخ الذى كان أمير المؤمنين ، ووارث كسرى وقيصر ، ليصلى آخر صلاة له فى ظل الكعبة ، فسمعته العجوز ، ولم يكن بينها وبينه إلا جدار قصير ، فنازعتها نفسها إليه ، واشتاقت إلى عناقه وشمه ! ، ولم يكن يكلفها ذلك إلا همساً خافتاً يعلم منه موضعها ، فكادت تهمس باسمه ، وقويت هذه الرغبة فى نفسها ، حتى لقد توهمت أن ابنها قد دلف إليها يعانقها ، فمدت يديها تعانقه فسقطتا على جنبيها ... وكان قلبها يرتفع فى صدرها حتى يبلغ حنجرتها ، يذوب حزناً وكمداً ، ويسيل من عينيها المنطفئتين قطرات من الدمع ... ولكنها لبثت ساكنة صابرة على قضاء الله

* * *

انتقل هذا الشيخ من صلاته ، وقد رق الظلام ، وانبعثت فيه أشعة الفجر ، فأراقت على الحرم ظلالاً من النور ، فاستطاع أن يتأمل فى أصحابه الذين لبثوا على وفائهم له لم يخذلوه كما خذله ابنه حمزة ، فمرت على وجهه سحابة من غم حين ذكر أن حمزة قائم فى هذه الساعة تحت رايات الحجاج ينتظر أن يرى أباه معلقاً على خشبته ، ليرقص فى مأتمه ، ويظفر بأسلابه ، وكاد يجارى غضبه ويقذفه بلعنة حمراء تتسلسل فى أصلاب ذريته ، فلا ينجو من جناها المسموم جيل ؛ ولكنه أمسك ولم يحب أن يكسب أولاده هذا الشر المستطير فى آخر لحظة من حياته ... وينظر إلى هؤلاء الفتية فيروقه شبابهم المزهر ، ويضنّ بهذا الصبا الغض على الموت ، ويعلم بأنه ميت لا ينفعه دفاعهم شيئاً ، فأرادهم على الحياة وزينها لهم ، وابتغى إلى إقناعهم شتى السبل ، وأفانين الأساليب ، فأبى لهم وفاؤهم ومروءتهم ودينهم وما كانوا يعتقدون من ضلال الأمويين إلا الموت ...

فرقت نفس هذا الشيخ ، وغمرها الحب

والرضا ، فأحبّ أن ينظر إلى هذه الوجوه ، وأن يحمل صورها زاداً له من دنياه في جولته الأخيرة ، فقد كانوا ثمالة ذلك الجيش العظيم ، وبقية أولئك الأبطال الغطاريف ، الذين كان في وسعهم أن يقلموا قيصر من كرسيه في القسطنطينية كما قلموا كسرى من عرشه في المدائن ، لولا أن ألقى بأسهم بينهم ، فأصبحوا يحسبون مجد القائد المسلم في الانتصار على القائد المسلم ، ويرون المعركة الظافرة هي التي تأكل إخوانهم في الدين وفي النسب ، ويرون الفتح الأغر في استباحة مدينة الرسول ، أو العبث بقصبة الخلافة

وكان هؤلاء الفتية قد لبسوا الحديد واتخذوا المغافر لا يبين منهم إلا الحدق . فلما أرادهم (عبد الله) على كشف وجوههم أزاحوا هذه المغافر فأضاءت وجوههم كما تضيء الأقمار ، ولكن شعاعها وميض الجمال الفاضل ، وبريق الاخلاص والذكاء ، فأشجاه أن تكون هذه الوجوه فريسة السيوف بعد ساعة واحدة ، وأن يذهب هذا الشباب الناضر وأن يخسر جيش المسلمين هؤلاء الفتيان الأشاوس : ومن ستصيبه سيوفهم الماضية ينالونه بها قبل أن يموتوا . فعاد يدعوهم إلى الحياة ورجعوا يأبون

— قال : أما إذ أبيتم (فلا يرعكم وقع السيوف فان الدواء للجراح أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم . غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا تسألوا عني فمن كان سائلاً عني فاني في الرعيل الأول . احملوا على بركة الله[1])

فهتف هؤلاء الجنود هتافاً عالياً ، وأنشدوا أناشيد الحرب ... ولكن أصواتهم ذابت في هزيم الرعود التي تفجرت من حلوق الأمويين وهم منحدرون من أوعارهم وأصلادهم التي اعتصموا بها يتدفقون نحو أبواب الحرم . ودارت المعركة في البقعة المقدسة التي كانت ملجأ الناس ، ومثابة الأمن في الجاهلية وفي الاسلام !

* * *

بلغ هذا الزحف أبواب الحرم الأقدس ، واشتركت في حمل وزر هذا الزحف مدن من الشام تعاونت على العبث بحرمة المسجد وإراقة الدم الزكي على أرضه الطاهرة ، فكانت حمص بجندها على الباب الذي يواجه الكعبة تحاول أن تقتحمه لا لتطوف بالبيت العتيق ، ولا لتقوم فيه لرب العالمين ، بل لتستبيح فيه حرمة الدم الحرام في الشهر الحرام في المسجد الحرام ... وكانت دمشق على باب بني شيبة ، وكان أهل الأردن على باب الصفا ، وأهل فلسطين على باب بني جمح ، وأهل قنسرين على باب بني تميم ، وكان الحجاج قائد هذا الجيش الذي هدم بيت الله في ناحية الأبطح ... تدفقت هذه الجموع براياتها وكبريائها وقوادها وجندها ، وسلاحها وعتادها ، وحماستها وهتافها ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم. ردها وحده هذا الشيخ !

هذا الشيخ الذي أدنته الأيام من الثمانين فكان من حقه أن يستريح أثر حياة صاخبة ، وأن يقضي بقية أيامه في دعة وهدوء .. قد جفا راحته وهناءه ووقف وسط الحرم كالأسد الهائج يدافع عن عرينه بلبدته البيضاء وشيبته المهيبة قد دارت مقلتاه

(١) هذه الجملة من التاريخ

اللتان تنفضان الشر على هذه الأبواب، فكلما رأى بابا انفتح كرّ على أهله فردهم على أعقابهم، فكان يحمل مرة هاهنا، ومرة هاهنا، حتى ارتفع الضحا ولم يقرّ الشيخ ولم يهدأ .. فأحس بالونى فى أعصابه وكلت يداه. وأى رجل يستطيع أن يجالد مثل هذا الجلاد؟ وأى رجل يقدر أن يقف وحده فى وجه هذا السيل الطامى من البشر، وكلما أزاح من طريقه واحداً حلّ فى مكانته مائة ... فوقف لحظة يستريح وتلفت فاذا هو بابن صفوان لم يفارقه

— أبا صفوان، ويلمه فتحاً لو كان له رجال! والله لو كان قرني واحداً كفيته[1]

فيقول أبو صفوان :

— أى والله وألف ...

وتدور رحى الحرب من جديد قد دفعها الحجاج دفعة انطلقت على أثرها مدوية مرعدة تسيل على جوانبها الدماء، وتزهق الأرواح فيدوران معها ..

***

حتى إذا زال النهار وتلهبت شمس مكة فجمعت على الناس نارين : نار الحر ونار الحرب، ضاق ابن الزبير وأصحابه ذرعاً فجمعوا بقية عزمهم، وأقدموا إقدام المستميت فلم يرجعوا حتى أجلوا هذا الجيش العرمرم عن الحرم وردوهم حتى بلغوا بهم الحجون وكان فى طوقهم أن يردوهم إلى أبواب الشام، ولكنهم كانوا عشرات من الناس يحاربون الوفا مؤلفة!

ورجع عبد الله إلى الحرم وقد خلت ساحته. إلا من الحجارة التى نثرتها المنجنيقات من جدار الكعبة، وأشلاء القتلى ودمائهم وهذه البقية الباقية من جنده، تغلب عليه الألم لما حلّ بالمسلمين، وعزف عن الطعام والشراب فلم يفكر فيهما ولا فى الراحة المسعدة أثر هذا الجهد الحاطم، وإنما أقبل يريد أن يصلى فى ظل الكعبة فيناجى ربه ويستغفره ويودّع دنياه ... ولكنه لم يدن من الحطيم حتى وقف مرتجفاً قد اهتز من مفرقه إلى قدميه كما تهتز القصبة فى الريح النكباء، وفتح عينيه يحدق ... إنه لا يشك فى أنها هى ...

— يا إلهى ... ما الذى جاء بها إلى هنا؟

ودنا منها متلصصاً يمشى على رؤوس أصابعه فاذا هى صامتة جامدة لا تتحرك ولا تنبس

— أهى ميتة؟

واقترب حتى حاذاها فأحست به وصاحت :

— من أنت؟

فلم يجب، فعادت تصرخ :

— من هذا الذى يمد يده إلى امرأة عجوز؟ ويلكم أما كفاكم أن دفعت إليكم ابنى لتقتلوه ... آه أين أنت يا عبد الله؟

وسمعها تبكى بكاء خافتاً فتحرك، فعادت إلى تصريخها :

— قلت لك ابتعد أيها الوغد، أنسيتم أخلاقكم ومروءتكم، واستبدلتم بها هذه الأخلاق التى ترى البطولة في البطش بعجوز عمياء لا تريد أن تؤذى أحداً؟ آه لو أن عبد الله كان حياً؟ أين أنت يا عبد الله؟ عبد الله ...

وراحت تنشج نشيجاً أليماً، حتى لقد ظهر أنها ستشرق بدمعها، وخال روحها ستزهق فى نشيجها،

(١) هذه الجملة من التاريخ

وأحس كأن قلبه يقطع بسكين ، ونسي الحرب والنضال ، وهم بأن يلقى نفسه بين ذراعيها كما فعل فى ليلة الأمس ، ثم يحملها إلى بقعة من أرض الله الواسعة تقضى فيها لياليها الباقيات ، ثم يرده الحفاظ والدين وهذه الغاية التى باع نفسه من أجلها ...

وكان يسمع اسمه يرتجف فى غضون الزفرات يخرج بصوت مكاوم ، يلهب قلبه كأن فيه قبساً من قلبها المحترق ، فخاف أن يغلبه ضعفه البشرى . وانتهى إلى أذنيه هتاف أهل الشام وقد أقبلوا كرة أخرى كما يقبل البحر بعده على الساحل بعد أن نأى عنه فى جزر طويل ، فماف مكانه حيال أمه ، وذهب يستقبل الموت ، وقد مات من قبله مراراً ...

* * *

وكان فى شعب من شعاب مكة النائيــة عن الحرم ، شيخ جليل قد اعتزل الحرب هو وأصحابه ، لأن دينه لم يبح له أن يحارب أبناء دينه ، ومروءته تمنعه من تجريد سلاحه فى وجوه إخوانه ، وذهب ينتظر فى هذا الشعب النائى

كان عبد الله بن عمر معتزلا يحسر لأصحابه عما يخامر نفسه من ألم لتفرق المسلمين ، ويحدثهم حديث الرسول الذى جاء بالإسلام فألف بين القلوب ، وجمع الناس جميعاً ... ويرقب انكشاف هذه الغمــة . فسمع التكبير (ظهر يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٤) يتجلجل فى حلوق الشاميين ، فاسترجع ومد يده إلى عينيه الهامدتين فسح دمعة خال أنها تترقرق فيهما ، وأقبل على أصحابه فقال لهم :

— ألا تسمعون التكبير ؟ والله لقد كبر المسلمون مثل ذلك من قبل ، فى ليالى الهجرة الأولى ، وارتجت لتكبيرهم حرتا المدينة وتمايد نخيلها ، وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لولادة هذا الرجل الذى يكبر المسلمون اليوم لموته ! ...

رحمة الله عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقــد كنت أنهاك عن هــذا ، ولقد كنت والله صواماً قواماً وصولا للرحم(١)

لما أقدم عبد الله ، تساقط الشاميون تحت سيفه كما تتساقط أوراق الخريف ، وانزاحوا من بين يديه ، ولــكن رجلا ممن عجز عن مواجهته فى المعمعة ومقابلته بالسيف ، قذفه بآجرة ضخمة ، فعل الجبان الرعديد ، فأصاب بها وجهه وهشمه ...

أحس عبد الله كأن أعصابه كلها قد مزقت واستلت من جسمه دفعة ، وشمر فى رأسه بأشد من لذع النار ، ودار الـكون من حوله وتداخلت فى عينيه المشاهد ، فزاغ بصره ولم يعد يرى شيئاً ، ثم هوى ... ... ولـكنه نهض بعد لحظة واحدة . نشيطاً سليماً يكاد يتوثب من الصحة والنشاط ، فأقدم مجالداً ، فلم يعرض له أحد ، فعجب ، وأغار على القوم ، فلم يرعه إلا أنه يخترق الجموع ، لا يمنعه أحد ، حتى جاز الجيش كله وصار إلى الفضاء والحرية فوقف يفكر ويذكر أمره ... فلم يعرف منه شيئاً ، ولم يجد فى أعماق نفسه إلا لذة لا توصف ، وطرباً لا يحد ولا يعرف . فرجع يوغل فى هذا الجيش ، فإذا هو يخترقه كرة أخرى ، ويتغلغل بين كتائبه وفرسانه ، ثم ينتهى إلى الفضــاء ... فينظر حوله ويتمنى أن يعلو هذه الجبال الشامخة ، ثم يجلس على قنة من قننها البواذخ يفكر فى أمره . فلا يكاد

(١) هذه الجملة من التاريخ

ينتهى من أمنية حتى يصير فى أعلى الجبل من غير أن يتجشم عنـاء . أو يقاسى تعباً ، فيزداد حيرة وعجباً ، وينظر حواليه فيحسر له البصر عن عوالم عجيبة تموج بالنور ، وتمور بالمشاهد البارعة التى لم ترها عين بشر ، فيأنس إليها ؛ ثم تغلب عليه حيرته المحبوبة اللذيذة ، فيحجب عينيه بكفه وينطلق يفكر ، فإذا كفه تشف عما وراءها كأنما ينظر من خلال زجاج صافٍ شفاف ، فيجفو مكانه ويمرّ هائماً على وجهه فإذا هو يمضى بسرعة البرق ، يخترق الصخر ، وينفذ من الجبال ، فيزداد دهشة ويبالغ فى سروره ، ثم يسمع من يدعوه باسمه ، فيقف ويتلفت فإذا هو بابن صفوان ...

فيقبل عليه فرحاً بلقائه .. ولـكنه يرتد فجأة ..

— أنت ابن صفوان ؟

— نعم يا سيدى ...

— ولـكن ...

— ماذا ؟

— إن بصرى ينفذ من خلال جسمك !

— وأنا يا سيدى أرى ما وراءك ؟

— ويحك ، ما هذا ؟ أين نحن ؟

— لست أدرى !

— ألا تتذكر شيئاً ؟

فيفكر ابن صفوان ، وينظر حواليه :

— بلى ، أذكر الوقعة ؟

— الوقعة ؟ أى موقعة ؟ ها . لقد ذكرتها ، لقد عادت صورتها إلى نفسى ، ولـكن ... أين نحن ، وأين جيش الحجاج ؟

— هو هناك ... أترى هذه النقطة الدقيقة الماثلة فى أقصى الحضيض ؟

عبدالله : من المتكلم ؟

ابن صفوان : من هو الذى يتكلم ؟

— أنا ؟

يضطرب عبدالله وابن صـفوان ، ويجيلان بصريهما فى أرجاء الـكون فلا يريان أحداً

عبدالله : من أنت ؟ أقول لك : من أنت ؟

— هأنذا ! (ويظهر لهما)

عبدالله : زيد ؟

— نعم : أنا زيد !

عبد الله : ولـكنك قد متّ منذ زمن طويل !

زيد : نعم ، لقدمت منذ زمن طويل

عبدالله : كيف تكون ميتاً ، وأنت حىّ تنطق ؟

— كما تنطق أنت !

— ولـكنى لم أمت ...

— نعم يا سيدى ... ولـكن تعال معى !

وينحدرون بخفة البرق وسرعته ، كأنما كانوا يطيرون بغير جناح ، فلا تمضى لحظة حتى يشرفوا على مكة ...

زيد : ألا ترى يا عبدالله ؟

عبدالله : ما هذا الذي أرى معلقاً على رمح ؟

زيد : رأسك ؟

عبدالله : رأسى أنا ؟ هل جننت يا زيد ؟ عهدى بك رجلاً لقناً عاقلاً . هذا هو رأسى لايزال مركباً بين كتفىّ !

زيد : وهذه هى جثتك مصلوبة !

عبدالله : (وقد أخذته حيرة ، فجعل ينظر فى

جسده ، ويجسّه ...) ، لا أشك فى أنك قد جننت يا زيد ، إن جثتى صحيحة ...

زيد : إنها جثتك ، ألا تسمع ؟

يصيخ عبدالله بسمعه ، فيسمع حديث القوم حول جثته المصلوبة ، ولكنه لا يصدّق ...

عبدالله : مستحيل ، إن جثتى كاملة ألا تراها ؟ تلك بقايا حشرة حقيرة ، أأنا ويحك أدخل فى جسم حشرة ؟

زيد : ولكنك عشت فيها أكثر من سبعين سنة !

عبدالله : قلت لك ، مستحيل ... لن أرضى أبداً بهذا السجن الضيّق الخانق

زيد : ألا ترى إلى هؤلاء الذين يحفون بالجثة ؟

عبدالله : بلى ، أرى حولها كثيراً من هذه الحشرات الوضيعة ...

زيد : هذا هو جيش الحجاج !

عبدالله : أأرواح بشر تدخل هذه الأجساد الحقيرة وتسجن فيها ؟ إننى لأختنق من تصوّرى الحياة فيها لحظة ...

زيد : كما يحس هؤلاء بالاختناق إذا تصوّروا أنهم عاشوا لحظة فى بطون أمهاتهم . لقد نسيت سجنك الثانى ، كما نسوا سجنهم الأول !

عبد الله : ولكننى لم أمت ، أنا فى غمرة الحياة ...

زيد : إن هذه الحشرات تسمى الحياة الحقيقية موتاً ...

عبدالله : يا للغباوة ! ولكنى لم أمت ، بل أنا لم أعرف الحياة إلا اليوم

زيد : ذلك لأنك مت !

عبدالله : أليس فى الموت قيد ؟

زيد : بلى ، وكلنا مطلقون (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون) ، والآن ... هلمّ بنا !

عبد الله — دعنى أرى أمى وأحملها معى

زيد — لا . إنه لم يجيء أجلها فهلم بنا

فينطلق الثلاثة إلى النعيم المقيم فى السماء . كما تنطلق العجوز إلى العذاب الدائم فى الأرض !

* * *

حل السلام فى هذه البقعة التى خلقها الله للسلام الدائم . ونزل الحجاج بزيل الأوضار عن الحرم ، ويرفع القواعد من البيت ، ومرت الأيام سراعاً فووري ابن الزبير فى لحده ، واستغفر الحجاج من جريمة صلبه كما يصلب المجرمون والمفسدون ، وكادت الجروح تندمل ، وأوشك الناس أن يستميدوا هناءتهم وسعادتهم ، بعد هذه الحرب الحاطمة الضروس ، ولكن أسماء لم تسترح ولم تهنأ ، ولم يبق لها من الدنيا إلا قبر عبد الله ، تلبث الليالى والنهارات عاكفة عليه تبكى وتدعو وتنادى عبدالله ، وكانت تتخيل كأن شخصاً قد ألم بها فتصرخ فيه :

— من أنت أيها الوغد ؟

فيبتلع الصمت صيحتها ولا تسمع من مجيب ، فتعود إلى مجرع آلامها وأحزانها . وإنها لفى مقامها على القبر فى وسط ليلة ساكنة ، وإذا هى بيد تلمسها لمساً رفيقاً ، فيذكرها مسها بعالم غامض يفيض باللذة والأنس ، ويردها إلى ماض بعيد لا تتبينه ولا تعرفه ، عالم عبد الله والزبير . فتحاول أن تمسك

بهذه اليد لترفعها إلى شفتيها فاذا هي لم تمسك إلا الهواء . فيختلط عليها الأمر وتتعوذ بالله وتمد يديها إلى كل جهة تتلمس صاحب هذه اليد فلا تقع يدها على شيء ... ثم تشعر بصوت مستمر يطن في أذنيها ثم يقوى حتى يشبه هزيم الرعود ، ثم يستحيل إلى ضجة هائلة تحسب أن لم تسمع مثلها الأرض وتشعر بزلزال عظيم . فتميد بها الأرض وتهتز بشدة وعنف ، ثم تحس بيد تقبض على خناقها ، وتطير بها مع الرياح الأربع ، لا بل الرياح الأربعين . فتحوم في أرجاء الكون بسرعة البرق الخاطف حتى تصير الدنيا كلها خلاء في نظرها . لأن نظرها لا يستقر على شيء . ثم تلقيها هذه اليد في أعماق هوة سحيقة فلا يبقى عضو من أعضائها إلا أصابه كسر أو حطم ، وتجتمع عليها البرودة القاتلة والصمت المرعب والظلمة المتكاثفة ، فلا تعي من بعد شيئاً

ولكنها تستفيق على صوت محبب إلى نفسها يذكرها جرسه ورنينه بعوالم تعرفها وتحبها . فاذا هي في دنيا عبد الله قريبة منه ، بل هي تسمع صوته يدعوها . يدعو أمه بأحب الأسماء إليها . فتمد يديها تمسح دمعة الفرح ، فاذا هي مفتحة العيون تبصر عالماً من النور كل ما فيه جميل ساحر ، وإذا هي ترى (عبد الله) وقد عاد شاباً يفيض وجهه بشراً فتمد ذراعيها تعانقه ، تعانقه حقيقة ...

— أهذا أنت يا عبد الله ؟ ... كلا كلا . إن عبد الله قد مات . فمن أنت ويلك ؟

— أنا عبد الله ! سرعان ما نسيتني يا أماه . أما تذكرين ليلة دفعتني إلى الموت ؟

— بلى ، بلى ، ولكن ... رباه . ما ذا أرى

— لقد حسبوني مت . ولكني ذهبت لأحيا الحياة الحقيقية مع أبي بكر والزبير . تعالى يا أماه ، تعالى !

— هأنذي قد جئت ... عبد الله ! أدركني إني أحس كأني أطير . بل أنا أطير حقاً لقد عدت شابة ... ماذا أرى ؟ عبد الله ... عب ...

— مهلاً يا أماه . سنلتقي لقاء لا افتراق بعده

— أقلت أ ... أ ...

***

ولما مر الناس في الصباح على قبر أمير المؤمنين وجدوا أمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق ميتة على القبر !

علي الطنطاوي

الزوجة الموروثة

للكاتب الروسي اسطفان بوريانف

للأستاذ محمد لطفي جمعه

تعريف بالقصة

استفان بوريانف من كتاب العقد الأول من القرن العشرين وهو حفيد زوراديك جي المصور الروسي الشهير الذي عاش أمداً في مقاطعة جنيف (شاتو دو بزيه فير) وقد علقت صورته الشهيرة «الجولوجا» في متحف جنيف للتصاوير الحديثة ثم منعت مشاهدتها على الجمهور وهي تمثل الصلب وقت الغروب في ساحة التنفيذ المشهورة في الانجيل

أما الحفيد استفان فقد حذق اللغات ولا سيما الألمانية والفرنسية وقضى شطراً من شبابه في جبالفيفي وإيفردون وقرية تونون وتعلم ضروباً من الموسيقى وفنوناً من الأدب ونشر أولى قصصه « هل كانت أمي مجنونة » في مجلة « داشتوت كروينكلاى » ثم كتب قطعاً مسرحية منها « قطار الحياة السريع » والرقصة القبرية » وأحب في العشرين من عمره إيزيدورا دنكان الراقصة الأيقوسية الشهيرة تدله في حبها وتهتك وصحبها أمداً وتفجرت ينابيع مواهبه فأنتج إنتاجاً غزيراً ، ولكن أدبه أمسى مطبوعاً بطابع الحزن والخيال ، ومصبوغاً بصبغة الألم الدفين ومن أظهر قصصه «الزوجة الموروثة » وفيها من التهكم والحنق المكبوت على الغدر والأنانية واختلاط النبوغ باللوثة أحياناً وامتزاج الحب بالانتقام وجريان دم القتل والفسق في شريان واحد مما يشهد لهذا الكاتب الفذ بالتفوق . هذا ولا يزال هذا الأديب على قيد الحياة في ديفون ، وهي قرية فرنسية ملاصقة لحدود سويسرا

نعم ! هو نفسه ذلك المغنى العظيم الذى ذاعت شهرته فى أنحاء العالم، وطبق صيت عبقريته الخافقين ، فلا كاروزو ، ولا شاليابين نالا شأوه . لقد كان صديق صباى ورفيق شبابى ، وأليف فتوتى ويفوعى.. لا أذكر بالدقة اسم القرية التى كانت مسقط رأسه ، ولكننى متأكد من اسم المقاطعة التى ولد فيها وهي پادولى ، وعاصمتها كييف . هل كان يهودياً لا أدرى .. لا أظن ذلك ... ربما ! غير أننى أعلم أنه نشأ فقيراً وقاسى من آلام الحاجة ما أورثه مرارة القلب وشدة الحقد على المجتمع . وأذكر أننا كنا ذات يوم فى معبد من المعابد فألفينا المصلين قاعين يضرعون لتمثال معبودهم يلتمسون منه قضاء الحاجات ، وكان من بينهم مرضى وذوو عاهات وبائسون تعلقت آمالهم بربهم تعلقاً اتصلت بسمادتهم ، فتأثرت نفسه ، وجال فى خاطره أنه لو استطاع أن يرشد هذا الجمع إلى كذب ما يعتقد ، وإلى أن معبوده لا يسمع ولا يعى ، لما فعل ، حرصاً على هذا الأمل ، أن يزول.. وهذه الفكرة ، لا تجول إلا بخاطر وثنى أو يهودى.. لأن هذين المتعبدين ـ الوثنى واليهودى ـ يتمسكان بمعتقداتهما وتقديس معبوداتهما . أما الوثنية فلا أظنها كانت عقيدة... لا أدرى كيف أغلب الفكرة على الأخرى ... لقد كان راسكي ذلك المغنى العظيم مجنوناً فى شبابه . ولعل أشد أنواع الجنون ، جنون الشباب، إذ كان يغتذى من حرارته ، ويستمد غلواءه من غلوائه ، ويأخذ ضرامه من مضطرم عواطفه، ولا تجد شباباً خلواً من رائحة الجنون ، إذ كان الشباب شعبة منه . لقد بدأ جنونه بعد أن قرأ قصة الآباء والأبناء لتورجنيف . نعم ماذا تقول؟ أهو ذلك الرجل الذى أثر فى ذهن راسكي أكبر الأثر . لأن تورجنيف كان عاقلا وكلامه معقولا . فإن طلاب الجامعات والمدارس الفنية العليا قدمت

للعالم مناظر جديدة مدهشة . فإن فتياناً نشأ وفتيات شواب ، بدأوا يسخرون من الاعتقادات العامة والتقاليد المصطلحة والعادات المحترمة فى الحياة الاجتماعية ، وشرعوا يتباحثون فى تهذيب المجتمع وتأسيسه على قواعد علمية ، وكان من ذلك أنهم قلبوا النظام القديم حتى فى أتفه الأمور وسفسافها . فأما الذكران منهم فأعفوا شعورهم ، وأما الأناث فقصصن فروعهن . فكانت ظواهرهم وأزياؤهم وأحاديثهم عرضة لسخرية الناس وهزئهم ، ولكنهم كانوا يهزأون بذلك ولا يكترثون ، إذ كانوا قد رفعوا أنفسهم عن مستوى ما يسمونه بالرأى العام ، واحتقروا الرسوم والطقوس ، وكانوا لا يعترفون إلا بمذهب العمل الصالح لصالح الجماعة ... وصرحوا .. أى وحق الشباب والجنون ـ صرحوا بأن الاسكاف المتفوق فى صنعته المفتن فى حرفته خير من پوشكين أو شكسبير وأعظم قدراً ، لأن الإنسانية أحوج إلى الأحذية منها إلى الشعر ولها أطلب ...

— لا ! لا . ملحداً ... كان رامسكى ملحداً ؟ من يدرى ؟ ولكن الذى أعلم عن ثقة ويقين هو أنه كان يكره الفقر ، بعد أن رأى الفقراء ينزلون على جور الأغنياء ، والضعفاء يرضون بظلم الأقوياء . وقد سمعته مرة يقول فى حالة أشبه بالعبادة : « ليعسفنى الأغنياء على هذه الأرض ، وليرهقنى الأقوياء ، فانى لواقف يوم القيامة على باب الجنة ، أحول بينهم وبين عرائسها ومقاصيرها ، شاكياً إلى الله سوء ما لقيت ، رافعاً إليه الظلامات التى عانيت » .. هل هذه صلاة ملحد ... ؟ هل يذكر الملحد يوم القيامة وباب الجنة والإله ... ؟ ولكن رامسكى هذا نفسه قال لى ذات ليلة ، وكنا ندور حول كنيسة نوتردام دي پارى ، على مقربة من معرض جثث القتلى والغرقى والمنتحرين : « ألا إن فى الاجتراء على السماء والتسخط من مظالمها لترويحاً عظيماً للقلب المفعم بالهم ، المترع باليأس . يحلو لى يا دوشنكا ! أن أخصص كل يوم بضع دقائق للسماء أتمرد فيها وأثور ، فأسترجع لذتى ! » . هل أحب؟ نعم أحب فى لوزان امرأة اسمها زينا ، أعنى زينا بيد كانت طالبة فى الجامعة ، ولكنها من ذلك النوع الذى نشأ فى أوائل الجيل ، الطالبات المتزوجات من طلاب زواجاً حراً . وكانت زينا رخيمة الصوت جداً ، وزوجها يتقن التوقيع على الكمان ، والنفخ فى الناى ... وكم يوم مشرق بهيج قضاه رامسكى فى دار زينا وزوجها ! ؟ وكم من لقاء حلو وحديث لذيذ ! ؟ حتى أصبح رامسكى أعز عزيز فى البيت ، وأحب زائر ، وأخلب جليس ؛ وكانت زينا تميل إليه وتحب قربه وتصبو إلى سمره ، حتى لقد كانت توصيه بشراء الفطائر والحلوى لتأكلها فى غيبة زوجها كالأطفال . أنا أقول لك دار ... وبيت ... تسامحاً ... أو مبالغة ... لم يكن لهؤلاء الطلاب والمهاجرين الثائرين دور ولا بيوت . إنما كانت غرفاً معدودة مؤثثة بأبسط الأثاث وأفقره . زينتها جمال المرأة ووفرة الكتب وجنون الشباب الذى كان يغتفر كل شىء ولا يلقى إلى المستقبل نظرة . كانت الدار مكونة من غرفتين مطلتين على البحيرة ، وعلى محطة السكة الحديد ، جمال فى النهار والليل ، وحركة دائمة يقابلها سكون مدهش وجلال متجل فى طبيعة الجبال والأمواه وأضواء الأشعة المتلألئة ووجه زينا المشرق ، وصوتها المذب الجنون . فلم يلبث أن أصبح الشاب رامسكى من المتحمسين للموسيقى ...

ولم يكن هو يدرس شيئاً معيناً في جامعة لوزان سوى التوقيع على الماندولين والغناء أحياناً مصاحباً لزينا في أغاريدها قطعاً من موسيقى فاجنر . نحن الروس شعب عجيب غريب الأطوار . لأن الذي تبرع ببناء الجامعة في لوزان أحد مجانيننا الأغنياء لينال شهرة خاصة على حساب العلم والوطن ، قد تهافتنا عليها ، حتى حسبناها ميراثاً لنا عن آبائنا ، وحتى سنت حكومة مقاطعة (ڤو) قانوناً يحرم التحاقنا بالجامعة ..

كانت الحوادث التي أرويها لك قبل هذا التحريم ولكن راكوفسكي زوج زينا شعر بتعقب البوليس السري له ، لأنه كان من المشبوهين المتهمين في مؤامرة تشاركوي سيلو التي قتل فيها دي ويت بطل تاميلهوف ، ففر بليل إلى ڤرسواه على مسافة ميلين أو ثلاثة من جنيف . وهو حين فر لم ينبئ صاحبه الأعز بفراره ، فلا تسل عن حزن رامسكي وابتئاسه ، فقد حرم سلواه الوحيدة ، ولقاء زينا وسمرها وحديثها الرطب الجميل .. وكان هذا الرحيل ممهداً للجفاء بين راكوفسكي ورامسكي ومدعاة للقطيعة والعداء .. على أن راكوفسكي كان رفيقاً بصاحبه ، حدباً عليه مكرماً له ، وكان يهتم بشأنه ويعنى بحاله ، وقد نصح له قائلاً : «تزوج وسافر» ولكن هذه النصيحة كانت فكرة أفلاطونية محضاً . لقد كان الزواج بغير حب مستحيلاً . ولم تكن امرأة تملأ قلب رافسكي سوى زينا .. ولهذا فإنه بعد ذلك الفراق المبتسر مرض مرضاً شديداً ، فانتقل إلى جنيف وسكن في غرفة حقيرة في شارع كاروج — ذلك الشارع الذي اتخذه المهاجرون الروس مستقراً لهم ، وكانت تلك الغرفة فوق « مغلق حشب » مطلة على جدار قائم مشوه بالاعلانات السخيفة ، وكان رامسكي يعيش أخشن العيش ويحيا حياة البؤس ؛ وكنت أنا نفسي أقطن غرفة لا تفضل غرفته في حي « وابور النور » وكنا نجهز طعامنا التافه بأيدينا « على موقد الكحول » .

وكان رامسكي معرضاً للصداع ، فإذا انتابه يلقى بنفسه بعد العشاء ملتطماً على المتكأ غير مستصبح بمصباح ، وكان بعض جيرانه يتشاورون في أمره قائلين : « إنه لفقير ! لا يستطيع أن يشعل ولو شمعة واحدة » أي والله ! حتى جاءوه يوماً بمصباح ، فكان يشكرهم ويشرح لهم أوجاعه وعذابه ، ولكنهم كانوا لا يقولون عنه إلا « جارنا القديس ! » ولم يعلموا بأن في نفسه من الإلحاد والهرطقة ما يكفي لتكفير جميع القديسين وزندقتهم !

وفي تلك الآونة تلقى دروس الموسيقى في معهد فيلهارموني بجوار معبد اليهود ، ذلك السيناجوج العتيق الدميم الذي يحمل في أعلاه خاتم سليمان ، كما يحمل الذنب القديم علامة سوابقه . وكان الأستاذ كريستانوف يلقي دروسه متطوعاً متبرعاً ، فلما رأى رامسكي وسمع صوته أيقن أنه عثر بكنز ثمين ، فانقطع لتعليمه وتدريبه ، وسعى حثيثاً حتى ربطت له إدارة المعهد مرتباً ضئيلاً يكفيه بالكد طعاماً وكساء .. ولكن أستاذه لم يلبث أن عرّفه إلى أعيان المدينة وهواة الفنون من الطبقة الفنية فكان رامسكي يعزح في خيرهم ويحقد عليهم ، ويلعن النظام الذي قضى عليه بالحاجة إليهم ، وكنت أخفف عنه وطأة الغم والهم زاعماً أن هؤلاء الأغنياء بحاجة إلى جمال صوته . وقد تعرف بآنسة پولونية تدعى منسكا ، وكانت سيدة حلوة المحضر ، جذابة الحديث ، لها في الأدب قسط ومن الفن نصيب ، ولقد فرح بها رامسكي فرحاً عظيماً فاقترحت عليه وهو في وحدته تدعوه للاقامة معها في بيتها في

بولفاردى ماى ، فأذعن.. وكانت ترأمه ، كما ترأم الأم وليدها ، وتعطف عليه وتهتم له ، وتريد أن تجد له زوجة تكون برداً على روحه الحزينة الوحيدة وسلاماً ، بل إن رامسكى كتب يقول لها : « لا أكذبك حاجتى ، أنا لا أريد إلا امرأة ! ».. من كان يظن ؟ هل سلا رامسكى فاتنته زينا وهي على قيد ميلين منه ؟ أم أن الفقر واليأس قطعا نياط قلبه ومحوا ذكريات الحب والعفة من صفحة ذهنه المشتعلة بنار الألم ؟

بيد أن الآنسة منسكا وجدت من توسمت فيها الخير لهذا الفتى الغريب الأطوار ، وهى الآنسة جوزال دربيه والمولودة من أم روسية لوالد سويسرى ، وكانت حسناء فاتنة لم تجز العشرين ؛ فاوقع بصر رامسكى عليها ، حتى توهم كل من رآه أنها نزلت فى حبة فؤاده وأنه راح فى جمالها صباً مدلهاً . ومضى شهر فسألها الزواج ، ولكنها قابلت ذلك بالرفض ، فظل مع ذلك فى قربها شهرين آخرين . ولكن لم يلبثا أن تقاطعا وتهاجرا بغتة ، ولا يعرف أحذق الناس ماذا يجري وراء الستار ، لأن جوزال نفسها والآنسة منسكا سكتتا عن ذلك ، ولم تشرحا لأحد أسرار هذه المأساة المفرية بالحزن والسخرية . ولم يخسر رامسكى هذه الرفيقة الحسناء التى أراد أن يظفر منها بالزوج المخلصة العطوف ، بل خسر من أجلها صداقة أستاذه كريستانوف لأنه اتهمه بالخيانة وارتاب فى سلوكه مع جوزال

***

وفى يوم من الأيام اختفى رامسكى فجأة من مقره ، وعلمنا بغتة أنه قتل كرافسكي صديقة القديم وزوج زينا الجميلة . وكنت قد تخرجت محامياً ، وأتيحت لى ممارسة تلك المهنة الشاقة فى مقاطعة جنيف ، ولكن قاضى التحقيق لم يكتف بتبرعى للدفاع عن صاحبي وأمر بانضمامى إلى پام ودمستر وهما محاميان يهوديان لم يشتهرا بشيء سوى القضايا التجارية ودعاوى الإفلاس ؛ وهذا الذى جعلنى أعتقد أن رامسكى يهودى ، وأن اليهود فى جنيف هم الذين اكتتبوا فيما بينهم بأتعاب هذين الدرهمين الذين لم يحذقا الدفاع فى قضايا القتل — غير أنى كنت مدفوعاً بصداقتى وحبي وإعجابي ، وذكريات الشباب والألم — أكثر من الدوافع الفنية ، فلم تكن معلوماتى القانونية لتزيد عن معلومات الطالب الحديث العهد بالتخرج من الكلية ينقصنى التدريب وتنقصنى الحنكة ، ومرارة الاختيار فى الحياة ... فقدمت لقاضى التحقيق عريضة تقتضى استيفاء بعض نقاط التحقيق ، وقد استهللتها قائلاً : « إن حادثة القتل التى وقعت فى جنيف ، نمرة ١٩ شارع فيوجيراندبيه ، ليست من السهولة كما يبدو للنظر السطحى المتسرع ، ليست من تلك الجرائم العادية التى تقود إلى السلاسل والأغلال ، وتسوق الجانى إلى الاشتمال بألبسة المجرم ، وسترة القاتل ، بل إن في مصرع رالوفسكي المنسوب إلى صديقه رامسكى لمنصراً رهيباً أرهب وأغرب مما يظن الباحث السطحى أو المراقب المستهتر » وكأنى بهذه المقدمة لعريضتى قد فتحت أفقاً جديداً لقاضى التحقيق موسيو پوا تليفان ، ذلك الفاحص المدقق الرعب ، الذى لم يطبق قواعد الرحمة يوماً على أحد ممن أوقعهم سوء الطالع فى مخالبه . وكانت تلك العريضة مقدمه لاعتراف رامسكى الذى قال للقاضى :

« إن الرجل الذى قتلته أى ديمترى رالوفسكى ، كان رفيقى فى المدرسة وقرينى فى الجندية ، وابن

قريبي ، وإن كانت وجهة درسي غير وجهته ، فهو رياضي وأنا موسيقار . ومحال أن يقال عني أني كنت أبغضه ، لأنه كان في نظري بطلاً ، وكيف لا يكون بطلاً وهو المتهم في مؤامرة تشاركوي سيلو التي قضت على حياة دي ويت أحد أبطال تاميلهوف ؟ لقد قيل لي من أقرب الناس إليه أنه متقلب في آرائه وعواطفه ومشاعره ، وإنه شديد التطرف في أفكاره المتحولة المتغيرة ، فكانت زوجته وأصدقاؤه يعتبرونه تارة طفلا وتارة امرأة ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يحبونه ويغفرون له هناته وهفواته

وكان راكوفسكي يوم مقتله في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان متزوجاً من هذه السيدة زينابيد التي ادعوها توددا — زينا — وإذ كنت رأيتها يا حضرة القاضي وهي أرمل محزونة فما أنت بقادر على أن تعلم كيف كانت قبل القتل . إنها فقدت كثيراً . هذه وجنتها قد ذبلت ، وهذا خدها الأسيل قد أظلم ، وبشرتها الناعمة قد ظهر فيها التخدد والغضون ، وعينها لا تشرق ولا تبرق كما كانت بالأمس ، ولم تعد تضحك ، وكانت أبداً مومضة ضاحكة . وقد رأيتها عرضاً في « ساحة الخطى المفقودة [1] » فكدت أصعق للتغير الذي طرأ عليها . إنها لم تستطع أن ترمقني إلا بلحظة ساخطة متوحشة . واهاً للمسكينة !

لقد غضبت زينا يوماً على زوجها البطل ، بطل مؤامرة تساركوي سيلو ، وفرت من بيته والتجأت إلى غرفتي الحقيرة بشارع كاروج ، وكنت أعلم أن زواجهما ارتباط عرفي لا عقد شرعي ، وأنا نفسي من دعاة هذا الارتباط العرفي ، فاحترمت أنوثتها ووحدتها ، وتركت لها فراشي ونمت على مقعد عتيق في دورة المياه . فلما رأت عفتي واحترامي لها أكبرتني ، فسألتها عن نيتها في العودة إلى دار صاحبها فأقسمت بأنها لن تعود إليه ، فانتهزت هذه الفرصة فسألتها يدها على نفس طريقة عشرتها لراكوفسكي ، فأعرضت عني وجعلت حرارة الرفض نصيبي ... ثم ضحكت ضحكا طويلاً عالياً وأنا الرجل القوي العنيد الذي لم يسكب عبرة واحدة ، ولا ذرفت يوماً دمعة منحدرة ، ولم أعرف الرعب ولا الخوف ، وقفت أمامها مرتجفاً مرتعداً ... ولكنها عادت بعد ضحكتها فاعتذرت قائلة — أتوسل إليك أن تصفح — فابتسمت أنا ، ولو استطعت الآن أن أصفح عن ضحكها ، فما أنا بمستطيع أن أصفح لنفسي عن تلك الابتسامة . إنك يا سيدي القاضي لم تجد أي باعث على ارتكاب الجريمة فهل تجد اليوم باعثاً ؟ هل تزعم أنه الغيرة ؟ إن الغيرة من شأن الطبيعة الحادة ، والمزاج المستعر الناري ، وليست من شأن رجل هادئ المزاج رصين العقل ، بارد العاطفة كشأني . إذن فهل يكون الباعث هو الانتقام ؟ هذا أقرب إلى الحق وإن كانت إلا كلمة قديمة لإحساس جديد وشعور غريب مجهول . لا بد لي إن أقول أن زينا خيبت أملي وفضحتني أمام نفسي مرة أخرى ، كنت أعتقد أنها بعودتها إلى بيت ديمتري راكوفسكي — بطل مؤامرة تساركوي سيلو — لن تجد الهناء ساعة واحدة ، وأنها ستندم على رفضها مطلبي . ولهذا السبب اجتهدت في تعجيل صلحها . ولا تنس أني لم أحاول السطو على سعادة أسرة ، فانها لم تكن قد رزقت منه بنسل . ولكن ديمتري قد راح بها صباً ، فأي فرق بين صب وصب ما دام الأمر خالياً

(١) ساحة الخطى المفقودة Pas Perdus فناء المحكمة لأن الناس يروحون ويجيئون في انتظار مجالس القضاء لعل هذا أصل التسمية والله أعلم

من الذرية والعقد الشرعى فى الحالتين ؟ ألا ترانى أكثر جمالاً وشباباً وأقدر على فهمها وإدراك عواطفها ؟ غاية ما فى الأمر ، لعلها لم تجدنى مطواعاً أوخروفاً كالآخر . فهى لم ترفضنى لأنها تبغضنى ، بل لأنها لا تستطيع أن تركبني بغير سرج ولا لجام كما ركبت الآخر . فلما كنت فى جنيف في المرة الأخيرة وكنت زائراً بريئاً لا أفكر فى شىء من الماضى ، وذلك قبل مقتله بشهر جبهنى قائلا : « إننى مدين لك بهذه السعادة ! ثم التفت إلى زوجته وسألها : أليس كذلك يازوجتى المزيزة ؟ وما أكثر التجاء المتحللين من شرائط الزواج الشرعى إلى هذا الوصف ، كأنهم يطمئنون به إلى تسوية مركزهم أمام أنفسهم . ما أعظم أثر التقاليد فى العقل البشرى حتى لدى الذين تحرروا منهـا أو زعموا ذلك ... فنظرت إليه ثم تمتمت (نعم !) وضحكت عيناها فضحكت ، وضحكنا جميعاً وديمترى يضمها إلى صدره ، وكانا لا يستحييان من شىء أمامى . ثم قال ديمترى نعم ! إنك يا صديقى قد خسرت الصيد الذى كنت تبغى بعد أن أحكمت فخك !

هذه النكتة الباردة المؤلمة الثقيلة قصرت من حياته أسبوعاً كاملا . كنت أري وجهها المبتسم ومحياها الباهر المشرق الناعم فكنت أقول لنفسى : أنا سبب كل هـذا ! أردت أن أرسفها فى أغلال زوج مغفل بعد أن أفلتت من قيوده ، لكى ترى بنفسها مبلغ خسارتها يوم رفضتنى فاذا بى أرانى قد أعدتها إلى الرجل الذى أحبت . لقد بدا لى موقفي غريباً ، كانت زينا تحب حديثى ومغازلتى فاذا انتهينا من الحديث والغزل تركتني فى رفق مبتهجة إلى ذراعى ذلك الوغد ديمترى بطل مؤامرة تساركوى شيلو ! فأردت أن أنزل بزينا العذاب والألم ففكرت فى قتل زوجها ، وقد ألفت هذه الفكرة حتى لكأنها ولدت معى . ولكنى أردت أن تعلم زينا أننى أنا الذى قتلت زوجها وأريد أيضاً أن أتجنب عقوبة القانون ، وإن كان عقابى لن يغنى زينا عن نكبتها شيئاً . وقد زرتهما للمرة الأخيرة وكان ذلك قبل العشاء ، ومضينا نخوض فى حديث عادى وكنت أتكلم بدقة وإيجاز ، وجعلت عينى تستقر على عقرب الساعة وقد عزمت على أنى إذ تدق السادسة يجب أن أكون قاتلاً . حتى إذا بقى على الميعاد سبع دقائق نهض ديمترى عن المتكأ متثاقلا متبلداً وغادر الحجرة وهو يقول : سأعود بعد هنيهة . وهنا أخذت زينا ترتعش وتتمايل حتى أوشكت أن تقع كأنما صعقتها تلك القوة المتوحشة المفترسة المرعبة التى كانت تطل من عينى ؛ ثم وثبت إلى جانب زوجها وكان فى تلك الآونة قد رجع وتمتمت (ديمترى ديمترى ... إنه ...) فقال : ماذا تريدين ؟ فقلت فى صوت خشن مخيف إنها تعتقد أننى أريد أن أقتلك بهذا التمثال النحاسى . ورحت أرفع فى سكوت وخفة وصمت ، التمثال وتقدمت رويداً نحو ديمترى فشخص فيّ ببصره مصفراً مذهولاً مبهوتاً وهو يكرر هذه الكلمات : « هى تعتقد » ورفعت ذراعى فى رفق وأنا أشير بالتمثال وألوح ، وبدأ ديمتري فى مثل رفقى يرفع ذراعه وعيناه لم تغادرا وجهى فصحت به فى غلظة أن قف ! وعنـد ذلك تراخت ذراعاه وبقيت عيناه مستقرتين علىّ ، وبدت على شفتيه ابتسامة ضعيفة ذابلة وصرخت زينا صراخاً مرعباً مزعجاً ، ولكن الوقت قد أزف فأهويت على رأس صاحبي أضربه فوق جبهته وقد أنبأنى الطبيب أن جمجمة القتيل مفتتة مبددة ، مع أننى ضربت ديمترى ثلاث ضربات ليس غير واحدة

إذ كان واقفاً ، واثنتين وهو مطروح على أرض الغرفة . لقد كانت الضربات الثلاث شديدة قاسية ولكنها ثلاث لا تزيد » مكسيم رامسكى

لقد كان حلماً مروعاً ، انتقل فى طرفة عين من عالم الخيال ، إلى الحقيقة ، وتنظر القضاة بعين العلم إلى رامسكى ، وخشوا أن يوقعوا به العقاب الذى يستحقه القتلة ، لئلا يكون معدوم المسؤولية فيقعوا فى جهالة تفسد شهرة العدل . لقد وجد ديمترى راكوفسكى مقتولاً حقاً ، ولكن زينا زوجته وهى شاهدة الرؤية الوحيدة قالت إنه سقط من أعلى الدرج فجرح رأسه بحديد الدرابزين ثم اصطدم فى حجر السلم ، ولم يكن رامسكى حاضراً ، ولكنه عند ما علم بمصرع صاحبه توهم أنه قاتله ، وهيأ له الخيال رسم هذه الصورة . وهذا الاعتراف الطويل البليغ ليس إلا وليد تلك المعقولية العليلة . وقد نمقها وهو متوهم أنه يدخل السرور على نفس القاضى بواتلفان ، الذى بدأ باستجواب الشهود بعد اعتراف المتهم فكذبوه جميعاً وفى مقدمتهم الأرمل المحزونة زينا . وقال الدكتوردراى : « إن فرحه بخلاص المرأة التى كان يحبها من ربقة الزواج السابق ، وتأكده أنها سوف تكون له بلا مزاحم ، أذهب عقله بغتة . هذا نوع من الجنون المؤقت العارض ويزول حتماً إن اطمأن المريض إلى نتيجة الحادث الذى أفقده صوابه » ولا يكون الاطمئنان المذكور إلا بزواجه زينا ولو زواجاً من ذلك النوع الذى يتم فيه التفاهم بالاتفاق العرفى ، ما دامت هى لم تكن تعرف سواه . ولكن من ذا الذى يشفع عند أرمل محزونة لم يمض على فقد بعلها بحادث مروع سوى بضعة أيام بحجة الحب الذى ملك على المرس لبه وأفقده صوابه حتى تخيل أنه قاتل الزوج الهالك

لقد كان كريستانوف الموسيقار النابغ أول أساتيذ رامسكى ، لا يزال مقيماً فى جنيف . ولكنه تحول عن بيته الأول بجوار معهد الموسيقى ، إلى بيت جديد فى خط سان چورج ، فقصدت إليه وشرحت له كل ماوقع لصاحبى ، فأبرز لى قصاصات من جورنال دى جنيف و « تريبون » وغيرهما فيها بعض أخبار تلميذه القديم وقال لى : « لو أسلم هذا الأحمق حنجرته وأذنيه إلىّ ، لكان الآن من كواكب اسكالاف ميلانو وأوبراهاوس فى نيويورك ، ولكن ذكورته كانت أقوى من ميوله إلى الشهرة ، وعلى كل حال فإن الذكورة اليقظة دليل على المواهب وأرى نظرى فيه لم يخب ... ولكن يا سيدى لم أعلم بعد سبب تشرفى بزيارتك »

قلت : أن تقنع مدام راكوفسكي بالزواج من صديقنا الذى يكاد يجن حباً بها

قال : آه زينا ؟ ولكن ألا تعلم أن هذا المجنون رامسكى كان اتهمنى بمغازلة خطيبته الأولى التى كانت عرفته إليها الآنسة منسكا البولونية ... وكانت تدعى الآنسة جوزال ديربيه

— إنه غيور فظيع . وحسناً فعل الدهر بالتفريق بينهما ، فقد كانت البنت تتقن الغناء من طبقة سوپرانو ، ولو وقعت لى لجعلتها تغنى سالوميه وتوسكاولوسى دي لامرمور ... والجمع بين نوابغ الموسيقى من رابع المستحيلات

وكان الأستاذ كريستانوف قد لبس معطفه وتناول قبعته وعصاه ، واستقللنا سيارته الفخمة التى أهداها إليه راجا كوترالا بعد أن علّم محظيته (ممتاز بيجوم) أسرار الغناء الإفرنجى . وبعد دقائق معدودة كنا فى المصحة التى أعدت إحدى غرفها فى شيان دى لاروزريه فى حى شامپيل لتمريض العاشق

المفتون ... وما أن وقعت عين كريستانوف على رامسكى حتى صرخ قائلاً : « لا ! لا لا لا ! رارا دى رى صو ! سالو مون ديرنييه ماتان » فرفع المحموم بالحب والغناء عقيرته بتلك الأنشودة الخالدة المنتزعة من إحدى أوبرات فاجنر يردد ألفاظها وألحانها وأنغامها كأنه مجموعة من البلابل تغرد فى دوحة فى أحلى أوقات الربيع

وكانت زينا لا تزال تقطن البيت الذى قضى فيه زوجها نحبه ، فزارها الأستاذ وعزاها واستدرجها حتى روت له خبر رامسكى وكيف أنه يتهم نفسه باطلاً بقتل زوجها ، لأنه كان يحبها ويطمع فى الاقتران بها ، فلما أخفق فى أمله اختل ميزان عقله ؛ فأشفق كريستانوف على هذا الدنف المضنى ، ولما تمض ساعة على افتراقها ، وسأل زينا عن سبب إعراضها عنه فقالت : لقد كنت سعيدة السعادة كلها . وأما ديمترى (أى المرحوم بعلها) فلم يكن حبه لى فى أعشار قلبه ، لأنه كان يعجز عن أى حب عميق (فتنفس كريستانوف تفاؤلاً لأن بداية ذكر مساوئ الزوج المتوفى تدل على نهاية طيبة لصالح العاشق الذى على قيد الحياة) وكان القمار ملهاته يؤثره على مناعم البيت ومباهج الزواج ، ولكننى لم أكن أحب سواه ، لأنه كان أبداً متوعك الصحة ينتابه الصداع وينهكه الأرق . وكنت أرى فى تمريضه والعناية برغباته أعظم السعادة وأكبر النعمة وهذا الضعف ناشئ من حاجتى للأمومة

فقال كريستانوف : أى نعم ! المرأة يوم تحب تفقد شخصيتها والحمد لله ، لقد عوضك يازينا مريضاً بمريض وعليلاً بعليل ! لعلك لم تعطفى على رامسكى لأنه كان قويًّا صحيح البدن معافى ... فلا تجدينه فى أقل حاجة إلى عنايتك . أما الآن فهو فى حال من تأصل الداء وتغلغل العلة تدعو إلى بروز رحمتك من خدر الكمد والحزن على زوجك الراحل لتتجلى فى حلل الجمال والجلال بالإحسان إلى هذا العليل الملهوف » فاغرورقت عين زينا بالدموع وسألت :

— أين هو الآن ؟ فأشار إليها كريستانوف بالاستعداد لاتباعه . فلما بلغنا المصحة حيث كان الدكتور إدوار كلاباريد يدرس حالته النفسية ليعنى بصحته على أساس علمى ووقع نظرنا عليه وجدناه شاحب اللون نحيفاً مرعباً ، وكان جبينه غارقاً فى لجة من العرق البارد . فلما أخذ بصره محبوبته المرجوة ضحك وفتح ذراعيه وقال لها : تعالى فقبليني. فضحكت زينا ضحكة بلهاء وظلت جامدة فى مكانها ، فقال رامسكى : تعالى ! فارتجفت ، ثم احمر وجهها وبدت فى عينيها أمارات العطف وأقبلت نحوه ، فاتكأت على الخوان فى مظهر الدليل الخاضع المتوسل ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وهى تبكى بكاء الفرح

فنظر كريستانوف إلينا وقال : لم يعد لنا مكان هنا ، فقد اتصل العاشقان ، ولم يعد للشاب مكان فى هذه المصحة فقد شفى بوفاة زوج المرأة التى كان يحبها ...

وبعد ربع ساعة خرجت من نمرة ٢٤ شمان دى لاروزريه بجى شاميل سيارتان تسيران ببطء ؛ الأولى تقل رامسكى وخطيبته التى لم يمض على ترملها عشرة أيام ،وفى الثانية الأستاذ كريستانوف الموسيقار أستاذ رامسكى وطبيبه الذي تعهد بإعداده لغناء فاوست ولوهنجرن بعد ستة أشهر ، وقد برّ بوعده . هكذا الحياة ... وهكذا الحياة ...

محمد لطفى جمعة



الفصل الخامس

السفير وحاجى بابا يسافران

أخذنا غير الخطابين المتقدمين خطابات أخرى من وزرائنا إلى وزراء الفرنجستان . ولم يبق علينا قبل السفر إلا أن نستأذن الشاه فاستشرنا المنجمين فى الساعة المباركة التى يكون فيها سفرنا ، فاختاروا اليوم الذى مات فى مثله عمر بن الخطاب لأننا نحن الشيعيين نتبرك بهذا اليوم

وقبل ذلك الموعد بيوم استأذنا الشاه . ودعا الشاه السفير الإنكليزي وكان جلالته جالساً على عرش مرصع بالجواهر، وكذلك كان البساط والوسادة التى يتكىء عليها ، وكان رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الخارجية واقفين على سلم العرش عندما دخل « ميرزا فيروز » ودخلت من ورائه . فاستدعى الشاه أولنا وتركت واقفاً بالباب

وقد رأى « فيروز خان » أن واجب اللياقة فى هذا اليوم يقضى بأن يتصنع هيئة الحزن . وجثا أمام العرش بحالة تدل على أنه مجرم يطلب العفو أكثر من دلالتها على أنه سفير عين ليمثل الشاه

قال الشاه : « لماذا يبدو عليك الحزن ؟ هل تريد التخلص من المهمة التى عهدنا بها إليك ؟ » فتصببت الدموع من عينى السفير وقال : « كلا . كلا ، ولكنى آسف يا جلالة الشاه على فراقكم »

سر الشاه من هذا الجواب وقال : « أحق هذا ؟ إنه ليرضينى منك أن تذهب إلى حيث وجهتك فتبيض وجهي فى بلاد الفرنجة »

قال السفير : « إن شاء الله ! وردد الوزراء الثلاثة هذا الدعاء » ثم ابتسم الشاه وقال : « إنك ستتعرض فى أثناء السفر لأخطار البحر وستتعرض فى أثناء الإقامة لمباشرة غير أبناء دينك . ولكنك سترى العجائب والغرائب من العادات والأخلاق . وسترى كل ما يخطر ببالك وأنت مقيم فى فارس »

فقال ميرزا فيروز : « أطال الله عمر مولانا الشاه ولا قصر ظله . إننى أقل من التراب . وكل ما أتمنى أن يبيض وجهى فى تلك البلاد لترضوا جلالتكم عني ، ولى قبل السفر أمنية أضعها على أعتاب عرشكم — ثم سكت منتظراً جواب الشاه . فقال الشاه بعد فترة : « قل ! »

قال فيروز خان : « إننى أطال الله عمرك سأتعرض للموت فى البحار المتلاطمة الأمواج بين مملكتك السعيدة وبين الفرنجستان . وخطر البحر لا يذكره فارسى إلا وقلبه يرتجف . وأمنيتى أنه عند سفرى يكون أهل منزلى وابنى الصغير موضع عطفكم ورعايتكم وقد بسطت هذه الأمنية ولجلالتكم الرأى فيها »

فقال الشاه : « أقسم برأس الشاه أن أحقق

هذه الأمنية . ضع رأسك على وسادة الثقة لأنه مهما يحدث لك فابنك عندى بمكانة ابنى . وقد عينته منذ اليوم بوظيفة فى القصر على الرغم من صغر سنه . وسيتلقى العلم مع أبنائى على أن يتسلم فيما بعد مقاليد عمله . وأجريت منذ اليوم رزقاً على أهل منزلك فكن مطمئناً »

عند ذلك جثا « فيروزخان » مرة أخرى حتى لمس الأرض بجبهته وهتف الوزراء الثلاثة :
« ماشاء الله ! ما شاء الله »

وهنا حضر السفير الانكليزى ومعه شاب من أبناء جنسه وهو الذى عين مترجماً للسفارة الفارسية فى لندرا وجعل « مهمنداراً »

أذن لهما الشاه فى الجلوس فانحنيا ثم جلسا . وقال الشاه : « هذا اليوم سعيد الفأل على الدولتين يا جناب السفير . وإنى لأرجو أن يؤدى تعيين السفير الفارسى عندكم إلى الزيادة فى حسن التفاهم »

فانحنى السفير الانكليزى مرة وقال إنه يتمنى دوام العلائق الحسنة بين دولته وبين إيران . فقال الشاه : « أرجو أن ينال سفيرى الحظوة فى دولتكم وأرجو إبلاغ حكومتكم أنه حائز لثقتى وإنى إظهاراً لهذه الثقة أخلع عليه هذا البرد »

ثم خلع الشاه برده وأعطاه لفيروزخان فلبسه وقبل الأرض . وهنأه الوزراء على هذا الشرف الرفيع ، ثم سأل الشاه السفير الانكليزى هل هو راض عن الهدايا التى سترسل إلى ملكه ؟ فأجاب السفير على ذلك بكلمات لطيفة وقال إنه لا ينقص هذه الهدايا إلا صورة الشاه فى إطار جميل

عد الشاه هذا الجواب بديعاً ، وقال إنه كان ينتوى ذلك وإن صورته لديه الآن فى إطار مرصع بالأحجار الكريمة . وتحت هذه الصورة أبيات من الشعر نظمها شاعر الدولة « عسكرخان » وقال إن هذه الصورة مرسومة على مرآة حتى إذا ما نظر إليها شاه الانكليز رأى وجهه بجانب وجه الشاه الفارسى . وقال إن هذا الخاطر البديع من مقترحات عسكرخان . وإنه فأل لتوثيق العلائق بين الملكين ودولتيهما

ثم أخرج الصورة التى تقدم ذكرها من تحت الوسادة . وأمر باحضار عسكرخان ليقرأ الأبيات أمام السفير فحضر وأنشدها انشاداً جميلاً كجمال الخط الذى كتبت به . وهذا معنى الأبيات :

« اذهبى أيتها الصورة المحسودة مزدانة برسم ملك ، فإذا ما وصلت للملك الآخر صرت مزدانة برسم ملكين . وكما يرتسم عليك رأسان متوجان فكذلك سترتسم على مرآة المحبة دولتان صديقتان ، وسيكون صديق كل دولة منهما صديقاً للدولة الأخرى والعدو عدوهما جميعاً

« إذهبى أيتها المرآة المحسودة واجمعى على صفحتك الصافية بين الأخوين »

دهش الجميع من جمال هذا الشعر ومن افتتان قائله . وأكد السفير الانكليزى للشاه أن الملك « جورج الثالث » سيسر كل السرور بهذه الصورة وبالأبيات

كنت فى أثناء هذه المدة الطويلة واقفاً عند الباب لا أجرؤ على الدخول ولا يدعونى أحد ، فلما كاد المجلس أن ينتهى وأمر الشاه « فيروزخان » بالانصراف أشار إلىّ بأن أتقدم فتقدمت وقبلت الأرض ، ودعوت لجلالته بطول الحياة فأمرنى بالوقوف وقال لى : « كن دائم اليقظة وتعلم الأشياء

النافعة لنا .. تعلم أكثر ماتستطيع تعلمه من اللغات الفرنجستانية لتترجم بعض كتبهم فإذا فعلت ذلك كنت مستحقاً عنايتنا الشاهانية

قلت : « على العين والرأس كل ما تأمرون به يا صاحب الجلالة »

ثم تقهقرت وخرجت مع فيروزخان . وكان أول مكان ذهبت إليه قبر حبيبتى « زينب » فدفنت عنـد ذلك القبر مائة « طومان »[1] لعل فقيراً مستجاب الدعوة يجدها في وقت من الأوقات فيدعو لصاحبة القبر بالرحمة

الفصـل السـادس

أعضاء السفارة

كانت السفارة الفارسية فى لوندرا مكونة من : ميرزا فيروز خان (سفيراً) . ميرزا حاجى بابا بك (سكرتيراً) . محمد بك (تشريفاتى) . إسماعيل بك (أمين مشتريات) . أغا بك (رئيس الركائب) . هاشم بك (رئيس الخدمة) . عباس بك (ياور) . حسين بك (ياور) . تقى الدين (فراش) . صادق (سايس) . فريدون (حلاق) . حسن (طباخ) . محبوب (رقيق وأمين صندوق) . سـيد (حاجب السفير)

وفضـلاً عن هؤلاء فقد كان معنا عدد كبير من خدم الاصطبل . وكان معنا أيضاً هذا المترجم الإنكليزى الذى لقبناه بمهمندار السفارة ؛ وكان قليل الإلمام باللغة الفارسية حتى لا يكاد يقوم بواجب الترجمة قياماً صحيحاً

ولقد كنت أقل الأعضاء أسفاً على فراق فارس لأنه ليس لى قريب فيها ، وكان أكثرنا حزناً على فراق فارس هو السفير نفسه لـكثرة من ترك من الباكين على بعده ، وهم العبيد والجوارى وزوجته وابنه وأصدقاؤه

وكانت بلاد الفرنجستان فى نظر الفارسيين بلاداً تكاد تكون خيالية لا وجود لها إلا فى القصص . سواء أكانت حقيقية أم خيالية فإنها فى نظرنا بلاد ممقوتة لأن أهلها يأكلون لحم الخنزير

ولقد اشتهر عنى شهرة لا أعرف سببها ، أننى ملم بأخلاق الأوربيين وعاداتهم ، ولعل منشأ هذه الشهرة أننى كنت وضعت تقريراً عن أوربا وقدمته للشاه مستميناً على وضعه برجل تركى كان موظفاً بالآستانة

وكان أعضاء السفارة يسألوننى : هل فى البلاد التى سنذهب إليها طعام غير لحم الخنزير أو شراب غير الخمر ؟ وأخذ أمين المشتريات مقداراً عظيماً من الأرز خشية ألا يوجد شىء منه في تلك البلاد كما أخذ عدة زجاجات من شراب شيراز . وأخذ حلاقنا يتساءل : هل فى انكلترا صالون ؟ وتساءل الطباخ : فى أى نوع من الأوانى ينضج الأوربيون طعامهم ؟

ولايفوتنى هنا أن أذكر أن المترجم الإنكليزى أرسل لحيته وشاربيه منذ أن انضم إلينا . وكان أغلب ظننا من قبل ذلك أن الفرنجة خلقوا وليس فى وجوههم منابت للشعر كأنهم بعض نسائنا

وكنت منذ عودتى من (أصفهان) أفكر فى الوسيلة التى أعامل بها «فيروز خان» بعد أن وثقت أنه يسىء الظن بى ويحسبنى سأتجسس عليه لرئيس الوزارة الذى اختصنى دونه بمهمة جمع الهدايا والذى هو عدو له لا يتكتم العداء

رأيت أمام ذلك أن أسلك مع السفير مسلـكاً

---

[1] عملة فارسية

حسناً لكي يزيل من ذهنه هذه المخاوف ، وكنت أعرف الجانب الضعيف من نفسه ، فسهل ذلك أمر إرضائه عليّ ، فإن تجاربي السابقة دلتني على أن النفاق هو أحسن الوسائل لاستجلاب ود الإيرانيين ، فإذا ما استطاع أي إنسان أن ينطق بالكلمات المعسولة فلن يصعب عليه اقتياد أي إيراني من لحيته

ولأجل أن أتمكن في كل فرصة من منافقته التزمت أن أسايره في كل طريق ولا أتحرك إلا وفق حركته ، ولا أسير حتى يأمرني بالسير ، ولا أذهب إلا حيث يوجهني ، وأن أوافقه على كل رأي وأطريه عند كل مناسبة . وقد كان يحسب نفسه خطيباً مفوهاً ويفتخر في كل مكان بأنه إنما ندب سفيراً لفصاحته وذلاقة لسانه وقوة جنانه . وهو يعلم وكل الذين حوله يعلمون أن رئيس الوزارة إنما بعث به للسفارة ليستريح الناس من ذلك اللسان

لكنني آليت على إرضائه فصرت أفسح له طريق القول بكثرة الاستفهام وحسن الاستماع . وكان كثيراً ما يجره الكلام إلى الاندفاع في التعبير عن ضغائنه والتهور في وصف خصومه . وكان في هذه الحالات يترك الحذر فيتكلم أمام الخدم والأتباع بكل ما يروقه ، فقبل سفرنا بساعات قلائل ذكر اسم رئيس الوزارة فقال : « أرجو الله أن يحرق عظام أبيه في قبره ! أرجو الله أن تتزوج أمه من حمار مثل أبيه ! أدعوه تعالى أن يسلط عليه مائة كلب تمزق لحمه وتنهش عظامه ! إن شاء الله سأتمكن من الأخذ بثأري فأنه السبب في بعدي عن أهلي ونفيي من هذه البلاد »

ثم نظر إليّ وقال : « أنت يا (حاجي بابا) رجل عرف الدنيا وخبر أهلها فهل تظن أن الشاه سيذكرني بعد أن أغيب عن بلادي ؟ وهل سيمتنع رئيس الوزارة عن دس الدسائس وإثارة الوشايات ؟ »

فقلت : « إن كل ما تظنون هو الصواب ، وإن كل كلمة تقولونها هي الحق ، وإن اشتهاركم بذلك هو الذي جعل الشاه يختاركم للسفارة . وأنت تعرف الوزراء والأعيان فقل لي بالله من فيهم يصلح لتمثيل الشاه أمام الملوك الأجانب غيرك ؟

إن الذي أعتقده أن الشاه قد اختارك من تلقاء نفسه بغير تأثير ولا اتباع مشورة لما يعرفه عنك . وإلا فقل لي إذا هو لم يخترك فأي إنسان كان يختار ؟ »

قال فيروز خان : « لا أحد يا حاجي بابا ... لا أحد يصلح لها غيري ! لقد صدقت »

وقال التشريفاتي : « ما شاء الله ! مَنْ مثل مولانا فيروز خان في صفاته ؟ إنه أذكى الأذكياء وأفصح الفصحاء »

وقلت : « نعم ! نعم ! لقد اختاره الشاه من أجل ذلك ، وإذا كنا جميعاً نعرفه فالشاه لا يجهله ، ولذلك كان اختياره في موضعه »

وقال التشريفاتي : « إن جلالته ثاقب النظر صائب الرأي » . وقلت : « ليس لمولانا فيروز خان نظير في العالم كله » . وقال التشريفاتي : « أنظر إلى شخصه ! ما شاء الله ! إنه أجمل الشباب وأقوى الرجال فهو الذي يمثل الشاه وليس أي إنسان سواه بصالح لتمثيله »

وفي أثناء ذلك كان ميرزا فيروز خان يصغي إلينا وغضبه يتحول إلى سرور . والتفت إلينا بوجه متهلل بشراً وقال : « الحمد لله على هذا المنصب فان الذي قلتموه أعجبني وقد رأيته صدقاً »

الفصـــل السابع

سافرنا من طهران ، فلما وصلنا إلى تبريز أقمنا بها بضعة أيام جمعنا فى خلالها هدايا أخرى . ثم سافرنا إلى بلاد الأرمن وهى بلاد جرداء قاحلة قامت مدنها على سفوح جبال مكللة قممها بالثلوج . ثم تجاوزناها إلى بلاد الكرد فأرضروم . وهذه بلاد تابعة للترك يحكمها باشا يلقب نفسه — للإرهاب — بلقب البابا ذى الثلاثة الأذناب . وقد زارنا وأكرمنا وقدم للسفير هدية مثل هديته . لكنه حدث فى اليوم التالى حادث أوجد سوء التفاهم بين السفير وبين الباشا . وذلك لأن السائس صادق تخلف عنا بغير إذن ، ثم اتضح أنه ذهب إلى بلاد الأرمن لغرض من الأغراض فغضب السفير وأقسم أن يقطع أذنيه

ولما عاد سجنه أعضاء السفارة حتى ينفذ السفير حكمه فيه . ولكن الباشا التركى علم بالأمر ، ورأى أنه ليس من حق أحد غيره أن ينفذ الأحكام فى هذه المدينة ، فأرسل أحد موظفيه لإقناع فيروزخان بالعدول عن عزمه حتى يغادر الأراضى التركية

كان السفير محاطاً بأتباعه عندما جاء الموظف التركي ، وكان السفير لا يزال فى حدة الغضب والكلمات القاسية تتدفق من شفتيه ، فحياه الموظف بالسلام ثم جلس أمامه باحترام

قال السفير : « لماذا جئت ، وماذا تريد ؟ » فاستغرب التركى لهجة السؤال وقال : « لا شىء ! »

قال السفير : « هل علمت ماذا فعله هذا الكلب ؟ لقد غاب بغير إذنى ليرتكب المنكرات فى بلاد الأرمن . إننى لن أترك هذا الذنب بغير عقاب . إننى لا أترك الخبز دون أن أؤدبها ، وقد حلفت لا أشرب الماء حتى تصير أذناه فى جيبى . فاطمئنوا إلى ذلك يا أفندى »

قال الأفنـدى التركى : « إن مولاى الحاكم يهدى إليكم صباحاً شريفاً ويبلغكم أن هذه العقوبة غير مسموح بها فى هذا البلد » فاحتد السفير وقال : « ما هو غير المسموح به ؟ ما هو ؟ ما هو ؟ ألا أقطع أذنيه ؟ أنت لا تعرف ميرزا فيروز . أقسم برأس النبىّ وبالخبز الذى أكلته عند الشاه وأقسم بروح الباشا وبقبرك أيها الأفندى ، وأقسم برأس على أيضاً ألا أذوق الماء حتى تكون أذنا صادق فى جيبى . إننا فارسيون ولا يردنا عما نريده كلمة من الباشا »

قال التركى ولم يهتم أقل اهتمام بحدة السفير وانفعاله : « ولكن الباشا ذا الثلاثة الأذناب أمرني أن أبلغك بأنه لا يسمح لأحد بقطع آذان الناس فى بلده » فصاح السفير الفارسى كالمجنون ! « ثلاثة أذناب ! هل يهددنى بأذنابه الثلاثة ؟ قل له إن أذنابى خمسة عشر ! قل له إنها سبعون ! قل له إن لى ألف ذنب ! وما دامت أذنابه قد دخلت فى الموضوع فان أذن صادق ستقطع — ستقطع — ستقطع »

ثم نادى بالفراش أن يأتى فى الحال بأذنى صادق ولمنه ولمن سائر أعضاء السفارة . ثم التفت إلى الموظف التركي وقال وهو يتكلف العقل : « أبلغ الباشا تحياتى وقل إنه إن كان له ذنب واحد فلى خمسة عشر »

عند ذلك وقف التركى وانحنى ثم خرج وهو يقول : « لا إله إلا الله ! » ومر فى الردهة بالفراش عائداً وفى يده طبق به أذنان يسيل الدم منهما ، فههم أنهما أذنا صادق

وبالرغم مما أبداه سفيرنا من الجرأة، فانه أدرك أن البقاء فى المدينة أكثر من ذلك يعرضه للخطر فقرر الخروج منها فى نفس اليوم ، فخرجنا ما عدا صادق فانه أعيد إلى طهران بأمر السفير ، وقد علمت أنه عاد وأذناه فى رأسه لأن الفراش قطع أذنى تيس وجعلهما كشكل أذني إنسان إرضاء للسفير فى حدته

وصلنا إلى الآستانة فرحبت بنا السلطات التركية وخصصت لنا قصراً فى اسكوتارى وعينت لنا مترجماً تركياً فى أثناء وجودنا بالعاصمة . وفى هذا الوقت تركنا مترجمنا الانكليزى ، وأقام فى السفارة الانكليزية التى زرناها . ورد لنا السفير الزيارة . وبعد بضعة أيام سافرنا إلى أزمير التى يسميها الأتراك أزمير الكافرة ، لنركب منها السفينة التى تقلنا إلى بلاد الفرنجستان

وقبل مغادرتنا الآستانة زار سفيرنا « الصدر الأعظم » وأهداه هدية مثلها . وبالرغم من العداوة المتأصلة بين الأتراك وبين الفارسيين ، فقد أظهر الوزير التركي عطفه علينا لما أخبرناه بأننا سنسافر إلى بلاد الانكليز . وحذرنا من مكرهم وخداعهم وقال إنهم دهاة يتلاعبون بأقوى الرجال

لكن الأتراك أقدر منا على كتمان ما بأنفسهم ولذلك لم يظهر لنا أحد الأتراك عداوة بعكس فيروزخان الذي أظهر عداوته للترك فى عدة مواضع . فمن أمثلة ذلك أنه اجتمع فى حفلة مع بعض الأتراك المصريين الذين يشربون الخمر ويستمعون إلى الغناء فى السهرات العامة . فقال أفندى تركى إن الموسيقى التركية قد أصبحت من أرقي موسيقات العالم لتطورها وتشبهها في العهد الأخير بالروح الأوربية وقال إنه يسمع الموسيقى الفارسية فيخال أن المطر يتساقط

فأجابه سفيرنا محتداً : « وأنا أسمع الموسيقى التركية فأخال أن الحمير تنهق »

الفصل الثامن

الشركسية

كان ممن زارونا أيضاً مدة وجودنا فى الآستانة وزير الخارجية وكبار الموظفين فى تلك الوزارة ، وكان وزير الخارجية مشغوفاً بآداب اللغة الفارسية فأهدى سفيرنا نسخة مذهبة من ديوان حافظ الشيرازى . وكان هذا الوزير واسمه ياراك افندى من أرق الناس وأكثرهم أدباً وظرفاً ، وقد أهداه السفير جواداً لما علم من محادثته أنه من هواة الخيل . ولكن هذه الهدية أوقعته فى حيرة لأنه لم يعرف كيف يرد لنا الهدية التى تقابلها . فعندنا منسوجات أجود من المنسوجات التركية ، وكذلك الشيلان والسجاجيد ولا يليق أن يهدينا من البضائع الانكليزية ونحن مسافرون إلى انكلترا . ولكنه بعد تفكير وجد ضالته وعزم على أن يهدى السفير الفارسى جارية شركسية أجمل من القمر ليلة النصف ، وقال إنه اشتراها من تاجر من تجار الرقيق يدعى « خرسيس أوغلو » ، وإن ذلك التاجر أخبره بأنها أميرة من أميرات بلادها ، ولكنه لا يصدقه وهو يرجو على كل حال أن يسر « فيروز خان » بهذه الهدية

طلبنى هذا الوزير التركى وعرض علىّ أن يرسل هذه الهدية إلى مولاى فتظاهرت بأنى أجهل ذوقه ووعدته بأن أستشيره وأخطره برأيه

ولما عدت إلى السفير أخبرته فرفض الهدية فى

بادئ الأمر ثم تردد فى قبولها ، ثم رأى أنه لا يليق رفضها ، فوافق على شرط إخبار الوزير بأنه كان يود أن تكون الهدية من نوع آخر

وعند انتهاء هذا النهار جاء خادم الوزير يقود جواداً على ظهره هذه الشركسية مبرقعة لا يظهر شىء من وجهها ولا من جسمها فأعطى السفير الخادم التركى مبلغاً كبيراً من المال . وذهبنا لنزور الشركسية ثم اجتمعنا بعد ذلك ولم يكن السفير بيننا فقال التشريفاتى : « لو كانت زوجة السفير حاضرة لضربته حتى مزقت جلده على قبول هذه الجارية »

وقال تقى الدين : « إن السيدة بعيدة عنا الآن وستتغير الأحوال قبل عودتنا »

وقال سعيد : « لو أن الجارية من أى جنس آخر لكان شرها مأموناً . أما وهى شركسية فإن خطرها شديد لأن هذا الجنس ملعون »

فقلت : « ليس لنا إبداء رأينا فى هذا الشأن فالجارية متاع خاص من أمتعة السفير وهو وحده صاحبها »

قال الجميع : « نعم نعم وإننا لنكون أحط من الكلاب إذا ظننا غير ذلك »

وفى الصباح التالى أخبرنى السفير بقصة الجارية كما سمعها منها ، وهى أنها بنت زعيم شركسى كان يقيم بالقرب من شاطئ البحر الأسود . وكان لقسوته على قبيلته يلقب بابن الشيطان ، وكان سكيراً يندفع وراء عواطفه إلى الغايات ، وكانت المقامرة أحب شىء لديه فهو يضحى من أجلها بكل شىء ، وقد تراهن مع زعيم قبيلة مجاورة وهو أغنى وأقوى منه ، فجر على نفسه الدمار ، لأنه اضطر بسبب الخسارة التى لحقت به إلى بيع كل شىء من أملاكه وأرقائه على أن ذلك لم يكف فلجأ إلى وسيلة لا يلجأ إلى مثلها إلا شيطان مثله . وذلك بأن دعا عدداً من أفراد القبيلة إلى حفلة شراب فلما سكروا استدعى تاجر الرقيق فحملهم بواسطة أعوانه إلى الشاطئ ونقلهم على السفن . ولكن التاجر نقل معهم بعض أفراد الأسرة ومنهم زوجة الزعيم وابنتاه وابناه وأخوه

وفى أثناء الطريق رأوا كاهناً يمشى فنقلوه أيضاً مع الرقيق ، وقد بيعوا إلى أفراد مختلفين . وكان حظ الشركسية فى بيت الوزير ، وعرف أن اسمها مريم ولكنه أصر على تسميتها باسم «دلفريب» أى مستعبدة القلوب لما لجمالها من سلطان

وقد وصف السفير جمالها بأنه أروع ما رآه . ووصف ذكاءها بأنه نادر ، وقال إنه سيعلمها الفنون المختلفة التى تجعل لها مكانة ممتازة فى بلاد الأوربيين وقد وجد عندها أتم استعداد لتعلم الخياطة والطبخ والرقص والموسيقى والغناء ، وكل ما تمتاز به امرأة على أخرى . وقال إنها لا تعرف شيئاً عن الدين ، ولكنها قبلت أن تكون مسلمة ونطقت بالشهادتين

قال السفير : « من يدرى ؟ لعلها تكون سبباً فى سوء حظى أو رفعته »

الفصل التاسع

أعضاء السفارة يغادرون أزمير على ظهر الباخرة

وصل إلينا الخبر بأن باخرة انكليزية تحرسها مدرعة حربية فى انتظارنا بأزمير لتقلنا إلى لندن . فسافرنا إلى تلك المدينة ووجدنا فيها — خلافاً لما نعهده فى البلاد الأخرى — عدداً كبيراً من التجار الأوربيين واليونان والأرمن . ولعل الأتراك سموها

من أجل هـذا السبب بالمدينة الكافرة . وأهلها يشربون الخمر جهاراً فى الأماكن العامة والخنازير تمشى فى أزقتها . وقد نزلنا فى هذه المدينة بمكان أعدته لنا الحكومة

نقلت أمتعتنا وخيولنا إلى السفينة التى سنسافر عليها كما نقل إليها مقدار عظيم من الماشية واللبن والطيور والماء

وسئل السفير هل يحب أن ينام على سرير ثابت أو متحرك ؛ فعجبنا من هذا السؤال لأننا لا نعرف مكاناً للنوم غير المراتب المحشوة بالقطن والتى ننقلها ونبسطها على الأرض وننام فوقها . وتركنا الاجابة على السؤال حتى نعاين النوعين فى السفينة واتضح لنا فيما بعد أن السرير الثابت فى السفينة هو الملتصق بحائطها ، وأن السرير المتنقل يثبت من أطرافه الأربعة فى الحائط وليس بينه وبين الأرض قوائم

وقد كنا نجهل شكل السفن لأننا لانعرف فى بلادنا غيرالزوارق . ولـكننا لما رأينا السفينةدهشنا لأنها مدينة صغيرة ، ففيها غرف وشوارع وأماكن للخيل وأخرى للبضائع وأماكن خاصة بالآلات البخارية

ولمعرفة المترجم بعاداتنا أوصى بأن يجعل فى السفينة مكان للشركسية بعيد عن أنظار الرجال . ولما طلب إلينا الاستعداد للسفر استدعى السفير التشريفاتى « محمد بك » وهو على علم بمبادىء الفلك . وأمره أن يبين لنا الوقت المناسب للسفر . وقبل أن يجد الفرصة الكافية لأبحاثه فى النجوم جاء ربان السفينة مع المترجم واستعجلنا وقال :

إن هـذا أنسب وقت للسفر فالريح ملائمة . لـكن السفير رفض أن يتحرك حتى تدله النجوم على الساعة الميمونة . وإنه مهما تكن أفكار الانكليز فانه غير مستعد للمخاطرة بحياته فى البحار وبسفينة يقودها الكفار إلا فى ساعة ميمونة

وعبثا حاول المترجم والربان إقناعه بأنه ما دام الأمر متعلقاً بالسفر بحراً فالساعة الميمونة هى التى تهب فيها الرياح الملائمة . وإنه إذا أصر على التأخر فربما تتغير الجو واضطرت السفينة إلى التأخر لموعد آخر قد يكون أيضاً ملائماً للرياح ولـكنه لا يلائم علم الفلك

وعند ما يئس الانكليزيان وهما بالذهاب حدث حادث عددناه فألاً واستغنينابه عن علم الفلك ، وذلك أن السفير عطس مرتين ، وكل فارسى يعرف أن هذا الفأل الحسن يدل على أن الساعة مناسبة للسفر فقال السفير : « الحمد لله لقد أذن الله لنا بالانتقال » وأعلن موافقته على السفر

فلم ينتظر الانكليزيان حتى تضيع هذه الفرصة بل طلبا إلينا القيام فى الحال، فمشى السفير ومشيت بجانبه ووراءنا الربان والمترجم ثم سائر أعضاء السفارة فلما وصلنا إلى الشاطئ سمعنا صفيراً يصم الآذان ، ثم رأينا على سوارى السفينة أناساً من الانكليز كالبهلوانات يمشون فوق الحبال (كالشيخ على) بهلوان شيراز ؛ وفى أقل من لحظة رأينا هؤلاء البهلوانات يرفعون الأعلام على السوارى ، والغريب أنه على كثرتهم لم يقع أحد منهم عن الحبل وإن فيهم عدداً من الصغار فى السن لا يقلون مهارة عن كبارهم

ولما صعدنا سلم السفينة انزعجنا أشد انزعاج لأن مدفعاً فيها أخذ يطلق القنابل فكادت أرواحنا تفيض من الفزع ، وقال السفير : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ ما معنى إطلاق المدافع الآن ؟ هل أعلنت الحرب فجأة ؟ وسكتنا جميعاً لأننا لم نجرؤ على الكلام

حتى انقطع دوي المدافع ووقف المترجم الانكليزي أمام السفير وقال : « إن المدافع أطلقت تكريماً لسعادته وأن الانكليز لا يحيون بهذه التحية غير الملوك وممثليهم »

فقال السفير : « أشكر لكم هذه التحية وإن كنتم أزعجتموني . ولكن لماذا هذا الاسراف في القنابل ؟ إن عدد الطلقات التي أطلقت تكفي لتخريب مدينة « طوس » فكم عدد المدافع التي تملكونها ؟ »

فأجابه المترجم : « في هذه السفينة ٤٤ مدفعاً وهي مدافع صغيرة لا تستعمل في الحرب وعدد المدافع التي تملكها الدولة لا يحصى »

قال السفير : « هل تعني أربعاً وأربعين بالمدد أم على سبيل التقدير كما تقول ستين يوماً مثلاً أو أربعين ليلة ، والقصد أنها أيام وليال كثيرة ؟ »

فقال المترجم : « كلا بل أقصد إلى العدد بالذات » وقال ربان السفينة بواسطة المترجم : « إن بعض السفن تحمل أربعة أمثال هذا العدد أو أكثر وأحجام مدافعها أكبر كثيراً من أحجام هذه المدافع »

قال السفير : « لا إله إلا الله ! » ثم التفت إلينا وقال : « ألم أقل لكم إن الانكليز يجدون المدافع بهذا الشكل في مناجمهم ؟ لقد صدق رأيي فان مئات من الأعوام لا تكفي كل الحدادين لصنع هذا العدد من المدافع »

فقلنا : « نعم نعم نحن آمنا وسلمنا بما قلت ساعة أخبرتنا به . إن هؤلاء الانكليز كالشياطين ليسوا كالرجال ، وسنجد أحاديث غريبة نتحدث بها عنهم عندما نرجع إلى إيران »

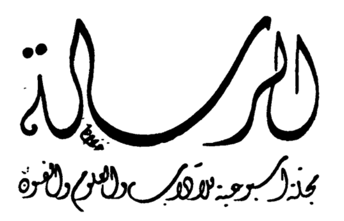
ولم نكد نفرغ من حديث قصير أقل من النية للصلاة حتى رأينا السفينة تتحرك على ظهر الماء فقال السفير : « لقد أصبحت أرواحنا في يد الله فمن يدرى هل نعود إلى أهلنا سالمين ؟ »

ثم تلا كل منا الشهادتين استعداداً للموت

(يتبع) عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾





مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ ق في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ـــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٢ — ١٥ ربيع أول سنة ١٣٥٧ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العــدد

ميمي

اقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

جلس « طلبة » فى القطار المائد به من مصيفه فى الاسكندرية يفكر فى « وردة » ، فما استطاعت الاسكندرية بمن حفلت بهن من الفتيات اللائى جئن من كل مدينة وقرية ليعرضن جمالهن وفتنتهن على شواطئ البحر أن تنسيه سحرها ودلها أو تصرفه عنها وتحوّل قلبه إلى سواها . وإن الاسكندرية لمفسدة أى مفسدة — كذلك جعل يقول لنفسه وهو يهتز فى مقعده من فرط السرعة التى يعدو بها القطار — ماذا يظن هؤلاء الآباء الذين يتركون بناتهم يتجردن على الشاطئ ، ويصبحن لاهن كاسيات ولاهن عاريات ؟

ولم يكن طلبة من الطراز القديم أو المحافظ ، فقد كان ابن عصره الذى لم يشهد سواه ، ولكنه كان فتى أكسبته حياته وعمله اتزاناً قلما يتاح فى مثل هذه السن ؛ فقد كان صيدلياً ، والصيدلى يرى كل صنوف الناس ، ولا يسعه وهو يستقبل الزبائن ويرحب بهم ويتلقى «أوامرهم» ويصغى إلى حديثهم وثرثرتهم فى أحيان كثيرة إلا أن ينظر ويفكر ويقارن ويقابل ، وإلا أن يقف على كثير مما يخفى على الشبان أمثاله فى أعمال أخرى ، وإلا أن يلم بحالات قلما تمر نظائرها بأنداده . وقد أفاد من عمله فى الصيدلة صبراً وحلماً وتسامحاً وحكمة ومقداراً من « الحصافة » تمنع أن يغتر المرء بالظواهر . وتلك بعض ثمار المعرفة التى اكتسبها فى ذلك المرض الذى يسميه الناس : « الصيدلية » ولا يخطر لهم أنه يمكن أن يُرى فيها غير العقاقير

وخطر لطلبة والقطار ينهب به الأرض أن من الحماقة أن يتوهم الآباء أن عرض بناتهن على الشواطئ يعجل بتزويجهن . ورجه القطار وهو يفكر فى ذلك فكأنما رج ما فى رأسه أيضاً فعاد يسأل نفسه : « ولكن هل هم يعرضون بناتهم ليزوجوهن ؟ أليس الأصح أن يقول إن تيار الزمن جرفهم ، وإنهم لم يستطيعوا مقاومته ، فهم لا يعنون شيئاً ولا يريدون أمراً ، وإنما ينزلون على حكم التيار ؟ على أن المهم على كل حال أن هذا المرض يزيغ العين ، والرجل يستطيع بعد أن يرى كل هذا الجمال المتنوع المحشود أن يروض نفسه على الصبر على طعام واحد . وطبيعى أن يقنع بالفجلة وكسرة الخبز اليابسة من لم يجلس إلى الموائد المثقلة بألوان الآكال الشهية ، ولكنه إذا جرب هذه الطعوم المغرية فإنه لا يكون آدمياً إذا ظل يعد الفجلة نعمة من الله ! »

وسأل نفسه مرة أخرى : « ولكن هل معنى هذا أن الأولى أن تُرد البنات عن حمامات البحر وما إليها ؟ » وهز رأسه وقال لنفسه : « مستحيل . ثم إن الحياة لا تطيب بذلك حتى لو تيسر ... كان يمكن أن تطيب لو أنا ظللنا لا نرى على الشاطئ كل هذه المفاتن ، ولكنا أكلنا من شجرة المعرفة فلا

قناعة لنا بشيء بعد الآن ، ولا سبيل إلى الصبر على الحرمان ... »

واعتدل فى مقعده وسأل نفسه هـذا السؤال « إذا كان الزواج هو الغاية ... لا تقل الغاية ... فانه على كل حال ليس إلا واسطة . ولكن تقول إذا كان هذا الزواج هو النظام المقرر فأيهما خير للرجل المدرك المفكر ... أن يتزوج واحدة من أولئك اللواتى لا يخرجن إلى البحر فى ثياب الاستحمام ولا يعرفن السينما ، ولا يبرزن للرجال ، ولا يعرفن من الحياة إلا الأكل والكسوة والجلوس على الحشايا ، ولا تخشى عليهن الفتنة لأنهن لا يتعرضن لها ، أم أن يتزوج واحدة من هؤلاء المرحات ، الصابحات الوجوه ، البضات الأجسام ، الرشيقات القوام ، اللواتى يحسنّ الحديث والسمر ، ويعرفن كيف يُمتعن ويتمتعن ، ويجعلن الحياة كلها فرحة دائمة ، ونعيما مقيما ، ومتعة مستمرة ، لكثرة ما فيها من التنوع ؟

وهز رأسه مرة أخرى وقال : « مشكل والله ! وعقدة لا أعرف لها حلا ... فتلك الجاهلة لا تكون إلا مملة ، وإن كان المرء يسعه أن يطمئن وأن يسكن ، وتلك المتعلمة المدنية البرزة أحلى وأمتع ، فى أول الأمر على الأقل ، ولكن السكرة تذهب ، وتزول النشوة ، وتجيء الفكرة ، ويحتاج المرء إلى السكون والرضى والاطمئنان ... الراحة على العموم ... وأين الراحة مع الخفة والتقلقل الدائم والشك الذي لا سبيل إلا إليه ولا حيلة فيه ؟ »

وطال تفكيره فى هذا وما هو منه بسبيل ، ولم يجد فى هذا الراحة ، ولم يستطع أن يهتدى إلى رأى فيما عرض على نفسه ، فانتقل إلى « وردة » وشرع يتصورها على هواه . وكان يدرك وهو يفعل ذلك انه يُفيض عليها من خياله ، ولكنه كان يقول لنفسه ان الخيال أمتع من الحقيقة ، وإن الجمال الذى لا يحرك الخيال لا قيمة له ، وإن الجمال الحقيقى هو الذى يجدد نفسه فى خاطرك ، ويعرض عليك من صوره وفتنته ألوانا ومعانى لا ينضب لها مَعين . وهذه مزية وردة ، وإن كانت هذه أيضاً آفتها ، فانها زئبقية ... لا تستقر حقيقتها — إذا كانت لها حقيقة — ولا تستطيع أن تتناولها وتقول هـذه هى فى يدى ... كلا ... مستحيل ...

وارتفعت لعينه وهو يفكر فى « زئبقية » وردة صورة « ميمى » الوديعة ... ميمى اليتيمة التى لم يبق لها من الأهل سواه ، فهى فى بيته — مذ جاءت بها أمه — كالأخت ، أو إذا شئت ، كالخادمة ، تقضى له حاجاته ، وتمد له أشياءه ، وتتعهد البيت ، وتدبر أموره ، فى سكون ومع الابتسام الدائم ، ومن غير تأفف أو ضجر ، ولا تطلب إلا أن يكون راضياً ناعم البال قرير العين ... أتراها تحبه ؟ ؟ إن هناك ما يشير إلى ذلك ويشى به ، ولكنها لا تقول شيئاً ، ولا تجترئ على أكثر من ابتسامة السرور حين يسرها ، ويخيل إليه أحياناً أنها كانت تبكى أو أن الدمع يتحير فى عينيها ، ولكنه لا يدرى ... لا يدرى ... ثم إنه لا يريد أن تحبه ، كلا ... فانه يحب غيرها ...

وجرى بباله البيت المشهور وهو يتناول حقيبته وينزل من القطار فى محطة القاهرة :

« جننا بليلى ، وهى جُنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها »

فقال بصوت مسموع : « أعوذ بالله ! ما هذه السخافة ؟ قد تكون ميمى مجنونة بى ، وإنى لمجنون بوردة ، ولكن وردة على التحقيق لا تحب أحداً غيرى ... نعم لا يبدو أنها تحبنى كما أشتهى وأتمنى . ولكن من فضل الله أنها لا تحب سواى ... هذا شيء على كل حال ... يمكن أن أقتنع به الآن ...

ومع الارتياح ... ولكن من يدرى ... ؟ »

وساورته الشكوك وهو يشترى فى طريقه طاقة من الأزاهير البيضاء التى يعرف أن وردة تحبها ، وظلت تساوره وهو يدخل شقته ويلقى بالحقيبة ، ويتلقى تحية ميمى بفتور لا يعنيه . وقد سخط على نفسه وأوسعها تقريعاً وذماً ، وقال لها : « هذه وردة يشرق وجهها لك ، وتكاد تفتح ذراعيها ، وتبدو كأنها تريد أن تضمك إلى صدرها الناهد ... الحق أن صدرها جميل ... وأنت تقابلها بهذا الفتور ؟ ... إن هذه خسة ! ماذا جنت الفتاة حتى تصدمها هذه الصدمة ؟ وتدفع فى صدرها بجُمع يدك ؟ آه صدرها ! ... الحق أنه جميل ... قدها كله جميل ، فيها لين ، تنساب كالماء الرقراق ... ثم إنها وديعة ، راضية ، حلوة الطبع ، لماعة العين دائماً ، أوه ميمى .. ميمى ؟ إنه يجب أن أفكر فى وردة ... »

وكانت ميمى فى هذه اللحظة تضع الورود فى الزهرية ، فزعق طلبة : « ماذا تصنعين ؟ »

قالت باستغراب : « أرتب الورد ، أليس ... »

ولم تتمها ، فقد انتزع منها الأزاهير وهو مقطب ولفها فى ورقتها كما كانت ، وتمتم وهو يفعل ذلك : « ترتب الورد ! أتراها تظنني جئت به لأزين به بيتى ؟ »

وقال بصوت عال : « دعيه هكذا ... إنه لوردة »

فأحست المسكينة بمثل شكة الخنجر ... يعود من الاسكندرية بعد خمسة عشر يوماً قضاها هناك نائياً عنها ؛ ولا يذكرها بزهرة واحدة ، ومعه هذا « الحوض » كله ، يحتفظ به لوردة ! ولا يخطر له أن من الرحمة الواجبة ألا يجزها على هذا النحو ! ماذا كان عليه لو اتقى أن يجىء به إلى البيت ؟ ولكن .. »

ولم تسترسل فى هذه الخواطر المؤلمة ، فقد كان عليها أن تهيء له ثياباً أخرى يلبسها ليزور وردة ! وإن ميمى لتعلم أن وردة مشغولة عنه بغيره ، وأنها لا تفكر فيه ، ولا تبالى أجاءها بهذه الأزهار الجميلة أم نسيها ولم يخطرها بباله . ولكن ميمي لاتستطيع أن تقول له هذا وإلا ظن بها الظنون

وأحست ميمى وهى تنفض لطلبة ثيابه التى يجب أن يرتديها بثورة نقمة على وردة ، وشعرت كأن وردة تخون طلبة لأنها مشغوفة بسواه . وصحيح أن وردة لا زوجته ولا خطيبته ، ولكن هذا لم يمنع ميمى أن تسخط على وردة وأن تشعر لها بكراهية شديدة يزيدها علمها أنها غير محقة فيها

وخرج طلبة ، ومعه طاقة الزهر الأبيض ، وبقيت ميمى وحدها ، لا أنيس لها إلا خواطرها . نعم هناك أمه ، وأخته ، وخادمة ، ولكن ما أنسها بهؤلاء ؟ وهى مضطرة أن تتكلف أمامهن الابتسام وأن تتظاهر بغير ما تبطن ، وهذا بلاء آخر ...

ولم يطل غياب طلبة ، فقد عاد ، ومعه طاقة الزهر الأبيض التى خرج بها ، ففتحت له ميمى الباب وارتدت مذهولة .. أذهلها تجهمه ، وأذهلتها طاقة الزهر التى تتدلى بها يده ؛ فارتدت ولم تقل شيئاً ، وتركته يدخل وهو مطرق لا ينظر إليها ولا إلى شىء ، ويرمى بطاقة الزهر على المائدة ، ويذهب إلى غرفته ، ويرد بابه حتى لا يدخل عليه أو يزعجه أحد

وبعد قليل صفق ، فذهبت إليه أخته فردها وقال لها : « ابعثى إلىّ بميمى » . ولم يكن هذا مستغرباً فقد كانت ميمى هى الموكلة به فى الحقيقة ، وكانت أمه يسرها أن ترى ميمى تقوم له بحاجاته وتتكفل بأموره ، وكان رجاؤها أن يفطن ابنها إلى قيمة ميمى فيتخذها زوجة

وذهبت إليه ميمى فقال لها : « اجلسى ، واصدقينى »

قالت : وهى تجر كرسياً : « نعم »

قال : « وردة ... إنك تعرفينها كما أعرفها ، فلا

تخفى عنى شيئاً ... ما هى الحكاية ! »

قالت : « أى حكاية ؟ »

قال : « إن المرأة تعرف عن المرأة أكثر مما يستطيع أن يعرف الرجل . ثم إن النساء يتحدثن فيما بينهن بما لا يتيسر العلم به للرجال ، فأخبريني ما هى حكاية وردة ؟ »

فكررت قولها : « أى حكاية ؟ »

قال : « ألا تريدين أن تخبريني ؟ إذن سأعرف كل شىء وحدى » ونهض فخرج ...

ولم تستطع ميمى أن تكتم ما بنفسها ، فحدثت أمه بما سألها عنه من خبر وردة ، وتركتها تتصرف كما تشاء . على أن الأمر لم يحتج إلى تصرف من الأم أو سواها ، فقد أراد طلبة أن يقف على جلية الخبر وأن يعرف من هذا الشاب الذى رآه خارجاً معها من بيتها يوم عاد — أى طلبة — من الاسكندرية ، وذهب إليها ليسلم عليها ويقدم لها الورود البيضاء التى تحبها وتؤثر جمالها على سواها من ضروب الزهر . وكان هو يهم بالنزول من الترام فى محطته أمام بيتها ، فلما رآها خارجة ومعها هذا الفتى الغريب الذى لم يره قط من قبل بقى على سلم الترام إلى المحطة التالية ، ثم عاد إلى بيته . وما خير أن يذهب إليها وهى خارجة ؟ ومع فتى ؟

وكان « طلبة » ممن يؤمنون بأن الخط المستقيم أقرب المسافات بين نقطتين ، فذهب إلى أبيها وسأله عن هذا الفتى من عسى أن يكون . وكان بين أسرة طلبة وأسرة وردة من الصلات الوثيقة القديمة ما يسمح له بمثل هذا الاستفسار الذى كان خليقاً أن يعد — لولا ذلك — فضولاً غير مقبول .

وكانت وردة وحيدة أبيها ، وقد ماتت أمها ، فرق لبنته جداً ودللها تدليلاً شديداً . فقال الأب : « هذا حسنى ... خطيبها ... وعلى فكرة ... أظن أنه من الأوفق ... تعرف ما أعنى ... ولا مؤاخذة »

فهز طلبة رأسه وقال : « نعم أعرف ... يحسن بى أن أكف عن زيارتكم حتى لا أثير وساوس الخطيب ... ولكنى ياعمى من عسى أن يكون هذا الخطيب ؟ إنه طارئ ولا شك ، فانى أعرف كل معارفكم ، ولا أذكر أنى رأيته أو سمعت به وما غبت عنكم إلا خمسة عشر يوماً . أفى خمسة عشر يوماً يعرف وردة ، ويخطبها ، وينتهى الأمر ؟ »

قال : « ولم لا ؟ ؟ يوم واحد يكفى ما دمنا قد قد سألنا ووثقنا أنه شاب طيب حسن السيرة »

قال : « وهل سألت ياعمى ووثقت ؟ »

فقال الرجل بلهجة التأفف : « ما هـذه الأسئلة ؟ »

فقال طلبة وهو ينهض : « أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تكذب ... وأستطيع أن أعرف أنك لم تسأل ولم تستوثق ، وإنما نابت عنك وردة فى هذا كله ... مبارك على كل حال ... وأستودعكم الله »

***

ومضت الأيام وطلبة يعالج نفسه ، ويروضها على الانصراف عن وردة ، واستطاع شيئاً فشيئاً أن يقنع نفسه بأن الخيرة فى الواقع ، وأن الزواج لا يكون مؤدياً إلى السعادة إذا كانت الفتاة مدللة كوردة كل هذا التدليل ، حتى لتخطب لنفسها من تشاء ، ولا يسع أباها إلا الموافقة . وعاد — شيئاً فشيئاً أيضاً — إلى ما كان يفكر فيه وهو عائد من الاسكندرية ، ويسأل نفسه عنه : « أى الفتاتين خير ؟ واحدة نشأت على الطاعة والعفة أم أخرى مدللة تعرف حمامات البحر والخروج مع الرجال ؟ »

وزاد السؤال تحديداً فجعله هكذا : « أيهما خير لمثلى : فتاة وديعة كميمى تحبنى وتطيعنى ولا تعرف سواى ، أو تفكر فى غير واجباتها لى وإن كانت

تنقصها مظاهر الطراز الحديث ؟ أم أخرى كوردة تخطب لنفسها من تشاء ولا يسع أباها إلا الموافقة ؟ »

وانتهى من هذا إلى التفكير الجدىّ الرزين فى ميمى ، ولم يخالجه شك فى أن ميمى ستفرح حين تعلم أن رأيه استقر على الزواج منها . وقد خاطب أمه فى الأمر ففرحت ، وحدث أخته ففرحت ، وكاد يحدث الخادمة ، وفى يقينه أنها لاشك ستفرح فقد ربيت — أى الخادمة — فى بيته

كل امرئ فرح إلا ميمي ، حين كلمها أمه .

وفى قولنا إنها لم تفرح شئ من التساهل فى التعبير، ذلك أنها فرحت لأن هذا هو الذى كانت تطمع فيه وتتطلع إليه ، ولكنها كانت تعلم أن طلبة يحب وردة، وآلمها أن يشقى طلبة ، وأن تغدر به وتخونه وردة ، وسرها أنه لم يفز بها ، وحز فى نفسها أن طلبة إنما انثنى إليها ورغب فيها لأن أمله فى ورده خاب . وكان هذا أوجع ماعانته من الاحساسات، وتنازعتها الرغبة فى إرضاء حبها بالقبول والرغبة فى إرضاء كبريائها بالرفض ؛ وكانت أحياناً تميل إلى الرفض وهى تشتهى ويكاد قلبها يتمزق من فرط الحب ، ثم تميل إلى القبول ، ولكن الألم يمزق أعصابها ويتلفها، فتبكى

وترى الأم والأخت هذا منها فتستغربان وتنكران هذا البكاء ، ويخطر لها تارة ان هذا بكاء السرور ، وتارة أخرى أن ميمى لا تريد طلبة زوجا لها ، ولكنها لا تستطيع أن ترفض لأنها يتيمة لا أهل لها ولا بيت إلا هذا ...

وكان هذا بعض ماخطر لميمى وقطع قلبها ، وزادها حيرة ، فهي إذا قبلت الزواج لا يسعها أن تنسى أن قلب طلبة مع وردة ، وإذا رفضت ، فقد قضت على حبها ووجب عليها في هذه الحالة أن تترك البيب ، ولكن إلى أين فى هذه الدنيا الطويلة العريضة الزاخرة بملايين الخلق، والتى تضيق مع ذلك بفتاة واحدة ؟!

وطال التردد ، ومضت الأيام ، والكل حائر ، حتى طلبة بدأ يستغرب ، وظن أن ميمى لا تريده ، وأنه كان مخطئاً فيما توهمه دليلا على ميلها إليه وتعلقها به ؛ وكان من فضل هذا أن صبا إليها بقلبه ، شيئاً فشيئاً أيضاً ... حتى كانت ليلة فناداها ، فلما دخلت عليه صارحها بما نابت عنه أمه قبل ذلك فى الكلام فيه

فقالت له : « لا ... إنك تحب وردة ، فأنا لست لك »

قال : « أهو هذا ؟ » وسرته هذه الغيرة وأيقن من حب الفتاة وقال : « اسمعي يا ميمى ، لقد كنت أتوهم أنى أحب وردة ، ولكن المرء قلما يعرف نفسه . ولو أنى كنت أحبها بالمعنى الصحيح لما استطعت أن أسلوها بهذه السرعة . وقد كنت أعمي ... الدرة تحت عينى وأنا لا أراها ... »

فقاطعته : « لأنك لم تكن ترى إلا وردة »

قال : « نعم » فلما خلت منها حياتى استطعت أن أنتفع بعينى . ومن واجبى أن أشكر الله ، فلو لم أتعلق بوردة لما استطعت أن أفطن إلى الدرة التى كنت ذاهلا عنها — وإذا كنت تحبينني كما أعتقد وأرجو ، فان من واجبك أن تحمدي أنى افتتنت بوردة أياماً ، فكانت هذه الفتنة سبيل المعرفة ووسيلة الهداية — أليس كذلك ياميمى ؟ »

وأراد قلب ميمى أن تقتنع ، فاقتنعت ، ولم تندم قط بعد ذلك على أنها أطاعت قلبها ولم تطع كبرياءها . وقد كان من الممكن أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، ولكن طلبة كان صادقاً حين قال إن فتنته كانت سبيل المعرفة ، وإنه عرف نفسه بعد أن ضل قليلا .

ابرهيم عبد القادر المازنى



كان بمدينة أرجوس اليونان نبيل تقدمت به السن ، فأراد أن يبحث له عن زوج تكون له عوناً على شيخوخته ، فتزوج من ليديا وكانت من أسرة عظيمة جميلة محبوبة . كان الرجل غنياً جداً ينفق بسخاء ؛ وكان مولعاً بالصيد ؛ وكان له عدد كبير من الكلاب والصقور والخدم . وكان من بين حاشيته شاب حسن الوجه أنيق الهندام يعمل كل ما يطلب منه بمهارة وسرعة ، فكان موضع ثقة سيده

شغفت ربة البيت بهذا الشاب ، فكان لا يهدأ بالها إلا إذا رأته أو تحادثت معه . ولقد زاد حبها ضراماً فلم تقو على كبحه، وصممت أن تفاتحه به . وكان من بين خدمها امرأة تدعى لسك تميل إليها وتثق بها ، فقالت لها ذات يوم: « إن ماصنعتِه معي من الجميل وتعلقك بي يشهدان بطاعتك واحتفاظك بالأسرار ، وآمل ألا تبوحي لأي فرد كان بما سأسره إليك . إنني فتية قوية كما ترين ، لا ينقصني شيء من الجمال والمال ، ولو كان زوجي من سني أو كنا متماثلين في المزاج لأرضى رغباتي . وأعترف لك بأنني لست عدوة لنفسي حتى أبحث عما لا أجده عند زوجي . وما وجد الزواج إلا للتمتع بملذات الحب التي حرمت منها . وقد وقعت عيناي على بيروس ليحل محل زوجي من هذه الوجهة ؟ وهو شاب شريف محبوب . ولقد رأيت أنه أجدر من غيره . ولقـــد تيمني حبه وأصبحت لا أفكر إلا فيه ، وإن لم أتمتع بحبه فإنني أموت كمداً . وأظن أنك لا تحجمين عن مساعدتي . فعرفيه بالطريقة التي ترين أنها مناسبة بما أكنه له من العواطف المتأججة ، واجتهدي في إقناعه بالمجيء إليّ عند ما أدعوه

طمأنت الخادم سيدتها ووعدتها بتنفيذ رغبتها، ورأت فرصة سانحة لمخاطبة بيروس ، وكان ذلك في نفس اليوم ، فأسرت إليه بما دار بينهما من الحديث فدهش الفتى من هذه المفاجأة مع أنه لم يلحظ شيئاً من ذلك قبل هذا اليوم ، وخاف أن يكون هـذا شراكا منصوبا لاختباره فقال لها : « إنني لا أقتنع بصدق ما تقولين ، ولا أظن سيدتي تكلفك بهذه المهمة . وإن كانت أرسلتك حقاً فلا أظن ذلك إلا مزاحاً . وإني أرعى عهد سيدي فلا أصمه بهذه الاهانة ، فلا تكلفي نفسك مشقة مجادلتي في هذا الموضوع مرة أخرى. فأفهمته لسك بقسوة رفضه وقالت له : « مهما كان ذلك يضايقك فانني لن أتأخر في إخبارك بما تكلفني به سيدتي . وقصارى القول أرجو أن تكون بصيراً حكيما »

ولما علمت السيدة ليديا جواب بيروس فضلت الموت . وبعد بضعة أيام خاطبت خادمها في حبها المتأجج فقالت لها : « إن الشجرة لا تقطع بضربة واحدة . ويجب أن تعيدي الكرة مع بيروس الذي

يريد أن يكون مخلصاً لسيده . ترقبي الفرص المناسبة لتصورى له فرط غرامي وتباريح آلامى ، فليس من فائدتك ولا من فائدتى أن تهملى هذا الموضوع فانك تجازفين بحياة سيدتك

فمزت الخادم سيدتها ووعدتها بأنها ستحاول إقناعه بكل الوسائل . ثم ذهبت إلى بيروس فوجدته معتدل المزاج مسروراً فقالت له : « لقد فاتحتك منذ بضعة أيام وقلت لك إن النار اشتعلت فى فؤاد سيدتى وإن استمررت فى رفضك فانك ستخاطر بصحتها وحياتها، ولا تكن عديم الشعور أمام آلامها . أى فخر أن تكون محبوباً من سيدة ذات شأن كهذه ! تر فى أمرك فستصبح فى مأمن من الفقر، وسيكون لك أفخر السلاح وأجود الخيل وأجمل الثياب وأغلى الحلى بخلاف الذهب والفضة . وستقابلك اليوم بذراعين مفتوحتين ، فلا تنزع ذراعيك منهما إن كنت لا تريد أن تكون لها عدواً أو تصبح فقيراً معدماً تتخبط فى دياجير البؤس والفقر . إنك تضحكنى حينما أفكر فى أوهامك وخزعبلاتك

فكر بيروس طويلا وتأمل فى كلام لسك وقال لها : « إننى طوع أمرها إن كانت تقنعنى بحسن نيتها لأننى أعلم طباع زوجها . ولربما اتفق الاثنان على أن تتصنع لى الحب لتختبر أمانتى ؛ ولدى وسيلة إن هى نفذتها اطمأننت إليها وسلمت لها قيادى، وهى أن تقتل باشق زوجها فى حضوره ، وتنزع خصلة من شعر ذقنه وترسلها إلىّ ، وتخلع سناً من أجمل أسنانه » وقد وجدت الخادم وسيدتها أن هذه الشروط الثلاثة لايمكن أداؤها ولكن الحب لايعدم الوسائل للحصول على رغباته . فأرسلت إلى بيروس تنبئه بقبول هذه الشروط . ومادمت تظن أن سيدك حكيم بصير بالأمور كثير الشكوك فسأريك كيف أخدعه على مرآى منه وأجعله يظن أن ما شاهده لم يكن إلا وهماً . دهش بيروس مما قالته سيدته وانتظر بفارغ الصبر طريقة التنفيذ

وفى ذات يوم أولم زوجها وليمة فاخرة لأصدقائه فأخذت زوجته الباشق ولوت عنقه أمام بيروس وجميع الحاضرين ، فصرخ زوجها قائلا ماذا عملت؟

فلم ترد عليه والتفتت إلى النبلاء الحاضرين وقالت: « اننى انتقمت من هذا الباشق لأنه سبب لى كثيراً من الآلام مما لا يمكنكم أن تتصوروه ، فطالما أبعد عنى زوجى إذ يأخذه ويخرج للصيد قبل طلوع الشمس كل يوم تقريباً ، وقد صممت من زمن على قتل هذا الطائر ، ولكننى انتظرت هذه الفرصة السانحة لأشهدكم أ كنت محقة فى عملى أم لا ؟ فظن الحضور أن الزوجة ما أقدمت على هذا العمل الفظيع إلا لشدة تعلقها بزوجها وطفقوا يضحكون . ثم التفتوا إلى زوجها وقد كاد يتميز من الغيظ وقالوا له : « أتفضل هذا الطائر على زوجك ؟ ولقد أحسنت بأن تخلصت من مزاحمها . ولما دخلت الزوج إلى غرفتها تمادى الحضور فى مزاحهم حتى أن نيكوسترات فارقه حزنه وطفق يضحك مثلهم من هذا الانتقام الوحيد فى بابه

وقد استبشر بيروس من تنفيذ الشرط الأول وغرق فى بحار أمانيه

وبعد أيام كانت الزوج تداعب زوجها وكان متهللا مستبشراً فرأت الفرصة سانحة لتنفيذ الشرط الثانى فجعلت تدلله وتمانقه ثم نزعت خصلة من ذقنه فتألم الرجل أيما ألم وغضب وقال لها فكرى ماذا تعملين ياسيدتى ؟ فقالت له : « أتغتاظ ياسيدى من خمس أو ست شعرات وأنا لم أغضب حينما جررتنى

من شعرى منذ هنيهة ؟ وقد أرسلت الخصلة فى نفس اليوم الى بيروس

والشرط الثالث هو بلا شك أصعب الشروط ، ولكنه لا يصعب على المشاق ذوى العقول الراجحة . وكان لزوجها حاجبان من أسرتين عظيمتين أحدهما يشرف على شرابه والآخر على طعامه ، فاوهمتهما سيدتهما أنهما أبخران وأوصتهما بأن يبعدا رأسهما إلى الوراء حينما يقدمان إلى سيدهما شيئاً ففعلا بوصية سيدتهما

وبعد بضعة أيام قالت الحسناء لزوجها: أما لاحظت سحنة حاجبيك حينما يقدمان إليك شيئاً ؟

— نعم لاحظت وقد أردت أن أسألهما عن السبب

— لقد لاحظت ذلك من زمن ، ولكنى خشيت أن أفاتحك فى الأمر . والآن قد لاحظ ذلك غيرى فقد رأيت أن أحذرك ، ولا أعلم سبب ذلك ؛ وإني أصارحك بأن رائحة فك كريهة جداً ، وربما كان ذلك من سن نخرها السوس . ثم اصطحبته إلى الكوة وفتحت فمه ثم قالت له إن سنك منخورة ومتعفنة ، وإن خلعتها أبعدت الضرر عن أسنانك الأخرى .

— سأبحث فى طلب الجراح ليقلعها

— إن هؤلاء كالجلادين ولا يستدعى الأمر حضورهم وسأخلعها أنا بنفسى دون أن أحدث لك ألماً . ثم أخرجت الخدم ولم تترك إلا السك وأوصدت الباب ، ثم أضجعته وجعلت رأسه فى حجر الخادم لتمسك به لئلا يتحرك ثم فتحت فمه وخلعت أجمل أسنانه بشكل عنيف تركه يصرخ من الألم ولبث هنيهة كالمغشى عليه . وفى هذه الأثناء أخفت السن الجميلة التى خلعتها وأبدلتها بأخرى نخرة متعفنة ثم قدمتها له قائلة : « انظر إلى السن التى احتفظت بها طوال هذه المدة ! ومن المحقق أنها لو تركت أفسدت جميع أسنانك . وقد نزف الجرح كثيراً من الدم ، ثم شرب أكسيراً مقوياً وارتمى على سريره كالميت

ثم أرسلت زوجه السن إلى بيروس دون أن تضيع شيئاً من الوقت . فاطمأن لها وقال إنه طوع إشارتها .

كانت الحسناء لا تألو جهداً فى إظهار حبها ؛ وكانت تعد الساعات كالسنين ولم يبق عليها إلا إرضاء حبها على مرأى من زوجها ، وأخبرت لسك بيروس بالدور الذى سيلعبه . ثم تصنعت المرض ، وذهب بعد الظهر لمقابلة سيدته ، وفى هذا الميعاد يجلس رب البيت مع زوجه . ولما رأت الاثنين مجتمعين أظهرت رغبتها فى استنشاق الهواء فى الحديقة ورجتهما أن يقوداها إلى، فأسندها زوجها من جهة وبيروس من الأخرى وذهبا بها إلى شجرة كمثرى وجلس الثلاثة على بساط جميل من الخضرة . وبعد آونة اشتهت السيدة أن تأكل من الكمثري فرجت بيروس أن يتسلق الشجرة ويقطف بعض الثمار الناضجة فأطاع وصعد وتصنع أنه رأى سيده يداعب ويعانق زوجه وصاح : ما هذا يا سيدى ؟ وكيف تسول لك نفسك أن تعمل هذا فى حضورى؟ وأنت ياسيدتي أما تخجلين من مثل هذا اللعب ؟ كفى ، فان هذه الأمور لا تجرى أمام الناس . أليس الليل طويلا ؟ هل خرجتما إلى الحديقة لأجل هذه الأعمال ؟ ألم تكن عندكم غرف وأسرة كافية ولائقة ؟ فقالت المرأة لزوجها : ماذا يعنى بهذا القول ؟ هل فقد حجاه ؟

— لا يا سيدتى فإني لست بمجنون . إنى أرى جيداً ما أراه . ثم قال له الزوج بعد ما ضحك من قوله : « إنك تحلم حقاً »

— إننى لا أحلم مطلقاً .

ثم قالت زوجته : ربما تراءى له مايقول

— تأكدى من قولى يا سيدتى فلست واهماً

— إنزل إذن !

— ولما نزل قال إنى أراك الآن منفصلا عن سيدتى وبعيداً عنها

— إنك تحلم يا مسكين ، لأنى لم أبرح مكانى

ثم قال بيروس: ربما كانت هذه الشجرة مسحورة

فأراد الزوج أن يتحقق بنفسه من هذه المسألة ليتأكد إن كانت الشجرة مسحورة . فصعد بدوره، وما كاد يستوى فوق أغصانها حتى قام بيروس وزوجه بتمثيل دورهما من عبث وعناق

— ماذا تصنعين يا سيدتى ؟ ! وأنت يا بيروس أتخدم سيدك بهذه الصفة ؟

ثم أسرع فى النزول فرجع العاشقان كل منهما إلى مكانه والتزما السكون والحشمة

— ما هذا يا سيدتي ، أتقترفين هذه الفضائح أمام عينى ؟ وأنت أيها الوغد ... فقاطعه بيروس :

« إنى أعترف أنكما كنتما حكيمين عند ما صعدت على الشجرة. والذي ظننت أنى رأيته لم يكن إلا سحراً . والذى يكمل إقناعى أن سيدى ظن أنه رآي شيئاً لم يكن

— لا تحاول أن تعتذر فما رأيته لم يكن سحراً ولكنه حقيقة . ثم قالت امرأته إنه مجنون مثل بيروس . وأظن أنك قادر أن تتصور مثل هذه التصورات على حسابى ، وإن كان الأمر كذلك ، فانى أثور

ثم قال بيروس : « أتهين سيدتي بمثل هذا الكلام، وهى مثال الاستقامة والعفة؟ ثم قامت الزوجة متصنعة الغضب لتضلل زوجها الأبله وهي تقول :

— أتظن أننى بعد هذه الأعوام الطوال أتجرأ على اقتراف هذه الفضائح على مشهد منك ؟ وتأكد أننى إذا كنت أريد شيئاً من هذا القبيل لا أعدم الوسائل لارتكابها دون أن تشعر . وإذا كانت كل هذه المصائب من هذه الشجرة المسحورة فانى لا أريد أن تؤذينى بعد هذا أو تضر امرأة غيرى . ثم التفتت إلى بيروس وقالت له : « أحضر فأساً واقطع هذه الشجرة واحرقها » فصدع بالأمر . ثم التفتت إلى زوجها وقالت له : « وحيث أنى أرى الآن عدوة فضيلتى ممدودة على الثرى، فانى أعفو عنك وأسامحك وأوصيك من الآن فصاعداً أن تكون عندك فكرة أحسن من تلك عن امرأتك التى تحبك أكثر مما تستحق ألف مرة . ولقد سر الزوج أن رأى عقيلته تعفو عنه واعتذر لبيروس عما فرط منه من الشك ودخل الثلاثة القصر مغتبطين مسرورين

وبهذه الطريقة خدعت المرأة زوجها وخانته وفضحته . ومن هذا اليوم عاش بيروس مع سيدته بدون كلفة ينعم معها بملذات الحب بحرية أوسع من حريته حينما كان تحت شجرة الكمثرى

محمد كامل حجاج



سوسن النوبية

للأستاذ محمود بك خيرت

جرّنا الحديث فى بعض ليالى سمرنا إلى طائفة من الناس لا تتصور المرأة وتنفر من ذكرها لأنها فى نظرها شيطان . وقد احتدم حولها الجدل وتشعبت الآراء حتى صاح أحدنا وكان يسمع ولا يشترك فى الحديث :

أراكم قسوتم عليها وأسرفتم ، مع أن الله حين خلق آدم خلق حواء إلى جانبه ليطيب بها ولتسكن نفسه إليها . أما أنها شيطان فقد يكون فى بعض النساء شياطين ، وكذلك فى بعض الرجال ، والانسان يحمل فى مطاوى نفسه الخير والشر معاً ؛ فإذا رجح أحدها كان ملكاً أو شيطاناً . ولولا ذلك لما جاءت الشرائع بتمديل نسبتى الخير والشر بين الناس

على أنى لا أتصور كيف يستغنى رجل كائناً من كان عن المرأة وقد ركّز الله فى كليهما الشهوة ليصونا كيانهما وليتحقق بقاء النوع . إننا نحسّ الحاجة إلى المرأة كما نحس الحاجة إلى الطعام والشراب . إلا أن من الناس من يهيم بها هياماً فلا يملك الصبر عنها كالنهم يحمل معدته فوق ما تطيق فتتخم . كما أن منهم من ينظر إليها كوسيلة وقتية من وسائل الاستمتاع حتى إذا بلغ غرضه منها زهد فيها — ولكنهم جميعاً لن يجدوا مفراً منها وإلا كانوا ثائرين على الطبيعة ، لأن حاجة الرجل إلى المرأة وحاجتها إليه من بعض نواميس الغريزة التى لا تخضع لسلطان

واقد عالج هذا الموضوع كثير من الكتاب انتهوا فيه إلى الحد الذى ذكرته . ومع ذلك ألم يقرأ أحدكم قصة تاييس ؟

قلنا وما هى قصتها ؟ فقال :

إن هذه الفتاة ابنة خمّار وثنى لم يُعن بها ، حتى إذا آنست (مِروا) العجوز فى حنجرتها مرونة وفى قوامها ليناً أقبلت عليها تعلمها الغناء والرقص ، فخرجت زهرة ناضرة وخليمة خلاّبة ، أقامت فى أنطاكية وإسكندرية دولة للشهوة خدامها الأمراء والحكام ، وفجّرت فيها بحراً للفسوق تموج لججه بالنضار تطؤه بقدميها اللتين ما عرفتا غير أوحال الفقر . وظل هذا شأنها : كأساً مترعة تطوف بها يد الليالى على الشفاه التى أعطشها الهوى حتى بلغ بافنوس الناسك مدينة اسكندر الأكبر فقام فى نفسه أن يصدها عن سبيل الغواية ويفتح قلبها إلى دين الله

ومن أعجب الأشياء أن هذه الفتاة الهيفاء الناعمة المتحكمة فى كل ذى سلطان نفذَت إلى نفسها التى تغلغلت الشهوة فيها أنوارُ الهداية فهان عليها أن تتبعه وأن تحرق قصرها وما ضم من متاع ونعيم حتى لا يبقى أمام عينيها أثر فاتن من ماضيها

أما ذلك الناسك فكأنما أفرغ فيها كل ما وعت نفسه من هدى وتقوى ، حتى إذا وجد الشيطان عنده مرعىً خصيباً نفخ فيه من روحه غوايته فأشعل قلبه بهوى تلك الصالحة ، وهكذا

هداها ولكنه ضل ومات خاسراً . والشهوة الثائرة قد تعصف بالناسك كما تردّ تقوى الله الضالين إلى حظيرة الهدى

ويلوح أن أناتول فرانس واضع هذه القصة أراد بهذه المقابلة بين الهدى والضلال فى نفسين متنافرتين أن يضرب لنا مثلاً على أن محاربة الرهبان نفوسهم لقتل ما غرسه تكوينهم فيها من الشهوة إنما هى خروج على الطبيعة البشرية التى لا يُقهر سلطانها

نعم إن هذه الشهوة كانت أكثر تمكناً فى نفسها منها فيه ، وله من صلاحه ونسكه رادع ولها من ماضيها المضطرب مُغرٍ ؛ إلا أنها فى الواقع سئمت معدة حواسها تكرار هذا اللون من طعام الشهوة فعافته . ولذلك كان انتقالها إلى نور الهداية طبيعياً ؛ وكذلك بافنوس الذي ظل طول حياته يحارب شهوته ويضغط عليها حتى انفجرت ؛ فقد كان نزوله على حكم الغريزة طبيعياً أيضاً

وعند ذلك صاح أحدنا : وما قولك فى أخينا الحلو وهو مع حُسن صورته وشبابه وميسرته يمقت المرأة مقتاً ، حتى أنه ليستثقل أن يمرّ ذكرها بسمعه . بل إنه ليغادر المجلس الذى تُذكر فيه . وربما كان هذا هو الذى هيّأه إلى الاندماج فى الدراويش ومشايخ الطرق فانقطع عنا . فاستمر في حديثه قائلا إن هذا لا يغيّر من القاعدة التى ذكرتها . وانما تعرض أحياناً احداث الدهر للانسان وتصدمه فى بعض خصائص عقله فيقوم بين ذاكرته وبينها سدٌّ . إذ لكل عاطفة تجيش فينا ونشعر بها مخّنا مكانٌ بين تلافيفه قد يتأثر بمثل هذه الأحداث فتفقد هذه العاطفة ون أن نفقدما جاورها . وإنى لأعرف عامياً فى مصر كان علماً من أعلامها صادفته ظروف قاسية أصبح على أثرها يجهل القراءة والكتابة كأنه لم يتعلمهما . بل إنه كان لا يذكر اسمه ولا يعرف كيف يكتبه . وهذه مسألة ثابتة من مسائل الطب الشرعى . فمن يدريك أن بعض هذه الظروف وقعت لصاحبك وكان سببها المرأة . بل من يدريك أن المرأة أيضاً قد تهدم فى يوم من الأيام هذا الهوس الطائفى الذى تمكّن منه وصرفه عن العمل النافع الذى خلقنا الله له ؟

وعند ذلك طرق أسماعنا وقع أقدام تقترب منا ثم دخل علينا حسن أفندى الحلو نفسه وهو يصيح : على شرط ألا تتعرّضوا لذكر المرأة . فضحكنا وأخذنا نحيّيه ونعتب عليه لانقطاعه وقد لفّ حول طربوشه عمامة خفيفة ترك ذؤابتها تتدلى على إحدى كتفيه . وكانت أصابعه تمرّ على حبات سبحته حتى إذا ما فرغ قال : والله لقد هزنى الشوق فاستأذنت إخوانى الليلة لأزوركم

كم كنت أودّ لو أنكم أخذتم عهداً مثلى فكنتم تقطعون الليل والنهار بالعبادة بدلا من هذا الهذيان الذى أنتم فيه . إنكم تجهلون مبلغ حلاوة الأيمان بالتوجه إلى الله والفناء فيه . لا تبحثوا عنه فى المساجد أو غيرها ولكن ابحثوا عنه فى بواطنكم . استمعوا إلى الصوت الذى يناديكم بين جنوبكم . وليكن لكم قاض من أنفسكم هو الضمير ، ورادع يحول بينكم وبين الزيغ هو خشية الله . ثم إياكم أن تغفلوا عن ذكره فانه بذكر الله تطمئن القلوب . انني أصبحت أحتقر هذا الوجود الفانى وزخرف هذه الحياة الكاذب . أشعر وأنا فى حضرة الله كأنى ملك أمرح فى ملكوته وأسبح فى سمواته . أصبحت

أحسّ أننى لم أعد مادة بل معنًى . لا يشغلنى عنه شاغل من أمور الدنيا ولا يستهوينى بريق ضلالها وباطلها . على أننى لم أبلغ هذه المرتبة إلا بعد جهاد عنيف مع حواسى ، وحرب طويلة بينى وبين نفسى . والحمد لله على أنها ماتت . لقد ماتت . إنها ماتت . الله أكبر الله أكبر ! لا إله إلا الله ..

وكان يردّد ذلك بصوت عال ، وقد أخذ يدور فى الغرفة وجسمه ينتفض وبصره زائغ ، ثم سقط وقد غاب عن صوابه وتصلبت أطرافه ... فأسرعنا إليه ننفخ وجهه بالماء والخل وندلكه بالكحول ونحرك أطرافه برفق ، حتى إذا عاد إلى صوابه وفتح عينيه تملكه الغضب وأخذ يصيح : لم أيقظتمونى ؟ لمَ لم تذرونى وشأنى ؟ إننى كنت فى الحضرة القدسية ، وقد ارتفعت من دونى أستارها وغمرتنى أنوارها ... والله لا ضمّنى وإياكم مجلس . ثم انفلت من بيننا وصدى تكبيره وتهليله يصل إلى أسماعنا ثم يضعف شيئاً فشيئاً حتى انقطع

***

وكان حسن افندى يملك غير أطيانه قصراً فى الزمالك أعده لأسرته ، ومنزلا بالجيزة يطل على ترعة السواحل قريباً من محطة السكة الحديدية ، وهو قديم شيده أجداده ، وكان يقيم به ويستقبل فى فنائه الفسيح إخوانه فى الطريقة ، فكان فى أغلب الليالى وبخاصة فى ليالى الحضرة يعوج بهم وتدوى أصواتهم فى أركانه بالصلوات والأذكار

على أنه للترويح عن نفسه كان فى كل أسبوع يستقلّ عقب صلاة العصر ترام الأهرام إلى كازينو مدينة الجيزة ، حتى إذا استراح به بعض الوقت صعد إلى الصحراء يستنشق هواءها قليلاً ثم يعود

وفى إحدى تلك المرات بعد ذلك الحادث الذى وقع له عند أصدقائه أمسى عليه الليل وكان الهواء رطباً عليلا والقمر قد برز من جانب الأفق ينشر على الصحراء غلالة رقيقة من نور هادئ لطيف ، فطاب له السير أمامه على غير وجهة . وكان كلما ابتعد عن الأهرام لاحت أشباحها من خلفه كالخيام الجبارة تشرف على فضاء هذه الصحراء التى مرت عليها القرون وأشرق فى ربوعها العلم والبأس والحكمة من عهد الملوك الأقدمين . وعند ذلك يفكر فى عظمتها وعظمة من شيدوها . ولكنه لا يكاد يرفع بصره إلى السماء وإلى هذا القمر الذى يسبح فيها من ملايين السنين حتى تلوح له ضئيلة حقيرة فى جانب عظمة الله وقدرته . وتأخذه هزة ساحرة فينطلق لسانه بالتكبير ، وكأن الأهرام من مضخمات الصوت ترجع صدى صوته عالياً يدوى فى أجواء هذا الفضاء

وكان فى أثناء سيره تمثر قدماه بعظام أوفر طولاً وحجماً من عظام الانسان فيذهب إلى أنها من بقايا الجمال النافقة

وعند ذلك ينتقل بخاطره إلى هذا الحيوان العجيب فهو ساكن رابط الجأش على عكس الخيول يقطع لجج الصحارى التى لا تنتهى بغير أن يقف ودون أن يأكل أو يشرب . لا يؤثر فيه التعب أو أنه يتحمله صابراً . وإذا مرض كتم مرضه لا يبديه وقائده الذى يسمع من بعيد زئير الوحوش وصهيل الخيول وأصوات الناس لا يسمع وهو على قيد خطوة منه غير شهيقه وزفيره دون شكوى أو أنين ، حتى إذا أنهكه الجهد وغلبه الألم وأوهى جلده الحرمان وشعر بأنه موف على الهلاك هوى إلى الأرض ومد

عنقه فوق الرمل ثم أغمض جفنيه مستسلماً لمصيره

كان حسن يلمس عظمة الله فى السماء وشموسها والأرض وما فوقها وما في جوفها وما فى نفسه وما هو دونها وهو يقول :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سرقه جمال الطبيعة وسحرها فكان يسير أمامه لايلوى على شيء . حتى إذا ابتعد عن الأهرام وأحس التعب فكر فى العودة لولا أن صوت مزمار (أرغول) طرق أذنيه وهو يظهر ويختفى فى تموجات الريح ، وكأنه أنة حزين تشق سكون الليل ، فقام فى نفسه أن يقصده فلعله حفلة ذكر قامت فى وسط الصحراء ، وتحت قبة السماء الصافية بعيدة عن ملاهى المدينة وشرورها

وأخيراً بلغ مكان الصوت فإذا به صورة مصغرة من قرية متنقلة متواضعة تتكون من ستة أخبية من الشعر على مسافات متقاربة وقد انتثر من حولها فرسان وبعض حمير وعدد من خراف ومعز غير قرد وكلب كان ينبح عند قدومه . وعلى مسافة غير بعيدة عربة كبيرة يظهر أنها معدة للنقل

ولما دنا من أهلها حياهم فنهضوا لتحيته ثم أعدوا له فروا غزير الصوف جلس عليه . أما رئيسهم وهو شيخ أبيض اللحية طاعن فى السن فصاح ليعدوا له القهوة . وكانت البقعة تموج بالرجال والنساء والأطفال يستمعون إلى صوت المزمار ، كما أن فتاة حلوة القسمات فى العشرين من عمرها كانت ترقص على صوته ، فلما وقع بصرها عليه فرت لتختفى خلف تلك الأخبية

— شرفت يا حضرة الأفندى

— الله يحفظك . لعلى لا أكون ثقلت عليكم .

ولكنى سمعت صوت مزماركم عند الأهرام فشغفنى فجئت

— أهلاً وسهلاً ! يا مرحباً يا مرحبا !

— وهل هنا مقامكم دائماً ؟

وعند ذلك ضحك الشيخ وقال :

— كلا يا سيدى . إننا قوم رحل نطوى الأرض ولا نقيم حيثما نحط إلا مقدار ما نأخذ قسطنا من الراحة . إنك ترى هناك وسائل عيشنا نطرق الحديد ونطلى النحاس . ومن أولادنا من يحسن السير فوق الحبال المشدودة والوثب والدوران فى الهواء وغير ذلك من الألعاب البهلوانية كما أن منا من يطوف بهذا القرد وذلك الجحش أزقة القرى التى نستقر فى ضواحيها . على أن من نسائنا أيضاً من يجدن قراءة الحظوظ بالودع ...

— بالودع ؟ ... أنتم إذن ... ؟

— قلها يا سيدي ولا تخف ... إننا من النوَر ؛ من هؤلاء الذين يصب أهل المدن عليهم صواعق احتقارهم ومقتهم ، والله وحده عليم بما تنطوى عليه نفوسنا من الوداعة والأنصاف ، ورعاية الجميل ؛ لا نقبل الضيم ولذلك ليس لنا وطن يأوينا ويقيدنا ، ونهيم على وجوهنا فى طلب الرزق طليقين لأننا نعشق الحرية ونقدسها . أما سخط أهل الحواضر علينا فلأن فريقاً من الناس — وليسوا منا — يعبثون ويسرقون تحت ستار هذا الاسم الذى يضم طوائف النور جميعاً فى الشرق وفى الغرب ...

— وفى الغرب ... ؟

— نعم وربما أدهشك أننى أجيد اللغة التركية وأتكلم الاسبانية قليلا لأنى طفت فى شبابى بالأندلس وبالأناضول واختلطت بالنور المتجولين

فيهما . بل ربما أدهشك أنى أتكلم بلغة عربية لاعيب فيها لأني حفظت القرآن صغيراً وقرأت الكفراوى والأشمونى بالأزهر ، بل إن ابنتى لتقرأ وتكتب لأنى علمتها . ولو لم يمت أبى لكان لى اليوم شأن آخر . وهكذا اضطررت إلى أن أخلفه على هذه القافلة

وعند ذلك انطلقت من خلف الأخبية صرخة شقت الفضاء لفتت الشيخ ومن معه وإذا بسوسن ابنته (وهى تلك الفتاة التى كانت ترقص) تعدو حتى ارتمت فى حجر أبيها وهى تقول : ألم أقل لك وله إنه لم يعد زوجى ؟ ثم انهملت دموعها فأخذ يلاطفها ويداعب خديها بأصابعه النحيلة ويقول : نعم ياسوسن لقد طلقته فلم يعد له بك صلة . طيبى نفساً واقصدى إلى الخباء فنامى ، وعند ذلك مسحت دموعها بطرف ثوبها وصدعت بأمره . أما هو فنادى على ذلك الزوج (واسمه برعى) وأنّبه وحذّره من الاستمرار فى غوايته وإلاّ طرده . فتراجع مخذولا حزيناً ثم اختفى . وبعد ذلك التفت الشيخ إلى ضيفه وكأنه أدرك ما يتردد فى نفسه فقال : إن الزواج عندنا سهل يا سيدى يكفى فيه رضى الطرفين وشاهدان منا

— حسناً ، ولكن هذا الطلاق ... ؟

— والطلاق عندنا حق لها . ألم تجز الشريعة أن تكون العصمة بيد الزوجة ؟ لذلك كان جائزاً فى طائفتنا التى نشأت على المساواة والحرية . وهكذا لا يتحكم الزوج فى امرأته وهو يرى نفسه مهدداً بهذا الحق فيجتهد أن يصون علاقته معها بالاحسان والحب !

— وإذا كرهها أو كرهته ؟

طبيعى عندئذ أن يستعمل كلٌّ حقه ، فأنت لا تتصور كيف يطيب الزواج عند نفسين يقوم بينهما سد من الكراهية والبغض

وكان حسن افندى يتألم فى نفسه ويستغفر الله فى سره ، ولكنه مع ذلك أكبر هذا الرجل وأعجب به فنهض وهو يقول : ليت يتيسر لى الاجتماع بك مرة أخرى . ومع ذلك فلمَ لا تشرّفنى أنت بزيارتك ... ثم دلّه على منزله وحيّا . وكان الشيخ قد أعد له إحدى الفرسين واثنين من رجاله يرافقانه ولكن كم كانت دهشته لما بلغ الكازينو وقد رأى سوسن .. أمامه !

***

إذن هى لم تنم كما أوصاها أبوها . ولعلها كانت أيضاً تنصت إلى ما دار بينهما من الحديث . ولكن ما الذى دفع بها إلى تعقبه ؟ ألعلها أرادت أن تمتّع عينيها بسحر ذلك الليل الفاتن ؟ ولكنها كانت تنعم به أيضاً وهى إلى جانب أبيها . ومع ذلك فقد كانت وهو يصعد إلى عربة الترام واجمة مشدوهة تكاد عيناها تفلتان ما حبسته فيهما من الدمع ، وتكاد صرخة الألم المكتومة فى صدرها تنطلق من شفتيها

ومرت به كذلك حادثة برعى معها وانصرافه ذليلا من لدن حضرة أبيها ، ولكنه كان يكره المرأة ويجهل معنى الحب ومعنى العذاب فيه ، فما كان يشعر بما شعر به ذلك الفتى من الحزن ولا بما كانت تحسه من النشوة وقد أصبح فؤادها طليقاً

كانت هذه الخواطر تتزاحم فى نفسه على أثر وصوله عند منتصف الليل إلى داره . ولكن التعب الذى عاناه كان فوق احتماله فانحدر إلى فراشه واستسلم للنوم

وكان حسن أفندى يحرص على أداء الفروض

فى أوقاتها ولا سيما صلاة الفجر . ولكنه لما استيقظ كان النهار قد ولى ودخل الليل ، وهو مع ذلك لا يستطيع الحركة محطما خائراً كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، وكانت أعصابه مشدودة وخواطره مفككة .
على أنه نهض أخيراً وصعد إلى سطح الدار فرآى القمر يبدو قرصه عند حدود الأفق ولكنه لم يأبه له وهو الذى حين رآه بالأمس انتقلت به نفسه إلى قدرة الله وعظمته ، ثم مد بصره إلى الغرب فإذا بالأهرام تلوح أشباحها الشامخة من بعيد ، فتذكر الليلة الماضية ورحلته إلى تلك القافلة وتذكر ذلك الزمار الذى كان يعزف على نقرات الدف وتلك الصبية التى كانت ترقص كأنها عروس الصحراء

وعند ذلك انبسطت نفسه واستقرت خواطره وأحس دبيباً يجرى فى جسمه ، ونشوة تتمشى فى فى مفاصله ، وهو لا يهتدى إلى سبب ذلك . ولكنه يعود فيذكر تلك الفتاة الجميلة الرشيقة الليِّنة فلا يشعر نحوها بتلك الكراهية التى تناولت فى عينيه كل بنات حواء . بل إنه كان يجد فيها دليلا ناطقاً بعظمة الله . وهكذا ينتقل بتلك العظمة من الكون بأسره إلى تلك الفتاة التى أصبحت شغله يراها إذا نام وإذا استيقظ وإذا صلى وإذا سبح ، وهو على كل حال سعيد راض ما دام أنها صارت وسيلته إلى الاتصال بالله ...

غير أنه يعود فيذكرها وهى ترقص ، وقدها يتثنى كالخيزرانة وردفاها يترجرجان كأنهما الموج ، ونهداها يطلان من فتحة قميصها كأنهما هرمان صغيران ، ثم يتدرج إلى عينيها وما تشعانه من سحر الفتنة ، وإلى أنفها الحلو الدقيق ، وشفتيها القرمزيتين الشهيتين ، وابتسامتها التى يبتسم الوجود كله فيها فينزه طرف خياله فى محاسنها ويؤمن بالله وعظمته فى صنعه . ولكنه يكون قد انتقل بها هذه المرة من صفاء الروح إلى كثافة المادة

ثم يذكرها حين لحقت به وهو يهم بالعودة والدموع حيرى فى عينيها وهى حزينة خاشعة لأنها أعجبت به ومال قلبها إليه ، فيشعر كأنها أخذت تهبط رويداً رويداً إلى أعماق نفسه . ولكنه يذكر أيضاً موقف ذلك الفتى اليائس منها وما أصابه من الانكسار والذلة عندها فيقول : سبحان الذى أذله بها وأذلها بى . ولكنه يعود فيخيل إليه أن شيخه الذى عاهده على التقوى عند رأسه ينظر إليه شزراً ويؤنبه على ما فرط فى حق الله فينتبه مذعوراً وقد انتفض جسمه وضلت نظراته ، ويدرك أن الشيطان إنما يوسوس له ليخرجه من رحمة الله كما أخرج آدم من جنته فيعود باللوم على نفسه الأمارة بالسوء ويسارع إلى البكاء والندم والاستغفار

وظل حسن افندى على هذا أياماً ينساها ثم يحن إليها ، ويصرف نفسه عنها ثم يعود إلى ذكرها ، كأنها حمى متقطعة تذهب وتعود ، وكأن لصورتها مداً وجزراً فلا تكاد تنحسر عن خياله حتى تطغى عليه إلى أن جاء يوم دخلت عليه فيه وهى تتخطر كالغصن فانفرجت أساريره وأشرق وجهه وقد مد إليها ساعديه ليضمها إلى صدره وهو يقول : تعالى يامستودع شقائى ونعيمى ، وياخيال يقظتى وحلمى ، لم أخلف أبوك وعده فلم يزرنى ؟

قالت : لقد انتقلنا إلى مقربة منك . أنظر . ثم أخذته إلى نافذة قبلية تطل على فضاء استقرت القافلة فى وسطه ، ثم قالت : ولكننا لن يطول بنا المقام هنا فقد عزم أبى على الرحيل مع الصبح غداً ؛ ولهذا

أسرعت إليك فقد لا أراك بعد ذلك ... ولـكنها حدقت فيه كأنها تتحسس ما يجيش فى صدره وقد حدثته نفسه أن يخالسها قبلة فسبقته إليها وعنـد ذلك طوّقها بساعده وضمّها إلى صدره فدبت حرارة جسمها الدافئ فيـه واستيقظت الشهوة المكبوتة فى نفسه وقد توترت أعصابه واحتقن وجهه واتسعت حدقتاه وتلاحقت أنفاسه فحملها إلى منضدة قريبة وقد أخذ العراك العنيف يضطرم بين فجوره وتقواه حتى تغلب شيطانه فهمّ بها ، ولـكنها دفعته بساقها إلى بعيد ، ثم قفزت إلى مقربة من الباب تضحك بملء فيها وتقول : لقد أخطأ حسابك فما كنا نحن بنات النور لنؤخذ غصباً ، ولـكن إذا كنت إلى هذا الحد تحبنى فلم لا تتزوج بى ؟

— فقال :

رضيت يا سوسن وستكونين هنا ملكة على عرش قلبي ، وصاحبة الأمر والنهى فى هذه الدار وفى كل ما تملك يدى ، وستغرقين بعد الذى أنت فيه فى الديباج والذهب والحلى ...

ولـكنها عند ذلك أشاحت بوجهها عنه قائلة : مالى ولـكل هذا الذي ذكرت ؟ إننى لن أغيّر هذه الأسمال التى علىّ ولن أستعيض عن هذا العقد بغيره وإن كان من الخرز ، ولا عن هذا القرط وهـذه الدمالج بسواها وإن كانت من النحاس . لقد درجنا على القناعة . حسبنا بالشمس والهواء والحرية نبيا نمرح فيه ، ومع ذلك فان بينى وبينك من فوارق البداوة والحضارة سداً ... إلا إذا نزلت على ديننا وعشت معنا كأنك منا . ولـكنك لن تفعل فخير لك ولى إذن أن ننسى ما فات . ثم انطلقت نحو الباب ...

... خرجت بغير أن تتردد أو تلتفت قوية عزيزة وهي التى ليلة تعقّبته كانت تفيض عيناها بالدمع وملامحها بالأسى خائرة ذليلة

ولا ريب أنها كانت تحبّـه وتتهالك عليه وقد فرغ قلبها من برحى . والطبيعة تنفر من الفراغ ، فقلبها لن يعيش بغير الحب ؛ ولا يفتأ عامراً به لأنه غذاؤه وجـنّته

على أنها لم تـكرهه أيضاً ساعة غادرته على تلك الصورة . وإنما وجدت نفسها بين دافعين من حب تمكن منها وتقاليد ورثتها واستقرت فى دمها . ولو أنهـا كانت من غير بنات النور لاحتفظت بحبه ولسخرت من تلك التقاليد القاسية الجافة وأمامها من متاع الدنيـا ضياع وقصور وحلي ومال وترف ونعيم ، ولـكنها آثرت على كل ذلك أسمالها البالية وحليها الرخيص الـكاذب . بل إنها عافت نفسها أن تتزوج من غير قبيلتها بفتى لا يحمل فى نفسه وفى ذمه عاداتها وتقاليدها . ولذلك هان عليها ذلك الحب ونعيمه في سبيل رعايتها والقيام عليها

ولو أن حسن أفندى كان تأثر خطواتها عند رحيلها لرآى كيف أنهـا أسرعت إلى خباء أبيها وارتمت عند ركن منه تتململ وتئن وعيناها تسكبان الدموع السخينة وصدرها يرتفع وينخفض تحت تأثير أنفاسها المتسارعة الحارة ، ولعلم إلى أى حد هو عزيز على نفسها ، وإلى أى حد هى تحبه وتجود بحياتها فى رضاه . ولـكنها هان عليهـا أن تحطم هناءها بيدها على أن تـكفر بتلك التقاليد

أما هو فـكان عند انصرافها حائراً ذاهلا وقد صدمه شرطهـا إذ يستحيل عليه أن يخضع له أو يفكر فيه؟ وله هو أيضاً من كرامة تقاليده ما يقف

ما يقف حائلا بينه وبين الاسترسال فى هذا الحب . والتقاليد عقيدة كالدين من خرج عليها كان كالمرتد. ولذلك حمد الله على أن وقف بهما الأمر عند هذا القدر وعلى أن قافلتها سوف لا تقيم أكثر من سواد ليلة ثم ترحل فلا يعود يفكر فيها ولا يلبث أن ينساها

وقد كان من أسباب الترفيه عنه أن تلك الليلة كانت من ليالى الحضرة وقد أقبل إخوانه فانخرط فيهم وأخذوا يذكرون الله ويتلون الأوراد ويرتلون دلائل الخيرات . ثم انتصبوا للذكر فما كاد يرتفع صوت النأى ويغنى المنشد : يامليح اللمى وحلو التثنى . حتى انتقل خاطره إلى الصحراء ينصت إلى صوت ذلك الأرغول وهو يثير الحنين . وينظر إلى تلك الفتاة وهى تملأ عينيه بسحر تأودها وتثنيها . وعند ذلك ذكر ما كان من أمرها معه فصرخ صرخة هزت المكان وسقط على أثرها بغير وعى فنقلوه إلى غرفته ثم انصرفوا وهم يهللون ويكبرون لأن روحه الصالحة النقية فازت بالحظوة عند الله وتجلت عليها أنوار السماء ...

ولم تلبث هذه النشية قليلا حتى أفاق فأخذ يبكى كالطفل وقد أدرك أن حبها قد تمكن منه وأن علته بها أصبحت بحيث لا ينفع فيها طب ولا يصرفها عنه صلاح أو تقوى . وعند ذلك انتقل إلى تلك النافذة فإذا بالسكون شاملاً وبالخيام التى كانت تموج بالحركة ساكنة هاجعة فيحدق فيها كأنه يتبين أيها تحوى تلك القاسية التى نعم جفنها بالنوم وهو بعيد عنه

ولكن لم يواصل التفكير فيها وقد انقطع كل ما بينهما ، ولم لا يحاول النوم هو أيضاً فيضع به حداً لهواجسه وعذابه ؟ وهكذا عاد فانطرح فوق سريره وغلبه سلطان النوم ، ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً حتى استيقظ فجأة عند الفجر على ضوضاء وجلبة من جانب ذلك الفضاء فأسرع إلى النافذة ولكنه لم يجد للأخبية أثرا . ورأى العربة تتهيأ للرحيل يتقدمها أفراد القافلة ومن خلفها شبح لم يكن غير شبح سوسن لأنها كانت تتلفت إلى جهته كأنها تتزود منه وتودعه، فطارت نفسه جزعا واندفع كالسهم إلى الطريق . ثم أخذ يعدو وينادى حتى لحق بها ...

« القاهرة » محمود خيرت

من التاريخ الإسلامي

ابن الحب

للأستاذ علي الطنطاوي

(الطائف) ... تلك القرية المسحورة التي سارت ذات يوم — كما تروى الأساطير[1] — سارت من ربوع الشام بينابيعها وجداولها وبساتينها ورياضها وزهرها وثمرها فطافت حول الكعبة، ثم تسلقت الجبال حتى استقرت فى أعالى جبل (غزوان)، وهجعت على سرير من السحاب حالة بالسهول والأنهار والنعمة والخصب، لتستيقظ مع الفجر فتصنع العظماء والقادة، وتقذف بهم إلى الدنيا الواسعة ...

(الطائف) ... مدينة الحجاج ...

***

نامت (الطائف) فى تلك الليلة الساكرة القمراء ولفّها الليل بغلالة رقيقة، ينفذ من خلالها شعاع القمر فيبدى محاسنها الفاتنة، ويحسر عن بيوتها المختفية بين الأشجار كأنها أسراب من العشاق قد تغلغلت فى هذه البساتين، لتنزوي إلى عزلة سعيدة، تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضى، وتحلم بلقاء جديد .. وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهليهم، كما نام الرعاة إثر نهار حافل بالتجوال الفاتن فى هذه الجبال الكاسية بالعشب والزهر، ولم يبق فى المدينة عين ساهرة ... إلا عين سيد غريب يذكره هذا الليل الساجى، وهذا البدر المطلّ، بلده وحبيبه فيؤرّقه الشوق، فهو يطوف بهذه المرابع ويده على قلبه ... وعيوناً أخرى خلال هذه البيوت البعيدة التى تسكن فيها الرذيلة وراء هذه الأضواء الكليلة التى ترتجف من الخجل، وهي تضرب بأشعتها تائهة وسط الفضاء حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن فى استحياء أجساداً عارية تطفح بالشهوة ... ينتظرن عابراً يسوقه القدار إليهن فيمنه اللذة، ويطعمنه من لحمهنّ ... ليطيهن دراهم يحملنها إلى أسيادهن الذين يكرهونهن على البغاء، ولا يكون نصيبهن بعد ذلك إلا أرغفة من الخبز معجونة بالدم والشرف والوحل ...

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الاسلام!

فلما مال ميزان الليل، وغلبهن التعب، ولم يطرقهن طارق، تسللن إلى بيوتهن فنمن على فرش العار، إلى الصباح، ليستقبلن من يقذف به القدر اليهن من الرجال ... ولم يبق إلا فتاة صغيرة، تنظر إلى السماء بعينين زرقاوين بلون السماء، تفيضان بالطهر ... رغم أنهما فى وجه بغىّ، ولها فم صغير حلو ينطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفتاه الرقيقتان، وكأن هذا الفم وردة من ورد الجنان الخالدة، غير أنها لا تذوى ولا تذبل، وأنها من لحم ودم، وأنها تشمّ بالفم، وتلمس بالشفاه ... وأنف إغريقى جميل كأنه أنف ڤينوس، وشعر أشقر متموج يبرق

(١) راجع (الياقوت) في (معجم البلدان)

تحت أشعة القمر كبريق الذهب ، وجسم أبيض لدن ، له لون العاج ، ولين الحرير ، وسحر الحب ، وفعل الخمر ... فهي وردة نمت في غير أرضها فزادت إلى جمالها جمال الندرة ، وهي ملك هبط من سمائه فوقع في هذه البقعة الملتثة بالرجس . ولو أن للحياة أسلوبنا نحن البشر وتفكيرنا لكان مكان هذه الفتاة بين ذراعي أم تضمها إلى صدرها الفياض بالتضحية والاخلاص ، أو زوج يذيقها الحبّ والوفاء ، ويكتم سرّ هذا الجمال أن يفشو ويستعلن وتعبث بقدسيته العيون السارقة ، والأيدي المجرمة ... ولكنّ الحياة لم تر لها إلا هذا المكان الذى تعرض فيه الأجسام البشرية لكل وحش بشرى ... أفرأيت الزهرة اليانعة تلقى بين ألسنة اللهيب ؟ والحمل الضعيف يرمى بين أنياب الذئاب ؟ كذلك كانت هذه الفتاة وقد قذفت بها الحياة بين ذراعي كل وَبْش فظ غليظ من ذئاب البشر وكلابهم ... هي زهرة ، ولكنّ الرياح العاتية قطفتها من غصنها ثم ألقتها بين الأشواك البرية لتجف عليها وتذوى ؛ هي وردة ولكنّ النهر الجياش اختطفها من منبتها ثم رمى بها في الحقل لتموت تحت أرجل البهائم والبشر ... هكذا صنعت بها الحياة . إن للحياة أسلوباً لا نعرفه ، ولا تصل إليه مداركنا البشرية ...

لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذى يعبث بعينيها الناعستين من غير نعاس ... تأمل أن تجد امرأ يدفع إليها المال الذى فرضه عليها سيدها حين أرادها على هذه الحياة الداعرة ... فنزلت على إرادته ، وجعلت جسدها مائدة لكل جائع ... وهل تستطيع له مقاومة وهى أمته وملك يمينه ، حملها من وطنها البعيد فنهل من كأس جمالها حتى شبع وروى ، فصبّها على قارعة السبيل تلغ فيها الكلاب ... إنه يصرّفها كما يصرّف دابته ، ويصنع بها ما يصنع بثوبه يلبسه أو يرميه في الطريق ، أو يهديه إلى صديق ، أو يرضى له التحريق والتمزيق ... وذكرت عرضها الذي مزقته مطامع سيّدها — وجسدها الذى أبلته وحشية الرجال طلاب اللذة ، من كل شكل ولون ، فانطلقت تبكى ... وذهبت هائمة على وجهها ، حتى ابتعدت عن هذه البيوت ، وإذا هى بشبح يسير في شعاع القمر ، متشحاً بثوب أسود لا يبين منه شيئاً ، فظنته من رجالها ... ومشت إليه ... فلما رآها ارتاع وارتد ، وعجب أن يرى فتاة صغيرة كأنما هى حوراء من حور الجنان تسير عارية تحت ذوائب الليل ... وسألها : مالك أيتها الفتاة ؟

— مالى ؟ ماذا ترى فيّ ؟

فلم يجب وجعل يحدق فيها تحديقاً شديداً ، مأخوذاً بجمالها ، وهى تنظر متعجبة لأنها كانت من السذاجة والصفاء بحيث لا تدرى جمالها وفتنتها ، ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلى وجهها ، وإنما وجدتهم جميعاً يخفضون عيونهم إلى غير الوجه ... فما بال هذا الرجل ؟

ومرت دقائق حسبها كل منهما دهراً طويلاً ، ثم قال لها بصوت حلو رقيق ، وقد أشفق عليها أن تنال برودة الليل من هذا الجسم اللدن الناعم الذى خلق لينعم بدفء الحب :

— لم لا تدخلين إلى دارك ؟

فأجابته هذا الجواب الذى ألفته حتى ما تفكر في معناه ، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها تؤديه كآلة جامدة :

— بعشرة دراهم ... هل تدخل ؟

ووثبت بين يديه تسعى إلى الدار بخفة ظبي أفلت من شبكة الصياد ، وتبعها حزيناً متألماً يفكر في هذا الجمال الطاهر كيف تقوي الرذيلة على تدنيسه ، ويأسى لها ، ويتمنى لو استطاع أن يسمو بها إلى أفق الطهر والعفاف ... حتى بلغت الدار ، فدخلت ودعته إلى الدخول ثم أغلقت الباب ، ووقفت بين يديه تنظر ما يريد ... يا لهذه المسكينة التي عاشت وسط الرجس ولكن قلبها ظل نقياً طاهراً ، لأن الخطيئة لم تصل إليه ... فلم يبد الرجل حراكاً ، فجعلت تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون . ماله لا يصنع ما يصنع سائر الرجال ، يأخذونها عارية كشعاع القمر ، فيعبثون بها ، ويسخرونها للذاتهم كأنها هي أداة لا تعقل ولا تشعر ، ويضطرونها إلى فتح صدرها وشفتيها لقبحهم ووحشيتهم وأقذارهم ، ثم يلقونها بعد أن تسكن أجسادهم الجشعة ، كما يلقى المرء برتقالة امتصها حتى لم يدع فيها إلا قشرة ممزقة خالية من الماء ...

ماله لا يفعل شيئاً من هذا ؟ إنه ينزع ثوبه فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل ، فيبدو من ورائه شبابه وجماله ، وثيابه الحريرية الغالية ، ثم يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه ، وينطلق يسائلها عن أصلها ومنبتها في لطف ودعة ... ويلقى في أذنيها أحاديث الحب السامي التي لم تسمعها من قبل ، فيحيي في نفسها الطهر والفضيلة ، ويغسلها من أدران هذه الحياة الداعرة ، فتحس كأن جناحيها اللذين حطمتهما يد الأيام قد نبتا من جديد ، وتحس بأن هذا السيد الذى هبط عليها هذه الليلة هبوط ملك الرحمة ، يطير بها فى آفاق لم ترها بعد . ولكنها آفاق واسعة كلها نور وعطر ...

وتذوق للمرة الأولى لذة القبلات المسولة ، التى تمتزج بها النفسان وتتحدان ، وتعرف حرارة الصدر المحب ، وحلاوة العناق اللذ ... فتلقى بنفسها على صدره ، وتمنح للمرة الأولى قلبها وجسمها معاً ..

* * *

ولما خرجت تشيعه كان الليل قد تصرم وبدت طلائع الفجر من وراء الصخور ، تغسل الأرض بالنور ، بعد أن خلعت عنها رداء الظلام . فوقفت الفتاة تنظر إليه وقد أحست بأن هذا الحب يغسل نفسها ويطهرها ، وأن الفجر قد سطع على قلبها فبدد ظلماته ، وتنبهت فى نفسها ذكريات ماض بعيد حسبته قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حيّ قد أكسبه الحب يقظة وقوة ، وطفقت صور هذا الماضى تتدافق على نفس الفتاة فتبصر صباها الطاهر كثلج الصباح ، وحياتها فى تلك الخمائل البعيدة ، فى أرض فارس ، كفراشة تطير خلال الورد ... ولكنها لا تتبين هذه الصور ، ولا ترى منها إلا خيالات ضعيفة . لقد مشت عليها السنون فمحتها بأقدامها .. ثم تفكر فى حياتها الحاضرة ، التى تخوض حمأتها الدنسة ، وتعرض لها صور هذه الأجساد البشعة القذرة التى مست جسدها ، وعانقته وقبست منه لذتها ، فيعروها ارتجاف شديد ، وتوارى وجهها بكفيها حياء وخجلا ... ثم تذكر هذا الحب الذي مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه ؛ فتعزم على التوبة لتصل ماضيها البعيد الطاهر ، بمستقبلها الذى طهره هذا الحب الوليد ...

* * *

وبزغت الشمس ولم يغمض للفتاة جفن . فدخلت منزلها تستريح وإذا هى برجل يدخل عليها

يبتغى أن تمنحه اللذة فتتأمل فى وجهه فإذا هو بكر الثقفى أشد شباب الطائف وأقواهم ، فيرعبها مشهده ، ويروّعها كأنها هى عذراء لم تفارق خدر أمها ،فتبتعد عنه مضطربة . . . فيعجبه ذلك منها ، ويظن أنها تداعبه ، فيبالغ فى الاقتراب منها ويأخذ بيدها ، فتحسّ لمسه كأن حية سوداء قد التفت على عنقها ، فيقشعر جسمها كله ويقف شعر رأسها وتصرخ به :

— ابتعد عنى ! فيضحك الرجل ويكركر من الضحك ، ويشد على يدها ليجذبها إليه . .

فتعود إلى صراخها . . .

— ماللغزال نافراً هذا اليوم ... تعالى

— قلت لك دعنى ... دعنى ... لست لك

فيصيح بها ساخراً : لمن أنت إذن أيتها العذراء البتول ؟ ألزوجك ؟

ويوغل فى الضحك ويضمها إليه فتلطم وجهه وتوغل فى الصراخ ، فيغضب الرجل ويقسو عليها

— ألم تقل لك إنها لاتريدك ؟

صوت هادىء متزن ، جعل بكراً يرسل الفتاة ويلتفت إليه ، فيرى سيداً كامل الشباب ، موفور الرجولة ، بثياب غالية تشعر بالسيادة والغنى ، وتطمئن الفتاة وترى فيه حبيبها ومنقذها . ثم يخالطها الخوف عليه لأنها تعلم أى رجل هو بكر ، ذلك الذى لايقوم له شاب فى هذا البلد ولا كهل ، وتنتظر نهاية هذا العراك ، وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها

ويصيح به بكر مغضباً :

— من أنت أيها الرجل الذى يتجرأ على بكر الثقفى ؟

ويرفع يده عليه ، ولكن الرجل يقبض على ذراعه ، ويقول له هادئاً :

— أتحب أن تعرف من أنا ؟ اقترب لأخبرك

ويلقى فى أذنه ذلك الاسم الكبير ، فتسقط يد بكر على جنبه ، ويعتذر لهذا السيد ، ثم يخرج يائساً يفتش خلال البيوت عمّن يبيعه اللذة .

ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التى أعدّها لها ...

***

وعقد الحب رباطه المقدس بين قلبيهما ، فأصبحت هى حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة يكون معها ، واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة فى عينيها ، وملأت نفسه هذه الفتاة التى ظهرت له فجأة ، كما تظهر الشمس فجأة من وراء الجبل فتملأ الوادى نوراً وحياة ...

لقد نسى هذا السيد المجد الذى ينتظره فى مكة والمعركة الكبرى التى ترقب فيه قائدها ومديرها .

ذلك هو الحب ، أقوى كائن وأعظم مخلوق ...

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه ، والفضيلة والرذيلة ، والطموح والحسد ، ولكن لا يمحوه شىء ...

الحبّ أحجيّة الوجود ، ليس فى الناس من لم يعرف الحبّ ، وليس فيهم من عرف ماهو الحبّ ..

الحبّ مشكلة العقل التى لاتحلّ ، ولكنه حقيقة القلب الكبرى ...

الحبّ أضعف مخلوق وأقواه ، يختبىء فى النظرة الخاطفة من العين الفاتنة ، وفى الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية ، وفى البسمة الومضة من الثغر الجميل ... ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً ، فيبنى الحياة ويهدمها ، ويقيم العروش ويثلها ، ويفعل فى الدنيا الأفاعيل ...

***

كانا يلتقيان دائماً فيتحدثان عن ماضيهما وحاضرها ، ويكشف لها من أسرار قلبه مثلما تكشف له من أسرار قلبها ، فكان هذا التكاشف طريق الوحدة ، والفناء فى الحب ، حتى إذا لم يبق لأحدهما سرّ يكتمه عن الآخر لم يبق له (أنا) ينفرد بها عنه …

لقد طهرها بحبّه ، وصهر ماضيها الملوث فأحاله بنار الهوى جوهراً خالصاً ، ورفعها من الحضيض الضيق الذى كانت تتقلب فى ظلماته إلى سماء عالية رحيبة . وليس كالحب إذا خلص مطهراً للنفوس ، ومصلحاً للأمم ، وحافزاً إلى الفضيلة …

الحب مدرسة الله الكبرى ، وقانونه الأقدس

لولا الحب ما أشرقت الشمس وغمرت الأرض بنور ربها ، ولا منحتها الحياة والنور . ولولا الحب ما التف الغصن على الغصن فى الغابة النائية ، ولا عطف الظبى على ولده فى الكناس البعيد ، ولا حنا الجبل على الوادى المتعزل ، ولا أمدّ الينبوع الجدول الساعى نحو البحر . ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض ، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع ، ولا كانت الحياة . . .

***

كانا يخرجان كل غداة حين تبسم الشمس بسمتها الأولى ، فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المطلة على البساتين القريبة ، والقفار البعيدة ، فيشاركان العصافير غناءها ، والورد ضحكه ، والنسيم همسه ، والنور طهره وصفاءه ، فيتحدثان ويتناغيان كحامتين ضمّهما وكر ، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون أغنامهم نحو السفوح العاشبة يغنون أغانيهم الساحرة أو ينفخون فى الناي تلك النغمة الفاتنة التى يتوارثها الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها ولا جمالها ، فاذا انبسطت الشمس وتصرّمت الظلال أويا إلى الدار فماشا روحاً واحدة فى جسمين … حتى إذا وقفت الشمس للوداع خرجا مرّة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس ، فينظر كل منهما بأربع عيون ، ويهمس فى أذنيها وهى فى حضنه ، صدرها إلى صدره ، وخدها مستريح إلى خده ، بأناشيد الحبّ العذبة فتسمعها بروحها وتجيب عنها بلغة عينيها ، حتى تغيب الشمس ويلقى الليل ذوائبه السود على الدنيا فيعودان

***

الحب ربيع الحياة المزهر ، ولكن الربيع ينتهي ويأتى الصيف بحرارته ، والخريف بشحوبه ، والشتاء بزمهريه ، ولابد أن ينتهى الربيع ! أيام الحب كأس مترعة بالخمرة الآلهية ، ولكن الكأس تفرغ ويحس الانسان بالظمأ ، ولابد أن تفرغ الكأس !

عاشا فى ليالى الحب ما عاش الصيف ، فلما بدت طلائع الخريف وغمرت الطائف وصخورها ، وعلا صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد.. لم يبق بدّ من الفراق … إن الحرب تدور هناك وراء هذه السفوح البعيدة ، يخوض قومه لظاها أفيبقى فى نجوة من لظى الحرب ، وهو السيد الشريف والفارس المعلم ؟ أيتقلب قومه فى غمار المعركة المشتعلة ويتقلب هو فى أحضان امرأة يقطف من عينيها السحر ويذوق من فمها الخمر ؟ لو أن رجلا من قريش لم يكن فى العير ولا فى النفير رضى بهذا الفرار لكان له سبّة الدهر ؛ فكيف بسيد العير وبطل النفير ؟ لم يبق بدّ من الفراق … فليمزق قلبه

شطرين ، فيدع شطراً فى هذه الأعالي الخضرة الساحرة يحلم بالحبّ ، ويتجرع غصص الذكريات ، ويذهب بالشطر إلى ميادين المجد ليألم فى سبيل الوطن ويحمل جرحه الدامى ليأسو جرح أمته ، ويضحى بالحب فى سبيل الواجب ...

وتهيأ للوداع ...

وعادا يزوران مرابع الهوى ومجالس الحبّ ، فيودعها ذكرياته وقلبه حتى انتهى بهما المطاف إلى هذه الصخرة المشرفة على الصحارى النائية ، فجلس إليها وأخذ فتاته بين ذراعيه يضمها ويخفى وجهه فى عنقها وخلال ثيابها ، ويشمّ عبقها كأنما يريد أن يتزود منها لأيام الفراق . وأخذت هي بنشوة الحب فجعلت تشد يدها عليه وتعبث بشعره ، وتريح رأسها على رأسه ، وتتمنى لو أن هذا الحبّ يصنع المعجزة التى ينتظرها المحبون أبداً ... أن يمحو هذه (الأنا) و (الأنت) ويجعل العاشقين شخصاً واحداً كما جعلهما روحاً واحدة ، وترى وهى بين ذراعيه كأن بينهما بعد المشرقين ...

وكان عند أقدامهما بستان جميل ، قد خالطت خضرته حمرة الشقائق الفاتنة فرآنه يحدق فيه ، وفى عينيه دمعة ، فراعها ما ترى ، وانطلقت تسائله ...

— اسمعي يا فتاتى ...

— أنا سامعة ؟

— أريد أن تغفرى لى ؟

— وم تستغفرنى أيها الحبيب ؟

— لقد كان حبّي وبالاً عليك . لقـد كانت حياتك ساكنة ساجية كليل الطائف ، فملأها حبي زمهريراً وبرقاً ورعداً . لقد كانت مثل اللجة الهادئة، فهجت فيها الأمواج . لقد أورثتك الألم ... والألم حصاد الحبّ ، فهل تغفرين لى ؟

أى ألم يا حبيبى ؟ أنا سعيدة ... سعيدة جداً .

وانطلقت تقبله فى فمه ...

— ولكن الواجب يدعونى إلى الذهاب ...

— بودّى ألاّ أذهب ، وأن أبقى معك أبداً ، ما ذا يصنع الانسان يا حبيبتى ؟ .. أتحبين أن يقال أنى فررت من المعركة ؟

— وأنا ؟

— سأعود إليك ، أحلف لك أنى سأعود ...

— وهذا الذى فى أحشائي ؟

— ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت حامل ؟

— نعم

— آه . إبنى !

واستطاره الفرح فأقبل يضع قبلاته من وجهها وعنقها حيث تبلغ شفتاه

— ليتنى أبقى حتى أراه . ليتنى أبقى . هـذا إبن الحبّ ...

— إبق ، إبق ،أتوسل إليك ، ماذا تخشى ؟

— أخشى العار ، انها سبّة الدهر ، فدعينى أذهب . سأعود إليك ، أفتنسيننى إذا أنا ذهبت؟ أتلقين بنفسك فى أحضان غيري ؟ لا لا ، إنك لن تنسى . إنك ستقومين على تربية ابننا . ستنشئينه على العظمة والمجد ، ليكون رجلاً يحمل قسطه من إرث أبيه ... وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه . دعيه ينشأ مستقلا كالزهرة النبثقة في الجبل ، ويعش حراً كالطائر الذى يغرد على كل غصن . لا تخبريه من هو أبوه ، بل أعدّيه لفهم هذه الحقيقة ، حتى إذا صار أهلاً لفهمها ، وغدا كفوا لحمل هذا الاسم

كنت أنا الذى يخلعه عليه ، وان لم أكن حياً فسأدع له من يخلع عليه اسمى …

***

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر فى هذا الطريق الضيق ، الذى يختفى حيناً وراء الصخور ، ثم يظهر ويوالى سيره نحو الرمال حتى غاب عن ناظريها ، فتلفتت تلقاء البلد ، فاذا هى تنكرها وإذا هى لاتعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد ان غابت عنها دنيا الحب تخفق قلبها واضطرب ، وجعلت تنادى حبيبها وتلح فى النداء . وتشير إليه وقد غاب عن ناظريها وراء الأفق البعيد . فلما لم تجد مجيباً تيقنت أنها لن تلقاه أبداً . نخرت على وجهها باكية منتحبة

ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحب الذى ولد شاباً قوياً ، ولكنه مات طفلا صغيراً وهذا المال الذى أبقاه لها الحبيب . تنفق منه على نفسها وولدها وترضى به سيدها ليدعها آمنة مطمئنة إلى حياة شريفة لا تدنسها الرذائل ، فكانت تتألم وحيدة كشمعة تشتعل فى البهو الخالى ، وتقهر نفسها الأحزان فلا تجد من تبثه أحزانها. لم يكن لها إلا الحب ، فكانت تعانق الحب فى الليل وتسايره فى الطريق ، وتناجيه فى الصباح ، وتناغيه فى المساء وتصحبه إلى هذه الأماكن التى عرفت فيها السعادة ولكنها لا تجد فى كل ذلك إلا الألم . إن كل ماترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة ، ومتع ليالى السعادة تستحيل إلى آلام ، فيا ليت الانسان لا يذكر ، إذن لما تألم ، إن ذكرى اللذة مؤلمة . وذكرى الألم لا تسر .. أو ليس من أكبر النعم على الانسن أن ينسى ؟ لولا النسيان كانت الحياة لا تطاق !

لقد قوى حبها واشتد ولكنه استحال من طفل يرقص فى شعاع الشمس ، يلهو بالألاعيب إلى شيخ يائس يتأمل فى الظلام ، لقد نزع ثوب الفرح الزاهى، ولبس ثوب الكآبة القاتم . لقد انحصرت حياتها فى أمر واحد هو التفكير فى الحبيب الذى أكسبه طول الفكر صورة سحرية بارعة لا يملكها بشر . فكانت تقيس من ترى من الرجال بهذه الصورة التى استقرت فى خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله ... بل لو أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشكله الحقيقى لما أعجبها !

أرادت أن تغرق غرامها فى لجة العبادة فكانت تؤم معبد قومها فى الصباح الباكر ، لتنىء إلى صلاة عميقة ، فلا تجد فى هذه الآلهة المصنوعة من الحجر ما يثير فى نفسها الورع والخشوع ، وتمثل لها مطرقة النحات الذى صنع هذا الآله ... فتعاف عبادته ، ولا يروقها منها ما كان يروقها وهى صغيرة من نار الدهقان الذى نشأت فى داره ، ولكنها نسيت عبادة هذه النار منذ زمن بعيد ، فبقيت حائرة لا تطمئن إلى عبادة

ما أشقى المحبين ! يعشون كما يعشى الناس ، ويأكلون كما يأكلون ، ولكنهم يعيشون فى دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها ، تضيق الدنيا بالمحب إذا جفاه محبوبه حتى ليكاد يختنق فيها على سعتها ، ويجد فى العش الضيق الذى يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة ، ويتألم المحب فى اللذائذ ، إذا لم يذقها معه من يحب ... والطبيعة الجميلة سواد فى عين المحب قاتم إذا لم تترها مقلتا المحبوب

كان عمل هذه الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل التى ولد فيها حبها ونما . فتبكى وتتذكر وتقبل الأحجار والأشجار ، وتسير مع الوهم أحياناً فتظن

بأن الحبيب حاضر معها . فتهم بعناقه وبثه شكواها ثم تجدها وحيدة ، فيجب قلبها ويشتد خفقانه ، وتسقط على وجهها فتبكي وتذوب وحيدة لا يدرى بها إلا الله ، وكانت تأمل أن يعود فتنظره على الطريق وترقب الدقائق فاذا تصرم النهار ولم تره عادت إلى منزلها آيسة محزونة ...

وانتفخ بطنها من الحمل ، فباتت تحمل أثقال الحب فى بطنها وقلبها ، وعزفت عن الطعام والنام ، فرق جلدها وتهافت جسدها ، فلم يعد في طوقها أن تطوف بمناسك حبها ، ومنازل هواها ، فكانت تحيي الليالى ساهرة مؤرقة ، تناجى النجم ، وتسائل الليل عن حبيبها ، وتخاطبه من وراء الصحراء كأنه معها

« أين أنت أيها الحبيب ؟ هل تنام الساعة آمناً مطمئناً ، أم أنت بين ذراعى غيرى ؟ قد نسيتنى وتمحوت من نفسك ذكرى هذه البنى التى طهرتها بحبك ، ولكنها لوثت شرفك ومجدك بماضيها الدنس ؟ لقد كان حبك لى نقيًّا كماء السماء ، ولكن شهوتى المضطرمة عكّرت صفاءه ... أنا الطائر الضعيف الذى حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام ، فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء ، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها ، ولكن هذا التراب الذى ظلّ عالقاً به قد غبّر جناحك أيها الصقر ، أفلا تعفو ؟

قد قنعت بك من الحياة ، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت ، ولكن بماذا أقنع وقد خسرتك أنت ؟

أتذكر ساعة جلسنا إلى الصخرة وحيدين، والطير ترتل صلاة المساء ، والشمس نائمة على سرير الأفق صفراء كأنها مريضة غاص رأسها فى عشرات الوسائد ، ونحن متعانقان صدرى إلى صدرك ، وعيناى إلى عينيك ، وخدى ملصق بخدك ، أقبل عنقك وتمرغ شفتيك بشعرى ، ثم نبهتنى إلى مشهد الغروب ، فطفقنا ننظر إليه مشدوهين ، حتى غبنا فى قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة ...

أتذكر ... ؟

أتذكر مسرانا فى هذه الغابة الصغيرة الملتفة ، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضجتها وصخبها حين نمشى وحيدين ليس معنا إلا الحب الذى يربط بين قلبينا ، تتلفت حولنا فلا نرى إلا جذوع الأشجار المتأنقة ، تتسلسل من كل جهة حتى يضل البصر طريقه خلالها ، وأغصانها متشابكة من فوقنا كأنها سقف مرفوع ... لم أكن أشعر بالوحدة لأنك معى ، وهل كنت أبتغى من دنياى أكثر من ذلك ؟ حسبى أنت من الدنيا ... أتذكر ذلك ... ؟

أتذكر تلك الشجرة المتعزلة الوحيدة التى كان لها فى تاريخ حبى أجل الآثار ؟ أما أنا فساهرة أذكرها وأفكر فيها ...

لماذا أذقتنى لذة الحب ؟

لقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليها ، أعيش فى الظلام ، فلما عرفت الحب عرفت النور والسمو وعلمت ماهى اللذة ... فلا النور دام ، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام ! »

ولست أستطيع أن أعيد كل ما قالت ، لأنه مكتوب فى كل قصة غرام ، وهل الغرام إلا قصة واحدة تتكرر أبداً ولا يمل البشر تمثيلها ؟ وهل تمر ليلة على

بلد فلا ترى فى أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم ، بينا ينام الناس آمنين لا يرحمون المحبين ، لأن الحب شيء لا يدرى به إلا المحبون !

ولبثت الفتاة على عذابها ، حتى أحست بالجنين يتحرك فى بطنها ... فذهبت تدفع وحدها ثمن هذه اللذة التى شاطرها متعتها الرجل ...

* * *

واستهل الوليد جميلا كالزهر ، حلواً كالأمل ، نقياً كثلج الربا ، تبدو فى عينيه كبرياء أبيه ، وجمال أمه ، كما يبدو خيال السماء الصافية فى البحيرة الساكنة ، فتمتلئان بهما كما يمتلئ الجدول بمياه الينبوع الصافى ، ويترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعى فى مسارب الوادى العميق ...

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب ، ونذرت له حبها وحياتها ... وعزمت أن تكون له أماً لأنه ابنها ، وأن تكون له أباً لأنه ابن حبيبها الغائب ، وأن تنشئه على الكبرياء والمجد والسيادة ، نزولاً عند إرادة الرجل الذى أحبت ، ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير ...

وتكامل مثلما يتكامل القمر فى أوائل الشهر فلم يلبث أن صار بدراً فى كل عين ، ونما مثلما ينمو الغصن النضر فى خمائل الروض ، يرتفع فى الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله ويزينه بورده ، فلم يلبث أن ملأ بعطره كل أنف ، وتزايد كأنه أغنية حب بدأها همساً فى جوف الليل ثم استطال بها صوته حتى ملأ الفضاء ، فلم تلبث أن صارت أغنية الحب على كل لسان ، ويقوى كأنه الحب ينبثق فى القلب ، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً فى كل قلب ... كذلك أصبح هذا الغلام ...

كان ملء العيون والأفئدة ، تمر السنون فلا تزيده إلا ذكاء ونبوغاً ... وكان سعيداً ينعم بحب أمه ومالها ، ولكن أمراً واحداً كان ينغص عليه هذه السعادة ، ويؤلمه أشد الألم ، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه ... وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة ، ولون لها الأساليب . فكان يمنعها من أن تخبره إرادة أبيه . فتظل معتصمة بالصمت ... وكثيراً ما أمضى الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدى ! ...

فأزمع أن يكون بفعاله أبا نفسه ... وأن ينزل من هذه الجبال فيغامر فى الحياة ...

* * *

ظل ذلك السيد القرشى يفكر فى الفتاة ويصلها بالمال ويتعرف أخبار ابنه ويقوم سبيله ، ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له فى حياته مكان . إن على عاتقه عبئاً ضخماً ، إنه يقود إحدى الفئتين فى أعظم معركة عرفها تاريخ الانسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة ... المعركة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستعباد ، بين المستقبل المنتظر والماضى الذميم ، بين الحضارة والبداوة ... وكان هذا السيد قائد الفئة المدافعة عن الباطل ، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فإذا النور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يضيء الجزيرة ثم يخرج إلى الشام والعراق ، فترفرف عليها رايات محمد ظافرة منصورة ؛ وإذا أبو سفيان هذا السيد القرشى جندي صغير فى جيش محمد ... ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت ، وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على الكفاية ، ولا يعرف الطبقات ولكنه يقر المساواة . فهبط أبو سفيان ، حتى صار

جندياً ، وارتفع هذا الرجل الذي لايملك نسباً في هاشم ولا أمية — وليس له جدود من مخزوم ، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقيصر .

تبدلت الدنيا كلها ، فاذا الدعوة التي كانت تكافح لتغلب مكة ، قد استخدمت مكة وأهلها والجزيرة كلها ، في حرب الأعداء الذين سرقوا حرية الشعوب وعبثوا بتراث الانسانية ، وإذا القرية التي كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قصبة الأرض ووارثة المدائن سلطانها ، وشريكة القسطنطينية في بلادها . وإذا هذا المسجد الصغير المبني من الحجارة والطين وسعف النخل ، يغلب الايوان العظيم بشرفاته ودعائمه ، وقصر الشالسيه بزخارفه ونقوشه وقبابه وأبراجه ، ويصير ندوة الدنيا ، ومدرسة العالم . . .

ففي ذات مساء دعى الناس إلى الاجتماع في هذا المسجد ، وكان المسجد دار السياسة كما كان دار العلم والعبادة — فتوافدوا عليه من كل صوب ، فلما اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد وقدّم إليهم شاباً لم يروه من قبل يدعى زياداً ليصف لهم هذا الفتح الذي جاء بخبره ، واستشرف الناس ونظروا إليه ، فلما أبصره أبو سفيان وكان في أصل المنبر إلى جانب عليّ خفق قلبه واضطرب ... إنه ابنه زياد — ابن الحبّ — وحبس أنفاسه ليصغي إليه ، وقد خاف عليه الفضيحة ، فاذا الفتى الجميل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الألباب ، ويستهوي القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعلي :

— (أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟)

— (نعم)

— (أما إنه ابن عمك)

— وكيف ذلك ؟)

— (أنا قذفته في رحم أمه سميّه)

— (فما يمنعك أن تدعيه ؟)

— (أخشى هـذا القاعد على المنبر أن يفسد عليّ إهابي[1])

***

وذهب أبو سفيان يلقى معاوية ، وقد استيقظت في نفسه ذكريات حبه القديم ، وطفق ينظر من وراء سبعة عشر عاماً إلى تلك الفتـاة التي أذاقته السعادة ، ونازعته نفسه إلى الاعتراف بابنها علنا ثم ثناه أنه لم يحن الوقت بعد ، إن اسم أبي سفيان لا يحمله إلا قائد كبير ، أو وال أو أمير ، فليتربص ولينتظر ؛ ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد فمن هو الذي يحمله هذا السر الذي يضيق به صدره؟ ليس له إلا صـدر معاوية ، وذهب يلقى معاوية (كسرى العرب) ...

***

إسمع يامعاوية ... أتعرف الفاكه بن المغيرة ؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك ... أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التي جمع الله كبر النفس ، وكرم الوالد ، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة ، واختلفا ... وتحاكما إلى بعض كهان اليمن ... وجزعت أمك وخافت ، فقال لها عتبة :

— (اني أرى ما حلّ بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك)

— قالت : لا والله يا أبتاه ، ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب

(١) جمل من التاريخ

ولا آمنه أن يسمني ميسماً يكون عليّ سُبّة)

— (قال : انى سوف أختبره لك[1])

وخبأ له خبيئة فعرفها ، ثم قدموا إليه أمك في نسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيـده على كتفها ، ويقول انهضى ، حتى دنا من أمك ، فقال لها ، انهضى غير متهمة ولا جانية ، (وستلدين ملكا يقال له معاوية [1])

فنهض إليها الفاكه فأخذ بيـدها ، (فنترت يده وقالت إليك عنى ، فوالله لا حرصنّ على أن يكون ذلك الملك من غيرك[1]) ، فكانت امرأتى ... وكنت ابنى ...

فاذا صحت بشارة الكاهن ، فاعلم أن لك شريكا فى ذلك الملك ...

فى ذلك اليوم تسمع صوت أبى سفيان أبيك الذي يستصرخك من أعماق قبره ، يرن فى أعماق قلبك ، لترفع ابنه الذى انبثق من قلبه وحبه وتخلع عليه اسمه ، وتمنحه حقه من إرث أبيك وإرث أسرتك الماجد ...

أتعرف من هو ذلك الأخ ؟ أتعرف زياد بن عبيد الذى خطب على منبر المدينة بين يدى عمر ، مخبراً بالفتح ؟ ذلك هو ابن أبيك ، ذلك هو (ابن الحب) فاجزنى هل تحفظ وصيتى ؟

— نعم ياأبى نعم

— إذن تقرّ عينى وهى تحت التراب ....

وذهب أبو سفيان يذكر ليالى الحبّ !

على الطنطاوى

(١) جمل من التاريخ

الملك والدرويش

بقلم ولفريد ستابلشيز

للأستاذ محمد لطفى جمعة

تعريف بالقصة

ويلفريد ستابلشيز كاتب انجليزى مقل، أحب الأسفار فى الشرق وكان ذلك عقيب قراءته قصة « حاجى بابا الأصفهانى » التى كانت لها شهرة ذائعة . فساح فى إيران وجذبه إليها شعر الخيام ، وأداب الجامى وحافظ والفردوسى ، وقد دون أسفاره فى مجلدين وكتب بضع قصص قصيرة منها قصة الملك والدرويش التى جعلها على نمط البوليسيات الحديثة ، وإنما المعركة بالعقول بين الأرواح ، لابين الأجساد . ووصف الحيلة الشرقية على هـذا الأسلوب البارع نادر فى الأدب الأوروبى. قال محرر « بلاكود مجازين » الذي تنقل عنه هذه القصة الرائعة « إنها خارجة من أعماق الشرق كليلة من ألف ليلة ، عليها مسحة من أحلام الوديان الهادئة والجبال الشامخة، وفيها ألوان من حياة الملوك الدهاة وبعض الدراويش الخادعين الذين يتجرون بالأرواح ويسرقون الأجساد وينصبون شباكهم لأحبابهم قبل أعدائهم ، ويتصيدون نفوس من أحسنوا إليهم، وهم يخفون تحت مرقعاتهم نفوساً أسـود من غيابة الجب وأعمق من الآبار الناضبة » ولذا آثرنا تعريبها لقراء الرواية علهم يجدون فيها من المتعة ماذكره ناقدها الأريب .

كان فى بعض أقطار الفرس — آذربيجان — ملك اسمه فضل الله ، وكان عادلاً رحيماً ، رؤوفاً برعيته، كريماً على فقرائهم، ساهراً على سعادتهم ، شاهراً سيوف جنده للذود عن حياضهم. يجوس خـلال ديارهم لينصف المظلوم للظالم، قائماً بواجب الحكم خير قيام ، ناصباً ميزان العدل والاحسان . ومن حسن سيرته وسماحة نفسه أنه كان يعيش على أتم وفاق ووئام مع زوجته الحسناء أنوشروان . وكانت الملكة أنوشروان نموذجاً للوجـه الضاحك المستبشر الطلق المتهلل ، الناطق بما تجيش به الروح من مشاعر الفرح والطرب وعواطف الرقة والظرف والدماثة ، فأجال فى صفحات ذلك الوجه الفارسى البديع ماء البشر والبشاشـة ، وكساه رونق الأنس والابتهاج، ونضرة النعيم والأمن والطمأنينة وكالبدر يغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد هـذا البشر والبشاشة والابتهاج التى هى أهم عناصر الحسن والجمال فى المرأة لا تجتمع إلا مع الأدب والتواضع والرقة ، ولا تتوافر إلا لمن ينعمن بعيشة هنية وحياة رضية

وكان الملك فضل الله صالحاً ورعاً ، تقياً مؤمناً ، يقرب من يتوسم فيهم الاخلاص ويثق بمن يظهرون التقوى ، ويلين لهم ويغدق عليهم تزلفاً إلى الله وقربى. فقـدم على بلاطه يوماً درويش من المتصوفين حديث السن ، جميـل الصورة ذو فطنة وذكاء وأدب وظرف ، فأقام أياماً بين الحاشية والبطانة ، فاستطاع أن يجذب إليه القلوب ويفتن الألباب برقة شمائله وحلاوة طبعه، وظرف خصاله ، وعذوبة حديثه . وكان الفتى المتصوف جم التواضع ، كثير الاطراق، ذا قناعة وعفة ، غزير المعرفة ، فنمى خبره إلى الملك وبالغ الأمين الذى وصفه فى حسن تقديمه فى غيبته

فتاقت نفس الملك إلى رؤيته وسماع حديثه والسرور بارتشاف سـلافة محادثته ، فأوفد أمينه

الذى ذكر محاسنه وفضائله فدعاه إلى مجلس العرش فتلطف الملك فى استقباله ، وأقبل عليه حتى أزال وحشته ، فوجد ما شاء علماً وأدباً ، ثم شجعه فأصاب مالم ينتظر ، دهاء وأرباً ، وسعة حيلة ، وجمال وسيلة، ونُبعدغورٍ ، إلى تجربة وحنكة وغزارة حكمة . وألفى حقيقة الرجل فوق الذى ذاع ، وأبصر فى صورته وعقله وبصيرته وبصره بالأمور أكثر مما قَصَّرت فى نقله الأفواه للأسماع . ففرح الملك بهذا المتصوِّف الناشئ أعظم الفرح ، وكأنه ظفر بغاية الأمانى ، ونادرة الدهر ، ورابع المستحيلات . فتمسك به وأدناه ونسى بهذا الضيف الجديد كل الندامى والسُّمَّار ، واكتفى به عن جميع الوفود والزائرين . وأراد أن يختص به نفسه وأن يستبقيه فى بلاطه ، ليستمتع به ما بقى من أيام عمره التى تخيلها صحراء مجدبة بدون استمرار مودته ، فعرض على الدرويش السعيد أسمى ما لديه من المناصب والرتب ، وبذل أقصى ما يملك بذله من المال والنشب، وحسَّن له أعلى مناصب الدولة ، حتى رياسة الوزارة وجلال الإمارة ، لم يبخل بهما عليه ، وهى تلك الوظائف التى رأى سادة البلاد ومشيختها وصفوة خيارها وزعمائها يتكالبون عليها ، ويتهافتون على لهبها تهافت الفراش على النار ، مهما بلغت بهم السن وقطعوا من أشواط الحياة ونالوا من مفاخر المجد فى السلم والحرب ، فما زالت بهم حكة تدعوهم إلى معاودتها،ولكن الدرويش اللبيب تنحى شاكراً ، وأبى معتذراً قائلا :

— مولاى ! لست وربى سبحانه أرفض بطراً ولا أتردد مطلاً ، ولا أتعفف تصنعاً . ولا أحرم نفسى من جميل عطفك ترفعاً . أستغفر الله وأستميحك عفواً . ولست وحقك بالدَّعىِّ الذى يظهر التواضع الكاذب ، ليزداد فى نظرك قدراً ، فما أنا بحاجة إلى هذا كله ، أو بعضه ، ولست بمن تخفى عليه حقائق الأمور ،ولكننى عاهدت الله ونفسى ألا أتقلد منصباً ، ولا أكبل روحى بسلاسل الأعمال فى هذه الدنيا ، لأننى قد آثرت الحرية على كل ماعداها . فإن صدقتنى ، ولا إخالك إلا متفضلا علىّ بثقتك ، تركتنى أعيش فى أكنافك ناعماً برحمة الله ورضاك ، كما أنا وكما كنت دخلت أول يوم فى رحابك . وإلا فأطلقنى أذهب أنى شئت ولك الشكر على ما أوليتنى من فضلك السابق . فلما أصغى الملك العادل الرحيم فضل الله إلى حديث نديمه ودرويشه ، تضاعف إعجابه به ، وَرَبَتْ ثقته فى ورَعه ، فخصه بأوفر نصيب من الحظوة والقرب ، حين أعياه أن يجعله وزيره ومشيره

ولما كان الدرويش يتقن ركوب الخيل ويحسن الكر والفر ، ويجيد الرماية ، مما لا يتوافر إلا لأبناء الملوك وخاصة الخاصة ، فكان يدعوه أحياناً إلى صيد الظباء على صهوة الجياد ، فيرى من ضروب الفروسية عجباً . وفى ذات يوم خرجا يلهوان فى بعض الحراج ، وقد انقطعا عن الحاشية والأتباع وأَنِس الدرويش من الملك ميلاً إلى سماع حديثه فأنشأ يقص عليه بعض نوادر أسفاره ومخاطر أيامه السالفة، ومغامرات ماضيه ، فساق فى عرض أخباره أنه كان فى جزيرة « ديسكا » من جزر الهند الشرقية ، فصحب رجلاً من شيوخ البراهمة ، وإماماً من أئمتهم ، وقطباً من خيرة أقطابهم ، هو مركز دائرة الوصول عندهم ، ومنبع نهر الحقيقة فى عرفهم، ومجمع أسرار الطبيعة لديهم ، سادن الهيكل ، وأمين خزائن الحكمة . وقد

شاءَ الله الواحد القهار والفعال لما يريد أن تكون وفاة هذا البرهمي بين ذراعي الدرويش

فلما جاءته سكرات الموت ، وبلغت روحه التراقي ، ولم يبق بينه وبين «الانفصال عن جسده» وثوبه الأرضي والانسلاخ عن جلده والوثب عن كثب إلى العالم الثاني ، سوى بضع ثوانٍ ، أو قُلْ بعض أنفاس تتردد ، أومأ إليّ أن أصغي إليه ، فطاطأت رأسي حتى لامست فمه فباح لي بسر من أخطر أسراره ، وأخذ عليّ عهد إليه وميثاقه ألا أبوح به ما بقيت فيَّ نابضة

فوقف الملك مذهولاً من إفراغ الخبر في قالب التشويق حتى طارت نفسه شعاعاً في سبيل الوقوف على حقيقته . فقال للدرويش على سبيل التخمين والحدس « لعله صناعة الذهب من المعادن الخسيسة ، أو حجر الفلاسفة »

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله نبع الحياة الذي إذا شرب منه الشيخ جرعة عاد إليه شبابه ورجع إلى صباه وأقبل على اللذات يرتشف كؤوسها كما كان فتياً

قال الدرويش : كلا ! يامولاي بل هو أعجب من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله بساط سليمان أو فرس نعمان الذي ينقلك من مكان إلى مكان في طرفة عين

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب !

قال الملك : لعلك تستطيع رؤية من تحب وتخاطبه وتعاتبه وأنت منه على بُعد شاسع ومسافة تطويها الجياد في أيام

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب

فضحك الملك وقال : إلى هنا وكلَّت غزالة ذهني فلا تجرى وراءَ ذلك ، وهبط طير العقل فلا يحلق فوق ما ظننت

فقال الدرويش ، وهو عابس لا يفارقه الوقار ولا يجارى الملك في سروره : إنما السر هو إحياء جثةٍ ميتة بنقل روحي إليها

فبهت الملك وقال : التقمص أو التناسخ

قال الدرويش : فليسمه مولاي بما شاءَ من من الأسماء . إنما هو البعث والاستبدال وقهر الموت

فقال الملك : ان الذي يؤمن به يكفر بدينه ، فقد كان عقيدة المجوس وأتباع زاردشت . إن البعث لا يكون إلاَّ مَرةً واحدة ، يوم القيامة . ومعجزة إحياءِ الموتى لم يهبها الله إلا نبياً واحداً

فقال الدرويش : لادخل للكفر والايمان ، فإنها صناعة وذربة ، لا كرامة ولا معجزة .

فقال الملك : إن في كتبنا خبر حسن بن صباح الذي رأى حماراً يحمل حجارة ، ويتلكأُ في الطريق وسائقه يلكزه والحمار يبكي ، فدنا منه وتحدث إليه ثم قال : إنه صاحبي فلان ، رفيق صباي وزميلي في المدرسة ، قد تقمصت روحُه جلدَ حماره . ولكننا نقرأه كما نقرأ شعر صاحبه الخيّام على أنه حديث خرافة وتسلية النساء ومزاح الأغرار

قال الدرويش : والملك آسر حدّون قلبه الله أتانا ترعى العشب وتمزق الكلأ بأسنانها وأنيابها وتطرد الذباب بذنبها ، وكان ذلك تهذيباً له وإذلالاً لنفسه بعد طغيانه وظلمه ، وقد كان ملك آشُور ، فغزا ديار الملك ليلي ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمة

للنار وحبس عدوه المظلوم فى قفص من حديد .

فقال الملك : لقد حسبتك تمزح ولكن إيراد المثال يضع حداً للقيل والقال . قل لى بربك أيها الدرويش أين تذهب الأرواح عندما تغادر الأشباح ؟ أيذهب الملك العادل والحكيم الخبير والشاعر الأديب والجمال الناضر إلى حيث لاعودة ، إلا يوم النشور ، حيث يردون دار النعيم أو دار الشقاء ؟ وعلامَ العلم والأدب والتفكير والأحلام والرجاء إذا لم تطل حياة الانسان أكثر مما نرى فى هذا الوجود ؟

فقال الدرويش : حذار يامولاى فقد كنتَ تُحَذِرُنِي مغبة النظر فى هذه الحكمة الإلهية ، وها أنت ذا تندب حظ البشر ، لأنهم يعيشون على سطح الأرض مرة واحدة ، وتستكثر على الموت أن يطوى صفحاتهم قبل أن يستمتعوا ، أو توافيهم آجالهم فى الوقت الذى آن أن يجنوا ثمار جهودهم ، وينتفع الناس بخيرهم ... ولعلك أيضاً تجد الزمان الذى يذهب بين الموت والبعث أطول مما يستحقه الفضلاء من السجن فى البرزخ والأعراف وما إليها

فقال الملك : ماأسرع تنقل الفكر الإنسانى ! فأين نحن من صناعة البرهمى التى لقنك إياها . هيا بنا إلى الصيد يادرويشى العزيز ، فإن فيه انصرافاً عن مزالق الزندقة ونجاء من الوقوع فى مهاوى الهرطقة .

وفى تلك اللحظة سنح لهما ظبي ، فرماه الملك فأصماه ، ثم أقبل على الدرويش فقال :

— دونك جثة هذا الظبي الغرير ، فأرنى آيتك وأثبت لى براعتك وأعده إلى الحياة أو أعد الحياة إليه، بعد أن أوردته بسهمى مورد الحتوف .

فلم يك إلا كلمح البصر حتى رأي الدرويش قد خرج من جسده ، فغادره جثة هامدة ملقاة على الصعيد ، وانسلَّ فى جثة الظبي فتقمصها ولبسها وأحياها بروحه ، فأنهضها وإذا الظبي حَيٌ ينزى مراحاً ، ويتوثب طماحاً ، حتى أقبل على الملك يتمسح به ويحوم حوله، ليثبت له أنه درويشه ونديمه وأنيسه ، وأنه لو كان ظبياً غير الذي أصماه الملك ، لأسلم مرابعه للريح ، وتعلق بأذيال الفرار

ثم انبرى الظبي المبعوث للعشب والكلأ يرعاها ما شاء . فاغرورقت عين المليك الطاهر الطوية بالدموع على « غزاله » الذى كان منذ برهة نديمه وأليفه وعشيره . ولكن الظبي ما لبث أن خر إلى الأرض جثة هامدة ، وفى نفس تلك اللحظة تحرك جسد الدرويش بعد همود ، وبدت عليه دلائل الحياة ، ثم نهض كأصح ما كان وأنشط ؛ فأقبل عليه الملك يقبله ويهنئه وقد دهش من تلك المعجزة الخارقة وأقسم عليه بكل عزيز ورفيع ومقدس ، إلا ما لقَّنه هذا السر العظيم . فاعتذر الدرويش وتأبى وادعى أن شيخه البرهمى لم يأذن له فى تلقينه أو البوح به دون سابق رياضة ومران ، فإن مثل هذا السر ليس بالشيء الهين ... وما زال كذلك حتى بدأ مولاه يتذلل إليه ويهون لديه ، فوقف عند هذا الحد من التأبي والتيه، وماعتم أن أذعن ثم لقنه سر الآية مضمناً لفظتين بالسريانية . وأراد الملك أن يجرب المعجزة لتوه وساعته . وكانت جثة الظبي لا تزال طريحة على الثرى ، فعمد الملك نحوها وتلا اللفظتين ، فما هو إلا كلمح البرق حتى انتقل روحه إلى جثة الظبي وخر جسده إلى الأرض ميتاً

فى تلك اللحظة أقبل الدرويش الخائن على جثة الملك وهى خلاء من الروح ونقل إليها روحه بسرعة

البرق الخاطف وتناول قوس الملك وكنانته وسدد سهمه إلى شخص الظبي المشتمل على روح الملك يريد إصابته وإعدامه ، حتى إذا زهقت روح الملك من جثة الظبي بهذه الكيفية ثم لم تجد جسماً تلتجئ إليه ، ذهبت بطبيعة الحال إلى عالم الأرواح أو ذلك البرزخ الذى كان الملك يعجب لاختزان النفوس الفاضلة فى أكنافه . وهذا هو الموت الزؤام بعينه . وبذلك يكون الملك قد مات موتاً لا مراء فيه ولحق بالأعراف أو عليين . وقد أصبح الدرويش هو الملك ولا يفطن أحد إلى حقيقته إذ كان يتقمص جسد الملك وصورته فيعود إلى البلاط ويحمل الأكرة والصولجان ويلبس التاج ويجر ذيول القباء القرمزى ، ويقبض على أعنة الحكم ، ويتصرف فى الدولة كما يشاء، له الأمر والنهى والعزة والجلال . وقد أدرك الملك الحبيس فى جثة الظبي هذه الحيلة البعيدة الغور ، وكشف له عن سر الدرويش الشرير وما كان يضمر له من سوء جزاء له على إحسانه إليه وبره به وتفضيله على رجال بلاطه وأهل حاشيته ، فحنق الملك الظبي وحرق الأرم ، ولكنه لم يكن يملك الانتقام من عدوه وهو فى موقف الفريسة من المفترس ، والصيد من الصائد المسدد سهمه إلى جسده ليهريق دمه . ولكنه بدلاً من أن يذيب كبده غيظاً وعجزاً راغ من السهم ، فأفلت من شرك الردى وهام على وجهه فى الآفاق... وكل الصيد فى جوف الفرا . فاكتأب الدرويش هنيهة ثم أخذ فى مطاردة مولاه والبحث عنه فى الآكام حتى أعجزه التنقيب فعاد من حيث أتى راجياً أن يلاقى الظبي حتفه على يد صائد آخر ، فإن الظباء السمينة قصيرة الأعمار

وعاد الدرويش فى شخص الملك إلى قاعدة ملكه وعاصمته ، يترنح طرباً ويختال تيهاً ، فتناول الصولجان وتبوأ عرش الدولة . ولكى يأمن ضياع العرش المغتصب والتاج المستلب ، أصدر أمره إلى الرعية بإعدام كل ما تحويه الآجام من وحوش الظباء حتى يهلك فيما يهلك هذا الظبي الذى تقمصت فيه روح الملك الحقيق . ولكن الأقدار أعانت الملك فأفلت من سهام الرماة والمتعقبين بتقمصه فى جثة بلبل ميت كان قد بصر بها ملقاة على الأرض عند جزع شجرة تين مثمرة

وفى هذا التقمص الجديد طار الملك سالماً إلى بستان قصره الذى كان الدرويش يعمره مع الملكة وكانت تشعر نحو الدرويش المتقمص فى جسد زوجها بنفور أوحته إليها الفطرة الشفافة والحس المرهف والنفس المشرقة بالنور الروحانى على بعض الخفايا فلم تبذل فراشها لروح غير روح زوجها . ولم تقبل على الدرويش الخائن يوماً .

هنالك وقع الملك البلبل على فنن أيكة بجوار نافذة الملكة وشرع يغرد ويرتل حتى هز رنين صوته أركان المكان ، وأرقص بشجا حنينه الغصون والأفنان ، وحتى فتن الملكة واستهواها ، فدنت إلى النافذة طرباً بألحانه واشتياقاً إلى نغمه . فأحزنه من الملكة أن رآها قد سرت بحنينه ، وابتهجت لأنينه، وقد كان مراده أن يهيج أحزانها وأشجانها ويستثير رحمتها ورأفتها . وما كان أعظم ضيقه وألمه وهو عاجز أعظم العجز عن الانتقام من عدوه والاستمتاع بزوجته والعودة إلى ملكه . ويزيده كمداً أنه غير قادر على شرح حقيقة حاله لأقرب الناس إليه ، وهيهات أن يصدقه أحد حتى إن هو

ملك زمام النطق البشرى أو وهبته الطبيعة فصاحة سحبان وحكمة قس . فرضى من الدنيا بنصيبه الجديد ولبث ردحاً من الزمن ينعش نفس زوجته بالألحان فى كل صباح ، حتى استدعت صاحب طيرها وأمرته أن يبذل أقصى ما لديه من الحذق لاقتناص ذلك البلبل الصداح . غير أن (البلبل الملك) لم يحوج صاحب الطير إلى بذل أدنى مجهود لاقتناصه ، بل وقع فى يديه طائماً مختاراً منتهزاً فرصة الأسر للدنو من زوجته

فلما عرض عليها ومعها حاشيتها من الوصائف اندهش الجميع لما رأينه ينفر منهن إلا الملكة فإنه سقط عليها يتمسح بها ويتشبث بأردانها ثم اختبأ في جيبها ففرحت بما أبداه البلبل من التحبب إليها والتحدب عليها دون سواها ، وأمرت به أن يجعل فى قفص من الذهب المرصع بالجوهر فى غرفتها بشرط أن يبقى مفتوحاً حتى لا يشعر بضيق الأسر ولذلك جعل البلبل بفضل منزلته الجديدة وزلفاه ، يبدى للملكة من أساليب الملاطفة والمداعبة ماتسمح به طبيعته وخلقته . وجعلت الملكة تقضى الساعات المديدة الطوال فى مداعبة بلبلها وملاعبته؛ ووجد البلبل الملك سلوة وعزاء فى حاله هذه مع الملكة ... لو لا ما كان يكدره أحياناً من دخول الدرويش عليها فى ساعات اللهو واللعب ومغازلته الملكة وهى تبدى نفورها منه وتغلق الأبواب دونه

وكان غاصب العرش (الدرويش) كثيراً مايحاول استجلاب مودة البلبل ، ولكن بلا جدوى ، إذ كان كلما ازداد تقرباً إلى الطائر ازداد الطائر منه بعداً ونفرةً ، بل ربما أوسعه لكزاً بمخلبه ونقراً بمنقاره مما كان فيه ملهاة للملكة ومعجبة

وكانت الملكة أنو شروان كلفة أيضاً بكلب مستأنس يبيت معها فى حجرتها ، وكان صديقها الأبكم وتابعها الأمين ، ومازال لها وليًا وفيًا ولذكرى زوجها حافظاً حتى كان يشاركها النفور من الدرويش المتخفى فى جسد الملك . وكان الكلب بحكم الاختلاط قد ألف رائحة سيده وميزها من غيرها ثم تعود رائحة الدرويش مذ كان يغشى القصر على صورته القديمة . فلما وجد فيه رائحة لا تشبه تلك التي تعود شمها راح يعطس وينبح ولا تهدأ ثائرته حتى يفارق الدرويش غرفة الملكة . والكلب أقوى شماً من الانسان ، ولهذا كان أعرف باختلاف روائح الناس من الناس أنفسهم . فاتفق أن مات هذا الكلب ذات ليلة وأهل القصر كلهم رقود إلا البلبل الذى أبصر موت الكلب ، تاقت نفسه إلى التقمص فى جثته ثم ما لبث أن صنع ذلك فترك جثة البلبل وأحيا جثة الكلب التى حل فيها

فلا تسل عما أصاب الملكة من برحاء الوجد وحرقة الكمد عند ما استيقظت صباحاً فرأت حبيبها البلبل ميتاً وكان سلوتها وعزاءها . فانفرط بموته وانقطاع صوته عقد هنائها ونفدت البقية الباقية من صبرها

فاستدعى الملك الكاذب (الدرويش) وصائفها وأقبل معهن يحاول إقناعها ببطلان حزنها ، لأمر تافه كهلاك طير حقير . ولكنه عبثاً حاول وحاولن . وجعلت الملكة تبكى وتندب مما أذاب من كبد الدرويش رحمة بها ورثاء حتى وعدها أن يرد الروح إلى بلبلها . فإنه مازال يطمع فى رضاها ، وتحدثه نفسه الخبيثة بعدم اليأس من خداعها ، حتى ينال منها مأربته وهو فى نظر العالم كله زوجها إلا فى

نظره لعلمه بحقيقة أمره ، وفي دخيلة نفسها لشعورها بالنفور منه .

وقال لها : ولكن علينا أن نتفاهمَ أولاً قبل أن أخطوَ هذه الخطوة الخطيرة ، برد الروح إلى بلبلك الذى تؤثرينه عليّ .

إن ما أخذته عليك فى عهدنا الأخير من طبيعة الصخب والقسوة وميلك إلى مخاصمتي والتبرم بي وإرسال الزفير والشهيق ، وسكب الدموع ، لما يحزن النفس ويدميها ، ومما يدعونى إلى اتهامى إياك بسوء الخلق وحب الشر ، ولم يكن هذا عهدى بك منذ خرجت إلى الصيد وفقدت نديمي ذلك الدرويش المسكين الذى جندلته بسهم خاطىء أصاب أحشاءه فمزقها .

فقالت له : إن بعض هذه الطباع التى تكاد تسخطك وتحملك على اتهامى بسوء الخلق وحب الشر إنما هى ثمارٌ أنتجتها نفس هذه التربة التى أنتجت الحلوَ الطيّب من المحاسن ومحامد الصفات كالرحمة والحب والرقة ، فإذا رأيت الضدين من الخلق الغامض حيناً ، ومحمود التضحية وخالص الوفاء أحياناً ، فلا تحسبنّ هذا التناقض مظهراً من مظاهر العناد الكاذب والاستبداد الباطل ومحض الدلال والتجنى . وعليك أولاً أن ترد روح بلبلى إليه .

فوعدها بذلك وعد الواثق ، فحبست طوفان دمعها وتساءلت مندهشة : أنّى له ذلك ؟ ولم تعهده من قبل يرد الأرواح ويعيد الموتي إلى عالم الأحياء حتى ولو كانوا طيوراً ، وإن ملك هذه الموهبة الخارقة ، فلِمَ لم يرد روح درويشه العزيز الذى كان يؤثره على كل من عَدَاه من الندمان والبطانة ؟

ولكن الملك الكاذب لم يجبها ، غير أنه انطرح على مقعد ثم أرسل روحه فى جثة الطائر فعاش باذن الله المحيي المميت المبدئ المعيد . وبلغ العجب من الملكة أقصى مبالغه

وكان الملك الحقيق يرى ذلك كله بعينى الكلب الذى تقمص جلالته فى بدنه ، فما كاد يبصر الدرويش قد خرج من جسمه (وهو الجسم الذي كان الدرويش يختال فيه مذ تقمصه فى الغابة يوم الصيد) حتى خرج هو من جثة الكلب كالسهم المارق ، فاسترد جسمه قائلا : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ثم هجم على البلبل الكاذب (المتضمن روح الدرويش) فلوى عنقه وقصف رقبته

عند ذلك عاودت الملكة بكاءها ونحيبها ، ولكن زوجها الملك مالبث أن أفهمها حقيقة الأمر من أوله إلى آخره مؤيداً قوله بحجتين دامغتين الأولى جسم الدرويش الذى مازال متروكا فى الغابة ، والأمر الذى أصدره الدرويش باعدام جميع ما احتوته البلاد من ظباء الوحش . وهكذا تنعم الملك بزوجته بقية العمر في رغد وصفاء .

محمد لطفى جمعة



من أحسن القصص

غيرة

للكاتب السويسري سولومون جسنار
بقلم محمد عبد الفتاح محمد

لا ريب أن الغيرة هي أخبث العواطف جماء بين الناس ، وأسرعها تشبثاً بالصدور وأقواها على التعلق بالأفئدة ؛ بل هي كالأرقم ينفث السم بوخز من الناب بسيط ، وكالعقرب تسرح الهلاك بضربة من ذنبها الواهي الضعيف . وبرى القارئ في هذه القصة كيف تستبد هذه العاطفة الخبيثة بالمرء فتقيمه وتقعده ، وتفعم حياته بالبؤس وتُترع قلبه باليأس ، وتعرض على صفحة ذهنه المضطرب صوراً متتابعة من الوساوس والأوهام

كان « أليكسيس » فتى ذا مِرّة ، غريض الشباب، بادي الفتوة، أسمر الإهاب ، يزخر بالرجولة الناضجة الكاملة ؛ وكانت « دافن » كاعباً فتانة ، ساحرة ريّانة ، مياسة كالغصن ، مشرقة كالبدر ، طاهرة كالزنبقة ، وقد تعاهدا على الوفاء في الحب ، وأقسما على الاخلاص في الهوى . لذلك أترعت « فينوس » مع سائر ربّات الحب كأس حبهما بالسعادة والهناءة ، فراحا ينعمان بحياة رغيدة وعيش مُخَـرْفَج في ظل غرامهما العذري الفياض

وإذ تماثل أبو أليكسيس للشفاء من مرض عضال كاد يعصر عوده الواهن ، ويطفئ سراج حياته الخافت فقد استدعاه يوماً وقال له :

— بني العزيز . إن لربة الصحة عليّ لنذراً : سِتاً من الشاء الكناز فاذهب بني بها إلى معبدها وقدمها قرباناً على مذبحها

وكان المعبد يبعد بمسيرة يومين متتابعين ليس غير . بيد أن أليكسيس وقف من حبيبته موقف النازح إلى سفر طويل دونه المحيطات والبحور . وبالدمع السخين يسح من عينيه، والحزن العميق يرتسم على شفتيه، بدأ سفرته والشاء أمامه تدب دبيبها المضطرب البطيء . سار يتنهد تنهد المحزون ويزفر الزفرات الحرار . فمضت أشجار الصفصاف على طول الغدير تشاركه التأوه والأنين، ومر بالمناظر التي حوله من سندس جميل منضر بأفواف الزهور الفواحة المعطار كأنه حالم لا يأخذه سحرها ولا يناله عبيرها . وكيف ينتبه إلى تلك الجنان وهو هكذا حزين النفس جريح القلب مكلوم الفؤاد ؟ وهل لمن كتب عليه النوى عن حبيبه والبعد عن أليفه أن يفكر في غير هواه ، وأن يحس سوى الحنين إلى ليلاه ؟ وهل يرى العاشق المدنف الصب المتيم في كل ما يرى من جمال الطبيعة وسحر المناظر إلا وجه حبيبه النائي يزيد في ألاهيب الحب ويسجر نيران الغرام ... كان يراها إبان سيره وحيداً مع غنمه ... كان يراها في جوسقها ناعسة وسنانة ، أو مضطجعة يقظانة في ظل صخرة مشرفة على الغدير الرقراق . بل كان يسمعها تناديه وتردد اسمه . وبعث التفكير والخيال في قلبه نار الجوى ، فتنهد . وظل

هكذا حاله وهو يسير وراء غنمه . ولم يكن لينتبه من هذه الأفكار ويثوب إلى نفسه إلا ليلعن هذه الشاه البطيئة الكسال . وود لو كانت طيراً يطير أو غزالا يطوى الأرض طياً . وأخيراً بعد طويل من التفكير والسير وصل إلى المعبد المقصود

ونحرت الغنم وقدمت الأضاحى ، فعاد من حيث أتى طائراً على أجنحة حبه العظيم . وبينما هو يجد فى السير على أرض حطبية . تقحّمَتْ شوكةٌ قدمَه وانغرزت فيها فسبَّبت له ألماً شديداً قعد به حتى عن الحبْو إلى الكوخ الجاثم على كثب منه . والتقطه زوجان طيبا القلب وتوليا علاجه من جرحه الدامى الأليم ببعض الأعشاب البرية بينا دأب هو على أن يتمتم بين الفينة والفينة : « يالبؤسى وشقائى ! » . وأخذ يستبطئ الساعات ويتعجل الدقائق ، ويناشد الشمس أن تحث السير نحو المغيب، حتى إذا مادلكت راح يضرّع إلى الليل أن ينجاب وينجلى . ولم يكن ذلك وحده هو الذى أقض مضجعه وأقلق باله ، بل راحت بعض الآلهة العتاة القساة ينثرون فى قلبه بذور الغيرة . فجاشت فى قلبه الوساوس وتقلب على فراش حشْوه الفكر والهم . وطفقت الأوهام تُوغل فى رأسه القلق الحيران ، وراح يقاول نفسه فى تمتمة أشبه بالهذيان :

« إيه أيتها الآلهة ! ما هذه الأفكار السوداء ؟ أتغدر بى دافنى ؟ محض وهم وافتراء ... ولكن المرأة هى المرأة ... ودافنى جميلة حُسَّان ... من ذا الذى يراها ولا يشتهيها ؟ من ذا الذى لا يسبيه دلّها وتجنيها ؟ . . ألم يدأب جارها « دافيس » على التقرب منها والتغزل فيها ؟ . . وهو لا نكران وسيم جذاب ، له صوت مُرِنّ خلاب، إذا ما تكلم سحر ، وإذا ما أنشد وتغنى بهر ، وإذا ما عزف على قيثارته مَسّ أوتار القلوب ، وهز كوامن الشجون ، وبعث إلى الأفئدة الحنين إلى العشق والهيام . ثم إن بيته مُلاصق لبيتها ولا يفصلها عنه غير الجدران ... يا للوغد الجميل لقد شغفها حباً ... أوه . . ذرينى أيتها الأوهام الباطلة . . دعينى أيتها الأفكار الآثمة . . »

ولكنْ تعمقت جذور الغيرة فى ذهنه وأترعت سمومُها شغاف قلبه ، ودفعت السحاب الثقال والغيوم الكثيفة إلى سماء حبه اللازوردية الصافية ، وسلبته الراحة والهناءة آناء الليل وأطراف النهار . ففى أحلامه بالليل،وفى تخيلاته وأوهامه بالنهار، كان يرى حبيبته تخطر كنسمات الصبح المنوّر ، وتميس كالغصن الفينان ، نحو الغدير ذى الخرير، تحت ظلال الأشجار الشجراء اللفاء لتقابل دافيس الذى يروح يغنى للقائها بصوته الساوى الساحر فيشنف أذنيها بحلو أنغامه ، ويطرب سِمِعَيْها برخيم ألحانه ... ورآها بعين الغيرة تبثه ما تجنه له من الحب عن طريق لحظها الفاتر، وتشرح له هواها بلغة العيون السواحر، وصدرها الناهد الأشم يعلو ويهبط مع أنفاسها اللاهثة التى تعبر عن شدة العشق الدفين . ورآها كرة أخرى نائمة تحت ظلال الأغصان الوارفة النشوى بينا يدب دافيس دبيب السارق فى جنح الليل الناسق فيقترب منها ويقترب حتى يطوق بصره بدنها الطرى الفينان فيتأمل جمالها الوسنان ويتملى من حسنها الفتان ... وينحنى عليها ثم يلثم يدها فى توْق فلا تنتبه، فيقبل خدها فى شوق فلا تفيق، فينهال على فمها الوردى فى حرارة ووجد فلا « تستيقظ »

هنا يصرخ اليكسيس بأعلى صوته : « يالى من بائس مسكين ! ما هذه الأفكار السود التى يخلقها خيالي ؟ لماذا أرانى لا أحيد عن هذه الأفكار قيد أنملة ، ولا أراها تفك أسارى مقـدار لحظة ؟ لماذا أشقى نفسى بهذا الوهم الباطل وتلك الصور الزائفة التى أتهم بها طهارتها وأنال بالإيفال فيها من إخلاصها ووفائها ؟ ؟ »

وتصرمت ستة أيام طوال ولما يلتئم جرحه بعد ، فلم يستطع الصبر أكثر مما صبر ؛ وعبثاً حاول الزوجان أن يثنياه عن السفر .. فواصل رحلته بعد أن عانق مضيفيه وشكر لهما صنيعهما . . واصل السير على قدر ما سمح به جرحه الحى .. وكان الليل قدوقب حينما انتهى إلى حيث يقوم مثوى حبيبته الغالية . وكان القمر الزاهر يترجل رويداً رويداً فيلقى بضـوئه الناعس على الأرض الشجراء .. وتاول نفسه وهو يغذ السير نحو الحبيبة: « إليك عنى أيتها الأفكار القواتم . هاهى ذى حياتى تنتظر أوبتى . وسأسكب دموع الفرح الندية للقياها ، وأضمها إلى صدرى الظامىء اللهفان » وفى ممشى حديقة بيتها رآى طيفاً يتثنى تثنيها فتمتم : « إنها هي .. هى دافن بذاتها . فهذه قامتها المهيبة ، ومشيتها البانية الرائعة ، وثوبها الأبيض المفهاف .. إنها هى أيتها الآلهة .. ولـكن أيان تذهب وقد غسق الليل ؟ ليس من سداد الرأى أن تخرج عذراء وحيدة إلى هذا المكان الموحش فى ذلك الليل المغطش . ألا تكون قد خرجت للقائى ؟ بيد أنه رآى شبحاً يسير وراءها حتى لحق بها .. شبح رجل .. ثم سمعها تضحك وهى تتنـاول يده فى يدها وتأخذ منه سلة الزهور فتعلقها فى ذراعها الأخرى ، والآن هما يسيرانجنباً إلى جنب تحت ضوء القمر الشاحب الحزين كأبدع ما يكون عاشقان

وتسمر اليكسيس فى مكانه يرتعد من الرأس إلى القدم ، وراح يفكر : «ماذا أرى ! إذنفقد صدقتنى الآلهة .. وتحققت أوهامى .. إذن لقد أعدتنى الآلهة الرحيمة العادلة للصدمة فأحاطتنى بكل شيء علماً .. يا لى من بائس تعس ... أين الربة التى ألهمتنى تلك الحقائق؟ هـلمى أيتها الإلـهةفساعدينى على الانتقام، على الانتقام من ناكثة العهود . . الغادرة الـكنود هـلمى فاصعقى هذين الخائنين ثم عقّبى بى أنا الآخر

وتأبط الشاب ذراع الفتاة وسارا تحت ضـوء القمر متجهين نحو جنة من الآس والبنفسج حيث يقوم تمثـال فينوس .. سارا يتناقلان الحديث ويتجاذبان الـكلم بينا طفح وجههما بمعانى السعادة والغبطة .. وقال اليكسيس فى نفسه : « آه ! إنهما ذاهبان إلى جنة الآس حيث تساقينا — أنا وهي — كؤوس الحب مترعة .. حيث باحت لى بسر قلبها، وأسكرتنى بخمرة حبها. ها هما يدخلان إلى الحرج.. لقد غابا عن بصرى .. لعلهما الآن فى ظل شجرة يتناغيان ، أو على ضفة الغدير يتشاكيان .. ولـكن لا .. لقد عادا إلى الظهور ثانية . إنى ألمح فستانها الأبيض ينعكس عليه ضوء القمر من خلال الفروع والأغصان .. لقد توقفا عن السير إذ أتيا على بقعة سندسية يكسوها العشب الطويل والحشائش الكثة النامية .. يا للخيانة والغدر .. كيف لعمرى تسمح ربة الحب لهذين الغادرين بتدنيس جلال الليل الساجى وجمال القمر التبلج الزاهر .. بلى .. إجلسا يشهد القمر خيانتكما وغدركما ، وتنصت النجوم إلى كلمات الحب الآثم التى بها تتناجيان .. ألا لعنة الشيطان عليكما .. ولـكن ما هذا ؟ .. أبلبل يغرد وحمـام

يسجع وأطيار تشدو ؟. وكيف ذلك وفي تلك البقعة الطاهرة يجلس هذان الدنسان الفاجران !. أراهما يتحركان .. أجل ، إنهما في سبيلهما إلى معبد فينوس . سأمضي في أثرهما فأنصت إلى حديثهما وأقتص حركاتهما

واتخذ سبيله وراءهما لا يلوى على شيء ، واقترب منهما في حذر حتى أصبحا قاب قوسين أو أدنى من أعمدة المعبد الرخامية التي تشق الفضاء ... وعاد إلى تمتمته « ماذا !! إنهما يدخلان ... أو هل تسمح الربة أن تبارك هذين الفاسقين » ... ورأى الفتاة تنزل الدرجات القليلة وفي ذراعها سلة الأزهار ... بينا استند الشاب على أحد الأعمدة ينظر إلى « فاتنته » ... واقترب اليكسيس خلسة إلى ظل عامود ووقف ثمة يتربص ويتجسس . رأى دافن تبلغ تمثال فينوس الذي يقوم هناك في حلته الرخامية الناصعة تحت ضوء القمر الشاحب ، والذي بدا كأنه تراجع ثمة ازدراء لتلك النظرات الحيرى التي شمت من عيون هذين المجرمين اللذين تقحما معبده للتضحية على مذبحه ... وجثت دافن تحت قدمي التمثال حيث وضعت ما تحمل من الأزهار النضيرة والورود الفواحة ، وراحت تتمتم بصلاة حارة بين نشيج يهزها ودمع يخنقها « إصغى إلى صلواتي واستجيبي لدعائي أيتها الربة الرحيمة العادلة ... واقبلي هذه الزهور التي أقدمها قرباناً على مذبحك ... وإن ندى الليل الذي يبللها لممتزج بدموعي الغوالي ... ها قد تقضت ستة أيام سوياً مذ نأى عني اليكسيس الحبيب ... أوه ! أي فينوس الحلوة الطيبة . أسألك باسم هاته الأزهار التي أضحي بها على مذبحك المقدس أن تصونيه وترعيه وتهديه سواء السبيل ، وترديه إلى ذراعيّ سالماً من غير سوء . وتبعثيه إليّ محباً مخلصاً وعاشقاً وفياً كما تركني .. آمين .. آمين .. »

وأصغى اليكسيس إلى صلاتها في ذهول وتعجب ... هنالك فقط سدد نظرة فاحصة إلى الشاب الذي معها . وكان آنئذ في وضع بدا فيه وجهه تحت ضوء القمر ... لقد رأى الحقيقة الآن! وما الشاب إلا أخو دافن ... وقد رافقها ولا ريب في مجيئها إلى المعبد لعلمه أنه من الخطر على عذراء رعبيب مثلها أن تخرج وحيدة في ذلك الليل المدلهم الداجي

وبرز اليكسيس من مخبأه ... ففاض الفرح على دافن لرؤيته ... وامتلأ فؤاده هو بالسرور ... والخجل أيضاً ... وتعانقا طويلاً ... ثم اتجها إلى الربة ثمة يصليان ويشكران

محمد عبد الفتاح محمد
بالمساحة والمناجم بينها

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل العاشر

علم الفلك عند الفارسيين وعند الانكليز

عند ما مضى تأثير الدهشة الأولى دخلنا الغرفة المعدة لجلوسنا فوجدناها فاخرة الرياش محلاة بالصور وعلى كل حائط منها مرآة فى إطار مذهب؛ أما الأتباع والخدم فقد جلسوا فى غرفة أخرى وعلقوا مسدساتهم وسيوفهم على حوائطها

وعند ما حان وقت النوم اختار كل منا سريراً يلائم ذوقه لاختلاف أنواع الأسرة كما تقدم. ولست أريد أن أذكر ما أصاب كلا منا من الدوار والقيء وغير ذلك من متاعب البحر

استيقظنا فى الصباح فلم نر البر فدهشنا وفزعنا لانقطاعنا عن العالم . وكان نظرنا مهما امتد لا يقع على غير الماء . فأين طهران وأين أصفهان وأين الاستانة ؟ أين الجبال وأين السهول ؟ لا شيء من ذلك يبدو لنا غير الأمواج المترامية ، وشككنا فى إمكان الوصول إلى انكلترا لأننا لا نعرف مكانها ولأنه لا يظهر لنا فى الماء أى دليل نهتدى به . ثم لما قيل لنا إن انكلترا ليست إلا جزيرة فى وسط بحر كهذا زادت دهشتنا وقلنا إنه يستحيل أن يكون بها حكومة منظمة أو شاه قوى . ويستحيل أن تجبى بها الضرائب أو تصدر الأحكام . وقد تساءلنا عن بعض ما بدا لنا من الخواطر فظهر لنا أن القوم لا يفهموننا ولا نفهمهم ، فقد قالوا إنهم يعرفون من علم الفلك نوعاً يدلهم على اتجاه السفن ، ويبين المسافات بين بعض البلدان وبين بعضها الآخر ، ويبين موقع كل منها بالنسبة لغيره . مع أن علم الفلك كما نعرفه يدل على الطالع الحسن والطالع المنحوس ويبين الساعات الموافقة للحجامة والسفر والزواج والحروب

وقد ظهر لنا أن علم الفلك عندهم سهل ، فان الصبيان الذين فى السفينة كانوا يستعملون ما يشبه الاسطرلاب عندنا ولكنهم لا ينصبون خيوطاً . ثم هم يقولون فى الحال نتائج بحثهم بهذه الآلة . والعجيب هو تعلمهم شيئاً من هذا العلم فى مثل هذه السن لأن الفلك عندنا وإن كان مخالفاً لما يعرفونه عنه فهو صعب جداً لا يحيط به إلا طوال الأعمار الذين قضوا فى تعلمه عشرات السنين

وقد أمر السفير صاحبنا « محمد بك » بأن يبين لنا موقع أصفهان على طريقتهم فقال : إن النجوم تغيرت وإنه لم يعد فى وسعه مزاولة العلم الذى تعلمه على ميرزا قاسم فى أصفهان ، وقال : إنه لم يعد فى وسعه حتى ولا استقراء الطوالع

تألم السفير من ذلك ألماً شديداً لأنه كان يريد تعاطى الدواء، فكلف شاباً من البحارة الانكليز أن يبين له بما يعرفه من علم الفلك هل تعاطى الدواء فى هذا الوقت مناسب أم لا ؟ ففتح الانكليزى فمه وعينيه كالأبله وقال : إنه لا يدرك الصلة بين الدواء وبين

« التليسكوب » وقال ان الحساب الذى يجريه ليس بحروف الجمل عن أسماء الأشخاص ولكنه عن خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية

فلم نفهم قوله ولكننا نسبنا غموضه إلى جهله وزاد احترامنا لمحمد بك وسائر علماء الفلك فى فارس

لكن الفلكيين الانكليز من بحارة السفينة أدهشونا بدقتهم الغريبة فى معرفة الأبعاد ، فانهم نظروا بآلاتهم الفلكية وحددوا الساعة والدقيقة والاتجاه اللواتي تظهر فيها اليابسة وقد صدقوا فى تحديد كل ذلك . ولما جددوا بذلك فى نفوسنا شيئاً من الثقة بهم كلفنا محمد بك بمباحثتهم في علمهم الفلكي ، فأجابوا بما قضى على تلك الثقة بتاتاً حيث زعموا أن الأرض كروية وأنها متحركة وأن الشمس هى الثابتة وأن القمر يدور حولها . ونحن نعلم عكس ذلك على خط مستقيم من أيام (جمشيد) . وختم محمد بك مجادلتهم بقوله : إنه لو كان الآن فى فارس لاستطاع أن يأتى لهم بالكتب التى يقنعهم بها

الفصل الحادى عشر

فى مالطة

فى الصباح التالى وجدنا السفينة الحربية التى تقودنا إلى شاطئ جزيرة « مالطة » وأخبرنا المترجم أنه كان يقيم في هذه المدينة جماعة من الدراويش النصارى في عهد حروب قال لنا إن اسمها الصليبية وإن الشرق اشتبك فيها مع الغرب . وقال إن المسلمين احتلوا هذه الجزيرة فى وقت من الأوقات وقتلوا من فيها من الدراويش

وقال إن للدراويش الذين تقدم ذكرهم مذهباً خاصاً فى الدين فهم لا يتزوجون طول الحياة

ولما أشرق النهار ونظرنا إلى الجزيرة وجدنا صوراً جديدة لكل مظهر من الحياة ، فالأبنية غير التى نعرفها ، والنساء غير النساء ، والرجال غير الرجال ، وهلم جرا

وسمعنا فى الصباح أجراساً تدق دقات عالية متوالية ، فحسبنا قافلة كبيرة عندهم تهم بالسير ، ثم قيل لنا إن هذه الأجراس عندهم بديل من الأذان فى مساجدنا ، وذكرنا إسماعيل بك بأن مثل هذه المعابد ذات الأجراس موجود فى قرى البلاد الأرمنية

وبعد وقوف السفينة على الشاطئ تبودلت التحيات بينها وبين إحدى قلاع المدينة باطلاق المدافع ، ثم قيل لنا إنه غير مسموح بالنزول إلى المدينة لأن البلاد التى نحن آتون منها بلاد غير نظيفة . فأخذتنا العزة وقلنا لهم إننا آتون من بلاد إسلامية وإننا لا نسمح بوصفنا بهذا الوصف . فأجابنا الربان جواباً لم نفهمه أيضاً إذ قال إن عدم النظافة هو المرض وإن فى الهواء ببلاد الترك حيوانات صغيرة جداً تحمل من يستنشق هذا الهواء غير نظيف . فلم يقنعنا هذا التعليل غير المعقول وطلبنا إعادتنا إلى فارس احتجاجاً على هذه الاهانة أو السفر بنا فى الحال إلى بلاد الفرنجستان

لكن السفير عاد فقال : « إننى مع استيائى من هؤلاء الانكليز أرى أن عوائدهم بعيدة جداً عن عوائدنا وعقلهم ليس كعقلنا فينبغي أن نعذرهم وينبغى كذلك أن تنفذ أوامر الشاه كما هى . وقال لنا ليرضينا إن ترجمة مايقوله الفرنجستان عن الحيوانات الهوائية أن فى بلاد الترك عدوى الطاعون

وأنهم يخشون أن ننقل العدوى إليهم . وقال إنهم لكفرهم لا يسلمون الأمر لله ويعتقدون بوجود العدوى .

وقال لنا المترجم إن المرضى بالأمراض المعدية في داخلية البلاد يحجزون في أماكن أحصن من السجون ، وإن الذي يحاول الفرار من بينهم قد يرمي بالرصاص كما يفعل بالأسير الهارب . ومن هذا القول فهمنا أنهم يعاملون المرضى مثل معاملة المجرمين وليس هذا أول شيء غريب بدا لنا من جانب الأوربيين

لكننا عولنا على الرضى فيجب علينا نحن أن نؤمن به فلا نحارب القضاء الذي شاء تأخيرنا أربعين يوماً في المحاجر

وفي فترة التأخير زرنا السفينة الكبيرة التي تحرسنا فراعنا كبر حجمها ومدافعها وكثرة هذه المدافع؛ واعتقدنا أن إخواننا الفارسيين لن يصدقونا عندما نقول لهم إن بالبحر سفناً بهذا الحجم وهذه المناعة . وقلنا مادام هذا هو استعدادهم الحربي فلا غرابة إذن في امتلاكهم الهند . ولم نكد نصدق — وهذا هو وصفهم — أنهم يخضعون لحكم سيدة ويعترفون بها ملكة عليهم .

وكان بجوار السفينة سفن أخرى كثيرة محجوزة لأنها غير نظيفة . ولاحظنا اهتماماً في تلك السفن بسفينتنا، فقد كان كل من فيها يحاول النظر إلينا ؛ فلما سألنا عرفنا أنهم علموا أن بيننا سيدة شرقية بثيابها الوطنية فأرادوا أن يروها وهي بتلك الثياب . ويظهر أن القوم يعدون ثياب نسائنا من الأعاجيب .

وكانت الشرنسية طول هذا الوقت لم تنتقل من الركن الذي أجلست به عند صعودنا إلى السفينة ولم تنطق بحرف مدة السفر إلا عندما وقفت السفينة في مالطة فعند ذلك سألت عن علة الوقوف .

وفي أثناء هذه المدة زارنا حاكم المدينة وحيا السفير . وأشار إلى العلم الأصفر الذي يرفرف على المحجر وأبدى علائم الاعتذار ، وأفهمنا المترجم أنه يعرب عن أسفه لاضطراره إلى حجز السفينة وأنه لولا ذلك لسُرّ من زيارتنا إياه ولأرانا المدينة وما فيها من المعاهد والآثار

وقال لنا إن نظام المحاجر لا يمكن التساهل فيه، وإنه لو كان الملك نفسه آتياً من بلاد ملوثة لما استطاع مخالفة نظام المحاجر . وقال إن وصف البلاد المصابة بالعدوى بأنها غير نظيفة لا يمس أهلها وأن اللائكة أنفسهم يعتبرون ملوثين إذا جاءوا من بلاد بها عدوى

ثم ختم الحاكم كلامه بالسؤال عن الأحوال في فارس وعن صحة الشاه — وما إلى ذلك من الأسئلة . وقد رأى فيروز خان أن اللياقة تقضي بأن يرد على هذه الخطبة بخطبة مثلها فأكد للحاكم أن الشاه يتمتع بالسعادة الكاملة وأن جنوده جاءوا إلى قصره في السلطانية بعشرين جملاً محملة برؤوس العصاة والمتمردين من خراسان ومازندار، وأنه خرب قرى الثوار وقضى عليهم القضاء الأخير . والفضل في الانتصار لخمسة وعشرين أميراً من أبناء الشاه قادوا جيشه في هذه الحملة . وقال إنه يرجو أن يسر الحاكم بهذه الأخبار لما بين الدولتين من الود

ولكن ظهر لنا من مراقبة وجه الحاكم عند سماع هذه الخطبة أن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا نحن من خطبته . وقد قال لنا المترجم إن الحاكم

مسرور من انتصار الشاه . وأخبرنا أن فى بلاده ما يسميه بالحرب الانتخابية وأن تأخيرنا فى المحجر كان فى مصلحتنا لأننا لو وصلنا إلى انكلترا قبل انتهاء هذه الحرب لما سررنا من الحالة هناك . وقال إنه يأمل أن يبشرنا قريباً بانتصار الشاه الإنكليزى على خصومه الذى سماهم الحاكم « بالمعارضة »

وقد أراد المترجم أن يشرح لنا معنى المعارضة فذكر أشياء لم نفهمها مثل قوله «الضمانات الدستورية والحقوق البرلمانية » وما إلى ذلك من ألفاظ لا معنى لها فى لغتنا، وكل الذى فهمناه أن هناك شغباً فى البلاد وأن الحكومة قد لا يكون مركزها وطيداً ، وأن أعضاء سفارة مثلنا لا يكون وصولهم ملائماً إلا عند وجود حالة مستقرة

ولكننا لم نفهم معنى قول الحاكم إن المعارضة تنهزم كل يوم ولكن أعضاءها لا يتفرقون ولا يقتلون . ولا أعرف كيف إذن يكون انهزامهم

والأعجب من ذلك أن المكان الذي تدور فيه المعارك مكان واحد لا يتغير ، اسمه (البرلمان) ويظهر أنه ميدان حرب

ولكن الحاكم استنكر أن تسيل الدماء بهذا الميدان .

وقال محمد بك يظهر أن الفرنجستان على غرابة أطوارهم لا يعرفون معنى للحكومة القوية فهم لذلك يتركون خصوم الشاه على قيد الحياة

ونظر الحاكم إلى سفيرنا وقال : « إنك بلا ريب ستعلمهم أنظمة الحكم الصالح فتساعد الشاه الفرنجستانى على التخلص من خصومه »

عند ذلك بدا السرور على وجه السفير الفارسى وفتل شاربيه وقال : « إننى على بركة الله سأعلمهم ما هم فى حاجة إلى تعلمه

ثم غادرنا الحاكم ونحن ننظر إليه مندهشين وهو مندهش منا أيضاً

الفصل الثانى عشر

السفينة الحربية

احتفل بنا قائد البارجة الحربية احتفالاً عظيماً عندما انتقلنا إلى سفينته . ومن عجائب هؤلاء القوم أنه قابلنا ورأسه مكشوف وقبعته فى يده. وقد أفهمنا المترجم أن هذه العادة عندهم دالة على الاحترام . ولم يكتف فى تحيتنا بالكلام بل أمر كذلك باطلاق المدافع .

وقد وجدنا عدد الجنود الذين فى هذه السفينة يكفى لتعمير مدينة من مدن الفرس . وكان فيها نساء قيل لنا إنهن يقمن ببعض الأعمال فى الحرب . ولا أعرف ما هي هذه الأعمال ولا أى شأن للنساء فى الحروب

وجىء لنا بالفواكه الشهية وبالأطعمة اللذيذة

وقال سفيرنا إنه لو كان عند الشاه سفينة واحدة مثل هذه لسحق روسيا سحقاً . وإن شاء الله متى وصلنا إلى انكلترا فاننا سنتعلم صناعة هذه السفن . ولن يكون ذلك صعباً علينا لأننا نحن الفارسيين لا نعجز عما يقدر عليه الأتراك ؛ ومادام الأتراك قد شادوا مثل هذه السفن وهم بشهادة العالم كله أضعف الناس ذكاء ، فاننا سنشيد أسطولاً بلا ريب

ثم عرفنا ربان السفينة الحربية بمساعديه ومن بينهم طبيب ، ومن بينهم أيضاً قسيس هو العلامة الوحيدة على تدين هؤلاء القوم الذين ينقضى النهار ووراءه الليل ولا نراهم يركعون ولا يسجدون

ولا يمتاز القسيس عنهم إلا بأن ثيابه سوداء . أما فيما عدا ذلك فهو يشبههم أتم الشبه ولحيته محلوقة وكذلك شارباه

وطبيبهم كذلك لا يلبس ثياباً تميزه ، ولكنه بغير ريب على جانب عظيم من العلم فانه لما جس نبضي ورأى لسانى أشار لى بالدقة على مواضع الألم فى رأسى . وقال لى إن فى عينىَّ ألماً وإننى قليل الشهية للطعام . ولقد صدق فى كل ما قاله

ولما أعطانى الدواء وجدت ثمرته العاجلة وهو لا يكتب حجاباً ولا يستعين بعلم الفلك كميرزا أحمد الطبيب الفارسى

ثم نزلنا مع الربان إلى الطبقة السفلى من السفينة فوجدناها لا تنقص فى الضوء ولا النظافة ولاحسن الترتيب عن الطبقة العليا . ووجدنا بها سيدة إنكليزية فى نهاية الجمال . ولكن جمالها يخالف الجمال الذى نعرفه فى بلادنا فإن شعرها أصفر مثل أسلاك الذهب ووجهها فى استدارة القمر . ولم تحاول إخفاء وجهها عندما رأتنا . ولم يكن فى يدها برقع ولامنديل تتقى به الأعين الناظرة لوهى أرادت ذلك . ولقد كلمتنا دون خفر ولا دلال كأنها رجل مثلنا . وأفهمنا المترجم أنها تسأل عن الشركسية فأجابها السفير أنها ليست إلا رقيقة وأنها لا ترجو أكثر من أن تترك فى مكانها

وكان مع هذه السيدة سائح أبيض الشعر كثير التجارب لم نفهم الغرض من رحلاته إلا أنه يقول إنه يصيد الطيور والوحوش والأسماك . وهذا السبب الذى يزعمه لا يبرر إنفاقه النفقات الطائلة فى الرحلات ،فلا بد أن يكون له غرض آخر يخفيه

وعندما وقع نظره علينا أخذ يصعد فينا نظره ويصوبه من الرؤوس إلى الأقدام كأننا مواش يريد أن يشتريها . ولست أشك فى أنه لو كان يستطيع امتلاكنا لفعل بنا ما يفعله بالحيوانات التى يصيدها ، فقد قال إنها تعرض فى بلاده فى حدائق عامة ليراها الناس

وكان معهما شاب قال لنا المترجم إنه « شاه زاده » أى ابن ملك من ملوك الفرنجستان فى جزيرة تدعى صقلية ، ولكن ملك هذه الجزيرة وأمراءها قد طردوا منها ، فهم لذلك ينتقلون من بلد إلى بلد ويشتغل بعضهم بالتجارة والبعض لا عمل له . وقد اعترانى الدوار لما قلت فى نفسى إن أبناء الشاه سيكونون كذلك جوابين فى الآفاق إذا طردوا من بلادنا

وكان هذا الأمير متواضعاً لا يستطيع الانسان أن يعرف أنه أمير إذا لم يسمع عنه ذلك . وكان فى صحبته أحد الوزراء

ومنذ ركبنا السفينة جعلت همى أن أتعلم اللغة الانكليزية فأخذت أسأل المترجم عن اسم كل شىء وكل مكان وأحفظ هذه الأسماء . وكذلك لاحظت أن السفير يحاول تعلم هذه اللغة بقدر الامكان . وكان فى استطاعتنا أن ننطق ببضع كلمات انكليزية عندما قابلنا السيدة التى تقدم ذكرها فى السفينة الحربية . فكانت تبتسم عندما ننطق بهذه الكلمات . وقد أدهشنا من أمرها أنها تحسن القراءة والكتابة وتفهم ما تقرأ كأى رجل من الرجال . ولكننا لم نعرف هل خطها بلغتها جميل أو غير جميل، لأننا لا نعرف قواعد الخط الفرنجستانى . لكن الذى أستطيع أن أؤكده أن الخط الفرنجستانى قبيح فى جملته لأن الخطوط عندهم كلها متشابهة ولأنهم يكتبون على عجل . ولم ألاحظ توقيعاً من

توقيعاتهم على شكل طغراء ، ولم أشاهد كذلك تركيباً جيلاً كالثلث عندنا ، وأغرب ما فى خطوطهم أنهم يكتبون من اليسار إلى اليمين . ويبتدىء الكتاب عندهم من آخره فى الجهة اليسرى .

وهذا الخلاف بيننا وبينهم ذكرنى بتقاليدهم البعيدة عن تقاليدنا في الطعام ، فإن آدابنا فى الأكل بسيطة خالية من التكلف . ولكن لا تسل عن مقدار دهشتنا عندما دعينا لتناول الطعام فى السفينة أول مرة .

رأينا على المائدة أنواعاً متعددة مما لا يصلح استعماله إلا فى الحروب : رأينا سكاكين من أحجام مختلفة وآلات تشبه السكاكين ، ولكن أطرافها كثيرة مدببة تدل هيئتها على أنها تستعمل فى السجون لقلع عيون المجرمين . ورأينا أصنافاً كثيرة من الأدوات على المائدة وعدداً جسيما من الأطباق

ولقد كانت السكاكين من الكثرة بحيث تكفى لتزيين جميع الأحزمة فى حاشية الشاه بدلا من الخناجر

وتوجد غير الشوك والسكاكين ملاعق كثيرة . وقد خطر ببالى أنه لابد من انقضاء زمن طويل فى تعلم طرق استعمال هذه الآلات لنقل الطعام بين الأطباق وبين الفم خصوصاً بالنسبة لأناس متقدمين فى السن مثلنا تعودوا منذ الطفولة أن ينقلوا طعامهم بأصابعهم إلى أفواههم دون احتياج إلى هذه الاسلحة الحادة

وقد أصر السفير على أن نسلك مسلكا يقلل من ضحك هؤلاء القوم علينا وسخريتهم بنا ، فأمرنا باعتياد عاداتهم . لكن أول تجاريبه فى ذلك كاد يجر علينا خطراً مستطيراً ، وذلك لأنه ما كاد يمسك السكين ليقطع بها قطعة من اللحم حتى جرح أصابعه

وكنت فى أثناء الطعام أسهو فآخذ بأصابعى بعض القطع وأدسها فى فمى ثم أتنبه فأدور ببصرى لأعرف هل رآنى أحد وأنا أرتكب هذا الخطأ الذي يرونه لا يغتفر

ولاحظت أن لديهم آداباً فى الطعام تخالف آدابنا. منها أن أمام كل فرد على المائدة طبقاً خاصاً لا يجوز أن يأكل من طبق غيره ، وأنه ليس مسموحاً بالشرب من الزجاجة أو الآنية ولكن يسكب الانسان منها فى الكوب على قدر ما يريد . ولكل فرد كوب خاص به . وكذلك لا يجوز له استعمال الملعقة أو السكين أو الشوكة التى لغيره ولا أن يستعمل سكين الزبد فى قطع اللحم ولا سكين اللحم فى أخذ الزبد . وهم يعتبرون إمساك البطة أو الدجاجة بيد وقطعها باليد الاخرى جريمة شنيعة . ولهم طريقة خاصة فى قطعها بالشوكة وبسكين كبير . وليس من الآداب عندهم أن يقدم الانسان إلى جاره قطعة من اللحم . وبالجملة فقد رأيت متناقضات مدهشة لا يسعها هذا الكتاب وسأقصها على إخوانى متى عدت إلى إيران إن شاء الله

الفصل الثالث عشر

أعضاء السفارة يغادرون مالطة

أخيراً تحركت بنا السفينة من جزيرة الدراويش فرأينا البحر مملوءاً بسفن من أحجام مختلفة وكلها فى اتجاه واحد هو الذى نقصد إليه . وقد لاحظنا أنهم يستعينون بآلة كالتى نعرف بها القبلة يسمونها (البوصلة) وهم يقولون إنها تبين لهم الشرق والغرب حتى فى الليل .

وقد سمعنا أن كل السفن التى رأيناها محملة بالبضائع وأنها تقصد إلى بلاد الانكليز، فدهشنا وقال السفير للربان : « هل بلادكم مصابة بمجاعة أم الانكليز عاجزون عن صنع أى شىء لأنفسهم فهم دائماً فى حاجة إلى من يمونهم ؟ »

فأجابنا الربان بواسطة المترجم أن الانكليز ليسوا فى حاجة إلى كل هذه المتاجر ولكنهم سماسرة يقومون بين الدول بمهمة الوسيط ، وهم صناع فهم يأخذون الخامات من بعض البلاد ثم يردونها إليها مصنوعة ؛ فلم يقنعنا هذا القول وأصررنا على أن بلادهم فقيرة . فقال لنا : إن هذه المهمة التى نقوم بها هي أشرف المهمات ، وإن المجد أن تبلغ أية دولة مثل هذه الغاية . واستشهد على صحة قوله بأرقام كثيرة . وقرأ لى قصاصات من الورق لم أفهم منها شيئاً

وبعد أيام قضيناها فى البحر وصلنا إلى صخور وراءها سهول واسعة . وقال المترجم ان هذه الصخور هى جبل طارق وإن البلاد التى وراء هذه الصخور كانت مملوكة للسلمين فى وقت من الأوقات . وإن اسم طارق الذى سميت به الصخور هو اسم لأحد قواد المسلمين ، وقص علينا المترجم قصة طارق هذا وتحدث عن بلاد الأندلس، فعزمت على كتابة هذه القصة ونشرها فى إيران لأدل قومي على عظمة التاريخ الإسلامى

ولما استأنفت السفينة السير وجدنا أحد البحارة وهو شائب يضع على رأسه أصباغاً خاصة ليجعل بياض شعره سواداً ، فعجبنا من طريقته لأننا لا نعرف فى بلادنا شيئاً من هذا القبيل غير الحناء . لكن الحناء لا تعيد الشعر إلى لونه الأسود بل تجعله محمراً . أما الأصباغ الأخرى مثل النيلة الزرقاء فما لا يجوز صبغ الشعر به

وقد قدم ذلك البحار جزءاً مما معه من الصبغة إلى السفير ليصبغ لحيته إذا أراد ، فشكره على ذلك وسأله عن اسمها ليشترى من انكلترا شيئاً منها ويبعث به هدية إلى الشاه

ولكن لحسن الحظ لم يتبع السفير مشورة البحار ولم يصبغ شعره ، وقد وجدنا شعر البحار فى اليوم التالى شديد الاحمرار بدلَ أن يصطبغ بالسواد ، ولما سألناه عن السبب قال : إن رطوبة البحر أثرت فى الصبغة فأفسدتها ، ولذلك جاء لونها كذلك . ورأيناه شديد الخجل لأن الشعر الأحمر شنعة فى بلاده

ثم بدت لنا الأرض عن بعد فهلل البحارة . وبدا عليهم الطرب . وعلمنا أن هذه الأرض هى انكلترا . ولما اقتربنا منها لم نجد ذلك الإشراق الذى يجده الإنسان وهو مقبل على مدينة فى فارس . بل رأينا كسفاً من الضباب كسواد الليل كشف عن مناظر غامضة لأبنية ومنائر . وأدركنا عند ذلك علة ما نعرفه عن قلق الانكليز فى بلادهم وميلهم إلى الاسفار ، لأن الانسان بطبيعته لا يحب أن يوجد إلا حيث توجد حرارة الشمس وضوؤها . وقد حاول المترجم أن يقنعنا بأسباب أخرى لميل الانكليز إلى الاسفار ، وبالمصالح التى تقتضى ذلك فى أنحاء ما يسميه بالامبراطورية . ولكننا وجدنا هذه الأقوال تافهة لا يراد بها إلا التنصل من وصف بلاده بأنها غير صالحة للسكنى . ولم نفهم كلمات غامضة كثيرة كقوله « العلاقات الأجنبية . والتوسع الاستعمارى » ولعله يعنى بذلك غارات الحدود . وقد

أفهمناه أن ذلك لا يستدعى المهاجرة وأنه يكفى أن ترسل الحكومة الانكليزية بعض قبائلها لنهب المحصولات فى الجهات المجاورة واختطاف الرقيق والغنم والماشية

ولما أفهمنا المترجم الانكليزى ذلك أصر على عناده وأبى أن يفهم وأصر على أن النظم فى بلاده خير نظم فى سائر الوجود وعلى أنه ليس أحسن من حكومته وشاهه وقال : « انتظروا حتى تصلوا إليها فتروا بأعينكم ما لا تستطيعون إدراكه بالسماع ، وسترون هل فارس أكبر أم انكلترا ؟ »

الفصل الرابع عشر

أعضاء البعثة فى بلايموث

رست بنا السفينة أخيراً على الشاطىء . ولطول المدة التى قضيناها بالبحر لم يفكر أحدنا فيما اعتدناه من قبل من استشارة المنجمين . ولم يخطر ببالنا هل الساعة ميمونة أو غير ميمونة بل تأهبنا للنزول فى الحال . وقد أطلقت المدافع عند نزولنا ورفعت الأعلام . ولكننا لم نجد أحداً من قبل الحكومة فى انتظارنا فامتعض السفير فيروزخان

ولما أبدى هذه الملاحظة للمترجم قال إن العاصمة لا تزال بعيدة عن هذه المدينة بعد طهران عن اصفهان ، وقال إن المدينة التى نحن فيها هى بلايموث

كان يوم نزولنا من السفينة يوماً سعيداً لأننا والحق يقال لم نطمئن يوماً على أنفسنا قط ونحن فى البحر . وقبل نزولنا كلفنا أتباعنا بجمع أمتعتنا . وأعانهم البحارة على ذلك وحمل كل منا سلاحه فوضعه فى حزامه وحمل ذوو الرماح منا رماحهم

وودعنا البحارة ورؤساءهم ومشينا فى الرفأ كأننا فصيلة من الجيش . ولكن الانكليز قابلونا بالابتسام الذى مظهره الترحاب وحسن النية وإن لم يخف علينا أنهم كانوا يضحكون منا

وكانت الشركسية تمشى وراء موكبنا بين « سعيد » و « محبوب » وقد استلفت أنظار الانكليز نساء ورجالاً فاحتشدوا حولنا أينما سرنا . والعجيب أنهم لم يلتفتوا مثل هذا الالتفات إلى السيدة الجميلة التى كانت معنا فى السفينة ، فاهتمامهم فى الحقيقة لم يكن بالمرأة من حيث أنها امرأة ، بل من حيث أنها محجوبة . ولاحظنا أن نظراتهم لنسائهم السافرات كانت نظرات عفيفة . ولقد ذكرت عندما خطرت ببالى هذه الحقيقة قول شاعرنا السعدى « إن الفاكهة الممنوعة هى أشهى الفواكه إلينا وأحبها » وقلت فى نفسى إن الشاه فى فارس يرسل المنادين فى الطرقات قبل نزول زوجته من قصره إلى مكان آخر منذرين باخلاء الطريق ممن فيه ويقتل من يعصى الأمر . وذكرت أنه بالرغم من ذلك فانه لا يكاد يوجد رجل واحد من أهل طهران لم ينظر وجه الملكة خلسة من ثقب النافذة . ولكن هنا فى بلاد الفرنجستان تمشى ملكة الانكليز فلا ينظر إليها أحد غير النظرة العادية التى ينظرها الرجل إلى الرجل

ومما استلفت نظرى فى هذه المدينة عظم المبانى وكثرتها وحسن زينتها . ولقد قدرنا أن كثرة المارين فى الطريق سببها رغبة الناس فى مشاهدة سفير الشاه ملك الملوك إلى الملك الانكليزى . ولكن ساءنا أنه لم يتقدمنا فراش من قبل حاكم المدينة يطرد الناس من أمامنا كما فعلنا نحن عند ما وصل إلينا السفير الانكليزى . وأقول إنه لو كان بعض

الفارسيين ضحكوا من ثياب ذلك السفير يوم قدومه كما يضحك الآن بعض الانكليز من ثيابنا لأعدمهم الشاه إرضاء لضيفه أو لجلادهم إن رأى الضيف الاكتفاء بذلك

ولما خرجنا من المرفأ أعدلنا المترجم عربات لا تشبه العربات التي رأيناها في الآستانة لأنها كبيرة الحجم مريحة حسنة المنظر وفضلاً عن ذلك فلا تجرها الخيل بل يظهر أن بها آلات كالتي بداخل السفينة تساعدها على الحركة . وقادتنا هذه العربات إلى مكان قال عنه المترجم إنه خان . ولكننا لما رأيناه وجدناه أفخم من قصر الشاه

دخلنا فكان أول ما رأيناه عند الباب ردهة كالتي في قصر الملك بها مرآة عظيمة وآلة توضع عليها القبعات، ووجدنا سيدتين جميلتين على مكتبين مزخرفين وليس على وجههما براقع . ووجدنا رجلاً في ثياب أنيقة في استقبالنا فمررنا بغرف مقفلة لم نر أبوابا أجمل من أبوابها، ثم أرانا جناحاً به عدة غرف مخصصة لنا . وقال لنا المترجم إنه غير مسموح لنا بأن نصفق أو ننادي بهذا المكان . وأرانا ثقباً بالحائط فيه زر صغير قال إننا إذا لمسناه سمع البواب دقة الجرس بالقرب منه فيأتي . وفعلنا ذلك على سبيل التجربة .

فلما تبينا صدق قوله تذكرنا القصص التي تقال عن بلاد الجن . وكان كل شيء أمامنا يبهر النظر حقاً فإننا في قصر لم يقم في مثله أي ملك من ملوك الفرس من عهد أنو شروان . ولا يرى الفارسي ولا في الحلم مثل الذي به من أسباب الراحة

ولما استرحنا قليلاً في غرفة الاستقبال جاءت فتاة انكليزية ساحرة الجمال وقالت لنا بواسطة المترجم إن أماكن النوم قد أعدت لنا ، فذهبنا لنراها ، ووجدنا لكل واحد منا غرفة خاصة . ولست أستطيع وصف الأسرة فإنها لجمالها لا تكاد تختلف شيئاً عن عرش « الطاووس » الذي يجلس عليه الشاه في الأعياد . وقال لنا المترجم إن السرير الذي أعد للسفير قد اختير عن عمد من الأسرة المصنوعة على الطراز الموغولي المعروف بعرش الطاووس

قال السفير : « لا إله إلا الله ! إن الحظ لم يكتف بإرسالنا إلى الفردوس حتى يجعل الحور في خدمتنا ! »

ثم حدثت حركة غير عادية في الفندق عندما علم القيمون به بوصول الشركسية فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن يراها . ويظهر أنه لم يعتقد أحد منهم أنها ليست إلا جارية . ولذلك حياها الجميع كتحيتهم للسفير نفسه . حتى مترجمنا الانكليزي صار كأبناء جنسه يؤدي لها من الاحترام ما ليس من حقها وصار يطلق عليها كلمة « اللادى » ولما سألناه عن معناها عرفنا أنها تعني كلمة « الهانم » فاستاء السفير من هذا التعبير وطلب إليه ألا يعيده لأنه يعلم أنها جارية

ولقد كانت دهشة الانكليز عند رؤيتها أشد من دهشتهم عند رؤيتنا نحن حتى كان القيمون بالأبنية التي أمام الفندق ينظرون من النوافذ لعلهم يبصرونها . وكانوا يتحدثون بأصوات عالية لم نفهم منها شيئاً ولكن أحاديثهم بغير شك كانت عنا وعنها

وقال السفير : « إذا كان الجواري يعاملن هذه المعاملة في انكلترا فكيف تعامل الزوجات ؟ لا غرابة إذن مع احترامهم للنساء أن يستنكفوا خروج الخصي مع إحدى الزوجات ليحرسها »

الفصل الخامس عشر

حاكم المدينة يزور السفير

كان « ميرزا فيروز » شديد الغيظ لأن أحداً من رجال الحكومة لم يأت ليزوره ، وقد كان ذلك أقل واجب له بعد أن أهملوا حفلة استقباله مع أنه يوم وصول السفير الإنكليزي إلى طهران أقيمت حفلة لأجله لا يقام مثلها إلا للملوك

ولم يخف السفير شيئاً من غيظه عن المترجم بل قال له في صراحة : إنه آسف لمجيئه هذه البلاد التي لم يكن ينتظر أن يعامل فيها مثل هذه المعاملة وأنه مع اقتناعه باختلاف العادات فإنه يأبى أن يصدق أن إهمال الحفاوة بتاتاً من العادات الانكليزية

لكنه لم تطل إقامتنا بالفندق حتى أخبرنا المترجم بأن حاكم المدينة آتٍ لمقابلتنا . ولقد جاء وحده لا يصحبه أحد من رجال حاشيته ولا يتقدمه الفرسان ولا حملة المشاعل ولا حامل « الشوبك » ولا الفراشون ليطردوا الناس من الطريق . بل كان هذا الحاكم في نهاية البساطة يحمل عصاه في يد وقبعته في اليد الأخرى

وبعد أن حيانا جلس على أقرب مقعد أمامه ، فدهش السفير من ذلك كل الدهشة لأن رجلاً كبير المقام لابد أن يجلس في صدر المكان . ولولا أن المترجم قال لنا إن هذا هو الحاكم لاستحال علينا أن نعتقد ذلك . وزادت دهشتنا عندما علمنا أنه صاحب سفن كثيرة وأنه بطل من أبطال الحروب وأنه لا يزال محتفظاً بقوته بالرغم من أنه تجاوز السبعين .

ورأى سفيرنا — ما دام هذا هو أول حاكم انكليزي نقابله — أن يكون الأثر الذي نتركه في نفسه جميلاً بقدر الامكان . وبذلك استجمع كل ملكاته الخطابية ليلقي أمامه أبدع ما يمكن أن يقال

وبعد أن سأله ثلاث مرات عن صحته وحالته ، وقف وطلب إلى المترجم أن ينقل أقواله إلى الانكليزية . وألقى الكلمة التالية :

« الحمد لله إذ رأينا فيك يا حاكم المدينة رجلاً غض الشباب موفور الصحة قادراً على القتال ممتعاً ، فضلاً عن مزاياك النفسية العالية بصفات تحبب في الاقتراب منك ، فالعين لا تنصرف منك إلا إليك لجمال طلعتك ، ونحن سعداء بالوجود في حضرتك . وإن من حسن الطالع أن نتعرف بك فان رؤيتنا إياك دلتنا على أن ملك الانكليز أحسن الملوك رأياً في اختيار الحكام ، وأن ملكاً حوله أعوان من أمثالك لجدير بصداقة فارس »

كنا ننتظر أن يرد على الخطبة بخطبة مثلها يبالغ فيها في مدحنا . ولكنه وجم كأنه لا يستطيع الكلام . وبدت على وجهه علائم الحيرة كأنه يستنكر مدحنا إياه بما يعرف أننا لا نصدقه وإن كنا نقوله

وقد بقي السفير عدة دقائق ينتظر الرد . فلما لم يسمعه أخذ يفتل شاربيه ويدخل أصابعه في لحيته . وأخيراً فطن الحاكم الانكليزي إلى أن السكوت لا يليق فقال : إن الجو جميل

رضي السفير بعض الرضى لأنه فهم أن الحاكم يريد أن يقول إن الجو جميل بوجودنا كما نقول نحن في فارس إن الشمس مشرقة بوجود الضيف . ونظر كل منا إلى الآخرين

ولما انصرف الحاكم قال لنا السفير : هل

رأيتم حماراً مثل هذا ؟ إن أحد السوقة فى فارس أذكى من هذا الحاكم الانكليزى وأفصح منه لساناً . فأخذنا نطرى فصاحة سفيرنا وذلاقة لسانه وسرعة خاطره ، وقلنا إنه بيض وجوهنا ووجه الشاه الذى أحسن اختيار من يمثله فى البلاد الأجنبية . واتفقت كلمتنا على أنه ليس فى العالم كله حاكم أشد عجزاً من حاكم بلايموث

كان العشاء فى الفندق على منوال العشاء فى السفينة سوى أن الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين كانت كلها من الفضة . فسألنا المترجم هل هذا هو منوال الحياة العادية فى الفندق أم زيد فى الاستعداد حفاوة بنا . وقلنا له إن الفنادق عندنا لا تقدم الطعام للنزلاء بها بل بجوار كل خان بدال يأخذ منه النزيل ماشاء من طعامه . على أن الطعام الذى قدم لنا هنا جدير بأن ينسى المرء ما يقال عن كرم حاتم

أكد لنا المترجم أن هـذا هو منوال الحياة العادية بالفنادق وأنهم لا يقدمون لنا الطعام كرماً فهم بعداء عما نفهمه من معنى الكرم، وأن أصحاب الفندق سيقدمون لنا عند ما نرحل عنهم قائمة بالحساب يدرج فيها ثمن كل شىء مهما كان تافهاً . وأننا إذا كسرنا لوحاً من الزجاج أو كأساً فانهم يحتسبون ثمنه علينا . وقال لنا أكثر من ذلك إنهم لايقبلون المجادلة فى الأثمان التى يذكرونها بقوائم حسابهم ولا يصل الأمر إلى القاضى ليفصل فى النزاع على الأثمان فان كلمة أصحاب الخان مصدقة ، وأن الذى يرفض دفع ثمن ما يأكله أو أجر إقامته تصادر أمتعته ، وقد يسجن أيضاً

ولما حان وقت النوم وجد كل منا فى غرفة نومه موقداً ، ووجدنا الفراش سخناً فكدنا ننسى أننا ببلاد شديدة البرد. ولما انقضت ساعات من الليل فزعنا عند ما سمعنا صوت السفير يصيح فخرجنا لنعرف حقيقة الأمر فوجدناه فى ثياب النوم يمشى وفى يده شمعة فى الممر الذى بين الغرف وهو يلعن الفندق وأصحابه ، وجاء أصحاب الفندق وخـدمه والنائمون فى الغرف الأخرى وفيهم سيدات ليروا ما ذا أصاب سفيرنا فقال جملا بعض كلماتها فارسى والبعض انكليزى معناها أنه كاد أن يموت وأنه يظن أن أصحاب الفندق يريدون قتله بشدة الحرارة التى فى غرفته

وقد تبين من جواب أصحاب الفندق أنهم عرفوا أن نزيلهم آت من بلاد حارة فأدفؤا الفراش وزادوا من حرارة المدفأة على أن يقللها هو إلى الحد الذى يريده قبل أن ينام

ولما منعنا السبب الذى يتأذى منه السفير عاد كل منا إلى غرفته وهو يفكر فى غرابة أطوار الانكليز الذين يختلط نساؤهم برجالهم حتى وهم فى ثياب النوم والذين ليست لديهم أية فكرة عما نسميه نحن بأماكن الحريم . وقد وجدنا نساءهم بالليل أقل جمالاً منهن بالنهار لأن كل واحدة منهن تضع على جبينها وخديها قطعاً صغيرة من الورق لعلها أحجبة يقصد بها إلى الوقاية من الحسد والسحر

ولقد أتعبتنا فى هذا الفندق صعوبة الحصول على الماء لأننا لا نستطيع أن نأمر الخادم باحضار ما نشاء من الماء إلى غرفة النوم للوضوء أو إلى غرفة الطعام لغسل أيدينا بل علينا أن ننتقل نحن إلى مكان الماء . ويظهر أن الماء عندهم قليل لأنهم يجملونه فى أنابيب دقيقة بالحوائط ويفرغون منه بمقادير قليلة . وقد

حاول السائس مرة أن يأخذ مقداراً من الماء الساخن فى حمام الفندق ليغسل الخيل فى الاصطبل فضج أصحاب الفندق . أما فيما عدا ذلك فان فندقهم أفخم من قصور الشاه

ولكى أقرر الحقيقة يجب أن أعترف بأننا بالقياس لهم أناس فى نهاية السذاجة

الفصل السادس عشر

فى الطريق الى لندن

طلب إلينا المترجم أن نستعد للسفر إلى لندن ، وقد امتعض السفير من ذلك لأنه كان يتوقع أن ترسل الحكومة إلينا مندوبين يرافقوننا إلى تلك العاصمة ، وكان يظن أن تأخرها عن ذلك إلى الآن إنما يرجع إلى رغبة الوزراء الانكليز فى جمع الهدايا كما حدث عندما جاء السفير الانكليزى إلى طهران

وكذلك حمل تأخرهم على أنهم يصنعون عدداً كبيراً من الرايات الفارسية ليرفعوها على طول الطريق وعرضه بين بلاعوث وبين لندن

لكن المترجم قضى على كل هذه الآمال بتحديده ساعة السفر فى صباح اليوم التالى . وقال إننا سنسافر فى عربات عمومية تنقلنا وتنقل غيرنا ، وأن السائق لن ينتظرنا إذا طلبنا إليه الانتظار ، فيجب أن نكون متأهبين فى اللحظة المحددة للسفر . وقال إن كل شىء فى انكلترا بمواعيد معينة ، وإن أى عمل من الأعمال لا يتعطل بسبب التأخير ولو كان هذا التأخير صادراً من الشاه الانكليزى نفسه

ووجدنا المترجم صادقاً فيما يقول لأن العربات ما كادت تقف على باب الخان حتى نفخ السائقون فى الأبواق ، فبدأنا نمشط ذقوننا وهمّ أحدنا بأن يصلى ركعتين فنفخوا فى الأبواق مرة أخرى . وأنذرنا المترجم بأننا لو تأخرنا دقيقة واحدة فإن العربات تتركنا وتسير

قلت : « لماذا هذا التعجل ؟ إن الشمس ليست حارة هنا مثل بلادنا حتى يكون لكم عذر فى التبكير قبل أن تشتد الحرارة »

فقال المترجم : « نحن لا تهمنا الحرارة والبرودة ولكننا نزن الزمن بأدق الموازين ولا يفرط أحدنا فى لحظة من عمره »

وقال محمد بك : « وهل من التفريط فى العمر أن نصلى ركعتين ؟ » فقال المترجم : « قد لا يكون ذلك من التفريط فى عمرك ولكن لماذا تترك السائق فى انتظارك ؟ صلّ ألف ركعة إذا شئت واترك السائق وعربته ؟ »

عند ذلك سمعنا الأبواق تنفخ مرة أخرى وصاح السفير بنا أن نسرع ، ولعنتنا ولعن الساعة التى رافقناه فيها ، فتبعناه إلى الطريق

ركبت أنا والسفير والمترجم فى عربة ، وسعيد ومحبوب والشركسية فى عربة أخرى، وسائر أعضاء السفارة فى عربة ثالثة ، وكان فى كل عربة من هذه العربات مسافرون آخرون

وكان بجانبى فتاة إنكليزية سافرة الوجه لم تتحرج من ملامسة جسمى لجسمها مع اختلاف ديننا كما نتحرج نحن من ملامسة اليهود . ويظهر أن من صفات الانكليز أنهم لا يعرفون الطهارة والنجاسة فى الآدميين فهم يمسكون بيد اليهودى ثم لا يرون ضرورة للاستحمام كأنهم يمسكون بيد واحد من أنفسهم . على أن هذا فى الحقيقة لا يدعو إلى الدهشة ما دام القوم يأكلون لحم الخنزير

وإذا كنا نمتاز عن الانكليز فى كل شىء فانهم بغير ريب يمتازون عنا فى صنع هذه العربات لأن « التختروان » عندنا وهو « هودج » يحمل بين فرسين لا يمكن أن يكون كالعربة ، فهو دائماً يرتج ويهتز بعكس العربة التى يمكن أن يشرب فيها المرء فنجاناً من القهوة دون أن تسقط قطرة منه على ثيابه. بل يستطيع أن يقف فيها ويصلى ويستطيع أن يدخن فى النرجيلة وأن يتناول الغداء وقد فكرت فى إدخال صناعة العربات بالبلاد الفارسية عندما أعود إليها

وقد عجبت من نظافة الشوارع ، فليس بها قطع من الأحجار ولا أكوام من الأقذار وهى مغسولة كأن الجن قاموا بتنظيفها فى الليل ، ومثل هذه النظافة لا تكون فى بلادنا إلا فى الطريق الذى يسلكه الشاه فى يوم الجمعة للصلاة . وأخذ بعضنا يسائل البعض هل أعد ذلك خصيصاً لنا ، فأخبرنا المترجم بأن هذه هى حالة الشوارع كل يوم

وقد صدقناه لأننا لم نر علامة على الاحتفاء بنا، فالناس هنا ينظرون إليه ويضحكون منه مع أن الفارسيين كانوا بأمر الشاه يركعون عند رؤية السفير الانكليزى

استرحنا فى أثناء الطريق بخان لنتناول فيه الغداء ، وقد دهشنا إذ أخبرنا المترجم بأن المسافة التى قطعناها هى ثلاثون فرسخاً وهى مسافة نقطعها فى فارس فى أربعة أيام . ولكن سرعة العربات البخارية فى انجلترا لا يكاد يتصورها عقل الفارسى فى بلاده

ووجدنا السوق فى القرية التى تغدينا بها خالياً من المحتسب ، والمشترون على أتم اتفاق مع البائعين

الفصل السابع عشر

مدينة الحمام

استأنفنا السير فوصلنا إلى مدينة (باث) ومعنى هذه الكلمة باللغة الإنكليزية هو (الحمّام) فاسم المدينة إذن هو مدينة الحمام لأن بها حمامات كثيرة ليست تشبه حمامات الماء الساخن عندنا ولكنها آتية من ينابيع يقولون إنها معدنية . وهم يقولون إنها تشفى من الأمراض مثل مياه بروسه بالقرب من الآستانة . وكان السفير يشكو وجعاً فى الظهر فأشاروا عليه بالاستحمام فى هذا الماء؛ فلما قبل قادونا إلى بحيرة ينزل فى مائها الرجال والنساء معاً .

ولقد كانت مشاهدة الحمامات الانكليزية سبباً فى إثارة المناقشة بين السفير وبين المترجم فى موضوع النظافة والطهارة عند الفارسيين وعند الانكليز. فالفريق الأخير لا يعرف الطاهر والنجس ولكنه يعرف النظيف والقذر . فالخمر عند الانكليز طاهرة لأنها نظيفة ، والماء لا يكون عندهم طاهراً إذا لم يكن نظيفاً . وقد غضب السفير فى نهاية هذا الحديث وقال : « أنتم قوم لا يحق لكم التكلم عن النظافة مادمتم تأكلون لحم الخنزير ،وكل الحمامات التى فى العالم لن تطهركم من نجاسته»

فقال المترجم « لاتكثر من الكلام فى هذا الموضوع فانك ستأكل من لحم الخنزير قبل أن تغادر هذه البلاد، ولن يكون فى وسعك أن تميز بينه وبين اللحوم الأخرى »

وبعد الاستحمام بهذه المدينة استأنفنا السفر إلى العاصمة وقد وجدنا عند بابها عربتين من عربات الشاه الإنكليزى فى انتظارنا كما وجدنا اثنين من

موظفى قصره ، فركبنا إلى المكان الذى خصص للسفارة

وقد سرّ السفير من إرسال هذين المندوبين وانتظر إجراء حفلة استقباله فى صباح الغد . ولذلك أعدّ ملابس الحفلة والخنجر ذا القبض المرصع بالجواهر ليضعه فى حزامه والقلبق الذى عليه الريشة المجوهرة

وقد لاحظت أن الإنكليزيات لم ينفرن من النظر إلى عيوننا السوداء ووجوهنا المستديرة ، ولذلك حرصت على نظافة ثيابى وجمال منظرى ، وارتديت « الطقم » وهو أجمل ثوب عندى ومشطت شعرى وجمدت خصلة طويلة منه وراء أذنى وهذه الخصلة يسمونها بالسالفة في فارس ، وهى من لوازم الأناقة ...

حلق لنا « فريدون » وساوى ذقوننا ، وجىء للشركسية بثوب جديد من ثياب الفرنجستانيين ولكن بتفصيله على الطراز الفارسي

وأفهمنا المترجم أننا سنتبع فى الاستقبال عادات بلادنا فنمشى على مهل شديد ونلقي خطباً طويلة كثيرة وأنه سيقدمنا فى الطريق بعض الأتباع ليطردوا الناس من أمامنا ، وطلبنا إليه إفهام السلطات الإنكليزية ذلك

ومما رأينا فى لندن ولم نكن نتوقعه أن على حوانيتها « لوحات » كثيرة لا شك أنها من مأثور القول عندهم . وعزمت عند ما أتعلم اللغة الإنكليزية على استظهار هذه الأقوال لكى أتمثل بها فى كلامى

ولكن المترجم قال لى فيما بعد إن هذه ليست أقوالاً حكيمة وإنها عنوانات للحوانيت التى هى معلقة عليها . فعجبت من ذلك وقلت إنهم لم يعلقوها على كل حال إلا مباهاة بحسن خطها وإلا فأية فائدة من تعليق العنوان ؟

وأدهشتنا من هذه المدينة كثرة المارة فى شوارعها فانها في أيامها العادية أشد زحاماً من الأسواق عندنا فى أيام المواسم . ولولا ما شهدناه من قلة اهتمام الناس بنا لقلنا إن أهل المدينة خرجوا لاستقبالنا كما خرج كل أهل طهران ليروا السفير الانكليزى يوم وصوله . قال السفير للمترجم : إنى لقلة ما أرى من مظاهر الحفاوة لا أكاد أصدق أننى سفير من حقه الاكرام فانكم تدخلون بى البلد خفية كأننى بضاعة مهربة . فنقل المترجم هذه الملاحظة إلى الموظفين الانكليزيين فلم يفهما فى بادئ الأمر ماالذي يريده السفير لجهلهما بعوائد الفارسيين ؛ فلما أفهمهما المترجم قالا إن هذه هى عوائد البلاد وإن السفير الفارسى يقابل كأى سفير آخر

قال فيروزخان : « إذا كانت هذه هي عوائدكم فأقسم إنها عوائد سيئة فإنه لا فرق عندكم بين استقبال سفير وبين استقبال امرأة عجوز . ثم نظر إلىّ وقال : « أقسم يا حاجى بابا أننى لو كنت أتوقع ذلك لما قبلت أن أكون سفيراً . لقد كان حلق لحيتى أهون علىّ من مغادرة بلادى والعيشة بين الكفار . ولا بدّ لى من الانتقام من رئيس الوزارة الذى بعث بى إلى هذه البلاد حيث لا تقام حفلة الاستقبال . وإذا لم أنتقم منه فانى غير جدير إذن باسم فيروزخان

وجم الموظفان الانكليزيان وقد أزعجتهما هذه اللهجة التى يتكلم بها السفير . وفى أثناء مرورنا بالعربة أشار أحدهما إلى حديقة وقال إن هذه الحديقة إحدي متنزهاتنا العامة . فقال السفير بلهجة دالة

على الغضب : « أغلقوا النافذة فانى لا أريد أن يرانا أحد فيزداد افتضاحنا »

فلم يسع الانكليز غير الصمت

الفصل الثامن عشر

دار السفارة

نزل السفير إلى الدار المخصصة للسفارة فلم يقدم إليه أحد هدية ولم يرحب به أحد . فعلت وجهه مسحة من اليأس . وقال إن الشاه أمره بان يبيض وجهه فى هذه البلاد ، ولكنه سود وجهه ووجه الفارسيين جميعاً . وقدم له المترجم طعاماً فأبى أن يأكله ، وقال إنه لن يأكل الخبز والملح مع الانكليز حتى يأتى مندوب من قبل الشاه الانكليزى ليقول له الحمد لله على سلامتك

قال المترجم : « ولكن ألا تريد أن تعتبر لمجىء المندوبين الانكليزيين أية قيمة ؟ فقال السفير : « لا تقل لى ذلك فأنت نفسك حضرت حفلة استقبال السفير الانكليزى فى طهران . إنكم سودتم وجهى وسودتم وجه حكومتكم أيضاً والحمد لله على ذلك »

ولما رأيناه على هذه الحال تركناه . واستأذن المترجم الانكليزى كذلك فى الذهاب . وكان المترجم فى الأيام الأخيرة يتغيب عنا أحياناً ليرافق رجلاً جميل الثياب ظاهر الوجاهة كان يقيم أمامنا . وقال لنا الطباخ إنه جاء مرة مع المترجم الى دارنا . وكان الطباخ مريضاً فوصف له دواء شفاه فى الحال

اعتقدنا من ذلك أنه طبيب . وفى عصر ذلك اليوم عاد إلينا مع المترجم فخرجنا إليه مادين أيدينا ليجس نبضنا مخرجين ألسنتنا ليرى لونها ، فلما رآنا المترجم كذلك استغرق فى الضحك وسألنا لماذا نفعل ذلك ؟ فقلت لأن صاحبه طبيب ، وقال الطباخ نعم وقد شفانى

قال المترجم إنه ليس طبيباً ولكنه عمى . فقلت ما معنى ذلك ؟ هل هناك ما يمنع الجمع بين كونه طبيباً وبين كونه عمك

قال : « هو على كل حال ليس طبيباً ولكنه لورد وهو من رجال السيف ولم يعالج قط صناعة الطب »

وقال الطباخ : « وكيف نميز الآن بين أطبائكم وبين اللوردات ؟ »

حار المترجم فى الاجابة على هذا السؤال . والحقيقة أن الناس متشابهون فى هذه البلاد على اختلاف أعمالهم ودرجاتهم حتى الخدم والكناسون يلبسون ثياباً كالتى يلبسها الأعيان والوجهاء . وقد هالنا اتحاد المناظر فصممنا على أن نعتصم بحبل الصبر ونفتح عيون الدهشة فى وجوه الجدة

ثم نظرنا إلى القصر الذى خصصه الشاه الانكليزى لسكنى السفارة الفارسية فقلنا إن هذا القصر لا بد أن يكون مغتصباً من أحد اللوردات لأن أى إنسان لا يسمح باعطاء مكان مثله عن طيب خاطر . وإنه ليخيل لى أن الأثاث أغلى كثيراً من البناء . وقد سألنا المترجم عمن قدم هذا القصر فقال إنه اللورد أمين الخزانة . ولست أستطيع أن أصف الأثاث قطعة قطعة ، فان كل جزء منه يحتاج فى وصفه إلى مجلد ضخم ، فالأسرة والسجاجيد وأدوات الزينة والدواليب والكراسى ، كل ذلك مما لا تقع العين على مثله . وهناك أشياء كثيرة جداً لا نعلم فائدتها ولا كيفية استعمالها

ولقد كانت الكراسى ذات أشكال مختلفة

عجيبة فبعضها له جانب واحد والبعض له جانبان والبعض ثلاثة جوانب . وبعض الكراسي ذو ظهر يصل إلى الرأس والبعض لاظهر له . أوله ظهر قصير

وهناك مناضد خاصة بالأكل وأخرى خاصة بالكتابة وأخرى للحلاقة وغيرها لغسل الوجه . وكذلك الغرف مقسمة إلي أقسام، فالذي يأكل في غرفة النوم يكون قد أتي بأمر منكر وكذلك الذي يغتسل في غرفة النوم .

وقد حار السفير في تخصيص مكان لجاريته الشركسية .

وعلى ذكر الشركسية أقول إننا استكشفنا أخيراً أن بعض السيدات الإنكليزيات يضعن على وجوههن نوعاً من البراقع ولكنه لايحول دون رؤية الوجه بل يقي من الغبار فقط .

وقد أتعبنا في قصر السفارة أننا لانستطيع الاستقرار في مكان، فاذا أردنا أن نأكل انتقلنا إلى الطابق الأرضي، وإذا أردنا أن ننام انتقلنا إلى الطابق الأعلى، وإذا أردنا أن نعمل أو نستريح انتقلنا إلى الطابق الأوسط . وقد استنتج محمد بك أن أرض بلاد الانكليز قليلة المساحة جداً ولذلك يبنون بيوتهم من عدة طبقات، على العكس من الحال في فارس فان أرضنا واسعة ومن أجل ذلك نبني بيوتنا من دور واحد

وقد علمنا أكثر من ذلك أنه ليس في انكلترا أرض زراعية ، وهذا يدل على شدة ضيق بلادهم فانهم يبنون البيوت حيث كان يجب أن تكون المزارع . وللملكية المنازل عندهم نظام غريب فهي تنتقل بالميراث إلى الابن الأكبر ولا تقسم بين الورثة ، ولعل ذلك لضمان إصلاح المنازل وترميمها لأنه عندما يتعدد الشركاء في المنزل الواحد يتشاجرون ويتركونه بغير إصلاح . . أما الثياب والأموال فانهم يقسمونها بين الورثة فهم لا يحرصون على بقائها حرصهم على البيوت لضيق أرضهم

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ ﴾



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

الرواية

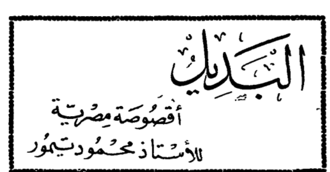
مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

العدد ٣٣ — ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — أول يونية سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العــدد



نشأت يتيم الأب والأم ، أعيش مع عمى فى منزل الأسرة بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التى أرويها . وقد أخبرونى أن أبى قد مات وأنا رضيع ؛ أما أمى فقد توفيت ولى من العمر أربعة أعوام ؛ فلا أذكر منها إلا طيفاً خفيفاً ، قليلا ما زارنى وسرعان ما اختفى . وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست عيوشة » من أقارب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحببة إلى . هي نحيفة طويلة ، صموتة جافة الطبع ، لها نظرات كريهة وابتسامة خاطفة تبعث الاشمئزاز فى النفس

وكان عمى يعاملنى بشدة ، ولكنه يشعرنى بعض الأحيان بشىء من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه فى التحفظ ، ودقته البالغة فى النظام . يبلغ الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات ، يسير فى خطوات عسكرية متثاقلة ، يلتزم فى حياته نظاماً دقيقاً لا يحيد عنه ؛ فلا أتذكر أنه تأخر مرة عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمام مكتبه غارقاً فى أبحاثه القضائية

كنت فى ذلك الوقت فى مستهل الإجازة الصيفية أقضى يومى ، إما فى حديقتنا الصغيرة ، أتسلق الشجر مع أولاد الجيران ، أو ألعب بالكرة معهم وبينما كنا نلعب ذات يوم بالكرة أمام الدار ، إذ رأيت سيدة تخترق الشارع ؛ فلما رأتنا نتقاذف الكرة ، وخشيت أن يصيبها منها أذى ، سارت على الرصيف بجوار الحائط متجنبة مرماها . كانت حسناء فى مقتبل العمر ، ذات شعر أصفر يلمع لمعان الذهب ، تجذب الأنظار بأناقتها وزينتها ، وتمسك بعصا فى يمينها تعبث بها يمنة ويسرة

وما هى إلا أن قذف أحدهم الكرة فانطلقت صوب السيدة ، وكادت تصيبها لولا لحاق بها ، وتحويلى سيرها . ونظرت إلينا السيدة نظرة بين الغضب والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها يقع علىّ حتى توقفت عن السير وأخذت تلاحظنى ، ثم ابتسمت لى فى رقة ، فلم آبه بها ، واستأنفت لعبى ، ورأيتها واقفة مكانها بضع دقائق تتبعنى بنظرها الشغوف حيثما تنقلت

وفى مثل ذلك الوقت من اليوم التالى ، رأيت سيدة الأمس تسير على مقربة منا فى خطوات متمهلة ، فما إن وصلت إلى شجرة على جانب الطريق حتى وقفت فى ظلها ترقبنا ونحن نلعب ، وشعرت بها تخصنى — دون رفاقى — بنظرتها . وبعد برهة لمحتها تشير إلىّ بيدها تستدعينى إليها ، فلم أستجب وواصلت لعبى . وظلت السيدة تلاحظنى فى اهتمام ؛ فضايقتنى هذه الملاحظة بعض المضايقة فارتبكت ، وهجم علىّ وقتئذ زميل أوقعنى وانتزع الكرة منى ، ورأيت السيدة تهرع إلىّ ، وتساعدنى على النهوض وتنفض التراب عن ملابسى ، ثم انتحت بى ناحية وسألتنى :

— هل أصابك ضرر ؟

فأجبتها : كلا !

وأخذت تدقق النظر فى ثم قالت :

— يالله ! أنت مجروح !!

— مجروح !

— جرح خفيف ، خفيف جداً تكدش الدبوس

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربنى ، فأصغيت لها . وأخرجت منديلها ، وأخذت تمسح جرحى ، وتجفف عرقى ، فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشنى وقالت لى :

— أأنت الآن أحسن حالا ؟

— لم لا أكون أحسن حالاً وأنا لم أصب بضرر ؟!

فابتسمت . وشعرت بأن إجابتى كانت جافة ، ورفعت بصرى إليها ، فوجدتها تحدق فىّ ، وقد بدا عليها حنو غريب ، فاختلج قلبى وقلت :

— نحن نلعب بالكرة دائماً ، وكثيراً ما وقعنا

— أين تسكن ؟

— هنـا

وأشرت إلى منزلنا وجعل أحد رفاقى ينادينى :

— واصف ! واصف !

فقالت السيدة :

— أهو اسمك ؟

— نعم

فانحنت على جبينى تقبلـه ، وأمرّت يدها على رأسى تلاطفه ، ثم قالت :

— انطلق إلى أصدقائك يا حبيبى .

وانطلقت ألعب . أما السيدة فشيعتنى بنظرة طويلة ، ثم تابعت سيرها بطيئة الخطا .

وفى المساء اجتمعت كعادتى بعمي و « الست عيوشة » على مائدة العشاء . وكان الصمت مخيما علينا ، كشأننا فى كل ليلة : « الست عيوشه » فى جلستها العسكرية لا يفارق وجهها الطبق ؛ تتحرك كأنها آلة بزنبرك ، وعمى بملامحه الصلبة ، ورأسه المرفوع ، لا تغادر عينه الجريدة ، ولا يبادلنـا حرفاً . . .

وأخيراً نظر إلى الست عيوشة وقال لها .

— أسمعت بجارتنا الجديدة ؟

فتقلص وجه الست عيوشة وقالت ، وجسمها لم يتحرك قيد أنملة :

— أى جارة تعنى ؟

فابتسم عمي ابتسامته النكراء ، وقال :

— جارتنا الجديدة التى سكنت منزل المرحوم « رؤوف بك » فى الشارع المجاور لشارعنا ! !

وصمتت الست عيوشة كأنما أخجلها أن يغيب عنها هذا الخبر . فقال عمى :

— يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا . إن خبرها شاع وذاع فى حلوان .

فقالت الست عيوشة : وما أمرها ؟

فأجاب عمى ، وماتزال على فمه ابتسامته النكراء :

— إنها جاءت من الاسكندرية لتنشر فى هذا البلد الصغير وباءها ؛ — وباءها المهلك المبيد ! !

فجحظت عينا الست عيوشة ، ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت :

— أمريضة هى ؟

— وأشد من مريضة . . . ! إنها من النوع المدام الذى يخرب البيوت ، ويقوض سعادة الأسر . إنها . . . إنها ، ألا تفهمين ؟ !

— . . . فاهمة ! !

— سمعت أنها كثيرة التبرج ، ولما شعر أصفر لابد أنه مصبوغ . . .

— مؤكد إنه مصبوغ ! !

— وقد رأوها تسير بعصا فى الطريق .

— كيف ؟ أعجوز هى ؟

— أجهل عمرها .

— لابد أنها تخفى سنها تحت طلاء المساحيق الثقيلة . . . يا لله ! . . ! ! ما أبشعها . . . ! !

وكان قلبي فى أثناء ذلك يدق دقاً عنيفاً ، ووددت لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعت عمى يقول :

— أرأيت سيدة تسير بعصا فى الطريق ! ؟

فقلصت الست عيوشة فمها مستنكرة ، وصمت عمى برهة ثم تكلم فى حزم وتشدد قائلا :

— أحرم عليكم مقابلة هذه المرأة ، أو اتصالكم بها ! !

فقالت الست عيوشة وقد زوت مابين حاجبيها :

— معاذ الله أن نتصل بهذه الفاجرة !

وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى على نظرة حادة ، كأنه يقول لى : أفاهم أنت ؟

وعند ما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا قلت للست عيوشة :

— عجيب أن يتحامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها ! !

— وما شأنك وهذا ؟ أرأيتها أنت ؟

— أنا ! أبداً... ولكن خبريني ، إذا حدث مثلا أني رأيتها تسير فى الطريق الذى أسير فيه ، فماذا أفعل ؟

— تمهل ريثما تخلى لك الطريق .

— وإذا رأيتها تقترب مني وتحاول أن تكلمنى ؟

فرمقتنى الست عيوشة بنظرة فاحصة ؛ فاختلج قلبي ، ورأيتها تبتسم بغتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :

— أراهن أنك رأيتها وكلتها ...

فانطلقت أنكر فى تحمس ؛ ولكنى أحسست بأن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورأيت نفسى بعد حين أقول للست عيوشة :

— أقسم بالله العظيم أنى لن أراها ، ولن أكلها بعد اليوم . لا تخبرى عمى بشىء

وتشبثت بجلبابها مسترحما ، فوقفت صامتة تحدجنى بنظرها البغيض ، ثم سارت متئدة الخطوات مرفوعة الرأس إلى حجرتها .

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تفاديا لاحتمال مقابلتى تلك السيدة . أما عمى فقد ذكرها مرة أخرى ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سخط وثورة ، فآلمنى ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزج بنفسه فى كل أمر ، ويريد فرض سلطانه على كل إنسان .

وفى اليوم الرابع خرجت إلى الطريق يدفعنى أمل غامض إلى لقائها ؛ وتجاهلت ما أمر به عمى ، بل شعرت بشى من الزهو والسرور فى تحديه ، وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب ظهورها . ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرت إلى الشارع المجاور حيث منزل « رءوف بك » الذى تسكنه . فلما اقتربت من بابه وقع نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت

تقطف الأزهار ؛ ووقفت أمام الباب ساكتا ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى يغمر قلبى بحنوه وعطفه وطيبته . كانت تتنقل بين شجيرات الورد فى فستانها البديع ، وشعرها الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل إلى أنى أشاهد ملكا من سكان السماء .

ولأمر ما ، لفتت وجهها ناحية الباب فرأتنى . ولشد ما كانت فرحتها ! فألقت بزهرها على الأرض وهرولت إلى وهى تقول :

— واصف ! تعال . ادخل ياحبيبى ، أدخل .

وحوطتنى بذراعها وقبلت رأسى . ياالله من ذلك الشعور الغامض اللطيف الذى أحسست به فى تلك اللحظة !! .

وأخذت بيدى ودخلت بى الحديقة ، وجمعت ما انتثر من أزهارها ، وقدمته إلى وقالت :

— اختر لك منها ما يحلو .

وأخذت تساعدنى فى اختيار أحسنها ، ثم قدمت إلى الصحبة وهى تقول :

— هى لك ياحبيبى

وكان فى الحديقة دكة فجلست عليها وأجلستنى بجانبها ، وجعلت تحدق فى وجهى طويلا وتمسح رأسى وا كتسى وجهها بالحزن ، ورأيتها تمسح عينيها بحركة خفية ثم قالت :

— لماذا لم تلعب بالكرة مع أصحابك فى ثلاثة الأيام الماضية ؟

فطأطأت رأسى وقلت :

— كنت متوعكا قليلا ... ولكن ، من أخبرك بأنى لم أظهر فى هذه الثلاثة الأيام ؟

— ذهبت بنفسى حيث تلعبون .... وكنت أنتظرك كل يوم .

فعجبت من هذا الاهتمام وشعرت بشىء من الخجل ... ووقع بصرى فى هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمرا أشعرنى بخوف ، وتلفت حولى فرأيت « كشكا » بعيدا عن الأنظار ، فرفعت بصرى إلى السيدة وقلت لها :

— ألا يمكننا أن نجلس فى هـذا الكشك بعيدين عن الباب ؟

فابتسمت لى ابتسامة لطيفة وقالت :

ما رأيك فى أن ندخل المنزل ؟ ... لدى شىء أريد أن أريك إياه .

وقامت وهى ممسكة بيدى ، وسارت بى إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلستنى فى الردهة الداخلية فاذا بها حسنة التنسيق بديعة الأثاث ، مزينة بصور كثيرة ، وفى ركن من أركانها « بيان » كبير . وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقا جميل الصنع عليه نقوش طريفة ، وفتحته أمامى فوجدته يحوى مجموعة منوعة من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن ، وقالت لى وهى تقدمه إلى :

— كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك

فعظم الأمر على وقلت متلعثما :

— كلا . هذا كثير !

فوضعت الصندوق على ركبتى وقالت :

— إذا لم تأخذه ساءنى ذلك منك

— ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى وقالت لى :

— إفتح فمك ! إفتح !

وفتحت فمى فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت

تضحك ، فانطلقت أضحك أنا أيضاً ، وبعد أن أكلت القطعة قلت لها بلا تردد :

— سأحتفظ بالصندوق لئلا أكدرك ، ولكنى سأبقيه عندك ، وسآخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه

فنظرت إلىّ ملياً ثم قالت :

— إنهم سيسألونك بلا ريب عمن أعطاك إياه . فاتنى أن أفكر فى ذلك

ثم صمتت برهة وهى تحدق فىّ وقالت :

— أتحب عمك ؟

— أحبه قليلاً ، ويحبنى قليلاً !

— والست عيوشة ؟ !

— لا أحبها ولا تحبنى

ونظرت إليها مدهوشاً وقلت :

— أتعرفينهما ؟

فقالت فى لهجة طبيعية :

— وهل من الصعب أن يعرف الجار ما يهمه عن جاره ؟ ... تعال

وقمت إليها ، فذهبت بى إلى « البيان » وجلست على مقعده ، وأجلستنى على ركبتها ، واحتضنتنى باحدي يديها ، وأخذت يدها الأخرى تنقر نقراً خفيفاً على «البيان» فيصدر عنه نغم هادئ لطيف ، وأحسست بفمها يلمس رأسى ويقبل شعرى ، ثم قالت فى صوت موسيقى هادئ :

— كان هناك طفل يسألنى دائماً أن أعزف له هذا النشيد ، وأن أغنيه له . طفل جميل كان يحبنى وأحبه ، فجاءنا ليلة زائر كريه ممقوت يلبس السواد ، مقنع الوجه بقناع حالك وانتزعه منى ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا أحدق أمامى :

— وأين ذهب الزائر بهذا الطفل ؟

فأجابت فى صوت مختلج النبرات :

— ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليها يوماً ولا نعود...

وتابعت كلامها ويدها تنقر على « البيان » هذا النغم الهادئ اللطيف

— سأغنى لك هذا النشيد علّه يروقك ، كما كان يروق ذلك الطفل العزيز . كنت دائماً أجلسه هذه الجلسة ، فأحوطه بذراعي ، وألمس شعره بفمى ، وأملأ صدري بعبير شعره الذهبي ... اسمع . اسمع

وأخذت تغنى الأنشودة فى صوت عذب حنون ، ونغمات « البيان » تصاحبها فى تناسق جميل فيتكون من امتزاج الصوت بالعزف وحدة تامة حتى ليصعب على السامع أن يفرق بينهما ، فيخيل إليه أن «البيان» هو الذى يغنى ، أو أن السيدة نفسها هى مصدر ذلك النغم ، تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !

أى شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت ؟ شعور عذب شملنى باطمئنان هادئ لطيف ؛ شعور أثار بين جوانحي ذكرى محببة لمشاهد منزوية حرمتها من قديم

وبينما أنا على هذا الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها مرتاعة . فالتفتُّ — وكانت غبشة الظلام قد أخذت تشيع فى الحجرة — فوقعت عينى على شبح بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرت إلى ذهنى على الفور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى يلبس السواد ، ويقنع وجهه بنقاب حالك ، ذلك الذى اقتحم منزل السيدة فى إحدى الليالى وانتزع

الطفل الذي تحبه ويحبها من بين احضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد ... فصرخت :

— كلا ! لا تأخذنى ... !

... وأنير المكان ورأيت عمى يسير نحونا بقامته المديدة ، وخطواته المتثاقلة ، عبوس الوجه ، يصوب إلينا نظراته الحادة ، وسمعته يقول :

— ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبق يده على يدي بشدة وقال لها :

— كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناء الناس ... ؟ أنسيت من أنت ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتسند يدها عليه ، وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها ؛ ثم قالت له فى صوت شبه طبيعى :

— كلا يا سيدى ، لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ... وإذا كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ماهومخز لى ومزر بى فصدقها . ولكن هناك شىء واحدأريد أن أوضحه لك فى شأن هذا الغلام.

فرن صوت عمى قائلاً :

— عجيب أمرك مع هذا الغلام !

— خفف من حدتك يا سيدى ؛ فليس أمامنا الآن مايثير الغضب إلى هذا الحد . إن الغلام غلامكم وليس لى فيه أى حق

— حق ؟ هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صوت خافض :

— ألا يمكننا أن نتفاهم ؟ تفضل بالجلوس بضع دقائق ، ولا أطالبك أن تطيل

فقال عمي :

— أفضل الوقوف . تكلمى من فضلك وأوجزى

نخلعت السيدة حلية مستديرة دقيقة الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاة على صدرها ، تصلها برقبتها سلسلة ذهبية ، ثم فتحتها وقدمتها إليه وهى تقول :

— أنظر فى هذه الصورة !

فتناول عمى الحلية ، ونظر فيها ثم قال :

— واصف ! صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوضحاً . فقالت وهى ما تزال تبتسم ابتسامتها الساكنة :

— كلا يا سيدى ، ليس واصفاً . دقق النظر فى الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يغيب عنك ...

— ... إذن ؟ !

— هذه الصورة لم تفارق صدرى منذ فقدته ! لن أنسى ما حييت ليلته الأخيرة معى ، تلك الليلة التى قضاها فى أحضاني ينظر إلىّ بعينين محمومتين ولا يملك أن يتكلم ؛ ورأيته يخبو أمامى، يخبو رويداً رويداً حتى انطفأ نوره كل انطفاء . لقد مد الموت إليه يده الطائلة فانتزعه من صدرى بلا رحمة

وشعرت بيدعمى تضطرب وهى ممسكة بيدى ، ورأيته يسعل سعلته المفتعلة ، ومضت السيدة فى قولها :

— لقد أصبح فقده جرحاً عميقاً فى فؤادى تثور علىّ ثائرته بين حين وحين ... كان يشمر قلبي

بهجة ويملأ عيني نوراً ، وكان صوته وهو يضج باللعب يبعث في البيت الحياة والإيناس ... آه ! كم كنت سعيدة به ... ! كم كنت فخورة به ... !

ورأيت عمي يتحرك ، ليعتدل في وقفته ، ولكنه ظل صامتاً يستمع بانتباه . وتابعت السيدة قولها :

— ... وعند ماحضرتُ إلى حلوان ، لقضاء فصل الشتاء ، ساقت المقادير إليّ «واصف» فكأنما بُعث ابني من جديد . رأيته يعود إلى بعد طول اغتراب ، بشكله ودله ، فآخذه بين ذراعي ، وأضمه إلى صدري ، وأضع رأسه على موضع قلبي ؛ ليصغي إلى دقاته المتتابعة ، وألمس بفمي شعره الذهبي ، ثم أقبله وأشمه ...

وسكتت وقد أخفت وجهها في المنديل . وبعد حين تمتمت قائلة :

— والآن يا سيدي ، ليس عندي ما أقوله بعد هذا

ووقف عمي يدور بعينيه أمامه في حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها . ظل كذلك وقتاً وهو يحاول الكلام فلا يستطيع ، ثم تقدم نحو السيدة وحنى هامته أمامها في خشوع وخرج وحده في خطوات سريعة محمود تيمور

قصة أم

للقصصي الدانمركي أندرسن
بقلم الأديب صلاح الدين المنجد

تعريف بالقصة

أندرسن قصصي وشاعر دانمركي كبير . اشتهر بأقاصيصه التي تتفجر منها الحياة ، وتتراءى لك منها صور الألم والشقاء ... بأسلوب حلو منسجم ، يغشى كما تغشى العروس ليلة الزفاف

وهو في أكثر قصصه يحلل لك العواطف البشرية تحليلا دقيقاً يبهرك ويعجبك . وما يزال يفيض عليها من خياله الخصب ، ومعانيه الشعرية ، سحراً وجمالا ، حتى لتحسب أنك بين يدي شاعر جبار ، وأنك تقرأ شعراً لا نثراً . وقد تفنن في هذا النوع من القصص الذي تمازج فيه الأسطورة الواقع والحقيقة الخيال

ومن روائع قصصه : عذراء الجبال — ورقة من السماء — ابنة الملك . وغيرها ...

(المنجد)

جلست الأم بقرب وليدها واجفة القلب ، واكفة الدمع ؛ يذهلها الخوف عليه من شر الموت وقد استعصى داؤه ، وغمض دواؤه . تنظر إليه وقد غشيت محياه الوديع صفرة كئيبة ، واكتحلت عيناه بزرقة قاتمة . وترى إلى صدره يهبط ببطء ، ويعلو بصعوبة ، وهو مستلق على ظهره ، ما يتحرك إلا ليرسل زفرة موجعة ، أو آهة محرقة ، من حين إلى حين

وطُرق الباب ، فإذا شيخ قد تَسَعْسَع[1] وهرم ؛ هو شبح أو يشبه الشبح ، ما عليه إلا جلد فوق عظم ، وما فيه إلا روح تتردد بينهما ، ملتفعاً برداء يتقى به رعشة البرد ، فرحبت الأم به ، وقادته إلى الموقد ليطرد عنه العناء ، ويتلهى بجرعات من الجعة يُشيع في جسمه الدفء بها . ثم تركته يرسل في الأرض نظرات ساهمة ، من عينين مظلمتين عميقتين ، كأنها تمزق حجب الغيب ، وتنفذ إلى سرائر الحنايا . وعادت إلى ابنها تهنه دمعه ، وتهدهد آلامه ، وترسل له الأناشيد ...

وسكتت الأم فجأة . وقالت : ترى يا شيخ هل يُشفى ولدى ويبقى لدىّ ؟ ... فتمتم الشيخ في سرّ ، وحدّق في الطفل وقال : كلا . فاكمدّ وجه الأم ، وطأطأت رأسها تذرف الدمع وترسل زفرات تفيض حسرة وأسى . ومرّ بخاطرها ما تلاقيه من همّ ملح وضنى لا يشفق . فها هي ذي منذ ثلاث لا تعرف عيناها سَجْو المنام ولا طعم الهناء ... ثم التفتت إلى وليدها ، فإذا بالوليد قد اختفى ، وإذا بالشيخ قد غاب ... وإذا بساعة الردهة تنقلب إلى الأرض متحطمة متكسرة ، فيسمع لها أنين محزن كأن معناه أن النجم قد خفق[1] وأن البلبل قد مات !

ونظرت الأم في الغرفة ، فعاد بصرها مذعوراً شاكياً . فقفزت إلى الباب قلقة الجنان ، مستطيرة النُهى ، صارخة ياويلتاه ! لقد اختفي الوليد ، وقلبي قد قضى ... ! وكان الشتاء قد كَلِب[2] ، فهبت

(١) تسعسع : بلغ من الكبر عتياً

(١) يقال خفق النجم : أي غاب
(٢) يقال كلب الزمان أو الشتاء إذا اشتد

ثلوجه ، وامتد جليده ، والريح قد ثارت فهي ما تنفك ترسل الزئير وتردد الأنين ، وما تني تلطم الخدود وتصفع الوجوه ... واندفعت الأم في طريقها لاتأبه لريح ولا تخشى شتاء . فلقيت امرأة قد ارتدت سلاباً [1] فضفاضاً ، فسألتها عن شيخ يحمل طفلاً صغيراً . فقالت المرأة : نعم إني رأيت الشيخ ... ذلك هو الموت ... رأيته يخرج من تلك الدار ومعه طفل صغير ... إنه يجري كالهواء ... إنني أنا ...

— الموت ... ؟ لكن ... أين ذهب ؟ . تكلمي بربك ... عجلي ... تكلمي ...

— إني أنا الليل ... أعرف الطريق التي تؤدي إلى مأوى الموت ... ولكن تعالي قبل أن أدلك عليها ، وأسمعيني أغاني الأمومة العذاب، وأناشيدها السواحر ... إنها صدى لوجيب قلبك ، وثورة عواطفك ... لشد ما كان قلبي ينتشي لدى سماعها ويطرب .. ! لقد أصغيت إليك وأنت تناغين وليدك ، ونظرت إليك ترسلين مدامعك ، وقد نشرت على الكون السلاب هذا ... تعالي إلي وغني لي ... يا حبيبة ... !

— أواه ! أوّاه ! سأغنيهن لك كلهن ... نعم كلهن ... ولكن بعد حين ... بعد أن ألقى طفلي الصغير ...

وصمت الليل ... وبكت الأم ... وراحت تغني من قلب مفجوع . لقد غنّت كثيراً حتى مل الليل الغناء ، ولكنها بكت أيضاً وما ملت البكاء ، تحت الثلج المتناثر كأزاهير من ياسمين مبعثر جميل ..

قال الليل : اذهبي ... واتخذي هذه الطريق ، حتى تصلي إلى غابة الصنوبر فلعلك تجدين الموت...

وانطلقت الأم مسرعة تنهب الأرض ، تلفحها ريح صرصر عاتية ، حتى إذا كانت في غابة الصنوبر وجدت طريقين لم تدر أيتهما سلك الموت . فلكتها الحيرة ، وجاءت إلى شجيرة وردعارية ، مافيها سوى أشواك غليظة ، وعيدان نحيفة ، وقالت لها :

« أيتها الوردة ! ... هل تعرفين السبيل إلى مقر الموت ... ؟ »

قالت الوردة : نعم ! إني لأعرف السبيل إلى مقره . ولكن ... لن أدلك عليه حتى تضميني قليلاً إلى نحرك ... وتضميني هناك بين نهديك ، فأدفأ قليلاً ، وتدب فيّ الحياة . لقد صوّح الصقيع نضرتي ، وجردتني الريح من أوراقي ، فهل تقبلين؟

وفي صمت عميق تقدمت الأم من الشجرة ، وأدنت الأغصان من صدرها . هذا فوق النهد ، وذاك فوق الحلمة ، وثالث بينهما ... وراحت تضغط برفق وعلى مهل... فينفذ الشوك في الثدي ويتدفق الدم غزيراً وينهمر الدمع صبيباً ... وتحس الأغصان حرارة قلب ملتاع ... فيجري الدم في العروق ، وتتفتح البراعم عن أوراق خضراء وورود حمراء ، بين الثلج المتناثر والهواء النوّاح

قالت الوردة آنئذ : هاهي ذي طريقك ياحسناء ، اسلكيها فلعلك تجدين الموت ! ...

ومضت الأم تتمثل في خاطرها صورة ابنها ، فترتمد من فراقه ، وتهذي لبعده ثم توفض في مشيها وتسرع كمن أصابه مس ... حتى وقفت أمام بحيرة كبيرة ، ماترى على صفحتها المضطربة قارباً وماتجد زورقاً . فقالت في نجواها : لِمَ لا أشرب هذا الماء وأشتفّه ، فإذا نضب هبطت إلى قعرها ، ومشيتها حتى أصل إلى الضفة الأخرى .

وانحنت لتشرب ، فقهقهت البحيرة ، وراحت تقول :

رويداً ... رويداً ياحسناء... إنك لن تستطيعي شرب مائي ... كوني صديقة لي ... وهبي لي هاتين

(١) السلاب : ثياب الحزن أو السواد

العينين الجميلتين ... إننى أشتهى لؤلؤتين ثمينتين أحلى بهما صدرى . إن عينيك لساحرتان ... وإن لها وميضاً مغرياً جذاباً . اذرفى الدمع سخيناً أمامى حتى تسقط عيونك فى قاعى ... فأحملك آنئذ إلى حيث يكون الموت

— آه ! كلا لن أعطيك ماتطلبين ... أيتها البحيرة ... بل سأبقيهما لأرى ولدى ...

— إذن هذا فراق ما بينى وبينك ... اشربى مائى ، وافعلى ما تشائين

— كلا ... كلا ... تعالى أيتها البحيرة ، تعالى فسأعطيك ما تودين ... !

وراحت الأم تبكى ... حتى سقطت عيناها وتدحرجتا إلى قاع البحيرة العميق ... وانقلبتا لؤلؤتين مارأت الملكات مثلهما أبداً ...

وفى طرفة عين حملتها البحيرة على ظهر موجة واحدة ... إلى الشاطئ البعيد

***

— لقد قالت لى البحيرة : إن مقر الموت هنا ، ولكن كيف لى برؤية الموت وقد أصبحت عمياء ؟

قالت عجوز شمطاء سمعت ما تقوله الأم :

— مالك وللموت؟ ... ومن دلك على الطريق ؟ ثم ماذا تريدين ؟ ...

— إنه ربى ... قادنى وأعاننى ... إنه رؤوف رحيم ... أشفقى على أنت أيضاً ياأماه ... وقودينى إلى حيث يكون الموت لأرى طفلى الصغير ... !

— أنا ماعرفتُ طفلك أبداً ... وكيف تريدين رؤيته وأنت عمياء ... هنا حديقة الآجال ، لقد ذهب الموت؟ اليوم ، ليقبض من جاء أجله . فإذا عاد قطف زهراتهم ...

— زهراتهم ؟

— نعم يابنتى ، إن لكل مخلوق زهرة هاهنا ، هى رمز لحياته وأعماله ، وهى تموت إذ يموت ... إذا رأيتها حسبتها زهرة كالأزهار ، وإذا لمستها شعرت بوجيب قلب ... تعالى ، ثم المسى هذه الأزهار ، علك تعرفين وجيب قلب طفلك ... ولكن ما الذى تعطينه يا حسناء ؟ ...

— ليس لدى شىء .. ولكن سأحضر لك كل شىء ..

— مالى حاجة لكثير سوى شعرك الأسود الجميل ..! أتبادلينى بشعرى الأبيض شعرك الأسود الأثيث ؟ ...

— نعم .. خذى .. خذى ماتشائين .. ولكن عجلى بربك !

وأخذت العجوز تلك الشعور ، وأعطتها شعرها الأبيض ، نذير الشؤم والفناء .. ثم قادتها إلى الحديقة الكبرى وراحت تقول :

— هنا ينبت الورد إلى جانب الشوك .. وهناك النسرين إلى جانب العوسج .. وتلك أزهار كلها نضرة وحياة ... وهذه أزهار أصابها الهزال وألوى عنقها الذبول، وأحاطت بها أعشاب وحشية سوداء .. وهناك .. قامت أشجار من نخيل وأعناب ، إلى جانب الصعتر والزعرور والأقاح .. إنها تمثل حياة الخلائق من الصين إلى غرولاند .. وهذه الـ...

وبينما كانت الشيخة تقص على الأم نبأ هذه الأزاهير ، وتلك الأشجار ، كانت الأم غارقة فى عالم بعيد .. بعيد جداً .. لقد كانت تصغى إلى خفق القلوب ! .. وفجأة .. ارتجفت يداها .. وخفق فؤادها وقالت بحسرة ولهفة :

— إنه قلبه .. بالله! لماذا أنت ذابلة أيتها الزهرة؟ حدثينى بالله ..

— لاتلمسيها الآن .. ولكن تضرعى للموت عندما يأتى ، وأذرفى الدمع أمامه . هدديه بقطف

الأزاهر إن اقتطف زهرة وليدك ، وادعى ربك يا صبية ، فمشيئته فوق كل شيء ..

وهبت عاصفة هوجاء ، أوصلت الموت إلى حديقته؛ فعجب إذ رأى الأم وقال :

— كيف أتيت إليّ ؟ .. أوصلت قبل أن أصل؟ ماالذى فعلتِه ! ..

— أريد ولدى يا موت .. أضرع إليك .. إعطف عليّ .. رحمة بى !

— هيهات ! هيهات ! .. أنا لاأملك من دون الله ضراً ولا نفعاً .. أنا أتعهد حدائقه بالعناية .. فاذا جاء أجل أولئك الناس مضيت لأنقلهم من عالمهم هذا .. إلى عالم آخر .. مجهول ..

— ناشدتك الله يا موت إلا رحمت . ياللحزن الدائم والشقاء المقيم ! . .

وراحت الأم ترسل الصرخات شاكية ضارعة ، والتوسلات الحزينة المبكية ، والموت صامت لا يجيب .

— مهلا يا موت لا تقطف زهرته . . . وإلا قطفت هذه الزهرات . . .

— ويحك إنها زهرات لأطفال !

— أطفال ؟ كلا .. كلا .. أنا لاأريد أن افجع أحداً ! . . .

— ما الحياة . . إنها صور حلوة فيها السعادة والهناء . . تعقبها أخرى كلها تعاسة وشقاء . دعيه دعيه . . .

— لكن أتعلم يا موت ما قدر على ابنى ؟ هل يعانى كثيراً من الآلام . . إنك لا تجيب . . آه ! هل يعيش مطمئناً فى السموات . ؟ هه . ؟ ألا تجيب يا موت ؟. كلا .. لن أدعك تأخذه . أيها الجبار ! لكن .. حنانيك .. ارحم هذه الأم ..

— . . . !

— خذه .. خذه .. أليس ذاهباً إلى الجنان .. !

غفرانك اللهم ! تلك مشيئتك !

وانحنى الموت وقطف تلك الزهرة وانطلق بها إلى العالم المجهول (١) . . .

أما الأم . . فلها الله ! لقد سقطت على الأرض لا تعى ولا ترتجز ، وقد علق بصرها بتلك الزهرة الذاهبة إلى السماء . . . !

دمشق « صلاح الدين المنجد »

---

(١) تنتهى هذه الأقصوصة فى بعض النسخ بنتيجة أخرى سارة : تلك ان الموت عند ما يرى ما لاقته الأم من عذاب وآلام ، يدعو ربه ، فيشفق الله على تلك الأم ويهب لطفلها عمراً جديداً ، فترجع الأم مع طفلها إلى الدار ويعيشان عيشة كلها سعادة وهناء . . .

لقد أحضرت المركبة !

للكاتب الفرنسي تيودور دي بانفيل

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كان « جانوتى » موسيقياً فقيراً مغموراً. وكانت مؤلفاته وألحانه لا تجد سوقها الرائجة إلا فى الملاعب الشعبية والمسارح الوضيعة، ولكنه كان مع ذلك ينعم بمعيشة راضية وحياة هانئة مع زوج محبة مخلصة تبث فيه الأمل وتبعث فيه الطموح وتصور له المستقبل نيِّراً خلاباً ، فضلا عن تدبيرها للبيت وحسن قيامها على شؤونه حتى جعلته على فقره غنياً من الموسرين، وعلى خموله ونابا من الطامحين . . وكان ينظر إلى زوجه نظره إلى النعمة الواحدة التى وهبتها له الأقضية، وأتاحتها له الأقدار

وكانت « كوليت » — وهذا اسمها — شابة جميلة ريانة فتانة تحب زوجها وتثق به وتعتقد فى نبوغه وعبقريته ، لذلك وهبته قلبها وروحها . والمرأة إذا منحت قلبها رجلا أنزلته من نفسها منزلة الروح ، وأحلته من روحها محل النفس فأخذت تهيىء له أسباب الراحة والرفاهية فتجهز له من الطعام أحب الألوان إليه ، وتتوفر على ترتيب الأثاث وتنسيقه فى محال وأوضاع تدل على حسن الذوق وسلامته ، حتى إذا ما انتهت من شؤون البيت جلست إلى « البيانو » وأمرّت أناملها البضة الناعمة على أسنانه العاجية عازفة ألحانه مرددة أناشيده ، وتبدىء فيها وتعيد وهى بفنه ونبوغه جد سعيدة معجبة ، وكانت تمضى إلى السوق كل صباح لتبتاع ضروريات البيت ولوازم الطعام وتساوم الباعة وتماكس التجار حتى تنزل بهم إلى أبخس الأثمان

ثم حدث فجأة ما غير هذه الحياة السعيدة الهانئة وقلبها جحيما لا يطاق وإليك كيف كان ذلك :

نجحت « تاتا » نجاحاً كبيراً فى إلقاء مقطوعة جانوتى الأخيرة . وذهبت يوماً إلى منزله لتبدى بعض ملاحظات فنية على الأنشودة الجديدة قبل أن تغنيها ، وجانوتى موسيقى بارع له دراية تامة وإلمام واسع بما تقتضيه هذه الأغانى من فن فى التلحين والنغم . . وفتحت لها كوليت الباب وقد انفلتت لتوّها من غسل الآنية وتنظيف الصحون ولما تزل النشفة فى يدها فقالت « تاتا » عند رؤيتها

— أعلنى للسيد قدومى

ثم تركت من يدها ذيل فستانها المفهاف الطويل فأعلنت كوليت مقدمها « للسيد » ثم عادت أدراجها إلى المطبخ

وبينما كانت « تاتا » تعرض على جانوتي جمالها وتنفث فيه سحرها وتسدد إلى قلبه سهام لحظها المتكسر الفاتر إذ تفتحت مسارب عيون السماء عن مطر كالسيل الجارف أعاد إلى الأذهان مطر الشهر الماضى الذى كان له أكبر الأثر فى إتلاف القبعات وتفتيح الورود والأزهار . فقالت « تاتا » وقد رأت المطر المتون والسحاب الثقال :

— يا لسوء الحظ ! لقد اكفهر الجو بغتة ، أرجو — إذا سمحت — أن تأمر خادمك فتبحث لى عن مركبة .

الآن كان يجب على جانوتى أن يبدو شجاعاً فيقول مثلا « أوه ! أرجو المعذرة ! ليس عندى خدم . إنها زوجى » ولكنه كان جباناً إذ أجاب :

— أجل ... أجل بكل سرور

ثم ذهب وهو يبث بإبهاميه إلى غرفة المائدة — التي جعل منها أيضاً صالة لموسيقاه — حيث كانت كوليت منهمكة في غسل الخضر وتجهيز الطعام كأحسن ما تكون زوجة وأروع ما تكون ربة بيت . قال الرجل

— إن الآنسة « تاتا » تخشى على فستانها وحذائها الساتانيين[1] من التلف في هذا المطر الغزير ولذا أرجو أن تذهبي ...

فأتمت كوليت عبارته وهي تسدد اليه نظرة هائلة ود على أثرها لو تنشق الأرض وتبتلعه

— فأحضر لها مركبة ... حسن ! طب نفساً فسأبحث لها عما تريد

وخلعت كوليت بعد لحظات حذاءها المبلل وأخذت تنظر إلي النقد النحاسي الذي نفحتها به «تاتا» نظير البحث عن مركبة

ومنذ تلك اللحظة تبدل الحال غير الحال ، إذ أن كوليت التي كانت تقوم بكل أعباء البيت وخدمته قانعة راضية ، مخلصة وفية ، أضحت لا تغادر فراشها قبل الحادية عشرة كل صباح إذ تقول وهي تتمطى وتتثاءب «أوه ! ألم يطلع الصبح بعد ؟ !» وأصبح البيت المنظم المنسق النظيف أشبه الأشياء بمدينة إيطالية وقعت غنيمة باردة في أيدي القوط . فنسجت العناكب خيوطها القذرة على الحوائط والصحون ، وعششت الحشرات الطفيلية في الساعة الكبيرة . وأهملت الملابس والجوارب . فإذا انقطع زر فلا يعاد إلي مكانه ، وإذا تمزق جورب فلا يرتق بل يترك وشأنه وتبدلت مقطوعات «واجنر» بمؤلفات زوجها وأغانيه

وراحت يداها المضطربتان تجريان على البيانو فتأتي بأنشز النغم ، وترفع عقيرتها بالغناء فتخرج أنكر الأصوات فلما فاض بجانوتي وعيل صبره صرخ فيها قائلا

— إن هذه الموسيقى تجلب الصداع ...

فأجابته كوليت فوراً :

لقد أحضرت المركبة ! . وكانت هذه العبارة هي الرد على كل ما يوجهه اليها من حديث

— كوليت ! إن الحساء بارد ! — لقد أحضرت المركبة — لقد تقطعت أزرار قميصي — لقد أحضرت المركبة — أراك لا تقبلينني الآن . لقد انطوى حبك لي وزال

— كلا ياعزيزي ، ولكني أحضرت المركبة

محمد عبد الفتاح محمد

(١) الساتانيان . نسبة إلى قماش «الساتان»

الوالد

للقصصي الفرنسي موباسان

بقلم الأستاذ على الطنطاوى

كان موظفاً فى وزارة المعارف يذهب إليها كل صباح فى عربة (الأومنيبوس) من داره فى (الباتينيول) إلى مكتبه فى قلب باريز ، وكانت عاملة فى مخزن تذهب إليه فى تلك الساعة نفسها ؛ وكانت سمراء حلوة السمرة ، شابة غضة الشباب ، ذات عينين سوداوين ساحرتين ، وكانت تُرى كل صباح فى زاوية من الشارع لا تحيد عنها ، واقفة تنتظر العربة ، فإذا رأتها عدت إليها بخفة ورشاقة ، فأدركتها وقفزت إليها قبل أن يقف السائق خيولها البطيئة . ثم دخلت فأجالت عينيها فيما حولها ، وجلست فى مكانها الذي لا تغيّره قبالة صاحبنا (فرانسوا تاسّه) الذى أحس منذ المرة الأولى التى رآها فيها بإعجاب بها لا حدّ له ؛ وود كما يود المرء أحياناً لو يطوقها بذراعيه ، ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة ، بل لقد شعر أنها فتاة أحلامه التى أعدّ لها فى قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا ، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التى هام بها خياله الشاب ، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه ، فإذا تضايقت من نظراته واحمرّت خجلا ، حاول أن يصرف بصره عنها ، ولكنه لا يستطيع فيظل محدقاً فيها ؛ ولم يكلمها قط ، ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما ، فالتقتا وتفارقتا منذ التقت نظراتهما

وازدحمت العربة يوماً بالركاب ولم تجد الفتاة مكاناً خالياً ، فنزل لها عن مكانه وظلّ واقفاً ، فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأوميضها نفسه نورا ، ولم يعد يظهر عليها الضيق من تأمله فيها ، وإن كانت لا تزال تغض بصرها حياء ، وانتهى الأمر بهما إلى الحديث ، وكان حديثاً لذًّا كأنه قطع الروض يستمر نصف ساعة كل يوم ، كانت أشهى إليه من أيام العمر كلها وما فيها من لذائذ ومتع . وكان يفكر فيها أبداً وهو جالس إلى مكتبه فى ساعات العمل الطويلة المملّة ، ويستعيد ذكراها فى نفسه ، ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه فى وحدته

لقد كانت سعادته وأمله ومثله الأعلى الذى يسمو عن حقائق الحياة وعن ترّهاتها !

* * *

وتأكدت بينهما المعرفة فأصبحا يجتمعان ويفترقان على مصافحة باليد لا يفتأ يحسّ إلى المساء بأثرها فى يده ، كأنما لمستها الكهرباء لولا أن أصابعها الغضة اللينة تحمل إلى جسده هزة أقوى من هزة الكهرباء ، يعيد لها جسمه كله ، ويشعر أنها تركت على كفه أثراً يتحسسه النهار كله ، وينتظر بصبر فارغ صبيحة الغد ليلقاها فى العربة (السعيدة) ويرى أيام الآحاد — على رغم أنها أيام راحة ودعة — مضجرة محزنة لأنه لا يبصرها فيها

ولقد كانت تحبه هى ، ولم يعد يشك فى ذلك بعد أن قبلت دعوته إياها للغداء في (لافيت) يوم أحد جميل من أيام الربيع

وكان ذلك الأحد ، وجاء إلى محطة (الأومنيبوس)

بكرة لينتظرها فإذا هى فيها تنتظره ... فدهش من بكورها ، وهم بالتحدث إليها ، ولكنها قالت له :

— قبل أن تخطو خطوة واحدة ... أريد أن أقول لك شيئاً ، فهل تسمعه ؟

واهتز جسمها وهى مستندة إلى ذراعه وشحب وجهها فأطرقت بنظرها إلى الأرض وقالت :

— لا أريد أن أخدعك عن نفسى — إنى فتاة شريفة — ولن أصحبك حتى تقسم لى أنك لن ... أنك لا تفعل ... إلا ماهو .. أعنى ما ليس ... لائقاً

وأكملت كلماتها بجهد ظاهر . وعاد وجهها كالوردة الحمراء ... وسكتت ولم يدر هو بماذا يجيب، وشعر بالخيبة والسرور يلتقيان فى نفسه ، وتراءت له أحلامه في الليلة المنصرمة — احلامه التى ألهبت النار فى عروقه وملأت رأسه بالخواطر الجنسية التى تفيض بها رؤوس الرجال ... فلم يقل شيئاً

فعادت تقول بصوت مضطرب وفى عينيها دمعة تترقرق !

— إذا كنت لاتعدنى باحترام...عفافى ، فانى عائدة إلى البيت لا محالة !

فطوقها بذراعه فى رفق وحنان ، وقال لها :

— أعدك ألاّ أفعل إلا ما تريدين

فأشرق وجهها سروراً وقالت :

— أحق ما تقول ؟

— نعم . وإنى أقسم عليه

— إذن فلنركب !

ولم يتكلما فى الطريق أبداً . لأن العربة كانت مزدحمة . فلما بلغا (لافيت) توجها نحو (السين) وكان النسيم يهب عليلا يبعث الارتخاء فى الجسم وفى الروح ، وكانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى النهر الفياض والخمائل الفاتنة ، فتغمر النفس نشوة وسكراً فشعرا كأن نفسيهما قد سبحتا فى بحر السعادة الذى يزخر فى سماء الأحلام بعيداً عن الدنيا وشرورها كما تسبح أسراب السمك التى وقفا ينظران إليها حالمين مأخوذين

وانتبهت أخيراً ، وانتبه على صوتها وهى تقول له:

— لقد كنت حمقاء !

— ولم بالله ؟

— لأنى صحبتك .. أما تراها حماقة أن تصحب فتاة رجلا لا تعرفه فى نزهة خلوية

— أبداً بالعكس . هذا أمر عادى [1]

— كلا كلا . ليس هذا بالعادى ، بالنسبة لى أنا على الأقل ، أنا التى لا تريد أن تزل بها القدم ، بمثل هذا تزل الأقدام ، ويسقط الناس فى هوة الرذيلة ... ولكنها حياة جافة تلك التى أحياها حياة متشابهة لا أثر فيها للجدة . تمر الأيام ، وتمضى الشهور وهى هى : غدوٌ إلى العمل ورواح منه . وليس لدىّ إلا أمى الكئيبة الحزينة التى أعمل لأدخل على قلبها المظلم خيطاً من ضوء السرور ، ولكن على كل حال ... لقد أخطأت بالمجىء معك

وكان جوابه على كلامها أن عانقها بشوق فأفلتت منه كالظبى النافر ، وصاحت به مغيظة :

— أوه مسيو فرانسوا . ابعد ما أقسمت لى ؟

وقفلت راجعة نحو (لافيت)

وتغديا هناك فى مطعم جميل متربع فى حضن النهر وقد جعلهما الهواء الطلق والدفء والخمر التى تعاطياها فتوردت منها وجنتاها ، جعلهما صامتين فياضة صدورها بشتى العواطف المحبوسة ... التى

(١) أمر عادى !

انفجرت بعد تناول القهوة فاستحالت قوة وفرحاً واندفاعاً هاماً يجتازان (السين) ويسيران بازاء الشاطئ إلى قرية (لا فريت)

وسألها فجاءة :

— ما اسمك ؟

فأجابت :

— لوزيتا

فردد اسمها بصوت خافت ولم يقل شيئاً

كان ذلك الصف الطويل من الدور البيض القائمة على الشاطئ يبدو كأنه غارق في النهر . عاليه سافله ، وكان على الشاطئ كثير من زهر الأقاحى فراحت تقطفه وتصنع منه باقة ، أما هو فراح يغني بملء صوته نشوان من الطرب كظمآن وقع على الماء العذب ، وظهر إلى يسارها كرم جميل على أكمة صغيرة تنحدر إلى الشاطئ ، فتأملته مشدوهاً وصاح بها:

— انظرى

ثم بدت لهما أرض واسعة تحف بالنهر من جانبيه مكسوة بزهر (الليلك) الجميل كأنما هى طنفسة ثمينة صنعتها يد الله تمتد إلى حدود القرية الجاثمة هناك على ميلين منهما أو ثلاثة — فلبثت شاخصة ذاهلة وهمست :

— ياله من منظر فاتن !

وسميا إلى هذه الأرض التى تفيض على باريز من هذه الأزهار الجميلة فيتسابق الناس إلى اقتنائها، ويسرع البائعون من أصحاب العربات إلى عرضها، واجتازا محجة ضيقة إلى بقعة صغيرة خالية فجلسا فيها ، وكانت قبائل من الفراش والذباب تطن فوقهما طنيناً مستحباً ، والشمس مشرقة تملأ المكان بأشعتها الناعشة كما تملؤه الأزاهير بأريجها المعطر

ورن من بعيد ناقوس كنيسة

فأصابهما ذهول فاتن وتمانقا وطوقها بذراعه بقوة وارتميا على الأرض غارقين فى قبلة طويلة على غير شعور منهما — وكانت عيناها مغمضتين وذراعاها ملفوفتين حوله ، وقد تخدر جسمها كله وارتخى ، وعيل صبرها فأسلمته نفسها ... وهى لا تدري ماذا تصنع !

أفاقت الفتاة أخيراً ، فهالها ما صنعت ، فغطت وجهها بكفيها وشرعت تبكي وتئن أنيناً مؤلماً ، فحاول أن يغريها ويهون الأمر عليها فلم تستمع إليه ونهضت ولسانها يدور فى فمها لا يهدأ ، تهمس همساً متواصلا :

— يا إلهى ! يا إلهى !

فعاد يقول لها :

— لوزا ، تريثي قليلا ، أرجوك يا لوزا

ولكنها أبت عليه ، وانصرفت عنه دون أن تلقى عليه تحية الوداع — وكانت عيناها شاخصتين ووجنتاها حمراوين كالجمرة المتوقدة

***

ولقيها فى العربة غداة الغد ، وكانت شاحبة اللون ، غائرة العينين ، فهمست فى أذنه :

— انزل ، إن لدى ما أقوله لك

فنزل وسارا على رصيف الشارع حتى إذا انفردا بنفسيهما قالت له فجأة :

— اسمع ! يجب أن نفترق ، لم أعد أريد أن أراك

فسألها بصوت خافت :

— ولكن ... لماذا ؟

— لأنى لا أريد ... لا أقدر ... لقد كنت مجرمة

فآلمه جوابها ، وتنبهت فى نفسه خواطر الأثرة

الجنسية فتصور هذه الفتاة الجميلة بين يديه يستمتع بها فى ليالى الحب الوادعة الهنيئة ، وأحس بالرغبة الملحة فى الاستحواذ عليها ، فأتبعته هذه الأفكار وكاد رأسه ينفجر من ضغطها — وعلم أنه لا يستطيع البقاء خلواً من (لويزا) فعمد إلى استعطافها والتضرع إليها :

— ... ... أرجوك يا لويزا

— كلا . لا أقدر ، دعني

— إننا سنتزوج ، هل تقبلين بى زوجاً

— كلا

وذهبت مسرعة

***

ومرت ثمانية أيام لم يرها فيها ، ولم يكن يعرف لها مستقراً ، فحسب أن لا مطمع له فى رؤيتها مرة ثانية ، وتناساها ... فلما كان اليوم التاسع سمع قرعاً على بابه فذهب ينظر ، فاذا هى ترتمي بين ذراعيه وتبيحه نفسها وتصبح خليلته !

واستمر ذلك ثلاثة أشهر ، ثم أحس بالجنين الذى تحمله فى أحشائها فتبرم بها واجتواها ، وحاول أن يجد إلى الخلاص منها وسيلة — ولكن الوسائل أعجزته ، فاختفى

وكانت الضربة على الفتاة قاسية فلم تفتش عن هذا الذى أغواها ثم تخلى عنها ، بل عادت إلى أمها فوقفت على قدميها ، تشرح لها حالها ، وتسألها رحمتها وحنانها

وبعد شهور أخرى ... وضعت غلاماً

***

كرت الأعوام وحياة (فرانسوا ماسه) تكر معها على نمط واحد ، ليس فيها لذة الأمل ، ولا روعة الانتظار . حياة موظف يفيق كل صباح فى الساعة التى اعتاد أن يفيق فيها ؛ ويسلك كل يوم الطرق التى سلكها بالأمس ويسلكها فى الغد ويدخل المكتب ذاته ، ويعمل الأعمال نفسها ... حياة حالكة جافة ، وعزلة كاملة . يكون فى مكتبه بين أقرانه نهاراً ولكنه منفرد بنفسه عنهم ويأوى فى الليل إلى داره وليس له فيها قرين ... وقد أعانته عزلته على توفير المال فكان يدخر من كل مرتب مائة فرنك لهرمه

وكانت مسلاته الوحيدة أن يخرج فى الآحاد فيجول فى (الشانزليزيه) يشاهد مباهج الدنيا ، ويرى الفتيات الجميلات وهن يجزن به أسراباً ، ويعود فى الغد إلى عمله فلا يذكر من أمسه شيئاً أو يذكره بكلمة يهمسها فى أذن جاره :

— لقد كانت أمسيتنا أمس بهية

وكان مرة يجول على عادته فى صباح أحد صائف فقادته رجلاه إلى حديقة (مونسو) حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن أولادهن يسرحون ويمرحون على الخمائل ، ولكنه لم يكد يخطو إلا خطوات حتى اعترته رعدة . لقد لمح امرأة تجر بيد صبياً فى العاشرة من سنيه وباليد الأخرى بنتاً فى الرابعة

وكانت هى بعينها

وازداد اضطرابه فارتمى على كرسى قريب منه وانتبهت في نفسه — فجأة — ذكرياته الماضية وهاجت فى صدره عواطفه الحبيسة فجعل يرقب هذه المرأة وهى جالسة وإلى جانبها الصبي هادئاً ساكناً في حين أن البنت لا تفتأ تلعب وتلهو

ورفع الصبى رأسه فخفق قلب (ماسه) خفقاناً

شديداً ، وأيقن أنه ابنه ، ولكن ماذا يصنع ؟ هل يتعرف إليها ويذكرها بنفسه ، إنها ستعرفه لأنه لم يتغير إلا قليلا عما كان عليه منذ عشر سنوات . غير أنه لبث جاثماً فى مكانه وراء الشجرة ينتظرها حتى تذهب ، ليتبعها

***

مرت على (فرانسوا) ليلة لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التفكير فى هذا الغلام الجميل ... كان يعلم أنه ولده ويود أن يصل إليه ولكنه لا يدرى من أين السبيل ، وإن كان قد عرف دارها وعرف أنها اقترنت برجل مستقيم شريف ، رثى لحالها وغفر لها زلتها بعد أن اعترفت له بكل شىء

ولبث يتردد على حديقة (مونسو) فى كل أحد ، وكلما رأى ولده تثور فى نفسه رغبة جامحة فى أن يأخذه بين ذراعيه ، ويقطع خديه لثماً وتقبيلا ، ثم يحمله ويفر به ، ولكنه لا يفعل شيئاً ، ويبقى واقفاً ينظر إليه حتى يذهب ، فيعود إلى عزلته محطماً حزيناً ، تحز فى نفسه الآلام وتحرقها شتى العواطف

***

وعزم أخيراً على اقتحام المصاعب التى تعترضه وعلى أن يصل إليها مهما كلف الأمر ، فاقترب منها يوماً فى الحديقة ، وقال لها وشفتاه ترتجفان :

— ألم تعرفينى بعد ؟

فرفعت إليه عينيها ، فلما تبينته ندت عنها صرخة رعب وفزع ، وأخذت بيدى ولدها وولت مسرعة تجرها وراءها جراً

أما هو فقد رجع إلى منزله يبكى ، وافتقدها منذ ذلك اليوم فلم يعد يراها لا فى الحديقة ولا فى غيرها ، ولكنه لم ينسها أبداً ، ولبث يفكر فيها دائماً ويكتب إليها حتى بلغ ما بعث به إليها عشرين رسالة ولم تجب ، فعزم على أن يخطو الخطوة الأخيرة ، فأخذ ورقة وكتب إلى زوجها :

سيدى

قد يكون اسمى مبعث إزعاج لكم ، ولكنى بائس حطمته الآلام ، وليس لى فى غيركم مأمل . فأرجو أن تسمحوا لى بمقابلتكم عشر دقائق وتفضلوا بقبول . . .

فجاءه الرد صبيحة الغد :

سيدى :

أنتظرك يوم الثلاثاء الساعة الخامسة

***

وكان ذلك اليوم فارتقى الدرج إلى منزلها وقلبه يخفق فى صدره خفقاناً شديداً ، وقد ضاقت أنفاسه وأحس من نفسه بالاعياء فأمسك بالجدار كيلا يسقط ، ومشى ببطء ومشقة حتى بلغ الطابق الثالث فخفق الباب ولبث ينتظر

— هل السيد (فلامل) هنا ؟

— نعم . تفضل يا سيدى

وأدخلته الخادم إلى بهو كبير فوقف فى وسطه مأخوذاً كالذى ينتظر أن تحل به مصيبة

وفتح الباب ودخل منه رجل وقور مهيب بمعطف أسود فأشار (لتاسه) أن يجلس وارتقب ما يأتى به

فاعتدل (فرانسوا) فى جلسته وقال بصوت مرتجف :

— سيدى . . . سيدى . . . أنا لا أدرى إذا كنتم تعرفون اسمى أو . . .

فقاطعه الرجل قائلاً :

— لا فائدة من هذا الكلام ... لقد أخبرتنى امرأتى بكل شىء

وكانت لهجته جافة استشعر منها (فرنسوا) غضبه المكتوم ، فعاد يقول :

— عفواً يا سيدى ... أكاد أموت من الألم ومن تعذيب الوجدان ومن الخجل ولا أريد إلا معانقة ابنى مرة واحدة . . . مرة واحدة فقط

فنهض الرجل واقترب من الموقد فقرع الجرس يدعو الخادم ، وأمرها أن تأتيه بلويس

وبقيا صامتين لا يجدان ما يقولانه حتى دخل الصبى يسعى إلى هـذا الذى يحسبه أباه فلما لحظ الغريب وقف ، فقبّله السيد (فلامل) فى جبينه وقال لفرنسوا :

— لك أن تعانقه إذا شئت

فنهض فرنسوا وألقى بقبعته على الأرض ، وحمل ولده المدهوش يقبله فى جبينه وعينيه وفمه ، والغلام يتلوى ويدير وجهه ليدفع عنه شفتى هذا الرجل الغريب . أما السيد (فلامل) فقد ولاهما ظهره ، ووقف ينظر من النافذة

حتى إذا ضاق الغلام بذلك ذرعا ، ألقاه (فرنسوا) على الأرض وفرّ كأنه لص وهو يصيح به :

— وداعاً ... وداعاً إلى الأبد !

على الطنطاوى

سر الحقيبة الصفراء

للكاتب الروسي سيدريك ديميتروف

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

سيدريك ديمتروف ابن غير شرعى لجورج ديمتروف أعدى أعداء الحرب والفاشية ؛ وقد ولد فى أوائل هذا القرن من إحدى سيدات البلاط القيصرى مدام ستيلا توفيكوف ، ونشأ الصبي فى بطرسبرج ، ثم تلقى العلم فى سويسرا وألمانيا وإيطاليا وماتت أمه قبيل الحرب العظمى وتركت له ثروة ضخمة تبرع بها للثورة واعتمد على أوراقه وأقلامه فأخرج « مدينة الصقر » و« أتون الثورة » و« لا تكتموا الشهادة » ، ومن قصصه القصير : « سر الحقيبة الصفراء » وفيها من تحليل النفس ، وحبك الوقائع وعقد الحوادث ما لا يقدر على معالجته إلا هؤلاء الكتاب الروس المتفردون فى العالم بطرائقهم الفذة . ومؤلفنا فى وسط العقد الرابع ويعيش فى لندن

إسمع ! إن نصف أعمالنا قبل وقوع الحرب المقبلة يقوم على التجسس ، وينهض على استراق أسرار الأقران والأعداء ؛ وقد بثثنا عيوننا وأرصادنا ، ونشرنا آذاننا، ونثرنا أسماعنا ، فى ناحيات الدنيا وبلادها كافة ، فما تركنا بلداً ولا مدينة أو قرية فى دولة قوية أو مملكة ضعيفة ، نظنها ستثور فى وجوهنا إذا وقعت الواقعة إلا ملأناها بعيوننا ... أنظر إلى هذه الخريطة الجغرافية وقل لى ماذا ترى ؟

— أرى دوائر صغيرة تمثل البلدان ، وخطوطاً غليظة وأخرى دقيقة ، تدل على سكة الحديد وطرق السيارات ، وعلامات مبهمة وتصاوير بعض النبات والحيوان ورموزاً شتى

— إعلم أنه من برلين إلى أمستردام ، ومن دنكرك إلى شربورج ، ومن هارتيش إلى بريستول ، ثم من كاليه إلى بيلفور ، ومن باريس إلى تاراسكون ، شباك محبوكة وحبائل مفتولة ، أعينها وخيطانها وسداها ولحمتها ، رجال ونساء من أذكى بنى الإنسان ، وأجلهم وأعمقهم دهاء ، وأوسعهم حيلة ، وأغناهم موارد ، وأقدرهم على فنون الكلام والكتابة والأخذ والعطاء.

وستكون مدينة بازيل قاعدتنا ومركز دائرتنا ومحط رجال أعواننا كما كانت برن وبيارتز فى الحرب الماضية . وستعلم عما قليل من رئيسك المباشر لمَ وقع الاختيار على بازيل . ويكفى أن تعلم الآن أنها مرتبطة بيولونى عن طريق شالون ، وأوستند وباريس وانتورب وبروكسيل وروتردام ولوزان بخطوط حديدية ثابتة وقديمة !

— فهمت لماذا اخترتم بازيل

— لا تقل « اخترتم » بل قل اخترنا ... ولكنك لا تعلم « مأموريتك » المباشرة . لقد ضاعت من رسولنا فى « تشافهاوزن » مجموعة مدهشة تنطوى على حقائق غريبة ثابتة لا يشوبها للريب شائبة ، تدل على صحتها تقارير مهولة اختلسها جاسوس فرنسى أثناء تجسسه على مندوبنا بعد أن قتله اغتيالا فى فندق عتيق فى شامونى . وإن ما لدينا من الأخبار يقنعنا بأن القاتل لا يزال فى تلك الناحية ، فسددنا عليه الطرق وضيقنا الخناق ، وأحطناه بسياج من الرقباء فى أغماس

وكيلوز وشامبيرى وتورينو وسانتيا وأرونا ودومودوسولا ، ولن يفلت من براثننا مهما كلفنا اقتناصه من مال ونصب وأعمار رجال

— حتى أعمار الرجال ؟

— نعم وأعمار الرجال ، فان فى تلك المجموعة المختلسة مصورات يدوية عن المواقع والأماكن والحصون والثنور والشواطئ والمعاقل الفرنسية والانجليزية التى كان رجالنا يدأبون — هذه السنين الطوال من بعد الهدنة إلى الشهر الماضى — على تصويرها ، وأنباء وزارات الحرب فى أوطان ماريان وجون بول ، عن دقائقها وعظائمها . ونحن نطلب هذه الوثائق ولا نطلب الثأر الآن

— وهل يطل دم صاحبنا الذى راح ضحية واجبه،

— نعم .. ولكن إلى حين . . لأننا نطمع فى استمالة هذا الجاسوس الينا ، فنضحي بشهوة الانتقام فى سبيل احراز خدمته وتسجيل اسمه فى جدول أتباعنا . واليك الآن هذه الجوازات التى تنطبق على الشخصيات المتعددة التى ستتخذها أثناء تنقلك فى مختلف البلدان، وهذا دفتر الشيكات الذى يبيح لك أن تنفق ما شئت فيما شئت، وهذه وسيلة الاستغاثة عند بلوغ الاخطار اقصى غايتها ، وهذا المسدس الموعود الذى يطلق النار دون صوت أو دخان ؛ ومع السلامة ! نحن لا نراقبك ، ولا نقتفى أثرك ، ولا نسيء الظن بك ولا نعرقل مسعاك ولا نبخسك جهودك . ونكافئك سواء أنجحت أم لم تنجح ، ولكننا نقتلك شر قتلة إذا اقترفت خيانة بعد أن نأتمنك

***

بدأت عملى فى نفس اليوم الذى تلقيت فيه الأوامر والنعم ، فسافرت من فلورنس (فيرنزه) إلى باريس ، فى قطار الليل السريع الذى قطع الحقول والوديان واخترق الانفاق ومزق أحشاء الجبال فى سمبلون وسان جوتار بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة ماراً ببولونيا وبارما وفيداتزا وميلانو ونوفارا ولونيو وبريج وسان مورتيزولوزان وجنيف . وهنا — فى جنيف — قطعت خطة السفر لأستريح — ولأقضى بضعة أيام فى أحضان « جوتى » حبيبتى الروسية التى بعثت إلى ببرقية تقول فيها : « لن أستطيع على سكوتك صبراً بعد اليوم . فأين أنت ومتى أراك؟ » فلقطنى ساعى البرق فى شارع ليوناردو دافنسي عدد ٦ قبل سفرى بساعة واحدة فى منزل سينيورا ماريا ستمبرينى الذى اتخذته مستقراً وملجأ خفياً . فعجبت من توارد خاطرها وخاطرى لدى السفر ، ولكننى لم أشأ أن أجيبها ببرقية خشية الرقباء ، فصبرت على الصمت وكان أحر من الجمر

وعند ما وصلت إلى محطة جنيف فى صباح ذلك اليوم السعيد الذى حددته الأقدار للقائنا ، شعرت بحزن شديد عند ما رأيت الأهل والاخدان ينتظرون أصدقاءهم وذويهم على الأفاريز ويقابلونهم بالقبل وباقات الأزهار . ولا يقدر هذه اللذة إلا الذى يحرم منها ؛ ويكون الألم شديداً بقدر نصيبه فى العمل على الحرمان . فأنا الذى لم أكتب لها ولم اشعرها بمقدمى ، وإلا كانت أول قادم وأبكر منتظر . فعلى وحدى تقع مسئولية هذه الوحدة التى شعرت بها لدى النزول من القطار . ولم يكن لى متاع أحمله أو أشغل بنقله ، فقد وكلت أمر الحزم والشحن و « الشيل والحط » والرفع والخفض والتخليص والتفتيش ، إلى وكلائى فى شركة هوبز ومونتفردى ، التى اشتهرت بالحذق فى هذه الأعمال . ولم يكن فى حراستى

سوى حقيبة صغيرة من الجلد الأصفر الناعم ، وليس فيها شيء سوى أدوات الزينة والحلاقة والباذل وقنينة من المداد المطر أملأ به أنابيب أقلامى. فلما بلغت موضع التفتيش الجركى مددت يدي بالحقيبة بمنتهى السأم والضجر وعدم الاكتراث . ولم أشأ أن ألقى نظرة على وجه الموظف المختص . ويظهر أن ذاك المسكين لحقته العدوي من ضجرى وعدم اكتراثى فلم يأبه لفتح الحقيبة ، وقنع بأن وضع عليها علامة المرور بالطباشير ، فتناولت الحقيبة وكان فى نفسى رغبة قويه أن أتخلى عنها واستغنى عن محتوياتها ، لم يعقنى عن هذه الهفوة — التى لم يكن فى الوجود وسيلة لغفرانها إن كنت وقعت فيها — إلا منظر رجل غريب الأطوار أخـذ يحدق فى الحقيبة ويريد أن ينقض عليها كالباشق؛ ولم يمنعه من خطفها وإلا نظرة سريعة ألقاها على حقيبة صفراء أخرى كانت فى يده ، وقد وضع عليهـا الفاحص الجركى حرف P علامة الإذن بالمرور — فلما خفت أن يخطفها ذلك الرجل، لمجرد الطمع فيها لمماثلتها لحقيبته تحركت رغبتى فى الاحتفاظ بها ، لا لأنها ملكي وتحتوى ماأحتاج إليه فى حلى وترحالى ، بل ضناً بها على الطامع . وخرج الأخرق صاحب الحقيبة الصفراء وخرجت فى أثره أتمطى ، وأنا لا أعيره اهتماماً ولا أجعل له أقل شأن . وكان كل اهتمامى واكتراثى وانشغال بالى وحسابى وترقبي محصورة فى لقاء (جوتي) التى أرسلت إلى تقول إنها فى شارع ڤيوجريناديه[1] وعند ما صرت فى نهـاية الأفريز خطر ببالى أن أشترى جرائد الصباح ، فلتُ إلى معرض الـكتب والصحف الذى تتعهده فتاة شقراء ، وأخذت منها ما أشتهى ودفعت ثمنهـا باسماً للحسناء البائعة ، فابتسمت هى الأخرى وقالت فى صوت خافت :

« موسيو إيه تريه جانتى » أى إنك ظريف ياسيدي . فلمحت زنزانة التليفون بجوارها وخطرلى أن أبحث عن وسيلة تصل بينى وبين جوتى قبل أن ألقاها ، فما أحب أن أفاجىء الحبيب أو العدو . ولـكننى لم أعلم كيف أخاطبها فتجاسرت وتحاملت على المصـادفة والحظ ودخلت وحصرت نفسى وأخذت أبحث فى دليل التليفون وأقلب صفحاته وأقرأ الأسماء والألقاب والأرقام والشوارع والأزقة وأغرق بين الأسطر ، وأسرح بخيالي دون أن أشعر وأدفع بالدرهم بعد الدرهم فى خرق ضيق ، وأسأل مراكز المخاطبات ـ ولا أدرى كم طالت وقفتى ـ وعندما خرجت وألقيت نظرة على وجه بائعة الصحف الشقراء ، رأيته ممتقعاً وقد مدت إلىّ يدها بورقة مطبقة ، وكانت حركة الحياة فى المحطة لا تزال ضئيلة لبكور الوقت — ففتحتها على مهل ، وأنا أظن الفتاة الطائشة تستدرجنى إلى موعد فإذا فيها أن رجلاً طويلاً أسود الشعر يتعقبك ، وقد عاد يبحث عنك كالمجنون وهو يحمل حقيبة صفراء، وقد ضللته حتى لا يقع عليك بصره . فانزل إلى الممر السفلى لتصعد فى شارع مونبلان فلا يدرك خطاك ؛ وهو الآن فى القصف. فانحدرت فى الطريق الذى اختارته لى وأنا بجنيف جد خبير ، وأطعت الشقراء بائعة الصحف وعملت برأيها الشعورى بعاطفة الحنان تنمو فى قلبها نحوى ، كما أن منظر الرجل الطويل المجهول لم يرُقها ، ولعله أزعجها كما أزعجنى . وفى تمام الساعة التاسعة كانت قوتى خارت من الجوع الذى يعقب

(١) رماة قنابل اليد القدماء — واسم قنابل اليدماخوذ من الرمان للمشابهة

السفر الطويل ومن تعب الأرق الذى يصحب اهتزاز القطار . وللمرة الأولى رأيت باب الفردوس مفتوحاً أمامى . وما الفردوس سوى « أنديا هاوش » مشرب الشاى الشهير ، وفيه من الفطائر والحلوى والزبدة والقشدة والشهد مايعجب الأعين والأفواه ، فدخلت إليه وأفطرت إفطاراً فخماً ، وكان أول مال أنفقته على سد رمقي من مال الوثائق المفقودة

وكان بجوارى رجل يجرع الشاى الهندى العجيب ويقرأ جريدة « جورنال دى جنيف » وهو يقلب كفاً على كف كمن خسر مائة ألف فرنك فى سوق القراطيس المالية . وكان يخالسنى النظر كأنه يريد مهاجمتى في حصن صمتى ، وكنت إذ ذاك مشغوفاً باستطلاع أمور الناس لا سيما كل من كان غريب الأطوار مثله ، فابتدرته قائلا :

— حقاً أن هبوط الأسعار فى سوق الأوراق لكارثة لها ما بعدها . ولا تنس أن أمريكا هى البادئة بالاخفاق فى المضاربة ، وغداً يصير أرباب الملايين وملوك المعادن عالة على العمال والفلاحين

فبدت الدهشة على وجه جارى الذى كان يتجرع الشاى الهندى وقال :

— نعم ؟ هل تتحدث إلىّ ياسيدى ؟ فذبت خجلاً واستحياء ، ولكنني تذكرت أن مهنتى تحتاج إلى صفاقة الخد وبرود الطبع وتحمل الأذى ، فاستجمعت فلول شجاعتى التى شتت شملها سؤال الرجل وقلت : نعم إليك ، لأننى أدركت أنك تفهم جيداً قيمة القراطيس وتحمل همومها . فقال متعجلاً متعمداً مقاطعة حديثي :

أى قراطيس ؟ أنا أندب حظ العالم ، لأن شبح الحرب يختفى شيئاً فشيئا ، وحمامة السلام « بسلامتها » تطل من وكرها المملوء بالثعابين والأفاعى ...

فدهشت وأيقنت بجنونه وخوفه ولوثته وقلت : أظنك تريد عكس ما تقول ، وتمدح السلم وتقدح فى الحرب . فألقى الرجل جريدته والتفت إلىّ محدقاً وقال : وأنت سخيف آخر تمجد السلم وتنفر من الحرب . ألا تعلم ياسيدي أن السلم إذا ظلت فى الأمة دهراً لم تلبث أن تتسلط فيها المآرب الشخصية الحقيرة والأغراض الدنيئة المريضة ، وتقوم الفتن والمكايد ، ويمحو الترف آثار الكمال الاجتماعى ، ويحتكر المال قوة متطرفة غير شريفة ولا مشروعة ، ولا تجد الشخصية الكبيرة الاحترام اللائق بها ؟ إن زهرة الانسان لتذبل ، وجذوره لتموت ، فى زمن السلم وعهده ، وتذوى الشجاعة وتحتضر فى ظلال الراحة وخمائل السكون . إن الهدوء والمساواة والطمأنينة (التى تجعل الناس أنداداً وأشباهاً) للهاة العاجز ... ولكن الحرب تظهر شجاعة الرجال وتعلى النفوس الوضيعة ، وإن الجبان والرعديد والخائف والمرتجف (ونظر إلىّ نظرة قاسية كأنه يقصد إلىّ بهذه المخازى ليتناسى اسمه حيال حماسة الحرب

فقلت له : أنا على رأيك ، ولكن لايغب عن فطنتك وأنت بسمارك هذا الزمان أن الحرب التى تشيد بذكرها ، وتتحرق فى انتظار اشتعال نيرانها تجر فى أعقابها نكبات مادية وذهنية ؛ وترعب قلوب الناس والملائكة ، ولا تطرب بدويها إلا أهواء الشياطين والمردة التى تسردها الفظائع الوحشية التى تقع فى القتال

فاندلع فى عيني محدثى لهيب عجيب وقال :

— لا شك أنك تنتمى إلى بعض ذوى تلك

الألقاب الكاذبة ، والمراتب الجوفاء التي تربت في أحضان السلم ورتعت في بحبوحة الرخاء زماناً طويلا. فأنت وأصحابك تخشون الحرب لأن الشخصيات الكبيرة تحل فيها المحل الأرفع ، وتخطو القوة والاخلاص والصدق والشرف إلى الطليعة لتلعب دورها الواجب ، ويتجلى الثبات والعطف والعظمة والبطولة والرحمة والاحسان

فضحكت ضحكة كادت تفقد الرجل صوابه وتخرجه عن دائرة الصبر ، ولكنه تجلد وأخذ يحرق الأرم ويعضع لسانه فقلت له : والهزيمة ؟ الهزيمة ياسيدى، ألا تذهب بجمال ماوصفت الهزيمة النكراء، خيبة المغلوب وإذلاله تحت أقدام الغالب ؟ هل نسيت قول القائل :

« ويل للمغلوب ! » فكان الويل للغالب ؟

فقال الرجل الذي يتجرع الشاي :

حتى الهزيمة ! الهزيمة نفسها فيها ثمرات غالية سامية ، فهي وإن ساقت غالباً الضعف والبؤس والشقاء ، مؤدية كذلك أحياناً أخرى إلى إحياء جديد وانتعاش قوى ، لا سمة للفتور أو العلة فيه . وهي كذلك واضعة أساس نظم حيوية جديدة . قلت له : إذاً لا أخطئ إذا ثبت في ذهني أنك تناهض أماني السلام التي تتردد في خواطر الأمم : فقال حبيب الحرب :

يجب أن نقضي على تلك المذاهب الخيالية الواهية الواهمة ، ويجب أن نشهر بها أمام الناس ونفضح أمرها ونعلن حقيقتها ، وإنها فكرة خيالية ضعيفة عليلة طائشة ، بل ثوب من أثواب الرياء السياسي وحجاب من حجبه . ينبغي أن يعلم الناس في كل مكان أن بقاء السلم لن يكون غرضاً للسياسة العالية بل يجب أن نكرر ونسهب في فضيلة الحرب و نماها ووجوب وقوعها والمثل العليا التي تنطوي عليها . ينبغي أن نلقي في وجوه « رسل السلام » ودعاتها شعراً قديماً :

« أأحلام بالسلم وعهوده ؟ ألا فليحلم به من يشاء ، أما نحن فليكن صراخنا الحرب ! الحرب ! وهلموا إلى النصر » وأظنه لجوته

ونهض الرجل بعد أن ألقى بالجريدة وألقى علىّ نظرة استصغار شفعها بتحية: «عم صباحاً ياسيدى » كانت أقسى من السهم وأحد من السيف وأوقح من الصفعة على صدغ اللئيم . وقد أردت أن ألحق بالرجل وأطلعه على حقيقة شخصي ، وإنني من طلائع الحرب المقبلة ، لا من دعاة الهزيمة كما وَهِم وتخيل . وقد نهضت وحاولت النداء عليه ، ثم عدت فتذكرت أنني من رجال الخفية ، وقد وكل إلىّ عمل دقيق ، وإن في جيب صدارتي غلافاً مختوماً مشتملاً على الأوامر والنواهي التي سأخضع لها حين أفض الغلاف وأتلوها وكأنني أتلقاها من رئيس مطاع. ومن يدريني أن هذا الرجل الذي وقعت عليه مصادفة لم يكن هو نفسه من أعينهم ومن آذانهم؟ والحمد لله الذي أطلعه علىّ في ثوب رجل مسالم ، مبغض للحرب فراح يحتقرني ويزدريني

ثم رفعت عيني إلى الساعة الكهربائية الدقيقة التي تنبض عقاربها بتيار متحد يحرك عقارب سائر الساعات الملقة في أفرع «أنديا هاوس» في ناحيات المدينة كافة . وكانت العاشرة فنهضت ودفعت الحساب بين يدى الصيرف . ولما صرت في شارع مارتن لوثر المحاذى لساحة بوليفار قفزت في سيارة وقلت للسائق بصوت عال : إلي باستيون (وهو بستان عام في ميدان ملعب الكوميدى يؤدى إلى الجامعة — وكانت غايتي أن أضلل أي رقيب قريب

وأن أسير على قدمى من حديقة باستيون إلى شارع ڤيو جرينا دييه حيث تقطن جوتى . وفى أقل من خمس دقائق بلغت بى السيارة باب الحديقة فترجلت ودفعت وأخذت سمتى إلى مقهى «كاتر كوان دى ڤان» الذى يتوسط الساحة ويشرف على الشوارع الأربعة كادروچ و كوراترى وجنرال ديفور وفيلوسوف[1] وشربت قهوة سوداء ، لا تشوبها قطرة من الحليب الذى لا يشربه إلا الأطفال والنساء . ثم قمت أسير متلكئاً وكأننى نسيت الحب الشديد الذى كان يملكنى من أثر الحوادث التى رفعت الأقدار غطاءها منذ نزلت من القطار في المحطة

كان شارع ڤيوجرينا دييه فى هذه الساعة الصباحية هادئاً فنظرت إلى الرقم الملق على الباب؛ فلما أخذ بصرى بعدد ١٧ خفق قلبى ، وأسرعت بالتصعيد فى الدرج . ودققت البـاب دقة لطيفة ففتحت لى خادم عجوز ما رأتها عينى قط؛ فسألتنى عن طلبي، فلما ذكرت لها إسمي أغلقت الباب فى وجهى حتى تخبر مولاتها ثم تعود إلىّ فتأذن لى أو تطردنى . فشعرت بحزن عميق وأحسست المهانة تحز فى قلبى كالمدية ، وصممت أن أطرد هذه الجحمرش جزاء على أنهـا أقفلت الدرفة فى وجهى ، حتى كأننى لا أؤمن على نظرة خلال المواربة بين درفتين، فوقفت مشبوهاً شارد اللب ، لاأدرى كيف أعلل ماحدث. وقامت فى ذهنى عاصفة هدارة من الأفكار المضطربة. وبقيت فترة الانتظـار ودمى يغلى فى عروق وقد صممت على ألا أصـبر على هذه الذلة ولو عدت أدراجى ، فرفعت بنيقة معطفى حول عنقى ، وأدرت وجهى لأهبط الدرج كما صممته ، وإذا بيد قوية تقبض على ذراعى فرجعت بعيني فاذا جوتى خارج الباب بوجه باهت ممتقع ، وجسم مرتجف ، وهى تقول : أنت ؟ تقف بالباب وتنتظر الاذن بالدخول ؟ فأخذتها بين ذراعى وجففت بيدي دموع الفرح التى ذرفتها عيناها

* * *

من العبث أن أصف لك ألوان السـعادة التى تذوقتها فى عشرة هذه الحبيبة الولهى ، التى بدأت تشعرنى بالهناء الماثل وتسكب في شغاف قلبي أفاويق السرور واللذة، وتسكرنى برحيق حبهاوحنانهاحتى كانت الدموع تنبجس من عينى كلما فكرت أن سعادتنا هذه موقوتة وموقوفة على سفرى لمطاردة ذلك الوغد المحبوس المحاصر بين مدن ست ، لا يملك النفاذ من آفاتها . لم تقف جوتى على شيء من أسرارى ، ولم تعلم مقدار ما أحمل من النقود، أو نوع ما أخفى من السلاح ، أو عدد ما أملك التقمص فيه من الشخصيات . فكانت إذا سألتنى عن سبب حضورى الفاجئ قلت لها : لأحضر دروس الجامعة فى مدرج الغرباء ، وأرقب أعمال جمية الأمم عن كثب ، ولا أريد أن أرى أحداً سواك ولا وجهاً غير وجهك ، ولا أتناول طعاماً إلا ما تعده يداك وتطهينه بنفسك ، ولا أنظر فى عينين غير عينيك ، ولا أنعم فى الليل والنهار بجسم غير جسمك، ولاأسمع صوتاً غير صوتك ، ولا أشعر بسعادة غير التى توحيها رقة شمائلك، وذلك إلى أن يحين وقت عودتى إلى مقر عملى فى فيرنزة . وكانت جوتى تحسبنى لا أزال فقيراً ، فكرست وقتها ومالهـا لتوفير راحتى وهى لا تسألنى شيئاً ولا تحاول الوقوف على دخيلتى . فقلت فى نفسى : إن فى النسـاء الهامات وأحاسيس خفية تتفقدها نحن الرجال فى نفوسنا فلا نجدها ،

---

(١) فى خريطـة جنيف التفصيلية شارع إسمه بولفار دى فيلسوف ، وهو المؤدي من الساحة إلى الجامعة

والمرأة مسلحة من كل جانب ، وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً ، فلعلها تعرف كل شيء وقد تعرف أكثر مما أعرف . من ذلك أنها كانت قد أعدت لى عدة زينـة وحلاقة وعطوراً ، حتى المباذل وثياب التفضل (وكانت من صنف غالٍ) . وهذا الذى حدانى لاهمال حقيبتى الصفراء ونسيانها مهجـورة فى أحد أركان غرفة النوم الأنيقة التى أثثتها حبيبتى وقسيمة روحى ، ووصلتها ببهو الجلوس والمطالعة ، وزينتها كل صباح ومساء بالأزهار اليانعة ، ووضعت فى إحدى زوايا البهو مذياعاً صغيراً بحجم اليد ، ولـكن صوته كان كصوت الجن قوة ، فشبهته بقمقم يحتوى عفريتاً ينشد ويلهو ويضحك ويختلس الأخبار من أقواس الدنيا وأقطارها ليرويها لنا . وفى إحدى الليالى قالت لى جوتى بعد أن خرجت من الحمام وعصبت رأسها برباط من الحرير الأزرق وبدت عيناها اللوزيتان بلون الزيتون الأخضر القاتم وليونة القطيفة الناعمة :

— نفسى تحدثنى أننا لن نفترق بعد هذا اللقاء ، وأن الحيـاة ستجمع بيننا إلى آخر العمر . وقد تعودت من نفسي أنها لا تخدعنى ولا تكذبنى

ثم أخذت تمر أصابعها فى شعر رأسى فى خفة وسرعة

فضحكت على الرغم منى لعلمى بما تبطنه الأيام لنا من فرقة ، وإننى قد طرت إليها خلسة ولحقت بها طيشاً ورغبة فى اقتناص أيام معدودة ، قبل أن يستحيل اللقاء علينا . ولن أغادرها حتى أترك لهـا نصيباً من المال يكفى لنفقتها أعواماً حتى ولو اشتعلت نار الحرب ودامت أمداً ، ولـكننى لم أشأ مفاتحتها بشيء من هذا لترسل أقوالها وأفعالها على سجيتها ، فقد عشت أعواماً طويلة وجدت خلالها إن قلب المرأة عميق ، لا يمكن ارتياده ، وسيظل هكذا إلى الأبد . وكنت أنظر تارة إلى نفسي وما يجول بها ، وطوراً إلى وجه جوتى المجرى المادىء الجميل الندى فأشعر بالحزن وتأنيب الضمير حيال كتمانى وصراحتها . وكانت جوتى لا تحول عنى عينيها كأنها تحاول أن تلتهمنى بهما

وفى تلك الليلة طرق بابنا للمرة الأولى شيخ مسن عرفته جوتى من أبناء وطنها فدخل كاشفاً عن رأسه الجميل الممتاز وشعره الأبيض المتموج ، وقد حمل نفسه فى خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره ، فشرب الشاى وتسمى باسمه المنتحل جيروم بادولسكى وتـكلم فى الأدب والسياسة والفنون والتاريخ إلى أن دنا من موضوع الحرب المقبلة فبردت عروق وتفككت أوصال مفاصلى ، لأن الحديث أعاد إلىّ ذكرى مأموريتى التى سوف تشتت شملى وتهد دعائم البيت الذى بدأت أحبه وآلفه وأركن إليه فى نوى ويقظتى

قال الشيخ المسن :

« إن الحرب يا سيدى لا شك مقبلة ، وإنى أراها بعين الخيال تهرول مسرعة إلينا تخب خبباً مرعباً فى دروع من الحديد والنار وقد ربطت رأسها برقعة ملطخة بالدماء ، أكاد أسمع قعقعتها ، وأرى لهب مدافعها جاءت لتخبط خبطتها الأخيرة . أتظن الجوع أو التناحر على السلطة يسبب هذه الـكارثة الشوهاء ؟ كلا إن سببها الفروق بين الطبقات والنفور المستحكم بين العامة والخاصة ، وكلاهما راجع إلى زهو الأغنياء من جهة وخشونة الفقراء من جهة أخرى . والاختلاف فى التربية أكثر فى التنفير من الاختلاف فى الثروة . أما نحن الروس فقد رأينا فى شبابنا هدم بعض النظم المعطلة للتقدم الحقيقى الدين والحياة

الزوجية والامتلاك والحكومة المركزية

فقلت مندهشاً للشيخ المسن : وكيف تعيش الانسانية بدون هذه الدعائم العريقة القوية وهي بمثابة العُمُد المسلحة التى تحمل السقوف العالية وبدونها ينهار البناء ؟

فابتسم الشيخ وقال : أما الدين فيجب عندنا أن تقوم على أنقاضه العلوم المصرية ؛ وأما الحياة الزوجية فيجب أن تستبدل بالاتحاد الحر بين الذكر والأنثى ؛ وأما الامتلاك فبالاشتراكية ؛ وأما الحكومة المركزية فبمجموع ولايات مستقلة . كانت هذه أحلامنا منذ خمسين عاماً ، فلما تحققت أسفنا أشد الأسف، لأن الحقيقة لم تنطبق على الخيال. وقد جنت علينا الفوضى أشد من جناية المظالم؛ وإن نفسي تحدثني أن أكتب قصة كتلك التي كتبها مواطني وصديقي تشر تشفسكي . فقالت جوتي : آه شتو ديلاتي ؟[1] إن الأفكار الثورية قد استحوذت على جميع الطبقات والأعمار والصناعات والمهن هنا في سويسرا وفي أوربا الغربية بأسرها ، حتى لندن وباريس وروما الفاشستية وبرلين التي يحكمها هندنبرج ، في كل مكان تعلن الثورة جهاراً في الطرق ، وتلقى علانية في الثكنات وتذاع في إدارات الحكومة ومصالحها ، بل إني لأعتقد أن الشرطة أنفسهم يغضبون لها ويثورون »

لقد كان كلام الشيخ المسن عجيباً مزعجاً ، حتى لقد شعرت أنني أخون وظيفتي وأنا أصغي إليه ، وإن كنت أستطيع أن أصفه بالخرف لأتخلص من وزره ، ولكن غاظني أن جوتي تعرف أمثاله وتأويهم وتسقيهم الشاي . ولكنني لم أملك أن أقطع حديثه ، وصممت في نفسي أن أفاتحها بعد انصرافه في ضرورة الخلاص من تلك الصداقات المريبة

وشرب الشيخ المسن جيروم بادولسكي أقداحاً من الشاي ، وكأنها مترعات خمراً معتقة صفراء يسكر بها فقال :

— كان الشباب منا صلب المكسر ثابت الجنان رابط الجأش متأهباً لتحمل التضحية في سبيل فكرته؛ وكنا نتزيا بزي العمال لندخل في دينتنا الطبقات الجاهلة من العمال والزراع ونسر لهم في آذانهم أن الواجب أن يتخلصوا من موظفي الحكومة ومُلاّك الأرض وهم أسباب الحالة الحاضرة التي آلت إلى أشد الفساد وأنكر الفوضى.

وهنا دق الباب دقاً عنيفاً، وكان قد مضى على إقامتي في الدار أربعة عشر يوماً ، ولا يعرف مخلوق اسمي وعنواني سوى عامل مكتب البريد في يلا نيليه فقد أفضيت إليه بهما لأنني كنت أنتظر إشعاراً من خدمة النقل البخاري « من الباب إلى الباب » التي عهدت إليها في توصيل حقائبي من فيرنزة إلى جنيف؛ ولم أكن أعلم أن عادتهم أن يفاجئوا عملاءهم في أي وقت من أوقات الليل أو النهار فانتفضت ونظرت إلى جوتي نظرة لم تفهم معناها . وتخيلت الرجل المجهول الطويل الذي تعقبني في المحطة ، ثم البحاثة الصاخب الذي يريد الحرب مهما كلفت شعوب الأرض من عناء وبلاء وهلاك ؛ ولم يخطر ببالي غيرهما ، حتى ولا رئيسي الذي أباح لي « بطاقة بيضاء » في المال والوقت والتدبير. ونهضت جوتي إلى الباب وسمعت الفتح والهمس ، ثم خطواتها وهي تعود حاملة بياناً بحقائبي التي كانت في سيارة بأسفل الدار فحملها الرجل وتقدمه الحلوان ولم تقل له أكثر من أحسنت بالمبادرة فقد كنا في الانتظار

(١) بالروسية ماذا نحن فاعلون ؟

وقد رأى الشيخ المسن أن ينهض فقالت له جوتى : لا تقل إلى اللقاء بل الوداع يا عزيزنا چيروم فقد صحت عزيمتنا على السفر ، وها هى الحقائب قد أعدت وأنت تراها . فهز الشيخ يدها واغرورقت عينه اليمني بدمعتين جالتا ولم تذرفا وقال والعبرات تخنقه :

— ها هو البيت الأخير الذى كان يأوينى ويظلنى يقفل فى وجهى إلى الأبد . فنظرت جوتى إلىّ ورأت تأثرى وقالت : اننا لن نلبث أن نعود فلا تبتئس ياصديق .

قال : تعودين ، ولكن هل أكون هنا ؟

— أتنوى السفر أنت أيضاً ؟

وخيل إلى أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت فى تلك السحابة من الدموع التى تطفر من عينيه وقد أجاب:

نعم : قد أسافر ... سفرة بعيدة جداً جداً . لا يعود منها أحد قبلى ولا بعدى .

ولما نزل چيروم وغاب صدى وقع أقدامه ، عادت جوتى وكانت تودعه ، وجلست على الأرض أمامى ووضعت رأسها فى حجرى وبكت وكنت أفهم بكاءها وأندم على انى سببته ، ولكننى فى الحق اتهمت نفسى بغير جريرة . فقلت لها لم تبكين ياجوتى ؟ ألأن وصول هذا المتاع فى الحقائب قد يكون نذير الفراق ؟

قالت : كلا إنك باق بجانبى إلى النهاية . ولكن أبكى لأننى أقفلت بابى فى وجه هذا الشيخ المسن المسكين الذى ليس له أحد .

— وما الذي دعاك إلى اختراع فكرة السفر ؟

— لأننى لحت أثناء حديثه أنه لا يروقك ولا يرضيك وقد يقلل من سعادتك أن يغشي مجلسنا من وقت إلى آخر .

فلم أملك حيال إخلاصها الا أن اعترف لها بالواقع وألتمس الاعذار لنفسى .

وعدنا إلى السعادة نقتطف ثمارها الدانية ، وأنا واثق انها أيامى الأخيرة فى عالم الهناء الصافى من الأكدار . وكنت أشبع رغبات جوتى ، وأقرأ صحف الأخبار ، واتتبع أحاديث الذباع المكذوبة لأستخرج الصدق من بين ثناياها ، وأتلقف أنباء عصبة الأمم التى كانت فى ريعان شبابها والسقم يدب فى مفاصلها ويعجل بالقضاء عليها لحسن نية والديها وعاشقيها وخاطبي ودها الذين دسوا لها السم فى الدسم . وكنا حينا نلهو باخراج الثياب والكتب من الحقائب ونصفها فى الصناديق والأدراج لنوهم أنفسنا بأننا باقون فى الدار بقاء استقرار وإقامة .

وكانت هذه البلهاء جوتى تضحك فى وجهى وتطيل النظر إلىّ وتقول :

— أعطني طفلاً يشبهك ؛ لا تغادرنى قبل أن ألد لك ولداً . فكنت أضحك من فكرتها وأعجب كيف تحدثها نفسها بهذا الخاطر . ولما كانت جوتى واسعة الخيال وشديدة التعلق بالكتب كانت تداعبنى حيناً قائلة :

— أريد نسخة طبق الأصل منك بلاتنقيح . ألا ترى أن المطبوعات الأولى هى الأصيلة الغالية لأنها نادرة ؛ لقد كنت متعطشة للقائك ولا أستطيع صبراً على بعدك

فقلت لها : وإذا أرغمت على السفر ؟

قالت : قد توافق عزيمتك ماجمعت عليه نيتى لأنه ليس فى سفر الانسان مفرداً أية لذة . إن لكل إنسان حقاً محدوداً من السعادة ، وإن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما ، فليكن من الآن فصاعداً

وقد اتكأت على جسمي بجسمها اللين اللدن وقالت :

لقد طار إليك قلبي مرفرفاً وكلما زدتني اتصالاً زدت اشتمالا ، إنني لا أرتوي ولا أقنع . في وسعى أن أعرف السبب ، إنني لا أشبع منك إلا إذا اطمأننت إلى بقائك بجانبي

وكنت في تلك اللحظة أقرأ ديلي ميل التى كانت تنشر فى أعمدتها رسائل « قلمنا الخاص » . فوقع بصرى على هذه الرسالة الغامضة « إلى رجلنا في ا و ك و ش و ت و س و ا و د . إن أملاك المنشود لدى امرأة مديدة القامة سوداء الشعر ، وحارس الكنز يحمل حقيبة صفراء لا تفارقه . كل شيء بشأنك على مايرام فاتبع خطة السير التي ترسمها لك الكواكب السيارة »

فذهلت من غموض الرسالة أولا ، ثم رأيت بارقة الأمل فى حل رموزها . وكانت جوتى تتابع حديثها قائلة : إن الحب يجعلنى كالريح والمطر والبرق والرعد وأنت كذلك ، فظللت كالمشدوه

وأخذت جوتى تثرثر فى الحديث الذى أيقظها به الحب العنيف

وأخذت تسرد على مسامعى قصة حياتها . وكانت تحدق فىّ بقوة متجهة بصدرها وخصرها إلىّ ، ثم إذا هى تعانقنى بعنف ولهفة وتتنهد . ففكرت فى مخرج من هـذا الموقف حتى يعاودنى هدوئى . فقلت لها : إليك هذا اللغز ، أتعرفين كيف يكون حله ؟ وقرأت لها الرسالة الغامضة فأصغت إليها فى صمت عميق وقالت : وما يهمك من أمر هذا اللغز أو الرسالة الرمزية ؟

قلت : تسلية محض ، لا أكثر ولا أقل

قالت : إن المقصود بالمرأة المديدة القامة رجل مثلها ، والرجل الأول هو بلاريب رسول أو وكيل أو منتدب ، والكنز أوراق أو وثائق ، لأن الحقيبة لا تحتمل أكثر منها ؛ أما الكواكب السيارة فهم الرؤساء المتنقلون . وأظن هذه الرسالة من الخدمة السياسية السرية فى إحدى الدول العظمى ، أما حروف الهجاء فهي أوائل أسماء بعض المدن ، فلو أنها حددت لرجل لوقف عليها . فتناولت خريطة لأوروبا الوسطى وتركتها تضع يدها على البلدان فأخذت تقرأ حتى ذكرت انماس وكيلوز وشامبيرى

ولكننى كنت غبياً فلم أفهم شيئاً . وقد أحسست بحرارة تسرى فى جسدى ، ولعل الحب الشديد الذى شعرت به فجأة جعل على بصرى غشاوة فأخذت أنظر فى سكون إلى ذلك الجسد الرطب المتمدد على ركبتى وصدرى !

فقالت : هل فهمت شيئاً ؟ إن الرجل الذى تقتفى الخدمة السرية أثره فى إحدى دول الوسط يحمل وثائق ثمينة جداً فى حقيبة صفراء وهى تنبه رسولها لصفاته وتطمئنه ... ثم اعتدلت فى جلستها وأخذت يدى فى راحتيها ونظرت إلىّ نظرات شاردة وقالت : كأننى أكتب فى لوح مكتوب أنك أنت المقصود بهذه الرسالة ، وأن هذه الوثائق أمامك وملك يمينك ، وأنك لن تتكبد فى الوصول إليها مشقة لأنها عندك وتحت يدك . ولكننى مجنونة أية علاقة بينك وبين الخدمة السرية فى الدول ، فى هذا الجو القاتم الملبد بغيوم الحرب ؟

وقبل أن أتمكن من القول لها : استمرى فى قراءة هذا اللوح قالت لى :

— إنى أحبك ! إنى أحبك ! إنى أحبك ! وجذبتنى إليها وأنا مستسلم لا أتحرك وعانقتنى ثم دفعت نفسها إلىّ فى قوة وقالت : آه ان اللوح يختفى عن عينى شيئاً فشيئاً . إن حبك قد علمنى قراءة الغيب ، وفى تلك الليلة على الرغم من اشتمالنا

بنار واحدة لم أستطع الدنو منها

وعند شروق شمس الغد، نهضت جوتى وقالت: إن نفسى تاقت لنزهة قصيرة فى إيفردون أو ڤرسوا، ولكن البحيرة لا توافقها فهى تفضل سكة الحديد، فرضيتُ اقتراحها . وإذ كنا على الأفريز حانت منى التفاتة نحو مستودع الصحف والكتب والفتاة الشقراء الباسمة ، فدنوت منها واشتريت حزمة من المطبوعات الطازجة التى تحمل عبق المداد ، وعطر الأشجار التى صنع الورق الغض من جذوعها وفروعها . فلما دفعت لها الثمن قالت: آه سيدى! لقد أوذيت لأجلك، ولكننى لم أبسك، فان الرجل الطويل الأسود الشعر الذى كان يقتنى أثرك منذ شهر عاد يتهمنى بتضليله ، ويسألنى إن كنت رأيتك تحمل حقيبة صفراء بيمينك. فقلت له: إن الحقيبة الصفراء كانت بيمينك أنت، وما رأيت معه شيئاً فلم يصدقنى، وزعم أننى تسترت عليك حين استبدلت حقيبته بحقيبتك ، وشكانى لرؤسائى، ولكنه عجز عن تقديم الدليل على صحة زعمه ، وإنى أخاله ذا قيمة عالية ، لما رأيت من اهتمام الرؤساء بشأنه ، ولكنهم يسمونه دائماً موسيو إس S فهل هو سوڤاچ أو سيرپان أو سراسان ؟ (1)

وكانت جوتى تسمع طرفاً من الحديث ، دون أن تشعر الفتاة بصحبتنا. فلما فرغت الشقراء من ثرثرتها العذبة قالت جوتى: ألا تزال مصمماً على نزهة ڤرسوا؟ أما أنا فلا ، لأننى شعرت بدوار مفاجىء ، ولا بد لى من الرجوع إلى البيت لأعالج صداعى باستكمال النوم حتى الظهيرة أو بازدراد جرعة من البروميد المسكن

فقلت فى نفسى : هكذا النساء يعترضن ويقلقن راحتنا ثم يعدلن عن فكرهن فيظلمن الرجال ...

وكدت أغضب ، ولكننى كظمت غيظى ، لولا أن ابتدرتنى بقولها : لن تندم على عودتنا بقدر ما كنت تندم لو أصررت على نزهتك ... فلم أملك نفسى وقلت لها :

— نزهتى أنا أم نزهتك أنت ؟ ما أقبح ما عليه بعض النساء من غباوة مرذولة . أما عندهن إحساس بما يلائم معقولية الرجل المتحضر من الجنس الأبيض ... أما إلى ذلك من سبيل ؟ لعلك تظنين أنى جننت بحبك جنوناً يحملنى على طاعتك فى السفر والإقامة

فابتسمت جوتى وقالت : لم أرك غاضباً غير هذه المرة ... ما ألطفك فى سخطك؟ أتعرف خرافة الأم التى قتلت الكلب الذى كان يحرس ولدها حين رأت خياشيمه ملوثة بالدماء

فنظرت إليها فى كدر شديد وقلت : إن ما أعرفه ولا أجده ، وأبحث عنه ولا أعثر به ، هو الحياة الهادئة التى لا يسمح الزمان بها

وكنا بلغنا الدار ، فلزمت جوتى فراشها مريضة أو متمارضة ؛ وعند ما أفاقت حوالى الظهر صرفت الخادم العجوز ومنحتها أجازة نصف يوم . ثم قالت لى إنها لم تتعود أن تتجرع أدوية من الصيادلة ، وخير لها أن تبحث فى الأدراج والصناديق والعلب القديمة ، وجلست بجوارى على السرير وأخذت تداعب شعرى بيدها فلت عليها وقبلتها ، ولكنها مالت عنى بسرعة وقالت :

— أتأذن لى أن ألتمس دواء فى إحدى حقائبك المهجورة

فقلت : أتحتاجين إلى سؤالى وإذن ؟ ماذا جرى ؟ وكيف انقلب الهذر حقيقة ؟ فنهضت جوتى إلى غرفة نومى ثم عادت تحمل الحقيبة الصفراء التى

(1) أهو وحشى أم ثعبان أم بدوى وكلها على حرف S

لم أرها منذ وصولى وقد استغنيت عما تحتويه بما أعدته لى تلك الحيمة الحنون

ففتحتها ... ثم نظرت فيها وأطالت النظر ... ولم تمدد لها يداً ...

فنظرت بدورى ... فلم أجد مباذل ولا أدوات حلاقة ولا مرآة ولا قنانى عطر . بل أوراقاً ودفاتر فى أشكال شتى ومصورات وخرائط وأشرطة فوتوغرافية وألواحاً زجاجية ورسوم مواقع وحصون وتصميمات مدافع وطائرات وغواصات ، وجداول إحصاء ورموز كيمائية وخرائط جوية ...

فقالت جوتى : هل هـذه أدوات الزينة ، أم محتويات الحقيبة الصفراء التى لم تكن تفارق الرجل الطويل الأسود الشعر ، وقد وقعت فى يدك خطأ يوم وصولك مدينة جنيف ؟

فأشرقت الحقيقة فجأة على ذهنى وارتبطت حلقات الوقائع ببعضها البعض حتى صارت سلسلة متينة . لقد نقلت الأقدار تلك الوثائق بحقيبتها من يد صاحبها إلى يدى أثناء تغيير القطار فى دوسو دوسولو أو أمبريو . ولعله وضعها بجوار حقيبتى وغفل عنها مدفوعاً بسرعة النزول . وهكذا حلت لى الأقدار ما كنت عاجزاً عن حله إلا بشق النفس وتكبد الأذى ؛ وإذن صحت نبوءة جوتى ، إن الدهر لن يفرق بيننا . فنظرت إلى وجهها فوجدته قاتماً فقالت :

— عند ما سمعت حديث بائعة الصحف أيقنت أن الحقيبة الصفراء المهجورة هى حقيبة الرجل الذى وصف فى عمود الأسرار فى « ديلى ميل » فسارعت بالعود متمارضة خشية أن تسرق أو تختلس أثناء غيبتنا فى إيفردون أو ڤيرسواه . ولـكن غيظك وغضبك وسخطك مما لا أحمله . وقد قتلت الحب فى مهـده وأطلقت لسانك بكلمات مزعجة ما كان لك أن تتسرع بالتلفظ بها كما تعلم ، ولـكنك لم تمالك نفسك . فهذا فراق بينى وبينك ...

وعبثاً حاولت مصالحتها والافضاء لها بسر مهنتى ومكانتى فى الخدمة المخصوصة ، ودفتر الحوالات الذى أملـكه ، والمال الذى لا حد له ، والاجازة الطويلة التى نلتها ، وان الانتفاع بهذه النعم راجع إلى فطنتها وسرعة بديهتها ، وحسن الحظ الذى لازمنى منذ انتويت السفر إليها قبل أن أباشر عملى . وقد اطلعتها على جفر المراسلة وملاحن الحديث[1] وقانون المخاطبة السرية ، ووقفتها على أمور لو علم رؤسائى أنى أذعتها لم يكن يكفيهم قتلى بالرصاص عقاباً عليها ، ولـكن قلب جوتى الذى كان يتفطر شوقاً إلىّ إن غبت عنها ساعة أمسى كالجلمود وقالت :

— لم يسؤنى شىء كما ساءنى طرد الشيخ المسن جيروم باودلسكى ، وهـذا ثأره تقتص له الطبيعة منى ، لأننى أقصيته وحرمته المأوى فى كل أسبوع مرة مراعاة لـكمال راحتك . والآن الوداع ياصاحبى

فنهضت وأنا أشعر بالندم يحز فى نفسى ويهيمن على إحساسى . وقلت : أهذا آخر ما تقولين ؟ إن كان حقاً ما نويت فاعلمى أننى أغادر جنيف دون أن أمس شيئاً من هذه الحقائب والوثائق . وسأترك لك المال والحوالات فلم يعد لى فى الحياة مطمع بعدك وأن الدنيا هينة عندى في جنب رضاك . وإذ ذاك لاحت علائم الدهشة واضحة على جبينها . ثم تبسمت ابتسامة تمثلت فيها دلائل الحب والاخلاص اللذين كان ينطوى عليهما فؤادها وما شعرت به نحوى من عطف فأقبلت أداعبها وأسألها الصفح عما بدر منى ، فأجهشت فى البكاء ولم تتكلم حتى الصباح

محمد لطفى جمعة

(١) أى الشفرة والسيم وهما معروفان

صلاح الدين

للقصصي الإيطالي بوكاتشو

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

حينما تولى الامبراطور فريدريك الأول — إذا صدقنا كثيراً من المؤرخين — استعد المسيحيون لاجتياز البحر لفتح الأرض المقدسة . ولما بلغ الخبر السلطان صلاح الدين ، وكان أميراً مزداناً بأنواع الفضائل وملكا لبابل ، عزم على مشاهدة استعداد الأمراء المسيحيين ليتمكن من حسن الدفاع . فدبر أموره بمصر وتظاهر بالذهاب إلى الحج وسافر متخفياً بملابس التجار ، ولم يصطحب غير صديقين وثلاثاً من الخدم . وبعد ماجاب عدة بلادمسيحية توغل فى لومبارديا ليصل إلى جبال الألب . وعند ذهابه من ميلان إلى بافى صادف شاباً نبيلا يدعى توريل ديسترى قبيل المساء ، وهو من أهالى بافى . وكان وراءه عدد عظيم من الخدم والكلاب والطيور ليقضى بضعة أيام على ضفاف تيزان فى بيت يملكه فى تلك الجهة . فظن هذا الشاب أن هؤلاء ليسوا إلا أمراء أجنبيين يسيحون فى الأرض ، فعزم على مقابلتهم بكل احترام . وحانت لذلك الفرصة إذ انبرى أحد أتباع صلاح الدين ووجه هذا السؤال إلى خادم من خدام الشاب : ماذا بقى من المسافة إلى بافى ؟ وهل فى الامكان الوصول إليها قبل إقفال أبوابها ؟ فرد توريل موجهاً الكلام إلى صلاح الدين :

لا تستطيع ذلك مهما حاولت ياسيدى

— دلنا أين نمضى ليلتنا هذه لأننا غرباء ولا نعرف هذه البلاد

— بكل ارتياح وسرور . ولقد كنت عازماً أن أرسل فى هذه اللحظة أحد أتباعى إلى بافى لقضاء أمر وسيقودكم إلى مكان ترتاحون إلى الاقامة فيه

ثم أسر إلى أذكى خدمه بأن يقودهم إلى منزله عن طريق آخر بينا يسير هو فى أقرب الطرق . وبمجرد وصوله أعد عشاء فاخراً فى حديقته ونسق الموائد ثم وقف بالباب ينتظر ضيوفه . وفى هذه الأثناء كان الخادم يضلل الضيوف من طريق إلى طريق دون أن يشعروا . وفى النهاية دلف بهم إلى البيت. ولما شاهدهم سيده هرع إليهم قائلا : « مرحباً وأهلا وسهلا ! » ولذكاء صلاح الدين وشدة فطنته فهم الحيلة وقال له : « إذا كان فى الامكان أن يُشكر أحد لشرفه وكرمه وجدنا ما نشكوه منك لأنك أطلت طريقنا لنتمكن من حسن الضيافة ولطف المجاملة التى أسرتنا بها ولسنا لها أهلا . فأجاب الفارس الظريف وكان حكيما فصيح اللهجة : « إن ما قابلتك به من الاحترام وحسن الضيافة لقليل بجانب ما تستحقه أيها السيد الجليل إن لم يخدعنى ظاهرك . ولو كنت فى غير بافى لساء نزولك . فلا تأسف إذا طالت طريقك » وفى أثناء الحديث أقبل رجال توريل ليكونوا الاحتفاء بهم جميلا فخما واصطحبوا الأجانب إلى غرفهم التى أعدت لهم ، ثم تناولوا العشاء ودارت عليهم المرطبات وسامرهم

مضيفهم بألذ الأسمار وأحبها

وكان صلاح الدين وصاحباه يجيدون اللاتينية فأعجبوا بفصاحة مضيفهم الذى لم يروا مثله فى آدابه وبلاغة قوله ورقة شمائله . وكانت لدى توريل أعظم فكرة عن ضيوفه . وأمسى مهموماً لأنه لم يتمكن من إعداد وليمة فخمة يدعو إليها البلاد لتزيد فى بهجة الضيافة ، ولكنه عزم على إصلاح ذلك فى الغد

ثم اصطحب ضيوفه إلى الحديقة وأرسل رسولا إلى زوجه وكانت نبيهة كريمة . وفى أثناء السمر سأل بكل تأدب ضيوفه عن صفتهم فأجاب صلاح الدين :

« نحن تجار من قبرص ، وسنسافر إلى باريس لقضاء أعمالنا » فأجاب توريل بصوت جهورى : حمداً لله الذى جعل بلادنا تنتج ظرفاء يشبهون تجار قبرص ! »

واستمر الحديث إلى أن جاء وقت العشاء وتركهم يأخذون مجالسهم على المائدة كما يريدون . ولم يكن العشاء فخماً ولكنه كان جيداً جداً . وقد ساد عليهم الاخلاص والهناءة ولم يمكثوا طويلا على المائدة ، وفكر توريل فى تعب ضيوفهم من وعثاء السفر فقادهم إلى أسرّتهم وذهب هو إلى سريره

وقد قام الخادم الذى ذهب إلى باڤى بما عهد به إليه خير قيام . وبمجرد ما سمعت امرأته الخبر أنبأت أصدقاء زوجها وجهزت وليمة فاخرة ودعت أعيان المدينة ووجهاءها واشترت مختلف الحرائر والوشى الذهبى والسجاجيد والفراء وجهزتها حسب إشارة زوجها

وفى الصباح ركب توريل جواده واصطحب الأجانب إلى مخاضة قريبة وسرهم برؤية طيور صيده حينما تحلق فى الجو . ثم سأله صلاح الدين أن يرسل معهم أحد أتباعه ليدلوهم على طريق باڤى فأجابه :

« سأكون دليلكم فى هذه المرة لأنى مضطر لقضاء أعمالي هناك » ثم تابعوا السير فوصلوها فى الساعة التاسعة ، وظن المسافرون أنهم سينزلون فى نزل عظيم ولكنهم دخلوا بيت توريل وشاهدوا نحو خمسين رجلا فى استقبالهم . وسار هذا الجمع أمامهم فقال صلاح الدين : « ما هذا الذى سألناك إياه . ولقد أكرمتنا البارحة أكثر من اللازم فنرجو منك أن تدعنا نتم طريقنا

— إننى مدين للحظ الذى أرسلك إليّ البارحة ، وهو الذى أضلك طريقك ؛ ولكنى أرجو منك أن تتكرم بقبول تناول الغذاء معنا اليوم ؛ وإن هؤلاء الأصدقاء سيشرفوننا إن سمحت بالجلوس إلى مائدتنا . فاضطر صلاح الدين إلى القبول ؛ فنزلوا ودخلوا دار مضيفهم فوجدوها منسقة بأبهى الأثاث وأفخر الرياش ؛ ثم غسلوا أيديهم وجلسوا إلى المائدة وقد جمعت أطيب الطعام وأفخر الصحاف . ولو كان الضيف نفس الأمبراطور لما استطاعوا أن يهيئوا له أفخر من هذه الألوان ولا أبهج من ذاك التنسيق . ومع أن صلاح الدين وصديقيه قد اعتادوا البذخ ولكنهم دهشوا من هذا الاستعداد لأنهم كانوا يظنون أن مضيفهم ليس إلا من أفراد الأهالى العاديين لا سيداً عظيما . وبعد تناول الغداء وتناول الحديث ذهب النبلاء الايطاليون ليستريحوا من عناء القيظ اللافح ، ولبث توريل وحده مع ضيوفه ؛ ثم دخل معهم إلى غرفة خاصة حتى لا يخفى عنهم أعز وأثمن ما عنده ؛ ونادى زوجه المحبوبة الفاضلة فأقبلت ترفل فى أفخر الأثواب مصحوبة بطفليها الجميلين الرشيقين وسلمت على الأجانب بكل لطف فقاموا وردوا التحية بأحسن منها

وأجلسوها وسطهم وطفقوا يلاطفون الأطفال . وبعد تبادل الحديث سألتهم بكل تأدب عن صفتهم وعن الغرض الذى رحلوا من أجله فأجابوا بنفس الجواب الذى قالوه لزوجها . ثم قالت : « حبذا لو تفضلتم بقبول هذه الهدايا الصغيرة لأن النساء بطبيعتهن ضعيفات الارادة ، فلذلك يعطين الأشياء الصغيرة ؛ ولكنى قانعة بأنكم تقدرون حسن نيتى قبل كل شىء دون أن تعيروا الهدايا أقل اهتمام » وقد أحضرت لهم أفخر الثياب مما يلبسه الأمراء وقالت لهم : إن زوجى قد حصل اليوم على ثوب مماثل وأنتم اليوم بعيدون عن نسائكم ورحلتكم بعيدة والتجار يميلون عادة إلى النظافة . ورأى النبلاء أن توريل لم يفته شىء فأجاب أحد الضيوف : « إن هذه الحلل ثمينة جداً ولا يمكن قبولها بسهولة إذا كان فى استطاعتنا أن نرفضها أمام هذه المجاملة الحسنة واللطف الزائد »

وكان توريل قد تركهم منذ هنيهة ، ثم أقبل فودعتهم زوجه وقدمت كثيراً من الهدايا للخدم . ورجا منهم زوجها أن يقضوا بقية اليوم عنده . وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة ركبوا الجياد للتريض فى المدينة وعند عودتهم جهزوا لهم عشاء فخما ثم طفقوا يتسامرون إلى أن حان وقت النوم فذهبوا إلى مضاجعهم

نهضوا فى الصباح إلى جيادهم ليسافروا فوجدوا مكانها خيلا قوية جميلة بعددهم حتى الخدم ، فدهش صلاح الدين وقال حينما عطف على أصحابه : « أقسم بالله إنه لا يوجد رجل كامل الفضائل حسن المجاملة بصير بالأمور مثل هـذا الرجل . ولو كان ملوك النصرانية مثل هذا الفارس فى شمائله ومكارم أخلاقه لما استطاع ملك بابل (صلاح الدين) أن يثبت أمام الذين يستعدون لمهاجمته ولا أمام واحد منهم . وقد رأى أن لا فائدة من رفض الهدايا الجديدة فشكروا له حسن صنعه وسافروا

وعزم صلاح الدين إن انتصر فى حروبه أن يرد جميل توريل وكرمه الحاتمى ، وطفق يتحدث طويلا عنه وعن زوجه وسمره الممتع وشريف سجاياه

وبعد أن طاف بجميع جهات أوربا الغربية رجع إلى الاسكندرية مزوداً بكل ما يلزمه من المعلومات وأنشأ يستعد للدفاع

وحينما حان الوقت لسفر المسيحيين وأضحى الاستعداد على قدم وساق فى كل مكان صمم توريل على اللحاق بجيوش الصليبيين رغماً عن توسلات زوجه وعبراتها المنهمرة . وبعد ما جهز نفسه واستعد لركوب جواده قال لامرأته : « سأتبع يا عزيزتى الفرسان المسيحيين لسعادتى واطمئنان نفسى وأوصيك برعاية أملاكنا ومصالحنا . إننى معرض لكثير من الأخطار التى تحول دون عودتى ؛ وإنى أطلب منك منة واحدة وهى أن تنتظرينى مهما كان مصيرى عاماً وشهراً ويوماً من ابتداء سفرى »

— كيف أحتمل يا صديقى الآلام التى يسببها لى سفرك ؟ وإن لم توافنى منيتى فأيقن أنى سأحافظ على عهدى وعلى ذكرى توريل فى حياتك ومماتك »

— إننى لا أشك فى إخلاصك ووفائك ؛ ولكنك مازلت فتية جميلة نبيلة متحلية بجميع الفضائل . وقد عرف فيك الناس جميع تلك الشمائل ومن المحتمل أنه بمجرد إشاعة موتى يتقاطر إلى إخوتك وأهلك كثير من النبلاء لخطبتك ولا تستطيعين مقاومة أوامرهم ولهذا السبب طلبت منك الانتظار عاماً وشهراً ويوماً »

— سأعمل كل ما أستطيعه لتنفيذ وصيتك .
وإن أرغمت على الزواج فلا يستطيع أحد أن يمنعني من العمل بوصيتك . وإني أسأل الله أن يبقيك لنا ذخراً وسنداً » ثم بكى الزوجان ونزعت امرأته خاتماً من أصبعها وقدمته لزوجها قائلة : « إن مت قبل رؤيتك فليذكرك بي هذا الخاتم » ثم ودعهم توريل وسافر . ولما وصل إلى جنده ركب البحر مع فرقته . ولما بلغ عكا التحق بجيوش المسيحيين . ولقد كان نصيب أغلب هذه الجيوش الموت ونصيب الباقي الأسر وقادوهم إلى عدة مدن . وكان توريل في من لم ينجوا من حسن حظ صلاح الدين أو من مهارته . ولا يعرف السبب الذي يعزى إليه هـذا النصر العام والنجاح السريع . ولقد اقتادوا توريل إلى سجن الاسكندرية ، وهناك لم يكن معروفاً لأحد ، وخشي أن يعرف . ولقد فكر في الطيور لأنه يحسن تربيتها وتدريبها

لم يعرف توريل هـذا الأمير ولم يفكر إلا في وطنه الذي حن إليه ، وقـد هم أن يهرب مراراً ولكنه لم يتمكن من تنفيذ فكرته

وفي هذه الأثناء حضر بعض السفراء الجنوبيين وافتدوا عدداً من مواطنيهم . وحينما تهيأوا للسفر أعطاهم خطاباً لامرأته يرجوها فيه أن تنتظره ورجا من الذي عهد إليـه الخطاب أن يسلمه إلى عمه الابيه سان بيير ليوصله بنفسه إلى عقيلته

وفي ذات يوم كان صلاح الدين يتحدث مع توريل في شئون طيور صيده فبدرت منه ابتسامة مصحوبة بإشارة كان لاحظها صلاح الدين عند مضيفه في بافي ، فحملق فيه فعاودته الذكرى أنه رأى هذا الوجه يوماً ما . فقال له : « من أي البلاد أنت ؟ »

فقال له : « إني ياسيدي من لومبارديا من مدينة تسمى بافي » وقد رجح هذا الجواب ظن صلاح الدين ؛ وقال في نفسه : « لقد أتاح لي الله الفرصة لأعرفه بما تركه لطفه من الأثر في نفسي » وفي الحال أمر بتغيير جميع ملابسه في غرفة كبيرة وصحبه إليهـا قائلا : « انظر جيداً جميع هذه الملابس علك تعرف منها شيئاً » فسرح الايطالي طرفه في جميع الملابس فلمح الحلل التي منحتها فيما مضى زوجه إلى ضيوفه وقال : « إنني ياسيدي رأيت حلتين تشبهان ماأعطيته لثلاثة من التجار استضافوني » فلم يتمالك صلاح الدين من كبح نفسه وعانقه بحنو قائلا : « أنت مستر توريل ديستري وأنا أحـد التجار الذين منحتهم امرأتك هـذه الحلل . ولقد حان الوقت لأريك بضائعي كما قلت لك عند سفري »

شعر توريل في اللحظة بالفرح والخجل لمجيء مثل هذا السلطان في ضيافته والخجل لاستقباله استقبالاً عده غير لائق بمركزه

ثم قال له صلاح الدين بحماسة : « أيها الصديق العزيز ، أما وقد أرسلك الله إلينا فتيقن أنك أنت وحدك السيد هنا لا أنا » وبعد ملاطفته ألبسه أفخر الحلل الملوكية واصطحبه أمام كبار رؤساء بلاطه وقدمه إليهم أحسن تقدمة ، ثم أثنى عليه أطيب أنواع الثناء وقال لهم : احترموه كما تحترمونني . فأطاع الـكل إشارته ولا سيما الذين اصطحبوه في ضيافة توريل

إن سرعة انتقال توريل من الأسر إلى المجد ألهته عن أمور لومبارديا وظن أن عمه استلم رسائله

وصادف في اليوم الذي أسر فيه صلاح الدين آلافاً من المسيحيين أن مات منهم أحد النبلاء المسمى

« مسير توريل دو ديني وكان غير معروف في الجيش فظن الناس أنه توريل ديستري لتشابه الاسم الأول وتأكد ظنهم بأسر توريل فأذاع بعض الايطاليين نعيه في بلادهم وأكدوا أنهم شيعوا جنازته

وكان لخبر موته الكاذب وقع سيء عند زوجه وأقاربه وأصدقائه. وظلت زوجه تذرف العبرات الحارة أياماً طوالاً، وبعد انقضاء عدة أشهر خطبها للزواج كثير من أعيان بلدها وألح عليها أهلها بالقبول فرفضت مدة طويلة وقالت لهم: لابد من احترام المدة التي اشترطها زوجها قبل سفره

وبينما هذه الحوادث تمر في باڤي كان توريل يفكر في امرأته وفي قرب انتهاء المدة التي اتفق عليها مع زوجه ففقد صوابه من الغيظ والحنق، وأضناه الحزن حتى لزم فراشه وتمنى الموت ليتخلص من آلامه

وحينما سمع بمرضه صلاح الدين وكان يحبه حباً جماً أسرع لعيادته وتوسل إليه أن يخبره عن سبب مرضه، فاعترف له بالحقيقة، فلامه لتأخره في الاعتراف وطمأنه قائلاً: « تأكد أنك ستكون في باڤي في الميعاد المحدد، فرجا من الأمير أن يعجل التنفيذ. دعا صلاح الدين ساحراً بارعاً جرب من قبل مهارته وكلفه بنقل توريل وهو نائم على سريره في سواد ليلة واحدة إلى باڤي. فأجابه الساحر بأنه يلزم أن يعطيه أولاً شيئاً منوماً ثم يباشر عمله. وفي الغد أراد السلطان أن يسفر ضيفه فوضع في إحدى الغرف سريراً فخماً مزداناً بالمخمل المزركش بأسلاك الذهب واللآلئ الكبيرة والماس الثمين، وكان هذا السرير آية في جمال الصنع والفخامة، وأمر بإلباس توريل حلة فخمة وعمامة من أفخر العمائم. ثم ذهب صلاح الدين مع كثير من الأمراء إلى الجناح الذي أقام فيه ضيفه وقال له والدمع يترقرق من عينيه: « أيها الصديق العزيز، قد اقتربت ساعة فراقنا ولا أستطيع أن أصحبك أو أرسل في صحبتك أحداً لطول السفر. ورجائي ألا تنساني وأن تزورني مرة ثانية حينما تنتظم أمورك؛ وأملي أن تستمر المكاتبة بيننا » فخنقت توريل العبرات وقال بعض كلمات متقطعة من تأثره: « إنني لا أنسى معروفك وفضلك وشمائلك النادرة. ثم عانقه صلاح الدين مرات ثم ودعه باقي الأمراء وصحبوه إلى الغرفة المعدة له

ثم استعد الساحر لعمله وأقبل طبيب وبيده شراب قائلاً لتوريل: حبذا لو شربه ليقويه. ثم شربه فنام بعد قليل. ثم حمل إلى السرير المعد له وأضجعوه ووضع صلاح الدين بجانبه تاجاً فخماً لزوجه ووضع بيده خاتماً ثميناً بفص نادر، وقلده سيفاً مرصعاً بأجمل الأحجار الكريمة وصندوقين صغيرين من الذهب مملوءين بأندر الحلي التي لا يسع المقام وصفها؛ ثم عانقه مرة ثانية وقال للساحر: هيا إلى العمل. فغاب السرير في الحال عن عيون الحاضرين، وبعد لحظة كان توريل في كنيسة سان بيير في باڤي

دقت النواقيس مؤذنة بطلوع النهار وكان توريل مافتئ نائماً. ولما دخل الكاهن وبيده مصباحه لمح فجأة هذا السرير الفخم الذي يأخذ الأبصار، فارتعدت فرائصه وأسرع يعدو هارباً وذهب إلى القسس والرهبان وقص عليهم الخبر فقالوا له: إنها أوهام استحوذت عليك، ثم ذهبوا جميعاً وأوقدوا كثيراً من الشموع فرأوا السرير وعليه رجل نائم وطفقوا يختبرون هذه الجواهر من بعيد دون الاقتراب منها

ولسها . ثم استيقظ توريل وتنهد تنهداً طويلاً فذعر القسس والرهبان وركنوا إلى الفرار . ثم فتح توريل عينيه فوجد نفسه في المكان الذى رجا صلاح الدين أن يرسله إليه ، ولح بجانبه من صنوف الجواهر والحلى والتحف ما أكد له سمو أخلاق صلاح الدين وكرمه الحاتمى . وقد لمح القسس وهم يولون الأدبار ذعراً منه فنادى رئيسهم باسمه قائلاً : أنا توريل ابن أخيك ، فزاد ارتعاد الرئيس لأنه كان يظنه ميتاً ، ثم رسم علامة الصليب واقترب من السرير . فقال له توريل : « لم تخاف يا أبتاه ؟ إننى حى وأتيت من وراء البحار » فاطمأن عمه ورآه لابساً حلة عربية فخمة وعرفه جيداً رغماً من لحيته التى أرسلها ثم قال له : « أهلاً وسهلاً يا بنى ومرحباً ، لقد ذعرنا فى بادئ الأمر لأنه لا يوجد أحد فى جميع المدينة لا يعرف خبر موتك . وقد هدد زوجك أقاربها فاضطرت للاذعان بالزواج وستكال اليوم وقد تم الاستعداد للحفلة والعرس »

فأسر توريل للرئيس وجميع الكهنة ألا يخبروا أحداً بعودته ، ثم وضع جواهره وتحفه فى مكان أمين وأخبر عمه بقصته من أولها إلى آخرها ، ثم قال له : إننى أحب أن أذهب إلى العرس لأختبر حالة زوجى وهيأتها . فأرسل إلى الخطيب يستأذنه فى الحضور مع أحد أصدقائه فقبل بكل ارتياح . فذهب مع عمه بحلته العربية فاتجهت إليه الأنظار ولكن لم يعرفه أحد . ولما سئل رئيس الكنيسة من هذا ؟ قال : سفير صلاح الدين لدى ملك فرنسا ، ثم أجلسوه أمام زوجه بالمصادفة فتفرس فيها فوجدها عابسة مهمومة ، وكانت تطيل فيه النظر دون أن تهتدى إلى شىء بسبب حلته العربيـة وذيوع وفاته التى كان لا يشك فيها أحد

ثم فكر توريل أنه قد حان الوقت لاختبار زوجه إن كانت محافظة على ذكراه ، فوضع فى أصبعه الخاتم الذى قدمته له عند سفره كتذكار منهـا ، ثم دعا الخادم الذى خدمه وقال له : « إذهب وقل للعروس عن لسانى بأنه قد جرت العادة فى بلادنا أن الأجنبى إن حضر عرساً فإن العروس لتبرهن له على إكرام وفادته وحسن رعايته تقدم إليه كأساً مترعة من النبيذ فيشرب منه ما يشتهى ثم يغطيه ويرده إلى العروس فتشرب السؤر . ولتبرهن له على عطفها عليه أمرت أن تقدم إليه كأس كبيرة من النبيذ وكان توريل قد وضع الخاتم فى فمه ثم شرب الكأس كلها وألقى من فمه الخاتم فى الكأس دون أن يشعر به أحد وغطاها وردها إليها ، فكشفت الكأس ولمحت فيه الخاتم فعرفته ثم حدقت النظر فى هذا الغريب وصرخت صرخة دوى لها المكان وقلبت المائدة التى كانت أمامها وانطلقت كالسهم وارتمت فى أحضان النبيل قائلة : « هذا هو فى الحقيقة سيدى وزوجى وعزيزى توريل » ثم عانقته عناقاً عنيفاً ولم تحسب حساباً للحاضرين. ثم قص كل منهما حديثه وأخباره من يوم سفره للآن وذهب الزوجان إلى منزلهما وتركا العروس وشواره وهو يقلب كفيه من الحسرة ، وهرع جميع من فى العرس إلى بيت توريل بمظاهر الفرح والبشر ، وأقبل الأصدقاء والخلان يهنئونه بالعودة وسط احتفال عظيم وموائد نصبت عليها كل ما تشتهى الأنفس وتلذ العيون ؛ ثم أعطى توريل جانباً من التحف لمزاحمه عوضاً عن نفقات العرس وجانباً آخر لعمه رئيس الكنيسة وعاش مع زوجه فى هناءة وسعادة أعواماً طوالا

محمد كامل حجاج

من القصص العربي

المرأة المدبرة

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

كانوا جماعة من أصحاب الجمع والمنع ، ينتحلون الاقتصاد في النفقة ، والتنمية للمال ، والتدبير للزمن. وقد صار هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب ، وكالحلف الذي يدعو إلى التناصر . وكان من شأنهم أن يجتمعوا أصيل كل يوم في مسجد البصرة فهو مجمعهم وناديهم ، ينتحون منه ناحية نائية ، ثم يجرون في شعاب الحديث ، ولا حديث لهم إلا ما يتصل بمذهبهم ، ويلائم نحلتهم من أخبار أهل التدبير والاقتصاد ، ونوادر أهل التنمية والإمساك للمال ، وهم في ذلك كله إنما يلتمسون الفائدة لشأنهم ، والصلاح لحالهم . فشعارهم في ذلك قول الأول : « مذاكرة الرجال تلقح الألباب !! »

قال الراوي : ولقد رأيتهم في يوم وقد جلسوا مجلسهم ، والتفوا حلقة كعادتهم ، فما كاد يقر قرارهم ويطمئن بهم المكان حتى اندفع شيخ منهم يقول بصوت متهدج ونبرة مستلينة ولهجة آسفة : ما شأنكم اليوم يا قوم ؟ كأنكم ما شعرتم بموت « مريم الصناع » ، وقد كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، ولها في التدبير شأن أي شأن

قال القوم : وما عندك من حديث هذه المرأة عليها رحمة الله ؟ !

قال : حديثها طويل ، ونوادرها كثيرة ، ولكن أخبركم بواحدة وأحسب فيها الكفاية ، فقد زوجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروي والوشي ، والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب ، وعظمت أمرها في عين الختن ، ورفعت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجها : أنى لك هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله . قال : دعي عنك الجملة وهاتي التفسير . والله ما كنت ذات مال قديماً ، ولا ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة في نفسك ، ولا في مال بعلك ، إلا أن تكوني قد وقعت على كنز . وكيف دار الأمر فقد أسقطت عني مؤونة ، وكفيتني هذه النائبة . قالت : إعلم أني منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة ؛ وكنا كما قد علمت نخبز في كل يوم مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك بعته !! قال زوجها : ثبت الله رأيك وأرشدك . ولقد أسعد الله من كنت له سكناً ، وبارك لمن جعلت له إلفاً ، ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من الذود إلى الذود إبل » وإني على عرفك الصالح وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما يثبت الله في عقبي من هذه الطريقة المرضية !!

قال شيخ آخر يقرون له بالرياسة ، ويقدرون فيه الكياسة : حقاً يا إخوان ، إن موت هذه المرأة المدبرة النافعة فاجعة فاقرة ، وخسارة لا تعوض ، وما أحسب زوجها إلا باخعا نفسه على أثرها حزناً وحسرة . ومن فيكم ينكر أن « المرأة المدبرة » هي لزوجها كل ما يطلب في هذه الحياة من صلاح الحال ، واستقامة الدنيا ؟ وإن لي شأناً مع زوجتي في ذلك أحب أن أنفعكم به ؛ فقد اشتكيت أياماً صدري من سعال كان أصابني ، فأشار علي قوم بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز

وأشباه ذلك ، فاستثقلت المؤونة ، وكرهت الكلفة ، ورجوت العافية . فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموقنين : عليك بماء النخالة فاحسه حاراً . فحسوته ، فاذا هو طيب جداً ، وإذا هو يعصم ، فما جعت ، ولا اشتهيت الطعام في ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر ؛ فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويت العشاء . وعرفت باباً من أبواب القصد ، فقلت للعجوز لم لا تطحنين لعيالنا في كل غداة نخالة ، فان ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ، ثم تجففين النخالة بعد ، فتعود كما كانت ، فتبيعين الجميع إذن بمثل الثمن الأول ، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين ! قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لنا بهذا السعال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك؛ وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق!

قال القوم : صدقت ! فإن مثل هذا لا يكتسب بالرأي ولا يكون إلا سماويًّا !

فأقبل شيخ من نهاية الحلقة يقول: حسبكم يا قوم حسبكم ، فلم أر في وضع الأمور مواضعها ، وفي توفيتها غاية حقوقها « كمعاذة العنبرية » ، فانها المرأة المدبرة بحق

قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟

قال : أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ، وليس لي قيم ، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر إلى تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه كل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك ! وأما المصران فإنه لأوتار المندفة وبنا إلى ذلك أعظم حاجة ! وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منه ، وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر لقلة ما يخالطها من الدخان ! ! وأما الإهاب والجلد نفسه فجراب ، وللصوف وجوه لا تدفع ! وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب ! ثم قالت : بقي الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وإن له مواضع يجوز ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كية في قلبي ، وقذى في عيني ، وهمًّا لا يزال يعاودني!

فانطلق بي الفكر في ارتياد الحيلة ، ولكني لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت ، فقلت : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم ؟ !

قالت : أجل ! ذكرت أن عندي قدوراً شامية جدداً ، وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها ولا أصلح لحالها من التلطيخ بالدم الحار الدسم. وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء موقعه ! ثم لقيتها بعد ستة أشهر كاملة فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت : بأبي أنت ! لم يجيء وقت القديد بعد ! لنا في الشحم والألية والجنوب والعظم وغير ذلك معاش ، ولكل شيء يا صاحبي إبان

قال رئيس القوم : حقاً حقاً ! لا يعلم الواحد منا أنه من المسرفين ، حتى يسمع أخبار الصالحين !

محمد فهمي عبد اللطيف



الفصل التاسع عشر

وزير انكليزي يزور السفير

قضينا معظم الليلة فى لندن بغير ندم لأنا كنا ننظر إلى كل شىء حولنا ونحاول أن نفهمه

وكان فى غرفة نومي ستائر من قماش مماثل للأحزمة ولكنه أرق منها . وكانت أغطيتنا ثقيلة جداً لم نعتد مثلها فى بلادنا ، وقد تعبنا فى معرفة مواعيد الصلاة لأن الساعات عندهم لا تدار على الحساب العربى إذ الشمس لا تؤثر فى جوهم مثل تأثيرها فى جونا ، فقد تكون الشمس مشرقة منذ ساعة ولكن لون الليل لم يتغير . وقد يكون باقياً ساعة على الغروب ولكن الأصيل فى لون الليل . وليس هناك مؤذنون ولا مساجد . ولاشك أن تقسيم النهار والليل عندهم ليس كما هو عندنا فان ليلهم طويل جداً ولا تهدأ الأصوات فى أية ساعة من ساعات الليل . وكانت الأجراس تدق بين حين وآخر . وكنا نحسبها أذاناً أفرنكياً فقط ، ولكننا وجدنا الأمر على خلاف ذلك لأنه يستحيل أن تكون الصلوات فى دينهم بهذه الكثرة

ولما استيقظنا فى الصباح قال لنا السفير إنه رأى مناماً وقصه علينا ففسره محمد بك تفسيراً أرضاه . وأزال الهم عن نفسه . وذلك المنام هو أنه رأى ميرزا شافى رئيس الوزارة الفارسية مطروحاً على الأرض والجلادون يضربونه على قدميه . وقد فسر محمد بك هذا المنام بأنه دلالة على هلاك عدوه

وأرسل إلينا وزير الخارجية الإنكليزية مترجماً آخر غير الذى بعث به معنا السفير الانكليزى فى فارس . على أن معرفة المترجم الثانى بلغتنا كانت معرفة صحيحة، فهو فيها كأحسن المنشئين؛ وقد قرأ كل كتبنا الشهيرة، ويجرى على لسانه أبيات حافظ والسعدى كما تجرى آيات القرآن على لسان المسلمين

وكاد السفير يكون سعيداً برؤية مترجمه الجديد لو لا أن محادثتهما دلت على جهل سفيرنا بشئوننا الخاصة وبلغتنا نحن وبتاريخنا بالقياس إلى معرفة المترجم ...

وأخبرنا ذلك المترجم بأن وزير الخارجية الإنكليزية ورئيس الوزارة سيزوراننا ، فقلنا فى أنفسنا كيف يأتيان لزيارتنا دون اشتراط شروط فيما يتعلق باستقبالنا لهما وموعد هذه الزيارة ؟ إن هؤلاء الانكليز بلا ريب لا يحفظون كرامتهم، فإن أحدنا لا يزور — وهو فى مثل هذا المركز — إنساناً دون أن تسبق الزيارة مفاوضات طويلة . فمنذ ما وصل السفير الانكليزى إلى طهران أبى رئيس الوزارة أن يزوره إلا بشروط خاصة . وانتهى الأمر بينهما بعد المفاوضة على أن تكون الزيارة فى منزل رجل ثالث محايد . أما الوزراء هنا فإنهم يلقون بأنفسهم فى أفواهنا دون أن نتكلف فتح هذه الأفواه

لكننا قبل كل شيء فارسيون ومن الذي ينكر على الفارسي تفوقه !

وجاء الوزير الانكليزي وليس معه غير تابعين اثنين، وقد جلسا أمامه قبل أن يستأذناه، فقلنا ما أعظم الفرق بين وزرائنا وهؤلاء الوزراء ! إن الوزير عندنا رجل عظيم له روعة وصولة فهو لا يخرج من القصر إلا محاطاً بمئات من الخدم ولا يجرؤ موظف تابع له على الجلوس أمامه بغير إذنه ، ولا يحييه إلا بأن يقبل طرف ثوبه وهو جاث على ركبتيه ، وإذا جرؤ أناس على المشي أمامه ضربهم الفراشون حتى يتشقق لحمهم وصودرت أملاكهم وتخربت منازلهم . إن الوزير عندنا يقول للشمس اشرقي فتشرق ، ويقول لها غيبي فتغيب

أما هذا الوزير الذي زارنا فإنه مسكين لا عظمة في نفسه ولا شمم . وقد جاء فجلس في أقرب مكان . ولكن نظرات عينيه كانت شديدة التأثير ، فلو أنه في بلادنا لسميناه عين الدولة . وهو فصيح تتدفق الكلمات من فمه تدفق السيل ، فلو كان في بلادنا لسميناه لسان الدولة . ولكنه مع فصاحته وتأثير عينيه لا يصلح مطلقاً للحكم لفقدان هيبته . وقد أكد لنا أنه لا يفرق في المعاملة بين أحد الانكليز وبين أحد المنبوذين الهندوكيين ، ففهمنا من هذا التعبير أنه لا يفرق أيضاً بين الخطأ والصواب ولا بين الحق والباطل

طلب سفيرنا إلى وزير الخارجية الانكليزية أن يقدمه للشاه الانكليزي في أقرب الأوقات لكي يقدم إليه خطاب الشاه الفارسي والهدايا المرسلة إليه وقال إنه ما كان يظن أن يتأخر كل هذه المدة دون أن يقدم للشاه مع أنه مندوب ملك الملوك شاه إيران

فأكد الوزير الانكليزي للسفير أن كل شيء سيكون وفق رغباته مع رعاية التقاليد الانكليزية . ولكن بما أن مقابلات ملك الانكليز لا تكون إلا في أوقات محدودة فيحسن الصبر قليلاً حتى تمكن هذه المقابلة

دهش ميرزا فيروز من ذلك وقال : إن الشاه الفارسي مستعد للمقابلة كل يوم ، فهو يجلس كل صباح على عرشه فيقبل عليه العلماء والوزراء ورجال الدولة والأعيان وكبار الأجانب وكل من يشير عليهم المنجمون بأن الساعة ملائمة لمقابلة الشاه

قال الوزير الانكليزي : إنه يأسف لأن النجوم في سماء انكلترا لا تستطيع تحديد الساعات لمقابلة الملك ، فإن هذا ليس من شأن النجوم بل من شأن كبير الأمناء

وأدهشنا الوزير أكثر من ذلك بقوله : إن مقابلة الملك لا تطول ، وقد لا يستغرق استقباله دقيقتين أو ثلاثاً ، وإنه لا تلقى أمامه خطب ولا يقال شيء إلا بعد عرضه على كبير الأمناء ووزير الخارجية بالنسبة للسفراء ، فامتعض السفير من ذلك ولكنه كتم امتعاضه

وبعد أن خرج من عندنا الوزير قال : « ما هذه المصائب التي وقعت على رأسي ؟ إنني افتضحت ما بين الرجال ، وسيبيع الشاه أبنائي إلى التركمان لو علم أنني سودت وجهه إلى هذا الحد ، وسيحرق قبر أبي وأمي» . ثم التفت إلينا وقال : «أشيروا عليّ ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لقد اسود وجهي . وشاهنا مستبد وهو لا يبالي برؤوس الرجال إلا كما يبالي الجزار برؤوس الغنم »

فقلت : « الحق في جانبك يا جناب السفير ،

ولكننا فارسيون مسلمون، فاذا حلت بنا نقمة فاذا نفعل؟ لا شيء! ويجب ألاّ نلوم أحداً فهذا هو القضاء والقدر. وإن شاهنا مستبد بغير جدال، ولكن هل هو مع استبداده يستطيع أن يُنزل بنا ما لم يكتبه الله علينا في اللوح المحفوظ؟»

قال محمد بك: «لقد أصاب حاجى بابا ياجناب السفير فان القدر لا مناص منه. إننا نأكل ونشرب ونحيا ونموت بقَدَر سابق لا شأن لاختيارنا وأعمالنا فيه. وإذا كان مقدراً علينا ألاّ نرى الشاه الانكليزى إلا بعد بضعة أيام فاذا فى استطاعتنا غير الصبر؟»

فقال السفير: «وإذا كان فى هذا التقدير أن تقطع رأسى فاذا إذن؟»

فقال محمد بك بهدوء: «لا يكون شيء! لتقطع رأسك إذن»

قال السفير: «ما شاء الله! ألا أحاول حفظ رأسى على الأقل! قل كلاماً آخر وإلا فانى أقسم بذقن الشاه أن أجعل رأسك فى مكان رجليك»

ولما رأينا حالته وصلت إلى هذا الحد تركناه لأننا نعلم ماذا يصدر عنه إذا انفجرت فى صدره مراجل الغضب

الفصل العشرون

رئيس الوزارة الانكليزية

كانت زيارة وزير الخارجية قصيرة جداً ولم تكن منتظرة، ولذلك لم نستطع القيام بواجب ضيافته. ولو أنهم أهملوا هذا الواجب فلم تقدم له غير القهوة الحلوة علامة على حسن الشعور والمودة بين البلدين، ثم القهوة المرة علامة على انتهاء الجفوة التى قد تقع أحياناً بين الملوك. ونحن لا نعرف هل فهم الوزير ذلك أم لم يفهمه. ولكنه على كل حال لم يراع اللياقة، فانه لم يشرب إلا قطرة من الفنجان الحلو ثم رده، فلما تقدم إليه الفنجان المر عافه وصار شكل وجهه مضحكا

لكننا علمنا بمجيء رئيس الوزارة قبل الزيارة بوقت كاف، ولذلك استعددنا استعداداً كافياً، فصنع لنا حسن الطباخ أصنافاً متعددة من البقلاوة وأصنافاً أخرى من الحلوى فيها اللحم والخضار مصنوعين بالعسل والدقيق إشارة لامتزاج جميع المصالح بين فارس وبين بريطانيا، وأعدّ كذلك عدة أنواع من الشراب الذى امتازت به فارس

وكانت بعض زجاجات الشراب قد كسرت فى طريق السفر فأفرغ الطباخ مابها فى أوان من الصاج بعضها أبيض اللون والبعض ذو ألوان أخرى. وقد وجدناهذه الأوانى بأماكن متعددة من المنازل الانكليزية التى نزلنا فيها. فلما رأى المترجم هذه الأوانى وفيها الشراب أغرق فى الضحك. ولما أخبرنا عن نوعها وما تستعمل له سترنا وجه الخجل بنقاب الجهل وحمدنا الله على أننا لم نشرب منها ولم نعرضها أمام رئيس الوزارة

أخيراً جاء رئيس الوزارة وهو فى ثوب أسود كالذى يرتديه وزير الخارجية، وليس هناك أى فارق بين المرؤوس وبين رئيسه. وقد أخبرنا المترجم أن هذا الثوب هو الذى يرتدونه أمام شاههم. وإنهم يرتدونه الآن إجلالاً لسفيرنا

وكان شكل رئيس الوزارة كشكل الدراويش فهو متواضع رقيق. وانه ليدهشنا أن تدار شئون دولة كبيرة بيد درويش مثل هذا. ففى بلادنا يكون

الشاه (كما يقول المترجم) رئيس وزارة نفسه وهو يضطر لتأييد نفوذه إلى سفك كثير من الدم فى أول عهده بالحكم لكى يُهاب . وفى تركيا عند ما يعين الصدر الأعظم وهو رئيس الوزارة عندهم ؛ فانه يبدأ عهده باقامة المشانق وإعدام بعض أغنياء المسيحيين أو اليهود . ولكن رئيس وزارة الانكليز كما قال لنا بلسانه لم يقطع ولا يد لص ، ولم يدق أذن بائع على باب حانوت

قدمنا إليه طعام الافطار وهو شهى كما وصفته ولكن العجيب المدهش أنه لم يوافقه فامتنع عن الأكل . وصار السفير يقدم له أحسن الأجزاء بأصابعه فيعتذر ؛ وقد ساءنا ذلك كل الاستياء لأنه من يصدق أن الذى يأكل لحم الخنزير لا تعجبه البقلاوة ؟

لكن هؤلاء الانكليز قوم مدهشون حقاً

زارنا بعد ذلك عدد من وزراء الانكليز على التتابع ؛ وقد ظهر لنا أنهم لا يعرفون مهمة الوزير ولا يعرفون أى شىء عن نظم الحكم ؛ فمن أمثلة ذلك أن لديهم وزيراً للغابات !

وقد ضحكنا عند ما سمعنا ذلك ضحكا شديداً لأن الغابات عندنا في فارس لاتساوى أجر خفير يحرسها فضلا عن أن يخصصوا لحراستها وزيراً ! ولكنهم فقراء ، والوقود عندهم عزيز جداً لشدة البرد فى بلادهم فى الشتاء . وهم مع فقرهم مسرفون ، فلو أراد الشاه أن يجمل حكومته وفق نظام الحكومة الانكليزية لعين وزيراً للصحارى ليحصى ما فيها من النخيل والهضاب والذئاب

ولما قلنا ذلك للمترجم قال إن الغابات فى انكلترا ضرورية لوجودها كضرورة الخيول والسيوف فى إيران : وقد صدقناه لما تذكرنا صناعة السفن فى انكلترا وماتستلزمه من الأخشاب ، مادامت سفنهم على الشكل الذى رأيناه

وفى جملة من زارنا من وزرائهم وزير البحرية ووزارته من أكبر الوزارات . وبالرغم من أن كثيراً من المدن الفارسية مثل بوشير وهرمز واستراباد ورشت وغيرها واقعة على البحر فاننا فى بلادنا لا نكاد نعرف ما هى السفن . وسيعتقد الفارسيون عند ما نعود إليهم ونحدثهم بما رأيناه أننا نتلو عليهم قصة من ألف ليلة وليلة

وزارنا موظفون آخرون لم نستطع فهم أعمال كل واحد منهم ، فقد قيل عن بعضهم إنه فى قصر الشاه ، وعن البعض أنه موظف بغير وظيفة ، وهو فضلا عن ذلك غير خاضع للحكومة بل رقيب عليها ، واسم هذا الصنف من الناس نواب البرلمان . ونحن نأمل فى المستقبل أن نعرف الفروق بين بعضهم والبعض الآخر فانهم فى نظرنا رجل مكرر ، فتحياتهم واحدة وأخلاقهم واحدة وثيابهم كذلك

ومن بين الذين زارونا رجل اهتممنا به اهتماماً كبيراً بالقياس لمكانته بمكانة نظيره فى فارس وهذا هو رئيس التشريفات

لكنه تبين لنا أن الفارق عظيم بين الرجلين ؛ فرئيس التشريفات فى فارس يجب أن يكون من أسرة القاجار وهى الأسرة المالكة المشهورة بجسامة لحاها . وقد أنعم الله على رئيس التشريفات الموجود الآن فى فارس بلحية تكاد تكون أكبر من لحية الشاه نفسه . وهو يرتدى لباساً خاصاً ويتكلم بلهجة خاصة . ومعرفته بأنواع التحيات وضروب التملق لا تعدلها معرفة . ولكن التشريفاتى الانكليزى

رجل لا مظهر له ولا وجاهة ، بل هو نحيف قصير

وقد كان السفير مدة زيارته ينتظر أن يقول شيئاً عن مقابلة ملك الانكليز ولكنه لم يقل شيئاً

وبعد ثلاثة أيام أخرى سمح لنا بتلك الزيارة فحمدنا الله على ذلك

الفصل الحادى والعشرون

ملك الانكليز

لما تحدد موعد الزيارة هيأنا الهدايا وحررنا قائمة بأنواعها وحمل السفير في جيبه خطاب الشاه وأمر بتهيئة الخيول فصبغنا بالحناء بطونها وذيولها ، ولكن محمد بك أجرى حساباً لتحويل التاريخ الأفرنكى إلى تاريخ عربى فتبين أن اليوم المحدد لهذه الزيارة « يوم أربعاء صفر » وهو يوم مشئوم عندنا نحن الفارسيين

ولما طلبنا إلى المترجم تغييره قال إن ذلك ليس فى الامكان ، فسأله السفير عن كيفية الاستقبال فقال إنه سيكون كاستقبال أى سفير آخر

قال السفير : « كيف ؟ » فقال المترجم : « ستذهب في عربتك إلى القصر الملكى فيقابلك رئيس التشريفات ووزير الخارجية فتقدم أوراق اعتمادك إلى الأخير أمام الملك

قال السفير : « وهل تظننى أكتفى بهذه المقابلة ؟ »

فقال المترجم : « لماذا لا تكتفى بها وهى التى يقابل بها جميع السفراء ؟ ثم ماذا تريد أن يكون غير ذلك ؟

قال السفير : «وماذا يهمنى من سائر السفراء ؟ إن فى العالم ملوكا كثيرين يمثلهم السفراء ويرضى هؤلاء بما يرضى به ملوكهم ، ولكننى أعرف الشاه الذى أمثله . إن شاهي يتربع على أقدم عروش العالم . وإذا كنت تريد أن تعرف من هم جدوده فانى أعدهم لك من عهد نوح . وكيف تقرن أسماء ملوكهم باسم ملك فارس ؟ إننا إلى الآن لم نسمع بأسمائهم فعليكم أن تعرفوا فضلنا عليكم وتكفوا عن حماقتكم

قال المترجم : « ما هذه الكلمات ؟ هل تريد أن تغير عوائد البلاد ؟ وإذا اختار شاهكم أن يرسل لحيته فهل هذا يلزم ملكنا أن يفعل مثله ؟ أليس لكل أمة عوائدها ؟ »

فقال السفير : « لما جاء سفيركم إلى طهران قابلناه مقابلة لا أتنازل عن مثلها . لقد ذهب إليه عم الملك لاستقباله . وكانت الجنود على الصفين تؤدى له التحية ما بين مسكنه وبين القصر ، وألقيت قطع السكر تحت حوافر جواده ، وصدحت الموسيقى ورفعت الأعلام فى السوق وأمر الناس بأن يؤدوا له واجب الاحترام وسمح له بالوقوف أمام الشاه . وأنى لأقسم بذقن النبي عليه الصلاة والسلام لا أذهب إلى القصر الملكى إن لم أقابل هذه المقابلة . وكيف أذهب كما يذهب أى فرد من الأفراد مع أنى ممثل ملك الملوك . لا بل إنى سأعود هذا اليوم وأسأل الله أن يحفظني من الاهانة التى أردتم إنزالها بي »

قال المترجم : « هذا مطلبك وقد يوافق عليه الملك . وسأبلغ أقوالك هذه لوزير الخارجية . ولكن الملك قد يرفض مقابلتك بتاتاً بسبب هذه الشروط»

هاج السفير ووقف وكاد الشرر يتطاير من عينيه وقال :

« أجبنى فى الحال هل أنا سفير أم لا ؟ »

قال المترجم بهدوء وإن كان الغضب بادياً عليه : « وهل ملكي ملك أم لا ؟ »

ثم سمعناه يقول بصوت خافت كلة باللغة الانكليزية هي (دمن) وهذه كلة كنت سمعتها فى السفينة بين بعض البحارة والبعض كما سمعها السفير

قال السفير : « هل تقول أني دم ؟ أأنا دم ؟ أنت دم وأبوك دم ! لماذا أبقى عنا ليقال عنى دم ؟ إننى رجل كبير الأهمية فى بلادى ، وسأحرق قبر والديك لتعلم أنني لست دمن . إني لم أقطع كل هذه الأرجاء لأسمع منك هذه الكلمة »

ففتح المترجم عينيه وفمه كالأبله ثم نظر إلى ساعته ، ووضع قبعته على رأسه ، وأدخل كفيه فى قفازيه ، وأخذ عصاه وقال لنا : « أرجو ألا يقصر الله ظلكم » ثم ترك المنزل

ولما كنا معتادين رؤية السفير فى أوقات غضبه فإننا لم نر فيما حدث شيئاً يخالف المعتاد لأنه كان يمثل دور المفاوض الماهر، وهو يعلم أنه كلما زاد فى التظاهر بالغضب كان أقرب إلى النجاح فى المفاوضة حتى لا يشمت فيه خصمه ميرزا شافى

وبعد خروج المترجم أطرينا السفير وقلنا : إن الانكليز فى حاجة إلى من يلقنهم درساً فى حقوق السفراء . وقلت له : « هم يظنون أنه ما دام لديهم عربات وليس لدينا شيء منها ، وما دام ملكهم ملكاً على الهند وليس لبلادنا بلاد أخرى تتبعها ، فهم أفضل منا . ويظنون أنهم بذلك قادرون على إكراهنا على مالا نريد . ولكنهم واهمون وسنعلمهم إن شاء الله بهمة سفيرنا كيف تكون المنابة بنا

وقال محمد بك : « نعم . نعم ! الله أكبر إن سفيرنا سيعلم الذين يأكلون لحم الخنزير أن أكلهم حرام ! »

ثم صار كل واحد منا يقول ما يلهمه الله إياه من مدح السفير وذم الفرنجستان لنؤيد عظمة شاهنا فى هذه البلاد

ولكن النهار انقضى ولم يعد المترجم ، وظننا الانكليز لم يقبلوا المفاوضة . وخشى فيروز خان أن يبلغوا الشاه بواسطة سفيرهم أنهم لا يقبلون زيارتنا لملكهم ، فيشمت ميرزا شافى ويفهم الشاه أننا أخفقنا لأننا أجهل من أبي جهل ، والتفت إلينا وقال : « ألم يكن ما قلته صواباً ؟ »

فأكدنا له أن ليس فى الإمكان أحسن مما قال، ولكنه صار يكرر هذا السؤال بين لحظة ، ولحظة ونحن نجيبه نفس الجواب

وأخيراً نفد صبره فأرسلنى إلى منزل المترجم لأدعوه إلي تناول العشاء معه فى هذه الليلة وكنت أعرف أن أحد هؤلاء الفرنجة إذا غضب فلا يزول غضبه إلا باتباع سياسة تدل على المهارة ... ولذلك كنت أمشى نحو داره مفكراً غير مقدر النجاح . ولكن العجيب أننى وجدته هادئاً كأى واحد بعد انتهاء المشاجرة أى كأنه لم يحدث شيء . وقد قبل الدعوة للعشاء مع السفير

وعند ما وصل كنت مع ميرزا فيروز وكانت مقابلتهما ودية كالعادة ، فوضع السفير يده على ظهر المترجم وقال : « ما شاء الله ! لقد برهنت على أنك رجل يا ميرزا. وهذا بلا ريب بعض ما استفدته من فارس . أما الذين لم يسافروا إليها من الفرنجستان فإنهم يغضبون غضباً حقيقيًّا . إنك رجل يا ميرزا وقد عرفت كيف تبدأ بالغضب وكيف تنتهى منه .

ولقد قال حافظ : «إن الحب الصادق كغضب الأحمق يستمر فى الغليان بعد أن تزول أسبابه »

فأجاب المترجم : «أعنى ألا ينتهى عهد صداقتنا، وقد أبلغت رغباتك إلى وزير الخارجية »

ظهر الاهتمام الفجائى على وجه السفير وقال : « ما ذا ؛ وما الذى قال ؟ » فقال المترجم : « إن الوزير قال إنه لا يرى صعوبة فى استقبالك كما تريد ، فعندنا جنود كثيرة لا بأس من اصطفاف بعضها على جانبي طريقك إلى القصر وعندنا عربات كثيرة وأعلام أكثر »

قال السفير : « إن هذا عجيب جداً ! إن هذا مدهش ! إننى لا أفهم عقولكم يا معشر الانجليز فأنتم لا تثيرون المصاعب ولا تتركون مجالا للمفاوضات » فقال المترجم : « ذلك فى الأمور التافهة فقط »

قال السفير : « هل تعدون مقابلة السفراء أمراً تافهاً ؟ إنكم لم تفعلوا عشر ما تفعله فارس . فهل كرامة الملوك عندكم لا تعد شيئاً ؟ »

قال المترجم : « لقد كانت دول أوربا في العصور الماضية تعنى بمثل هذه الأمور التافهة . وكان المظهر عندهم أجل من معناه

ولكنهم بعد ذلك رأوا أن فخامة الاستقبال ليست هى الدليل على الود فتركنا كثيراً مما تتمسكون به اليوم ، وقد كان أجدادنا أكثر تمسكا به منكم »

عند ذلك مشط السفير لحيته بأصابعه وفتل شاربيه وظهرت عليه علائم التفكير وشعر بأن مكانته عند الفرنجستان قلت ، مع أنه لم يكن يرجو بالتشبث إلا زيادتها

وأخيراً صاح . « وهل أنتم : تظنون الآن أننا لسنا بجانبكم إلا ألواحاً من الخشب ؟ إننا أمة متمدنية من عصر أنو شروان ومنا جامشيد وجانكيز خان ونادر شاه ومحمد أغان خان وفتاح على خان

أجابه المترجم على أقواله جواباً أرضاه ثم جيء بالعشاء

الفصل الثانى والعشرون

ملك الانكليز

جاء اليوم الذى كنا نتمناه من عهد طويل ولكن لسوء حظى كنت مصاباً بمغص فى القلب فى ذلك اليوم ، فكانت مرافقتى للسفير فى هذه الزيارة من المحال واستأذنته فى تركى بالمنزل . وأذن لى بغير صعوبة . وأدهشنى منه أنه سر بتخلفى عن الحضور ودلنى ذلك على أنه لم يزل يعتبرنى جاسوساً عليه لرئيس الوزارة الفارسية

وكانت رؤية السفير فى ذلك اليوم من المناظر السارة فقد أتقن لبس ثيابه . والحق أن الفرنجة لا يفهمون كيف يكون إتقان اللباس فنحن نعرف ضروباً من لف الحزام ووضع الخنجر فيه بأشكال لائقة جميلة ، ولنا أساليب في إمالة القلبق وإخراج خصل من الشعر من تحته ، وغير ذلك من التفنن في الزى

وكان خنجر السفير وسيفه مرصعين بالجواهر وعلى قلبقه الريشة ، فقلنا عند رؤيته ما شاء الله ! »

ومشى السائس بعصاه الطويلة أمام جواد السفير ووراءه رجالنا تحيط بهم كوكبة من عساكر الانكليز وعلى الصفين جنود انكليزية كان ضباطها يضحكون، وقد كان بعض المصورين فى الطريق مستعدين لالتقاط هذه الصورة البديعة

وكان فى انتظار الموكب على باب القصر خان

انكليزى كبير يقال له سكرتير الملك

لم أستطع مرافقة الموكب كما تقدم فاكتفيت بأن أطل عليه من النافذة وهو ذاهب وسمعت وصف المقابلة من محمد بك . وقد أيقنت أن مقابلة الملوك فى تركيا وفى فارس أروع من مثلها فى هذا البلد . وقد لاحظت أن شكل جيادنا أجمل وآنق من شكل الجياد الانكليزية فان جياد إيران من جنس الجياد الروسية

انتظرت فى صبر نافد حتى رجع الموكب لأعرف تفصيل ما حدث فى القصر . فقال لى السفير عند عودته : « لقد فاتك منظر رهيب يا حاجى بابا . لقد فاتك رؤية الشاه الانكليزى ! إنه أطيب الملوك كما يقولون . ولذلك يتفانى شعبه فى محبته ، وقد أظهر لى من العطف ما ليس يظهره إلا الآباء لأبنائهم

ولقد اتضح لى أن العادات فى القصر تخالف أمثالها فى بلادنا . ولكن الملوك ملوك أينما كانوا وعلى أية حالة كانوا ، فالهيبة تتجلى على هذا الشاه الفرنجستانى كما تتجلى على ملك الملوك في طهران

وقال محمد بك : « ولكن الفرق الوحيد أنك تقف أمام ملك الانكليز مطمئناً . أما الواقف أمام الشاه فإنه يخشى على رقبته من السيف، وعلى رجليه وظهره من العصا ، وعلى يديه من السلاسل . وقد رأينا الواقفين أمام ملك الانكليز كأنهم يقفون أمام زميل لهم

نظر السفير إليه وإلى سائر الأتباع الذين رافقوه فى الزيارة وقال: «وهل تكلمت أمامه كلاماً حسناً؟»

فصاحوا : « ماشاء الله ! إن أفلاطون ما كان ليقول أجمل من هذا » وقال السفير : « لقد عرفت كيف أمثل الشاه وأحافظ على كرامته

وقال محمد بك : « نعم فانك لما دخلت غرفته لم تخلع نعليك ولم تركع ، فذلك مالا يجب علينا لغير الشاه الفارسى »

فقال السفير : « نعم، ويظهر أن أتباعه أنفسهم لا يفعلون ذلك فليس فى غرفته عرش ولا مكان لخلع النعال ولا مكان للسجود . وأنا وقفت على نفس البساط الذى كان الملك واقفاً عليه . وسلمته خطاب الشاه يداً بيد ، وقد وقف الملك على قدميه عندما دخلنا وكنا كلنا في مجلس واحد . والحق أقول أن هذا الملك ليمد طفلا بالقياس إلى ملكنا؛ فليس فى غرفته فلقة ولا مقرعة ولا سيف ولا فى حاشيته جلاد . بل فى اعتقادى أننا إذا أهنا الملك لما حوكمنا فى حضرته، بل كانوا يسلموننا إلى من يحاكمنا فيما بعد كما لو كنا نهين أى إنسان

قلت : «إن مكانة الملوك حقيرة فى هذه البلاد»

فقال تقى الدين : « نعم ويظهر أن عقوبة الضرب على القدمين غير مسموح بها هنا »

قال محمد بك : « نعم وقد أخبرنى المترجم الانكليزى بأنه وإن كان الذى يعتدى على ملك الانكليز لا يحاكم في حضرته ولكنه يعرض رقبته لحبل المشنقة »

فقال المرياخور : « إذن فالحال عندنا أحسن ألف مرة . إننى أفضل أن أضرب كل يوم لو شتمت الشاه على أن أعلق على المشنقة من أجل كلمة أقولها»

صاح السفير : «اسكت يا وغد ! لو سمعك الشاه لقطع لسانك ! أخرج من هنا »

وكان المرياخور أغا بك قد سمع كما سمعنا عند قدومنا إلى هذه البلاد ، أن الحرية مكفولة لكل إنسان وأنه لا يجوز القصاص إلا بوساطة القاضى ،

ولما طرده السفير أيقن أن العقوبة حالة به لا محالة ، فخرج مهرولاً إلى باب الطريق وهو يصيح : « أنا في عرض ملك الانكليز »

وما كادت هذه الكلمة تبلغ آذان السفير حتى كاد يجن من الغضب وأمرنا باعتقاله وصاح : « أقسم بذقن النبي أني أكلزك في الحال ! كلزوه ! هاتوا المقص واحلقوا لحيته وشاربيه »

فانطلقنا وراء أغا بك وجئنا به وطرحناه أرضاً ، وقام السفير وجلس على صــــدره وهو يقول : «سأكلزك في الحال وحق ذقن النبي ورأس الشاه» ثم أخذ المقص وقص لحيته وشاربيه وأغا بك يصرخ ويستجير . وإذا كان أغا بك يستجير بملك الانكليز فانه فارسي قبل كل شيء ، وقص اللحية أكبر شنعة عندنا نحن الفارسيين ذوي الشوارب الطويلة واللحى العريضة المرسلة

ولما رأى أغا بك أن الانكليز ومليكهم لم ينقذوا لحيته وشاربيه أخذ يلعنهم هم واليوم الذي زار بلادهم فيه . وكان حزنه أبلغ حزن رأيته منذ رأيت حزيناً إلى اليوم

وفي صباح اليوم التالي ركب جواداً عدا به ولا نظنه يقف في الطريق حتى يصل إلى طهران

الفصل الثالث والعشرون

ملوك الهند

في اليوم الذي عاد فيه السفير من مقابلة الملك زارنا أناس مختلفو الدرجات . وكان غرضهم الأول من الزيارة ترك قطع صغيرة من الورق عليها أسماؤهم ومحل إقامتهم ، والانكليز يعتقدون أن ذلك تكريم لنا وقد عجبنا من ترك هذه الأوراق التي لا يرجى منها أي نفع

ولكن المترجم أكد لنا أن كل ورقة من هذه الأوراق تعد في مقام زيارة . وقال : إنه إذا كانت الزيارات في انكلترا مثلها في فارس بمعنى أن الرجل يبعث برسول يعلن أنه قادم ثم يذهب بعد رجوع الرسول ويمكث عنــد المزور حتى يدخن ثلاثة غليونات ويشرب فنجانين من القهوة ، فان أعمار الانكليز ما كانت تتسع لزيارتهم وأعمالهم

ولما سأله السفير عن الطريقة التي يرد بها هذه الزيارات قال : إنه سيطبع له مثل هذه القصاصات ثم يذهب معه لتوزيعها على بيوت الناس

فضحك السفير ملء شدقيه . ولشد ما كان سروره عند ما رأى اسمه مطبوعاً باللغة الانكليزية وعلى الأوراق الصغيرة التي جاء بها المترجم

وزارنا أناس آخرون يحمل كل منهم دفتراً فيه توقيعات أناس مختلفين ، وطلب إلينا أن نوقع على دفتره وأن نعطيه (بقشيشاً) كالأتراك ، ونحن لا نعرف مهمة هذا الرجل ولا فائدة دفتره . وجاءنا رجل آخر يطلب البقشيش لأنه دق أجراس الترحيب بنا يوم وصولنا . وما كنا نعرف أن الأجراس تدق للترحيب فهي في بلادنا تدق لسير القوافل ، وهي في بلاد النصارى تدق للعبادة . ولكننا أعطيناه على كل حال ما أراده

ثم جاء رجل آخر يقول إنه مندوب جريدة وأن مهمته أن يسجل أسماء الذين يزورون قصر الملك وينشر هذه الأسماء في ورقة كبيرة يبيعهــا ، ولا أعرف لماذا يشترى الناس هذه الأوراق ! وقال إن مهمته اختيارية فلم يكلفه أحد بها ، وأن من يدفع له مالاً يكافأ بكتابة اسمه في الجريدة . ومن لا يدفع يعاقب باهمال اسمه ، فدفع له السفير ما أراد

وقد كانت كل لحظة تمر تزيدنا خبرة بأحوال الانكليز وعاداتهم ، وكلها عجيب غريب ، وكنا نتناقش كل يوم مع الترجم فى كل ما نراه . وفى يوم من الأيام جاءنا الترجم مهرولا وقال : إن اثنين من ملوك الهند سيزوراننا اليوم فكدنا نذهل ، وقلنا فى أنفسنا كيف يمكن أن يأتى الملوك للزيارة بغير مقدمة ولا سابقة إنذار . وقمنا إلى النوافذ مسرعين ونحن نتوقع أن نراها فى مواكب تركب الأفيال . ولكننا اندهشنا رأينا عربة قذرة فيها رجلان ليس معهما حاشية ولاجنود. وسألنا المترجم كيف يمكن أن يكون هذان الرجلان من الملوك ، فقال إنه من الصعب تفسير الأمور فى وقت قصير وأنه سيشرحها لنا بعد انقضاء الزيارة

وأدركتنا الحيرة فى الطريقة التي يجب أن نستقبلهما بها ؛ فلما جاءا اتضح لنا أنهما فى نهاية البساطة ، ولافرق بينهما وبين أى سوقى فى بلادنا، وهما يحلقان ذقنيهما كالكفار ويلبسان ثياباً عادية وليس عليهما أى مظهر من مظاهر الوجاهة

ولما انقضت الزيارة نظرنا من النافذة فلم نجد العربة فى انتظارهما ويظهر أنها عربة كراء . وسار الملكان على قدميهما ، فقلنا سبحان الله ! أهكذا يكون ملوك الهند القديمة التى يرجع إليها عهد حضارتنا ... الهند ذات الجواهر والأفيال يحكمها أمثال هذين المتشردين !

ثم قال لنا المترجم إن ملوك الهند ليسوا مثل سائر الملوك فان إيراد بلادهم يأخذه الانكليز ، وهم مرؤوسون فى الهند لرجل انكليزى ينوب عن ملك انكلترا وهو مرؤوس هنا لوزير انكليزى لقبه وزير الهند . ولهذا الوزير مجلس يحضره ملوك الهند وهذان الملكان من أعضاء هذا المجلس ، والحق أن هذا الكلام لم يعجبنا ولم نفهمه ، والذى استطعنا أن نقتنع به هو أن الشاه الحقيقى فى الهند هو الانكليزى الذى يقولون عنه نائب الملك وأن هؤلاء الملوك ليسوا إلا سفراء له لدى الحكومة الانكليزية مثل فيروز خان سواء بسواء . ولما سألنا عن دينهم فهمنا أنهم يعبدون الشمس والثيران ويأكلون لحم الخنزير

الفصل الرابع والعشرون

ملكة الانكليز

أصبحت الهدايا التى أرسلها السفير إلى ملك الانكليز موضوعاً لحديث أهل المدينة . وعلمنا أن نساء الأمراء واللوردات ذهبن إلى الملكة ليرين الشيلان والجواهر والمصوغات التى أهديناها لها . وعلمنا أن فى القصر الملكى رجلاً برتبة تعادل رتبة خان يؤدى وظيفة التشريفاتى للملكة فلا يقابلها أحد إلا باذنه، فهو ليس مثل الأغا فى القصر الفارسى وقد وصلتنا دعوة من هذا الخان لزيارة الملكة

وقد كان سفيرنا خائفاً من الذهاب بالرغم من وصول الدعوة إليه، وسأل المترجم : أليس الواجب أن نستأذن ملك الانكليز؟ فأكد له أنها تستطيع أن ترى كل من تريد رؤيته من الرجال ، وأنه لاداعى إلى الاستئذان . فلما رأى السفير أن هذه عوائدهم حقيقة قبل الدعوة التى موعدها فى اليوم التالى وأخذ الكتاب المرسل إليها من كبيرة زوجات الشاه

وقلنا نحن ذاهبون لنرى زوجة الشاه الانكليزي وبناته وأجمل الجميلات فى الحاشية . وهذا الحظ لا يتفق إلا للقليلين ، فالحمد لله على ذلك . وإذا كان النساء العاديات اللواتى نراهن فى الطريق يحيينا

ويقتلننا كل يوم بروعة جمالهن فكيف تفعل بقلوبنا التى سبت قلب شاه الفرنجستان ؟ إن نظرة واحدة إليها وإلى الأقمار اللواتى حولها ستفتننا وتصبينا

لبس السفير أجمل ثيابه ومشط شعر رأسه ولحيته وتطيب بالمسك . وفعلت مثل ذلك ورفعت شاربيّ حتى وصل طرفاهما إلى عينيّ . وسكبت فى الماء الذى اغتسلت به زجاجة من ماء الورد . وركبنا إلى القصر الملكى فلم يقابلنا إلا الرجال . ولم يبد أى دليل على أن بالمنزل نساء

وأجلسنا فى ردهة مفروشة بأبدع الرياش . وبعد انتظار لحظات ظهرت الثياب النسوية تخطر فيها الجميلات عن بعد وبينهن أمير من أبناء الشاه

ولما وقفنا وتهيأنا لاستقبال الأميرات والأمير تبين أنهن وإياه فى جملة الخدم وأن الأميرات لم يظهرن بعد

ولقد خجلنا من مسلكنا أشد الخجل وعدنا إلى الجلوس؛ ثم ظهر تشريفاتى الملكة ومعه امرأة عجوز قال إنها هى صاحبة الجلالة فدهشنا، لأنه ما الذى يحمل جلالة الملك على البقاء مع عجوز كهذه وفى بلاده آلاف من الصبايا الجميلات ؟ ولقد كانت نظراتها كنظرات الوزراء لا كنظرات النساء، فلا رقة ولا دلال ولكن سطوة وهيبة . وسألت السفير أسئلة لا يلقى مثلها إلا العلماء ، فهى أسئلة صعبة جديرة بأن تعجز العالم الحصيف

ولما قدمنا لها خطاب كبيرة زوجات الشاه سألت هل هذا الكتاب مكتوب بخط يدها ؟ فرأيت علامات الخجل على وجه السفير لأن الكتابة ليست من شئون السيدات فى فارس فماذا كان يستطيع سفيرنا أن يجيب ؟

لقد أجاب بأن الخطاب حرره منشئ الدولة

فلما ترجم هذا القول للملكة ابتسمت، ولكننا لم نفهم هل كان ابتسامها ابتسام إعجاب أم سخرية ؟

ثم عرضت عليها الهدايا فلم يستلفت نظرها بوجه خاص إلا ثياب المرأة الفارسية ، وهى حقاً جديرة بالاعجاب، فهى مطرزة بالذهب المرصع بالأحجار الكريمة . وأخذت الملكة تسأل عن أشياء كثيرة . واجتمع سيدات القصر حول السفير وهو يشرح للملكة كيف تلبس السيدة هذه الثياب ، وأبدى ملاحظات كثيرة عن القميص القصير والجبة النسوية . وقد ضحكن كثيراً بالرغم من وجود الملكة بينهن عند ما رأين أجزاء من الثياب تحشى بالقطن ليظهر مادونها من الجسم كبير الحجم . وأعجبت الملكة بمعرفة الفارسيين وحكمتهم عند ما قدم إليها السفير النصوص التى تمنع السحر والعين والنصوص الأخرى التى تمنع الأمراض والتى تجبر الكسر فى أقل من شهر

ولقد استرعت الملكة اهتمامنا بكثرة أسئلتها حتى شغلتنا عن النظر إلى بناتها الجميلات اللواتى تأنس العين برؤيتهن ويستمتع الخيال بالتفكير فيهن . والحق أني لم أر عيوناً أشبه بعيون الغزلان من عيون هؤلاء الأميرات ولا أجساداً أشبه بالحرير من أجسادهن

ولما فرغت الملكة من أسئلتها بدأن يسألننا أيضاً ، وكنت كلما وقع نظرى على إحداهن أقول فى نفسى : « ما شاء الله ! عوذت جمالك من عينى باسم الله ! » وأتساءل كيف يرضى رجال هؤلاء الجميلات بسفورهن ، ونصر نحن على إخفاء أوجه نسائنا ؟ وقد سألنا الملكة هل بناتها متزوجات

فأدهشنا حين قالت أنهن لم يتزوجن إلى الآن . وأنى لأعجب من تأخر زواجهن وهن بنات الملك مع أن من تبلغ هذا العمر فى بلادنا تعد بائرة ؟

وقال السفير للترجم : « لماذا لا يفعل شاهكم مثل شاهنا فينعم على وزرائه ببناته ؟ إن أكبر مكافأة عندنا للوزير أن ينعم عليه الملك بعرس من الأسرة المالكة، وإذا لم يسجد الوزير شكراً للشاه على هذه النعمة فان رأسه تجعل فى الحال مكان رجليه . والحق أن ملوكنا يديرون هذه الشئون أحسن مما يديرها ملوككم

ولما استقصينا فى السؤال وجدنا أن الزواج فى الأسرات المالكة أقرب إلى الزواج عند المسلمين منه عند النصارى ، لأن المحبة ليست شرطاً فى الزواج ولا ضرورة لسابقة المقابلة . ويكفى أن يقول الملك لبنته إنها أصبحت زوجة لأمير ما فتقبل طائعة أو مكرهة؛ وهذا الزواج عندهم يدعونه بالزواج السياسى والحالة مثل هذه مع الزوج من البيوت المالكة

وهمس السفير فى أذن المترجم سائلا : أليس فى هؤلاء السيدات جارية رقيقة للملك فربما كانت الرقيقات توجدن سراً فى قصور الملوك دون غيرهم، فماد المترجم إلى التأكيد باستحالة وجود الرقيق فى هذه البلاد

سأله السفير : أليس فيهن سريات أو راقصات أو خادمات سرير أو وصائف حمام . فأجاب المترجم بالسلب وهو يبتسم ثم قال : إن هذه الضروب من النساء لا توجد إلا فى القصور الملكية . وإن الرقص فى انكلترا يخالف الرقص فى فارس ، ففى انكلترا يرقص الرجال مع النساء ولا تأخذ الراقصة أجراً ...

ولما قمنا كانت الملكة فى نظرنا أكبر كثيراً مما كنا نظن قبل أن نحادثها، وكان كل يوم يمر بنا يعلمنا شيئاً . وما كان غامضاً أمامنا فى شأن النساء أصبح الآن واضحاً جليًا

الفصل الخامس والعشرون

الصلاة والمأكل

شغلنا بمن نزورهم ويزوروننا حتى كدنا ننسى أننا مسلمون وأننا نعيش فى بلاد غير مسلمة ، وأهملنا الوضوء والصلاة بالرغم من أن محمد بك كان ينبهنا كل يوم إلى هذا الواجب . ويؤنبنا على تركه ويحذرنا من أن نصبح مثل الذين يعيشون حولنا ، والذين لا يبدو عليهم أنهم يدينون بأى دين

وكان محمد بك مشتغلاً بالبحث عن الاتجاه الصحيح للكعبة الشريفة ، لأن مباحثه منذ وصلنا إلى انكلترا لم تقنعه . وكانت الأبرة المغنطسة « البوصلة » قد كسرت منه . وأية فائدة ترجى من الصلاة إذا كانت وجوهنا مولاة نحو بقعة قذرة من الأرض لا نحو الكعبة المطهرة ؟

وكان من سوء حظنا أيضاً أننا لم نر الشمس مرة واحدة منذ وصلنا إلى هذه البلاد فتحقق لدينا ما كنا نسمعه فى فارس من أن بلاد الانكليز لا تزورها الشمس

ولما كاد ييأس من معرفة القبلة وكنا جالسين مع السفير أقبل علينا محمد بك وهو يصيح : خبر سار ! لقد ظهرت الشمس . فأطللنا من النافذة ورأينا السحائب خفيفة فى شكل بخار ومن ورائها قرص الشمس ولكنه ليس مشرقاً كالشمس التى تظهر فى سماء فارس ، فان الأخيرة لا يجرؤ إنسان

على التحديق فيها . أما تلك الشمس الانكليزية فان الانسان ينظر إليها ساعة أو ساعتين دون مبالاة كما ننظر فى بلادنا إلى القمر . ولكننا مع ذلك استبشرنا بطلعتها وأخذ بعضنا ينظر إلى البعض ويقول : « مبروك » وعرف محمد بك بالدقة موقع الكعبة !

لكن هذا الحادث دل على أن الانكليز يجهلون كل شىء عن ديننا ، فان الموجودين منهم فى مجلسنا فهموا من فرحنا بظهور الشمس أننا نعبدها . وقال أحدهم ذلك للسفير ، فغضب والتفت إلى وقال : « ما لهؤلاء الانكليز كيف يفهمون ؟ إننا لو كنا نعبد الشمس كما يتصور ، فاننا نستنكف أن نعبد شمسهم هذه التى لا يقوى نورها على اختراق السحاب » والتفت إلى المترجم وقال : « أخبر هذا الميرزا بأن الله لم يرسل نبينا إلا لمحاربة الوثنية »

لكن هذا الميرزا الانكليزى لم يقنعه الجواب وأخذ يجادلنا مستشهداً بتاريخ فارس قبل الاسلام وقد تبين من مناقشته أنه يظن أن الفارسيين لا يزالون على عقائدهم القديمة مع خلاف يسير أدخله المسلمون فى بلادهم . وسألنا ألسنا نقطع رؤوس الخيل تكريماً لظهور الشمس ؟ »

فقال السفير مازحاً : « لو كنا نفعل ذلك فى شمسنا الحارة فاننا فى بلادكم لا نقطع إلا ذيول الخيل

وقد لاحظنا أن الانكليز لا يغضبون من المزاح فان هذا الميرزا الانكليزى ضحك وقال إن الشمس جديرة بأن تعبد على كل حال

ولما رأينا القوم يجهلون ديننا أصررنا على أن نباشر أمور الدين علانية ليفهموا أننا متدينون وأن ديننا محترم ، وعلى ذلك صار أتباعنا يذبحون الذبائح باسم الله على قارعة الطريق ليفهم الانكليز أننا لا نأكل لحم الحيوان الميت كما يأكلونه ، واطمأنت قلوبنا إلى الطعام الذى نأكله أكثر من أى وقت آخر منذ غادرنا البلاد الاسلامية . وصار المؤذن ينادى فى أوقات الصلاة بالأذان الاسلامى . وقال محمد بك إن الصلاة فى هذه البلاد غير الاسلامية أقل بركة منها فى بلاد مسلمة . وأشار علينا بأن نضاعف عدد الصلوات حتى يقبلها الله من هذه الأرض غير الطاهرة

ولكن ملاحظته هذه منعت أكثرنا عن الصلاة بتاتاً ، وقلنا إنه ما دامت البلاد نجسة فما فائدة الصلاة فيها ؟ إذن فلنوفر صلاتنا حتى نعود إلى فارس

وعلى ذكر الصلاة أقول إنه من اليوم الذى ظهرت فيه الشمس فى بلاد الانكليز أمكننا أن نضبط ساعاتنا على الحساب العربى لأننا جعلناها اثنتى عشرة عند الغروب . ومواعيد الصلاة الأخرى معروفة ببعدها وبقربها من هذا الموعد . أما الانكليز فكل شىء عندهم عجيب . والساعات عندهم لها حساب آخر حيث يبدأ يومهم من منتصف النهار

اجترأنا على السير بغير دليل فى طرقات لوندرا بالرغم من استغراب الناس هيئة ثيابنا وتعجبهم منا ، فاننا كنا نبعد كثيراً عن مكان السفارة . وكثيراً ما ضللنا طريق العودة لأن الطرق عندهم كثيرة الشبه فكل البيوت مبنية على نظام واحد . وكل الشوارع باتساع واحد وطول واحد ، ولكننى اهتديت إلى طريقة نأمن بها الضلال فى أى طريق وذلك أنى كنت أحمل معى قطعة من الطباشير فأضع على كل ركن علامة أهتدى بها فى طريق العودة

وفى يوم من الأيام خرجت مع محمد بك وهو كما عرف القراء شديد المحافظة على شعائر الدين . فلما وصلنا إلى حديقة عامة فى ضاحية من ضواحى المدينة ، وقف على الحشائش الخضراء ودعانى إلى الصلاة . وكانت الحديقة غاصة بالنادين والرائحين إذ يظهر أن ذلك اليوم كان عيداً من أعيادهم

فلما نادى محمد بك : « الله أكبر الله أكبر قد قامت الصلاة » اجتمع حولنا كل من فى الحديقة وأخذوا يحملقون فينا ، فلما بلغنا من الصلاة السجود أخرج كل منا قطعة من الطين طاهرة من أرض (كربلاء) ليضع فوقها جبينه . والقراء يعرفون أننا معاشر الفارسيين لا نسجد فوق كل أرض . ولذلك يحمل كل منا فى جيبه قطعة من أرض كربلاء التى قتل فيها الحسين بن على عليهما السلام ليسجد فوقها . وهذه القطعة تصب بشكل جميل وتكتب عليها أسماء الأئمة الاثنى عشر

وإنى أعترف لك بالحقيقة فأقول إنى غير شديد الحرص على الصلاة فأنا لا أصلى إلا إذا كنت فى خطر ، وإلا إذا رأيت من حولى ينتظرون منى أن أصلى . ومن أجل هذه الخلة كان سرورى شديداً بالصلاة أمام هذا العدد الجم من الناس

لكنه لما عدنا إلى الوقوف بعد السجود تركنا قطعتى الطين على الأرض لنعيد السجود عليهما فى الركعات التالية . وبلغ من وقاحة أحد المتفرجين أن مدّ يده فأمسكها وأخذ يريها لمن حوله ، وهو نصرانى نجس ، والقطعة طاهرة مقدسة ، فلم يكن فى وسع محمد بك إلا أن خرج من الصلاة ولطمه على وجهه . وخرجت أنا أيضاً من الصلاة وانتظرت ماذا يكون ، فرمى الانكليزى قطعة الطين وخلع سترته وشمّر عن ذراعيه . وقد فهمت أن حركته هذه عدائية ، بالرغم من أن نزع القبعات علامة على الود بين هؤلاء القوم

وفى هذا الحين مرّ مترجم السفارة فناديته ليترجم بيننا وبين هذا الرجل . ولشد ما كانت دهشتى عند ما رأيت مترجمنا الانكليزي وقد خلع سترته وقبعته أيضاً وشمر عن ذراعيه ، وتلا كما ملاكمة دلت على الشجاعة من كليهما . فلما تمكن المترجم من إصابة الآخر فى وجهه تصافحا وكأنه لم تكن بينهما حالة عدائية ، وأفهمنا المترجم أنه إنما فعل ذلك بالنيابة عنا ، فشكرناه . وقد كنا نسمع عن كرم العرب فى قرى الضيف ولكننا لم نسمع أن أحداً يلاكم الناس بدلاً من ضيوفه . وهكذا قدر لمحمد بك أن يضرب ولكن على جسم المترجم

وعدنا دون أن نتم الصلاة إلى دار السفارة وأخبرنا السفير بما حدث فدهش من أخلاق المترجم

الفصل السادس والعشرون

البرلمان الانكليزى

فى ذلك الوقت كان فى المدينة حركة غير عادية . لم يبق فرد واحد من الانكليز لم يهتم بها ، فخلت البيوت ممن فيها وازدحمت بهم الشوارع حتى صار من الصعب أن يجد المرء لنفسه مكاناً بين الطرقات. فذكرتنا هذه الحالة بعودة الشاه إلى طهران من غزوة أو رحلة طويلة . وسألنا عن السبب فسمعنا إجابات مختلفة

قيل لنا إن أكبر مجلس فى الدولة سيعقد اليوم ، وقيل إنه بالرغم من أن للبلاد ألف كتاب وكتاب فى القانون فإنهم لا يزالون بحاجة إلى قوانين

جديدة . وقد حمدنا الله عند ذلك على كمال ديننا فانه ليس لنا إلا قانون واحد هو القرآن وليس فيه تفريط فى شىء . فلسنا فى حاجة إذن إلى أى قانون آخر . وقيل إن هذا المجلس سيجتمع ليحاسب الشاه الانكليزى ووزراءه على النفقات التى ينفقونها. والحق أنه لو اجتمع فى بلادنا أناس ليحاسبوا الشاه على نفقاته لنصبت لهم المشانق ... وقيل بل اجتمع هذا المجلس للبحث فى مسألة ما زالوا يبحثونها منذ مائة عام دون أن يتقدموا خطوة واحدة ، وهذه المسألة هى هل تبقى إرلندا خاضعة لحكم الانكليز أم يتركونها ؟ وإرلندا هذه جزيرة أخرى تريد أن تنفصل عن حكمهم وهم لا يقررون تركها أو البقاء فيها بل يجتمع مجلسهم منذ مائة عام للنظر فى هذا الطلب . وفى هذه الجزيرة سبعة ملايين من الناس يموتون وينشأ بدلهم مثل عددهم وهم راضون عن إرجاء طلبهم كل هذا الأجل . ونحن لا نعرف لماذا يسلك الانكليز أو الارلنديون هذا المسلك ؟

وقد عول السفير على أن يعرف عن هذا المجلس كل ما تستطاع معرفته ليكتب عنه إلى الشاه ليدرك الفرق بين قوة سطوته وضعف الملوك فى الفرنجستان

وأنى لأعجب كيف يستطيع القضاة مباشرة الحكم مع كثرة هذه القوانين! وهل إذا انتقل قاض من بلدة إلى بلدة يأخذ معه عشرين أو ثلاثين جملا محملة بالقوانين

وإنى لأتساءل أيضاً ما فائدة الملك وما الحكمة من وجوده إذا كان لا ينفق شيئاً إلا حاسبه الناس على ما أنفق ؟ وبالرغم من هذا المسلك السيئ الذى يسلكه المجلس مع الملك فقد علمنا أنه سيذهب عند انعقاده راضياً ليلقى فيه خطبة العرش . ويقولون إن المجلس إذا لم يرض عن هذه الخطبة فان الملك يكون مضطراً عندئذ إلى طرد وزرائه

وصلت الدعوة إلى السفير لحضور هذا الاجتماع فقبلها مسروراً . ولكن الدعوة كانت قاصرة على اثنين فقط هو ومترجمه . ولذلك حرمت أنا وسائر أعضاء السفارة من رؤية هذا الاجتماع . واكتفينا بأن نقف فى الطرق لنرى موكب الملك وهو سائر إلى هذا المجلس . وما كان أفخم هذا الموكب ! لقد كان فيه كل القواد والوزراء ونخبة من كل فرقة عسكرية برية أو بحرية . ولا أعرف كيف يمكن التوفيق بين إجلال الملك باظهار الولاء له وبين اضطهاده ومحاسبته على النفقات وحرمانه من سلطة الحكم ؟

وقفنا تحت ظل شجرة ، وكان الزحام حولنا شديداً فاسترعينا أنظار الناس حتى انصرف الكثير منهم عن النظر إلى الموكب إلى النظر نحونا

وقبل ظهور الملك سمعنا هتافاً غريباً يشبه نواح النساء عندنا، ولكننا فهمنا أنهم يريدون به التحية . والغريب أن هذا الشعب متفان فى حب ملكه وأنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يترك له شيئاً من الحكم

ولما لم تبق إلا الخطوات على عربات الملك صعدنا على الشجرة متسلقين لنتمكن من مشاهدته فأسرع الناس إلى إنزالنا وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه لو لا أن أحد الواقفين عرفنا — على ما يظهر — فشفع وقال إنه مهما يكن ما نفعله فانه صادر عن الجهل ، ثم شيعنا إلى المنزل وأفهمنا أن الذى فعلناه أمر كبير فى هذه البلاد . وسألناه لماذا يعامل الانكليز هذه المعاملة ؟ فقال إن الشعوب لا تدرك الحقائق كما هى فاذا حارب الجيش وانتصر نسبوا ذلك إلى

الملك ، وإذا غلا الخبز نسبوا غلاءه إلى الملك ، وإذا نشبت الحرب نسبوها إلى الملك . ولذلك كان واجب الحكومات يقضي بالحرص على عرش الملك ويمنع حدوث الثورة ، وذلك إنما يكون بجعل سلطة الملك محدودة واضحة الحدود فلا ينسب إليه ما لا يمكن دفعه من الطوارىء وما ليس يجوز أن تنسب مسئوليته إليه

قلت : « هل ترى لحيتي هذه ؟ »

فقال : « نعم »

قلت : « إذن فأنا أقسم بها وما أقسم بشيء أقدس منها ، إننا لو وضعنا شاهنا في مثل هـذا المركز الذي وضعتم فيه شاهكم لحدثت مذبحة عامة لا يمكن أن تنتهي بخير »

فقال : « إن من الخطأ أن توازن بين انكلترا وبين إيران »

ولما عاد السفير من حفلة افتتاح البرلمان وصف لنا هذه الحفلة فقال: ان الملك ظهر في حلة مزركشة بالذهب وعلى صدره النياشين المجوهرة ، وكذلك كان وزراؤه وأصحاب الألقاب ، وكانوا كلهم حليقي اللحى والشوارب كأنهم نساء . وأقسم أنني أحببتهم جميعاً وأن جلودهم أبيض من الثلج وعيونهم تقتل وابتساماتهم تفتن وتسحر

وقد كان بين المتفرجين سيدات لا أستطيع وصفهن . وبالرغم من معرفتنا بسفيرنا معرفة جيدة فاننا لم نسمعه قط يتكلم بمثل هـذا اللسان . وقد كنا نسمع أنه إن أحب فالنار تشتعل عندئذ في فؤاده

وقد قال أحد شعرائنا متى أحب الانسان فانه يفيض رقة ولو كان من أغلظ الناس . وأقسم أن السفير عاد من حفلة افتتاح البرلمان وعيناه تنطقان بالرقة والوداعة

«يتبع» عبد اللطيف النشار

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ }


الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجـــلة الآداب الرفيعة والثقافة العاليـــة

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصـــور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٤ — ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — ١٥ يونية سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

أهي مجنونة؟

أقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

عاد « أديب » من نزهته القصيرة مع حبيبته ، وفي مسمعيه منها ضحكتها الفضية التي أذكرته الماء المنحدر في لين ورفق ، وأشعة الشمس تتكسر على ما يتموّج منه ، وكان يخيّل إليه وهو يمشي على مهل في الجزيرة أن هـذه الضحكة المرحة يستطيع النسيم الواني أن يحملها ويذيعها كما يحمل أرج الأزاهر ، أو كما يذيع تغريد القمري . بل خيل إليه أن هـذه ضحكة يسع المصور الحاذق أن يرسمها ويثبتها بالألوان . وتساءل وهو يفكر في هذا : لم لا يكون في الطوق أن يصور المرء الأصوات ؟ ؟ ألا يمكن أن نعبر عن مثل هذه الضحكة بخط أزرق متموج يجري فيه — كالعرق — خيط ذهبي دقيق ؟ وابتسم وهو يسأل نفسه : ماذا ترى يسمي أهل الولع بالتعريف وضبط الحدود مثل هذه الصورة؟ أتراهم يسمونه تصويراً رمزياً أم يبتدعون له اسماً جديداً ويقولون مثلاً إنه التصوير « التعبيري » أي التعبير بالألوان وما إليها عما يقع في النفس من الشيء مادة كان أو صوتاً ؟

وكان « أديب » كاسمه أديباً ، فله من اسمه نصيب ، وكانت الفتاة التي يحبها في مثل سنه ، وكان أهلهما لا يعلمان من أمرهما شيئا ، فهما يلتقيان سراً ، ويؤثران التمشي في الحدائق العامة ، وقد يتلاثمان إذا أمنا فضول العيون ، وإلا فحسبهما أن تتلامس يداهما وهما يسايران أو قاعدان . وكان يحس — دون أن يعلم — أن الطهر في الدنيـا قليل ،

وأن كبح النفس فى الحياة ليس بسبيل كل حى . ويخطر له أحياناً أنه ليس من اللازم أو الواجب أن يمضى المرء على التوق من الرياح الهوجاء التى تعصف بها الحياة . وكان يقول لنفسه إن هذا قد لا تكون له قيمة فى حياة الأكثرين ، ولكن رجل الأدب أو الفن ... ؟ آه ... هذا شأنه غير شأن الناس !! ويسأل نفسه : ولكن لماذا يختلف الحال ويتفاوت الأمر ، وهذا إنسان وذاك إنسان ؟ ويجيب نفسه فيقول — وهو يؤمن بما يقول ولا يخالجه شك فى صحته — إن الحقيقة عذراء ، فى جوهرها ، وإن الجمال طهر ، ومن الواجب أن يؤمن الانسان بصورة الكمال التى ترفعها العذرية والطهر والعصمة ، وقد يخفق المرء ، ولكن الاخفاق إنما تكون علته هذا الطين الضعيف الذى لا فكاك للنفس منه . وليس الأديب أو الفنان بحر كغيره من الخلق . وهل هو قدر رُزق موهبة الأدب أو الفن إلا ليتاتى معانى من الجمال والحق فى الحياة ؟

وكان على موعد مع حبيبته فى صباح اليوم التالى ، وكانت الساعة فى ذلك الوقت — وهو يروح ويجئ فى أرض الجزيرة — التاسعة مساء ، فماذا عسى أن يصنع بهذا الليل الطويل إلى صباح الغد ؟ النوم لا سبيل إليه ، والقراءة أو الكتابة ... أوه مستحيل هذا ... الهواتف كثيرة ، وكيف يطيب أو يغتفر النوم لمن تصافح مسمعيه كل هذه الهواتف من الجمال والحب ؟ وكيف يجوز أن يتناول ما بنفسه ويجمعه ويحزمه ويلقيه فى ركن ، ويريح رأسه على وسادة ويغمض عينيه ويروح يغط ؟؟ هذا الكنز الذى عثر عليه فى نفسه ، هذا الينبوع الفياض الذى تفجر ... متى ينعم به ويسعد إذا كان ينام أو يقرأ أو يكتب ؟؟

وجلس على مقعد من الخشب ، وجعل ظهره إلى الشارع ووجهه إلى النيل، ولم يعن بأن ينظر يمنة أو يسرة ، وكان على مقعد قريب منه سيدة تراعيه ولا تحول عينها عنه ، وهو ذاهل عنها وعن سواها كأنما خلت الدنيا إلا من حبيبته ، ولكن ذهوله لم يمنع أن ترتسم في ذهنه بغير جهد محسوس منه صورة وجه يبدو باهتاً ممتقع اللون تحت مصباح ، وعينين منحرفتين قليلاً ، وشفتين حمراوين ، وشعر وحف أسود ، وجبين عال أشبه بجبين الرجل منه بجبين المرأة على الرغم من نعومته والتماعه . وكانت هذه الصورة التى انتقشت وحدها ربما خايلته بألوانها ومعانيها فيتعجب ، ويقطب ، ويغمض عينيه كأنما يرجو بذلك أن يجعلها أوضح. وكان وجه العجب أن هذه الصورة التى تلح عليه ليس فيها مشابه من حبيبته . فمن أين جاءت ؟

وسمع — أو توهم أنه سمع — ما يشبه الزفرة الخافتة ، فرده هذا إلى الدنيا التى خرج منها بأحلامه وتلفت فاذا به يرى أصل الصورة المرتسمة فى ذهنه فصار عجبه أشد ، فما كان يدرى أنه رأى أحداً ، أو نظر إلى أحد ، وفرك جبينه ، فسمعها تقول :

« لقد بقيت أكثر مما كنت أريد »

فرفع رأسه وحول وجهه إليها ، فلم ير أحداً غيره يمكن أن يكون المعنى بكلامها فقال « نعم ؟ »

قالت : « كنت أنوى أن أبقى برهة قصيرة ، ولكنى رأيتك فاستغربت حالك ، وأظنك لم تشعر

أنى أحدق فيك منذ نصف ساعة »

فلم يدر بأى كلام يجيب ، وطال تردده ، فقالت :

« من الواضح جداً أنك فى دنيا غير هـذه الدنيا »

فوجد لسانه وقال بلهجة أرق من عبارته : « هل يعنيك هذا ؟ »

قالت : « نعم ، إنى أرى أنك تشعر بشيء من الوحدة ، وكذلك أنا ، لماذا لا تجلس إلى جانبي ؟ أنا أجلس إلى جانبك »

وانتقلت إلى مقعده ، فقال بلا لف : لماذا تفعلين هذا ؟ إنى لا أعرفك

فابتسمت ابتسامة التسامح وقالت : « تمر بى أحيان لا أطيق أن أكون فيها وحدى »

فسألها بجفوة : « هل من عادتك أن تكلمى الأغراب ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « الانسان فى بعض الأحيان يقدم على أشياء قد يستغربها هو فيا بعد »

فزاد شكه فيها واسترابته بها وقال بصرامة وحشية :

« يا سيدتى إنى فقير وليس معى فلوس »

فضحكت .. قهقهت .. ثم تناولت يده وجذبته إليها فمال عليها ثم اعتدل وسألها :

« يا سيدتى ، ولكن من أنت ؟ وماذا أنت ؟ هذا هو المهم »

فقالت : « لا بأس ... أقول لك من أنا ، وماذا أنا ... مات الرجل الذى كنت أعيش معه ، وقد كنت أعايشه لأنى كنت أحبه ... كنت ! فاهم ؟ ... وكانت له زوجة وبنون ، ولكن هذه حكاية أخري ... المهم أنه مات ، وأنه عوضنى عما خسرت بفرارى من أهلى وبنقمتهم علىّ ... وترك لى من المال ما يكفينى مع الاعتدال . وفى وسعى أن أتزوج الآن ، ولكني لا أريد ، لأن زواجى يحتاج إلى الاحتيال والتدبير ، ولست أطيقهما ؛ والطباع التى حملتنى على الفرار من أهلى وأنا مفتوحة العين على ما أستقبل من حياتي ، هى الطباع التى تحملنى الآن على إيثار الحرية فى حدود الكفاية من المال ، والتنزه عن الاحتيال والتدبير لأفوز بزوج ... وماحاجتى إليه ؟ لقد أحببت رجلا لم يكن حبه لى كفاء حبى له ، ولكنه كان كيساً حكيما فترفق بى ، وأولانى العطف الصادق بدلاً من الحب الذى عجز عنه ، ولكن قلبى مات مع ذلك... كما مات هو ... غريب ... غريب أن يحيا الانسان بقلب ميت !! قبر متحرك ولكنه متنكر !! ومن يدرى؟ لعلك تظننى ... محقق أنك تظننى من هؤلاء النسوة اللواتى يبعن أجسامهن ... ولك العذر ... وهبنى كنت المرأة التى توهمتها كذلك ... أواه ! لا أستطيع أن أقول ... ولكن لماذا لا أقول ؟ ماذا أخشى؟ ماذا تعنيني ظنونك وأنت شاب لاتدرى شيئاً ولا تعرف من الحياة إلا اسمها ... ؟ ما عمرك ؟ عشرون ... ؟ أكثر أو أقل قليلاً ؟ وما عملك في الحياة ؟ بماذا تشتغل ؟ قل لى أولاً »

فتردد وحار ، ثم استطاع بجهد أن يخبرها أنه يشتغل بالأدب فى أوقات فراغه ، فإن له عملاً فى شركة ...

فقالت : « أديب ؟ يعنى تنظم الشعر ؟ تؤلف روايات ؟ هه ؟ ؟ وتطبع ذلك وتبيعه ... تبيع ثمار عقلك ... والمرأة التى توهمتها تبيع جسمها ... هذا

ما ظننت ... فليكن ... فهل ترى أيها الأديب الأريب الحاذق فرقاً بين البيعين؟ هات سيجارة إذا كنت تدخن »

فأعرب لها عن أسفه لأنه لم يعتد التدخين ، فهزت رأسها هزة المتسامح ، وقالت وهى تبتسم : « كنت أتوقع ذلك »

وكأنما غير طلبها للسيجارة واعتذاره ، وتعقيبها عليه مجرى الحديث ، فأطرق اديب وعاد إلى مثل صمته وتحديقه فى الماء ، قبل أن تنتقل إلى مقعده ، ولبثت هى لحظة صابرة عليه لا تحاول أن تخرجه من سكونه ، أو ترده مما بدا لها كالغيبوبة ، ثم قالت فجأة — واصلة ما انقطع من حديثها — :

« لو شئت لغامرت ، ولوسعنى أن أبسط لنفسى العذر إذا لم يعذرني الناس . وعلى أنه ما قيمة أن يعذر الناس أو لا يعذرون . ومتى كان الناس يعذرون باخلاص ؟ أو يتقون أن يتنابوا الانسان على كل حرصه على السلوك القويم ـ أعني التقليدى؟ـ ولكنى لا أغامر ، لا لأني لا أشتهى أن أفوز من دنياى بما يفوز به أمثالى ، بل لأنى اقتنعت بأن الأمر لا يستحق عناء ، ولا يساوى ما يبذل فى سبيله . ثم لأن آخرة المطاف ماذا ؟ آخرته أوله ... رحلة طويلة ولكن فى دائرة ... فنلقى أنفسنا بعد المشقة والجهد حيث كنا حين بدأنا ... ولا قناعة ولا رضى ولا ميراث إلا الحسرة ... أليس كذلك ؟ »

فقال — ولم يسعه إلا أن يقول — : « يظهر أنك جربت كثيراً »

قالت : « نعم . جربت ، إن اللذة ليست شفاء من القلق الروحى والاضطراب النفسى ... قد تكون مخدراً ... ولكنها لا تشفى ... »

فهز رأسه مبتسماً للمرة الأولى ، فقد وافقت هذه العبارة هواه وأحلام شبابه ، وسألها : « عسى أن تكونى راضية عن حياتك ؟ »

فابتسمت له — فى عينيه — وقالت : « أين الحياة التى ترى صاحبها الذى يحياها راضياً عنها ؟ »

فشعر بأن به حاجة إلى أن يحميها — لايدري لماذا ؟ — وقال : « ولكن لك عزاء على الأقل هو أن حياتك مطابقة لآرائك — أعني أنك تحيين على مقتضي اقتناعك — على قدرمافهمت من كلامك — ولا شك أن قدرتك على ذلك من بواعث رضاك عن نفسك ؟ »

فلم تلتفت إلى هذا وقالت بلهجة فيها من الليل سجوه : « ستكبر يا صاحبي يوماً ما ، وستتاح لك فرصة تقص فيها على صديق لك ، ما سمعت ورأيت منى فى هذه الليلة ، وقد تبالغ وتتفلسف ، وتنحل نفسك ما لم تقله ، وتقولني ما لم تسمع مني... نعم ... من يدري ؟ »

واعتدلت فجأة فى مقعدها ، ولوحت بيدها ، والتفتت إليه ، وأتأرته النظر وقالت :

« انت عاشق . أراهن أنها فتاة ظامئة ولكنها جميلة كالزهرة التى بدأت تتفتح ، وعسي أن يكون شعرها فاحما لماعا ، وعينها... ماذاياترى؟.. لايهم..»

فالتفت إليها مستغربا ولكنه لم يقل شيئا

ومضت فى كلامهافقالت : « إنى أسن منك وأخبر بالحياة والناس ، وقد أحببتُ ، ولكنى لم ألتزم الأسلوب التقليدى ، ولم أجر على الخطة المرسومة فى العرف الموروث ، فليس ما أرى من عينيك أنك تفيضه على حبك ... على الحب عامة ... من السحر والشعر بغريب عليّ ، ولكنك ستشب عن هذا

الطوق ياصاحبي، وستلفت بقلبك وبعقلك لايمينك وحدها ، إلى الأيام التي كنت فيها تحب الحب ... أيام كانت ألسنة الهواتف تصب فى أذنيك أنشودة سحرية...قد تحلم بمثلها فيما بعد فى منامك ، ولكنك لن تسمعها مرة أخرى فى يقظتك ، كما تسمعها الآن وأنت تحلم مفتوح العينين ... لست منجمة ، ولكنك لن تتزوج حبيبتك ... ولن يكون هذا أقوى حب لك فى حياتك ... كلا ... فى مثل سنك الغضة ؟؟ أوه . لا »

فابتسم ساخرا وقال متهكما : « هل تستطيعين أن تقرأى لى كفى ؟؟ »

قالت « لا تسخر ... سيجرفك حب المرأة التى تراك صالحا أن تكون وقودا للنار المتسعرة فى جوانحها. وأحسبك ستظل حياتك كلها وقودا لنساء من هذا القبيل .. نساء لسن من طرازك، ولا أنت من طرازهن، ولا بينك وبينهن أى تجاذب روحى ... أراك لا تصدق ... (وهزت كتفيها) آه هـذه الثقة ... إيمان الشباب بنفسه ... لو كان أقل أو أضعف لكان نظره أبعد ، وأصدق أيضا ... »

ونهضت ومدت له راحة رخصة ، فوقف وتناول كفها فقالت « أستودعك الله »

قال: « ألا نلتقى مرة أخرى؟ »

قالت « ما الفائدة ؟ كل ما يمكن أن يقول له أحدنا للآخر قد قلناه الليلة ... استنفدنا كل حديث ... وليس أثقل من الكلام المعاد ، ولا أبغض إلىّ من الاجترار ... »

فقال: « ولكن يا سيدتى ، إن معرفتنا لم تكد تبدأ ؟ »

قالت « بل بدأت وانتهت .... لو التقينا ألف مرة ومرة لما زاد أحدنا علما بالآخر ... »

وابتسمت ، ومدت له راحتها الأخرى ، فتناولها بكفه الثانية وقالت له وهى تهز يديه : « تصور أن لقاءنا الليلة كان حلما فى حلم — الحياة على كل حال ليست أكثر من حلم ... ولا أحسن أو أطيب »

فسألها وهو مطبق على يديها :

« أنى لك كل هذه المعرفة والنظر ؟ »

قالت « يا لغرور الرجال ! »

فاعتذر وقال: « ولكن الوداع كريه ، ولست أعرف حتى اسمك » قالت وهى تسحب يديها برفق: « الاسم علامة وعنوان ، وقد عرفت كل ما هو جوهرى »

ودارت فمضت عنه مسرعة واختفت فى الظلام .

ولم يطق أن يبقى بعد أن تركته ، فمشى على مهل وهو مطرق يفكر فيما سمع ، ولا يستطيع أن يصدق أو يؤمن بحرف منه ، ولما بلغ بيته دخل وهو يحدث نفسه أن هذه السيدة لا شك مجنونة ، وأدركه العطف عليها ؛ فصار يتمتم وهو يخلع ثيابه: « مسكينة ... مسكينة ! »

ابرهيم عبد القادر المازنى

المـــــرآة

أقصوصة فرنسية من « كاتول مندى »

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

— ١ —

لم يكن هناك مرآة واحدة فى كل المملكة إذ أمرت الملكة فحطمت سائر أنواع المرايا ، حتى مرايا القصر الملكى العتيد لم تكن لتنجو من ذلك الأمر الصارم... وسنّت قوانين تقضى بأقسى العقوبات على كل من تحدثه نفسه باقتناء مرآة لأسباب كل هذا فإنه كان للملكة وجه يعد مقياساً للقبح ومثلا فى الدمامة . ولم تصدر هذا الأمر مخافة أن ترى صورتها الدميمة منعكسة على إحدى المرايا إبان تجوالها فى طرق البلد ، بل لأنها كانت تضن على الأخريات أن يرين جمالهن حقداً منها وحسداً . وليت شعرى ، ماذا تفيد المرأة من عينين نجلاوين ساحرتين ، وفم ياقوتى دقيق ، وجبين ناصع مشرق ، وشعر وحف ناعم ، إذا لم تمتع بصرها بذلك كله منعكساً على إحدى المرايا... كذلك كان مستحيلاً أن ترى حسناء صورتها على سطح نهر أو قناة أو غدير . فقد أصدرت الملكة أمرها باخفاء مجراها . أما الآبار فقد كان منسوب أمواهها منخفضاً واستبدلت فيها الدلاء بأحواض من الحجر تمنع انعكاس الصور بأية حال... وقد سرى الحنق والسخط إلى كل القلوب لتلك المعاملة الشاذة وهذا الحكم الغريب خصوصاً بين ناهدات الصدر السواحر

— ٢ —

كانت هناك فتاة — تدعى جاسنيث وتثوى بالريف من تلك المملكة — لم يداخل قلبها اليأس ولم يحوّم حولها الحنق والضيق كأترابها من الحسناوات الفواتن ، إذ كان لها عاشق مدله القلب أضحى مرآتها الصافية الأمينة. فابرح منذ أن فتنه فتور لحظها الساجى ، يردد بين الحين والحين : « كم أنت جميلة فتانة ! ... أى قمري الزاهر ! ... »

وكان وجهها يتضرج خجلا أمام هذه المرآة الناطقة وكل ما كانت جاسنيث تخافه، هو أن يبلغ نبأ خطبتها على فتاها مسامع الملكة فتسعى للتفريق بينهما حباً منها فى تنغيص عيش الآخرين فضلاً عن أنها تكره جاسنيث خاصة لما أشيع من شدة جمالها وفتنتها

— ٣ —

واقترب يوم زفاف جاسنيث على فتاها . فخرجت ذات صباح تتأود نشوى كالغصن الرطيب ، وتتنقل فرحانة باليوم القريب . خرجت تستنشق نسيم الصبح المعطار فاذا بها ترى عجوزا مقبلة عليها تترنح فى مشيتها كأنها شبح الفناء يدب دبيبه المضطرب . وسقطت الحيزبون على حين غرة وقد انشق صدرها عن صرخة مفزعة . فأسرعت جاسنيت إليها تقيل عثرتها . غير أن العجوز صاحت تقول : ياإلهى ! ماذا أرى ؟

— ما خطبك ياأمى ! .. وماذا ترين ؟ أنبئينى .

— وجه هو القبح بعينه

— لا إخالك تقصدينني بهذا الوصف

— والهفى عليك يامسكينة ! بل انت ما أقصد إنى لم أر طوال حياتى أقبح منك

واختفت العجوز — وهى إحدي صنائع الملكة ضاحكة ساخرة . فارتمت جاسنيث على مقعد تحت أشجار البرتقال وأنشأت تبكى بكاء اليائس المحروم

— ٤ —

وأصبح مستحيلا إقناع جاسنيث بأنها جميلة وحاول فتاها أن يدخل فى روعها أن العجوز اللئيمة قد كذبتها القول، وأنها شديدة الحسن فاتنة الجمال ... فأعيته الحيل وإذا أصر على إتمام الزواج يراها تبكى وتقول :

— ما ذا ؟ هل أكون أنا الدميمة زوجك ؟ أبداً ... إن حبى لك وحرصى على سعادتك يمنعانى أن أكون زوجاً لك

« إذن ما العمل ؟ » ليس من سبيل لإثبات كذب هذه الشيطان العجوز وتحويل جاسنيث عن وهمها إلا الحصول على مرآة ... ولكن المملكة كلها ليس فيها مرآة

إذن يجب أن أقصد الملكة . فستأخذها رأفة بنا

— ٥ —

قالت الملكة القاسية الدميمة : ماذا هنالك . وما لهذين الشخصين قد أتيا ؟ فتقدم فتى جاسنيث قائلا :

— مولاتى، إن أمام جلالتك أشقى العشاق طرًّا

— وهل أزعجتنى لتقول لى هذا القول ؟ وما شأنى أنا ونزاع جره الحب ؟

— عطفك يا مولاتى مرى جلالتك لنا بمرآة

— كيف تجرؤ يا هذا على ذكر المرآة أمامى ؟

— عفوك يا صاحبة الجلالة . أتضرع إليك أن تصغى إلي قصتى ولا تغضبي لقولى . . . هذه الفتاة التى تمثل أمام جلالتك قد استولى عليها وهم غريب أنها قبيحة الوجه

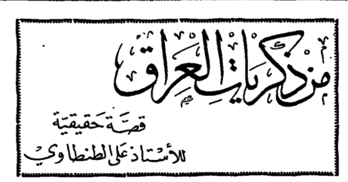
فقالت الملكة ضاحكة فى استخفاف وتشف :

— وإنها لكذلك . إنها محقة فى وهمها . وقد لا أذكر أنى رأيت من قبل أقبح منها وجهاً .

وفعلت هذه الكلمات المؤلمة فى قلب جاسنيث فعل السهام المسمومة . لم يعد هناك ريب فى أنها دميمة شوهاء . فقد شهدت بذلك الملكة كما شهدت به العجوز من قبل وامتقع وجهها حتى أضحى كوجوه الموتى، وسقطت بعد ذلك أمام العرش فاقدة الحس. فصاح فتاها قائلا : إما أن تكون الملكة قد جُنّت . وإما أن يكون لديها من الأسباب ما يحملها على افتراء هذا الكذب . فلم يكد يتم هذه الجملة حتى قبض عليه الحراس وأشارت الملكة إلى الجلاد

— قم بواجبك ... فرفع الجلاد حسامه البراق

وحينئذ دوت صرختان مختلفتان إحداها من فم جاسنيث بعد ما لمحت صورة وجهها منعكساً على السيف اللامع وكانت صرخة فرح عظيم. والأخرى من فم الملكة الحاسدة حين لمحت هى الأخرى صورة وجهها المشوه منعكسة على هذه المرآة غير المنتظرة . وكانت صرخة تتناوبها عوامل مختلفة من الخجل والعار والغضب



كان ذلك فى الربيع الماضى فى أمسية حلوة ، اقترحت فيها على صديقى أنور ، أن نركب زورقاً من هـذه الزوارق الجميلة ، ذات المقاعد الوثيرة والوسائد البيض المحشوة بريش النعام ، فنجول ساعة فى دجلة نشهد غروب الشمس ، ونستمتع بالتأمل فى هذا النهر الذى يحمل فى كل قطرة منه ذكرى خليفة أو مغن أو شاعر أو عاشق ، ويحفظ بين أحنائه أوفى تاريخ لأجمل عصر ذهبى نعمت فى ظلاله البشرية .

وكان صاحب زورقنا شيخاً لطيفاً ، جميل الطلعة ، رائع الشيب ، له على شيبه سذاجة طفل ، ونظرات مَـلك ؛ وكان حسن الحديث ، كثير النوادر ، حاضر الجواب . فسمعنا من حديثه المعجب المطرب ، ومال بنا الحديث إلى كل جميل ، حتى وقف بنا عند الـكلام على دجلة ... فقال الشيخ :

أنتم لا تعرفون مادجلة ؟ عندكم منه هذا المنظر الذى يبدو من الجسر ؛ وقد تنتبهون إلى بناء الجسر وعواماته التى يقوم عليها أكثر مما تنتبهون إلى النهر ! بل لقد تشغلـكم عن هذا وذاك هذه السيارات التى تركب متنه بثقلها وأهوالها وأحمالها ، فيستجير منها الجسر ويئن ، ويضطرب ويميد ، فلا تحفل أنينه ولا تبالى اضطرابه ، ولا ترحمه ساعة من ليل أو نهار

قال أنور : لقـد أنشئ الجسر لتمر عليه المها الفاتنات ، لا لتركبه هذه السيارات ...

— قال الشيخ : أما أنا فانى أرى فى النهر عالماً : أرى فيه دنيا واسعة ، لاتدرون بها ياسكان القصور ، وقطان البر . أرى فيه النهر الذى يستيقظ مع السحر ، ليستقبل أول وفد من خيوط النور ، فيبسم له وترقص فى استقباله أمواجه الصغيرة العابثة ، والنهر الذى تلتهب أمواهه فى أشعة الهواجر من تموز وآب ، والنهر الذي يسكر من ريق القمر الذى يرتشفه فى ليالى الصيف ... لك الله ياليالى بغداد ! .. فيشبه فتاة صغيرة تترنح نشوى ، والنهر الذى يحكى المقبرة الموحشة ، حين يمر فى ليالى الشتاء المظلمة ، أسود كالحاً مرعباً ، والنهر الذي ينقلب معرض غرام حين تسرح فيه زوارق المحبين من أهل بغداد ، مدينة الجمال والجلال ، ومعهم الأعواد والقيثارات ، ومعهم ...

— قال أنور : شراب أبى نواس !

— قال الشيخ : لست أدرى ماشراب أبى نواس ! ولـكن ماذا يعنينى اسمه ؟ أليس هو الذى يخلق لك من الشقاء سعادة ، ومن الفقر غنى ، ومن المزبلة عرشاً مكللا بالجواهر ، والذى يفتح الحناجر بأرق ماعرفت دجلة من الأغانى ، من أيام ...

— قال أنور : إسحق وإبراهيم

— قال الشيخ : ويعقوب ويوسف عليهما السلام

فضحكنا لمقالته ، حين يظن اسحق الموصلى من الأنبياء ، وعاد الشيخ يقول :

— والنهر الذى ينقلب وحشاً كاسراً كاشراً عن أنيابه ، ويغدو (نمراً) فتاكاً ، حين يفيض الزبد على شدقيه ، ويفتح فمه المهول ليبتلع بغداد وأهلها ويقذف بهذه الاطنان من الحـديد التى

تثبت الجسر قذف الصبي بكرته .

هذا هو دجلة الذى أراه أجلّ من البحر ، وما البحر ؟ ما ذلك الملح الأجاج من هـذا العذب الفرات ؟ أين البحر الذى تصطخب أمواجه وهو فى مكانه ، كالطفل الذى يخبط الأرض برجليه من العجز، من هذا النهر الذى يجرى فى سكون ، يجرى دائماً وابداً ؟ آه متى بدأ هذا النهر سيره ، وإلى أين عشى ؟ اما لطوافه نهاية ، اما لمسيرة غاية ؟ والله يابنى لقـد فكرت فى ذلك أكثر من ألف مرّة. إن هذا لعجيب ! فما البحر ؟ البحر الذي يضطجع على رمال الساحل مثل حوت ميت قد جرفته الأمواج ، وأين هو من دجلة الذى يجول فى الأرض كسائح عالمَ ، أوعاشق هائمَ ، يسير بين القصور ، ثم يتنزه وسط الحدائق ، ثم يمرّ على بساتين النخيل

فقاطعه أنور صائحاً : النخيل النخيل ... ألم تسمع ما قال المعرىّ ؟

وردنا ماء دجــلة خير ماء

وزرنا أشرف الشجر النخيلا

قال الشيخ: أى والله ، هو والله أشرف الشجر. لو رأيت ظلال النخيل فى دجلة الساكن ، الذى يبدو عند الغروب كأنه المرآة المجلوّة ! فاذا مل القصور والحدائق والنخيل ذهب يمشى وحيدا فى الصحراء . يالدجلة! ماذا فى نفسه من ذكريات ؟ لقد كان أمس يمشى فى ظلال الايوان المشمخر ، ثم عاد اليوم يمشى على أطلاله الوحشة . ولقد كان يبصر قصر المتوكل العظيم فى سرّ من رأى ، فرجع لا يرى إلا أنقاضا خالية فوق انقاض ... له الله كم يذكر وكم يتألم !

فقال أنور : آه لو كان دجلة شاعراً ...

قلت . أفليس على طرفى دجلة شعراء ؟ فكم ديوانا فى نظم دجلة ؟ أما لو كان دجلة جاريا فى أرض الفرنسيين أو الانكليز ، إذن لملأوا به الدنيا شعراً

قال : هذا صحيح ، انا لا نعرف مقدار ما نملك . إنه لم يبق حادثة فى تاريخ فرنسا أو انكلترا ، ولا بقعة فى أرضهما إلا نظم فيها الشعراء، وألف القصصيون ، ونحن نملك دجلة والنيل ولبنان ودمشق، وعندنا تاريخ ثلاثة عشر قرنا ، يفيض بالبطولة والعظمة والمآسى والمباهج ، فماذا وصفنا وماذا ألّفنا ؟ لاشىء يذكر !

فتألمت وحزنت فى نفسي هذه الحقيقة ، فأحببت أن أبدّل مسرى الحديث ، فقلت للشيخ :

— ألا تخبرنا ما أمتع ذكرياتك فى هذا النهر؟

فاهتز الشيخ ، وقال :

— تحب أن أحدثك عن أمتع ذكرياتى ؟ آه ... ماذا أذكر لك ؟ لقد قضيت سبعين سنة من حياتى أروح وأغدو فى هذا النهر، منذ كان عمرى.. منذ كان .. لقد كنت دون العاشرة ، حينما جربت أن أمسك المجداف بيدى الصغيرة، فكان أبى يشجعنى ويستثير حماستى، ولم أخرج بعد ذلك من النهر. لقد شهدت فيه الخريف والربيع والصيف والشتاء، وأيام الصحو وليالى المطر ، ورأيت كثيراً حكومات مختلفـة وثورات وحروباً ، وركب فى زورقى آلاف مؤلفة من الناس، فرأيت الغنى والفقير واليائس الذى يفر بآلامه إلى حضن النهر يلجأ إليه فى ضيقه ، ويذيب ألمه فى جماله، والعاشق الذى يبتغى الخلوة بمحبوبه بين الماء والسماء. ورأيت أشرافاً ومجرمين وكباراً وصغاراً ، وطربت وحزنت ، واستقبلت أولاداً وأحفاداً ، وودعت راحلين إلى حيث لا يعودون ... فممّ أحدثك ؟ وما ذا أذكر لك ؟

وسكت الشيخ يفكر ، ثم صاح وقد علت وجهه ومضة ، خطف نورها على جبينه المجعد قال :

لقد عرفت ، لقد عرفت ... إنى مهما رأيت ومهما شاهدت فلن أنسى حادثة هى أعمق فى نفسى من كل ما مرّ علىّ من حادثات الليالى . إنها أمتع ذكرياتى ...

لقد كانت ليلة من ليالى الخريف ، وقد بكر البرد فاعتزل الناس النهر . ولم يبق لنا من عمل ، فملت بزورقى ، فانزويت حيال ذلك القصر أتقى زمهرير الليل . ألا ترى إلى هذا البناء الأحمر ؟

— قلت : البرلمان ؟

— قال : لقد كان فيه يومئذ مولانا الملك فيصل رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنانه ، فوقفت زورقى أنتظر رزق الله — حتى انتصف الليل — ولم يجىء أحد ، فتسرب الملل إلى نفسى فانطلقت أغنى ... وإذا أنا بشباك يفتح فوق رأسى ويبرز منه رأس . فسكت وتأملته فاذا هو رأس رجل مهيب قد عدا طور الشباب . فانتظرت أن يؤنبنى على أن أزعجته عن منامه بغنائى ، وهل يليق بمثلى أن يغنى تحت شبابيك الملك بعد نصف الليل ...

ولكنه لم يعتب ولم يلم . وإنما قال لى بلهجة حلوة :

— مساء الخير يا عمّ !

— قلت : مسَّاك الله بالخير يا بنى . لا تعتب علىّ ، لن أغنى بعد الآن. لقد كانت خطيئة من الملل . ما ذا أعمل يا بنى ؟ دعْها لله ...

— قال : لا . أبداً . بالعكس لقد سررتنى. إنى مصاب بالأرق

— فضحكت وقلت : وأنا والله كذلك ولكنى شيخ كبير والشيخ لا ينام . أما أنت فلا تزال شاباً

— قال : ولكنها الهموم ... هموم الحياة

— قلت : وما ذا تشتغل أنت هنا ؟

— قال : خادم . خادم لكل الناس ، وعندى عيال ...

— قلت : لعلك محتاج إلى مال؟ لا تفكر يابنى. الرزق مقسوم . الذى لك سيأتيك

— قال : ولكن ... آه صحيح ! كله قسم ... الحمد لله

وأحسست كأن فى صوته نغمة حزن أليمة ، ففهمت أنه محتاج وأخذتنى الشفقة عليه ، وانتويت والله يابنى مساعدته ، (والبؤس يقرب بين الناس) فتلمست كيسى وجعلت أعد فلوسى فى الظلام ، فاذا أنا أملك ستة وتسعين فلساً

قلت : هيه ؟ ما اسمك ؟

قال : لك أن تدعونى عبد الله

قلت : يا عبد الله ، نحن إخوان فى الاسلام ، فلا تخجل منى ، خذ، هذه خمسون فلساً، انفقها على عيالك إلى أن يفرج الله وأنا آخذ منك عند ما أحتاج. لا تحمل همًّا . الرزق على الله

فمد يده فأخذها ولم يقل شيئاً ، ولكنى رأيت الدمع ... أى والله رأيت الدمع يترقرق فى مآقيه

***

وانعقدت الصداقة بيننا وتوثقت ، فكان كلما أرق نادانى ، فأخرج رأسه من الشباك ، وطفقنا نتحدث ، فأبثه أحزانى ، وأنفض إليه وفاضى ، ويبثنى ويشكو إلى . ورأيته قد يسر الله عليه ، فكان يعطينى الدينار والخمسة والعشرة ، ثم يحتاج فيأخذ

منى ، ولكنى لم أكن أملك إلا عشرات من الفلوس فأدفعها إليه ، فيأخذها باسماً

وكنت مرة أناديه ، فما راعنى إلا شرطى مخيف الطلعة ، عابس باسر ، يقبل على وشواربه ترقص من الغضب ، وصوته يغلب صوت الزورق البخارى الذى يقله ، قال :

— أتصرخ أمام قصر الملك أيها الوغد ! إذهب معى حتى أريك

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى دائرة الشرطة

قلت : إنى فى عرضك . أنا فى جوارك . عمري ثمانون وما دخلت دائرة حكومة ، أفأدخل الشرطة مثل المجرمين بعد هذه الشيبة ؟

قال : إخرس (زمال) إمش معى بلا كلام فارغ

وجذبنى ، فجعلت أبكى ولم أجرؤ على نداء عبد الله كيلا يطرد من عمله بسببي ، فأكون أنا الجانى عليه ؛ ولكنه سمعني وفتح شباكه ، فلما رأيته خفت عليه ، فجعلت أغمز بعيني وأشير إليه أن يدخل فلا يفهم ، فقلت له : أدخل

فانتبه الشرطى وقال : من هو الذى تخاطبه ؟

قلت : لا أحد

قال : والله لتقولن ، أو لأفعلن بك الأفاعيل

فخشيته والله على نفسى ، فقلت : أكلم عبد الله خادم القصر

فابتسم ابتسامة منكرة ، ثم حرق الأرم على وصرخ بى :

— لقد عرفت ، آه أيها اللص ! إنكما تسرقان من القصر . سأريك أنت وهذا الخادم الخائن . ما جزاء من يسرق مولانا الملك ورفعت رأسى . فوجدته فى الشباك فهممت به أن أدخل ، ادخل يا مغفل

فانتبه الشرطى ، ورفع رأسه . فلما رأى عبد الله بهت حتى صارت عيناه فى رأسه ، وفتح فمه من الدهشة ، ثم رفع يده بالتحية العسكرية بعنف وشدة حتى مال به الزورق ، ووقف ينتظر

— فقال له : ماذا تريدون من صديقى : دعه واذهب

فعاد إلى التحية ، وأقبل على يعتذر ويقبل يدى ويسألنى العفو عنه

— فقلت له وقد تأثرت لمشهد تذلله : اذهب يا بنى اذهب ، الله يسامحك !

فذهب المسكين وهو لا يصدق بالنجاة ، ووقفت حائراً لا أفهم من ذلك شيئاً ، حتى أخرج صديقى رأسه ، فقلت له :

— إيش هذا يا عبد الله ؟ إيش لون صرفته ؟ لقد خاف منك كأنك الملك

— قال : هذا من فضل الله

— قلت : ولكنه يريد أن يسوقك إلى السجن إنى أخشى عليك

— قال : لا . لا تخف !

وعدنا نتسامر ...

***

وكنت يوماً أسير فى شارع الرشيد ، وإذا أنا بصديقى عبد الله يسير وحده ، ففرحت بلقائه وهرعت إليه فحييته وسألته إلى أين يمشى ، فقال بأنه يريد الباب الشرقي . قلت : ولم تمشى ؟ اركب (باصاً) . إذا لم يكن معك فلوس ، نخذ منى ، معى بحمد الله

فضحك وقال لى إنى أريد الرياضة . ولقد كانت

معي سيارة أسوقها بنفسي ، فأصابها عطل عند (رأس القرية) فتركتها وسرت

— قلت : ألا تخاف أن يسرقها أحد ؟

— قال : لا . إن الشعب يحبني كما أحبه

إي والله ، لقد كان الشعب يحبه ، وكيف لا يحبه وقد أنشأ له ملكاً ، وأقام له دولة ، وجعل له في الممالك المستقلة ذكراً ، رحمه الله . رحمه الله ...

— قلنا : ذلك هو الملك فيصل

— قال : وعمن إذن أحدثكم ! لقد كان الملك نفسه ، ولكني —لغباوتي وغلظ قلبي— لم أعرفه . أو هل سمعتم بملك يكون مع مثلي فلا يشعره أنه فوقه ، وإنما يستدين منه فلساً ويعطيه ديناراً ، ثم يكون مع الملوك فيشعرون من أنفسهم أنه فوقهم ؟ رحمه الله ، رحمه الله !

سرت معه في الشارع ، فما راعنا إلا الناس ، ينظرون إليه بعيون تفيض بالحب والاكبار ، ثم يحيونه ويفتحون له الطريق ويمشون خلفه وينظرون إلى فيعجبون مني ، إذ أتكئ على ساعد الملك . إنه يسندني ويعينني لأني شيخ كبير لا أطيق المشي ... فلما بلغنا الباب الشرقي رأيت الجند قد وقفوا لتحيته وصاح صائحهم بسلام الملك ، هنالك هوت رجلاي فلم تطيقا حملي ...

— قلنا : ثم ماذا ؟

— قال : لقد بقي يحدثني من شباكه ، ولكني لم أنتفع من نفسي بحديث ، إني عرفت أنه الملك !

واغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، فترك الزورق يمشي مع الماء ، ساكناً هادئاً ، وكان الليل قد غمر النهر والشاطئين بسواده الفاحم ، وطفق يقول همساً ، كأنما يناجي نفسه :

— رحمه الله ، رحمه الله ، ذلك هو الملك العظيم !

علي الطنطاوي

أجنحـــة الحب

عن الانكليزية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

« يارب ما هذا الـكابوس ! »

ارتمى على المقعد بعد تناوله الغداء واستغرق فى النوم . وكان العرق يتصبب من جبينه ويداه ترتعشان . ولما استيقظ بعد ذلك كانت حركته عنيفة يدل عنفها على عمق نومه

ولقد كان يحلم حلماً مزعجاً بدا فيه وجه زوجته وارتفع صوتها . وألقت عليه عدة أسئلة لم يحر جواباً على واحد منها . ولما فتح عينيه كان يصيح صيحة رعب تدعو إلى الاشفاق

وكان سبب هذا الانزعاج كله شدة الحرارة فى تلك الغرفة لأن الموقد لم يطفأ ، وكانت النوافذ كلها مغلقة

على أن (هيلارى بنسون) عاد فأغمض عينيه مرة أخرى فعادت أفكاره إلى ذلك الـكابوس البغيض الذى يعتاد أكثر من ينامون بالنهار . ورأى فى الحلم زوجته شيليا تنبئه بأعجب الأخبار وتخبره فى صراحة بأنها تبغضه وبأن حياتها معه مستحيلة وبأنها كانت ولا تزال تحب (جلبرت راى) وبأن كبرياءها وسوء فهمها لمعنى الشرف قد جعلاها تذعن للرجل الذى يدعونه زوجها . وإنها لذلك حملت أعباء التعاسة خمسة أعوام

ما أفظع ذلك الحلم !

لـكنه بحمد الله ليس إلا حلماً فقط ! ... على أنه رأى شيئاً آخر ... كان على المنضدة أمامه خطاب رآه فى النوم، وها هو يراه الآن فى يقظته ، فدهش من توافق الحلم واليقظة . وكانت زوجته قد غضبت من شىء فكتبت إليـه بأنها ذاهبة ولن تعود . وقرأ الآن هـذا الخطاب فوجده بهذا النص :

« لا أستطيع أن أستمر على الحياة معك فقد سئمت من مغالبة طباعى، وعند ما يصل هذا الخطاب إليك سأكون قد فررت فلا تحاول البحث عنى »

ضحك هيلارى بنسون ضحكة عالية إذ ظن أنه لا يزال يحلم رغم يقظته، ثم ضحك مرة أخرى وتنبه فوجد الخطاب أمامه وأدرك أن معظم الأمر حقيقة، وقد يكون قد قرأ الخطاب قبل أن ينام ثم فقـد الوعى قبل إتمـامه . وهو رجل ضعيف البنية فللصدمات العصبية تأثير عنيف عليه

ذهبت شيليا إذن ؟

ولـكن إلى أين ؟ هل ذهبت إلى جلبرت راى؟ إن كانت الحقيقة كذلك فسيمرفها فى ظرف ساعة . واستدعى الخادم وهو يعتزم استجوابها وتعرف كل شىء من ترقب وجهها وفحص ما يبدو عليه من الملامح

ولـكن لما جاءت الخادم لم يجد فى نفسه القدرة الـكافية على ملاقاة نظرها، وقال وهو ينظر إلى جهة أخرى : « أظن مسز بنسون قد خرجت ؟ »

فقالت : « نعم . بعـد تناولها طعام الإفطار مباشرة »

قال : « وحدها ؟ » ، ثم لعن نفسه لأن هذا السؤال سخيف ، ولا بد أن تـكون قد خرجت

وحدها . وقال مصححاً سؤاله : « ألم تقل إلى أين ذهبت أو متى تعود ؟ »

وظن لهجته غريبة فى نظر الفتاة ، وقبل أن تجيبه عاد فقال ليخفف ما ظنه غريباً : « إن سبب سؤالى هو ظنى أنها ستسافر ؛ ولست أتذكر هل هذا هو اليوم الذى أخبرتنى بأنها ستسافر فيه أم لا ؟ »

وكانت الغريزة تدفعه إلى إخفاء الحقيقة عن عينين متسائلتين . وكذلك أفجع الحوادث توحى بمثل هذه الرغبة فى الكتمان . فلو أن أمرها لم يصل إلى علم أحد غير أصحابها لما فكروا فى نشرها

وقالت الخادم : « إن سيدتها لم تأخذ معها شيئاً عنـد خروجها إلا حقيبة اليد التى اعتادت حملها . ولم تقل كلمة يفهم منها أنها ستتغيب »

فشكرها وقال : « إن زوجته لا بد أن تعود فى وقت العشاء »

ثم مشى وهو ذاهل وقد ازداد ألمه . ولـكن الفتـاة لم تشعر بشىء غير عادى ، ثم عادت إلى المطبخ لتعد العشاء لسيدتها وسيدها

ولـما بقى الزوج وحده فى الغرفة ضحك وعزم على الذهاب إلى بيت جلبرت ، فان وجد زوجته هناك أمرها بأن تعود فى الحال إلى مسكنها الشرعى ، وإن لم يجدها الآن فانه سيجدها فى اليوم التالى أو فى غده أو فى اليوم الذى يليه . وعزم على عدم العود إلى المنزل حتى تعود ، وأقسم لا يجلس إلى مائدة الطعام إلا وهى بجانبه

— ٢ —

ذرعت عربته الأميال الواقعة بين منزله وبين منزل (جلبرت راى) وكان الزوج قليل الأمل فى بقائها هناك لأن شخصين مجرمين من هذا النوع يبعد وجودهما مطمئنين فى منزل أحدهما

لـكنه عزم على البحث عنها فى كل مظنة من مظنات وجودها . ثم يتابع البحث وهو يشعرها بأنه لا يظل مطمئناً فى داره . وكيف الاطمئنان وهو زوج مخدوع !

وقال للخادم : « هل المستر راى هنا ؟ إن كان هنا فقدم إليه هذه البطاقة » وأعطاه بطاقته فقاده الخادم إلى غرفة الجلوس ، وفيها استقبله رجل مسن وقال : « أأنت المستر بنسون ؟ أتذكر أنى رأيتك منذ عدة أعوام . أتريد أن تكلمنى أم تكلم ابنى ؟ »

فقال هيلارى بنسون : « إننى أريد أن أكلم ابنك جلبرت . ومهمتى معه سريعة لا تحتمل التأخير وأرجو أن تخبرنى أهو الآن فى المنزل أم لا ؟ »

نظر الرجل الهرم إلى بنسون نظرة استغراب لما فى لهجته من الانفعال ، ودنا من مكتبه فأخرج منه بطاقة وقال : « إن ابنى لا يقيم معى الآن وأنا آسف لذلك لأن مسكنى مظلم فى غيابه ، ولأنه يؤلم من كان فى مثل سنى أن يقيم وحده . وإذا كنت تريد مقابلة جلبرت فستجده فى هذا العنوان » :

وقدم إليه بطاقة فتناولها هذا وهو يرتعش ، ولم تخف حالته على الرجل المسن . ولـكنه كان وديعاً رزيناً فلم يبد ملاحظة . وحاول بنسون أن يتكلم ولـكنه لم يستطع فخرج وهو يتلعثم فركب عربته

ولو أن بنسون فكر قليلا بعد ما سمعه من هذا الرجل لأدرك أن فتى مثل جلبرت لا يترك مسكن أبيه ليقيم فى ضاحية إلا إذا كان معه امرأة تساكنه ، ولم يخطر بباله قط أن جلبرت متزوج : لأن رغبته فى الانتقام لا تتفق وهذه الفكرة . ولـكنه لما ذهب إلى المنزل ووجد صاحبه متزوجاً واستقبلته تلك

الزوجة وأخبرته بأن زوجها جلبرت راى لا يعود إلا فى الساعة السابعة، وسألته هل الأمر الذى جاء من أجله يدعو إلى مخاطبة زوجها بالتليفون ؟

— قال بنسون إنه لا مدعاة إلى ذلك. وخرج وهو صاخب لأن مهمة ثانية ألقيت على عاتقه هى البحث عن رجل آخر تحبه شيليا غير جلبرت راى

لكن زوجة راى لم تتركه يغادر المنزل وهو متذمر يخاطب نفسه بصوت مرتفع وهو لا يدرك ذلك . فدعته وقالت : « أنت لا تعرفنى ولكننى أعرفك ، فأن زوجتك شيليا صديقتى وقد كانت طالبة معى فى المدرسة

ابتسم بنسون ابتسامة ارتباك ولم يجب فقالت : « إذا كنت أستطيع تأدية الخدمة التى جئت من أجلها لمقابلة زوجى فانى مستعدة لها » فلم يجد بنسون بداً من الكلام وقال : « أنا أعرف أنك صديقة شيليا ومن أجل ذلك جئت ، فانها خرجت اليوم من المنزل فظننت أنها جاءت إليك »

فنظرت كلارا إليه نظرة المرتاب ثم قادته إلى غرفة الجلوس وقالت : « إجلس فربما استطعت مساعدتك على وجودها . فهاهو التلفون قريب منى »

فاطمأن بنسون إلى هذه التهدئة وجلس وهو يلوم نفسه على خطئه الفظيع فى اتهام جلبرت بزوجته . وقالت كلارا : « لماذا جئت تسأل عن زوجى فى أثناء بحثك عن زوجتك ؟ »

اضطرب بنسون وقال : « لأني ... لأنى ... » فقالت مقاطعة له : « تريد أن تقول إنك تعرف صداقتى بها وأنها ... ربما جاءت لكى تقيم فى ضيافتى يوماً أو يومين ؟ »

قال بنسون وهو ينظر إلى العينين الجميلتين المحدقتين فى وجهه : « نعم هذه هى فكرتى » فقالت كلارا : « إننى لا أرى فائدة من الكذب؟ والحقيقة أنك لم تكن تعلم أن جلبرت متزوج . وقد أخبرتنى شيليا بأنك منعتها عن ذكر اسمه أمامك . وقد جئت اليوم وأنت تظن أن الخيانة هي السبب الوحيد الذى يدعو الزوجة إلى ترك زوجها » فقال بنسون وقد بدا عليه الخجل : « لقد كنت مخطئاً فقد بدا لى هذا الخاطر فى حدة الغضب . وأرجو عدم المؤاخذة بامسز راى؛ وسأخبرك بالقصة ثم أصغى إلى نصيحتك . إن شيليا تركت لى خطاباً بأنها غادرت المنزل ولن تعود إليه . ولست أستطيع أن أكتم عنك حقيقة هى أن جلبرت كان يحبها منذ سنوات »

قالت كلارا ببساطة تامة : « أنا أعرف هذه الحقيقة وأخبرنى بها زوجى » فقال بنسون : « إن ارتيابى اليوم كان خطأ ، ولكن لماذا تركت منزلى ؟ هل شكت إليك من أنى عجزت عن إسعادها ؟ »

قالت كلارا : « إنك ضغطت على جناحيها فلم تمكنها من الطيران » فقال : « إننى لم أفهم ما تقولين »

قالت : « هكذا أنتم أيها الرجال. فهل استطاع رجل قبلك أن يفهم المرأة ؟ ان شيليا كالطائرة خفيفة القلب تريد أن ترفرف بجناحيها لحظة حول منزلها ثم تعود إليه كما تفعل الحمائم حول عشها . ولكنك تضطرها إلى الاقامة فى ظلمة الحياة المنزلية دون أن تفرج عن نفسها لحظة . إنها تحب المرح والموسيقى والألوان المبهجة ، فكم مرة أخذتها إلى المسرح ؟ »

قال : « عندما يعود الرجل متعباً إلى منزله بعد عمل يستغرق طول النهار فمن الطبيعى أن يظل فى

المنزل » فقالت كلارا : « وأنت لا تحب العزف على البيان ، فاذا عزفت شيليا أمامك طلبت إليها أن تسكت؛ وإذا تكلمت رجوتها أن تترك الثرثرة . هذا هو أنت ، وهذه هي شيليا التي أعرفها حق المعرفة »

فكر بنسون فيما سمع ثم قال : « بعض النساء يقمن بواجباتهن المنزلية خير قيام ولا يطلبن اللهو وأظنك واحدة منهن » فقالت : «نعم ولكن عندي من الترضيات ما ليس عند شيليا فانلي ابناوليس لها»

قال بنسون : « قد أكون مندفعاً أو أنانيا ، ولكن هذا ليس يصلح عذراً لترك المرأة منزلها . وقد كنت ألاحظ من شيليا هدوءاً في العهد الأخير فأظنه علامة على الرضى ... على أن البحث عن الغلطات ليس يفيدني الآن، وأنا أريد زوجتي يامس راى ولا أعرف كيف يقابل الزوج خدمه وأصحابه إذا تركته زوجته » فقالت : « أنت لا تفكر إلا في نفسك فهلا فكرت في شيليا ؟ »

قال : « لقد أقسمت لا أجلس إلى مائدة الطعام إلا وهي بجانبي ولا أعود إلى المنزل حتى تعود » فقالت كلارا : « لقدوعدتني باستماع نصيحتي فاذهب إلى منزلك وانتظر عودة شيليا فأنا أعرفها . إنها تحاول تجربة أجنحتها، ولكن أجنحتها لن تستطيع حملها مدة طويلة ، وليس ابتعادها إلا تمويجاً في الفضاء إلى أمد قصير

قال : « أهذا هو رأيك ؟ » فقالت : « نعم ، فاذهب إلى منزلك ولا تعد إلى الضغط على جناحيها»

قال : « ولماذا لم تخبريني بالمكان الذي ذهبت إليه ؟ » فقالت : « لأنك كنت تتبعها غاضباً صاخباً وتزيد من الضغط عليها فلا يهمك أنها غابت ويجب أن تكون واثقاً منها

— ٣ —

عاد بنسون إلى منزله في هدوء فجلس في الغرفة التي يسميها غرفة مكتبه، وكان الليل قد أقبل وابترد الجو فانتعش أمام نار الموقد . وجاءت الخادم تخبره بأن العشاء قد أعد . ومع أنها لم تسأله عن سبب تغيب زوجته فقد كان عليه أن يخبرها منتحلاً أي عذر ، ولكنه أصر على عدم الكلام فقال : « إذهبي فأعدي الطعام ولا تعودي إلى مرة أخرى حتى أدعوك . هل فهمت ؟ لا تعودي إلى ! »

وذهبت الخادم وأخذ بنسون يمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة ، فلما زاد اضطراب أعصابه خرج من الغرفة وهو لا يعرف إلى أين يذهب، ولكن الغريزة قادته إلى غرفة المائدة فجلس ناسياً قسمه بألا يجلس إليها حتى تعود زوجته . وتناول أول قطعة فتذكر قسمه واستمان بخياله على تحقيق مطلب الجوع فتخيل زوجته جالسة على الكرسي الذي بجانبه ، ووضع أمامها طبقاً وصار يقسم الطعام بين طبقه وبين ذلك الطبق . فلما هدأت ثورة الجوع قليلا أدرك أن عمله هذا مضحك ، وأن الخادم إن رأته فسوف تسخر منه . لكنه اطمأن إلى أنه أمرها بعدم المجيء

وفي هذه اللحظة فتح الباب الذي وراءه وسمع هفهفة ثوب ووقع قدمين فلم يجرؤ على الالتفات ، وقال وهو يحسب أنه يخاطب خادمه : « لماذا جئت ؟ ألم أقل لك لا تعودى ! »

لكن التي فتحت الباب استمرت تمشي والتفت مكرها فرآها زوجته فصاح : « شيليا ! »

على أنه لو كان لم يقابل كلارا في ذلك اليوم لاستقبل زوجته بمثل هذه اللهجة : « أيتها الحمقاء

ما هذا المسلك المزرى ؟ لقد خرجت على ألا تعودى فندمت فى أقل من ساعة وأضحكت الناس على نفسك. إياك أن ترجعى إلى هذه الحماقة مرة أخرى »

لكن كلمات كلارا أثرت فى نفسه تأثيراً حسناً فانعقد لسانه ثم ابتسم وبعد لحظة قال : « تعال إلى عشك يا طائرى الجميل . لقد كنت لا أعرف كيف أتناول العشاء فى غيبتك فتصورتك بجانبى ، وقد كنت مخطئاً عند ما حادثتنا للمرة الأخيرة ، وكدت أجن عند ما تسلمت خطابك وأقسمت لا أعود إلى المنزل حتى تعودى ولا أجلس إلى المائدة إلا معك »

قالت شيليا : « وما الذى غير رأيك ؟ » فقال : « إن كلارا راى قد أرتنى مبلغ أنانيتى »

قالت : « وما الذى جعلك تذهب إلى منزل راي ؟ » فحرص على ألا يبوح لها بريبته ، ولكن أى تعليل آخر كان مستحيلا لأن زوجته تعلم أنه يعتقد بأن جلبرت غير متزوج فقال : « لأنى ... لأني ... » وتلعثم فقالت : « الواقع أنى كنت هناك وقد ذهبت لزيارة زوجته لأنها زميلتى فى المدرسة، ولم أخبرك بأن جلبرت متزوج لأنك كنت تمنعنى من ذكر اسمه »

قال : « لقد كلمتنى كلارا بما نبه ضميرى »

وقالت كلارا : « هما جناحان ضعيفان لا يقويان على حملى يابنسون ؛ وقد كنت أحاول تربية جناحين آخرين ، فلما جربت الفرار بهما من الحياة الزوجية لم أستطع ؛ ولذلك لن أعيد التجربة مرة أخرى »

فقال بنسون : « بل سترين لك ولى جناحين حتى إذا مللنا العش طرنا سويًّا فى جولة قصيرة حول عشنا ثم عدنا إليه »

عبد اللطيف النشار

سر تحفة القاعة المظلمة

بقلم تونى كراوس

للأستاذ محمد لطفى جمعة

ما هو ذلك السر الذى يجعل الماضى فاتناً ، على الرغم من سواد بعض حواشيه ومرارة مذاق الكثير من أيامه ؟

ما هو ذلك السر الذى يمثل دور النقاش الماهر الذى يتناول الأقلام والألوان ليصبغ الحوادث بصبغة زاهية وردية وبنفسجية وخضراء رائعة ؟

ما هو ذلك السر الذى ينفخ من روحه فى أشباح الليالى والأيام الخالية فتنتفض مبعوثة من قبر الذكريات كالموتى التى تعاودها الحياة يوم النشور ، وقد خلعت عليها القوة الخالقة أثواباً قشيبية وحللا موشاة مزركشة ؟

بل ما هى القوة الخفية الماكرة الساحرة التى تنشر أمام عينيك لوحات مسلسلة متصله ، متحدة من تصاوير الحياة التى جرت وكرت وفرت . وقد أتقنت التقاطها واكتنازها وعرضها ، حتى إذا تأملتها وأنعمت النظر فيها أذهلتك دقتها وبراعة الحرص عليها ،

(تونى كراوس هو كاتب هذه القصة القصيرة ، وقد أثارت شكوكا كثيرة لأن بطلها يحمل لقب المؤلف نفسه . فتساءل النقاد إن كان قريبه أو يمت له برابطة من روابط الدم والنسب . وعلى كل حال فان القصة لاتنطوى على مايشين بطلها .. وليس الحذق فى اختيار الموضوع بقدر المهارة فى سرد الوقائع وبسطها ونشرها بعد طيها ، واتخاذ العقدة من نوادر الأقضية والأقدار ؛ وحلها على طريقة سهلة لينة تغرى القارىء بتتبعها باقصى الشوق. أما الراوية المزعوم — ولعله الحقيق — دوجلاس كراوس نجل هيرمان كراوس فلم يرث عن أبيه سوى الملايين وتاريخ الحصول على الكنز. أما المخاطرة والمغامرة وتجرع كؤوس الألم فلم يرث الولد منها شيئاً سوى الميل إلى الترف والاضطجاع على المقاعد المزازة فى الفنادق الكبرى فى جنب المحظيات وقد سلك المؤلف مسلكا طريفاً فى سرد الحوادث الفاجعة بتسلسل وسلاسة يشهدان له بعلو الكعب وطول الباع). عن وايدورلد مجازين (مجلة أرض الله الواسعة)

فلم يفتها شىء مما يكون قد فاتك ولم تعه ذاكرتك فتراه ماثلا أمامك كأنك تراه وتسمعه لأول مرة

هل هذه «الفُرجة» العجيبة نعمة أو نقمة؟

أهى هبة وموهبة تمحد الطبيعة عليها ، أم بلاء ووبال يسعد المرء بالخلاص منه ؟ الحق أننى لا أزال حائراً لا أدرى ما أقول لك ، وأنتِ التى حركت هذه الفكرة العميقة فى نفسى وأثرت كامن دائى

أهذه لوزان وبحيرة ليمان وأومى التى غادرتها منذ عشرين عاماً ، بعد أن أرغمتنى طوارئ الحياة القاسية على قطع حبال الشباب، وتبديد أواصر السعادة، فهجرت غرفتى ودرسى فى ڤيلا بيانكا بأقنود بزاليب . لقد مات أبى فى جنوب أفريقيا ، هيرمان كراوس صاحب منجم الماس المنسوب إليه فى السبعين من عمره. ولم يكن مريضاً بداء سوى الشيخوخة المباركة السعيدة ولكن فقده كان أليماً علىّ وعلى والدتى لأننى أول أولاده وآخرهم.. نعم . نعم إنه لم يتزوج إلا بعد الخمسين من عمره بأشهر معدودة . وهو الذى جاء بى فى العاشرة من عمرى إلى ڤيلا بيانكا لأتلقى اللغات الحديثة على موسيو بروشيه وزوجته . كان يحب أن ينشئنى بعيداً عن بيئة المناجم

(١) Candelabre تحفة حمالة الشموع من المعدن والبلور condelabrum ويمكن تعريبها بالثريا مجازاً وفى العربى النجف الاشرف

الصاخبة المهلكة . ليس المال الذى تركه لوالدتى ولأمى هو الذى يهمنا . كان يهمنا أن يعيش ولو عشر سنين أخرى ، حتى أبلغ ختام العقد الثالث ، كانت هذه هي أمنيته . ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه . كان يزورنى كل عامين مرة . . ومنذ صار الطيران مأمون العواقب كان يجيء إلى سويسرا مرة فى العام مصحوباً بوالدتى . والمرة الأخيرة باقية صورتها فى ذهنى لا تزول كأنها شريط صورة متحركة ... كان يشعر المسكين أنها زيارة الوداع . وكان يقولها وقد أفضى إلىّ بسر حياته . إنه سرٌ رهيب ياأنطونيا . انت فرنسية ... فلاحة من شالون سيرسون ... ماذا تقولين ؟ قرية شوفاى ؟ . ربما ! أنت طبعاً أدرى باسم قريتك الذى لا يهمنى بقدر ما يهمنى جمال عينيك وسواد شعرك وتنضيد ثناياك . . أقول إنك فلاحة فرنسية فلا يمكن أن تدركي روحي وروح أبى . أى نفسيتنا — حالتنا النفسية — عقليتنا غريبة عنك وعن قومك . نحن هولانديون أصلاً، ويهود عقيدة وانجليز وطناً ومغامرون هواية وباحثون عن الماس فى كمبرلى احترافاً . وقبل كل شيء طلاب مال ، وقد حصلنا عليه مصادفة وتوفيقاً بعد أن فشلنا فى اجتهادنا . . ليس النجاح حليف الاجتهاد أبداً . . لا تصدقى هذا الوهم . هذه خرافة اخترعها اتباع الفكر الحر واللاحدة .

المرء يا نينا لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ... صدقينى ... إيه ؟ نعم ؟ تقولين إننى قدرى لأنى يهودى ؟ ويدهشك أننى أبدو أكثر ذكاء مما ينبغي لمثلى فى مثل سنى ! كذبت وأبيك ، أنا قدرى ، أومن بالأقضية والأقدار ، لا لأنى يهودى ، بل لأن حياة أبي صفحة من كتاب القدر ، والواقع يؤيدنى وأبدو أكثر ذكاء مما ينبغى لمثلى . هذه محمدة أو مذمة ؟ نيتك تفسر كلمتك . إن كان ما تزعمين صحيحاً ، فلأننى عشت سنوات التكوين بعيداً عن حنان والديّ ، ولا سيما أمى ، فلم أتعود التدليل والملاينة فاعتمدت على نفسى فى معظم الأحوال ، حنان بروشيه الرجل وبروشيه المرأة كحنان الإوز صوت يجلب الصداع ، بلا ندى ولا رضاع . فربيت نفسى وأدبتها . وأنت أيضاً لك الفضل فى تعليمى . أنا أحبك منذ ثلاث سنوات وأخفى حبك عن العالمين . لو علم أبى بعلاقتنا لقطع أسباب رزق وتركنى ضائعاً فى شوارع لوزان المتحدرة ، كنت أبيع القطن شتاء والبنفسج صيفاً على متنزه مونبونون ، أنا دوجلاس ابن المكرم هيرمان كراوس صاحب منجم الماس بكمبرلى . وحتى هذا الشيخ الطيب بروشيه ، لو لحنى فى تلك الفترة لوَشى بي عند والدى لينال الحظوة والمكانة . والحق يقال إن والدي أغدق عليه وأوصاه بي . وحمل إليه هدايا كثيرة من كابتون وبلومفونتين ولادى شميت ، خصوصاً ذكريات حرب البوير الأليمة التى دوخنا فيها جيوش جلالة الملكة والأمبراطورة فيكتوريا ريجينا . نحن سلالة البوير الأماجد ، ورئيسنا كروجر قوبل فى مرسيليا بمظاهر التعظيم والفرح

ولكن هذا تاريخ قديم . يهمنى أن أقول لك إن قومك قوّالون لا فعّالون ، فيف لا ليبرتيه ! وبعد ذلك بقليل فيف لا نجلتير . لا يهمكم إلا الفرنك ومستعمرات شمال أفريقيا وبعدكم الطوفان ولكن الله سلّم ! لم يرنا أحد ، لأننى كنت أحتاط فى رحلاتنا الصغيرة إلى مورجان وشاتيل جيون والآن يا نينا يمكننى أن أعيش معك فى صراحة

وعلانية ، بعد أن مات الوالد العزيز . لقد سلبني موته سعادة الشباب وعدم الشعور بأعباء الحياة ، وجلب لي الحرية والمال . أمي ؟ ... أنا لا أعبأ بها. إنها في الخامسة والثلاثين من عمرها وغنية جداً ، وتملك قصوراً في هولاندا ورثتها عن أبيها إيليا فان كيكوم أحد الشركاء في مصنع قطع الماس في امستردام ، وضياعاً ومناجم في جنوب أفريقا ورثتها عن أبي فما حاجتها إلي . يمكنها أن تتزوج بمن تشاء في أي وقت تشاء، وليس في الوصية الكريمة شرط يسوقها ولا في شريعتنا مانع يحرمها نعمة القِران .. أنا لا أذهب إلى جنوب أفريقا إلا مرة واحدة كل عام لأقبض نصيبي وأشرف على مجلس إدارة المنجم الصغير الذي وقع في سهمي . وهكذا هبطت من سماء التعليم الجامعي إلى حضيض الاتجار بالجواهر — كوهي نور — كوكب أفريقا — درة روديسيا — ولكن أعظمها جميعاً تحفة القارة المظلمة . طبعاً أنت لا تعلمين شيئاً عن تاريخ تلك الجوهرة الفذة : تحفة القارة المظلمة . إن تاريخها هو تاريخ ثروتنا وفقرنا — أعني أننا بدونها لم نكن شيئاً مذكوراً . إنني تلقيت السر عن صاحب الشأن نفسه في القصة ، عن والدي الناظر الذكر هيرمان كراوس . (فيرست هاند أنفورماشن) كيف أقولها لك بالفرنسية ؟ خبر صحيح عن صاحبه مباشرة — حديث مباشر لا وسيط فيه بيني وبينه، باح لي به قبل أن يموت ببضعة أشهر . لقد قلت له بعد أن حكاه واضطجع منهوك القوى : بحق جيهوا ، إنك واسع الخيال يا والدي خصب المواهب . خسارة كبرى أنك لم تنل حظك من تأليف الرئيات(٢) للصور المتحركة . وكنت جاداً لا هازلاً . فابتسم المرحوم ابتسامة صفراء ، ثم حرق الأرم وأبرز فكه الأسفل وبدت في نظرته الشزراء شعلة لم أر مثيلها وقال لي : حسناً تفعل إذ تشك في صدق أبيك . وقفز في أقل من لمح البصر وعاد بالوثائق التي لا تقبل الشك في إثبات صدق روايته .

وإليك الآن خلاصة منها كما حدثني أبي : « قال نشأت في جنوب أفريقيا من والدين هولانديين ، وكنا نعيش في ضيعة صغيرة على ضفاف نهر أورانج، وكنت منذ نعومة أظفاري أسمع الحديث عن الأحجار الكريمة ، والجواهر الثمينة ولاسيما الماس . فاعتقدت بكل قواي أن ثرائي وعزي ومستقبل حياتي في الماس ، دون سواه . في ذلك الحجر اللامع البراق الذي يشع منه النور بقوة سحرية . ولكن أبي كان يعترضني ويوصيني بالأرض والزراعة ويقول : إن الطبيعة خير ضامن لحياة الانسان، وإنها إن ضنت عليك اليوم بخيرها ، لا بد أن تجود بأضعافه غداً. الأرض كالغادة تغضب يوماً وترضى أياماً . ولكن قوله لم يقنعني فتيلاً ، فهجرت المزرعة والاصطبل والمرعى ، ورحلت إلى رأس الرجاء وناتال ودربان ومدغشقر، واشتغلت في كل صنعة وفن حتى ادخرت مالاً قليلا فشددت رحلي إلى مناجم الماس وشريت « أسهماً في امتياز » ومعنى ذلك أنني نلت حقاً بالبحث والتنقيب ، فاستأجرت عمالا واستخرت الله في بقعة من الأرض الموعودة . وأخذنا نعمل ليل نهار في بطن الأرض نتلمس البريق من خبايا الطبقات المظلمة حتى إذا لمحنا ما يشبه اللمعة طارت نفوسنا شعاعاً ... ولكن أتعابنا ذهبت هباء ، وهكذا المال ... وهناك حول جيمستون وكيمبرلي وكونكوست لوك رجال يتجرون في عقولنا ويعيشون

(١) في الأصل سناريو

على غفلتنا ، فيبيعون لكل راغب خرائط رثة ورموزاً عتيقة ووثائق مزيفة يزعمون أنها نتيجة فحص المنقبين وأنهم يملكون مفاتيحها بشرط أن تشتريها فيدلونك على نفس البقعة التي لا تحوجك إلى كثير عناء . ويزينون حديثهم بإبراز قصاصات من الصحف تؤيد مزاعمهم وقصصهم ويدعمون خرافتهم بأسماء وألقاب وتواريخ . فلا يكاد أحدنا من المستجدين على قائمة الأطماع التي لاحد لها ، يسمع ويقرأ ويري وجه المهندس المجعد وحاجبيه الأبيضين وجبينه المليء بالخطوط والثنايا وعينيه الخارقتين كعيني العُقاب حتى تزول آخر شكوكه ، ويؤمن بصدقه ويجود بالمال فى سبيل الحصول على « دليل المنجم » (وهم هكذا يسمون تلك الخرائط والرسوم) فيتوهم أنه حصل على عقد ملكية أو « حجة بيع » لأرض ثابتة الحدود والمعالم لا ينقصه إلا وضع اليد لاستغلالها ولم يخطر ببال أحد منا ونحن نبذل المال فى سبيل هذه الخرائط الوهمية أنها لو كانت ذات قيمة أو تدل على مواطن المناجم لكان صاحبها الذى يبيعها أولى الناس بها . وحدث فى يوم من الأيام أن عرض عليّ أحد هؤلاء المتاجرين بالخيال والآمال فأخرجت الثمن مائة جنيه انجليزى وتناولت الورقة بيدى ثم وقفت فجأة وامتنعت عن الدفع وقلت له :

— إذا كان ما تقول حقاً فما يدعوك إلى التفريط فى دليل المنجم بالبيع ؟

فابتسم الرجل ابتسامة عريضة ساخرة وكشر عن أنياب طويلة صفراء وقال :

— سؤال وجيه والجوابُ عليه أوْجَه . اعلم ياسيدى الباحث عن الماس أن شراء العدد واستئجار الرجال وتأسيس مستعمرة للتنقيب وتسليح الحرس ونفقات العلاج وأنصبة التأمين على حياة العمال الذين قد يقضون نحبهم فى جوف المنجم ، كل تلك النفقات تفوق مقدورى على الصرف . ولو وجدت رجلاً مثلك يقدم المال ليكون الأمر بيننا مشاركة بالنصف مافرطت فى هذا الدليل بالبيع . قلت : ولِمَ لا تؤسس شركة مساهمة

قال : يطلب مجلس الأمناء قبل الاكتتاب برأس المال الوقوف على السر ، فاذا وقفوا عليه ضربوا بالشرف عرض الحائط واستغلوا المنجم لأنفسهم وهذا حدث بنصه وفصه لجون صماطسفلند وهاكني كوتش سبرنج وكاين كلندر دويست الهولندى وغيرهم .

فما كاد الرجل يفرغ من كلماته حتى دفعت المال وأخذت الخريطة

واعتدل المتكلم دوجلاس كراوس فى مقعده على ڤيراندا فندق بوسيجور المطلة على بحيرة ليمان فى فى مدينة لوزان تلك المدينة التى تعلم فيها على يد موسيو بروشيه وحرمه . وأفرغ نظراته الحارة الخارقة فى عينى عشيرته أنطونيا شينو (وكان يدعوها نينا تدليلاً) تلك الريفية من شوفاى سيرسون التى عاصمتها شالون . ومد ذراعه القوية المتينة حول خصرها ودعا بالخادم وقال له :

زدنا من ذلك الشراب الأخضر

فقالت نينا : پيرنو . ثم نظرت إلى عاشقها المملاق الحليق الشارب والعارضين وقالت له : إنها قصة عجيبة عميقة ، يزيدها جمالاً أنك راويها ، وأنها حقيقة لاشك فيها

فقال : كلما أتذكر أنه لولا ما قاساه أبى هيرمان كراوس من الآلام ووقع فيه من المخاطر ، لم أكن

لأتمتع بشيء مما أنا فيه من ضروب النعم ، أشعر بلذعة الندم على أنني لم أكن قادراً على معونته .
وجاء الخادم بالقنينة الخضراء والكأسين فملأهما وأبرقت الخمرة الزمردية في ضوء الأصيل وانسكبت أشعتها على معدن الآنية البيضاء اللامعة . وانحنى دوجلاس على وجه نينا ليقبلها فرفعت رأسها وأدنت فمها من فمه في قبلة طويلة حالمة

— ومن العبث أن أقول لك ياولدى — هذا أبي الذى يتكلم بإنينا لا تفقدى خيط القصة ـ حذار ! ـ من العبث أن أقول لك ياولدى إن بائع الخريطة هو الذى فاز بالمنجم ، منجم الذهب أى المائة جنيه التى دفعتها . وهاهى ذى الخريطة عندى لم يقو أحد على حل رموزها . ولو كان الملك سليمان نفسه نبي عشيرتنا نحن بنى إسرائيل حياً يرزق ما قدر على فك أسرارها . فلما فقدت ما كان معى عدت إلى العمل والكفاح حتى جمعت ألف جنيه — ومن يستطيع دخول باب الجنة أو جهنم بأقل من هذا القدر من المال ؟

وفى هذه المرة ابتسمت لى الدنيا فانى تعرفت إلى نقابة من الباحثين — يسمونها نقابة أى نواة لشركة مساهمة — كنا أربعة ومع كل منا ألف جنيه ، فبحثنا عن خامس يملك ألفاً آخر ، حتى وجدناه ، فانضم إلينا وهجمنا على منجم مهجور واصطنعنا عقد بيع صورى من أصحابه الأقدمين ولم نكن نعرفهم ولم نسمع بأسمائهم ، ولكن فى ديامونديل وكلاء أعمال ووسطاء يقومون بهذا النوع من الخداع والتزييف . ثم سجلوا العقد وختموه بأختام أورانج ريفر كولانى وترنسفال ريبيليك — ولا يزال ختم هذا المسكين كروجر عندى على هذه الورقة البالية — أنت تعرفه فى التاريخ ، إن لم يكن الانجليز محوا اسمه من دفاتر التلاميذ فى المدارس ، هو الرجل البويرى العجوز الذى وقف فى وجه امبراطورية بريطانيا العظمى لحرية وطنه . ثم أخذنا فى العمل على قدر ما يسمح به رأس المال الضئيل . خمسة آلاف جنيه رأس مال ضئيل جداً كالذبابة على أذن الفيل ، بالنسبة للأموال التى تجمع وتفرق بل تذوب . إن المال الذى يضيع كل عام فى البحث عن الماس يكفى ثمناً لنصف الماس الموجود فى العالم ... تصور ياولدى دوجلاس . وأخيراً .. بعد جهاد دام ثلاثة أعوام ذقنا فيها مرارة العيش ورضينا بشظف الحياة — عثرت أنا بالحجر الكريم فى شكل فصوص صغيرة لا تزيد على قلامة الأظافر . فاحتفلنا ومرحنا وطعمنا وشربنا وأغدقنا على العمال والأحراس وضاعفنا قوة العمل مع أن الذى وجدناه لا تبلغ قيمته خمسين جنيهاً . ولكن من يدري لعل فى المنجم ما قيمته خمسة ملايين .

ولكن فجأة تغير الجو فى المنجم ، أى بيننا نحن الشركاء ، فحدثت شبه عاصفة ، فأدركت السر من أول الأمر ، ثلاثة من الأقوياء وهم شرار النقابة تواطأوا فيما بينهم على إقصائى وصاحبى ، ولهم فى ذلك وسائل شتى — وإنهم والحق يقال يبقون على حياتك إذا تنازلت عن كل حقوقك فى صمت وبدون مقاومة ، فان ثرت على هذا النظام الجائر يقدمون إليك ما شئت من المال نقداً وعداً حتى ترضى ، وتوقع بإمضائك على صك تنازلك — واعلم أن هذا الصك يشمل أيضاً الحكم عليك بالاعدام فانهم يتناولون الورقة باليمين ويطلقون عليك الرصاص بالشمال . ولكن متى تقع هذه الفتنة ؟ عند ظهور الجوهر فى المنجم ، لا قبل ذلك

فقال لى صاحبي وهو شريكي فى التنازل المحتوم والموت المنتظر : الأولى لنا أن نتعلق بأذيال الفرار ثم صمت قليلا وقال: هل لك فى مغامرة ؟ قلت نعم. قال نؤلب العمال والأحراس عليهم فنتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا . قلت : ومن يضمن أن العمال والأحراس لا يتعشون بنا ؟ قال : هى المغامرة كما قلت لك . ولم أكن غريباً عن جنوب أفريقيا ، ولكننى غريب عن المقاطعة، فقلت له : والحكومة ؟

فقال : الحكومة ... أية حكومة ؟ الحكومة هى الميان : المنجم والمال ... (١)

وفى تلك اللحظة تمثلت لى حلاوة الحياة فقلت: أما أنا فألوذ بالفرار وأنجو بالبقية الباقية من عمرى

ولم نكد ننتهى من هذه المؤامرة الخائبة حتى دخل علينا الثلاثة الأوغاد وقالوا : «هاندزأب»وهى نذير الهلاك والفناء والقضاء المبرم ، فرفعنا أيدينا ثم أملينا تنازلنا ووقعنا عليه تحت أفواه المسدسات ، فتناوله المتآمرون ثم جلدونا بالسياط حتى أدموا جباهنا وشوهوا وجوهنا وساقونا أمامهم كما تساق الأنعام حتى أخرجونا من حدود المنجم الذى روينا أرضه بدماء قلوبنا وعرق جبيننا . وفى الظلام الحالك أطلقوا علينا الرصاص فأردوا صاحبي قتيلا ونجوت وحدى وكانت معجزة . فقالت نينا : كل هذا فى فى سبيل الماس ! فضحك دوجلاس كراوس نجل هيرمان كراوس الذى قاسى هذا العذاب

— سبيل الماس وأين هو ؟ فى سبيل الأمل. ألا تعلمين أن كل قرط أو حلية أو خاتم من ذلك الحجر اللئيم الملون يحمل في بريق أشعته دماء ألوف من الناس ودموع أرامل وأيتام وأيامى لاعديدلهم ؟

يقول أبى هيرمان كراوس : فجريت بليل ، وجست خلال الأدغال والحراج ، ولامست الأفاعى والحيات ، وكدت أقع فريسة لأنياب الضوارى ؛ وكان فى أذنى طنين ورنين ، وفى عينى بريق ، وفى صدرى زفير بغير شهيق . المال الضائع والأمل الخائب والغدر المبيت ومصرع الرفيق ووحشة الطريق .. كم يوماً فى الطريق ؟ لم أعد الساعات ولم أحص الأيام والليالى — كان صباح وكان مساء ، وكان برد ومطر وعاصفة وقيظ ، فتمزق وجهى وخلقت ثيابى ، وتبددت نعال حذائى . فلما أمنت عاقبة الاقتفاء وأيقنت أن لا أحد رانى ولا طلق يصيبنى ارتميت على ظهرى فى سفح جبل ... فى مكان جميل ولكنه موحش . نور ومجرى ماء وشجرة تفاح برى وحصباء ممهدة بلون الياقوت . وكنت في أشد الجوع وأحر الظمأ ؛ ولكن تعبي وانتهاك قواى كانا أشد على نفسى من الجوع والعطش، فلم أملك طعاماً ولا شراباً وإن جرى الماء تحت قدمى ودنت الفاكهة من يدى . فنمت واستغرقت وحلمت كما يحلم الحيوان ورأيت فى الرقاد ما يرى القط والكلب والفهد .. ثم رأيت رؤى الرجال .. مخلوقات البشر . صاحبي الذى قتل برصاص الأوغاد الثلاثة ما زال حياً ، وما زلنا نجرى للفرار من أيديهم ، حتى بلغنا مكاناً قصياً فتصافحنا ثم تخاصمنا فنازلنى ولا كمنى إلى أن عجز عن التغلب علىّ فتناول صخرة ضخمة وقذفنى بها ، فأصاب رأسى فصرخت ووقعت مغشياً علىّ

فى تلك اللحظة فتحت عينى على ألم فى رأسى لم أرَ مثله، فوضعت يدى مكان الألم فاذا سائل لزج يجرى ويتدفق فحولت يدى أمام عينى فاذا بها ملطخة

(١) بالانجليزية ميان أيضاً mine and maney

بدمى فنهضت مذعوراً ، وإذا بى أرى حجراً ضخماً قد شج رأسى من خلف فتناولته ..

أنظر ! إسمع ! إعجب . حجر من الماس لا يقل وزنه عن أقة ونصف أقة.. لو أننى عثرت به فى حالة الصحة والرضى والبحبوحة لفقدت عقلى . ولكننى وجدته وأنا قريب من الموت والجنون ، فلم يزدنى ذهولاً ولا ألماً ؛ والدم الذى كان يقتلنى لو غلا فى عروقى من شدة الفرح فصدته مصادفة . كيف تفسر تلك الحادثة ؟ يا دوجلاس ، هدية الروح ، روح صاحبى التى زهقت ، إلىّ أنا الشريك المخلص . أراد أن يغنينى ويقتلنى .. يغنينى قبل الموت بطرفة عين ، فتصيد تلك الماسة الضخمة وقذفنى بها ليشج رأسى وليهدينى — إن كانت الموتى تهدى الموتى — إلى أن ما لم يُنَل فى الحياة قد نيل قبيل الموت .. لا ، لقد عرفتها فى طرفة عين فى اليقظة القصيرة بين الموتة الصغرى والنوم العميق . أيُعقل أن مثلى يجهل الماس، ذلك الحجر الذى قضيت بعض عمرى فى البحث عنه والتنقيب عليه ؟

نهضت مذعوراً وفرحاً . وبعد أن كنت آمناً فى الوحدة مطمئناً للسكون والخلوة ، أرحب بالأخطار التى قد تنقذنى من حياة القفر والفقر ، أمسيت مرعوباً من صحبة البشر أترقبها فى قلق وأدعو الله أن ينقذنى منها . وكان همى أن أفر من ذلك الوادى السحيق إلى الحضارة التى تعرف الجواهر وتقدرها . وفتحت عينى على الشبع بعد الجوع ، والراحة بعد التعب ، والرى بعد الظمأ . ولكن دمى كان ينزف غزيراً حاراً لزجاً ، كخمرة الجن . فغسلت الجرح بماء الغدير ثم ضمدته بأوراق الشجر وفكرت فى طريقة لاخفاء الماسة — وهى التى صارت بعد بضعة أشهر تحفة القارة المظلمة التى أمست أغلى علىّ من نفسى وأعز ، فلم يهدنى خيالى إلى خير من أن أشدها إلى فجوة رأسى التى جرحتها . وانتزعت أكمام سترتى وصنعت منها رباطاً متيناً ، صار والحجر الكريم تحته كعمامة مهراجاه هندى . ولكن مظهره يدل على منتهى الفقر

وكسبت من الكنز الذى أحمله قوة عصبية وجلداً على السير . وتبلغت بمضغ تفاحات وتزودت بمثلها واحتسيت الماء براحتى ووجدت فى ذلك الأثناء لذة كبرى . كنت بالطبع أخبط فى الغاب خبط عشواء لولا أن أشرق القمر ودلنى نوره على اتجاه الشمال الغربى الذى أقصد إليه . أتصدق يا ولدى دوجلاس — هكذا كان أبى يقول — أن الخراب أكثر من العمران بمراحل، وأن الخراب أغنى من العمران بجماله واتساع أركانه ووفرة خيراته؟ فكنت أسأل نفسى فى دُجى الليل — أنا ذلك اليهودى المتنصر — سبحانك يا يهوا ! هل خلقت كل هذا عبثاً ؟ حاشا وكلا ! لمن هذه المسائح الشاسعة من الأرض ، وتلك البطاح التى لا يحدها البصر ولا يبلغ مداها المنظار المقرب والمدسات المكبرة ؟ وكم مضى من القرون على تلك الأراضى الخصيبة الصالحة للزرع والضرع ، والأنهار الجارية والجبال الشامخة والرياح المدوية والبساتين المشرقة بالأشجار والأزهار المخضلة اليانعة كالأبكار التى تقضى الشباب فى التبتل والحرمان الدائم؟ أخلقت سبحانك هذا الغنى عبثاً ؟ إن الملايين من هذا الجنس البشرى التعس تعيش فى أماكن ضنكة متزاحمة متلاحمة متراصة كتماثيل الخشب وهى فى غفلة وجهالة عن هذه الساحات والمساحات ؛ تتنفس الأهوية القذرة

الملونة وفى الكون ذلك الفضاء الواسع . وأنا .. أنا هيرمان كراوس .. أسير وحدى واحمل على رأسى ثروة تقدر بالملايين ، ولا يعلم بي أحد من خلقك ، ولو علموا بى لمزقونى إرباً ، ولو كانوا أقرب الناس إلىّ ، لينالوا تلك الجوهرة الثمينة التى أصابتنى فى يافوخى ... كما تعلم يا جيهوا عند ما أردت أنت ، ولم أكن أريد ولاأشعر ولا أنتظر. إنى أكاد أجن من الفرح والدهشة والخوف والرّهبة منك يا جيهوا ! رزقتنى بغير حساب ولا اجتهاد ولا انتظار .

— تك ! تك ! يا دوجلاس العزيز

— ماذا بك يا نينا ؟

— أبوك هذا كان حاخاماً من الدرجة الأولى ؟ كان يتكلم كأنبياء بنى إسرائيل ، لا أذكر أننى سمعت مثل هذا الكلام إلا من فم جدتى وهى تقرأ بعض صفحات العهد القديم المرعبة . ماذا تسمونه عندكم ... التوراة ... نعم توراة . لقد صدق من قال: ضع اليهودى فى البئر الخربة أو ألق به فى غيابة الجب يخرج لك صيرفاً أو وزير مالية .. وهذا أبوك يصير رغم أنفه تاجراً عظيما فى رى دى لابيه[1]

فضحك دوجلاس كراوس ملء شدقيه وقال : أو كما قال هذا الآخر : « كتب الغنى على رجالهم ، كما كتب الزنا على نسائهم » لذا لا تجدينني متعجلا أمر الزواج

أبى يتكلم :

وكانت هذه التأملات وحدها وسيلة إنقاذي إلى أن بلغت الحدود بين ترنسفال و « جيرمان ويست أفريقا » وهناك تفتيش دقيق على الماس بصفة خاصة . فان كثيراً من عمال المناجم يفرون بفتات الموائد أو تراب إبار الذهب فيقبض عليهم وينكل بهم ... ولما بلغت الحدود كنت فى حال يرثى لها من الجوع والتمزيق والضعف . ولم يكن بصلب عودى إلا أمل الفرار بثروتى . وكنت من التجرد بحيث أنف حرس الحدود أن ينظر إلى بدنى النحيف العارى . فمثلت دور السائل واستجديت القوت . ولما سئلت عن عمامتى قلت جرح متعفن وهممت بفك أربطتى فعافوا النظر إليها وركلني أقسامهم قلباً خارج الحدود ليقصى منظرى عن عينه ، فحمدت الله وساق هذا الكريم الذى رفسنى . وقطعت أرض المستعمرة الألمانية إلى أن بلغت مينا وندهوك بعد أن اخترقت صحراء كلاهاري ونصيباً كبيراً من بتشوانا لاند. واشتغلت في وندهوك سائقاً لسيارة تاجر غنى من جروت فونتين . وتعودت أن أخفى ذخيرتى فى مخزن أدوات التصليح وأنام بجوارها فى الجاراج فلا تغيب عنها عينى نهاراً ولا أفارقها ليلا . حتى استمدت صحتى وجمعت مالا يكفينى للسفر إلى أمستردام مقر تجارة تلك التحف الفذة وموطن مصانع الماس وتجهيزه ، وعلى ظهر الباخرة جمعت مالذ وطاب من المعلومات النادرة عن تقدير الأحجار وقصها ، وطرائق عرضها وأسماء الخبراء فيها وكيفية الاتصال بالخبراء والوسطاء ورجال القانون المتخصصين لمسائل البيع والشراء وحيل السماسرة والتجار ، فى استبدال الصفقات أو تزييفها وتفويت الفوائد على أربابها وألوان الدسائس والمكايد و « المقالب » التى يتقنها الذباب والديدان البشرية التى تحوم حول الثروة

(١) أشهر شارع لتجارة الجواهر فى باريس

لتلوثها أو تخطفها أو تمص دماء أصحابها . لقد كانت الباخرة عُشّ زنانير، ووكر عقارب . وقد صوروا لى أسواق أمستردام كأنها مخابىء لصوص ومكامن قطاع الطرق ، ووالله حسناً فعلوا . وكنت أسمع طول النهار وطرفاً من الليل ثم أقضى الشطر الأخير فى التدوين والتقييد حتى لا أنسى الأسماء والصفات والعنوانات . وكنت أصحب الرجل يوماً أو يومين أو ثلاثة حتى أعتصره عصراً فلا أترك فى جوفه سراً ولا خبراً إلا وقد أفشاه لى وأطلعنى عليه أو حذرني منه وهو يعلم أننى لا أسأل إلا مستطلعاً ولا أسمع إلا متلذذاً ولا مصلحة لى فى شىء وإنه لو علم لى نفعاً لضن بوزن الذرة من كلماته

وبلغت أمستردام وكنت أربط الكنز على بطنى حيناً وأحمله فى حقيبة قديمة بالية مع صحف قديمة أو فضلات الطعام ، وجست خلال البلد والمصانع و «بورصة الماس» وأخيراً أخبرت محامياً متواضعاً أننى وكيل نقابة تملك منجما وأنهم عثروا بماسة كبرى يريدون بيعها . فلما جمعنى ببعض التجار ووصفت لهم الحجر الموعود وصف خبير كادوا يجنون من الذهول والدهشة وقدروا ثمنه بثلاثة ملايين من الجنيهات الأسترلينية . ثم شكوا فى الخبر ، وأنذرونى بأنهم لا يدفعون شيئاً من الثمن مقدماً خشية أن أكون محتالا . فطمأنتهم بأن الحجر قد نقل فعلا من المنجم وسيصل إلى البلد بعد بضعة أيام فتبادلوا نظرات العجب والريبة . وفى اليوم الذى اخترته لبيع الحجر بكرت إلى المحامى وأفضيت إليه بالسر فى الطريق فقصدنا إلى مقر الشرطة واتخذنا حرساً واجتمعنا بالتجار ... وأظهرت الأمانة التى حملتها تسعة أشهر ، كأنها جنين آن أوان ولادته

ووزنت وقدرت بعد أن فحصت. وكتب عقد البيع وطلبت إلى رئيس الشرطة أن ينقل الصكوك والنقد وتحويل المال إلى خزانة باسمى فى أحد المصارف وخرجت من مجلس العقد لا أحمل إلا عشرين فلورين اقترضتها من المحامى ... ولكن بنك أمستردام فان هولاندز سيفان كان يحتفظ لى بمليونين وثمانمائة ألف جنيه أسترلينى »

وضحك دوجلاس كراوس ضحكة عالية وضم أنطونيا إلى صدره وقال لها : ما رأيك ؟ هذه قصة ثروتنا . وقد مات أبى بعد أن تضاعف ماله وعاد إلى جنوب أفريقا فوجد منجم النقابة التى تعقبته وصاحبه خراباً وعلم بأنهم أفنى بعضهم بعضاً قتلا ، وبحث عن ورثة صاحبه الأمين الذى قتل بجواره وهو يفر ، فاهتدى إلى عمة له ، عجوز فى بوركشير فأغدق عليها وأغناها . وتعرف إلى تاجر وندهوك الذي استخدمه سائقاً لسيارته. وأخيراً أوصى لي بالمال الذى سهل لى حبك وضمك إلى صدرى هكذا !

فتنهدت أنطونيا من أعماق قلبها وقالت :
ولكن نجفة القارة المظلمة هذه . . .

فقال دوجلاس كراوس : نجفة القارة المظلمة نقصت فى عملية القطع بقدر ثلث وزنها . ولما كانت مستطيلة الشكل ، فقد خرطت على صورة الكمثرى وصارلها ألف وأربعمائة وتسعون وجهاً ، مساحة الوجه ثلاثة مليمترات مربعة ؛ وصارت تشع نوراً لا يقل عن خمسمائة ألف شمعة ، وقُدِّر القيراط فيها بثلثمائة استرلينى ووزنها عشرة آلاف

قيراط . وقد قبض والدى ثلاثة ملايين من الجنيهات ، إلا مائتى ألف جنيه أنفقت فى عملية القطع ورسوم التأمين والجمرك وأتعاب المحامين فى تحرير العقود ، والنسبة المئوية للخبراء والوسطاء والمصورين . ولكن نقابة الماس التى اشترت الجوهرة فى امستردام قدرت لها ثمناً للسوق أربعة ملايين وأعلنت عنها فى جريدة « دياموند ورلد » التى تصدر مرة فى كل ثلاثة أشهر فكان لها عدد خاص ممتاز شمل تاريخ هيرماس كراوس وجوهرته القديمة من خيال المحررين . فكان أول من تقدم للشراء الكولونيل هوب فان زيلاند الهولاندى صاحب معامل الجبن والكاكاو فى روتردام ، وكان قد ورث عن أبيه القبطان البحرى سمارك فان زيلاند عشرين مليون جنيه ربحها من مستعمرات هولاندا فى أندونسيا . وكان الوالد متعهد توريد الأغذية لألمانيا فى حرب السبعين وأول من اخترع الجبن الفلمنك الأحمر ، وأدخل على الروكفور طريقة « التعفن الخالى من الجراثيم » فنمت أرباحه فى عام واحد ثلاثة ملايين ومات الشيخ فان زيلاند فى حديقة قصره فى سكفنجن على شاطئ زايدر زى محاطاً بأغرب أنواع الأزهار ولا سيما الخزامى الزرقاء التى تخاطف بذورها ملوك الأرض . وتزوج ابنه الكولونيل هوب فان زيلاند من الأميرة جوهان باتنبرج فأراد أن يتقرب إليها باهداء تلك الجوهرة وسدد ثمنها على ثلاثة أقساط متساوية فى مدى سنتين

فقالت انطونيا : ما أسعد هذه المرأة ! ولكن بالله قل لى كيف تحمل سيدة عبء هذه الجوهرة التى تزن أكثر من كيلو جرام ؟

فضحك دوجلاس كراوس وقال : إنها لا تحمل ولا تصاغ ، ولكن تحفظ فى القصور تحفة تزار وتعرض للأنظار ويتهالك على مشاهدتها الفقراء . ولكن لا تظنى السعادة مقرونة بمثل هذا الثراء ؛ فان تحفة القارة المظلمة جلبت الهلاك والدمار على أسرة فان زيلاند فقضت الأميرة نحبها ، وانتحر الكولونيل وكادت المعامل تمحى من الوجود لولا تدخل الحكومة وتأسيس شركة مساهمة حلت محل الورثة وبيعت الجوهرة فيما بيع من مخلفات هذا البيت الكريم ، فاشتراها ولى عهد انجلترا الأمير هنرى نجل ادوارد السابع وكان « برنس دى غال » ولم يزد ، وقد انتوى إهداءها لخطيبته التى صارت بعد وفاته ملكة انجلترا بقرانها بأخيه جورج الخامس . فقد أصيب بالحمى المالطية وكان مصاحباً للأسطول فى البحر الابيض ، فانقلبت أفراح الأسرة أتراحاً . ولم يتنبه أحد إلى أن نجفة القارة المظلمة هى التى حملت البلاء إلى هؤلاء الأمجاد الغافلين عن شرها

وأودعت الجوهرة حيناً فى قصر سندرنجهام فتصدع أحد أركانه فنقلت إلى خزائن « بنك أوف انجلند » واشتغل الوسطاء بالترويج لها والدعاية لبيعها حتى تمكنوا من إقناع ملك البرتغال بشرائها ... فاشتراها ولم يمض على دخولها لشبونة عام حتى قتل الملك والملكة وابنهما فى شوارع المدينة بانفجار قنبلة فوضوى ، ولم ينج من المذبحة إلا عمانوئيل الذى توج ملكا يتيما وخلع وقضى نحبه فى مقتبل الشباب منفياً فى بلاد الانجليز . وكان صحفى إنجليزى اسمه ماكسويل يتتبع خطوات « النجفة » فسرد تاريخها بفطنة وإحكام فى سلسلة مقالات فى جريدة

ديلى ميل ، فسارع وسطاء الماس فى بورصة باريس ونيويورك إلى إسكاته بعشرين ألف جنيـه ، فترك التحرير والتحبير وعاش سعيداً فى قصر منيف فى مقاطعة كنت . وبذلوا له عشرة آلاف أخرى ليكذب نفسه عن شؤم الجوهرة ، فأبى وقنع بما ربح

وكان مهراجا أندور فى الهند من أرباب الملايين أصابه جنون التبذير ، وركبه شيطان الأهواء ، فاشتراها وأهداها إلى محظية هندية اسمها ممتاز بيجوم فعشقها راجا آخر وحاول إغواءها ففشل فشرع فى خطفها فلم يفلح فكاد لها كيداً ذريعاً تمكن به من قتلها فى كمين

فثار مهراجا أندور لمحبوبته باغتيال راجا خارستان وكان عقابه الخلع والتشريد والنفى وانتقلت الجوهرة من الهند إلى الشاه محمد على فى طهران فاشتراها .. وضمها إلى جواهر أسرة كاشغار ووضعها فى خزانة فى قاعة عرش الطاووس حيث البساط المصنوع على نمط بساط كسرى مرصعاً بالجواهر ، وممدوداً تحت أقدام العرش . ولعب شيطان الغرور بعقل الشاه فضاع ملكه وراح منفياً ومات فقيراً مقصيا فى مدينة أوديسا . وورثه نجله الشاه احمد . عرض الشاه محمد على فى بطر اسبرج جوهرته على قيصرة روسيا فاشترتها وهي لانعلم من أمرها شيئاً . وكارثة آل رومانوف لا تزال ماثلة بالاذهان . فقالت أنطونيا :

— والآن أين تلك النجفة المنحوسة ؟

— أرأيت أن النجفة لم تحمل لأحد سعوداً ، غير أبى وما كسويل الصحفي وللوسطاء الذين تدخلوا فى بيعها ؟ ولكن من يدرى لعل أبى أخذ نصيبه بما أصابه من شج فى الرأس ومعاناة الآلام فى طريقه من المنجم إلى امستردام . تسألين أين هي الآن ؟ إنها فى نيويورك فى ملك مسز هاملتون درموند ملكة الفولاذ وقد جعلت عليها أحراساً من الأشداء المسلحين بالخناجر والمسدسات وجعلتهم على ستة فرق تسهر كل فرقة أربع ساعات فى الليل والنهار ، وأحاطت المكان بأسلاك الكهرباء الموصولة بمراكز الشرطة . وتدفع عنها عشرين ألف جنيه فى العام تأمينا ونفقة للحارسين

— إنها بلا ريب مجنونة فانها تفقد مثل ثمنها فى بضع سنين إن بقى لها المال وبقيت على قيد الحياة

— كلا ؛ إنها جد حريصة فقد احتالت حتى جعلتها تدر إيراداً يربو على نفقات حراستها بأن فرضت جعلا قدره عشرة دولارات على كل من يريد مشاهدتها ، فلا يقل عدد الزائرين عن خمسين مخبولا فى النهار الواحد . وأظن أن هذه الطريقة منعت نحس الجوهرة . كان أبى هيرمان كراوس يقول : الركود مجلبة الدمار ، والحركة وسيلة البركة : ويقول : الربان ليفى فى شرح التلمود : « يد البطالة نجسة » وأنا أقول : الجوهرة التى لا تدر خيراً على صاحبها تجلب له الشؤم والخراب . وهذه الأمريكية الماكرة عرفت سر نجفة القارة المظلمة كما عرفت أنا سرك

فقالت أنطونيا والنوم يداعب عينيها ، فقد أقبل الليل وأضاءت أنوار المدينة وانعكست أشعتها على البحيرة الفاتنة :

— أنا ؟ إنك مازح ! ماذا أدر عليك ؟

— تلك القُبل الشهية هى أرباحى

— ورأس المال ؟

— هو حبك الدائم واستمتاعى بك الذى لا ينقطع . هيا بنا فقد آن أوان اقتطاف الثمار

محمد لطفى جمعة

عواد كريمون !

للشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

تعريف بالقصة

فرنسوا كوبيه نابغة من شعراء وروائي الفرنسيين من نوع الرومانتيك ولد بباريس سنة ١٨٤٢، وكفاه فخراً أن يقال له مؤلف «جواب الآفاق» وهي من معجزات نظمه ودرة يتيمة في نوعها لم يوفق أحد من الشعراء أن يأتي بمثالها وهي تفيض بالعواطف المتاججة والأخلاق السامية ودقيق الاشارات والرشاقة المتناهية والرقة النادرة و «في سبيل التاج» وهي رواية تاريخية سحرت النفوس ببلاغتها ومتانة فرضها وما اشتملت عليه من النفحات العلوية و «سيفير وتوريللى» و «عواد كريمون» هذه وله من الدواوين الشعرية والروايات التمثيلية كثير لا يتسع المقام لسرده

مهر وبهر شاعرنا هذا في أغلب أنواع الشعر لاسيما المراثي والملاحم وكان من الشعراء المحققين وحاز القدح المعلى في الشعر القصصي المألوف وأنواع الشعر المبتكرة في بابها ووصف المناظر الطبيعية

وكان مقتدراً في وصف أخلاق القرويين وعاداتهم وصفاً صادقاً رقيقاً شجيا يهز القلوب طرباً حيثما يصف البؤس المتواصل والفقر المدقع والفضائل المجهولة . فلذلك أسموه «شاعر المساكين» لأنه في هذه الطبقة الصغيرة الحقيرة اسعده القريض بنفحات مدهشات قلدته زعامة هذا النوع الذي ابتكره

وقد توفي بباريس سنة ١٩٠٨ واحتفلوا بجنازته احتفالا شائقاً فخما يليق بمقامه الرفيع وبكاه القريض الفرنسي قبل الشعراء

يشاهد مصنع للآلات الموسيقية في القرن الثامن عشر وفي نهايته باب كبير من الزجاج يطل على طريق في المدينة وترى منه المنازل ، وتشاهد الكمان والفيولونسيل والكونترباس وغيرها من الآلات الوترية مبعثرة داخل المصنع ، وفي اليسرة منضدة كبيرة ظاهرة للعيان وفي اليمنة كرسي كبير وبجانبه منضدة صغيرة ، وفي نهاية المصنع على اليمين حامل لكراسات القطع الموسيقية وللمصنع بابان من الجانبين .

المنظر الأول

(الرئيس فيراري — جانينا)

فيراري — (وقد تملكته نشوة خفيفة من النبيذ)

كلا لقد آليت يا جانينا إلية شريف لا يحنث ، وسأحترم قسمي وأتمسك به كما يسميني الناس تاديو فيراري أستاذ وصاحب مصنع الآلات الموسيقية بكريمون وستديك أرباب هذه الصناعة وحامل لوائها في كل موكب وحفل وستتزوجين بهذه الطريقة

جانينا — ولكنني يا أبتاه..

فيراري — إنني أتصرف بكل حكمة وبصيرة . ولقد عني شيخنا بودستا الذي توفي حديثاً ومن أطلب له من الله الرحمة والرضوان أن تستمر وتخلد شهرة الآلات التي تصدر من مدينتنا الشهيرة القديمة ،فأوصي بسلسلته الذهبية للصانع الماهر الذي يصنع أحسن كمان في المدينة، وستفتتح المسابقة ويحكم فيها اليوم . وإني وإن كنت صانعاً بسيطاً أقتدي به إذ وعدت في اجتماع الموادين أن أعطي ابنتي ومصنعي لمن يحرز هذه السلسلة . وهذا ما تم عليه الاتفاق وبت فيه ، فلا فائدة إذن في الجدال والنقاش ! !

جانينا — لقد عرفتك بأني أفضل فرداً

فيراري — ساندرو ! ستنسينه وقد أنبأته

جانينا — وقصارى القول إذا كان هذا الفنان المجهول شاباً خبيثاً وليس كفؤاً لك فما العمل ؟

فيراري — إن الصانع الماهر لا يكون في الغالب إلا شريفاً

جانيتا — ... الكسول الذى لا يهتم مطلقاً بمستقبله ؟

فيرارى — إنه ينقد أجراً كبيراً فيمكنه أن يعمل أقل من غيره .

جانيتا — ... فظ غليظ القلب يضرب النساء ؟ وهذا النوع من الرجال موجود

فيراري — إذا لم يجـد راحة فى داره فانى أبرر أذاه

جانيتا — ... وإن كان سكيراً يثقـل نبيذ الأحد رأسه ؟

فيرارى — وماذا تكون حالى يا بنيتى يوم الاثنين ؟ فلنحترم هواة كروم تؤتى أكلها فى تشرين الأول ! والموسيقى الماهر لا يكون قنوعاً ولا يجوز أن نكذب الأمثال

جانيتا — وفى النهاية إذا كان غريب الأطوار ورفض الزواج ؟ ... أواه

فيرارى — إن ذاك المضحك يكون حقاً صعب المراس . ولكن حسنة النية مثلك ياجانيتا يلزمها أن تكون على بصيرة ، فان هذا النوع من الرجال لانصادفه كل يوم . وأن ألفين من الريالات اللومباردية لمبلغ لا يستهان به وما هو إلا مهرك . وأما التلميذ المحبوب لستراديفاريوس قد أقسمت ... فلا فائدة من الخوض فى هذا الموضوع . ولقد نالت مني السنون ولا دواء ينجع فى الكبر وأصبحت أنشد خلفاً لى يساعدنى وسينال الفائز ابنتى ومحلى

جانيتا — وفضلا عن ذلك يا أبتى العزيز ...

فيرارى — حسبك أسباباً تبدينها !

جانيتا — وإذا كان الظافر — وإنى لأضحك حينما أحلم بذلك — وإذا كان تلميذك الصغير فيليبو؟

فيرارى — فيلبو ؟

جانيتا — وإن حاز الجائزة ؟

فيرارى — إننى لن أدهش كثيراً لوقع هذا الخبر ، وإذا نال سلسلة بودستا فستتزوجين فيلبو فى الأسبوع القادم

جانيتا — أتزوج فيلبو !

فيرارى — ولِمَ لا ؟

جانيتا — الأحدب !

فيراري — ان نظرى لحاد يبصر حقيقة الأشياء، ولكن هل ازدوجت عاهته ؟ فلا تضطربى من ذلك ولا تجزعى فكثيراً ما تظهر لى تلك الصفة حينما يضطرب نظرى وأرى الواحد اثنين — وقصارى القول سيكون لك زوجاً

جانيتا — اللهم رحمتك !

فيرارى — أليس فيلبو من خير الشبان ؟ أما هو طيب مخلص شريف ؟ ... إن الكآبة والحزن يرتسمان على وجهه وهو أحدب ، ولكنه فنان كبير وموسيقى مثل بالسترينا . ولا أنسى حفلة الطرب الصغيرة التى أقامها لنا — مع أنى نقاد قاس — ولقد أصغيت إليه وأنا أمتع الطرف بالنظر إلى قدح من نبيذ استى المعتق فكانت الأوتار تئن تحت قوسه ، وكان عزفه حافلاً بأنواع الآلام فتاناً ساحراً ، وقد انحدرت من عينى دمعتان كبيرتان وحاولت أن أكفكفهما فلم أفلح، ثم سقطتا فى الكاس، وهذه أول مرة مزجت فيها النبيذ بالماء

جانيتا — إننى أقدر مثلك فيلبو يا أبتى . إننى أرثى له ولم آل جهداً فى تبديد شجونه والعطف عليه حتى ينسى همومه وفقره وعاهته من يوم مجيئه إلى بابنا ليتسول . فهل أستطيع أن أحبه ؟

فيرارى — تا ، را ، تا ، تا

إذا كنت لا تظنين أنك لم تعارضى قط بأشد من هذه المعارضة فلنقف عند هذه النقطة فانى أريد أن أزور كهفى ويلزمنى أن أعد لهـذا اليوم بعض القنانى التى تعاقبت عليها السنون فغطتها بغبارها ونسيج عناكبها ...

جانيتا — وإذا كنت أذهب بدلاً منك ... فان السلم وعر وخطر تزل فيه القدم وإنى أسرع منك ...

فيرارى — لا ألاحظ تلك الصعوبة إلا فى الصعود . فدعينى أذهب بنفسى فان أعظم السرور فى انتخاب النبيذ قبل شربه

(ثم يخرج من جهة اليسار)

المنظر الثانى

جانيتا — ساندرو

كانت جانيتا وحدها لحظة فتنهدت ، ثم يدخل ساندرو من اليسار حاملاً كماناً فى صندوقها الأسود ثم يضعها فوق المنضدة

ساندرو (وهو يمسك بيدى جانيتا) ما وراءك من الأخبار ؟ هل لا يزال الرئيس مصمماً ألا يزوجك إلا أمهر الصناع ؟

جانيتا — بل مستمر فى عناده أكثر من قبل

ساندرو — ما هذا الجنون الفظيع ! هل علم منك درجة حبى لك وإنى إذا أخفقت مت وهلكت؟ ماذا أجاب ؟

جانيتا — أن أنساك

ساندرو — القاسى !

جانيتا — (مشيرة إلى صندوق الكمان) هل أتممت صفوة أعمالك ؟

ساندرو — هل أكون أكسل من الأفعى ؟ إننى كنت دائماً على استعداد، لأن أملى الأخير معلق بها . واليوم يبت الخبراء فى حظى إن كان سعيداً أو منكوداً

جانيتا — هل أنت مطمئن وواثق من عملك ؟

ساندرو — إننى أجيـد صناعتى وقد صنعت الكمان حسب قواعد الفن فى أوكتافاتها الأربعة المضبوطة، نقية فى أصواتها الحادة، عميقة فى أصواتها الغليظة ؛ وقد بذلت فى عملهـا جميع ما فى وسعى وأجدت انتخاب خشبها وأوتارها ودهانها وأظن أن هذه الآلة الجديرة بفنان عظيم

جانيتا — (بلهجة فرح) أتؤمل أن تنال الجائزة ؟

ساندور — ربما ...

جانيتا — ولكنك ستنال الجائزة ! فلمَ يخالجك الشك ؟ أى منافس عظيم تخشاه ؟ إن أبى كما علمت أعظم فنان فى كريمون ولقد تعلمت عنده ، وإنى أود أن تنال الجائزة

ساندرو — إننى لا أخشى أى منافس خرج من مصنع آخر

جانيتا — ممن تخاف إذن ؟

ساندرو — إن الذى أخشاه فى مصنعنا

جانيتا — وكيف يكون فى مصنعنا ؟

ساندرو — نعم وما هو إلا الأحدب ! لعن الله اليوم الذى لاقيته فيه !

جانيتا — هل دخل فيلبو المنافسة ؟

ساندرو — إن الأفعوان الصغير قد جهر بذلك أمس أمام أبيك

جانيتا — أبى الذى كان يقول فى بعض

الأحيان مازحاً بأنه إذا نال الجائزة فانى أزوجه ابنتى

ساندرو — إنه يظنك خالية القلب فلذلك كان متقاداً للأمل

جانينا — إننى لا يخالجنى الشك من ناحية ذاك الفتى المسكين . إنه يطمح إلى السلسلة الذهبية ولقب الرياسة ، وأننا نسمح له أن يطمع إلى هذه الأمور ولكنه يكون مغروراً إذا زعم أنه يطمع فى زواجى

ساندرو — ولا أكتم عنك أنه إذا خرج من الامتحان ظافراً فانه يسبب لى آلاماً لم أرها فى حياتى وأشعر حين ذاك بعاطفة ممقوتة

جانينا — وماذا تكون ؟

ساندرو — الحسد !

جانينا — تكون حسوداً يا ساندرو ! هذا من المستحيل !

ساندرو — نعم نعم ، لأنى أعرف عمله وتقلقنى الغيرة منه ، وسيعرف الناس فضله مثلما عرفته — إننى لا أنسى تلك الليلة إذ كنت جالساً إلى كوتى وكنت أفكر فيك تحت سماء الصيف الصافية وكان فى الحديقة عندليب يصدح فى سواد الليل فتصعد أنغامه الساحرة إلى عنان الزرقاء المتألقة بكواكبها ، فسمعت على حين غفلة فى الظلام غناء آخر نحا فتاناً يشجى القلوب أكثر من غناء ذاك البلبل ، ولمحت الأحدب فى غرفته أمام حاملة كراسات الموسيقى وقوسه فى يده وكأنه يخرج أنغاماً تعادل الأصوات الانسانية وهى تعبر عن حب مبرح امتزج بالألم ولا يقل فى حلاوته ورقته عن ذاك الطير الصادح، وتبادل الصوتان فى الليل البهيم الأنغام البلورية وكنت أصغى إليهما ؛ وبعد دقيقة اختلط على الأمر فلم أدر أى الصوتين أفضل من الآخر : صوت البلبل أم صوت الكمان

جانينا — هل يحزنك بهذا المقدار نجاح منافسى؟

ساندرو — أواه ! إنها لعاطفة لا تليق بفنان، ولكنه إذا وجد فى أبيك معيناً ومساعداً ، أو أصبح ظافراً ...؟

جانينا — إننى لا أحب إلا إياك وأعدك بأننى سأكون لك وإلا فإنى أرفض زواج غيرك

ساندرو — أتقولين حقاً ؟

جانينا — حقاً وصدقاً !

ساندرو — يالله ! ما أطيبك !

جانينا — وهذه يدى أضعها فى يدك ضماناً لقسمى

ساندرو (يقبل يدها) — أشكر لك !

(يسمع فى الخارج لغط)

جانينا — ما هذا اللغو ؟

المنظر الثالث

فيليبو — ساندرو — جانينا

(يدخل فيليبو مندفعاً ويقفل الباب بشدة وهو يلهث من الاعياء)

فيليبو — أف لهؤلاء الأوغاد الصغار ! لقد ظننت أنهم سيلحقون بى

جانينا — ما الذى دهاك يا فيليبو ؟ وما الذى تخشاه ؟ ومن يطاردك ؟

فيليبو — صغار الأوباش الاشقياء وقد رجمونى بالحصى وكانوا يريدون قتلى

جانينا — يقتلونك أنت ؟

فيليبو (وهو يجس رأسه بيده) — والدليل على ذلك أننى أشعر بجرح فى جبهتى

ساندرو — إن رأسك يسيل دما !

جانينا — على بالماء ... أسرعوا !

(ثم ذهبت لاحضار طشت وأبريق)

صاندرو — خبرنا كيف حصل لك ذلك

فيليبو — إن المسألة لفي غاية البساطة ، فقد كانوا خمسة عشر أو عشرين وهم خليط من الصماليك والتلاميذ وقد أحاطوا بكلب وطفقوا يرجمونه بجانب سور وقد أعيا المسكين ولم يستطع الدفاع ولا الحراك إذ كانت رجله مكسورة بل اكتفى بالتكشير عن أنيابه . ولما شاهدت تعذيب هذا الحيوان أشفقت عليه وتألمت له لأنه مسكين مثلي . فتوسطتهم وسألتهم أن يرحموه فاستشاطوا غضباً وتركوا الحيوان وتألبوا على رجمي فعدوت وهم يطاردونني ، ولولا هربي في الأزقة لقتلوني والحمد لله قد نجيت الكلب الأعرج المسكين

(ثم ارتمى على الكرسي خائر القوى)

جانينا (وهي تضع منديلها المبلل على جبينه) — ما أشقى هؤلاء المتشردين إذ لم يرأخبث منهم ، يالك من مسكين !

فيليبو (على حدة) — يدها فوق جبيني ؟ ياما أحلاها !

جانينا — هل حسنت حالك ؟

فيليبو (ينهض ويتكلم بصوت متأثر) — شكراً لك . لا أشعر بشيء مطلقاً

صاندوو (على حدة) — إن هذا التأثر لكثير جداً حيال شكر ! ولا أخطئ أنه يحبها

المنظر الرابع

من سبق ذكرهم ومعهم فيرارى

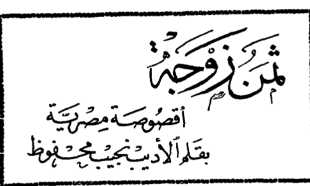
فيرارى (وقد زادت نشوته وبيده سلة لحل القنانى) — يا للغرابة ! لقد مضى على أكثر من عشرين سنة وأنا أصف صنى النبيذ في مكان مقفل فترون الطابع الأحمر في اليمنة والأخضر في اليسرة ، ولم يطرق أحد هذا المكان وما فتئ مفتاحه في جيبي وقد لاحظت أن ابنتي قد غيرت مواضعها فهل فسدت أخلاق القنانى أو أنني لا أميز يمينى من شمالى

جانينا — أبتاه ...

فيرارى — ها أنت يابنيتي وأنا أبحث عنك إذ بعد قليل حينما يصرخ السكان ونعرف من سيكون لك زوجاً سأدعو الزملاء للعشاء فهيا جيئني بشمرى الأبيض المستعار وكسوتى الفاخرة فإن الانسان إن أهمل زينته نقص احترامه . هيا بنا !

(ثم يخرج من اليمنة وتتبعه جانينا)

(يتبع) محمد كامل حجاج



جلس ينظر إلى صورته فى المرآة الكبيرة ويتابع بعينيه يد الحلاق وهى تقص شعره بخفة ومهارة ، وكانت تبدو عليه آى الهدوء والغبطة كما ينبغى لشاب مثله فى أسبوعه الثالث من شهر العسل

ولاعجب فشهر العسل فى حياة الأزواج كالشباب الناضر فى الآجال المعمرة . وقد حبته الطبيعة بألذ المتع ودفعته مهراً لحياة الزوجية التى تستأديها الذكور من جميع الأنواع . وكان حضرة الفاضل حمدى أفندى المهندس واحداً من ذكور أسمى الأنواع كلها ، وقد تزوج من ابنة أحد زملائه وأساتذته المهندسين ، وهى فتاة جميلة مهذبة سمع عنها ورأى فيها ما علقه بها ورغبه فيها ، وهو الآن يستمتع بلذة اللذاذات التى تجزى بها الطبيعة الصادعين بأمرها الداخلين فى طاعتها ...

ولاحظ المهندس فى جلسته الهادئة المغتبطة — أن « الأوسطى » لم يكن كعادته ذلك اليوم . رآه واجماً والعهد به ضحوكا ، ووجده صامتاً والعادة أن يكون ثرثاراً لا يسكن له لسان ، فعجب لشأنه ؛ ولكنه لم تؤاته الشجاعة على سؤاله عن حاله ، ولاذ بالفرصة الجميلة التى كفته مشقة ثرثرته وشقشقة لسانه ، وتغاضى عن شذوذه حتى انتهى من عمله فقام واقفاً ، ولم ير حرجاً فى إبداء ملاحظاته فسأله قائلا وهو يعقد رباط رقبته :

« مالك صامتاً واجماً كأنك لاتجد ما تقوله ؟ »

وبدا على الرجل الارتياح لفاتحة المهندس له بذلك السؤال وكان يرغب فى الكلام حقاً ، وتلح عليه الرغبة إلحاحاً شديداً ، ولكنه لايدرى كيف يلج الموضوع ، ورأى زبونه يكاد ينتهى من ارتداء ملابسه فأشفق من ضياع الفرصة وقال :

« الحق يا سيدي أن لدى كلمة أريد أن أقولها ولكن ... »

وتوقف عن الحديث فازداد عجب الشاب وسأله باهتمام :

« ولكن ما ذا ؟ »

« إن بعض الظن إثم ، وكثيراً ما يخطئ الانسان فى تقديره . والحق أنى أدمت التفكير طويلا وقلبت المسألة على جميع وجوهها فرأيت أن الواجب يقضى علىّ بمصارحتك بظنونى مهما كانت الاحتمالات والعواقب ... »

وكان الشاب قد انتهى من عقد رباط رقبته وارتداء جاكتته وطربوشه فدنا من الحلاق وحدجه بنظرة اهتمام وانشغال وقال :

« إن كنت ترى حقاً أن الواجب يقضي عليك بمصارحتى فما معنى التردد والتلعثم ؟ »

فتنهد الرجل وقال :

« حسن يا سيدى ... إعلم أني لاحظت أموراً ... »

« ... ... ؟ »

« منذ أسبوعين أرى شاباً يتردد على العمارة التي تسكن فيها كل صباح بعد الساعة الثامنة مباشرة ... »

فزوي الرجل ما بين حاجبيه وقال باستهانة :

« نعم ... ؟ »

« لقد لفت نظرى بهيئته ومواظبته فشغلت فراغ الصباح بمراقبته ولاحظت أنه يحضر من شارع عاصم حوالى الساعة السابعة ويأخذ مكانه فى مقهى النجمة ، حتى إذا غادرت البيت وذهبت إلى الوزارة يدفع ثمن قهوته ويترك المقهى إلى العمارة رأساً ... »

وكان المهندس — على شبابه — رزيناً ثابتاً بمنجى أمين من الرعونة والطيش ، فعض على شفته السفلى كعادته كلما ارتبك أو أخذ ، وكأنما أراد أن يغالب القلق الزاحف عليه فسأله بلهجة الغاضب

« ما الذى تعنى ؟ »

فاصفر وجه الحلاق وندم على خوض هذا الحديث الأليم ولكنه لم ير بداً من الاستمرار فقال:

« إنى أرجو أن أكون مخطئاً يا سيدى ، بل إنى لا أتمنى على الله أكثر من أن يكشف عن وجه الخطأ فى جميع ظنونى ، ولقد ترددت طويلاً قبل أن أبثك هذا الحديث، ولكنى رأيت أن المصارحة مع ما تنذر به أفضل عندى من التستر على العيب مع السلامة ... وقد كان مما أيقظ الشك فى نفسي أني رأيته مرات يلاحظك خلسة — وأنت سائر فى طريقك — ويرمقك بنظرات لم يرتح إليها قلبى حتى إذا غيبك منحنى الطريق قام بسرعة وانسل إلى داخل العمارة ... »

« ألم تره خارجاً منها؟ »

« رأيته مرات وقد لبث فى الداخل ساعتين أو يزيد ... »

« ما شكله ؟ »

« هو شاب فى مقتبل العمر ، حسن الهندام ، مخنث الهيئة ، لولا تسكعه فى الصباح لقلت انه طالب ... »

ورأى الحلاق المهندس واجماً صامتاً ، تصرح سرائره بما يقهر نفسه من الاضطراب والقلق فقال بتألم : « لا تأخذ بظنى ياسيدى واسلك سبيل الحكماء فتحقق الأمر بنفسك ، والحق أنى غير آسف على قول ماقلت ولكني ألعن الظروف »

فسأله المهندس وكأنه لم يسمع قوله :

« هل حضر هذا الصباح كعادته ؟ »

« نعم ياسيدي »

ألا ينقطع عن الحضور أحياناً ؟ »

« يوم الجمعة »

فعض الشاب مرة أخرى على شفته ولم يزد على أن قال وهو يغادر الصالون

« إني أشكر لك مروءتك وأرجو أن تفتح عينيك حتى أعود إليك صباح الغد »

وكان البيت قريباً على قيد خطوات ولكنه لم يشخص إليه — مع أن الوقت كان ظهراً — وأحس فى نفسه رغبة طاغية فى المشى، فهام على وجهه بغير هدف معين

كان حمدى شاباً فى الثلاثين من عمره ، يلفت الأنظار لضآلة حجمه ورقة أعضائه وشحوب لونه، ولكن كانت تلتمع فى عينيه نظرة تدل على حدة الذكاء ، وكانت ذقنه تلتوى التواءة يعرف بها ذوو الإرادات الحديدية ، وكان أخص ما يعرف

به الهدوء والرزانة والبرود فلا يذكر أحد من معارفه أنه رآه مرة منفعلاً أو متهيجاً لحزن أو لفرح، ولكن لم يكن طبعه هذا ضعفاً أو جبناً فإنه يغضب إذا انبغى له الغضب ولكن على طريقته فى الغضب ، فلا هياج ولا سب ولا شجار ولكن عقاب صارم أو انتقام مهول ، هكذا يتقدم فى حياته « كوابور الزلط » بطيئاً رصيناً ولكنه لا يقاوم ولا يبقى ولا يذر . . .

وقد قال لنفسه وهو يسير على غير هدى : يلمح الرجل إلى خيانة زوجية ، خيانة زوجية فى شهر العسل ! لا شك أنها أول خيانة من نوعها ، هى كالإجهاض سواء بسواء الذى يهلك الجنين قبل أن يكتمل ... كيف يستطيع أن يصدق هذا ... بل كيف يمكن وقوعه ؟ كيف استطاع ذلك الشاب أن يشق طريقاً إلى بيت عرسه ؟ هل كان يعرف زوجه من قبل أن يعرفها هو ؟ مهما كان الواقع فهو أمر بعيد عن التصديق ... وذكر حياته الزوجية القصيرة فذكر بها سعادة وصفاء ومتعاً لا تحصى ولا توصف ، فلم يشك فى أنه سيكشف فى غده خطأ مضحكاً لن ينفك يضحك كلما ذكره ما امتد به العمر . . .

ومع هذا . . .

ومع هذا فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه عن العاطفة الذميمة التى تقاتل فى قلبه . . . عاطفة الشك المعذبة . وها هى ذى تتشبث ببعض الذكريات التى مر بها مر الكرام فتعرضها من جديد على مخيلته فى إطار أسود مخيف فلا يملك إلا أن يتأملها متحيراً متفكراً . فهو يذكر كيف كانت زوجه تلقاه — على أيام خطوبتها — بجمود ووجوم كأنها تلقى جداً لا خطيباً ، وكيف أنها لم تحاول قط أن تفاتحه بحديث أو تشترك فى أحاديثه بحماس ، وكيف أنها كانت تقنع بالإجابات الضرورية فتلفظها فى اختصار ساسة الإنجليز . . .

لقد حمل ذلك كله على محمل حسن وقال فخوراً إنه حياء جميل . ويجوز أن يكون قوله حقاً ، ولكن يجوز أيضاً أن يكون وهماً وأن يكون الباعث شيئاً غير الحياء، من يعلم ؟ ربما كان نفوراً وكراهية وكان ينبغى له أن يدقق ويتحقق . . . !

ويذكر أيضاً أن الحال لم تتغير بعد الزواج ، فلا تزال محافظة على رزانتها وتحفظها أو برودها — ولم يجرؤ أن يذكر هذه الكلمة على لسانه من قبل — وكم تمنى لو كانت عروسه لعوباً طروباً ، أما الآن فمن يدريه أنها ليست كذلك وأنها لا تصطنع البرود إلا فى حضرته ؟ وا أسفاه . أى شقاء وأى تعاسة ! ولم يكن حمدي خبيراً بالنساء ولا ذا حظوة لديهن ، فاضطر — فى عزوبته — إلى الاستقامة والزهد وقضى تلك الأيام محزوناً معدوم الثقة بنفسه ، وقد ظن أن الزواج دواؤه ونجاته فاستغاث به واطمأن إليه وحمد الله على نعمته ؛ ولكن ها هو ذا يوشك أن يخيب فى زواجه فيفقد الأمل الوحيد فى السعادة والحياة المطمئنة، وها هى ذى الزوجة تكاد تنكشف عن امرأة ككل النساء اللاتى لم يفز منهن بحظوة . . . فأى شقاء وأى تعاسة ! . . .

على أنه لم يستسلم للتشاؤم كل الاستسلام ولم ينغمس فى اليأس كل الانغماس وتعلق بالأمل الباقى له وهو أن يكون الأمر غير ما قدر والظن غير ما أساء ... وتمنى لو يستطيع أن يبدد هذه السحابة القاتمة الغاشية على قلبه وأن يسترد بعض ما كان له من الصفاء والغبطة ...

على هذا النحو كانت تؤاتيه القدرة على تحليل أحزانه وأفراحه ، ولكنه كان إذا انتهى إلى عزم عرف كيف ينفذه بحذافيره لا يرده عن غرضه راد

وكان قد قطع شوطاً كبيراً وبدأ يشعر بالتعب فعاد أدراجه إلى مسكنه محمى الرأس ملتهب العواطف، ودخل إلى شقته وهو يتكلف الابتسام والهدوء فرأى عروسه جالسة إلى المائدة ، والغداء جاهز ، والأطباق مصفوفة وسمعها تقول له عاتبة :

« تأخرت عن موعدك »

فنظر إلى وجهها نظرة سريعة لأنه خشى أن تقرأ فى عينيه ما يدعوها إلى التساؤل ، وجلس إلى جانبها ، بل وقبلها أيضاً كما ينتظر من شاب مثله فى شهر العسل ، ثم قال معتذراً :

« مررت فى طريقى بالحلاق وكان الصالون مزدحماً ... »

* * *

وفى صباح الغد خرج فى موعده المعتاد وسار فى طريقه المعهود ولدى مروره بمقهى النجمة قاوم رغبة شديدة نازعته إلى تصفح وجوه الجالسين بها وخيل إليه أن عينين براقتين تراقبانه بحذر وسخرية فملأ الدم فى رأسه وخضب وجهه الشاحب باحمرار الخجل والعار ، ولم يذهب إلى وزارته ولكن دار دورة فى الشوارع القريبة ، وكان يخرج ساعته من آن لآن وينظر إليها جزعاً مضطرباً؛ فلما دارت فى منتصف الثامنة عاد أدراجه حذراً متيقظاً حتى انتهى إلى صالون الحلاق وانسل داخلاً ؟ وكان خالياً إلا من صاحبه الذى حياه تحية الصباح ، وابتدره قائلا :

« جاء كعادته وغاب داخل العمارة منذ ربع ساعة ... »

وجد الشاب فى مكانه هنيهة لأنه أحس بأنه مقبل على دقيقة فاصلة فى حياته ستقرر حتماً مصير سعادته وكرامته ، فخانه الهدوء وأعصابه على رغم صلابتها وقوتها وشعر باضمحلال مخيف وسمع الحلاق يقول له : « أتريد أن أصحبك ؟ » ؛ فآلمته عبارة الرجل وقال بحدة : « كلا » . وغادر المكان بسرعة وقد محا الغضب دبيب الاضطراب الزاحف على نفسه ، ودخل إلى العمارة وصعد السلم بخطوات ثقيلة وجعل يرمق باب الغرفة الذى يدنو منه بعينين جامدتين ، وقد شل عقله عن التفكير ما يتجاذبه من الأفكار والخواطر التى تطفو على سطحه بسرعة وتغيب بأسرع مما ظهرت غير تاركة من أثر سوى الذهول فى النفس والحرارة فى الدماغ . ووجد نفسه واقفاً بإزاء الباب وكان يلهث كمن جرى شوطاً كبيراً وقلبه يخفق بعنف ويدفع الدم إلى رأسه فيدوى فى أذنيه ، وكأنه خشى على إرادته من التردد فدس يده فى جيبه وأخرج المفتاح وأولجه فى الباب وأداره بخفة وحذر ودفعه على مهل وأدخل رأسه ليلقى نظرة على الردهة ثم دخل وهو يكتم أنفاسه ورد الباب بلا إغلاق كيلا يحدث صوتاً

وكانت الردهة خالية وجميع الحجرات مغلقة... ترى أين الخادمة الصغيرة ؟ وانصرف نظره إلى حجرة النوم وخلع حذاءه ودنا منها على أطراف أصابعه حتى صار بإزاء بابها المغلق وانحنى قليلا ووضع أذنه على ثقب الباب وأرهف سمعه فخيل إليه أنه يسمع غمغمة خافتة وأصواتاً أخرى، ذهب الشك بعذابه وآماله وسفرت أمامه الحقيقة الأليمة المخزية وقد انطفأ نور بصره ثوانى

من شدة الغضب ولم يعد يحتمل الجمود فتراجع خطوتين وثنى ساقه وشد عليها بقوة جنونية ثم أطلقها بعنف فى الباب فارتج ارتجاجاً شديداً وانفتح بحالة تشنجية وخطا خطوتين فاجتاز عتبة الحجرة ، ودوت فى الحجرة صرخة جنونية وقفز من الفراش جسمان عاريان ، الزوجة وذاك الشاب ...

وكانت المرأة فى حالة جنونية من الرعب ، فجسدها يرتجف ووجهها يصفر وعيناها تتسعان ، وقد سحبت اللحاف على جسمها بحركة عكسية ولبثت تنظر إلى زوجها كأنما تنظر إلى شيطان رهيب .. أما الشاب فهمّ بالجرى إلى ثيابه الموضوعة على « الشيزلنج » ولكن قدميه تسمرتا فى الأرض فجمد فى مكانه ، وجعل ينظر إلى الزوج نظرة ذعر ويأس مميتين ، ومد يده إليه بتوسل وقال بصوت مرتجف كأصوات الأطفال المنتحبين : « فى عرضك »

من العجيب حقاً أن الزوج لم ينشه الجنون ولم يندفع إلى الانتقام كما يحدث عادة ، بل هبط عليه جمود غريب وتلبسه هدوء غامض شبيه بنكسة الخمر التى ترد المنتشى الهائج إلى ثقل النوم ، فلبث واقفاً مكانه وجعل يقلب عينيه بين العاشقين فى هدوء قاس كأنه يشاهد منظراً بعيداً عن مشاركة وجدانه ومشاعره ...

ورأى يد زوجه وهي تسحب اللحاف على جسمها فسألها ببرود قائلا :

« أتخجلين من الظهور أمامى عارية ؟ »

وتحول إلى الشاب ، فصاح به هذا بصوته المرتعش المحموم :

« الرحمة ... دعنى أرتد ثيابى وافعل بى ما تشاء »

فقال له ساخراً :

« هل يروقك أن تموت فى ثيابك ؟ »

فصاح الشاب مولولاً : « الرحمة ... أنا فى عرضك »

فقال له بلهجة رقيقة :

« إرتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى »

فلم يطمئن العاشق إلى قوله وتوسل إليه بصوته الباكى المرتعب : « إرحمنى ... »

فقال له يطمئنه ويشجعه :

« إرتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى ... تقدم ، إنى أعنى ما أقول »

ولكنه لم يتحرك من مكانه واشتدت الرجفة بجسمه حتى خاله سيصعق صعقاً ، فسار بنفسه إلى الشيزلنج وأتى له بثيابه وقدمها إليه قائلاً بسخرية : « أتحب أن أساعدك على ارتدائها ؟ » ، وأسرع فى لهفة يحشر جسمه حشراً فى ثيابه ، فانتهى فى ثوان ، وكان شكله زرياً مضحكا ، فشعر رأسه المدهون بالفازلين يبرز مبعثراً من حافة الطربوش ، وأزرار بنطلونه مفككة والقميص يتدلى من بينها ، والحذاء لم يعقد رباطه . ولكنه كان فى غيبوبة ذاهلة ، فنظر إلى الزوج نظرة تسليم ويأس وقال له :

— أنا تحت أمرك

وهز الرجل كتفيه استهانة وقال :

— وماذا أصنع بك ؟ لا فائدة لى فيك .. استأذن المانع ـ فاذا أذنت لك انصرف مصحوبا بالسلامة »

فألقى إليه الشاب بنظرة كأنها تقول : لم التعذيب ... أقتلنى إن شئت ولكن بسرعة . وقد فهم معناها فهز كتفيه مرة أخرى بهزء وقال :

ألا تريد أن تذهب ؟ ألم تشبع بعد ؟ أما تزال لك رغبة فيها ؟ ..

فاشتد الارتباك بالشاب ، ورأى الزوج يوسع له الطريق فتحرك بخطوات بطيئة وهو لا يصدق ما يسمع ومايرى. ولماصار بإزائه أحس بيده توضع على كتفه فانتفض رعباً وتوقع شراً ولكن الرجل بادره قائلاً : لا تخف... ستذهب كما تشاء ولكن أين..؟

قال هذا وبسط إليه كفه فنظر إليه العاشق مرتبكا متسائلا فقال :

— الثمن

فظل الشاب ينظر إليه صامتا فقال الزوج بلهجة جـدية

— مالك ! ؟ ألم تحظ بوصال هذه المرأة ؟ فلم لا تدفع الثمن ؟ هل تظن أن الوصال هنا بلا ثمن ؟

— سيدى ...

— يالك من عاشق بخيل! ألا تريد أن تجود بشيء؟ بكم تثمن هـذه المرأة ؟ هه ؟ إنها تستأهل ريالا فما رأيك ؟

ولما يئس من الشاب فتش جيوبه بنفسه حتى عثر على حافظة نقوده واستخرج منها ريالا ثم ردّها إليه وهو يقـول « تفضل الآن فاذهب إلى حيث تشاء ... »

وانفلت الشاب خارجاً لا يصدق أنه فاز بالنجاة، والتفت الزوج إلى زوجه فقال لها « ارتدى ثيابك ياسيدتى واطردى عنك الرعب فلا خوف عليك ولا أنت تحزنين »

* * *

كيف استطاع أن يسيطر على عواطفه ؟ كيف أمكن أن تطيعه أعصابه تلك الطاعة العمياء ؟ هذا سر من أسرار الطبيعة يعجز عن إيضاحه البيان ، وعلى كل حال فقـد انقضى ذلك اليوم كما ينقضى الكابوس الأليم . ولم يشر إليه — بعد انقضائه — بتلميح أو تصريح — ولا ذكره بخير أو شر ، ولا أجري بسببه تحقيقا ولا أثار عنه سؤالا وطالعها بوجه هادئ طبيعى كأنه شخص آخر غير الزوج المطعون، ولم ينقطع عن عمله أو يغـير من عاده ولا كف عن أحاديثه أو فتر عن مداعباته. وكان يذهب ويعود ويعمل ويستريح ويأكل ويشرب وينام ويقوم وكأنه زوج سعيد يباشر زوجه الحبيبة أورب بيت مطمئن يسهر على بيته وأسرته دون أن ينغص حياته منغص أو يكدر صفوها مكدر

وكانت المرأة فى أول عهدها بالفضيحة كالمجنونة من شدة مايعذب نفسها من الخوف والرعب والعذاب، وقد توسلت إليه ضارعة وهى تبكى أن يطلقها ويستر عليها، ولـكنه قال وكأنما فقد ذاكرته : «أطلقك! لم ؟ أمجنونة أنت ياعزيزتى ؟ » وأسقط فى يدها ولبثت حائرة مذعورة معذبة تخشاه وتتوجس منه خيفة ويغلق عليها أمره فلا هو يطلقها ولا هو ينتقم منها والأعجب من هذا جميعه سلوكه نحو عاشقها فى ذلك اليوم الأسود ...

ومضت الأيام طويلة ثقيلة فلم تحقق مخاوفها ولم تصدق هواجسها وأخذت تخف عليها وطأة الخوف وتتناسى همومها فيما تقوم به من الواجبات البيتية، ووجدت نفسها — وهى لا تدرى — تتفانى في خدمته والسهر على بيته وتوفير الراحة له بحماسة الخاطئ الذى يعـالج جرح ضميره بالتـكفير والتعذيب ، على أنها لم تطمئن إلى دعته كل الاطمئنان وكانت تسأل نفسها حيرى... ترى هل نسى وغفر ؟ أم هو يتناسى ويتمزى ، أو ما الذى تنطوى عليه حياته المبهمة وابتسامته الغامضة من النيات ...؟

ولبثا على حالها والأيام تحت السير وكل منهما متظاهر بالألفة والاطمئنان ويجتر أفكاره فيما بينه وبين نفسه ، حتى كان يوم دعا فيه الزوج جميع أهله وأهل زوجه إلى مأدبة غداء ، وبذل لإعدادها فوق ما تحتمل قدرته حباً وكرامة . وأمّ بيته ذلك اليوم جميع أفراد الأسرتين نساء ورجالا ، فتيات وفتيانا وعلى رأسهم حماه وحماته ، فضاق البيت بالمدعوين وضج جوه بأحاديثهم وضحكاتهم وازداد سعادة بما شملهم من ود عائلي جميل ... وتشعب الحديث شعباً مختلفة فطرق موضوعات السمنة والنحافة والزواج والعزوبة وبنات الأمس وبنات اليوم ، ومس السياسة حيناً والدرجات والعلاوات والأطفال أحياناً كثيرة ... وشارك المهندس في الأحاديث بشهية عظيمة ، وكان بادي المسرة والبهجة عظيم الاقبال على مجاملة ضيوفه والترحيب بهم

وقد توقف عن الكلام بغتة كأنما تذكر أمراً مهماً ، ثم دس يده في جيبه فأخرج ريالا ، جعل يقلبه في يده ثم أعطاه حماه وهو يقول :

— أنظر إلى هذا الريال ياعماه ... أتراه مزيفاً ؟

فأخذه الرجل وجعل يقلبه بين يديه وقد اتجهت إليه الأنظار من كل صوب ثم قال :

— كلا يا بني إنه صحيح لا شك فيه ... هل رفضه أحد ؟

واختلس الزوج نظرة الى زوجه فرأى وجهها مصفراً يحاكي وجوه الموتى فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— لم يرفضه أحد يا سيدي ولكني أردت أن أطمئن عليه لأنه محور قصة عجيبة قد يروقكم جميعاً سماعها

فازداد اهتمام الحاضرين ودل تطلعهم إليه على شوقهم إلى سماع قصته ، فطلب إلى حميه أن يعطي الريال زوجه ثم قال :

— إن شوشو تعرف قصة هذا الريال خيراً مني ، وسأتنازل لها عن حق روايتها ... هيا ياشوشو قصي عليهم القصة العجيبة وهي حقيقة تفتح شهوتهم للطعام

وانصرفت الوجوه إلى الزوجة وقد تضاعف اهتمام الجميع وتوقعوا جميعاً قصة شائقة . أما شوشو فكانت في حالة يرثى لها من الذعر والارتباك ، وقد جمعت قوتها المشتتة وقامت واقفة وشقت طريقاً بين الجالسين إلى باب الحجرة ، فاحتجوا على قيامها وحاول بعضهم منعها ولكنها قاومت الأيدي وهي تقول بصوت خافت مضطرب « انتظروا دقيقة ... سأعود في الحال ... »

وولت خارجة وعينا زوجها تتبعانها بنظرة قاسية

***

يستطيع القارئ أن يستنبط الخاتمة المروعة فانه لاشك يقرأ كثيراً في الصحف عن اللاتي يرمين بأنفسهن من النوافذ العالية فيسقطن مهشمات مشوهات ، ولعله إذ يقرأ هذه الأخبار المقتضبة يتساءل عن أسبابها الخفية ويذهب به الحدس كل مذهب . فهذا سر واحدة من أولئك المنتحرات ، وإنه ليؤسفني أن تنتهي القصة إلى هذه النهاية المحزنة ولكن ما حيلتي وقد بدأت بتلك البداية الأسيفة ؟

والحق لا تقع عليّ تبعة بدايتها ولا نهايتها فهكذا يرويها بطلها المحزون الذي غدا لا يفارق الحانة ليل نهار . وكم تمنيت لو كان كاتبها كما كان راويها ، لأني وأسفاه لا أستطيع مهما أحاول أن أبلغ بعض ما يبلغ من صدق الرواية وقوة التعبير

نجيب محفوظ



الفصل السابع والعشرون

أعضاء السفارة يحضرون وليمة

فى اليوم التالى لافتتاح البرلمان جاء المترجم إلى السفير وقال له : «هذه خمس دعوات لتناول العشاء»

فقال السفير : الله الله ! من الذى يستطيع أن يأكل خمس مرات فى ليلة واحدة ؟ »

قال المترجم : « ليس من الضرورى أن تأكل بتاتاً بل تحضر الاجتماع دون أن تتناول الطعام ؛ وهذا مسموح به فى عوائدنا »

قال السفير : « هبنى لا آكل شيئاً ، ولكن حضور خمس دعوات يستغرق جانباً عظيما من الليل فكيف ذلك ؟ إننا فارسيون ننام بعد صلاة العشاء ونستيقظ قبل أذان الفجر »

فقال المترجم : « ما دمت مقيما بيننا فانك ستعتاد عاداتنا ؛ ونحن لا نكاد نفرق بين الليل وبين النهار فى هذا الفصل من العام »

فقبل السفير وذهب معه ومع المترجم . وكانت الوليمة الأولى فى قصر وزير ، وقد لبس السفير كعادته فى الحفلات ووضع الريشة على قلبقه والخنجر فى حزامه وتقلد السيف المجوهر . ولبست كذلك ما يلائم هذه الحفلة من الثياب

وصلنا إلى قصر الوزير فلم يقل لنا أحد « باسم الله ! » ولا دعانا أحد للأكل بل فتح باب ودق جرس فقام من أراد أن يقوم إلى غرفة المائدة ، وانتظر فى غرفة الجلوس من أراد أن ينتظر

وكان صاحب المنزل كأنه أحد الزوار ، والزوار كأنهم فى بيوتهم ، فلا خجل ولا احتشام ولا انتظار للترحيب . وكانت زوجة صاحب المنزل موجودة بيننا كأنها أحد الرجال ، وكأنه لا شأن لها بأعمال الطباخين ونظام الوليمة ! وكل الذى وجدناه من مظاهر الترحيب هو النظر إلينا والابتسام . وكان بيننا كثير من السيدات لو أن على وجه إحداهن نقاباً لتدلهت غراماً بها ، ولكن لسفورهن ما كنت أفكر فى أنهن نساء

وقد بدأت المحادثة عما إذا كانت الشمس قد ظهرت فى هذا اليوم أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها ظهرت ، واشتد الخلاف على مدة ظهورها ، فقال البعض إنها خمس دقائق وقال آخرون بل عشر

وكان التكلم فى هذا الموضوع موجهاً الالتفات إلينا لما يظنه البعض من أن الفرس يعبدون الشمس . وسألتنا زوجة الوزير عن ذلك فأجابها السفير : « إن بلادكم ليست فى حاجة إلى الشمس ما دام لنسائكم هذه الوجوه المشرقة . فلما ترجم هذا القول إلى اللغة الانكليزية قوبل بالاستحسان العام واعتبر فكاهة لطيفة

وقال الوزير : «ولكن إذا عبدتم هذه الشموس كما تعبدون الشمس فى بلادكم ، فإننا سنفكر فى إنشاء

مصنع للبراقع فى لانكشير ونجعل فى كل بيت قسماً للحريم

وعلى أثر ذلك تبادل الحاضرون المزاح والفكاهة فى هذا الموضوع . وقد دلنا ذلك على شىء فى الخلق الانكليزي لم نكن نتوقعه لأن هذه الشفاه المطبقة التى لا تكاد أن تفتح للكلام برهنت على أن دونها روحاً فكاهية حلوة

وقد حضرت العشاء فلم أجد متسعاً من الوقت للتفكير فيما إذا كان اللحم لحم حيوان مذبوح أو ميت، بل أكلت كل ما وقعت يدى عليه . ورأيت أمامي أنواعاً من النبيذ ما راعيت فى الامتناع عنها إلا وجود السفير

ولقد خطر لى فى أثنـاء الطعام أن هذا اللحم لحم خنزير . ولـكن يدى لم تقف عن تناوله بل قلت باسم الله ثم التهمته

وكان السـفير أكثر حذقاً مني فى استعمال الشوكة والسكين وأشد إقبالاً على تناول الطعام . ولقد أخطأت بحكم العادة مرتين فاسترعيت لسوء الحظ أنظار من حولى . أما إحدى الغلطتين فاني قاسمت جارى خبزه ؛ وأما الغلطة الثانيـة فانى شربت من كوبه . وكدت آخذ شيئاً من الطعـام بأصابعى ولـكننى تمالـكت نفسى قبل الوقوع فى هذه الغلطة

ولما انتهى الأكل وقف السيدات دون الرجال وبقى هؤلاء وحدهم على المائدة ، فقلت للترجم : إن هذا هو الشيء الوحيد الذى وجدناه قريباًمن عوائدنا ولا بد أن يكون مستعاراً من الاسلام

فقال المترجم : إن النساء يقمن قبل آخر الوليمة ليكون الرجال أكثر حرية فى شرب النبيذ وفى المحادثة

وقد شجعنى التبسط فى الـكلام أثناء ما جرى من الحديث على أن أتكلم باللغة الانكليزية فكان الجميع ينظرون إليّ ويبتسمون ولا أعرف هل فهموا ما كنت أقول أم لم يفهموه

الفصل الثامن والعشرون

المحاضرة

لما انتهت الوليمة الأولى ذهبنا مع المترجم إلى قصر آخر وهو الذى فيه الحفلة الثانية ، وهى حفلة راقصة . وقد جلس السفير إلى جانب زوجة اللورد وجلس كل رجل بجانب سيدة

وسأل السفير المترجم : لماذا يجملون حفلاتهم بالليل ؟ أليس فى النهارمتسع من الوقت لذلك ؟

فقال المترجم : إن الوقت لا يتسع الآن للشرح . فسكت السفير وقد كنت وإياه فى أشد الحاجة للنوم . ولولا احترام الموقف لأدركنا النعاس ونحن جالسون

وإنى أشك كل الشك فى تصديق الناس إياى لو وصفت لهم ما رأيته فى هذه الحفلة

لقد كان النساء يتحلين من الجواهر بما لا يوجد مثله عند الشاه . وكانت أجمل فارسية تعد دميمة بالقياس إلى من رأيتهن من الحسان . ولئن كنا نصف أجياد السيدات وعيونهن بعيون الغزلان وأجيادها ، فإن هذا التشبيه يزرى بالجمال الذى رأيناه ، والذى ليس من حقه أن يشبه بشىء ما . وقلت في نفسى إذا كان فى الدنيا لذة وسرور فهما فى الرقص دون غيره . وإذا كان النساء جديرات بالحب فهن نساء هذا البلد السافرات لا نساء فارس المحتجبات

هكذا كان مجال تفـكيرى . ويظهر أنه كان

مرتسما على وجهى ؛ فان أحد الجالسين حادثنى باللغة الفارسية وسألنى ألست أفكر فى المنظر الذى أراه ؟ فقلت: «بلى، ولكنى أظن أن السيدات الانكليزيات يصرن أجمل مما هن الآن إذا وضعن على وجوههن البراقع ، فلماذا لا تفرضون عليهن ذلك ؟ »

فابتسم وقال: «قد يفعلن ذلك فى يوم من الأيام إذا ظهر لهن أنه يبرز جمالهن . ولكن كل إنسان فى هذه البلاد حر فى وجهه يفعل به ما يشاء »

قلت : « ولكن العجائز قبيحات جداً ولست أعرف السبب فى ذلك . فهل عند شاهكم طريقة للتخلص منهن؟ لقد كان الشاه عباس يقتل الخصيان إذا لم يموتوا من تلقاء أنفسهم فى الوقت المناسب »

فضحك محدثى وقال : « إن قتل امرأة عجوز قد يؤدى إلى نشوب ثورة ، وليس من الممكن أن أن يقوم بيننا ملك كالشاه عباس »

ثم أخذ يشرح لى بعض عادات بلاده التى لم تكن لدىّ فكرة عنها

وأشار إلى أحد الجالسين فقال إنه ولى العهد . وهو كسائر الموجودين يتحدث ببساطة ولا يميزه الناس التفاتاً خاصاً سوى أنهم يحرصون بقدر الامكان على ألا يوليه أحد ظهره

قلت : « ألم تقدم إليه الهدايا عند مجيئه ؟

فقال : « لا أعرف أنه أخذ شيئاً غير ما شربه من اللبن والشاى

قلت : « هذا شىء غريب ! ان الملك وأبناءه ليس لهم أقل امتياز فى هذه البلاد ، ولكن فى بلادنا يعد الجلوس فى مكان واحد مع أحد الأمراء نعمة كبرى »

وجـدت بين الجالسين رجلا يحتفى به الجميع أكثر من احتفائهم بالأمير ويظهر له الأمير نفسه أكبر احترام

قلت لمحدثى : « أليس هذا أميراً أيضاً ؟ إننا معشر الفارسيين نلتفت كل الالتفات إلى مظاهر الوجاهة فلا يفوتنا شىء منها

فقال : « لقد أصبت ! إن هذا رجل كبير الأهمية عندنا وإن لم يكن أميراً . وقد نشأ جندياً بسيطاً وارتقى بنشاطه فى صفوف الجيش فهو يعدل عندكم الملقبين بلقب « غازى »

قلت : « ولكننى أراه يسكب الشاى فى فنجان امرأة عجوز وذلك ماليس يفعله عندنا غير الخدم . إن أحد القواد عندنا لو فعل مثل ذلك لعزله الشاه فى اليوم التالى لأنه استخف بكرامة نفسه

فابتسم وقال : « دعنا من ذلك الآن وانظر إلى المخاصرة فهذا شىء جديد عليك » والمخاصرة أن يشتبك كل رجل مع سيدة بيديه ورجليه ويدور على نغمة ما . وليس فى بلادنا من يرقص غير الأجيرات . ولكن هؤلاء أعلى طبقة من الناس ولا يرقصون إلا رغبة فى السرور

فلما أبديت له هذه الملاحظة قال إن المأجورات على الرقص يوجدن هنا فى مسارح عامة وستراهن فى يوم من الأيام

قلت : « أليس عندكم من يرى الرقص غير لائق أو يحاول إبطال هذه العادة ؟ »

فقال : « هذه عادة حديثة وقد وجدت مقاومة فى بدء ظهورها . ولكن عندنا مايقال له «المودة» وهى أقوى من شاهكم ألف مرة وأكثر استبداداً . وسبب التعلق بالمودة هو أن رغبتنا فى التقدم لا تجد حداً تقف عنده

كان الراقصون إلى الآن من الشبان ولكنني رأيت فجأة ما هالني وأدهشني

فقلت لجاري : « ألا ترى ؟ هذا رئيس وزارتكم يرقص ! »

فابتسم وقال : « ماذا يهولك من ذلك ؟ إن ملكنا يرقص أيضاً وكذلك المفتى عندنا ورجال الكنيسة والحربية والبحرية والقضاة

قلت : « أقسم برأس الحسين لو أن الشاه علم أن أحد وزرائه يرقص لضربه على قدميه فى الطريق العام إن لم يفعل به أكثر من ذلك »

في كل هذه المدة كان السفير غائباً عن نظرى وأخيراً وجدته بين جماعة من النساء . وكان أكبر اهتمامه بواحدة منهن جالسة أمامه وهو لا يريد الانصراف عنها ولا الكف عن محادثتها . وكانت نظراته إليها كنظرات المجنون إلى ليلاه

ولما انتهت السهرة عدت مع السفير في عربة إلى دار السفارة ولم نذهب إلى سائر الولائم لأن الساعة كانت متأخرة من الليل

الفصل التاسع والعشرون

السفير يحب

لما كنا فى العربة لاحظت أن السفير لا يطيق كتمان ما به من اللواعج . ولم يطل صمته حتى قال : « أقسم يا حاجى بابا أن فؤادى قد سلب ! هل رأيت مثل هذه العيون والثغور والأجياد ؟ هل رأيت شعوراً مثل هذا الشعور ؟ هل رأيت جلوداً أرق من هذه الجلود ؟ إن فؤادى يكاد يحترق ولكن ما الفائدة من هذا القول ؟ إننا فارسيون وهؤلاء النصارى لا يزوجوننا من بناتهم حتى ولو قبلنا أن نحلق لحانا وشواربنا . قل لى ما الذى أفعل ؟ تكلم يا حاجى بابا »

قلت : « ما الذى أستطيع أن أقول ؟ إنها جميلة حقاً . ولكن كيف عثرت عليها ؟ »

فقال : « إن شعورها تحوى مثل شعورى نحوها وقد نظرت إليها للمرة الأولى فى مجلس النواب . ولما تبادلنا النظرات جاءت بها أمها إلىّ وقد تمكن حبنا فما الذي أفعل ؟

قلت : « أرى أن تكتب إليها أبياتاً من الشعر ، فإن الحب بغير شعر أمر لن يكون »

قال السفير : « نعم يا حاجى بابا . ولقد قلت أبياتاً من الشعر منذ رأيتها ، ولكن من الذى يستطيع أن يفهم شعرى الفارسى ؟ ولقد حاول المترجم أن يشرح لها ولأمها ولمن رأيتهم حولنا هذه الأبيات فبدل أن يطربوا أخذوا يضحكون . وهذا هو معنى مطلع القصيدة

« يا نسيم الحب قل للمروحة التى تحركك لماذا تطردنا نحن إلى الصحارى والجبال ؟ »

قلت : « إذا كان هذا الشعر لا يملك قلبها فان قلبها يستحيل إذن أن يملك . وأرى على أية حال أن تبعث إليها بالهدايا من الشيلان والجواهر وأن تكتب إليها خطاباً بالمداد الأحمر »

فقال : « هذه بلاد شديدة الخطر على رجل مسلم . إن عيون نسائها تقتل يميناً ويساراً ولا أمل في الزواج لغير المسيحى »

ومن ذلك الوقت لم يصطحبنى السفير ولم يصطحب أى رجل من أعضاء السفارة إلى الحفلات التى يحضرها سيدات من الانكليز . ولعل ذلك خوفاً من نقل أخباره إلى الشاه ، أو لعله لا يريد أن نشهد

ضحك حبيبته وأصحابها منه ، أو لعله خشى أن تزاحمه فى حبه

ومهما يكن غرضه فانه صار لا يصطحب غير المترجم. وكانا يترددان على قصر كبير يكاد يكون أكبر من قصر الشاه . وهذا القصر لإحياء الموسيقى والرقص؛ وقد ذهبت معها مرة إليه لأنه من الأماكن العامة التى يستطيع أن تزورها كل إنسان مقابل أجر معين ؛ ويطلقون على هذا القصر اسم «الاوبرا» ؛ وتكوينه من الداخل عجيب جداً ، ففيه أماكن كخلايا النحل ضيقة يجلس فيها الوجهاء ؛ أما المكان الفسيح فى صحن البناء ففيه كراسى يجلس عليها العامة

جلسنا فى خلية من هذه الخلايا التى يختلط فيها الرجال بالنساء . وكان عدد كبير من الناس لا نرى إلا رؤوسهم، والمكان مضاء بأنوار أسطع من التى فى معرض النور بقصر الشاه

واستقبل الكل منصة عالية كالتى يجلس عليها القضاة ويسمونها المسرح . وصدحت الموسيقى فلم تلائم أصواتها أذواقنا لأنها تخرج مئات من الأصوات المختلفة ، يختلط بعضها ببعض فيجعل اللحن شديد الاضطراب ، ولكن الانكليز يطربون له كما نطرب نحن لسماع أغانينا الشجية

وعلى حين فجأة ارتفع ستار عظيم كان يغطى هذه المنصة فرأينا من المناظر ما يعجز القلم عن وصفه

مثلت رواية محزنة كدنا نبكى عند مشاهدتها ، ثم تلاها رقص وغناء لم يعجبنا فى أول الأمر لقبح الطريقة ، ولكنه أطربنا بعد قليل لرخامة الأصوات . أما الرقص فإنه مدهش إلى غير حد ، وأقسم لو شاهده الشاه لنزل مهرولاً عن عرشه فجثا أمام هؤلاء الحور اللواتى لا يشبهن إلا حور الجنة

وقد عجزنا عن مفاخرة الانكليز فى هذا الشأن لأنه ليس لدينا موسيقيون أو مغنون نفتخر بهم وإن كان عندنا شىء من الغناء والموسيقى . أما التمثيل فهو إبداع ليس لنا فيه أقل نصيب

وقد استمر السفير يذهب إلى هذا المكان حتى توهم بعض الانكليز أنه مسرور من كل عوائدهم

وطلبوا إليه أن يسعى فى بلاده إلى رفع الحجاب عن السيدات وتعويد النساء والرجال الفارسيين عوائد الفرنجستان . فعند ذلك غضب السفير وكف عن الذهاب إلى هذا المسرح إظهاراً لاقتناعه بفضل عاداتنا الشرقية . ولما جرى الحديث بينه وبين المترجم عن الملاهى قال المترجم إنها ضرورية لانعاش الناس وتجديد قواهم

فقال السفير : « يظهر أن الشعب الانكليزى من أبلد الشعوب لأنه محتاج دائماً إلى التنشيط والانعاش ، أما نحن فى إيران فحسبنا من ذلك النيروز وحفلة ذكرى الحسين

وحضرنا بعض حفلات التمثيل ، وبالرغم من أننا لم نفهم ما يقال على المسرح فقد كانت مجرد الرؤية كافية لافهامنا المعنى ، واقتنعنا بأن هذا هو شعب المجانين . وحمدنا الله على العقل والحكمة اللذين وهبهما للشعب الفارسى

الفصل الثلاثون

حاجى بابا يتكلم الانكليزية

بدأت أخاطب الناس باللغة الانكليزية التى كان فهمى لما أسمعه منها أكبر من استعدادي للتكلم بها . ولقد وجدت كثيراً من كلامى لا يفهم بسهولة ، ووجدت ذاكرتى تخونني فى حفظ بعض الكلمات

فاننى أظن أنى نطقت بها كما سمعتها والحقيقة أنى حرفتها تحريفاً عظيما

وكذلك كان السفير يحاول الكلام باللغة الانكليزية مع حبيبته ومع الوسط الذى يلقاها فيه . وفى يوم من الأيام أقبل علىّ منزعجاً وهو يصيح : « هات القاموس ! يظهر أن الذين كانوا على ظهر السفينة خدعونى فأفهمونى معنى كلمة على غير صحة . وقد نطقت بها أمام السيدات فضحكن وأخجلننى . والله لو رأيت هؤلاء البحارة لمزقت جلودهم

قلت له : « ماهى هذه الكلمة وما مناسبتها ؟»

فقال : « لقد سألتنى الفتاة عن زوجتى فى فارس فوصفتها لها وتشجعت على الكلام باللغة الانكليزية ، فلما نطقت باحدى هذه الكلمات حملقت هى ومن حولها ثم تهامسن وتضاحكن وشعرت بالخجل لأنهن لم يطلعننى على غلطتى

وفى هذه اللحظة جاء المترجم فسردنا عليه الخبر فابتسم وقال للسفير : هذه الكلمة من أغلظ ما فى لغتنا من الكلمات ، ولا بد أن تكون تسقطتها من البحارة أو السابلة . فألح السفير فى البحث عنها فى القاموس . وقد وجدها فيه ووجد لها معنى مناسباً فاطمأن وقال : يظهر أن ما يسميه المترجم (بالمودة) يعترى الكلمات عندهم أيضاً فما يجوز عندهم التكلم به اليوم لا يجوز فى الغد

وعزم على أن يكتب لتلك الفتاة فيخبرها بأنه وجد الكلمة فى القاموس

ولكن المترجم نفى ضرورة ذلك وقال : إن فطنتها ستدلها على أن السفير غير متعمد للخطأ . وإن الكتابة إليها قد تضطرها إلى الرد مع أنها تؤثر بالطبع أن تتجاهل حدوث هذه الغلطة »

قال السفير : « إذن هذه رقة فى طباعكم ! ألا تعود إلى ذكر هذه الغلطة ؟ هل قلت إنها تتجاهلها ؟ هذه هى نهاية التهذيب . إننا مهذبون فى فارس ولكننا لم نبلغ بعد هذه الدرجة »

فقال المترجم : « إن أصل معنى الكلمة عادى ، ولكن الكناية معروفة فى انكلترا كما هى معروفة عند الفارسيين ؛ وفى كل يوم تتجدد كلمات يكنى بها عن المعانى التى أصبحت كناياتها القديمة مبتذلة

قال السفير : « على ذكر الكنايات أسألك عن الكلمة التى يكنى بها عن كلمة زوجة ؟ »

فقال المترجم : « هذه كلمة لا تحتاج إلى كناية »

قال السفير : « ما أبعد الأذواق بين الأمم المختلفة ! هل يجرؤ أحدكم على سؤال الآخر عن زوجته دون أن يكنى عنها ؟ ألا تشير هذه الكلمة إلى ألف معنى من المعانى المبتذلة ؟ إننا لا نقول لأحد كيف زوجتك ولكننا نقول كيف بيتكم »

قال المترجم : « هذا الاصطلاح عندكم له ما يبرره لأنه ليس لأحدكم زوجة واحدة بل زوجات متعددات . أما نحن فما دام المرء لا يتزوج إلا من واحدة فقط فلا معنى لهذا التعبير الجامع

قال السفير : « أليس فى لغتكم تعبير يبتدىء به كل شىء مثل قولنا « باسم الله »

فقال المترجم : « لا »

قال السفير : « يظهر إذن أنكم من فصيلة كردية، فان الأكراد لا يبدأون باسم الله . ونحن فى فارس نسميهم عباد الشيطان من أجل هذا السبب

فقال المترجم : « إن الألفاظ التى يطول تكرارها تفقد وقعها . وفى اللغات ألفاظ كثيرة يجب أن تصان عن الابتذال

قال السفير : « إذن لماذا لا تصونون بعض ألفاظكم مثل كلمة « دام » التي سمعتها من كل انسان فقلتها للسيدة فضحكت مني ؟ » فلم يحر المترجم جواباً ، ولكن عند انتهاء الحادثة صمم السفير على الاتفاق مع مدرس يعلمه اللغة الانكليزية ... وكذلك صممت تنفيذاً لأمر الشاه حتى أتمكن في وقت قصير من ترجمة الكتب الانكليزية

وقد نصحنا المعلم بأن نتعلم اللغة اللاتينية أيضاً فقال السفير : « وما هي اللاتينية ؟ إنني لم أسمع قط هذا الاسم »

قال المعلم : « إن الانسان لا يعرف شيئاً عن العالم حتى يتعلم اللغة اللاتينية »

فغضب السفير وقال : « إن بلادنا من عهد جمشيد تعيش بغير اللغة اللاتينية وقد أحرقنا قبور الروس مع ذلك »

قال المعلم : « إذا كنتم تجهلون اللاتينية فانكم تعرفون الفرنسية أو الايطالية فهما لغتان شائعتان » فقال السفير إننا لا نعرف الفرنسية ولا الايطالية ، ولكن عدداً قليلاً منا يعرف التركية أو العربية ؛ فأصر المعلم الغبي على ضرورة تعلم اللاتينية . ومن ذلك اليوم وضعنا له اسما لنسخر به فدعوناه لاتيناجي

الفصل السادس والثلاثون

السيدات الانكليزيات يزرن السفير

مضى علينا عدة شهور فى بلاد الانكليز واعتدنا كثيراً من عوائدهم ، فكنا عندما يسير اثنان منا معاً لا يمسك أحدهما بذراع الآخر فى الطريق لأن هذه العادة خاصة فى انكلترا بالرجل مع المرأة . وامتنعنا عن الأكل بأصابعنا واعتدنا شرب الجعة وامتنعنا عن جلوس القرفصاء وكثير زوارنا خصوصاً من السيدات اللواتى كن يستصحبن إلينا أزواجهن وإخوتهن . وكانت الواحدة منهن تأتى وحدها فى بعض الأحيان وقد توطدت الصداقة بين السفير وبين الكثيرات منهن وكثرت هداياه إليهن . ولكن حبه ظل مقتصراً على واحدة منهن هى الأولى التى تقدم ذكرها

وفى يوم من الأيام وصلت رسالة من طهران فاهتاج السفير عند قراءتها وأخذ يسب رئيس الوزارة ويلعنه ، وقال إن هذا الخطاب من زوجته وإنها علمت بأن لديه جارية شركسية وإنها تؤنبه . وقال بصوت ملؤه الرقة : « لماذا تلومني وتؤنبني ؟ إن الجارية ستكون خادماً لها عند ما نعود إلى إيران . أليس يكفيها من العناية بها والحرص على رضاها أنني لم أجمع إليها زوجة أخرى ؟ » ثم عاد الغضب فاستولى عليه وصاح : « ولكن من الذى أبلغها ؟ هل يوجد هنا من يتجسس على ؟ » وأخذ يلعن الساعة التى عين فيها بهذا المنصب وغادر بلاده المحبوبة وزوجته وابنه

ومن بين العادات التى اعتادها السفير شراء جريدة انكليزية كل يوم لأنه كان يجد بها أخبار انتقاله وأعماله . وكان بعضها يأتي محرفاً فى كثير من الأحيان فيغضب ويهتاج ويرسل تكذيباً للجريدة . وكان يقول قبل أن يفتح الجريدة : « سنرى ماذا قال عنى الكذابون اليوم »

وكان يقول : « لو أن شاهنا يطلع على هذه الأخبار فانه بغير شك سيقابلنى بالقرعة والفلقة » عند ما أعود إلى طهران

وكان من بين الأخبار التى كتبتها تلك الجريدة

عنه أنه يضرب جاريته الشركسية »

وحدث فى يوم من الأيام حادث مزعج جدير بأن يكتب فى قصة ألف ليلة . وذلك أننى كنت خارجاً من باب السفارة فقابلت سيدتين إحداهما أكبر من الأخرى . وكلتاهما جميلة جداً . ولكن الصغرى أجمل . وكان شكلهما لا يدل على أنهما من الانكليزيات

تقدمت منى الكبرى وطلبت إلىّ فى جرأة مدهشة أن أصحبها إلى منزلى أو منزلها لتقضى ساعة لهو . فتجاهلت الغرض وتباهلت ، ولكنها ألحّت علىّ وأكدت أنه لا خوف من ذلك . وعدت بهما إلى غرفة الجلوس فى دار السفارة وقدمت لها الفاكهة والجعة وتسامرنا . ولكن الصغرى كانت أجمل فى عينى من الكبرى فخصصتها بعطفى ، وقد رأيت علائم الغيرة على وجه الكبرى وأنا خبير بغيرة النساء فى فارس ، ولكننى لم أر قط غيرة جنونية كغيرة هذه السيدة ، فلم أكد أقبل الفتاة التى أعجبت بها حتى انهالت على الكبرى بالضرب واللكم واللكز فأعطيتها ما معى من القطع الفضية ولكن اللعينة رمت بها فكسرت المرآة . وأسرعت فخرجت من الغرفة ودخلت غرفتى الخاصة

وبعد قليل سمعت بواب السفارة يطلب الترجم ويقول له إن فى غرفة الجلوس سيدتين غريبتين إحداهما تبكى والأخرى تصيح فخرج الترجم وسمعت السيدة الكبيرة تقول له : « لا تخدعنى فانك حلقت ذقنك وجئت تتجاهلنى »

وسمعت الترجم يطردها ويتوعدها بأن يرسل فى طلب البوليس . فخرجت السيدة وعاد الترجم وسألته وأنا أتجاهل الحقيقة فأجاب بأن السيدتين من البرتغال . وأفهمنى أن الحقيقة لا تخفى عليه

ولما جاء السفير قال له الترجم ونحن موجودون إن لوندرا ليست مثل طهران ، فكل شخص فى طهران معروف إلى حد ما . أما فى لوندرا فالناس كثيرون وفيهم من يحصل على القوت بطريق غير شريفة وإنه لذلك ينصح لكل من فى السفارة ألاّ يسمحوا بدخول أحد إليها إلا إذا قدمه الترجم

الفصل الثانى والثلاثون

أكاذيب الانكليز

نسيت هذه الحادثة سريعاً وكان كل يوم يمر يزيد السفير انصرافاً عن السفارة ومن فيها إلى مباشرة الانكليزيات والانكليز . وقد كنا نعتقد أننا معشر الفارسيين أقدر الناس على الكذب . ولكن إقامتنا فى لوندرا دلتنا على أن الانكليز هم أكذب الناس حقاً . فمن أمثلة كذبهم أن أحد تجار العربات أهدى إلى سفيرنا سوطاً جميلا فقبله منه . وفى اليوم التالى وجدناه قد كتب على بابه وفى الصحف أيضاً أنه « متعهد لتوريد العربات إلى شاه إيران » وكنت مرة أمشى فى الطريق مع محمد بك فررنا بتاجر دعانا وقدم إلينا جوارب ومناديل فلم نقبلها ولكنه ألح وأكرهنا على أخذها فأخذناها . ولما مررنا بحانوته بعد ذلك رأيناه قد كتب أنه متعهد التوريد للسفارة الفارسية فعرفنا أننا لسنا وحدنا القادرين على الضحك على الذقون

وأرسل أحد المسارح دعوة إلى السفير ليحضر حفلة تمثيلية . فلما لم يردها وجدنا إعلانات كبيرة فى الشوارع مكتوباً عليها بالخط العريض أن السفير الفارسى هو الذى اقترح تمثيل الرواية وأنه سيحضرها

وفى الليلة المحددة لتمثيل هذه الرواية أرسلني السفير مندوباً عنه فى حضورها ، وقد تصادف أن المقصورة التى جلست بها تجاور مقصورة أخرى بها ثلاث فتيات وأمهن وأبوهن

وكان هذا الأب مفرطاً فى السمن وزوجته نحيلة جداً . أما الفتيات فانهن زاهرت يانعات من زهر الجمال

وتصادف أن يدى لست عن غير قصد منى يد إحدى الفتيات فكان ذلك داعياً للالتفات إلى والرغبة الشديدة فى التعرف على

قالت الأم لها : « قدمي إليه برتقالة » فخجلت الفتاة وهى صغراهن وقدمت إلى برتقالة على استحياء . فقلت فى نفسي هذه تحية فارسية وقبلتها منها مع الشكر ، وشكرنى الأب على قبولها وعدّ ذلك منى ملاطفة وقال وهو يحسبنى السفير : إنه يتمني توثيق العلائق بين انكلترا وبين إيران

فتظاهرت بأبهة السفراء وأجبته جواباً ملائماً . وقد اتضح لى أن الرجل مشهور بوطنيته بين الانكليز . ثم سألنى هل فى فارس مسارح وهل أعرف اللغة الفرنسية وهل أنا متزوج ؟ فأجبته على ذلك

ولما سمعوا منى أنى لم أتزوج زاد اهتمامهم بى ولم تكف الأم عن النظر إلى ، وأخذت كل فتاة تعدل من ثيابها

قالت لى الأم : إن كبرى بناتها كريمة القلب تحب الفقراء ، وأنها تحوك الجوارب بيدها وتخيط الثياب وتعلم الأطفال ، وأن الفتاة الوسطى تجيد الرقص والعزف على البيانو وتتقن الايطالية ، وإن الصغرى لا تزال فى المدرسة ولم « تخرج من البيضة » إلى الآن — كما يقول الأتراك — ولمحت تلميحاً خفيفاً إلى أن الفتيات سيصرن من أغنى السيدات فى يوم من الأيام لأن لهن عمات وخالات كثيرات

ولقد استكشفت من حديثها السبب فى حرص الانكليز على المجائز من نسائهن فانها لما تكلمت عن زوجها لم تدع صفة من الصفات الحسنة إلا ونسبتها إليه بحيث لو اجتمعت فيه كل هذه الصفات لكان من الملائكة لامن الناس ، ووصفته بأنه غنى كريم حسن الأخلاق يحب أبناءه وبناته . فقلت ماشاء الله وهو سمين أيضاً فما اسمه ؟

قالت : اسمه يا صاحب السعادة المستر «هوج» وهو من أسرة اسكوتلاندية عريقة

ولما كانت كلمة « هوج » فى اللغة الانكليزية تعني «الخنزير» فقد كتمت ابتسامى وقلت فى نفسى : « لو كان هذا الرجل فى فارس لكان اسمه « ميرزا خنزير» أو «خنزير خان» ولا بد أن يكون الخنزير محترماً جداً فى هذه البلاد حتى سموا أبناءهم باسمه وقلت لها : « وما اسمك أنت ؟ »

فقالت : « كلنا من أسرة هوج . وقالت إن اسم ابنتها الكبرى «مارى» واسم الوسطى « بيسى » واسم الصغرى : « جمى »

ولما بدأ الفتيات يتكلمن معي أمطرنني وابلاً من الأسئلة . وكان بين أسئلتهن هل اليهود مضطهدون فى فارس كما هم مضطهدون في روسيا ؟ وهل فى طهران تمثال للاسكندر المقدوني . ومثل ذلك من المفارقات . وقد فتنتنى الفتاة الوسطى بحديثها الحلو وصوتها الرخيم

ولما أرخى الستار وبدأ الناس ينصرفون قدم لى المستر هوج تلك القصاصة من الورق التى عليها

اسمه كما هى العادة عندهم وقال إنه سيزورنى ومعه أسرته فى اليوم التالى ...

لم يطل عهد ظنهم أنى أنا السفير لأن هؤلاء الانكليز يبحثون ويتساءلون . ولكن بحثهم لم ينقص من مكانتى بل زادها كما سيظهر فيما بعد فقد علموا أن لقبى ميرزا وحسبونى لذلك أميراً . وبدل أن ينادونى فى اليوم التالى ياصاحب السعادة صاروا يقولون لى يا سمو الأمير

وفى صباح اليوم التالى وقفت عربتهم على باب السفارة . ودعونى إلى تناول العشاء عندهم فى يوم بعيد من الشهر المقبل فقلت فى نفسى هؤلاء أول قوم من الانكليز أراهم يستقدون بالتنجيم وإلا فلماذا يحددون هذا اليوم البعيد ؟

ولم أشأ أن أعرفهم بالسفير لأنه شديد الغيرة وقد كنت أعرف أنه من حق اختيار أصحابى . ولكنى لمعرفتى باخلاقه من جهة ، وحرصاً على ألا يرى المستر هوج وبناته خضوعى أمام رئيسى آثرت ألا أعرفهم به . والحق أن الانكليز يجهلون تمام الجهل هذا الخلق فينا ، فان أحدهم لا يتكلف فى الوقوف أو الكلام أمام وزير أو أمير ، ولكننا نحن الفارسيين نقف بشكل مزر أمام من هو أرقى منا ولا يستطيع الصغير ذو الكرامة أن يغير هذا الطبع لأن رؤساءه يتطلبونه وأقرانه لا يعذرونه

ومن العادات الغريبة عند الانكليز أن العروس هى التى تدفع المهر وأن مهرها فى العادة أضعاف ما يدفعه الرجل عندنا لعروسه . وقد أخبرتنى زوجة المستر هوج بأن مهر إحدى بناتها ثروة طائلة

قلت : لماذا لا أكون أول اصفهانى يتزوج من انجليزية ؟ إننى إن تزوجت فى إيران فلن أتزوج من غنية ، فالفارسيون يحرصون على التناسب بين أسرة الزوج وأسرة الزوجة خصوصاً بين الطبقات العالية . وفضلا عن ذلك فانى لو تزوجت من فارسية غنية فانى لا آخذ مثل هذا المهر الكبير . والفتاة مع ذلك جميلة وفوق الجميلة ، وأنا لا أزال فى ميعة الشباب فأنا كفء لها ، ولا تزال لحيتى سوداء كأول يوم سميت فيه لحية . وإذا ظهرت فيها شعرات بيضاء فالحناء موجودة ، وما ينقصنى إلا أن أتقن الكلام المعسول باللغة الانكليزية كما أتقنه باللغة الفارسية

الفصل الثالث والثلاثون

أسرة الخنزير

سألت المترجم عن كل ما يلزمنى من آداب الدعوة للولائم حتى لا أقع فى مثل الغلطات التى طالما وقعت فيها منذ وصولى إلى انكلترا . وفى اليوم المحدد للدعوة ذهبت إلى ذلك المنزل وسألت البواب عن المستر هوج فأخبرنى بأنه ليس فى المنزل وبأن السيدات فى انتظارى ، فعددت ذلك من حسن الحظ لأن دخول الحرم فى إنكلترا بمثل هذه السهولة أمر لم يكن ليخطر لى ببال . وعدلت من ثيابى وأتقنت لبس القلبق وساويت شعرى ثم صعدت فوجدت الفتيات وأمهن ينتظرننى ، واعتذرت لى السيدة عن جهل البواب لأنه لم يعرف أنى ميرزا ثم قالت : « أليس لقب ميرزا عندكم هو لقب « برنس » عندنا ؟ لقد قرأنا ذلك فى رحلات المستر قوير »

قلت : إنه يخطئ حيناً ويصيب حيناً . فسألتنى الفتاة الصغرى : « أليس لقب ميرزا هو لقب الأمراء ؟ »

فقلت : إن دولتنا دولة كل رعاياها أمراء . فان كلمة ميرزا إذا كانت قبل الاسم كانت لقباً بسيطاً

وإذا كانت بعد الاسم كانت لقب الامارة

وعلى الرغم من هذا الايضاح فانهن أصررن على مناداتى بلقب « سموكم » ولا أعرف لماذا تشبثن بأنى أمير . وقد سألت صغراهن عن أبيها فقالت : إنه مسافر وسيعود فى المساء وإن من عاداته أن يفعل ذلك كل يوم . فقلت : يظهر أنه تاجر وهذه عادة التجار عندنا أيضاً ، ولكن هل المستر هوج يبيع لحم الخنزير ؟

عند ذلك بدا الغضب على وجه السيدة وقالت : ما الذى دعاك إلى أن تظن هذا الظن ؟

فقلت : إن التجار عندنا يلقبون بما يبيعونه فى بعض الأحيان . ثم تبينت شدة سخطها ، فحاولت إصلاح غلطتى وقلت : إن التجارة ليست عيباً عندنا فهل هى عيب عندكم ؟ إننى لا أعرف عادات البلاد ، وإنى أسير هنا بغير دليل ، وإذا لم يكن زوجك تاجراً فما هى صناعته ؟ »

قالت : إنه مدير شركة الهند الشرقية . فوجدت الفرصة مناسبة كل المناسبة لإصلاح غلطتى خصوصاً أمام الفتيات وقلت : لعله من ملوك الهند ؟ فابتسمت وقالت : « إننا لا نسمى مديرى هذه الشركة ملوكاً ولكنهم فى حكم الملوك

وسألتنى مارى : هل فى بلادكم مبشرون من الانكليز ؟ فحمدت الله على تغيير الموضوع الذى كنا نتكلم فيه وقلت : نعم لقد كنت أعرف فيها رجلاً يدعى بادرى وهو يقول : إن نبينا غير نبى ، وإن البابا رجل كذاب . وقد رجمه الفارسيون وأظنه فر من بلادنا »

فقالت : « لقد أساء الذين رجموه ! لماذا ؟ أليس هناك مجال للمناقشة ؟

قلت : « ليست المناقشة سهلة خصوصاً مع المسيحيين فى ايران ، فهم ليسوا مثل المسيحيين فى هذه البلاد بل هم أناس فى نهاية القذارة والشراسة ؛ وأفقر فقير من المسلمين فى ايران خير من أغنى غنى من المسيحيين فيها

ثم قلت : « إذا جاء الملك جورج إلى فارس وفتحها وألزم أهلها أن يكونوا مسيحيين فقد يصيرون كذلك . أما إذا جاء بادرى وحده وأراد أن يجعلهم مسيحيين فانهم يرجمونه . وليس يتم شيء فى فارس إلا بالسيف »

قالت : « لقد أرسلنا عدداً كبيراً من الأناجيل إلى فارس ولا بد أن يكون لها تأثير بين أهلها

فقلت : إن الأناجيل كتب طيبة ، والفارسيون لا يقولون كلمة واحدة ضدها ؛ ولكن القرآن الشريف أحسن منها ؛ والمسلمون يمدحون نبيكم فلماذا لا تمدحون نبينا أيضاً ؟ »

قالت مارى : « إننا سنجعلك مسيحياً قبل أن تفارقنا . هل زرت الكنيسة الانكليزية قبل الآن ؟

قلت : « إننى لم أزرها ولا أجرؤ على دخول معبد لاناس يخالفون دينى خشية أن أعامل معاملة سيئة ، لأنه لو دخل أحد المسيحيين فى مسجد من مساجد ايران لما خرج منه سليما . ولست أشك فى اننى أعامل هذه المعاملة لو دخلت الكنيسة فى بلاد الانكليز

فأكدت لى مارى بأن الكنائس مفتوحة الأبواب فى أوجه النصارى وغيرهم على حد سواء . وألحت على فى الذهاب معها إلى الكنيسة فى اليوم التالى فوافقت على ذلك

وعاملتني الأم معاملة حسنة جداً فى ذلك اليوم

وفى الزيارات التى توالت بعد ذلك . وكانت بيسى التى طالما التقى نظرها بنظرى تقول لى باللغة الفارسية الفصحى : « خودا حافظ شوما » فأطرب لهذه التحية وترجمتها « أنت فى حفظ الله »

وأخبرتني الأم بأن بناتها منذ قابلتني في المسرح لم يفكرن فى شيء غيرى ، وان أكبر أمانى مارى الآن أن تجعلنى مسيحياً ، وأن بسى قد خطت خطوات فى اللغة الفارسية ، وان « جسى » أصبحت لا تعنى بشيء مثل عنايتها بالتاريخ الفارسى

وقد سرتنى هذه الأخبار كل السرور وشجعتنى على الأمل فى صحبتهن . وكنت كلما خرجت من عندهن أقول فى نفسى : « الله أكبر ! انهن اسن سيدات فقط ولكنهن يصلحن أن يكن وزراء . أم كيف يتأتى للمرأة فى بلادنا أن تفكر فى دينها وأديان البلاد الأخرى ؟ وكيف يتأتى لواحدة منهن أن تدرس لغة أو تاريخاً لأمة أجنبية ؟

الفصل الرابع والثلاثون

حاجى بابا فى الكنيسة

فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى منزل صديقاتى ، وكان اليوم يوم جمعة الانكليز وهو يوم الأحد ، وكانت الأجراس تسمع فى كل مكان ؛ والشوارع مزدحمة بالذاهبين إلى الكنيسة على اختلاف درجاتهم وأعمارهم . وقالت مارى ونحن فى الطريق إن الحكومة هى التى تدير الكنائس فعجبت وقلت ان شاهنا وإن كان مستبداً فلا سيطرة له على المسجد ولا يستطيع أن يضطرنى إلى الزيادة من الاستغفار أو التقليل من قراءة الفاتحة ، وليس له أن يتدخل فيما بينى وبين ربى من غسل اليدين والرجلين ومسح ربع الرأس والاستنشاق والمضمضة وقص الأظافر . فتلك كلها أمور دينية متروكة للضمير

وقبل أن ندخل الكنيسة مع مارى تعرفت على أخيها الأكبر وقابلت أباها . ودخلنا الكنيسة جميعاً نساء ا والرجال . وما كان أشد الحاجة فى المعابد إلى وضع براقع على وجوه النساء لأنه يستحيل مع كثرة عددهن ألا تتجه إليهن العيون فى وقت الصلاة . ولقد كان من المحال عليَّ أن تمر لحظة لا أزود فيها وجه بيسى بنظرة

وفى أثناء الطريق دفعت إلىَّ مارى بكتاب أسود لأقرأ فيه الصلاة وقد فهمت منه أجزاء وفى أوامره ونواهيه ما يشبه الأوامر والنواهى التى فى القرآن ، ولكن النصارى لا يحفظونه عن ظهر قلب كما نحفظ نحن كتابنا المقدس بل يفتحونه ويقرأون فيه وهم يصلون ويحسبون صلاة مثل هذه يقبلها الله ...

وصعد المنبر شاب صغير ثيابه كثياب الناس جميعاً وهو حليق اللحية والشاربين فقلت فى نفسى كيف يتمظ الناس من قول أمرد كهذا؟ إن الخطيب عندنا يجب أن يكون أبيض الشعر محدودب الظهر ليصغى الناس إلى كلامه وليضعوا رأيه فى موضع الاحترام . وقد بطل عجبي عند ما رأيت هذا الخطيب الناشيء يفتح كتاباً ويقرأ لهم فيه حتى تنتهي خطبته وهو لا يهز رأسه يمنة ولا يسرة ولا يمسك سيفاً .

وقد ظهر لى في جلاء أن المصلين وأمامهم هذا غير جادين و ليس في صلاتهم شيء من الاهتمام . فقلت ليتهم يذهبون إلى فارس ليروا كيف يكون احترام الدين . فانهم هنا يجلسون على الكراسى الفاخرة على الوسائد الحريرية ويلتفت أحدهم فى أثناء الصلاة كما يشاء إلى اليمين أو اليسار أو الخلف ولا يعرف إن

ذلك يؤدى إلى الخروج من الصلاة . ونحن فى فارس مجلس كلنا على حصير واحد سواء منا الغنى والفقير ونولى وجوهنا وجهة واحدة ونخضع لله كما ينبغى أن يكون الخضوع له سبحانه ؛ وفى صلاتنا ركوع وسجود ، أما هؤلاء فصلاتهم جافة جافية كأنهم يعاملون الله معاملة الند للند . وهم لا يتوضأون قبل الصلاة ، ولكننى فهمت أن لهم قبلة كما لنا قبلة وان قبلتهم شطر بيت المقدس

وبعد أن أتم الخطيب تلاوة خطبته المكتوبة أنشد المصلون نشيداً كالذى ننشده نحن عقب صلاة العيد . ثم انفض الجمع وخرجنا ، وكنت شديد الاغتباط بخروجى سالماً لأنى لو كنت مسيحياً وحضرت مثل هذه الصلاة فى معبد إسلامى لحمدت الله على خروجى دون أن تتكسر عظامى . ولكن الأمر هنا على النقيض ، فالناس لم يروا فى وجودى بالكنيسة عند أداء الصلاة أقل مانع . ولو أن الذين لم تسبق لهم رؤيتى بثيابى الفارسية استغربوا هذا الشكل

ولم تدع زوجة المستر هوج وسيلة مباشرة أو غير مباشرة لإفهام الناس أنى أمير إلا فعلتها

ولما خرجنا من الكنيسة قالت لى :

« ما رأيك فى كنائسنا ياسمو الأمير ؟ »

فقلت : « لا بأس بها سوى أنكم لا تبذلون أقل عناية فى الصلاة »

قالت : « فما هو رأيك فى الواعظ ؟ »

فقلت : « هو جميل والنظر إليه يبعث السرور ، ولكنه لا يصلح للوعظ ؛ ولا يقبل وعظ ممن هو فى عمره ولو نصح الناس بحكمة سليمان وفقه الامام أبي موسى الأشعرى

وقد وافقنى المستر هوج على هذه الملاحظة وأخذ يتفلسف فى حكمة التجاريب ، وحاولت تغيير هذا الموضوع لأتكلم فى أى موضوع آخر تحبه بيسى ولكن (ماري) أو (الشيخ مارى) كما تستحق أن تلقب كانت تأبى أن يخرج الموضوع عن الدين

وقد سألتنى الأم عما إذا كنت أعرف السيدة فلانة أو غيرها من سيدات الطبقة الانكليزية الراقية ، وعما إذا كنت أدعى إلى حفلات الرقص فى بيوت السفراء والوزراء . وفهمت من أسئلتها أنها تريد أن تعرف وتشتهر فى تلك الأوساط وأن أكون الوسيط بينها وبينهم . وطلبت إلىّ أن أعرفها بالسفير فوعدتها بذلك على غير إرادتي وإن كنت أعرف أنه الوسيلة الأولى للتقدم نحو البيوت الراقية

الفصل الخامس الثلاثون

شركة الهند الشرقية

عدت إلى دار السفارة فوجدت السفير يتأهب لزيارة رسمية ليؤديها فى اليوم التالى . وهذه الزيارة فى قصر الشركة الهندية وهو واقع فى جزء بعيد عن المدينة ، وفى هـذا القصر كل الأموال التى ادخرها أمراء الهند والصين وسرنديب فى عصور متعددة . وقد أمرنا السفير بأن نتأهب جميعاً لهذه الزيارة . واختار الهدايا اللازمة بهذه المناسبة ومن بين هـذه الهدايا ديوان شعر نفيس من نظم جلالة مولانا الشاه

وقد كنا نعرف أن ملوك الهنـد السابقين هم حماة الشعر وأنصاره فلا بد أن يكون خلفاؤهم المحدثون على غرارهم . وكذلك جعل السفير من بين هداياه هـذه صورة كبيرة مرصعة باللؤلؤ وهى من صنع محمد ناجى الشيرازى أكبر مصورى فارس فى

هذا العصر . وهذه الهدية ثمينة حقاً وهى أجل حتى من شعر الشاه

لبس السفير جبة عليها رسم الزهور بخيوط من الذهب وتقلد سيفاً مقبضه من العقيق وتعمم محمد بك بشال من الكشمير وتمنطق بحزام أحمر ؛ وكذلك ظهر كل منا بأحسن مظهر . ثم ركبنا العربات إلى ذلك القصر العجيب الذى يكاد يكون كمدينة من مدننا وقد كان فى حديقته شوارع تجرى فيها العربات وهى مزدحمة بالناس مثل ازدحام مدينة لوندرا . وبين باب المدينة وباب البناء الداخلى صفوف من أعمدة الرمر لم تر عينى شبيهاً لها . وكان القصر مزداناً بمناسبة قدومنا . وفى الشوارع التى فى الحديقة جنود مصطفة تصدح بموسيقاها .

استقبلنا فى هذا القصر أناس بالنيابة عن الحكومة ودخلنا غرفة فيها أربعة وعشرون رجلاً على مقاعد مذهبة ، وقيل لنا أن هؤلاء هم أعضاء الشركة التى تحكم الهند ، ووجدنا مقعد رئيسهم أعلى من سائر المقاعد . وحياه السفير وقدم إليه الهدايا

وكانت أولى الهدايا ديوان شعر الشاه . فلما سلمه السفير التفتت كل العيون ، ولكن سرعان ما سمعنا الأعضاء يتهامسون : ليس هذا إلا كتاباً

وكنا ننتظر أن يضع الرئيس الكتاب على رأسه ويقبله ، كما نفعل نحن فى مثل هذه الحالة . ولكنه أخذه فى صمت ثم أحنى رأسه ثلاث مرات . وانتقل الكتاب من يد إلى يد حتى رأوه جميعاً

وقد امتعض السفير من ذلك وقلنا فى أنفسنا بقران الشاه كان يعلم أن كتابه سيقابل هذه المقابلة لما ألف بيتاً واحداً من الشعر

ثم كانت الهدية الثانية هى صورة الشاه وقد رأى السفير أن الواجب يقضى بالسجود أمام هذه الصورة كما لو كان الشاه نفسه موجوداً فسجد وسجدنا جميعاً وكنا ننتظر أن يحذو أعضاء الشركة حذونا ولكنهم لم يتحركوا وأخذوا ينظرون إلينا نظرة استغراب

ولما تم تقديم الهدايا أخذنا بعض أعضاء الشركة إلى الغرف الأخرى ومنها مكتبة عامة فيها أحسن الكتب التى وضعت باللغة الهندية وتاريخ الهند باللغات المختلفة . وفى هذه المكتبة سيدات مختلفات ورجال وبينهم زوجة المستر هوج وبناته ؛ وقد أردت فى بادئ الأمر أن أختفى وراء واحد من أصحابى حتى لا يريننى ولا يسلمن علىّ فيستثرن غيرة السفير ضدى ، ولكنى وجدت هذه الطريقة غير مجدية ، وجاءت الأم فصافحتنى . ولحسن الحظ لم يرنا السفير عند ذلك ولكن سائر زملائى دهشوا

وقد طلبت إلىّ هذه السيدة أن أعرفها بالسفير الآن . فاعتذرت فى كلمات مقتضبة بأن هذا لا يتفق مع عوائدنا فأظهرت الاقتناع وتركتنى مؤقتاً

وكان يدير هذه المكتبة رجل هرم قالوا إنه عالم كبير . وقد فهمت أن الكتب التى فيها تقدر بمئات الآلاف من الجنيهات ، وفيها قسم للآثار به سيوف ودروع وثياب ونفائس مما جمعه الانكليز فى حروبهم مع ملوك الهند القدماء ، وفيها سيف لقائد تركى بحرى يقال له قبودان باشا . وقلت للمستر هوج : «ماشاء الله ! إذا كان شركتكم قد تغلبت على كل هذا العدد من ملوك الهند فهى ليست شركة إذن ولكنها حكومة من أقوى الحكومات

وجدت بين الرجال شاباً ذا شارب قصير ينظر إلى حبيبتى بيسى نظرات تكاد تقضى على كل آمالى فى الزواج منها والحصول على الثروة من مهرها ، وبدأت أشك فى أن لحبيتى على كثرة ما فيها من

الشعرات الطويلة وسوالفى الممتدة كالغدير أفضل لدى الفتاة من ذلك الشارب المقصوص

ورأيت فى حذائى ذلك الشاب مهمازين من النحاس ولكنه لا يرتدى ثوب ضابط عسكرى فأيقنت أن المهماز وسيلة لاستجلاب هواها

وطفنا بسائر الغرف والأقسام فى هذا البناء المتعدد الأجزاء . ولما آن أوان انصرافنا دنت منى بيسى وقالت لى : لا تنس أن تتعشى عندنا غداً يا سمو الأمير

فسمع السفير هـذا اللقب وقال لى ونحن فى الطريق : كيف تدعوك تلك الفتاة أميراً ؟

قلت : « لا علم لى ولكن يظهر أن كلمة ميرزا لا تفهم عندهم إلا بمعنى الامارة

الفصل السادس والثلاثون

أخبار من فارس

لما وصلنا إلى دار السفارة اجتمعنا حول السفير كالعادة فى الديوان وأخذنا نتحدث عما رأيناه فقال لى : « ما الذى رأيته اليوم ياحاجى بابا ؟ إنها لشركة عجيبة حقًّا فهى كرأيك فيها حكومة من أقوى الحكومات ، وأرى واجبنا يقضى بأن نكتب إلى الشاه عن كل ما علمناه من أمر تلك الحكومة

قلت : « على العين والرأس ياسعادة السفير ، ولكننى لست أكتمك أن رجلا واحداً من رجالنا أعقل من هؤلاء الأربعة والعشرين مجتمعين إن كانوا كلهم مثل ذلك الرجل السمين الذى تعرفت عليه من وقت قريب . فقال السفير : « ربما كان هـذا الوصف منطبقاً على من عرفته أنت منهم ، أما الذين عرفتهم أنا فجديرون بالسيادة على العالم كله لا على الهند فقط ، وهم يعرفون عدد الشعرات فى لحية الشاه وإن كان كلانا لا يعرف هذا العدد . وألقوا علىّ من الأسئلة ماعجزت عن الإجابة عنه . ولست أعرف كيف حصلوا على كل مالديهم من المعلومات »

قلت : « أما الذين عرفتهم أنا فقد ألقوا علىّ من الأسئلة ما يخجل حمار الصحراء من إلقائه . وقد سألنى أحدهم : ألسنا نعبد البقر ؟ ولما استنكرت سؤاله سألنى : أليس الفارسيون هم الفرسيس فى الهنـد ؟ وقال لى رجل آخر : إن بطلنا الفارسى « تاحماس كولى خان » كان رجلا إرلندياً وحقيقة اسمه « توماس كاليجان » وإنه هو المعروف فى التاريخ باسم « نادرشاه »

فقال السفير : « لقد يكون فيهم جهلاء ولكن أمين المكتبة الذى رأيته اليوم لا نظير له بين علماء فارس . وقد قرأ من الكتب مالم تحو مثله مكتبة الشاه . وأخبرنى المترجم بأنه يعرف عشر لغات أجنبية

وقال محمد بك : « ولكن علماء بلادنا أكثر اطلاعاً منه ومعرفة . فهذا الميرزا الانكليزى لايعرف شيئاً على الاطلاق فى علوم الحديث والفقه والأصول والفلك ؛ ولم أسمع عن انكليزى واحـد يستطيع استخراج الطالع من رصد النجوم

فنظر إليه السفير نظرة طويلة وقال : « ما الذى يهم هذا العالم من علوم الحديث والفقه والأصول ما دام كافراً ؟ لكنه يعرف مقابل تلك العلوم مايتعلق بدينه . وهل من علماء إيران رجل واحد يستطيع أن يتكلم بعشر لغات أجنبية ؟ »

قال محمد بك : « وهل عرفت ياسعادة السفير انكليزياً واحداً يحفظ أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام ويميز بين الصحيح منها والضعيف مثل الحاج محمد مجتهد مدينة قم ؟ »

فاحتد السفير وقال : « ألم أقل لك أيها الأحمق إن الانكليز مسيحيون وإن لهم ديناً غير ديننا يعرفون أحاديثه وأسانيده؟

فهز محمد بك كتفيه واستمر السفير يقول : « هل علمت أن المجتهدين فى فارس يخرجون من بلادهم ليقنعوا أبناء الديانات الأخرى باعتناق الدين الاسلامي كما يفعل المبشرون الانكليز الذين يطبعون كتبهم ويوزعونها على الناس بغير مقابل ويحرصون على تلقين الناس إياها ؟ هل تعلم أن الانكليز ترجموا القرآن إلى لغتهم وعرفوا من علوم المجتهدين ما ليس يعرفه المجتهدون أنفسهم ؟ »

فتدخلت فى الحديث وقلت : على كل حال فهذه أمة نالت مكانة مدهشة من الثروة والقوة والمعرفة

فضحك السفير وقال : « هل تعني حكومة الانكليز أم حكومة شركة الهند الشرقية ؟ » فقلت « أقسم برأسك يا سعادة السفير أن شركة الهنـد تدعو إلى الحيرة أكثر مما تدعو إليها الحكومة الانكليزية نفسها »

قال السفير : « نعم لقد صدقت يا حاجي بابا فانى لا أعرف كيف تمكن الأربعة والعشرون انكليزياً من إخضاع الهند الواسعة ! ولا أعرف كيف صارت مدينة أجرا أو مدينـة دلهى العظيمتان خاضعتين للبناء الذى كنا فيه اليوم . ولست أعرف كيف زال ملك المغول أمام بناء الشركة فى شارع « ليدن هول ستريت »

فقلت : « هذا مدهش حقاً يا سعادة السفير وأرى أن نكتب للشاه أن يأمر بتحصين البـلاد وتقوية الحدود لأنه من يدرى ربما قامت شركة أخرى بفتح فارس كما فتحوا الهند بواسطة شركة تجارية !

ولم أكد أتم جملتى حتى جاء رسول من قبل وزارة الخارجية يحمل إلينا خطابات من قبل الشاه الفارسى ، فتسلم سفيرنا الرسائل وسكتنا منتظرين اطلاعنا على ما فيها

ولـما افتتح السفير إحدى الرسائل صاح : «الحمد لله ! الحمد لله ! لقد مات عدونا اللدود «ميرزا شافعى» رئيس الوزارة الفارسية »

ثم قام السفير إلى ركن من الغرفة وسجد لله سجدتى الشكر

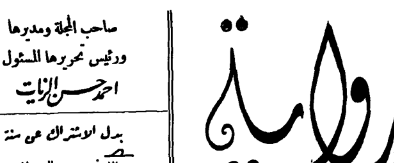
واضطررت مراعاة له أن أقول: الحمد لله ! الحمد لله ! مع أنى كنت فى حاجة للبكاء فى تلك الساعة لأنى كنت مستظلاً بحمايته ، ولأن معاملة السفير لى ستتغير طبعاً بعد الآن

ولما فرغ السفير من صلاته أطلق لنفسه العنان فى إظهار الفرح وظل طول اليوم لا يفكر فى أمر آخر وهو بين لحظة ولحظة يقول : لقد مات ميرزا شافعى ! وكنت أفكر فى مستقبلى بعـد تلك النـكبة فأتحسر . ولقد دلت التجربة على أن معاملة السفير لى تغيرت تغيراً كلياً بعد وفاة رئيس الوزارة . فقد كان من قبل يعاملنى بشىء من الاحترام . أما الآن فانه يهزأ بى . ولقد قال لى مرة : « إن أباك قدمات . لقد مات هذا الكلب القذر ! ولـكن لحسن حظك كنت موجوداً معنا فى هذا الحين . فان الشاه صادر أملاكه وباع عبيده وجواريه ؛ ولو كنت هناك لباعك أيضاً » فقلت له « أرجو ألا يحرمنى الله نعمة رضاك»

قال لى : « إذهب وكن مطمئناً فقد عفونا عن الماضى ولسنا نحمل لحانا ذات لونين »

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى ٧





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٥ — ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ — أول يوليه سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد

من التاريخ الإسلامي

ثلاثون ألف دينار!

للأستاذ علي الطنطاوي

سرى في المدينة أن قد سال العقيق، فانتقلت المدينة بسا كنها وسا كنيها، وزهوها وكبريائها، ولهوها وغنائها، وترفها ونمائها، حتى استقرت في العقيق. ولقد كانت المدينة على عهد الخلفاء من بني أمية قلب الدولة الذي يخفق بالحب والشعر، كما كانت الشام رأسها الذي يفكر في السياسة والملك، والعراق يدها التي تلوّح بعلم (المعارضة)، وتهزّ سيف الثورة. وذلك أن فتيان قريش وشباب الأنصار ثقل عليهم المال الذي حمله آباؤهم الفاتحون الذين ورثوا كنوز كسرى وقيصر، ماحوى القصر الأبيض في المدائن، وما اشتملت عليه قصور الشام البلق، وكثر في أيديهم حتى ما يدرون فيم ينفقونه... وكان من سياسة دمشق أن تقصيهم عن الولايات والأعمال، فاتسع عليهم الوقت حتى ما يعلمون بم يملؤونه... فانصرفوا إلى تزجية الأيام، وانتهاب اللذائذ فجعلوا الحجاز دارة اللهو والترف ومثابة الشعر والغناء، وناهيك بالشباب والفراغ والجدة إذا اجتمعت على قوم من الأقوام؟!

وكانت ليلة مشرقة غسل البدر بنوره ظلماءها وأحالها مثل الغادة المائسة بغلالتها البيضاء، ثم ذهب يغتسل في العقيق، فطفا ضياؤه على وجهه، يعانق قطراته ويراقص أمواجه الصغيرة، وكان منظراً عجباً، تحسب معه أن الوادي لا يجري بالماء، وإنما يجري فضة سائلة، ونوراً مذاباً... وكان الناس منثورين في كل مكان، في القصور الشمّ التي يفيض بها الوادي، وتمتلئ بها التلال والصخور، وعلى سفوح الربا، وذُرا الهضاب، وجوانب الحرّة وفرش الرمال، حلقاً يستمعون إلى مغنّ أو شاعر، أو يديرون بينهم أطايب الحديث، أو يأكلون ويشربون، أو يلهون ويلعبون، ولم يكن فيهم إلا من ملأ الفرح قلبه وغمرت السعادة فؤاده. أما النساء فقد اعتزلن جانباً، يأخذن حظهن من ليالي العقيق، وقد بدون في شعاع القمر بثيابهن الملونة الزاهية، كالروض الزاهر الفاتن بكل ساحر أخاذ من الورد والياسمين والنرجس والبنفسج والزهر من من كل شكل ولون... أما عطر الروض، فكان يفوح من أعطافهن وشعورهن وثيابهن الهفهافة..

ذلك هو العقيق!

كم شهد من أعراس الحياة ومباهجها! كم جال في أرجائه عمر بن أبي ربيعة ينضح حواشيه بشعره العطر الخالد! كم غنى فيه معبد وابن سريج ومالك بن أبي السمح وعزة الميلاء، فاستفاضت ألحانهم على صفحة الماء، وشطئان الأفق، وطفت على وجه النسيم فانتشت منها الطبيعة، وسكرت الجبال والربا، وسكر منها شعاع القمر فضلّ طريقه مترنحاً في مسالك الجو... كم رأى العقيق من العلماء الزاهدين كعروة ومالك، والسمحاء الأكرمين كابن جعفر وسعيد بن العاص، والمجان والمخنثين كأشعب وطويس والدلال! كم كتب في العقيق من تاريخنا الأدبي والفني! كم ألهم شعراءنا روائع الشعر ومعجزات القصيد!

***

إذا جلت تلك الليلة أنحاء العقيق، رأيت على

طرف الحرة مما يلي بئر عروة وقصره ، حيث تنحدر الرمال الطرية حتى تبلغ الماء وتدلى فيه أقدامها ... رأيت سرباً من الظباء الفاتنات يتدافعن ويتراشقن بالماء ، وهن يتصايحن ويضحكن فرحات عابثات ، حتى إذا تعبن جلسن على الرمل يتأملن صفحة الماء — وللماء الجاري في الحجاز سحر ليس للفرات مثله ولا للنيل — وينظرن مأخوذات بجمال هـذه الليلة وفتونها ، وكن يتلفتن أثناء الحديث كأنهن يرقبن من يطلع عليهن من الثنية ، فلما طال الانتظار قالت واحدة منهن :

— لقد طال غياب سهيلة ، فياليت شعرى ماذا عاقها عنا هذه الليالى المقمرات ؟

فردت عليها فتاة سمراء قد تلفعت بثوب من الحرير الأحمر :

— ألا تدرين ماذا عاقها ؟ لقد شغلهـا هوى فرّوخ يا حبيبتى ، لقد خسرنا سهيلة إلى الأبد !

— ولم يا أمينة ؟ أهى أول فتاة تزوجت ؟ كلنا عرف الزواج ، فما قصرنا فى حق الرجل ، ولا أهملنا حق أنفسنا

فأجابت أمينة ضاحكة :

— ولـكن ما كل زوج فرّوخ ... أرأيت إلى جماله وشبابه ؟ إن له فوق الجمال والشباب ثلاثين ألف دينار ، أفليس من حق سهيلة أن تنسى معه العقيق ولياليه المقمرات ؟

— إن تنس العقيق ، فليس لهـا أن تنسى صويحبات صباها

— لو كنت مكانها لنسيت أمك وأباك . إن للحب سكرة ، وللمال مثلها ، فأنى لسهيلة أن تصحو من سكرتين ؟

فقالت فتاة من طرف المجلس قد آلمها غياب سهيلة :

— لـكن قد وجدت كنزاً ، أفيطير هذا الـكنز من يدها إذا هى فارقت منزلها ليلة ؟ لم يبق فى المدينة أحد إلا أم العقيق هـذه الليلة ، أفتبقى سهيلة فى عزلتها الموحشة ، وهى الفتاة اللعوب ؟ لا . لا . إني لا أستطيع أن أفهم هذا .

قالت أمينة :

— إنك لا تستطيعين أن تفهمى ، مسكينة أنت يا رفيدة ... تقولين إنها في عزلة ؟ إنهـا فى جنة الحب يا صديقتى ، إن الدنيا على سعتها أضيق من هذا العش الذى تعيش فيه مع من تحب ...

* * *

وكان الفتيات في غمرة الحديث حينما مرّ بهن فارس يحمل لأْمته وسلاحه ، قد أرخى عمته وتلثم فلم يعرفن من هو وإنما نظرن إليـه وهو يخترق جماعات الناس حتى جاوز الجماء وغاب وسط النخيل فلم يحفلنه ولم يأبهن له ... وكان ذلك فروخ زوج سهيلة ...

وكان فروخ قد عزف عن اللهو ، ورغب عن المتع ، فتلفت إلى وجهة أخرى من وجهات الحياة فى العصر الأموى ، إلى حياة الجد ، حياة الجهاد فى سبيل الله . وكان جيش المسلمين يسيح فى الأرض يغمرها من كل جانب ، كأنه البحر ، لولا أنه بحر يمتد أبداً لا يعرف الجزر ولا يدريه ، وكان قد بلغ أواسط آسيا وأوائل أوربا ، ولا يزال يمضى فى وجهه لا يقف حتى يطوّق هذه الـكرة ، ويرفع عليها علم الحق والهدى ، ويوحدها حتى تمشى كلها إلى الفضيلة والجد والخير ، صفاً واحداً ترفرف فوقه راية القرآن ... فجفا فروخ منزله ، وترك زوجه الحسناء تتقلب وحيدة على فراش العرس الذى لم تجف أزهاره ، وأودعها ماله كله ثلاثين ألف دينار تحفظها له إلى أن يعود من جهاده ، وقد قضى حق

الله عليه فيستأنف الحياة معها رغيدة سعيدة . لم يدر فروخ أن جهاده فى حفظ زوجه وعصمتها وإنشاء أسرة صالحة ، خير له من أن يدعها وحيدة ، وأن يهجرها بعد أن أذاقها من كأس الحب الرشفة الأولى ...

* * *

ومرت الأيام ، ولبثت ليالى العقيق على أنسها وطربها ، ولكن سهيلة التى كانت تملأ الوادى أنساً وطرباً ، وتشيع فيه السرور والبهجة ، قد اختفت من سمائها كما تختفى النجوم فى الليلة الماطرة . أما رفيقاتها فلقد حرصن على أن يخففن من لوعتها ، وينسينها آلامها ، وسقن عليها أمينة رفيقة صباها وصاحبة سرها ، وأحب الفتيات إلى قلبها ، فكانت تمرض عنها ، ولا تنظر إليها ، وكن يسألن أمينة عنها كل ليلة ، فتقص عليهن ما رأت منها :

— لقد جزت بها اليوم ، فاذا هى يا أسفى عليها قد تبدلت حتى كأنها لم تكن يوماً من الأيام سهيلة التى نعرفها . وجدتها قابعة فى زاوية المنزل تفكر هادئة وإن فى قلبها لناراً ما يقر قرارها ، تذيب الحشى ، وتأكل القلب ؛ فكلمتها فنظرت إلى بعينين ساهمتين كأنهما لا تبصران شيئاً ، فحاولت أن أعيدها إلى فسردت عليها أجمل ذكريات صباها . حدثتها عن ليالى العقيق ، وأطرفتها بنوادر أشعب ، وقصصت عليها أقاصيص الشاعر وعبثنا به ، بل لقد تلوت عليها أجمل أشعاره فلم تستمع . فحدثتها عن فروخ فرأيت جسمها يهتز ولونها يشحب شحوباً هائلا ، وألفيتها تحب حديثه لأنه رجع أحلامها ، وصدى أفكارها ، ولكنها تفزع من حديثه لأنه يذكرها بآلامها . لقد حدثتها عنه ... فقطعت علىّ حديثى وقالت بلهجة حسبتها تجمع كل ما فى الدنيا من آلام وأوجاع : كلا ... إنه لن يعود ! ثم قامت عنى

ولو أن امرأة أخرى كانت فى مكانها لفسقت وانساقت فى طريق الفحشاء ، ولكن سهيلة فى دينها وتقواها وشرفها أمنع من أن يستهويها الشيطان ، وما أحسب إلا أنها ستجن إلا أن يتداركها الله برحمة منه

فينطلقن يفكرن فى سهيلة ، كيف يسعدنها وينتشلنها من قرارة آلامها ، فلا يجدن إلى ذلك من سبيل ...

* * *

وكانت سهيلة قد علقت من زوجها وهى لا تدرى ، فلم تكن إلا شهور حتى بدا عليها الحمل واضحاً ، فزادها ألماً على ألم ، فأمعنت فى الفرار من الناس ، والبعد عن صاحباتها ، فضاعف الانفراد هواجسها وشجونها فكانت تتلفت أبداً إلى الشرق البعيد ، علّ نسمة من زوجها الحبيب تنعش فؤادها ؛ وتسأل الغادين والرائحين عن فروخ (أبى عبد الرحمن) فلا تجد علماً عن أبى عبد الرحمن . فتناجى البدر وتسأله عنه علّه يراه كما تراه هى وتحمل الرياح سلامها ، وتسائل الشمس إذا أشرقت لعل عندها من أخباره علماً . لا تفعل ذلك كما يفعله الشعراء ، فالشعراء يناجون البدر ويسائلون الرياح ، ليأتوك بالطريف العجيب من المعانى ، ثم ينامون آمنين مطمئنين ، ويهجعون ملء عيونهم ، ولكن سهيلة لم يكن يطيب لها منام ، ولا تقبل على طعام ، وإنما كانت حياتها كلها فى هذا الماضى القصير الذى نعمت به حيناً ثم خسرته وهى أشد ما تكون حباً له وشوقاً إليه . وطغى عليها الفكر حتى كادت تجن حقاً . فلم تجد من يعنى بها من صديقاتها ، إلا وسيلة واحدة إلى نجاتها : هى أن يستعن عليها بأحد الأئمة من

أصحاب رسول الله أو التابعين لهم باحسان ، يهديها ويرشدها ويداوي أمراض قلبها . وليس يغلب الحب إلا الدين ، ولا يجد المحب راحة نفسه وأنس قلبه إلا في اللجوء إلى الله ، عن نية صادقة ، وإيمان متين .

ولقد وجدت سهيلة راحتها في اللجوء إلى الله فكانت تقضي أكثر نهارها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في البقعة التي أذن الله أن تنقل من رياض الجنة ، فتستقر على الأرض بين محرابه وألا يرى أزهارها ، ويشم عبقها ويذوق نسيمها إلا من صفا قلبه من العلل ، وتنزهت بصيرته عن العمى وأنشأ له التقى جناحين يطير بهما في هـذه الروضة من رياض الجنة ..

* * *

ومرت الأيام ... وغدا ربيعة طفلاً يدرج ، فصرفت سهيلة إلى تربيته همها ، ورضيت به نصيباً من الحياة . وكانت تحدثه عن أبيه ، وتصفه له كما كانت تراه بعين الحب ، وترقب عودته دائماً فلا تسمع بركب قدم من الشرق إلا تمنت أن تجده فيهم ، وتخيلت أي مفاجأة ، وأي دهشة ، وتصورت لقاءه إياها ، وبالغت في التصور فرأت نفسها بين ذراعيه تقبله وتشم ريحه ، ثم تقصيه عنها بدلال ، وتعاتبه عتاباً موجعاً . ثم تقدم إليه ابنه ... ولـكن الركب يصل ولا تسمع عن فروخ خبراً من الأخبار . وكبر الصبي وضاق ما كان بيدها من المال ، فكانت تصبر وترتقب لا تمد يدها إلى الكنز الذي ائتمنها عليه ، حتى لم يبق معها شيء ، فكانت تصبر هي وابنها على الضيق ، وتبيت على الطوى ، وتسلي ابنها وتحدثه عن أبيه ...

— غداً يعود أبوك ومعه المال الوفير ، فنعيش في رغد وهناء ، ونستمتع بما أحل الله من الطيبات

— ومتى يعود أبي يا أماه ؟

عما قريب . إنه سيأتي مع الركب

وتعود إلى إنتظار الركب ، وتخيل اللقاء !

وفي ذات صباح ذهبت تسأل القادمين من خراسان ، وتصف لهم زوجها . فدنا منها رجل من القافلة وخبّرها أنه شاهده بعينه قتيلا في معركة من المعارك ...

فرجعت محطمة يائسة ، ولجأت إلى الله ، فأراحها الله باليأس ، واليأس إحدى الراحتين ، فقنعت بابنها ، ونذرت نفسها ومالها لتربيته وتنشئته على العلم والتقوى ، ووضعت المال بين يديه ، ينفقه على نفسه وإخوانه في طلب العلم ، ويرحـل به إلى الآفاق . . .

* * *

ومرّت الأيام والسنون . . .

وتبدلت الدنيا ، وتغيّرت الدول ، وأفل نجم بني أمية . . . ولـكن البحر لا يزال يموج ويمتد ، ويغمر أرجاء من الأرض جديدة ، فيحمل إليهـا الحياة والخصب ، وتعيش في ربيع دائم ، تحت راية القرآن . . .

وبلغ الفتح في الشرق ، أراضي الصين ، فرفرف عليها علم الاسلام أثر معارك هائلة اصطرع فيهـا الحق والباطل صراعاً عنيفاً . . .

في عشية معركة من المعارك ، خرجت منهـا الراية الاسلامية مظفرة منصورة ، وخفقت على بقاع جديدة طالما خفقت قلوب أهلها شوقاً إلى الحـكم الاسلامي ، انصرف المسلمون إلى المعسكر يؤدون في الليل واجب الذكر والعبادة ، كما أدوا في النهار واجب الحرب والجهاد ، ويعطون أجسادهم حقها من الراحة ، كما أعطوا الأمة حقها من التضحية

والبذل ، ولقد كان هؤلاء المجاهدون جناً فى النهار ، رهباناً فى الليـل ، وكانوا مثالاً للشرف والفضيلة والاخلاص . . .

ومضى الهزيع الأول كله ، ونام المجاهدون ولم يبق ساهراً إلا الحراس يجيئون ويذهبون من حول المسكر ، ورجل آخر أصابه الارق فبقى مسهداً يحس كأن يداً خفية تهز قلبه فيخفق ويشتد خفقانه ، وتحمله على الرجوع إلى سالفات أيامه ، فإذا هو يذكر عالماً بعيداً متوارياً فى ظلام ثلاثين سنة ، فلا يطيق البقاء فى خيمته ، فيخرج إلى العراء ، فيجد الليل ساكناً موحشاً ، لايسمع فيه إلا نداء الحراس ، وأصوات الوحوش التى تزدحم على الجثث التى تغص بها ساحة القتال ، فيبتعد عنها وينأى عن المعسكر فلايعترضه أحد لأن الجيش كله يعرفه ، بل لعله أقدم جندى فيه ، لم يفارقه منـذ سبع وعشرين سنة ، ينتقل فيها من ميدان إلى ميدان . .

ومضى يمشى وحيداً حتى بلغ الوادى فجعل يجول فيه ، حتى بلغ قرارته . وكان يجرى فى الوادى جدول ماء له خرير وزئير ، يبدو فى الليل مرعباً مخيفاً ، فتركه وتسلق الجبل ، حتى بلغ قنته فأشرف منها على الفضاء الواسع ، وكان الفجر قد كرب أن ينبلج ، فسرت خيوط ضعيفة من النور حيال المشرق فطفق يحدق فيها ، ويحس كأنه ينشق منها أريجاً يحيي نفسه وينعشها ، وجعل يحس بأن قلبه يرق رقة شديدة، ونفسه يسمو ، وأن خيالات الحب تلوح لعينيه من وراء الأفق البعيد ، غائبة فى ظلام الماضى ، فجعل يتأملها ، فيبصر وجه سهيلة وقد وقفت على الباب تودعه ، وتسأله ألا يذهب ، فلا يبالى بهـا ويمضى لطيته ، وكانت ليـلة قمراء — إنه يذكرها كأنها كانت أمس — ويذكر العقيق وأهله . . .

ثم يفكر فى حاضره . إنه سيموت وحيداً شريداً لا يدرى به أحد . إنه لا يبـالى الدنيا ولا يحفل الناس ، وحسبه أنه سيموت مجاهداً فى سبيل الله ، ولـكن ألا يسأله الله عن زوجته ؟

وأحس فى تلك الساعة بإساءته إليها ، وانطلق يفكر فيها ، هل هى حية لا تزال أم هى قد ماتت حزناً وكمداً ؟ وهل هى فى المدينة أم رحلت فلايدرى أى أرض تقلها ، وأى سماء تظلها ؟ وهل بقيت على العهد بها ، أم قد استهواها الشيطان ووطأ لها أكناف المعصية، والثلاثون ألف دينار ، هذا الـكنز، ماذا صنعت به ، هل احتفظت به أم أنفقته ؟ وإن تكن قد ماتت فماذا جرى على المـال ، وأي يد ألقيت عليه ؟

وطفق يذكر ، ويقلب صفحات سبع وعشرين سنة . . . هجرفيها زوجته ، وتركها تتقلب وحدها على الفراش ، تفكر فيه كل ليـلة وتشتاق إليه ، وتمنى نفسها بعودته فى صباحها ، تسعة آلاف وسبعمائة وعشرين ليلة ... غبرت عليها وهي تتجرع كل ليلة منها هذه الـكأس فمـاذا حملت من هم ، وماذا ذاقت من ألم ؟ وهل بقيت بعـد ذلك فى الاحياء ؟

وتمنى لو أن مخبراً يخبره عنها وعن ماله ، ثم يطلب إليه ما يشاء ، وأحس كأن رأسه سيصدع من التفكير . ولـكنه طفق يذكر على الرغم منه . .

ذكر كيف لبث أياماً وليالى لا تفارق صورتها مخيلته حتى واجه العدو وانغمس فى القتال ، فلم يكن يذكرها إلا حين يأوى إلى فراشه ، ثم أمعن فى الجهاد ، فلم يعد يذكرها أبداً وظن أنه لم يبق لها فى نفسه أثر حتى انفجرت ذكرياته كلها فى هذه الليلة انفجاراً ...

وجعل يتخيل هذه الدهشة اللذيذة التي ستغمرها حين تراه قدعاد إليها ، ولم يقو على البقاء، وتمنى لو طار إلى المدينة طيراناً . لقد خرج منها وهو شاب ما في وجهه ولا في رأسه شعرة بيضاء.. فأمسى وجهه ولحيته كالثغامة ؛ وتصور كرة أخرى أنه سيموت فاستفظع أن يموت ولما ير زوجته ، ولما يقبض ماله ، ولما ير العقيق ووادي النقا ومسجد الرسول . واشتد به الحنين، فأسرع من فوره إلى القائد يستأذنه بالقفول ..

* * *

عاد يطوي البلدان لا يستقر في مكان ، ولا يقيم في بلد حتى يعاوده الحنين فيدعه يوالي مسيره ، لا ينقطع لحظة عن التفكير في زوجه وماله ، تلك الثلاثون ألف دينار ، ثروته كلها وكنزه الذي يبني عليه الأماني . إنه سيضم إليه هذه الأربعة من الآلاف التي جمعها من عطائه ومن نصيبه من الغنائم . وكان يتصور ألوان الممكنات لا يطمئن إلى صورة حتى ينتقل إلى غيرها ، لا يهدأ ولا يستريح ، وكان يخشى أن يدركه الأجل قبل أن يبلغ أمله، فيركز فرسه ويعدوها عدواً شديداً ، كأنما كان يسابق الموت...

حتى إذا بدت له طلائع الجزيرة ، وبدت رمالها الأزلية التي أعجزت الجبابرة والفاتحين فلم ينالوا منها منالاً ، وأعجزت الحياة فلم تقدر عليها ولم تدخل حماها ولم تخرج فيها نبتة مخضرة ، وأعجزت الممات فلم يبدلها ولم ينل منها ، فهي كائنة من الكائنات الماثلة التي تعيش فوق أنظمة الحياة والموت ... لما بدت له هذه الرمال اطمأن إليها وأنس بها ، وأحس أن سمومها روح لقلبه ونسيم ، وأن شمسها المحرقة ظل عليه ظليل، وأن جبالها الجرداء وبيدها القاحلة رياض في عينيه وجنات . وجعل يغذ السير فيها حتى بدت له جبال المدينة تلوح له على حواشي الأفق فلم يتمالك نفسه أن يصيح من الفرح ، ويطير إليها ...

* * *

رقص قلبه في صدره حين بدت له طلائع المدينة ضحى، وأحس كأنه لم يرها قط بهذه البهجة وهذا الرواء. وكان ذهنه قد كل من التفكير فترك كل شيء للمقادير وانطلق يعدنفسه لكل ما تفجؤه به، وكان قد صار حيال (أحد) فوقف يتأمله وهو مأخوذ بروعته وجماله ، وهذه الألوان التي تمتزج فيها حمرة الرمال بزرقة الصخور وبياضها ، فيكون منها صورة فاتنة لا يمل الناظر من النظر إليها . وكان فروخ يجد في النظر إليه لذة ويذكر فيه عالماً مبهماً من الذكريات والمتع أنساه غيابه لحظات ، استدار على أثرها فترك العقيق عن يمينه وكان خالياً في تلك الساعة من النهار ... واستقبل (سلعاً) الذي طلع عليه بسواده وظلامه فعاف النظر إليه ، وساق راحلته فاجتازت به مسجد ذباب ، فانكشفت له المدينة ورأى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن قد أنشئت عليه هذه القبة ، لأن القوم لا يزالون إلى ذلك العهد على السنة الصحيحة ، ولم تكن هذه البدع وهذه المظاهر قد عرفت طريقها إلى نفوسهم ، فذهب يؤم منزله وهو بسلاحه على راحلته ، وكان يعرفه كأنه قد فارقه أمس، ولم تتغير المدينة عن عهده بها كثيراً، ولكنه آثر أن يغلب هواه ويقهر رغبته ويبدأ بمسجد الرسول . ومتذا الذي يدخل المدينة ولا يبدأ بالسلام على رسول الله

سلم على الرسول ، وصلى في الروضة ، ثم

تلفت فاذا هو بحلقة عظيمة ، تزدحم فيها العمائم ، فتطاول فلم يبصر وجه صاحبها ولم يعرفه ، فوقف يستمع فسمع عجباً أنساه الدار والمال والزوجة ، فظل فى مكانه حتى أذّن المؤذن بالعصر فانفضت الحلقة ، وذهب فروخ يصلي مع الجماعة فشغلته الصلاة عن كل شيء

لم ير فروخ المدرس ولم يعرفه ، فذهب يسأل عنه جاره ، قال له :

— من صاحب الحلقة التى كانت هنا آنفاً ؟

فحدق فيه الرجل وقال له :

— ألا تعرفه ؟ ألا تعرف ربيعة الرأى ؟ من أين أنت أيها الرجل ؟

— غريب ، قدم الساعة ، فمن ربيعة الرأى هذا؟

— هذا فقيه البلد وامامه . هذا شيخ مالك وسفيان الثورى وشعبة والليث بن سعد . الاتعرف هؤلاء ؟ هؤلاء هم علماء المسلمين ، وائمة الدنيا ، هذا الذى يجلس فى حلقته أربعون معمّا من شيوخ الحديث ..

لقد زاره أبو حنيفة . ألم تسمع باسم أبى حنيفة أيها الرجل فكان مجهوده أن يفهم ما يقول ربيعة . أعرفت من هو ربيعة الرأى ؟ هـذا الذى انفق على نفسه وعلى طلبة العلم ثلاثين ألف دينار ، أرأيت مثل هذا ؟ أسمعت به ؟ إنه لم يجلس للناس حتى بلغ من العلم والعبادة مبلغ من يقول فيه عبيد الله ابن عمر هذا عالمنا وأفضلنا وصاحب معضلاتنا ، أتعرف من هو عبيد الله بن عمر أم أنت لم تسمع به ؟ ..

فقال فروخ : بلى لقد عرفت ، لقد عرفت ، وقام إلى فرسه وقد ارتبطها بباب المسجد ، فركبها وحمل رمحه وانطلق إلى داره ، وقد هاجت فى نفسه ذكرياته وشكوكه ، وعادت إليها صورة زوجته ، فاذا هو يبصرها للمرة الواحدة والسبعين بثيابها البيضاء تشير إليه ألاّ يذهب ، وصورة الثلاثين ألفاً . ماذا جرى عليها ، وأى جديد مفاجىء ستلقاه به المقادير ؟

ولم تكن داره نائية عن المسجد — فبلغها بعد قليل ونزل عن فرسه ورمحه بيده ، وهم بخفق الباب ، فاراعه الاشاب حسن الشباب ، مكتمل الفتوّة ، يخرج منه ، تشيعه امرأته . نعم امرأته ، سهيلة ، لقـد عرفها من النظرة الأولى ، برغم ما تغيرت ، ورآها بعينه تشيع هذا الشاب ثم تدخل وتغلق الباب فهاج دمه فى عروقه ، وأقبل عليه مزمجراً صارخاً ، فنحاه عن الباب وهم بدخول المنزل ، فعجب منه الشاب وصاح به :

— ياعدو الله ، أتهجم على منزلى ؟

— قال : بل أنت عدو الله ، تدخل على زوجتى ؟

وتواثبا وتلبب كل منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران ، وبلغ مالك بن أنس والمشيخة ، فأتوا يعينون ربيعة ، فجعل ربيعة يقول :

— والله لا أفارقك إلا عند السلطان .

وجعل فروخ يقول :

— والله لا فارقتك إلا بالسلطان ، وأنت مع امرأتى .

وكثر الضجيج . فلمـا أبصروا بمالك سكت الناس كلهم ، فقال مالك :

— أيها الشيخ ، لك سعة فى غير هذه الدار .

قال الشيخ :

— هى دارى وأنا فروخ مولى بنى فلان .

فسمعت امرأته كلامه ، فخرجت فقالت : هذا زوجى ، وهذا ابنى الذى خلفته وأنا حامل به ، فاعتنقا

وبكيا جميعاً ، ودخل فروخ المنزل » [1]

***

قال فروخ لزوجته ، وقد خرج ربيعة وبقيا وحيدين :

— سامحيني ياسهيلة ، سامحيني ، لقد أسأت إليك . إني أحبك ، أحبك .

— أتحبني وقد صرت عجوزاً ؟

الجمال هو الاخلاص ياسهيلة ، أحبك دائماً ، إني أراك أجمل النساء .

وانطلقا يتحدثان ساعة ، فقال لها :

— هذه أربعة آلاف دينار ، فأخرجي المال الذي عندك ، لقد صرنا أغنياء ياسهيلة ! مالك ترددين ؟ ألا تخرجين المال ؟

— قالت : لم لم تصل في مسجد رسول الله يافروخ ؟

— قال : لقد صليت فيه ، ورأيت عجباً ، سمعت من رجل يدعونه ربيعة الرأي كلاما ما كنت أظن أحداً يقول مثله . لكأنه والله كلام الأنبياء ، لقد ندمت على أن أنفقت حياتي ولم أطلب علماً

— قالت : أيسرك أنك مثله وتخسر كل ما تملك ؟

— قال : نعم إن ذلك ليسرني .

— قالت : فان كان ابنك مثله ، أيسرك أن تكون أنفقت عليه مالك كله ؟

— قال : ذلك آثر عندي .

— قالت : هو والله ابنك ، وقد انفقت عليه المال كله . ألا تشتريه بثلاثين ألف دينار ؟

فوثب الرجل ، وهو يصيح :

— إبني ؟ ربيعة الرأي ابني ؟

وخرج يفتش عن ابنه كالمجنون .

علي الطنطاوي

(1) تاريخ بغداد (٨ : ٤٢٠) وهذا كل ما روي التاريخ احببت أن أثبته كما هو والقصة في وفيات الأعيان

عواد كريمون

للشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

المنظر الخامس

فيليبو — صاندور

صاندور — لقد اقتربت الساعة الفاصلة

فيليبو — نعم يا زميلي

صاندور — هل هيأت كمانك للعرض ؟

فيليبو — بلى

صاندور — هل أنت مسرور ؟

فيليبو — نعم . وكيف حال كمانك ؟

صاندور — كماني ؟ ليست ذات أهمية

فيليبو — لا يهمني ذلك ونجاحك هو الذي يعزيني إن سقطت في هذا العراك الأدبي الأخوي . أريد أيها الزميل أن تناولني يدك ؟

صاندور (بعد سكوت) — لا

(ثم يخرج فجأة دون أن يفوه بكلمة)

المنظر السادس

فيليبو وحده

— يا له من حسود ! وقد ابتدأت الهجوم ! إنه متألم ويلزم أن أصفح عنه . إنه لمن العتـه أن يعترف الإنسان لصديقه المسكين المنكود الذي لم يحسده قط على قوته وجماله ، بفضل ضئيل لا يمس حبه الذاتي ولا يغيظه . وما أحسن أن يكون الناس أصدقاء ومتنافسين في الوقت نفسه . إنه يجهل قدرك ولا يعرف لك فضلاً . يالقلب مفعم بالحنان والعطف ويتجنبه الناس . ولكن صفوة صناعتي هناك ولي فيها العزاء ! إنني مماثل لك أيتها الكمان العزيزة ! آلة رقيقة في ظرف غير منتظم الشكل

(ثم يذهب فيأخذ كمانه من خزانة وكانت موضوعة في ظرف أحمر ثم يضعها على المنضدة اليمنى)

تعالي فاني أريد أن أشاهدك للمرة الثانية . أي صنبي العزيز الذي نفحني الشجاعة، أنا الصانع النحيل فريسة الضجر والضيق . لقد قضيت في صنعك أياماً وليالي . تعالي لتفجري من جوفك العميق أشجى الألحان السريعة والأنغام البطيئة الباكية . تعالي فاني أريد أن أشاهدك وألمسك . إنني لا أريد أن أوقظ صوتك الرنان ، بل أكتفي برؤية وجهي في خشبك الذهبي اللامع، لأنك ستفارقينني لمجد ناسويًّا؛ ولربما وقعت بين النبلاء أو بين الأفاقين فأرقصت السوقة في الضواحي أو النبلاء في بلاط الأمراء وأنت ترتمدين من أصابع مهرة الضراب . وأنا الذي أعتقد بسذاجة في عقلية الأشياء، أتوسل إليك وأنا أودعك أيتها الآلة النبيلة العزيزه ألا تنسى الذي منحك هذا الصوت الملتهب والأحدب المسكين الذي نفخ فيك من روحه (ثم يضع الكمان في ظرفها)

ما أنا إلا طفل ! ثم ماذا ؟ لا، فاني أكذب على نفسي وأخدع عواطفي بلا طائل . يا للأحمق المسكين مثلي ! لم أدخل هذه المسابقة للمجد وحده، ولكني أردت أن أنال هذا النصر لأجل اللطيفة الحسناء جانيتا لأنها التي اهتمت وحدها بآلامي في هذه الدنيا . وحينما كنت طفلاً ضالاً متشرداً وقفت بباب المعلم فيراري

فقابلتنى بكل طيبة ولطف دون أن تضحك ، وإن هذا الحب الصامت من صديق طفولتها لا تمده إهانة لها ، وإنى أرغب أن أحصل على نصيب من الفخر يجعلنى محبوباً يوماً ما . وإنى واثق من النجاح الذى أنشده . إننى لا أتسلح بقسم والدها فلربما يكون فؤادها خالياً ، وحينما أمنحها السلسلة الذهبية البديعة وتشعر أن من هذا الجسم النحيل قد تفجر النبوغ لأجلها ، إنها ابنة فنان وسيكون لها نصيب من العظمة ، وستفكر فى الذكاء وتنسى الدمامة ، ولعدة أسباب تستطيع نفسها المخذولة أن ... أواه ! إننى أحلم بحلم قتال

المنظر السابع

فيليبو — جانينا

جانينا (تدخل) — إنه وحده، وسأسأله إن كان ساندرو عنده بعض الأمل (ثم تتكلم بصوت مسموع)

فيليبو — (منتبهاً من أحلامه)

إلهى ! إنها هى !

جانينا — يجب أن أسدد إليك سهام اللوم لأننى كنت أجهل ما يعلمه كل الناس كما أننى لم أعلم منك هذا النبأ

فيليبو — وما الأمر ؟

جانينا — إنك ستدخل المنافسة لتحصل على الجائزة !

فيليبو — كان من الواجب على أن أعلمك أولا ، ولكنى حينما عرفت ميل المعلم فرارى والقسم الذى فاه به لم أجسر على ذلك ، فعفواً يا آنستى !

جانينا — نعم ، ولكن دعنا من هذا . إنك تعلم أن أبى الهرم الذى يحبنى لا يريد أن يتصرف فى ولا أن يكلف المصادفات بالعناية بسعادتى . أما السلسلة الذهبية وشهادة الشرف فتختلف عن هذا بكثير ، وكل فرد له الحق فى التنافس فيها ولا سيما أنت بعد ما سمعت بمهارتك

فيليبو — وكيف ذلك ؟

جانينا — ولكنك صنعت كأنا يقولون إنها ستنال الجائزة بلا ريب لأنها تحفة فنية

فيليبو — إننى أعترف أننى بذلت ما فى الوسع ، ولربما نجحت أو سقطت فى المسابقة ، ومن يا آنستى الذى سيهتم بذلك ؟

جانينا — من ؟ كثير من الأصدقاء الذين يهتمون بأمرك وقد رهنوا على ذلك

فيليبو — عفواً فانى غبى ، وحينما يكون الانسان حيياً يظن أنه قليل الثقة ؛ وإنى مدين لك بنصف أسرارى ، وحينما تتملكنى الهموم والأشجان لا أجد من يشفق على إلا إياك ، لأنك تغتبطين حينما ترينى سعيداً . إننى مثل نبات « الست المستحية » إذا اقترب منى أحد تقهقرت بحركة آلية متصوراً أنهم يريدوننى بسوء ، فعفواً يا آنستى !

جانينا — إذا كان الأمر كذلك فانى أنسحب

فيليبو — كلا ! لا تبرحى مكانك فسأقول لك كل شىء لأنى أنكرت جميلك وأهنتك ، واعلمى أنى واثق من النجاح لأنى أحكم على عملى بدون تسامح ، ولا أدرى إن كان النجاح حليف الذكاء والمهارة أم حليف الحظ ، ولكننى قد نجحت على كل حال (ثم يعرض كأنه)

وحينما ابتدأت عملى هذا بذلت ما فى وسعى من العناية وصنعت قصعتها من خشب التنوب ورقبتها من الاسفندان ، ولكن كل هذا لم يك شيئاً مذكوراً ، بل العجب كل العجب ما عثرت عليه فى ساعة من

الليل وهو الورنيش القديم أو السر المفقود ...

جانينا — هل هو الورنيش المشهور الذى كان يستعمله الأساتذة الأقدمون ؟

فيليبو — إنه فى حوزتى وأرغب كنافس كريم أن أذيع تركيبه بين المتنافسين . ولقد قارنت بين كانى وكمان صنعها « إياتى » المشهور فكانتا متشابهتين فى الصوت بالضبط . وإنى واثق من قولى . إننى أجرمن الأخشاب الأربع — كما كان يعمل الأساتذة الكبار — صوتاً عميقاً عظيماً رناناً يملأ كنيسة كبيرة !

جانينا (على حدة) — وا أسفا على صاندور المسكين !

فيليبو — إننى منذ هذا اليوم السعيد وأنا أخفى سعادتى كالعاشق ، ولا يهمنى الآن إن أخذت الجائزة أو حرمتها ، لأن حياتى عيد مستمر ، وإنى أتمتع بكنزى الثمين كالبخيل . أجتاز كريمون وأهلها نيام لأصل إلى مكان خاوي هناك وكانى طى عباءتى وأجلس وحدى في سفح الأكمة فوق العشب المخضل بقطر الندى فأغرق فى أحلامى إلى أن تطلع الشمس ، وفى الختام حينما يتلألأ الأفق بماسه ويلوح حولى اختلاج الطبيعة منبئاً باستيقاظها ، وتهتز الأعشاب ، ويسمع حفيف الغاب والخمائل ، وقد عاودتها نضارتها فى الليل وانطلقت من الأوكار ألحانها الشجية — أتناول كاني ببشر وفرح ، وأرتجل من الألحان أشجاها ، وهذا هو خير الجزاء ، وأصطبح بقوس ظافرة للنغط الفخم الذى ينبعث من الشمس المشرقة والتنهدات الطويلة لأوراق الأشجار ونقيق الدواجن المستيقظة ، كل ذلك يسعد نفحاتى فأسكر من نشوة الطرب ، وهذه الكمان الظافرة أشعر باختلاجها بجانب قلبي فتمتزج ألحانها بألحان الفجر فتغرق نفسى فى نشيد ساحر من شباب وفرح

جانينا (على حدة) — وا أسفا على صاندرو المسكين !

جانينا (على مسمع منه) — إن ذلك لأجل مما وصفت

فيليبو (وقد وضع كمانه على كتفه) — إصغى اليها وكيف تخرج صوت اللا La

جانينا — وقع لنا لحناً فإنى أحب أن أستوعب صوتها جيداً

فيليبو (على حدة) — إنها تتكلم بلهجة حنان وهى ترجونى ، فهل تتمنى لى أعظم الأمانى لنجاحى ؟ (على مسمع منها) هل ترغبين سماع صوتها حقاً ؟

جانينا — نعم بلا شك (على حدة) سنرى إن كان يتملق أو يقول الحقيقة

فيليبو — أترغبين أن أوقع لك السونات من مقام الصول لكوريللى

جانينا — وقع ما يروق لك

فيليبو (وهو واقف أمام حمالة النوتة) — إصغى جيداً إلى هذا (يوقع فيليبو المقاطع الأولى من لحن عظيم على كمانه ذات الصوت الرخيم الرنان فيعبر وجه جانينا التى كانت مصغية إليه عن إعجاب مصحوب بألم ثم تنكس رأسها بين يديها وتبكي بكاء مراً فيلمحها فيليبو ويصيح قائلا :)

ما ذا أرى ؟ أتبكين ! وهل أنا الآن أبكى الناس بعد ما كنت أثير منهم الضحك ؟ أما يشبه صوتها التنهدات ؟ أليس الفن مغرياً وجميلا ، لأن هذا الأحدب الذى كان يضحك منه الغلمان ويرشقونه بالحجارة قد استطاع أن يفجر الدمع من جفونك ؟ إننى لم أعد حقير الأمس ، فان لى الحق أن أرفع رأسى وأشمخ بأنفى . لقد أبكيتك ، وهذا مايعوضنى يا جانينا عن الفخر والجزاء ، ولا أجد جزاء أثمن من اللآلئ التى تقطر من عينيك

(يتبع) محمد كامل حجاج

أحزان الطفولة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

مات أبوه فأحدث موته هزة عنيفة فى نفسه ، فجّرت بها ينابيع الحزن والألم والخوف ، وجاء الموت بغتة فلم يسبق بما يمهد له عادة من مرض مستفحل ، أو حادث أليم ، أو عمر بالغ فى الكبر . وقد قابله صباح يوم الوفاة كعادته كل صباح وتناول معه طعام الافطار وقرأ عليه الصحف وجاذبه بعض الحديث ثم غادر البيت لقضاء بعض الشؤون فغاب ساعات معـــدودات ، ولدى عودته وجد البيت — الذى غادره ساكناً تظلله الطمأنينة — صاخباً فزعاً يمزق سكونه التصويت ويئن فى تضاعيف جوه البكاء والعويل ، وتلقى الخبر الأليم بأن أباه العزيز — الذي كان يحادثه منذ حين قصير ، والذى كان يبدو ممتلئاً صحة وعافية — انتقل فى دقيقة من الساعات التى غابها عنه إلى عالم آخر لا يبلغه حى فى ملايين السنين .. وأنه صنع هذه المعجزة الكبرى دون بذل أى جهد أو قوة ، بل إنه صنعها بسلب الجهود والقوى جميعاً ... فبلغ به الانحلال مالا يبلغه استجماع القوى وتوثب العزائم ، وغاب فى غمرات ذلك العالم المجهول الذي أعجزت حقيقته خيال العلماء والفلاسفة ...

على أنه لم يعن — فى تلك الساعات الرهيبة — بالتفكير فى كنه العالم الذى صمدت ، أو هبطت ، روح المتوفى إليه ، ولكنه وقف مبهوتاً ، ذاهل الحواس ، ذاهب النفس ، أمام حقيقة عجيبة لا يجهلها إنسان ولا يقبلها قبوله للحقائق المسلم بها أبداً ، وهى أن ذلك الوالد العزيز الذى كان يملأ هذا البيت حياة وسيادة ، صار جثة هامدة ... هامدة جامدة كالتراب سواء بسواء ، وأن دبيب الفناء يدب الآن فى بقاياه ، وأنه سيظفر بها بعد حين قصير ويحولها إلى شىء تعافه النفس والحواس بل والحيوان والحشرات ، وأنه أصبح بالنسبة إليه ذكرى لا أمل فى رجوع صاحبها أكثر مما فى رجوع أول ميت من البشر ... فلا لقاء ولا حديث ولا وجود له بعد اليوم ... !

وكبر عليه الأمر ، لأن عواطفه وآلامه طغت على عقله فتساءل جزعاً بسذاجة الطفل : « كيف أمكن أن يموت أبى؟! » ثم بدا له تساؤله غريباً شاذاً ، فتنهد آسفاً وقال : « ليته امتد به العمر حتى أشبع منه وحتى يهون علىّ فقده » وثار على قول بعض المعزين : « إن الموت نهاية كل حى » أو قولهم : « الموت لا يسخط عاقلاً » . نعم ثار ثورة مكتومة على هذا التسليم المضحك وقال لنفسه : حقا إن الموت نهاية كل حى ، ولكنه نهاية حقيقة بأن تذهل الحى عن نفسه وإن كان يقع فى اليوم الواحد مئات المرات . كيف لا ؟ .. أيكون من الحكمة أن نثور لضياع حافظة نقود أو لسقوط نائب في الانتخابات ولا نثور لأكبر حادث يقع لحياة الانسان ، فيبدل روحها موتا وأنسها وحشة وجمالها بشاعة ووجودها ذكرى ؟ ثم إنه رأى فى موت أبيه نذيرا مخيفا يتهدده بالموت . لقد مات أبوه فلم لا يموت هو أيضاً ؟ وقد كان يأمن من هذه الفكرة فلاحت لعينيه سافرة عن وجهها البشع المخيف وملأت نفسه عذابا وسخرية مريرة ...

كان هذا الشاب أكبر ذرية أبيه — وهم ثلاثة ذكور وثلاث إناث — وقد أوفى حظه من حب والديه على حظ إخوته جميعا، فكان فى صباه الطفل المدلل المحبوب الذى لا يقال له أبدا : «لا» ونادرا ما يقول «بلى» أو «نعم»، فنشأ على اعتقاد راسخ بأن الدنيا لعبة طيعة بين يديه ، وأن جميع متعها قطوف دانية يجنيها أو يزهد فيها كيفما أراد ، وأن الدهر لا يصيبه ولن يصيبه إلا بما يشاء ، وأنه إذا كانت الدنيا — كما يزعمون — غاصة بالمتاعب والأحزان فهو بمنجى آمن منها . وكان إذا اعترضه صعب أو شاكسته مشقة هتف قائلا : « أبتاه » أو « أماه » ، وسرعان ما يلين الصعب ويسلس الشاق ، فلم يصمد مرة لشدة أو يتغلب على محنة ، وكتب عليه ما يكتب عادة على أمثاله من الخيبة التامة فى الحياة المدرسية ، فبقى فى حضانة والديه رغم تقدم العمر وبلوغ الثلاثين ، وتغير الكثير من مظهره ، أما نفسه فظلت متشبثة بالطفولة المقنعة ... ولذا كان ألمه لموت أبيه غير ألم إخوته جميعاً — بما فيهم النساء — لأنه يعنى تهدم ركن من ركنى سعادته ، وفقد قلب من القلبين اللذين يعيش على عطفهما ومحبتهما ...

ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن موت أبيه كان يقضى عليه بالفقر أو التشرد ، فقد ترك المتوفى لورثته عمارة كبيرة تدر عشرات الجنيهات كل شهر، ونصيبه منها يكفيه ويضمن له حياة رغد تعوضه عما فقد من عطف وما فاته من عمل أو وظيفة

وكان أشقاؤه الثلاثة موظفين ذوى مستقبل حسن وأرباب أسر سعيدة ، وكانت شقيقاته أيضاً زوجات وأمهات يعشن فى كنف أزواج صالحين ، فلم تخلف الوفاة له متاعب عائلية ولا حملته تبعات جديدة . والحق أنه كان من بين إخوته من يحسده على حياته الهادئة المطمئنة الخالية من المسئوليات والهموم، فكان لذلك كله حقيقاً بأن يغتبط ويتعزى ويحمد الله كثيراً ، ولكنه على العكس جزع جزعاً لا حكمة فيه وتردى فى أهوال الألم والعذاب والتشاؤم حتى أشفى على الهلاك والفناء ... والحق أن العالم كان بريئاً مما حاق بنفسه من التغير والعذاب لأنا رأينا ظروفه حقيقة بأن يحسده عليها أغلب المصابين فى آبائهم، فلم يبق سوى عالمه الداخلى وحده الذي يتحمل تبعة آلامه ، فقد أحدث المصاب فى نفسه هزة عنيفة عجزت عن تحملها أعصابه فتضعضعت واعتورها مرض طاريء انتقلت عدواه إلى العالم الخارجى فكسته لباساً أسود من الحزن والألم والبشاعة ...

وكانت الأيام القلائل التى تلت يوم الوفاة أيام عذاب قاتل وألم مبرح ومخاوف مروعة ، وقد قضاها في عزلة موحشة فريسة للهواجس يجتر أفكار الحزن واليأس ليلاً ونهاراً ، وقد بدت له الدنيا مظلمة حالكة الظلمة عاطلة من الجمال ، شحيحة بالأمل ، مليئة بالآلام والوحشية ، ولاح لعينيه المحزونتين — فى الأفق القريب — وحش الفناء فاغراً فاه يبتلع كل ساعة المئين من الناس البائسين الذين يتعبون فى غير جدوى ، ويتخبطون على غير هدى، ويشقون بالآمال ويأملون بالأوهام، ثم يهوون بين أنيابه الحادة غير مجزيين على تعبهم سعادة، ولا متعزين عن شقائهم بأمل، ولا مخلفين غير الحسرة والسخرية المريرة ... فأى حياة هذه ! وما الفائدة منها ؟ وما الحكمة من وجودها ؟ ... وأى عذاب

هذا وأى رعب ! وكيف يستطيع أن يطمئن على حياته فى هذه المعركة الخاسرة ؟

حقاً إن دواعى الطمأنينة متوفرة لديه ، فهو طليق من متاعب الرجال ، وموفور الرزق، ولكن من يضمن له أن تظل العمارة — التى هى مصدر رزقه — آهلة بالسكان ؟ بل من يضمن له ألا تخلو من الند من جميع سكانها فيسلك مقهوراً فى عداد السائلين البائسين ويطرق أبواب إخوته جائماً خجلا فيطرده منهم من يطرده أو يطعمه من يطعمه وهو يضيق به ؟ ...

بل ما وجه المحال فى أن تمسى تلك العمارة أثراً بعد عين لحادث من الحدثان ؟ إن شرارة من نار حقيقة بأن تحولها فى دقائق إلى كوم من رماد ، أو هزة أرضية مباغتة قد تدكها دكا وتتركها خرائب وتلولا من أخشاب وأحجار ، وما الحريق ببعيد ولا الزلزال بمستحيل ، وهى — لو أمنت اليوم شر النار والزلزال — فما هي بآمنة غداً ويل الهرم والبلى وتناقص الغلة ، فالخراب واقع واقع ... والفقر آت آت ...

ومن الغريب أنه كان يشعر شعوراً قوياً بأن الفقر ليس هو البؤس الوحيد المدخر له ، وأن الدنيا لن تقنع فى تعذيبه بسلب موارد رزقه، بل؛وتوجس خيفة من ناحية شقيقاته وخيل إليه خياله المريض أن رابطة الزوجية التى تخليه من تبعاتهن لن تدوم أبداً ، وأن شياطين الشقاء ستفصم عراها بالشقاق والنزاع وتحمل إلي بيته شقيقاته البائسات مع أطفالهن الصغار فيصبح مسئولا عنهن جميعاً بصفته الأخ الأكبر والأعزب أيضاً فينوء بمتاعب الأزواج وما هو بالزوج ويرزح تحت تبعات الآباء وما هو بالأب ، كأنه ليس حسبه ماينتظره من الفقر والشقاء.

وما يستطيع إنسان أن يشرك أشقاءه فى تحمل المسئوليات لأن لكل منهم أسرته ، ولأنه أخوهم الأكبر الذى خلف والده ...

على أنه لا يأمن شر ذلك الشقاء الطاغى على أشقائه أنفسهم؛ ولوأن الأمر كان يتعلق بهم وحدهم ما اهتم ولا قلق ، ولكنه كان يخشى أن تضيف المصيبة التى قد تنزل بأحدهم إلى حياته متاعب جديدة؛ فلو أن واحداً منهم لحق بوالده لأصبح هو مسئولا عن أولاده ، وهو لا يدرى ما كنه هذا الشعور القوى الغريب الذى يهمس فى أعماقه بأن أشقاءه هالكون لا محالة ، وبأنه سيأتيه نعيهم قريباً . أى شعور هذا ؟ إن أشقاءه مكتملو الصحة والعافية ، ولكن وا أسفاه لا الصحة ولا العافية بالضمان الآمن ضد الموت ... ألم يقض والده وهو يتحدث ويضحك ويتمتع بالصحة والعافية ؟ فالموت يتهددهم جميعاً ومتاعب الدنيا وهمومها تنتظره عن كثب ... وما من قوة فى الأرض تستطيع أن تخدعه عن هذه الحقائق المخيفة ولا أن تمحو من نفسه الشعور بها، فهو يحس بدنوها منه ويتوقع حدوثها ساعة بعد ساعة ... الموت والمتاعب والفقر ...

ما أنكد وجه الحياة ! إنها لم تقنع باغتصاب والده منه، فهي تكيدلشقيقاته البائسات، وتتربص بحيوات أشقائه المنكوبين ، وتمد المدة للقضاء على مصدر رزقهم جميعاً ، وهى قوية بين يديها جميع الأسلحة المدمرة من موت وأمراض وشقاق وحرائق وزلازل ، وسيجد نفسه عما قليل ضحية لقساوتها فقيراً معوزاً مسئولا عن جم غفير من المطلقات والأرامل واليتامى ...

كانت تلك الأيام كلها عذاباً دونه عذاب الجحيم لم يرتح فيها عقله ساعة من شر ذلك التفكير الوبيل الذى يفرز السموم والعذاب والمخاوف ، حتى تمكنت الأوهام الأليمة من نفسه، وكدرت أوقات يقظته وأحلام نومه ، وجعل يتوقع كل ساعة أن يسمع عن انهيار العمارة أو ذهابها طعمة للنيران، أو أن يأتيه آت ينعى أحد أشقائه أو ينعيهم جيماً، وخال كل طارق لبابه أختاً من أخواته راجعة إلى بيته تسحب خلفها أطفالها ... وفاضت نفسه بالجزع فلم يستطع صبراً وضاق بعزلته فخرج هائماً وصار يتردد على بيوت أشقائه وشقيقاته ليطمئن عليهم وقد وجدهم جيماً سعداء آمنين ، فعجب من جهلهم وغفلتهم ... وودّ لو يستطيع أن يقول للرجال منهم « خذوا حذركم من الأمراض والحوادث ... ولا تعرضوا أنفسكم لهواء الشتاء ولا لشمس الصيف . ولا ترددوا فى دعوة الطبيب لأتفه الأسباب . وإياكم والترام والسيارات» أو أن يقول للنساء « أطعن أزواجكن طاعة عمياء . وتعرفن مواضع إرضائهم وتجنبن ما يضايقهم واصبرن عليهم وإن طغوا وبجنوا عليكن . » ولكن الصراحة لم تواته فجعل يدور حول غرضه دورا ولا يختار حديثا غيره . وكان يحدث نفسه كلما رجع من احدى زياراته: ألاسحقاً للذين يقولون أن الأهل عزة وقوة ! ويا ليتنى كنت وحيداً لا أعرف لى أخا ولا أختا ، فقيرا لا أملك ما يجوز أن آسف عليه .. واها ... ما أسعد أبناء السبيل ! إن اللقمة التى يلتقطونها من القمامة ويزدردونها وهم يغنون أشهى من الطعام الدسم الذى يهبط إلى جوفى مع الهموم والاحزان التى لا تهضم !! ..

وتغيرت صورته وطباعه تغير نفسه، فهزل واعتل وعلت وجهه صفرة شديدة وغارت عيناه وأحاطت بهما هالة سوداء ، وتغيرت طباعه وعاش عيشة المذعور الخائف، فصد عن الدنيا وعزف عن الأصدقاء وهجر الطيبات والملاذ واستحال جوده شحاشديدا وتقتيرا قبيحا ، لأنه رأى أن من الحكمة أن يدخر المال لتلك الأيام السود التى تنذره بالفقر والتبعات والمتاعب .

هذا ما صار إليه فى الأيام القلائل التى تلت وفاة والده. ولكن حمدا لله لم تدم هذه الحال، فمضت الأيام حثيثة وأخذ وقع الصدمة يهون على نفسه ونار اللوعة تبرد فى صدره ، واعتاد غيبة أبيه كما كان معتادا لوجوده ، ولم يحدث الزلزال ولا شبت النيران ، نعم ولا صدع الشقاق شمل أخواته ولا اخترم الموت أشقاءه، ومضى يفيق من غيبوبة الحزن والخوف وينفض عن قلبه أشباح الفزع والأوهام ، ويستروح الطمأنينة والسلام.. ثم طوى النسيان متاعبه فى زوايا مغلقة الأبواب، فرأى مرة أخرى دنياه القديمة: دنيا الجمال والمتع التى يشرق حسنها فى السموات والأرض والانسان والحيوان والجماد، لا دنيا الزلازل والحرائق والأمراض والفناء، فانطلق يعدو فى طريقه من حيث حبسته المخاوف حينا ليس بالقصير

فكان فى مصابه — كما هو فى حياته — الطفل الغرير الذي قد يحزن حتى ليذهله الحزن عن نفسه فيرى لعبته ويدعها تتحطم عند قدميه ويجهش بالبكاء ثم سرعان ما ينسى فيعود سريعا إلى نشوته ويغرق فى الضحك ...

نجيب محفوظ

الدخيل

للكاتب العبقري موريس ماترلنك
بقلم محمد أمين

الأشخاص :

الجد (مكفوف البصر)
الأب
البنات الثلاث
العم
الخادم

حجرة كئيبة في قصر ريفي قديم . باب عن يمين ، وباب عن يسار ، وفي ركن من الأركان باب صغير . من خلف نوافذ من زجاج ملون يغلب فيها الخضرة ، وباب زجاجي يؤدي إلى مشرف . في إحدى الزوايا ساعة كبيرة هولاندية . مصباح يشتعل

البنات الثلاث — أقبل يا جدّي . اجلس تحت المصباح

الجد — كأنما الضوء هنا ليس بموفور

الأب — أنخرج إلى المشرف أم نبقى بهذه الحجرة ؟

العم — أليس من حسن الرأي أن نبقى هنا ؟ لقد اتصل المطر الأسبوع كله ، فالليالي رطبة باردة

الابنة الكبرى — ولكن النجوم ساطعة

العم — النجوم ؟ ليست هذه شيئاً

الجد — أرى البقاء هنا أولى ، فما يدرى أحد ماذا يحدث

الأب — لم يعد شيء يثير الجزع . فالخطر قد زال وقد نجت

الجد — في اعتقادي أنها لم تصبح بعد

الأب — لم هذا القول ؟

الجد — سمعت صوتها

الأب — ولكن ما دام يعدنا الأطباء خيراً فلنسكّن روعنا

العم — ألا إنّ حماك ليستهويه إزعاج أنفسنا بغير موجب

الجد — إني لا أرى الأشياء كما ترونها

العم — اعتمد علينا إذن نحن أولى الأبصار . لقد بدت أحسن ما تكون عصر اليوم ؛ وإنها لنائمة قريرة الجفن ، فما لنا نكدر أول مساء هنيء صفت لنا فيه الحياة ؟! إنما حق لنا هذا المساء كل الحق أن نطمئن ؛ بل ونضحك يسيراً ولا خوف

الأب — حقاً . فاني آنس إلى أسرتي أول مرة ، منذ كان هذا النفاس المروع

العم — إذا دخل المرض يوماً إلى البيت فكأنما اندس فيه غريب

الأب — وأنت تعلم كذلك أن لا اعتماد على غريب

العم — أجل

الجد — لم حرمت اليوم رؤية ابنتي ؟

العم — ليس يغيب عنك ولا ريب أن الطبيب قد منع رؤيتها

الجد — لا أدري بماذا أفكر ...

العم — إن الجزع لن يجدى عنك فتيلا

الجد (يشير إلى الباب عن يمين) — ألا يحتمل أن تسمعنا ؟

الأب — لن نتحدث بصوت مرتفع ، والباب فوق ذلك صفيق . وهناك الممرضة (أخت الرحمة) وإنها لكفيلة بتنبيهنا لو أثرنا ضجة عالية

الجد (يشير إلى الباب عن يسار) — ألا يحتمل أن يسمعنا ؟

الأب — كلا ، كلا

الجد — أهو نائم ؟

الأب — هكذا أظنّ

الجدّ — من الخير أن يذهب أحد غيرى

العم — إن الوليد يثير إشفاقي أكثر مما تثيره زوجك . لقد مضت الأسابيع منذ ولد ولا يكاد يتحرّك ؛ وما صاح صيحة واحدة فى هذه المدة ! ألا إنه ليشبه الدمية من الشمع

الجد — أحسب أن سيكون أصمّ — وقد يكون أبكم أيضاً — وتلك عاقبة الزواج بين أبناء العم ... (صمت استياء)

الأب — لكأنى أريد له الشرّ ؛ فقد سام أمه سوء العذاب

العم — تعقل ، فليس الذنب للكائن الشقىّ الضاوى . أو تراه فى الحجرة وحده ؟

الأب — نعم . فالطبيب يمنع أن يكون هو والأمّ فى حجرة

العم — ولكن المرضع معه ؟

الأب — لا ، بل ذهبت تستريح ، لشدّما جهدت هذه الأيام الأواخر . أرسولا ، اذهبي فانظرى أهو نائم

الابنة الكبرى — سمعاً يا أبت (تنهض البنات الثلاث ، ويقصدن إلى الحجرة عن يمين ، يداً فى يد)

الأب — متى تقبل أختنا ؟

العم — أحسبها تقبل فى نحو التاسعة

الأب — لقد مضت التاسعة . ليتها تقبل هذا المساء فزوجى تهفو إلى رؤيتها

العم — هى لاشكّ آتية . وستكون زيارتها هذه أول عهدها بهذا المكان

الأب — إنها لم تشهد البيت قط

العم — عسير عليها أن تبرح الدير

الأب — أتكون وحدها ؟

العم — أغلب الظنّ أن تصحبها راهبة فليس يؤذن لهن فى الخروج منفردات

الأب — لكنها الرئيسة

العم — الخطر واحد على الجميع

الجد — ألا تشعرون بانزعاج ؟

العم — ولم نشعر بانزعاج ؟ وأى خير في ترديد هذا القول ؟ ألا إنه لم يعد أمر نخشاه ...

الجد — أختك أسنّ منك ؟

العم — هى أكبرنا سنّا

الجد — لا أدرى ماذا يؤلمنى ؛ إنى لأشعر باضطراب ، تمنيت لو أن أختك أقبلت !

العم — ستقبل ؛ إنها وعدت بالمجيء

الجد — آه ، لو انتهى هذا المساء !

(تعود البنات الثلاث)

الأب — أهو نائم ؟

الابنة الكبرى — أجل ، يا أبت . إنه مستغرق فى النوم

العم — بم نستعين على انتظارنا ؟

الجد — انتظار أى شيء ؟

العم — انتظار أختنا

الأب — أرسولا ، ألا ترين شيئاً مقبلا ؟

الابنة الكبرى (لدى النافذة) — لاشيء يا أبت

الأب — ولا فى الشارع ؟ أتبصرين الشارع ؟

الابنة الكبرى — أجل يا أبت ، فضوء القمر

يسطع ، وإنى لأرى الشارع إلى مدى غابة السرو

الجدّ — ولا ترين أحداً ؟

الابنة الكبرى — لا يا جدّى ، لا أحد

العم — كيف ترين الليلة ؟

الابنة الكبرى — جدّ فاتنة ، أتسمع البلابل؟

العمّ — أجل ، أجل

الابنة الكبرى — إن ريحاً واهنة تهبّ على الشارع

الجدّ — ريح واهنة على الشارع ؟

الابنة الكبرى — أجل ؛ فالأشجار تهتز هوناً

العمّ — أعجب لأختى ، كيف لم تأت بعد !

الجدّ — ما عدت أسمع البلابل

الابنة الكبرى — إخال أحداً يا جدّى قد دلف إلى الحديقة

الجدّ — من ؟

الابنة الكبرى — لا أدرى ، لست أرى أحداً

العم — إذن لا أحد

الابنة الكبرى — إنّ أحـداً فى الحديقة لامراء ؛ فالبلابل أمسكت عن شدوها فجأة

الجدّ — ولـكن لا أسمع أحداً يقبل

الابنة — إن أحداً يمر على البركة لا شك ؛ فالوزّ قد اضطرب

ابنة أخرى — كل الأسماك فى البركة تغطس فجأة

الأب — ألا ترين أحداً ؟

الابنة الكبرى — لا يا أبت ، لا أحد

الأب — ولـكن البركة فى ضوء القمر

الابنة الكبري — أجل ؛ وإني لأرى الإوزّ مهتاجة

العم — لا أرتاب فى أنها أختي التى راعتها .

وإنها لا بد قد دخلت من الباب الصغير

الأب — لا أدرى لم لا تنبح الـكلاب ؟

الابنة — إنى لأرى الـكلاب خلف مأواه ،

وها هى ذى الإوز تعبر إلى الضفة الأخرى !

العم — إنها لمشفقة من أختى ! إنى ذاهب أستطلع . (يهتف) أختى . أختى ! أنت هنا ؟ ... ما من أحد

الابنة — إنى على ثقة بأن أحداً ولج الحديقة ؛ ولسوف ترى

العم — ولـكنها كانت تجيبنى !

الجد — أماعادت البلابل تصدح ، يا أرسولا ؟

الابنة — لا أسمع منها صادحاً فى مكان

الجد — ولـكن لا ضجّة

الابنة — ثم صمت مثل صمت الرمس

الجد — إن من روعها غريب لا شك ، فلو أنه من الأسرة لما كفت عن سجعها

العم — إلى متى تبحث عن رعناء البلابل ؟

الجد — أ كل النوافذ مفتوحة يا أرسولا ؟

الابنة — إن الباب الزجاج مفتوح يا جدى

الجد — لـكأن البرد ينفذ إلى الحجرة

الابنة — فى الحديقة يا جدى ريح واهنة ، والورود منتثرة أوراقها

الأب — خير . أوصدى الباب ، فالليل تقدم

الابنة — سمعاً يا أبت . . . . لا أستطيع إيصاد الباب

الجد — لِمَ ؟ ما للباب يا ولدى ؟

العم — ليس ما يدعو لمتافك على هذا النحو الغريب . إنى ذاهب أشد أزرهن

الابنة الكبرى — لايتهيأ لنا أن نحكم إيصاده

العم — ذلك أثر الندى . فلندفعنّه جميعاً ...
لا بد أن شيئاً يعترضه
الأب — في غد يصلحه النجار
الجد — أيأتي النجار في غد ؟
الابنة — نعم يا جدى . إنه آت ليؤدى فى
القبو بعض الأعمال
الجد — إنه باعث فى البيت ضجة
الابنة — سأسأله الرفق في عمله . (يسمع فجأة
من الخارج صوت منجل يشحذ)
الجد (راجفاً) — واها !
العم — ما هذا ؟
الابنة — لا أدرى على الحقيقة ، وإنما أحسبه
البستانى . لست أراه فى وضوح ، فإنه لفى ظل البيت
الأب — إنه البستانى ذاهباً يحصد
العم — أيحصد فى الليل ؟
الأب — أليس غدا الأحد ؟ أجـل ، وقد
تبين لى أن الـكلأ فيما حول الدار جد طويل
الجد — إن منجله باعث للضجة ...
الابنة — إنه يشحذ قريباً من الدار
الجد — أتنظرينه يا أرسولا ؟
الابنة — لا يا جدى ؟ إنه لقائم فى الظلام
الجد — أخشى أن يوقظ ابنتى
العم — إنا لا نكاد نسمعه
الجد — كأنه يشحذ فى البيت
العم — لن تسمعه المريضة ؛ فليس ثمة ضير
الأب — لا أرى المصباح يشتمل هذا المساء اشتمالاً
حسناً
العم — يعوزه أن يملأ
الأب — لقد رأيته يملأ فى هذا الصباح . إن
اشتماله قد ساء منذ غلّقت النافذة
العم — لعل الداخنة متسخة
الأب — سيشتمل أحسن مما كان فورا
الابنة — جدي أخذته سنة . إنه لم ينم سواد
ليال ثلاث
الأب — لقد انزعج
العم — إنه منزعج أبداً . وإنه أحياناً لا يصيخ
للعقل سمعاً
الأب — غـفر هذا لمن كان فى سنه
العم — يعلم الله كيف نكون فى سنه
الأب — إنه قريب من الثمانين
العم — إذن حق له أن يبدو غريباً
الأب — إنه كسائر المكفوفين
العم — ما أكثر ما يطيلون الفكر !
الأب — إنهم ليجدون من الوقت فسحة
العم — إذ لا شيء آخر يأتونه
الأب — وليس إلى ذلك ما يشغلهم
العم — ذلك لا ريب هو أشد البلاء
الأب — إن المرء ليألفه فيما يظهر
العم — لا أحسب
الأب — إنهم لا شك يستحقون الرثاء
العم — ما أفظع ألا يعرف الإنسان أين يكون
ولا من أين جاء ، ولا إلى أين يذهب ؛ وألا يستطيع
تمييز الضحى من الليل والشتاء من الصيف ؛
ظلام على ظلام ! بلى إنى أوثر الموت عليه ، فإنه
الداء العضال
الأب — فى الظاهر
العم — ولـكن لم يُـكَـفّ بصره أجمع
الأب — ليس يلمح إلا ساطع النور

العم — فلنمن إذن بنواظرنا الضعيفة
الأب — عجيبة خواطره على الأغلب
العم — وهو فى بعض الأحيان أبعد ما يكون عن الظرف
الأب — إنه ليعلن كل ما هجس فى خاطره
العم — ألم يكن ذلك دأبه ؟
الأب — كلا ، إنه حيناً من الأحيان كان مثلنا عاقلاً ، ولم يكن يلفظ من القول غريباً ، وأخشى أن تكون أرسولا تحدوه إلى ذلك ، فهي تجيبه عن كل ما يسأل
العم — الخير ألايمار قوله التفاتاً . إنها الشفقة تخرجه عن محجة الصواب
(تدق الساعة عشراً)
الجد (صاحياً) — ترى ! أوجهى شطر الباب الزجاج ؟
الابنة — لقد نمت يا جدّى نوماً حسناً
الجدّ — ترى! أوجهي شطر الباب الزجاج ؟
الابنة — نعم يا جدى
الجد — أليس أحد لدى الباب ؟
الابنة — لا يا جدى ، لا أرى أحداً
الجد — حسبت أحداً ينتظر . أو لم يقبل أحد؟
الابنة — لا يا جدى ، لا أحد
الجد (للعم والأب) — وأختكما؟ ألم تقبل؟
العم — إن الليل تقدم ، فلن تأتي . ألا إنها قد أساءت فعلاً
الأب — لقد أصبحت الآن مشغلتى الشاغلة
(ضجة ، كأن أحداً يدخل البيت)
العم — إنها هنا ! أتسمعون ؟
الأب — أجل لقد ولج الطابق الأسفل أحدما
العم — هى لا شك أختنا ، لقد ميزت خطوها
الجد — سمعت خطى وئيدة
الأب — لقد دخلت فى رفق
العم — إنها لتعلم أن ثمة مريضة
الجد — لا أسمع الآن شيئاً
العم — إنها صاعدة رأساً فسيخبرونها بوضعنا
الأب — لقد سرنى مجيئها
العم — لم تداخلنى الشبهة فى أنها مقبلة
الجد — لقد طال صعودها
العم — إنها لا ريب هى !
الأب — لسنا نتوقع زائراً غيرها
الجد — لا أسمع فى الطابق الأسفل صوتاً
الأب — سأدعو الخادم فنحيط بكل شيء علماً
(يشد حبل الجرس)
الجد — أسمع صوتاً على الدرج
الأب — إنها الخادم صاعدة
الجد — لكأنها ليست بمفردها
الأب — إنها صاعدة رويداً ...
الجد — أسمع وطء أختكما !
الأب — لا أسمع غير الخادم
الجد — بل هى أختك ، إنها أختك .
(ثم طرق الباب)
العم — إنها تطرق باب السلم من خلف
الأب — إني ذاهب أفتحه (يفتح الباب الصغير بعض الشيء ، وتطل الخادم خلفه) أين أنت ؟
الخادم — ها أنا ذى يا سيدى .
الجد — أختك لدى الباب ؟
العم — لا أرى سوى الخادم
الأب — ليس إلا الخادم . (للخادم) من ذا دخل البيت ؟
الخادم — دخل البيت ؟

الأب — أجل؛ لقد دخل الآن أحد ما
الخادم — لم يدخل أحد يا سيدى
الجد — من ذا الذي تنهد هذا التنهد ؟
العم — هى الخادم؛ إنها مبهورة النفس
الجد — أهى تبكى ؟
العم — لا ، ولم تبكى ؟
الأب (للخادم) — ألم يدخل الآن أحد ؟
الخادم — لا يا سيدى
الأب — ولكن سمعنا أحداً يفتح الباب !
الخادم — لا يا سيدى
الأب — ولكن سمعنا أحداً يفتح الباب !
الخادم — كنت أنا أغلق الباب ...
الأب — أكان مفتوحاً ؟
الخادم — أجل ياسيدى
الأب — ولمَ كان مفتوحاً هذه الساعة من الليل؟
الخادم — لا أدرى يا سيدى . والحق أنى غلقته بنفسى
الأب — إذن من فتحه ؟
الخادم — لا أدرى يا سيدى . ولعل أحداً يا سيدى قد خرج من بعدى ...
الأب — حاذرى . لا تدفعى الباب ، فأنت تعلمين كم يثير من ضجة
الخادم — ولكنى يا سيدى ما لمست الباب
الأب — بل تدفعينه ؛ وتدفعينه كما لو أردت دخول الحجرة
الخادم — ولكني يا سيدى أبعد كثيراً من البـاب ...
الأب — لا يعل هكذا صوتك ...
الجد — أيطفئون النور ؟
الابنة الكبرى — لا يا جدى
الجد — لكأن حلكة الظلام قد انتشرت ، على حين بغتة
الأب (للخادم) — فلتنزلى الآن ، ولكن لا تبعثى على الدرج ضوضاء عالية
الخادم — إنى لا أبعث على الدرج أدنى الصوت
الأب — بل أقول إنك بعثت الضجة عالية ؛ فانزلى فى هدوء حتى لا تصحو مولاتك . وإذا أقبل الآن أحد فقولى لسنا هنا
الجد (واجفا) — لا تقولى هذا القول !
الأب — .. إلا أن تكون أختى، أو يكون الطبيب
العمّ — متى يجىء الطبيب ؟
الأب — لن يستطيع المجىء قبل انتصاف الليل
(يوصد الباب ، وتسمع ساعة تدق الحادية عشرة)
الجد — دخلت ؟
الأب — من ؟
الجد — الخادم
الأب — كلا ، بل لقد نزلت
الجد — حسبتها جالسة إلى الخوان
العم — الخادم ؟
الجد — أجل
العم — كانت تكمل بهذا سعادتنا !
الجد — ألم يدخل الحجرة أحد ؟
الأب — لا ، لم يدخل أحد
الجد — وليست هنا أختك ؟
العم — أختنا لم تأت
الجد — تريدون خداعى
العم — خداعك ؟
الجد — يا أرسولا : خبرينى الحق نشدتك الله
الابنة الكبرى — جدى ! جدى ! مابالك ؟
الجد — إن أمراً قد حدث . أيقنت أن ابنتى ساءت حالاً

العم — أتحلم ؟

الجدّ — بل تخفون عنى الحقّ ، فان أمراً قد حدث ، ما فى ذلك ريب

العم — أما هذا فأنت أبصر به منا !

الجد — يا أرسولا ، أصدقيني !

الابنة — ولكنى صدقتك يا جدى !

الجد — لست ناطقة بصوتك المعهود

العم — لأنك ترعبها

الجد — وصوتك أيضاً تغير

الأب — لقد أصابك الخبل ! (يتبادل الايماء والعم بأن الجد قد مسه الجنون)

الجد — أسمعكم حق السمع ، خائفين

العم — ولكن مم نخاف ؟

الجد — لم تريدون خداعى ؟

العم — من يفكر فى خداعك ؟

الجد — لم أطفأتم النور ؟

العم — ولكن النور لم يطفأ ، ولم يزل موفور الضوء مثلما كان

الابنة — كأنّ المصباح قد خمد

الأب — ولكن عينىّ كما كانتا من قبل تنظران

الجد — على عينىّ أحجار الرحى ! نخبرن ياصبايا ماذا يجرى هنا ! خبّرن بالله يا من تبصرن ! ألا إنى وحدى فى ظلام ما إن له من نهاية ، فلا أدرى من ذا يجلس بجانبى ، ولا أدرى ماذا يحدث حولى غير بعيد ! ... ... ولم يا ترى تتهامسون ؟

الأب — ما كان أحد يهمس

الجد — لقد تكلمت لدى الباب همساً

الأب — لقد سمعت كل حديثى

— الجد — لقد أدخلت أحداً إلى الحجرة !

الأب — ولكنى أنبئك أنه لم يدخل أحد

الجد — أهى أختك أم راهب . لا يحسن بك أن تخدعنى . من دخل ، يا أرسولا ؟

الابنة الكبرى — لا أحد يا جدي

الجد — لا ينبغى لك أن تخادعينى ، فانى لأعلم ما أعلم . كم نحن هنا ؟

الابنة — ستة يا جدى ، حول المائدة

الجد — أ كلكم حول المائدة ؟

الابنة — نعم يا جدى

الجد — أنت هنا يا بول ؟

الأب — نعم

الجد — أنت هنا يا أوليفر ؟

العم — أجل ، (بالطبع) إنى هنا فى مكانى المعهود . وليس ذلك مدعاة للروع أراه قد روعك؟

الجد — أنت هنا يا جنفياف ؟

إحدى البنات — نعم يا جدى

الجد — أنت هنا يا جرترود ؟

ابنة أخرى — نعم يا جدى

الجد — أنت هنا يا أرسولا ؟

الابنة الكبرى — نعم يا جدى ، إلى جانبك

الجد — ومن الجالس هنا ؟

الابنة الكبرى — أين تعنى يا جدى ؟

الجد — هنا ، هنا ، إلى الخوان

الابنة الكبرى — ولكن يا جدى لا أحد

الجد — بل ثمة أحد ، ثمة أحد !

العم — أراك تمزح

الجد — ألا فلتعلم حق العلم أنى لزاهد فى المزاح

العم — إذن فصدق المبصرين

الجد (مرتاباً) — حسبت أن ثم أحد . فى رأيى أن لن أعيش طويلا ...

العم — لم نخدعك ؟ أى نفع فى خداعك ؟

الأب — فرض علينا أن نفضى إليك بالحق

العم — أى خير فى أن يخادع بعضنا بعضاً ؟

الأب — إن المرء لا تطول خدعته

الجد (يحاول النهوض) — تمنيت لو أمزق من حولى حجب الظلام !

الأب — أين تقصد ؟

الجد — هناك ...

الأب — لا تجزع إلى هذا الحد

العم — ألا إنك لغريب هذه الليلة

الجد — إنما أنتم الأغراب تبدون

الأب — أتريد شيئاً ؟

الجد — لا أدرى ما ذا يؤلمنى

الابنة الكبرى — جدى ! جدى ! ما ذا تريد يا جدى ؟

الجد — هاتن يا بناتى أيديكن الصغيرة !

البنات الثلاث — لبيك يا جدى

الجد — لم ترعدن جميعاً ؟

الابنة الكبرى — إنا يا جدى لم نرتعد قط

الجد — أتخالكن جميعاً شاحبات

الابنة الكبرى — لقد تأخر المساء يا جدي وإنا لمتعبات

الأب — نخير لكن أن تذهبن إلى المضاجع وخير للجد كن لو استراح شيئاً

الجد — الليلة عز رقادى !

العم — سننتظر الطبيب

الجد — فتهيأوا للحق !

العم — ليس هنالك حق !

الجد — إذن فلا أدرى ما هنالك !

العم — قلت لك ما من شىء قط

الجد — وددت لو أرى ابنتى التاعسة

الأب — تعلم أنك تروم عسيراً

العم — ستراها من غد

الجد — لا صوت فى حجرتها

العم — لو سمعت صوتاً لأشفقت

الجد — لقد طال عهدى برؤية ابنتى ! ... لقد تناولت يدها ليلة أمس ، بيد أنى لم أرها ! ... فما أعلم ماذا حل بها ... وما أعلم كيف هى ... وما أعلم كيف يبدو الآن وجهها — ولكن لا شك أنها تغيرت هذه الأسابيع ! فقد لمست عظام وجنتيها الصغار تحت يدى . ولا غير الظلام بينها وبينكم أجمعين وبينى ! . ولعمر الحق أنى سئمت هذه الحياة وضقت بها ذرعاً ! بل ما هذه بالحياة ، فانكم لتجلسون جميعاً فتشخصون بأعين منيرة إلى عينى المكفوفتين ثم لا تأخذكم بى الرحمة ! ، أما أنا فلا تدرى نفسى ما ذا يؤلمنى ، ولا أحد ينبئنى بما أعلم علمه — وكل شىء مروع ما علقت به أوهام الانسان ولكن ما بالكم لا تلفظون ؟

العم — وماعسى أن نقول ما دمت لا تؤمن لنا؟

الجد — إنكم لتخشون مخادعة أنفسكم !

الأب — مهلاً ، ألا ترشد !

الجد — إنكم تسرون عنى أمراً منذ بعيد ...! لقد وقع فى البيت حدث ... ولقد بدأت اليوم أفهم بعد أن طالت خدعتى ...! أو تحسبون أنى لا أعلم قط شيئاً ؟ ألا يا رُب لحظات عدت فيها أقل منكم عمى ؟ أو تحسبون أني ما سمعتكم تتهامسون أياماً وأياماً ، وكأنما ضمكم بيت إنسان مغلق ؟ ألا يارُب حق علمته ولا أجرؤ اليوم على الافضاء به ... ولكني

سأنتظر ، وسأنتظر حتى تبوحوا بما قد علمته منذ أمد طويل ! والآن فإني أتمثلكم شاحبين كالموتى ، أو أشد اصفراراً

البنات الثلاث — جدى ! جدى ! ما بالك يا جدى ؟

الجد — ليس عنكن أتكلم يا ولدى . لا، ليس عنكن ، فما كنتن بالحق باخلات وإن ضننوا به ! بل إنهم ليمكرون بأنفسكن فى رأيى .... ولسوف تشهدن ياولدى ... لسوف تشهدن ! ... ألا أسمعكم تبكون أجمعين

الأب — أزوجى إلى هذا الحد مريضة ؟

الجد — عبثاً تخادعنى . لقد فات الأوان فانى لأعلم من جلية الأمر فوق الذى تعلمون

العم — ولكن لسنا مكفوفى البصر ؛ لسنا مكفوفين

الأب — أتحب أن ترى ابنتك ؟ فانه لا بد من حسم هذا الشك ... أتحب ؟

الجد (يسود فجأة إلى الشك) — لا ، لا ، ليس بعد . ليس بعد

العم — فانظر كيف لا تاتى السمع إلى العقل

الجد — هيهات أن يقدر امرؤ مدى إدراك الانسان فى هذه الحياة ... مَن أثار هذه الضجة ؟

الابنة الكبرى — إنه المصباح يرف يا جدى

الجد — إنى لأراه كثير التقلب ، كثير التقلب

الابنة — إنها الريح الباردة ؛ فهى تعابثه

العم — ليس ثمة ريح باردة ، فالنوافذ موصدة

الابنة — أحسبه سينطفئ

الأب — لم يعد فيه من زيت

الابنة — لقد انطفأ

الأب — لا نستطيع البقاء على هذه الحالة ، فى الظلام

العم — ما يمنع ؟ إنى لآلفه كل الايلاف

الأب — ثم ضوء فى حجرة زوجى

العم — سنأخذه منها بعد ذهاب الطبيب

الأب — خير ؛ لانزال نبصر ؛ فثمّ ضوء من الخارج .

الجدّ — أفى الخارج نور؟

الأب — أضوأ من هنا .

العمّ — أما أنا فأحبّ سامر الظلام .

الأب — و كذلك أنا . (صمت)

الجدّ — يبدو لى أن الساعة عالٍ صوتها .

الابنة الكبرى — ذلك ياجدى لما الدنا به من الصمت

الجد — ولكن لم يشملكم الصمت جميعا ؟

العم — وفيم تريد أن نتحدث ؟ — ألا إنك هذه الليلة جد غريب .

الجد — أترى الظلام فى هذه الحجرة جد حالك

العم — لا ، نور وضيء .

الجد — إنى ضيق الصدر ، ياأرسولا ، فافتحى النافذة قليلا .

الأب — أجل ياابنتى ، افتحى النافذة قليلا ، فأنا الآخر أشعر بحاجتى للهواء . (تفتح الابنة النافذة)

العم — لقد احتبسنا طويلا ، فيما أرى .

الجد — هل فتحت النافذة ؟

الابنة — نعم ياجدى ؛ إنها مفتوحة على مصراعيها .

الجد — لكأنها لم تفتح ، فلاصوت فى الخارج .

الابنة — لا ياجدى ، ليس أدنى صوت .

الأب — إن الصمت لعجب !

الابنة — كاد يسمع المرء حفيف الملاك !

العم — ومن أجل ذلك لا أحب الريف .

الجد — وددت لو أسمع صوتا . كم الساعة يا أرسولا ؟ .

الابنة — سيكون منتصف الليل وشيكا يا جدى

(هنا لك يغدو العم فى الحجرة ويروح .)

الجد — من ذا يمشى حولنا هكذا ؟

العم — ليس غيرى ! فلا تخف ! لقد أحببت المشى قليلا (صمت) — ولكنى سأجلس ؛ فلست أرى ممشاى . (صمت)

الجد — وددت لو أزايل هذا المكان !

الابنة — إلى أين تقصد يا جدى ؟

الجد — لا أدرى إلى أين — إلى حجرة أخرى ؛ لا أبالى أين ! لا أبالى أين !

الأب — أين تذهب ؟

العم — إن الوقت جد متأخر ؛ فلا انتقال من هذا المكان . (صمت. يجلسون حول المائدة ، بلا حراك.)

الجد — ما هذا الذى أسمع يا أرسولا ؟

الابنة — لا شيء يا جدى ؛ إنها أوراق الشجرة منتثرة . أجل، إنها أوراق الشجرة متناثرة على المشرف

الجد — اذهبى فاغلقى النافذة يا أرسولا .

الابنة — سمعاً يا جدى . (تغلق النافذة وتعود فتجلس .)

الجد — إنى لأنتفض من البرد (صمت تقبل الأخوات الثلاث إحداهن الأخرى) ما الذى أسمع ؟

الأب — هؤلاء الأخوات الثلاث ، يتهادين القُبَل

العم — أراهن الليلة جدّ شاحبات (صمت)

الجد — ماذا أسمع يا أرسولا ؟

الابنة — لا شيء يا جدى . إنما شبكت يدى (صمت)

الجد — وماذا ؟

الابنة — لا أدرى يا جدى ... لعل أختىّ راجفتان هوناً ما

الجد — إنى كذلك خائف يا ولدى . (هنالك ينفذ من خلل الزجاج الملون شعاع من القمر يلقى ومضات غريبة فى الحجرة . دقات ساعة تؤذن بانتصاف الليل ، ولدى الدقة الأخيرة ينبعث صوت جد مبهم ؛ وكأن أحداً يعجل بالنهوض)

الجد — (يرتعد من فرط الروع) من ذا الذى نهض ؟

العم — لم ينهض أحد !

الأب — إنى لم أنهض

البنات الثلاث — ولا أنا — ولا أنا — ولا أنا

الجد — لقد نهض أحد من على المائدة !

العم — أضيئوا المصباح !

(يسمع فجاة من غرفة الطفل عن يمين صيحات رعب وتتصل هذه الصيحات مع الروع الذى يزداد إلى نهاية المنظر)

الأب — اسمعوا الطفل !

العم — ما سبق له قط أن صاح !

الأب — فلنذهب نره !

العم — النور ! النور !

(فى هـذه اللحظة يسمع فى الغرفة عن يسار خطى معجلة ثقيلة الوطء، وبعدها صمت هو صمت الموت. يصغون فى رعب لا ينبسون حتى يفتح وئيداً باب الغرفة ويشيع منها الضوء إلى الحجرة التى يجلسون فيها ؛ ثم تظهر لدى الباب أخت الرحمة فى كساها السود ، فتنحنى راسمة علامة الصليب تنعى الزوج . يدركون ، وبعد لحظة من الذهول والفزع يدخلون حجرة الموت ساكتين ، بينا العم ينتحى جانب الباب ليفسح الطريق للبنات الثلاث . أما الشيخ وقد غودر وحده فينهض مهتاجاً ، ويتلمس الطريق حول المائدة ، وسط الظلام .)

الجد — أين تذهبون ؟ أين تذهبون ؟ لقد انفض من حولى الصبايا ، وليس من أحد !

(روما) محمد أمين

الفتاة القروية

للقصصي الروسي بوشكين
بقلم السيد عز الدين عزوزي

يقع منزل « إيفان برستوف » فى إقليم من أقاليم روسيا النائية ، وكان هذا الرجل يشتغل فى أيام شبابه فى حراسة القيصر ، ولكنه ترك هذا العمل فى أوائل عام ١٧٩٧ ، وجاء إلى أراضيه وأخذ يعمل فى إحيائها ويقضى فيها ما تبقى من أيام حياته

كانت زوجته سيدة نبيلة ، ولكنها فقيرة ، وقد توفيت أثناء رحلة كان رحلها فى سهوله الواسعة. وبعد أن نسى الحزن الذى تركه فقدها فى نفسه شيد منزلاً فخماً ومصنعاً للأقمشة ، وصار بذلك الرجل المحترم والسيد النبيل فى ذلك الاقليم ؛ وكان نزول الجيران ضيوفاً عليه مع أولادهم وكلابهم مما يؤكد فى نفسه هذه المنزلة ويثبتها

أما ما يلبسه طيلة الأسبوع فهى صدارة من القطيفة أرجوانية اللون ، وفى أيام العيد « ردنجوت » من صنع مصنعه

كان « برستوف » محبوباً من أهل قريته رغم مظهره المتكبر ، وتقطيبه الطويل ؛ ولكن « مورمسكى » أقرب جيرانه إليه لم يكن يحبه ، ولا يستطيع محادثته أو الاجتماع به ، لأن « مورمسكى » يرى أنه أرفع منه قدراً ، وأعظم جاهاً ، وهو الآن أرمل قد بذر القسم الأكبر من أمواله فى « موسكو » وجاء الآن ليقيم فى بيته القروى آخر ما تبقى له من المقار ؛ وكان فى أخلاقه شذوذ غريب ، فهو ينفق كثيراً من دخله على حديقة يزرعها على « الطريقة الانكليزية » ولا يرضى بأن تكون مربية ابنته إلا آنسة انكليزية المحتد ، ولا يزرع حقوله الشاسعة إلا على الطريقة الانكليزية ، « ولكن القمح الروسى لا يؤتى أكله إذا زرع على الطريقة الانكليزية »[1] ومقابل هذا النقص المتواصل فى أحواله فان مدخوله لم يزد مطلقاً على ما كان عليه منذ زمن بعيد . وهو رغم إقامته فى تلك القرية المتواضعة لم يستطع العيش دون أن يستدين بالربا الفاحش ؛ وعلى كل حال فقد كان رجلاً محترماً يوقره الكبير والصغير

كان « برستوف » شديد القسوة فى معاملة منتقدى عاداته وأخلاقه ، وكان يجد فى عادات جاره المتفرنج مجالا واسعاً للتهكم والسخرية ! وإذا أحب أحد ضيوفه البذخ والترف خاطبه وفى ثغره ابتسامة ماكرة خبيثة قائلا له : « إنك هنا غير ما لو كنت عند جارى مورمسكى ، فأنا لا أحب أن أقلد الانكليز فى معيشتهم فأتلف بذلك أموالى . يكفينى ما أنا عليه ، وما كان عليه آبائى الكرام . » وكان بعض الجيران ينقل إلى « مورمسكى » ما يقوله عنه جاره ، ولكنهم لا ينقلون ما قاله « برستوف » فقط ، بل يزيدون فيه كثيراً ويجعلون من الحبة قبة حتى ان « مورمسكى » تهيج ثائرة نفسه فيأخذ فى سب جاره وشتمه ورميه بأبشع الصفات كأن يقول عنه إنه « دب » وإنه رجل قروى ابن قروى !

هكذا كانت الملاقات بين الجارين عند ما جاء

(١) مثل روسى

« الكسى » إلى قرية أبيه، بعد أن تخرج من الجامعة وكان يميل إلى الدخول فى المدرسه الحربية رغم أن ذلك الميل كان مما لا يحبه أبوه ، وظل كل متمسكا برأيه لا يلين لإرادة الآخر ، وعبثا حاول والده إقناعه بأن العمل فى دواوين الحكومة خير من العمل فى الجندية ، ولكنه صمم أخيراً أن يترك الأيام تفعل ما تشاء ، فلم يذهب إلى المدرسة الحربية ولم يعمل فى دواوين الحكومة ، وإنما ظل فى منزل أبيه يحيا حياة بوهيمية ، وترك العنان لشاربيه فنموا نمواً هائلا وانتشرا فى كل صوب .

كان « الكسى » ولد « ايفان برستون » شابا لطيفاً ذا قامة رشيقه متماسكة الأطراف جديرة بأن تمارس الأعمال الحربية ، وما نظر إليه أحد وهو على صهوة جواده إلا اختار له أن يكون فى الجيش أو فى ساحة الحرب . ولم يقل أحد من الناس إن هذا الشاب القوى خليق بأن يجلس وراء مكتب الديوان طيلة يومه . وكانت صبايا القرية لا يعللن النظر إليه والحديث عنه ، وهو غير مكترث بهن لا يلتفت إليهن ولا يلقى عليهن تحية، فزعمن أنه مأخوذ بحب فتاة فى موسكو . وقالت إحداهن : لقد رأيته يضع رسالة فى البريد مكتوبا على ظهرها « إلى الآنسة اكولينا بتروفنا كورنشكينا فى موسكو . »

***

إن الذين لم يسعدهم الحظ بأن يعيشوا زمنا فى القرى لا يمكنهم أن يدركوا ما عليه أولئك الفتيات من الجمال . انهن يعشن فى الهواء الطلق وفى ظلال التفاح ولا يعرفن العالم والحياة إلا من وراء الكتب التى تصل إلى أيديهن؛ وإن الوحدة والحرية والمطالعة تنمى فيهن شعوراً وأهواء ، وتخلق منهن فتيات أين منهن فتيات المدن في جمالهن الزائل ، وشعورهن النذل وأهواؤهن المتطرفة .

إن دقات الناقوس يوم الأحد تخلق فى مخيلتهن حوادث شتى ، وان رحلة يقمن بهـا إلى القرية المجاورة لقريتهن هى يوم من أيام فى حياتهن يؤرخن به حوادث المستقبل وسوالف الماضى ، وإن نزول ضيف عليهن يترك فى نفوسهن ذكرى خالدة تنزل معهن إلى القبر .

كثير من الناس من يجد فى عادات أهل القرى مجالا واسعاً للسخرية والتهكم ، ولكن رأى هؤلاء الناس سيظل دون أى تأثير على الحقائق الواقعية التى قوامها عند هذه النفوس البريئة : الأخلاق ، والسعادة الفردية التى لولاها لم يكن للانسانية عظمة تفاخر بها عن جدارة واستحقاق !

إنه لمن السهل أن تجد فى المدن والعواصم نساء هن على قدر عظيم من الثقافة ، ولكن الحياة سوت بين هذه الفوارق وجعلت قيمة المرأة بمقدار جمالها وزينتها

***

يا قارئى المحبوب ، من اليسير عليك أن تدرك أى تأثير كان لألكسي في نفوس هؤلاء الفتيات، فقد كان أول شاب رأين فيه من الغموض ما لم يستطعن فهمه ، ومن الكآبة ما لم يدركن كنهها. والمرة الأولى تحدث هؤلاء الفتيات عن الأفراح المولية ، والشباب الذابل ، والأمل المفقود !

كان الكسي يلبس فى خنصره خاتماً أسود عليه صورة رأس رجل ميت ، فكان ذلك الخاتم يسترعى أنظار أهل القرية ، ويحمل الفتيات أكثر تعلقاً به وشغفاً إلى معرفته . أما التى أولعت به ولوعا

جماً فهي ابنة جاره الذى كان يحب أن يعيش على النمط الانكليزى واسمها « لزا »

لم تر « لزا » حتى الآن وجه ألكسى رغم أن الفتيات رأينه كلهن . كانت لزا فى السابعة عشرة من عمرها ذات عينين فيهما دعج يزيد فى جاذبية وجهها الأسمر ، ولم يكن لأبيها خلف غيرها فكانت لذلك مدللة منه محببة إليه ، حتى أودى هذا الدلال بكثير من خصالها الجيدة . وكانت فى حيويتها تسحر والدها فلا يدرى بأى شىء يزجرها إذا أخطأت أو يكافئها إذا أحسنت ؛ وكادت مربيتها « مس جوكسون » تخرج عن طورها المعتاد رغم وقارها الملتزم وسنها الكبيرة . كان وجه هذه المربية كأنه مطلو بطلاء أبيض ، وعيناها كأن بهما كحلا أحمر ؛ وكان عمل هذه المربية أن تقرأ ال: Pamélat[1] مرتين فى السنة ، وتتقاضى أجراً على هـذا العمل مبلغاً قدره ألفان من « الروبلات » فى السنة ، وهى رغم ذلك تزعم أنها ستنفجر من الضجر لوجودها فى هذه البلاد البربرية

أما خادمة لزا فاسمها « ناشيا » ، وهى فتاة تكبر بقليل سيدتها التى كانت تحبها حباً جماً وتبوح لها بكل أسرارها ، فلا تقوم بأى عمل دون أن تشاطرها رأيها فيه . وبالاختصار كانت « ناشيا » تمثل دوراً فى (أمانة السر) لم تقرأ مثيله فى أية مأساة فرنسية

***

(١) رواية شهيرة للأديب الانكليزي « ريكاردسن » تجيش بالعاطفة والأخلاق وتدور فى موضوعها على خادمة فتية تنصر فضيلة نفسها على مكايدها السافلة ، وهي من أول ما وضع فى القصص الحديث

قالت ناشيا وهى تلبس سيدتها ثوبها : أتأذنين لى بالخروج فى هذا اليوم يا سيدتى ؟

— نعم ولكن أين تريدين الذهاب ؟

— إلى قرية (نو چيلومـّـو) عند جيراننا آل « برستوف » ، فاليوم حفلة زفاف زوجة الطاهى ، ولقد جاءت البارحة ودعتنا لتناول طعام الغداء عندها

— إن أصحاب المنزل سيختلون مع ضيوفهم فى غرف وحدهم ، وسيفرغ الواحد منهم كأسه بكأس صاحبه ، فاذا كنت تودين الذهاب فاسألى والدي أن يسمح لك بذلك

— ما الذى يعنيني مما سيفعله أصحاب المنزل ؟ وأنا لك وحدك ولست لأبيك ، لندع الشيوخ الكبار عند مضيفنا يتنازعون ويفعلون وحدهم ما يحبون

— لا بأس ، ولكن رجائى إليك أن تنظرى « الكسى برستوف » جيداً وأن تخبريني عما ستجدين فيه من الصفات والخصال ساعة تعودين إلىّ

خرجت ناشيا وهي تعد سيدتهـا بأن تقوم بما طلبته منها . وظلت لزا تنتظر عودتها طيلة النهار بفارغ الصبر . ولما عادت فى المساء إلى غرفة سيدتها قالت لها : لقد رأيت الكسى الشاب واجتمعت به مدة طويلة وظللت معه طيلة النهار

فأجابتها سيدتها : وكيف كان ذلك ؟ تعالى قصى على الخبر من أوله إلى آخره

— نعم ياسيدتى ، ذهبت فى الصباح أنا و « أنيا » و « نانيلا » و « دونـكا » ...

— نعم ... نعم ، أعرف ذلك ، ثم ماذا حدث ؟

— اسمعى ياسيدتى ، إنى أحب أن أسرد عليك الحادثة من أولها . وصلنا عند الغداء تماماً ، وكانت الغرفة غاصة بالزائرين والزائرات وكان بينهم زوجة

« كلبينو » وزوجة « زكهاريفو »

— والكسى برستوف ألم يكن بينكم ؟

— نعم ، ولكن لماذا تعجلين ؟ جلسنا إلى المائدة ، وجلست زوجة المدير فى الصدر وجلست أنا إلى جنبها فأخذ بناتها ينظرن إلى نظرات الحسد ولكننى لم أبال بهن

— إن هذه التفاصيل تزعجنى « يا ناشيا »

— ماأسرع ماتضجرين ياسيدتى ! ثم خرجنا من الغرفة بعد أن مكثنا فيها ثلاث ساعات ، حقاً لقد كانت مائدة فاخرة ، وبعد ذلك ذهبنا إلى الحديقة نلهو ونلعب وهناك رأيت الشاب ...

— هل هو جميل كما يقولون عنه ؟

— بل أكثر من ذلك ، إنه فوق ما تتصورين يا سيدتى ، إنه شاب جميل ، طويل القامة ممتلىء الجسم وردى الخدين ...

— وهل كنت أتصوره أصفر اللون هزيلا ؟ ولكن أريد أن تصفى لى مظهره ، هل هو حزين ؟ هل هو كثير التفكير والتأمل ؟

— أتظنين ذلك ؟ إننى لم أر فى حياتى كلها أكثر منه نشاطاً وحيوية . لقد ظل يركض ويلعب معنا طيلة اليوم ...

— ظل يركض ويلعب ممكن طيلة اليوم ؟ إن هذا غير ممكن ! ...

— لماذا يا ترى ؟

—إذن قولى ماتريدينه «ياناشيا» ماأراك إلا كاذبة

— ظنى بى ما تشائين ولكنى لا أكذب قط

— لماذا يقولون عنه إنه عاشق وإنه لا يلتفت إلى أحد وإنه وإنه ...

—هذامالاأعرفه ياعزيزتى . كل الذى أستطيع أن أقوله لك هو أنه استرعى انتباهى وانتباه «تانيا» وابنة المدير

— إن هذا مما يثير فضولى يا عزيزتى ناشيا ، ماذا كان الناس يقولون عنه ؟

— كانوا يقولون إنه رجل طيب القلب كثير المرح ، نشيط ، ولم يلوموه إلا على شىء واحد : كثرة حبه للخادمات واتباعه لهن . ولكننى لا أرى فى هذا العمل ما يستحق اللوم . لا بد أنه سيهدأ فى يوم من الأيام

— « آه . . . ما أشد تشوق إلى رؤيته » قالتها وهى تتنفس الصعداء

— ما الذى يمنعك من ذلك يا عزيزتى ؟ إن قرية « نوجيلومُـو » قريبة منا ، وإذا قمت بنزهة فى نواحى هـذه القرية ، فأنا متأكدة من أنك بجتمعين به ، إنه يخرج كل يوم إلى الصيد فى الصباح الباكر وهو متأبط بندقيته

— أتظنيننى أقوم بهذا العمل لكى يحسب أننى أحبه ؟ وهل نسيت ما بين أبى وأبيه من خلاف وعداوة ؟ أتدرين ماذا سأفعل يا ناشيا ؟

ما رأيك إذا لبست ثيـاب قروية وخرجت لملاقاته ؟

— والله إنها لفكرة حسنة . البسى ملاءة من قمـاش سميك ، واذهبى دون أن تخافى إلى قرية « نوجيلومُـو » وأنا متأكدة من أن ألكسى سيعجب بك ، وأنه سيحبك

— وأيضاً أستطيع أن أتكلم بلهجة هـذه القرية ! إنها يا ناشيا فكرة حسنة

نامت « لبزا » ليلتهـا تلك وهى مصممة على تنفيذ ما اتفقت عليه مع خادمتهـا . وفى الصباح

أرسلتها إلى السوق لتشتري لها قماشاً سميكاً كالذى تلبسه القرويات ، أزرق اللون ، وأزراراً مصنوعة من قماش أصفر ، ثم ساعدتها ناشيا على تفصيل الملاءة ، وعملت جميع الخادمات فى خياطتها ، ولم يأت المساء حتى كان كل شىء جاهزاً

فأخذت «ليزا» ثوبها الجديد بين يديها وتأملته ثم لبسته ونظرت إلى نفسها في المرآة ، فوجدت أنها لم تكن فى حياتها أجمل مما هى عليه الآن ، وابتدأت تتمرن على تمثيل دورها فألقت تحية فى صوت خافت وهى سائرة ، ثم رفعت رأسها إلى جهة اليمين ثم إلى جهة الشمال وتكلمت كما تتكلم القرويات ، وأخذت تضحك ، وسترت وجهها بطرف كمها

كان يزعجها فى هذا التمثيل شىء واحد ، هو أنها لم تستطع أن تتحمل وخز الأعشاب الشائكة ولا وخز الحصى الدقيق فى حديقة الدار . وهنا أيضاً جاءت « ناشيا » لمساعدتها فقاست طول قدمها وأخذت تبحث عن « تروفيم » الراعى ، وطلبت منه أن يصنع لها زوجاً من الأحذية بعد أن أعطته القياس

قامت « ليزا » فى الصباح الباكر ونظرت فيما حولها فوجدت أن الجميع نائمون ، وأن « ناشيا » واقفة أمام رتاج الباب تترقب قدوم الراعى . وبعد لحظة سمعت صوت مزماره ورأت القطيع يمر أمام القصر ، ثم تقدم الراعى فأعطى ناشيا زوج الأحذية القروية السميكة فناولته هذه خمسين « كوبك » ثمناً لها ، فانصرف إلى شأنه

أخذت « ليزا » ترتدى ثياب القرويات فى صمت وهدوء خشية أن توقظ أهلها النائمين ، وهمست فى أذن ناشيا كلمات تتعلق بمربيتها «مس جو كسون» ثم خرجت من باب القصر الكبير واجتازت الحديقة وانطلقت تعدو فى الحقول الشاسعة

* * *

كان الفجر يلمع فى الناحية الشرقية والغيوم الذهبية متراصفة على الأفق كأنما تنتظر مطلع الشمس ، والسماء الصافية ، وبرودة الصباح ، والندى والنسيم العليل وصداح الأطيار ، كل ذلك أخذ يملأ قلب « ليزا » سعادة أين منها سعادة العالم كله !

لما وصلت « ليزا » إلى منتهى حقول والدها أخذت تسير على مهل بعد أن كانت مسرعة حتى لو أن أحداً رآها لظنها تطير فى الجو ولا تسير على الأرض . لقد كانت تخشى أن يراها أحد ممن تعرف

وفى هذا المكان جلست « ليزا » تنتظر قدوم الكسى ، فأحست أن قلبها يخفق خفقاناً شديداً ، ولم تستطع أن تجد لهذا الخفقان سبباً ، ولكن ، أليس هذا القلق الذى يصحب فراهة الشباب وطيشه هو السبب الأوحد فى جاذبية المرأة ؟

قامت ليزا من مكانها وسارت إلى ظل غيضة قريبة منها ، ثم شعرت كأنما حولها ضوضاء خفية تحيط بها من كل جانب ، فأخذت سعادتها الأولى تهدأ شيئاً بعد شىء ، ثم شرعت تحلم حلماً عذباً ...
ترى نستطيع أن ندرك فى أى شىء تفكر فتاة فى السابعة عشرة من عمرها وهى جالسة وحدها فى غابة من الغابات وفى صباح يوم من أيام الربيع ؟ !

سارت ، وهى فى هذه النمرة الجميلة ، فى طريق ظليل بما حوله من الأشجار الباسقة ، فظهر أمامها فجأة كلب صيد جميل ، وأخذ ينبح ويعدو وراءها ؛ فذعرت «ليزا» وصاحت ، ثم سمعت صوتاً يقول :

لا تخافى ، تعال إلى هنا يا « سبوچار » ، ثم رأت صياداً شاباً يخرج من بين الادغال ويخاطبها قائلاً :

— لا تخافى أيتها الفتاة ، إن كلبى هـذا لا يعض أحداً

شعرت لبزا بالسكون يعود إليها فأحبت أن تستفيد من هذه الصدفة فقالت للصياد بصوت فيه شيء من الخوف والحياء :

— إننى أخاف رغم كل هذا . إن كلبك هذا مخيف ، وأحسب أنه سيلقى بنفسه علىّ ثانية

أخذ الـكسى ينظر إلى هـذه القروية نظرة متفرس ، وقال لها :

— إذا كنت تخافين فاننى أماشيك إلى حيث تريدين ، أتسمحين لى أن أسير بجنبك ؟

— من الذى يمنعك من ذلك ؟ إنك حر والطريق مشاع للجميع

— من أين أنتِ ؟

— من « بريلوتشن » إننى ابنة الحداد « فاسيلى » ، وقد خرجت لأجمع لوالدى قليلاً من الـكمأة !

كانت لبزا تحمل على كتفيها سلة صغيرة مدلاة على ظهرها بحبل ، وهى ممسكة بطرفه الآخر

— وأنت ؟ ألست من قرية « نوجيلومسـو » ؟

— نعم ، إننى من هذه القرية وأنا خادم البارون فيها

كان ألـكسى يريد من قوله هذا أن ينزل إلى مستواها ، ولـكنها نظرت إليه نظرة وضحكت ثم قالت له : « إنك تكذب ؛ لست بلهاء إلى هذا الحد وإننى لا أشك فى أنك ابن البارون نفسه »

— ما الذى جعلك تعتقدين ذلك ؟

— كل ما أراه فيك يدل على أنك ولد البارون

— ... ولـكن ... ؟

— أتحسب أننى لا أستطيع أن أميز السيد من الخادم ؟ إن لباسك غير لباسنا ، ولقد كلمت كلبك الآن بلغة غير اللغة الروسية

كان لهذه الـكلمات وقع حسن فى نفس « ألـكسى » فزاد شغفه بها وتقدم نحوها يريد أخذها بين يديه فارتدت إلى الوراء بسرعة ونظرت إليه نظرات حادة فلم يتمالك ألـكسى من الضحك ثم سكت ، فقالت له وهى تلتزم الوقار !

— إذا كنت حقاً تريد أن نكون أصدقاء فكن سيد هواك

فقال لها ألـكسى وعلى ثغره ابتسامة ودهش :

— من الذى علمك هذا ؟ هل هى ناشيا خادمة سيدتك ؟ إن أخلاقها الطيبة قد انطبعت فى نفسك صورة ثانية

شعرت لبزا أنها لا تستطيع كتم الحقيقة عنه ، فأرادت أن تخبره عن نفسها من تكون ، ولـكنها امتنعت عن ذلك وقالت له :

— هل تحسب أننى لا أعرف كيف أسمع ولا كيف أرى عندما أكون بين أسيادى فى القصر ؟ ؟

ثم أردفت قائلة : ولـكننى ما جئت هنـا كى أمضي الوقت فى الـكلام معك ، إذهب إلى شأنك ، ودعني أنا أيضاً أذهب ... وداعاً !

نهضت لبزا من مكانهـا ولم تكد تبتعد قليلا حتى شعرت بأن ألـكسي قد أمسك بيدها وقال لها : ما اسمك يا عزيزتي الصغيرة ؟

فأجابته وهى تحاول الافلات من يده :

— اسمى « أكولينا » ، دعنى أذهب يا سيدى ، لقد تأخرت

— إذن سأزور والدك « فاسيلى » الحداد فى الغد

— ماذا تقول ؟ بالله عليك لا تذهب ، إن والدى إذا علم أننى تحدثت معك ، وأننا كنا وحدنا فى الغابة ، فإنه سيضربنى ضرباً مبرحاً

— ولكنى سأجىء لأراك فقط

— إذن سأعود إلى هذا المكان لأجمع الكمأة ! !

— متى ؟ ؟

— إذا كنت تريد فإننى أجىء فى الغد

— فى الغد ياعزيزتى ، أليس كذلك ؟!

— نعم... نعم .

— أحقاً ما تقولين ؟

— صدقنى ياعزيزى

— أقسمى يميناً بالله لتأتن إلى هنا فى الغد .

— أقسم لك بالله

***

افترقا . وخرجت لِزا من الغابة واجتازت الحقول الواسعة وهى مسرعة جادة فى سيرها ، ثم دخلت الحديقة فوجدت خادمتها ناشيا فى انتظارها فبدلت لها ثيابها ، وأجابتها لِزا على أسئلتها التى كانت تلقيها عليها جواباً مقتضباً ، ثم دخلت الدار فوجدت الطعام حاضراً وأهلها ينتظرونها ، وكانت مربيتها « مس جوكسون » قد حمرت وجنتيها وشدت مئزرها فبدت كأن جسمها جسم نحلة ، وكانت تقطع الخبز قطعاً دقيقة ، ثم التفت « مورمسكى » والد « لِزا » إلى ابنته وامتدح نزهتها التى قامت بها فى الصباح وقال لها : « ليس أحسن للجسم من القيام فى الصباح الباكر » ثم أخذ يسرد على ابنته أخبار المعمرين الذين يقرأ عنهم فى المجلات الانكليزية وأن جلهم من الذين لا يشربون « الفودكا » ومن الذين يقومون باكراً فى الصيف وفى الشتاء ، ولكن لِزا كانت فى شغل عن حديثه فإن ما وقع معها فى الصباح أخذ يعود إلى ذهنها ، وكانت تفكر فى نجاحها ساعة خدعت الكسى وكيف صدق أنها ابنة حداد وأن اسمها « أكولينا » ..: ولكنها شعرت بالندم رغم ذلك النجاح ، وعبثاً حاولت أن تقنع نفسها بأن ما حدث لها سوف لا يتجاوز محله ، وأن ألعوبتها التى قامت بها مع الكسى قد انتهت . لقد كان صوت ضميرها أكثر ارتفاعاً من صوت عقلها . إن موعدها فى الغد يقلق فكرها ، وهاهى ذى تكاد تصمم على أن تخلفه ، لولا أنها ذكرت أن الكسى سوف يبحث عنها فى منزل الحداد ، بعد أن ينتظرها طويلاً فى الغابة ، وأنه سيجتمع بابنة الحداد « أكولينا » صاحبة الوجه الدقيق والجسم الغليظ ، وأنه سيقف على حقيقة هذه المهزلة ! كانت هذه الفكرة تخيف «لِزا» فتتيقن بأن «أكولينا» ابنة الحداد ستخرج فى صباح اليوم التالى بدلا منها إلى الغيضة وأنها ستنتظر « الكسى» وأنه سيحبها ..!

أما الكسى فقد كان مسروراً أى سرور وقد ظل طيلة يومه يفكر فى صديقته الجديدة ، ولما أقبل الليل ظلت صورة الفتاة ذات السمرة الجميلة تغمر أحلامه

لم تكد الشمس تشرق حتى كان الكسى على أهبة الخروج ، فاصطحب كلبه الأمين سبوچار وركض إلى المكان الذى تواعدا على أن يجتمعا فيه ظل الكسى ينتظر قدوم حبيبته نصف ساعة

وأخيراً شاهد ملاءة زرقاء تلمع بين الأدغال ، فوثب يريد ملاقاة عزيزته « أكولينا » ؛ فضحكت هذه لرؤيته، ولكن الكسى لم يلبث أن تبين فى وجهها أمارات الاضطراب والحزن ، فأحب أن يعرف سبب ذلك، فأخبرته ليزا بأن هذه الحرية التى تستعملها فى جميع شؤونها تسبب لها هذا الحزن، وأنها ندمت على ما بدا منها ، وأنها لم تأت اليوم إلى هذا المكان إلا لتفى بوعدها ؛ وأنها تريد أن يكون هذا الاجتماع هو الاجتماع الأخير ، وقالت له : « أريد منك أن تقطع هــذه الصلات التى ربما أوصلتنى إلى ما لا أحبه وأرجوه »

لقد كان لهذه الكلمات على ما فيها من بساطة وقع شديد فى نفس الكسى ، فاستعمل كل ما أوتى من مقدرة وذكاء لكى يرد أكولينا عن عزمها ، وأكد لها أن كل ما قالته إنما مصدره قلبها الساذج وحبها البرىء ، ووعدها بأن يطيعها فى كل شىء وألا يكون بينهما من الصلات ما يجر إليها الندم، ثم طلب إليهــا ألا تحرمه السعادة التى يجدها ساعة يجتمع بها ، وطلب إليها أن يراها مرة كل يومين أو على الأقل مرتين فى الأسبوع

كان الكسى فى حديثه هذا صادق السريرة شريف الهوى ، أوفى ما يكون محب لحبيبته ؛ وكانت ليزا مصغية إليه ، ثم رفعت رأسها وقالت : عدنى بأن لا تطلب منى موعداً غير الذى أضربه لك ؛ فهم الكسى بأن يقسم لهــا يميناً على ذلك ، ولكنها منعته وقالت له ، وهى تبتسم : « لست بحاجة إلى اليمين وإنما وعدك كاف يا عزيزى ... »

عندها أخذا يتحادثان وهما يسيران فى الغابة جنباً إلى جنب ، وبعد لحظة التفتت إليه ليزا وقالت له : « أريد الذهاب » فافترقا

ظل ألكسى وحده فى الغابة فأخذ يسأل نفسه كيف أن هذه الفتاة القروية التى لم يجتمع بها أكثر من مرتين استطاعت أن تستحوذ على نفسه وتملك عليه إرادته

كانت علاقاته مع أكولينا لا تزال محتفظة بجدتها وبريقها ، فهو رغم تمنياتها الغريبة لم يخطر له يوماً من الأيام أن يخلف وعده معها . لقد كان ألكسى رجلاً ذا قلب نقى يقدر الفتاة البريئة حق قدرها رغم خاتمه الأسود ، ومراسلاته السرية ، ونظراته المبهمة ! !

* * *

لو أننى استمعت إلى ما يوحيه إلىّ ذوقى لما تأخرت عن وصف اجتماعات هذين المخلوقين وصفاً شاملاً ، ووصف حبهما التواصل ، وثقة كل منهما بالآخر ، وأحاديثهما الشائقة ، ولكنى أخشى أن يوجد بين قرائى الأعزاء من لا يشاطرنى هذا الشعور ، ولكن الغالب فى هذه التفاصيل أنها تافهة ، فما علىّ إذن إلا أن أقول : إنه لم يمر على « ألكسى » و « ليزا » شهران حتى كانا متحابين حباً جمًّا ، وأن ليزا رغم ما تبديه من عدم اهتمامها بالموضوع كانت تحب « ألكسى » أكثر من حبه لها

لم يفكر أحد منهما فى المستقبل قط ، ولم يخطر لها أن يحلا هــذه المشكلة بالتفكير فى العاقبة ، فألكسى لا يستطيع أن يمحو من فكره أن هذه فتاة قروية ، وأنه سيد شريف ، رغم ما بينهما من حب، و« ليزا » لم تنس شدة البغض بين والديهما ، وكذلك « ألكسى » ، فإنه ما فكر يوماً فى أن

يطلب يدها للزواج ، وهى ابنة الحداد ، وهو البازون النبيل، إلا وشعر بألم يحز فى كبرياء نفسه ؛ ولكن حادثاً جليلا وقع فحسّن ما بين هذين الجبيين من حال

* * *

فى صبيحة يوم من أيام الربيع الباردة خرج «إيفان برستوف» والد ألكسى إلى النزهة والصيد ممتطياً صهوة جواده ، وكذلك شاءت الأقدار فخرج جاره « مورمسكى » والد « لنزا » ، وأمر الخدم فأسرجت له بغلته الانكليزية وراح يطوف على قراه ومساكنه يتفقدها . ولما اقترب من الغابة ، وجد جاره على جواده منتظراً ظهور أرنب من الغابة ، ولو أن « مورمسكى » لمحه من مسافة أبعد من التى بينهما الآن ، لثنى زمام فرسه ، ولعاد أدراجه حتى لا يجتمع به ؛ ولكن أنى له ذلك وهو الآن على بعد خطوات منه ؟ فاضطر «مورمسكى» إلى التقدم نحو عدوه ، وإلى إلقاء التحية عليه ، ولكن رد « برستوف » على تحية جاره كان فيه من اللباقة والظرف أكثر مما في تحية دب أبيض مطيع لأوامر صاحبه وهو يعرض على جماعة من المتفرجين . وفى هذه اللحظة خرج من الغابة أرنب برى ، وأخذ يعدو فى الحقل فصاح « برستوف » بخدمه وترك الكلاب تعدو وراءه ، ولكن بغلة مورمسكى التى لم تتعود الذهاب إلى الصيد رجعت إلى الوراء وشرعت تعدو ثم وقعت فى حفرة لم ترها فوقع مورمسكى عن ظهرها وسقط على الأرض الباردة بما عليها من جليد ، وظل مستلقياً هناك على ظهره يشتم البغلة التى وقفت عن عدوها لما أحست أن صاحبها قد وقع عن ظهرها . عندها ركض «إيفان برستوف» إلى جاره وعدوه «مورمسكى» قبل أن يصيبه أذى ثم أمر خادمه الذي كان معه فأمسك بلجام بغلته وأعانه على الصعود فوق ظهرها ، ثم اصطحبه « برستوف » إلى قريته ، وهكذا دخل القرية مكللاً بالنصر يحمل معه أرنباً ويصطحب عدوه المجروح كما لو كان أسيراً من أسرى الحرب

كان حديثهما على المائدة فيه كثير من اللطف والمحبة ، وقال مورمسكى لجاره : إن آلامه لا تمكنه من العودة على بغلته فهو يفضل أن يعود إلى القرية فى عربة « برستوف » فاصطحبه « برستوف » إلى خارج منزله ، ولم يدعه مورمسكى يرجع حتى أخذ منه وعداً جازماً بأن يتناول طعام الغداء عنده وأن يصطحب معه ابنه ألكسى فى الغد . هكذا انهار صرح عداوة عميق الأساس بفضل نزوة من نزوات بغلة انكليزية خؤوف !

فى المساء ، ركضت لنزا لاستقبال والدها وقالت بدهش : « ما ذا حدث لك يا أبى ؟ لم تظلع فى مشيتك ؟ وأين حصانك ؟ هذه العربة لمن ؟ »

— « إن الذى حدث لى لا يمكنك أن تصدقيه يا عزيزتى » ؛ ثم أخذ يسرد على ابنته الحادثة بحذافيرها ولما انتهى قال : وسأنتظر أصدقائى آل « برستوف » فى ظهر الغد لتناول طعام الغداء معاً

فصاحت لنزا وقد امتقع لونها : « ما ذا تقول يا والدى ؟ إن آل « برستوف » سيجيئون فى الغد لتناول الطعام عندنا ؟ لا ... لا ... يا أبى افعل ما تحب ، أما أنا فاننى سوف لا أظهر أمامهم مطلقاً

— لماذا ؟ هل أنت مجنونة ؟ ما إخالك إلا ورثت كثيراً من بغضى لهم . دعى عنك هذه الوساوس الصبيانية يا عزيزتى

— لا يا والدى ، ليس إلى إقناعي بالظهور أمامهم من سبيل

فرفع كتفيه ، وامتنع عن الحديث معها ، لأنه يعرف عناد ابنته حق المعرفة ، ثم قام إلى سريره ليستريح من عناء ما حدث له فى الصباح

***

دخلت لیزا غرفتها ، ودعت خادمتها ناشیا ، وجلستا تتحدثان عن هذه الزيارة . كيف ترين لو أن ألكسى جاءني ورأى أن أكولينا ليست إلا ليزا ابنة البارون؟ ما ذا سيكون موقفي منه ؟ إنه ليسرنى أن أرى وجه ألكسي مشدوهاً بهذه المفاجأة السارة. ثم قالت فجأة : « إننى أود أن أقوم بعمل غريب » وحدثتها به فسرت ناشيا كما سرت ليزا واتفقتا على تنفيذه !

فى الصباح سأل « مورمسكى » ابنته ليزا عما إذا كانت لا تزال مصممة على عدم الظهور أمام آل برستوف فأجابته قائلة : « بما أنك تريد ذلك يا والدى فانني سأظهر أمامهم ، على أن تقبلنى فى أى شكل أظهر فيه ، وألا تعترض على ما سألبسه ساعة أجلس معكم فى الظهر » فأجابها ضاحكا من قولها : « وهل لديك غير هذا ؟ إفعلى ما تشائين . فانني راض عنك » ثم قبل ابنته فى جبينها وانطلقت إلى غرفتها تتهيأ للمفاجأة

***

فى الساعة الثانية تماماً دخلت عربة قروية يقودها ستة من الخيول إلى داخل حديقة القصر ونزل منها برستوف العجوز فجاء إليه خادمان من خدام « مورمسكى » ورافقاه فى صعود درجات السلم العريض . ثم جاء بعده بقليل ابنه « ألكسى » ممتطياً صهوة جواده ، فدخل الاثنان غرفة الطعام ثم دخل عليهم مورمسكي وتلقاهم بالترحيب وأخذ يطوف معهم في حديقته الانكليزية الجميلة ، ويريهم مطبخه الفخم ، ويسير معهم على رقيق من الرمل الناعم جيل الهندسة . فقال برستوف وقد خفض من صوته احتراماً لشعور مضيفه : « ما أكثر الأوقات التى تضيعها فى هذه الأمور التافهة يا جارى العزيز » ، وكان ألكسى فى شغل عما هما فيه من الحديث ، كان يفكر فى ابنة مضيفه وما هي عليه من الجمال البارع الذى طالما سمع الناس يتحدثون عنه ، رغم أنه محب كلف لليزا ، فقد كان للجمال حظ أكبر من انتباهه

دخل الثلاثة غرفة الاستقبال ، وأخذ برستوف ومورمسكي يتحدثان عن ماضيهما وعن أيام الجندية وأخذ الكسى يفكر فى موقفه من ابنة مضيفه ليزا ، فقر رأيه على أن يظهر أمامها فى صورة تنم عن عدم الاكتراث ، ثم هيأ نفسه لذلك ، وفجأة سمع الباب ينفتح فدار رأسه ببطء وتكبر حتى لو أن أكثر نساء الدنيا تظرفاً وأنوثة رأته فى هذه اللحظة لارتجف فؤادها . ولكن بدلا من أن تكون الداخلة ليزا، كانت مربيتها «مس جوكسون» وقد تعطرت وطلت شفتيها وخديها بالأحمر وغضت من طرفها ، ولم تكد تجلس فى مكانها حتى انفتح الباب ثانية ، وكانت الداخلة هذه المرة هي « ليزا » فوقف الجميع لاستقبالها وشرع والدها يقدمها إلى ضيوفه ، ولكنه وقف فجأة وعض على شفتيه ... ليزا ، ليزا الجميلة السمراء قد طلت وجهها حتى أذنيها بالأبيض ، وعيونها الجميلة أقبح من عيون مربيتها ، وهى مرتدية ثوباً كما كان يلبس الناس فى أيام

« لويس الرابع عشر » فكانت فى حلتها كأنها حرف (X) ، وقد وضعت فى جيدها وأصابعها وفى أذنيها حلى والدتها القديمة

أنى لصاحبنا الكسى أن يجد فى هذه الفتاة المضحكة عزيزته الجميلة أكولينا ؟ ثم قبل يدها العجوز برستوف وفعل مثله ابنه الكسى ، ولكنه عندما وضع أصابعها الرقيقة على شفتيه أحس أنها ترتجف ، ولاحظ أن حذاءها ليس على تمام الانسجام مع بقية ما تلبسه

لم يستطع والد ليزا لما رأى ابنته على هذه الحال أن يمتلك نفسه ، ولكنه ذكر وعده لها فكظم غيظه ، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكا . وأما مربيتها الانكليزية المتصنعة فى ملبسها وفى كل شيء ، فقد لازمت الصمت والوقار ولم تضحك ، وكانت متأكدة من أن ليزا قد استهلكت فى فعلتها هذه كل ما فى خزانتها من طلاء فاضطربت واغتاظت ، ولم يستر غيظها بياض الطلاء وكثافته فبدت وجنتاها حمراوين ، وأخذت تلقى على ليزا — الساهية فى هذه اللحظة — نظرات ملؤها الحنق ، ولكن ليزا لم تجبها ، إنها كانت تريد أن تؤجل الكلام فى هذا الموضوع إلى ما بعد خروج الضيوف

ولما جلسوا إلى المائدة ظل الكسى على ما هو عليه من عدم الاهتمام والذهول ، وأخذت ليزا تتمهد اللطف والتملق وتتكلم الفرنسية بأطراف شفتيها الرقيقتين ، وعلى مهل . كان والدها لا يرفع نظره عن وجهها ، وكان فى حيرة وذهول لا يدرى ما الذى دعا ابنته إلى تمثيل هذه المهزلة التى كانت رغم كل ذلك مسلية للغاية ، ولم يكن أحد من الحاضرين مسروراً كسرور « إيفان برستوف » الذى شرع يأكل أكل أربعة من الرجال الأصحاء ، ويشرب كثيراً ، وهو فى كل ذلك مسرور ! وأخيراً قام الجميع من حول المائدة ، وذهب الضيوف إلى منزلهم وخلا الجو لوالد ليزا ، فضحك ما شاء أن يضحك ، وسأل ابنته ماذا تريد من هذه السخرية التى قامت بها ثم قال : « إن اللون الأبيض لما يوافق جمالك وينسجم مع تركيب قوامك الجميل يا ابنتى ، وإن كان ليس لى حق التدخل فى زينة النساء ، ولكننى إذا كنت مكانك لما ظهرت إلا فى الأبيض من الثياب أو الطلاء والزينة » ولكن ليزا لم تجب والدها على أسئلته بل أخذت تصفق لنجاحها ، وتقبل والدها ، وهى تمده بأن تفكر فى نصيحته ثم راحت تخفف من ثورة مربيتها «مس جوكسون» التى امتنعت طويلاً عن أن تدخل ليزا إلى غرفتها أو أن تقبل معذرتها . قالت ليزا :

— إننى خجلت من أن يرى ضيوفنا لونى الأسمر ، ولم أجد متسعاً من الوقت ، فأطلب إليك السماح لى بتناول قليل من الطلاء ، ولكننى كنت متأكدة من أنك يا عزيزتى « مس جوكسون » ستصفحين عن زلتى هذه . فسكتت «مس جوكسون» وأخذت تقبل ليزا ، ثم أهدت إليها حقاً صغيراً من الطلاء الانكليزى الأبيض فقبلته مع إبداء الشكر الجزيل

أنا على يقين من أن القارئ سيوافقنى إذا قلت له إن ليزا خرجت فى الصباح التالى لملاقاة « الكسى » ولما رأته قالت له : « هل كنت البارحة عند البارون يا عزيزى ؟ كيف وجدت ابنته ؟ »

فأجابها الكسى بأنه لم ينظر إليها طويلاً ، وإنما لمحها لمحاً سريعاً ؛ فقالت ليزا : « إن فى ذلك أذية وضرراً » . فسألها الكسى :

— لماذا يا ترى ؟

— لأننى أحب أن أسألك هل صحيح مايقولون؟

— وماذا يقولون ؟

— إننى أشبه فتاة البارون

— معاذ الله ، إنها مسخ بالنسبة إلى جمالك الزاهى يا عزيزتى

— آه ؛ إن فى قولك هذا خطأ لا يغتفر ، إن فتاة السيد بيضاء ظريفة ، أما أنا ...

فأقسم الكسى بأنها أجمل من كل بيضاء فى العالم ، ثم أخذ يصف فتاة البارون بلهجة الساخر ليؤ كد لها قبحها ، فلم تمالك لبزا من الضحك طويلا ثم تنفست الصعداء وقالت له : « كيفما كانت ياسيدى فاننى أمامها فلاحة جاهلة لا أعرف الكتابة والقراءة »

— وإن كان ذلك فليس فى جهلك القراءة والكتابة ما يحزن يا عزيزتى ، وأنا مستعد لأن أعلمك كل هذه الأشياء فى وقت قريب

قالت لبزا : هل نستطيع أن نجرب ذلك الآن؟

— « نعم ، هيا بنا » . ثم جلسا على الأرض وأخذ الكسى قلماً ودفتراً بيده ، وابتدأ يلقن أ كولينا مبادئ القراءة فوجد أنها تتقنها بسرعة مدهشة ، فسر من ذكائها ؛ وفى الغد أحب أن يعلمها الكتابة فوضع القلم فى يدها ، ولكنه وقع من بين أصابعها اليسرى ، وبعد مضى لحظات استطاعت أن ترسم الحرف رسماً لا بأس به ، فقال لها : « إنها لأعجوبة والله ، إنك تتعلمين بسرعة مدهشة يا أ كولينا » ؛ وبينما كانت لبزا تقف عن القراءة لحظات تفكر فى الكلمة التى تريد أن تقرأها كان الكسى يحس أنه فى غمرة هدوء عميقة وسعادة لا تدرك . وبعد ذلك أخذا يتراسلان ، وكان صندوق البريد الذى اتفقا على أن يضعا رسائلهما فيه هو عبارة عن حفرة صغيرة فى سنديانة عجوز ؛ وكانت ناشيا خادمة لبزا تقوم بوظيفة ساعى البريد

كان الكسى يودع فى هذه الحفرة رسائل مكتوبة بأحرف كبيرة ، ويأخذ منها رسائل على ورق أزرق مكتوبة بخط مبهم ، ولكن كان يلاحظ أن كتابة أ كولينا آخذة فى التقدم ، وإن ذكاءها ينمو يوماً بعد يوم نمواً محسوساً . وكانت علاقات إيفان برستوف مع جاره مورمسكى تزداد وثوقاً حتى انقلبت إلى صداقة متينة

كثيراً ما فكر مورمسكى بأن ابن جاره سيرث أموال أبيه الطائلة ، وأنه سيصبح أغنى رجل فى الاقليم ، وأنه لا عذر له إذا لم يتزوج ابنته لبزا ، كما أن برستوف العجوز كان يفكر مثل تفكير جاره. وكان من أقارب مورمسكى «الكونت برفسكى» وهو رجل نبيل ذو يد طولى عند الحكومة ، وفى استطاعته أن يساعد الكسى . وكان إيفان برستوف على تمام اليقين من أن جاره مورمسكى سيستبشر عند ما يفاتحه بخبر زواج ابنه الكسى من ابنته لبزا !

فكرا فى هذا الموضوع طويلاً حتى قيض لهما أن يتكلما فيه ، فوجد كل منهما أن صاحبه يريد مثل ما يريد هو ، فاتفقا على ذلك وتصافحا وهما يرجوان من الله أن يحقق أملهما السعيد . وأخذ كل منهما يمهد السبيل من الناحية التى تتعلق به ، فكان من الصعب على مورمسكى إقناع ابنته لبزا بضرورة التعارف مع الكسى الذى لم تره بعد ذلك الغداء الجميل فى قصرهم ، والذى يظهر لنا هو أن هذين الشابين لا يروق لهما أن يجتمعا سوية ، فان الكسى لم يعد إلى قرية لبزا مرة ثانية فيزورها فى

القصر ، كما أن ليزا كانت تختبئ في غرفتها عند ما يزورهم « إيفان برستون » وكان مورمسكي يرى مجرد زيارات متواصلة يقوم بها ابن جاره الكسي كافية لأن تجعله محباً من ابنته ليزا

أما إيفان برستوف فقد كان لا يشك في نجاحه مع ابنه ، وفي مساء يوم دعاه إلى غرفته ، وبعد أن أشعل غليونه ، وصمت قليلا قال له :

—منذ زمن طويل وأنت لا تكلمني في موضوع دخولك في الجيش . يخيل إليّ أنك لم تعد تحب ذلك ؟! فأجابه الكسي باحترام : « لا يا والدي إنني لم أمتنع عن الدخول في الجيش إلا لعلمي بأن ذلك مالا تحبه لي وإن من واجبي أن أطيعك » فأجابه والده إيفان : « حسن يا بني إنني جد مسرور من إطاعتك لي ، ولكني قبل ذلك أحب أن أزوجك» فسأله الكسي بدهش : « ممن تحب أن تزوجني ؟ »

— « من ليزا مورمسكي . إنها خطيبة ليس لها مثل . أليس كذلك يا بني ؟ »

— ولكنني يا والدي لا أفكر الآن في الزواج

— فليكن ذلك ، لقد فكرت أنا فيه طويلاً فوجدت أن من الصالح لك أن تتزوج

— لك ما تريد يا والدي ، ولكن ليزا لا تعجبني

— ستعجبك في يوم من الأيام . إن الحب يا بني ينمو مع الزمن

— أشعر بأنني لا أستطيع أن أسعدها يا والدي

— ومن الذي يكلمك في سعادتها ؟ إنك بهذا الحديث ترفض إطاعة والدك

— سوف لا أتزوج منها ، ولن أتزوج مطلقاً

— بل ستتزوج منها رغم أنفك ، وإلا حل عليك غضبي ، وبعت كل ما أملكه من الأرض وأكلت الثمن ولم أترك لك درهماً واحداً . وإني أدعك تفكر في هذا الموضوع ثلاثة أيام على أن لا أواجهك أثناء ذلك مطلقاً

* * *

لم يكن الكسي يحسب أن والده صلب في رأيه إلى هذا الحد ، ولكن هو أيضاً قد ورث عنه هذا العناد ، فكان من الصعب أن يغير أحد رأيه الذي يراه . ثم دخل إلى غرفته ، وجلس يفكر في سلطة الآباء على أبنائهم وكيف أنه يريد أن يدعه فقيراً يتسول ، ثم فكر في ليزا ، وأخيراً في أكولينا ، وشعر للمرة الأولى أنه مأخوذ بحبها ، ثم خطر له أن هذه فتاة قروية ، وإنه إن رفض ما يدعوه إليه والده ، سيضطر إلى العمل حتى يكسب قوته

أقبل الشقاء ، فاخطر ألكسي وأكولينا على الافتراق زمناً وكتب ألكسي إليها رسالة فياضة بالشعر والحب ، وحدثها فيه عما يشعر به من الوحشة والأسى وختم الرسالة بقوله : « سنعيش سوية يا عزيزتي »

ثم ركض إلى حفرة السنديانة وأودع فيها رسالته ثم عاد إلى غرفته ونام وهو مسرور بما قام به

في صباح اليوم التالي ذهب ألكسي إلى قصر جيرانه آل مورمسكي ، وكان يود من زيارته أن يحدث البارون حديث قلبه ، ويفضي إليه بمكنون سره ، ويخبره بأنه لا يود الزواج من ابنته ليزا ؛ وكان يأمل أن يقنعه بما يريد ، فأخذ يستجمع في نفسه عظمته وكبرياءه ، ليجعل منها تكأة يستعين بها على النجاح ، ثم أوقف جواده أمام سلم القصر وسأل عن السيد هل هو في غرفته ؟ فأجابه الخادم بأنه خرج باكراً وأنه لما يعد بعد . فقال في نفسه :

يا خسارتى ... إذن ليزا هل هى هنا ؟

— « نعم يا سيدى » فنزل ألكسى عن صهوة جواده . وترك زمامه فى يد الخادم ودخل دون استئذان، وخطر له وهو يتقدم من غرفة الاستقبال أنه فى هذه الغرفة سيحدد مستقبل حياته ، وعزم على مصارحة ليزا ، فلعل ذلك يكون أوقع فى نفسها وأيسر حلاً

ثم دخل ... ولكنه وقف حائراً ... ليزا ... لا ! أكولينا ياعزيزتى أكولينا ، يا سمراء اللون أين الملاءة الزرقاء؟ أين الطلاء الأبيض ؟ إنها جالسة أمام النافذة تقرأ رسالتى

كانت ليزا فى ذهول عميق حتى أنها لم تسمع وقع أقدام ألكسى وهو داخل عليها ، فلم يستطع ألكسى أن يخنق فى حنجرته صيحة ذعر وفرح ، فوثبت ليزا فى مكانها ، وصاحت مذعورة ، ثم انطلقت تود الهرب، ولكن ألكسى ركض وراءها وقبض عليها وهو يقول :

— « أكولينا ... أكولينا » فأجابته هذه بالفرنسية : « دعنى ، مالك ، دعنى ، هل أنت مخبول ؟ » قالت ذلك وهى معرضة عنه بوجهها ؛ فأجابها وهو يقبل يديها : « أكولينا ، يا عزيزتى أكولينا ! »

كانت « مسز جوكسون » واقفة تشهد هذا الحادث الغريب، ولكنها لم تر ماذا تعمله . وفى هذه اللحظة انفتح باب الغرفة ، ودخل والد ليزا ، مورمسكى وهو يقول :

— آه ... آه ... يخيل إلىّ أن المشكلة قد انحلت !

واسمح لى يا قارئى المحبوب أن أتركك هنا ، وأن أدعك تفكر فى النهاية دون إرشادى

« بيروت » عز الدين العزوزى



الفصل السابع والثلاثون

الشعر والحب

شغلت نفسى سائر اليوم بكتابة الخطابات التى كلفنى بها السفير لكى أفرغ منها سريعاً فأتمكن من حضور العشاء فى بيت المستر هوج

وأخيراً جاءت الساعة الميمونة التى تمكنت فيها من الذهاب ، فتزينت ولبست أجمل ثيابى وذهبت . وكان السفير قد أعطانى شيئاً من المال فلبست جورباً حريرياً لأول مرة فى حياتى وقلت فى نفسى : لو أسعدنى الحظ بالزواج من حبيبتى بيسى لاطمأننت على مستقبلى وصرت فى غنى عن خدمة الملوك والحكومات

ولما وقفت بباب المستر هوج زلت قدمى فتشاءمت وطرقت الباب فلم يجبنى أحد ، فتشاءمت مرة أخرى وسألت نفسى هل أخطأت الطريق وهل هذا منزل آخر أم ساعتى مختلة فكان مجيئى فى غير الموعد المضروب ؟ وأخيراً فتح لى الباب رجل هرم فدخلت ولكننى لم أجد أحداً من أهل المنزل فى انتظارى

جلست فى غرفة الانتظار ورأيت بها سجادة كالتى نصلى عليها معلقة على الحائط فنزعتها وصليت عليها وقلت لعلى جئت مبكراً فعندما أنتهى من الصلاة يكون الموعد قد حان

وعندما فرغت من الصلاة سمعت طرقاً على الباب ففتحته ووجدت سيدة فى ثياب فاخرة ومعها فتاة يافعة ورجل هرم وشاب آخر . وقد اختلفت نظراتهم إلىّ : أما الفتاة فإنها أخذت تنظر إلىّ من وراء منظارها الذهبى نظرة اندهاش ، وأما السيدة فكانت نظراتها لا تدل على شىء من الاهتمام ، وأما الرجل الكبير فيظهر أنه رآنى من قبل فلم يستغرب ، وأما الشاب فأخذ يطيل من نظراته . وبدل أن يتقدموا نحوى فيصافحونى اقترب بعضهم من بعض وأخذوا يتهامسون

وبعد قليل خرجت زوجة المستر هوج ومعها بنتاها فرحبن بالزائرين . ووقع نظرهن علىّ فصحن : « الأمير هنا أيضاً ! ثم سألتنى هل جئت من زمن ؟ ورحبن بى . وقد وجدت الزائرين ينظرون إلىّ نظرة أخرى عند ما سمعوا أننى أمير ، فعرفت أن الرجل المتقدم فى السن عضو من أعضاء الشركة ، وتذكرت أنى رأيته بين الأربع والعشرين . وأما الشاب فمن أكبر العلماء بالأمور الشرقية . وهو يعرف لغات متعددة منها الفارسية وقد جاء به عضو الشركة ليترجم أقوالى . وهو نابغة فى اللغة الصينية

وأما السيدة الكبرى فهى زوج عضو الشركة والفتاة بنتهما

وأخبرتنى زوجة المستر هوج بأن عضو الشركة يلقب (بالنابوب) وهو لقب هندى أطلقوه عليه لأنه أقام فى الهند مدة طويلة

وأخذ المترجم الذى معه يخاطبنى باللغة الفارسية فلم أفهم كثيراً ، إذ يظهر أن اللغة الفارسية التى يعرفها هى لغة الكتب الراقية

ولما استقر بنا الجلوس جاء ضيوف آخرون من بينهم محام وطبيب وضابط بالجيش برتبة كولونيل

وجاء وقت العشاء ولكن أصحاب المنزل قالوا إنهم ينتظرون لورداً دعى إلى الوليمة . وبينما نحن فى انتظار اللورد إذ فتح الباب ودخل منه بدلا من اللورد ذلك الشاب البغيض الذى ينافسنى فى الحب والذي عرفه القراء بأنه حليق الشاربين ذو مهماز فى حذائه ، وكانت رؤية هذا الشاب تبعث فى نفسى من الغيرة ما لم أعتده وما لم أكن أحب أن أوصف به ، وجلس إلى « بيسى » وأخذ يلاطفها بمثل ما كنت أتمناه لنفسى، ولكنى لا أجرؤ عليه، وكان مرتسماً على وجهه أنه يحب نفسه وأنه فرح بها وفى لسانه لثغة ، ولكنه مع ذلك يأبى أن يكون قليل الكلام .

وبعد نصف ساعة أخرى جاء اللورد الذى كنا فى انتظاره، وكان فرح الأسرة به زائداً عن الحد، وقدم له الأب بناته بعد أن قدمتهن الأم زيادة فى الحفاوة به . وزاد هذا اللورد من احترامه إياى عندما أخبروه بأنى أمير

وعلمت أن هذا اللورد من أكبر سادات الانكليز ، ولكنه كسائر من رأيتهم من اللوردات أشبه بالدراويش منه بأصحاب المكانة السامية ، وكان إذا تحدث سكت الجميع وأحسنوا الانصات

وأخيراً بدأت الوليمة فأجلسونى فى صدرها مع اللورد وبجانبي زوجة المستر هوج، وبجانب اللورد زوجة النابوب؛ وكانت الأطعمة والأشربات فى الوليمة أشبه بما فى قصور الملوك منها بأمثال هذه الدار ، وكانت الأضواء الموقدة مما يبهر الأنظار

وكنت مغتبطاً بمكانى فى الوليمة إذ من الذى يصدق أننى أجلس بجانب صاحبة الدار على رأس المائدة وبجوارى أحد اللوردات

وكان العالم المترجم جالساً أمامى ليترجم ما أقوله وبجواره مارى ثم المحامى ، وبجواره بنت النابوب ثم قصير الشاربين ذو المهماز بين كريمتى المستر هوج، وكنت شديد الغيظ من جلوس بيسى بجانبه لأنى كلما أردت أن أمتع نظرى برؤيتها لم أستطع تجنب النظر إلى وجهه البغيض

وكان اللورد قليل الكلام ولكنه إن تكلم فبأدب نادر ، وقد اتجه إليه صاحب الدار بكلياته تاركا إياى للعالم المترجم . أما عضو الشركة فكان يكثر من الكلام ، ولكن كلامه كان قاصراً على الهند وعوائدها وأخلاقها وماليتها وصناعتها . وأما زوجته فكانت تزدان من الحلى بأكثر مما يحمله الدرويش الفارسى من الأحجبة ، وكانت تكثر من شرب النبيذ . وعلى ذكر النبيذ أقول إن شربه هنا علامة على الود مثل أكل الخبز والملح عندنا

وقد شربت فى هذه الليلة مع كل الضيوف ، وكانت هـذه أول مرة شربت فيها منذ خرجت من إيران

وكان الطبيب رجلاً واسع المعرفة فلم يدع من أصناف الطعام صنفاً إلا تكلم عنه من الوجهة الطبية

فقال عن بعض المآكل إنه شديد النفع وعن البعض الآخر إنه شديد الضرر ، ولكنه كان يأكل منها جميعاً سواء منها الممدوح والذميم . ولاحظت أن سائر الموجودين كانوا يأكلون بلا رعاية لما يسمونه من الطبيب رغم تسليمهم بصدقه

وقد سألني الطبيب أسئلة متعددة عن الطب فى بلادى فلم أحر جواباً ، ولذلك اضطررت إلى استعمال الغموض والإبهام فلم يستطع المترجم الفارسي إفهامه ما أريد ، ولولا تدخل النابوب لخجلت وخجل المترجم

وقدمت لى صاحبة المنزل طبقاً به عيدان خضراء مستطيلة فلم أقبل تناول شيء منه . وألحت فزدت فى رفضه ، فقالت لى لتحملني على القبول : إن هذا الطعام غالى الثمن . فقلت : « إذا كان غلاء الثمن يجعل الطعام شهيًّا فخير لك أن تأكلى الجنيهات والشيلان الكشمير »

فضحك اللورد من هذا القول ضحكاً عالياً ودعانى إلى شرب النبيذ معه . وسألني المحامى عدة أسئلة تتعلق بالقضاء عندنا . وقد دهش عند ما علم أن ليس عندنا من القوانين غير القرآن ، وقال على كل حال لا بد أن يكون لديكم محامون غير علماء الدين ، أم كيف تعيش دولة بغير محامين ؟ فقلت : « ليس لدينا سوى القضاة والعلماء » ، ثم سألته : « أليس القضاة فى انكلترا يركبون حميراً بيضاء ؟ »

لم يجبنى المحامى على هذا السؤال وضحك البا قون ضحكاً شديداً ، وأصلحت غلطتى فقلت : « إن الحمير البيضاء عزيزة لندرتها ولا يركبها عندنا إلا وجهاء النـاس »

ولما انتهى الطعام قام السيدات كالعادة وظل الرجال يشربون الخمر ، ثم عدنا بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال . وكنت قد أعددت قصيدة من نظمى ضمنتها كل عواطف الحب فوضعت تلك القصيدة فى يد حبيبتى (بيسى) وقلت لها : إن هذا درس فى أدب اللغة الفارسية . وقلت : إنه إذا استعصى عليها فهم شيء منه فلترجع إلى

ففهمت موضوع ما سلمت إليها وقالت : إنها ستضمه فى « ألبوم » ولما كنت لا أفهم معنى هذه الكلمة فقد قدرت أنها تعنى بها القلب أو الصدر ؛ ولذلك اغتبطت اغتباطاً لا مزيد عليه ، وظهر لى على عينيها علائم الحب الأكيد فلم أعد أبالى بصاحب الشارب القصير والمهماز

وتركتها وإياه واستأذنت فى الانصراف فألحت على الأم فى الانتظار ولكننى اعتذرت وانصرفت

الفصل الثامن والثلاثون

لقب أمير

قضيت سحابة اليوم التالى مفكراً فى الحب ناظماً لأشعار جديدة فى موضوعه . وفى اليوم الثالث دعانى السفير فذهبت إلى غرفته ووجدته كالانكليز يمشى فى الغرفة ذهاباً وجيئة وفى يده صحيفة ، فلما رآنى صاح : « هل يوجد إيرانيون غيرنا فى هذه المدينة ؟ »

فقلت : « من يدرى ؟ ربما ! »

فأعطانى الصحيفة التى فى يده وقال : « من هو هذا المجنون الذى يدعو نفسه البرنس حاجى بابا ؟ إقرأ هذه الصحيفة »

فأخذت أقرؤها وأعجب من عوائد الانكليز كيف يفضحون من يأكل عندهم لقمة فيكتبون فى الصحف ما أكل وما شرب . وحمدت كرم العرب، فانأحدهم يذبح لضيفه أسمن الماشية ويكتفى لنفسه بحفنة من الشعير ثم لا يكتب ذلك فى صحيفة سيارة ولا يتحدث به أمام الناس . وهذا هو المنشور فى تلك الصحيفة :

« أقام المستر هوج وعقيلته وليمة شائقة لحضرة صاحب السمو البرنس حاجى بابا وكانت المأدبة جامعة لعظماء كثيرين من الانجليز منهم اللورد سوفتلى والسير هنرى كورى وعقيلته والفيلسوف هوهو وغيرهم ، وكان يخفق على قصر المستر هوج العلمان الفارسى والانكليزي. والغرض من هذه الوليمة توثيق علاقات الود بين انكلترا وفارس . وقد قدم الطعام المستر « بينر بينز » الطباخ الشهير بشارع بوند

قال السفير : « هل قرأت ؟ » فقلت : نعم وإن عوائد الانكليز غريبة عجيبة فان الانسان لا يأكل عندهم لقمة إلا ليفضحوه من أعلى المآذن

قال السفير : « ألا تريد أن تعترف بأنك أنت صاحب السمو حاجى بابا الذى تناول العشاء فى بيت المستر هوج ؟ »

فقلت : « إذا هم لقبونى أميراً وإذا اختار هؤلاء المجانين أن يلقبونى بالملاك جبريل فما هو الذى أستطيعه لمنعهم ؟ »

فوقف السفير مغضباً وقال : « إذهب من هنا ولا تزد فى كلامك ! إن الذى يدعى لنفسه لقباً ليس له ، وينتفع بهذا اللقب كأن يجعله وسيلة للأكل عند الناس فانه يستحق أن يشنق . وإنني والشاه نراقب أعمالك ولن نتركك تضحك على ذقون الناس وتدعى أنك أمير مع أنك ابن حلاق »

فصحت : « والله بالله يا ميرزا فيروز خان إننى لم أفعل ما أستحق عليه هذا التأنيب . لقد أكلت عندهم ، ولكن هذه ليست غلطة ، وهم لقبونى أميراً ولكنى لم أقل لهم إنى أمير فلماذا تشنقنى ؟ أليس عندكم شفقة ؟

ثم علت الأصوات بيننا فدخل سائر أعضاء السفارة ووقفوا بجانب الحائط ينظرون إلينا . أما المعلم الانكليزى فانه لما رأى الحالة وصلت إلى هذا الحد أخذ قبعته وانصرف

ونظر السفير إلى أعضاء السفارة وقال : «ماشاء الله ! أنظروا إلى هذا الشاه زاده ! لقد كنا نعرفه ابن حلاق ؛ أما الآن فإنه أصبح أميراً على حين فجأة وبغير إنذار سابق »

قلت : «ما هذه الكلمات يا سعادة السفير؟ إننى ابن حلاق، ولكن هذا ليس ذنبى، وأنا تغديت عندهم لأنك تهملنا وليس لى ملجأ فى المدينة فلجأت إليهم

فصاح السفير : « أتجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة ؟ »

واحتدم غيظه وقال : «هل نسيت من أنا يا أقل من أى إنسان ؟ هل تظن أن ميرزا شافعى الذى كنت تحتمى به لا يزال على قيد الحياة ؟ إن ابن

الحلاق فى انكلترا قد يصير أميراً ، ولكن ابن الحلاق الفارسى يظل طول عمره ابن حلاق . إذهب ولا ترنى وجهك بعد الآن »

قلت : « هذا هو كل ما أعناه » ثم خرجت من عنده مغضباً فصاح بأعضاء السفارة أن يقبضوا علىّ فجروا ورائى وأمسكوا بى ، وأقبل علىّ السفير فضربنى على فمى وقال : « إذا تكلمت مرة أخرى فسأحرق قبر أبيك »

فتخلصت بقوة واندفعت خارج الدار فظللت أجرى فى الطريق وأنا لا أعرف إلى أين أذهب وليس فى لوندرا ملجأ آوى إليه كما هى الحال في طهران . وفكرت فى الذهاب إلى منزل المسترهوج . ولكنى خشيت ألاّ يقبلوني لأنهم إنما اصطحبونى لاعتقادهم أنى أمير ، فان وجدونى شريداً طريداً فلا شك فى طردهم إياى وأحرم إلى الأبد حبيبتى بيسى

وبينما كنت أمشى فى الطريق رأيت فرقة من الجيش أمامها موسيقاها وحولها طائفة من أقذر الانكليز . وكان بعض الجمهور يرمى الجنود بالأحجار فدهشت لهذا المنظر وتوقعت أن يكون من بوادر الثورة . ثم سألت أحد الواقفين لمشاهدة المنظر فأخبرنى بأن هذا الجيش ذاهب ليلقى القبض على رجل سائر اسمه السيد فرنسيس برودت ، عضو البرلمان الانكليزى

فقلت مندهشاً : « أمن أجل القبض على رجل واحد تذهب كل هذه القوة ؟ كيف إذن لو أردتم الاستيلاء على مدينة ؟

ثم شعرت بأن هذه الحكومة ضعيفة جداً وبأنه قد لا تمضى إلا أيام قلائل ثم يقلب فيها نظام الحكم

ولما كان الخطاب الذى ورد أخيراً من الشاه يحث على إطلاعه على كل شىء مما نراه فقد وجدت من واجبى أن أعود إلى السفير وأخبره بما رأيت لأنه لا شىء أهم من وجود ثورة فى البلاد، وإذا نحن لم نطلعه على ذلك فملام نطلعه ؟

وخاطرت بأن يضربنى السفير مرة أخرى وعدت إلى دار السفارة راجياً أن يشغله هذا الخبر الجديد عن التفكير فيما جرى بينه وبينى

ولما وصلت إليها كان السفير غائباً ولم أر اهتماماً من زملائى بحادثة الضرب ، لأن ضرب الموظفين أمر عادى مألوف عندنا نحن الفارسيين ؛ وتكلمت معهم فى شأن ما رأيت فتنهدوا ودعوا الله أن يجعل هذه الثورة سبباً فى عودتنا إلى إيران

وقال محمد بك : إن الحالة التى رأيتها دالة بغير شك على قرب حدوث حرب أهلية

وقال لى إن السفير ذهب، وكان محمد بك يترقب مثلى عودته بصبر نافد لنعد المعدات للعودة إلى بلادنا وقال : « لابد أن تكون الساعة التى سافرنا فيها من أزمير ساعة شؤم . ولو أننا كنا انتظرنا أسبوعاً آخر لما حدثت هذه الثورة . لكن المترجم الملعون خدعنا وأعجلنا ليكون سفرنا مشئوماً وجازف بكل قانون سماوى وأرضى فحملنا على السفر فى غير الساعة الميمونة ! إنها ثورة من الكفار ضد الكفار ولكنها قد تودى بحياتنا فما الذى نفعله يا حاجى بابا ؟

حاولت أن أعزّيه باقناعه أن الخطر قد يكون

أقل مما يتوهم لأن ملك الانكلز قوى وعنده أساطيل ومدافع ولابد أن يتغلب على الثورة ويقتل هذا الثائر وأهله وأصحابه وأبناءه

فهتف جميع أعضاء السفارة: «إن شاء الله!»

الفصل التاسع والثلاثون

الصلح مع السفير

ولما عاد السفير توسط محمد بك بيني وبينه فقال كلمات لينة ليسترضيه وقال إنني عدت بأخبار هامة

وعندما دخلت رأيت علامات الغضب التي كانت بادية عليه في الصباح قد زالت ونظر إليّ نظرة عادية وقال: «ما الذي تريد يا حاجي بابا؟»

قلت: «لدى أخبار هامة ياسعادة السفير فإن الثورة قريبة. وقد رأيت بنفسي الجيوش تتأهب للسير ولا يعلم غير الله ماذا سيكون من نتائج هذه الثورة؟»

فقال: «أهذا هو كل ما عندك؟ بارك الله فيك ياسمو الأمير! هل تظن أن هذه دولة مثل دولتنا؟ هل تقيس الانكليز بأنفسنا؟ ألا تعلم أن حكومتهم ستطفئ الثورة كما يطفئ أحدنا الشمعة؟»

فتدخل محمد بك لمصلحتي وقال إن الثورة ثورة على كل حال، وإن رأس الانسان قد تطير بضربة سيف من كافر ثائر كما قد تطير بضربة سيف من ثائر مسلم

قال السفير: «اذهبوا إذن واطمئنوا فلن يصيبنا شيء مهما يكن حظ الانكليز من هذه الثورة. وقد تحادثت طويلا مع وزير خارجيتهم فقال لى إن

الحركة التي ظهرت اليوم لا تستدعي اهتماماً

قال محمد بك : « ولكننا ياسعادة السفير جئنا إلى هذه البلاد لنعقد معاهدات واتفاقيات ؛ فاذا كان مركز الملك مزعزعاً فإن الملك الذي يخلفه قد لا يصادق عليها ، ولذلك أرى أن نستوثق من حالة الحكومة ولا نتفق على أي شيء معها إلا إذا ثبت استقرارها »

فقال السفير : «أصبت يامحمد بك فأين المترجم ؟ متى جاء فاسألوه عن كل شيء ترون السؤال عنه . واكتبوا كل كلة يقولها ثم نبعث للشاه بتقرير عن حالة البلاد . وقلت : إنه من الضروري أن نتحرى كل التحري لأنه فضلا عن الثورة فقد علمت أن حكومة انكلترا مدينة بدين كبير وهذا يدل على أن حالتها مزعزعة وعمرها قصير

هنا التفت السفير وبدا عليه الاهتمام الشديد وصاح : « أصحيح أنها مدينة ؟ هل أنت واثق مما تقول ؟ إنني لا أتصور لماذا تستدين ؟ أليس في استطاعة الملك أن يأخذ من رعاياه كل ما يشاء ؟ تحروا عن هذه النقطة فهي أهم عندي من الثورة بكثير . وقد اشتدت دهشة السفير حتى نسي كل شيء غير هذا الموضوع

وعند ما جاء المترجم انصب على رأسه وابل من الأسئلة ، وكان مما قاله السفير : «بالله أخبرني كيف تجري الأمور في بلادكم ؟ فان كل يوم يمر يزيدني حيرة في فهمكم ، هل ثار عظماؤكم ؟ وهل جنت الحكومة حتى تعجز عن الوسيلة المؤدية لاطفاء الثورة ؟ هل صحيح أن الجيش تحرك بمدافعه ومعداته لاعتقال رجل واحد ؟ وهل صحيح أن دولتكم مدينة ؟ بالله أخبرني فان الشاه يقطع رأسي إذا لم أخبره بكل التفاصيل عن هذه الحالة .

فبدل أن يبدو الانزعاج على وجه المترجم رأيناه يضحك كأنه لا يعنيه أن تصاب بلاده بالخراب وقال : « نعم لقد كانت هذه الجيوش ذاهبة للقبض على رجل ثائر ، ولكن الثورات عندنا غيرها في فارس ، فهناك رجل يثور فتثور معه قبيلته والقبيلة المحالفة وتنتهز القبائل الأخرى المتذمرة هذه الفرصة فتحالف الثوار . والحال هنا ليست كذلك»

فقاطعه السفير قائلاً : « إنني أفهم هذه النقطة ولكن حدثني عما هو أهم . حدثني كيف استدنتم ؟ وماهو مقدار دينكم وما معنى استدانة الحكومات ؟»

فازدادت دهشة المترجم وقال : « ما رأيكم أنتم في الديون ؟ »

قال السفير : « هي فضيحة وإفلاس » فقال المترجم : «ولكن إذا وفينا ديوننا دفعة واحدة فاننا نعتبر ذلك نكبة وطنية، ودولتنا لا تتأخر عن الاستدانة الآن لأنها تستغل أموالها في متاجر تكسب منها أضعاف الربا المستحق على الدين ، ولسنا ندفن أموالنا تحت الأرض كما يفعل الفارسيون

قال السفير : « إذن فما هو مقدار دينكم ؟ »

فقال المترجم : « ألف ومائتا مليون جنيه »

فصاح السفير الله الله ! هل تحسب أننا نصدق هذا الكذب ؟ إن هذا مستحيل ، ولسنا من البهائم حتى نصدق ذلك »

قال المترجم : « ولكن هذه هي الحقيقة »

فقال السفير : « إن ثروة نادر شاه وكنوز

مدينة دلهى وأموال الشاه الحاضر مضافاً إليها ثروة « خونخور » لاتكفى لسداد نصف هذا الدين. إننا قد نصدق أن دولتكم مدينة فى مائة ألف جنيه أو نحو ذلك، ولكن ألفاً ومائة مليون مقدار لا يمكن تصوره . إنكم لن تستطيعوا وفاءه الا إذا ملكتم جميع العالم وجعلتم كل موارده وقفاً على الدائنين » ثم أخذ يردد : « ألف ومائتا مليون ؟ إن فتاح على خان أكبر شعرائنا لا يستطيع أن يختلق أكذوبة أروع من هذه »

قلت : « إننا لانستطيع أن نبلغ الشاه مثل هذه الأكذوبة والإفك لا يعود إلى تصديقنا . لقد قلنا له من قبل ما هو أشبه بالصدق من هذا ولكنه لم يستطع تصديقه » وقال السفير : « لقد أصبت يا حاجى بابا ويجب ألا نكتب شيئاً عن ذلك إليه . ولا بد أن يكون اشتهرنا فى فارس بأننا كذابون لما كتبناه عن الأسطول وعما شاهدنا منذ جئنا إلى هذه البلاد . وإن رؤوسنا لأعز علينا من هذه البلاد ومن كل من فيها

الفصل الاربعون

فى مصنع انكليزى

ولما رأى المترجم أننا نخشى زوال ملك الانكليز جعل همه أن يرى السفير المصانع الكبرى . وقد رافقنا السفير فى بعض هذه الزيارات .

توسط المترجم في دعوتنا دعوة رسمية لمشاهدة مصنع فى مرفأ . وأقيمت لنا حفلة فى هذا المرفأ وكنت قد نسيت أسرة هوج منذ ضربنى السفير من أجلها فلما استصحبنى فى هذه الزيارة اعتبرت ذلك علامة على الرضى وعدت إلى التفكير فى هذه الأسرة . وفى استثمار حبى

ذهبنا إلى المصنع وهو قصر فى جبهة «والوش» فرأينا مالم يكن يخطر لنا ببال، ورأينا الحديد يصهرونه حتى يصير سائلاً مثل الماء ثم يأخذونه ويصبونه فى قوالب فيصير بعضه مدافع والبعض مسامير والبعض قنابل والبعض على شكل الكرة . ورأينا المدافع التى فى هذا المصنع لو صفت أحدها أمام الآخر لوصلت ما بين طهران وبين تبريز

قال السفير عند رؤيتها : « الله الله ! أبعد هذا تقولون إن دولتكم مدينة؟ ما الذى يحملكم على ذلة الدين ؟ اضربوا دائنيكم ببعض هذه المدافع فيصبحوا فى القرار السحيق من جهنم ! كيف تكون دولتكم مدينة و كيف يقولون إنها على وشك الدمار؟ كلا كلا! لا بد من توثيق العلاقات بين انكلترا وبين فارس فان التركمان لا يعودون إلى التمرد علينا متى علموا أننا حلفاء دولة فيها عشرة آلاف مدفع وعشر ملايين قنبلة »

وقد دهشنا أيما دهشة لما سمعناه من البيانات والتفاصيل، واتفقنا على ألا نكتب عن هذا الأمر أيضاً إلى الشاه لأنه من المستحيلات أن يصدق مثل هذا

وكان من بين الضباط الذين رأيناهم فى المصنع شاب صغير لازمنى . ورأيت زيادة اهتمامه بأمرى ثم تبينت سبب ذلك عند ما عرفنى بنفسه فقال إنه من أسرة هوج . وعلمت منه أن أسرته مدعوة إلى حضور الوليمة التى ستقام لنا فى هذا القصر بعد الفراغ

من مشاهدة المصنع . فاستولى عليّ القلق لأنه لا بد أن يخجلني السفير أمامهم فيفهمهم أني لست أميراً . ولذلك احتلت للأمر فقلت للسفير باللغة الفارسية : « إذا أردت أن تحرق قبور الذين يلقبونني أميراً فهذه فرصة سانحة لأن الضابط الذي تراه الآن واحد منهم »

ضحك السفير وقال لي برفق : «ما هذه الكلمات ياحاجي بابا ؟ لقد فات ما فات » فقلت : « ان هؤلاء القوم لايفهمون أحوالنا وعاداتنا وهم يحسبون أنني عظيم مع أني كما تعلم ابن كربلائي حسن حلاق اصفهان»

قال السفير : «لقد قلت فات ما فات فلا تفكر في شيء مضي »

ثم دعينا إلى الوليمة فوجدت بها أصدقائي من أسرة هوج ، وأقبلت الأم ووراءها فتياتها وسلمن عليّ فقدمتهن للسفير وأنا أرجو همساً ألا يفضحني أمامهن ، فضحك السفير وقال باللغة الإنكليزية لزوجة المستر هوج : « إن سمو الأمير حاجي بابا قد امتدحكم كثيراً أمامي وهو رجل عظيم في بلادنا وهو يحبكم حبًّا مفرطاً »

ولقد كان السفير يريد أن يضحك على ذقنها وذقني بهذه الكلمات ؛ ولكنها اعتقدت صدق ما يقول واعتبرته جدًّا وأحنت رأسها أمامي عدة مرات ، ويظهر أنها فقدت قدرتها على الكلام فلم يمد في وسعها إلا أن تكرر : « سعادتك ... ! سموه ... ! من حسن الحظ ... ! »

وفي وسط هذه الحالة لاحظت أن السفير بهر بجمال الفتيات خصوصاً بيسى ، فقال لزوجة المستر هوج : إن سمو الأمير حسن الذوق ! ما شاء الله ! إنكم في نهاية الجمال وإن الفارسيين مولعون بالجمال فقالت : « هذه رقة من سعادتك وإن بيسى جميلة وماري محبة للخير » . فقال السفير : « بارك الله فيكم ! » . ثم رأى فتيات أخريات فقال لي بالفارسية : سأتركك لأصحابك وأذهب لأصحابي

ولقد شعرت في هذا الحين بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل لأن السفير أقرني على أكذوبتي أمامهن . وهنأت نفسي بحسن السياسة التي اتبعتها لأنها جعلت موقفي الحرج من أحسن المواقف ، وأهديت بيسى برتقالة وتنهدت وجعلت طرف معطفي يلمس طرف فستانها ، وهذه عندنا في فارس علامة على الحب ؛ ولكنني لا أعرف على أي شيء تدل عند الانكليز لأني أجهل الحب الانكليزي ، وعزمت على أن أتلقى هذا النوع من الحب على أحد الشبان المجربين ، على ألا أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل قبل أن أدرس الطريق

ونظرت إلى السفير والفتيات والسيدات المحيطات به ، فوجدته أمهر مني في فن الحب الانكليزي لأن عينيه كانتا تتحدثان بما تفهمه الفتيات ، فتعلو وجوههن حمرة الخجل . وما أشد وضاءة الوجوه التي تعلوها هذه الحمرة ! لقد قلت في نفسي إنه متى جاء اليوم الذي أتمكن فيه من إخجال حبيبتي بيسى فانني في غده أصبح زوجاً لها . ولقد شاهدت الشبان الإنكليز يخجلون فتضيء وجوههم أيضاً فقلت : « من لي بأن أصبح مثلهم ! إنني

سأحلق ذقني لأنه من المستحيلات أن يضيء الوجه وفيه هذه اللحية الملونة ! »

جلسنا حول المائدة وتبسط السفير كل التبسط مع الفتيات وأهمل السيدات كل الإهمال ، وبدت منه ضروب مختلفة من الحب الانكليزي ، فمن ذلك أنه كان ينحني ليلتقط القفاز الذي يرميه عن عمد أمام إحدى الفتيات . ولقد تجاوز استياء السيدات حد الاحساس فتكلمن به

قالت إحداهن : « هذا تصرف عجيب ! »

وقالت أخرى : « هذا يدل إلقاء المنديل عند الفارسيين »

وعلى أثر التحدث بهذه الكلمات قال لي أحد الضباط : « هل من علامات الغزل عندكم أن يقذف الرجل بمنديله في وجه فتاة ؟ »

فقلت : « هذا غير صحيح ، فاننا لا نستعمل المناديل كما تستعملونها أنتم ، بل نمسح فيها أيدينا بعد الأكل ولنغلي فيها الأرز عند السفر »

فاعتذر لي الضابط من سؤاله ، ولكن دهشته زادت ، وشكرني على هذه المعلومات وتحدث بها مع جاره

ولما قام السفير شعرت الفتاة التي كان يغازلها بأنها انتشلت من هاوية ، وقد كانت أمها تشعر في أثناء المنازلة بأنها في السماء السابعة

وعدت إلى دار السفارة وأنا أفكر في الوسائل الجدية المؤدية إلى نجاحي في الحب

الفصل الحادي والأربعون

حاجي بابا يتعلم فن الحب

لما استيقظت في اليوم التالي وقفت أمام المرآة فرأيت شعرات بيضاء فقلت في نفسي : « يستحيل أن أبقى هكذا في حالة شك ، ولابد من اتباع طريق حاسم في حبي فإن الشعر الأبيض قد ظهر ، وإذا تأخرت قليلاً استحال أن تقبلني إحدى فتيات الكفار ولو كنت علي بن أبي طالب . وتذكرت الحديث الذي دار للمرة الأولى بيني وبين الفتيات وأمهن فانبعث في نفسي بريق من الأمل وقلت في نفسي : متى أصبح في جيبي المهر الكبير الذي ستدفعه بيسي أو إحدى أخواتها فانه لن يصير في وسع رجل فارسي مهما كانت منزلته أن يعيرني بأن أبي حلاق

ثم تناولت ديوان حافظ الشيرازي لأرى استخارة فيه أعرف منها بختي ، فوجدت بيتاً معناه : « اقتطف الوردة التي أعجبتك ، ولكن احذر أن تجرح الأشواك أصابعك » فقلت : « هذا فأل حسن وسأقتطف هذه الوردة . أما الشوك الذي يحذرني منه فاني لا أخشاه ، لأني كنت منذ نشأت معرضاً أصابعي له ، ومهما تكن المتاعب التي سأعانيها بسبب هذه الفتاة فانها لا تكاد تذكر بالقياس إلى ما عانيته من المتاعب في مختلف الشئون

بقيت طريقة المرض وهي أصعب الطرق هنا ، لأننا نحن الفارسيين نرسل خاطبة عجوزاً تستطيع التأثير على الفتاة ، وإذا ردت الخاطبة فان الشاب لا يتحمل خجلة الرد في وجهه . وأخذت أسائل

نفسي هل أقدم لها الهدايا أم لم يحن بعد وقتها ؟ وهل أسأل المترجم عن عوائد هذه البلاد في مسألة الزواج أم لا أسأله ؟ وقد استقر بي الرأي على ألا أخاطبه في هـذا الشأن حتى لا يرتاب في أني أريد الفرار ببعض بنات جنسه

وبعـد تردد طويل قلت في نفسي إن عوائد الزواج لابد أن تـكون مشتركة بين كافة الطبقات من جنس واحد ودين واحد . وبوابنا الانكليزى رجل بسيط ساذج ويمكنني أن أعرف منه ما أردت دون أن أستثير ظنونه . وكان هـذا البواب قد تزوج حديثاً واعتاد أعضاء السفارة أن يسخروا منه، ووجدت منه عطفاً ومودة بعد أن ضربني السفير ، فذهبت إليه وسألته هل هو مسرور بعد زواجه . ثم أخذت أسأله عدة أسئلة فقص عليّ تاريخاً طويلا بعضه مفهوم والبعض غير مفهوم ، ولـكن النقطة التي أريد معرفتها جاءت واضحة في جوابه

قال إنه طلب يد خطيبته في يوم ممطر ، والقصة أنه زارها وخرج معها وأبويها ، فلما أمطرت الدنيا وقف هو وخطيبته تحت شرفة ووقف أبواها تحت شرفة أخرى، فاجترأ وقال لها إنه يحبها ويريد التزوج منها فوافقته في الحال

قال : « وما كنت أتشجع على هذا الطلب لولا تلك الظروف » فقلت في نفسي هذه أحسن طريقة للخطبة . وإن شاء الله ستتهيأ لي مثل هذه المصادفة وأكون ماشياً مع حبيبتي يبسى ويكون أبواها وراءنا فتمطر الدنيا وأقف تحت شرفة ثم أقول لها أريد أن أتزوج منك فتوافق

سررت جداً من هذه المعلومات وأدركت أن جميع الانكليز يتزوجون في الشتاء تحت الشرفة

وفي يوم من الأيام أمطرت الدنيا فانتهزت هذه الفرصة وهرولت إلى منزل المستر هوج فاستقبلتني على الباب زوجته وبناته الثلاث ، وفيهن حبيبتي يبسى . والغريب في أمر الانكليز أن الشـتاء لايعوقهم عن نزهتهم اليومية لأن الدنيا تكاد تشتو عندهم كل يوم . وقد رحبن بي وسررن من مجيئي على غير انتظار . ودعونني إلى مرافقتهن في التنزه . وبعد قليل جاء المستر هوج فوضع ذراعه في ذراع زوجته ووضعت ذراعي في ذراع يبسى وسبقتهما . ومشت ماري وصغرى أخواتها وراء أبويهما، وكانت معي المظلة التي اشتريتها لهذا الغرض

سألت الأم : « إلى أين نذهب ؟ »

فقالت : « لسنا نريد الذهاب إلى مكان معين فامض حيث شئت ونحن نتبعك وهكذا عادة الانكليز إذا خرجوا للتنزه تسكعوا في الطرقات لا إلى مكان معين ! »

فقلت لها : « هل نذهب إلى الـكنيسة ؟ » فابتسمت وقالت : « إن الـكنائس لاتفتح إلا في يوم الأحد » فاستغربت جداً وقلت : « إن المساجد عندنا تفتح كل يوم ليصلي فيها الانسان عندما يريد »

ثم مشيت واشتد المطر فوقفت مع يبسى تحت الشرفة وقلت في نفسي : « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم هممت بأن أقول لها إني أريد الزواج منها ولكن الأم أتت على غير انتظار وقالت : إن الوقوف هنا غير مناسب لأن تيار الهواء شديد في هذه الجهة .

فتابعنا السير عائدين إلى المنزل

وفى هـذه الأثناء وقفنا تحت شرفة أخرى ووقف الأبوان وبنتاهما بالقرب منا تحت شرفة أيضاً واستمعت وسميت وقلت لها : « يا بينائى الجميلة، أريد أن أتزوج منك» فقالت بحدة : « ماذا ؟» ثم امتقع لونها وسحبت يدها برفق من يدى ولم تقل كلمة أخرى

وتقدمت نحو أمها فشيت إلى جنبهما وأنا فى نهاية الخزى وقد سمعتهما تتكلمان ولكن رأسى كانت مصابة بالدوار، فلم أفهم مادار بينهما من الحديث

وقد كان سيرنا فى الرحلة الباقية من الطريق سريعاً جداً. ولما وصلنا إلى الباب لم أنتظر أن يدعونى أحد للدخول بل استأذنت وأسرعت إلى دار السفارة وأنا أعزى نفسى عن حبيبتى بيسى بقولى إنها ليست إلا امرأة كسائر النساء

الفصل الثانى والأربعون

شرفاء حاجى بابا

بسبب جهلى عوائد الفرنجستان لم أستطع الوثوق بما كنت أرجوه من التزوج بالفتاة، فلم أفش ذلك السر ولم آمل ولم أيأس وإنما استسلمت للتفكير . وفى اليوم التالى لتلك النزهة طلبنى السفير فذهبت إليه ونفسى تحدثنى بالشر فقال عند ما رآنى : « تعال هنا يا رجل ! ألا تريد أن تترك الناس وشأنهم ؟ لقد أسأت إلى سمعتنا فى هذه المدينة »

قلت : معاذالله ! لماذا ؟ فقال: « نعم لقد أسأت إلى سمعتنا فأنت لم تكتف بادعائك أنك أمير بل حدثتك نفسك بأن تتزوج من كل فتاة تصادفها فى الطريق ولو كانت نصرانية ، فقل لى كيف ذلك ؟

قلت : « إننا الآن فى دولة كل شئونها غريب ، فمن الذى يتهمنى بأنى أريد أن أتزوج؟ ومن أناحتى

أم بالزواج فى هذه البلاد ؟ لقد رأيت في بلادى من الزوجات والأصهار ما فيه الكفاية ولن أجرب حظى مرة أخرى » فقال لى السفير : « ألا تخجل من الكذب أيها الرجل ؟ لقد جاءنى اليوم رجل يسأل عنك وقال لى إنك تخطب ابنته »

قلت : « بالله يا سعادة السفير من هو هذا الرجل وما ذا قال ؟ » فأجابنى السفير : « لقد سألنى هل أنت من أسرة طيبة ؟ وهل أنت أمير ؟ وهل لقبك ورائى ؟ وهل لك ممتلكات وما هو إيرادك ؟ »

قلت : « وبالله ما ذا كان جوابك ؟ »

فقال : « بما ذا أجيبه ؟ لقد قلت له إنك لست أميراً وإنك ابن حلاق وإن كل ما ورثته عنه هو موسى وفرشاة. ما ذا كنت تريد أن أقول غير ذلك ؟ »

قلت : « وهل هذا الرجل طويل أو قصير ، وسمين أم نحيل ؟ » فقال : « هو رجل سمين جداً هرم اسمه المستر هوج »

فوقفت أمامه مبهوتاً كأننى صنم وغضبت على نفسى وعلى العالم بأسره

قال السفير : « ما هذه الفضيحة التى جلبتها على نفسك يا حاجى بابا ؟ لقد أردت أن تعظم من قدر نفسك فما ازددت إلا حقارة . قل لى ما الذى فعلت ؟ ما الذى حدث ؟ » . فقلت : « والله بالله لم يحدث شىء يستحق الذكر ولقد فات ما فات »

قال السفير بلهجة بين الجد والسخرية : « تكلم يا حاجى بابا ! تكلم ! ماذا أصابك وأنت غريب فى هذه البلاد ؟ . أخبرنى ماذا قلت عن نفسك ولماذا ادعيت أنك أمير ؟ » . قلت : « لقد أقسمت أننى لم أدع الإمارة ، ويظهر أن أهل هذه البلاد يصفون كل إنسان بأنه أمير »

غضب السفير وقال : « هل تجيبنى بالحق أم أستجوبك رسمياً . إننى أقسم بذقن الشاه إذا لم تخبرنى بالحقيقة فانى أربطك بالحبال وأتركك مقيداً حتى تعترف »

فقلت : « إن قصتى بسيطة وهى أننى رأيت بنت هذا الرجل ، وإذا أذنت بأن أكون صريحاً فإنى أعترف بأنى أحببتها وطلبت إليها أن تتزوج منى ؟ وأقسم بالخبز والملح الذى أكلته عند الشاه، وبالأئمة الاثنى عشر أن هذه هى الحقيقة »

وفى هذا الحين دخل محمد بك فأعاد السفير أمامه هذه القصة وأشركه فى السخرية منى والاستهزاء بى فقال محمد بك : « لقد أخطأت يا حاجى بابا وأصاب السفير فى قوله إنك أسأت إلى سمعتنا فى هذه البلاد ونحن لسنا فى فارس حتى تستطيع الزواج من نصرانية ثم تدعوها إلى دين الاسلام »

فقلت وما يدريك أنها لا تسلم ؟ إن الحب يأتى بالعجائب والغرائب »

قال السفير : « ما هذه الكلمات التى تلقيها جزافاً يا حاجى بابا ؟ ألا تعلم أن مئات الآلاف من أهل هذه البلاد يشتغلون بالتبشير ليحولوا أهل بلادنا إلى المسيحية وفيهم من يؤلف كتب التبشير ومن يترجمها إلى لغتنا ومن يطبعها ومن يوزعها ومن يذهب إلى أقاصى الأرض ليبث تعاليمها، فهل تحسب فتاة من هذا الجنس تغير دينها من أجل سواد عينك ؟ »

قال محمد بك : « وهب أنها أسلمت فكيف تثق

بأنها غيرت اعتقادها ؟ » فقلت : « انني أحني يديها وقدميها وألبسها ملاءة وأضع على وجهها برقعاً فتصير مسلمة »

قال محمد بك : ليعف الله عنا ! يظهر أن حاجي بابا أصيب بالجنون

وقال السفير : « لقد خدعك الشيطان ياحاجي بابا ألم يكف ما وجدته من حب زينب وشكر ليب؟ »

وقال محمد بك : « صدقني ياحاجي بابا : لو نجحت هذه الأمنية فانك تشقى بها طول عمرك . أليس في فارس فتيات يصلحن للزواج ؟ »

قلت : « نعم ولكن ليس عندهن من المال مثل الذي عند الفتيات في هذه البلاد » فصاح السفير : « المال ! هل عند خطيبتك مال ! »

قلت : « نعم » فسألني الرجلان في وقت واحد عن مقداره

قلت : « مائة ألف جنيه » فقال السفير : « والله والله ان هذه صفقة رابحة ياحاجي بابا . في أي شارع تقيم وما رقم منزلها ؟ »

وقال محمد بك وهو يتنهد : « وهل في البلاد فتيات كثيرات يملكن مثل هذا القدر من المال ؟ » فقلت : « إن الجزء الأعظم من فتيات الفرنجستان يملك الأموال الطائلة لأن الآباء هنا يعنون بالبنات مثل عنايتهم بالبنين »

عاد محمد بك إلى تنهده وقال : إن المال أنفس شيء في الحياة. فقال له السفير : « أهكذا أيها المفلس الخاسر تتغير رأيك على عجل لأنك سمعت ذكر النقود؟ هل النقود تجعل النصرانية في حكم بنات الاسلام »

فقال محمد بك : « ولماذا تصير في حكم بنات الاسلام ؟ إن الزواج من النصرانية وهي على دينها جائز في الشرع الاسلامي ، وقد تزوج النبي عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية »

قال السفير : « مرحى لك يا محمد بك ! أنت أكبر العلماء والمفتين . إنني أظنك في غد ستكحل عينيك وتزجج حاجبيك لتوقع في شراكك الفتيات النصرانيات . اطمئن ياحاجي بابا فاذا جاء صهرك مرة أخرى فسأخبره بأنك ابن وزير كبير أصبح الآن في جهنم بحمد الله . فاعرف لي من أين طريق المال ونقتسم ، فلك العروس وأنا أكتفي بالمال »

قال ذلك ثم طردني من حضرته

الفصل الثالث والأربعون

وصية المترجم

لما خرجت من عند السفير وجدت في انتظاري بغرفتي ذلك الضابط الشاب الذي رأيته في مصنع (ولوش) والذي يمت بصلة القرابة لأسرة هوج فصافحته، وبعد أن سألته عن صحته وسألني عن الجو قال إنه آت من قبل المستر هوج وزوجته ليتحدث معي في أمر الزواج الذي طلبته وأكد لي أن الأسرة شاكرة لي تشريفها بهذه العناية . فسررت من كلماته كل السرور وقلت له : « متى كانت الحقيقة كذلك فان بقية الأمر تصبح في نهاية السهولة

ثم تكلم عن اختلاف الجنس والدين وأشار إلى أنه لا بد من إتمام الطقوس في الكنيسة فلم أبد على ذلك أقل اعتراض ، ولكني سألته : ما هي هذه

الطقوس ففهمت أنهم ينادون علىّ فى الكنيسة كما ننادى نحن فى فارس على الخيل التى تباع بالمزاد، ثم أحصل على شهادة خاصة من بعض الأطباء ثم اذهب إلى الكنيسة مع قرينته فأضع فى أصبعها خاتماً من الذهب وإذا تم ذلك لم يبق إلا أن نبتعد عن وجوه الناس مدة شهر كامل ثم نعود زوجين

بعد أن سمعت ذلك حاولت إقناعه بأن الزواج وفق عوائدنا أسهل ، وأكدت له أننى لا أريد أن يعقد الزواج فى مسجد لأن ذلك ليس من عوائدنا بل يتقابل وكيلى ووكيلها مع الشهود فى أى مكان ومتى تم الاتفاق بين الوكيلين يأتى أصحاب الزوج به راكباً جواداً . وقلت له إننى أعدل الشطر الأخير فتأتى العروس راكبة عربة

فلم يظهر على الشاب الرضى عن هذا الاقتراح وقال لى إن أبا الفتاة سيهديها مبلغاً كبيراً من المال وأنه يريد أن يعرف ممتلكاتى وإيرادى . وعند هذا السؤال تذكرت أننى لما تزوجت للمرة الأولى فى فارس من شكرليب كذبت على أهل زوجتى فقلت لهم : إنى أملك كيت وكيت مما لست أملك فى الواقع شيئاً منه . ورأيت نتائج الكذب فى هذا الموضوع سيئة العواقب جداً . ولذلك صممت على عدم التسرع الآن بما قد يكون سيء النتائج فى الغد

وبالرغم من شدة رغبتى فى هذه الزيجة فقدقلت إنه لا بد من التفكير بصفة جدية فيما أجيب به . وقلت: « إننى راغب فى هذه المصاهرة أشد الرغبة ولكن الأمر جدي ولابد فيه من التروى والتفكير فأشار بأنه لا بد من اعتناقى للدين المسيحى، فأريته أنى فهمت الاشارة وأنى لاأعارض فى ذلك ولكنى أطلب مهلة للتفكير

قام لينصرف ولكنه عاد للكلام وكأنه ذكر شيئاً هاماً وقال : « أنت تعرف أن الأب يريد الاطمئنان على مستقبل بنته . ولذلك كان من حقه أن يتحرى بكل وسيلة . وقدأرسل إلى رجل يعرفك فجاءه هذا الخطاب وأنا أطلعك عليه وأرجو إن كانت عندك ملاحظة عليه أن تبديها وسننظر فى ردك نظرة اعتبار وتقدير . وهذا هو الخطاب »

فأخذته منه ولما كانت فيه كلمات كثيرة لا أعرف معناها فقد نسخته لأتفهمه مع البواب الانكليزى فيما بعد . وهذه صورة الخطاب :

إلى المستر الكسندر هوج :

تشرفت بتسلم خطابك الذى تسألنى فيه عما إذا كنت أعرف البرنس حاجى بابا ، وعما إذا كنت أستطيع إخبارك عن إيراده وعما يملكه وعما إذا كانت معلوماتى عن أخلاق الفارسيين وعوائدهم تكفى لتشجيعك على تزويج كريمتك من رجل فارسي

وإنى أشكر لك حسن ظنك . أما عن السؤال الأول فإن حاجى بابا ليس أميراً ولكنه ابن حلاق فى أصفهان . وأما عن السؤال الثانى فانه لا يملك شيئاً غير الثياب التى على جسمه . وأما عن السؤال الثالث فلا أرى لك أن تزوج كريمتك من رجل فارسى، وقد أكون مخطئاً ، ولكنك على كل حال تسألنى عن رأيى . فالمرأة فى فارس ليس لها أى حق معترف به [1] ولا تسلم فى يوم من الأيام من

(١) ليذكر القارىء أن هذه الرواية كتبت منذ مائة عام

آلام الغيرة والغضب والانتقام التي يصب الزوج جامها على رأسها. وإن الخلق الأساسي في بلاد الشرق إنما هو الاستبداد. ويمتاز حاجي بابا نفسه عن أكثر جنسه بسعة الصدر ودماثة الخلق وسرعة الفهم ولكنه فقير مسرف . والفقر أساس كل رذيلة إن كان مصحوباً بالاسراف . وإن كثيراً من الرذائل التي تقدم ذكرها موجود هنا بين بعض الانكليز كما هو موجود في فارس ، ولكن الأمر نسبي

ومع ذلك فقد أعربت عن رأيي والرأي لك

مترجم السفارة الفارسية

وبعد أن نسخت صورة الخطاب دفعته إليه فاستأذن وانصرف . وذهبت إلى البواب الانكليزي فقرأت معه الخطاب وأفهمني معناه حرفاً فحرفاً فغضبت وكتبت هذا الخطاب باللغة الانكليزية إلى المستر هوج:

صديقي العزيز

أقسم بشرفي أن مترجم السفارة رجل سيء . لماذا يكتب خطابا كله أكاذيب ؟ لقد قال إني ابن حلاق رلقد كنت كذلك في وقت من الأوقات ولكنني الآن ميرزا ... لماذا يكذب إذن ؟ يقول إنني لا أملك غير ثيابي ... ما شاء الله ! إن الشاه غني وأنا من أتباع الشاه وهذا يكفي . . . ما الذي يريده المترجم غير ذلك ؟ لقد كذب على الفارسيين وشتم نساءهم فأين رأى امرأة فارسية حتى يحكم عليها ؟ إن نساءنا محتجبات وهو يشتم كل الرجال الفارسيين ولكن هذه أكذوبة أخرى

سلامي إليك وإلى أهل منزلك

حاجي بابا

وبعد أن أرسلت هذا الخطاب إلى المستر هوج شعرت براحة الضمير وعزمت على إقناع السفير بأنه إن كانت سمعة الفارسيين قد ساءت في هذه البلاد الأجنبية فإن ذلك ليس نتيجة لغلطتي بل هو نتيجة لتشهير المترجم

وقد اقتنع السفير بذلك فيما بعد وعاتب المترجم ولكن هذا اللعين كان في كل يوم يختلق عذراً جديداً عن كتابة هذا الخطاب

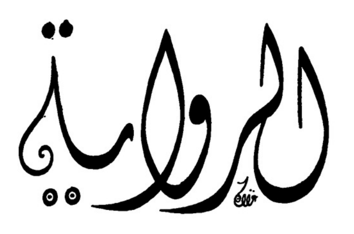
(يتبع) عبد اللطيف النشار

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ }

FIN

DU

DOCUMENT



مجلة اسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

1938
Volume 1